المملكـة العربيـة السعوديـة
وزارة التعليم العـالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي



سلسلة الرسائل الجامعية
(٤٩)

تميز الأمة الإسلامية

مع دراسة
نقدية لموقف المستشرقين منه

إعداد
د. إسحاق بن عبدالله السعدي

١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

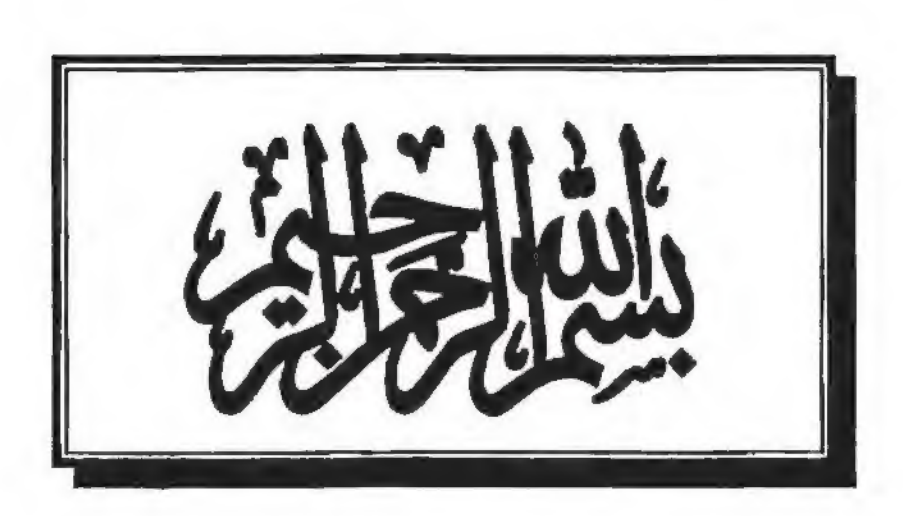
السعدي، إسحاق بن عبد الله
تميز الأمة الإسلامية: مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين منه/ إسحاق بن عبد الله السعدي - الرياض ١٤٢٦هـ
٢ مج - سلسلة الرسائل الجامعية؛ ٤٩

ردمك:

(مجموعة)	9960-04-559-5
(ج١)	9960-04-560-5
(ج٢)	9960-04-561-7

١. الإسلام - دفع مطاعن
٢. الأمة الإسلامية
٣. الاستشراق والمستشرقون
أ. العنوان
ب. السلسلة

ديوي: ٢١٠
رقم الإيداع: ١٤٢٦/٢١٤٦


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

تقديم لمعالي مدير الجامعة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن جامعة الإمام تهتم بنشر الرسائل العلمية في شتى مجالات العلم؛ إدراكاً لقيمتها في مجال البحث والمعرفة، ورغبة في إفادة الدارسين والباحثين وطلبة العلم من تلك الرسائل.

وتأتي أهمية البحث في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، لتأصيله أولاً في ضوء الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة وما درج عليه المسلمون في قديم تاريخهم وحديثه، ولنقد موقف المستشرقين منه، حيث إنهم من طلائع الحضارة الغربية وفكرها، وهو فكر يختلف في موقفه عن الفكر الإنساني عامة عن فكر الأمة الإسلامية الذي اتسم «بموقفه الإنساني السمح من مجمل الفكر الإنساني، على تباين صوره وأشكاله، سماحة لم يتسع لها صدر غيره من دوائر الفكر والحضارة في تاريخ البشر».

وهذا ما يقر به المنصفون من المستشرقين وغيرهم من مفكري الغرب ومؤرخيه، على حين أن موقف الفكر الغربي والفكر الاستشراقي - في جملته- جزء منه ينطلق من نظرية «عبء الرجل الأبيض، في حمل رسالة العلم والمعرفة إلى الآخرين، وأن الغرب هو مركز الاستقطاب الفكري للإنسانية... فهو من صنع ما اصطلحوا عليه (بالمعجزة اليونانية

الخالدة) .. [وهو الذي قدَّم من وجهة نظرهم] تفسيراً متناسقاً رائع التوازن للإنسان والكون والحياة».

وقد رحبت الجامعة بنشر رسالة الدكتوراه التي بين أيدينا الموسومة بـ (تميز الأمة الإسلامية مع دراسة نقدية لموقف المستشرقين منه)؛ إسهاما منها في خدمة الثقافة الإسلامية واللغة العربية، وما كان في استطاعة الجامعة الاستمرار في هذه المناشط النافعة لولا عون الله تعالى وتوفيقه، ثم ما تحظى به من رعاية واهتمام ودعم من لدن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز -أيده الله -ومن سمو ولي عهده الأمين، والحكومة الرشيدة.

أسأل الله أن يوفق الجميع لصالح العمل؛ وأن ينفع بهذا الجهد العلمي المبارك، ويجعله خالصا لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه... والحمد لله أولا وآخرا.

د. محمد بن سعد السالم

مقدمة البحث

وتشمل الآتي:

١- بين يدي التميُّز، بوصفة ظاهرة تاريخية وعقدية دينية.

٢- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

٣- الدراسات السابقة فيه.

٤- منهج البحث وخطواته.

٥- خطة البحث.

مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.. أمَّا بعد:

فإنَّ التفضيل والاصطفاء والاختيار والتميز من سنن الله في خلقه؛ قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ

---

(١) سورة القصص: الآية (٦٨). وانظر ما قاله ابن قيم الجوزية في الاختيار هنا: زاد المعاد في هدي خير العباد ٣٩/١، ٤٠، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، الطبعة الخامسة والعشرون ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م عن مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) سورة الحج: الآية (٧٥).

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[3]، وقال الرسول ﷺ: «إنكم وفيتم سبعين أُمَّة أنتم خيرها وأكرمها على الله»[4].

١- بين يدي التَّمَيُّز بصفته ظاهرة تاريخية وعقيدة دينيَّة:

إنَّ سنة التفضيل والاختيار والاصطفاء، سنة ماضية في التاريخ البشري قدراً وشرعاً حدثاً وواقعاً، فقد تفاضلت الأمم في تاريخها الطويل وتمايزت على الرغم من التشابه بين بعضها وبعضها الآخر من وجوه عديدة، ويحفظ التاريخ لكلِّ أمَّة في القديم أو الحديث ذاتية خاصة تميَّزت بها عن سائر الأمم الأخرى.

وإذا كان تَمَيُّز الأمم يرتكز على المواهب والقدرات الذَّاتية في المقام الأول، فإنَّ هناك جوانب أخرى للتميُّز المكتسب بعضها شرعي وبعضها الآخر وضعي من صنع البشر قد يرتكز على حقائق أو يكون من قبيل الادعاء والغرور[5].

---

(١) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٢٤).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٠٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه: ١٤٣٣/٢، كتاب الزهد حديث رقم (٤٢٨٨)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، عن المكتبة الإسلامية - تركيا، وانظر استكمال تخريجه: ص ٥٨.

(٥) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل: ١٨/١ - ٢٠، تحقيق: أمير علي المهنا وآخر..، الطبعة=

ولايتسع المجال هنا للإلمام بنماذج عدَّة توضح هذه الجوانب المتنوعة التي ظهرت في تلك الأمم عبر التاريخ؛ بيد أنني أكتفي بذكر التميُّز الشرعي الذي حازته أشهر الأمم الكتابيَّة (اليهود والنصارى) بسبب استقامتها على شرع الله كما هو الشأن في بني إسـرائيل حين وصفهـم الله بقولـه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، وقوله تعالـى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ ﴾[2]، ولكنهم أخفقوا في حمل الرسالة؛ «إذ انكبوا على حطام الدنيا، وأهملوا الآخرة، وزعموا لأنفسهم مبررات كاذبة لاستحلال الأمم، مالاً ودماءً وأعراضًا... وادعوا على الله - عز وجل - دعوى خطيرة بأنه يغفر لهم كل خطيئة، ونحو ذلك مما افتراه أحبار السوء من خلفاء السامري، والذي تجسد في عقائد (التلمود) وأخلاقه، وأضاليله فيما بعد، تلك التي نسوا بها مواثيق (التوراة) الغليظة بألاَّ

=الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، عن دار المعرفة، بيروت، وانظر: أحمد عصام الصفدي: تصنيف المعرفة والعلوم في ضوء خصائص الأُمَّة الإسلامية ص ١٣٧ - ١٤٠، طبعة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، المطابع الأمنية بالمركز العربي للدراسات الأمنية - الرياض، وانظر: جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربيَّة: ١٩/١، ٢٠، طبعة ١٩٨٢ م، عن دار مكتبة الحياة، بيروت.

(١) سورة الجاثية: الآية (١٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٧).

يفتروا على الله عزوجل...»[1]. وقد أشار القرآن الكريم في مواضع كثيرة لهذا التميُّز وانتفائه عنهم وأنهم لازالوا يدعونه سفاهة وغروراً[2].

وأمَّا النصارى فإنَّ الله اختارهم لحمل رسالته من بعد اليهود وبعث فيهم رسوله عيسى عليه السلام وأيَّده بروح القدس يكلم الناس في المهد وكهلا وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وأجرى على يديه من المعجزات والآيات وكفَّ عنه بني إسرائيل وشدَّ أزره بالحواريين الذي آمنوا بالله وبرسوله، ثمَّ طلبوا مائدة من السماء تكون لهم عيداً لأولهم وآخرهم، فاستجاب الله لهم وأنعم عليهم ورزقهم، ولكن سرعان مادَبَّ إليهم داء الأمم من قبلهم فأشركوا بالله وزعموا أن عيسى عليه السلام قال اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، وقد سجلت الآيات (١١٠ حتى ١١٨) من سورة المائدة قصتهم مع التميُّز وما آل إليه.

وعلى نحو مما فعل اليهود فعل النصارى من ادعاء التميُّز والاستعلاء على الآخرين بحجَّة القرب من الله واصطفائه لهم من دون الخلق، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ

---

(١) عبدالستار فتح الله سعيد: معركة الوجود بين القرآن والتلمود: ص ١٠٤، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ، عن مكتبة المنار، الأردن.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٦٢ - ١٧٥.

(٣) سورة المائدة: الآية (١٨).

نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[2].

وقد استفاضت آيات القرآن الكريم في تأكيد انتفاء التميُّز عن اليهود والنصارى بسبب تنكبهم صراط ربهم، وإخفاقهم في حمل رسالته وفق شرعه ومراده؛ من مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا

(١) سورة البقرة: الآية (١١١).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٣٥).

مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[1].

ثمَّ آل حمل الرسالة الإلهيَّة إلى الأُمَّة الإسلاميَّة، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[2] الآية، وجاء عن النبي ﷺ قوله: «**أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتيَ أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس، فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أيْ ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً، ونحن أكثر عملاً، قال الله: هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ ! قالوا: لا. قال: فهو فضلي أوتيه من أشاءُ**»[3].

وفي هذا الحديث ما يدل على تميُّز الأمَّة من نواحٍ عدَّة، منها:

أولاً: كونها حملت الرسالة بعد أن عجز عنها أهل الكتابين من قبلها.

ثانيًا: أنها وُفِّقَتْ في حمل الرسالة وأداء الأمانة.

---

(١) سورة المائدة: الآيتان (١٢ - ١٤).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١/١٣٩، كتاب مواقيت الصلاة، الباب [١٧]، ترتيب: محمد فؤاد عبدالباقي، عن المكتبة الإسلاميَّة، استانبول - تركيا، (بدون تاريخ)، وانظر تخريجه بشكل أوسع في الصفحة (٦٠).

ثالثًا: كونها مُيِّزَتْ من ناحية مضاعفة الأجر بفضل من الله.

رابعًا: ويدل على أنَّ الظرف التاريخي المتبقي من يوم الأمم المشار إليها هو للأُمَّة الإسلامية لفاعليتها الحضاريَّة الخيِّرة ولسيادتها في ظلِّ عبوديتها لله وأدائها لما اشترطه عليها، وهذا ما تأتي لها ردحًا من الزمن؛ فقد سادت بهذا التميُّز، وحققت به أفضل الحضارات التي شهدها تاريخ البشرية.

بيد أنَّ الحضارة الغربية سادت في العصر الراهن وباتت الأُمَّة الإسلاميَّة تواجه تحديًا خطيرًا تحت وطأة هذا الواقع يمس هويَّتها الثقافية، ذلك أن الحضارة الغربية كما «أجمع مؤرخو الحضارة والثقافة الغربية على وحدة واطراد هذه الحضارة، وأنها وليدة تراكم تاريخي وتفاعل ثلاثة عناصر متداخلة تشكل في مجموعها الأصل اليوناني الروماني المشترك لهذه الحضارة؛ هي الفكر اليوناني المتميز بنزعته العلمية وإبداعاته الفنية، والتراث الروماني المعروف بمؤسساته الإداريَّة والسياسيَّة، وأخيرًا الديانة المسيحية التي أعطتها الدفق الروحي»[(١)]، في حين تشكلت الهويَّة الثقافيَّة للأُمَّة الإسلاميَّة على نحوٍ آخر «ارتبط بوثاق قوي ومتين بالعقيدة والرسالة»[(٢)].

إضافة لما تميَّز به العرب – وهم حملة هذه الرسالة في المقام الأول – «من جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد

---

(١) انظر: جرونبام (غوستاف فون): الإسلام الحديث البحث عن الهويَّة الثقافية: ص ٢٤٩، (بالإنجليزية من منشورات جامعة كاليفورنيا ١٩٦٢ م)، نقلاً عن: عرفان عبدالحميد فتَّاح: دراسات في الفكر العربي الإسلامي (أبحاث في علم الكلام والتصوف والاستشراق والحركات الهدَّامة): ص ١٧، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م، عن دار الجيل – بيروت.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٠.

عن الاختلاط بالأمم »[1]، ومن العقيدة والرسالة انبثقت الحضارة الإسلاميَّة «ولزم عن هذا... أن تداخلت قضايا الواقع المادي بأصول الرسالة وتعاليمها.. فالعقيدة والرسالة والحضارة والسلوك والتاريخ.. وحدة جامعة مشتركة في بنيان هذه الأُمَّة في ترابط يعز فصله، ولهذا فقد تحول الواقع.. إلى ساحة اختبار وميدان تجربة؛ لصدق الوفاء بالرسالة منهجًا وسلوكًا وتصرفًا »[2].

والمحك في ذلك بين مضمون الحضارة الغربية والهويَّة الثقافية للأُمَّة الإسلاميَّة أن سيادة الحضارة الغربية وهيمنتها لاتعطي هذه الهويَّة خصوصيتها، وفرضت نوعًا من الاستلاب الحضاري، ونوعًا من التنكر لمنجزات الطرف الآخر ومرتكزاته الثقافية يصل إلى مس الهويَّة الإسلاميَّة بخاصة[3].

وهذا ما عبَّر عنه أحد المفكرين - في صدد نقده للفكر الغربي - بقوله: « فهم الغرب عملية التثاقف وباستمرار في صورة الاستلاب الحضاري INACUALTURATION والتنكر التام لمنجزات الطرف المقابل الحضاريَّة والثقافيَّة، وأرادها أن تتحول دائماً إلى وسيلة للسيطرة والهيمنة والغاء الهويَّة الذاتية المستقلة للأمم والشعوب والحضارات

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلاميَّة: ص ٨٩، الطبعة الأولى، ١٩٧٨ م، عن الشركة التونسية للتوزيع، تونس، وانظر: محمد رشيد رضا: خلاصة السيرة المحمديَّة وحقيقة الدعوة الإسلاميَّة وكليات الدين وحكمه: ص ٥، ٦، ٩، ١٠، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، عن المكتب الإسلامي - بيروت.

(٢) عرفان عبدالحميد: دراسات في الفكر العربي الإسلامي..: ص ٢٠، ٢١، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٢.

The Obliration of Cultural Identity إلى حدود اقتربت في مضامينها ومنحنياتها السلبية إلى الاغتيال الحضاري... للآخرين، وذلك صدورًا عن نظرية عرقية قديمة، جددتها وبشرت بها مدرسة (كرستيان لاش وأرنست رينان) في أواخر القرن الماضي مؤداها: تمايز العقل الأوروبي وسموه.. عن العقل السامي (العربي) الذي هو في زعم أنصار هذه المدرسة، غبي التكوين، معادٍ للعلم والفلسفة »[1].

إنَّ هذه المزاعم التي يثيرها بعض المستشرقين بين الحين والآخر تمس تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وتحاول التقليل من مكانتها، مما يوجب على الأمَّة الإسلاميَّة الوعي بتميُّزها في ضوء ما خصَّها الله به دون سائر الأمم بالملة الحنيفية السمحة، وأن تحافظ على هويتها المنبثقة من ذلك المنهج الرباني الذي حدَّد مسارها في الفكر والتاريخ، وألَّا تنخدع – وتحت أي مسمى – للنزول من قلعة هذا التميُّز فيجري عليها ما جرى على أهل

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٢، وانظر: جوستان لوبون: حضارة العرب: ص ٢١، ٢٢، ترجمة عادل زعيتر، طبعة الحلبي، ١٩٦٩ م، وعن التفريق بين مصطلح التثاقف الذي يعني الحوار الحضاري البناء، وبين الاستلاب الثقافي الذي يعني نسخ الهويَّة... انظر: جرونباوم: المرجع السابق: ص ٢٤٩ ومابعدها، نقلاً عن: عرفان عبدالحميد: المرجع السابق: ص ٢٢ « الحاشية »، وانظر: استيفان فيلد: الثقافة العربيَّة في غاية الأهميَّة بالنسبة للثقافة الأوروبية؛ حيث أشار إلى « المذهب الذي يقول إن أوروبا هي مركز الكون كله وأنَّ الثقافات والحضارات والآداب العالمية ليس لها قيمة تذكر إلاَّ إذا اتفقت اتفاقًا تامًا مع الثقافات والحضارات والآداب الأوروبية، وهو ما يسمى EUROZEUTRISMUS» أشار إلى ذلك – في سياق نقده لهذا المذهب – في مقابلة أجراها معه: محمد أبو الفضل بدران؛ في بون، ونشرت في مجلة الحرس الوطني: ص ١٢٤، عدد رجب ١٤٠٩ هـ – فبراير ١٩٨٩ م، تصدر من رئاسة الحرس الوطني السعودي – الرياض.

الكتاب من قبل، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[1]،

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[2].

ولَمَّا نفى الله التميُّزَ عن اليهود والنصارى أثبته لمن قام بشرطه؛ قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3].

ومن هنا تأتي أهمية البحث في تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منه، لتأصيله أولا في ضوء الكتاب والسنة وفهم سلف الأُمَّة وما درج عليه المسلمون في قديم تاريخهم وحديثه، ولنقد موقف المستشرقين منه؛ حيث إنَّهم من طلائع الحضارة الغربية وفكرها، وهو فكر يختلف في موقفه من الفكر الإنساني عامَّة عن فكر الأُمَّة الإسلاميَّة الذي اتسم «بموقفه الإنساني السمح من مجمل الفكر الإنساني، على تباين صوره وأشكاله، سماحة لم يتسع لها صدر غيره من دوائر الفكر والحضارة في تاريخ البشر »[4].

---

(١) سورة النساء: الآية (١٢٣).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢١٤).

(٣) سورة البقرة: الآية (١١٢).

(٤) عرفان عبدالحميد: دراسات في الفكر العربي الإسلامي...: ص ٢٣، (المرجع السابق نفسه).

وهذا ما يقر به المنصفون من المستشرقين وغيرهم من مفكري الغرب ومؤرخيه، على حين أنَّ موقف الفكر الغربي والفكر الاستشراقي – في جملته – جزءٌ منه ينطلق من نظرية «عبء الرجل الأبيض، في حمل رسالة العلم والمعرفة إلى الآخرين، وأنَّ الغرب هو مركز الاستقطاب الفكري للإنسانية... فهو من صنع ما اصطلحوا عليه (بالمعجزة اليونانية الخالدة).. (وهو الذي قدَّم من وجهة نظرهم) تفسيرًا متناسقًا رائع التوازن للإنسان والكون والحياة»[1].

٢ - أهميَّة الموضوع وأسباب اختياره:

إضافة للأهميَّة المشار إليها آنفًا فإنَّ الله – عز وجل – قد ميَّز الأُمَّة الإسلاميَّة دون سائر الأمم بخصائص ومميزات كثيرة، منها:

١ – بما أورثها من هذه الدين العظيم، وجعل فيها النبي الكريم ومن معه من الصحابة الأبرار، ورفعها لمنزلة الشهادة على الناس، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[3].

إنَّ هذا الاصطفاء الإلهي الكريم قد تمثل في صفوة طبَّقت كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكانت نبراسًا للأجيال وأنموذجًا لتميز الأُمَّة

---

(١) عرفان عبدالحميد...: المرجع السابق نفسه: ص ٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

الإسلاميَّة، قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[1].

وقد نصَّ الرسول ﷺ إبَّان تكوين الدولة الإسلاميَّة على تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة حينما كتب في المعاهدة مع اليهود بأنَّ المسلمين (أُمَّة واحدة من دون الناس)[2]، وبأنَّ اليهود (أُمَّة مع المسلمين)[2].

٢ - إنَّ هذا التميُّز مستمر في أُمَّة محمد ﷺ حتى قيام الساعة لما خصت به من الرسالة الخاتمة، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[3]، (فكانت رسالته تجديدًا لدعوة التوحيد التي بعث بها سائر الأنبياء والمرسلين، وتعديلاً

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٩).

(٢) أبو محمد عبدالملك بن هشام: السيرة النبوية ١٤٣/٢، ١٤٤، علق عليها وخرّج أحاديثها وصنع فهارسها عمر عبدالسلام تدمري، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م عن دار الكتاب العربي - بيروت. وانظر: محمد حميد الله الحيدرآبادي: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة: ص ١، ٢، ٣، ٤، ٥، وقد ذكر طائفة من مصادر الوثيقة في غرة ذكرها، عن مكتبة الثقافة الدينيَّة القاهرة، (بدون تاريخ).

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٤٠).

للشرائع السابقة، وإكمالاً لها، بعد أن ارتقت البشريّة، وتفتحت عقولها، وتهيأت نفوسها لاستقبال الرسالة الخاتمة بكل جوانبها الروحية والاجتماعية، وقد أوضح المصطفى ﷺ أنّ رسالته إكمال لرسالات الأنبياء السابقين...)[١]، فقد ثبت أنه قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة... فأنا موضع اللبنة، جئت فختمت الأنبياء»[٢]، والحديث يبين اكتمال الرسالة الخاتمة ووفاءها بحاجات البشرية، مهما درجت في مراقي التقدم الحضاري ثقافة وصناعة)[٣].

وهذا التميُّز لايزال متمثلاً في الأمَّة الإسلاميَّة، وينبغي أن يستمر، قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٤]، وقال النبي ﷺ: «لايزال من أُمَّتي أُمَّة قائمة بأمر الله مايضرهم من كذَّبهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[٥].

---

(١) أكرم ضياء العُمَري: الرسالة والرسول: ص ٣٧، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٩٠ م، (لم يذكر الناشر).

(٢) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١٧٩١/٤، كتاب الفضائل، الحديث رقم (٢٢٨٧)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، عن المكتبة الإسلاميَّة للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول - تركيا (بدون تاريخ).

(٣) أكرم ضياء العُمَري: الرسالة والرسول: ص ٣٧، ٣٨، (المرجع السابق نفسه).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

(٥) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١٨٩/٨، كتاب التوحيد، باب (٢٩)، ترتيب: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، وورد في مواضع كثيرة لدى البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي، بألفاظ متقاربة.

٣ - إنَّ تميز الأُمَّة.. إنَّما يظهر بشكل جلي كلما التزم المسلمون بالإسلام، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[(١)]، وقال الرسول ﷺ فيما رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض»[(٢)].

كان هذا التميُّز - وما يزال - مستهدفًا من أعداء الأمة.. منذ بداية تكوينها بهديه ﷺ؛ ففي السنة الثانية من الهجرة وعندما تحولت القبلة إلى الكعبة المشرفة أكثر أعداء الدين يتزعمهم اليهود من التنديد بالإسلام إثر هذا التحوُّل لما يدل عليه من تميز المسلمين ليس على صعيد العقيدة فحسب بل وفيما يختص بالعبادة والشعائر كما يعبر عن ذلك أحد المفكرين المسلمين: (ولم يكن بد من تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه كي يتميز هو ويتخصص

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

(٢) أخرجه الحاكم عن أبي هريرة ووافقه الذهبي: المستدرك على الصحيحين: ١٧٢/١، كتاب العلم، الحديث رقم (٣٢/٣١٩)، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م عن دار الكتب العلمية، بيروت.

وانظر: مالك بن أنس: الموطأ، تعليق: محمد فؤاد عبدالباقي ٦٨٦/٢، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م عن دار الحديث - القاهرة، وابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١٨٠/٢عن دار الكتب العلمية - بيروت.

بتصوره ومنهجه واتجاهه.. فهذا التميُّز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد.. ومن هنا كان النهي عن التشبه بمن دون المسلمين في خصائصهم، التي هي تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة كالنهي عن طريقتهم في الشعور والسلوك سواء.. ولم يكن هذا تعصباً، ولاتمسكاً بمجرد الشكليات، وإنَّما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات؛ كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة، وهذه البواعث تفرق قومًا عن قوم، وعقلية عن عقلية، وتصورًا عن تصور، وضميرًا عن ضمير، وخلقًا عن خلق، واتجاهًا في الحياة عن اتجاه)[1].

وليس هذا فحسب بل إنّ تميز الأمة الإسلاميَّة ظل مستهدفاً من أعدائها منذ تكوينها وإلى يومنا هذا، ومن أبرز ما استهدفه أهل الكتاب ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[4].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/١٢٨، الطبعة السابعة، عن دار الشروق، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، بيروت.

(٢) سورة البقرة: الآية (١٠٩).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٢٠).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢١٧).

إنَّ هذا الموقف من أهل الكتاب وغيرهم قد تمثَّل في هذا العصر في كثير من المستشرقين الذين ظهرت على أيديهم حركة تتراءى – في ظاهرها – أنّها حركة علمية تهدف – فيما تهدف إليه – إلى الانطلاق من معرفة الإسلام عن كثب لغاية أُخرى، وهي دس سمومها الفكرية، وإثارة الشكوك والشبهات في عقيدته وشريعته وتاريخه وفي تراثه بعامة؛ لتصرف أهله عنه وليولوا وجوههم شطر الغرب ونحو علومه وثقافته، بعد أنْ ضعفت الشخصية المسلمة وفقد المسلمون بسبب ذلك ما في ذاتيتهم المتميزة من قوة ومنعة؛ وبهذا تكون هذه الحركة الماكرة ماضية بشتى الوسائل لتحقيق غايتها في فرض التبعية على المسلمين.

إن أهمية تميز الأمة الإسلاميَّة يُمكن أن تدرس من ناحيتين مهمتين، هما:

الأولى: تأصيل التميُّز والتدليل عليه من الكتاب والسنة وهدي سلف الأمة الصالح.

الثانية: نقد موقف المستشرقين من هذا التميُّز.

ولاشك أنّ إبراز تميز الأمة الإسلاميَّة بمقوماته وخصائصه وأهدافه ووسائل تحقيقه؛ مما يجدر بحثه والعناية به، ولاسيما في هذا العصر الذي اشتدت فيه وطأة الصراع على الأمة الإسلاميَّة، وبخاصة ما يرى من محاولة الهيمنة العقدية والفكرية عليها، بهدف ترسيخ قيم الغرب، وأخلاقه ومناهجه في الحياة، وكل مايذهب بتميزها ويوهن شخصيتها الفريدة.

ويشهد لهذا الهدف الخطير مقولات كثيرة تعج بها كتابات دهاقين السياسة والفكر في الغرب، منها مقولة (هانوتو)[1]: (لايهمكم هذه الكتلة الشيوعية التي ظهرت فإنها (ستخفق) وتكون أضحوكة بينكم لمخالفة بنائها الفطرة الإنسانية، ولكن لايهمكم إلاّ أمة واحدة شعارها واحد في مشارق الأرض ومغاربها (لا إله إلاّ الله والله أكبر)، وقبلتها واحدة، تتجه إليها من كل مكان؛ ثم تلتقي حول قبلتها (الكعبة) كل عام. هذه الأمة اعملوا على تحطيم عقيدتها من الأساس، وإفسادٍ أخلاق أبنائها، وتحوير أفكارهم حتى تذيبوها في كل مكان، وإلاّ فلاتأمنوا انطلاقتها مهما عملتم من الاحتياطات العسكرية ما لم تهدموا أصل عقيدتهم)[2].

---

(١) هانوتو (١٨٥٣ – ١٩٤٤) كان عضوًا في المجمع اللغوي الفرنسي، ووزيرًا ومؤرخًا. انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ٢٧٠/١، الطبعة الرابعة عن دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ م.

(٢) نقلاً عن: عبدالرحمن الدوسري: صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ٣٨٨/٢، ٣٨٩، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م، عن مكتبة دار الأرقم، الكويت. وانظر: باول شمتز: الإسلام قوة الغد العالمية، ترجمة: محمد شامة، الطبعة الثانية عن مكتبة وهبة، القاهرة (بدون تاريخ)، ويشتمل على مقدمة لمحمد البهي أكد فيها تلخيصات مهمة لغرض الكاتب من هذا الكتاب وأنه نذير للغرب من الأمة الإسلاميَّة ودعوة لها أن تعمل في حزم واتحاد لرد خطر الأمة الإسلاميَّة عنها ووقف نموها، وذلك عن طريق (توهين علاقة المسلمين بإسلامهم وتوجيه حملات تشويهية ضد الإسلام)؛ ص ١٤، وكان مِمَّا ذكره المؤلف عن تميز الأمة الإسلاميَّة قوله: (لايساورني أدنى شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين، وتتماسك أطرافها تماسكًا قويًا، وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام. لاينتظرها مستقبل باهر فحسب، بل ستكون أيضًا خطرًا على أعدائه...)؛=

ويقول (برنارد لويس): (لقد كانت عادتنا التي تعودناها في العالم الغربي هي: كلما اتجه الشرقيون إلينا ازداد تمسكنا بالغرب، لنجعل أنفسنا مثالاً للفضيلة والتقدم، فإذا تشبهوا بنا عددنا ذلك أمرًا حسنًا، وإذا لم يكونوا كذلك عددنا ذلك سوءًا وشرًا. فالتقدم هو في التشبه بنا، أمَّا إذا لم يقتدوا بنا فذلك هو التقهقر والاضمحلال)[1].

ومن ناحية أخرى فإنّ هذا العصر يشهد - في ظل تقارب المسافات، وتطور الأساليب الحضارية - اختلاط الأمم وتفاعلها الفكري والثقافي؛ بيد أن طغيان الحضارة الغربية وثقافتها على العالم المعاصر يقلل التميُّز بين الأمم والشعوب[2] بما يتعارض مع طبيعة الأمة الإسلاميَّة التي يفترض فيها أنْ تكون صاحبة رسالة، قائمة بالحق والخير والمعروف،

=ص١٣، (المرجع السابق نفسه)، وعلى نحو من ذلك قال (لورنس براون) في كتاب له صدر في ١٩٤٤ م: انظر: عمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربيَّة: ص ١٨٤، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦ م، من منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

(١) الغرب والشرق الأوسط: ص ١٨، ١٩، ٢٠، تعريب: نبيل صبحي، الطبعة الأولى١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، عن المختار الإسلامي..، القاهرة، إلاَّ أنه تناول - في سياق حديثه عن الفوقيَّة الغربية - آثار هذه النزعة في ضياع ما أسماه (هويتهم الواحدة)، وانظر: العرب في التاريخ: ص ٢٣٥ - ٢٥٤، تحت عنوان: تأثير الغرب، بيد أنّه ألمح لتميُّز الأمَّة الإسلاميَّة وقوة مقاومة الإسلام، ومع ذلك يرى بأنَّ الغرب قادر على إذابة ذلك التميُّز؛ إذ يقول: (إذ لم يعد الإسلام عقيدة حديثة لينة.. بل هو الآن ديانة عريقة ذات نظم ثابتة. ولكن إذا كان المعدن صلبًا فالمطرقة أشد صلابة) المرجع نفسه، ترجمة نبيه أمين فارس وآخر، عن دار العلم للملايين، ١٩٥٤ م، بيروت.

(٢) انظر: ناصر بن عبدالكريم العقل: دراسة تحليلية قدّم بها كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ١/٤٠، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، (لم يذكر الناشر).

وشاهدة على الأمم.

وعن هذا المعنى عبَّرَ (محمد أسد)[1] بقوله: (إنّ الإسلام بخلاف سائر الأديان... لايُمكن تقريبه من الأوضاع الثقافية المختلفة، بل هو فلك ثقافي مستقل ونظام اجتماعي واضح الحدود. فإذا امتدت مدنيَّة أجنبية بشعاعها إلينا وأحدثت تغييرًا في جهازنا الثقافي - كما هي الحال اليوم - وجب علينا أن نتبين لأنفسنا إذا كان هذا الأثر الأجنبي يجري في اتجاه إمكاناتنا الثقافية أو يعارضها، وما إذا كان يفعل في جسم الثقافة الإسلاميَّة فعل المصل المجدد للقوى أو فعل السم)[2].

إنّ الحضارة الغربية وثقافتها تختلف في معظم مبادئها عن ثقافة الأمة الإسلاميَّة، وقد يصل هذا الاختلاف إلى حد التناقض في المنطلقات والغايات والاتجاهات الفكرية، والمذاهب العقدية؛ ومع ذلك يرادُ لها أن تظهر بمظهر التفوق والعظمة في مُثلها وقيمها على قيم الإسلام ومُثله وإظهار أيّ تمسك بالإسلام بمظهر التخلف والانحطاط، وإلى جانب ذلك إحياء الحضارات المطمورة في تاريخ ما قبل الإسلام.. لمزاحمة الإسلام وإذابة تميز الأمة الإسلاميَّة

---

(١) محمد أسد (١٩٠٠ - ١٩٩٢) كان يهوديًا نمساويًا، ثم أسلم وكان اسمه قبل إسلامه (ليو بولد فايس)، وله مؤلفات في الفكر الإسلامي منها الطريق إلى الإسلام، ومنهاج الحكم في الإسلام، والإسلام على مفترق الطرق. انظر ترجمته لدى العقيقي: المستشرقون ٢/٢٩١ وانظر: مجلة الفيصل عدد (١٨٤) شوال ١٤١٢ هـ ص ١٢٦ - ١٢٧، وفيها خبر وفاته وترجمة له ولمحة عن حياته وأعماله، ونشرت في عددها (١٨٥) في باب (الطريق إلى الله) قصة إسلامه، تصدر عن دار الفيصل الثقافية، الرياض.

(٢) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق: ص ١٨، ترجمة: عمر فروخ عن دار العلم للملايين بيروت، ١٩٨١ م.

واعتزازها بأمجادها التاريخية[1].

ومِمَّا يُؤسف له أنَّه وجد في واقع الأمة الإسلاميَّة تهاون وقابليّة لتلك الأفكار الغازية التي تستهدف عقيدتها وهويتها، وظهر فيها من يرفع عقيرته بأفكار استشراقية، ويمارس أنماطا للحياة غريبة عن ذاتية الأمة الإسلاميَّة ولاتنسجم مع تعاليم دينها وهدي رسولها ﷺ، كما وجدت تلك الانحرافات والسموم طريقها لتصبح ظاهرة بارزة في واقع المسلمين اليوم يخشى مع نموها واتساعها أن تهدد تميز الأمة الإسلاميَّة بحيث تذوب شخصية الأمة الخاصة بها في ثقافات شتى والثقافة الغربية بخاصة؛ انخداعًا بمعطياتها الحضارية التي لم تُنَزَّلْ منزلتها الحقيقية في نظر المسلمين، وكان ما جرى من الافتتان بها والمبالغة في ذلك ماينال من ثقة الأمة بمعتقداتها وقيمها وأخلاقها ومجريات تاريخها.

إن ما وقعت فيه الأمة الإسلاميَّة من خطر كبير دفعت إليه بكيد أعدائها وعجز أبنائها جملها، كما قال أحد المفكرين: (أمة مسبوقة ومنقسمة على نفسها ومستهدفة)[2].

ولكن هذا الواقع لم يطمس - بفضل الله - حقيقة الأمة الإسلاميَّة كما يجلي ذلك تاريخها الناصع، وجذوة الحق والنور التي لم تنطفئ؛ بما

---

(١) انظر: عبدالكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلاميَّة: ص ٩٧، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، عن مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع، الرياض. وانظر: عرفان عبدالحميد: دراسات في الفكر العربي الإسلامي ص ١٨، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد بن إبراهيم الخطيب: الأمة الإسلاميَّة بين الماضي والحاضر مقال نشر بمجلة منبر الإسلام عدد ٥ جمادى الأولى ١٤١٤ هـ، ص ٣٥ - ٣٩، (تصدر عن وزارة الأوقاف.. بمصر).

تمثل من الخير الباقي فيها؛ وبما تمثل في الوقت نفسه من الأسوة الحسنة، التي لاتزال حيَّة ظاهرة على الحق لايضرها من خذلها حتى يأتي أمر الله وهي كذلك.

ويُعنى البحث بهذا الجانب كما تجليه الوقائع؛ شواهد ناطقة؛ من حيث كونها الأمثلة الحية، والتطبيق الصحيح للإسلام قيمًا ومثلاً جديرة بالتأمل والاعتبار، وفي هذا دلالة على أن ما وقع من خلال تقويم تاريخ الأمة من انحراف وانقسام إلى فرق متعددة ومذاهب شتى، لم يكن إلا ظاهرة شاذة وآفة وافدة لاتتفق مع حقيقة الأمة الإسلاميَّة ومقوماتها الأصيلة.

٢ -الدراسات السابقة:

لايوجد - فيما أعلم والله أعلم - دراسة علمية لموضوع تميز الأمة الإسلاميَّة على النحو الذي تهدف إليه هذه الأُطروحة.

ولكن توجد شذرات مبثوثة في بطون الكتب الإسلاميَّة عن خصائص الأمة الإسلاميَّة ومزاياها.

وقد يفرد بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين وغيرهم من علماء الأمة ومفكريها.. أبوابًا أو فصولاً أو مباحث في كتبهم بمسميات عدة، مثل: فضائل الأمة الإسلاميَّة أو مناقبها أو شمائل رسولها ﷺ ودلائل إعجازه، وربَّما ورد كثيرٌ من الأحاديث في فضائل الأُمَّة الإسلاميَّة في كتب الأحكام والحدود ونحوها.

وربَّما أفردت كتبًا مستقلة في دلائل النبوة وتثبيتها كما فعل البيهقي والأصبهاني وغيرهما[1].

---

(١) للاطلاع على جملة منها انظر:

الإمام البخاري: صحيح البخاري، جـ٤، كتاب المناقب، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ،-

كذلك فإن بعض العلماء فيما كتبوه عن العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق أو الحضارة ونحو ذلك مِمَّا يكتب عن الأمة الإسلاميَّة؛ عرَّجُوا

-مراجعة وترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

- الإمام مسلم: صحيح مسلم جـ٢، كتاب الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).
- ابن ماجه: سنن ابن ماجه، باب: صفة أمة محمد ﷺ، ١٤٣١/٢ - ١٣٤١، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).
- أبو الحسن العامري (ت٣٨١ هـ -٩٩٢ م): كتابه الإعلام بمناقب الإسلام، حققه: أحمد عبدالحميد غراب، الطبعة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عن دار الأصالة..، الرياض.
- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد: ٤٥/١ - ٤٦، (مرجع سابق).
- ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول جـ٩، الباب الخامس من كتاب الفضائل والمناقب في فضل هذه الأمة الإسلاميَّة وتحته أحد عشر نوعًا استغرقت الصفحات (١٧٧ - ٢٠٨)، بتحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، طبعة: ١٣٨٩ هـ- ١٣٦٩ هـ، عن مكتبة الحلواني، بيروت.
- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣٩١/١ - ٣٩٧، طبعة ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٩ م عن دار المعرفة.. بيروت، ساق جملة من الأحاديث والآثار في فضائل الأمة الإسلاميَّة، أمة محمد ﷺ وخيريتها وشرفها وتميزها على سائر الأمم، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ..... ﴾.
- ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٥/٦ - ٢١، تحقيق: علي بن حسن وآخرين، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، عن دار العاصمة، الرياض.
- محمد بن علي الشوكاني: در السحابة في مناقب القرابة والصحابة، تحقيق ودراسة: حسين بن عبدالله العمري، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م، عن دار الفكر، دمشق، أفرد فيها فصلاً عن فضل الأمة الإسلاميَّة في الصفحات (٥٧٩ - ٥٨٩)، وأورد فيه جملة أحاديث في فضائل الأمة الإسلاميَّة وتميزها على سائر الأمم.

على بعض شعائر التميُّز أو خصائصه أو بعض مقوماته.

ولكن أكثر ما كُتِبَ اتسم بالتركيز على بعض جوانب التميُّز دون بعضها الآخر. ويأتي الحديث عنه عرضًا دون أن يكون مقصودًا لذاته؛ مما يدعو ويإلحاحٍ إلى إفراد التميُّز بدراسة علمية متكاملة تسير وفق منهج مرسوم وخطة مقررة.

ومن أبرز ما اطلعت عليه في هذا الموضوع الآتي:

١ - ما كتبه الإمام أبو حنيفة في كتابه الفقه الأكبر عن شعائر أهل السنَّة[1].

٢ - ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وجمع في فتاواه عن تميز أهل السنة[2].. وقد جرده في كتابه: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم.

٣ - ما كتبه الإمام الحافظ ابن حزم في كتاب الملل والنحل عن تميز أمة الإسلام في وجوه النقل وأنهم تميزوا عن اليهود والنصارى وسائر الأمم في مناهج النقل والإسناد والنقد.

٤ - ولأبي عبدالله محمد بن عبدالرحمن البخاري المتوفى سنة ٥٤٦ هـ

---

(١) انظر: الملاَّ علي القاري الحنفي: شرح كتاب الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ-١٩٩٥ م، بيروت، وقد ذيَّل شرحه بمتن الفقه الأكبر في الصفحات (٣٢٣ - ٣٢٧)، وانظر: شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان، تأليف الملاَّ علي بن سلطان محمد القاري، تحقيق: مروان محمد الشعار، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ -١٩٩٧ م، عن دار النفائس، بيروت.

(٢) ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٤٠/٤، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم..، الطبعة الأولى، ١٣٩٨ هـ، عن مطابع دار العربيَّة، بيروت. وانظر: المرجع نفسه: ١/ص ل مقدمة يوسف ياسين.

كتاب بعنوان: محاسن الإسلام وشرائع الإسلام؛ استعرض فيه محاسن الإيمان بالله، ومحاسن الصلاة والزكاة والصوم والحج، وفصَّل المحاسن التي استعرضها وفقاً لأبواب الفقه (العبادات ثم المعاملات)[1].

٥ - وانتهج ابن قيم الجوزيّة في سائر مؤلفاته (بيان خصائص أهل السنة والجماعة، وبيان الصراط المستقيم،... ومعرفة الحلال والحرام، والخلق والأمر، والوعد والوعيد، والاقتصاد في السنة، واتباعها كما جاءت مع بيان ماحادت عنه الملل والفرق الحائدة عن الصراط المستقيم)[2]، وتحدث في بعض كتبه عمَّا فضّل الله به عبده ورسوله محمد ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين، وما تميَّزت به أمته من فضائل في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها وسائر شمائرها[3]...، وله مؤلف خصصَّه لأحكام أهل الذمّة، اشتمل على جوانب عدّة ممّا يندرج في مفهوم التميُّز بصفة مباشرة وغير مباشرة[4].

---

(١) أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن أحمد البخاري الملقب بالزاهد العلاّمة، غير البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري المولود سنة ١٩٤ هـ المتوفى سنة ٢٥٦ هـ، وكتاب محاسن الإسلام وشرائع الإسلام صدر عن دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م، بيروت.

(٢) شعيب الأرنؤوط و عبدالقادر الأرنؤوط: ترجمة للإمام ابن قيم الجوزية في بداية: زاد المعاد في هدي خير العباد ١٧/١، تحت عنوان: من آرائه في العقيدة والفقه، الطبعة الخامسة والعشرون، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، عن مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٣) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين: ص ٦٢٧ - ٧٥٠، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣ م، تحقيق: يوسف علي بديوي، عن دار ابن كثير، بيروت.

(٤) أحكام أهل الذمَّة: تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م،=

٦ - وكتب السيوطي في ذلك كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب المعروف بـ (الخصائص الكبرى) ضمنه كثيرًا من خصائص الأمة الإسلاميَّة وبخاصة ما أورد في الجزء الثاني بعنوان: (باب اختصاصه ﷺ بأن أمته الآخرون في الدنيا الأولون يوم القيامة...)[1].

٧- وللشيخ محمد بن عبدالوهاب كتاب بعنوان: (مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية)[٢]، وله أيضًا: (فضل الإسلام)[٣]، استعرض في الأول مائة مسألة خالف فيها الرسول ﷺ أهل الجاهلية في مجال العقيدة والشريعة والأخلاق.

واستعرض في الآخر فضائل الإسلام ووجوب الالتزام به وتحقيقه والبعد عن البدع والتحذير منها.

٨ - وللشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي كتيب بعنوان: (محاسن الإسلام) ضمنه مقومات تميز الأمة الإسلاميَّة بطريقة منهجيّة إلا أنه جاء في غاية الاختصار والإيجاز.

٩ - ولمحب الدين الخطيب اهتمام بتميز الأمة الإسلاميَّة تمثل في

=عن دار الكتب العلمية - بيروت.

(١) أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ): الخصائص الكبرى، ٢/٢٢٦ - ٢٢٩، عن دار الكتاب، طبع في حيدر آباد الدكن (٤ رجب ١٣٢٠ هـ).

(٢) توسع في شرحها محمود شكري الآلوسي، ونشرها للمرة الأولى محب الدين الخطيب عام ١٣٤٤ هـ عن المطبعة السلفية ومكتبتها، وصدرت الطبعة الثانية ١٣٧٦ هـ، والثالثة ١٣٩٤ هـ، والرابعة ١٣٩٧ هـ، توزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء (وقف لله).

(٣) أشرفت على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة ١٤١٣ هـ -١٩٩٢ م.

عدة أعمال علميّة أنجزها، من أبرزها الآتي:

أ - تذييله كتاب المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، وهو مختصر منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية اختصره الذهبي.

ذيله محب الدين الخطيب بكتابة عن تَمَيُّز الأمة الإسلاميَّة بعنوان الجيل المثالي، ومما جاء فيه قوله: (فكرتُ في هذا الأمر كثيرًا من خمسين سنة إلى الآن، ومن ذلك الحين وأنا أراقب كل ما يقع عليه نظري من تحقيقات العلماء وخطرات أفكارهم لأصل إلى حكمة الله في هذا الامتياز)[1].

وبعد أن عرض لمحات من تميز الأمة الإسلاميَّة لفت النظر إلى أهمية دراسة هذا الموضوع بقوله: (هذه المعاني تحتاج إلى دراساتٍ علميّة عميقة.. وإنّ فصلاً كهذا أضيق من أن يلم - ولو بإشارات قصيرة ولمحات سريعة - بمثل هذه المعاني.. ونحن نكتفي بتسجيلها (ليُتّخذ) منها (موضوعات) للدراسة والتمحيص)[2].

ب - وله رسالة بعنوان: (حملة رسالة الإسلام الأولون وما كانوا عليه من المحبة والتعاون على الحق والخير وكيف شوّه المغرضون جمال سيرتهم).

أشار فيه لشيء من مزايا الرعيل الأول[3] من الأمة الإسلاميَّة،

---

(١) محب الدين الخطيب: الجيل المثالي ص ١٧، جردها ابنه قصي في رسالة مستقلة بهذا العنوان، ونشرتها المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة، (بدون تاريخ).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٢٤.

(٣) وله كتاب بهذا العنوان، نشره ابنه قصي محب الدين الخطيب، الطبعة الخامسة، ١٣٩٠ هـ، عن المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة.

وحذر مما يكتبه المفرضون في قديم تاريخ الأمة الإسلاميَّة وحديثه؛ ومنهم المستشرقون لإذابة تميزها، ولتكون محرومة من الإيمان بعظمة ماضيها وأنها سليلة سلفٍ لم ير التاريخ أطهر ولا أبهر ولا أزهر من سيرته[1].

ج - وذكر أحمد سما يلوفتش في كتابه: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر بأنَّه اطلع على مخطوطة عن المستشرقين وأعمالهم لمحب الدين الخطيب بحوزة ابنه حيث (حاول أن يسجل كل مايتعلق بالاستشراق مبتدئًا بمطبوعات شرقية في أوروبا، الجمعيات الاستشراقية المختلفة، مؤتمرات المستشرقين، مشاهير المستشرقين، دائرة المعارف الإسلاميَّة، مجلاّت الاستشراق المختلفة، مطابع العربية في أوروبا، المكتبات الأوروبية التي تحتوي على المؤلفات العربية وما إلى ذلك)[2]، ثم يتبع ذلك بقوله: (يبدو لنا أنه كان ينوي التأليف في هذا الموضوع)[3].

١٠ - واطلعت على كتاب ألفه عبدالمنعم أبو زنط عنوانه: التميُّز الإسلامي.. تضمن هذا الكتاب جملة موضوعات تندرج تحت التميُّز ولكن لم تتحقق فيه الدراسة العلمية الوافية[4]، كما

---

(١) انظر: محب الدين الخطيب: حملة رسالة الإسلام الأولون ص ١٧، عن المكتبة السلفيَّة ومطبعتها، القاهرة (بدون تاريخ).

(٢) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر: ص ٦٨٥ (رسالة دكتوراه مقدمة للأزهر، نوقشت بتاريخ ١٩٧٤/٩/٩ م)، وطبعت بمطابع دار المعارف - مصر ١٩٨٠ م.

(٣) المرجع السابق ص ٦٨٥.

(٤) عن مكتبة السندس، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

ينبغي أن يتوافر لها من التكامل والشمول.

١١ - وفي كثير من كتب الفكر الإسلامي والثقافة الإسلاميَّة في العصر الحاضر؛ إشارات لتميُّز الأمة الإسلاميَّة، ولمحات متفرقة[١]؛ أفدتُ منها في مادة البحث العلمية بعد جمعها وترتيبها ودراستها لتعميق مايحتاج منها إلى تعميق، وتأصيلها، واستكمال جوانب التميُّز الأخرى، وفق الخطة المرسومة لهذه الأطروحة.

وأشكر الله الذي وفقني لإنجازها وأرجوه - تعالى - أن تكون على الوجه الذي يرضيه جلَّ وعلا، وأن تكون لبنة صالحة لتأخذ مكانها في بناء الفكر الإسلامي، وتؤدي مهمتها في مسار الثقافة الإسلاميَّة الأصيل.

---

(١) انظر: منها الآتي:

- سيد قطب: في ظلال القرآن ١/١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، (مرجع سابق).
- محمد قطب: واقعنا المعاصر ص ٥٠ - ٦٣ و ٦٣- ١١١، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧ م، عن مؤسسة المدينة..، جدة.
- محمد المبارك: المجتمع الإسلامي ص ٣٢ - ٤٥، الطبعة الرابعة، ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩، عن دار الفكر..، بيروت.
- عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة ص ٧٩ - ٨٣، الطبعة التاسعة، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت.
- محمد أسد: منهاج الإسلام في الحكم ص ٥٢ - ٦٥، ترجمة: منصور محمد ماضي، الطبعة الخامسة، ١٩٧٨ م، دار العلم
- للملايين، بيروت.
- عجيل جاسم النشمي: طريق البناء التربوي الإسلامي: ص ٩١ - ١٠٨، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م، عن دار
- الدعوة..، الكويت.

٤ - منهج البحث وخطواته:

يمكنني القول بأنني انتهجت في رسالتي هذه أكثر من منهج وفقًا لمقتضيات البحث والدراسة، ففي بعض المباحث انتهجت منهجًا تأصيليًّا، وفي بعضها الآخر كان منهجي تاريخيًا وصفيًا، وتارةً أخرى أطبق المنهج النقدي، وأحيانًا أعمل منهج الاستقراء والاستنتاج والمقارنة والملاحظة، ولتوضيح ذلك أورد الأمثلة الآتية:

أ - كان منهجي فيما يتعلق بمنزلة التميُّز وضرورته ومقوماته وخصائصه وأهدافه ووسائله منهجًا تأصيليًّا درجتُ فيه على البحث في أصول كلمات: (التميُّز، والأمة، والأمة الإسلاميَّة، والعقيدة، والشريعة، والربانية، والعالمية، والوسطية، ونحو ذلك من مفاهيم البحث الأخرى) فعدتُ لمعانيها اللغويّة والاصطلاحية وحددت المراد منها كونها مفاهيم للبحث، وسرتُ على هذا المنهج في سائر البحث.

ب - وكان منهجي فيما يتعلق بدراسة نشأة الاستشراق وتطوره منهجًا وصفيًا تاريخيًّا، تخلَّله منهج آخر عُنِيَ بالاستقراء والاستنتاج والملاحظة والنقد، بعد أن بينت مفهوم الاستشراق والمستشرقين.

ج - وانتهجت في دراسة موقف المستشرقين من تميز الأمة الإسلاميَّة؛ منهجًا نقديًّا أطرح من خلاله شبهات المستشرقين ثم أردُّ عليها من ناحية، وأبرز ما في موقفهم من تميز الأمة الإسلاميَّة من سلبيات وإيجابيات، ثم أقارن بينهما لأصل في نهاية التحليل لنتيجة محدّدة إن أمكن.

أمَّا خطوات البحث من حيث جمع المادة العلمية من مظانها في

المصادر والمراجع، وأسلوب الإفادة منها ومصطلحات الكتابة، وخطة البحث فهي على النحو الآتي:

أولاً: جمع المادة العلمية:

١ - رجعت لمعاجم اللغة العربية لتحديد مفاهيم البحث الأساس؛ (التميُّز، الأمَّة، العقيدة، الشريعة، الأخوة، الربانية، العالمية، الوسطية...)، ونحو ذلك من مفاهيم البحث الأخرى، وما يحتاج إلى تعريف لغوي، وكان من أبرز تلك المعاجم اللغوية الآتي:

- كتاب العين: لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠١- ١٧٥ هـ).
- تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (٢٨٢ - ٣٧٠ هـ).
- معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٠٠ - ٣٩٥ هـ).
- مجمل اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٠٠ - ٣٩٥ هـ).
- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ).
- أساس البلاغة: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ).
- لسان العرب المحيط: لابن منظور محمد بن مكرم جمال الدين أبو الفضل بن منظور (٦٣٠ - ٧١١ هـ).

وإلى جانب هذه المعاجم الأساس.. رجعت إلى بعض المعاجم الحديثة والموسوعات ودوائر المعارف المتنوعة وفقاً لمقتضيات البحث والدراسة.

٢ - ورجعت لأمهات الكتب الإسلاميَّة في التفسير والحديث ومعاجمهما، والفقه والأصول، والتاريخ والسير والتراجم، والعقيدة

والمذاهب، لجمع مادة البحث العلمية وللوقوف على أقوال أئمة التفسير والمحدثين والفقهاء والعلماء في صدر الإسلام والقرون المفضَّلة، وما تلا ذلك من تأليفات في ميادين كثيرة ومجالات متنوعة.

٣ - وتتبعت كتابات علماء الأُمَّة الإسلاميَّة ومفكريها في العصر الحاضر في مجال الثقافة الإسلاميَّة؛ وبخاصة مايتعلق بتميز الأمة الإسلاميَّة ومقومات هذا التميُّز من عقيدة وشريعة وخصائص وأهداف ووسائل وأساليب.

وكذلك الكتابات التي تُعنى بواقع الأمة.. وحاضر العالم الإسلامي، وما يواجهها من تحديات ومعوقات، والحلول المطروحة للخروج بالأمة الإسلاميَّة من أزمتها وتخلفها وانحطاطها.

٤ - وعرجتُ - بقدر الطاقة والإمكان - على ما كُتِبَ عن الاستشراق والمستشرقين سواء، المترجم عنهم، أو الراصد لتاريخهم ومظاهر نشاطهم، أو نقد حركتهم وإنتاجهم.

٥ - وبذلتُ مجهودًا في متابعة الدوريات والندوات والمحاضرات المطبوعة، والمسجلة بالصوت ونحوها، وقمتُ بترجمة بعض النصوص وأجزاء من كتب المستشرقين بغية إتمام الفائدة، وتوسيع دائرة الإفادة من مادة البحث العلمية.

وقد تحقق لي جمع مادة علميّة غزيرة أفدتُ من معظمها وسلكتُ في الإفادة منها منهجًا يقوم على الآتي:

١ - الدراسة المتأنية لمادة البحث وتوثيقها وسبر جوهرها وما تتضمن من أفكار ووقائع وأحكام ومعانٍ لغوية وشرعية واصطلاحية، مع عقد المقارنات، والتحليل، واستخلاص النتائج وثمرات الدراسة والبحث.

٢ - توظيف هذه المادة في فصول البحث ومباحثه وفقراته وترتيب

الإفادة منها في مواضعها المناسبة مع تلافي التكرار وانتقاء الأحسن ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

٣ - عمدتُ في الكتابة إلى استخدام المصطلحات الشكلية الآتية:

أ- إبراز الآيات القرآنية بالرسم العثماني كما هي في مصحف المدينة.. وأثبت في الحاشية اسم السورة ورقم الآية.

ب- تخصيص الحديث النبوي الشريف بهذه الأقواس«...»، وكتابة صلى الله عليه وسلم بهذا الشكل ﷺ.

ج- النصوص المنقولة غير الآيات والأحاديث أضعها بين قوسين للتمييز بين الأحاديث والنص المنقول على هذا النحو: (...) وأثبت في الحاشية اسم المؤلف واسم كتابه، وإذا تصرفت في النص بالحذف رمزتُ لها بنقاط متتالية...، أمّا إذا أخذت المعنى أو الفكرة وعبرتُ بأسلوبي أو غيَّرت فيه فإنني أكتبُ في الحاشية كلمة (انظر).

د- عمدت في العزو إلى ذكر المؤلف أولاً ثم اسم مُؤَلَّفِه.

هـ- إذا ورد في متن البحث مصطلح آخر غير مصطلحاته المبيَّنة في مكانها، فإنني أذكر معناه وأعزوه لصاحبه، كذلك الألفاظ المبهمة أو مايحتاج إلى توضيح.

٤ - ترجمتُ لبعض الأعلام غير المشهورين ثُمَّ أهملتُ الترجمة لئلا أثقل الحاشية بالتراجم وهي عِلْمٌ قائِمٌ بذاته وله مصنفات في المتناول.

٥ - تقيدتُ بالقواعد الإملائية، وعلامات الترقيم، ومصطلحات الكتابة الشكلية وفقاً للمتبع في كتابة البحوث والرسائل العلمية.

ثانيًا خطة البحث:

جرت كتابة البحث وفقاً للخطة الآتية:

المقدمة: (وتشتمل على ما سبق ذكره).

باب تمهيدي:

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم تميز الأمَّة الإسلاميِّ:

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم التميُّز.

المبحث الثاني: مفهوم الأمة.

المبحث الثالث: مفهوم الإسلاميَّة.

الفصل الثاني: منزلة تميز الأمَّة الإسلاميَّة وضرورته:

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منزلة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة.

المبحث الثاني: ضرورة تميز الأمة الإسلاميَّة.

الفصل الثالث: لمحة عن الاستشراق:

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الاستشراق والمستشرقين

المبحث الثاني: نشأة الاستشراق.

المبحث الثالث: تطور الاستشراق.

الباب الأول: مقومات تميز الأمة الإسلاميَّة وخصائصه وموقف المستشرقين منها:

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: مقومات تميُّز الأمة الإسلاميِّ وموقف المستشرقين منها.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العقيدة وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثاني: الشريعة وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثالث: الأخوة الإسلاميَّة ووحدة الأمة وموقف المستشرقين منها.

الفصل الثاني: خصائص ميز الأمة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الربانية وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثاني: العالمية وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثالث: الوسطية وموقف المستشرقين منها.

المبحث الرابع: الإيجابية الخيرة وموقف المستشرقين منها.

الباب الثاني: هداف تميز الأمة الإسلاميَّة ووسائل تحقيقه وموقف المستشرقين منها

وفيه فصلان:

الفصل الأول: أهداف تميز الأمة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تحقيق العبودية لله، وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثاني: تحقيق الاستخلاف في الأرض وموقف المستشرقين منه.

الفصل الثاني: وسائل تحقيق تميز الأمة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: وسيلة اللغة العربية وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثاني: وسيلة تاريخ الإسلام وحضارته وموقف المستشرقين منه.

خاتمة البحث:

وتشتمل على الآتي:

١- خلاصة البحث.

٢- أبرز النتائج.

٣- التوصيات.

ذيلت الرسالة بالفهارس الآتية:

١- فهرس الآيات القرآنية.

٢- فهرس الأحاديث النبوية والآثار.

أولاً: الأحاديث.

ثانيًا: الآثار.

٣- فهرس الأبيات الشعرية.

٤- فهرس الأمكنة والبلدان.

٥- فهرس الفرق والطوائف.

٦- فهرس الكلمات الغريبة المشروحة.

٧- فهرس الأعلام.

٨- فهرس المصادر والمراجع.

٩- فهرس الموضوعات.

الشكر والتقدير:

والشكر موصول، بعد شكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - لفضيلة الأستاذ الكبير/ عمر بن عبدالله عودة الخطيب، المشرف على هذه الرسالة، لما بذله من جهود مباركة في تقويمها ومتابعة مسيرتها، حتى تَمَّ إنجازها على هذه الصورة التي أرجو من الله العلي القدير: أن أكون قد وفقتُ في خدمة موضوعها، وتأصيله: في ضوءِ الكتاب والسنة وفهم سلف الأُمَّة وعلمائها الأجلاء. ونقد ما وجه إليه من آراء وشبهات في ضوءِ هذا المنهج.

كما أتقدم بالشكر والعرفان لقسم الثقافة الإسلاميَّة وجميع منسوبيه لما أسدوه من مشورة ونصيحة كان لها أثرها الطيب - إن شاء الله - في مسار البحث ونضجه، وأخص بالشكر فضيلة الدكتور/ محمد بن عبدالله عرفة لتأييده الدراسة النقدية لموقف المستشرقين من تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وفضيلة الدكتور / عبد الله بن حمد العويسي، على ما

قدَّمه لي من عون ومساندة.

وأشكر كلية الشريعة في الرياض ممثلة في عميدها ووكيليه وجميع مشايخنا الأفاضل، وكذلك أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة إزاء ما تبذله من جهود موفقة في خدمة البحث العلمي وطلابه، وتسهيلات سبله المتنوعة.. وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.

***

باب تمهيدي

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : مفهوم تميز الأمة الإسلاميَّة .

الفصل الثاني : منزلة التميُّز وضرورته .

الفصل الثالث : لمحة عن الاستشراق .

الفصل الأول
مفهوم تميز الأمة الإسلاميَّة

ويشتمل على ثلاثة مباحث، هي:

المبحث الأول: مفهوم التميُّز.

المبحث الثاني: مفهوم الأمة.

المبحث الثالث: مفهوم الإسلاميَّة.

المبحث الأول
مفهوم تميز الأمة الإسلاميَّة

ويشتمل على مطلبين، هما:

المطلب الأول: اشتقاق التميُّز اللغوي.

المطلب الثاني: صلته بالأمة الإسلاميَّة.

المطلب الأول

اشتقاق التميُّز اللغوي

من الأهمية بمكان في سائر العلوم تحديد مفاهيم البحث [1]، لما يترتب على ذلك من تحديد مسار البحث من ناحية، ولتكون الرؤية واضحة وجليّة من ناحية أخرى.

وسيجري توضيح مفهوم التميُّز وغيره من مفاهيم البحث الأخرى، أمّا مفهوم التميُّز فبالرجوع إلى معاجم اللغة العربية ومصادرها وُجِدَ أن هناك جملة من المواد اللغوية هي المظان لاشتقاق التميُّز، وهي على النحو الآتي [2]:

١ – ماز ٢ – مزا

٣ – مزز ٤ – مزي

٥ – ميز

١– ماز: ورد في القاموس المحيط: (مازه يميزه ميزًا: عزله،

---

(١) للاطلاع على أهمية تحديد المفاهيم بعامة ومفاهيم الإسلام خاصة وما ألف في ذلك. انظر: بكر بن عبدالله أبو زيد: المواضعة في الاصطلاح على خلاف الشريعة وأفصح اللغى، رسالة مدرجة في كتابه: فقه النوازل: ص ١٠١ – ١٩٦، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ مكتبة الرشد – الرياض.

(٢) انظر: إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م: ٦/٢٤٩٢. وانظر: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة: ص ٥٩٢، ٥٩٣، طبع ونشر دار بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م. وانظر: محمد بن أكرم بن منظور: لسان العرب المحيط ٣/٤٧٧، ٤٧٩، ٥٤٩، ٥٥٤، طبع ونشر دار لسان العرب – بيروت، (بدون تاريخ).

وفـرزه، كأمـازه ومـيزه فامـتاز وانمـاز وتمـيز واسـتماز، (واسـتماز) الشـيء: فَضُـلَ بعضـه عـلى بعض، (واستماز) فـلان: انـتقل مـن مكـان إلـى مكان، ورجل مَيْزٌ ومَيِّزٌ: شديد العضل)[1].

٢- مَزا: قـال الجوهـري في الصحاح: (المزية الفضيلة، يقال: له عليّ مزيّة، ولايبنى منه فعل)[2].

وفي اللسـان: (والمـزيَّة في كل شـيء: التمام والكمـال، وتمـازى القـوم: تفاضلوا، وأمزيته عليه: فضلته.. والمزيَّة: الفضيلة.. يقال: له عندي قفيَّة ومـزيَّة إذا كانت لـه منزلة ليست لغيره.. ويقال: هذا سرب خيل غارة قد وقعت على مزاياها، أي: على مواقعها التي يَنْصَبُّ عليها متقدم ومتأخر، ويقـال: لفـلان عـلى فـلان مازيَّـة أي فضـل.. وقعـد فـلان عـني مازيًـا ومتمايزًا أي مخالفًا بعيدًا. والمزيَّة الطعام يخص به الرجل)[3].

٣- مزز: وفي اللسان - أيضًا - (مزز: المِزُّ، بالكسر: القَدْرُ، والمِزُّ: الفضـل، والمعنيان مقتربان، وشيءٌ مِزٌّ ومزيز وأُمَزُّ أي فاضل. وقد مَزَّ يمز مـزازةً ومززه: رأى له فضـلاً أو قـدرًا. ومزَّزه بذلك الأمر: فضَّله.. ويقال: هـذا شيءٌ لـه مِـزٌّ على هذا أي

---

(١) مجد الدين محمد يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط.. مادة (مازه) ص ٦٧٦ تحقيق موسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

(٢) الجوهري: الصحاح ٢٤٩٢/٦ مادة (مزا) (المرجع السابق نفسه)، وانظر: المعجم الوسيط ص ٨٩٣، بتحقيق: إبراهيم أنيس وآخرين، عن المكتبة الإسلاميَّة، استانبول - تركيا، الطبعة الثانية، (بدون تاريخ).

(٣) ابن منظور: لسان العرب ٤٧٩/٣ مادة (مزا)، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: الجوهري: الصحاح ٢٤٩٢/٦ مادة (مزا)، (المرجع السابق نفسه).

فضل. وهذا أمَزُّ من هذا أي أفضل. وهذا له عليَّ مِزٌّ أي فضل.. والمَزُّ: اسم الشيء المزيز، والفعل مَزَّ يَمَزُّ، وهو الذي يقع موقعًا في بلاغته وكثرته وجودته)[1].

٤ - مزي: قال الزمخشري: مزي - له عليه مَزِيَّة.. وقد تمزَّيتَ علينا يا فلان: تفضلت أي رأيت لك الفضل علينا، ومَزَّيْتُ فلانًا: قرَّظته وفضلته)[2].

٥ - مَيَزَ: في كتاب العين: (الميز التمييز بين الأشياء، تقول: مزتُ الشيءَ أميزه ميزًا، وقد انْمَازَ بعضه من بعض، وميَّزتُه. وامتاز القوم: تنحى بعضهم عن بعض... ويقال: امتاز القوم، واستمازوا)[3].

وورد في اللسان نحوه وأورد في قوله تعالى: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[4] (أي: تميزوا وقيل: أي انفردوا عن المؤمنين، واستماز

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، من منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ٣٥٥/٧، مادة (مَزَّ)، وابن منظور: لسان العرب ٤٧٦/٣، ٤٧٧ مادة (مزز)، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: الزمخشري: أساس البلاغة: ص ٥٩٢، ٥٩٣، مادة (مزز)، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: إبراهيم أنيس وآخرين: المعجم الوسيط، مادة (مَزَّ) ص ٨٦٦، ٨٦٧، (المرجع السابق نفسه).

(٢) الزمخشري: أساس البلاغة: ص ٥٩٣، مادة (مزي)، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكليات، (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): ص ٨٧٠، عن مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ/١٩٩٢ م؛ بيروت، عمل د. عدنان درويش، ومحمد المصري.

(٣) الخليل: كتاب العين، مادة (ميز) ٣٩٤/٧ و ٣٩٥، (المرجع السابق نفسه).

(٤) سورة يس: الآية (٥٩).

عن الشيء تباعد منه... ويقال: (امتاز القوم)؛ إذا تميز بعضهم عن بعض. وفي الحديث: «لاتهلك أمتي حتى يكون بينهم التَّمايُل والتَّمَايُزُ»[1] أي: يتحزبون أحزابًا ويتميز بعضهم من بعض ويقع التنازع، يقال: مُزْتُ الشيءَ من الشيء إذا فرقت بينهما فانماز وامتاز، ومَيَّزْتُه فتميَّز)[2].

من مجموع هذه النقول يتضح الآتي:

١ - يدل هذا اللفظ على التخصيص والتفضيل والتمام والكمال والقدر والمكانة والموقع البارز في البلاغة والكثرة والجودة والعز.

٢ - يدل هذا اللفظ على العزل والفرز والتباعد والمخالفة.

٣ - لايختص استعمال هذا اللفظ على ما سبق وإنَّما يستعمل أيضًا في معان أخرى منها (الطَّعْمُ بين الحموضة والحلاوة والتحقير، والتحزب المحظور)[3]، ويستخلص من (الطعم بين الحموضة والحلاوة) معنى الوسط بين شيئين مختلفين أو نقيضين.

٤ - لم يرد لفظ (تَمَيُّزُ) بين تصاريف المواد اللغويَّة السابقة ولكن

---

(١) لم أجده في الصحاح وغيرها من كتب السنة، ولكن أورده أبو الحسن يحيى بن الحسين الشجري: أمالي الشجري وهي الشهيرة (بالأمالي الخميسية): ٢/٢١، عن عالم الكتب، بيروت، (بدون تاريخ).

(٢) ابن منظور: لسان العرب: ٣/٥٥٤، مادة (ميز) (المرجع السابق نفسه)، وانظر: الزمخشري: أساس البلاغة: ص ٦١٠، مادة (ميز)، (المرجع السابق نفسه)، والكفوي: الكليات: ص ٢٨٩، (المرجع السابق نفسه).

(٣) الخليل: العين مادة (مزّ) ٧/٣٥٥ (مرجع سابق)، وانظر: ابن فارس: مجمل اللغة مادة (مزّ)، بتحقيق: زهير عبدالمحسن سلطان، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت، وانظر: ابن منظور: اللسان مادة (مزز) ٣/٤٧٧، ومادة (مَيَز) ٣/٥٥٤، (مرجع سابق).

(١)
القياس اللغوي يقتضيه وورد في بعض المعاجم اللغوية الحديثة ،
(٢)
(تَمَيَّزَ الشيءُ يتميَّزُ تميُّزًا: امتاز وبدا فضله عن غيره أو على مثله) .

٥ - بين المواد اللغويَّة (ماز، مزا، مزز، مزي، ميز) اشتراك في المعنى يصعب معه تحديد المادة الأصلية للفظ (تَمَيُّز)، وإن كان ألصق بمادة (مزا) إلا إنَّه يشترك مع المواد الأخرى في بعض معانيها فيأخذ من (مَازَ، ومَيَزَ) معنى العزل والفرز، ومن (مَزَزَ، ومَزَيَ) معنى الفضل والقدر والجودة إضافة لما تحمله مادة (مزا) من معاني التمام والكمال.

خلاصة القول في المدلول اللغوي للفظ (التَّمَيُّز) أنَّه يشتمل على عدّة معانٍ لها من العمق والثراء ما يفي بحاجة البحث إليه، ويتضمن الدلالات المقصودة فيه، وبخاصة اشتماله على ثلاثة محاور شديدة الصلة بالأمّة الإسلاميَّة؛ سيتم تناولها في المطلب الآتي.

* * *

---

(٤) انظر: حسن سعيد الكرمي: معجم الهادي إلى لغة العرب ١/٨٨ و ٨٩ مادة (أمم)، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عن دار لبنان..، بيروت.

(١) انظر: أحمد العايد وآخرين: المعجم العربي الأساسي ص ١١٦٢، عن المنظمة العربيَّة للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩ م.

واستعمله ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم.. ص ٣٢٢؛ قال: (لم يرضَ عمر رضي الله عنه والمسلمون بأصل التمييز، بل بالتميُّز...). وورد في تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ .... ﴾ (البقرة ١٤٣). قال: (لنميِّز أهل اليقين من أهل الشك والريبة): صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم، ص ٨٩، تحقيق: راشد الرجَّال، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م عن المكتبة السلفية - القاهرة.

المطلب الثاني

صلة التميُّز بالأمة الإسلاميَّة

من خلال مايدل عليه لفظ (التَّمَيُّز) في إطار هذه المحاور الثلاثة :

١ - التمام والكمال، والقدر وعلو المنزلة والمكانة والعزَّة والفضيلة، والخاصية، وقوة الذَّات.

٢ - الفرز والانعزال والتنحي والتباعد والمخالفة والانفراد.

٣ - التوسط والوسطية.

تبرز صلة التميُّز بالأمَّة الإسلاميَّة، ومن خلال هذه المعاني يلحظ رسوخ هذا المصطلح وتمام انطباقه على الأمة الإسلاميَّة، ولبيان صلة التميُّز بالأمة الإسلاميَّة يأتي تفصيل القول على النحو الآتي:

١ - كونُ الأُمَّة الإسلاميَّة بلغت من التمام والكمال والقوة الذروة عندما تمثلت الإسلام في حياتها وطبقته في جميع شؤونها، وقد شهد الله لها بذلك، قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ ﴾[1].

ومن هنا فإنَّ مفهوم التميُّز يتناول هذا الجانب من ذاتية الأمَّة

(١) سورة الفتح: الآية (٢٩).

الإسلاميَّة ويتطابق المعنى اللغوي لكلمة (مزا) التي تعني التمام والكمال والقوة، وكلمة (مزز) التي تعني مايقع موقعًا في بلاغته وكثرته وجودته، يتطابق المعنى اللغوي للتميُّز مع حقيقة الأُمَّة الإسلاميَّة (في حين أنَّ ما لدى غيرها من الأمم إمَّا فاسد وإمَّا ناقص في عاقبته، على الرغم مما هم عليه من إتقان أمور دنياهم.. وليس لديهم مايُمكن أن يدل المسلمين علىماينفعهم، أو يهديهم لأسباب العزَّة والنصر والسعادة، فإن ذلك لايكون إلاَّ بالرجوع لكتاب الله وسنة رسوله والتمسك بالإسلام حقاً)[1].

والتميُّز يتصل بالأُمَّة من حيث إنَّ لها من القدر والعزَّة والكرامة والخاصية والفضيلة ما يعلي منزلتها ويرفع قدرها على من سواها من الأمم، وقد ورد في هذا أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ منها:

أ- قوله ﷺ: «إنكم وفيتم سبعين أُمَّة أنتم خيرها وأكرمها على الله»[2]، وفي رواية أخرى: «نُكمل يوم القيامة سبعين أمَّة نحن آخِرُها وأَخْيَرُها»[3].

---

(١) انظر: ناصر العقل: دراسة تحليلية قدَّم بها كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤١، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه: ١٤٣٣/٢، كتاب الزهد، حديث رقم (٤٢٨٨)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، والترمذي: الجامع الصحيح: ٢١١/٥، الحديث رقم (٣٠٠١)، بتحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ -١٩٨٧ م، عن دار الكتب العلمية، بيروت، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. انظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم: ٩٤/٤، الحديث رقم (٦٩٨٧/٢٥٨٥)، بتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م، عن دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه: ١٤٣٣/٢، كتاب الزهد، حديث رقم (٤٢٨٧)، (مرجع سابق).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، ثمَّ هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد»[1]، والمراد باليوم: يوم الجمعة، وفي هذا (بيان واضح لمزيد فضل هذه الأمة على الأمم السابقة)[2]، كما وردت في هذا الحديث روايات عديدة تدل جميعها على فضل الأمة الإسلاميَّة وهدايتها ليوم الجمعة وتشريفها به وتكريم الله لها في الدنيا والآخرة على سائر الأمم.

ب - قوله ﷺ: «بشِّر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة، والنصر، والتمكين في الأرض... »[3] فهذه المعاني تتطابق مع معاني التميُّز تطابقاً تاماً.

جـ - قوله ﷺ: «إنَّما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين

---

(١) أخرجه البخاري: ٢١١/١، ٢١٢، كتاب الجمعة، باب [١] فرض الجمعة، ترتيب: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٣٥٦/٢، شرح الحديث رقم (٨٧٦)، تحقيق: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ومحمد فؤاد عبدالباقي، نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء... الرياض، (بدون تاريخ). وانظر: مسلم: صحيح مسلم: ٥٨٥/٢ - ٥٨٦، كتاب الجمعة، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٣٤/٥، ترتيب: دار إحياء التراث العربي بيروت ١٦٠/٦، ١٦١، الحديث رقم: (٢٠٧١٥) و (٢٠٧١٦) و (٢٠٧١٧) و (٢٠٧١٨)، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ-١٩٩١ م. وانظر: البرهان فوري: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: الحديث رقم: (٣٤٤٦٥)، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، (ضبطه وفسر غريبه: بكريّ حيّاني، وصححه ووضع فهارسه ومفتاحه: صفوة السقا). وانظر: جامع الأصول لابن الأثير ٢٠٣/٩، (مرجع سابق).

صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتيَ أهل التوراة التوراة فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا، ثمّ أوتيَ أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر ثمّ عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا ثمّ أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس، فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أيْ ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطًا قيراطًا ونحن كنّا أكثر عملاً، قال الله: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا. قال: فهو فضلي أوتيه من أشاءُ »[1].

وقد ورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة يستفاد منها جميعًا أفضلية الأمّة الإسلاميّة وما خصّها الله به من مضاعفة الأجر والمثوبة وكونها تستجيب لله وتحقق شرطه عليها من دون اليهود والنصارى، وكذلك مكانتها وأنها خاتمة الأمم، وبهذا وما قبله استبان المحور الأول من محاور صلة التميُّز بالأمة الإسلاميّة.

٢ - ومما يتصل به التميُّز بالأمّة الإسلاميّة معاني الفرز والانعزال والتنحي والتباعد والانفراد والمخالفة، ويتضح ذلك في الأوجه الآتية:

أ - البعد عن خطوات الشيطان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٣٩/١، كتاب مواقيت الصلاة، باب [١٧]، وأورده بروايات عديدة، منها:

- ما ورد في كتاب فضائل القرآن - باب [١٧] ١٠٧/٦.
- ما ورد في كتاب الأنبياء - باب [٥٠] ١٤٥/٤.
- ما ورد في كتاب الإجارة - باب [٩] ٥٠/٣، والباب [٨] ص ٤٩، والباب [١١] ص ٥٠، (المرجع السابق نفسه).

وانظر: مسند الإمام أحمد: ٢٣٥/٦، ٢٣٦، الحديث رقم: (٤٥٠٨)، بتحقيق: أحمد شاكر، عن دار المعارف بمصر ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م.

تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[4].

ب – الحذر من الأهواء، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم

---

(١) سورة النور: الآية (٢١).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٤٢).

(٣) سورة البقرة: الآيتان (١٦٨، ١٦٩).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٦٨).

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾[1].

جـ - البعد عن الشبهات والشهوات، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا

---

(١) سورة المائدة: الآيتان (٤٨، ٤٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٧). وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية: تفسير القرآن العظيم: ١/٣٤٥ - ٣٤٦، (مرجع سابق).

ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[1].

د - مخالفة الأمم الأُخرى من اليهود والنصارى والفرس والروم والمشركين، قال ابن تيمية: (وهذا أصل ينبغي أن يُتَفَطَّنَ له)[2].

وذكر أهمية المخالفة في تحقيق الإسلام وما تعنيه من تميز في ذاتية الأمّة الإسلاميَّة، بقوله: (وكلما كان القلب أتم حياة، وأعرف بالإسلام - الذي هو الإسلام لستُ أعني مجرد التوسم به ظاهرًا، أو باطنًا بمجرد الاعتقادات التقليدية، من حيث الجملة - كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا أو ظاهرًا أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين: أشد. ومنها: أن مشاركتهم في الهدي الظاهر: توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التميُّز ظاهرًا بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية)[3].

وقد بسط القول فيما يتعلق بالأمر بمخالفة الأمم الأخرى والنهي عن التشبه بهم أو محاكاتهم أو تقليدهم، وساق الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع على ذلك في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم)، وكان مِمَّا ذكر في هذا السياق قوله: (واعلم أن في كتاب الله من النهي عن مشابهة الأمم الكافرة وقصصهم التي فيها عبرة لنا بترك ما فعلوه كثير، مثل قوله، لَمَّا ذكر ما فعله بأهل الكتاب

---

(١) سورة مريم: الآية (٥٩).

(٢) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: ص ١٢، تحقيق: محمد حامد فقي، الطبعة الثانية ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص (١٢).

من المثلات: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [1] وقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [2] وأمثال ذلك، ومنه مايدل على مقصودنا ومنه ما فيه إشارة وتميم للمقصود. ثمّ متى كان المقصود: بيان أن مخالفتهم في عامة أمورهم أصلح لنا، فجميع الآيات دالة على ذلك. وإن كان المقصود: أن مخالفتهم واجبة علينا، فهذا إنَّما يدل عليه بعض الآيات دون بعض، ونحن ذكرنا مايدل على أن مخالفتهم مشروعة في الجملة)[3].

وفي موضع آخر قال: (المخالفة لهم في الهدي الظاهر مصلحة ومنفعة لعباد الله المؤمنين، لما في مخالفتهم من المجانبة والمباينة، التي توجب المباعدة عن أعمال أهل الجحيم، وإنَّما يظهر بعض المصلحة في ذلك لمن تنور قلبه، حتى رأى ما اتصف به المغضوب عليهم والضالين من مرض القلب الذي ضرره أشد من ضرر أمراض الأبدان)[4].

ويرى ابن تيمية من خلال فقهه للنصوص الشرعية أن مخالفة اليهود والنصارى وغيرهم من الأمم الأخرى من أكبر مقاصد البعثة؛ لأنّ المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله، وهذا يستلزم مخالفتهم[5].

إذن هناك صلة وثيقة بين التميُّز والأمّة الإسلاميَّة حتى في معاني

---

(١) سورة الحشر: الآية(٢).

(٢) سورة يوسف: الآية(١١١).

(٣) ابن تيميه: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: ص ١٧.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٥٦.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ٦٠.

المخالفة والتباعد والانفراد والفرز والانعزال والتنحي وهو المحور الثاني المتقدم ذكره[1].

ومع أن في الأمّة الإسلاميَّة من ينحرف عن هذه المعاني للتميُّز بمضاهاة اليهود أو النصارى أو المشركين فإنّ مسار الأمة الصحيح مُنَزَّه عن ذلك حيث أخبر ﷺ بأن أمَّته لاتُجْمِعُ على ضلالة، روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله لايجمع أمتي، أو قال أمة محمد ﷺ، على ضلالة، ويد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ إلى النار»[2]، وفي رواية أخرى: «فإنّ الله عزوجل لن يجمع أمتي إلاّ على هدى»[3].

وأمرٌ آخر يحسن الاحتراز منه وهو تمايز الأمّة الإسلاميَّة في داخلها بمعنى أن يتحزبوا أحزابًا ويتميز بعضهم عن بعض ويقع بينهم التنازع، فهذا الأمر منهيٌّ عنه والنصوص الشرعية مستفيضة بالحذر منه ولايشتمل عليه عنوان هذا البحث[4].

---

(١) انظر: محمد بن عبدالوهاب: مسائل الجاهلية التي خالف فيها الرسول ﷺ أهل الجاهلية، أورد فيه مائة مسألة خالف فيها الرسول ﷺ أهل الكتاب والأميين، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح: ٤٠٥/٤ في كتاب الفتن – باب: ماجاء في لزوم الجماعة، الحديث [٢١٦٧]، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م، عن دار الكتب العلمية، بيروت، وله شاهد لدى الحاكم في مستدركه ١١٥/١ – ١١٦: من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٤٥/٥، (مرجع سابق)، وانظر: حاشية اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، تحقيق: ناصر العقل ص ٦٩، (مرجع سابق).

(٤) للاطلاع على هذا الجانب. انظر: بكر بن عبدالله أبو زيد: حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلاميَّة، الطبعة الثالثة، عن دار ابن الجوزي ١٤١٣ هـ – الدمام.

٣ - معاني التوسط والوسطية[1]: يتصل التميُّز بالأمّة الإسلاميَّة من خلال معاني التوسط بين شيئين أو نقيضين، والوسطية أعمق من مجرد البينية الظرفية حيث يراد بها اعتدال وتوازن بين أمرين أو شيئين متباينين كالتوسط بين الغلو والتطرف أو الإفراط والتفريط، وللعلماء في ذلك أقوالٌ أورد منها:

أ - قول الطبري: (إنَّما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه - ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهلُ توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها)[2].

ب - قول ابن تيمية عن الفرقة الناجية من أمّة محمد ﷺ بأنّهم (يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأُمَّة، كما أن الأُمَّة هي الوسط في الأمم)[3].

جـ - قول محمد رشيد رضا: (الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم،

---

(١) سيأتي مطلب خاص بالوسطية: ص ٧٣٣ - ٧٥٧، (البحث نفسه).

(٢) الطبري: جامع البيان ٢/٧، ٨، طبعة دار الكتب العلمية - لبنان ١٤١٢ هـ.

(٣) ابن تيمية: شرح العقيدة الواسطية ص ١٢٤، شرح صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، الطبعة الخامسة، ١٤١١ هـ، توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء..، الرياض. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٤١/٣ (مرجع سابق).

فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر، أي: المتوسط بينهما)[1].

د - قول عبدالرحمن بن ناصر السعدي: (وبالجملة فإن الله العليم الحكيم أمر بالتوسط في كل شيء بين خلقين ذميمين، تفريط وإفراط)[2]، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[3].

وبهذا تتضح صلة التميُّز بالأمّة الإسلاميَّة من جهة معناه اللغوي (الطعم بين الحموضة والحلاوة)[4] وأن هذا الطعم يعني التوسط بين أمرين أو شيئين متباينين، ومن هذا المعنى ينتزع معنى وسطية الأمّة الإسلاميَّة واشتمال مصطلح التميُّز عليه.

مصطلح التميُّز:

من خلال ماتقدم يُمكن بيان مفهوم التميُّز بصفته مصطلحًا في البحث بالآتي:

أ - التميُّز: هو مجموع المضامين والمظاهر التي تحدد ملامح شخصية ما وما تتصف به تلك الشخصية من صفات سواء كان ذلك في سياق المدح أو الذم.

ب - تميز الأمّة: مجموع المضامين والمظاهر التي تحدد ملامح شخصية الأمّة وصفاتها، وتكون ذاتيتها في الحياة والكون والتاريخ، وما

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار: ٤/٢، الطبعة الثانية عن دار المعرفة...، بيروت، (بدون تاريخ).

(٢) عبدالرحمن بن ناصر السعدي: القواعد الحسان لتفسير القرآن: ص ٩٠، وانظر: الصفحات قبلها (٨٧، ٨٨، ٨٩) تحت عنوان القاعدة الرابعة والعشرون، طبعة ١٤٠٢ هـ -١٩٨٢ م، مكتبة المعارف، الرياض.

(٣) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

(٤) الخليل بن أحمد: كتاب العين مادة (مزَّ)، (مرجع سابق).

ينبثق عن ذلك من علائق وصلات بشرية.

جـ - **أمَّا تميز الأمّـة الإسلاميَّة:** فيراد به مجموع المضامين والمظاهر التي تحدد ملامح شخصية الأمة الإسلاميَّة وصفاتها، وتكون ذاتيتها في الحياة والكون والتاريخ وما ينبثق عن ذلك من علائق وصلات بشرية تتجلى فيها عقيدتها التي تؤمن بها، وشريعتها التي تنتهجها، ورسالتها التي تحملها.

* * *

المبحث الثاني
مفهـــوم الأمـــة

ويشتمل على أربعة مطالب هي :

المطلب الأول : مدلول (الأمة) في معاجم اللغة العربية

المطلب الثاني : مدلول (الأمة) في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

المطلب الثالث : خلاصات لمعاني (الأمّة) في اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف واستنتاجات

المطلب الرابع : نماذج من تعريفات العلماء والمفكرين لمدلول (الأمّة) وتحديد مصطلحها في البحث.

المطلب الأول

مدلول (الأمَّة) في معاجم اللغة العربية

جاء لفظ (أُمَّة) في كلام العرب، وورد ذكره في القرآن الكريم، وفي أحاديث الرسول ﷺ بمعانٍ متنوعة، وفي وجوه عديدة، وقد توافرت معاجم اللغة العربية وكتب التفسير وعلوم القرآن بعامة وكتب الأشباه والنظائر بخاصة على تتبع تلك المعاني والأوجه، وناقشت المؤلفات الفكرية في العصر الحديث أوجهَ استعمالاتِهِ وقارنت مدلوله اللغوي في اللغة العربية وغيرها من اللغات بغية الخروج بمصطلح محدد لكلمة (أُمَّة) ولاسيما أنها أصبحت في الحضارة الغربية ذات مفهوم اجتماعي وسياسي معين [1].

وقد أفرد عددٌ من الباحثين المسلمين كتبًا لمفهوم الأُمَّة في اللغة العربية والقرآن الكريم والإسلام بعامَّة لإبراز مفهوم الأُمَّة [2] في

---

(١) انظر: عمر إبراهيم: مفهوم الأمة بين لغة وأخرى، مقال نشر بمجلة الفكر العربي المعاصر العدد [١٧]، كانون أول ١٩٨١ / كانون الثاني ١٩٨٢ م في الصفحات [٦٤ – ٧٧].
وانظر: ناصيف نصّار: مفهوم الأُمَّة بين الدين والتاريخ، الطبعة (٤) ١٩٩٢م، عن دار أمواج..، بيروت.
وانظر: محمود شاكر: الأُمَّة، مقال نشر في مجلة الفيصل عدد [٦٨] ص ٢٨، (مرجع سابق)، وانظر: عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ١٤٧ – ١٥٠، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (بدون تاريخ). وانظر: علي عبدالحليم محمود: مع العقيدة والحركة والمنهج في خير أُمَّة أخرجت للناس، ص ١٧ – ١٩، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م عن دار الوفاء – المنصورة – مصر.

(٢) انظر في مفهوم الأُمَّة في الإسلام الآتي: =

الإسلام والتأكيد على أصالته وعلى الرغم من ذلك فإنّ طبيعة هذا البحث تستلزم الوقوف عند لفظ (أُمَّة) في معاجم اللغة العربية، وفي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

أمَّا في معاجم اللغة العربيَّة فقد وردت كلمة (أُمَّة) بمعانٍ عديدة ومتنوعة أحصت معاجم اللغة العربية الكثير منها، ورصدت أوجه استعمالاتها، وبينت شيئًا من أحوالها الصرفية على النحو الآتي:

١ - ورد في كتاب العين قوله: (إعلم أنَّ كل شيء يضم إليه سائر ما يليه فإنَّ العرب تسمي ذلك الشيء أُمًّا.. فمن ذلك أم الرأس وهو الدماغ) [(١)].

= - محمد المبارك: الأمّة والعوامل المكونة لها، الطبعة الثالثة ١٣٩٥ هـ، عن دار الفكر، بيروت.

- أحمد حسن فرحات: الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، عن دار عمار، الأردن.
- ماجد عرسان الكيلاني: الأمّة المسلمة، مفهومها، إخراجها، مقوماتها، طبعة ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م، عمان.
- محمد المبارك: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص ٣٢ - ٣٦، (مرجع سابق).
- عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام: ص ١٤٧ - ١٥٠، (المرجع السابق نفسه).
- فاروق الدسوقي: مقومات المجتمع المسلم: ص ١٢٩ - ١٣٣، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م عن المكتب الإسلامي - بيروت.
- محمد قطب: واقعنا المعاصر: ص ٥٠ - ١١٢، (مرجع سابق).

(١) الخليل بن أحمد: كتاب العين.. مادة (أمم) ٨/٤٢٦، (مرجع سابق). وانظر: ابن فارس: مجمل اللغة..: ص ٨١، تحقيق: زهير عبدالمحسن سلطان، وابن فارس: معجم مقاييس اللغة ١/٢٣، تحقيق: عبدالسلام هارون، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ -١٩٩١ م، عن دار الجبل، بيروت.

٢ - ورد في كتاب العين - أيضًا -: (والأُمَّة: كلُّ قومٍ في دينهم من أُمَّتهم، وكذلك تفسير هذه الآية ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [2] أي: دين واحد، وكل من كان على دين واحد مخالفًا لسائر الأديان، فهو أُمَّة على حدة...، وكل قوم نسبوا إلى نبيٍّ وأضيفوا إليه فهم أُمَّته.. وقد يجيءُ في بعض الكلام أنَّ أُمَّة محمد ﷺ هم المسلمون خاصة، وجاء في بعض الحديث: أنَّ أُمَّته من أرسل إليه ممن آمن به أو كفر به، فهم أُمَّته في الاسم لا في الملة..) [3] ، (بمعنى أنهم مقصودون بالدعوة لا المتبعون لها فهؤلاء المتبعون هم الأُمَّة الإسلاميَّة بمعنى أنهم مقصودون بالاتباع) [4] .

٣ - وورد في كتاب العين: (كل جيل من الناس هم أُمَّة على حدة) [5] .

٤ - وورد في كتاب العين: (وكل جنس من السباع أُمَّة، كما جاء في

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٢٣). وفي الآية قبلها: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾.

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

(٣) الخليل بن أحمد: كتاب العين ٤٢٨/٨، (مرجع سابق).

(٤) انظر: أبو البقاء الكفوي: الكليات: ص ١٧٦، ١٨١، (مرجع سابق)، وانظر: الأزهري: تهذيب اللغة ٦٣٥/١٥، ٦٣٧، (مرجع سابق)، وانظر: أحمد فرحات: الأمة: ص ٢٧، (مرجع سابق).

(٥) الخليل بن أحمد: كتاب العين ٤٢٨/٨، (مرجع سابق)، وانظر: ابن منظور: لسان العرب ١٠٢/١، (مرجع سابق).

الحديث: «لولا أنّ الكلاب أُمَّة من الأُمم لأمرتُ بقتلها كلّها فاقتلوا منها كل أسود بهيم »[1].

٥ – وفي اللسان أوجه عديدة لمعنى أُمَّة وكذلك في الصحاح منها إضافة لما سبق:

- أُمَّة الله : خلقه.
- الأُمَّة : الجنس من كل حي.
- الأُمَّة : الحين.
- الأُمَّة : الملك والنعمة[2].
- الأُمَّة : الرجل الجامع للخير.
- الأُمَّة : العالم.
- الأُمَّة : القوم.
- الأُمَّة : الجماعة.
- الأُمَّة : الطاعة.
- الأُمَّة : القامة والوجه.
- أُمَّة الطريق وأمه : معظمه.
- الأُمَّة : القرن من الناس وجمعها أُمم[3].

---

(١) أخرجه الترمذي: صحيح الترمذي: ٦٦/٤ كتاب الصيد – باب ١٦، الحديث رقم (١٤٨٦)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق)، وأخرجه أبو داود: سنن أبي داود ٣ /١٠٧، كتاب الصيد، الحديث رقم (٢٨٤٥) طبعة دار الحديث، القاهرة، (بدون تاريخ)، وأخرجه النسائي: سنن النسائي: ٢١٠/٧، كتاب الصيد، الحديث رقم [٤٢٩١]، تحقيق: مكتب تحقيق التراث الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٢ هـ –١٩٩٢ م، عن دار المعرفة – لبنان.

(٢) وانظر: الخليل بن أحمد: كتاب العين ٤٢٨/٨، (مرجع سابق).

(٣) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (أمم) ١٠١/١ – ١٠٢، (مرجع سابق)، وانظر:=

٦ - ورد في تهذيب اللغة أنّ أصل مادة (أُمَّة) من القصد قال: (وأصل هذا الباب كله من القصد، يقال: أَمَمْتُ إليه إذا قصدته، فمعنى الأُمَّة في الدين، أن مقصدهم مقصدٌ واحد، ومعنى الإِمَّة في النعمة: إنَّما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه. ومعنى الأُمَّة في الرجل المنفرد الذي لا نظير له: أنّ قصده منفرد من قصد سائر الناس.. ومعنى الأُمَّة: القامة، سائر مقصد الجسد، فليس يخرج شيءٌ من هذا الباب عن معنى أممت أي قصدت)[(١)] .

وفي معجم مقاييس اللغة قال: (وأمَّا الهمزة والميم فأصل واحد، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل والمرجع والجماعة والدين، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة وهي: القامة والحين والقصد)[(٢)] .

وقال في معنى القصد: (وأَمَمْت: أُمَّة)[(٣)] .

٧ - وعن وزن (أُمَّة) الصرفي؛ جاء في الكليات: (الأُمَّة بالضم، في الأصل: المقصود كالعُمْدَةِ والعُدَّة في كونهما معمودًا ومعدًّا، وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق)[(٤)] .

=الجوهري: الصحاح، مادة (أمم) ١٨٦٣/٥ - ١٨٦٧، (مرجع سابق)، وانظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط.. مادة (أم) ص ١٣٩١، (مرجع سابق).

(١) الأزهري: تهذيب اللغة مادة (أمّ) ٦٣٥/١٥، (مرجع سابق)، وانظر: ابن منظور: لسان العرب.. مادة (أمم) ١٠٢/١، (مرجع سابق).

(٢) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة (أمم) ٢١/١ - ٣١، (مرجع سابق).

(٣) المرجع نفسه: ٧/١ وفي ٦٠/٦.

(٤) أبو البقاء الكفوي: الكليات.. فصل الألف والميم ص ١٨١، (مرجع سابق).

وجاء في معجم مقاييس اللغة: (والشجَّة الآمَّة وهي المأمُومة) [(١)].
وعلى هذا فإنَّ الأُمَّة تكون بمعنى المفعول وبه قال عددٌ من المفسرين والباحثين [(٢)].

ويرى عددٌ آخر بأنَّها تكون بمعنى الفاعل: أي الجماعة التي تقصد الدين وتلتقي عليه [(٣)]، ووزن الفاعل منها (آم).

٨ - ووردت (إمَّة) لغة في أُمَّة ومعناها الطريقة والدين [(٤)]، والإمَّة بكسر الهمزة: (إيتَّم بفلان إمَّة.. والإيتمام مصدر الإمَّة إيتم بالإمام إمَّة... وكل من اقتدي به وقدِّم في الأمور فهو إمام، والنبي عليه السلام إمام الأمَّة، والخليفة إمام الرعية.. والقرآن إمام المسلمين.. والمصحف الذي يوضع في المسجد يسمّى الإمام.. والإمام إمام الغلام، وهو ما يتعلم كلَّ يوم.. والإمام الطريق) [(٥)].

* * *

---

(١) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٢٣/١، (مرجع سابق).

(٢) انظر: البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل؛ قال في تفسيره لقول الله جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ..... ﴾ [النحل: الآية ١٢٠]، قال البيضاوي: (وقيل: هي فُعْلَة بمعنى مفعول كالرحلة والنُّخبَة من أمَّه إذا قصده أو اقتدى به) ٥٦١/١، الطبعة الأولى،١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م، عن دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، وانظر: أحمد حسن فرحات: الأُمَّة في دلالتها العربية والقرآنية ص ١٣، (مرجع سابق).

(٣) أحمد حسن فرحات: الأُمَّة..: ص ١٦، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمد بن صالح العلي: المفهوم الإسلامي للأمة في مواجهة القومية (رسالة ماجستير من قسم الثقافة الإسلاميَّة في كلية الشريعة بالرياض، ١٤٠٦ هـ - ١٤٠٧ هـ): ص ١.

(٤) ابن منظور: لسان العرب، مادة (أَمَمَ) ١٠١/١، (مرجع سابق).

(٥) الخليل بن أحمد: كتاب العين، مادة (إمَّة) ٤٢٨/٨، ٤٢٩، (مرجع سابق).

المطلب الثاني

مدلول الأُمَّة في القرآن الكريم

ورد لفظ (أُمَّة) في القرآن الكريم في وجوهٍ كثيرة وأعطاها القرآن الكريم مضمونًا متميزًا كما هو الشأن في ألفاظٍ كثيرة سواها.

قال ابن فارس في كتابه الصاحبي في فقه اللغة: (فكان مِمَّا جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق. وأن العرب إنَّما عرفت المؤمن من الأمان، والإيمان وهو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافًا بها سُمِّيَ المؤمن بالإطلاق مؤمنًا، وكذلك الإسلام والمسلم، إنَّما عرفت منه إسلام الشيء، ثمَّ جاء في الشرع من أوصافه ماجاء)[1] .

ويستمر ابن فارس في قوله فيذكر الكفر والنفاق والفسق.. ويذكر الصلاة والركوع والسجود والصيام والحج والزكاة، وأنّها كانت لمعانٍ لغوية محدودة ثمّ زادت الشريعة مازادت، وأن هناك كثيرًا من الألفاظ؛ كالعمرة والجهاد، وسائر أبواب الفقه سارت على هذا المنوال مما حدا بالعلماء إلى التقسيم اللغوي والشرعي[2] .

---

(١) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة العربيَّة وسنن العرب في كلامها: ص ٨٣، ٨٤، تحقيق: أحمد صقر، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (بدون تاريخ).

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٨٤، ٨٦، ولمزيد من الاطلاع على أقوال العلماء في مسألة اللغوي والشرعي واختلافهم في ذلك انظر:

- أبو بكر الباقلاني في كتابه التقريب وقد نفى الأسماء الشرعية وذكر بأنها مستعملة في عين معانيها اللغوية، وقال بأن الزيادات المعتبرة في الشرع إنَّما هي شروط الإجزاء شرعًا. =

ومن هذا فإنَّ لفظ (أُمَّة) قد ورد في القرآن الكريم في أوجه عديدة بعضها بمعناه اللغوي وآخر بمدلوله الشرعي أو الاصطلاحي يحدد معناه السياق الذي جاءت فيه تلك الأوجه، وتناولته كتب التفسير [1]، وعلوم القرآن وبخاصة كتب الأشباه والنظائر [2].

ولعل الراغب الأصفهاني في كتابه: مفردات ألفاظ القرآن ألمَّ بجلّ تلك الأوجه في قوله: (والأمَّة: كل جماعة يجمعهم أمر واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعها أُمم، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [3] أي: كل نوع منها على طريقة قد سخرها

= – ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٩/٢٣٥، ٢٣٦ فصْلٌ في المسألة اللغوي والشرعي والاصطلاحي، (مرجع سابق).

(١) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/٣٦ و ٢/٤٣٨، (مرجع سابق).

(٢) انظر من هذه الكتب:

– نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: جمال الدين بن الجوزي.. ص ١٤٢ – ١٤٤، تحقيق: محمد عبدالكريم الراضي، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

– قاموس القرآن الكريم أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: للحسيني الدامغاني، ص ٤٢، تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهل، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥ م، دار العلم للملايين، بيروت.

– تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: لأثير الدين بن حيان الأندلسي: ص ٥١، تحقيق: سمير المجذوب، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م، المكتب الإسلامي، بيروت.

– مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني: ص ٨٦، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م، دار القلم، دمشق.

(٣) سورة الأنعام: الآية (٣٨).

الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرافة، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع.

وقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[1] أي: صنفاً واحداً وعلى طريقة واحدة في الضلال والكفر[2]، وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[3] أي: في الإيمان، وقوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾[4] أي: جماعة يتخيَّرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم، وقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾[5] أي: على دين مجتمع...، وقوله تعالى: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[6] حين، وقرئَ بعد أمَّة، أي: بعد نسيان، وحقيقة ذلك بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين.

وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾[7] أي: قائمًا مقام جماعة

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢١٣).

(٢) انظر: تفسير هذه الآية لدى ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢٥٠/١، (مرجع سابق)، وفي تفسيرها عدة أقوال منها ما ذكره الراغب أعلاه، ومنها ما روي عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

(٣) سورة هود: الآية (١١٨).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

(٥) سورة الزخرف: الآية (٢٢).

(٦) سورة يوسف: الآية (٤٥).

(٧) سورة النحل: الآية (١٢٠).

في عبادة الله، نحو قولهم: فلان قبيلة. ورويَ: «أنَّه يحشر زيد بن عمرو ابن نفيل أُمَّة وحده»[1].

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾[2]، أي جماعة)[3].

يتضح من قول الراغب إنَّ الأمَّة في القرآن الكريم جاءت على تسعة أوجه، هي[4]:

١ - كل صنف من الخلق تجمعه طبيعة خاصة أو يجمعه أمر واحد تسخيرًا أو اختيارًا فهو أُمَّة من الأمم.

٢ - كل الناس كانوا أُمَّة واحدة في الكفر والضلال.

٣ - كل الناس كانوا أُمَّة واحدة في الإيمان أو بالإمكان أن يكونوا أُمَّة

---

(١) أخرجه الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٤١٧/٩، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، عن دار الكتاب العربي، بيروت، وأصل حديث زيد بن عمرو بن نفيل أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١٣٩١/٣، الحديث رقم [٣٦١٤/٣٦١٥]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٣).

(٣) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨٦، ٨٧، مادة (أمَّ)، (مرجع سابق).

(٤) وانظر: جمال الدين بن الجوزي: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ص ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، (مرجع سابق).

وانظر: أثير الدين بن حيان الأندلسي: تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: ص ٥١، ٥٢، (مرجع سابق).

وانظر: مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ص ٧٩، ٨٠، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، (بدون تاريخ).

وانظر: الحسين بن علي الدامغاني: قاموس القرآن الكريم أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ص ٤٢، ٤٣، ٤٤، (مرجع سابق).

واحدة في الإيمان لو شاء الله.

٤ - الجماعة من الناس تختار الإيمان والعمل الصالح وتكون أسوة لغيرهم تسمى أُمَّة [(١)].

٥ - المجتمع الذي يجمعه دين واحد يسمى أُمَّة.

٦ - تطلق الأُمَّة على الحين [(٢)].

٧ - تطلق الأُمَّة على النسيان.

٨ - الرجل القائم مقام جماعة يسمّى أُمَّة.

٩ - وتطلق الأُمَّة على الجماعة المستقيمة من الناس.

وتتفاوت كتب الوجوه والنظائر وكتب التفسير وعلوم القرآن في تصنيف الأوجه التي ورد بها لفظ (أُمَّة) في القرآن الكريم، وإذا كان الراغب قد صنفها في تسعة أوجه فإنَّ ابن الجوزي صنفها في سبعة أوجه ونقلها عن المفسرين على خمسة أوجه [(٣)]، ووافقه في تصنيفها على سبعة أوجه ابن حيان الأندلسي [(٤)]، وصنفها الدامغاني على تسعة أوجه [(٥)]،

---

(١) انظر: ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول: ٢٠٥/٩، (مرجع سابق).

(٢) يرى بعض العلماء بأن إطلاق مسمى (أُمَّة) على الزمن باعتباره ظرف الأُمَّة فالأُمَّة من الناس تكون في الحين وتنقرض فيه فأقيم الحين مقامها. قال بهذا الطبري وابن قتيبة. انظر: أحمد حسن فرحات: الأُمَّة.. ص ١٩، ٢٠، (مرجع سابق)، وعلى نحو من هذا قال الراغب: (وحقيقة ذلك بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين)، مفردات ألفاظ القــرآن، ص٨٦، (مرجع سابق).

(٣) انظر: نزهة الأعين النواظر..: ص ١٤٢ - ١٤٤، (مرجع سابق).

(٤) انظر: تحفة الأريب.. ص ٥١، ٥٢، (مرجع سابق).

(٥) قاموس القرآن.. ص ٤٢ - ٤٤ (مرجع سابق).

وصنفها الفيروزآبادي على عشرة أوجه [1].

وفي دراسة موضوعية لمدلول الأُمَّة في اللغة العربية وفي القرآن الكريم توصَّلَ أحد الباحثين إلى التقسيم الآتي:

جاءت الأمّة في القرآن الكريم:

أ - بمعنى الجماعة.

ب - بمعنى الملة والدين.

جـ - بمعنى الرجل المنفرد الذي لا نظير له.

د - بمعنى الحين [2].

وتحت هذه التقسيمات الرئيسة صنَّف الباحث الآيات المندرجة تحتها ومعانيها المتنوعة [3].

ولعلَّ ما توصل إليه الباحث في مدلول الأُمَّة اللغوي أو مدلولها القرآني مما يعول عليه ويرجع إليه ولاسيما أنه جاء ردًا على مزاعم المستشرقين عندما شككوا في أصل كلمة (أُمَّة) وذكروا بأنَّها كلمة دخيلة مأخوذة من العبرية (أُمَّا) أو من الآراميَّة (أُمّيثا) [4]، ففي البحث رد عليهم وتأصيل للكلمة في منهج علمي [5].

---

(١) بصائر ذوي التمييز.. ص ٧٩، ٨٠، (مرجع سابق).

(٢) انظر: أحمد حسن فرحات: الأُمَّة في دلالتها العربية والقرآنية: ص ٢٣ - ٣٨، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٣ - ٢٩.

(٤) انظر: دائرة المعارف الإسلاميَّة لمجموعة من المستشرقين ٤/٤١١، الطبعة الثانية، ١٩٦٩ م، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد وغيره، عن دار الشعب، مصر.

(٥) انظر: أحمد حسن فرحات: المرجع السابق نفسه: ص ٢٣ - ٣٨. وانظر: محمد عودة سلامة أبو جرى: مفهوم الأُمَّة بين الجاهلية والإسلام، مجلة التربية، الصادرة عن اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم: ص ٢٢٦ - ٢٥٣، العدد (١٠٩) يونيو ١٩٩٤ م (الجزء الثاني من المقال) و (الجزء الأول منه) نشر في العدد (١٠٨) ولم أطلع عليه لعدم توفره.

المطلب الثالث

خلاصات لمعاني (الأُمَّة) في اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف واستنتاجات

لكي يصل الباحث إلى مفهوم معين للأُمَّة وللربط بين ذلك المفهوم وما سبق بحثه، ينبغي الإلمام بالنقاط الآتية:

أولاً : خلاصة معاني (أُمَّة) في معاجم اللغة العربية.

ثانيًا : خلاصة الأوجه التي ورد لفظ (أُمَّة) بها في القرآن الكريم.

ثالثًا : أبرز الاستنتاجات حول معنى (أُمَّة) في معاجم اللغة العربية.

رابعًا : الجوانب التي استعمل فيها مدلول (أُمَّة) في القرآن الكريم.

خامسًا : دلالة (الأُمَّة) في الحديث النبوي الشريف.

أولاً: ورد لفظ (أُمَّة) في معاجم اللغة العربية بمعان عدة بلغت حوالي ثمانية عشر معنى وهي مايلف عليه ويضم إليه غيره ولواءُ الشيء ورئيسه، والأصل في كل شيء، والدين والملة، والرجل المنفرد بدين، واتباع الرسل ومن بعث إليهم، والجيل من الناس، والجنس من الخلق، وخلق الله، والحين، والملك والنعمة، والعالم، والقوم والجماعة من الناس، وجماعة العلماء والجماعة المستقيمة، والطاعة، والوجه والقامة، ومعظم الشيء وسائره، والقرن من الناس.

ثانيًا: ورد لفظ (أُمَّة) في القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة [1] ، استخدم من خلالها فيما لايقل عن عشرة أوجه من المعاني اللغوية لهذا اللفظ هي: (الجنس من الخلق، السنون الخالية، الرجل الجامع للخير، الملّة والدين، الجيل من الناس، القوم، الجماعة من الناس، الزمان الطويل، المسلمون، الكفار) [2] .

وعلى الرغم من عدم ورود بعض المعاني اللغوية لأُمَّة في القرآن الكريم مثل معاني (الملك، والنعمة، والوجه، والقامة) إلا إنّ هذه المعاني جاءت ضمنًا، كما أعطى القرآن الكريم للفظ (أُمَّة) مضمونًا عميقا تندرج تحته المفاهيم الحديثة لمصطلح الأُمَّة [3] .

ثالثًا: من أبرز الاستنتاجات في معنى (أُمَّة) في معاجم اللغة العربية ما يأتي:

١ - جاء لفظ (أُمَّة) في معظم معاجم اللغة العربية في معانٍ متنوعة وكثيرة يصعب معها ضبط مصطلح محدد لمدلول (الأُمَّة)، لذلك قال بعض الباحثين: (إنَّ اللغويين لايقفون عند روابط بعينها عند تعريف الأُمَّة وإنَّ أيّة رابطة توجد في جماعة تجعل منها أُمَّة) [4] ، وقال آخر عن معاجم اللغة العربية (إنَّما وضعت لضبط الألفاظ،

---

(١) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٨٠، طبعة المكتبة الإسلاميَّة - تركيا ١٩٨٢ م.

(٢) انظر: الحاشية السابقة: ص ٨٠، البحث نفسه.

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلاميَّة: لمجموعة من المستشرقين ٤١١/٤، (مرجع سابق).

(٤) محمد أحمد خلف الله: التكوين التاريخي لمفاهيم الأُمَّة، (القومية، الوطنية، الدولة والعلاقة فيما بينها): ص ٤٩ من:القومية العربية والإسلام، إصدار مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية ١٩٨٢ م - بيروت.

لا لتحديد المعاني.. وإنها لاتبالي في كثير من الأحيان إنْ تعرف الشيء بنفسه، أو بأنَّه غير ضده)[1] .

٢ - على الرغم من هذه الظاهرة في معاجم اللغة العربية إلاّ إنّ لفظ (أُمَّة) يعود إلى الأصول اللغوية التي ذكرها ابن فارس: (الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، والقامة، والحين، والقصد)[2] ، ولاتخلو جميعًا من رابط[3] (سوف يتضح فيما بعد).

وهذا يعني أن لفظ (أُمَّة) ليس محصورًا في أصل واحد وهو القصد كما أورده الأزهري في تهذيب اللغة عن أبي عمرو الشيباني قال:[4] (وأصل هذا الباب كله من القصد، يقال: أممت إليه إذا قصدته..) إلى أن قال:[5] (فليس يخرج شيءٌ من هذا الباب عن معنى أممت أي قصدت) إنَّما القصد أصل واحد أو باب واحد من سبعة أصول أو أبواب لغويّة كما ذكر ابن فارس.

٣ - تأتي (أُمَّة) بمعنى الفاعل، وتأتي بمعنى المفعول، وتأتي بمعنى

---

(١) انظر: محمد عبدالله دراز: الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان): ص ٢٩، الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م، عن دار القلم - الكويت، وانظر: أحمد عبدالرحيم السائح: بحوث في مقارنة الأديان ص ١٨، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ -١٩٩١ م، عن دار الثقافة، الدوحة.

(٢) انظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٢١/١ (مرجع سابق).

(٣) انظر: أحمد حسن فرحات: الأمة.. ص ٢٠ (مرجع سابق).

(٤) الأزهري: تهذيب اللغة ٦٣٥/١٥ (مرجع سابق)، وانظر: ابن منظور: لسان العرب ١٠٢/١، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق نفسه: ٦٣٦/١٥. وانظر: محمد بن صالح العلي: المفهوم الإسلامي للأُمَّة..: ص ٦، (مرجع سابق).

الظرف؛ فإذا جاءت بمعنى الفاعل كان المقصود بها (الجماعة والإمام والأُسوة..) وبعبارة أوضح يتجه المراد بها في هذه الحالة إلى من يقوم بالفعل وهو الفاعل، وإذا جاءت بمعنى المفعول كان المقصود بها (الدين، أو الملّة أو الطريقة أو السنة أو الجماعة إذا كانت مأمومة..، ونحو ذلك مِمَّا يُؤَمُّ ويُقْصَد، ومعنى ذلك أنّ المراد بها يتجه إلى المفعول وهو ما تقوم به الجماعة أو الإمام أو الأسوة من دينٍ أو سنة أو طريقة تُفْعَلُ وتُؤَمُّ وتُقْصَدُ، سواء كان المفعول حقًا أو باطلا.

أمَّا إذا أُطلقت الأُمَّة على الزمان أو المكان فإنَّ المقصود بها ظرف الأُمَّة.

رابعًا: الجوانب التي استُعْمِلَ فيها مدلول (أُمَّة) في القرآن الكريم، ورد لفظ (أمَّة) في القرآن الكريم ليدل على الجوانب الآتية:

١ - الجانب التكويني باعتبار تعدد أصناف الخلق؛ من حيث الأصل والنوع والمنشأ والمرجع، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[1] .

٢ - الجانب الاجتماعي، ومنه قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[2] ، والآية بعدها ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[3] ، قال

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٣٨). وانظر مايتعلق بالكوني والشرعي لدى ابن تيمية: الجواب الصحيح ١/١٥٤، ١٥٥، (مرجع سابق)، وانظر: فتاواه ٨/٥٨ - ٦٢، (مرجع سابق).

(٢) سورة الزخرف: الآية (٢٢).

(٣) سورة الزخرف: الآية (٢٣).

الراغب: (أي على دين مجتمع) [1]، وهذا المعنى يعطي لفظ (أُمَّة) المحتوى الاجتماعي.

٣ - الجانب الديني، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [2]، قال الطبري في تفسيرها: (يقول تعالى ذكره: إنّ هذه ملتكم ملّة واحدة وأنا ربكم أيها الناس فاعبدونِ دون الآلهة والأوثان وسائر ماتعبدون من دوني) [3].

وقال البغوي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ ﴾: (أي ملتكم ودينكم ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: دينًا واحدًا وهو الإسلام، فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان) [4]، ففي هذه الآية الكريمة استعمل لفظ (أُمَّة) بمعنى الملة والدين؛ وهذا المعنى يعطيه المضمون الديني.

٤ - الجانب التاريخي، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [5] قال ابن كثير: (ثم أخبر تعالى إن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد إن لم يكن وأنّ الناس كلهم

---

(١) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: ص ٨٦، (مرجع سابق).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن ٨١/٩، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ، عن دار الكتب العلمية - بيروت. وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٩٤/٣، (مرجع سابق).

(٤) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: معالم التنزيل: ٣٥٣/٥، تحقيق: محمد عبدالله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، طبعة ١٤٠٩ هـ عن دار طيبة - الرياض.

(٥) سورة يونس: الآية (١٩).

كانوا على دين واحد وهو الإسلام)[1] ، فدلَّ ذلك على أنَّ الناس حينما طبقوا الدين الصحيح - وهو الإسلام - واجتمعوا على العقيدة الصحيحة قبل اختلافهم سموا أُمَّة، وهذا من المنظور التاريخي باعتبار أن ذلك حدث في التاريخ البشري[2] .

٥ - الجانب السياسي، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3] ، قال بعض العلماء في تفسيره هذه الآية: (لابُدّ من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والذي يقرر أنّه لابُدّ من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته.. هذا هو تصور الإسلام للمسألة.. إنّه لابُدّ من سلطة تأمر وتنهى.. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤١١/٢، (مرجع سابق). وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢٢/٣، في تفسير الآية [٢١٣] من سورة البقرة، طبعة دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م، بيروت.

(٢) انظر: أقوال المفسرين في ذلك، ومنها:

- ابن جرير الطبري: جامع البيان..: ٦٩/١١، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، دار المعرفة، بيروت.
- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم.. ٢٥٠/١، (مرجع سابق).
- البغوي: معالم التنزيل.. ٢٤٣/١، ٢٤٤، (مرجع سابق).
- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن.. ٢٢/٣، (مرجع سابق).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

الشر.. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله)[1]، ولاشك أنَّ الأمة بهذا التصور استعملت بمعنى هيئة أو جهاز سياسي يقوم بشؤون الحسبة والسلطة.

وقد درج بعض المفسرين على القول بأن معنى الأمّة في هذه الآية: (يعني المجاهدين والعلماء)[2].

وقال القرطبي: (ثمَّ إنَّ الأمر بالمعروف لايليق بكل أحد، وإنَّما يقوم به السلطان إذ كانت إقامة الحدود إليه، والتعزير إلى رأيه، والحبس والإطلاق له، والنفي والتغريب، فيُنَصِّبَ في كل بلدة رجلاً صالحاً قويّاً علمًا أمينًا ويأمره بذلك، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة)[3]، وقبل هذا قال عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنّه (فائدة الرسالة وخلافة النبوة)[4].

ولعل المصطلح السياسي لهذا الجانب من معاني (الأُمَّة) في الإسلام هو مصطلح (الجماعة) لأنَّها تشتمل على الجهاز أو الهيئة التي تتجسد فيها الأُمَّة في نظامها السياسي وتمثل حضور الأُمَّة والقيام على أمرها وبيدها السلطة..؛ فالجماعة في معناها السياسي: الولاية والإمارة وأهل الحل والعقد ورابطة العلماء.

أمَّا صلتها بالأُمَّة بشكل شامل فهو - والله أعلم - جماعة المسلمين

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن.. ٤٤٤/١، (مرجع سابق). وانظر: الشاطبي: الاعتصام ٤٥٢/٢، ضبط وتصحيح: أحمد عبدالشافي، عن دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية ١٤١١ هـ -١٩٩١ م.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم.. ٣٩٠/١ (مرجع سابق).

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن.. ٣١/٢، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٣١.

التي تتمثل فيها الأُمَّة الإسلاميَّة[1] في زمان معين أو مكان معين فتكون بذلك حلقة في سلسلة الأُمَّة الإسلاميَّة، وهذا من المعاني التي أوردها الشاطبي بوصفه المعنى الخامس من معاني الأُمَّة فقال: (الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، فأمر عليه الصلاة والسلام بلزومه ونهى عن فراق الأُمَّة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم)[2].

وقال: (فالجماعة التي أمر رسول الله ﷺ بلزومها وسمى المنفرد عنها مفارقًا لها نظير الجماعة التي أوجب عمر الخلافة لمن اجتمعت عليه، وأمر صهيبًا بضرب رأس المنفرد عنهم بالسيف، فهم في معنى كثرة العدد المجتمع على بيعته وقلة العدد المنفرد عنهم)[3].

وقد نقل الشاطبي أقوال العلماء في معنى الجماعة، وأورد استدلال كل فريق ثم قال: (حاصله؛ أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة المذكورة في الأحاديث...)[4].

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لا إسلام إلاَّ بجماعة، ولا جماعة إلاَّ بإمارة، ولا إمارة إلاَّ بطاعة)[5].

---

(١) في مفهوم الجماعة في الإسلام رسالة علمية مقدمة من ناصر بن عبدالله التركي لنيل الدكتوراه في قسم الثقافة الإسلاميَّة - كلية الشريعة، الرياض، نوقشت عام ١٤١٣ هـ.

(٢) الاعتصام ٤٥١/٢ (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه ٤٥١/٢.

(٤) المرجع السابق نفسه ٤٥٢/٢. وانظر: ما أورده عن بقية معاني الجماعة في الصفحات ٤٤٧ - ٤٥٣.

(٥) انظر: بكر أبو زيد: حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلاميَّة، ص ٥٩ (مرجع سابق)، والأثر أخرجه الدارمي في سننه: ٩١/١، الأثر رقم (٢٥١)، بتحقيق:=

(والإسلام هو الأصل في تكوين الجسم النامي للأُمَّة، والإمامة وسيلة لحراسة ذلك الجسم في أمر الدين والدنيا.. وهذا هو المفهوم الشرعي لجماعة المسلمين، متآخون على منهاج النبوة: الكتاب والسنة، ينتظمهم إمام ذو شوكة ومنعة)[1].

وإذا ربط هذا الجانب الذي دَلَّ عليه معنى (أُمَّة) بما سبق إيراده عن الخليل في معنى (إمَّة) وهو قوله: (وكلُّ من اقتدى به وقُدِّم في الأمور فهو إمام، والنبي عليه السلام إمام الأُمَّة، والخليفة إمام الرعية)[2]، تبيَّن اشتمال الأُمَّة على النظام السياسي وما يندرج تحته من راعٍ ورعيَّة أو إمام وإمامة وولاية وإمارة وأهل الحل والعقد والعلماء والمجاهدين، ونحو ذلك مِمَّا هو معروف في النظام السياسي.

يقول أحد الباحثين: (ثم كانت الانطلاقة العملية.. التي قادها محمد ﷺ.. فبلورت مفهوم (الأمَّة) وأصبح الشعار المميز لرسالتها، ولَمَّا يزل مصطلحًا متميزًا لايقابله في اللغات الأُخرى مصطلح مواز. كذلك أصبح اسم (أُمَّة) مصدرًا اشتقت منه أسماء مؤسسات الرسالة الجديدة والعاملين فيها والممارسات الجارية مثل: (الإمامة) و (الإمام) للصلاة أو الحكم، و (آمِّين البيت الحرام) أي الحج، و (آمِّين) أي مقتدين، لذلك كانت ترجمة هذا المصطلح تشويهًا لمحتواه، ومن الواجب أن يبقى

=فؤاد أحمد زمرلي وآخر، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٩٧ م، عن دار الكتاب العربي، بيروت، وفي سنده صفوان بن رستم، قال الذهبي في: الميزان: ٣١٦/٢: «صفوان بن رستم عن روح بن القاسم مجهول، وقال الأزدي: منكر الحديث»، وانظر: بكر أبو زيد: المرجع السابق نفسه: ص ٥٩، (حاشية رقم «١»).

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٦٠، ٦١.

(٢) الخليل بن أحمد: كتاب العين، مادة (إمَّة) ٤٢٨/٨، ٤٢٩، (مرجع سابق).

كما هو في أصله العربي في أية ترجمة كانت)[1].

خامساً: دلالة (الأُمَّة) في الحديث النبوي الشريف:

تبين مِمَّا سبق أنه استعمل في بعض المعاني التي جاءت في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً .... ﴾[2] ورُويَ عنه ﷺ أنَّه قال عن زيد بن عمرو بن نفيل: «يبعث يوم القيامة أمَّة وحده»[3]، واستعمله ﷺ للدلالة على بعض الأجناس من المخلوقات كقوله ﷺ: «لولا إن الكلاب أُمَّة من الأمم لأمرت بقتلها»[4]، وقوله عن النمل: «أحرقت أُمَّة من الأمم تسبح»[5].

وعند الرجوع لكتب السنة ومعاجمها يُلْحَظُ أنَّ لفظ (أُمَّة) قد ورد بكثرة زادت عن ثلاثمائة وثمانين مرَّة[6]، وإذا أُنْعِمَ النظر في استخدام

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني: الأُمَّة المسلمة ص ٢٧، (مرجع سابق).

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٠).

(٣) سبق تخريجه (٨٠)، (البحث نفسه).

(٤) سبق تخريجه: ص (٧٤)، (البحث نفسه).

(٥) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١٠٩٩/٣، كتاب الجهاد، باب [١٥٠]، الحديث رقم [٢٨٥٦]، بتحقيق: مصطفى ديب البُغا، الطبعة الرابعة، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠، عن دار ابن كثير..، دمشق؛ والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قرصت نملة نبيًّا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمّة من الأمم تسبح الله». ورواه مسلم عن أبي هريرة: صحيح مسلم ٤/ حديث [٢٢٤١] بلفظ: «أَهْلَكْتَ أُمَّة من الأمم تسبح»، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٦) انظر: المعجم المفهرس: إعداد لفيف من المستشرقين ومحمد فؤاد عبدالباقي:١/٩٢ - ٩٨؛ مادة (أُمَّة)، عن مكتبة بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٣٦ م.

لفظ (أُمَّة) في الحديث النبوي الشريف تبين أنّه جاء مشابهًا لاستخدامه في القرآن الكريم وفي الأوجه التي استخدم فيها في القرآن الكريم، ولكن وردت أحاديث ظاهرها التعارض في دلالتها على أُمَّة محمد ﷺ، من حيث المدح والذم والوعد والوعيد والخصوص والعموم مِمَّا دعا العلماء إلى النظر في هذه المسألة والخروج منها بتقسيم لأمته ﷺ ليدفع ذلك التعارض ويتم إعمال النصوص على الوجه الراجح فيها؛ فمما قيل في ذلك: (إنَّ أمته ﷺ على ثلاثة أقسام، أحدها أخص من الآخر:

- أُمَّة الاتباع.
- أُمَّة الإجابة.
- أُمَّة الدعوة.

فالأولى: أهل العمل الصالح.

والثانية: مطلق المسلمين.

والثالثة: من عداهم ممن بعث إليهم)[1].

وعلى هذا التقسيم تحمل النصوص - أو تخرج - بما يدفع التعارض سواء في المدح والذم، أو في الوعد والوعيد، أو الخصوص والعموم، ولكن تبقى مسألة أُخرى وهي التصنيف الوارد في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[2] فهل المقصود بهذا التصنيف أُمَّة محمد ﷺ أولاً ؟ ثم هل المقصود به أُمَّة

---

(١) ابن حجر: فتح الباري.، ٤١١/١٣، (مرجع سابق).

(٢) سورة فاطر: الآية (٣٢).

الدعوة ؟ أم أُمّة الإجابة والاتباع ؟.

أما كون المقصود به أمَّةُ محمد ﷺ فهو ما قال به أكثر المفسرين:

- قال الزمخشري: (والذين اصطفاهم الله هم أُمَّة محمد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة)[1].
- وقال القرطبي: (والآية في أُمَّة محمد ﷺ)[2].
- وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأُمّة)[3].
- وقال السعدي: (لَمَّا كانت هذه الأُمَّة، أكمل عقولاً، وأحسنهم أفكارًا، وأرقهم قلوبًا وأزكاهم أنفسًا اصطفاهم تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب؛ ولهذا قال ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (وهم هذه الأمَّة)[4].

---

(١) الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٦١٢/٣ رتبه: مصطفى حسين أحمد، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، (بدون تاريخ).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢٢٢/١٤، (مرجع سابق).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥٥٤/٣، (مرجع سابق). وانظر: فتح القدير للشوكاني ٣٤٩/٤، ٣٥٠، طبعة دار الفكر، (بدون تاريخ).

(٤) عبدالرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان: ٣٢٠/٦، تحقيق: محمد زهري النجار، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والدعوة والإرشاد – الرياض ١٤١٠ هـ، وانظر: سيد قطب: في ظلال القرآن ٢٩٤٤/٥ (مرجع سابق).

ثم هل المقصود بهذا التصنيف أمّة الدعوة أو أمّة الإجابة والاتباع؟:

- فالذي عليه أكثر المفسرين وعليه مذهب أهل السنة والجماعة هو إنّ المقصود به أُمَّة الإجابة والاتباع؛ قال ابن كثير: (روى غير واحدٍ من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأُمَّة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب.. والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأُمَّة، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضًا ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر)[1].
- ثُمَّ أورد جملة أحاديث تؤكد ذلك منها: ما رواه أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الآية: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأُمَّة»[2]، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: (هم أُمَّة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتابٍ أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب)[3].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/٥٥٥ (مرجع سابق).

(٢) رواه الطبراني عن عبدالله بن مسعود وعن أسامة بن زيد؛ في الكبير: ١/١٦٧، وأخرجه الهيثمي: مجمع الزوائد: ٧/٩٦، عن أسامة بن زيد. وانظر: الترمذي: الجامع الصحيح: ٥/٣٣٨، ٣٣٩، الحديث رقم (٣٢٢٥)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق)، وصححه الألباني.

(٣) عبدالله بن عباس: صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم:-

- ومنها ما رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إنّ هذه الأُمَّة ثلاثة أثلاث يوم القيامة ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عزوجل: ما هؤلاء ؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلاّ أنّهم لم يشركوا بك شيئًا فيقول الرب عزوجل: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي. وتلا عبدالله رضي الله عنه هذه الآية: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية)[1] .

- وذهب القرطبي إلى هذا بقوله: (وهذا قول ستة من الصحابة وحسبك)[2] ، قال أبو القاسم الغرناطي: (قال عمر وابن مسعود وابن عباس وكعب وعائشة وأكثر المفسرين هذه الأصناف الثلاثة في أُمَّة محمد ﷺ)[3] .

- واختاره الشوكاني بقوله: (وقد روي هذا القول عن عمر وعثمان

=ص ٤١٥، تحقيق: راشد عبدالمنعم الرجّال، (مرجع سابق)، وانظر: القاضي أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد ٤/٤٣٨، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، عن دار الكتب العلمية - بيروت.

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/٥٥٥ - ٥٥٦، (مرجع سابق).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٤/٢٢١، (مرجع سابق). وانظر: ابن عطية: المحرر الوجيز..: ٤/٤٣٨، (المرجع السابق نفسه).

(٣) أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي: التسهيل لعلوم التنزيل، ص ٥٤٨، طبعة الدار العربية للكتاب (بدون تاريخ).

وابن مسعود وأبي الدرداء وعائشة، وهذا هو الراجح)[1].

- ولابن قيم الجوزيّة وقفة متأنية ناقش فيها سائر الأقوال المتعارضة في هذه الآية وبين حجج كلٍّ فريق وأدلته، ثم رجَّحَ القول بأن الأصناف الثلاثة كلهم من هذه الأُمَّة أُمَّة محمد ﷺ أُمَّة الإجابة والاتباع المصطفاه، وأن الأدلة على ذلك (قد بلغت في الكثرة إلى حدٍ يشد بعضها بعضًا، ويشهد بعضها لبعض)[2].

ثم ساق أدلة أخرى تؤيد هذا القول وقال بعدها: (فهذه الآثار يشد بعضها بعضاً، وإنها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها وسياق الآية يشهد لها بالصحة فلانعدل عنها)[3].

وعلى هذا فإن أمّة محمد ﷺ تطلق ويراد بها:

١ - كافة المكلفين من الإنس والجن المقصودون بالدعوة منذ بعث وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا نطاق عالمي واسع[4].

٢ - وتطلق ويراد بها المستجيبون لدعوته وهم الذي أعلنوا الدخول في الإسلام بنطق الشهادتين وجاؤوا بأركان الإسلام حسب القدرة والاستطاعة وهؤلاء ينطبق عليهم قوله ﷺ: «أمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلاّ الله، وأن محمدًا رسول

---

(١) الشوكاني: فتح القدير ٣٤٩/٤، (مرجع سابق). وانظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن.. ٣٢٠/٦، (مرجع سابق). وانظر: سيد قطب: في ظلال القرآن ٢٩٤٤/٥، (مرجع سابق).

(٢) ابن قيم الجوزية: طريق الهجرتين وباب السعادتين: ص ٣٦٥، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٣٦٩. وانظر: تفصيل التعارض والترجيح وأدلة كل فريق في الصفحات من ٣٤١ حتى ٣٦٩، (المرجع السابق نفسه).

(٤) سيأتي مطلب خاص عن (العالمية) بوصفها إحدى خصائص تميُّز الأمّة الإسلاميَّة: ص ٦٧٣ - ٧٠٥، (البحث نفسه).

الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم إلاَّ بحق الإسلام وحسابهم على الله»[1] . وعلى هذا فأُمَّة الإجابة عامّة المسلمين.

٢ - يراد بأُمَّة محمد ﷺ أُمَّة الاتباع وهؤلاء أخص من غيرهم وهم الذين يكونون على ما وصفهم به الرسول ﷺ في قوله: «ما أنا عليه وأصحابي»[2] ، حينما أخبر ﷺ عن افتراق الأُمم وافتراق أمته إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها تنحرف عن الجادةً إلاّ فرقة أو طائفة أو عصبة أو أُمّة واحدة تبقى على الحق وتلزم صراط الله المستقيم.

وقد ورد مسمى (أُمَّة) على هذه الطائفة أو الفرقة أو العصبة من أُمَّة محمد ﷺ فيما أخرجه البخاري عن معاوية أنّه سمع الرسول ﷺ يقول: «لايزال من أمتي أُمَّة قائمة بأمر الله مايضرهم من كذّبهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[3] ، فدلَّ ذلك على أُمَّة

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١١/١، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في كتاب الإيمان باب [١٧]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، ورواه مسلم: صحيح مسلم: ٥٣/١، عن ابن عمر رضي الله عنهما ولكن بلفظ: (عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلاّ بحقها) كتاب الإيمان - باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله...، بتحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح: ٢٦/٥، كتاب الإيمان، الباب [١٨]؛ ماجاء في افتراق هذه الأمة، الحديث رقم [٢٦٤٣]، تحقيق: كمال يوسف الحوت (مرجع سابق)، وقال الترمذي: (هذا حديث مفسر غريب، لانعرف مثله إلاّ من هذا الوجه)، وانظر: جامع الأصول لابن الأثير ٣٤/١٠، (مرجع سابق). وانظر: الشاطبي: الاعتصام: ٤٤٣/٢، (مرجع سابق).

(٣) صحيح البخاري ١٨٩/٨ الباب [٢٩] من كتاب التوحيد، وفيه روايات عديدة لدى=

الاتباع وهم أخص من أُمَّة الإجابة، وللعلماء فيها عدة أقوال منها:[1]

- ما ورد في بعض الروايات لدى البخاري أنهم أهل العلم[2].
- وقال الإمام أحمد بن حنبل إنهم أهل الحديث[3].
- وقال القاضي: (إنَّما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذاهب أهل الحديث)[3].
- وقال الشاطبي: (إنهم جماعة أئمة العلماء المجتهدين). وقال: (فمعنى قوله ﷺ: «لن تجتمع أمتي على ضلالة» لن يجتمع علماء أمتي على ضلالة)[4].
- ولكن النووي يعطيها دائرة أوسع بقوله: (يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين. فمنهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء،

=البخاري ومسلم. وانظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح.. ١/٣٦٢، (مرجع سابق). توثيق هذا الحديث وذكر طرقه لدى ابن الأثير جامع الأصول ١٠/٣٧، (مرجع سابق). وانظر: المقدمة: ص ٢١ (البحث نفسه).

(١) انظر: صحيح البخاري ٨/١٤٩ كتاب الاعتصام باب [١٠]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق). وانظر: باب [١٩] ص ١٥٦، (المرجع السابق نفسه).

(٢) وذهب إلى هذا القول كثير من العلماء منهم: علي بن المديني، ويزيد بن هارون وعبدالله ابن المبارك. انظر: البغدادي: شرف أصحاب الحديث: ص ٢٦، ٢٧، تحقيق: محمد سعيد خطيب أوغلي، (بدون تاريخ). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ١/٤٨٠، ٤٨١، طبعة ١٤١٥ هـ/١٩٩٥ م، عن دار المعارف، الرياض.

(٣) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/١٦٤، والمباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: ٦/٣٥٩، ٣٦٠ الحديث رقم: (٢٢٨٧)، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، عن دار الكتب العلميّة، بيروت.

(٤) الشاطبي: الاعتصام ٢/٤٤٩ (مرجع سابق).

ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولايلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض)[1] .

- وصنف البغدادي أهل السنة والجماعة إلى ثمانية أصناف، وهم:

١ - (صنف منهم أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة.

٢ - والصنف الثاني منهم أئمة الفقه من فريقي الرأي والحديث.

٣ - والصنف الثالث منهم هم الذين أحاطوا علمًا بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي عليه السلام وميزوا بين الصحيح والسقيم منها وعرفوا أسباب الجرح والتعديل ولم يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع أهل الأهواء الضّالة.

٤ - والصنف الرابع منهم قوم أحاطوا علمًا بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف وجروا على سمت.

٥ - والصنف الخامس منهم هم الذين أحاطوا علمًا بوجوه قراءات القرآن وبوجوه تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضّالة.

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي: ٧٠/١٣، ٧١، الحديث رقم: (١٧٠، ١٩٢٠)، مراجعة: خليل الميس، طبعة دار القلم، بيروت، (بدون تاريخ). وانظر: محمد فؤاد عبدالباقي: صحيح مسلم ١٥٢٣/٣، (مرجع سابق). وانظر: عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب: قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة سيد المرسلين: ص ١٥٥، طبعة مكتبة الرياض الحديثة، (بدون تاريخ). وانظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح ٣٧٠/١، (مرجع سابق).

٦ - والصنف السادس منهم الزهاد الصوفية.. على سمت أهل الحديث دون من يشتري لهو الحديث.

٧ - والصنف السابع منهم قوم مرابطون في ثغور المسلمين في وجوه الكفرة يجاهدون أعداء المسلمين ويذبون عن حريمهم وديارهم ويظهرون في ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة.

٨ - والصنف الثامن منهم عامة البلدان التي غلب فيها شعائر أهل السنة دون عامة البقاع التي ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة) [(١)].

وعقّب على تصنيفه هذا بقوله: (إنَّ النبي عليه السلام لما ذكر افتراق أُمته بعده ثلاثًا وسبعين فرقة وأخبر إن فرقة واحدة منها ناجية، سئل عن الفرقة الناجية وعن صفتها فأشار إلى الذين هم على ما عليه هو وأصحابه. ولسنا نجد اليوم من فرق الأُمّة من هم على موافقة الصحابة رضي الله عنهم غير أهل السنة والجماعة) [(٢)].

وخلاصة القول في أُمَّة محمد ﷺ إنّ لها ثلاث دوائر بعضها أخص من بعض فالدائرة الواسعة من حيث الزمان والمكان وشمول الخطاب يطلق عليها أُمَّة الدّعوة وتشمل جميع الثقلين الإنس والجن في كل زمان ومكان من حين صدع ﷺ بما أُمِرَ به من التبليغ وحتى نهاية التاريخ البشري [(٣)]، وتسمى هذه الأُمَّة في دائرتها الواسعة أُمّة الدعوة باعتبارها

---

(١) عبدالقاهر بن طاهر البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم: ص ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، طبعة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، بيروت.

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٤.

(٣) انظر: مطلب العالمية بوصفها إحدى خصائص تميُّز الأمة الإسلاميَّة، في الصفحات ٦٧٣-٧٠٥، (البحث نفسه).

مقصودة بالدعوة وتأتي في داخلها دائرة أخص وهي أُمَّة الإجابة باعتبارها المقصودة بالإجابة لما دعا إليه الرسول ﷺ، ثم في داخل هذه الدائرة تكون أُمَّة الاتباع وهي أخص من أُمَّة الإجابة باعتبارها اتبعت الرسول ﷺ حين استجابت لدعوته، وسارت على صراط الله المستقيم وفقا لسنة المصطفى ﷺ.

* * *

المطلب الرابع

نماذج من تعريفات العلماء والمفكرين لمدلول (الأُمَّة) في الفكر الإسلامي وتحديد مصطلح (الأُمَّة) في البحث

إنَّ المتأمل في استعمال لفظ (أمَّة) في اللغة، والقرآن الكريم، والحديث النبوي، والتراث الإسلامي؛ يجده يشتمل على اعتبارات متنوعة قد يُنَصُّ على بعضها، وقد يتضمن بعضها الآخر، وهذه الاعتبارات هي: (الجماعة والاجتماع أو الذّات والفعل، أو الوحدة في الأصل، أو المنشأ، أو المرجع والمصير، أو الجهة، أو القصد، أو العلاقة والرابطة، أو الزمان، أو المكان).

لذلك فإنَّ معظم من عرّف الأُمَّة تناولها في بعض معانيها دون بعض، أو ركز على بعض الاعتبارات في مدلولها وغاب عنه بعضها الآخر، وللمثال على هذا استعرض نماذج من تعريفات المفكرين لمدلول (الأُمَّة) في الفكر الإسلامي فيما يأتي:

١ - عرَّفها الراغب الأصفهاني بقوله: (الأُمَّة: كل جماعة يجمعهم أمر واحد، أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا وجمعها أُمَم)[١].

٢ - عرَّفها الحكيم الترمذي بتعريفات كثيرة؛ منها قوله: (الأُمة هي الجماعة التي يؤمها الناس ويقصدونها.. فإنَّما صارت الأُمَّة في

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن.. ص ٨٦ (مرجع سابق). وانظر: الكفوي: الكليات.. ص ١٧٦ (مرجع سابق).

هذا المكان الجماعة لأنّ الذي يقصده الناس ويبصرونه: إنَّما يبصرون الكثرة المجتمعة حتى يقصدونها)[1] .

٣ - عرَّفها أبو البقاء بأنها (تسمَّى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق)[2] .

٤ - عرَّفها الطبري بأنّها (جماعة من الناس تجتمع على دين واحد وملة واحدة.. ثم تستعمل في معانٍ كثيرة ترجع إلى معنى الأصل)[3] .

٥ - عرَّفها البغوي في موضع من تفسيره بأنّها (اتباع الأنبياء)[4] . وقال في موضع آخر: (وأصل الأُمَّة الجماعة التي هي على مقصدٍ واحد فجعلت الشريعة أُمَّة واحدة لاجتماع أهلها على مقصد واحد)[5] .

ويوافق البغوي في تعريفه للأمّة بأنها (اتباع الرسل) بعض المفكرين المعاصرين مثل علي عبدالحليم محمود إذ قال في تعريفها: (جماعة من الناس لهم رسول)[6] وقال: بأنها وردت في القرآن بهذا المعنى.

وعند التأمل يلحظ إنّ في القرآن الكريم تصنيفاً للخليقة بعامة

---

(١) الحكيم الترمذي: تحصيل نظائر القرآن.. ص ٨٢، تحقيق: حسني نصر زيدان، الطبعة الأولى، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م، عن مطبعة دار السعادة، القاهرة.

(١) أبو البقاء الكفوي: الكليات..: ص ١٨١، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن: فرحات: الأمّة..: ص ١٦، (مرجع سابق).

(٣) معالم التنزيل ١/١٥١، (مرجع سابق).

(٤) المرجع نفسه ٣٥٢/٥.

(٥) مع العقيدة والحركة والمنهج في خير أُمّة أخرجت للناس: ص ١٩، (مرجع سابق).

وللبشرية بخاصة إلى أُمم متعددة ومتنوعة، والأُمَّة في معناها البشري من أُرْسِلَ إليهم رسول من مكذب به ومصدق[1]، ولكل أُمّة رسول وكتاب وأجل ومنسك ويوم العرض الأكبر يأتي كل نبي، وتأتي معه أُمَّته وهو عليها شهيد وإمام ويؤتى معها بكتابها.

وعلى هذا فإنَّ تعريف الأُمَّة بجماعة الرسل أو اتباع الرسل ليس تعريفًا جامعًا مانعًا.

٦ - وعرَّفها سيد قطب بقوله: (هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض)[2].

٧ - وعرَّفها محمد المبارك بقوله: (إذا عملت عوامل التوحيد والصهر والانسجام في شعب من الشعوب كالاشتراك في اللغة والحياة المشتركة الطويلة أي التاريخ والثقافة والمعتقدات والمبادئ والأفكار والعادات والأخلاق، تألف منه وحدة اجتماعية حيَّة نسميها أُمَّة)[3].

٨ - عرَّفها فاروق الدسوقي بقوله: (الأُمَّة - حسب المصطلح القرآني - هي جماعة من الناس تؤمن بعقيدة واحدة، وتعيش بمنهج حياة واحد. وبعبارة واحدة: هي جماعة تدين بدين واحد)[4].

ثم يواصل الشرح بقوله: (ولايهم بعد ذلك أن تتمثل هذه الأُمَّة في فردٍ واحد أو عدد قليل من الناس، أو في جماعة أو في دولة أو مجموعة

---

(١) انظر: الكفوي: الكليات.. ص ١٧٦، (مرجع سابق).

(٢) في ظلال القرآن ١/١١٧، (مرجع سابق).

(٣) الأُمّة والعوامل المكونة لها.. ص ٣١، ٣٢، (مرجع سابق).

(٤) مقومات المجتمع المسلم..: ص ١٢٢، (مرجع سابق).

دول وشعوب مختلفة.

ولايشترط أن تعيش الأُمَّة في إقليم جغرافي واحد أو تنتسب إلى جنس أو أصل عصبي أو قبلي واحد. فالأُمَّة إذن تختلف عن القبيلة أو العشيرة، حيث القبيلة جماعة من الناس يجمعهم انتسابهم إلى جد واحد، فهذه الأخيرة رابطة عرقية أو عصبية، وكذلك تختلف الأُمَّة عن الشعب، حيث الشعب هو جماعة من الناس يجمعهم الإقليم الجغرافي الواحد.

وبذلك يتضح لنا أن اختلاف الناس إلى قبائل وشعوب أمر حتمي جبري جعله الله من طبائع الناس وأحوالهم على الأرض من حيث إنَّ اختلاف البيئات الجغرافية يجعل منهم شعوبًا، واختلاف الأجداد الذين تنحدر منهم كل جماعة يجعل منهم قبائل وعشائر) [1].

ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [2].

٩ - يرى العقاد بأنَّ (مونتجومري وات) في كتابه الإسلام والجماعة المتحدة قد أصاب في التنويه بمعنى (أُمَّة) في العقيدة الإسلاميَّة واعتبر أنّه معنى فريد تميز به الإسلام ولم يكن له مرادف بمعناه في لغة من اللغات قبل الإسلام ولا بعده.. ثمّ يعقد مقارنة بين الكلمات التي تقابل كلمة (أُمَّة) في اللغات الأوروبية وبين كلمة

---

(١) مقومات المجتمع المسلم..: ص ١٢٢، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(أُمَّة) في اللغة العربية والإسلام [1] على النحو الآتي:

- فكلمة nation التي تقابل هذه الكلمة في اللغات الأوروبية مأخوذة في أصلها من معنى الولادة، ومفادها أن الولادة في مكان واحد هي الرابطة التي تكسب أبناء الوطن حقوق هذه الوحدة الاجتماعية.

- وكلمة people تقابل عندهم كلمة الشعب أحيانًا باللغة العربية، وترجع في أصلها إلى السكن والإقامة.

وكلا المعنيين - معنى الولادة ومعنى السكن - قاصر عن الدلالة على القومية [2] كما يفهمها علماء التعريفات الاجتماعية والسياسية في عصرنا الحاضر، وأصبح منها أن تكون رابطة الأُمَّة هي رابطة الاشتراك في وجهة عامَّة كما سبقت بها دلالاتها في الآيات القرآنية.

إلاَّ أننا لاننسى في هذا المقام أن نعود إلى الناحية اللغوية لنعرف مدلول اللفظ في اللغة ومدلوله في الاصطلاح بعد الدعوة المحمدية [3].

فاستقبال الجهة أصيل في كثير من الكلمات التي تفيد معنى الوحدة

---

(١) انظر: ما يقال عن الإسلام..: ص ١٤٩، (مرجع سابق). وانظر: عمر إبراهيم: مفهوم الأُمَّة بين لغة وأخرى، مجلة الفكر العربي المعاصر، (مرجع سابق).

(٢) علَّق سيد قطب في الظلال ١٤٤٥/٣ (مرجع سابق) على ما نقله عن المودودي: الجهاد في سبيل الله إذ قال: (إنهم حسبوا المسلمين أُمَّة (Nation) بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال) بقوله: (يعني أُمَّة قومية وهي التي تطلق عليها اللفظة (السابقة) وإلاَّ فالمسلمون أُمَّة بالمصطلح الإسلامي وهي الجماعة من الناس المجتمعة على عقيدة الإسلام، المنتظمة في تجمع قائم على هذا الأساس، الخاضعة لقيادة تنفذ شريعة الله).

(٣) لمسمَّى (المحمدية) في كتابات بعض المستشرقين مدلول معادٍ لحقيقة الإسلام وسيأتي شرح ذلك في موضعه. وانظر: محمد مهدي شرف الدين: بين الجاهلية والإسلام ص ٤٣، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت.

الاجتماعية باللغة العربية وإن قل عددها بالنسبة إلى الأقوام الكثيرة:

- فالقبيلة - وهي أصغر من الأُمَّة ومن القوم - تطلق على الذين يستقبلون جهة واحدة في السكن والمرعى.

- والفئة - وهي أصغر من القبيلة - تطلق على الذين يفيئون إلى ظل واحد.

- والقوم - وقد يكونون قبيلة كبيرة أو قبائل متعددة على عهد بينها- هم جماعة يقومون معًا في أمور الحرب والسلم، ويغلب أن يكون قيامهم معًا بأمور الحرب أعم في بداية الأمر من القيام معًا بسائر مهام المعيشة؛ ولهذا كان المفهوم من القوم أولاً جماعة الرجال دون النساء، قبل أن تعم الرجال والنساء أجمعين.

فمعنى الوجهة أصيل في اللغة العربية للدلالة على وحدة الجماعة، ولكن القرآن الكريم قد جاء بكلمة الأُمَّة في معارض كثيرة تفيد معنى السبط من القبيلة، كما تفيد معنى الجماعة الكبرى التي تحيط بشعوب كثيرة.

فمن هذه الدلالة القرآنية لزمت وحدة الوجهة معنى الأُمَّة في مواضعها الكثيرة، وحق لمؤلف كتاب: الإسلام والجماعة الموحدة، أن يعتبر هذه الفكرة - فكرة القبلة الروحية - عصمة من التفرق وينبوعًا لكل دعوة ترد إلى حظيرة الإسلام كل من يخالفون الجماعة باسم (الوحدة) وسعيًا إلى التوفيق فقد تعلقت آمال المسلمين على الزمن بهذه القبلة الموثوقة، كأنها الأفق المشرق الذي لايغيب عنه الضياء، ولاينقطع دون الرجاء) (١).

(١) ما يقال عن الإسلام: ص ١٤٩، ١٥٠، (المرجع السابق نفسه).

والحقيقة أنّ فهم (مونتجومري وات) لمعنى (أُمَّة) يُعَدُّ من العمق بمكان وقد أطلق عليها بالإنجليزية dyhamic Imdge وترجمها العقاد بمعنى (الطيف) أو المثال الذي يحفز السائر إلى الحركة والتقدم ويهون عليه مشقة الطريق.. يقول العقاد: وأقرب من ذلك باللغة العربية أن نسميها: (القبلة الموجهة) أو (القبلة المستجابة؛ لأنها كلمة موافقة لشعائر الإسلام) [(١)].

بعد هذه الاقتباسات المتفرقة في تعريف الأُمَّة والتي تؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أنّ من عرَّف الأُمَّة قد تناولها من ناحية أو ركَّزَ على معنىً دون الآخر.. بعد ذلك كله يظهر إنّ مصطلح (الأُمَّة) بحاجة إلى نظرة تأخذ في الاعتبار الآتي:

١ - الجماعة في معناها الحسي من حيث القلّة والكثرة أو الكم والعدد ومن حيث مجيئها بمعنى الفاعل.

٢ - الجماعة حين تأتي بمعنى المفعول باعتبارها تُؤَمُّ وتُقْصَد.

٣ - الحين والسنين والآماد؛ باعتبارها الظرف الزمني للأُمَّة.

٤ - القوم الذين يقومون في مكان واحد باعتباره الظرف المكاني للأُمَّة؛ ومما يوضح الظرف المكاني للأمّة ما ورد لدى المفسرين في معنى النسك باعتباره المكان الذي تؤدي الأُمَّة فيه الشعائر والعبادات [(٢)].

٥ - الرجل الجامع للخيرات أو الذي لا نظير له.. باعتباره قام مقام الأُمَّة.

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢) الطبري ١/٦٠٥، (مرجع سابق).

٦ – الدين والشرعة والمنهاج والملّة والسنة والطريقة؛ باعتبار ذلك فعل الأُمَّة أو الرابطة أو الوجهة أو القصد ونحو ذلك مِمَّا يكون سبب الاجتماع.

إنَّ مصطلح (الأُمَّة) في حاجة إلى صياغة تلم بهذه المدلولات الستة.

ومن الممكن أن يتجاوز المصطلح المكان والزمان باعتبارهما يأتيان ضمنًا في تعريفه إذ هما لازمان من لوازم الجماعة والاجتماع فلابُدَّ في ذلك من مكان للجماعة والاجتماع، ولابُدَّ من زمن تتكون فيه الجماعة ويحدث فيه الاجتماع.

كما إنَّه من الممكن – أيضًا – استبعاد الرجل الجامع للخير.. من التعريف باعتبار أنَّ إطلاق (الأُمَّة) عليه كان إطلاقًا معنويًا أو مرحليًا؛ حيث إنَّه قام مقامها أو حلَّ محلها أو ناب عنها أو كان لها نواةً وأصلاً أو إماما أو اندرج في عداد الأُمَّة عبر تاريخها الطويل؛ وفي كل هذه الاعتبارات فإن إطلاق مسمى الأُمَّة عليه كان معنويًّا.

يبقى التركيز في تعريف المصطلح على الجماعة التي تؤم طريقة أو سنة أو ملة أو دينا سواء كانت الجماعة آمّة بمعنى الفاعل أو مأمومة بمعنى المفعول. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى التركيز في التعريف على الطريقة أو السنة أو الملّة أو الدين التي تقصد وتؤم.

قال أحد الباحثين عن هاتين الركيزتين في تعريف مصطلح الأُمَّة: (إنَّ الحل المعتمد لهذه الجدلية – بين الطريقة والجماعة – هي تصور الجماعة المتفقة على طريقة واحدة. وفي هذا الحل يتقدم معنى الطريقة على معنى الجماعة، بحيث إن الجماعة تصبح محدودة ومعروفة بالطريقة التي تتبعها)[(١)].

---

(١) ناصيف نصار: مفهوم الأُمَّة بين الدين والتاريخ.. ص ٢٢، (مرجع سابق).

ويتابع الباحث قوله وفقاً لاستنتاجاته حول (الأُمَّة): إنّ مصدر هذه الجدلية هو: (تردد الأصل الذي خرجت منه كلمة (أُمَّة) بين الفعل (الأمّ): الذي يعني القصد بنية الاقتداء واسم الأُمّ، الذي يتضمن معنى المصدر أو المرجع)[1] .

ثمّ يؤكد أنّ كلمة (أُمَّة) - مهما كان أصلها - (تجمع بين معنى القصد والاتجاه، ومعنى التحدر والصدور، وتعرض هذين المعنيين كوجهتين للوحدة القائمة بين مجموعة معينة من الناس، وجهة الوحدة في المصدر ووجهة الوحدة في الاتجاه)[2] .

لعل هذه الاستنتاجات وما سبقها من تعريفات متعددة تفضي إلى مصطلح للأُمَّة وهي مجردةٌ عن الوصف والإضافة فيمكن القول بأنّ: الأُمَّة: كل جماعة من الناس لها رؤية شاملة للإنسان والحياة والكون ينبثق عنها منهج متكامل يصبغها بصبغته ويميزها بطابعه.

* * *

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٢٢.

المبحث الثالث

مفهوم الأُمَّة الإسلاميَّة

ويشتمل على مطلبين، هما:

المطلب الأول: معنى الإسلام.

المطلب الثاني: معنى الإسلام مضافًا إلى الإمة.

المطلب الأول

معنى الإســـــلام

يتكون مفهوم الأمَّة الإسلاميَّة من:

الأُمَّة: وسبق تعريفها بأنها: كل جماعة من الناس لها رؤية شاملة للإنسان والحياة والكون ينبثق عنها منهج متكامل يصبغها بصبغته ويميزها بطابعه.

الإسلاميَّة: نسبةً إلى الإسلام.

ويطلق الإسلام ويراد به ثلاثة معانٍ:

الأول: الاستسلام والخضوع والانقياد لله جلَّ وعلا، ويدخل في ذلك جميع خلق الله طوعًا وكرهًا؛ قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾[1] (فكل العوالم مسلمة لله تعالى إنسها وجنّها وحيوانها وجمادها)[2]، وهذا المعنى داخل في الإرادة الكونية القدرية[3].

ويُخَصُّ بنو آدم بالعهد الذي أخذه الله عليهم وفطرهم عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٨٣).

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤/٢٤٦٩، (مرجع سابق).

(٣) وانظر: الإسلام بهذا المعنى في دائرة المعارف الإسلاميَّة مادة (إسلام)، (مرجع سابق).

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾[1].

الثاني: الدين الحق الذي جاءت به جميع الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[3].

كل الأنبياء والرسل جاءوا بدين الإسلام من أولهم إلى آخرهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٧٢). وسيجري بحث هذه المسألة في مطلب العقيدة بوصفها مقومًا من مقومات تميز الأمّة الإسلاميّة. وانظر: عبدالحليم أحمدي: معنى فطرية الإسلام عند الإمام ابن تيمية؛ مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميّة، الصفحات ٣٠١ – ٣٢٤، العدد [٢٠]، السنة [٨] ذو القعدة ١٤١٣ هـ – مايو ١٩٩٣ م، تصدر عن مجلس النشر العلمي، بجامعة الكويت.

(٢) سورة الشورى: الآية (١٣).

(٣) سورة النساء: الآيتان (١٦٣، ١٦٤).

(وأولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به)[1].

وفي هذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[2].

وجاء على لسان كل رسولٍ ونبي الإقرار بالإسلام أو الوصية به أو الدعاء أن يكون هو وذريته من المسلمين، وللمثال على ذلك:

- ما ورد عن نوح عليه السلام بأنّه قال: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[3].

- ووصف إبراهيم عليه السلام بأنّه ﴿ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[4].

- ودعوته هو وابنه إسماعيل لهما ولبعض ذريتهما ووصيته لبنيه،

---

(١) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٩٢/٣، (مرجع سابق)، وانظر: محمد عبدالله دراز: موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها، ص ٦٨١ - ٦٨٨، مجلة لواء الإسلام: عدد [١١] السنة [١١] رجب ١٣٧٧ هـ.

(٢) سورة آل عمران: الآية (٨١).

(٣) سورة يونس: الآية (٧٢).

(٤) سورة آل عمران: (٦٧).

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2].

- وكرر هذه الوصية يعقوب لبنيه عند وفاته، قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[3].

- ومن دعوة يوسف عليه السلام قوله: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[4].

- وجاءت دعوة موسى عليه السلام لقومه: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (١٢٧، ١٢٨).

(٢) سورة البقرة: الآية(١٣٢).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٣٣).

(٤) سورة يوسف: الآية (١٠١).

﴿ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[1].

- ومما يؤكد ذلك إعلان فرعون عن إسلامه عندما أدركه الغرق، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2].

- وفي رسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس جاء ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[3].

- وعن إسلام عيسى عليه السلام ومن تبعه من الحواريين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[4].

وقد وردت أحاديث عديدة عن النبي ﷺ تبين حقيقة دين الأنبياء وأنّه الإسلام منها قوله ﷺ: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء إخوة لعلّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»**[5]، قال جمهور العلماء: (معنى الحديث: أصل إيمانهم

---

(١) سورة يونس: الآية (٨٤).

(٢) سورة يونس: الآية (٩٠).

(٣) سورة النمل: الآية (٣١).

(٤) سورة المائدة: الآية (١١١).

(٥) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٣/١٢٧٠، الحديث رقم [٣٢٥٩] تحقيق: مصطفى البُغا، (مرجع سابق)، ورواه مسلم بألفاظ متقاربة؛ انظر: صحيح مسلم: ٤/١٨٣٧-

واحد وشرائعهم مختلفة فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأمَّا فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف)[1].

ويقول ابن تيمية: (الرسل دينهم واحد وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والمنسك فإنّ ذلك لايمنع أن يكون الدين واحدًا كما لايمنع ذلك في شرعة الرسول الواحد)[2].

الثالث: الإسلام هو الدين الذي بُعِثَ به محمد ﷺ وإليه تنسب أُمَّة محمد ﷺ.

يقول ابن تيمية: (وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أُمَّة موسى وعيسى، هل هم مسلمون أم لا[3]؟ وهو نزاع لفظي، فإنّ الإسلام

= كتاب الفضائل - باب: فضائل عيسى عليه السلام رقم الحديث [٢٣٦٥]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(١) محمد فؤاد عبدالباقي: تعليقه على الحديث رقم [٢٣٦٥]؛ صحيح مسلم: ١٨٣٧/٤، المرجع السابق نفسه.

(٢) ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩٢/٣، (مرجع سابق). وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٨٦/١، (مرجع سابق).

(٣) للعلماء في هذه المسألة عِدَّةُ أقوال منها:

- إنَّ الإسلام يطلق على كل دين حق ولايختص بأمّة محمد ﷺ، وممن قال بهذا ابن الصلاح: فتاوى ومسائل ابن الصلاح..: ٢١٣/١، ٢١٤، تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ -١٩٨٦ م، عن دار المعرفة، بيروت.

- إن الإسلام يطلق على الرسل والأنبياء دون أممهم ولم يطلق على أممهم إلاّ من باب التغليب وإن أُمّة محمد ﷺ اختصت بمسمى المسلمين ومسمى المؤمنين وهما من اسمي الله، وسُمّيَ دينهم الإسلام، ولم يوصف بهذا الوصف إلاّ الأنبياء دون أممهم. انظر: السيوطي الخصائص الكبرى ٢٠٨/٢، (مرجع سابق)، وورد مثل هذا لدى الطبري ١٩٤/٩،=

الخاص الذي بعث الله به محمداً ﷺ المتضمن لشريعة القرآن: ليس عليه إلاّ أُمَّة محمد ﷺ، والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا، وأمّا الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيًا فإنّه يتناول إسلام كلّ أُمَّة متبعة لنبي من الأنبياء)[1].

وقبل هذا عرَّف دين الإسلام الذي لايقبل الله غيره في دعوة كل رسول من الرسل، فقال: (وذلك إنَّما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت)[2].

* * *

=(مرجع سابق) عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال: (لم يذكر الله بالإسلام والإيمان غير هذه الأمة ذكرت بالإسلام والإيمان جميعًا) وقد تعقبه الطبري بقوله: (ولا وجه لما قال ابن زيد).

- إنَّ الله اختص أُمَّة محمد ﷺ دون سائر الأمم بمسمى الإسلام، والأدلة على ذلك من الكثرة بمكان.

راجع هذه المسألة لدى: عثمان بن جمعة ضميرية: الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى ص ٤١ - ٤٥، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ -١٩٩٠ م عن دار الفاروق، الطائف، وأساس الكتاب بحث في مجلة البحوث العلمية والإفتاء، العدد [٢١] صدر بتاريخ ١٤٠٨ هـ في الصفحات (٣١١ - ٣٥٢) ونشر فيها بعنوان: الإسلام وعلاقته بالديانات الأخرى، (مرجع سابق)، وانظر: محمد عبدالله دراز: موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها، مجلة لواء الإسلام؛ المرجع السابق نفسه.

(١) ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩٤/٣، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: ابن تيمية: الرسالة التدمرية ص ٩٨، طبعة دار الوعي - دمشق، (بدون تاريخ).

(٢) ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩١/٣، (المرجع السابق نفسه).

المطلب الثاني

الإسلام إذا وصفت به الأُمَّة

للإسلام إذا وصفت به الأُمّة أو أضيف إليها معنيان:

أ - المعنى العام: وينتظم جميع الأديان السماوية وتكون الأُمَّة المنسوبة إلى هذا الدين أُمَّة واحدة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1].

ب - المعنى الخاص: وهو الدين الذي جاء به محمد ﷺ عقيدة وشريعة أخلاقًا وهديًا، وينبثق هذا الدين من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ القوليَّة والفعلية والتقريرية، والأُمَّة الملتزمة بهذا الهدي والمطبقة لتعاليمه والمتبعة للرسول ﷺ هي الأُمَّة الإسلاميَّة تشترك مع أُمَّة الرسل في معنى الإسلام العام وتختص بمسمى الإسلاميَّة أو المسلمة؛ ولذلك أسباب من أهمها:

١- كونها دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[2] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كونه سماها مسلمة: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾[3].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٨).

(٣) سورة الحج: الآية (٧٨).

وقد قال بعض المفسرين: (أَلْهَم الله إبراهيم اسم الإسلام ثمّ ادّخره بعده للدين المحمدي، فنسي هذا الاسم بعد إبراهيم ولم يلقب به دين آخر؛ لأن الله أراد أن يكون الدين المحمدي إتمامًا للحنيفية دين إبراهيم)[1].

وعلى الرغم من وجاهة هذا التبرير إلاّ أنّه ينبغي عدم إطلاق المحمدية على الإسلام أو المحمديين على المسلمين، وإنَّما يُقال: المسلمون أو الأُمَّة الإسلاميَّة التزامًا بما مَيَّزَهُم الله به من مسمى؛ ولأنّ في ذلك متابعة للمستشرقين الذين يحرصون على إطلاق مسمى (المحمدية) و (المحمديون) على الإسلام والمسلمين، ولهم مقاصد معينة سيأتي الحديث عنها في موضع آخر[2].

٢- كونها آخر الأمم ورسولها خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ورسالته هي خاتم الرسالات، وبها تَمَّ صرح الإسلام والأمم ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3].

ويقول الرسول ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا، فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[4].

---

(١) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ١/٧٢٠، طبعة الدار التونسية، (بدون تاريخ).

(٢) انظر: أكرم ضياء العمري: الرسالة والرسول: ص ٣٨، (مرجع سابق).

(٣) سورة الأنعام: الآية (١١٥).

(٤) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٣/١٣٠٠ الحديث رقم [٣٣٤٢] كتاب المناقب- =

لذلك ناسب أن تُسمّى أمّته ﷺ المسلمة أو المسلمين أو الإسلاميّة ؛ لأنه يتحقق فيها الآتي:

١- كمال الخضوع والاستسلام باعتبارها تؤمن بمحمد ﷺ وما جاء به من كتاب وحكمة وتؤمن بالكتب السابقة وجميع الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[2].

٢- كمال الدين الذي تعتقده والشريعة التي تنتهجها والرسالة التي تحملها والإسلام الذي تنسب إليه هذه الأمّة في معناه الخاص، يشتمل على أفضل الأعمال والأقوال والمعتقدات، وهو في صورته التي جاء بها محمد ﷺ قد بلغ ذروة التمام والكمال.

فكل صورة للإسلام في حياة أيّ أمّة من الأمم السابقة تندرج تحته،

=باب: خاتم النبيين ﷺ، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم بروايات متقاربة في كتاب الفضائل، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين: صحيح مسلم ٤/١٧٩٠، ١٧٩١ تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(١) سورة البقرة: الآية (١٣٦).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٨٥).

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[1]، قال ابن كثير في تفسيره (مهيمنًا) بعد أن أورد معانيَ عدّة: (فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله)[2]. وهو يغني عمّا سواه ولايغني ما سواه عنه، لذلك اختصت الأُمَّة التي تحقق عقيدته في وجودها وتطبق شريعته في حياتها وجميع شؤونها وتحمل رسالته للعالمين أنْ تنسب إليه.

وعلى هذا فإن مصطلح الأُمّة الإسلاميّة يتحدد على النحو الآتي:

الأُمَّة الإسلاميَّة: جماعة المكلفين ومن في حكمهم الذين يدينون بعقيدة الإسلام وماينبثق عنها من تصور للكون والحياة والإنسان، ويطبقون شريعته وينشرون رسالته، ويصطبغون بصبغته في سلوكهم وعاداتهم ومظهرهم بما يميزهم عن غيرهم، وإمامهم في ذلك محمد ابن عبدالله ﷺ، وكتابهم القرآن الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأصل هذه الأُمَّة ضارب في أعماق التاريخ من لدن كان الناس أُمَّة واحدة على الحق وهو الإسلام توحدها عقيدة التوحيد والإيمان بالله وتتواصل عبر التاريخ حتَّى تمثلت في الرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ وستستمر حتى يأتي أمر الله وهي على الحق، أُمَّة واحدة من دون الناس لايضرها من خذلها ظاهرة منتصرة، تَؤُمُّ وتُقْصَدُ لما تحمل

---

(١) سورة المائدة: الآية (٤٨).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٦٥/٢، (مرجع سابق). وانظر: ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤٣/١٧، ٤٤، ٤٥، (مرجع سابق).

من الحق والخير، وتحمل لواء الدعوة إلى الله لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ومجال دعوتها الأرض بجميع أقطارها والناس جميعًا مقصودون بهذه الدعوة أينما كانوا؛ لأنها رحمة للعالمين وسلم لهم.

* * *

الفصل الثاني

تميز الأمة الإسلاميَّة وضرورته

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: منزلة تميز الأمة الإسلاميَّة.

المبحث الثاني: ضرورة تميز الأمة الإسلاميَّة.

المبحث الأول
منزلة تميز الأمة الإسلاميَّة

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: كونه سنَّة من سنن الله في خلقه .

المطلب الثاني: الأمر به والثناء على من حققه.

المطلب الثالث: التعريض بمن لم يحققه .

المطلب الرابع: النهي عن التشبه بأهل الكتاب والمشركين.

المطلب الأول

كون التميُّز سنة من سنن الله في خلقه

يرتكز تميز الأُمّة الإسلاميَّة على ماجاء في القرآن الكريم، وسنة المصطفى ﷺ القولية والفعلية والتقريرية، وعلى واقع فهم السلف الصالح له وتحقيقه في حياتهم بصور شتى، ويبرزه مجليًا له ما درجت عليه الأُمَّة في تاريخها عبر العصور.

والمتأمل في الكتاب والسنّة يدرك منزلة تميز الأُمّة الإسلاميَّة من خلال أدلّة كثيرة، تضمنت بيان كونه سنّة من سنن الله في خلقه، أو الأمر به والثناء على من حققه، أو التعريض بمن لم يحققه، أو النهي عن التشبه بأهل الكتاب والمشركين.

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تبين أنّ التفاضل بين الأُمم بعامة وبين بني آدم بخاصة من سنن الله في الكون والحياة، ويتفاوت الناس في قدراتهم، ويتفاضلون في أقدارهم ومنازلهم في الدنيا والآخرة، وتختلف مشاربهم ومراميهم ومصائرهم وفقًا لذلك[1]؛ ويوضح ذلك تفصيلاً ما يأتي:

١ - فضَّلَ الله بني آدم على كثيرٍ من الخلق، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية: طريق الهجرتين.. ص ٦٢٧ - ٧٥٠. (مرجع سابق)، استعرض فيها طبقات المكلفين وجعلها في ثمان عشرة طبقة، ولكل طبقة منها: أعلى وأدنى ووسط، وهم درجات في الدنيا والآخرة، كما قارن فيها بين طبقات الجن والإنس.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]،

وللمفسرين في تفسيرها أقوال عدة، فمما يراد بها: (جعلنا لهم كرمًا، أي: شرفًا وفضلاً)[2]، وقالوا: (بأنّ الله فضَّلَ بني آدم على سائر الحيوانات والجن)[3]. وذهب بعضهم إلى (أفضلية الجنس البشري على جنس الملائكة إذا كانوا صالحين)[4]، واستشهدوا بالأثر: (قالت الملائكة: يا ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها وينعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا في الآخرة فقال الله تعالى: « **وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فيكون** »[5].

فهذا التكريم والتفضيل جارٍ وفق سننِ الله، وإنْ كان الناس يتفاضلون فيه وتتفاوت درجات تكريمهم إلاّ إنّ الصالحين منهم أوفر حظًا في الدنيا والآخرة، والدليل على ذلك أن الكافر يقول يوم القيامة:

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٧٠).

(٢) القاضي ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٤٧٢/٣، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، (مرجع سابق). وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٩٠/٥، (مرجع سابق).

(٣) المصدران السابقان الصفحات نفسها.

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥١/٣، (مرجع سابق). وانظر: ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٥٠/٤ - ٣٩٢، (مرجع سابق).

(٥) أورده ابن كثير عن زيد بن أسلم وقال بأنّه مرسل من هذا الوجه ولكنه متصل من وجه آخر. المرجع السابق الصفحة نفسها، وقد أورده عبدالرزاق بن همّام الصنعاني (١٢٦ -٢١١ هـ) في تفسيره: تفسير القرآن عند تفسيره للآية: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[الآية (٧٠) من سورة الإسراء] ٣٨٢/٢، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ -١٩٨٩ م عن مكتبة الرشد - الرياض.

﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ [1]، وأنّ الله شبه بعض الناس بالأنعام بل هم أضل إذا لم يفقهوا غاية وجودهم وما هم مأمورين به، قال تعالى: ﴿ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ [4]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [5].

٢ - اصطفى الله من بني آدم صفوة من الناس هم الأنبياء والرسل

---

(١) سورة النبأ: الآية (٤٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧٩).

(٣) سورة القلم: الآية (٣٥).

(٤) سورة الرعد: الآية (١٦).

(٥) سورة فاطر: الآيات (١٩ - ٢٢).

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[2].

٣ - فضل الله بعض الرسل على بعض كما في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾[3].

قال المفسرون في قوله تعالى:﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾: (يعني محمدًا ﷺ)[4]. والأدلة على ذلك من الكثرة بمكان منها قوله ﷺ: «ما مِنَ الأنبياء نبيٌّ إلا أُعْطِيَ من الآياتِ ما مِثْله أومِنَ أو آمَنَ عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله تعالى إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة »[5]. وقوله ﷺ: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بست أُعْطيتُ جوامع الكلم، ونصرتُ بالرعب، وأُحِلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٣٣).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٥).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).

(٤) البغوي: معالم التنزيل ٣٠٨/١، (مرجع سابق).

(٥) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١٣٨/٤، ١٣٩، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب [١] ترتيب: محمد فؤاد عبدالباقي (مرجع سابق).

طهوراً ومسجداً وأرسلت إلى الخلق كافةً وخُتِمَ بي النَّبِيُّون»[١].

وقد أُلِّفتْ في مناقبه ﷺ وفضائله وخصائصه مؤلفات كثيرة، وفي فصل خاص من كتاب أبي نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة، ذَكَرَ ما فُضِّلَ به ﷺ وأُمَّته على سائر الأنبياء وجميع الأمم، ومِمَّا قال في تعليقه على بعض الأحاديث والروايات التي أوردها في ذلك قوله: (فتبين بهذا جلالة الرسول ﷺ وتعظيم أمره، وما شرع الله عزَّوجل على لسانه من شرائع، وتنبيه عباده على وحدانيته ودعاؤهم إلى الإيمان به... وهو أعز البريّة وأكرم الخلقة صلى الله عليه وسلم تسليمًا)[٢].

ومما ذكره ابن تيمية في هذا قوله: (فهدى الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى، هداية جلت عن وصف

---

(١) أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ٣٧١/١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب [٥٢٣]، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

وجاء الحديث عند البخاري برواية أخرى عن جابر بن عبدالله: أن النبي ﷺ قال: «أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحدٌ قبلي: نصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامّة» صحيح البخاري - كتاب التيمم رقم الحديث [٣٣٥] وله طرفان رقمها (٤٣٨ و ٣١٢٢) عند البُغا (مرجع سابق)، وانظر: فتح الباري ٣٢٥/٨ و ٤٣٦/١، (مرجع سابق).

وانظر: ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ص ٨، تحقيق: بشير محمد عيون، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ، مكتبة دار البيان - دمشق، أجمل فيها فضائل الرسول ﷺ وفضائل ماجاء به وفضائل أُمته.

(٢) دلائل النبوة: ٦٤/١، تحقيق: محمد روّاس قلعة جي، وعبدالبر عباس، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م بيروت. وانظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم...: ٣٧٤/١ - ٣٧٩، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأُمّته المؤمنين عمومًا، ولأولي العلم منهم خصوصًا، من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة والسنن المستقيمة، ما لو جمعت حكمة سائر الأمم، علمًا وعملاً، الخالصة من كل شوب، إلى الحكمة التي بعث بها، لتفاوتتا تفاوتًا يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضى)[(١)].

٤ - أمَّا تميز الأُمَّة الإسلاميَّة على غيرها من الأمم فقد سبق بيان طرفٍ منه، وأنّ هذه الأمّة المتميّزة هي أُمَّة الاتباع لهديه ﷺ وأنّ لها من الشرف والكرامة في الدنيا والآخرة ما استفاضت بذكره الأدلة والحوادث التاريخية.

ولعل مما يجدر ذكره في هذا ما قاله الطبري في تفسير قوله تعالى:

﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾[(٢)]: (يقول تعالى ذكره: اجتباكم وسمّاكم أيُّها المؤمنون بالله وآياته، من أمّة محمد ﷺ مسلمين، ليكون محمد رسول الله شهيداً عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم، وتكونوا أنتم شهداء حينئذٍ على الرسل أجمعين، أنهم قد بلغوا أممهم ما أرسلوا به إليهم)[(٣)].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم..: ص ٣، تحقيق: محمد حامد فقي (مرجع سابق).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٣) جامع البيان.. ١٩٤/٩ (مرجع سابق). وانظر ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [سورة البقرة: الآية (١٤٣)] المرجع السابق نفسه ٨/٢ - ١٣ وانظر: البغوي: معالم التنزيل ١٥٩/١ قال في تفسيرها: (أمّة محمد ﷺ شهداء على من يترك الحق من الناس أجمعين)، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، (مرجع سابق).

كما أورد الطبري كذلك في تفسير هذه الآية عن قتادة قوله: (أعطيت هذه الأمَّة ما لم يعطه إلا نبي، كان يقال للنبي: اذهب فليس عليك حرج، وقال الله: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [1]، وكان يقال للنبي ﷺ: أنت شهيد على قومك، وقال الله: ﴿ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [2]، وكان يقال للنبي ﷺ: سل تعطه، وقال الله: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [3]،[4].

ومما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[5]

قوله: (... عن جابر بن عبدالله: أنّ النبي ﷺ قال: «إني وأمتي لعلى كَوْمٍ يوم القيامة، مشرفين على الخلائق، ما أحدٌ من الأمم إلاّ ودَّ أنّه منها أيّتها الأمّة، وما من نبي كذّبه قومه إلا نحن شهداؤه يوم القيامة أنه قد بلغ رسالات ربه ونصح لهم»[6]، وأورد البغوي كذلك في تفسيره لهذه الآية نحوًا من ذلك ثم قال - في نهاية ما رواه عن ابن جريج -:

---

(١) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٣) سورة غافر: الآية (٦٠).

(٤) جامع البيان ٩/١٩٥ (المرجع السابق نفسه). وانظر: عبدالرزاق همّام الصنعاني: تفسير القرآن ٢/٤١ (مرجع سابق).

(٥) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

(٦) جامع البيان.. ٢/١٠ و ١١، (مرجع سابق).

(ثُمَّ يُؤْتَى بمحمدٍ ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم)[1].

ولاشك أنّ من يحوز على هذا الفضل والمكانة المرموقة في الدنيا والآخرة من أُمَّة محمد ﷺ هي أُمَّة الاتباع - كما سبق الإشارة إليه - الملتزمون بهدي الإسلام المقتدون بالرسول ﷺ في جميع شؤونهم الذين اصطبغوا بصبغة الإسلام مضمونًا وشعارًا فتميَّزُوا به ونسبوا إليه.

قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[2]: (من اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجّها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ثم قال: «من سرَّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرطَ الله فيها »)[3].

أمَّا ما أورده بعض العلماء والمفكرين عن سبب اختيار الله - عز وجل - العرب لحمل هذه الرسالة فذلك: (لأنهم امتازوا من بين سائر الأمم - يومئذٍ - باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأُمَّة من الأمم وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاختلاط ببقية أمم العالم)[4]؛ فإنّ لذلك أهميته في مكانة الأُمّة

---

(١) معالم التنزيل ١٥٩/١ (مرجع سابق).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٩٦/١ (مرجع سابق).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلاميَّة ص ٨٩، (مرجع سابق). وانظر:=

الإسلاميَّة وخيار أصلها وعنصرها وبخاصة ولاة أمرها ولكن هذا لايعول عليه ولايُعتدُّ به إلاّ بشرط اعتناق الإسلام والاعتزاز به والخضوع لحكمه واتباع منهجه في الحياة والنهوض بصدق وإخلاص بحمل رسالته.

ومما يدل على ذلك قول الرسول ﷺ: «**تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[1]، ويروى عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قوله: «إنّا قومٌ أعزنا الله بالإسلام فلن نلتمس العزّ بغيره»[2]، وورد لدى الحاكم بلفظ: «كنتم أقل الناس فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزّ بغيره أذلكم الله»[3].

ومما يؤيد ذلك أيضًا أن ما تَمَيَّزَ به العرب قبل الإسلام من صفات تدل على ما فيهم من صفات المروءة والشجاعة والكرم، وغير ذلك لم تمنعهم من معاداتهم للرسول ﷺ، ويشير محمد رشيد رضا بعد تناوله مزايا قريش وقوم الرسول وعترته إلى هذا الأمر فيقول: (ولكن هذه المعنوية كلها وُجِّهت لمعاداته عليه أفضل الصلاة والسلام)[4]، في بداية

=ابن خلدون مقدمة ابن خلدون، ص ١٣٢، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، عن دار الكتب العلمية، بيروت. وانظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط ص ١٤٨، تحقيق: محمد حامد الفقي (مرجع سابق).

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١٥٤/٤، كتاب المناقب، باب [١] ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) الإمام الحافظ أبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار: ٩٣/٧، تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت، عن دار التاج - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٣) الحاكم: المستدرك ٨٨/٣، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، (مرجع سابق).

(٤) خلاصة السيرة المحمّدية: ص ١٤، (مرجع سابق).

الأمر ثم دخلوا في دين الله أفواجًا وحملوا راية الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وتحقق فيهم قول الرسول ﷺ: «تجدون من خير الناس أشدهم كراهيةً لهذا الشأن حتى يقع فيه»[1].

مِمَّا سبق يتضح أن مناط الخيريّة مرتبط بتحقيق التميُّز ودال على منزلته وأنّ العبرة في علو المنزلة وشرف المكانة لايتأتى إلاّ بصبغة الإسلام ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[2].

ويرى ابن تيمية بأنّ العرب قد (اجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم. والكمال الذي أنزل الله إليهم)[3]، و (أنّ الله تعالى خص العرب ولسانهم بأحكام تميَّزُوا بها. ثمّ خص قريشًا على سائر العرب بما جعل فيهم من خلافة النبوة وغير ذلك من الخصائص. ثمّ خص بني هاشم بتحريم الصدقة واستحقاق قسط من الفيء إلى غير ذلك من الخصائص، فأعطى الله سبحانه كل درجة من الفضل بحسبها)[4].

ويرى (أن بغض جنس العرب ومعاداتهم كفر أو سبب للكفر؛.. ومقتضاه: أنهم أفضل من غيرهم، وأن محبتهم سبب قوة الإيمان.. وسبب هذا التفضيل - والله أعلم - ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم

---

(١) تكملة الحديث السابق الذي أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب - باب [١] وقد ورد بروايات متقاربة، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٣٨).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: ص ١٦١، تحقيق: محمد حامد الفقي، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٥٤.

وأخلاقهم وأعمالهم)[1]. وبعد أن يفصل القول في ذلك يقول: (لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ليس عندهم علم منزل من السماء ولا شريعة موروثة عن نبي، ولا هم أيضًا مشتغلون ببعض العلوم العقليَّة المحضة، كالطب والحساب ونحوهما. إنَّما علمهم ما سمحت به قرائحهم: من الشعر، والخطب، وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، وما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم أو من الحروب، فلما بعث الله محمدًا ﷺ بالهدى - الذي ما جعل الله في الأرض، ولايجعل منه أعظم قدرًا - وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، ومعالجتهم على نقلهم من تلك العادات الجاهلية، والظلمات الكفريَّة، التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها، فلما تلقوا عنه ذلك الهدي العظيم زالت تلك الريون عن قلوبهم، واستنارت بهدي الله الذي أنزله على عبده ورسوله، فأخذوا هذا الهدي العظيم بتلك الفطرة الجيدة)[2].

وأضاف أنّه (اجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم)[3].

وقبل ذلك ذكر أسباب التفضيل وإنه إنَّما يكون بالعلم النافع أو العمل الصالح، والعلم يحتاج إلى (قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم... وقوة المنطق الذي هو البيان والعبارة)[4].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ١٥٦، ١٦٠، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٥٦.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٦١.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٦٠.

وعلى هذا فإنّ العرب أكثر تميزًا من غيرهم في ذلك، فهم (أفهم من غيرهم، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة..)[1]، وحيث إن العمل (مبناه على الأخلاق وهي الغرائز المخلوقة في النفس)[2] فإنّ العرب يتميزون على غيرهم في هذه الناحية كذلك لأن (غرائزهم أطوع للخير من غيرهم. فهم أقرب للسخاء والحلم، والشجاعة والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة)[3].

ثمّ يشبه العرب من حيث هذه الخصائص بالأرض الخصبة التي كانت (معطلة عن الحرث، أو قد نبت فيها شجر العضاة والعوسج، وصارت مأوى الخنازير والسباع، فإذا طهرت عن المؤذي من الشجر والدواب، و(ازدرع) فيها أفضل الحبوب والثمار: جاء فيها من الحرث ما لايوصف مثله، فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله بعد الأنبياء. وصار أفضل الناس بعدهم من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم)[4].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٦٠.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٦٠.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ١٦٢، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عبدالله بن محمد بن حميد: التوحيد وبيان العقيدة السلفية النقية، ص ١٣، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ-١٩٩٢م، عن مكتبة طبريّة، الرياض، وقد لخص مجمل عقيدة السلف في الصفحات (٥ - ١٣)، (المرجع السابق نفسه).

ويكشف التمثيل عما يمتاز به العرب من فطرية وصلاح وقابلية لحمل رسالة الإسلام، ويتفق هذا مع قول الرسول ﷺ الآنف الذكر: «تجدون الناس معادن... » الحديث، ويوافق شيخ الإسلام في ذلك جمهور من العلماء والمفكرين المسلمين في ماضي هذه الأمّة الإسلاميَّة وحاضرها[1].

والمعول عليه في هذا ما ذكره ﷺ في تمام الحديث «... **خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**».

وخلاصة القول في كون التميُّز سنة من سنن الله في خلقه يوضحه ما يأتي:

- التفاضل بين جميع الخلق.. وكون بني آدم فضلوا على كثير من خلق الله.
- تفاضل بني آدم بعضهم على بعض والصفوة منهم هم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.
- يتفاضل الأنبياء والمرسلون وأفضلهم محمد بن عبدالله سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.
- يتفاضل أفراد الناس بعضهم على بعض، وكذلك الأمم والأُمّة الإسلاميَّة أفضل هذه الأمم والمقصود بها أتباع الرسل بعامة وأتباع محمد ﷺ بخاصّة.

---

(١) أورد محمد حامد الفقي في الحاشية [١] ص ١٦٠، من المرجع السابق نفسه، مبررات امتياز العرب على غيرهم. ولمزيد الاطلاع على ما تميَّز به العرب قبل الإسلام من عرف أخلاقي ومنطق أدبي..؛ انظر: محمد رشاد خليل: ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة (الحضارة) العربيَّة قبل البعثة المحمديَّة: ص ٦٢٢ - ٦٥٨، الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، (لم يذكر الناشر).

- هذه الأُمَّة (أُمّة الاتباع من أُمّة محمد ﷺ) هي أفضل الأمم ببركة نبيها وبما خصّها الله به من مضاعفة الأجر وإجابة دعوتها وشهادتها على الناس وقيامها بالحق إلى أن يأتي أمر الله.
- وأفضل هذه الأُمَّة بعد نبيها السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وهم أفضل خلق الله بعد الأنبياء ثم أفضل الناس بعدهم من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم(١).

وهذا كله داخل ضمن سنن الله في خلقه.

* * *

(١) انظر: عبدالله بن محمد بن حميد: التوحيد وبيان العقيدة السلفيَّة النقيَّة: ص ١٣، (مرجع سابق).

المطلب الثاني

الأمر به والثناء على من حققه والوعد المترتب عليه

يكاد تَمَيُّزُ الأُمَّة الإسلاميَّة أن يكون المحور الأساس الذي تدور حوله آيات العقيدة، والأحكام، والآداب، بل حتى القصص القرآني في مغزاه القريب والبعيد، وكذلك تطبيقات الرسول ﷺ وأمره لأصحابه بسمت معين يُمَيِّزهم في العقائد والشعائر والعبادات والسلوك أمرًا به وثناءً على المتصفين بصفاتٍ لازمها التميُّز والحث على ذلك وذكر الوعد المترتب عليه، وتفصيل ذلك في الآتي:

١ - في سورة الفاتحة (وهي أم القرآن المتضمن لجميع علومه)[١] تَمَيُّزٌ لطريقٍ بين طريقين يدل عليه أوضح دلالة قوله عزوجل: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٢].

قال بعض المفسرين: الصراط المستقيم كتاب الله، وقال بعضهم: هو الدين. وقال بعضهم الآخر: إنّه الرسول ﷺ، وجمع ابن كثير بين هذه الأقوال بقوله: (وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإنّ من اتبع

---

(١) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن.. ٧٨/١، ٧٩، (مرجع سابق). وانظر: البغوي: معالم التنزيل ٤٩/١، (مرجع سابق)، وغيرهما من المفسرين.

(٢) سورة الفاتحة: الآيتان(٦، ٧).

النبي ﷺ واقتدى باللذين بعده، أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضًا ولله الحمد)[1]، وقبل ذلك قال: (اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد؛ وهو المتابعة لله وللرسول)[2].

وذلك هو الطريق الذي يؤم ويقصد، وواضح أنَّ للذين يَأُمُّونَه وَيَقْصُدُونَه - وهم المنعم عليهم - صفات وخصائص تُمَيِّزُهم عن غيرهم، وهي صفات وخصائص تتجلى في كثير من سور القرآن وآياته تفصيلاً لما أُجْمِلَ في الفاتحة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[3].

ومن اللطائف في هذا ما ذكره بعض المفسرين في إشارة إلى المناسبة بين سورة البقرة والفاتحة، قال: (إنّه لمَّا شرع - جلَّ وعلا - في الفاتحة طلب الهداية لصراطه المستقيم الذي هو صراط المنعم عليهم، ناسب أن يبين من هم المنعم عليهم، فذكر من صفاتهم، وأنهم المتقون، وبيَّن

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢٨/١، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٢٨.

(٣) سورة البقرة: الآيات (٣- ٥).

طريقهم، وهو الإيمان والعمل الصالح)[1]، وهذا ما يُمَيِّزُهم، وقد رتَّبَ عليه الفلاح والهداية.

يقول ابن قيم الجوزية: (كأنه قيل: وما يحصل لهؤلاء الموصوفين بهذه الصفات، فقيل: إنهم على هدى من ربهم وإنَّهم مفلحون)[2].

ومما يزيد هذا الأمر وضوحًا ماجاء بعد هذه الآيات من آيات تذكر من حال الكفَّار والمنافقين مايُظْهِرُ تَمَيُّزَ الأُمَّة الإسلاميَّة، ولعل هذا مما جعل بعض المفسرين يلحظ من قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾[3] معنًى لطيفًا يدل على منزلة التميُّز، وقد عبَّر عنه بقوله: (نقف أمام حقيقة كبيرة، وأمام تفضل من الله كريم.. تلك الحقيقة هي التي يؤكدها القرآن دائمًا ويقررها، وهي حقيقة الصلة بين الله والمؤمنين إنَّه يجعل صفهم صفَّه، وأمرهم أمره، وشأنهم شأنه، وهذا هو التفضل العلوي الكريم... الذي يرفع مقام المؤمنين، وحقيقتهم إلى هذا المستوى السامق.. وهذه الحقيقة.. جديرة أن يتدبرها المؤمنون ليطمئنوا، ويثبتوا، ويمضوا في طريقهم لايبالون كيد

---

(١) انظر: أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١/١٠١، ١٠٢، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ- ١٩١٤ م، عن دار الكتب العلمية - بيروت، وانظر: جواهر البيان في تناسب سور القرآن: ص ٢٦، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م، عن عالم الكتب، بيروت، (ولم يظهر عليه اسم مؤلفه).

(٢) بدائع التفسير، الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية ١/٢٦١، جمع وتوثيق وتصحيح: يسري السيد محمد، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، عن دار ابن الجوزي - الدمام.

(٣) سورة البقرة: الآية (٩).

الكائدين، ولا خداع الخادعين، ولا أذى الشريرين)[1].

٢ - على المنوال نفسه تتعانق المعاني والصور في القرآن الكريم من أوله إلى آخره بما يبرز منزلة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة باعتباره من لوازم الصراط المستقيم من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[5]، ويقول: ﴿ وَهَٰذَا

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤٣/١، (مرجع سابق).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٥١).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٠١).

(٤) سورة المائدة الآيتان: (١٥، ١٦).

(٥) سورة الأنعام: (٨٧).

صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[1]، ويقـول ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[2] ورُوِيَ عن جابر بن عبدالله قال: «كُنَّا عند النبي ﷺ فخطَّ خطًّا، وخطَّ خطين عن يمينه وخطَّ خطين عن يساره ثُمَّ وضع يده في الخط الأوسط فقال: «هذا سبيل الله»، ثُمَّ تلا هذه الآية ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[3] »[4]، ومِمَّا رُوِيَ عن عبدالله بن عباس في تفسيرها وفي تفسـير قولـه تعالى: ﴿ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ ﴾[5]، ونحو هذا مما في كتاب الله قوله:

---

(١) سورة الأنعامالأيتان: (١٢٧،١٢٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٥٣).

(٣) سورة الأنعام: الآية (١٥٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجه، المقدمة حديث رقم [١١] ٦/١، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، وصححه الحاكم: المستدرك على الصحيحين: ٣٤٨/٢، ٣٤٩ الحديث رقم: (٣٥٨/٣٢٤١)، بترتيب: مصطفى عبدالقادر عطا، وقال الحاكم عنه: (حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه)، (مرجع سابق). وانظر: الصحيح المسند من التفسير النبوي للقرآن الكريم لمؤلفه أبي محمد السيد إبراهيم بن أبو عمه، ص ٣١، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م، عن دار الصحابة للتراث، طنطا.

(٥) سورة الشورى: الآية (١٣).

(أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنّه إنّما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله)[1].

٣ - ومن الآيات في هذا قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

قال ابن قيم الجوزية في تفسيرها: (فالحسنى الجنّة والزيادة النظر إلى وجهه الكريم. هكذا فسرها الرسول ﷺ)[3]، ثُمَّ أورد قوله ﷺ فيما رُوي عن صهيب: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا ؟، ألم تدخلنا الجنَّة وتنجينا من النَّار ؟. قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عزوجل»[4].

وقوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ

---

(١) صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: في تفسير القرآن الكريم..: ص ٢١٩، (مرجع سابق).

(٢) سورة يونس: الآيتان(٢٥، ٢٦).

(٣) ابن قيم الجوزية: بدائع التفسير.. ٣٩٨/٢، (المرجع السابق نفسه).

(٤) رواه مسلم: صحيح مسلم: ١٦٣/١، كتاب الإيمان، باب [٨٠] حديث [١٨١]، ورواه الترمذي: الجامع الصحيح: ٥٩٣/٤ برواية نحو رواية مسلم، حديث رقم [٢٥٥٢]، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق). وانظر: ابن قيم الجوزية: المرجع نفسه ص ٣٩٨.

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[1].

وقوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[2].

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآيات: (قال عمر بن الخطاب: معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجم به على الجنَّة...)[3]، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾: (هؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم)[4].

٤ - ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[5].

قال الطبري في تفسير هاتين الآيتين: (يقول تعالى ذكره: وأمَّا الذين

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (١).

(٢) سورة الحجر: الآيات (٤١ - ٤٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٢٠، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ١٠/٢٠.

(٥) سورة الحج: الآيتان (٢٣، ٢٤).

آمنوا بالله ورسوله فأطاعوهما بما أمرهم الله به من صالح الأعمال، فإن الله يدخلهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، فيحليهم فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا) وقال - أيضًا -: (وقوله: ﴿ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ دين الإسلام الذي شرعه لخلقه وأمرهم أن يسلكوه)[1].

٥ - وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

قال القرطبي: (ضـــرب الله مثلاً للمؤمن والكافر)[3].

وقال السعدي: (أي: أي الرجلين أهدى ؟ من كان تائهًا في الضلال، غارقًا في الكفر قد انتكس قلبه فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقًا، أو من كان عالمًا بالحق، مؤثرًا له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، فبمجرد النظر إلى الحالين يعلم الفرق بينهما)[4].

وقال ابن كثير: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: على طريق واضح بين وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك

---

(١) جامع البيان.. ١٢٧/٩، ١٢٨، (مرجع سابق). وانظر: البغوي: معالم التنزيل: ٣٧٦/٥، (مرجع سابق).

(٢) سورة الملك: الآية (٢٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٤٢/١٧، (مرجع سابق).

(٤) تيسير الكريم الرحمن.. ٤٣٨/٧، (مرجع سابق).

يكون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم مفضٍ به الجنَّة الفيحاء، وأمَّا الكافر فإنّه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم)[1].

٦ - وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[3].

قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣٩٩/٤، (مرجع سابق).

(٢) سورة النساء: الآيات (٦٦- ٧٠).

(٣) سورة النساء: الآيتان (١٧٤، ١٧٥).

ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1]،[2].

وقال ابن قيم الجوزيَّة في تفسيرها - أيضًا -: (فجعل الصديقيّة معطوفة على درجة النبوة، وهؤلاء هم الربانيون وهم الراسخون في العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لايزالون على الحق لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتَّى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك)[3].

٧ - ومما ذكره السعدي - في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ الآية - قوله: (ثم رتَّب مايحصل لهم على فعل مايوعظون به وهو أربعة أمور:

أحدها: الخيريَّة في قوله: ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم، من أفعال الخير، التي أمروا بها، وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأنّ ثبوت الشيء، يستلزم نفي ضده.

الثاني: حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإنَّ الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر، والنواهي، والمصائب،

---

(١) سورة الفاتحة: الآيتان(٦، ٧).

(٢) المحرر الوجيز: ٧٦/٢، (مرجع سابق). وانظر: تفسير الرازي: ص ٨٨، تحقيق: محمد رضوان الدّاية، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، عن دار الفكر المعاصر - بيروت.

(٣) بدائع التفسير.. ٣٩/٢، (مرجع سابق).

فيحصل لهم ثبات، يوفقون به لفعل الأوامر، وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرها العبد. فيوفق للتثبيت بالتوفيق والصبر أو للرضا، أو الشكر، فينزل عليه معونة من الله، للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين عند الموت وفي القبر. وأيضًا فإن العبد القائم بما أُمِرَ به، لايزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

الثالث: قوله: ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب، والبدن، ومن النعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الرابع: الهداية إلى صراطٍ مستقيم. وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبته وإيثاره به، والعمل به وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هُدِيَ إلى صراط مستقيم فقد وفق لكل خير واندفع عنه كل شر وضير، أي: كل من أطاع الله ورسوله - على حسب حاله، وقدر الواجب عليه، من ذكر وأنثى وصغير وكبير ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة)[١].

ثُمَّ يفسر قوله تعالى: ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (بالاجتماع بهم، في جنات النعيم، والأنس بقربهم، في جوار رب العالمين)[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن.. ٢/٩٤ - ٩٦، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ٢/٩٦.

٨ - تتحقق الاستقامة على الصراط المستقيم بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ولتلك الاستقامة التي أمر الله بها وأمر بها رسوله ﷺ لازمٍ (ولازم الحق كما قال العلماء حق لأن الله تعالى عالمٌ بما يكون لازماً من كلامه وكلام رسوله ﷺ فيكون مرادًا)[1].

أمَّا لازم تلك الاستقامة فهو التميُّز والاستقامة مردودها على المستقيمين من الأُمَّة الإسلاميَّة في الدنيا والآخرة وهو نفسه مردود التميُّز وما يترتب على الإيمان والعمل الصالح من موعودٍ إلهي في الدنيا والآخرة يبين بجلاءٍ ووضوح منزلة تَمَيُّز الأمّة الإسلاميَّة عن غيرها من الأمم.. وقد اتضحت فيما سبق منزلة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة في الآخرة بخاصة.

أمَّا منزلة تميز هذه الأمة في الحياة الدنيا - وعلى وجه الأرض بالذَّات - فمن الأدلة على ذلك ما يأتي:

الأولى: تحقق الأمن والرخاء، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2]، قال ابن عطية في تفسيرها: (والثواب والعقاب متعلق بكسب البشر)[3]، وقد ربط الله عزوجل الحياة الكريمة للأُمَّة الإسلاميَّة بالإيمان والتقوى إذا تحققا في الأُمَّة الإسلاميَّة توفر لها الأمن النفسي والاجتماعي والأمن

---

(١) محمد بن صالح العثيمين: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ص ١٤، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ، عن دار الوطن..، الرياض.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٩٦).

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٣٢، (مرجع سابق).

السياسي والعسكري، وتوفر لها الرخاء في المعيشة، وذلك بإنزال الغيث من السماء وإنبات الزرع ولا تستقيم الحياة إلا في ظل هذين البعدين[1]، الأمن الشامل، والرخاء العام؛ ولذلك جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[2]، وجاء هذا الوعيد الشديد بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[3].

الثانية: النصر والعزّة والتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[4].

---

(١) انظر: عبدالمنعم أبو زنط: التميُّز الإسلامي: ص ١٧، (مرجع سابق).

(٢) سورة الأعراف: الآيات (٩٧ - ٩٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٩٦).

(٤) سورة النور: الآية (٥٥).

قال بعض المفسرين: (هذا من وعوده الصادقة، التي شُوهِدَ تأويلها ومخْبَرُها، وأن يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شمائره الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان، وسائر الكفار، مغلوبين ذليلين، وأنّه يبدلهم أمناً من بعد خوفهم، حيث كان الواحد منهم لايتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً، بالنسبة لغيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل، فوعدهم الله هذه الأمور، وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض، والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولايشركون به شيئاً، ولايخافون أحداً إلاّ الله، فقام صدر هذه الأُمّة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوق غيرهم فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام، والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولايزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح فلابد أن يوجد ما وعدهم الله)[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن.. ٥/٤٣٩، ٤٤٠ (مرجع سابق).

(٢) سورة غافر: الآية (٥١).

تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[4].

قال ابن كثير في تفسيرها: (فرقانًا: مخرجًا، زاد مجاهد في الدنيا والآخرة، وفي رواية ابن عباس (فرقانًا) نجاةً[5]. وفي رواية عنه، نصرًا، وقال محمد بن إسحاق: (فرقانًا) أي فصلاً بين الحق والباطل. وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله فإنَّ من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة)[6].

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ... »

---

(١) سورة محمد: الآية (٧).

(٢) سورة الحج: الآية (٣٨).

(٣) سورة المنافقون: الآية (٨).

(٤) سورة الأنفال: الآية (٢٩).

(٥) ورد في صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم: ص ٢٥١، بتحقيق: راشد الرجال (فرقانًا، مخرجًا) (مرجع سابق).

(٦) تفسير القرآن العظيم ٣٠١/٢، ٣٠٢ (مرجع سابق).

الآية: (يقول تعالى: ليورثنّهم الله أرض المشركين من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها...، وليوطئن لهم دينهم يعني ملتهم التي ارتضاها لهم، فأمرهم بها)[1].

وأورد في سبب نزولها عن أبي العالية قال: (مكث رسول الله ﷺ عشر سنين خائفا، يدعو إلى الله سرًّا وعلانية،... ثمّ أُمر بالهجرة إلى المدينة.. فمكث بها هو وأصحابه خائفون يصبحون في السلاح، ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يومٌ نأمنٍ فيه ونضع عنا السلاح، فقال النبي ﷺ: «لاتغبرون (أي لن تلبثوا) إلا يسيرا، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيًا فيه ليس فيه حديدة، فأنزل الله هذه الآية»[2].

ومما تُعْلَمُ به منزلة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة وآثاره العظيمة ما أشار إليه ابن قيم الجوزية بقوله: (عزيزٌ غالبٌ مؤيدٌ منصور، مكفيٌّ، مدفوع عنه بالذّات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بتحقيق الإيمان وواجباته، ظاهرًا وباطنًا. وقد قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾[4].

---

(١) جامع البيان.. ٣٤٢/٩، (مرجع سابق).

(٢) جامع البيان: ٣٤٣/٩، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: الواحدي: أسباب النزول: ص ٢٤٧، عن عالم الكتب - بيروت (بدون تاريخ)، و لم تذكر الطبعة، وقد ورد فيه: (مكث رسول الله بمكة عشر سنين بعدما أوحى الله إليه خائفًا هو وأصحابه يدعون...).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٣٩).

(٤) سورة محمد: الآية (٣٥).

فهذا الضمان إنَّما هو بإيمانهم وأعمالهم التي هي جند من جنود الله يحفظهم بها، ولايفردها عنهم ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم إذا كانت لغيره، ولم تكن موافقة لأمره)[1]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

* * *

(١) بدائع التفسير.. ٢/٨٦ (مرجع سابق).

(٢) سورة التوبة: الآيتان (١٢٠، ١٢١).

المطلب الثالث

التعريض بمن لم يرعَ التميُّز والوعيد المترتب على عدم تحقيقه

مما لا ريب فيه أن التميُّز رافق تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة الذي يضرب بجذوره في أعماق الزمان من حين كان الإشهاد على خلقهم وإقرارهم عليه، وقد رافق هذا التميُّز جميع أطوار هذا التاريخ كله، ذلك أنه صبغة هذه الأمة صبغها الله به وألزمها بتحقيقه، وكلَّما ظهر انحراف عن هذا التميُّز في أي طور من أطوارها توجَّه إليها بسبب ذلك - مع النهي والتعريض - اللوم والتوبيخ والوعيد الشديد من الله عزوجل.

ولعل مِمَّا يوضح ذلك بعض الأدلة الآتية:

١ - قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

ذكر المفسرون في صاحب هذه القصَّة أقوالاً كثيرة، نقدها بعض الباحثين بقوله: (لايأمن الذي تمرس بالإسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفاسير أن يكون واحدة منها، ولايطمئن لكل تفصيلاته التي

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٧٦).

ورد فيها ثمَّ إنَّ في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زيادة الحذر.. وبما أنَّه ليس في النص القرآني منه شيء، ولم يرد من المرفوع إلى رسول الله ﷺ عنه شيء: (فإننا) نأخذ من النبأ ما وراءه فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لايستقيموا عليها.. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر.. فهو مثل لاينقطع وروده ووجوده، وما هو محصور في قصة وقعت، في جيل من الزمان)[1].

ومما يؤيد هذا النقد والاختيار قولُ بعض المفسرين عن صاحب القصة: (يحتمل أن المراد شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله، فقصّ الله قصةً تبينها للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك، أنَّه اسم جنس، وأنَّه شامل لكل من آتاه الله آياته، فانسلخ منها)[2]، ومهما اختلفت الأقوال في صاحب القصّة فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[3]، وفي ذلك قال الرازي: (المثل في السورة وإن ضرب لبلعام[4]، ولكن أريد به كفّار مكّة كلهم؛ لأنَّهُم صنعوا مع النبي ﷺ بسبب ميلهم إلى الدنيا وشهواتها من الكيد والمكر ما يشبه فعل بلعام مع موسى عليه الصلاة والسلام)[5].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ١٣٩٧/٣، ١٣٩٨، (مرجع سابق).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن.. ١١٧/٣، ١١٨، (مرجع سابق).

(٣) قاعدة أصولية. انظر: نجم الدين أبو الربيع الطوفي: شرح مختصر الروضة، تحقيق: عبدالله ابن عبدالمحسن التركي ص ٥٠١، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ -١٩٩٠ م، عن مؤسسة الرسالة – لبنان.

(٤) رجل من بني إسرائيل اسمه (بلعم بن عورا). انظر: الواحدي: أسباب النزول.. ص ١٦٩، (مرجع سابق).

(٥) محمد بن أبي بكر الرازي: تفسير الرازي.. تحقيق: محمد رضوان الدّاية، ص ١٦٠، (مرجع سابق). وانظر: ابن عطية: المحرر الوجيز ٤٧٦/٢، ٤٧٧، (مرجع سابق)،=

والشاهد من هذه الآية؛ حيث ذمّ الله تعالى ذلك الشخص الذي آتاه الله آياته، فانسلخ منها، وسواءً كان المراد شخصًا بعينه، أو اسم جنس لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها، فإن ذكر قصته وتلاوتها على من بلغ، فيها التعريض بمن لم يحقق مراد الله فيه؛ من العمل الصالح والالتزام بالهدي واتباع الحق وإيثاره.

قال ابن قيم الجوزية في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾:

(أخبر سبحانه أنَّ الرفعة عنده ليست بمجرد العلم،... وإنَّما هي باتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاة الله... والمعنى لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه)[1].

وحاصل ذلك أن الشرف والرفعة وعلو المنزلة تكمن في الالتزام بمنهج الإسلام وما يتصل بذلك التميُّز من لوازم فإذا لم يتحقق ذلك فإنَّ مثل مَنْ بلغه الإسلام ولم يرفع به رأساً ﴿ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾.

ومِمَّا يؤيد هذا الاستنتاج أيضًا؛ النظر في سياق الآية إذ جاءت عقب قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

=وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٧/٢٠٤، ٢٠٥، (مرجع سابق).

(١) بدائع التفسير: ٢/٣١٠، (مرجع سابق).

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1]، فقد رسمت هذه الآيات خطًا واضحًا متميزًا ألزم الله جلَّ وعلا الناس بسلوكه وانتهاجه وعاب عليهم الاحتجاج بصنيع الآباء إذا كان باطلاً ومخالفاً للعهد والميثاق الذي عاهدهم عليه وواثقهم به؛ سواء (حين كانوا في عالم كالذر أو إشارة إلى ما أودع في فطرهم من الاستسلام والخضوع لله جَلَّ وعلا والإيمان به)[2]. المهم أنَّ من خرج عن هذه السنّة لحقه اللوم والتوبيخ؛ لأنَّ ذلك انتكاس عن الفطرة ونكثٌ للعهد ينزل بصاحبه إلى أسفل سافلين.

ثُمَّ أعقب الآيات محل الشاهد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[3].

وفي مجمل هذه الآيات دليلٌ بين على التعريض بمن لم يحقق التميُّز على صعيد الفرد وعلى صعيد الأُمَّة الإسلاميَّة على امتداد تاريخها كله.

٢ – والقصص القرآني يشتمل على أساليب عدّة فيها من التعريض بمن زاغ عن منهج الإسلام وفيها من الذم والوعيد الشديد ما يكفل الحذر من الوقوع في مثل ذلك وأخذ العبرة مِمَّا حَلَّ به فردًا كان أو أُمَّة،

---

(١) سورة الأعراف: الآيات (١٧٢ – ١٧٤).

(٢) انظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن..: ٣/١١٤ – ١١٦، (مرجع سابق).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٧٩).

وفي قصص بني إسرائيل العبرة الكافية للدلالة على التميُّز من هذه الناحيَّة، فقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تصور تاريخهم (وهم يمرون بحالات ثلاث: حالة المن والعطاء، وحالة الجحود والإباء، وحالة الانتقام والجزاء، وذلك ليكون في قصصهم عبرة وعظة، تهدي الناس إلى أن يقوموا نحو خالقهم بواجب العبادة والشكر، حتى لايصيبهم ما أصاب بني إسرائيل من عقوبات)[1].

قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[2]. تجاوزت هاتان الآيتان بظلالهما التهديد والوعيد الشديد لمن خالف أمر الله وعصاه في الماضي وحلّت به العقوبة إلى التعريض بمن يخالف سبيل الرشد إلى سبيل الغي ويتكبر في الأرض ويكذب بآيات الله ويغفل عنها، وفي ذلك يقول الطبري: (وإنَّما قال: ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه

---

(١) محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن الكريم: ص ٣٢٨، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م، عن الزهراء للإعلام العربي - القاهرة.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٤٥، ١٤٦).

سأريك غدًا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره)[1].

والحقيقة أنّ هذا التمريض ببني إسرائيل جاء في قمة ما أنعم الله به عليهم من التكريم والاختيار والنصر والعزّة والعفو عنهم، ولكن بدت منهم علامات الزيغ والانحراف ومقابلة نعم الله عليهم بالجحود والإنكار والطمع وقساوة القلب حتى بلغ بهم الأمر مبلغًا سلبهم الله بسببه نعمة الاختيار والتفضيل والتكريم وضرب عليهم الذِّلة والمسكنة واللعنة وباؤوا بغضب من الله وجعل منهم القردة والخنازير وتأذن ليبعثنّ عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، وهذه جملة من الآيات تبين الحالات الثلاث التي سبق الإشارة إليها:

الحالة الأولى: حالة المن والعطاء:

- قال تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

- وقال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ

---

(١) جامع البيان ٥٩/٦ (مرجع سابق). وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢٤٦/٢، (مرجع سابق).

(٢) سورة الدخان: الآيات (٢٩ - ٣٢).

مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾[1].

- وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[2].

- وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3].

هذه الآيات الكريمة تبين حالة المن والعطاء التي أنعم الله بها على بني إسرائيل وأنّها جاءت إكرامًا من الله لهم بما صبروا على ظلم فرعون وقومه لهم، وأنَّ الله اختارهم على علم على العالمين وفضلهم على من سواهم من الأمم بالنصر أولا على عدوهم، وإكرامهم بالكتاب المنزل عليهم وهي التوراة والحكم والنبوة والرزق، وبهذا تميَّزوا على غيرهم تميُّزًا ربانيًا بلغ قمته، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٧).

(٢) سورة يونس: الآية (٩٣).

(٣) سورة الجاثية: الآية (١٦).

﴿ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾[1]، فقد نجاهم الله من بطش فرعون وظلمه، واختارهم على عالم زمانهم، فبعث فيهم أنبياء كثيرين، وآتاهم على يد موسى من الدلائل ما فيه اختبار ظاهر لهم، ولكنهم - ولحكمة يعلمها الله - قابلوا هذا التفضيل وذلك التكريم بنوعٍ من الجهالة والإخفاق في تحمل مسؤولية ذلك التميُّز، وهذا واضحٌ في كثير من مواقفهم التي قصها القرآن الكريم في مواضع كثيرة إلى جانب ما ذكر هنا[2].

الحالة الثانية: حالة الجحود، أو موقف بني إسرائيل من هذا المن ومن ذلك العطاء:

ويلمح في سياق الدلائل التي أظهرها الله لبني إسرائيل على يد نبيهم موسى عليه السلام، والنعم التي أولاهم إيَّاها إرهاصًا وابتلاءً يتراوح بين العفو عنهم عندما ينحرفون عن الجادَّة، وتظهر منهم علامات كفران النِّعمة، ودعوتهم لتجديد التوبة وملازمة صراط الله المستقيم، وعرض الفتن بمختلف صورها على صعيد العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك، حتى انكشفت النفسية اليهودية في مسارها العام حيال هذا المن والعطاء وأنّها قابلته (بالظلم، والتبديل، والاعتداء، والفسق، والتناسي، استهانة بالحق، واستخفافاً بنذر العذاب الشديد)[3].

- قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٧).

(٢) انظر: عبدالستار فتح الله سعيد: معركة الوجود بين القرآن والتلمود: ص ٩٠ - ١٠٧، (مرجع سابق).

(٣) عبدالستار فتح الله سعيد: المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢.

ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[1].

- وقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا

---

(١) سورة البقرة: الآية (٨٧).

يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

- وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[2].

الحالة الثالثة: حالة الانتقام والجزاء:

بعد هذا الإلحاد في آيات الله والخروج عن منهجه وعدم تحقيق التميُّز الذي يستوجبه ذلك المن والعطاء والاختيار والتكريم صدر الحكم الإلهي العادل والقضاء الماضي.. وهذه عدّة آيات تبين ذلك:

- قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآيات (٩٢ - ١٠١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٨١).

(٣) سورة النساء: الآيتان (١٦٠، ١٦١).

- وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

- وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

- وقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾[3].

- وقال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ

---

(١) سورة البقرة: الآية (٨٨).

(٢) سورة المائدة: الآية (١٣).

(٣) سورة المائدة: الآيات(٧٨ - ٨٠).

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[1].

- وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

- وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

هذه الحالات الثلاث التي اتسم بها تاريخ بني إسرائيل يكشف عن منزلة التميُّز، وأنَّه من لوازم سبيل الرشد والطريق المستقيم، وأنَّ المن والعطاء الذي أحاط ببني إسرائيل كان من أجل حمل رسالة الدين والاستقامة على منهج الله، وإذ لم يحققوا ذلك وتنكبوا طريقه سلبهم

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١١٢).

(٢) سورة المائدة: الآية (٦٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦٧).

الله ما أنعم به عليهم واصطفى لحمل رسالته قومًا آخرين.

يقول أحد الباحثين: (ولقد اختارهم الله حقا ذات يوم وكانوا شعب الله المختار.. ولكنهم عند الابتلاء سقطوا وجحدوا تلك النعمة فلم يرعوها حق رعايتها (وكانت) صفحتهم سوداء.. أدت إلى نزع العهد منهم ورفع الاختيار عنهم ومنحه لأُمّة سواهم.. هي التي قال لها: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1] وقال عنها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ ﴾[2]،[3].

إنَّ هذا المصير الذي آلت إليه اليهود ينطبق على كلِّ من حذا حذوهم بدءًا بالنصارى الذين قال الله عنهم: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[4]، وينطبق كذلك على المشركين كافّة وعلى المنافقين وعلى المبتدعين بقدر بدعتهم، كما قال بعض الباحثين: (ما من طائفة

---

(١) سورة المائدة: الآية (٣).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة: ص ٧٩ - ٨١، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، عن دار الشروق - بيروت.

(٤) سورة المائدة: الآية (١٤).

من طوائف الأُمَّة خرجت عن السنة إلاَّ وقعت في شيء من سنن الأمم الهالكة.. وفيها شبه بالكفّار يقل أو يكثر)[1].

ومِمَّا يروى عن بعض السلف أنَّه كان يقول: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى)[2].

ولعل مِمَّا يتناسب مع هذا ما روي عن غضيف بن الحارث الثُّمَالي أنَّ النبي ﷺ قال: «ما أحدث قوم بدعة إلاَّ رفع مِثْلها من السنة»[3].

وبالجملة فإنَّ من لم يحقق التميُّز يدخل فيما سبق من التعريض والذَّم والوعيد الشديد في الدنيا والآخرة، ولعل في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[4] لعل في هذه الآية من

---

(١) ناصر بن عبدالكريم العقل: من تشبه بقوم فهو منهم، ص ١٦ و ٣١، الرسالة رقم [٦] من رسائل ودراسات في منهج أهل السنة، عن دار الوطن – الرياض، وانظر: الشهرستاني: الملل والنحل: ٢٨/١، (مرجع سابق).

(٢) يروى هذا القول عن سفيان بن عيينة وغيره. انظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم.. ٦٧/١، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه الإمام أحمد ١٠٥/٤، (مرجع سابق). وجاء عند ابن شبه بلفظ: (ما من أُمَّة تحدثُ في دينها بدعة إلاَّ أضاعت مثلها من السنَّة): عمر بن شبة: تاريخ المدينة المنورة: ١٠/١، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، طبعة دار الكتب العلمية، القاهرة، ١٩٩٦ م، وانظر نص الحديث وتخريجه، وما قيل عن بعض رواته لدى السيوطي: مفتاح الجنَّة في الاعتصام بالسنة حديث [٢٥٩] ص ١٢٤، تحقيق: بدر بن عبدالله البدر، طبعة ١٤١٤هـ – ١٩٩٣ م، عن دار النفائس – لبنان.

(٤) سورة النساء: الآية (١١٥).

الإطلاق ما يتناول كل من لم يحقق التميُّز الذي هو نتيجة لاتباع سبيل المؤمنين ولازم من لوازم ذلك.

قال ابن كثير في معنى هذه الآية: (أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له. وقوله: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأُمَّة المحمديَّة فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً فإنَّه قد ضمنت لهم العصمة - في اجتماعهم - من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم)[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٥٥٤، ٥٥٥ (مرجع سابق).

المطلب الرابع

النهي عن التشبه بأهل الكتاب وأهل الجاهليَّة

تنبثق منزلة تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة من استقامتها على صراط الله المستقيم، الذي ألزم الله به عباده وأكَّدَ عليهم انتهاجه وذكَّرَهُم به حتى في دعائهم، بل في كل ركعة يصلونها لله جلَّ وعلا؛ لئلا يزيغوا عنه، ووصفه بالاستقامة فقال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1].

وهذا الصراط الذي وصفه تعالى بأنَّه مستقيم، وأنَّه صراط المنعم عليهم، هو المنهج الذي اختاره الله لعباده، وأمرهم بالسير فيه، وأن تتمّ عبادتهم له، واستعانتهم به، وما يتبع ذلك من أمور العبادة والعقيدة في حدوده، فينطلقون إلى الله من منطلقه ويلزمون جادَّته ويتَّجِهُون فيه إلى غايته، وأبان الله هذا المنهج لخلقه منذ آدم عليه السلام وحتى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، كما بيَّن - جلَّ وعلا - أنّ عباده انقسموا تجاه هذا الصراط إلى ثلاث أمم على مدى التاريخ؛ أُمَّة عرفت الحق وتركته، (كاليهود ونحوهم)[2]، وأُمَّة زاغت عن الحق وعبدتِ اللهَ بجهل وفي ضلال (كالنصارى ونحوهم)[3]، وأُمَّة ثالثة أنعم الله عليها

---

(١) سورة الفاتحة: الآيتان (٦، ٧).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن.. ٣٧/١ (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٣٧.

بالاستقامة على صراطه المستقيم، وهي الأمة الإسلاميَّة.

وتعني الاستقامة على الصراط المستقيم في حق أُمَّة محمد ﷺ بخاصّة (لزوم الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينيّة علمًا وعملاً)[1].

ومن لوازم ذلك مخالفة الأمتين الأُخريين وعدم التشبه بهما (في الجملة، سواء كان ذلك عامًّا، في جميع أنواع المخالفات أو خاصًّا ببعضها، وسواء كان أمر إيجاب، أو أمر استحباب)[2]، لعدّة أسباب منها:

١ - لأنّهما على منهجين طرفين إمَّا غلو وبدعة سببهما الجهل والضلال، وإمَّا تحريف وانتحال وباطل سببه النكوص عن الحق ومعاداته، والأُمَّة الإسلاميَّة على منهج مستقل عن هذين المنهجين المنحرفين ذات اليمين وذات الشمال، متميِّز بما ميَّزَه الله به من الحق والعلم والحكمة فوجب التمسك به ومخالفة ما عداه؛ لأنَّه الحق وليس بعد الحق إلاَّ الضلال، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾[3].

٢ - لأن التشبه إذا كان فيما حذَّر منه الشارع يعني المتابعة في شيء من أمور العقيدة أو الشريعة أو الشعائر، ويعد ذلك هبوط من الأعلى للأدنى، وحيث إنَّ منهج الإسلام هو الحق فإنَّ التشبه بما

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٣٦.

(٢) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم.. ٢/٨٢، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

(٣) سورة آل عمران: الآية (٧٣).

عليه الغير فيه متابعة للأهواء أو الشبهات أو الشهوات، وهذا منافٍ لمنزلة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة، واتباع لسبيل غير المؤمنين، وفي ذلك وعيد شديد، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[1].

٢ - ولما يفضي إليه التشبه بأهل الكتاب وأهل الجاهلية من محاذير قد تمس عقيدة الإيمان التي كان التميُّز من ثمارها المباركة، ومن تلك المحاذير: (المشاكلة بين المقلد والمقلد.. بمعنى التناسب الشكلي والميول في القلب، والانصهار، والموافقة في الأقوال والأعمال، وهذا أمر مخل بالإيمان...)[2]، ومنها الإعجاب بالمناهج الأخرى في بعض عاداتها أو شعائرها أو نحو ذلك مِمَّا يورث ازدراء السنن، وازدراء الحق والهدي الذي جاء به الرسول ﷺ...)[3]، كما أن في المشابهة محظورًا آخر وهو ما (تورثه من المحبة والموالاة بين المتشابهين، فإنَّ المسلم إذا قلد الكافر لابُدَّ أن يجد في نفسه إلفة له، وهذه الإلفة لابُدَّ أن تورث المحبَّة، وتورث الرضى، والموالاة لغير المؤمنين، والنفرة من الصالحين المتقين العاملين بالسنَّة، المستقيمين على الدين، وهذا أمرٌ فطري ضروري، يدركه كل عاقل، خاصة إذا شعر المقلد بالغربة أو

---

(١) سورة النساء: الآية (١١٥).

(٢) ناصر بن عبدالكريم العقل: من تشبه بقوم فهو منهم: ص ١٠، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٠.

شعر.. بما يسمى بالانهزاميَّة النفسية)[1]، وعندئذٍ تهتزُّ ذاتية المسلم ويشعر بالمذلة والصغار؛ لأنَّ المقلد يكون في موقف الأدنى والمقلد له صفة العظمة والعزَّة، وهذا شعور يتنافى مع ما أراده الإسلام لأمته وأفرادها من التميُّز والرفعة والعزَّة، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

هذه أهم أسباب النهي عن التشبه بأهل الكتاب وغير المسلمين، ولذلك قرّر علماء الشريعة الإسلاميَّة أن النهي عن التشبه بأهل الكتاب وأهل الجاهليّة (قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة كثيرة الشعب، واصطلاحًا جامعًا من أصولها كثير الفروع)[3].

وشدَّد بعضهم في التحريم مثل (ابن كثير وابن تيمية والمناوي والصنعاني وغيرهم)[4]، يقول ابن تيمية: (دلت دلائل الكتاب والسنَّة والإجماع والآثار والاعتبار على أن مخالفة الكفار في هديهم مشروعة والتشبه بهم منهيٌّ عنه)[5].

ولتوضيح ما يتصل بمنزلة تميز الأمَّة الإسلاميَّة؛ يُمكن استعراض ما قرَّره علماء الأمَّة في النهي عن التشبه بأهل الكتاب وغيرهم بإيجاز، في النقاط الآتية:

١ - المراد بالتشبه المنهي عنه.

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٠، ١١.

(٢) سورة المنافقين: الآية (٨).

(٣) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ١/٦١، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

(٤) انظر: أحمد بن الصديق الغِماري: الاستنفار لغزو التشبه بالكفار: ص ٧٩، تحقيق: عبدالله التليدي، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ، عن دار البشائر الإسلاميَّة - بيروت.

(٥) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم..: ١/٤٢٠، (المرجع السابق نفسه).

٢ - النهي عن التشبه في مجال العقيدة.

٣ - النهي عن التشبه في مجال العبادة.

٤ - النهي عن التشبه في مجال الشعائر والمظهر العام.

١ - المراد بالتشبه المنهي عنه:

من أجل معرفة التشبه المنهي عنه لابُدَّ من التعرف على مفهوم التشبه في معناه اللغوي، ثمَّ تحديد التشبه المنهي عنه، فأمَّا معنى التشبه اللغوي فهو مأخوذ من: (الشِّبْه والشَّبه والشَّبيه)[١] وتعني: (المماثلة من جهة الكيفيَّة، كاللون والطعم، وكالعدالة والظلم)[٢]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾[٣]، قال الراغب: (أي في الغَيِّ والجهالة)[٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا ﴾[٥]: (يعني ما يشبه بعضه بعضًا في الأحكام، والحكمة، واستقامة النَّظم)[٦]، وفي (التشبه) معنى زائد على المماثلة وهو

---

(١) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (شبه)، (مرجع سابق). وانظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة (شبه)، (مرجع سابق).

(٢) الراغب الأصفهاني: المرجع السابق نفسه: مادة (شبه). وانظر: محمد عبدالرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف (معجم لغوي مصطلحي) مادة (الشِّبْه والشَّبيه)، تحقيق: محمد رضوان الداية، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، عن دار الفكر، دمشق.

(٣) سورة البقرة: الآية (١١٨).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن مادة (شبه)، (المرجع السابق نفسه).

(٥) سورة الزمر: الآية (٢٣).

(٦) الراغب الأصفهاني: المرجع السابق نفسه: مادة (شبه).

(المحاكاة والتقليد)[١].

وأمَّا التشبه المنهي عنه فإنَّه: (مماثلة الكافرين بشتى أصنافهم في عقائدهم، أو عباداتهم أو عاداتهم، أو في أنماط السلوك التي هي من خصائصهم)[٢].

ويخرج من دائرة النهي (ما لم يكن من خصائص الكفار، ولا من عقائدهم، ولا من عاداتهم، ولا من عباداتهم، ولم يعارض نصًّا أو أصلاً شرعيًّا، ولم يترتب عليه مفسدة، فإنَّه لايكون من التشبه، وهذه قاعدة مجملة)[٣]، وكذلك ما كان مشروعًا في الإسلام وفعله السلف الصالح،

---

(١) انظر: بطرس البستاني: محيط المحيط (قاموس مطول في اللغة العربيَّة) ٢/١٧٥٠، طبعة ١٨٧٠ م، بيروت، (لم يذكر الناشر).

(٢) ناصر عبدالكريم العقل: من تشبه بقوم فهو منهم: ص ٧، (مرجع سابق)، وانظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ص ٦٤ - ٦٩، بتحقيق: محمد حامد الفقي، (مرجع سابق)، وقد جعل لهذا عنوانًا جانبيًا وهو (قطعت الشريعة المشابهة في الجهات والأوقات والهيئات). انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٦٤.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٧، وانظر: ابن تيمية اقتضاء الصراط المستقيم ٤١٨/١، تحقيق: عبدالكريم ناصر العقل، (مرجع سابق). فقد أشار إلى جانب آخر وهو (أنَّ المخالفة لهم لاتكون إلاَّ مع ظهور الدين وعلوه.. فلما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء لم تشرع المخالفة لهم، فلما كمل الدين وظهر وعلا شرع ذلك، ومثل ذلك اليوم: لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب، لم يكن مأمور بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر، لما عليه في ذلك من الضرر، بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه، أن يشاركهم أحيانًا في هديهم الظاهر، إذا كان في ذلك مصلحة دينية: من دعوتهم إلى الدين، أو الاطلاع على باطن أمورهم، لإخبار المسلمين بذلك، أو دفع ضررهم عن المسلمين، ونحو ذلك من المقاصد الصالحة).

وهذا من يسر الدين الإسلامي ومراعاته للظروف والأحوال، فالقيام فيه على القدرة،=

إذا انتهج غير المسلمين شيئًا من ذلك واعتادوه وظهروا به فلا كلام فيه[1].

ومِمَّا ينبغي الإشارة إليه في هذا السياق التفريق بين أمرين اتسم بهما تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة وانطبعت عليهما شخصية الأُمَّة الإسلاميَّة في علاقتها بغيرها من أهل الكتاب وأهل الجاهلية، الأمر الأول ما يوجبه الإسلام من البراء من أولئك والحذر منهم والنهي عن التشبه بهم، فيما يتصل بعقيدة الإسلام وشريعته وهديه، والأمر الآخر صلات البر وحسن المعاملة، والبعد عن ظلمهم، أو الاعتداء عليهم، وهو جانب تميَّزَت به الأُمَّة الإسلاميَّة في تعاملها معهم، وشهد لها المنصفون بذلك، وبما اتسمت به حضارتها وثقافتها من التسامح معهم والبر بهم والإحسان إليهم عبر التاريخ تحقيقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[2]، وقول الرسول ﷺ: «إني لم أبعث لعاناً وإنَّما بعثتُ رحمة»[3]، وقول الله - جَلَّ وَعَلاَ -:

=ولايكلف الله نفسًا إلاَّ وسعها.

(1) انظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ص ١٨٠، تحقيق: محمد حامد الفقي، (مرجع سابق).

(2) سورة الممتحنة: الآية (٨).

(3) أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ٢٠٠٧/٤، كتاب البر والصلة والآداب، باب [٢٤]، الحديث رقم (٢٥٩٩)، بتحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وهذا الأمر ومايندرج تحته من الصلات الإنسانيَّة والمعاملات المتصلة بشؤون العمران والحضارة لايدخل في النهي؛ وهذا ما قرَّرَه علماء الأُمَّة، وذكروا أن النهي عن التشبه بأهل الكتاب وأهل الجاهلية (لايعني تحريم التعامل معهم بالتجارة المباحة واستيراد البضائع والمصنوعات النافعة، والاستفادة من خبراتهم ومخترعاتهم.

فالنبي ﷺ استأجر ابن أريقط[2] الليثي ليدله على الطريق وهو كافر واستدان من بعض اليهود[3]، وما زال المسلمون يستوردون البضائع والمصنوعات من الكفار، وهذا من باب الشراء منهم بالثمن... وليس هو من أسباب محبتهم وموالاتهم، فإنَّ الله أوجب محبة المؤمنين وموالاتهم وبغض الكافرين ومعاداتهم)[4].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبويَّة: ٢/١٣٠ (مرجع سابق)، وقد ورد ذكر هذا الرجل في حديث الهجرة في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل... وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما..»؛ أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ٣/١٤١٩، كتاب فضائل الصحابة، باب: [٧٤]، الحديث رقم: [٣٦٩٢/٣٦٩٤]، بتحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٣) انظر: ابن قدامة: المغني: ٦/٣٧٥، تحقيق: عبد الله بن عبدالمحسن التركي وآخر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عن دار هجر - القاهرة.

(٤) صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان: الولاء والبراء في الإسلام، مجلة البحوث العلميّة، العدد [٢٥]: ص ١٢٥، الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء - الرياض، عن (رجب/ شوال) ١٤٠٩ هـ.

٢ - النهي عن التشبه في مجال العقيدة:

استفاضت الأدلة من القرآن الكريم والسنَّة النبوية، وفهم سلف الأُمَّة في النهي عن التشبه بأهل الكتاب وأهل الجاهلية في مسائل عدَّة من مسائل العقيدة من أبرزها، الغلو في الدين، والاختلاف فيه والرهبانية، وتعطيل الحدود، واتخاذ القبور مساجد، والمغالاة في الأنبياء والصالحين، وبعض الشركيات الأخرى، التي نهى النبي ﷺ أمته أن تسلك فيها مسلك اليهود والنصارى والفرس والروم وغيرهم مِمَّا يطلق عليه في الإسلام مسمَّى الجاهليَّة.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

حيث بينت الآية ما فضَّل الله به بني إسرائيل وما أنعم به عليهم من نعم، وما حدث منهم من اختلاف، ثمَّ ربطت ذلك بما آل إليه الأمر من كون الرسالة نزعت منهم وجعلت في محمد ﷺ وأُمَّته وأنّهم مأمورون

---

(١) سورة الجاثية: الآيتان (١٦ - ١٩).

باتباع ما شرعه الله لهم ومنهيون عن متابعة أهواء الذين لايعلمون (ويدخل في الذين لايعلمون كلُّ من خالف شريعة الإسلام)[1]، ويدخل في أهوائهم: (هديهم الظاهر، الذي هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك، فهم يهوونه؛ وموافقتهم فيه: اتباع لما يهوونه... ولو فرض أنْ ليس الفعل من اتباع أهوائهم فلاريب أن مخالفتهم في ذلك تكون أحسم لمادة متابعتهم وأعون على حصول مرضاة الله في تركها)[2].

وقد جاءت هذه الآية عامَّة في النهي عن اتباع أهواء الذين لايعلمون، ومعنى الهوى: ما خالف الحق ومال بصاحبه إلى شهوة وسقط به من علو إلى سفل[3]، وقد جاء في الآية (بلفظ الجمع تنبيهًا على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر، ثم هوى كل واحدٍ لايتناهى، فإذًا اتباع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة)[4].

وإذا كان النهي في هذه الآية وأمثالها عام، فإنَّه قد ورد من الآيات والأحاديث وأقوال السلف ماينص على مسائل معينة وأمور محددة من ذلك الآتي:

١ - حادثة تحويل القبلة، قال الله تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾[5]، نقل ابن كثير

---

(١) انظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم... ٨٥/١، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٨٥.

(٣) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (هوى) (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: مادة (هوى).

(٥) سورة البقرة: الآية (١٥٠).

في تفسيرها عن كثير من السلف قولهم: (معناه لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة، فيقولون: قد وافقونا في قبلتنا، فيوشك أن يوافقونا في ديننا، فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجةً)[1].

ب- ما حدث من بعض الصحابة من منازعة في القدر، ونهي الرسول ﷺ عن ذلك، وأنّه كان سببَ هلاك الأمم السابقة، وفي هذا نهي عن التشبه بغير المسلمين في الخوض في المسائل التي تُحْدِثُ الخلاف وتضرب بعض الدين ببعضه الآخر وتكون سبباً لهلاك الأُمَّة، فقد (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر... فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ بهذا هلك من كان قبلكم »)[2].

ج- حادثة السدرة التي كان المشركون يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم، وعندما مَرَّ المسلمون بها في خروجهم مع الرسول ﷺ إلى حنين، طلبوا من الرسول أن يجعل لهم ذات أنواط كما للمشركين ذات أنواط، فغضب الرسول ﷺ وكبَّرَ الله ولام المسلمين على ذلك وذكر لهم أنهم ساروا بطلبهم هذا على سنن أهل الكتاب من قبلهم حيث قال اليهود لموسى عليه السلام - بعد أن أنجاهم الله من فرعون وأغرقه في

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/١٩٥ (مرجع سابق)، وممن قال بهذا التفسير: مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسُّدِّي، وقتادة، والربيع ابن أنس، وابن أبي حاتم. انظر: المرجع السابق نفسه: ١/١٩٥.

(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/١٧٨، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، المجلد [٩ - ١٠]:١٠/ ١٥٣ رقم الحديث [١٧٨] (مرجع سابق)، وأخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجة: ١/٣٣، والمقدمة، باب [١٠] رقم الحديث (٨٥)، وقال: إسناده صحيح ورجاله ثقات، بتحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

اليم وجنده، ومروا على قومٍ يعبدون صنمًا - ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[1]، وقد ورد في ذلك عن أبي واقد الليثي أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا خرج إلى خيبر مرَّ بشجرة للمشركين، يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا: يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط ؟ فقال النبي ﷺ: «**سبحان الله هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم**»[2].

ومن هذا الحديث يتضح أنَّ من سنن الله في خلقه ميل الإنسان بمقتضى الطبع إلى المحاكاة والمماثلة[3]، ومع أن الإسلام يقر الجانب الفطري عند الإنسان إلاَّ أنَّه في مثل هذه الحال ينهى؛ لأن الميل هنا فيه محذور على العقيدة ويأتي مندرجًا تحت ميل النفس إلى الفجور كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[4].

كما أنَّ إخبار الرسول ﷺ بما حدث في بني إسرائيل يتضمن النهي

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٨). وانظر: تفاصيل القصة وبعض ما انطوت عليه من دروس وعبر لدى: عبدالستار فتح الله سعيد: معركة الوجود بين القرآن والتلمود ص ٩٠ - ١١٤ (مرجع سابق).

(٢) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح: ٤/٤١٢، ٤١٣، كتاب الفتن؛ باب [١٨] رقم الحديث (٢١٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح، بتحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق).

(٣) انظر: أحمد بن الصديق الغماري: الاستنفار..: ص ١١ (مرجع سابق).

(٤) سورة الشمس: الآيات(٧ - ١٠).

عن مشابهتهم والسير في منهجهم فقد قرَّرَ علماء أصول الفقه أن الإخبار من صيغ الأمر[1].

٢ - النهي عن التشبه في مجال العبادة:

وبالنظر إلى العبادات في الإسلام من صلاة وصيام وحج وغيرها من العبادات الأُخرى يُلحظ بأن (الدين في مقاصده وتشريعاته وموقفه من أعدائه يقف موقف الخصوصيَّة ورفض الباطل)[2] والبدعة وينتهج منهجًا ربانيًّا محددًا في منطلقاته وغاياته، ومن هنا تنبثق منزلة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة - كما سبق الإشارة إليه - وفي مجال العبادة بخاصة جاءت تشريعات الرسول ﷺ لأُمَّته مخالفة لما كان عليه أهل الكتاب وأهل الجاهلية وغيرهم من الأعاجم سواء في مسائل الطهارة، أو الصلاة، أو الإمامة، أو الصيام، وتنهى عن مشابهتهم، وترسم للأُمَّة الإسلاميَّة منهجًا مُتَمَيِّزًا في أداء عباداتها، ومِمَّا يجلي ذلك الأحاديث الآتية:

- حديث أنس رضي الله عنه: (إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبيَّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾[3]. فقال الرسول ﷺ: «اصنعوا كل

(١) انظر: الطوفي: شرح مختصر الروضة، ٢/٣٥٦، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، (مرجع سابق).

(٢) أحمد بن الصديق الغماري: ص ٨١، المرجع السابق نفسه.

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٢٢).

شيء إلاَّ النكاح»، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلاَّ خالفنا فيه...)[1] الحديث.

قال ابن تيمية: (فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل على أنَّه خالفهم في عامَّة أمورهم حتى قالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه)[2]. ويدل قولهم هذا على أنَّهم تيقنوا من تَمَيُّزِ الأمَّة الإسلاميَّة عنهم تَمَيُّزًا صريحًا واضحًا[3].

- حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنَّ الرسول ﷺ قال: «لاتزال أمتي بخيرٍ (أو قال: على الفطرة) ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم»[4]، وفي رواية أُخرى: «لن تزال أمتي في مسكة ما لم يعملوا بثلاث، ما لم يؤخروا المغرب بانتظار الإظلام، مضاهاة اليهود وما لم يؤخروا الفجر إمحاق النجوم: مضاهاة النصرانية، وما لم يكلوا الجنائز إلى أهلها»[5].

---

(١) أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ٢٤٦/١، كتاب الحيض، باب [٣] الحديث رقم [٣٠٢]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ١٨٧/١، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

(٣) انظر: أحمد بن الصديق الغماري: الاستنفار: ص ٣٠ (مرجع سابق).

(٤) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود: ٢١٢/١، كتاب الصلاة، باب: وقت صلاة المغرب، الحديث رقم [٤١٨]، طبعة دار الحديث، القاهرة، وأخرجه الحاكم: وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه: المستدرك..: ٣٠٣/١، ٣٠٤، كتاب الصلاة، باب مواقيت الصلاة، رقم الحديث (٦٨٥/١٢)، بتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، (مرجع سابق).

(٥) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣٤٩/٤، طبعة دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م، بيروت، وانظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم.. ١٨٣/١، ١٨٤، ١٨٥، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

- حديث جابر رضي الله عنه قال: «... إذا صلى الإمام جالسًا فصلوا جلوسًا، وإذا صلى الإمام قائمًا فصلوا قيامًا، ولاتفعلوا كما يفعل أهل فارس بعظمائها»[1]، وفي رواية مسلم: «إن كدتم آنفًا لتفعلون فعل فارس والروم » إلى قوله: «فلاتفعلوا»[2].

قال ابن تيمية: (ففي هذا الحديث: أنّه أمرهم بترك القيام الذي هو فرض في الصلاة، وعلَّلَ ذلك بأن قيام المأمومين مع قعود الإمام يشبه فعل فارس والروم بعظمائهم في قيامهم وهم قعود.. وهذا تشديدٌ في النهي عن القيام للرجل القاعد.. فهل بعد هذا في النهي عن مشابهتهم في مجرد الصورة غاية)[3].

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لايزال الدين ظاهرًا ما عَجَّل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارى يؤخرون»[4].

قال ابن تيمية: (وهذا نص في أن ظهور الدين الحاصل بتعجيل

---

(1) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود: ١٦٢/١، كتاب الصلاة.. الحديث رقم [٦٠٢]، (مرجع سابق)، وأخرجه ابن ماجه في سننه: ٣٩٣/١، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب [١٤٤]، حديث رقم [١٢٤٠] بلفظ قريب وفيه: (إن كدتم أن تفعلوا فعل فارس والروم)، (مرجع سابق).

(2) صحيح مسلم: ٣٠٩/١، كتاب الصلاة، باب [١٩]، رقم الحديث (٤١٣)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(3) اقتضاء الصراط المستقيم.. ١٩٨/١، (المرجع السابق نفسه).

(4) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود: ٣١٥/٢، كتاب الصوم، الحديث رقم [٢٣٥٣]، (مرجع سابق)، وأخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجه: ٥٤٢/١، كتاب الصيام، الحديث رقم [١٦٩٨] بلفظ: (لايزال الناس بخير ما عجلوا الفطر، عجلوا الفطر فإنّ اليهود يؤخرون) قال: (إسناده صحيح على شرط الشيخين...).

الفطر لأجل مخالفة اليهود والنصارى، وإذا كان مخالفتهم سببًا لظهور الدين، فإنّما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله، فيكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة)[1].

هذه من أبرز الأحاديث التي وردت في النهي عن التشبه بالكفّار في مسائل العبادات، وهناك أحاديث كثيرة غيرها تعزز ذلك النهي وتتناول جزئيات كثيرة تتعلق بالصلاة والطهارة والأذان والصيام والإفطار والسحور والوصال وصيام عاشوراء، ونحو ذلك مِمًّا شرعه الرسول ﷺ مخالفًا لأعمال اليهود والنصارى والمشركين وكافّة أمور الجاهلية[2].

ومِمًّا يدل على مخالفة الرسول ﷺ لما كان عليه أهل الجاهليَّة ما حدث منه في حَجَّة الوداع، فقد أخر بعض المناسك كنفرة الحجيج من عرفة، وعجَّل الإفاضة من مزدلفة، وعمل أعمالاً أخرى على خلاف ما كان عليه أهل الجاهليَّة، ونصَّ على كون عمله - ذلك - جاء مخالفة لما عليه أهل الجاهليَّة من حيث كونهم اعتادوه، وجاءت مخالفته لهم إحياءً لمناسك الحج على ما كانت عليه الحنيفيَّة السمحة من ناحية وأخذًا بها إلى التمام والكمال من ناحية أخرى، وكان الرسول ﷺ يرمي الجمرات يوم النحر وهو على راحلته ويقول: «لتأخذوا مناسككم»[3].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٨٢/١، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ١٨١/١ - ٢٠٠. وانظر: الغماري: الاستنفار: ص ٣٩ - ٦٩ (المرجع السابق نفسه).

(٣) أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ٩٤٣/٢، كتاب الحج، باب [٥١]، رقم الحديث (١٢٩٧)، بتحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

٤ - النهي عن التشبه في مجال الشعائر والمظهر العام:

أمَّا ما يتعلق بالشعائر الدنية مثل الناقوس والبوق ورفع الصوت في الحرب والذكر والجنائز والقيام لها والشق في القبر.. أو ما يتعلق بالمظهر العام والعادات، مثل الاحتفال بالأعياد، وما يصحبها من بدعٍ ومنكرات، وقص الشعر، ولبس الحرير والذهب، وكذلك استعمال آنية الذهب والفضة، والزي واللباس، ونحو ذلك من العادات والمظاهر التي يحدث فيها التشبه.. فقد وردت جملة من الأحاديث تنهى عن ذلك، منها:

- الأحاديث الواردة في مشروعية الأذان، ومنها ما ورد في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة وليس ينادي بها أحد، فتكلموا يومًا في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: قرنًا مثل قرن اليهود. فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ: **«يا بلال قم فناد للصلاة»**[١].

قال ابن تيمية: (ما يتعلق بهذا الحديث من شرع الأذان... ليس هذا موضع ذكره وذكر الجواب عمَّا يستشكل منه، وإنَّما الغرض هنا: أن النبي ﷺ كره بوق اليهود المنفوخ بالفم، وناقوس النصارى المضروب باليد، علَّلَ هذا بأنَّه من أمر اليهود، وعلَّلَ هذا بأنَّه من أمر النصارى.. وهذا يقتضي نهيه عما هو من أمر اليهود والنصارى.. وإنَّما شعار الدين الحنيف الأذان المتضمن للإعلان بذكر الله، الذي به تفتح أبواب

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ٢١٩/١، كتاب الأذان - باب [بدء الأذان] رقم الحديث [٥٧٩] بتحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم، صحيح مسلم: ٢٨٥/١، كتاب الصلاة - باب [بدء الأذان] رقم الحديث [٣٧٧]، بتحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

السماء، فتهرب الشياطين، وتنزل الرحمة)[1].

- ما أُثر عن الصحابة أنَّهُم (كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر، وعند القتال وعند الجنائز)[2].

قال ابن تيمية: (وكذلك سائر الآثار تقتضي أنَّهُم كانت عليهم السكينة، في هذه المواطن، مع امتلاء القلوب بذكر الله، وإجلاله وإكرامه، كما أن حالهم في الصلاة كذلك، وكان رفع الصوت في هذه المواطن الثلاث من عادة أهل الكتاب - والأعاجم)[3].

- ما ورد عن القيام للجنازة وعن الشق في القبر.. ومن ذلك ما روى البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (كان أهل الجاهليَّة يقومون لها، يقولون إذا رأوها: كنت في أهلك ما كنت مرتين)[4]، وما رواه أهل السنن الأربعة عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللحد لنا والشق لغيرنا»[5].

قال ابن تيمية: (وفيه التنبيه على مخالفتنا لأهل الكتاب، حتى في

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم..: ١/٣١٣، ٣١٤، تحقيق: عبدالكريم بن ناصر العقل، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: الغماري: الاستنفار..: ص ٣٠، ٣١، (المرجع السابق نفسه).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة: المصنف: ٢/٤٧٤، كتاب الجنائز، باب [٦٠]، رقم الحديث (١١٢٠١)، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم.. ١/٣١٥، ٣١٦ (المرجع السابق نفسه).

(٤) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٣/١٣٩٤، كتاب فضائل الصحابة - باب [٥٦] رقم الحديث [٣٦٢٥]، بتحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٥) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح: ٣/٣٦٣، كتاب الجنائز - باب [٥٣] حديث رقم [١٠٤٥]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، والنسائي: سنن النسائي: ٤/٣٨٤، كتاب الجنائز - باب [٨٥] حديث رقم [٢٠٠٨]، (مرجع سابق)، وأخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجه: ١/٤٩٦، كتاب الجنائز - باب [٣٩]، حديث رقم [١٥٥٥]، عن ابن عباس.

وضع الميت في أسفل القبر)[1].

- الأحاديث والآثار الواردة في النهي عن التشبه بهم في الزي واللباس واستعمال الآنية وقص الشعر والأمر بصبغ الشيب لمخالفتهم والأمر بمخالفتهم في عامة الأمور الظاهرة[2]، وقد استفاضت الأدلة من السنة بذلك ومنها ما يأتي:

- ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال الرسول ﷺ: «إنّ اليهود والنصارى لايصبغون فخالفوهم»[3].

- ما ورد في الصحيحين - أيضاً - عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (قال رسول الله ﷺ: «خالفوا المشركين: وفروا اللحى، وأحفوا الشوارب»[4]، وفي رواية أخرى لدى مسلم: «جزوا الشوارب وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس»[5].

- ما رُوِيَ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: «ليس مِنَّا من ضرب الخدود، وشقّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهليَّة»)[6].

- ما رُوِيَ عن عبدالله بن عمرو أنّه قال: «من بنى بأرض المشركين،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٢٠٤، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم... ١٦٨/١ (المرجع السابق نفسه).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١٦٦٣/٣، كتاب الأنبياء - باب [١٥] رقم الحديث [٣٢٧٥]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٤) صحيح البخاري: ٢٢٠٩/٥، كتاب اللباس - باب [٦٢] رقم الحديث [٥٥٥٣]، (المرجع السابق نفسه).

(٥) صحيح مسلم: ٢٢٢/١، كتاب الطهارة - باب [١٦] رقم الحديث [٢٦٠]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (مرجع سابق).

(٦) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ٤٣٦/١، كتاب الجنائز - باب [٣٧] رقم الحديث [١٢٣٥]، (المرجع السابق نفسه).

وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة»[1].

- ما رُوِيَ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «فرق ما بيننا وبين المشركين: العمائم والقلانس»[2].

- وعن وصل الشعر أخرج البخاري: (أن معاوية قال: سمعتُ رسول الله ﷺ ينهى عنه.. ويقول: «إنَّما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم»[3].

- وعن لبس الثياب ما رواه نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ أو قال: قال عمر: «إذا كان لأحدكم ثوبان فليصل فيهما، فإن لم يكن إلاَّ ثوب فليتزر به ولايشتمل اشتمال اليهود »[4]، وما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال: إن هذه من ثياب الكفار فلاتلبسها)[5].

والقاعدة الشاملة في الزي واللباس كما قرَّرها علماء الشريعة هي

---

(١) أخرجه البيهقي: السنن الكبرى.. ٢٣٤/٩، فهرس الأحاديث: يوسف عبدالرحمن المرعشلي، طبعة دار المعرفة، بيروت، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م.

(٢) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود: ٣٤٠/٤، ٣٤١، كتاب اللباس - باب: في العمائم، حديث رقم [٤٠٧٨]، (مرجع سابق).

(٣) صحيح البخاري: ٢٢١٦/٥، كتاب اللباس، باب [٨١] رقم الحديث [٥٥٨٨]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٤) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود: ١٦٩/١، كتاب الصلاة، الحديث رقم [٦٣٥]، (المرجع السابق نفسه).

(٥) أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ١٦٤٧/٣، كتاب اللباس والزينة، الحديث رقم [٢٠٧٧]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

مخالفة الأمم الأخرى غير الإسلاميَّة من اليهود والنصارى والمجوس وأهل الجاهليَّة وغيرهم والنهي عن التشبه بهم مستدلين بمثل ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنَّه نهى عن التشبه بالأعاجم، وقال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[1]، (وبهذا احتج غير واحد من العلماء على كراهة أشياء من زي غير المسلمين)[2].

- وعن لبس الحرير والذهب واستعمال آنية غير المسلمين، وردت عدّة أحاديث منها؛ حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتشربوا في آنية الذهب والفضة، ولاتأكلوا في صحافها فإنّها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[3]؛ ولذلك (كان العلماء يجعلون اتخاذ الحرير وأواني الذهب والفضة، تشبهًا بالكفار)[4].

- وعن الأعياد وأنواعها وما يصاحبها من البدع والشركيات عند الأمم الأخرى من غير الأمّة الإسلاميَّة، ساق العلماء - وبخاصّة ابن تيمية - كثيرًا من الأدلة النقلية والعقلية، وتوسعوا في شرحها ومناقشتها وبحثها، وتقصي جزئياتها، وخلصوا إلى القول بأن الأعياد: (من أخص

---

(١) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود: ٤/٤٣، كتاب اللباس، الحديث رقم [٤٠٣١]، (المرجع السابق نفسه).

(٢) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ١/٢٣٩، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (المرجع السابق نفسه).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ٥/٢٠٧٠، كتاب الأطعمة، باب [٢٨]، رقم الحديث (٥١١٠)، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٤) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم.. ١/٣١٧، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر)[1]، وأنَّه لايجوز التشبه في ذلك بغير المسلمين من الأمم الأخرى سواء اليهود أو النصارى أو الروم أو الفرس أو غيرهم، ولاتجوز مشاركتهم فيها؛ لأنّ ذلك يندرج تحت قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[2]. (فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج.. كالقبلة والصلاة والصيام)[3].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[4] قال بعض المفسرين: (لايشهدون الزور: أعياد المشركين)[5]، وعن أنس رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟» قال: كنَّا نلعب فيهما في الجاهليَّة، فقال الرسول ﷺ: «إنّ الله تعالى قد أبدلكم بهما خيرًا منهما يوم الأضحى ويوم الفطر»[6].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم.. ٤٧١/١ (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة الحج: الآية (٦٧).

(٣) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ٤٧١/١، (المرجع السابق نفسه).

(٤) سورة الفرقان: الآية (٧٢).

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣٢٨/٣، ٣٢٩، (مرجع سابق)، وممن فسَّرَهُ بذلك من السلف: (ابن سيرين والضحاك وطاوس وأبي العالية... وغيرهم). انظر: المرجع السابق نفسه: ٣٢٨/٣، ٣٢٩.

(٦) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٥٠/٣، رقم الحديث [١٣٢١٠] بترتيب طبعة دار إحياء التراث العربي، الجزء الرابع، (مرجع سابق)، وأبو داود ٢٩٥/١، كتاب الصلاة، باب: صلاة العيدين، رقم الحديث [١١٣٤]، (المرجع السابق نفسه)،=

وفي هذا الحديث ما يؤكد تميز الأُمَّة الإسلاميَّة حتى في الشعائر ومظاهر الفرح وموجبات ذلك وغاياته وارتباطاته بما يجعلها ذات هويَّة مستقلة غاية الاستقلال عن متابعة الآخرين وتقليدهم، ولضمان هذه المنزلة لتميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وبالنظر لمقاصد الشريعة الإسلاميَّة أكد العلماء بأنّ (استقراء الشريعة في مواردها ومصادرها دال على أنّ ما أفضى إلى الكفر - غالبًا - محرم، وما أفضى إليه على وجه خفي حُرِّمَ، وما أفضى إليه في الجملة ولا حاجة تدعو إليه حُرِّمَ)[1]، وفي هذا محافظة تامَّة على هوية الأُمَّة الإسلاميَّة، ووصفٌ دقيق لمنزلة تميُّزها.

ومِمَّا ينبغي الإشارة إليه في ختام هذا المطلب أنَّ تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة كان محل إجماعِ سلف الأُمَّة قولاً وعملاً بعد أن أرسى الرسول ﷺ مقوماته في حياة الأُمَّة ورسَّخَ خصائصه، وحدَّد أهدافه ووسائل تحقيقه، وسار الخلفاء الراشدون على هديه ﷺ ومن تبعهم في القرون المفضَّلة، وعلى الرغم مِمَّا حدث بعد ذلك من افتراق في مناهج الأُمَّة أثَّرَ على تميُّزها، فإنَّ التميُّز سيستمر فيها وذلك بثبات طائفة منها على ذلك، دون ترددٍ أو مداهنة للمخالفين حتى يأتي أمر الله وقد دلت على ذلك نصوص عدّة وسجلتها كثيرٌ من الوقائع التاريخيَّة المقررَّة، التي توضح فهم الأُمَّة الإسلاميَّة لتميُّزها وتطبيقها التاريخي له.

=وأخرجه الحاكم: المستدرك..: ١/٤٣٤، كتاب صلاة العيدين، رقم الحديث: (١٠٩١/٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، (مرجع سابق).

(١) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..، ١/٤٨٢، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (المرجع السابق نفسه)، وقد وضع الفقهاء قواعد تضبط أحكام ما يفعله المكلفون في عباداتهم ومعاملاتهم وعاداتهم...، منها قولهم: (ما لايتم الواجب إلاَّ به فهو واجب)، وقولهم: (المشقة تجلب التيسير)، وما يسمَّى بـ (سدّ الذرائع)، ونحو ذلك مِمَّا سيأتي عنه.

ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

- ما ورد عن أبي بكر رضي الله عنه حين رأى امرأة لاتتكلم وسأل عنها (قالوا: حجت مصمتة، قال لها: تكلمي، فإنّ هذا لايحل هذا من عمل الجاهليّة)[1]، وهذا دليل على حرص أبي بكر على تميُّز الأُمَّة، ونهيه عن أي مظهر من مظاهر غير المسلمين[2].

- واتخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه من التدابير والسياسات ما يؤكد منزلة التميُّز وأهميته وبخاصة فيما يتعلق بأهل الذِّمَّة، ومِمَّا يوضح ذلك شروطه مع أهل الذِّمَّة[3] فإنّه لم يكتف فيها (بأصل التمييز بل بالتميُّز في عامة الهدي على تفاصيل معروفة في هذا الموضع)[4].

- وسار الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ومن بعده الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه على ما شرطه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذِّمَّة، ووافقه عليه المؤمنون[5] (وسائر العلماء بعدهم، ومن وفقه الله تعالى من ولاة الأمور على منعهم من أن يظهروا في دار الإسلام شيئًا مِمًّا يختصون به، مبالغة في أن

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١٣٩٣/٣، كتاب فضائل الصحابة، باب: (أيام الجاهليّة)، رقم الحديث [٣٦٢٢]، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ٣٢٦/١، ٣٢٧، ٣٢٨، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

(٣) انظر: ابن قيم الجوزيّة: أحكام أهل الذِّمَّة: ص ١١٣ - ٢٤٩، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، (مرجع سابق).

(٤) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ٣٢٢/١، (المرجع السابق نفسه).

(٥) انظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم: ٣٣٣/١، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٥، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (المرجع السابق نفسه).

لايظهروا في دار الإسلام خصائص المشركين)[1].

وخلاصة القول في ذلك: إنّ منزلة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة محلّ إجماع المسلمين، ومِمَّا يحدد هذه المنزلة إجماعهم على النهي عن التشبه بغير المسلمين، ولزوم مخالفتهم (في الجملة، وإن كانوا قد يختلفون في بعض الفروع، إِمَّا لاعتقاد بعضهم أنَّه ليس من هدي الكفار، أو لاعتقاده أن فيه دليلا راجحًا، أو لغير ذلك، كما أنهم مجمعون على اتباع الكتاب والسنَّة، وإن كان قد يخالف بعضهم شيئًا من ذلك لنوع تأويل، والله سبحانه أعلم)[2].

* * *

(١) المرجع السابق نفسه: ١/٣٢٥.

(٢) ابن تيمية: المرجع السابق نفسه: ص ٣٥٩.

المبحث الثاني

ضرورة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: إبراز ذاتيَة الأُمَة الإسلاميَة وصقلها وإظهار سمتها وسماتها.

المطلب الثاني: تجسيد القوة في ذاتية الأُمَة الإسلاميَة وإظهارها للإنسانية.

المطلب الثالث: بناء قدرة الأُمَة الإسلاميَة على مواجهة الصراع الفكري.

المطلب الأول

إبراز ذاتيّة الأُمَّة الإسلاميَّة
وصقلها وإظهار سمتها وسماتها

مِمَّا سبق تبينت منزلة تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وأن هذه المنزلة تُعَدُّ قدرًا إلهيًّا واختيارًا ربانيًا وتفضيلاً وتكريمًا من الحكيم الخبير، وبقدر هذه المنزلة السامقة تعظم المسؤولية وهي حمل رسالة الإسلام وتحقيق هديه في العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك في منطلقات الأُمَّة وغاياتها وأهدافها ووسائلها وأساليبها، وبقدر عِظَمِ تلك المنزلة وهذه المسؤولية تظهر ضرورة التميُّز واقترانها بمنزلته، إذ لابُدَّ من تحقيقه في حياة الأُمَّة لتنهض بحمل مسؤوليتها وتنال موعود الله، وهذا ما ألمح إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مقولته التي سبق الإشارة إليها: (من سرَّه أن يكون من تلك الأُمَّة فليؤد شرط الله فيها)[(١)]، وضرورة التميُّز تتجلى في جوانب كثيرة منها: إبراز ذاتيّة الأُمَّة الإسلاميَّة وصقلها وإظهار سمتها وسماتها، وتجسيد القدوة في تلك الذاتية وإظهارها للإنسانية، وبناء قدرة الأُمَّة الإسلاميَّة على مواجهة الصراع الفكري.

فأمَّا إبراز ذاتية الأُمَّة وصقلها وإظهار سمتها وسماتها، فقد اقتضت حكمة الله أن تكون الأمة الإسلاميَّة أمَّة متميزة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/٣٩٦، (مرجع سابق).

﴿ رُسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[2].

- في الآية الأولى: نصَّ تعالى على تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة في الدنيا، وفي الآية الأُخرى نصَّ جلَّ وعلا على تميُّزها في الآخرة - كما ذكر المفسرون - وتكاد هاتان الآيتان أن تكونا النص الصريح على تميز الأُمَّة الإسلاميَّة في القرآن الكريم وفيما عداهما جاء التميُّز ضمنًا[3]، أو بدلالة الاستلزام[4].

ومِمَّا جاء في تفسير ابن قيم الجوزيَّة للآية الأولى قوله: (هذه الآية من كنوز القرآن، نبَّه فيها على حكمته تعالى المقتضية تمييز الخبيث من الطيب، وأن ذلك التمييز لايقع إلاَّ برسله فاجتبى منهم من شاء وأرسله إلى عباده فيتميز برسالتهم الخبيث من الطيب، والولي من العدو، ومن يصلح لمجاورته وقربه وكرامته ممن لايصلح إلاَّ للوقود، وفي هذا تنبيه على الحكمة في إرسال الرسل، وأنَّه لابد منه... فتأمل هذا الموضع حق التأمل وأعطه حظه من التفكير، فلولم يكن هذا الكتاب سواه لكان من أجل ما يستفاد)[5].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٧٩).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٣٧).

(٣) انظر: عبدالمنعم أبو زنط: التميُّز الإسلامي ص ١٤، (مرجع سابق).

(٤) انظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ٨٤/١، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

(٥) بدائع التفسير: ٥٣٦/١، ٥٣٧، (مرجع سابق).

وقال السدي وابن كثير: (يخرج المؤمن من الكافر)[1]، وقال ابن عباس: (يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة)[2].

ومِمَّا يدل على أنّ هذه الآية تنص على ضرورة تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة في الدنيا ما أورده المفسرون من أسبابٍ لنزولها وتفسير لمدلولها، ومن ذلك قول ابن كثير: (مَيَّزَ بينهم بالجهاد والهجرة)[3]، وقال: (يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرُهم وجَلَدُهم وثباتُهم وطاعتُهم لله ورسوله ﷺ، وهتك به أستار المنافقين فأظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسول ﷺ)[4].

- أمَّا الآية الأُخرى: فذكر المفسرون في معناها: (إنّ الله يحشر الكافرين إلى جهنّم ليميز الكافرين من المؤمنين)[5]؛ لأنّ الله يريدُ (أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحد على حدة، وفي دار تخصه، فيجعل الخبيث بعضه على بعـض؛ من الأعمال والأمـوال والأشخاص ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ

---

(١) أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير (المتوفى سنة ١٢٨ هـ): تفسير السدي الكبير: ص ١٩٣، ٢٨٢، تحقيق: محمد عطا يوسف، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، عن دار الوفاء - مصر.

وانظر: ابن عطية: المحرر الوجيز.. ١/٥٤٦، (مرجع سابق)، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن..: ٤/١٨٤، (مرجع سابق)، وعبدالرزاق الصنعاني: تفسير القرآن ١/١٤٠، (مرجع سابق)، تحقيق: مصطفى مسلم، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/٤٣٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم..: ص ١٣١ و ٢٥٢، (مرجع سابق).

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/٤٣٢، (المرجع السابق نفسه).

(٤) المرجع السابق نفسه: ١/٤٣٢.

(٥) ابن عطية: المحرر الوجيز..: ٢/٥٢٦، (مرجع سابق).

فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1]

الذين خسروا أنفسهم، وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين)[2].

أوضحت الآيتان السابقتان ضرورة التميُّز بين أهل السعادة والشقاوة، والمسلمين والكفار، وأولياء الله وأعدائه، وبين حزب الله وحزب الشيطان، وأنَّ الله (لابد أن يعقد شيئًا من المحنة، يُظْهِرُ فيه وليه، ويفضحُ عدوه، يُعْرَفُ به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر)[3].

ولولا هذا الصقل لذاتية الأُمَّة والابتلاء والامتحان - (بالأسباب الكاشفة لذلك)[4] - التي تحتم التميُّز وتظهر ضرورته لحدث الخلط واستشرى الخبث وصار مشاعًا لايعرف معه للأُمَّة ذات متميزة بسمتها وسماتها الخاصة.

* * *

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٧).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن.. ١٦٧/٣، (مرجع سابق).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤٣٢/١، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ٤٣٢/١.

المطلب الثاني

تجسيد القدوة وإظهارها للإنسانية

والمقصود بهذا أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة بحكم خيريتها وشهادتها على الأمم وحملها رسالة الله لابُدَّ أن تحقق في نفسها مبادئ الإسلام وقيمه وأخلاقه، وأن تصطبغ بصبغة الله لتكون قدوة للإنسانية، وهذا الأمر يحتم التميُّز ويظهر ضرورته.

قال الشيخ السعدي عند تفسيره لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾[(١)]: (إذا أردت أن تعرف نموذجًا يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ فقس الشيء بضدّه)[(٢)].

ثُمَّ أجرى هو القياس وقال فيه: (كيف ترى في عبدٍ آمن بربه إيمانًا صحيحًا، وأثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح ورذيلة وعيب. فوصفه الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحســان لعبيده «أي عبيد المعبود وهم خلق الله»، فقسه بعبد كفر بربه وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين، فاتصف بالصفات القبيحة من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٣٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن...: ١/١٥٠، ١٥١، (مرجع سابق).

الخلق، في أقواله، وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبيده)[1].

ونتيجة لهذا القياس (فإنَّه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك إنّه لا أحسن من صبغة الله، وفي ضمنه أنّه لا أقبح ممن انصبغ بغير دينه)[2].

ويظهر بعدٌ آخر من هذا القياس والمقارنة وهو ضرورة التميُّز في شخصية الأُمَّة الإسلاميَّة والاتصاف بتلك الصفات الكريمة والخلال الحميدة والبعد عن مرذولات الأخلاق ومساوئ الصفات لكي تُجَسِّدَ الأُمَّة الإسلاميَّة القدوة الحسنة في نفسها، ويتضح للآخرين من حالها ما يجذبهم إليها ويجعلهم يقصدونها ويأتمون بها.

إذن فتميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة بالغ الضرورة لتجسيد القدوة وإظهارها للبشرية قاطبة.. ذلك التميُّز الشمولي المتكامل في مظهرها، وفي مضمونها وفي سمتها، وفي سلوكها.

يقول عمر عودة الخطيب في ذلك: (إنَّ المسلمين الذين اختصهم الله برحمته، ومنَّ عليهم بفضله العظيم، فكانوا حملة الأمانة الإلهية، والأُمَّة الوسط الشهداء على الناس.. مدعوون - دائمًا - إلى أن يلتزموا المنهج الإسلامي الكامل في العقيدة والفكر، والقول والعمل، والاجتماع والأخلاق، وكل شأن من شؤون الحياة... مدعوون - بحكم هذا المنهج- أن يعتصموا بحبل الله، ويتبعوا هداه ويعتزوا بشخصيتهم الإسلاميَّة الفريدة التي بها سادوا، وبها يسودون)[3].

---

(1) المرجع السابق نفسه: 1/151.

(2) المرجع السابق نفسه: 1/151.

(3) لمحات في الثقافة الإسلاميَّة ص 82، 83، (مرجع سابق).

ولعل في سؤال الرجل الذي قال للنبي ﷺ: (يا رسول الله كيف يرفع العلم وقد أثبت في الكتاب ووعته القلوب؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة»، ثُمَّ ذكر ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله)[1].

لعل في سؤال الرجل وجواب الرسول ﷺ له ما يبين أهمية القدوة وضرورة أن يكون التميُّز واقعًا ملموسًا في حياة الأُمَّة وأن يتجسد في قدوة صالحة تدعو الناس بفعلها قبل أن تدعوهم بقولها.

* * *

(١) الحاكم: المستدرك...: ١/١٧٨، ١٧٩، كتاب العلم، رقم الحديث: (٤٩/٣٣٧)، (مرجع سابق)، وكان سبب سؤال ذلك الرجل قولُ الرسول ﷺ: «هذا أوان يرفع العلم» وهو ينظر - ذات يوم - إلى السماء، من الحديث المذكور نفسه، وذكر الحاكم أنّه صحيح.

المطلب الثالث

بناء قدرة الأُمَّة الإسلاميَّة على مواجهة الصراع الحضاري

لكلِّ أُمَّة من الأمم ذات وفاعلية حضارية ترتكز على عقائد وقيم ومفاهيم وتقاليد وعادات (وتسعى كل أُمَّة سعيًا دائبًا على أن تكون مفاهيمها واضحة الدلالة في ذاتها، مرعيَّة الجانب لدى أبنائها، واسعة الانتشار والتداول لدى غيرها، وتتخذ لتحقيق ذلك وسائل شتّى، فتؤلف الكتب، وتعقد المؤتمرات، وتقوم بالدراسات، وتصدر النشرات، وتضع مناهج التربية والتعليم، وتستخدم - بوجه عام - كل وسائل الإعلام والتوجيه لتوضيح هذه المفاهيم وشرحها، وبيان أسسها وخصائصها وتفصيل وجوه النفع فيها)[1].

ولابُدَّ من أنْ تدور رحى الصراع بين أُمَّة وأخرى في بعض هذه المجالات مِمَّا يستوجب وعي كُلِّ أُمَّة بذاتها وبناء قدرتها لمواجهة ذلك الصراع الحضاري، وإلا فإنَّ الأُمَّة المتراخية عن شيء من مقومات ذاتيتها وسمتها وخصائصها ستكون معرضة بقدر تهاونها وتراخيها لغزو الأُمَّة الأخرى؛ ولذلك فإنّ بناء قدرة الأُمَّة الإسلاميَّة على مواجهة الصراع الحضاري مع الأمم الأخرى يعتمد في بعض الجوانب على تَمَيُّزها مِمَّا يؤكد ضرورة التميُّز في الكيان والاتجاه والهدف والتصور والشمار والانتماء.

يقول سيد قطب عن ضرورة التميُّز: (والجماعة المسلمة التي تتجه

---

(١) عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ١١، (مرجع سابق).

إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه، إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة، فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز، رمز للتميُّز والاختصاص، تميز التصور وتميز الشخصية، وتميز الهدف وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان.

والأمة المسلمة - اليوم - بين شتى التصورات الجاهليَّة التي تعج بها الأرض جميعًا، وبين شتَّى الأهداف الجاهليَّة التي تستهدفها الأرض جميعًا، وبين شتّى الاهتمامات الجاهليَّة التي تشغل بال الناس جميعًا، وبين شتّى الرايات الجاهليَّة التي ترفعها الأقوام جميعاً.. الأُمَّة المسلمة اليوم في حاجة إلى التميُّز بشخصية خاصة لاتلتبس بشخصيات الجاهليَّة السائدة، والتميُّز بتصور خاص للوجود والحياة لايلتبس بتصورات الجاهليَّة السائدة، والتميُّز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور، والتميُّز براية خاصّة تحمل اسم الله وحده فتعرف بأنها الأُمَّة الوسط التي أخرجها الله للناس لتحمل أمانة العقيدة وتراثها.

إنَّ هذه العقيدة منهج حياة كامل، وهذا المنهج يميز الأُمَّة المستخلفة الوارثة لتراث العقيدة، الشهيدة على الناس، المكلفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله.. وتحقيق هذا المنهج في حياة الأُمَّة المسلمة هو الذي يمنحها ذلك التميُّز في الشخصية والكيان وفي الأهداف والاهتمامات، وفي الراية والعلامة.

وهو الذي يمنحها مكان القيادة الذي خلقت له، وأخرجت للناس من أجله، وهي بغير هذا المنهج ضائعة في الغمار، مبهمة الملامح، مجهولة السمات، مهما اتخذت لها من أزياء ودعوات وأعلام)[1].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/١٢٩، (مرجع سابق).

إنَّ ضرورة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة تزداد كلما تقارب الزمان وتقدمت وسائل الاتصال واختلطت أمم الأرض بمناهجها وثقافاتها وسارت البشرية نحو العالمية في نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها لئلا تذوب الأُمَّة الإسلاميَّة في ثقافة أو أخرى أو تتراجع عن رسالتها في الحياة أمام حضارة غير حضارتها تنطلق من أسس أخرى وتهدف إلى مقاصد وغايات تغاير مقاصد الأُمَّة الإسلاميَّة وغاياتها، (فقدأخرج الله الأُمَّة المسلمة لتؤدي دورًا كونيًا كبيرًا، ولتحمل منهجًا إلهيًّا عظيمًا، ولتنشئ في الأرض واقعًا فريدًا، ونظامًا جديدًا.. وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميُّز والتماسك.. وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمَّة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الحياة وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة)[1].

* * *

---

(١) المرجع السابق نفسه: ١/٥٢٥. وانظر: البحث نفسه: ص ١٠٦٢ - ١٠٧٥، عن الوعي الثقافي الشامل بالثقافة الإسلاميَّة والثقافات الأخرى.

الفصل الثالث

لمحة عن الاستشراق والمستشرقين

ويشتمل على ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: مفهوم الاستشراق والمستشرقين.

المبحث الثاني: نشأة الاستشراق.

المبحث الثالث: تطور الاستشراق.

المبحث الأول

مفهوم الاستشراق والمستشرقين

ويشتمل على مطلبين، هما:

المطلب الأول: تعريف الاستشراق.

المطلب الثاني: مُسَلَّمَات حول مفهوم الاستشراق والمستشرقين وملحوظاتهم.

المطلب الأول

تعريف الاستشـــراق

أ- تعريفه لغة:

الاستشراق لغة: مصدر الفعل (استشرق)، وقد ذكر صاحب معجم متن اللغة: أنها (مولد عصرية)[(١)]، ولكن إذا أُمعن النظر في هذا الفعل وُجِدَ أن بعض حروفه مزيد وبعضها أصلي.

أمَّا المزيد فهي همزة الوصل والسين والتاء، وزيادة همزة الوصل لئلا تُبْدَأُ اللفظة بساكن (لأن الابتداء بالساكن ممتنع)[(٢)]، وأمَّا السين والتاء فتستعملان للطلب، كقولهم: استخرج استخراجًا، والاستخراج: طلب الخروج، واستصحب استصحابًا والاستصحاب لطلب الصحبة.. وتستعملان بمعنى التحول والانتقال كقولهم: استحجر الطين؛ أي صار حجرًا، وكقولهم: (استنوق الجمل، استيست الشاة أي صار الجمل كالناقة في طباعها، وصارت الشاة كالتيس، ومنه المثل «إن البغاثَ بأرضنا يستنسر»[(٣)]،[(٤)].

---

(١) أحمد رضا: معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة): ٣/٣١٠، عن دار مكتبة الحياة – بيروت ١٣٧٨ هـ- ١٩٥٩ م.

(٢) أبو البقاء عبد الله بن الحسين العُكْبَري: اللباب في علل البناء والإعراب: ١/٥٩، تحقيق: غازي مختار طليمات، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م، عن دار الفكر، دمشق.

(٣) ابن منظور: لسان العرب: مادة (بغث)، (مرجع سابق).

(٤) محمد عبدالخالق عضيمة: المغني في تصريف الأفعال، ص ١٣٠، طبعة دار الحديث، (بدون تاريخ)، وانظر: مسعود بن عمر سعد الدين التفتازاني: شرح مختصر التصريف العِزّي في فن الصرف: ص٤١، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، عن ذات السلاسل..، الكويت.

وأمَّا الحروف الأصلية في لفظ (استشرق استشراقًا) فهي: شَرَقَ؛ وقد ورد لدى ابن فارس في معجمه قوله: (شرق: الشين والراء والقاف: أصلٌ واحد يدلُّ على إضاءة وفتح، من ذلك: شرقت الشمس، إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت.. والشرق المشرق.. ومن قياس هذا الباب: الشاة الشرقاء: المشقوقة الأُذُن وهو من الفتح الذي وصفناه)[1].

وقال الراغب الأصفهاني: (والمشرق والمغرب إذا قيلا بالإفراد فإشارة إلى ناحيتي الشرق والغرب، وإذا قيلا بلفظ الجمع فاعتبارٌ بمطلع كلِّ يوم ومغربة، أو بمطلع كلِّ فصل ومغربة)[2]، وبعد أن يستشهد على ذلك بآيات قرآنية وردت في كل من المعاني التي ذكرها، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾[3]: (أي ناحية الشرق)[4].

من هذه المعاني اللغويَّة يتبين المدلول اللغوي للاستشراق والمستشرقين

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/٢٦٤ مادة (شرق)، (مرجع سابق).

وانظر:

- أحمد بن فارس: مجمل اللغة ٢/٥٢٧ مادة (شرق)، (مرجع سابق).
- إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية ٤/١٥٠٠، ١٥٠١ مادة (شرق)، (مرجع سابق).
- الزمخشري: أساس البلاغة مادة (شرق) ص ٣٢٧، ٣٢٨، (مرجع سابق).
- ابن منظور: لسان العرب ٢/٣٠٣ - ٣٠٦ مادة (شرق)، (مرجع سابق).
- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة (الشرق) ص ١١٥٨، ١١٥٩، (مرجع سابق).
- إبراهيم أنيس وآخرين: المعجم الوسيط ١/٤٨٠ مادة (شرقت)، (مرجع سابق).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ص ٤٥١، مادة (شرق)، (مرجع سابق).

(٣) سورة مريم: الآية (١٦).

(٤) الراغب الأصفهاني: المرجع السابق نفسه: ص ٤٥١، مادة (شرق).

وفقًا لما عرَّفه صاحب معجم متن اللغة بقوله: (استشرق طلب علوم الشرق ولغاتهم)[1]، ويقال لمن يقوم بذلك مستشرق وجمعه مستشرقون، ولما ينجزونه استشراقا.

ومِمَّا يعمق الدلالة اللغويّة للاستشراق والمستشرق كون لفظ (أشرق) يأتي بمعنى الإضاءة والفتح، وهذا المعنى له دلالة فلسفية ومعنوية:

- أمَّا الدلالة الفلسفية فهي: (ظهور الأنوار العقليّة ولمعانها وفيضانها على الأنفس..)[2] كما يقول الفلاسفة ويقولون - أيضًا -: (الحكمة المشرقية أو حكمة الإشراق باعتبار الشرق هو المنبع الرمزي لإشراق النور)[3].

- وأمَّا الدلالة المعنويّة فهي إطلاق الاستشراق بمعنى طلب الشرق على طلب علومه ومعارفه، وهذا إطلاقٌ معنوي.

وصلة الاستشراق والمستشرقين بهاتين الدلالتين شديدة ولاسيما أنّه قد ورد في بعض المراجع التاريخية؛ إنّه كان يطلق على طالب العلم لدى الأمم الغربية قديمًا؛ مستشرق، إمَّا باعتباره يطلب الحكمة ونورها في الفكر والعقل ونورها هذا يسمى إشراقًا، وإمَّا باعتباره يطلب العلم والحكمة ومنبعها الدين ومهد الأديان الشرق فكأنّه بطلبه العلم رحل إلى الشرق، وفي هذا الإطلاق نقل لمعنى الشرق من الاتجاه ناحية الشرق حسًّا إلى الاتجاه إلى علومه وهو ولاشك إطلاق معنوي[4].

---

(١) أحمد رضا: معجم متن اللغة ٣/٣١١، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: جميل صليبا: المعجم الفلسفي ٢/٩٤، عن دار الكتاب اللبناني- بيروت ١٩٨٢ م.

(٣) انظر: هنري كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلاميَّة: ص ٣٠٩، ٣١٠، ترجمة: نصير مروة وغيره، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م، منشورات عويدات، بيروت.

(٤) انظر: قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: ص ١٠٨، الطبعة=

ب- تعريفه اصطلاحًا:

عُرِّفَ الاستشراق بتعريفات عدّة، بعضها يتناول الاستشراق من حيث موضوعُ دراساتِه أو أسلوبه في تلك الدراســات أو منطلق البحث أو غايته أو ارتباطاته الدينيّة والسياسية وحركته، وبعضها الآخر يتناول المستشرقين أشخاصًا وفئات.

فأمّا الاستشراق موضوعًا وحركة وإنتاجًا ومنهجًا فقد عُرِّفَ بتعريفات كثيرة من أبرزها الآتي:

١ - عرَّفه المستشرق الألماني (رودي بارت) بقوله: (الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي)[١].

٢ - وعرَّفه إدوار سعيد بقوله: (الاستشراق أسلوب في الفكر قائم على تمييز.. بين الشرق في معظم الأحيان والغرب)[٢].

وقال - أيضًا -: (الاستشراق يُمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق التعامل معه بإصدار تقريرات حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه وحكمه، وبإيجاز: الاستشراق (بوصفه أسلوبًا غربيًا) للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه)[٣].

=الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، من منشورات دار الرفاعي..، الرياض.

(١) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: ص ١١، ترجمة: مصطفى ماهر، طبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، (بدون تاريخ)، وانظر: ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص ١٥، الطبعة الأولى ١٩٨٢ م، عن معهد الإنماء العربي - بيروت.

(٢) إدوارد سعيد: الاستشراق ص ٣٨، ترجمة: كمال أبو ديب، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م، عن مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٣٩.

وممَّا قال في تعريفه أيضًا: إنه ذلك (الفرع المنظم تنظيمًا عاليًا الذي استطاعت الثقافة الغربية عن طريقه أن تتدبر الشرق - بل حتى - أن تنتجه سياسيًا، واجتماعيًا، وعسكريًا، وعقائديًا، وعلميًا، وتخيليًا في مرحلة ما بعد عصر التنوير)[1].

٣ - ذكر (رود نسون): أن (كلمة الاستشراق دخلت على معجم الأكاديمية الفرنسية في ١٨٣٨ م، وتجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق)[2].

٤ - وعُرِّف الاستشراق بأنَّه: (ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضارته وأديانه، وآدابه ولغاته، وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي معبرًا عن الخلفيَّة للصراع الحضاري بينهما)[3].

هذا عن تعريفات (الاستشراق).

أمَّا تعريفات المستشرقين فمن أبرزها الآتي:

١ - جاء في قاموس أكسفورد المستشرق هو: (من تبحر في لغات الشرق وآدابه)[4].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٣٩.

(٢) رودنسون: صورة العالم الإسلامي في أوروبا...، نقلاً عن أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق...: ص ٢٤، (مرجع سابق).

(٣) الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب المسلم: ص ٣٣ الطبعة الثانية، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، الرياض.

(٤) نقلاً عن ميشال جحا: الدراسات العربيَّة والإسلامية في أوروبا: ص ١٧، (المرجع السابق نفسه).

٢ - وعرَّف (أنجلو جويدي) المستشرق بأنه: (من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوى الروحيّة الأدبية التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية)[١].

٣ - وعرَّف (ديتريش) المستشرق بقوله: (ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق)[٢].

٤ - ويقول إدوارد سعيد: (كل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه - ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصًّا بعلم الإنسان (الإنثروبولوجي)، أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخًا، أو فقيه لغة (فيلولوجيا) - في جـوانبه المحـددة والعامة على حـد سواء، هو مستشرق وما يقوم.. بفعله هو استشراق)[٣].

---

(١) علم الشرق وتاريخ العمران، نقلاً عن أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٢٤، (المرجع السابق نفسه).

(٢) الدراسات العربية في ألمانيا، نقلاً عن أحمد سمايلوفتش: المرجع السابق نفسه: ص ٢٥.

(٣) إدوارد سعيد: الاستشراق: ص ٣٨، (مرجع سابق).

ولمزيد من تعريفات الاستشراق والمستشرقين انظر:

- أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق في الصفحات (٢٢ - ٣٢)، (مرجع سابق).
- أحمد عبدالحميد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق في الصفحات (٥ - ٧)، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ، عن المنتدى الإسلامي.
- محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم في الصفحات (٨٧، ٨٨)، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، من منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- نذير حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين (٣١ - ٣٣)، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م، دار المنارة..، جدة.
- عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة ص ٩، طبعة ١٩٨٥ م، عن دار=

في ضوء هذه التعريفات للاستشراق والمستشرقين، ومن خلال المدلول اللغوي المتقدم ذكره تتأكد أهمية تحديد المراد بالشرق ومكانة اللغة العربية والإسلام في الدراسات الاستشراقية ولدى المستشرقين.

أمَّا المراد بالشرق فإنَّ بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم قد توقف عنده بغية تحديده، وفيما يأتي أبرز ما توصلوا إليه:

١ - يقول باحث غربي: (الظاهر أن اسم الشرق تعرض لتغيير في معناه، فالشرق بالقياس إلينا نحن الألمان، يعني العالم السلافي، العالم الواقع خلف الستار الحديدي. وهذه المنطقة يختص بها علميًّا بحوث شرق أوروبا Osteuropaforscling، أمَّا الشرق الذي يختص به الاستشراق فمكانه جغرافيًّا في الناحية الجنوبية الشرقية بالقياس إلينا، والمصطلح يرجع إلى العصر الوسيط، بل إلى العصور القديمة، إلى الوقت الذي كان فيه البحر المتوسط يقع كما قيل في وسط العالم، وكانت الجهات الأصلية تحدد بالنسبة إليه. فلما انتقل مركز ثقل الأحداث السياسية بعد ذلك من البحر المتوسط إلى الشمال بقي مصطلح الشرق رغم ذلك دالاً على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط. كذلك تعرضت لفظة «الشرق»

=النهضة العربيَّة..، القاهرة.

- محمد أحمد دياب: أضواء على الاستشراق والمستشرقين ص ١٠ - ١٢، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، دار المنار..، القاهرة.
- محمد فتح الله الزيادي: انتشار الإسلام وموقف المستشرقون منه، ص ٤١ - ٤٥، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م، عن دار قتيبة..، بيروت.
- محمد حسين علي الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية؛ ص ١١ - ١٣، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عن المؤسسة الجامعية للدراسات..، بيروت.

في أعقاب الفتوحات العربية الإسلاميَّة لتغيير آخر في معناها أو إذا شئنا دقة أكثر؛ تعرضت لاتساع في نطاق مدلولها. فقد انطلق الفاتحون في ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربية لا ناحية الشمال والشرق فحسب، بل إلى ناحية الغرب كذلك، وزحفوا في غضون عشرات من السنين، إلى مصر وشمال أفريقيا حتى بلغوا المحيط الأطلسي، واستوطن الإسلام قطاع بلدان شمال أفريقيا دينًا، وتعرب السكان تدريجيًّا، وهم الأقباط في مصر والبربر غربها. ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال أفريقيا ضمن الشرق ويختص الاستشراق حتى بشمال غرب أفريقيا الذي يسمى بالمغرب أي بلد غروب الشمس، وإن كان اسمه - الاستشراق - يفترض أنَّه يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها. ومهما يكن من أمر فإنَّ الاسم لايبين بوضوح مستقيم المقصود منه بالضبط، والمهم هو الموضوع ذاته)[1].

٢ - ويقول أحد الباحثين العرب: (إن مفهوم هذه الكلمة (الشرق) يتغير تبعًا لاختلاف المكان، وتبعًا لتغير الأزمان، فالشرق يختلف بالنسبة للياباني أو العربي أو الألماني أو الإنجليزي أو الأمريكي. والشرق يختلف بالنسبة لأهالي العصور القديمة والوسطى، أو للبشر في تاريخنا الحديث والمعاصر، وخاصة بعد اكتشاف الأمريكتين)[2].

---

(١) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: ص ١١، ١٢، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق ص ٢٣، ٢٤، (مرجع سابق).

(٢) علي حسني الخربوطلي: الاستشراق في التاريخ الإسلامي ص ١٢، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨ م، القاهرة.

٣- ويقول أحد المستشرقين في ذلك: (ليس استعمال كلمة الشرق في تاريخ الحضارة متفقاً مع معناها الجغرافي تماماً؛ فإنّ بلدان الشرق الأدنى المتحضرة كان يجب تسميتها في روسيا بالجنوب. وكذلك أفريقية الشمالية التي تعد جزءاً من الشرق الإسلامي، جنوبية بالنسبة إلى أوربا. ابتدأ استعمالُ كلمة الشرق بمعنى البلاد المتحضرة مقابلاً للغرب في عصر الامبراطورية الرومانية. ولم يكن يوجد في نظر اليونان إلا الجنوب الحار المتحضر والشمال البارد موطن المتوحشين، وكانوا في تقسيمهم العالم إلى أقسامه المختلفة يسيرون على هذا الأساس نفسه فيجعلون أوروبا شمالي آسيا وأفريقية معاً؛ فلو كانت سيبيريا معلومة لهم لعدت قسماً من أوروبا)[1].

٤- ويعالج باحث عربي هذه المسألة قائلاً: (أمّا الغرب فهو اصطلاح حديث جرينا فيه على ما اصطلح عليه الأوروبيون في عصور الاستعمار من تقسيم العالم إلى شرق وغرب، يعنون بالغرب أنفسهم، ويعنون بالشرق أهل آسيا وأفريقية الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم، وجرينا نحن على هذا الاستعمال، والكلمة وإن كانت حديثة اصطلاحياً واستعمالاً فهي قديمة في مفهومها ودلالتها فقد كان في العالم من زمن قديم قوتان

---

(١) ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلاميَّة: ص ٣٥، ترجمة حمزة طاهر، عن دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٦٦ م، القاهرة.

وممَّا يلحظ في هذه التسميات، الشرق والغرب، والجنوب والشمال، أنَّ كلاً منها قد ارتبط ببعد سياسي أو عقدي، فالشرق والغرب يظهر في الاستعمال السياسي والاستعماري والدبلوماسي، والجنوب والشمال يظهر في الاستعمال الكنسي والتنصيري.

تصطرعان وتتنازعان السيادة إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب تمثل ذلك في الصراع بين الفرس والروم، ثم في الصراع بين المسلمين والروم، ثم في الصراع بين المسلمين والصليبيين، ثم في الصراع بين العثمانيين والأوروبيين مدًّا وجزرًا، ثم كان آخر فصول هذه الملحمة الصلات بين الشرق ممثلاً في آسيا وإفريقيا، وبين الغرب ممثلاً في أوروبا وأمريكا)[1].

* * *

(١) محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية: ص ١١، الطبعة الخامسة، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت.

المطلب الثاني
مسلّمات حول مفهوم الاستشراق والمستشرقين وملحوظات

يتضح من التعريفات السابقة للاستشراق والمستشرقين، وما تبعها من آراء وأقوال حول مسمى (الشرق)، أن في تلك الآراء مُسَلَّمَات من الناحيتين الجغرافية والموضوعية ويَرِدُ عليها بعض الاعتراضات في بعض القضايا وبخاصة ما يتعلق منها بمدلول الشرق والغرب في الإسلام، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ نطاق الاستشراق والمستشرقين قد (اتسع مع الأيام في ناحية وضاق في ناحية أخرى؛ اتسع في الناحية الجغرافية إذ ضمَّ إلى دراسة المشرق العربي دراسة المغرب العربي وضاق في الناحية اللغوية والدينية إذ انصب اهتمام معظم المستشرقين على دراسة الإسلام في عقيدته وشريعته وتاريخه، وانصب اهتمامهم كذلك على دراسة اللغة العربية بعد أن درس معظمهم عدة لغات شرقية من هندية وصينية وغيرهما بلهجاتها المتنوعة[1]، مِمَّا يدل دلالة واضحة على أنَّ هدف الاستشراق والمستشرقين هو الإسلام ومفتاحه اللغة العربية، ولا غرو في ذلك فإنَّ الإسلام هو مصدر عزّة الشرق وقوته المعنويّة والحسيّة؛ ولأنَّ (الإسلام هو صلب الشرق فإذا وهن الإسلام وهن الشرق كله)[2].

---

(١) انظر: عمر فروخ: الاستشراق ما له وما عليه، مجلة المنهل، العدد [٤٧١]: ص ١٥، رمضان وشوال ١٤٠٩ هـ، (العدد السنوي المتخصص).

(٢) مصطفى الخالدي وعمر فرّوخ: التبشير والاستعمار: ص ٧، الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م عن المكتبة العصرية – بيروت. وانظر: محمد بركات البيلي: الخليفة التاريخية للاستشراق.. (المنهل – العدد السنوي ١٤٠٩ هـ) ص ١٣٦، (المرجع السابق نفسه).

ولعل أكثر ما يهم في هذا البحث هو ما قام به بعض المستشرقين من دراسات عن الإسلام والأُمَّة الإسلاميَّة تهدف في مجملها إلى توهين ذاتية الأُمَّة الإسلاميَّة وإذابة تميُّزها في ثقافات الأمم الأخرى.

أمَّا المسلمات المشار إليها آنفًا فهي:

- كون الأرض من حيث طبيعتها الجغرافية التي فطرها الله عليها مقسومة إلى شطرين شطر تشرق منه الشمس ويسمى المشرق أو الشرق، وشطرها الآخر تغرب فيه الشمس ويسمى المغرب أو الغرب[(١)]، ومن المسلم به لدى العالم أجمع كون أيام الأسبوع والشهر تبدأ من شرق آسيا وتنتهي بأمريكا[(٢)].

- ومن ناحية أخرى فإنَّ التمايز الحضاري والثقافي بين الأمم الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط والأمم الواقعة غربه من المسلمات فقد تشكلت حضارة وثقافة ترتكز على الإسلام في جملتها في الشعوب والأمم الواقعة شرق البحر المذكور وسادت ثقافة واحدة وحضارة واحدة في الجملة في شعوب أوروبا وأمريكا وحتى روسيا[(٣)].

وكون التقسيم يعتمد على الثقافة والحضارة فهذا مُسَلَّمٌ به، ولكن مصطلح الشرق والغرب في هذه الناحية الموضوعيّة ليس مسلمًا به بل

---

(١) انظر: محمد فتح الله الزيادي: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه: ص ٤٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: زيد بن أحمد بن زيد العبلان: الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلاميَّة: ص ١٠، رسالة ماجستير في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ١٤٠٦ هـ، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، الرياض.

(٣) زيد بن أحمد العبلان: الدراسات الاستشراقية..: ص ١٠، ١١، (المرجع السابق نفسه).

الأولى تغييره إلى الغرب والإسلام[1].

وأمَّا مدلول الشرق والغرب في الإسلام فإنّ الذي يحدده جزيرة العرب مهد الإسلام ومهبط الوحي فما كان شرقها فهو المشرق والشرق وما كان غربها فهو المغرب أو الغرب، وهذا ما درجت عليه الأُمَّة الإسلاميَّة في تاريخها القديم والحديث[2]، إلاَّ أنه شاع في العصر الحاضر (مصطلح الشرق الأوسط كمصطلح جغرافي وسياسي حتى شعوب العالم الإسلامي اعتادت هذه التسمية التي أطلقها عليهم الآخرون مع أن المقصود بها وبالشرق الأدنى والشرق الأقصى تقسيم العالم الشرقي إلى أقسام حسب البعد والقرب من أوروبا.. والذي يتحكم في تحديد هذه المسميات هي المصالح الغربية والمطامع السياسية وفقاً للظروف التاريخية ومراكز القوى الدوليّة)[3].

ويؤكد بعض الباحثين أن مصطلح الشرق الأوسط يُراد به (العالم الإسلامي منطقة جغرافية استراتيجية خاضعة لنفوذهم (أي الغرب

---

(١) انظر: سامي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلاميَّة ١٣/١، الطبعة الأولى ١٩٩١ م، عن مركز دراسات العالم الإسلامي، وقد غيّر المصطلح إلى المسيحية والإسلام غير أنّه يرد على مسمّى المسيحية اعتراض، وقد سبق الإشارة إلى ذلك. وأمَّا اختياري مسمى الغرب مقابل الإسلام فلكون الغرب (أصبح في حقيقته فكرة أيديولوجية أكثر منها فكرة جغرافية) كما قال سيرج لاتوش: تغريب العالم: ص ١٣٢؛ ترجمة خليل كلفت، عرض: سعيد الكفراوي؛ عن العربي الكويتية ص ١٩٨، العدد ٤٣٠ ربيع الأول ١٤١٥ هـ - سبتمبر ١٩٩٤ م.

(٢) انظر: إبراهيم أنيس وآخرين: المعجم الوسيط ٤٨٠/١ مادة (شرقت)، (مرجع سابق).

(٣) انظر: محمود رياض: الشرق الأوسط في التطبيق الجوبوليتكي والسياسي، ص ١٩، الطبعة الأولى ١٩٧٤ م عن دار النهضة العربية بيروت.

ومن خلفهم الصهيونية العالمية) مجردة من المقومات الذاتية للأُمَّة الوسط أي الأُمَّة الإسلاميَّة، والتي تنبع من الإسلام ذاته عقيدة وتاريخًا وحضارة)[1].

ويُمكن القول؛ إنَّ الاستشراق: حركة فكريَّة ركزت دراساتها وأبحاثها في مجملها على اللغة العربيَّة والدين الإسلامي للتمكن من احتواء الأُمَّة الإسلاميَّة، ونفي تميزها وتحقيق سيادة الغرب وهيمنته على العالم الإسلامي بخاصة.

* * *

---

(١) توفيق محمد الشاوي: الشرق الأوسط والأُمَّة الوسط، ص ٤، ٥، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م، عن دار الزهراء للإعلام العربي - مصر. وأشار محمد محمود الصواف إلى ما يعنيه مصطلح الشرق الأوسط؛ انظر: المخططات الاستعماريَّة لمكافحة الإسلام: ص ١٢٤ - ١٤٢، ١٨٨، ٢٣٢ - ٢٤٧، طبعة ١٩٧٩ م، عن دار الاعتصام، القاهرة.

المبحث الثاني

نشأة الاستشراق

ويشتمل على ثلاثة مطالب، هي:

المطلب الأول: جذور نشأة الاستشراق

المطلب الثاني: الصلات الثقافية بين الإسلام والغرب في الأندلس وصقلية.

المطلب الثالث: أثر الاستشراق في الحروب الصليبية وأثرها في الاستشراق.

المطلب الأول

جذور نشأة الاستشراق

تعددت آراء الذين أرخوا لنشأة الاستشراق، وقد صنَّفها بعض الباحثين في أحد عشر رأيًا[1]، وربَّما زادت على ذلك، ويُمكن إجمال أبرز هذه الآراء فيما يأتي:

١- يرجع بعض الباحثين نشأة الاستشراق إلى (الأحداث السياسية والثقافية التي واجهت الغرب بالشرق منذ الحروب الفارسية اليونانية مرورًا بالفتوحات الإغريقية التي أدت إلى وصول الإغريق والرومان إلى هذه الأصقاع التي استعمروها سياسيًا وحضاريًا)[2] حيث تخلل الاستشراق تلك الأحداث وتمثل في أعمال ثقافيّة منها:

أ - المعلومات التي سجلها المؤرخ اليوناني الشهير (هيردوتس) عن مصر والشام وبلاد الرافدين والجزيرة العربية.

ب - تقارير البعثات الاستطلاعية التي رافقت اجتياح الإسكندر المقدوني لبلاد الشرق.

ج - الألواح التي أرسلها (الإسكندر) من بابل إلى اليونان وقام العلماء اليونانيون بترجمتها وأفادوا منها في علوم الفلك

---

(١) انظر: علي بن إبراهيم النملة: الاستشراق في الأدبيات العربية، (عرض للنظرات وحصر وراقي للمكتوب)، ص ٢٣ - ٣١، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة، الرياض.

(٢) انظر: سامي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلاميَّة ١/٢٧ - ٣٤، (مرجع سابق). وانظر: أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٧١، (مرجع سابق).

وتقويم البلدان.

د- إنشاء المدارس اليونانية في بعض المدن الشرقية مثل (الإسكندرية، والرها، وحران، وجند يسابور) وما كان لها من آثار فكرية وكذا الفلاسفة الذين قصدوا تلك المراكز في الشرق.

هـ- إخفاق الحملة الرومانية على الجزيرة العربية في عهد (يوليوس قيصر) وما أحدثه من أخبار وقصص ووصف للجزيرة العربية أذكى روح التعلق بالبحث وارتياد المجهول مِمَّا أسهم في نشأة الاستشراق.

و- مكانة الإسكندرية بوصفها مركزًا ثقافيًّا زاخرًا بالفلاسفة والمفكرين وكذلك مكتبتها الشهيرة، وقد شكّل ذلك مددًا استشراقيًّا للإمبراطورية الرومانية)[1].

٢- يربط بعض الباحثين نشأة الاستشراق بتاريخ الإسلام وأحداثه..؛ ومن أبرزها الآتي:

أ- بعثة الرسول ﷺ بمكة المكرمة، وما كان لها من إرهاصات وأنباء وأحداث، شكلت جذورًا تاريخيّة للاستشراق.

ب- ما أثارته هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة، من بعض التساؤلات عن الإسلام، وما تخللتها بوادر المناظرات والمجادلة مع أهل الكتاب.

---

(١) انظر: سامي سالم الحاج: المرجع السابق نفسه: ٢٧/١ - ٣٤، وانظر: أحمد سمايلوفتش: المرجع السابق نفسه: ص ٧١، وانظر: محمد ماهر حمادة: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العرب (لأحمد سمايلوفتش)، مجلة عالم الكتب، العدد [١]: ص ٢٣١، (عدد خاص عن الاستشراق)، رجب ١٤٠٤ هـ - إبريل ١٩٨٤ م، عن دار ثقيف...، الرياض.

ج - هجرته ﷺ إلى المدينة وظهور الأُمَّة الإسلاميَّة على ساحة الأحداث الإقليمية والعالمية.

د - احتكاك هذه الأُمَّة الوليدة باليهود في المدينة المنورة، ثمّ بالنصارى في أطراف الجزيرة، دعوةً وجهادًا، ثمّ ما أعقب ذلك من فتوحات إسلامية وانتشار للإسلام في أرجاء المعمورة.

هـ- غزوة (مؤتة) وغزوة (تبوك) حيث فرضتا - من وجهة نظر بعض الباحثين - المواجهة العسكرية بين المسلمين والروم[(١)]، مِمَّا اضطر (الحكومات أن تتعرف على هذا القادم الجديد وأن تعطي عنه صورًا تشجع على قتاله والوقوف في وجهه)[(٢)].

و - وما اتخذته الكنيسة من موقف عقدي يرتكز على العداء للإسلام باعتباره يهدد عقيدتها ونفوذها وتطلعاتها[(٣)].

---

(١) انظر: محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٢٥، الطبعة الثامنة عشرة، عن دار المعارف ١٩٨٩ م. وانظر: قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعاليّة: ص ١٩، (مرجع سابق).

(٢) علي النملة: الاستشراق.. ص ٢٤، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق: ص ٢٦. وانظر: علي الخربوطلي: المستشرقون.. ص ٣٢، (مرجع سابق)، وانظر: أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٥٦، (مرجع سابق)، وانظر: إدوارد سعيد: الاستشراق..: ص ٨٩، (مرجع سابق)، وانظر: مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ص ١٣ - ١٥، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م عن المكتب الإسلامي - بيروت.

لذلك كانت الحاجة إلى الاستشراق - لديهم - من الضرورات العقديّة والسياسيّة وغيرها؛ للرد على الإسلام والمسلمين ولمواجهة هذا الواقع، مِمَّا كان له أثر كبير في نشأة الاستشراق.

٣ - توافر عدد من الباحثين على القول: بأن حركة الاستشراق نشأت في أوروبا في القرن الثامن الميلادي انطلاقًا من الأندلس وصقليّة (حينما التقى الأوروبيون بالثقافة الإسلاميّة المتفوقة على حضارتهم، وظلت حركة الاستشراق تنمو وتزدهر حتى استطاعت تكوين صرحها العلمي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر)[١].

ومنذ القرن الثامن الميلادي حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظلت الآراء تتوافر لمعرفة بدايةٍ الحركة الاستشراقية في أوروبا وتحديد ما عسى أن يكون تاريخًا لهذه البداية، ومن أبرز الآراء في ذلك:

أ - تركيز بعض الباحثين على القرن العاشر الميلادي بوصفه ظرفًا تاريخيًّا لبداية الحركة الاستشراقية حيث (أدرك الغرب تلك المعجزة الحضارية التي شادها العرب فاندفعوا إليها ليتعلموها ويتسلحوا بها ويستفيدوا منها فأخذوا يدرسون لغتها وآدابها ويترجمون كتبها وينقلون علومها إلى بلادهم)[٢]،

(١) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٧٠، (مرجع سابق).

وانظر:

- علي الخربوطلي: المستشرقون.. ص ٢٧، (مرجع سابق).

- علي النملة: الاستشراق.. ص ٣٠، (مرجع سابق).

(٢) أحمد الإسكندري وآخرون: المفصل في تاريخ الأدب العربي ٢/٤٠٨، طبعة ١٩٣٤ م،=

وابتُعِثَ الطلاب من فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا إلى الأندلس للدرس والتحصيل[1].

ب - تحديد بعض الباحثين القرن الثاني عشر الميلادي بداية للاستشراق لما تَمَّ فيه للمرة الأولى من ترجمةٍ للقرآن الكريم إلى اللاتينية عام ١١٤٣ م، ولما جرى فيه كذلك من تأليف أول قاموس لاتيني عربي[2].

ويرى أحد المستشرقين البارزين أن بداية الاستشراق كان في ذلك القرن حيثُ أسهم بعض الفلاسفة في نشر العلوم العربية في الغرب، وذكر منهم شخصين هما: (إبراهيم بن عزرا وتوماس برون)[3].

ج - ويرى باحث إسلامي معروف (إنَّ الاستشراق بدأ في بعض البلدان الأوروبية في القرن الثالث عشر الميلادي، مع وجود محاولات فرديَّة قبل ذلك)[4].

=القاهرة، وانظر: أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٥٥، (المرجع السابق نفسه).

(١) انظر: أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٥٧، (مرجع سابق)، وانظر: رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: ص ٩، ترجمة مصطفى ماهر، (مرجع سابق).

(٢) انظر: أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق..: ص ٥٥، (المرجع السابق نفسه).

(٣) برنارد لويس: تاريخ اهتمام الإنجليز بالعلوم العربية: ص ٣، ٤، الطبعة الثانية (بدون تاريخ)، وأساسه ست مقالات نُشرت لأول مرة في (المستمع العربي)، وانظر: أحمد سمايلوفتش فلسفة الاستشراق.. ص ٥٨، (المرجع السابق نفسه).

(٤) انظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٥٣٢، الطبعة السادسة، ١٩٧٣ م، عن دار الفكر، بيروت.

ويذكر أن المؤرخين يكادون يتفقون على نشأته بصورة جديّة بعد الإصلاح الديني الذي قام به (مارتن لوثر) وغيره في أوروبا[1].

د - يذكر أحد المهتمين بدراسة الاستشراق أن (الغرب المسيحي يؤرخ لبدءِ وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فينا الكنسي عام ١٣١٢ م، بتأسيس عدد من كراسي الأُستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية، في جامعات باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وأفينيون، وسلامانكا)[2].

هـ- من الباحثين من يرى أن القرن السادس عشر الميلادي قد شهد ولادة الاستشراق الفعلية حيث أنشئ أول كرسي للغة العربية في باريس عام (١٥٣٩م) في (الكوليج دي فرانس)[3]، (وشغل هذا الكرسي (جيوم بوستل (ت ١٥٨١ م) الذي يعد أول المستشرقين الحقيقيين، وقد أسهم كثيرًا في إثراء دراسة اللغات والشعوب الشرقية في أوروبا، وجمع في الوقت نفسه وهو في الشرق مجموعة مهمة من المخطوطات)[4]، وتتابعت الجامعات الأوروبية في إنشاء مثل ذلك.

---

(١) انظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث..: ص ٥٣٢، (المرجع السابق نفسه).

(٢) إدوارد سعيد: الاستشراق.. ص ٨٠، (مرجع سابق).

(٣) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص٦١، (مرجع سابق)، وانظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية.. ص٢٩، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، من سلسلة كتاب الأمّة الصادرة عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر، ورقمه في السلسلة [٥].

(٤) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية.. ص ٢٩، (المرجع السابق نفسه).

و - وهناك من يرى أن مفهوم الاستشراق والمستشرقين لم يظهر في أوروبا إلاّ في نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر (فقد ظهر أولاً في إنجلترا عام ١٧٧٩ م، وظهر في فرنسا عام ١٧٩٩ م، ثم أدرج مفهوم (الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م)[١].

٤ - يذهب بعض الباحثين إلى القول بأنَّ الاستشراق (انبثق من الحروب الصليبية التي لم تكن سوى أحد عناصر التحول في تاريخ الشرق)[٢]، حيث ارتفعت بسبب ما وقع لها من انتكاسات حربيَّة صيحات تدعو إلى نقل المعركة من ساحات الحرب إلى مجالات الفكر[٣].

ومن هنا نشأت حركة الاستشراق لتحقيق الآتي:

أ - الرد على الإسلام؛ لأنَّه وقف سدًا في وجه النصرانية.

ب - إعادة تشكيل العالم الإسلامي وصياغة أوضاعه ليوائم التصورات الغربية وأغراضها من خلال الدراسات الاستشراقية، ومحاولة احتواء الشخصية الإسلاميَّة من خلال ممارسات ثقافية وتربوية متواصلة احتواءً يتم به فصم العلاقة بين

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢١. وانظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة.. ص ٣٣، (مرجع سابق).

(٢) أحمد الشرباصي: التصوف عند المستشرقين، ص ٧، طبعة ١٩٦٦م، عن مطبعة نور الأمل، القاهرة. وانظر: أحمد سمايلوفتش فلسفة الاستشراق.. ص ٥٥، (مرجع سابق).

(٣) انظر: عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام..: ص ١٢، الطبعة الثانية، ١٩٨٠ م، عن المكتب الإسلامي، بيروت، وانظر: محمد محمد الدهَّان: قوى الشر المتحالفة (الاستشراق - التبشير - الاستعمار): ص ٥٠، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م عن دار الوفاء - مصر.

المسلم وبين ذاته وبينه وبين مجتمعه وبينه وبين تراثه[1] عن طريق التشكيك في العقيدة الإسلاميَّة والأخلاق الإسلاميَّة والتاريخ الإسلامي، وتوهين هذه المقومات والمقومات الأُخرى كاللغة العربية والتقاليد والعادات في المجتمعات الإسلاميَّة ووصم هذه المقومات جميعًا بالقصور والتخلف والتطرف والجمود في حين تمجد قيم الحضارة الغربية الجمالية والثقافية وأنماطها الحياتية[2].

ج - معرفة أحوال الشرق الإسلامي وأهله ودراستها دراسة شاملة وعميقة، والتوسل بهذه المعرفة للتأثير وممارسة النفوذ والهيمنة على الشرق الإسلامي وأهله من نواحٍ شتَّى تحركها نوازع سياسية وعسكرية واقتصادية ودينية وثقافية[3].

الاستنتاجات والملحوظات حول نشأة الاستشراق:

تَمَّ فيما سبق عرض مجمل لأبرز الآراء في نشأة الاستشراق وظروفها، ومهما تعددت الآراء واختلفت الأقوال حول هذه النشأة وظروفها بعامة، أو في محاولة تحديد بداية واضحة ودقيقة يُمكن أن تُعَدُّ البداية الحقيقة لتاريخ الاستشراق بخاصة، فإنّ المسار التاريخي لهذه

---

(١) انظر: فؤاد أحمد فرسوني: المسافة بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشراقية، مجلة المنهل: ص ١٢١، ١٢٢، العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٢٠.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١١٩ و ١١٧.

وحول هذه النقاط كرّس إدوارد سعيد دراساته في كتابه: الاستشراق.. (مرجع سابق)، وساق الحجج والبراهين النظرية والتاريخية لإثبات اضطلاع الاستشراق بتحقيقها وإنتاج الشرق على نحو منها.

الحركة يستوعب تلك الآراء والأقوال؛ لأنها إمًّا أن تكون أسبابًا لنشوء الحركة أو ظروفًا احاطت بنشأتها أو مظاهر لنشاطها، أو مرتكزات لأطوارها ومراحلها التاريخية.

ولعل مما يوضح الصورة ويكشف ملامح الحقيقة ما يتصل بتلك الآراء والأقوال من بعض الاستنتاجات والملحوظات، ويُمكن في ضوء ذلك محاولة معرفة ما يُمكن أن يطلق عليه البداية الرسمية والبداية غير الرسمية للاستشراق:

أولاً: لعل تاريخ البداية الرسمية للاستشراق - كما ذكر إدوارد سعيد فيما تقدم - كان بصدور قرار مجمع فينًا الكنسي عام ٧١٢ هـ الموافق ١٣١٢ م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية[(١)]، ومن الملحوظ في هذه البداية:

- أنّها كانت مرتبطة بالتنصير، وذلك أنه (حينما بدا للبابوات أن ينشئوا الرهبنات لبث الدعوة الدينية في الشرق لزم من أجل ذلك تعلم اللغات.. وبخاصة العربية فأسسوا لهذا الغرض الدروس العربية في باريس وأكسفورد... ليتعلم الرهبان لغات الشرق ويدرسوا الطب في كتب العرب)[(٢)].

ومنذ ذلك التاريخ حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ظل الاستشراق مرتبطًا بالتنصير، ولم يظهر مفهوم الاستشراق منفصلاً عن التنصير في أوروبا إلا مع نهاية القرن الثامن عشر حيث ظهر في إنجلترا

---

(١) انظر: الاستشراق: ص ٨٠، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: نذير حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، ص ٢٤، (مرجع سابق)، وانظر: قاسم السامرائي: الاستشراق..: ص ١٦، (مرجع سابق).

عام (١١٩٣ هـ الموافق ١٧٧٩ م)، وفي فرنسا عام (١٢١٤ هـ الموافق ١٧٩٩ م)، كما أدرج في الأكاديمية الفرنسية عام (١٢٥٤ هـ الموافق ١٨٣٨ م)[١].

- (ومع أنَّ الاستشراق أصبح من الناحية الأكاديمية منفصلاً عن التنصير إلا إنَّه لم يزل التحالف بينهما مستمرًّا حتى العصر الحاضر)[٢]، وظل التجاوب بين الاستشراق والتنصير متبادلاً وإن لم يكن التماثل بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الإنجيلي ظاهرًا بشكل واضح[٣].

ثانيًا: أمَّا البداية غير الرسمية للاستشراق فهي قد تمثلت في أعمال فرديّة قام بها أشخاص يعدون طلائع المستشرقين[٤]، وكانوا مدفوعين للاستشراق إمَّا بعقيدة معينة أو بغرض محدَّد أو رغبة شخصية سواء

---

(١) انظر: الصفحة السابقة ومراجعها، (البحث نفسه)، وانظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة.. ص ٣٣، (مرجع سابق).

(٢) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية.. ص ٣١، (مرجع سابق).

(٣) انظر: عبداللطيف الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، (دراسة نقدية) ص ٢٣، ترجمة قاسم السامرائي، طبع جامعة الإمام ونشرها، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، الرياض، وانظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٣٠، (مرجع سابق).

(٤) للاطلاع على أسماء أولئك الطلائع راجع:

- نجيب العقيقي: المستشرقون ١/١١٠ - ١٢٥، وفيها ترجمة لتسعة وعشرين عَلَمًا من أوائل المستشرقين، (مرجع سابق).

- أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٥٩، ٦٠، (مرجع سابق).

- الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة.. ص ٣٣، ٣٤، (مرجع سابق).

كان الدافع ذاتيًّا أو كانت تقف من ورائهم جهات رسمية، وتمخضت تلك البدايات والأعمال الفرديّة عن البداية الرسمية- المشار إليها سابقًا- ويُمكن القول إن هذه الأعمال ونحوها تعد بمثابة الجذور التاريخية للاستشراق في العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب، ويُمكن استعراض أبرز ما فيها في الآتي:

١ - حينما اجتاح (الإسكندر المقدوني) بلاد الشرق عام (٣٣٠ ق. م) خضعت تلك البلاد لأوروبا مدّة قاربت ألف عام إلى عام (٦٣٢ م)[1]، ويذكر المؤرخون بأن الغربيين اهتموا بالعرب وكان اهتمامهم موجهًا إلى اليمن والسواحل بعامّة ولكن هذا الاهتمام كان اقتصاديًّا وتخللته بعض الاهتمامات الثقافية[2].

ومما يلحظ في هذا الواقع أن شعوب الشرق كانت طيلة تلك المدّة في

---

(١) انظر: أرنولد توينبي: الإسلام والغرب والمستقبل ص ١٦، ١٧ نقلاً عن عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام ص ٢٧٧، ٢٧٨، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م، عن الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض.

(٢) انظر: محمد ماهر حمادة: فلسفة الاستشراق...، مجلة عالم الكتب العدد [٥]: ص ٢٣١، (عدد خاص عن الاستشراق)، رجب ١٤٠٤ هـ، (مرجع سابق).

وانظر: ماكسيم رودنسون وكريستيان روبان وجيوفاني غرابيني وفرانكوريتش: أبحاث في الجزيرة العربية الجنوبية قبل الإسلام، ترجمة: نجيب عزاوي، سلسلة أبجدية المعرفة (٢٢) عرض: عبداللطيف الأرناؤوط: مجلة قرطاس عدد (١٠) ص ١٠، ١١، عدد نوفمبر ١٩٩٦ م، تصدر شهريًّا مؤقتًا..، الكويت.

وانظر: حسين نصار: الاستشراق بين المصطلح والمفهوم، مجلة المنهل: ص١٣، العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ (عن الاستشراق والمستشرقين)، (مرجع سابق).

ربقة طغيان الغرب إلى أن جاء الإسلام رحمة من الله أنقذ به البشرية بعامة وشعوب الشرق بخاصة حين حررها من ذلك الطغيان وردَّ عنها عادية الروم وأصبح الإسلام القوة العظمى وأصبحت كلمة الله هي العليا وشعر الغرب إثر ذلك بالهلع وبالهوان ودعاه ذلك إلى التفكير بالواقع الجديد، وبدأ يخطط لتعبئة قواه وحشد إمكاناته لمحاولة القضاء على الإسلام.

٢ - من المؤكد أنّ الغرب قد تعرَّف على الإسلام وعالمه في وقت مبكر، ولذلك دلائل تاريخية متعدّدة لعل من أشهرها قصة أبي سفيان التي أوردها البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما -: (أنّ أبا سفيان بن حرب أخبره: أنّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام، في المدّة التي كان رسول الله ﷺ مَادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش (أي صالحهم على ترك القتال فيها)، فأتوه وهم بإيلياء (بيت المقدس)، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماءُ الروم، ثمّ دعا بترجمانه...)[1] الحديث.

وخلاصة القصة أن هرقل سأل عن أخلاق الرسول ﷺ وعن سيرته في قومه ودعوته إيَّاهم وأجابه أبو سفيان بغاية الصدق رغم جاهليته آنذاك، وبعد أن سمع هرقل أجوبة أبي سفيان قال في الرسول ﷺ قولاً حسنًا وقرأ كتاب الرسول ﷺ الذي دعاه فيه إلى الإسلام قال أبو سفيان - كما جاء في الحديث المذكور - (فلمَّا قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كَثُرَ عنده الصخب وارتفعت الأصوات

---

(١) البخاري: صحيح البخاري ١/٧ الباب الأول - بدء الوحي، الحديث رقم ٧، تحقيق وترتيب: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

وأُخْرِجْنَا، فقلتُ لأصحابي حين أُخْرِجْنَا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، (أي عَظُمَ شأنُه، ويقصد بابن أبي كبشة الرسولَ ﷺ انتقاصًا وغمزًا)، إنّه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنًا أنّه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام)[1].

وفي هذه القصة دلالة واضحة على اهتمام الروم بالإسلام ومراقبة حركته وجمع المعلومات عنه منذُ زمن مبكر[2]، ولا غرابة في ذلك لأنّ كتب أهل الكتاب تبشر برسولٍ يأتي من بعد عيسى عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والتسليم[3]، وعلى ضوء بشارتها وفدت بعض القبائل من أهل الكتاب إلى أطراف الجزيرة وبالقرب من المدنية انتظارًا لمبعثه. كذلك رسل الرسول ﷺ إلى الملوك والعظماء في زمانه[4]

---

(١) جزء من الحديث السابق، المرجع السابق نفسه: ص ٩.

(٢) وبمّا ورد في بعض المصادر التاريخية وكتب التفسير ودلائل النبوة (أنّ الروم يحتفظون بصورٍ للأنبياء وأنّ صورة محمد ﷺ قد أظهرت لبعض الصحابة في رحلته إلى الشام) وفي ذلك دلالات مهمّة على اهتمامهم بالإسلام بغض النظر عن موقفهم منه، راجع في هذا ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٢/٢٥١ - ٢٥٤، (مرجع سابق)، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ﴾ [الآية ١٥٧ من سورة الأعراف].

(٣) انظر: أبو نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة: ١/٨٩، (مرجع سابق).

(٤) انظر في رسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والعظماء:

- عبدالجبار محمود السامرائي: الرسائل التي بعث بها النبي إلى الملوك المجاورين، مجلة الفيصل، العدد (٥٥)، محرم ١٤٠٢ هـ ص ٧١ - ٨١، (مرجع سابق).
- خالد سعيد علي: رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م، عن مكتبة التراث، الكويت.
- رءوف شلبي: عالمية الإسلام؛ ملحق مجلة الأزهر، عدد ربيع الأول ١٤٠٩ هـ. =

ومنهم (هرقل)؛ إن مثل هذا ونحوه دعا إلى الاهتمام بأمر الإسلام ورسوله ﷺ، ولكن مكمن الغرابة في موقفهم من الإسلام حيث كان عدائيًّا منذُ البداية، (ومن ذلك الحين تحدّدت نظرة الغربيين إلى الإسلام في الأعم الأغلب، وهي نظرة عداء وحسد تمثلت في موقف البيزنطيين الغاضب من الإسلام ورسوله وهو موقف عقدي قبل أن يكون موقفًا سياسيًا أو نحوه، ثمَّ جاءت الفتوحات الإسلاميَّة ووقعت الحروب بين البيزنطيين والمسلمين، وتأجج عداء نصارى أوروبا للإسلام ذلك العداء الذي بلغ ذروته في الحروب الصليبية)[1].

ومِمَّا يعكس تلك الروح العدائية اضطلاع البيزنطيين والغربيين من بعدهم بمجادلة الإسلام، ويذكر بعض المؤرخين أن البيزنطيين هم الذي بدأوا العداء[2]، وانعكس ذلك في مجادلتهم الإسلام لصرف إخوانهم النصارى عنه أولاً ثمّ بقصد تشويه الإسلام ونسبته إلى اليهود والنصارى ودعوى أنه مجرد تلفيق متناقض للديانتين.

ومن أبرز هؤلاء المجادلين العالم النصراني (يوحنّا الدمشقي ٥٦ - ١٣١ هـ الموافق ٦٧٦ - ٧٤٩ م) الذي أظهر اهتمامًا بدراسة الإسلام من ذلك الوقت المبكر، وتمثل ذلك في مؤلفات من أهمها (محاورة مع

=- الإمام محمد بن طولون الدمشقي (٨٨٠ - ٩٥٣ هـ): إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ﷺ تحقيق: محمود الأرناؤوط، عن مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - بيروت.

(١) انظر: محمد بركات البيلي: الخلفيّة التاريخية للاستشراق.. (المنهل، العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ، عن الاستشراق والمستشرقين): ص ١٣٣، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، ص ٣٣ - ٣٥، الطبعة الثانية ١٩٨٨، عن دار الحداثة - لبنان.

مسلم) و (إرشادات النصارى في جدل المسلمين)، قصد بها صرف إخوانه النصارى عن الدخول في الإسلام[1]، ومما يذكره بعض المؤرخين عنه أنَّه (يُعد ممهد الجادة للمستشرقين المعروفين بتحاملهم على الإسلام، فأكثر ما يزعمونه ويفترونه عليه، هو مما كان قد قاله ودونه قبلهم بما يزيد على ألف عام)[2].

ويورد جواد علي بعد ذلك جملة من كتب الجدل والمناظرات المؤلفة في الرد على المسلمين يثبت من خلالها تحاملها على الإسلام من ناحية وارتباطها بدوائر العداء له من ناحية أخرى[3].

* * *

(١) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ١٩، (مرجع سابق). وانظر: جواد علي: المرجع السابق نفسه، ص ٢٥، وقد أورد تاريخ ولادته حوالي ٦٧٥ م. وانظر: عثمان جمعة ضميرية: مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة: ص ٦٥، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣ م، عن مكتبة السوادي - جدة.

(٢) انظر: جواد علي: المرجع السابق نفسه، ص ٢٦.

(٣) لمزيد الاطلاع: انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٣ - ٣٥، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦ - ٣٣.

وانظر في الجدل الديني في الأندلس: إدغار فيبر: في الجدل الديني في الأندلس والإبتمولوجيا الحديثة، ترجمة: الصادق الميساوي (مقال) نشر في المجلة العربية للثقافة: ص ٧٢ - ٩٣، مجلة نصف سنوية..، السنة الرابعة عشرة، العدد السابع والعشرون، ربيع الأول ١٤١٥ هـ - سبتمبر ١٩٩٤ م، عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.. تونس.

المطلب الثاني
الصلات الثقافية
بين الإسلام والغرب في الأندلس وصقلية

تمخضت الصلات الثقافية في الأندلس، وما جرى من الصراع بين العالمين الإسلامي والنصراني فيها وفي صقلية عن ضروب من الدراسات الاستشراقية، وأنتجت هذه الفترة حركة فكرية ذات شقين:

الشق الأول:

التركيز على تشويه الإسلام عقيدة وسلوكًا، والزراية - حقدًا وكراهية - برسول الله ﷺ، ويخال الاستشراق أنه بصنيعه هذا يهدف إلى تحصين الغرب النصراني من المد الإسلامي، ويعمل على الحيلولة دون انتشار الإسلام وعقيدته على حساب النصرانية، ومن أجل هذا لم تألُ الكنيسة جهدًا في تشويه الإسلام، من خلال الدس والتزوير والافتراء وانتهجت في ذلك المجادلات البيزنطية، التي واجهت بها الكنيسة الشرقية الإسلام[1].

وهي مساوئ واحتقارات هاجموا بها العرب والمسلمين ولم تكن - في حقيقتها - سوى تهم باطلة ودعاوى زائفة، وآراء متناقضة، صدرت عن بعض الكتاب والشعراء المرتزقة[2]، وضمت جهودهم إلى جهود اللاهوتيين (رجال الكنيسة) في محاولات ترمي إلى تشويه حقيقة

---

(١) انظر: جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام: ص ٣٤، ٣٥، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد بركات: الخلفية التاريخية للاستشراق؛ المنهل، (العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ عن الاستشراق والمستشرقين): ص ١٣٣، (مرجع سابق).

الإسلام والطعن في الرسول ﷺ وصحابته وحملة رسالته.

ومن أشدّ ما قالوه في الإسلام ورسوله من تفاهات ساقطة أنّه عقيدة وثنيّة وأنّ المسلمين يعبدون ثلاثة آلهة (تيرماغان، ومحمد، وأبو للو)[1]، وقالوا في الرسول محمد ﷺ إنه المسيح الدجال، وأنه الأمارة لليوم الآخر، وأن جنود الإسلام وحملته إرهابيون وحشيون، وقد استمر هذا التشويه البشع الذي مارسه المستشرقون من اللاهوتيين وغيرهم زمنًا طويلاً في السيطرة على الشعوب الأوروبية[2]، وما تزال هذه الممارسات العدائية الحاقدة تشتد وتتأكد في العصر الحاضر بسبب حقد الصهيونية، وعداوتها الشديدة للإسلام والمسلمين وتأثيرها على الدراسات الاستشراقية ووسائل الإعلام.

ومن أبرز ما حمل هؤلاء على تشويه صورة الإسلام عوامل عدة، منها:

١ - ما اتسمت به الفتوحات الإسلاميّة من سرعة وانتصار وبخاصة فتوحات الإسلام الأولى[3] التي أدهشتهم وجعلت ما لم يكن معقولاً بالنسبة لحروب أي أمة هو المعقول بالنسبة للمسلمين، وقد

---

(١) انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق.. ص ٩١، (مرجع سابق). وانظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية.. ص ٢٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: إسماعيل عمايرة: المستشرقون وصلتهم بالعربية، المنهل: ص ٨٣، (العدد السنوي ١٤٠٩ هـ)، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عبدالقادر طاش: الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام، المنهل: ص ٣٠١ (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: إسماعيل عمايرة: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيّة: ص٨٣، (مرجع سابق)، (المنهل، العدد السنوي لعام ١٤٠٩هـ). وانظر: عبدالقادر طاش: الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي، ص٣١، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، عن شركة الدائرة للإعلام، الرياض.

شكل الفارون من هذه الفتوحات مصدر شائعات كان لها تأثير كبير في تشكيل الموقف العدائي المضاد لدعوة الإسلام[1].

ومن الأمثلة لذلك: أن بطرك بيت المقدس خرج مع كثير من مشهوري الصليبيين وفرسانهم حين فتح صلاح الدين بيت المقدس ولبسوا السواد وأظهروا الحزن على ذهاب بيت المقدس من أيديهم ودخلوا بلاد الإفرنج يطوفونها ويستنجدون بأهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الأخذ بثأر بيت المقدس وصوروا المسيح وأمامه صورة رجل عربي ينهال عليه ضربًا، وجعلوا الدماء تسيل على وجه المسيح وصدره، وكتبوا في شرح هذه الصورة: (هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله)[2].

ومن الأمثلة على صنيعهم هذا أنّهم صوروا قبر المسيح وصوروا عليه فارسًا مسلمًا يطؤه بحوافر جواده وهو يبول عليه، وقد وزعوا هذه الصورة في أسواق بلادهم ومجامعها، حيث كان القسس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح وهم ينادون بالويل والثبور[3].

وواضح أن هذه الوسائل التي تثير الحفائظ وتُعَمِّقُ الحقد والكراهية للإســلام وأهله، كانت تهــدف إلى محاولة تحصين المجتمـع الغـربي - المرتكز على عقيدة التثليث - من التأثر بدعوة الإسلام المرتكزة على

---

(١) انظر: مصطفى عمر حلي: الخليفة الثقافية لاتجاهات المستشرقين في دراسة شخصية الرسول ﷺ (المنهل - العدد السنوي لعام ١٤٠٩هـ): ص ٣١، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: قاسم السامرائي: الاستشراق.. ص ٢٠، ٢١، (مرجع سابق)..

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢١.

عقيدة التوحيد وما تعنيه من مناقضة لما تقدمه الكنيسة من العقائد المنحرفة[١].

٢ - ومن العوامل التي جعلت الأوروبيين يغرقون في محاولتهم تشويه عقيدة الإسلام والانتقاص من الرسول ﷺ ووصم المسلمين بالوحشية، أن الفتوحات الإسلاميَّة توافقت مع غزوات الونداليين (وهم قبائل وثنية كانت تغير بوحشية وضراوة على أوروبا) مما جعلهم يلصقون أعمال (الوندال) الوحشية وعقيدتهم الوثنية بالمسلمين حتى لقد شاع بين الغربيين أنّ المسلمين ونداليون، وقد خلا الجو للقساوسة - وهم طلائع الاستشراق آنذاك - الذين كانوا يدركون حقيقة الإسلام وغايته وما فيه من خير ونور واستقامة وتقدم، للعمل من خلال موقفهم الديني ومنهجهم الاستشراقي على المحافظة على عقيدتهم مستغلين جهالة جماهيرهم التي لم تكن تعرف لغة المسلمين ولم يكن المسلمون كذلك يعرفون اللغة اللاتينية، وقد استغل القساوسة ورجال (اللاهوت) هذا المناخ وتلك الفرصة ليس لصرف الناس عن الإسلام فحسب، بل قاموا يعاونهم في ذلك الشعراء والقصاص، بمهمة التعبئة العارمة ضد الإسلام واعداد الناس لحرب المسلمين[٢].

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢١.

(٢) انظر: إسماعيل أحمد عمايرة: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية (المنهل، العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ عن الاستشراق والمستشرقين): ص ٨٣، (المرجع السابق نفسه). وانظر: مصطفى عمر حلبي: الخلفية الثقافية لاتجاهات المستشرقين.. (المنهل): ص ٣١ - ٣٤، (المرجع السابق نفسه).

٢ - ومن العوامل التي غذت حملتهم في تشويه صورة الإسلام ورسوله وحملته، ما كان لديهم من نظرة الاستعلاء والغرور التي (دأبت الشعوب الأوروبية على تنمية إحساسها المفرط بها، وما ترتب على ذلك من جهلها بالأمم الأخرى، حتّى لقد ظلوا إلى عصور متأخرة وربّما إلى العصر الحاضر يحسبون أن الأرض مخلوقة لهم، وأن على أطرافها من بعيد وربّما من خارجها تنبري لهم بين الحين والآخر أمم عارضة وغامضة أطلقوا عليهم اسم الوثنيين تارة.. وأتباع المسيح الدجال تارة أُخرى)[١].

الشق الثاني:

أمَّا الشق الثاني من تلك الحركة الفكرية التي تمخضت عن احتكاك الغرب بالإسلام (فإنّها تشبه إلى حد ما الحركة التي قامت في العالم الإسلامي في عهد المأمون ومن سبقه لترجمة العلوم اليونانية وغيرها إلى العربية، فقد أدى هذا الاحتكاك إلى توافر عدد من العلماء النصارى في أوروبا بدءًا من العام (١١٣٠م) للعمل بدأب على ترجمة الكتب العربية في الفلسفة والعلوم، وكان لرئيس أساقفة طليطلة وغيره الفضل في إخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية العربية بعد الاقتناع بأنّ العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العالم الكلاسيكي)[٢].

وإذا كانت الحركة التي قامت في عهد المأمون خدمت الحياة الإنسانية وأسهمت في بناء الحضارة ونشر العلم والرقي الثقافي لدى

---

(١) انظر: إسماعيل أحمد عمايرة: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيَّة، (المنهل): ص ٨٣، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٢٤، (مرجع سابق).

الشعوب فإنها - من جانب آخر - قد خلطت إلى حدٍّ ما بين الفلسفة اليونانية والعلوم مِمَّا كان له آثارٌ سلبية على عقيدة المسلمين وفكرهم، وقد تولت الدراسات المتخصصة في هذا الجانب نقد تلك الآثار وبيان وجه الصواب فيها.

أمَّا حركة الترجمة والنقل إلى اللاتينية التي قام بها الغربيون فقد حرصت على أن تحافظ في مجملها على الشخصية الغربية من أن تذوب في حضارة المسلمين، وحرصت على فصل العقيدة عن العلوم التطبيقية، ولم تكتف بترك ما له صلة بالعقيدة الإسلاميَّة وعزله عن تلك الحركة الفكريَّة، بل بادرت في أول أمرها إلى تشويهه بدعوى تحصين الغربيين من التأثر به، كما سبق بيان ذلك.

وأمَّا العلوم التطبيقية فإنَّ الغرب نقل عن المسلمين هذه العلوم والمعارف من طب وفلك ونحوهما، ويقرر كثير من المستشرقين أن أوروبا قد توجهت في ذلك العصر شطر المسلمين الذين كانوا أئمة العلم وحدهم للاغتراف من بحار علومهم وفنونهم [(١)].

وقد اعترف المستشرق الفرنسي (لوبون) بالفرق الهائل بين حضارة المسلمين وهمجية الغرب الأوروبي في القرون الوسطى، ويعترف أيضًا بأن أوروبا الغربية لكي ترفع عن نفسها أكفان الجهل الثقيل توجهت شطر المسلمين في الأندلس وصقلية. وتوافد إليهما الدارسون من الأقطار المجاورة لهما؛ إيطاليا.. فرنسا.. إنجلترا.. ألمانيا.. واصطبغ بلاط

---

(١) انظر: حسين نصار: الاستشراق بين المصطلح والمفهوم (المنهل، العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ عن الاستشراق والمستشرقين): ص ١٣، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٧٢ - ٧٣، (مرجع سابق).

صقلية النورمندي بصبغة عربية، وشاركت في عهدها الإسلامي أسبانيا في تلقي الوافدين الأوروبيين لدراسة علوم العربية وحضارة الإسلام[1].

ومِمَّا يلحظه الباحثون في مسار هذه الحركة التي تولت نقل العلوم إلى الغرب ما يأتي:

أ - لم ينصف هؤلاء الناقلون المسلمين فيما نقلوه عنهم، بل إنّ نقولهم لم تتصف بالموضوعية والعلميّة. فروجربيكون (٦١١ - ٦٩٣ هـ / ١٢١٤- ١٢٩٤م) الإنجليزي الذي تلقى تعليمه في أكسفورد وباريس، ونال الدكتوراه في (اللاهوت)، ترجم عن العربية كتاب مرآة الكيمياء ونسبها إلى نفسه، على الرغم من أنه كان تلميذًا للمسلمين حيث تلقى أفكارهم كما تلقى عنهم الطريقة التجريبية التي ابتكروها ونقلها إلى أوروبا المسيحية، (وظل «بيكون» يعترف بهذا دون ملل، وكان يؤكد أن علوم المسلمين كانت له ولمعاصريه الطريقة الوحيدة للثقافة الصحيحة)[2].

كذلك (جيراردي كريموني ٥٠٨ - ٥٨٣ هـ / ١١١٤ - ١١٨٧ م) الإيطالي الذي قصد طليطلة وترجم ما لايقل عن ٨٧ مصنفًا في الطب والفلك وغيرهما[3].

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٣. وانظر: محمد بركات البيلي: الخلفية التاريخية للاستشراق.. (المنهل): ص ١٣٥، (المرجع السابق نفسه).

(٢) محمد شريف: الفكر الإسلامي، منابعه وآثاره: ص ٨٧، ترجمة: د. أحمد شلبي، الطبعة الثانية، ١٩٦٦ م، عن مكتبة النهضة المصرية، القاهرة. وانظر: عبدالرحمن علي الحجي: الحضارة الإسلاميَّة في الأندلس: ص ٦٣، وانظر: أحمد العناني: أطـــول معارك التاريخ: ص ١٤٦، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م، مؤسسة الشرق، قطر.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة.. ص ٣٣، ٣٤، (مرجع سابق). وانظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ١/١١٥، ١١٦، (مرجع سابق). وانظر: محمد عبدالله مليباري: المستشرقون والدراسات الإسلاميَّة ص ٤٢،٤٣، الطبعـــة الأولى١٤١٠ هـ- =

وعلى مثل هذا سارت حركة الترجمة والنقل والتأليف في الأعم الأغلب، فالقوم ترجموا العلوم التي أسسوا عليها حضارتهم دون أن ينصفوا المسلمين فيما نقلوه عنهم، والسبب في ذلك هو التخطيط المسبق وما يرتكز عليه من العداء للإسلام والمسلمين والأحقاد والمخاوف التي كانت تحدد اتجاهات المعرفة[1].

ب - إنّ طائفة من أولئك المستشرقين الذين اتصلوا بالحضارة الإسلاميَّة في الأندلس وصقليّة كانوا يضمرون العداء للمسلمين على الرغم من تتلمذهم على أيديهم ودراستهم في الجامعات الإسلاميَّة في الأندلس كما سبق ذكر اعتراف (روجر بيكون) بذلك فمن أوساط هؤلاء جاءت الدعوات للقضاء على الإسلام والمسلمين عسكريًّا.

ومن الأمثلة على ذلك أن (جربردى أورلياك ٣٢٧ - ٣٩٤ هـ/٩٣٨ - ١٠٠٣ م) وهو من طلائع المستشرقين قصد الأندلس وقرأ على أساتذتها

=١٩٩٠م، عن دار الرفاعي...، الرياض.

(١) انظر: مصطفى عمر الحلبي: الخلفية الثقافية لاتجاهات المستشرقين.. (المنهل، العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ عن الاستشراق والمستشرقين): ص ٣٠، ٣٢، (المرجع السابق نفسه)، وعن أثر الإسلام في الحضارة الغربية راجع:

- محمد أمين المصري: المجتمع الإسلامي.. ص ٥١ - ٦١، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م، عن دار الأرقم، الكويت.
- محمد عبدالله مليباري: (المرجع السابق نفسه): ص ٣٨ - ٤٧.
- جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي: ص ٤٨٦ - ٥٤٧، دار مصر للطباعة، (بدون تاريخ).
- أحمد إبراهيم شريف: دراسات في الحضارة الإسلاميَّة: ص ١٧٧ - ١٩٥، طبعة دار القرآن ١٩٧٦ م، القاهرة.

ثم انتخب بعد عودته حبرا أعظم باسم (سلفستر الثاني ٣٨٩ - ٣٩٤ هـ/ ٩٩٩ - ١٠٠٣ م) وكان بذلك أول بابا فرنسي، ويُروَى أنَّه أول من دعا إلى الحروب الصليبية لإبادة المسلمين والقضاء على الإسلام[١]، ودعا بدعوته (بطرس الناسك) فيما بعد عندما عقد مجمع كليرمون (١٠٩٥م)[٢].

ج- لم تكن هذه الحركة التي تعد عميقة الصلة علميًا بحضارة المسلمين ذات أثر في تصحيح رؤية الغرب لعقيدة الإسلام وتاريخه ولأخلاق المسلمين وسلوكهم ولحضارة الإسلام وثقافته بل كانت هي الأخرى ماكرة في عدائها، شديدة الوطأة على الإسلام والمسلمين، فقد أسفرت عن مسلك جديد في محاربة الإسلام قاده القس (بطرس المبجل ت ١١٥٦ م) وهو رئيس رهبان دير كلوني حيث تمثَّل مسلكه هذا في تشكيل جماعة من المترجمين في أسبانيا يعملون بصفة فريق واحد من أجل الحصول على معرفة علميّة موضوعية عن الإسلام بدءًا بإنجاز ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية وهي الترجمة الأولى التي تمت عـام (١١٤٣م) التي

---

(١) انظر: الأمير شكيب أرسلان في تعليقه على: حاضر العالم الإسلامي: لوثروب ستودارد، الجزء الثالث، المجلد الثاني: ص ٢١٥، الطبعة الرابعة ١٣٩٤ هـ. وقد عزا ذلك إلى المسيو فرناند هايوارد: تاريخ البابوات. وانظر: علي جريشة: الغزو الفكري.. ص ٢٨١، مطبوعات جامعة الإمام (١٤٠٤ هـ -١٩٩٤ م). وانظر: محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق..: ص ٢٢، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، دار البحوث العلمية، الكويت.

(٢) انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ٥٦/١، (مرجع سابق)، وفيما بين دعوة سلفستر الثاني ت ١٠٠٣، ودعوة بطرس الناسك ١٠٩٥ م دعا البابا (جريجوريوس) سنة ١٠٧٥ م إلى الحروب الصليبية؛ انظر: محمد عبدالفتاح عليان أضواء على الاستشراق: ص ٢٢، (المرجع السابق نفسه).

ظهرت باسم العالم الإنجليزي (روبرت أوف كيتون)[1].

وظهر - من تحقيق بعض الباحثين - أن بطرس المبجل هذا كلّف اليهودي المتنصر - (بطرس أوبيدرو الفرنسي أو العبري أو الطليطلي الذي تنصر عام (١١٠٦م) في أسبانيا - أن يترجم القرآن إلى اللاتينية[2]، ومما فعله (بطرس المبجل) أيضًا أنه صرف (روبرت أف كيتون) الذي نسبت إليه ترجمة القرآن الكريم الأولى إلى اللاتينية، وزميله (هرمان الألماني) - وهما راهبان - عن دراسة الفلك إلى ترجمة معاني القرآن الكريم[3] إلى اللاتينية، وكان قصده من ذلك دحض الإسلام وتنصير المسلمين، ومِمَّا يدل على ذلك ما ذكره سببًا لترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية إذ قال: (فإذا لم يكن بهذا الطريق إعادة المسلمين إلى المسيحية الصحيحة، فلا أقل من أن يستفيد العلماء المسيحيون من عملنا في مجال دعم إيمان المسيحيين السذَّج الذين يُمكن أن تضير هذه الصغائر عقيدتهم)[4]، وكان (يعتقد أن العقل والإقناع ورحمة الأناجيل هي خير الوسائل لجلب الخصم إلى دين الحق)[5].

وعلى الرغم من أن بعض الباحثين يرى أن (بطرس المبجل) كان

---

(١) انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون: ١/١١٣، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: قاسم السامرائي: الاستشراق..: ص ٢٢، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٢.

(٤) نقلاً عن: إسماعيل أحمد عمايرة: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية.. ص ٢٨، ٢٩، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ -١٩٩٢ م، عن دار حنين - الأردن.

(٥) إدغار فيير: الجدل الديني في الأندلس..: ص ٨٤، ترجمة الصادق الميساوي، الحلة العربية للثقافة.. (مرجع سابق).

يرى التخلص من خطر المسلمين بتنصيرهم[1] إلاَّ أنّ باحثين آخرين (توقفــوا عند حادثة مجمـع دير كلوني حيث عُقِدَ هذا المجمع في سـنة (٤٨٨ هـ - ١٠٩٥م) بعد سقوط طليطلة بعشر سنوات، وأقر حرب المسلمين في الأندلس وفلسطين، ورأت هذه الحركة التي تزعمها رهبان (دير كلوني) في توسع الإسلام غضبًا إلهيًّا يجب التكفير عنه بالدعوة إلى حرب المسلمين، وكان رهبان هذا الدير يرافقون الجيش الصليبي في الأندلس لتحطيم شعائر المسلمين والتركيز على شعائر روما)[2].

* * *

(١) انظر: إسماعيل أحمد عمايرة: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيَّة: ص ٢٩، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: قاسم السامرائي: الاستشراق.. ص ٢٣، (مرجع سابق)، وانظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ١/٥٦، (مرجع سابق).

المطلب الثالث

أثر الاستشراق في
الحروب الصليبية وأثرها في الاستشراق

نشبت الحروب الصليبية ودارت رحاها بين الإسلام والنصرانية في فلسطين، واستمرت زهاء قرنين من الزمان من عام (٤٨٩ هـ الموافق ١٠٩٥ م) إلى عام (٦٩٠ هـ الموافق ١٢٩١ م)[١]، وإنها عند التحقيق جاءت إنفاذًا لقرارات أسهم في صنعها وتغذيتها الاستشراق اللاهوتي، فلم تكن الحروب الصليبية - كما يرى نجيب العقيقي (إلا نتيجة واحدة لمقدمة واحدة هي الاستشراق)[٢].

ويذكر (ساذرن) (بأنّ رجالات الغرب كانوا يرقبون بقلق كيف تؤثر القيم الإسلاميَّة على القيم المسيحية تأثيرًا تدمرًا عندما تواجهها، وقد رأى اللاهوتيون الغربيون فيما بعد أن حماية المسيحية من الإسلام لاتكون إلاّ بضربه عسكريًّا والاستيلاء على أرضه أو إقناع معتنقيه باتخاذ المسيحية دينًا)[٣].

---

(١) انظر: محمد مختار باشا: كتاب التوفيقات الإلهاميَّة في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية: ص ٥٢١، ٧٢٣، تحقيق: محمد عمارة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠م، عن المؤسسة العربية للدارسات والنشر - بيروت.

(٢) نقله عنه أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٥٥، (مرجع سابق)، المستشرقون ٣٥/١، ٣٦، الطبعة الأولى ١٩٣٧ م بيروت. و لم أجدها في الطبعة التي اعتمدتها، الطبعة الرابعة ١٩٨٠ م، عن دار المعارف - مصر.

(٣) نقلاً عن عبدالقادر طاش: الجذور التاريخية.. (المنهل): ص ٢٩٢، (العدد المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ عن الاستشراق والمستشرقين)، (مرجع سابق).

ويقول - أيضًا -: (إنّ الإسلام يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في أوروبا على المستويات كافة فباعتباره مشكلة عمليّة استدعى الأمر اتخاذ إجراءات معينة كالصليبية والدعوة إلى النصرانية والتبادل التجاري، وباعتباره مشكلة لاهوتية تطلب بإلحاح العديد من الإجابات على العديد من الأسئلة، وفي هذا الصدد يقتضي معرفة الحقائق التي لم يكن من السهل معرفتها، وهنا ظهرت مشكلة تاريخية صار من المتعذر حلها كما ندر إمكانية تناولها دون معرفة أدبية ولغوية يصعب اكتسابها، وصارت المشكلة أكثر تعقيدًا بسبب السرية والتعصب والرغبة القوية في عدم معرفتها خشية الدنس)[1].

إنّ مقولة (ساذرن) هذه وأمثالها تكشف عن موقف العالم النصراني من الإسلام وأنه انطلق في مواجهته للإسلام من خطة مدروسة أسهم في صياغتها الاستشراق اللاهوتي، تبدو فيها الحروب الصليبية صورة من طبيعة الصراع بين الإسلام والغرب النصراني قصد بها القضاء على المسلمين عسكريًّا على الرغم من وجود تيار فكري داخل أوروبا يدعو إلى شن الحرب الثقافية بدلاً من فكرة القضاء على المسلمين عسكريًّا، (وقد ظلَّ موقف أوروبا يتذبذب بين الدعوة إلى القضاء عسكريًّا على المسلمين وعدم إضاعة الوقت في أي أمر يُمكن أن يعرقل هذا الهدف وبين الدعوة إلى حربهم حربًا ثقافية، وقد امتدّ هذا الأمر من بعد الحروب الصليبية إلى بداية ما اصطلح عليه بعصر النهضة الأوروبية)[2].

---

(١) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٢١، ٢٢، (مرجع سابق).

(٢) إسماعيل عمايرة: المستشرقون وصلتهم بالعربية.. (المنهل، العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ عن الاستشراق والمستشرقين): ص ٨٧، (مرجع سابق).

ولكن صمود الإسلام في مواجهة أعدائه من النصارى وغيرهم كالتتار والمغول، وبعد انكفاء الحروب الصليبية منهزمة مدحورة دون تحقيق أهدافها من القضاء على الإسلام والمسلمين واجتثاثه من أصله، برزت أهمية الحرب الثقافية وتأكدت مع مرور الزمن ولاسيما بعد نمو القوة الإسلاميَّة وتعاظمها على أيدي العثمانيين الذين طرقوا أوروبا من بوابتها الشرقية بعد فتح القسطنطينية في سنة (٨٥٧ هـ-١٤٥٣ م) ثم اقتحموا أوروبا إلى المجر واستولوا عليها، ومع أنّ الأوروبيين أصيبوا بخيبة أملٍ متلاحقة، ووقعوا في الإحباط إزاء إخفاق خططهم ضد الإسلام، إلاّ أنّ الاستشراق وقادة الصليبية قاما خلال مرحلة طويلة امتدت حتى نهاية المد الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي، بالعمل المتواصل على تحصين الغرب النصراني ضد عقيدة الإسلام وهديه وإعاقة انتشار دعوته في شعوب العالم الغربي[1].

أمّا المرحلة الثانية التي تبدأ منذُ توقف المد الإسلامي ثم ما تلاه من الفترة التي أخذ فيها الانحسار عن أوروبا، حيث فقد المسلمون الأندلس نهائيًّا، وذلك بسقوط غرناطة عام (٨٩٧ هـ-١٤٩٢ م) ثمّ ما أعقب ذلك من ضعف العثمانيين على الجبهة الشرقية، فقد شهدت هذه المرحلة تغييراً جوهريًّا في موقف كل من الحضارتين الإسلاميَّة والغربية،

---

(١) انظر: قاسم السامرائي: الاستشراق.. ص ٢٣، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالقادر طاش: الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام.. من مجلة المنهل (العدد - السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ): ص ٣٠٠ (المرجع السابق نفسه). وانظر: محمد بركات البيلي: الخلفية التاريخية للاستشراق.. ص ١٣٤، (المنهل المرجع السابق نفسه).

وبدأ الخط البياني لكل منهما يأخذ اتجاهًا معاكسًا للآخر.. وإزاء ما حل بالمسلمين من ضعف أصبح العالم الإسلامي يواجه أوروبا متغيّرة عمّا كانت عليه في القرون الوسطى واقترنت نهضتها بحركة استعمارية تتسم بعداوتها للإسلام والمسلمين ورغبتها في الهيمنة على الأُمَّة الإسلاميَّة واستنزافها بحيث لايختلف هذا الموقف الغربي في العصر الحديث عن الموقف في الماضي، ولاتنفك الرؤية الجديدة فيما سمي عصر النهضة عن الرؤية الغربية التي أفرزت الحروب الصليبية لعل من أصدق ما قيل في الموقف السابق واللاحق أن الحركة الاستعمارية بما مارست من ضروب العداوات على المسلمين ليست إلاَّ حملة أخرى جديدة من الحملات الصليبية[1].

والفرق بينها وبين الحروب الصليبية فيما يخص الاستشراق أن حركة الاستعمار اعتمدت إلى حد كبير على المستشرقين وأصبحت فكرة حرب المسلمين ثقافيًّا تحتل الأولويّة بعد أن ثبت للغربيين من خلال تجاربهم الحربية أنّه لايُمكن الانتصار على المسلمين عسكريًّا إلاَّ بعد غزوهم فكريًّا[2]، وأدى هذا إلى مزيد الاهتمام بالدراسات الاستشراقية والعمل على تطويرها.

وخلاصة القول: إنَّ الحروب الصليبية كانت متأثرة بالاستشراق ومؤثرة فيه، حيث ظهرت الدعوة إلى الحروب الصليبية من وسط المستشرقين وأسهم الاستشراق اللاهوتي في تعبئة الشعوب الغربية ضد الإسلام

---

(١) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٤٧، (مرجع سابق).

(٢) انظر: مرعي مدكور: الإعلام الإسلامي وخطر التدفق الإعلامي الدولي: ص ٣٥ – ٣٨ الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ– ١٩٨٨ م، عن دار الصحوة.. القاهرة.

والمسلمين حتى بلغ الذروة في ذلك فكانت الحروب الصليبية.

هذا من ناحية تأثير الاستشراق في الحروب الصليبية، أمَّا من ناحية تأثيرها في الاستشراق فإنّها بنتائجها الواقعية التي آلت إليها كشفت للغرب عن قوة ذاتية الأُمَّة الإسلاميَّة وعجز الغرب عن إذابتها أو الهيمنة عليها أو إمكانية التعايش معها ندًّا لند، وأدرك الغرب حقيقة أنّه لابُدّ أن تكون الأُمَّة الإسلاميَّة هي الشاهدة على الأمم وما يعنيه ذلك من سيادتها وقيادتها للبشرية، عند ذلك ترجحت كفّة حرب الأُمَّة الإسلاميَّة حربًا ثقافية، وهذا يعني غزوها في عقيدتها وفكرها قبل استعمارها وحربها حربًا عسكرية، فإذا تَمَّ ذلك الغزو الثقافي فإنّ الغزو العسكري سينجح ويتحقق وذلك ما حدث فيما بعد[١].

من هذا المنطلق كان تأثير الحروب الصليبية على الاستشراق، وفي ظل هذا الواقع تطورت حركة الاستشراق وازدهر عمل المستشرقين، وهذا ما يعالجه المبحث الآتي في تناوله ما وقع للاستشراق من تطور في ظل دوافع الحركة الاستشراقية والأهداف المرتبطة بها، وما أصبحت عليه الدراسات الاستشراقية من نُمُوٍّ وتوسع.

* * *

(١) انظر: أ. ل. شاتلية: الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة وتلخيص: محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، ص ٧، ٨، مقدمة الطبعة الثالثة، عن منشورات العصر الحديث ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.

المبحث الثالث

تطـور الاستشـراق

ويشتمل على ثلاثة مطالب، هي:

المطلب الأول: العوامل التي ساعدت على تطور الاستشراق.

المطلب الثاني: دوافع الحركة الاستشراقية ومظاهر نشاط المستشرقين.

المطلب الثالث: حاضر الاستشراق ومستقبله وعوامل قوته واستمراره.

المطلب الأول

العوامل التي ساعدت على تطور الاستشراق

كانت فكرة حرب الأمّة الإسلاميّة حربًا ثقافية مطروحة على الفكر الغربي قبل الحروب الصليبية، ولكن كفّة المواجهة العسكريّة كانت الراجحة، أمّا بعد الحروب الصليبية فقد رُجِّحَتْ كِفّةُ الحرب الثقافية، وهذا يعني دعم المستشرقين ودفع الحركة الاستشراقية، وقد ساعدت عوامل عديدة على تطور الدراسات الاستشراقية حتى بلغت أوج ازدهارها في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

وفيما يأتي إبراز لأهم تلك العوامل والتطورات:

١ - مِمَّا ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية في نهاية العصر الوسيط ما كان من الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التي اتسعت رقعتها حينذاك، وكان للروابط الاقتصادية لكل من أسبانيا وإيطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر أثرٌ كبير في دفع الحركة الاستشراقية[1].

٢ - وفي القرن السادس عشر الميلادي وما بعده ساعدت ما تُدعى (النزعة الإنسانية) في عصر النهضة الأوروبية على تقدم الدراسات الاستشراقية بأساليب جديدة قد تكون أقرب للموضوعية من ذي قبل، ومن جهة أخرى شجعت البابويّة الرومانية على دراسات الشرق من أجل التنصير[2].

---

(١) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٢٨، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٩.

وكان مما يرمي إليه كذلك محاولة صرف أنظار الأوروبيين عن أن تتوجه بالنقد المعادي لسلطة الكنيسة من خلال إيجاد عدو خارجي تعمل على مهاجمته والتحذير منه.. لتغطي على عيوبها وأخطائها إبَّان النهضة الأوروبية وما انطوت عليه من حركات إصلاحيّة تمس العقيدة النصرانية وتهاجم سياسة الكنيسة ومظالمها[1]، وفي ظل هذه الظروف والتناقضات التي هزّت الغرب فترةً طويلة من الزمن تطور الاستشراق وراجت دراسات المستشرقين بمختلف نزعاتها وأهدافها ودوافعها، وكان لظهور الطباعة كذلك أثرٌ بارزٌ في دفع الاستشراق[2].

٣ - وفي القرن السابع عشر الميلادي بدأ المستشرقون بجمع المخطوطات العربية وجلبها من بلدان الشرق[3]، وفي القرن نفسه أنشئت كراسي اللغة العربية في أماكن مختلفة، كان أولها: كرسي اللغة العربية في (الكوليج دي فرانسٍ) في باريس، ثمّ تتابعت تلك الكراسي في الجامعات الغربية إنفاذاً لقرار مجمع (فينَّا الكنسي ١٣١٢ م)[4].

وقد ارتبط إنشاء هذه الكراسي ثقافيا بالأهداف التنصيرية، ومِمَّا

---

(١) انظر: أحمد العناني: أطول معارك التاريخ.. ص ١٥١، (مرجع سابق)، وانظر في ذلك: كافين رايلي: الغرب والعالم.. القسم الأول ص ١٩٥ - ١٩٩، ترجمة عبدالوهاب محمد المسيري وغيره، من سلسلة عالم المعرفة، كتاب رقم [٩٠]، رمضان، ١٤٠٥ هـ، يونيو (حزيران)، ١٩٨٥ م، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

(٢) انظر: أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٧٧، (مرجع سابق).

(٣) انظر: محمود حمد زقزوق: الاستشراق.. ص ٣٠ و ٦١، (مرجع سابق).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٩. وما سبق ذكره في الصفحات السابقة، (البحث نفسه).

يؤكد ذلك ما جاء في قرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة (كمبردج عام ١٦٣٦ م) حيث نصَّ على خدمة هدفين، أحدهما: تجاري، والآخر: تنصيري، فقد جاء (في خطاب مؤرخ في ٩ آذار (مارس) من سنة ١٦٣٦م موجهًا إلى مؤسس هذا الكرسي)[١]: (ونحن ندرك أننا لانهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بإلقاء الضوء على المعرفة وهي ما تزال بعد محتبسة في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها، ولكننا نهدف أيضًا إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة النصرانية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات)[٢].

٤ - وشهدت نهاية القرن السابع عشر اتجاهًا جديدًا في دراسات المستشرقين واستمر ذلك الاتجاه خلال القرن الثامن عشر، وهو اتجاه يتسم - إلى حد ما - بنظرة علمية محايدة وفيها شيء من التعاطف مع الإسلام[٣] - في الظاهر -، ويربط بعض الباحثين هذا بالنزعة العقليَّة التي بدأت تسود أوروبا في ذلك الحين، وهي مخالفة في مسارها العام للكنيسة، وبتأثير من هذه النزعة تهيأت الفرصة لبعض المستشرقين كي يقف موقف الإنصاف ويأبى الظلم والإجحاف الذي اتسمت به القرون الوسطى، وظهرت في هذا المناخ بعض المؤلفات المعتدلة في دراستها للإسلام وعقيدته وحضارته[٤].

---

(١) انظر: عبداللطيف الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية.. ص ٢١، ترجمة: قاسم السامرائي، (مرجع سابق).

(٢) عبداللطيف الطيباوي: المستشرقون.. ص ٢١، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق..: ص ٣٠، (مرجع سابق).

(٣) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٣٠، (المرجع السابق نفسه).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٢.

ومن أبرز ما يمثل هذا الاتجاه:

أ - المستشرق (هادريان ريلاند) أُستاذ اللغات الشرقية في جامعة (أوترشت) بهولندا، الذي أصدر كتابًا باللغة الإنجليزية عام (١٧٠٥ م) عنوانه: الديانة المحمديّة، ففي هذا الكتاب - كما يذكر الباحثون - عرض (هادريان) في جزء منه العقيدة الإسلاميَّة من مصادر عربية ولاتينية، وفي جزئه الآخر قام بتصحيح الآراء الغربية التي كانت سائدة لديهم عن تعاليم الإسلام[١].

ولعل مقولة (هادريان): (دعوا المسلمين أنفسهم يصفوا لنا دينهم) من أكثر ما ورد في الكتاب إنصافًا لأنه بذلك يخط منهجًا أقرب إلى العلميّة وينسف أباطيل من سبقه من (اللاّهوتيين) والمرتزقة.. وعلى الرغم من هذا المسلك القريب من العلمية والمنهجيّة فإن (هادريان) حدَّد قصده بذلك المسلك بقوله: (إنّه يتحتم على المرء أن يعرف الإسلام جيدًا لكي يستطيع أن يحاربه بطريقة فعّالة)[٢].

ومهما يكن السبب في قوله هذا، سواء أكان الخوف من سلطة الكنيسة وغضب جماهيرها من اتخاذه أسلوبًا يهدف للناحية العلميَّة فهو لذلك يجاملها بهذا القول، أو إنَّه كان يريد فعلاً تغيير الأساليب القديمة ويقصد الوصول إلى فهم الإسلام فهمًا صحيحًا ممهدًا بذلك

---

(١) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٣٣، ٣٤، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: المستشرق الألماني د فيشر في لقاء معه أجراه: علي لغزيوي، مجلة الفيصل عدد [٩٥] ص ٥١، جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ، (مرجع سابق).

(٢) محمود حمدي زقزوق: الإسلام في تصورات الغرب، ص ٨٤، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م، عن دار التوفيق النموذجية.. الأزهر مصر.

السبيل إلى محاربته من جانب النصرانية بطريقة أفضل من ذي قبل، مهما يكن الأمر فإنّ التاريخ أثبت أن (صورة العصور الوسطى النصرانية للإسلام ظلت في جوهرها دون تغيير، وإنَّما نفضت عنها الثياب القديمة لأجل أن تضع عليها ثيابًا جديدة أقرب إلى العصر)[1].

ب- المستشرق (يوهان جيه رايسكه) الذي كان واحدًا من أبرز علماء العربية في عصره في ألمانيا، ويذكر أن هذا المستشرق قد تحرر من الأفكار اللاهوتية ومجدَ الإسلام ورسوله، وإليه يرجع السبق في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية في ألمانيا، ولكنّه حُورب وأُوذِيَ وعزل عن عصره ومعاصريه[2].

٥ - ويعد القرنان التاسع عشر والعشرون الميلاديان عصر الازدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية، حيث تعزَّزت مدارسه، وتأسست الجمعيات الاستشراقية وأصبح لها إصدارات ومجلات، وعقدت مؤتمرات المستشرقين الإقليمية والدوليّة، وبرزت مظاهر النشاط الاستشراقي في أعمالٍ عديدة بأساليب متنوعة ووسائل مختلفة.

وفيما يأتي توضيح لأبرز هذه المستجدات:

أ- إنشاء مدرسة اللغات الحيّة في باريس في (شهر (آذار) مارس ١٧٩٥ م) في ظل الثورة الفرنسية، ومن خلال هذه المدرسة تقدمت الدراسات الاستشراقية، واتسمت بطابع علمي إلى حد ما وقد اشتهر (سلفستردي ساسي توفي ١٨٣٨م) بنشاطه الاستشراقي وأصبح إمامَ

(١) عبداللطيف طيباوي: المستشرقون..: ص ٣٥، ترجمة قاسم السامرائي، (مرجع سابق).

(٢) انظر: شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان: ص ٦، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧ م، عن دار الفكر - دمشق.

المستشرقين في عصره وإليه يرجع القول بأن باريس غدت مركزًا للدراسات العربية وقبلة يؤمها التلاميذ والعلماء من مختلف البلاد الأوروبية ليتعلموا على يديه، وكانت جهوده منصبة على الدراسات العربية من نحوٍ وشعر وأدب، وكانت مدرسة اللغات الحيَّة في عهده تعد أنموذجًا لمؤسسة الاستشراق العلمي وخاصة بعد أن انفصل الاستشراق في ذلك الحين عن التنصير، ولكن (سلسفتردي ساسي) كان مرتبطا بدوائر الاستعمار[١] ولئن ظهر الاستشراق منفكا عن التنصير – في الظاهر[٢] – إلاّ إنه ارتبط بالاستعمار مسايرة للظروف التاريخية، كما سيأتي بيان ذلك.

ب – بدأ المستشرقون في النصف الأول من القرن التاسع عشر في مختلف بلدان أوروبا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية ونشطت هذه الجمعيات في إصدار المجلات والمطبوعات المختلفة[٣]، فقد تأسست أولاً الجمعية الآسيوية في باريس عام (١٨٢٢م)، ثمَّ الجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا عام (١٨٢٣م)، وتأسست الجمعية الشرقية الأمريكية عام (١٨٤٢م)، والجمعية الألمانية عام (١٨٤٥م)[٤].

---

(١) انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق.. ص ١٤٦، (مرجع سابق).

وانظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٣٨، ٣٩، (مرجع سابق)، وانظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ١/١٤٠، (مرجع سابق).

(٢) اتضح في مبحث نشأة الاستشراق أن الاستشراق والتنصير لا زالا مرتبطين وإن انفصلا أكاديميًا.

(٣) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٤١، (مرجع سابق).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٢.

ج - وشهد القرن التاسع عشر - أيضًا - بداية المؤتمرات الدولية للمستشرقين، حيث أتاحت هذه المؤتمرات للمستشرقين في كل مكان الفرصة للتنسيق وتوثيق أواصر التعاون والتفاهم، والتعرف بصورة مباشرة على أعمال بعضهم بعضًا، وتجنب ازدواجية العمل وتكراره حرصًا على الإفادة من الوقت والجهد معًا[(١)].

وقد عقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في عام (١٨٧٣ م) وتتابعت المؤتمرات الدوليّة حتى بلغت ما يزيد على ثلاثة وثلاثين مؤتمرًا[(٢)]، وإلى جانب هذه المؤتمرات فإن هناك اجتماعات وندوات ولقاءات - يصعب حصرها - منها المحلي ومنها الإقليمي[(٣)].

د - إذا كان الاستعمار في حقيقته عودة للحروب الصليبية بأسلوب جديد يواجه بها الغربيون العالم الإسلامي فإنّ هذه المواجهة تذرعت بسلاح الفكر والمعرفة، وقد ارتبط الاستشراق بهذا ارتباطًا قويًا، بحيث كان كما قال أحد المفكرين: (عين الاستعمار التي بها يبصر ويحدق، ويده التي بها يحس ويبطش، ورجله...)[(٤)] إلخ.

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٢، ٤٣.

(٢) عقد هذا المؤتمر في شهر آب أغسطس عام ١٩٩٢ م بكندا وناقش موضوع (الاتصال بين الثقافات). انظر: مجلة الفيصل عدد [١٦٢] الصادر في شهر ذي الحجة ١٤١٠ هـ- يوليو ١٩٩٠ م ص ١٢٨، (مرجع سابق).

(٣) انظر: ميشال جحا: الدراسات العربية الإسلاميّة في أوروبا، ص ٢٧٨ - ٢٨٣، (مرجع سابق).

(٤) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ١١٧، ١١٨، مقدمة كتابه المتنبي، الصادر عن مطبعة المدني ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، وقد جردت في كتاب بهذا العنوان، عن مطبعة المدني، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، جدة.

وكما أفاد الاستعمار من التراث الاستشراقي فقد أفاد الاستشراق كذلك من الاستعمار فأصبح الاستشراق في ظل الاستعمار (شبكة ضخمة من المؤسسات الأكاديمية الممثلة في الجامعات والمعاهد والجمعيات الاستشراقية والجغرافية والدوريات ودور النشر، وهذه الشبكة متعاونة فكريًّا وسياسيًّا مع الاستعمار لإحكام قبضته على كل أسباب الحياة للأُمَّة الإسلاميَّة)[1]، ونشأت رابطة رسميّة وثيقة بين الاستشراق والاستعمار خدم الاستشراق من خلالها الاستعمار قبل دخوله بلاد المسلمين وأثناء ذلك وبعده.

فأمَّا قبل دخوله بلاد المسلمين فإنّ الاستشراق كان بمثابة دليل وهادٍ للاستعمار في مناطق الشرق على اختلاف المواقع بدءًا بالرحلات الاستكشافية، ومن خلال الشركات الغربية التي عملت في بلاد الشرق، ووصولاً لتلك الدراسات الاستشراقية التي تضفي طابع التبرير العقلي على المبدأ الاستعماري[2].

وأمَّا في الفترة الاستعمارية وبعد استيلاء عدد من دول الاستعمار على البلاد الإسلاميَّة وسيطرتها عليها عسكريًّا وسياسيًّا، فقد عمل المستشرقون دائبين على محاولة إضعاف المقاومة الروحيّة والمعنوية في نفوس المسلمين وتشكيكهم في معتقداتهم وتراثهم حتى يتم للاستعمار - من جانب - إخضاعهم للحضارة الغربية وثقافتها، ويتاح للمستعمرين - من جانب آخر - مزيدًا من معرفة تلك الشعوب التي يستعمرونها، ومن المؤكد أن (مزيدًا من المعرفة يؤدي إلى مزيد من القوة)[3].

---

(١) انظر: أحمد عبدالحميد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٤٠، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٤٨، (مرجع سابق).

(٣) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق..: ص ٤٨، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار.. ص ٥٣٤، (مرجع سابق).

وأمَّا بعد رحيل الاستعمار عن بلاد العرب والمسلمين فإنّ خدمات الاستشراق للاستعمار تمثلت في طرح الخطط المدروسة والدراسات العميقة التي أنجزها المستشرقون وتبنتها دوائر الاستعمار ومؤسساته لفرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها بأساليب ظاهرها التحرر والانعتاق من الاستعمار، وحقيقتها أشد وطأة على الأُمَّة الإسلاميَّة من الاستعمار نفسه وأخفّ كلفة على المستعمر، كذلك فإنَّ تلك الخطط تهدف إلى إضعاف العالم الإسلامي وإبعاد الأُمَّة عن مقوماتها وإذابة ذاتيتها في حضارة الآخر وثقافته ومنع أيٍّ محاولة من شأنها جمع شمل المسلمين مرَّةً أخرى.

ولعل هذه المهمة أو هذا الطور الذي خطّط له الاستشراق لخدمة الاستعمار استهدف من أبناء المسلمين من تتلمذ على أيدي المستشرقين وتشرب أفكارهم وتورط في حمل دعوتهم إلى تطوير الإسلام أو إصلاحه أو نحو ذلك من الدعوات التي فتّت في عضد الأُمّة وأسلمتها للتمزق والتشرذم والضياع[١] تحقيقاً للمثل الغربي القائل: (ينبغي أن يقطع الشجرة بعض أغصانها)[٢].

---

(١) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٩٧، ٩٨، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: كذلك:

- أحمد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٤٠، ٤٣، (مرجع سابق).
- محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، ص ٢٥، ٢٦، (مرجع سابق).
- مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ص ١٨، ٢٤، (مرجع سابق).
- محمد عبدالله مليباري: المستشرقون والدراسات الإسلاميَّة، ص ٣٠، ٣١، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محي الدين عبدالحميد: كنت نصرانيًا وأسلمت، ص ١٩، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ مكتبة الخدمات الحديثة – جدة.

المطلب الثاني
دوافع الاستشراق ومظاهر نشاطه

يتضح من تاريخ الاستشراق، في جذوره الضاربة في أعماق تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، وما حدث له من تطور، وعلاقات متنوعة؛ جملةٌ من الدوافع، ولكل دافع منها أهداف يسعى لتحقيقها، وأن الاستشراق اتخذ وسائل وأساليب كثيرة، وعمل في مجالات واسعة، ظهر من خلالها نشاط المستشرقين؛ وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: الدوافع الاستشراقية:

يُمكن بيان هذه الدوافع (وما ترمي إليه من أهداف) على النحو الآتي:

١ - دوافع دينية

٢ - دوافع سياسية.

٣ - دوافع اقتصادية.

٤ - دوافع علميّة.

ولكل دافع من هذه الدوافع أهداف، وقد تنوعت كتابات الباحثين في تحديد هذه الدوافع والأهداف واختلفت مسمياتها لديهم وتقسيماتهم لها[(١)]، ومهما كان الأمر فإنَّ (الدوافع تلتقي مع الأهداف، باعتبار أن

---

(١) انظر: مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون.. ص ١٥ - ٢٥، (مرجع سابق).
وانظر:
- علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص ٥٣ - ٩٥، (مرجع سابق).
- محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، ص ٤٣ - ٤٧، (مرجع سابق). =

الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغائية من العمل)[1]، والدافع الديني هو أهم هذه الدوافع[2]، ثم يليه الدافع السياسي ثم الاقتصادي، ويأتي الدافع العلمي متأخرًا، وضئيلا بالنسبة للدوافع الأخرى، وفيما يأتي توضيح لهذه الدوافع وأهدافها:

١ - الدافع الديني:

هو المحور الأساس الذي ارتكزت عليه الحركة الاستشراقية، وقد تبين من استعراض تاريخ الاستشراق بأنه نما وترعرع في أحضان الكنيسة وكانت بدايته على أيدي الرهبان النصارى، وأنّه استمر في خدمة التنصير ولم ينفصل عنه إلا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وكان ذلك الانفصال شكليًّا، أمَّا واقع الأمر فإنه يصعب التفريق بين المستشرق والمنصر حتى في العصر الحديث، وكان لهذا الدافع عدة أهداف من أبرزها:

أ - حماية النصارى والشعوب التابعة للكنيسة من الدخول في الإسلام.

=- محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٧٠ - ٧٥، (مرجع سابق).

- أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق..، ص ٤٠ - ٥٣، (مرجع سابق).

- ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية.. ١/٢٧ - ١١٧، (مرجع سابق).

- علي بن إبراهيم النملة: الاستشراق في الأدبيات العربية.. ص ١٤، ٣٣ - ٥٨، (مرجع سابق).

(١) عبدالرحمن حبنكة: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار)، دراسة وتحليل وتوجيه ص ١٢٥، عن دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦ م، وانظر: علي النملة: الاستشراق.. ص ٤، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث..: ص ٤٣٠، (مرجع سابق).

ب - الحد من انتشار الإسلام على حساب امتداد النصرانية ونشرها.

جـ - التعرف على الإسلام ولغته بهدف تشكيك المسلمين به ومحاولة تنصيرهم.

د - معرفة اللغة العربية ودين الإسلام بهدف التعمق عن طريقهما في العهد القديم (التوراة) للاعتقاد بوجود التشابه بين اللغة العربية واللغة العبرية، بل ذهب أحد المستشرقين وهو (دوزي) إلى دعوى التشابه بين لغة اليهود ولغة قريش[1]، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإنّهم يزعمون أن الإسلام مقتبس من اليهوديّة فلزم لذلك أن يدرسوا اللغة العربية والإسلام للتعمق في العهد القديم باعتباره جزءاً من الكتاب المقدس وباعتبار الإسلام ولغته اللغة العربيّة يخدمان بطريق غير مباشر هذا الهدف الديني للاستشراق.

وقد أكد هذا الهدف (شولتنس) بقوله: (لم يدرسوا اللغة العربيّة لقيمتها الأدبية أو للتعمق في تاريخ الإسلام أو لدرس تطور الأدب عند المسلمين، بل لاستعمالها وسيلة درس العهد القديم واللغة العبرانية)[2].

هـ - إشغال الشعوب الغربية عن الهجوم على الكنيسة ومعتقداتها بالهجوم على الإسلام وتوجيه الأنظار إليه باعتباره عدواً للكنيسة والشعوب الغربية[3].

---

(١) انظر: محمد خليفة الدفاع: اللغة الفصحى رباط قومي (بحث مدرج في كتاب من قضايا اللغة العربية المعاصرة): ص ١٦٣، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.. تونس ١٩٩٠ م.

(٢) نقلاً عن: إسماعيل عمايرة: المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية: ص ٣٠، عن دار حنين، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م، عمان، (ولديه مزيد إيضاح لهذا الهدف).

(٣) انظر: عبدالرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر...: ص ١٢٥، ١٢٦، (مرجع سابق).

٢- الدافع السياسي:

ما برح هذا الدافع ملازمًا للحركة الاستشراقية في كثير من مراحلها وأطوارها إذ انبرى نفر من المستشرقين لتقديم دراسات تتناول الأُمَّة الإسلاميَّة جغرافيا وسياسيًا (فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كلِّ شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ليتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها وإلى مواطن الضعف فيغتنموها)[١]، ومن خلال تاريخ الاستشراق تبين كذلك أن المسار العام للحركة الاستشراقية قد تلوّن في مرحلة الاستعمار بما يتناسب معها وتكوّنت بسبب ذلك (رابطة رسمية بين الاستشراق والاستعمار، وانساق في هذا التيار عدد من المستشرقين الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون عملهم وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام وقيمه...)[٢].

وتبين أن الاستشراق خدم الاستعمار قبل دخوله بلاد المسلمين وأثناء دخوله وبعد خروجه وجاء ليحقق في تلك المراحل الثلاث جملة من الأهداف السياسية من أبرزها:

أ - تبرير نزعة الاستعمار ودعمها بوساطة الكشف للمستعمرين عن مواطن الضعف في المجتمعات الإسلاميَّة لاستغلالها في السيطرة والنفوذ والكشف عن مواطن القوة للعمل على إضعافها.

---

(١) السباعي: الاستشراق والمستشرقين.. ص ١٧، (مرجع سابق)، وانظر: حبنكة: أجنحة المكر.. ص ١٢٧، (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ٤٨، (مرجع سابق)، وقد عزا هذه العبارة لإدوارد سعيد، ولم أجدها عنده بل وردت لدى السباعي، وللمزيد من الاطلاع على هذا الدافع وأهدافه انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق.. ص ٦٣ - ٧٩، (مرجع سابق).

(٢) زقزوق..: الاستشراق..: ص ٤٤، (المرجع السابق نفسه).

ب - إضعاف روح المقاومة لدى الشعوب التي سيطر عليها المستعمرون وإخضاعهم لسلطة المستعمر وثقافته وحضارته.

جـ - تحقيق غايات سياسية متنوعة تفرضها المراحل المتعاقبة وما تحيط بها من الظروف والأوضاع المختلفة التي ترمي في النهاية إلى احتواء الأمة الإسلاميَّة من كل الجوانب والتحكم في مصيرها وفرض التبعية على أبنائها.

٢ - الدافع الاقتصادي:

ومن الدوافع لدراسات المستشرقين دافع اقتصادي يُعْنَى بوسائل كسب الأموال وتنميتها وفتح أسواق للصناعات الغربية في الشرق والحصول على المواد الخام منه، وهذه المصالح دفعت إلى دراسات عدة قام بها المستشرقون عن الشرق وأهله وعاداتهم وطبائعهم وطرائق معايشهم، وأدى هذا الدافع من جانب آخر إلى البحث عن مصادر المواد الخام والطاقة ونحوها، وإذا كانت مثل هذه الدراسات الاقتصادية تهدف من حيث الأصل إلى الانتفاع بها في أسلوب التعامل مع شعوب العالم الإسلامي في مجالات التبادلِ التجاري والصناعي والتنمية دون ربط ذلك بالأغراض السياسية إلا إن الاستشراق تجاوز ذلك كله، وانطلق في هذا المجال بروح عنصرية طاغية وأساليب سياسية ملتوية، وقد عبَّر أحد المفكرين المسلمين عن ذلك بقوله: (ومن الدوافع التي كان لها أثرها في تنشيط الاستشراق، رغبة الغربيين في التعامل معنا لترويج بضائعهم وشراء مواردنا الطبيعية الخام بأبخس الأثمان ولقتل صناعتنا المحلية التي كان لها مصانع قائمة مزدهرة في مختلف بلاد العرب والمسلمين)[١].

---

(١) السباعي: الاستشراق والمستشرقون: ص ١٨، (مرجع سابق).

٤ - الدافع العلمي:

لايُمكن للباحث في الاستشراق أن يتجاهل الدافع العلمي النزيه لدى نفر من المستشرقين توافروا على دراسة الإسلام ولغته بغية معرفة الحقيقة والتجرد من كل مؤثر ولكن المناخ الاستشراقي العام في مسار حركته الطويلة لايساعد هؤلاء على الظهور والانتشار.

وأقصى ما يتحقق في هذا أن يبرز أفراد اتسمت دراساتهم أو بعضها بالتجرد ووصلت إلى نتائج أقرب لحقيقة الإسلام وأكثر إنصافًا للمسلمين، وربُّما أسلم بعضهم.. وثمة أسباب جعلت هذا الدافع ضعيفًا وغير منتج في تاريخ الاستشراق والمستشرقين، ومن أبرزها:

أ- العداء الشديد للإسلام الذي سيطر على الشعور العام في الغرب عبر مراحله التاريخية وقد أسهم الاستشراق فيه بقدر كبير، فإذا ظهر بين الحين والآخر من ينصف الإسلام فإن بحوثه لاتجد (رواجًا لا عند رجال الدين ولا عند رجال السياسية ولا عند عامة الباحثين)[١].

بل رُبَّمَا أدى ذلك إلى أن يعاني ذلك المستشرق صنوفًا من الأذى والمتاعب[٢].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ١٩، وللمثال على محاربة الكنيسة لمن تجرد عن الغرض في دراسته للإسلام. انظر: شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان: ص ٥، ٦، (مرجع سابق). وانظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٣١ – ٣٨، (مرجع سابق)، فقد أورد عددًا ممن أنصف الإسلام في بعض القضايا أو سلك مسلكًا جديدًا في دراسة الإسلام أقرب إلى الموضوعية والإنصاف نسبيًّا بغض النظر عن المقاصد الحقيقة لذلك التوجه ومع ذلك فإنّ أصحاب ذلك الاتجاه حوربوا من قبل الكنيسة.

(٢) والحقيقة إن هذه عادة جرت حتى في العصر الحديث حيث يحارب أولئك الذين=

ب - عدم توافر الأموال اللازمة التي تحتاجها مثل تلك الدراسات والبحوث؛ لأن جهات الدعم سواء كانت الكنيسة ومؤسساتها أو الهيئات السياسية أو المؤسسات الإعلامية، أو غيرها من دوائر العداء للإسلام والمسلمين، إنّ كل أولئك لايبذلون الأموال في العادة إلا لخدمة أهداف محدّدة تسعى لتشويه الإسلام وتسيء لأمته.

جـ- وهناك سبب آخر وهو تأثر المستشرق - مهما كان متجردًا ونزيهاً - ببيئته وثقافة مجتمعه ولغته الأصلية ومعطيات الحضارة الغربية، وعندما يدرس الإسلام لابُدّ أن تعتور دراسته عقبات متنوعة تؤثر على منهجه وما يصل إليه من نتائج[1].

ولعل الهدف الغائي لهذا الدافع هو (إشباع نهم علمي متجرد،

=يتجردون فيما يكتبون عن الإسلام عن الموروثات البيئة في الغرب وينصفون الإسلام، وللمثال على ذلك ما حدث لرجاء جارودي قبل عقد من الزمان من محاكمة ومضايقات؛ لأنه دافع عن بعض قضايا الأمة الإسلاميّة، وأعلن إسلامه وقبل فترة وجيزة رفعت دعوى ضد مرادهوفمان فحواها أنه يقوم في كتاباته بدعاية للإسلام في المجتمع الألماني.. انظر: في ذلك: صوت البلاد: ص ٤٢ - ٤٥: غارودي في حديث (للبلاد) عن تاريخ فلسطين العدد [٣٤]، السنة الأولى، الأربعاء ٢٧ فبراير ١٩٨٥ م، عن مؤسسة الديار للطباعة والنشر - قبرص.

وانظر: مرادهوفمان: الإسلام هو البديل، نقلاً عن مجلة النور، العدد [١٠٦] ربيع الأول ١٤١٤ هـ، ص ٦، ٧، الصادرة عن بيت التموين الكويتي - الكويت. وانظر: عبدالرحمن حبنكة: أجنحة المكر.. ص ١٣١، (مرجع سابق).

(١) انظر: عبدالرحمن حبنكة: أجنحة المكر..: ص ١٣٠، (مرجع سابق)، وانظر: السباعي: الاستشراق.. ص ٢٤، (مرجع سابق).

وتحصيل معرفة صحيحة تتصل بأُمَّة)[1] ذات شخصية متميزة لها مبادئ وقيم وعادات وأعراف وتاريخ وعلم وحضارة.

ومِمَّا ينبغي التفطن إليه هو ظهور بعض الدراسات الاستشراقية بمظهر علمي ولكنْ يتذرع بها لأهداف مشبوهة وعندئذٍ يخرج هذا عن الدافع العلمي؛ لأنه أصبح غاية أو وسيلة لغاية غير نزيهة، وقد ألمح إليه بعض الباحثين المسلمين في قوله: (ومهما كان حسن الظن متوافرًا في كثير من تلكم الدراسات إلا أن ما كان منها نتيجة غاية علمية، كدراسة بلاشير لتاريخ الأدب العربي، خدمت بطريق مباشر أو غير مباشر غايات عاطفية وعصبية)[2].

ثانيًا: مظاهر النشاط الاستشراقي:

ظهر نشاط المستشرقين على مدى تاريخهم الطويل في مجالات مختلفة، واستخدموا وسائل متنوعة للوصول إلى أهدافهم، فأنشأوا المؤسسات التعليمية ذات المستوى العلمي المتميز من معاهد وأقسام علميَّة، ومراكز بحث في الجامعات الغربية وفي بعض جامعات الشرق الإسلامي، واهتموا بالمخطوطات الإسلاميَّة وجلبوها من مظانها بطرق مشروعة وغير مشروعة[3].

ثم خدموا هذه المخطوطات من نواحٍ فنية وعلمية، وأفادوا منها،

---

(١) عبدالرحمن حبنكة: أجنحة المكر..: ص ١٣٠، (المرجع السابق نفسه).

(٢) محمد عبدالله مليباري: المستشرقون.. ص ٤٨، (مرجع سابق)، وانظر: السباعي: الاستشراق.. ص ٢٠ - ٢٣ ، (مرجع سابق). وانظر: علي النملة: الاستشراق.. ص٣٦، (مرجع سابق).

(٣) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٦١، (مرجع سابق)، وانظر: سامي الصقار: دور المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي، مجلة المنهل، (العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩هـ عن الاستشراق والمستشرقين): ص ١٥٥، ١٥٦، (مرجع سابق).

وقاموا بالتحقيق والنشر والترجمة، وفي مقدمة ما قاموا بترجمته معاني القرآن الكريم إلى عددٍ من اللغات الأوروبية[1]، وألفوا العديد من الكتب، في العقيدة والشريعة واللغة والتاريخ والأدب، وغيرها، وأعدوا بعض دوائر المعارف للعلوم الإسلاميَّة وأنجزوا بعض المعاجم اللغوية[2].

وأسسوا كذلك جمعيات استشراقية وأصدروا المجلات والدوريات ونحوها، وعقدوا عددًا من المؤتمرات إقليمية ودولية.. ويُمكن بيان مظاهر هذا النشاط وما اتخذ من الوسائل والمجالات فيما يأتي:

١ - التدريس الجامعي[3].

٢ - جمع المخطوطات[4].

---

(١) انظر: محمد صادق البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم (الفصل الثالث) ص ٨٧ - ١٣٣، (مرجع سابق).

(٢) للاطلاع على إحصائيات لأعمال المستشرقين العلمية في ميدان التحقيق والنشر والترجمة والتأليف. انظر:

- صلاح الدين المنجد: جهود المستشرقين في تحقيق التراث، مجلة المنهل، (المرجع السابق نفسه)، ص ٢١٠ - ٢١٧.
- عبدالعظيم الدِّيب: المستشرقون والتراث: ص ٧ - ٢٦، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م عن مكتبة ابن تيمية - البحرين.
- عبدالعظيم الدِّيب: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي: ص ٣٤، الطبعة الأولى، كتاب الأمة، ربيع الثاني ١٤١١ هـ، (مرجع سابق).
- محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٦١ - ٧٠، (مرجع سابق).

(٣) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٥٩، ٦٠، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عمر بن إبراهيم رضوان: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره ١/٥٦ - ٦٢، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ- ١٩٩٢، عن دار طيبة - الرياض.

(٤) انظر: محمود زقزوق: الاستشراق.. ص ٦١ - ٧٠، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: المراجع السابقة، وانظر: عمر رضوان: (المرجع السابق نفسه): ص ٤٩ - ٥٣.

٣ - التحقيق والنشر[١].

٤ - الترجمة[٢].

٥ - التأليف[٣].

٦ - تأسيس الجمعيات[٤].

٧ - إصدار المجلات[٥].

٨ - عقد المؤتمرات[٦].

---

(١) انظر: المراجع السابقة: الصفحات نفسها.

(٢) انظر: المراجع السابقة: الصفحات نفسها.

(٣) انظر: المراجع السابقة: الصفحات نفسها.

(٤) انظر: عمر رضوان: المرجع السابق، ص ٥٣ - ٥٦، (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ٤١، ٤٢، ٤٣، (مرجع سابق)، وانظر: السباعي: الاستشراق.. ص ٢٦ - ٣٠، (مرجع سابق).

(٥) انظر: المراجع السابقة: الصفحات نفسها.

(٦) انظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ٤٣، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: ميشال جحا: الدراسات العربية الإسلاميَّة في أوروبا ص ٢٧٨ - ٢٨٣، وقد أورد ملحقًا أحصى فيه المؤتمرات الاستشراقية الدولية في ثلاثين مؤتمرًا ذكر تاريخ انعقاد كل مؤتمر ومكانه ورقمه ثمّ ذكر بعض المؤتمرات الإقليمية للمستعربين والمتخصصين في الدراسات الإسلاميَّة في الاتحاد الأوروبي، وذكر المؤتمر الألماني الذي يعقد بصفة دورية كما ذكر أنه حضر مع عدد من المشاركين من المصريين والسوريين واللبنانيين المؤتمر الذي عقد في جامعة (أرلنجن سنة ١٩٧٧ م) وأنه عقد بعد ذلك المؤتمر مؤتمرٌ آخر في برلين سنة ١٩٨٠ م.

ولمزيد من الاطلاع على مجالات أنشطة المستشرقين ووسائلهم وأعمالهم. انظر:

- محمد كرد علي: أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية: مجلة المجمع العلمي العربي، الجزء العاشر، المجلد السابع: ص ٤٣٣ - ٤٥٢، وأصلها محاضرة ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي بالمدرسة العادلية بدمشق، وأدرجت ضمن مجلد بعنوان: محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣١/١ - ١٣٩، وأعاد إلقاءها في نادي دار المعلمين العليا بالقاهرة يوم ٥ أيار سنة ١٩٢٧ م. انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٣٣.
- عبدالرحمن حبنكة: أجنحة المكر.. ص ١٣٢ - ١٤٠، (مرجع سابق).
- ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية.. ١٨٤/١ - ١٨٧، (مرجع سابق).
- أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٨١، ٨٢، ٨٣، ١٥٤، ١٨٦، (مرجع سابق).
- وانظر: عبدالستار الحلوجي: دراسات في الكتب والمكتبات ص ١٢١ - ١٥٣، عن مكتبة مصباح، (بدون تاريخ).

المطلب الثالث

حاضر الاستشراق ومستقبله وعوامل قوته واستمراره

تكاد آراءُ الباحثين في تاريخ الاستشراق والمستشرقين تجمع على أن الاستشراق عاش فترة ازدهار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين (أي في الفترة ما بين ١٨٥٠ - ١٩٥٠ م)، ولكن آراءهم تختلف حول حاضر الاستشراق ومستقبله مثلما حدث الاختلاف كذلك في تحديد بدايته الأولى.

وعلى الرغم من تعدد الآراء وتشعبها في هذه المسألة فإنّ من الملفت للنظر في هذا الأمر ما يظهره الساسة الغربيون وتشيعه دوائر الاستشراق من صحافة وإعلام وبعض المستشرقين من أنّ عصر الاستشراق قد انتهى وأن صفحته قد طويت.. بينما يرى الباحث بأن الاستشراق لازال حيًّا قويًّا.. ولا زال المستشرقون يتوافرون على دراسة الإسلام والمسلمين عقيدة وتاريخًا حاضرًا وماضيًا.

ولبيان هذه الوجهة وحقيقة الأمر فيها كما يرى الباحث تجري المناقشة في النقاط الآتية:

١ - نقد الساسة الغربيين للاستشراق والمستشرقين وموقف المستشرقين من ذلك.

٢ - وجهة نظر الباحث حول حاضر الاستشراق والمستشرقين ومستقبلهم.

٣ - عوامل قوة الحركة الاستشراقية واستمرار المستشرقين.

١ - نقد الساسة الغربيين للاستشراق والمستشرقين:

يتفق الساسة الغربيون والمستشرقون على نقد الاستشراق والمستشرقين، بل يتجاوزون ذلك إلى الإعلان عن أفول شمس الاستشراق وانتهاء

عصره، ومن الأمثلة على ذلك الآتي:

أ - ما قاله أحد الساسة الألمان: (بأنه آن الأوان كي يبتعد المستشرقون باهتماماتهم عن اللهجات العربية.. وأن يكونوا بمثابة احتياطيين للقيام بمهمة الترجمة)[١].

ب - يعترف المستشرقون بالقصور في جوانب مختلفة كانت مثار انتقادات حادّة من جهات عديدة؛ وقد أجملها بعض المستشرقين في قوله: (لقد اتهمنا بأننا متخلفون.. وأننا وصفيون نقليون ولسنا تحليليين وإذا كنّا نقدر أنفسنا حقٍ التقدير فما علينا سوى الاعتراف بأن هذا النقد صحيح إلى حد بعيد)[٢].

ج - يتجاوز المستشرقون هذا النقد والاعتراف إلى الإعلان عن نهاية الاستشراق فقد أُعْلِنَ في مؤتمر المستشرقين التاسع والعشرين عن تغيير مسمى الاستشراق وأنه تقرر أن يطلق على مؤتمرهم الثلاثين مسمى (مؤتمر العلوم الإنسانية)[٣]، ومع إنّ التغيير ينصب على الاسم فقط فقد أشاعت الصحافة وعدّ بعض المستشرقين هذا التحول نهاية للاستشراق والمستشرقين؛ وللمثال على ذلك فقد:

- وصفت جريدة (لوموند) الفرنسية هذا التحول بأنه موت الاستشراق.

---

(١) نقلاً عن أوليريشن هارمان: الاستشراق الألماني؛ منجزات ومراجعة مواقف: مجلة الباحث، المجلد [٥] العدد الصادر في ١٩٨٣/٢ م ص ١٤٤، باريس.

(٢) أوليريشن هارمان: الاستشراق الألماني..: ص ١٤٤، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون: ٣٦٥/٣ - ٣٧٠، (مرجع سابق). وانظر: أنور الجندي: الإسلام في وجه التغريب (مخططات التبشير والاستشراق): ص ٤١٧، عن دار الاعتصام، القاهرة، (بدون تاريخ).

- وورد على لسان (جاك بيرك) وهو أحد المستشرقين الفرنسيين القول: (بانتهاء زمن الاستشراق)[1].

٢ - وجهة نظر الباحث حول حاضر الاستشراق والمستشرقين ومستقبلهم:

تتلخص هذه الوجهة في الأمور الآتية:

أ - لايعني تغيير مسمى الاستشراق نهاية حركته وتوقف المستشرقين عن دراسة الإسلام وتاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة، كما لايعني تغيير مسماه تغيير تلك الروح العدائية التي لازمت المسار العام للحركة الاستشراقية وكتابات المستشرقين للإسلام وأُمَّته بل غيَّر الاستشراق جلده ليدخل مرحلةً جديدة.

ب - الخطر في المرحلة الجديدة رُبَّمَا يصبح أشد خطورة وأكثر عمقًا، ولاسيما أن الاستشراق تحول إلى ميدان العلوم الإنسانية[2].

ج - على الرغم من أن الفترة التي عاش الاستشراق فيها أوجَهُ وازدهارَهُ هي الفترة ما بين (١٨٥٠ - ١٩٥٠م) وقد شهدت جهابذة المستشرقين من أمثال (جولدزيهر) و (يوسف شاخت) و (كارل بروكلمان) وغيرهم إلاّ أنه يوجد في الحاضر من المستشرقين من يترسم خطى السابقين ويسير على دربهم بل ويتفوق عليهم في العداء للإسلام والأُمَّة الإسلاميَّة، من أمثال (برنارد لويس) الذي أنجز أبحاثًا تعادي العرب والمسلمين وتعزز معتقدات اليهود وسياستهم إزاء قضايا الأُمَّة الاسلامية، وقد أعلنت الدولة

---

(١) انظر: أنور الجندي: المرجع السابق نفسه: ص ٤١٧.

(٢) انظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٥٢، (مرجع سابق).

الإسرائيلية عن تكريمه من أجل بحوثه ودراساته تلك[١].

د - مِمَّا يفسح للاستشراق مجالاً واسعًا ويفتح له طورًا جديدًا الأطماع الصهيونية في بلاد العرب والمسلمين والمخططات المرسومة لإذابة ذاتية الأُمَّة الإسلاميَّة وإضعافها والهيمنة عليها، وإذا كان اليهود قد دخلوا الحركة الاستشراقية منذُ نشأتها بصفتهم الغربية لا بصفتهم اليهودية لأسباب دينية وسياسية وحققوا من أهدافهم القريبة والبعيدة ماحققوا فإنّه يوجد اليوم جناح ضخم من الاستشراق الصهيوني قوامه (ردنسون) و (برنارد لويس)، يركز هذا النوع من الاستشراق اهتماماته بقضايا زرع الأُمَّة اليهودية في قلب العالم الإسلامي وما يتطلب ذلك من دراسات وأبحاث وبرامج وخطط لإضعاف الأُمَّة الإسلاميَّة وإذابة تميزها، ومن ثَمَّ إسكات تاريخها واحتوائها والتحكم في حاضرها ومستقبلها.

ومن أبرز هذه القضايا البحث والدراسة في تاريخ فلسطين والأنبياء عليهم السـلام (إبراهيم، واسـماعيل، وإسحاق) وتاريخ القـدس والعرب واليهود، وتفسير هذا التاريخ بما يتفق والمطامع الصهيونية والعقائد اليهودية[٢].

هـ - على الرغم من ظهور دراسات معتدلة وظهور النزعة العلميّة في دراسات بعض المستشرقين مثل (أنا ماري شميل) و (جاك بيرك) وغيرهما إلاّ إن هذا الاتجاه وتلك النزعة تنحصر في أفراد قلائل

---

(١) انظر: أنور الجندي: الإسلام في وجه التغريب..: ص ٤١٧، ٣١٥، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٠٩ - ٣٢٨.

من ناحية وفي مسائل محدودة من ناحية أُخرى.

أمَّا المسار العام للحركة الاستشراقية وكتابات المستشرقين فإنه لا زال معاديًا للإسلام.

و - مهما ضعف الاستشراق ومهما قيل عن تراجع دراسات المستشرقين أو توقفها فإنَّ ما تَمَّ إنجازه عبر قرون من الزمان يعد ذلك - في حد ذاته بصرف النظر عن التحولات في مسار الدراسات الاستشراقية - مرجعية فكرية للغرب يصدر عنها في مواجهة الأُمَّة الإسلاميَّة وقضاياها ويعتمد عليها وقت الحاجة بشتى الطرق وعلى جميع الأصعدة.

٢ - عوامل قوة الحركة الاستشراقية واستمرار المستشرقين:

توجد عِدَّة عوامل تؤكد قوة الحركة الاستشراقية وحاجة الغرب إلى دراسات المستشرقين وأبحاثهم في الحاضر والمستقبل، من أبرزها الآتي:

أ - تغلغل المصالح الغربية في بلدان العالم الإسلامي وبخاصة ما يطلق عليه الشرق الأوسط.. وواقع هذه المصالح يحتم على الغرب دعم المستشرقين لإنجاز دراسات مختلفة عن تلك البلدان، ولابُدَّ أن تفرض عليه تلك المصالح مساندة الحركة الاستشراقية وتنشيطها.

ومما يدلُّ على هذا العامل وأثره في قوة الحركة الاستشراقية واستمرار المستشرقين، ما قاله (بارت): (نعترف شاكرين بأن المجتمع ممثلاً في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق وللمحافظة على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار..)[1].

---

(١) نقلاً عن محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٥٤، (مرجع سابق).

وإذا كان بارت يعترف بذلك الدعم وتلك المساندة فإن مستشرقًا آخر يعترف بأن الجهات التي تنفق على دراساتهم وتساندهم لاتفعل ذلك خدمة للبحث العلمي أو استجابة لمظاهر حضارية راقية بل توجه مسار تلك البحوث وتتدخل في نتائجها، وهذا صريح من قوله: (طبعًا هناك أيضًا الضغط الملح من قِبَل أولئك الذين يقدمون الأموال لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم الإسلامي والتشبث به.. حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه)[١]، وهذا (التشبث بهذه المصالح حقيقة واقعة تؤكدها جميع الشواهد.. وما دام الأمر كذلك فإن الحاجة إلى الاستشراق في الغرب ستظل قائمة بل ستزداد إلحاحًا.. وليس هناك أيُّ بارقة تلوح في الأفق توحي بأن الغرب على استعداد للتخلي عن هذه المصالح)[٢].

ب- اعتماد بعض الهيئات العالمية على المستشرقين للكتابة عن الإسلام وتاريخه وقضايا الأُمَّة الإسلاميَّة ونحو ذلك مِمَّا يتصل بالرسول ﷺ والقرآن الكريم والعلوم الإسلاميَّة.. وللمثال على ذلك فإنَّ (اليونسكو) وهي هيئة دولية تشترك فيها الدول الإسلاميَّة استكتبت في موسوعتها عن الجنس البشري فيما يخص الإسلام وتاريخه ونبيه وحملته نفرًا من المستشرقين، وقد أثارت كتاباتهم حفيظة المسلمين وكتب

---

(١) أوليريشن هارمان: الاستشراق الألماني..، مجلة الباحث: ١٩٨٣/٢ م ص ١٤٤، (مرجع سابق).

(٢) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ٥٥، (المرجع السابق نفسه).

بعضهم[1] احتجاجًا على تلك الهيئة التي لم تحترم - على الأقل - عضوية الدول الإسلاميَّة فيها وجاءت كتابات المستشرقين في موسعتها تطفح بالتهم والتهجم على نبي الإسلام مِمَّا يؤكد استمرار المستشرقين في اجترار الروح الصليبية، ويؤكد من جهة أخرى استمرار الاعتماد على خطابهم عن الإسلام والمسلمين[2].

جـ - تعدد مجالات الاختصاص لدى المستشرقين، وهذا يعني إثراء الدراسات الاستشراقية لا القضاء عليها[3].

د - اعتماد وسائل الإعلام في كثير من موادها الإعلامية على الاستشراق، وقد أثبت بعض الباحثين وجود صلة وثيقة بين الإعلام الغربي والدراسات الاستشراقية، وذكر بأن (نتائج دراساته تؤكد تطابق وجهات نظر الخبراء في الدراسات الشرقية والإسلامية الذين تستعين بهم الدوائر السياسية في الغرب وبين الطريقة التي تعالج بها وسائل الإعلام الغربي

---

(١) انظر: (المرجع السابق نفسه): ص ١١٥، ولمزيد الاطلاع على ما دار حول هذه الموسوعة وما ورد فيها من افتراءات حول القرآن الكريم وتاريخ الإسلام وحضارته، وما أقدمت عليه (اليونسكو) من تصحيح واعتذار عن تلك الافتراءات، تمثلت في إصدار خاص عن الإسلام وتاريخه؛ انظر: محمد عبد الله السمان: مفتريات اليونسكو على الإسلام: ص ١١٦ - ١٢١، ١٢٢ - ١٢٥، الطبعة الثانية، عن دار الاعتصام، (بدون تاريخ).

(٢) انظر: زقزوق: الاستشراق..: ص ١١٥، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: السمَّان: مفتريات اليونسكو على الإسلام: ص ٢٣ - ١٠٨، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: أنور الجندي: الإسلام في وجه التغريب..: ص ٤١٧، (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق..: ص ٥٣، (المرجع السابق نفسه).

أمور الشرق والإسلام.. وأن الطرفين ينطلقان من فكرة أن الإسلام لايمثل منافسًا رهيبًا للغرب فحسب بل إنه يمثل كذلك تحديًا متأخرًا للمسيحية[1].

ويؤكد باحث آخر بأن التراث الاستشراقي يغذي وسائل الإعلام الغربية وتعتمد عليه إلى حد كبير في تشويه صورة الإسلام دينًا وحضارة وتشويه صورة العرب عنصرًا وقيمة، وعلى ذلك فإن دول العالم الإسلامي تتعرض لتدفق إعلامي يتسم بالاختلاق وتتلقى سيلا من الهجمات الإعلامية الحاقدة[2].

فإذا نُظِرَ إلى هذا الجانب من واقع أثر الإعلام في العصر الراهن بما يملكه من قوة التأثير وشدّة الجاذبية وسعة الانتشار[3]، وأنّه يعتمد إلى حد كبير على دراسات المستشرقين فيما يخص الإسلام والأُمَّة الإسلاميَّة تبين من ذلك كله استمرار المستشرقين ونشاط حركتهم لتلبية هذا الجانب.

وخلاصة القول: إنَّ الحركة الاستشراقية لاتزال قويَّة ومتماسكة ومنظمة، ولاتزال جمعيات المستشرقين قائمة تمارس نشاطاتها وإصداراتها من دوريّات ومجلاّت وكتب وأبحاث وكذلك مؤتمراتهم الإقليمية والدوليّة، وقد عقد مؤتمرهم الثالث والثلاثين الدولي (بكندا) في شهر أغسطس ١٩٩٠ م، وكان موضوعه الأساس (الاتصال بين

---

(١) انظر: إدوارد سعيد: تغطية الإسلام.. ص ٣٦ نقلاً عن عبدالقادر طاش: الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام والعرب في التراث الغربي، مجلة المنهل، (العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ عن الاستشراق والمستشرقين): ص ٣٠٥، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٠٥، ٣٠٦.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٠٥.

الثقافات)[1]، ولاتزال معاهد الاستشراق تعمل في الوقت الراهن وتخرج المستشرقين في أغلب جامعات الغرب.. وستظل الحاجة إلى الاستشراق قائمة بل ستزداد إلحاحًا تلبية لحاجات الدوائر السياسية والإعلامية والاقتصادية والثقافية وغيرها.. وليس هناك بارقة أمل تلوح في الأفق توحي بأن شمس الاستشراق تدنو للمغيب، وأنّ نجمه يقترب من الأُفُول[2].

* * *

---

(١) انظر: مجلة الفيصل، العدد [١٦٢]، ذو الحجة ١٤١٠ هـ/ يولية ١٩٩٠ م، ص ١٢٨، (مرجع سابق).

(٢) انظر: زقزوق: الاستشراق..: ص ٥٠ - ٥٥، (المرجع السابق نفسه).

لمزيد من المعلومات راجع:

- روز ماري صايغ: نهاية الاستشراق، مجلة العربي: ص ٣٥ - ٣٩، العدد [٢٥٨] مايو ١٩٨٠ م، تصدر عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت، (مرجع سابق).
- عبدالقادر طاش: الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي، (مرجع سابق).
- إدوارد سعيد: الثقافة والاستعمار، عرضه سلمان داود الواسطي في مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، العدد الأول، شتاء
١٩٩٤ م، ص ٣٢ - ٣٩، تصدر عن دار الشروق للنشر والتوزيع، بيروت.
- إدوارد سعيد: الإعلام الغربي المستقل وحادث أوكلاهوما، جريدة الحياة: ص ١٧، العدد [١١٧٦٥] الصادر يوم ١٤١٥/١٢/٨ هـ الموافق ٨ أيار (مايو) ١٩٩٥ م، تصدر عن شركة الحياة الدولية للنشر، لندن.

الباب الأول

مقومات تميز الأمة الإسلاميَّة وخصائصه وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: مقومات تميز الأمة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها.

الفصل الثاني: خصائص تميز الأمَّة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها.

الفصل الأول

مقوّمات تميز الأُمَّة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العقيدة وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثاني: الشريعة وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثالث: الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة وموقف المستشرقين منها.

المبحث الأول
العقيدة وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: العقيدة.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منها.

المطلب الأول

العقيـــدة

إنَّ العقيدة الإسلاميَّة هي المقوم الأساس لتميز الأُمَّة الإسلاميَّة، ومرتكزها الأول فطرة الله التي فطر الناس عليها، قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

والعقيدة الإسلاميَّة من جانب آخر متناسقة مع سنن الله في الكون والحياة والنفس الإنسانية في تجريد التوحيد لله، والإنابة له، والتوكل عليه.

ثُمَّ إنَّها سهلة المأخذ واضحة بينة بيضاء نقية، لا غموض فيها ولا لبس ولا تعقيد، تعرض قضايا الوجود، وحقائق الحياة والموت والبعث والنشور والجزاء والحساب، والجنَّة والنار، والصراط، وغير ذلك من مشمولات عالم الغيب وعالم الشهادة، بأسلوب حي مؤثر يعمق الإيمان بالله في نفس الإنسان، (ويحمله على الطاعة والالتزام، فيكون لهذا الإيمان أثره في نفس الفرد، وفي استقامة سلوكه، وفي الجماعة ونظام حياتها...)[2]، فيتحقق بذلك تميز الأُمَّة بهذه العقيدة الفذَّة الأصيلة دون غيرها من الأمم التي داخلت عقائدها الشكوك، والأهواء، والغموض والشركيات، وغير ذلك من التعقيدات والتناقضات الغريبة

---

(١) سورة الروم: الآية (٣٠).

(٢) عثمان جمعة ضميريّة: مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة: ص ٨٨، (مرجع سابق).

التي أشغلت تلك الأمم (بمباحث جدلية كثيرة حول حقيقة الإيمان وأجزائه...)[1]، وحول قضايا الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وقضايا الكون والوجود.

وفي هذا المطلب يجري البحث في النقاط الآتية:

١ - تعريف العقيدة لغة واصطلاحًا.

٢ - خصائص العقيدة الإسلاميَّة.

٣ - أثر العقيدة في الأُمَّة الإسلاميَّة.

١- تعريف العقيدة لغة واصطلاحًا:

العقيدة لغة: مشتقة من مادة (عقد) قال ابن فارس: (العين والقاف والدال: أصلٌ واحد يدل على شد وشِدَّةٍ وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها)[2].

وقال - أيضًا -: (واعتقد مالاً وأخًا، أي اقتناه، وعقد قلبه على كذا فلاينزع عنه، واعتقد الشيءُ: صلب. واعتقد الإخاء ثبت)[3].

وقال ابن منظور: (وتعقد الإخاء: استحكم مثل تذلل، عقد الشحم يعقد: انبنى وظهر)[4].

وقال الراغب الأصفهاني: (العقد الجمع بين أطراف الشيء، ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل، وعقد البناء، ثمّ يستعار ذلك للمعاني نحو: عقد البيع، والعهد، وغيرهما، فيقال: عاقدته، وعقدته، وتعاقدنا،

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٨٨.

(٢) معجم مقاييس اللغة: مادة (عقد)، (مرجع سابق).

(٣) المرجع نفسه: مادة (عقد).

(٤) لسان العرب: مادة (عقد)، (مرجع سابق).

وعقدت يمينه، قال تعالى: ﴿ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾[1]......، وقال: ﴿ بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾[2]....، ومنه قيل: لفلان عقيدة...)[3].

يستخلص من هذه المعاني اللغوية أنها (تؤدي إلى مفهوم خاص، هذا المفهوم الخاص منه اشتقت العقيدة، وهو مفهوم الشد والربط، ثم مفهوم التأكيد والتوثيق والتصديق الذي لايقبل الشك)[4].

العقيدة اصطلاحًا عرفت بتعريفات كثيرة، منها:

- (العقيدة: الحكم الذي لايقبل الشك فيه لدى معتقده. و «في الدين» : ما يقصد به الاعتقاد دون العمل، كعقيدة وجود الله وبعثه الرسل. «وجمعها» عقائد)[5].
- (هي الفكرة الكلية اليقينية للإسلام عن الكون والإنسان والحياة، وعمًّا قبل الحياة الدنيا وعمًّا بعدها، وعن علاقتها بما قبلها وبما بعدها)[6].

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٣).

(٢) سورة المائدة: الآية (٨٩).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي: مادة (عقد)، (مرجع سابق). وانظر: ابن منظور لسان العرب: مادة (عقد)، وابن فارس: مجمل اللغة، ومعجم مقاييس اللغة، والجوهري: الصحاح، والزمخشري: أساس البلاغة: مادة (عقد)، (مراجع سابقة).

(٤) مناع القطان: العقيدة والمجتمع: ص ١، من محاضرات البرنامج العام الذي ينظمه قسم الثقافة الإسلاميَّة بكلية الشريعة في الرياض (١٤٠٠ هـ- ١٤٠١ هـ).

(٥) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط ٢/٦١٤، (مرجع سابق).

(٦) صالح ذياب هندي: دراسات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٤٣، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م، عن دار الفكر للنشر - عمان.

- (ما يقصد به الاعتقاد دون العمل أو هي الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به أولاً، إيمانًا لايرقى إليه الشك، ولاتؤثر فيه شبهة، كعقيدة وجود الله وبعثه الرسل)[1].
- (التصديق الناشئ عن إدراك شعوري أو لاشعوري يقهر صاحبه على الإذعان لقضية ما)[2].
- (إيمان ناشيء عن مصدر لا شعوري، يكره الإنسان على التصديق بقضية من القضايا من غير دليل... ولذلك تكون العقيدة مطابقة للواقع حينًا، وغير مطابقة له في أكثر الأحيان)[3].

هذه أبرز ما عُرِّفت به العقيدة، وهناك تعريفات أخرى ينصب بعضها على تعريف العقيدة تعريفًا فلسفيًّا[4] وبعضها الآخر يعرف العقيدة الإسلاميَّة بخاصّة[5]، ومهما يكن الأمر فإنَّه يُمكن أن يستخلص من بعض هذه التعريفات إطلاق مسمى العقيدة على ما يضمره الإنسان في

---

(١) داود علي الفاضل الفاغوري: العقيدة الإسلاميَّة من القرآن الكريم: ص ٧، عن دار الفكر - عمان، ١٩٨٩ م.

(٢) نبيل السملوطي: بناء المجتمع الإسلامي ونظمه (دراسة في علم الاجتماعي الإسلامي): ص ٢٣، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م، عن دار الشروق - جدة.

(٣) جوستاف لوبون، نقلاً عن المرجع السابق نفسه: ص ٢٣.

(٤) انظر: محمد كمال جعفر: الإنسان والأديان: ص ٢٣- ٤٠، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٥ م، عن دار الثقافة - قطر.

(٥) انظر: عبدالواحد محمد الفار: الثقافة الإسلاميَّة (دراسة تأصيلية لمضمون الرسالة الإسلاميَّة في ضوء القرآن والسنة)، سلسلة الكتاب الجامعي، الكتاب الرابع، ص ١٣، عن مكتبة الخدمات الحديثة - جدة (بدون تاريخ).

قلبه من الحق والباطل والصالح والفاسد والخير والشر[1]، وقد يلتمس لما يذهب إليه الدليل وقد ينساق إليه بطبيعته وفطرته، وقد يكون ذلك الشعور اختياريًّا أو جبريًّا، ولكن تتميز العقيدة الإسلاميَّة بكونها ذلك (الحكم المستقر الذي لايقبل الشك عند معتقده)[2]، المنبثق من الكتاب والسنَّة في معرفة الرب والرسول والدين، وما يقتضيه ذلك من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، والنظرة الشاملة للكون والحياة والإنسان.

وهذا المعنى هو ما دلت عليه بعض التعريفات السابقة بيد أنه لايتأتى إلاَّ في العقيدة الإسلاميَّة؛ لأنها عقيدة إلهية جاء بها أنبياء الله ورسله، وكان خاتمهم محمد ﷺ: (وآراء الناس ومذاهبهم ومعتقدات البشر لاتتصف بهذه الصفة...)[3] لذلك كانت العقيدة الإسلاميَّة جديرة (بأن تستقر في سويداء القلب وأن تنعقد على هذا القلب انعقادًا وثيقًا كعقد الحبل؛ لأن... الإنسان يعلم علم اليقين أنها من الله الذي خلقه وسواه، وهو الذي يتولى أموره بدءًا ونهاية، فتكون هذه العقيدة الإلهية جديرة بأن تكون العقيدة الحقَّة أو العقيدة على وجه الإطلاق)[4].

---

(١) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (عقد). وانظر: نبيل السملوطي: بناء المجتمع ونظمه.. (المرجع السابق): ص ٢٥. وانظر: حسن عيسى عبدالظاهر وآخرون: بحوث في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٢٢٩، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ -١٩٩٣، عن دار الحكمة، الدوحة، وانظر: عز الدين الخطيب وآخرون: نظرات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٥٩، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، عن دار الفرقان...، عمان.

(٢) مناع القطان: العقيدة والمجتمع: ص ٢، (المرجع السابق نفسه).

(٣) مناع القطان: العقيدة والمجتمع: ص ٢، (المرجع السابق نفسه).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٢.

(فقد أوحى الله إلى الأنبياء والمرسلين جميعًا طائفة من الحقائق المستقرة التي لاتقبل الشك ولا مناص من الإيمان بها إيمانًا ثابتًا جازمًا لايحتمل التغيير أو التساهل، فهي حقائق قد جاء منطوقها من قبل الرب إلى النبيين على اختلاف أممهم وتفاوت شرائعهم لتخمل في مضمونها جملة من المعاني والقيم الأساسية كيما تتلقاها البشرية وتقف عليها عن روية وبصيرة؛ لأنها معان وقيم تحتوي على مبادئ في التوحيد بين بني الإنسان حيثما كانوا ليعيش الناس جميعًا ضمن إطار متسع من الإخاء التام والتفاهم الأوفى وضمن مبادئ مشتركة قائمة على المساواة الإنسانية المطلقة وعلى التضامن الاجتماعي الوثيق)[1].

وحول هذه العقيدة تكونت أُمَّة واحدة تضرب في أعماق التاريخ وتستمر عبر الزمان والمكان مادام هناك أفراد (يؤمنون بعقيدة واحدة ويحسون بنوعٍ من الترابط والتقارب في أفكارهم وتصوراتهم، وهذا التقارب يجذب أفراد المجتمع إلى بعضهم ليتكوَّن منهم مجتمع قوي متماسك ينطلق من منطلقات واحدة، ويهدف لأهداف واحدة)[2].

وتختص العقيدة الإسلاميَّة بخصائص تجعلها المقوم الأساس في تميز الأُمَّة الإسلاميَّة.

---

(١) أمير عبدالعزيز: دراسات في الثقافة الإسلاميَّة (مدخل إلى الدين الإسلامي): ص ٧٥، طبعة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، عن دار الكتاب العربي - بيروت. وانظر: فاروق النبهان: مبادئ الثقافة الإسلاميَّة: ص ١٠٢، طبعة ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م، عن دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع - الكويت.

(٢) فاروق النبهان: المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢.

٢ - خصائص العقيدة الإسلاميَّة:

ولمَّا كانت العقيدة الإسلاميَّة من عند الله - عزوجل - فقد اختصت بخصائص فريدة... منها الآتي:

أ - كونها عقيدة الفطرة:

فقد فطر الإنسان على الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[1]. وقال الرسول ﷺ: «ما من مولود إلاَّ يولد على الفطرة»[2]. وهذه الفطرة منقادة لتوحيد الله وإفراده بالعبادة ونفي الشرك، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[3].

فسَّرها ابن كثير بقوله: (يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم: أنّ الله ربهم ومليكهم، وأنَّه لا إله إلا هو، كما أنَّه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه...)[4].

---

(١) سورة الروم: الآية (٣٠).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري، ٢١١/٧، كتاب القدر، بتحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (١٧٢، ١٧٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم.. ٢٦١/٢ (مرجع سابق).

ومِمَّا يستنتج من هذه الشهادة مع الفطرة تأكيد العهد والميثاق، وهو بهذا يتفق مع المدلول اللغوي للعقيدة المأخوذ من (عَقَدَ) ومنه عَقْد وعقود (والعقود أوثق العهود...)[١].

وقد أشار بعض علماء الاجتماع (إلى حاجة الإنسان إلى العقيدة؛ لأنها تمثل الغذاء الروحي والفكري له، وتحقق له الهدوء والاستقرار النفسي، ولعل هذا هو ما يفسر سعي الإنسان المستمر للارتباط بعقيدة ما، من أجل إشباع الحاجة النفسية للعقيدة)[٢]، وفي ذلك دلالة واضحة على فطرية العقيدة.

وبما أنّ عقيدة الإسلامِ هي عقيدة الفطرة، وهي عقيدة العهد فإنَّ (الإنسان يبقى حائرًا قلقًا مضطربًا نفسيًّا حتى يؤمن الإيمان الكامل بوجود الله ووحدانيته سبحانه وتعالى، فإذا وصل إلى هذه المرتبة وجد الأمن النفسي والراحة الداخلية والطمأنينة القلبيَّة)[٣].

وهذا من شواهد تميز الأمة الإسلاميَّة إذ تسهم العقيدة (في صياغة الشخصية المتماسكة.. وكذلك تسهم في تحقيق تماسك الجماعة Group Cohesion وتحقيق التكامل الاجتماعي SocialInte gration على مستوى المجتمع كله، لما تحققه من الشعور بالترابط والتقارب والإلفة والقوة بين أبناء العقيدة الواحدة، نتيجة لوحدة المنطلق ووحدة الهدف)[٤].

---

(١) انظر: ابن منظور لسان العرب، مادة (عَقَدَ). وانظر: محمد أحمد الخطيب: دراسات في العقيدة الإسلاميَّة: ص ٩، (مرجع سابق).

(٢) نبيل السملوطي: بناء المجتمع الإسلامي ونظمه: ص ٢٤، (مرجع سابق).

(٣) نادية شريف العمري: أضواء على الثقافة الإسلاميَّة: ص ١٠١، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م، عن مؤسسة الرسالة - بيروت، وانظر: ص ٨٦٤، (البحث نفسه).

(٤) نبيل السمالوطي: بناء المجتمع الإسلامي ونظمه: ص ٢٥، (مرجع سابق).

ب - الوضوح واليسر:

اختصت العقيدة الإسلاميَّة بخصيصة الوضوح واليسر (فهي عقيدة بسيطة واضحة لا غموض فيها، ولا تعقيد، ومن مظاهر بساطة العقيدة الإسلاميَّة:

- أساسها واضح قائم على التوحيد، فالله واحد وهو صاحب السلطان على كل شيء.
- ثُمَّ إنَّ العلاقة التي تقيمها بين العبد وربه هي علاقة واضحة تقوم على عبودية العبد لربه، الذي يتوجه إليه بالطلب والدعاء دون واسطة أحد، أو شفاعة الآخرين، إذ لا رهبانية فيها، ولا رجال دين، ولا صكوك غفران، وجميع الخلق فيها عند الله سواء لايفضلون بكرامة أو مقام، إلاّ بمقدار طاعتهم لله وعملهم الصالح..
- ويتجاوب الناس معها عبر التاريخ الطويل على مختلف أصنافهم ودرجاتهم دونما تفريق، وهذا مِمَّا ساعد على الانتشار في معظم بقاع الأرض بسرعة مذهلة وفي فترة وجيزة من غير إكراه أو إجبار أو إغراء؛ لأنها دعوة وليست تبشير، تقوم على حوافز داخلية في النفس البشرية)[1].

ولعل من أبرز مايدل على هذا الوضوح والصفاء ما تتضمنه كلمة التوحيد التي هي شعار الإسلام وعنوانه (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) فقد نفت تأليه غير الله من (بشر أو حجر، أو شيء في الأرض أو في السماء...، وإفراد الله بالألوهية، والإقرار لمحمد ﷺ بالرسالة

(١) صالح ذياب هندي: دراسات في الثقافة الإسلاميَّة، ص ٥٤، (مرجع سابق).

ومايعني ذلك من محبته التي تفضي إلى متابعته، والاقتداء بهديه، والتمسك بسنته، وجماع ذلك «تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عمًّا عنه نهى وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه»[1]، ولهذا كانت رسالة محمد ﷺ إلى ملوك الأرض وزعمائها: ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2].

إنَّ قضية التثنية في الألوهية - إله الخير والنور وإله الشر والظلمة - وقضية التثليث في الوثنيات القديمة، أو في المسيحية المتأثرة بها (الأب والابن والروح القدس)، لاتتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها، ولهذا تعتمد على الإيمان بغير برهان... بخلاف قضية التوحيد فهي تستند إلى العقل، وتعتمد على البرهان (فيما يدركه العقل أمَّا ما كان فوق مدرج العقل الإنساني فإنَّ معرفته عن طريق الوحي)، قال تعالى للمشركين: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3]، ويقيم الأدلة على الوحدانية بمثل قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[4]. ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا

---

(١) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ص ٣٥، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ، عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية...، الرياض.

(٢) سورة آل عمران: الآية (٦٤).

(٣) سورة النمل: الآية (٦٤).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٢٢).

لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1]، فالتوحيد في حد ذاته قضية واضحة في ضمير كل مسلم، ودليلها أيضًا واضح في فكره، كما أن أثرها كذلك واضح في حياته)[2].

كذلك مايتعلق بالنظرة للحياة الآخرة، والإيمان بالوحي والرسالات وعالم الغيب فكل ذلك يعتقده المسلم وفقًا لما جاء به الرسول ﷺ وما علمَ به أمته، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3]،

قال بعض المفسرون: (وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنَّه لايتميز بها المسلم من الكافر، إنَّما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنَّما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يُمَيَّزُ به المسلمُ من الكافر؛ لأنَّه تصديق مجرد لله ورسوله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه

(١) سورة المؤمنون: الآية (٩١).

(٢) انظر: يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام: ص ١٨٧، ١٨٨، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، عن مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٣) سورة البقرة: الآيات ١ - ٥.

عقله وفهمه بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبيَّة؛ لأنَّ عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدي الله)[(١)].

ويندرج تحت الإيمان بالغيب الإيمان بالملائكة والرسل والكتب السماويَّة واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر و (بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة (وأهوالها ومشاهدها) وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها)[(٢)]، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[(٤)].

وفي حديث جبريل عليه السلام، قال الرسول ﷺ في جوابه عن الإيمان: «أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث»[(٥)]، وعن

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن..: ٤١/١ (مرجع سابق).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن..: ٤٢/١ (المرجع السابق نفسه).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٧٧).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٨٥).

(٥) أخرجه البخاري: صحيح البخاري، ١٨/١، كتاب الإيمان، بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (مرجع سابق).

علي ﷺ قال: (كنا جلوساً مع النبي ﷺ ومعه عود ينكت في الأرض، وقال: «ما منكم من أحد إلاّ قد كتب مقعده من النّار أو من الجنّة» فقال رجل من القوم: ألا نتكل يارسول الله، قال: «لا. اعملوا فكل ميسر» ثُمَّ قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾[1]،[2].

والشاهد من هذا كله أنَّ عقيدة الإسلام التي يقوم عليها تميز الأُمَّة الإسلاميَّة عقيدة واضحة بينة لا غموض فيها ولا لبس تنبع من الفطرة التي فطر الله الناس عليها وأشهدهم على أنفسهم، وتعاقبت رسل الله تترا لتوضح هذه العقيدة وتعيد الناس لجادتها وتعلمهم حقائقها ومقتضياتها بغاية اليسر والوضوح، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[5].

(هذا الوضوح المشرق في العقيدة بالنظر إلى الأنبياء عامّة، وإلى محمد ﷺ خاصَّة، يقابله غموض مطبق في العقائد الأخرى، وأبرزها المسيحيَّة التي لم يتضح لأتباعها حقيقة المسيح: ما هي؟ حتى إنّهم

---

(١) سورة الليل: الآية (٥).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري، ٢٢٢/٧، كتاب القدر، (المرجع السابق نفسه).

(٣) سورة فاطر: الآية (٢٤).

(٤) سورة المؤمنون: الآية (٤٤).

(٥) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

عقدوا المجامع تلو المجامع للبحث في طبيعة المسيح ما هي؟ أهو إله؟ أم ابن إله؟ أم بشر خالص؟ أم بشر حلَّ فيه الإله؟ أم جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله: هي الأب، والابن، والروح القدس؟ والروح القدس نفسه اختلفوا فيه ما هو، وما علاقته بالأقنومين الآخرين؟ وأم المسيح التي ولدته ما هي أيضًا؟ وما نصيبها من اللاهوت والناسوت أو الإلهية والبشرية؟)[1].

حدث هذا الغموض في المسيحية عندما تأثرت بالأمم الأخرى المجاورة لها وفقدت تميُّزَها المتمثل في العقيدة الحقة التي جاء بها عيسى عليه السلام من عند الله[2].

جـ - استقلال منهجها في الاستدلال عن الطرائق الفلسفيَّة:

تعتمد الفلسفة في استدلالها على قضايا الوجود على اصطلاحات فلسفية لاتصلح إلاَّ لنخبة من العلماء الذين درسوها وحصلوا علومها، ومع ذلك فإنَّ هذا الضرب من الفكر يخالطه الشك والارتياب ويقبل الرفض والطعن[3]، وعن هذا قال الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل: (صحيح أن المتكلمين قد اخترعوا أدلة يُمكن أن يقال عنها إنها منطقية،

---

(١) يوسف القرضاوي: الخصائص العامَّة للإسلام: ص ١٩٠، (المرجع السابق نفسه).

(٢) لمزيد من الاطلاع على الغموض الذي دخل في العقائد الأخرى غير العقيدة الإسلاميَّة، وأفقد تلك العقائد تميُّزَها. انظر: علي عبدالحليم محمود: مع العقيدة والحركة والمنهج في خير أمَّة أخرجت للناس: ص ٤٩ - ٥٢، (مرجع سابق)، وانظر: محمد عبدالله دراز: الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان): ص ٦٧، (مرجع سابق).

(٣) انظر: عبدالستار فتح الله سعيد: نظرات في الاستدلال القرآني، مقال مدرج في مجلة كلية أصول الدين، الصادرة عن كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة - الرياض، ١٣٩٩ هـ - ١٤٠٠ هـ: ص ٢٦.

ومثبتة لوجود الله، وهذه الأدلة وما شابهها قد أقرها الفلاسفة الكبار، ولكن المنطق الذي تستند عليه هذه الأدلة هو منطق أرسطو، الذي قد رفضه - عمليًا - كل علماء المنطق باستثناء رجال الدين)[١].

أمَّا منهج العقيدة الإسلاميَّة في الاستدلال على قضايا الكون والحياة والإنسان وعلاقة ذلك بموجد الوجود كله فإنّه يقوم على أدلة سهلة المأخذ ميسورة لجميع الناس، ولعل هذه الخصيصة كانت السبب في زعم بعض المفكرين (بأن القرآن يصلح... للعامة، والفلسفة تصلح للخاصة من الناس)[٢]، أو كما قيل: (الديانة هي فلسفة الشعوب والجماهير... والفلسفة هي ديانة الأفذاذ الممتازين)[٣].

وقد قام أحد الباحثين بدراسة أنواع الأدلة في القرآن الكريم وقسمها على النحو الآتي:

١ - أدلة كونية.

٢ - أدلة نفسية.

٣ - أدلة عقلية[٤].

فالأدلة الكونية: تعنى بالنظر في الكائنات للتدليل (على وجود الله تعالى ووحدانيته، وسعة قدرته، وعظيم حكمته، وعلى يسر البعث عليه عز شأنه... وقد اتخذ هذا الاستدلال كل زوايا الكائنات وجهة له، كوجود الكون بعد العدم، وسعة هذا الوجود، وعظمته، وعجائبه، وكانتظامه على قوانين مطردة، ونواميس محكمة، وابتنائه على الحكمة

---

(١) نقلاً عن المرجع السابق نفسه: ص ٢٧.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٢٦.

(٣) محمد عبدالله دراز: الدين..: ص ٦٦، (المرجع السابق نفسه).

(٤) انظر: عبدالستَّار فتح الله سعيد: نظرات في الاستدلال القرآني..: ص ٢٠ - ٢٥، (المرجع السابق نفسه).

وحسن التدبير، والتكامل العجيب بين أجزائه، والعناية بكل أحيائه، عناية تبلغ غاية الإعجاز... وفي كل هذا يتجه القرآن إلى عقل الإنسان وفكره، ووجدانه وحسه، وإلى تجاربه وملاحظاته، وعلومه ومعارفه، بل يتجه إلى مشاهداته العادية المبنيَّة على الحس، لينتقل من ملاحظاتها في أوضاعها المختلفة إلى ما وراءها، وليدرك من هذه المقومات البدهيَّة، نتائجها الجازمة فيدور الدليل بين البصر والنظر، والسمع والفكر... وهذا اللون على سهولته أقوى أنواع الأدلة، وأقربها إلى النفوس والإقناع، والجزم واليقين، لدلالته على المطلوب بذاته، ومن أقصر سبيل، حيث يعتمد على المسلمات البدهيّة المحسوسة أو المعقولة، بخلاف أدلة المتفلسفين، التي تدل على المطلوب دلالة ناقصة، وتحتاج مقدماتها غالبًا إلى برهنة، ودليل ثالث خارج عنها، كاستدلالهم بحدوث العالم على أنّ له محدثًا، لكن من هو؟! فهذا يحتاج إلى دليل آخر خارج عن علومهم ومعارفهم، فضلاً عن معرفة صفات هذا الموجد وحقوقه سبحانه وتعالى، بل قد تحتاج النتيجة ذاتها إلى استدلال عليها)[1].

والأدلة النفسية: (تثير الجانب النفسي في الإنسان، ليتأمل من داخله، ويستدل بشعوره، وليتواءم مع هذه الفطرة المنقدحة في حناياه، بأن هذا الكون حق، وأن وراءه حكمة وقصدًا عظيمًا، وهذه الأدلة بالغة الأهمية للإنسان، وفي قضية الإيمان بالذات، التي لاتعتمد على مجرد المعرفة العقليَّة، وإنَّما لابُدَّ أن تتشابك فيها عناصر هذا الكيان الإنساني البديع، لتستقر وتأنس، وتنفعل وتتحرك... وماذا تغني المعارف والحواس إذا كان وراءها قلب خرب لايتجاوب مع ما يحفل به هذا الكون من

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٠.

جمال وجلال وإبداع يدل على عظمة صانعه ومبدعه جلَّ شأنه)[1].

والأدلة العقليَّة: (تقوم على عمليات فكريَّة، كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها، حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحس، ومشاعر النفس، وإن كان الإدراك في الجميع راجع إلى النقل، والأدلة العقليَّة أوسع مدى من أشكال المنطق اليوناني، وضروبه، لذلك لم يتقيد القرآن الكريم به، وإنَّما جاء على نمط خاص في الاستدلال العقلي، واستخرج منه العلماء أنواعًا كثيرة... ولايزال القرآن الكريم حمالا لمزيد من الأوجه، التي يتسع لها العقل البشري الفاحص المتأمل... وهو كما بذَّ طرق العرب رغم نزوله بلغتهم، فهو كذلك يبذ طرق الفلاسفة وأصحاب المنطق اليوناني وأضرابهم، وقد حاول أقوام من المتفلسفين والمتكلمين المسلمين، أن ينزلوا الأدلة القرآنية على طرائق الفكر البشري، وموازينه في المنطق الأرسطي، وهذه المحاولة حبس للأدلة القرآنية في نطاق آخر محلي محدود، تخبو فيه أنوار الفطرة الإنسانية وراء الحدود والقيود، ولايسلم في كل حال من الخلل والعلل)[2].

وإذا كانت الطرائق الفلسفية قد أودت بأصحابها في كثير من الأحوال إلى الشك والجدل العقيم والحيرة وربَّما إلى الإلحاد فإنّ منهج العقيدة الإسلاميَّة في الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وفي رؤيتها للكون والحياة والنفس الإنسانية قد أثارت (كوامن النفس العربية، وبعثت العرب إلى الإيمان واليقين، وأقنعتهم إقناعًا أخرجهم من ديارهم

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢١.

(٢) عبدالستار فتح الله سعيد: نظرات في الاستدلال القرآني..: ص ٢٦، (المرجع السابق نفسه).

وأموالهم... دفاعًا عن هذا الحق الذي آمنوا به، واستخراجًا للناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، ولاتزال آثاره، ودلائله حيَّة نابضة...)[1].

وبناء على ذلك فإنَّ هذه العقيدة الفذَّة مقومٌ أساس من مقومات تميز الأُمَّة الإسلاميَّة.

د- الانضباط وملازمة الحق والانتصار له:

ومن خصائص العقيدة الإسلاميَّة أنَّها عقيدة منضبطة بضوابط شرعيَّة وقيود أخلاقيَّة ملازمة للحق ومناصرة له، فقد أثبتت الدراسات الاجتماعية بأنَّ العقيدة (تعد الموجه الأساس لسلوك الفرد، حيث تتحول إلى موجِّهَات قيمية Valueorientations تترجم إلى واقع سلوكي، فالمعتقدات هي التي تحكم وتصبغ وتحدد القيم، وهذه الأخيرة هي التي تحدد مسارات السلوك وتضبطه وتحكمه وتوجهه)[2].

ومِمَّا يؤكد ذلك ويشهد به ما يلاحظ في واقع البشر وتاريخ الإنسان من (إقدام أصحاب العقيدة إلى التضحية بأنفسهم في سبيل عقيدتهم - سواء أكانت عقيدة صحيحة أم فاسدة)[3]، وقد تخرج هذه التضحية من دائرة العرف والمألوف لتصبح نوعًا من الفوضى والهمجيَّة والحماسة الطائشة كالذي تفعله (بعض فرق البوذية في جنوب شرق آسيا (حيث تقدم) على الانتحار الجماعي بالحرق، تنفيذًا لبعض تعاليم البوذيَّة)[4]، بيد أنَّ العقيدة الإسلاميَّة وهي عقيدة الفطرة والعقل

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٦. وانظر: أثر العقيدة في الأُمَّة الإسلاميَّة في الصفحات التالية.

(٢) نبيل السمالوطي: بناء المجتمع الإسلامي ونظمه..: ص ٢٣، (مرجع سابق).

(٣) نبيل السمالوطي: ص ٢٥، (المرجع السابق نفسه).

(٤) نبيل السمالوطي: بناء المجتمع الإسلامي ونظمه..: ص ٢٥، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمد كمال جعفر: الإنسان والأديان: ص ٣٩، (مرجع سابق).

والحق والفضيلة والخير والمعروف تتسم بالانضباط وملازمة الحق ومناصرته، وإذا كان الجهاد في سبيل الله وهو ذروة سنام الإسلام من أعظم الأدلة على فاعليَّة العقيدة الإسلاميَّة، حيث يقدم المسلم على الاستشهاد في سبيل الله ويستعذب الموت دفاعًا عن دينه[1]، فإنَّ لذلك ضوابط شرعيَّة تفرضها عقيدة الإسلام على الأُمَّة الإسلاميَّة، وقد أثبت التاريخ التزام الأُمَّة الإسلاميَّة في مجمل تاريخها بتلك الضوابط.

وعلى سبيل المثال فإنَّ قتال الكفار في الفتوحات الإسلاميَّة كان آخر ما تلجأ إليه الأُمَّة بعد الدعوة إلى الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، فإذا لم يتحقق ذلك وأصبح القتال هو الحل الوحيد، فإنَّه مقيد أيضًا بأخلاقيات إنسانية سامية شهد بها المنصفون وسجلها التاريخ، من مثل قول (بيجي رودريك): (قوانين الحرب في الإسلام تعتبر أكثر القوانين إنسانيَّة ورأفة، فهي تضمن السلامة التامَّة للنساء والولدان والشيوخ وجميع غير المحاربين فليس هناك في نظر الإسلام أبشع من جريمة قصف المستشفيات والمدارس وأماكن العبادة ومساكن المدنيين في المنطقة المعادية، وإنَّما يجعل الإسلام لهذه المرافق الإنسانية قدسيتها ويحذر من المساس بها، فهذه الوصيَّة التي كان يوصي بها الرسول ﷺ قادة المسلمين، وكذلك كان موقف الخلفاء الراشدين من بعده (رضي الله عنهم) بل لقد ظلت هذه سمة بارزة في جميع الحروب الإسلاميَّة على مرّ العصور)[2].

إنَّ ما تتسم به العقيدة الإسلاميَّة من أخــلاق وانضباط راجــع

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٥.

(٢) نقلاً عن عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٢٢٨، (مرجع سابق).

إلى مصادرها الأصلية، كتاب الله وسنة المصطفى ﷺ قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1]، والشاهد من هذه الآية أنّها حددت ضوابط القتال بـ (أن يكون القتال في سبيل الله أي لنصرة الحق لا في نزوات شخصية أو عنصريَّة... وأن يكون مقصورًا على من يقاتل المسلمين... وأن لايكون اعتداءً وتجاوزًا.. كقتل الشيوخ والنساء والذريَّة والضعفاء والرهبان المعتزلين في خلواتهم أو بيوتهم، والترهيب من الاعتداء بعد النهي عنه، بأن الله لايحب المعتدين)[2].

ومن السنَّة المطهرة تلك الوصايا الخالدة عن الرسول ﷺ لأمراء جيوشه إذ كان يوصيهم بوصايا متنوعة منها:

- قوله ﷺ: «اغزوا جميعًا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، ولاتغلوا، ولاتغدروا، ولاتمثلوا، ولاتقتلوا وليدًا، فهذا عهد رسول الله منتشر فيكم»[3].

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٠).

(٢) عبدالعظيم بن إبراهيم محمد المطعني: سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية (منهاجًا... وسيرة): ص ١٥٤، عن مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣ م. وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢/٢٣٢، ٢٣٣، (مرجع سابق)، ولمزيدٍ من الاطلاع على ضوابط العقيدة الإسلاميَّة في حالة السلم والحرب وقبل القتال وفي أثنائه وبعده. انظر: المطعني: سماحة الإسلام..: ص ١٥٤ - ١٦٠، (المرجع السابق نفسه).

(٣) مجمع الزوائد: ٥/١٢٠، (مرجع سابق)، وانظر: البداية والنهاية: ٥/٢٢٠، الطبعة الأولى، ١٩٦٦ م، مكتبة المعارف، بيروت، وانظر: محمد بن يوسف الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: ٩/١٠٨، ١١٨، ١١٩، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣ م، عن دار الكتب العلمية - بيروت.

- وقوله ﷺ: «من قتل صغيرًا أو حرق نخلاً أو قطع شجرة مثمرة، أو ذبح شاة لإهابها لم يرجع كفافا»[(١)].

- وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «نهى عن قتل النساء والصبيان»[(٢)].

- وروى الإمام أحمد وابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه، قال: «اخرجوا باسم الله فقاتلوا في سبيل الله، من كفر بالله ولاتغدروا ولاتغلوا ولاتمثلوا ولاتقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »[(٣)].

وسار الخلفاء الراشدون على هدي الرسول ﷺ ومن بعدهم سلف الأُمَّة الصالح واستمرت الأُمَّة الإسلاميَّة في تاريخها القديم والحديث منضبطة بضوابط هذه العقيدة ولم يند عن هذا المسار إلا حالات نادرة وشاذَّة، رُبَّمَا أظهرت معالجة المسلمين لآثارها: قيمة العدل والإحسان، التي تميَّزت بها الأُمَّة الإسلاميَّة في سيادتها على غيرها من الأمم، وأعني بذلك - كمثال - حادثة فتح (سمرقند) حينما فتحها المسلمون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٧٦/٥ حديث رقم: (٢١٨٦٣)، ترتيب: دار إحياء التراث العربي، (مرجع سابق)، وانظر: مجمع الزوائد ٣١٧/٥، (مرجع سابق)، وانظر: محمد بن يوسف الصالحي الشامي: المرجع السابق نفسه: ص ١١٩.

(٢) صحيح البخاري: ١٠٩٨/٣ (ترتيب مصطفى ديب البغا) رقم الحديث [٢٨٥٢]، (مرجع سابق)، وصحيح مسلم: ١٤٤٤/٣ الحديث رقم [١٨١٢]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) مسند الإمام أحمد: ٤٦١/٤، الموسوعة الحديثية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤، عن مؤسسة الرسالة - بيروت، وفي حاشية الصفحة ٤٦١ و ٤٦٢ دراسة شاملة لطرق هذه الرواية ومثيلاتها والحكم على سندها.

- كما تذكر المراجع التاريخيَّة - دون تخيير أهلها في (الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو القتال) وما إنْ رفع أهل سمرقند أمرهم إلى خليفة المسلمين حتى أوكل ذلك لأحد قضاة المسلمين فحكم بالآتي:

أولاً: خروج المسلمين من سمرقند.

ثانيًا: دفع تعويضات من خزانة الدولة الإسلاميَّة لأهل (سمرقند) مقابلٍ ما نزل بهم من أضرار من جراء دخول المسلمين بلادهم دخولاً مخالفًا لمنهج الدعوة.

ثالثًا: تماد دعوتهم إلى الإسلام فإن أبو خُيِّرُوا بين الصلح وبين القتال.

ولكن أهل (سمرقند) تنازلوا عن شكواهم بعدما لمسوا من الروح الطيبة والخلق الكريم، والسلوك الجميل من المسلمين الفاتحين)[1].

وإذا كانت هذه الضوابط التي ضبطت بها العقيدة الإسلاميَّة تحجبها عن إيذاء الآخرين، وعن الإفساد في الأرض وعن إهلاك الحرث والنسل حيثما يبلغ بها الاندفاع أقصاه ممثلاً في قتال الكُفّار، فإنَّ هناك ضوابط أخرى تكفل المحافظة على الفرد نفسه داخل كيان الأُمَّة الإسلاميَّة، قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى

(١) المطعني: سماحة الإسلام...: ص ١٥٨، ١٥٩، (مرجع سابق)، وانظر: الكامل لابن الأثير، ٦٠/٥، ٦١، طبعة دار صادر، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م، بيروت، وانظر: البلاذري: فتوح البلدان: ص ٤١١، تحقيق: رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتب العلمية، ١٤١٢ هـ- ١٩٩١م، بيروت، وانظر: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلاميَّة: محمد الخضري:١٨١/١، الطبعة الثامنة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٨٢ هـ.

ٱلتَّهۡلُكَةِ ۛ وَأَحۡسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1]، قال بعض المفسرين: (والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: لترك ما أمر الله به العبد، إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة... ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة، أو سفر مخوف، أو محل مسبعة (أرض يكثر فيها السباع) أو حيَّات، أو يصعد شجرًا، أو بنيانًا خطرًا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر ونحو ذلك)[2].

وينطبق ذلك على الأُمَّة الإسلاميَّة حيث جاء الأمر في الآية بصيغة الجمع.

وبهذه الخصيصة يتضح أن العقيدة الإسلاميَّة ليست (موجة عاطفة تهز القلوب وتثير المشاعر فحسب بل هي قوة عقليَّة ووجدانية معًا)[3] تُسَلِّمُ قيادها لله رب العالمين في جميع ما تأتي وتذر، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[4].

ويطول البحث في الإحاطة بخصائص العقيدة الإسلاميَّة، وحسب الباحث أن تناول منها ما يبرز تميز الأُمَّة الإسلاميَّة في الجوانب العقدية المتصلة به[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٥).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن..: ١/٢٣٦ - ٢٣٧، (مرجع سابق).

(٣) عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٣٥٩، (مرجع سابق).

(٤) سورة الأنعام: الآيتان (١٦٢، ١٦٣).

(٥) لمزيد من الاطلاع على خصائص العقيدة الإسلاميَّة؛ انظر: =

٢ - أثر العقيدة الإسلاميَّة في الأمة الإسلاميَّة:

إنَّ للخصائص التي سبق بحثها أثرًا عميقًا في الأُمَّة الإسلاميَّة حيث حدَّدت هويتها عبر تاريخ البشرية: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[1]، فالأمة الإسلاميَّة منذ وجدت (تشترك في تصور واحد للوجود والكون، فقد ثبت في عقولها ونفوسها أنَّ لهذا الكون الرحب العظيم خالقًا واحدًا حكيمًا قديرًا، وأن الإنسان أحد مخلوقات الله وأكرمها، وأن هذا الإنسان مخلوق لله وعبد لله، وهو في الوقت نفسه ذو سلطان على هذا الكون الذي سخَّره الله له، وذلك كما ينص القرآن الكريم، وأن للإنسان حياتين: الأولى: للعمل وتحمل أعباء الأمانة، والثانية: للجزاء وتحمل نتائج المسئولية، وأنَّه يصل إلى الحقائق الحسيَّة بما وهبه الله من هبات البصر والسمع والحواس والعقل، وإلى الحقائق غير الماديَّة بهداية الرسل، وخاتمهم هو محمد بن عبدالله ﷺ، ورسالته خاتمة الرسالات وأعمها وأبقاها، وقد أنزل الله عليه كتابًا خالدًا محفوظًا، تضمن هذه الرسالة، وهو القرآن الكريم، وهو عليه الصلاة والسلام المكلف بتبليغه وتبيينه للناس وتفصيله فيما اصطلح على

= - عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلامية: ص ٣٥٨ - ٣٧٤، (المرجع السابق نفسه).

- عثمان جمعة ضميرية: مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة: ص ٣٨٣ - ٣٩٤، (مرجع سابق).

- محسن عبدالحميد: الإسلام والتنمية الاجتماعية: ص ٢٨ - ٣١، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، عن دار المنار - جدة.

(١) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

تسميته (بالسنة)، هذه العقيدة التي توجز في عبارة جامعة هي (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله)، عميقة الأثر في نفوس المؤمنين بها، ويتفرع عن هذه العقيدة مبادئ ومفاهيم وأفكار وعواطف، وتتولد عنها نتائج مهمة كان ولايزال لها أثر في مجرى تاريخ هذه الشعوب وفي حياتها، تتجلى هذه العقيدة وتلك المبادئ في أبسط مظاهر الحياة الاجتماعية، في السلام والتحيَّة، وفي مناسبات الحياة من ولادة وموت، وانتصار وهزيمة، وتتجلى في ألوان من الشعور أصبحت في حياة المسلمين أشبه بالغرائز، كالشعور بالمساواة بين العروق والألوان، وفقدان التمييز العنصري في ضمير هذه الشعوب، مِمَّا لا... نظير (له) في الشعوب التي تعد اليوم أرقى الشعوب، إنَّ تعبيرات بني آدم وآدمي وإنسان وناس أصبحت تعبيرات أساسيَّة ورائجة عند المسلمين جميعًا وهي تصور هذا الشعور بوحدة الإنسانية)[١].

ويُمكن رصد بعض آثار العقيدة في الأمَّة الإسلاميَّة في الآتي:

أ - حررت العقول والنفوس من الخرافات والأوهام والمخاوف ومسببات الذل والهوان بما غرست في النفوس من (قناعات أكيدة في أن النافع والضار والمحيي والمميت هو الله تعالى، وبذلك فهي تمنع الإنسان عن كل ما فيه استعانة ولجوء إلى غير الله)[٢]، أو خوف أو ذل أو رهبة يفضي لصرف نوعٍ من العبادة لغير الله، و (الله وحده الخالق الذي يسمو في عظمته وفي وجوده فوق مستوى البشر، والناس كلهم بالنسبة إليه مخلوقاته وعباده، فكلهم على ما بينهم من تفاوت في الذكاء والعلم والغنى والنسب والعرق متساوون في طبيعة خلقهم، متساوون بالنسبة إلى

---

(١) محمد المبارك: المجتمع الإسلامي المعاصر: ص ٢٧، ٢٨، (مرجع سابق).

(٢) صالح ذياب هندي: دراسات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٥٨، (مرجع سابق).

عظمة الله... وقد أورد القرآن فرعون مثالاً للبشر المتأله على الناس بتعاظمه واستبداده ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[1] يفرض على الناس آراءه، وتوجيهاته فرضًا ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[2] وكانت عاقبة أمره الهلاك)[3].

ومن هذا المثل - وغيره كثير في كتاب الله عزوجل - تحرر الناس من كل ولاء لغير الله ومن الخوف ممن يدعو الناس لعبادته من دون الله واتجهت قلوبهم وعقولهم إلى فاطرهم ورازقهم وناصرهم لايخافون غيره ولايرجون سواه، فأصبحت الأُمَّة الإسلاميَّة بذلك أُمَّة فاعلة (غيرت مجرى التاريخ وبدلت معالم الحضارة وأحدثت في حياة الإنسانية الاجتماعية والفكريَّة انقلابات رائعة، ونشرت مفاهيم جديدة للحياة، وأقامت على أساسها حضارة إنسانية رائعة كان القرآن دستورها والعربية لغتها، ومبادئ المساواة والعدل والإنسانية أساسها. ذلك أن الإسلام أبرز في الإنسان صفة الإنسانية أولا وقبل كل شيء، وجعل مكان الإنسان في هذا الكون هو مكان المخلوق المكرم من مخلوقات الله، وتلك الصفة المشرفة التي تتجلى فيها خصائصه الكريمة ومزاياه الأصلية هو كونه عبدًا لله)[4].

ب - أقامت كيان الأُمَّة الإسلاميَّة على أساس حقق لها الوحدة

---

(١) سورة القصص: الآية (٣٨).

(٢) سورة غافر: الآية (٢٩).

(٣) محمد المبارك: نحو إنسانية سعيدة: ص ٧٩، ٨٠، عن دار الفكر، بدون تاريخ.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٧٤.

الشاملة، وهو التوحيد الخالص لله - عزوجل - (فالرب واحد، والرسول واحد والرسالة واحدة، والقبلة واحدة، واللغة واحدة، والأهداف والآمال واحدة فلابُدَّ معها أن تكون الأُمَّة واحدة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[١]، والتوحيد في الاعتقاد يؤدي إلى تجانس مشاعر الأفراد، مِمَّا يجعلهم قوة متماسكة متضافرة متكافلة)[٢].

وهذا ما أطلق عليه (ستودارد) (الجامعة الإسلاميَّة) إذ قال: (الجامعة الإسلاميَّة بمعناها الشامل ومفهومها العام إنَّما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها في جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي، وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة ﷺ أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتف حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعصبة الإسلام لقتال المشركين، وقد أدرك محمد ﷺ خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الإدراك، وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن.. فغرس غريستها بيديه في نفوسهم، فنمت وتغلغلت وامتدت جذورها وبسقت أغصانها.. فقد كرَّ عليها أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الإسلاميَّة جانبًا ولا ضعضع لها كيانًا، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت شدَّة وقوة ومنعة واعتزازًا. حقًا أن الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني.. ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

(٢) صالح ذياب هندي: دراسات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٦١، (مرجع سابق).

الإسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر إلى حال المسلمين اليوم وإلى تيار هذا التعاطف والتشاكي يعلم سرّ الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين وفي الواقع، ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامَّة والاستمساك بعروتها كدين الإسلام)[1].

وهذا الرابط أو المرتكز للجامعة الإسلاميَّة لايرفض جنسًا من البشر أو يحرم فئة من الناس من الانتساب إليه في هذه الوحدة الشاملة لجميع البشر كما هو الشأن في الروابط الأخرى من القوميات ونحوها التي مزَّقت بني الإنسان وجعلت مشاعرهم متنافرة، وولاءاتهم متناقضة وبالتالي تشتتوا وتناجزوا وربَّما تناحروا، وإنَّما ألَّفت عقيدة التوحيد مجتمعًا عالميًّا يضم جميع الأجناس ويتسع لكل الأعراق ويقبل جميع الألوان البشرية مهما اختلفت ديارهم وأعراقهم وأجناسهم طالما كانت عقيدة التوحيد مرتكزهم الأساس، وبهذا تميزت الأُمَّة الإسلاميَّة دون سائر الأمم الأخرى.

جـ - نظمَت العقيدة حياة الأُمَّة الإسلاميَّة تنظيمًا شاملاً وأوجدت مجتمعات يسودها العدل والإنصاف في علاقاتها وروابطها وتتسم بالإحسان في معاملاتها لما يتصف به أفراد المسلمين من صفات تحلوا بها إجابة لهدي تلك العقيدة منها:

- الصدق في القول والفعل والأخذ والعطاء، والإخلاص في ذلك كله.
- البعد عن الظلم والغدر والخيانة وأنانيات النفوس وشهواتها وأهوائها.

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، ١/٢٨٧، ٢٨٨، (مرجع سابق). وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ١٩٢، (مرجع سابق).

- الانضباط والشعور بالمسئولية والمحاسبة على ما يأتي الفرد ويذر، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1].

قال بعض المفسرين: (كان بالمدينة رجلان أحدهما لايبالي عن الصغائر يرتكبها، وكان الآخر يريد أن يتصدق فلايجد إلا اليسير فيستحيي من الصدقة فنزلت الآية فيهما)[2].

- صفاء النفس وسلامتها من الأحقاد والضغائن والغل ونحو ذلك من النقائص التي تلوث حياة الناس وتكدر عيشهم.
- سمو الفكر وتحرره من الضلال والخرافة والجهل وإعطاؤه المجال الأرحب ليفكر ويبدع ويعي ما حوله دون حجر أو تعويق[3].

ومن مجموع أفراد الأمَّة ومن خلال هذه الصفات وما يلحق بها من الفضائل ومكارم الأخلاق وعلو الهمَّة والشعور بالعزّة والكرامة والثقة في الله الرازق القادر المعز المذل الواهب اللطيف الخبير تكونت الأُمَّة المتميزة القادرة على العطاء القويَّة في بنائها المتماسكة في نظامها، و(هذه الميزات التي يتصف بها مجتمع العقيدة النظيف المستقيم، تفتقر

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان (٧، ٨).

(٢) ابن عطية: المحرر الوجيز.. ٥/٥١٢، (مرجع سابق).

(٣) انظر: صالح ذياب هندي: دراسات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٥٩، (مرجع سابق)، وانظر: عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلامية: ص ٣٥٩، (مرجع سابق)، وانظر: محسن عبدالحميد: الإسلام والتنمية الاجتماعية: ص ٣١، (مرجع سابق)، وانظر: نشأة ظبيان: العالم المتفوق (منهج سلوكي متكامل، انتفت فيه الأثرة وتجلت كرامة الإنسان): ص ٦٣ - ٩٠، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، عن دار العلوم..، الرياض.

إليها المجتمعات الأُخرى، مجتمعات الغاب التي يسودها المخلب والناب، وتكون فيها العلاقات كما بين ابن آوى والأسد... فهي مجتمعات سوء التوزيع والكبت والحرمان والقمع والإرهاب والخوف والانحلال النفسي والخلقي والقلق العصبي والتوتر النفسي والشذوذ... والجريمة المنظمة بكل ما تحمله من معنى)[1].

د - جعلتها قادرة على الفعل وإيجابيته السريعة، وللمثال على هذا الأثر العميق، أورد ما ذكره أحد الباحثين من مقارنة بين تأثير العقيدة الإسلاميَّة على الأُمَّة الإسلاميَّة في تحريم الخمر، وبين القوانين الوضعية، مستشهداً برأي (توينبي)، وخلاصته: (إن أحد عوامل إعجابه بقدرة الإسلام الفذَّة على الفعل والتغيير هو تمكنه من تخليص أُمَّة بأسرها من ظاهرة تعاطي الخمر، تلك الظاهرة التي تمتد جذورها آلاف السنين، وهو ما لم يستطع قانون أو دين أو نظام أن يفعله كما فعله الإسلام)[2].

وفي سياق هذه المقارنة قال الباحث - أيضًا -: (أقرأتم عن المعجزة نفسها كيف تحققت؟، ثلاث آيات من القرآن فحسب تحسم الموقف لصالح الإنسان... لا أطنان من الأوراق... ولا مئات الملايين من الدنانير... ولا عشرات الألوف من المعتقلين... ولا مئات من المؤشرات الإحصائية والبيانات العلمية والمنحنيات !!. ثلاث آيات من القرآن فحسب.. والمفتاح يكمن في العقيدة.. لقد أعطى الإسلام أتباعه عقيدة

---

(١) صالح ذياب هندي: دراسات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٦٢، (المرجع السابق نفسه).

(٢) عماد الدين خليل: مؤشرات إسلاميَّة في زمن السرعة: ص ١٨، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م، عن مؤسسة الرسالة - بيروت.

جادَّة تغلغلت في عقولهم وشرايينهم، حتى أصبحت الهواء الذي يتنفسون والدم الذي يجري في العروق.. وحينذاك كان بمقدور الرسول عليه السلام وهو يتلقى أمر الله، أن يقول للمسلمين: (إنَّ الله يأمركم أن تكفوا عن شرب الخمر)(١).. ويومها فقط شوهدت دِنَانُ الخمر وهي تكسَّر.. والصهباء وهي تنساب على الأرض مختلطة بترابها ووحلها.. وشوهد بعض من دخل الخمر جوفه قبل دقائق أو ساعات يسعى جاهدًا إلى تفريغ جوفه من الدنس... لكي يتطهر كما أراد الله له أن يكون... ومرة أخرى.. العقيدة أولاً.. وبدونها.. فإنَّ ألفًا من محاولات الإحصاء لن تفعل سوى أن تصف الظواهر وتصنفها.. أمَّا الناس فإنَّهم سيظلون – في الطرف الآخر – ليسوا سعداء !!)(٢).

---

(١) الآيات الثلاث التي تدرجت في تحريم الخمر هي:

- قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الآية (٢١٩) من سورة البقرة].
- وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[الآية (٤٣) من سورة النساء].
- وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الآية (٩٠) من سورة المائدة].

وانظر ما أورده ابن كثير في تفسيرها: تفسير القرآن العظيم ٩٢/٢ – ٩٧، (مرجع سابق)، حيث اشتمل على تطبيقات السلف رضوان الله عليهم وسرعة إجابتهم لأمر الله وأمر رسوله ﷺ بما لم يشهد له التاريخ مثيلاً.

(٢) عماد الدين خليل: مؤشرات إسلامية..: ص ١٨، ١٩ وما قبلهما: ص ١٤ – ١٧، (المرجع السابق نفسه).

وما يقال عن سرعة إجابة الأُمَّة الإسلاميَّة في الكف عن تعاطي الخمر يقال في أمور كثيرة كالحجاب والنفور للجهاد وسائر المأمورات والمنهيات، فما إنْ يصدر الأمر أو النهي حتَّى تبادر الأُمَّة الإسلاميَّة في الاستجابة تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[1]، قال بعض المفسرين في ذلك: (يأمر تعالى، عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان منهم، وهو: الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمرا به، والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه، والنهي عنه)[2].

إذن فعقيدة الأُمَّة الإسلاميَّة عقيدة مثمرة في واقع الحياة؛ لأنها (ماثلة في الذهن، حاضرة في النفس، حيَّة في القلب، تنبض بها العروق وتتحرك بها الإرادة والجوارح)[3]، أمَّا غيرها من العقائد الفلسفية فإنها (نظرية في الفكر وفلسفة يقلبها العقل بين يديه ويناقشها ثم يقبلها)[4]، وتبقى (آراء يتلهى العقل بمناقشتها)[5]، وليس لها أثرٌ

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن.. ٣/١٥٦، (مرجع سابق).

(٣) محمد المبارك: نحو إنسانية سعيدة: ص ٧٣، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٧٤.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ٧٣، ٧٤. ولمزيد من الاطلاع على أثر العقيدة الإسلاميَّة في مجرى تاريخ البشرية بعامَّة وفضلها على الإنسانية. انظر: أبو الحسن علي الحسني الندوي: الإسلام (أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية): ص ٤١ – ٥٤، طبعة دار المنار،=

ملموس في واقع الحياة إلاَّ من الناحية السلبيَّة، (فهل نفعت نظريات أريسطو وآراء أفلاطون، وهل غيَّرت شيئًا كثيرًا من معالم مجتمعه فضلاً عن حياة البشر والحضارة الإنسانية)[1].

***

-الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م - جدة.

(١) محمد المبارك: نحو إنسانية سعيدة: ص ٧٣، (المرجع السابق نفسه).

المطلب الثاني

موقف المستشرقين من العقيدة الإسلاميَّة

توافر عددٌ من المستشرقين على دراسة العقيدة الإسلاميَّة من خلال دراسة القرآن الكريم والسنّة النبوية والسيرة والتاريخ الإسلامي، وزعموا (عدم أصالة الإسلام واعتماده على الأديان السابقة)(١)، وأصبحت هذه النتيجة كما قال أحد المستشرقين: (موضة) بين عموم المستشرقين)(٢)، ولكي يصلوا إلى هذه النتيجة قاموا بتجزئة أمور العقيدة الإسلاميَّة إلى أجزاء متناثرة وحاولوا إرجاعها إلى مصادر أخرى في الأديان السابقة، ولاشك أنّ هذا المسلك محاولة لنفي تميز الأُمَّة الإسلاميَّة، وذلك بزعم نسبة عقيدتها إلى أخلاطٍ من اليهودية والنصرانية والوثنية، ويتناول البحث هنا الأمور الآتية:

١ - صورة العقيدة الإسلاميَّة في العصور الوسطى عند الغرب.

٢ - نماذج من آراء المستشرقين في زعمهم تأثر العقيدة الإسلاميَّة بالديانتين اليهودية والنصرانية وتأثرها كذلك بالوثنية.

٣ - مناقشة تلك الآراء والرد عليها.

أولاً: صورة العقيدة الإسلاميَّة لدى الغرب في العصور الوسطى:

برزت هذه الصورة لدى الغربيين في العصور الوسطى من خلال

---

(١) محمد عبدالله الشرقاوي: الاستشراق دراسات تحليلية تقويمية (في الفكر الإسلامي المعاصر)، ص ٨٥، عن دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

(٢) نقلاً عن المرجع السابق نفسه: ص ٨٥.

اللاهوت الذي فرضته الكنيسة على النصارى بما كان لديها من سلطة قاهرة مدعمة بالسلطة الزمنية آنذاك، وسبق مِمَّا دَلَّ عليه تاريخ الاستشراق أن الحركة الفكرية التي نشطت في الأندلس إبَّان الحضارة الإسلاميَّة التي احتكت بالغرب قد انقسمت إلى شطرين:

أولهما: عمل على تشويه العقيدة الإسلاميَّة لتحصين الغرب النصراني من انتشار الإسلام فيه.

أمَّا الشطر الآخر: فقد عنى بعلوم المسلمين في الطب والفلك ونحوهما، وحرصًا منه على الإفادة منها تولى نقلها إلى اللغات الأوروبية وتوافر على دراستها.

ومِمَّا تبيَّن - أيضًا - أنَّ تلك الحركة الفكرية اتسمت بشطريها بالعداء للإسلام وعقيدته، وقد وضَّحَ هذه الحقيقة أحد المستشرقين بقوله: (صحيح أنَّه كان ثمة بعض الإحاطة بالإسلام من قبل، سواء بفضل المصادر البيزنطية، أو بفضل صلات المسيحيين بالمسلمين في أسبانيا، غير أن تلك المعارف السائدة وقتذاك كانت مشوبة إلى حد رهيب بالأوهام والأخطاء، فقد نُظِرَ إلى العرب باعتبارهم وثنيين يعبدون محمدًا، ونظر إلى محمد باعتباره ساحرًا بل الشيطان بعينه)[1].

ويقول مستشرق آخر: (ظلَّ محمد زمنًا طويلاً معروفًا في الغرب معرفة سيئة، فلاتكاد توجد خرافة ولا فظاظة إلاَّ نسبوها إليه)[2].

---

(١) مونتغومري واط: فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ٩٩، ترجمة: حسين أحمد أمين، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م مكتبة مدبولي - مصر.

(٢) التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ٢٢/١ عن مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م، وانظر: أحمد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق: ص ٢٣ - ٣١، (مرجع سابق).

وأستعرضُ فيما يأتي بعض المرتكزات لهذه الصورة من أقوال ومواقف حدَّدت صورة العقيدة الإسلاميَّة لدى الغرب في العصور الوسطى:

- زعم (يوحنَّا الدمشقي): (أن الإسلام زندقة مسيحيَّة نسطورية الأصل والمضمون، وأنَّ محمداً لم يكن نبيًّا مرسلاً، بل صاحب نبوة منتحلة مبتدعة: PSEUDO - PROPHETES، جاء العرب من قومه بكتاب مُختَلَقٍ، جمع أشتات مادته من راهب من أتباع آريوس المنشق عن الكنيسة، وإنه إنَّما ملك قلوب أتباعه بما كان يصطنع من ورع وتقوى كاذبة «Feigning Piety»[1].

ويُعدُّ (يوحنَّا الدمشقي) من أوائل من (دَشَّنَ حملات الإفك والافتراء)[2] وألَّفَ في ذلك كتبًا - سبق الإشارة إليها - قصد بها حماية النصارى من عقيدة الإسلام وكان منطلقها وما جاء من بعدها (الإثارة والتحريض والتحريف ونشر المفتريات واختلاق الأكاذيب، انطلاقًا وتأسيسًا على تصور غريب ذاع وانتشر في الغرب مفاده، إن العدو الذي لاتستطيع مغالبته بالقوة الماديَّة، فليس من سبيل إلى مقاومته إلا بالاستغراق في عالم من الخيال الماجن، والجهل الخدوع الذي يصور العدو على غير صورته وحقيقته؛ درءًا لخطره واستبعادًا لشروره، واستهزاءًا بدوره التاريخي وقيمه ومآثره)[3].

وكما سبق ذكره، فإنَّ (يوحنَّا الدمشقي) بمؤلفاته وحملاته على

---

(١) نقلاً عن: عرفان عبدالحميد فتاح: دراسات في الفكر العربي الإسلامي: ص ١١١، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١١.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١١٠، ١١١.

عقيدة الإسلام يُعَدُّ - أيضًا - ممهد الجادّة للمستشرقين المتحاملين على عقيدة الإسلام ورسوله وأمته وما كتبوه عن الإسلام سبقهم إليه بما يزيد على ألف عام[1].

- ألفَ (ثيوفانس) المؤرخ البيزنطي الشهير[2] (كتابًا عن حياة محمد؛ عُدَّ من بعده مرجعًا معتمدًا وموثقًا يستمد اللاحقون منه مادتهم عن الإسلام، جاء فيه: (... توفي عام ٦٣٢ للميلاد حاكم العرب ونبيهم الكذّاب (ماومود - MOUAMED) الذي أضلَّ بمكره وسحره في أول أمره جمعًا من اليهود الذين اعتقدوه باطلاً بأنَّه المسيح المخلص الذي ينتظرونه، فآمن به عدد من أحبار اليهود ودخلوا في عقيدته وارتدوا عن دين موسى الذي كانوا عليه)[3].

وعلى هذا النحو أظهر محمد ﷺ في الغرب في القرون الوسطى حتى (إذا أشرفت «القسطنطينية» على السقوط تحت سنابك خيل محمد الفاتح وقواته ازدادت هذه الخيالات المختلفة إسرافًا فنقرأ في مؤلف لكاتب مجهول قوله: «إن راهبًا من النحلة الآريوسيَّة لما تحقق أن العرب قوم سخفاء سذج وبسطاء؛ قرر في نفسه أنْ يضع لهم كتابًا في الدين والعقيدة، كما فعل من قبل آريوس المنشق عن الكنيسة والدين الصحيح فاختلى إلى نفسه، واختلق كتابًا أسماه القرآن ضمَّنَهُ جملة العقائد المخالفة للمسيحية... ثُمَّ أعطاه لأحد تلامذته المسمى محمدًا الذي زعم

---

(١) انظر: جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام..: ص ٣٣ - ٣٥، (مرجع سابق).

(٢) انظر: عرفان عبدالحميد فتاح: دراسات في الفكر العربي الإسلامي..: ص ١١١، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١١، ١١٢.

لأتباعه أن الكتاب كان محفوظاً في اللوح مع جبريل، فآمنوا بدعواه وصدقوه، وهكذا تأسس هذا الدين المزعوم»[(١)].

- وصوّر الرسول ﷺ على أنّه الصنم المعبود عند أتباعه، وصوّر كذلك المسلمون (كوثنيين يعبدون مجمعاً من الأوثان المعبودة مشخصة في صور تماثيل مصنوعة من الذهب والفضة يتقرب إليها وتعبد وفق تقاليد وطقوس معينة، ويستثار رضاها ويلتمس عونها في الحروب والقتال ضد النصارى، حتى إذا فشل العرب في القتال، وغالب أمرهم أن يفشلوا، لعنت الآلهة وشتمت ودست في التراب)[(٢)].

هذه نبذة مختصرة عن صورة العقيدة الإسلاميَّة لدى الغرب في عصورهم الوسطى، اختصرت القول فيها؛ لأنها أصبحت مرفوضة في أعراف المستشرقين في العصر الحديث ووجهوا لها انتقادات حادَّة ووصفوها بالتعصب والجهل والحماقة، ولكن السؤال هل جاءت الدراسات الاستشراقيَّة فيما بعد أقرب إلى الإنصاف والبحث العلمي المجرد عن الأحقاد التاريخيَّة الموروثة، والتعصب الديني الأعمى؟! هذا ما سيجري بحثه في النقطة الآتية:

ثانيًا: نماذج من آراء المستشرقين في العقيدة الإسلاميَّة:

١ - زعم بعض المستشرقين أن محمدًا ﷺ أخذ أسس التوحيد من اليهود والنصارى، ويقول (ستويرت) في ذلك: (لقد تأثر محمد ﷺ بمعتنقي ديانتي التوحيد: اليهودية والمسيحية، إذ لم يبخل

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١١٣.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١٤. ولمزيد الإيضاح انظر: موقف المستشرقين من خصيصة وسطية تميُّز الأمَّة الإسلاميَّة، (البحث نفسه).

عليه الأحبار والرهبان بالمعلومات التي تتعلق بهاتين الديانتين، وتشهد بذلك كتب السيرة عند المسلمين أنفسهم)[1].

٢ - عقد إميل در منغم في كتابه (حياة محمد) فصلاً بعنوان: النصرانية والإسلام، تطرَّق فيه إلى القول: (استطاع محمد أن يتعرف بعدد غير قليل من النصارى بمكة كالموالي الذين كان أكثرهم من الأحباش وبأناس من الروم والأقباط وعرب القبائل النصرانية، وكان يجلس في الغالب بالقرب من جَبْر الرومي[2] الذي كان يصنع هو ورفيقه يَسَار الرومي السيوف)[3].

ثم يحاول أن يستقصي منافذ النصرانية إلى مكة المكرمة وكأنه بأسلوب غير مباشر يود أن يشكل إطارًا لتأثر الرسول ﷺ بالعقائد النصرانية، ويتوغل في هذا الإيحاء بقوله: (... وفرق النصرانية الضالة هي التي كان محمد شاهدًا عليها، وهو الذي لم يعرف غيرها، والمسائل

---

(١) ستوبرت: نظم العقائد المغايرة للمسيحية: الإسلام ومؤسس الإسلام؛ نقلاً عن عزية طه: من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحيد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، العدد [١٣]: ص ٢٦، رمضان ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، جامعة الكويت.

(٢) وردت في اسمه أقوال عديدة منها:

أ - قيل: (بلعام) وكان قينًا نصرانيًا.

ب - وقيل: اسمه (يعيش) وكان غلامًا لبني المغيرة.. وهو الذي نسب إليه كفّار مكة أنّه يعلم الرسول ﷺ القرآن الكريم؛ (سيأتي ذكر ذلك في خصيصة الربانية)؛ انظر هذه الأقوال لدى: الطبري ١١٩/١٤ مجلد [٧]، وابن كثير ٥٨٦/٢، وابن هشام: السيرة النبوية ص ٢٧٠، ٢٧١، وابن تيمية: الجواب الصحيح.. ٤٠٥/١ (مراجع سابقة).

(٣) حياة محمد: ص ١٢٥، بتحقيق: عادل زعيتر، الطبعة الثانية ١٩٨٨ م، عن المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، بيروت.

الكثيرة المشكوك فيها كان مصدرها ما أدخله اليهود إلى التلمود وغيره مِمَّا عرفه (حضريو) جزيرة العرب وأعرابها وشعراء صحرائها، وفي القرآن مطابقة لرؤيا آدم وكهف الكنوز وكتاب أخنوخ (إدريس) وانجيل يعقوب الأول وقصص القديسين وإنجيل برنابا وقصة خلق عيسى الصبي للطير من الطين، ولابد أن يكون ورقة بن نوفل وأمثاله على علم بهذا الأدب المشكوك فيه)[1].

وفي سياق آخر يقول: (والحق أن النصرانية تشمل الإسلام وتضيف إليه بعض الشيء، وأنَّه لاتناقض بين هاتين الديانتين، فعلى الأديان أن تتنافس في العبادة والفضائل بدلاً من أن تتناجز، والغرور والأثرة الضيقة يجعلان معظم الناس عاملين على ما فيه اختلافهم عن الآخرين أكثر مِمَّا يعملون على تمجيد الله، والتعصب هو الذي يحول حماسة المرء لدين إلى الحقد على الأديان الأخرى، ومن يدري أن الله لم يرد نوعًا من التمايز الذي هو خلاف التعصب كما في عالم السياسة)[2].

وقال أيضًا: (وبين محمد ومن تقدمه من أنبياء بني إسرائيل شبه قوي، فكان وهو نبي بمكة، كإشعياء في إسرائيل، وكان وهو حاكم بالمدينة كيشوع في كنعان وتسمَّى بمحمد، وحامل هذا الاسم هو من ينتظره اليهود فأبوا أن يدعوه بغير أبي القاسم)[3].

٣ - ولكارل بروكلمان أقوال متناثرة في كتابيه؛ تاريخ الأدب العربي

---

(١) إميل دِر منغم: حياة محمد: ص ١٣٧، ترجمة: عادل زعيتر، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٤٣.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٢٧١.

وتاريخ الشعوب الإسلاميَّة.. منها قوله في كتابه الأول: (ولا حاجة هنا إلى ذكر تاريخ دعوته التي ضاهى بها في مكة أسلوب الدعوة النصرانية، ولعله كان يعرف هذه الدعوة عن طريق المبشرين النساطرة)[1].

ومنها قوله: (واستخدم محمد في دعوته أساليب الكاهن)[2] أو قوله: (تأخذ طابع سجع الكهان)[3] في وصفه للآيات القرآنية التي نزلت بمكة.

ومِمَّا قال أيضًا: (رجع توراندرية أن أسلوب محمد قد تأثر بموعظة التبشير المسيحي على لسان المبشرين العرب من جنوبي الجزيرة، حيث ازداد نفوذ الكنيسة النسطورية تحت سيادة الفرس)[4].

وقال أيضًا: (كان جديرًا بالنظر حقًا ما اقترحه «بل» - برغم الصعوبة الصوتية - وهو القول باشتقاق لفظ سورة من الكلمة السريانية: صورتا (نصٌّ) وذلك لوضوح التأثير النصراني في لغة النبي باطراد)[5].

ومِمَّا جاء في كتابه الآخر قوله: (وفي وسط مكة تقوم الكعبة، وهي بناء ذو أربع زوايا.. يحتضن في إحداها الحجر الأسود، ولعله أقدم وثن عبد في تلك الديار)[6]، وعن الحجر الأسود يقول أيضًا: (وعندما بلغ

---

(١) تاريخ الأدب العربي، ١/١٣٤، ترجمة: عبدالحليم النجار، عن دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة.

(٢) المرجع السابق نفسه: ١/١٣٤.

(٣) المرجع السابق نفسه: ١/١٣٧.

(٤) المرجع السابق نفسه: ١/١٣٧.

(٥) تاريخ الأدب العربي: ١/١٣٨، (المرجع السابق نفسه).

(٦) تاريخ الشعوب الإسلاميَّة: ص ٣١، ترجمة: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، الطبعة العاشرة ١٩٨٤ م عن دار العلم للملايين - بيروت.

محمد الكعبة طاف بها سبعًا على راحلته، لامسًا الحجر الأسود بعصاه في كل مرة. وبذلك ضم هذا الطقس الوثني إلى دينه)[1].

ويقول - أيضاً -: (تذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى، أمَّا في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتم بالتوراة والإنجيل هزيلة)[2].

٤ - و(لجولدزيهر) في كتابيه؛ العقيدة والشريعة[3]، ومذاهب التفسير الإسلامي[4]، أقوالٌ تمس تميز الأُمَّة الإسلاميَّة من خلال تشكيكه في عقيدتها وشريعتها وتاريخهما.. وفي كتابه الأول تركزت تلك الأقوال على أربع مزاعم، هي:

أ - إن القرآن من صنع محمد.

ب - إن الحديث النبوي من صناعة الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية.

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٦١، ولمزيد من الاطلاع على مزاعم كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلاميَّة انظر:

- شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان، (مرجع سابق).
- غيثان علي جريس: افتراءات المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية، من إصدارات نادي أبها الأدبي، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلاميَّة، ص ٣٤، (المرجع السابق نفسه).

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى، وعبدالعزيز عبدالحق، وعلي حسن عبدالقادر، عن دار الكتاب المصري، القاهرة ١٩٤٦ م.

(٤) مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبدالحليم النجار، الطبعة الثامنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م، عن دار إقرأ - بيروت.

ج - إن التشريع الإسلامي مستمد من القانون الروماني.

د - إن الجيوش الإسلاميَّة... لم يكن باعثها الإيمان وإنَّما الذي أخرجها من الجزيرة العربية القحط والجوع)[١].

ومِمَّا يخص مجال العقيدة زعمه بأن الإسلام (ليس إلاَّ مزيجاً منتخبًا من معارف وآراء دينية عرفها (محمد ﷺ) بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية)[٢]، وأنه لم يأتِ بجديد[٣].

وفي كتابه الآخر لايقتصر على مس العقيدة الإسلاميَّة من حيث كونها مبدأ وتعاليم جاء بها الرسول ﷺ وإنَّما يمتد بمزاعمه وتشكيكاته إلى تاريخ العقيدة الإسلاميَّة في واقع الأُمَّة ويخلط بين أهل الزيغ وأُمَّة الاتباع.

ومِمَّا قاله في هذا المجال: (وكما تقدم تعاليم الإسلام حتى في مرحلته البدائية، صورة من مذهبي الانتخاب والمزج - من اليهودية والنصرانية وديانة فارس وغيرها - كذلك عملت آثار أجنبية، من التجارب التعليمية النافذة من المحيط الخارجي، في تنمية ماجد بعد ذلك من المسائل، كما يبدو في مسائل الخلاف العقدية التي كانت تؤدى في أوقات الهدوء المعترضة إلى صياغة قواعد مركزة متبلورة. وقد أمكن في وقت مبكر إثبات أن الأنظار، والمسائل العقدية التي كانت محل

---

(١) محمد أحمد جمال: نقد كتاب العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدزيهر، مجلة رابطة العالم الإسلامي، المجلد [٧]، العدد [٥] ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م: ص ١٥، تصدر عن إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.

(٢) جولدزيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام: ص ١٢، (مرجع سابق).

(٣) انظر: جولدزيهر: المرجع السابق نفسه: ص ١١.

الاعتبار في القرنين الأولين عند علماء الكلام الإسلاميين، قد برزت تحت تأثير النشاط العقدي داخل الكنائس والفرق المسيحية الشرقية)[1].

٥ - يكاد هذا الموقف إزاء عقيدة الأُمَّة الإسلاميَّة الذي ينكر تميزها أن يكون متأصلاً في دراسات معظم المستشرقين[2]، وهناك نماذج كثيرة تؤكد ذلك وردت في كتابات الكثير من المستشرقين ولكن الذي يبين هذا الموقف بجلاء ويدل على رسوخه في الدراسات الاستشراقية وتعمد المنهج الاستشراقي الإصرار على ذلك هو ما ورد في دوائر المعارف، ومن أمثلة ذلك:

أ - تقول دائرة المعارف الإسلاميَّة تحت مادة (السامرة): (وما من أحد يشك في تعدد مصدر الأصول التي استقى محمد منها معارفه، وكثيرًا ما جرى القول بتأثير اليهودية والنصرانية فيه، وازدياد المعرفة بهذه الأصول يؤيد مثل هذه النتائج في حين أن الجهل التام بالمسائل

---

(١) جولدزيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ص ١٧١، (مرجع سابق).

(٢) انظر: عبدالجليل شلبي: صور استشراقية، ص ٤٩ - ٥٣، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م، عن دار الشروق، القاهرة، وانظر: عبداللطيف الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ترجمة قاسم السامرائي، ص ٣٤، ٣٥، (مرجع سابق)، وانظر: محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار، ص ٣١٤، عن دار الفكر العربي - القاهرة ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م. وانظر: محمود حمدي زقزوق: الإسلام في الفكر الاستشراقي للمستشرق الألماني جوستاف بفانمولر: ص ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٨، بمجلة حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلاميَّة بجامعة قطر، العدد [٢] لعام ١٤٠٢ هـ، وأدرجه في كتابه: الإسلام في تصورات الغرب في الصفحات (٢١ - ٧٦)، (مرجع سابق).

السامرية يجوز لنا التحيز للعرب)[1].

ب - جاء في دائرة المعارف البريطانية: (إنَّ صورة الله التي تتداخل فيها صفات القوة والعدل والرحمة ذات صلة بالتراث اليهودي المسيحي حيث استمدت منه بعد أن طرأ عليها بعض التعديلات وكذلك تتصل بالوثنية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية)[2].

ج - وجاء في موسوعة الحضارة التي أصدرتها هيئة اليونسكو: (الإسلام تركيب ملفق من اليهودية والنصرانية ورواسب الوثنية)[3].

ثالثاً: الرد على أقوالهم:

يتضح من الأقوال السابقة موقف عامّة المستشرقين في استهدافهم تميز الأُمَّة الإسلاميَّة من خلال محاولاتهم تشويه عقيدتها، وذلك بنسبتها إلى اليهودية أو النصرانية أو إلصاق الوثنية في عقيدتها، وهذه وتلك برزت بشكل صارخ في كتابات كبار المستشرقين الذين نفذوا إلى عقول المسلمين من خلال دعاوى العلمية والموضوعية والمنهجية، وتهدف كتاباتهم في مجملها وجوهرها إلى المسِّ بعقيدة التوحيد وعدم الاعتراف بأصالة الأُمَّة الإسلاميَّة، ولايُسْتَثنَى من هذه القاعدة إلاَّ أفراد قلائل تحرروا من المسلك الاستشراقي المتعصب واتسم بعض ما كتبوه عن

---

(١) دائرة المعارف الإسلاميَّة، المجلد [١١]، ص ٨٨، (مرجع سابق).

(٢) دائرة المعارف البريطانية، طبعة ١٩٧٨ م، الجزء [٩]، ص ٩١٣، نقلاً عن: ملك غلام مرتضى: دائرة المعارف الإسلاميَّة بين الجهل والتضليل، ترجمة محمد كمال علي السيد: ص ١٩، الناشر: محمد زيد ملك..، لاهور، باكستان.

(٣) نقلاً عن محمد عبدالله السمان: العقيدة وقضية الانحراف، مجلة الأُمَّة، العدد [٣٠]، جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ- مارس ١٩٨٣م ص ٢٥، صادرة عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية - قطر.

الإسلام وعقيدته بالإنصاف، ولعل من المناسب قبل الرد على ما ورد من الأقوال والآراء فيما سبق الإلماح لبعض الأقوال المنصفة التي ذكرها عدد قليل من المستشرقين القلائل، ومنها ما قاله (توماس كارلايل): (لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى القول بأنَّ دين الإسلام كذب، وأنّ محمدًا خدَّاع مزور، فإنَّ الرسالة التي أدَّاها ذلك الرجل ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لمئات الملايين من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا)[1].

ويقول (كلوداتيان سافاري): (أسس محمد ديانة عالمية تقوم على عقيدة بسيطة لاتتضمن إلاّ ما يقره العقل من إيمان بالإله الواحد الذي يكافئ على الفضيلة، ويعاقب على الرذيلة، والغربي المتنور إن لم يعترف بنبوته لايستطيع إلاّ أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا في التاريخ)[2].

ويقول (هنري دي كاستري): (أمَّا فكرة التوحيد فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي ﷺ من مطالعة التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردَّها لاحتوائها على مذهب التثليث، وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته، وظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته، وهو بذاته أكبر دليل على صدق رسالته وأمانة نبوته، ولعل هذا البرهان من أوضح الأدلة على إن الإسلام وحي من الله، فإنَّ مفهوم (التوحيد) الإسلامي عقيدة تميَّز بها الإسلام عن غيره)[3].

وعلى الرغم من كون قول (كارلايل) لايرقى إلى الإنصاف الكامل،

---

(١) الأبطال وعبادة الأبطال؛ نقلاً عن التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون: ص ٢٤، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن المرجع السابق نفسه: ص ٢٤.

(٣) نقلاً عن نذير حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، ص ٧١، (مرجع سابق).

إذ ليست الكثرة والاستمرار دليل على الحق وإنَّما الحق أولى بالاتباع، وكذلك قول (سافاري) ينطوي على خطأ وهو قوله بأن محمداً ﷺ أسس ديانة عالميَّة، والحقيقة أنه جاء مرسلاً من عند الله إلى الناس جميعاً وهو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.. وعلى الرغم من هذا وذاك فإن قولهما يُعَدُّ أقرب إلى الإنصاف قياساً إلى ما ذكر من أقوال المستشرقين الآخرين، أمَّا قول (هنري دي كاستري) فإنَّه أكثر إنصافا، ولعل مسلكه العام ظل مستمراً على هذا النحو، والله أعلم.

أما الرد على أقوال المستشرقين السابقة فهو على النحو الآتي:

١ - إنَّ تلك الأقوال التي تشكك في تميز الأُمَّة الإسلاميَّة من خلال نسبة عقيدتها إلى اليهودية أو النصرانية أو الوثنية لاتقوى على حجب حقيقة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة المرتكز على عقيدة صحيحة واضحة فذَّة جاء بها محمد ﷺ عن ربه، ومهما أثاروا حولها من ضباب كثيف، فإن الله متم نوره ولو كره الكافرون، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ

(١) سورة التوبة: الآية (٣٣).

(٢) سورة التوبة: الآية (٣٢).

بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [1].

يقول عبداللطيف الطيباوي عن كتابات المستشرقين في هذا المجال: (إن ما أريق من مداد سود صحائف المجلدات المتعددة عن (أصول) الإسلام لايقدم دليلاً مقنعًا بالمعنى التاريخي الصارم بحيث يثبت أن مثل هذا الاقتباس قد حدث فعلاً، بل على العكس، فإن الشاهد المعاصر الوحيد الذي ما يزال باقيًا هو القرآن (الكريم وهو) يستبعد مثل هذا الاحتمال بأقطع عبارة، ومن المستغرب أن هذا الشاهد الوحيد يُطرح في الغالب جانبًا)[2].

٢ - يخلط هؤلاء المستشرقون المتحاملون على تميز الأُمَّة الإسلاميَّة في دراساتهم لعقيدتها الإسلاميَّة بين العقيدة الصافية النقية الحقة التي بينها القرآن الكريم والسنة النبوية (القولية والفعلية والتقريرية) وبين واقع المسلمين بعامة وواقع الفرق الضَّالة بخاصة، وكان من نتائج هذا الخلط أن جاءت دراسات المستشرقين في مسائل العقيدة (جهلاً مركبًا) كما سماها بذلك أحد المفكرين لأنهم درسوها في ضوء مناهج زائفة وقدموها للناس مشوهة مزورة ومكذوبة[3].

فقد تركزت أقوالهم على دعوى؛ أن العقيدة الإسلاميَّة تأثرت باليهودية أو النصرانية أو الوثنية أو هي مزيج من ذلك كله، والرد على

---

(١) سورة الصف: الآية (٨).

(٢) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية.. ص ٣٣، ترجمة: قاسم السامرائي، (مرجع سابق).

(٣) انظر: أحمد محمد جمال: نقد كتاب جولدزيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام..: ص ١٧، (مرجع سابق)، وقد عزا هذه التسمية للغزالي.

ذلك يتركز في الآتي:

أ - لو كان المراد بأن عقيدة الإسلام وبخاصة توحيد الله وحده لاشريك له وإخلاص العبادة له هي العقيدة التي جاءت بها أنبياء بني إسرائيل وجاء بها المسيح عليه السلام في صورتها الصحيحة التي أرادها الله فإن ذلك حق وصحيح[1].

ومن المعلوم بالضرورة في دين الإسلام إن الدين واحد من لدن آدم عليه السلام وحتى خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾[2]. وقال الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «... والأنبياء إخوةٌ لعلاّت، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[3]، ولكن أولئك المستشرقين لايقصدون ذلك، بل يقصدون التراث اليهودي والنصراني كما قال أحدهم: (إن على الإسلام أن يقر بحقيقة أصله: ذلك التأثير التاريخي للتراث اليهودي النصراني)[4]، ومن المسلِّم به (أنه لاتوجد أقوال ثابتة تبين لنا حقيقة التوحيد وماهيته

---

(١) انظر: شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان: ص ٥٣، (مرجع سابق).

(٢) سورة الشورى: الآية (١٣).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٣/١٢٧٠ الحديث رقم [٣٢٥٩]، بتحقيق مصطفى ديب البُغا (مرجع سابق).

(٤) مونتغومري وات: نقلاً عن عبداللطيف الطيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ص٣٤، ترجمة: قاسم السامرائي، (مرجع سابق).

في اليهودية؛ لأن اليهود قد ضمنوا التوراة كثيرًا من المتون المتعارضة، التي لايُمكن الجمع أو التوفيق بينها، وهذا يدل على أن أفكار مؤلفي هذه الأسفار كانت متشتتة، وموزعة بين الوثنية المتمثلة في تجسيد الله وتشبيهه بخلقه وجعل الأنداد والنظائر له، وبين عقيدة التوحيد الخالصة التي جاء بها أنبياء الله المذكورون في توراة اليهود، وفي القرآن والسنة عند المسلمين)[١].

وكذلك النصرانية التي ترتكز عقيدتها بعد التحريف على التثليث ومنيت بالشرك بدلاً من التوحيد ورد في مقدمة كتاب هيم ماكبي: بولس وتحريف المسيحية: (كانت مأساة السيد المسيح الحقيقية أنه ولد في قوم أعظم مواهبهم تزوير التاريخ)[٢].

ويتساءل (جون هك)؛ (كيف وصل اليهود مع الأمميين من المسيحيين إلى عبادة كائن بشري محطمين هكذا فكرتهم في وجود إله واحد بطريقة أودت بهم إلى الميتافيزيكية المعقدة للتثليث؛ ففي تعاليم المسيحية الباكرة، كما نقلنا عنها من الكتاب الخامس للعهد الجديد –

---

(١) عزية طه: من افتراءات المستشرقين... ص ٣٦، ٣٧، (مرجع سابق). ولمزيد من الاطلاع على العقيدة اليهودية انظر: عبدالستار فتح الله سعيد: معركة الوجود بين القرآن والتلمود، ص ١١٦ – ١٢١، (مرجع سابق).

(٢) سميرة عزمي الزين: مقدمة كتاب هيم ماكبي: بولس وتحريف المسيحية، ص ٨، ٩، الطبعة العربية الأولى ١٤١١ هـ –١٩٩١ م، من منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، وقد جاء في التعريف بهذا الكتاب في ظهر غلافه: (قارئ هذا الكتاب سيتأكد بالحجة التاريخية أن عيسى – عليه السلام – وحوارييه براءٌ من كل هذه المسيحية التي اخترعها بولس ولفق عقائدها من وثنيات العالم القديم وخرافاته وأساطيره.. ألفه أستاذ تاريخ الأديان في معهد (ليوبايك) بلندن، وهو واحد من ألمع مؤرخي الأديان في عصرنا).

للقديس لوقا -، أعلن يسوع أنَّه إنسان أرسله الله إليكم مؤيدًا بأعمالٍ ضخمة وأمارات، وبعد ثلاثين سنة فقط أفتتح إنجيل (مرقص) بهذه الكلمات: (ابتداءً إنجيل يسوع المسيح ابن الله)؛ وفي إنجيل (يوحنا) الذي كتب بعد ثلاثين سنة أخرى، عُزِيَ هذا الكلام إلى يسوع نفسه وصور على أنَّه إله يمشي على الأرض !)[1].

وفي إجابة (هِك) على سؤاله يستشهد بقول آخر: (كم كانت منشرة فكرة التجسيد الإلهي في الحياة البشرية للعالم القديم؛ لذا فليس من المستغرب البتة تأليه يسوع في تلك البيئة الثقافية؛ ففي اليهودية نفسها، كانت فكرة تسمية الإنسان (ابن الله) تستند إلى تقليد قديم)[2].

وللمرء أن يتساءل أيضًا أين التوحيد في هذا التراث اليهودي النصراني، وصدق الله القائل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3].

---

(١) جون هك: أسطورة تجسُّد الإله في السيد المسيح، تعريب: نبيل صبحي، ص ١٨، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م، عن دار القلم - الكويت.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٩، وعن تأثر الديانة المسيحيَّة بالوثنيَّة؛ انظر: محمد طاهر التنير: العقائد الوثنيَّة في الديانة النصرانية، عن إدارة القرآن والعلوم الإسلاميَّة، كراتشي، باكستان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ.

(٣) سورة التوبة: الآيتان (٣٠، ٣١).

ب - أمَّا قولهم بأن عقيدة الإسلام تأثرت بالوثنية فإن هذا القول مجاف لحقيقتها وما هو إلا نتيجة ما يسمى الإسقاط النفسي أو على حد المثل العربي (رمتني بدائها وانسلت)[1]، ولئن تسربت الوثنية إلى اليهودية وإلى النصرانية كما سبق ذكره فإنَّ الإسلام ماجاء إلا لمحاربتها والقضاء عليها ونشر عقيدة التوحيد الخالص لله جل وعلا؛ رُوِيَ عن ابن عمر رضي الله عنه؛ أنّ رسول الله ﷺ قال: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله»[2].

وإذا كان بعض المستشرقين يربط بين شعائر الحج والعمرة في الإسلام وبين الوثنية ويزعم بأن الرسول ﷺ أبقى على بعض شعائر الوثنية، وبخاصة تقبيل الحجر الأسود، فإنَّ الرد على ذلك من وجوه:

أولها: إن ما كان من بقية الحق المتمثل في بعض الآثار الدينية التي تعود إلى الحنيفية السمحة فإن عقيدة الإسلام التي جاء بها الرسول ﷺ لاتناقضها بل تجلوها وتبقي على ما كان حقا منها، وفي مقدمة ذلك بعض شعائر الحج والعمرة من طواف وسعي وغيرهما[3]، قال تعالى:

---

(١) أورده ابن منظور: لسان العرب، مادة (سلل)، (مرجع سابق)، وانظر: أبو هلال الحسن العسكري: كتاب جمهرة الأمثال: ١/٣٨٧، بتحقيق: أحمد عبدالسلام وآخر، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عن دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) سبق تخريجه: ص ٩٨، (البحث نفسه).

(٣) انظر: عزية طه: من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحيد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة: ص ٥٣، (مرجع سابق).

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [1].

ثانيًا: رد بعض الباحثين على زعم (بروكلمان) في هذا بقوله: (كان على بروكلمان أن يعرف مكانة الحجر الأسود عند عرب الجاهليَّة، وسبب تقديسه بعد الإسلام، وكان عليه أن يميِّز بين الوثن والصنم من جهة، وبين الحجر الأسود الذي لم نسمع في الروايات التاريخية شيئًا عن عبادة العرب له. لقد اتخذ العرب آلهتهم في الجاهليَّة من أشياء لاتحصى، ومع ذلك لم يرد مطلقاً أن الحجر الأسود كان ضمن آلهتهم، بل كانت له منزلة محترمة؛ لأنَّه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة، وبناءً على ذلك فالإسلام لم يقر وثنية كانت في الجاهليَّة، واستلام الحجر الأسود في الحج يرجع إلى اعتبار رمزي، لا إلى تقديس الحجر ذاته، لقد أعادت قريش بناء الكعبة، واختلفت بطونها على من يعيد الحجر مكانه، وأقبل محمد الأمين قبل البعثة بخمس سنوات، فدعوه لرجاحة عقله وحبِّهم له، فهو الأمين. ليفصل في الأمر فبسط رداءه، ووضع فيه الحجر، وجاء من كل بطن رجل، حمل من طرف الرداء، حتى أوصله عليه الصلاة والسلام إلى موضعه، فوضعه بيده الشريفة، وأنهى مشكلة حرجة.. وسبب احترامه أنه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة.. ولم يكن في يوم من الأيام وثنًا يعبد، لا في الجاهليَّة ولا في الإسلام...) [2].

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٦١).

(٢) شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان.. ص ٣١، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالكريم علي باز: افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي، ص ٩١ – ٩٤، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ – جدة. ولمزيد من الاطلاع على مصادر قصة وضع الحجر=

ثالثًا: إنَّ تقبيل الحجر الأسود عبادة لله له دلالات ومقاصد لاتخدش عقيدة التوحيد فهو حجر لايضر ولاينفع بذاته، وهذه عقيدة المسلمين فيه كما علمهم رسول الهدى ﷺ فهذا عمر بن الخطاب يقول عند تقبيله للحجر الأسود: (إني أعلم إنك حجر لاتضر ولاتنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك)[1]، ولعلماء المسلمين في قول عمر رضي الله عنه هذا أقوال عديدة، منها:

قول ابن جرير الطبري: (إنَّما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي عمر أن يظن الجهَّال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهليَّة)[2].

وقال ابن حجر: (وفي قول عمر هذا: التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع الرسول ﷺ فيما يفعله، ولولم يعلم الحكمة فيه، وفيه دفع ما وقع لبعض الجهال من أن في الحجر الأسود خاصية ترجع إلى ذاته، وفيه بيان السنن بالقول والفعل، وأن الإمام إذا خشي على أحد من فعله فساد

=الأسود... انظر: السيرة النبوية لابن هشام بتعليق عمر عبدالسلام تدمري: ٢١٨/١ (مرجع سابق).

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٥٧٩/٢، كتاب الحج، الحديث رقم [١٥٢٠]، ترتيب: مصطفى البُغا، (مرجع سابق). وانظر: ابن حجر: فتح الباري... ٤٦٢/٣، (مرجع سابق).

(٢) أورده ابن حجر: فتح الباري: ٤٦٢/٣ - ٤٦٣، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عزية طه: من افتراءات المستشرقين...: ص ٥٤، (مرجع سابق).

اعتقاد أن يبادر إلى بيان الأمر ويوضح ذلك)[1].

وهناك روايات عديدة عن أصل ذلك الحجر وما يرمز إليه أورد جملة منها ابن حجر وبين ما في أسانيدها من ضعف، ولكن يستفاد من مجموعها الآتي:

١ - إن عمر - ﷺ- في بعض الروايات رفع قوله: (إني أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع) إلى الرسول ﷺ، وهذه قاصمة الظهر لـ (كارل بروكلمان) ومن سار على نهجه في هذا الزعم.

٢ - إن تقبيل الحجر - وقد فعله رسول الهدى ﷺ أمر من لدن الحكيم الخبير - شبيه بأمر الله الملائكة أن تسجد لآدم فكان السجود طاعة لأمر الله وعندما عصى إبليس كتبت عليه اللعنة[2]، فاستلام الحجر وتقبيله عبادة لله وتعظيم لله وليس لذات الحجر، وهذا التعليل يقبله العقل السليم ولايعارض الشارع.

٣ - رُبَّمَا كان الحجر الأسود بمثابة الشاهد على التوحيد يقدم شهادته يوم القيامة لمن حجَّ البيتِ أو اعتمر أوزاره وطاف به، وحينما يقبل يكون (ذلك امتثالاً لأمر الله رمزًا للتوحيد والعبودية لله كما ترمى الجمار بالحجر رمزًا لعداوة الشيطان ومجافاته)[3].

---

(١) فتح الباري.. ٣/٤٦٣، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عزية طه: المرجع السابق نفسه؛ ص ٥٤.

(٢) انظر: ابن حجر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٧٥، ٤٧٦.

(٣) انظر: عبدالكريم علي باز: افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان... ص ٩٢، (مرجع سابق).

وخلاصة القول: (إن فكرة وثنية الحجر الأسود هي فكرة غربية بثتها حركة الاستشراق.. وسعت لترويجها منذ زمن بعيد.. فقد سبق بروكلمان إليها بعض المستشرقين، مثل (درايكت) و (بورشورت سمث)...)[١] في محاولتهما نفي تميز الأُمَّة الإسلاميَّة والطعن في أهم مقومات ذلك التميُّز وهي عقيدة التوحيد الخالص، كما عبَّرَ عن ذلك (الكونت هنري دي كاستري)؛ بقوله: (فظهور هذا الاعتقاد - يعني توحيد الله وإفراده بالعبادة دون سواه - بواسطته - يعني محمداً ﷺ - دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته، ولعل هذا البرهان من أوضح الأدلة على أن الإسلام وحي من الله فإن مفهوم التوحيد الإسلامي عقيدة تميز بها الإسلام عن غيره)[٢].

وهناك ردود أخرى تتعلق بمصدر العقيدة سيجري إيرادها في مجال أقوال المستشرقين حول الربانية، ويبقى هنا الالتفات إلى مقولة (جولدزيهر) بأن مسائل الخلاف العقدية التي برزت في القرنين الأولين عند علماء الكلام الإسلاميين (كان) تحت تأثير النشاط العقدي داخل الكنائس والفرق المسيحية الشرقية)[٣].

وهذا القول ينطبق إلى حد كبير على واقع الفرق الإسلاميَّة الضَّالَّة

---

(١) انظر: عبدالكريم علي باز: افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان..: ص ٩٣، ٩٤، (المرجع السابق نفسه).

(٢) نقلاً عن نذير حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين: ص ٧١، (مرجع سابق)، وسبق إيراده فيما سبق.

(٣) انظر: جولدزيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ص ١٧١، (مرجع سابق).

فإنَّ كل بدعة ظهرت في دين الإسلام سلكت مسلكًا مشابهًا لليهود أو النصارى، وهذا ما يصرح به علماء الأُمَّة الإسلاميَّة ويدركونه وهو كذلك من دلائل نبوة الرسول ﷺ إذ ورد عنه أحاديث كثيرة تخبر بذلك منها قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[١]، وأخبر ﷺ بأن ثنتين وسبعين فرقة في النَّار من تلك الفرق التي تنقسم إليها أمته ﷺ وأنها تسلك مسلك أهل الكتاب (اليهود والنصارى) واستثنى فرقة واحدة أو ملة أو طائفة أو أُمَّة - كما سبق ذكره - هي التي تلزم الحق وتبقى على هديه ﷺ: «ولن تزال طائفة من أمتي منصورين لايضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»[٢]. وفي بعض الروايات: «وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين مِلة كلهم في النَّار إلاَّ مِلَّة واحدة» قالوا: من هي يارسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[٣].

قال ابن تيمية عند إيراده حديث: «ولاتزال طائفة من أمتي على الحق منصورة» الحديث: (وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ من غير

---

(١) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح: ٥/٢٥، ٢٦، كتاب الإيمان، الباب [١٨]: ماجاء في افتراق هذه الأمة، الحديث رقم [٢٦٤٠]، وقال: ((حديث حسن صحيح))، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق).

(٢) سبق تخريجه في روايات بألفاظ أخرى، انظر: مقدمة البحث ص ٢١، وص ٩٨، (البحث نفسه)، وأمَّا روايته هنا فلفظها للإمام أحمد بن حنبل في مسنده: ٥/٣٥، الحديث رقم [١٩٨٤٩]، بترتيب: دار إحياء التراث العربي، (١٢/٦)، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه الترمذي: المرجع السابق نفسه: ٥/٢٦، الحديث رقم [٢٦٤١]، سبق ذكر جزء منه وتخريجه، انظر: ص ٩٨ (البحث نفسه).

وجه: يشير إلى أن الفرقة والاختلاف لابُدَّ من وقوعهما في الأمة وكان يحذر أمته منه لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة)[1].

ولكن (جولدزيهر) يلبس الحق بالباطل ويكتم الحق وهو يعلم، وهذا هو المنهج المذموم الذي عابه الله على أهل الكتاب واليهود بخاصة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

إنَّ المتتبع لمنهج (جولدزيهر) يلمس هذا التلبيس والكتمان فهو ينتزع عقيدة الإسلام من مجريات التاريخ الإسلامي في القرنين الأولين مع التركيز على مقولات الفرق الضَّالة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يخفي بطريقة ماكرة منهج السلف الصالح وما كانوا عليه من عقيدة التوحيد الخالص.. وقد سلك هذا المسلك عند دراساته للحديث النبوي الكريم، وسيأتي مزيدٌ من الرد عليه لاحقًا[3]، بيد إنَّ ما كتمه (جولدزيهر) هو تميز الأُمَّة الإسلاميَّة المرتكز على عقيدة التوحيد التي أخفق فيها اليهود والنصارى وهدى الله إليها الأُمَّة الإسلاميَّة.

* * *

(١) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ص ٣٥؛ تحقيق: محمد حامد الفقي، (مرجع سابق).

(٢) سورة البقرة: الآية (٤٢).

(٣) انظر: الفصل الثاني: موقف المستشرقين من خصائص التميُّز: موقفهم من خصيصة الربانية.

المبحث الثاني

الشريعة وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مطلبين، هما:

المطلب الأول: الشريعة

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منها.

المطلب الأول

الشــريعة

من مقومات تميز الأُمَّة الإسلاميَّة التلازم المحكم بين العقيدة والشريعة، فالشريعة في دين الإسلام منبثقة من عقيدته ومرتبطة بها، قال تعالــى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

والحكم في شريعة الإسلام لله، ﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2]، وبهذا المقوم تتميز الأُمَّة الإسلاميَّة عن غيرها من الأمم، كما إنَّ شريعة الإسلام تعتمد على مصادر للتشريع، تحقق مصالح الأُمَّة بل الإنسانية قاطبة لما اشتملت عليه من أحكام تجلب المصالح وتدفع المفاسد وتلائم الظروف الزمانية والمكانية، وتنطوي على مرونة تمكنها من احتواء المستجدات وربطها بالقواعد المقرَّرة والأصول الثابتة، وفقًا لضوابط شرعيَّة دقيقة تتميز بها الأُمَّة الإسلاميَّة عن غيرها من الأمم.

والبحث في هذا المطلب يتناول:

١- تعريف الشريعة لغة واصطلاحًا.

٢- أهمية النظام في الكون والحياة.

٣- حاجة البشرية إلى النظام.

٤- قصور العقل البشري عن تشريع النظم.

٥- لمحة موجزة عن حال الأمم في ظل بعض النظم البشرية.

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان (١٦٢، ١٦٣).

(٢) سورة القصص: الآية (٨٨).

٦- خصائص الشريعة الإسلاميَّة.

١ - تعريف الشريعة لغة واصطلاحا:

تعريف الشريعة لغة: مشتقة من الفعل الثلاثي (شَرَعَ)، قال ابن فارس: (الشين والراء والعين أصل واحد، وهو شيءٌ يفتح في امتداد يكون فيه، من ذلك الشريعة، وهي مورد الشاربة الماء، واشتق من ذلك الشرعة في الدين، والشريعة..)[١].

وقال الزمخشري: (والشريعة والشِّرعة وشرع الله تعالى الدِّين.. وشرع الباب إلى الطريق، وأشرعته والناس فيه شَرَع وشَرْع: سواء)[٢].

ومِمَّا أورده ابن منظور في دلالتها اللغويَّة قوله: (والعرب لاتسميها شريعة حتَّى يكون الماءُ عَدًّا لا انقطاع له، ويكون ظاهرًا معينًا لايسقى بالرِّشاء..)[٣].

وتطلق الشريعة على المثل، كما ذكر الجوهري إذ قال: (ويقال أيضًا: هذه شرعة هذه، أي مِثْلُها، وهذا شِرْع هذا، وهما شرعان أي مثلان)[٤].

وأورد الفيروزآبادي في معنى الشريعة: (الظاهر المستقيم من المذاهب...)[٥] إلى قوله: (وشَرَعَ لهم، كمَنَعَ: سَنَّ)[٦].

تعريف الشريعة اصطلاحًا: تطلق الشريعة ويراد بها دين الإسلام بمعنى شامل أي (ما شرعه الله لعباده من العقائد والعبادات والأخلاق

---

(١) معجم مقاييس اللغة: مادة (شرع)، (مرجع سابق).

(٢) أساس البلاغة: مادة: (شرع)، (مرجع سابق).

(٣) لسان العرب: المادة نفسها، (مرجع سابق).

(٤) الصحاح: المادة نفسها، (مرجع سابق).

(٥) القاموس المحيط: المادة نفسها، (مرجع سابق).

(٦) القاموس المحيط: المادة نفسها، (مرجع سابق).

والمعاملات ونظم الحياة، في شعبها المختلفة، لتحقيق سعادتها في الدنيا والآخرة)[١].

وتطلق ويراد بها (جملة القواعد والقوانين التي تحدد طريقة عبادة الإله من خلال نصوص شفهية أو مكتوبة، ومن خلال ممارسات عمليَّة يقصد بها التدريب العملي على هذه الكيفية ممن وكل إليه أمر إنشاء الدين أو إبلاغه كما في الأديان السماوية. وبعبارة موجزة إذا كانت العقيدة يترجمها الفكر والتصور فإن الشريعة تترجم الموقف والعلاقة التي يفترض أن تكون بين العابد والمعبود بناءً على تعاليم الإله أو من وكل إليه البلاغ أو من اضطلع بالإنشاء والتأسيس في الديانات الوضعية)[٢].

ومِمَّا يلحظ في التعريف الأول أنَّه تعريف شامل في إطلاق مسمى الشريعة على دين الإسلام، أمَّا التعريف الثاني فإنه يقابل العقيدة ولكنه أطلق مسمى الشريعة على أحكام الدين الإسلامي وغيره سواء كان الدين سماويًّا أو وضعيًّا، على حين يرى بعض العلماء أنَّ مسمى الشريعة لايصح إطلاقه إلاَّ على الشريعة الإسلاميَّة[٣].

---

(١) مناع القطان: التشريع والفقه في الإسلام (تاريخًا ومنهجًا): ص١٥، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ-١٩٨٢ م، عن مؤسسة الرسالة بيروت.

(٢) محمد كمال جعفر: الإنسان والأديان (دراسة مقارنة) ص ٤٠ (مرجع سابق).

(٣) انظر: مناع القطان: التشريع والفقه في الإسلام..: ص ١٦، (مرجع سابق)، وفي بحث له مدرج في: وجوب تطبيق الشريعة الإسلاميَّة والشبهات التي تثار حول تطبيقها (مجموعة أبحاث قدمت لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام بن سعود الإسلاميَّة بالرياض سنة ١٣٩٦هـ)، ونشرته ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م: ص ١٨٨، ذكر أن إطلاق الشريعة على القوانين الوضعية يكون تجوزًا من باب الاستعمال اللغوي أو المقابلة.

وبالرجوع لكتب المصطلحات القديمة وُجِدَ تقسيم يُمكن أن يحدد دلالة الشريعة بمفهومها المحدد أو المتخصص، فقد ورد في معناها الآتي:

أ- (الشريعة ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام التي جاء بها نبيٌّ من الأنبياء صلى الله عليهم وعلى نبينا وسلم، وسواء كانت متعلقة بكيفية عمل، وتسمى فرعيَّة وعمليَّة ودون لها علم الفقه، أو بكيفية الاعتقاد وتسمى أصليَّة واعتقادية ودون لها علم الكلام)[1].

ب- وقال الأصفهاني: (الشرع نهج الطريق الواضح.. واستعير ذلك للطريقة الإلهية، فقال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2] فذلك إشارة إلى أمرين:

أحدهما: ما سخر الله تعالى عليه كل إنسان من طريق يتحراه مِمَّا يعود إلى مصالح العباد وعمارة البلاد، وذلك المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[3].

الثاني: ما قيَّض له من الدين وأمره به ليتحراه اختيارًا مِمَّا تختلف فيه الشرائع ويعترضه النسخ، ودلَّ عليه قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾[5]، فإشارة إلى الأصول التي تتساوى فيها الملل فلايصح

---

(١) محمد على بن علي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون: ١/٧٥٩، مادة (الشرع)، طبعة استانبول، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م، وانظر: محمد الدسوقي وأمينة الجابر: مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي: ص ١٦، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ-١٩٩٠ م، عن دار الثقافة – قطر.

(٢) سورة المائدة: الآية (٤٨).

(٣) سورة الزخرف: الآية (٣٢).

(٤) سورة الجاثية: الآية (١٨).

(٥) سورة الشورى: الآية (١٣).

عليها النسخ كمعرفة الله تعالى، ونحو ذلك...)[1].

يتبين من هذين التعريفين أن الشريعة تطلق ويراد بها:

- الأصول الاعتقادية والأحكام الفقهية بعامة.
- الأصول الاعتقادية.
- نظام الكون والحياة الذي أوجده الله.
- الأحكام الفقهية التي تعاقبت بها الرسل صلوات الله عليهم.
- الأحكام الفقهية التي جاء بها محمد ﷺ منبثقة عن عقيدة الإسلام الواحدة عند جميع الأنبياء والمرسلين ولكنها جاءت ناسخة لكثير من الأحكام التفصيلية في العبادات والمعاملات ونحوها، وجاءت عامّة لكافة البشر وشاملة لجميع جوانب الحياة بعد أن أكمل الله دينه وأتم نعمته ورضي الإسلام للأُمَّة دينًا ممثلاً في رسالة محمد ﷺ خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

أمَّا المقصود بمصطلح الشريعة في هذا المطلب فهو (الأحكام والقواعد التي شرعها الله سبحانه لتنظيم أعمال الناس، وعلاقاتهم المتعددة والمتنوعة، المنبثقة عن العقيدة الإسلاميَّة)[2]، أو هي (النظم التي شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه في علاقته بربه وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون وعلاقته بالحياة)[3].

ومعنى ذلك أن (قواعد الإسلام وأحكامه في السياسة والاقتصاد والاجتماع والقضاء والعقوبات وغيرها من القواعد والأحكام التي تنظم

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (شرع)، (مرجع سابق).

(٢) عز الدين الخطيب وآخرون: نظرات في الثقافة الإسلاميَّة ص ١١٩ (مرجع سابق).

(٣) حسن عيسى عبد الظاهر وآخرون: بحوث في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٣٣١، (مرجع سابق).

الحياة الخاصة والعامَّة تشكل بمجموعها وتفاعلها وتناسقها وترابطها نظام الإسلام)[1]، وكأنَّها مثيلة للعقيدة التي صدرت عنها وعندئذٍ يظهر المعنى اللغوي الذي ذكره الجوهري في قوله: (هذه شرعة هذه أي مِثْلُها)[2]، ويطلق علماء القانون مسمًى (الشريعة) على جملة الأنظمة والقوانين إذا اتصفت بالانسجام العام في مجموعها وانتظمها سياق واحد[3] (لانبعاثها عن روح واحدة)[4]، أمَّا إذا كان القانون أو النظام يتكون من مجموعة قواعد وأحكام حول ظاهرة واحدة أو جانب من جوانب الحياة فقط، فإنَّهم يطلقون عليه النظام القانوني)[5].

وبالنظر لهذه الدلالة مقارنة بالمعاني اللغويَّة والاصطلاحية الواردة في تعريف الشريعة يظهر جليًّا استقلال الشريعة الإسلاميَّة بهذا المسمَّى دون غيرها لما اتصفت به من الظهور والوضوح واليسر والعمق وعدم الانقطاع وهو ما يتفق مع معناها اللغوي؛ ولأنَّ أحكامها تنتظم جميع جوانب الحياة في انسجام تام في داخلها ومع نظام الكون العام والحياة؛ لأنَّ خالق الكون والحياة وهو الله جلَّ وعلا هو الذي سنَّ هذه الشريعة وأبانها وأظهرها، ويتصل بذلك ما أجمله شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: (فالشريعة جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشريعة إنَّما هي كتاب الله وسنة رسوله، وما كان عليه سلف الأُمَّة في

---

(١) عز الدين الخطيب وآخرون: المرجع السابق نفسه: ص ١١٩.

(٢) الصحاح: مادة (شرع)، وسبق ذكر ذلك في معنى الشريعة في اللغة.

(٣) انظر: محمد كمال عبدالعزيز: الوجيز في القانون: ص ١٢، عن مكتبة وهبة - القاهرة، ١٩٦٢ م.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٢.

(٥) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٢.

العقائد والأحوال والعبادات والأعمال، والسياسات والأحكام والولايات والعطيات)[1].

والشاهد في قوله هذا أنَّ سنة الرسول ﷺ وتطبيق السلف الصالح متصل بالشريعة ويتصل بها طاعة ولاة الأمر من المسلمين كما أوضح ذلك فيما تلا من كلامه، إذ قال: (ثُمَّ هي مستعملة في كلام الناس على ثلاثة أنحاء: شرع منزل وهو شرع الله ورسوله، وشرع متأول، وهو: ما ساغ فيه الاجتهاد، وشرع مبدل، وهو: ما كان من الكذب والفجور الذي يفعله المبطلون بظاهر من الشرع أو البدع أو الضلال الذي يضيفه الضالون إلى الشرع)[2]، ثم قال: (يتبين أنه ليس للإنسان أن يخرج عن الشريعة في شيء من أموره، بل كلما يصلح له فهو الشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته ومعاملاته وغير ذلك.. وسبب ذلك أن الشريعة هي طاعة الله ورسوله وأولي الأمر منا)[3].

٢ - أهمية النظام في الكون والحياة:

يمثل النظام في الكون والحياة ضرورة لايُمكن أن تستقيم الحياة بدونها، وقد تكرر الكلام عن آفاق الكون ومشاهد الطبيعة في القرآن الكريم تكرارًا يلفت النظر، وأكثر سور القرآن تستعرض الكون بآفاقه الواسعة وأنواعه الكثيرة، وأقسامه المتعددة، وحركته الدائبة وحوادثه المتكررة[4]، وأنَّه محكوم بنظام بالغ الدقة، ويجري وفق سنن مطردة،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٣٠٨/١٩ أصول الفقه الجزء الأول، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٣٠٩.

(٤) انظر: محمد المبارك: نظام الإسلام (العقيدة والعبادة): ص ٣٨ - ٤٤، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م، عن دار الفكر، دمشق.

وحوادثه السابقة واللاحقة تأتي وفقاً لإرادة الله الأزليَّة، ولايشذ عنها حادثة من الحوادث لا في الزمان ولا في المكان.. كما إنّ التطور الذي يتم في الكون منضبط بنظام متقن متكامل[1].. متناسق مع نظام الحياة في غاية الإبداع.. فكل شيء في الحياة والكون مقدر وموزون ومحسوب، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[2].

والسمة البارزة في عرض القرآن لموجودات الكون، أو ملكوت السموات والأرض، هي أن تعرض عرضًا متنوعًا يدعو الإنسان بإلحاح وتحفيز للنظر والتأمل والتفكير في مجرى حوادثها، والدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[3].

ويدخل الإنسان ضمن مخلوقات الله بدءًا ونهاية فردًا وجماعة وأُمَّة بل وأممًا في منظومة الوجود ونواميسه وعلله وأسبابه ومسبباته، فالكل خاضع لله، ويتحرك في نظام سنَّه الله ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾[4].

ورد في سورة (يس) ما يبين أهمية النظام، وأن الكون والحياة تسير وفق نظام في غاية الدقة والإعجاز، قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ

---

(١) انظر: موريس بوكاي: ما أصل الإنسان ؟ (إجابات العلم والكتب المقدسة): ص ٢٣٧، الطبعة الثانية عشرة، ١٩٨٥ م، عن مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض.

(٢) سورة القمر: الآية (٤٩).

(٣) سورة فصلت: الآية (٣٧).

(٤) سورة البقرة: الآية (١١٦).

ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1].

كذلك الإنسان وهو ذلك المخلوق المكرم الذي استخلفه الله - جَلَّ وَعَلاَ - في الأرض وسخر له الكثير من ملكوت السموات والأرض ليحقق الرسالة التي أنيطت به، وليسير نحو الغاية التي خُلِقَ من أجلها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2]، فإنَّ هذه الرسالة وذلك التكليف لايتأتى والغاية لاتتحقق إلا في ضوء نظام يحدد مساره، وينظم علائقه، ويضبط أوضاعه، ويحل مسائله وقضاياه، وإلاّ سادت الفوضى وعمت الجهالة.

وقد استفاضت الآيات الكريمة في عرض قصة آدم عليه السلام، بما يبين أهمية النظام للإنسان وأنه لايُمكن أن يجد النظام الملائم لفطرته والمتسق مع غايته والكفيل بإسعاده في الحياة الدنيا والآخرة إلا فيما جاء عن الله من الهدى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى

---

(١) سورة يس: الآيات (٣٧ - ٤٠).

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1].

٣ - حاجة البشريَّة إلى النظام:

من الظواهر المتكررة في تاريخ البشرية، أن الإنسان يميل إلى الجماعة، ويندفع إلى التجمع بفطرته، ويلتف حول أفراد جنسه ليكونوا مجتمعًا يلبي حاجاتهم، ويوفر لهم الضرورات وفيه يتم التفاعل بين الفرد والجماعة على مختلف المستويات، وهذه الظاهرة يعبر عنها علماءُ الاجتماع بمقولة (أرسطو): (الإنسان مدني بالطبع)[2]، وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى ذلك في عِدَّة آيات منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[4].

ويدفع البشر إلى التجمع دوافع عدَّة من أهمها:

أولًا: الدافع النفسي، فالفرد يحتاج إلى أن يكون في جماعة ليسكن إليها، كما احتاج أبو البشر عليه السلام إلى حواء عليهما السلام ليسكن إليها، فالدافع النفسي إذن هو الدافع الأول للتجمع البشري،

---

(١) سورة طه: الآيات (١١٦ - ١٢٤).

(٢) نقلاً عن عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعيَّة بين الإسلام والنظم البشرية: ص ٢١، الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، عن مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٣) سورة النساء: الآية (١).

(٤) سورة الحجرات: الآية (١٣).

والإنسان بفطرته يأنس للجماعة، ولابُدَّ أن يعيش في جماعة، ومن أجل ذلك كانت عقوبة السجن مؤلمة للإنسان من الناحية النفسية؛ لأنّ فيها حرمانًا له من الجماعة[1].

ثانيًا: الدافع المادي، لعل فيما أورده ابن خلدون في مقدمته عن ضرورة الاجتماع البشري مايوضح هذا الدافع، إذ قال: (إن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لايَصِحُّ حياتُها وبقاؤُها إلاّ بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلاّ أنَّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل مايُمكن فرضه، وهو قوت يوم من الحنطة - مثلاً - فلايحصل إلاّ بعلاج كثير، من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات، لاتتم إلاّ بصناعات متعددة، من حداد ونجار وفاخوري، وهب أنّه يأكل حبًا من غير علاج، فهو يحتاج في تحصيله - أيضًا - حباً، إلى أعمال أخرى أكثر من هذه، من الزراعة والحصاد والدّراس الذي يخرج الحب من غلاف السنابل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة... ويستحيل أن يفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد، فلابُدَّ من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم)[2].

ثالثًا: الدافع الأمني، ويمضي ابن خلدون في مقدمته مبينًا دافعًا آخر من دوافع الاجتماع البشري وهو الدافع الأمني فيقول: (وكذلك يحتاج

---

(١) انظر: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة: ص ١٩، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م، عن دار العلم للطباعة والنشر - جدة.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص ٤١، ٤٢، (مرجع سابق). وانظر: محمد رأفت سعيد: المرجع السابق نفسه: ص ٢٠.

كل واحد منهم - أيضًا - في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه؛ لأنَّ الله - سبحانه - لمَّا ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان، فقدرة الفرس - مثلاً - أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكذا... قدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته، ولمَّا كان العدوان طبيعيًّا في الحيوان، جعل لكل واحد منها عضوًا يختص بمدافعة ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضًا من ذلك كله الفكر...)[1].

ويواصل بيانه لهذا الدافع حتى قوله: (ولاتفي قدرته... فلابد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه)[2]، ويقرر أخيرًا بأنَّ الاجتماع البشري ضرورة للإنسان ولايتحقق وجود الأُمَّة ورسالتها في إعمار الأرض وتحقيق الخلافة إلاَّ بذلك[3].

إذا كانت هذه الدوافع إلى الاجتماع البشري الذي يلبي ضرورات عدَّة، نفسية، وماديَّة، وأمنيَّة، كحاجة الإنسان إلى الأكل والشرب، وحاجته إلى الزواج وتكوين الأسرة، وحاجته إلى الأمن على نفسه وماله وعرضه ونسله، فإنَّ الحياة الاجتماعيَّة لايُمكن أن تقوم بصفة سويَّة، ووضع مرضٍ إلاَّ بالتعاون بين أفراد المجتمع ولكن هذا التعاون لايتم بمجرد الرغبة فيه والحرص عليه، والنظرة إليه باعتباره أمنية لا مجال لتحقيقها في عالم الواقع[4]، بل لابُدَّ من نظام يحدد للإنسان ماله وما

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ٤٢. وانظر: محمد رأفت سعيد: المرجع السابق نفسه: ص ٢٠، ٢١.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص ٤٢، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون: ص ٤٣، (المرجع السابق نفسه).

(٤) انظر: عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعية..: ص ٢٣، (المرجع السابق نفسه).

عليه في إطار الواجبات والحقوق، وينظم علاقاته التي تنشأ بينه وبين أفراد مجتمعه وهيئاته ومؤسساته المختلفة في شتّى الشؤون وعلى كافة الأصعدة.

وعلى هذا فالفرد والمجتمع بل الأُمَّة بحاجة إلى نظام تطبقه في واقعها وتحافظ به على الضرورات الخمس وهي: (حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قالوا إنها مراعاة في كل مِلَّة)[1]، وتجلب بها المصالح وتدفع بها المفاسد[2]، ونحو ذلك.

وهنا يأتي السؤال من الذي ينظم ؟:

يرى بعض المهتمين بدراسة التاريخ البشري ودراسة علم الاجتماع والنفس والتربية، وكذلك النظم والتشريعات أن البشر قادرون على وضع التشريعات والنظم لقيام حياتهم وتحقيق وجودهم الإنساني المتميِّز، وينيطون ذلك بما وهبه الله للإنسان من عقل قادرٍ على عمل ذلك.

ومهما كانت المسوغاتِ والمبررات لهذا الرأي فإنَّ نهاية التحليل تصل إلى حقيقة مستقرة ومسلَّمة نهائية جوهرها ولبها أن العقل البشري المجرد عن هداية الله وغير المتصل بوحيه تعالى إلى رسله لايتأتى له ذلك بصفة شاملة كاملة مرتبطة بغاية وجود الإنسان ومتسقة مع حقائق الوجود، بل يقصر عن ذلك، وبيان أوجه قصوره في النقطة الآتية:

---

(١) أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ٢/٨، شرح وتخريج وترجمة وفهرسة: عبدالله دراز ومحمد عبدالله دراز وعبدالسلام عبدالشافي محمد، عن دار الكتب العلميَّة – بيروت.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٩، وسيأتي الحديث عن مقاصد الشريعة.

٤ - قصور العقل البشري عن التشريع:

للعقل منزلةٌ عظيمة، وبه يتميز الإنسان عن كثير من مخلوقات الله، وقد أولى الإسلام العقل اهتمامًا بالغًا وعناية كبيرة، وجاء في آيات كثيرة تنويه الإسلام بالعقل كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[1]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾[2] ونحوهما، فالعقل في الإسلام وسيلة إلى الإيمان، وهو مناط التكليف، وبه يفهم الشرع وتكاليفه وأحكامه، وله مجالاته الواسعة وآفاقه العريضة التي سخَّرَها الله للإنسان، ولكنه محدود بحدود طبيعية ومقيد بضوابط كثيرة، وإذا كانت له مجالات واسعة يُمكنه أن يبدع في مضمارها، وله طرائقه المنطقية الصحيحة في كثير من قضايا الحياة وميادين الفكر فإنَّه غير قادر على تشريع نظام كاملٍ شامل يكفل سعادة الإنسان ويحقق غاياته العليا في الحياة والوجود إلا إذا أعمل في ضوء الوحي وبهديه[3]؛ وذلك لأوجه القصور الملازمة له وأهمها:

أولاً: قصوره من ناحية الزمن، فالإنسان مهما نضج عقله، وبلغ من القوة منتهاها في إطاره الإنساني إلاَّ أنَّه محدود بحدود زمنية وأخرى مكانيَّة، لايستطيع عقله تجاوزها أيًّا كانت عبقريته، أمَّا الحدود الزمانية فعلى افتراض أن الإنسان عَلِمَ بحاضره الذي يعيش فيه، وعلم شيئاً عن الماضي بالدراسة والاطلاع فإنَّه لايستطيع أن يدعي علم المستقبل، ومن الاستحالة على عقله علم ذلك، لهذا فإنَّ النظام الذي تصدَّى لوضعه

---

(١) سورة يوسف: الآية (١٠٩). وقد وردت في القرآن الكريم بهذه الصيغة نحو إحدى عشرة مرَّة.

(٢) سورة يس: الآية (٦٨). وردت بنحو هذه الصيغة نحو عشر مرات.

(٣) انظر: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة..: ص ٢٤، (المرجع السابق نفسه).

وتشريعه لو صلح على سبيل الافتراض فسيكون صلاحه في إطار فترة زمنيَّة محدودة، ويكفي هذا الوجه من قصور العقل من الناحية الزمنيَّة قادحًا في النظام الذي صدر عن عقل الإنسان؛ لأنَّه سيكون عرضة للجمود وعدم الصلاحيَّة بمجرد مرور الزمن، فالغد يأتي بما لم يحط المنظر بعلمه، وعندئذٍ يكون التغيير أمرًا لا مفرَّ منه، وقد يكون تغييرًا شاملاً ومع التغيير المستمر يصبح النظام غير قادر على توفير الاستقرار والأمن النفسي للمجتمع لما يعتريه من التقلب المستمر والتضارب والتناقض؛ لأنَّه خضع لإطارٍ زمني ضيق.

إنَّ هذا القصور سمة لازمة للنظم البشرية، مِمَّا جعل الطريق غير مأمون على المجتمعات البشرية في ظل تنظيمها لنفسها[(١)].

ثانيًا: قصور العقل البشري من الناحية المكانية حيث إنَّ عقل الإنسان محدود بالمكان الذي يعيش فيه، والبيئة التي خضع لمؤثراتها بصفة مباشرة أو غير مباشرة، وما يؤدي إليه ذلك من محدوديَّة العقل وتركيزه على بيئته وجهله بالبيئات الأخرى فإذا تصدى العقل البشري للتنظيم والتشريع فإنَّ ما ينتج عنه لو صلح - افتراضًا - لبيئة لن يصلح لغيرها...، وعلى هذا لن تتحقق الوحدة المتوخاة في النظم تلك الوحدة التي تعد أساسًا في الشريعة؛ لأن البشريَّة متحدة في أصلها وفطرتها وغايتها، وإن تباعدت الأوطان واختلفت الألوان والألسنة والشعوب والقبائل، والوحدة مطلوبة لتعيش المجتمعات البشرية في سلام ووئام[(٢)].

ثالثًا: قصور العقل البشري من حيث الإلمام بجميع الأطراف التي

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٤.

(٢) انظر: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة: ص ٢٥، (المرجع السابق نفسه).

يتصدى لتنظيمها، وطبيعة من ينظم لهم، وتحقيق التوازن في ذلك كله؛ فالميل إلى طرف من الأطراف هي السمةّ الظاهرة على الفكر البشري، أو التركيز على جهة من الجهات، أو فكرة أو نزعة.. ونحو ذلك، استجابة لتأثير البيئة على المفكر، وتأثير النَّزْعة التي تربًى عليها، فمن ربيً على نزعة ماديًة تطرف إليها وصار نحوها، ومن ربيً على نزعة خياليًة جنح إليها، وقد يميل المفكر إلى نزعة فرديًة ضد الجماعة، أو على حسابها، وقد يميل آخر إلى نزعة جماعية ضد مصلحة الفرد[(١)]، لذلك فإنً ما يصدر عن الإنسان من نظام سيصطبغ بصغة ذلك الإنسان نفسه، ويكون انعكاساً لنزعاته وأهوائه وميوله.

وقد ألمح ابن خلدون إلى ذلك حينما تحدًث عن الملكات وذكر: (أنً من أحكم ملكة وأجادها ورسخت في نفسه لايستطيع أن يجيد ملكة أُخرى ويحكمها)[(٢)]، أي إن الإنسان لايستطيع تحقيق التوازن وبلوغ درجة الإبداع حينما يتصدى للتنظيم، وهذا القصور لدى الإنسان يفرض عليه الميل في التفكير إلى فكرة يبدو له بريقها ثُمً لايجيد الوصول إليها، وعندئذٍ يختل التوازن في النظم البشريًة، ولعل (مدينة أفلاطون) إحدى النَّمَاذج الدَّالّة على قصور العقل البشري، إذ أراد الخير لمجتمعه وشرع في التنظير له، ولكن بحكم قصور العقل البشري ومحدوديًة تفكيره أفرز نظامًا مدمرًا حيث اشتمل نظامه ذلك على أن يقتل الأولاد الذين يولدون لآباء شريرين حتى يقضي على الشر في مجتمعه الفاضل أو

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٦.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون: ص ٤٠٥. وانظر: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميًة: ص ٢٦، (المرجع السابق نفسه).

مدينته الفاضلة، وكان هذا النظام متأثرًا بعقيدة باطلة تشربها (أفلاطون) من بيئته التي تعتقد بتوارث الشر، فترسبت هذه العقيدة في سويداء قلبه ومال إليها تفكيره، وتلونت بها شخصيته، وبالتالي دبَّت في نظامه فجاء نظامًا جائرًا وتشريعًا ظالما، وكان من الممكن أن ينجو الفكر البشري من هذه الأفكار الخاطئة والنظم الجائرة لو اهتدى بنور الوحي[1] فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2].

ونزعة أخرى ظهرت في نظام (أفلاطون) بحكم اعتماده على عقله بعيدًا عن هداية الوحي، فقد تطرَّف نظامه إلى النزعة الجماعية على حساب الفرد، وكان يرى (أنَّ وجود أي منفعة شخصية لفرد يهدم منفعة المجموع، ولذا يجب أن تنهار المصالح الفرديَّة ويقضى عليها... بحيث لايجوز أن يكون لأي فرد في الأُمَّة منفعة شخصية تتميز عن منفعة مجموعها)[3].

إنَّ (أفلاطون) أنموذجٌ من النماذج البشرية التي حاولت أن تنظم لمجتمعها استنادًا على العقل البشري مستقلا عن وحي الله فكان هذا التطرف الذي لم يستطع تحقيق التوازن بين الماديَّة والروحيَّة، ولا بين نزعة الفرد ومصلحة الجماعة، ولا بين الواقع والخيال[4].

رابعًا: جهل الإنسان بحقيقته، إذا كان الإنسان الذي هو موضوع

---

(١) انظر: عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعية... ص ٤٦، (مرجع سابق). وانظر: محمد رأفت سعيد: المرجع السابق نفسه: ص ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة فاطر: الآية (١٨).

(٣) عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعية: ص ٤٦، (مرجع سابق).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٧، ٤٨. وانظر: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة: ص ٢٧، (المرجع السابق نفسه).

التنظيم، أو الأساس في التنظيم لايزال مجهولاً عند نفسه فكيف يضع النظام الذي يكفل المحافظة على ضروراته ويلبي حاجاته ومتطلبات حياته بصفة شمولية متوازنة ؟!، وكيف يؤمل فيه أن يكون مصيباً فيما يُشرع من نظام بمنأى عن الوحي الرباني الذي يصله بخالقه - عزوجل.

إنَّ جهل الإنسان بحقيقة نفسه وطبيعة حاله حقيقة قررها العلماء المعنيون بدراسة الإنسان، وعلى سبيل المثال فإنَّ (ألكسيس كاريل) وهو عالم مختص في مجال دراسة الإنسان، ألّفَ كتابًا أسماه (الإنسان ذلك المجهول) أبان فيه أن الإنسان لايفهم نفسه ككل، وهذا واضح في قوله: (لقد بذل الجنس البشري مجهودًا جبَّارًا لكي يعرف نفسه، ولكن وعلى الرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة - فقط - من أنفسنا... إننا لانفهم الإنسان ككل)[1].

ويواصل حديثه مبينًا أنَّ هناك قصورًا كبيرًا في فهم الإنسان لطبيعته وأعماق نفسه، فيقول: (إننا نعرفه - أي الإنسان - على أنَّه مكون من مركب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة)[2] ويؤكد فيما ذكر بأنَّ معرفة الإنسان بنفسه ما زالت بدائية[3].

إنَّ جهل الإنسان بنفسه كان السبب الأساس في اختلاف النظرات

---

(١) نقلاً عن: محمد رأفت سعيد: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٢٨.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨.

إليه وتعدد مدارسها التي خبطت في قضاياه خبط عشواء، ففي حين ينظر إليه من خلال بعض تلك النظريات ومدارسها بأنَّه إله وأنَّه سيد الكون، ينظر إليه من خلال جانبه المادي ويصنَّف في منزلة تقترب به من منزلة الحيوانات... وذاق الإنسان في ضوءِ هذه النظريات المتعارضة المتناقضة صنوفاً من المرارة، وأصبح الإنسان في العصر الحديث يعيش في أزمة طاحنة، تحدث عنها كثيرٌ من المفكرين وصرحوا بها في كتابات متنوعة[1]، منها على سبيل المثال: ما ذكره (تشارلز فريكل) في قوله: (على الرغم مِمَّا حققه العصر الحديث من معجزات العلم والتكنولوجيا، إلاَّ أنَّ الثورة على الإنسان المعاصر الذي سيطر بعقله وعمله على الكون بدأت تشتد وتقوى، إذ أنَّه على الرغم من كل ذلك لم يحصل على السعادة ولا الطمأنينة، وما زالت قيمه في تخبط ووجوده مهدداً بالقلق)[2].

جاءت هذه الأزمة التي تحدَّث عنها (تشارلز) وغيره من العلماء والمفكرين نتيجة طبيعية لاعتداد الإنسان بنفسه واعتماده على العقل فيما شرع لحياته من نظام لايفي بمتطلبات الناس بصفة تكفل لهم السعادة المنشودة وتنسجم مع غاياتهم العليا ومنطلقاتهم الحقيقية لذلك أصبحت حياة الإنسان، وفي ظل تلك النظم متأزمة[3]، وتحقق فيها قول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا

---

(١) انظر: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة: ص ٢٨، (المرجع السابق نفسه).

(٢) نقلاً عن المرجع السابق نفسه: ص ٢٩.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٢، وانظر: سمير عبده في مقدمة كتاب: برترالدراسل: الفوز بالسعادة: ص ١٢، ١٣، من منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، طبعة ١٩٨٠ م.

وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1].

٥ - لمحة موجزة عن حال الأمم في ظل بعض النظم البشرية:

تعجز تشريعات البشر ونظمهم عن إسعاد الإنسان وتحقيق غايات وجوده ونشاطه الحضاري الشامل إذا انقطعت عن وحي الله وهدايته سواء في القديم أو الحديث.

أمَّا في القديم فهناك ثلاثة أمثلة تبينٍ بجلاء أن الأمم في ظل النظم التي وضعتها عقول البشر لم تجنِ إلا الفوضى والقلق والاضطراب والظلم والجور:

الأول: النظام الروماني، فقد كان للمجتمع الروماني قانون منظم يوصف بأنَّه متقن في الصياغة والسيادة، وذلك في القرن الخامس الميلادي وهو المشهور باسم (مدونة جوستينان)[2]، فماذا قدم هذا القانون للمجتمع الروماني ؟.

لقد حمى الأشراف وقرر لهم حقوقاً ليست للضعفاء، ومِمَّا قرره الآتي:

- إنَّ بعض الرعايا ممن ليسوا رومانًا بالسلالة ليست لهم حقوق الرومان فهم كالعبيد يعملون لأجل الرومان، ولتشبع بطونهم.

---

(١) سورة طه: الآية (١٢٤).

(٢) تتضمن خلاصة القوانين التي عرفتها الدولة الرومانية، وقد أنجز تحت رعاية الامبراطور الروماني (جوستينان ت ٥٦٥ م) خلال ست سنين (٥٢٨ - ٥٣٤ م) اشتغل به أساتذة القانون في معهد حقوق (بيزانس) القسطنطينية، ومعهد حقوق بيروت، لمزيد من الاطلاع. انظر: محمد محسن البرازي: حول الفقه الإسلامي والفقه الروماني، مجلة الرسالة، العدد (١٠٨)، الصادر بتاريخ ٢٩ يوليو ١٩٣٥ م، السنة الثالثة: ص ١٢١٥، مجلة للآداب والعلوم والفنون، كانت تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر، القاهرة، وانظر: التعريف به في مكان لاحق، (البحث نفسه) ص ٤٣٤.

- إنَّ العبيد لايعاملون معاملة الآدميين.
- ليست للمرأة شخصية مستقلة بل هي في حكم المملوكة للرجل أبًا كان أم زوجًا.
- تجميع الميراث في قريب واحد ويحرم منه الباقون[1].

فهذا النظام ليس مقتصرًا على إنه طبقي فحسب بل يسلب حقوق الضعفاء ليزداودا ضعفا، ويعطيها الأقوياء ليزدادوا قوة على قوتهم[2].

الثاني: النظام الفارسي، ارتكز هذا النظام على دعوة دينيَّة تعتمد تعاليم (زرادشت) وهي القول بتعدد الآلهة، أو إله الخير وإله الشر، وما انبنى على هذه العقيدة الفاسدة من الشركيات والتصورات الباطلة، كان من أبرزها دعوة (ماني) إلى التشاؤم المطلق، فقد دعا إلى فناء الإنسانية ليتخلص العالم من شرورهم، ثُمَّ أعقبه (مزدك) فزعم أن آثار المباغضة والعداوة المستمرة بين الناس، إنَّما تقع بسبب الأموال والنساء، فدعا إلى شيوعيَّة الأموال والنساء حتى صار الرجل لايعرف ولده، ولا المولود يعرف أباه، ولايملك الناس شيئًا، فانهار المجتمع الفارسي بهذه الفوضى العارمة[3].

الثالث: الأعراف الجاهليَّة في المجتمع العربي، لم يكن العرب أسعد

---

(١) انظر: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة: ص ٣٠، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمد الدسوقي وأمينة الجابر: مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي: ص ٤٨ – ٥٠، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ -١٩٩٠ م، دار الثقافة، الدوحة.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٠، وانظر: محمد يوسف موسى: التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي: ص ٧١، ٧٢، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ -١٩٩١ م، عن العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٠، وانظر: الشهرستاني: الملل والنحل: ١/٢٨٣ – ٢٨٩، (مرجع سابق).

حالاً قبل الإسلام من غيرهم، ولم يكن لهم نظام جامع ولا وحدة تضم شتات قبائلهم، وإنْ كانت القبيلة تخضع لكبيرٍ منها يفصل في النزاع الناشب بين أفرادها ونحو ذلك، وكان لهم جملة من الصفات الحميدة ومكارم الأخلاق، ولكن كانت العلاقات بين الناس يسودها الظلم[1] والجهل والتفكك والثارات القبلية، والتبعيَّة للأمم الأُخرى المجاورة لهم من فرس وروم، وكانت عصبية الجاهليَّة تسيطر على المشاعر والمواقف، يقول الشاعر العربي:

وَمَنْ لَمْ يَـذُدْ عن حَوضِهِ بسلاحِهِ يُهَدَّمْ ومَن لايَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ[2]

ويقول الآخر:

وَهل أَنَا إلاَّ من غُزَيَّـــةَ إنْ غَوَتْ غويتُ، وإنْ تَرْشُدْ غُزَيَّــةُ أَرْشُدُ[3]

ولَمَّا جاء الإسلام نهض العرب برسالة الإسلام فأصبحوا قادة العالم وأعلام الهداية، وجنود الحق والتوحيد، في ظل شريعة الإسلام

---

(١) انظر: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة: ص ٣٠، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٢٩١/٤ - ٢٩٩ - ٤١٣، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠ م، عن دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) زهير بن أبي سلمى: معلقة زهير بن أبي سلمى المزني، البيت [٥٤]، شرح: محمد علي طه الدُّرة: فتح الكبير المتعال، إعراب المعلقات العشر الطوال (معلقة زهير بن أبي سلمى) ص٧، عن دار الإرشاد بحمص، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.

(٣) البيت لدريد بن الصِّمَّة من قصيدة رثى بها أخاه عبدالله لَمَّا قتلته عبس: مختارات الأغاني لابن منظور ١٠٧/٥ - ١١١، الطبعة الأولى، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م، عن المكتب الإسلامي، بيروت، وانظر: السيد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أبيات وإنشاء لغة العرب ٨/٢، من منشورات مؤسسة المعارف - بيروت (بدون تاريخ).

الخالدة التي قام عليها تميز الأُمَّة الإسلاميَّة[1].

أمَّا حال المجتمعات والأمم غير الإسلاميَّة في العصر الحديث، تلك التي اعتمدت على العقل وتنكرت للدين وأهميته في سعادة الإنسان فإنَّها بما فيها من مذاهب فكريَّة متصارعة، ونظم متباينة إنَّما تعود في جذورها إلى ثقافات قديمة وتطبيقات جديدة شقي بها الإنسان في ظل القوانين الوضعية المختلفة، يقول (الدوكس هكسلي): (إنَّ العالم - الآن - يشبه قبيلة تعبد الشيطان، وتعيش في ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد، والماديَّة البحتة، التي تجرد الإنسان من كل مشاعر الإنسان بلا حُبّ وبلا تعاطف، وتقوم على تبادلات الاتصال الجنسي على نحو ما تفعل السائمة)[2].

واعترف (جاك مارتيان) بأهمية الوحي في تنظيم حياة البشر، ودعا إلى الاعتراف بعجز الإنسان عن وضع النظم الكفيلة بإسعاده وإخراجه من الأزمة المعاصرة، يقول: (إنَّ أيَّ مجتمع بشري يحتاج إلى مجموعة من القيم ذات المصدر الإلهي الذي يعلو على الإنسان، أي إنَّ مصدر القيم لايجوز أن يرجع إلى الإنسان نفسه، وإلا سيكون طرفا وقاضياً في الوقت نفسه، إذن لابُدَّ لكي يحتفظ المجتمع البشري باستقراره وخضوعه

---

(١) انظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة: ص ١٦ - ٣٣، الطبعة الحادية عشرة ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م، عن موسسة الرسالة - بيروت، ولمزيد من الاطلاع على حال العرب في الجاهليَّة. انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص٥٢ - ٦٢، الطبعة الثامنة، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، عن دار الكتاب العربي، بيروت، وعن العرب في ظل الإسلام انظر: المرجع نفسه: ص ٧٨ - ١٢٨.

(٢) نقلاً عن محمد رأفت سعيد: المرجع السابق نفسه: ص ٢٩، وانظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم..: ص ٢١٨ - ٢٢٨، (المرجع السابق نفسه).

للسلطة السياسية، من وجود حقائق مطلقة يسلم بها الأفراد جميعًا)[1].

وقال عالم القانون الشهير (جورج هوايت كروس باتون): (إنَّ السبيل الوحيد للوصول إلى معايير متفق عليها هو الاعتراف بالوحي السماوي قانونًا)[2].

إنَّ هذه الأقوال تلتقي مع الرأي الذي يعول على الوحي والدين السماوي في قضية التشريع، وأنَّ البشرية من فجر تاريخها اعتمدت على الشريعة الإلهية: (فالحقيقة أن تنظيم الحياة البشرية هو من المفاتيح العليا المقدسة لهذه الحياة، ولم يكن الله سبحانه وتعالى ليترك الناس عرضة للخطأ فيها وللتجارب الأليمة، فإنَّه في كل مرَّة يعدل الناس عن نظام إلى آخر تقوم الثورات والحروب والنكبات، وتراق الدماء، وتصادر الأموال، وتضطرب الأمور، وينقسم الناس، ولذلك فقد أهدى الله هذه الهديَّة الغالية، وهي بيان نظم حياتهم)[3].

ومن هنا يتضح (أنَّ الدين منذُ القدم ضرورة اجتماعية، والوازع الديني أقوى حافز على احترام القواعد التنظيميَّة في أية جماعة، ومنذُ وجدت الجماعات البشرية اتجهت إلى السمو عن طريق النزعات

---

(١) نقلاً عن: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة: ص ٢٩، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمد عبدالمنعم نور: النظم الاجتماعية في الإسلام: ص ٢٤ - ٣٣، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م، عن دار المعرفة، القاهرة.

(٢) محمد رأفت سعيد: المرجع السابق نفسه: ص ٣٣.

(٣) مصطفى كمال وصفي: مدخل النظم الإسلاميَّة: ص ٨١، عن عالم الكتب، القاهرة، (بدون تاريخ)، وانظر: محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام: ص ١٤ - ١٧، الطبعة السابعة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، عن دار الشروق، بيروت.

الدينية)[1]، و (أنَّ الديانات السماويَّة بدأت منذُ بدءِ الخليقة، فالله سبحانه وتعالى منذ استخلف آدم على الأرض أوحى إليه أنَّه هو خالقه وبارئه، وخالق العوالم الأخرى من إنس وجن وحيوان وموجودات، وخالق الكون كله، كما أوحى إليه بحدود خلافته وذريته في الأرض، وبالقدر اللازم لتنظيم حاجاتهم كجماعة بدائية)[2]، فالدين بشطريه (العقيدة والشريعة) أتى الإنسانَ من عند الله وظلَّ على عقيدة التوحيد وشريعة الرحمن إلى حين. ثُمَّ اقتضت حكمة الله أن ينشب الصراع بين الجاهليَّة والإسلام، وكلما استحكمت الجاهليَّة أو كادت بعث الله رسولاً يعيد الناس إلى شريعة الله حتى جاء خاتم الأنبياء وسيد المرسلين بالهدي التام والشريعة الكاملة، فكان منَّة الله على الأُمَّة الإسلاميَّة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3]، ومِمَّا جاء في تفسيرها: (أنَّ الحكمة هي السنة، التي هي شقيقة القرآن، ووضع الأشياء موضعها، ومعرفة أسرار الشريعة، فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفيذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة، جميع المخلوقين وكانوا من العلماء الربانيين)[4].

ويقوم تميز الأمة على عقيدة التوحيد الخالص التي جرى البحث في

---

(١) علي علي منصور: المدخل للعلوم القانونية والفقه الإسلامي: ص ٣٨، عن مطبعة مخيمر، القاهرة، ١٩٦٧ م.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٩، ٢٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٦٤).

(٤) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ١/ ٤٥٠، (مرجع سابق).

خصائصها، ويقوم أيضًا على شريعة غراء تنبثق من تلك العقيدة وتماثلها في خصائصها.

٦ - خصائص الشريعة الإسلاميَّة:

تبينت مِمًّا سبق أهمية النظام في الكون والحياة وحاجة البشر إلى ذلك، واتضح عجز الإنسان عن الإتيان بتشريع يتوافر له الشمول والكمال الذي يكفل للإنسانية مايسعدها وينسجم مع غاياتها العلياء وحقيقة وجودها، وتبين بالأدلة ضرورة الوحي الرباني وأهميته للاضطلاع بهذه المهمَّة، ومن أبرز مايجلي ذلك هو ما وقع في تاريخ الإنسانية حيث كانت شريعة الله هي المنهاج الذي سلكه الرسل عليهم السلام وأتباعهم على مر العصور حتى جاءت شريعة الإسلام فكانت - هي مسك الختام - كاملة لايعتريها نقص، شاملة لايلحقها قصور.

وفي هذا يقول الشاطبي: (إنَّ هذه الشريعة المباركة معصومة، كما أنَّ صاحبها ﷺ معصوم، وكما كانت أمته فيما اجتمعت عليه معصومة)[١]، وساق الأدلَّة على ذلك، وصنفها على وجهين:

الأول: ما دلَّ على ذلك تصريحا أو تلويحا، واستدل بآيات من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٢]، وكقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٤]،

---

(١) الموافقات ٢/٤٤، (مرجع سابق).

(٢) سورة الحجر: الآية (٩).

(٣) سورة هود: الآية (١).

(٤) سورة المائدة: الآية (٣).

واستدل على هذا الوجه - أيضًا - ببعض أقوال السلف وما صاحب نزول الوحي على الرسول ﷺ وصونه عن تخليط الشياطين على الرسول ﷺ واستراقهم السمع[1].

الثاني: ما توافر للأُمَّة الإسلاميَّة من وعي وفكر وعمل ونحوها من دواعي المحافظة على الشريعة والذب عنها بدءًا بعنايتها بالقرآن الكريم وعلومه والسنة النبوية وعلومها، واللغة العربية وعلومها[2]، وفي ذلك قال: (الاعتبار الوجودي الواقع من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن، وذلك أن الله عزوجل وفَّرَ دواعي الأُمَّة للذب عن الشريعة والمناضلة عنها بحسب الجملة والتفصيل.

أمَّا القرآن الكريم فقد قيض الله له حفظه بحيث لو زيد فيه حرف واحد لأخرجه آلاف من الأطفال الأصاغر، فضلاً عن القراء الأكابر، وهكذا جرى الأمر في جملة الشريعة، فقيض الله لكل علم رجالاً حفظه على أيديهم)[3].

وتختص الشريعة الإسلاميَّة إلى جانب ذلك بخصائص كثيرة جعلت منها نظامًا يصلح لكل زمان ومكان ويَعْلُو ولايعلى عليه، من أهم هذه الخصائص الآتي:

أولاً: تنبثق الشريعة في الإسلام من عقيدة التوحيد الخالص لله وترتبط بها وتلازمها؛ لذلك فإنَّ ما سبق ذكره، من أنَّ الشريعة تطلق على مجموعة الأنظمة والقوانين إذا اتصفت بالانسجام لانبعاثها عن روح

---

(١) انظر: الموافقات ٢/٤٥، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٥ - ٤٧.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٤٥.

واحدة لاينطبق إلاَّ على الشريعة الإسلاميَّة عند التحقيق؛ لأنها صادرة عن الله وانبثقت من عقيدة التوحيد التي تميَّزت عن سائر العقائد برؤيتها الشاملة للكون والحياة ولايُمكن أنْ يتحقق الانسجام التام في جميع النظم إلاَّ في الشريعة الإسلاميَّة، حيث لايقتصر شمولها على تناولها جميع جوانب حياة الإنسان دينًا وآخرة - فحسب - بل ينسجم مع سياق النظام الشامل للكون والحياة.

أمَّا من حيث ارتباطها بالعقيدة فإنَّ الآيات الواردة في تقرير أمور العقيدة كثيرًا ما تتناول قضية الحقوق والواجبات والأخلاقيات والآداب مثل قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[١].

قال بعض المفسرين في تفسيرها: (دخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد، التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد...)[٢].

وعندما ينطق المسلم: (لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله)، (تأتي أهَميَّة الشهادة الثانية وخطورتها وضرورتها وهي محمد رسول الله،

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٧٧).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ٢١٢/١، (مرجع سابق).

فمعناها عهد من الناطق بها على أنَّه يلتزم بالخضوع لله حسب ما جاء به محمد ﷺ فقط، ونبذ كل ما على الأرض من أساليب الخضوع لله سواء كانت وضعية أو سماويَّة لأنَّ ذلك كله باطل من ناحية، كما أنَّه من الناحية العملية لايحقق إفراد الله تعالى بالخضوع، كما لايحقق الخضوع التام اللائق بألوهيته تعالى، لذلك لاتنفصل الشهادتان عن بعضهما، فلو أخذ فرد أو مجتمع الشهادة الأولى: «لا إله إلاّ الله» وترك الثانية، لما كان موحدًا ولما أفرد الله بالألوهية ولما قصر الخضوع له إلاّ قولاً فقط، وشأنه شأن الظمآن الذي يريد أن يرتوي بالاقتصار على التلفظ بكلمة ماء. فلا سبيل ولا كيفية عملية لإفراد الله تعالى بالألوهية أو لتحقيق الشهادة الأولى إلاّ بالإيمان والعمل بمقتضى الشهادة الثانية «محمد رسول الله»، أي قصر التلقي والطاعة على ماجاء به محمد ﷺ ورفض التلقي عن غيره والطاعة لمن سواه، باعتباره المبلغ الوحيد عن الله ولديه الوحي الأخير الذي لم يصبه تغيير أو تشويه أو تحريف، ففي الشهادة الأولى نبذ للأديان الوضعية والمذاهب الفلسفية والنظم الاجتماعية الجاهليَّة؛ لأن إفراد الله بالألوهية هو رفض الخضوع لغير أمره وتنظيمه، وفي الثانية نبذ للأديان السماوية المحرفة التي تدعي نسبتها لله سبحانه وتعالى كاليهودية والنصرانية)[1].

ومن مقتضى شهادة «محمد رسول الله» تنبثق الشريعة الإسلاميَّة (فالعلاقة إذن بين العقيدة والنظم في المجتمع المسلم علاقة وطيدة وثيقة... ولذلك لايوجد مجتمع مسلم بدون عقيدة التوحيد الإسلاميَّة، ولو تغيرت عقيدة التوحيد لانتهت النظم الإسلاميَّة أو أصابها التغير

---

(١) فاروق الدسوقي: مقومات المجتمع المسلم: ص ٧٥، ٧٦، (مرجع سابق).

بقدر الانحراف عن التوحيد في نفوس الأفراد.. كما أنَّه من الخطأ البين وصف مجتمع بأنَّه مسلم.. أو موحد دون أن تكون نظمه إسلامية، أي دون تطبيق الشريعة الإسلاميَّة في شتى جوانب حياته)[1].

وأمَّا من حيث الانسجام مع النظام الشامل للكون والحياة، (فإنَّ جميع الموجودات في هذا العالم - من أكبر الأجرام الفلكية إلى أصغر الذرات - يخضع كل منها لقانونه الخاص الذي ينبع من ماهيته الذَّاتية ووجوده الخاص كما أن هذا العالم المخلوق ككل وفي مجموعه يخضع أيضًا لناموس كلي يسير حسبه أيضًا... وإلى تلك الربوبية الشاملة للكون المخلوق تشير الآية الأولى من فاتحة الكتاب ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2]... فكل شيء في الكون خاضع لقاعدة معينة، ويسير في نشأته ونموه وفنائه حسب هذه القاعدة، سواء فلكًا أو جبلاً أو بحرًا أو حيوانًا أو إنسانًا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3]... (ومِمَّا تعنيه أيضًا) الكفالة والإصلاح والإدارة وتسيير الأمور وتنظيمها والسيادة والحكم وحيازة السلطة والأمر النافذ...، والإيمان بالربوبية يقتضي بالضرورة إفراد الله سبحانه وتعالى بالتشريع والتدبير والتنظيم في حياة البشر الفردية والاجتماعية وذلك يعني رفض أي نظام جاهلي وضرورة الاقتصار على النظام الاجتماعي الإسلامي، وموحد الربوبيَّة هو من يرفض أن يتعامل مع الناس بغير التشريع الإلهي)[4].

---

(١) فاروق الدسوقي: مقومات المجتمع المسلم: ص ١٧٧، ١٧٨، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة الفاتحة: الآية (٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

(٤) فاروق الدسوقي: المرجع السابق نفسه: ص ٧٨ - ٨٣. ولمزيد الاطلاع انظر: صلاح=

ثانياً: أنها ملزمة ولايصح لأحد الخروج منها، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[2]. وورد عن الرسول ﷺ قوله: «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[3]، وقوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... »[4].

=الصاوي: تحكيم الشريعة وصلته بأصل الدين: ص٢٣- ٢٩، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، عن دار الإعلام الدولي، القاهرة. وانظر: مناع خليل القطان: وجوب تطبيق الشريعة الإسلاميَّة..: ص ١٩٥، ٣٢٧ - ٣٣٠، بحث مدرج في: وجوب تطبيق الشريعة والشبهات التي تثار حول تطبيقها، من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ، ونشر عن إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م، الرياض.

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٦).

(٢) سورة النساء: الآية (٦٥).

(٣) أدرجه ابن رجب في كتابه: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، الحديث الحادي والأربعون: ص ٤١٧، وقال عنه: (حديث حسن صحيح)، وهو مروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وفي رواية أخرى زيادة «ولايزيغ عنه» في آخره. ولمزيد الاطلاع على ما قيل في صحة هذا الحديث وضعفه راجع: المرجع نفسه ص ٤١٨ - ٤١٩، طبعة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، عن دار الجيل، بيروت، وانظر: السيوطي: مفتاح الجنَّة في الاعتصام بالسنة: ص ٩٨، تحقيق: بدر بن عبدالله البدر، (مرجع سابق).

(٤) رواه البخاري: صحيح البخاري ٣٠٤/١، الحديث رقم [٨٥٣]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، جزء من حديث رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنه، وأخرجه البخاري: صحيح البخاري في مواطن كثيرة من صحيحه منها ما ورد في ٣٠٤/١ كتاب الجمعة، الحديث رقم [٨٥٣]، وتكرر بألفاظ متقاربة في الأحـاديث ذات الأرقـام الآتية=

والآيات الواردة في ذلك والأحاديث مستفيضة[1]؛ قال ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ... ﴾ الآية: (أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق بقضائه وحكمه، ولم يكتف منهم بذلك أيضًا حتى يسلموا تسليمًا وينقادوا انقيادًا)[2].

وذكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب من نواقض الإسلام: (الاعتقاد بأن غير هدي الإسلام أكمل من هديه، وأن حكم غيره أحسن من حكمه،... ومن اعتقد أنَّ بعض الناس يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ)[3].

ومقتضى ذلك أن تكون ناسخة لما قبلها[4]، كفيلة بإيجاد الحلول

=[٢٢٧٨، ٢٤١٦، ٢٨٩٢، ٤٩٠٤، ٦٧١٩]، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (مرجع سابق).

(١) انظر: مناع خليل القطان: وجوب تطبيق الشريعة: ص ٢٠٠ - ٢٠٨، (المرجع السابق نفسه).

(٢) بدائع التفسير ٣٢/٢ - ٣٧، (مرجع سابق). وانظر: ابن رجب جامع العلوم والحكم، (المرجع السابق نفسه) ص ٤١٧ - ٤٢١.

(٣) الرسالة التاسعة (نواقض الإسلام): الناقض الرابع والناقض التاسع: ص ٣٨٦، ٣٨٧، من مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب القسم الأول (العقيدة والآداب الإسلاميَّة)، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة (أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ١٣٩٨ هـ - الرياض) تصنيف وإعداد: عبدالعزيز زيد الرومي، محمد بلتاجي، سيد حجاب، (بدون تاريخ).

(٤) لمزيد الاطلاع على هذا الجانب وما أثير حوله من آراء. انظر: عبدالرحمن بن عبدالله الدرويش: الشرائع السابقة ومدى حجيتها في الشريعة الإسلاميَّة: ص ١٤٧، ١٤٨، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ، وأصله رسالة دكتوراه مقدمة لقسم أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، نوقشت عام ١٣٩٨ هـ.

الملائمة لكل ما يجد في حياة الأُمَّة الإسلاميَّة من قضايا ومشكلات.

ثالثًا: (الجزاءُ في الشريعة دنيوي وأخروي)[1]:

تقترن الأنظمة البشرية بجزاء توقعه عندما يقتضي الأمر ذلك في حق من يخرج عليها وتتعدد صور ذلك الجزاء ولكنه جزاء دنيوي[2]، أمَّا الشريعة الإسلاميَّة فإنها (تختلف معها في أن الجزاء فيها أخروي ودنيوي، بل أن الأصل في أجزيتها هو الجزاءُ الأخروي، ولكن مقتضيات الحياة، وضرورة استقرار المجتمع، وتنظيم علاقات الأفراد على نحو واضح بين مؤثر، وضمان حقوقهم، كل ذلك دعا إلى أن يكون مع الجزاء الأخروي جزاء دنيوي...)[3].

والأمثلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنَّة مثل قوله تعالى بعد ذكر أحكام المواريث: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[4]، وفي جزاء قُطَّاع الطريق قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[5]، ومِمَّا يترتب على الجزاء في الشريعة الإسلاميَّة

---

(١) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ٣٨، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٨.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٣٨.

(٤) سورة النساء: الآيتان (١٣، ١٤).

(٥) سورة المائدة: الآية (٣٣).

الخضوع لأحكامها (خضوعًا اختياريًا في السر والعلن خوفًا من عقاب الله)[1] في حالة النهي والتحذير والطمع في الثواب في حالة الأمر والندب، إلى جانب ما يبعثه الجزاء في النفوس (من الهيبة والتأثير)[2].

رابعًا: (الشمول والإحاطة: فما من عمل يعمله الإنسان أو قول يقوله إلاّ والشريعة الإسلاميَّة قد اتخذت منه موقفًا بعينه، تأمر به أو تنهى عنه، أو تندب إليه أو تكرهه، أو تجعله من المباحات ومن هنا كانت الأخلاق والعادات والأعمال، صغيرها وكبيرها ممَّا تعنى به الشريعة الإسلاميَّة أشد عناية حتى تلك الأمور التي يهتدي إليها الإنسان بفطرته كالأكل والشرب والنوم واللباس تضع الشريعة لها حدودًا وترسم لها أبعادًا، وما من علاقة تسود المجتمع بين أفراده، أو المجتمع المسلم من المجتمعات الأخرى إلاّ وضعت الشريعة لها نظامًا وحددت لها آدابًا، وما من قضية تتصل بنظام الاجتماع الإنساني، من سياسة أو اقتصاد أو إدارة إلاّ وبينت الشريعة الإسلاميَّة فيها الرأي الصائب والموقف السديد)[3]، قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [4]، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [5].

---

(١) انظر: فاطمة السيد علي سباك: الشريعة والتشريع: ص ١٤، من سلسلة، دعوة الحق، عن رابطة العالم الإسلامي بمكة، العدد [١٧٣] جمادى الأولى ١٤١٧ هـ. وانظر: عبدالكريم زيدان: المرجع السابق نفسه: ص ٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٢) فاطمة علي سباك: المرجع السابق نفسه: ص ١٥.

(٣) علي عبدالحليم محمود: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٦٦، (بحث مدرج بهذا العنوان ضمن البحوث المقدمة في المؤتمر الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ، مؤتمر الفقه الإسلامي)، ونشر عنها، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م الرياض.

(٤) سورة الأنعام: الآية (٣٨).

(٥) سورة النحل: الآية (٨٩).

وانطلاقاً من هذا الشمول وتلك الإحاطة قسَّم بعض العلماء أحكام الشريعة (إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: الأحكام المتعلقة بالعقيدة كالإيمان بالله واليوم الآخر...، وهذه هي الأحكام الاعتقادية، ومحل دراستها في علم الكلام أو التوحيد.

والثانية: الأحكام المتعلقة بالأخلاق كوجوب الصدق والأمانة والوفاء بالعهد، وحرمة الكذب والخيانة ونقض العهد، وهذه هي الأحكام الأخلاقية ومحل دراستها في علم الأخلاق والتصوف.

الثالثة: الأحكام المتعلقة بأقوال وأفعال الإنسان في علاقاته مع غيره، وهذه هي الأحكام العملية وقد سميت فيما بعد بـ (الفقه) ومحل دراستها علم الفقه.

والأحكام العملية بالنسبة إلى ما تتعلق به تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: العبادات كالصلاة والصوم، والمقصود بها تنظيم علاقة الفرد بربه.

القسم الثاني: العادات أي المعاملات، وهي التي يقصد بها تنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم، وهذه تشمل جميع روابط القانون العام والخاص في الاصطلاح الحديث...)[1].

ولايعني هذا التقسيم أو أيُّ تقسيم نحوه استقلال جانب عن غيره من جوانب الشريعة بل تتسم بالإحاطة والشمول من جانب آخر وهو (شمول الأخذ والتطبيق فمن خصائصها أنها لاتقبل التجزئة لأنها كل

---

(١) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ٥٠، (مرجع سابق)، ولمزيد من التفصيل. انظر: المرجع نفسه: ص ٤٩ - ٥٣، وانظر: محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلامية: ص ٥٢، ٥٣، (مرجع سابق).

مترابط متداخل، كترابط الإنسان وتداخله في كيان واحد)[1]، يؤثر بعضه في بعضه الآخر، ولايصح (أن يؤخذ ببعضه ويترك بعضه؛ لأنه كل متكامل لايُمكن الاستغناء عن شيء منه بحال، ولايستطيع نظام آخر من أنظمة البشر أن يحل محله أو محل بعضه أو يشاركه في تحقيق مصالح الناس)[2].

وقد أنكر الله على الذين يلتزمون ببعض أحكام الشريعة ويطبقونها ويفرطون في بعض أحكامها الأخرى ولايلتزمون بها، بل رُبَّمَا عملوا بضدها، فقال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

قال ابن كثير في تفسيرها: (يقول الله تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج... فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر.. وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم... ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة)[4]، فدلَّ ذلك على أن الشريعة لاتقبل التجزئة، وأنَّها ملزمة ومرتبطة بالإيمان.

خامسًا: الثبوت والتحول اشتملت الشريعة الإسلاميَّة على أحكام

---

(١) محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة: ص ٥١، (مرجع سابق).

(٢) علي عبدالحليم محمود: الغزو الفكري...: ص ٦٦، (المرجع السابق نفسه).

(٣) سورة البقرة: الآية ٨٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/١٢٠، (مرجع سابق).

ثابتة قطعية وأخرى متغيرة واسعة مِمَّا حقق للشريعة خصيصة المرونة والسعة إلى جانب الثبوت والاستقرار[1]، وقد كفلت هذه الخصيصة صلاح الشريعة لكل زمان ومكان؛ لأنَّها (تلائم كافة متطلبات الحياة ومختلف متغيرات الاجتماع البشري)[2].

وقد انقسمت أحكامها من أجل ذلك إلى قسمين:

أحدهما: (قسم ثابت قطعي لايتأثر بتغير الزمان والمكان والناس، وهو يتمثل في الأمور الثلاثة التالية:

١- الأحكام القطعية الصريحة الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة، كحرمة الزنا والخمر والميسر والربا، وكأنصبة الورثة من مورثهم، وكالحدود: وهي العقوبات المقدرة على جرائم بعينها؛ كحد السرقة، وحد الزنا، وحد القذف، وما إلى ذلك.

---

(١) خصص يوسف القرضاوي قسمًا من كتابه مدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ١٤٧ – ٢٢٩ للحديث عن عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلاميَّة، طبعة دار وهبة، ١٩٩٠ م، القاهرة، ويبدو أنَّ أساسه مقدم لمؤتمر الفقه الإسلامي ضمن بحوث: وجوب تطبيق الشريعة الإسلاميَّة...: ص ٦٧ – ١٤٠، (المرجع السابق نفسه)، وتبين هذه العوامل بشكل تفصيلي هذه الخصيصة من خصائص الشريعة الإسلاميَّة، في عدَّة نقاط، هي:

١ – سعة منطقة العفو المتروكة قصدًا.

٢ – اهتمام النصوص بالأحكام الكلية.

٣ – قابلية النصوص لتعدد الأفهام....

٤ – رعاية الضرورات والأعذار والظروف الاستثنائية.

٥ – تغيُّر الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف، وانظر: عبدالحميد محمود طهماز: ميزات الشريعة الإسلاميَّة على القوانين الوضعيَّة: ص ٥٣ – ٥٨، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م، عن دار القلم – دمشق.

(٢) علي عبدالحليم محمود: الغزو الفكري: ص ٦٨، (مرجع سابق).

٢- الضوابط العامة التي لايجوز لمسلم أن يتجاوزها في تصرفاته وأعماله، كحد عدد الزوجات بأربع، وحد الطلاق بثلاث مرات، وحد الثلث للوصية، وغير ذلك.

٣- القواعد العامة التي يعرف بها الحلال من الحرام، مثل حرمة كل شيء مسكر، وحرمة كل بيع لايتم فيه تبادل منفعة بين الجانبين على تراضٍ منهما، ومثل قوامة الرجال على النساء)[١].

فهذه الأحكام ثابتة لاتتأثر باختلاف الزمان والمكان ولاتتحول.

والآخر: (قسم متغير متطور يخضع للمتطلبات الآتية في كل زمان ومكان، وهذا القسم يتمثل في الأمور التالية:

١- تفسير الأحكام: أو تأويلها من لدن رجال الفقه الإسلامي، بحيث يسوغ هذا التفسير اليوم وربَّما يسوغ غدًا، مادام التفسير مؤيدًا بالقرائن والدلائل، وهو باب اتسع وما يزال يتسع في مختلف العصور التي مرت على المسلمين.

٢- القياس: وهو تطبيق حكم شرعي ثبت في قضية ما، على قضية أخرى تماثل تلك القضية أو قياسها عليها[٢]، وهو باب رئيس في هذه (الأحكام) المتغيرة المتطورة.

٣- الاجتهاد: وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة فهمًا دقيقًا واعيًا، ثُمَّ تطبيق هذه القواعد والأصول على قضايا جديدة لم

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٦٩.

(٢) وضابطه عند علماء الأصول: (حمل فرع على أصل في حكم، بجامع بينهما). الطوفي: شرح مختصر الروضة ٢١٩/٣، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، (مرجع سابق).

تكن لها نظائر في السابق[1].

٤- الاستحسان: وهو وضع ضوابط.. جديدة تحقق مصلحة عامَّة المسلمين جميعًا، أو مصلحة عامة لبعض الأفراد منهم، بحيث لاتتعارض تلك المصلحة مع شيء من قواعد الإسلام وأصوله وروحه[2].

وهذا القسم المتغير المتطور هو الذي يتيح لأهل الرأي وأصحاب الحل والعقد من المسلمين أن يضعوا من النظم.. لكل عصر ما يناسبه، ولكل زمان ما يليق به، متجاوبين في ذلك مع مصالح المسلمين المتجددة المتغيرة)[3].

وبهذه الخصيصة حققت الشريعة الإسلاميَّة الملاءَمة التامَّة لحياة الأُمَّة الإسلاميَّة، فما كان ثابتًا في حياتها فأحكامه في الشريعة ثابتًا، وما كان متطورًا فإنَّ الشريعة تحدث له حلولاً تلائمه، ومن الأمثلة على ذلك (أنَّ الفتوى تتغير وتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد والنيات)[4].

---

(١) وضابطه عند علماء الأصول: (بذل المجهود في العلم بأحكام الشرع). المرجع السابق نفسه ٥٧٦/٣.

(٢) من معانيه عند علماء الأصول: (أحد القياسين لكن سمّي استحسانًا إشارة إلى أنه الوجه الأولى في العمل، وأن العمل بالآخر جائز). المرجع السابق نفسه: ١٩٩/٣، وانظر: الشاطبي: الاعتصام: ٦٣٥/٢ - ٦٦٨، تحقيق: الهلالي، (مرجع سابق).

(٣) علي عبدالحليم محمود: الغزو الفكري..: ص ٦٩، ٧٠، (المرجع السابق نفسه).

(٤) ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين ١١/٣ - ٣٨، ترتيب وضبط وتخريج: محمد عبدالسلام إبراهيم، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ-١٩٩١ م، عن دار الكتب العلميَّة - بيروت.

من هنا فإنَّ الشريعة الإسلاميَّة (نظام لايعيش في فراغ، ولايمعن في الخيال، وإنَّما يتميز بالواقعية وسهولة التطبيق)[1] واتصاله التام بحياة الأفراد والأُمَّة وطبيعة الحياة.

ومن جانب آخر فإنّ مصادر التشريع الإسلامي (الكتاب والسنة والإجماع والقياس) مجال رحب يعمل المجتهد فكره في إطارها للكشف عن حكم شرعي أو إيجاد حل لما قد يعتور مسيرة الأُمَّة ويجد في حياتها، وذلك وفق ضوابط شرعية مقرَّرة تتميز بها الأُمَّة الإسلاميَّة عن غيرها من الأمم، مِمَّا جعل الشريعة الإسلاميَّة تنطوي على عوامل البقاء والاستمرار على كر الجديدين، محفوظة بحفظ الله ومحققة للخير والسعادة والفلاح للأُمَّة في العاجل والآجل[2].

سادسًا: العدل والإحسان والمساواة، فالله أنزل شريعته (لإقامة العدل بين الناس ورفع الظلم عنهم، فلا مجال فيها لأدنى ميل وانحراف عن ميزان العدل)[3]، والذي صدرت عنه الشريعة - جَلَّ وَعَلاَ - (حرم الظلم على نفسه لكماله وغناه وحكمته، وحرَّمه بين الناس، كما جاء في الحديث القدسي الشريف: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلاتظالموا»[4]،... وأمر سبحانه بالعدل، وجعله أعظم الأمانات ومسئووليات الحاكم المسلم فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) علي عبدالحليم محمود: المرجع السابق نفسه: ص ٦٦، ٦٧.

(٢) عن أثر الاجتهاد في المحافظة على منهاج الأُمَّة وعقيدتها. انظر: عابد السفياني: بهذا العنوان نفسه، مجلة البيان، العدد [٢٥] رجب ١٤١٠ هـ في الصفحات (١٦ - ٢٠)، تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن.

(٣) عبدالحميد محمود طهماز: ميزات الشريعة الإسلاميَّة: ص ٧٥، (مرجع سابق).

(٤) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٩٩٤/٤ كتاب البر - رقم الحديث [٢٥٧٧]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

﴿ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾[1]. والعدل مطلوب حتى مع العدو.. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾[2].

وتطبق المساواة في الشريعة الإسلاميَّة بالصفة الصحيحة (فلا امتياز لأحد في ظل الشريعة الإسلاميَّة، فالله سبحانه هو الذي شرعها، وهو المالك الخالق لجميع المخلوقات، والناس كلهم عبيده، وهم سواء أمام شرعه)[3].

والأمثلة على هذه الخصيصة كثيرة جدًا في تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة، وقد سطر التاريخ ذلك الموقف الفذ لرسول الأُمَّة وقدوتها ﷺ حينما سرقت المرأة المخزومية وتحركت فيها الشفاعة لشرف قبيلتها ومنزلتها، فقال الرسول ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنه وهو (حب الرسول وابن حبه): «أتشفع في حدٍ من حدود الله... وأيمُ الله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[4].

(وتمتاز الشريعة أيضًا أنها سنت إلى جانب العدل الإحسان والفضل، وهي مرتبة رفيعة ندبت إليها الشريعة وحثت عليها)[5].. وبهذا حققت

---

(١) سورة النساء: الآية (٥٨).

(٢) سورة المائدة: الآية (٢).

(٣) عبدالحميد محمود طهماز: المرجع السابق نفسه: ص ٧٩.

(٤) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١٣١٥/٣ كتاب الحدود - باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، الحديث رقم [١٦٨٨]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٥) عبدالحميد محمود طهماز: ميزات الشريعة الإسلاميَّة..: ص ٧٧، (مرجع سابق).

المثل الأخلاقية الرفيعة التي دعت الناس إليها، كالعفو والإيثار والتسامح،... والإحسان والفضل مقترن مع كثير من أحكام الشريعة[1]...، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾[3].

وقد قرر بعض الباحثين - في مقارنة أجراها بين الشريعة والقانون - أن الشريعة (جاءت بتقنين الأخلاق، أي جعل الأوامر والأحكام الأخلاقية قوانين ملزمة)[4]، بخلاف القانون الذي جاء على (أساس تقنين العادات، أي صياغة ما تعارف عليه الناس من أوضاع وتقاليد في صورة قوانين)[5].

وهنا يلحظ الفارق الكبير بين نظام ينظر للواقع وينقاد لما فيه من

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٧٧ - ٧٩. ولمزيد من الاطلاع على ما تتسم به الشريعة من التزام بالقيم الخلقيَّة. انظر: محمد عبدالله دراز: دستور الأخلاق في القرآن: ص ٢١ - ١٣٤، تعريب وتحقيق وتعليق: عبدالصبور شاهين، الطبعة الأولى، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م، عن دار البحوث العلمية، الكويت.

وانظر: يوسف القرضاوي: مدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ١٠٢ - ١١٨، (مرجع سابق)، وقد أورد أمثلة كثيرة تدل على أخلاقيات الشريعة وأن هذه الأخلاق تشمل حتى الحيوان والرفق به، كما أن الشريعة الإسلاميَّة لاتقتصر على تشريع أحكام للأخلاق والآداب بل تربي الأمَّة عليها وتأخذ بيدها لتتحلى بالفضائل وتبتعد عن الرذائل.

(٢) سورة النحل: الآية (٩٠).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٧٨).

(٤) يوسف القرضاوي: مدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ١٠٤، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٤.

أخلاط الخير والشر والفضيلة والرذيلة والحق والباطل، وبين نظام يرتقي بالواقع وينطلق من تربية الناس على الفضيلة ومحاربة الرذيلة، وتنمية الخير ومكافحة الشر، ولزوم الحق ومدافعة الباطل، وإذا كان هذا هو نظام شريعة الإسلام فإنَّها أقرب إلى نفوس الناس من جانب آخر؛ لأنَّهُم يلتزمونها باعتبارها من الدين (فيلتزمون بها التزامًا طوعيًّا نابعًا من أعماق قلوبهم، ولايساقون إليها بعصا السلطان وقهر الحكام، بل بصوت من القلب ورهبة من الديَّان، ورغبة في النعيم المقيم فتكون الطاعة إرهافًا للإحسان، وإيقاظًا للمشاعر، وتنمية لنوازع الخير وتطهيرًا للنفس من نوازع الشر... إنَّ ربط القانون الإسلامي بالدين جعله مرتبطًا كل الارتباط بقانون الأخلاق)[1].

ومن مظاهر الفضل والإحسان في الشريعة الإسلاميَّة واتسامها بالأخلاق النبيلة، ما قرره فقهاؤها من (عدم جواز تسليم الأجنبي في الدولة الإسلاميَّة إلى دولته ولو على سبيل المفاداة بأسير مسلم؛ لأنَّ الأجنبي دخل بأمان، وعلى الدولة الإسلاميَّة أن تفي بعهدها له فيبقى آمنًا لايمسه سوء، وتسليمه بدون رضاه غدر بالأمان لا رخصة فيه فلايجوز)[2].

---

(١) عبدالحميد محمود طهماز: ميزات الشريعة الإسلاميَّة...: ص ١٠٠، (مرجع سابق).

(٢) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ٥١، (الحاشية)، (مرجع سابق)، ولمزيد من الاطلاع على سماحة الإسلام في التعامل مع الآخرين وما تتسم به تشريعاته من وفاء بالعهد ورعاية الأنفس والأموال؛ انظر: الإمام محمد بن الحسن الشيباني: السير الكبير وشرحه للإمام السرخسي: ٢/٣٠٠، وقبلها: ١/٧٠، ٧١، ٧٢، تحقيق: مصطفى زيد، ومحمد أبو زهرة، طبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٨م؛ وانظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ٥١، ٥٢، (مرجع سابق).

ومن مظاهر العناية بالأخلاق، (أن الأجنبي الداخل إلى دار الإسلام بأمان تؤخذ منه ضريبة على أمواله التجارية بمقدار ما تأخذه دولته من المسلم إذا دخل إليها بأموال تجارية، ولكن إذا كان المأخوذ من المسلم كل ماله فإنَّ الدولة الإسلاميَّة لاتفعل ذلك بالنسبة لرعايا تلك الدولة، ويعلل الفقهاء هذا المسلك بأنَّ أخذ أموال الأجنبي ظلم ولا متابعة بالظلم، وإننا لانتخلق بأخلاقهم وإن تخلقوا هم بها بل نهينا عنه، كما لو قتلوا الداخل إليهم منَّا بأمان لانقابلهم بالمثل، فلانقتل من دخل إلينا منهم بأمان)[1].

ومن مظاهر عناية الأُمَّة الإسلاميَّة بالأخلاق في تعاملها مع أهل الذِّمَّة تحقيقاً لما تأمر به الشريعة ما روي (أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى عدي بن أرطأة بالبصرة: أمَّا بعد... وانظر من قبلك من أهل الذمة ممن كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه فقد بلغني: أن عمر بن الخطاب مرَّ بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه)[2].

---

(١) عبدالكريم زيدان: المرجع السابق نفسه: ص ٤٦: ص ٥١، (الحاشية).

(٢) عبدالكريم زيدان: المرجع السابق نفسه: ص ٤٦، وانظر: القاضي أبي يوسف: كتاب الخراج: ص ١٢٦، أورد قصة عمر بن الخطاب مع ذلك الرجل المسن من أهل الذِّمة وما تفضل به أمير المؤمنين رضي الله عنه من عطاء له ولأمثاله من أهل الذمة.. ولكن لم أجد لكتاب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه المشار إليه أيَّ ذكر على الرغم من البحث المتقصي في سائر الكتاب، ولكن توجد مواقف كثيرة تدل على الإحسان بأهل الذِّمَّة؛ انظر: المرجع نفسه: ص ١٢٢ - ١٢٦، طبعة دار المعرفة، بيروت، (بدون تاريخ)؛=

سابعًا: أنَّها (مبنيَّة على مصالح العباد)[1]، قال ابن قيم الجوزية: (هذا فصل عظيم النفع جدًّا، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لاسبيل إليه ما يعلم أنَّ الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لاتأتي به، فإنَّ الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدَّالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتمَّ دلالة وأصدقها وهي نوره الذي أبصر به المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم...)[2].

وقال العز بن عبدالسلام: (والشريعة كلها مصالح، إمَّا تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح)[3]، والمستقرئ لأحكام الشريعة الإسلاميَّة يخلص إلى هذه النتيجة من وجوه:

الأول: أنَّ رسالة المصطفى ﷺ بعامة جاءت رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[4]، فيدخل في ذلك

=وانظر: أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأموال: ص ٤٦ - ٥٤، تحقيق: محمد خليل هراس، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عن دار الكتب العلمية، بيروت.

(١) ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين ١١/٣، (مرجع سابق).

(٢) أعلام الموقعين...: ١١/٣، (المرجع السابق نفسه).

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ٩/١، طبعة دار المعرفة - بيروت، (بدون تاريخ).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

ضمنًا (رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم)[1].

الثاني: مجيء أحكام الشريعة – في جملتها – معلّلة بكونها تحقق مصالح الأُمَّة وتدرأ عنهم المفاسد[2]، كقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3]، وكقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[4]، وكقول الرسول ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنَّه أغض للبصر وأحصن للفرج»[5]، هذه الأحكام في مجملها لم تأتِ في مواد محدَّدة تنص على فعل أو ترك وإنَّما جاءت معلَّلة بما به حياة النفوس وذكر الغاية من التشريع وأنه في مصلحة الأُمَّة إمَّا بجلب مصلحة أو دفع مفسدة في العاجل أو الآجل (لإعلام المكلفين إنَّ تحقيق المصالح هو مقصود الشارع)[6].

---

(١) انظر: الشاطبي: الموافقات ٢/٢٩، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ٤٠، (مرجع سابق).

(٢) انظر: عبدالكريم زيدان: المرجع السابق نفسه: ص ٤٠. وانظر: محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلاميَّة: ص ٤٥، (مرجع سابق)، وقد بين أن من أحكام الشريعة ما هو معلل، ومنها ما هو تعبدي محض لم يهتدِ إلى حكمته ومنها ما هو متوسط بين النوعين، وشرح ذلك في الصفحات (٤٥ – ٤٨)، (المرجع السابق نفسه).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٧٩).

(٤) سورة الأنفال: الآية (٦٠).

(٥) أخرجه البخاري: صحيح البخاري، ٥/١٩٥٠، كتاب النكاح، الحديث رقم [٤٧٧٩]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم: صحيح مسلم، ٢/١٠١٨، كتاب النكاح، الحديث رقم [١٤٠٠]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٦) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ٤١، (مرجع سابق)، وانظر: محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة..: ص ٧٣ – ٧٧، (مرجع سابق).

الثالث: اتسام أحكام الشريعة باليسر ورفع الحرج، ومن الأمثلة على ذلك (تشريع الرخص عند وجود مشقة في تطبيق الأحكام من ذلك إباحة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها حفظاً لمصلحة بقاء النفس، وإباحة المحرم عند الضرورة كأكل الميتة ولحم الخنزير وشرب الخمر، وإباحة الفطر في رمضان للمسافر والمريض ونحو ذلك. ولاشك أن دفع المشقة ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة)[(١)].

ومن يسر الشريعة التدرج في التشريع والتمهيد له وتخفيف بعض الأحكام بالنسخ ونحوه[(٢)].

وقد توصل الفقهاء إلى وضع ضوابط فقهيَّة تنطلق في مجملها، وتتسم تفاصيلها باليسر ورفع الحرج عن المكلفين، وخصصوا لها كتباً مستقلة من أبرزها (كتاب تأسيس النظر للدبوسي الحنفي، وكتاب قواعد الأحكام في مصالح الأنام لعز الدين بن عبدالسلام الشافعي، وكتاب القواعد لابن رجب الحنبلي)[(٣)]، (والقواعد الفقهية.. تصوير

---

(١) عبدالكريم زيدان: المرجع السابق نفسه: ص ٤١، ولمزيد الاطلاع انظر: الشاطبي: الموافقات ١/١٣١، ٢٢٣ - ٢٦٨، ناقش فيها العزائم والرخص باستفاضة وتفصيل، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه: ص ١٩٣ - ١٩٦، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، مكتبة الفلاح - الكويت.

(٣) كتاب تأسيس النظر، تأليف: أبي زيد عبيد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي الحنفي، الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، عن مكتبة الخانجي، القاهرة، وكتاب قواعد الأحكام.. لعز الدين.. يتكون من جزءين في مجلد واحد، طبع دار المعرفة - بيروت، (بدون تاريخ)، والقواعد في الفقه الإسلامي لابن رجب، يقع في مجلد واحد، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عن دار الجيل - بيروت.

جميل للمبادئ الفقهية وضبط الفروع، وقد اكتسبت هذه القواعد صياغتها عن طريق التداول بين الفقهاء)[١].

ومن أبرز هذه القواعد الآتي:

- اليقين لايزول بالشك.
- المشقة تجلب التيسير.
- الضرر يزال.
- العادة محكمة[٢].

الرابع: التفاوت في النظر إلى الأحكام وتقسيمها من حيث مقاصدها، (وجد بالاستقراء أنّ مصالح العباد تتعلق بأمور ضروريّة أو حاجية أو تحسينيّة، فالأولى هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها، وإذا فاتت حلَّ الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة، وهذه الضرورات هي «حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل»[٣]،... والحاجيات هي التي يحتاج إليها الناس ليعيشوا بيسر وسعة، وإذا فاتتهم لم يختل نظام الحياة ولكن يلحق «المكلفين - على الجملة - الحرج والمشقة، ولكنه لايبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامّة... أمّا التحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول

---

(١) كامل موسى: المدخل إلى التشريع الإسلامي: ص ٤٧، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) انظر: كامل موسى: المدخل إلى التشريع الإسلامي: ص ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٢، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمد الدسوقي وأمينة الجابر: مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي: ص ٧٦ - ٨٥، (مرجع سابق)، وانظر: مناع خليل القطان: الشريعة الإسلاميّة: ص ٥٩، ٦٠، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، عن الدار السعودية للنشر..، جدة.

(٣) الشاطبي: الموافقات: ٢/٨، (مرجع سابق).

الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق»[1]... وإذا فاتت هذه - أيضًا - فلايختل نظام الحياة ولايصيب الناس حرج ولكن تخرج حياتهم عن النهج الأقوم وما تستدعيه الفطر السليمة والعادات الكريمة، والشريعة جاءت لتحقيق وحفظ الضروريات والحاجيات والتحسينات، وبهذا حفظت مصالحهم)[2].

وبناءً على ذلك فإنَّ الأحكام الشرعيَّة تتفاوت بصفة أو أخرى بحسب درجة تلك المقاصد[3]، وتسعى لتحقيقها في عامَّة الأُمَّة (بدون حرج ولا مشقة، فتجمع بين مناحي مقاصدها في التكاليف والقوانين مهما تيسر الجمع، فهي ترتقي بالأُمَّة من الأدون من نواحي تلك المقاصد إلى الأعلى بمقدار ما تسمح به الأحوال وتيسر حصولها وإلاّ فهي تتنازل من الأصعب إلى الذي يليه مِمَّا فيه تعليق الأهم من المقاصد)[4]، وهذا الوجه يسهم في (دوام أحكام الشريعة للعصور والأجيال)[5].

ومهما تشعبت آراءُ الفقهاء في تفاصيل المقاصد وتطبيقاتها[6] إلاّ أنَّ

---

(١) الشاطبي: المرجع السابق نفسه: ٢/٨.

(٢) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ٤١، (مرجع سابق).

(٣) انظر: يوسف القرضاوي: مدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ٨١، ٨٢، (مرجع سابق)، وقد ساق نماذج من ذلك التفاوت بدءاً بما حدث في عهد الرسول ﷺ ثُمَّ في عهد الخلفاء الراشدين ثم في عهد عمر بن عبدالعزيز، ثُمَّ ما أفتى به الفقهاء وكان متفاوتًا في الأحكام بالنظر إلى مقاصد الشريعة.

(٤) محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلاميَّة: ص ٧٦، ٧٧، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ١٥.

(٦) انظر: خلاصة آراء الفقهاء بصدد تعديل الأحكام الشرعية على أساس المصلحة العامة لدى: أحمد زكي يماني: الشريعة الخالدة ومشكلات العصر: ص ٤١ - ٤٦، الطبعة=

هناك قدرًا مشتركًا - في الأعم الأغلب - فيما بينهم حول (أهمية الاعتماد على الكليات التشريعية وتحكيمها في فهم النصوص الجزئية وتوجيهها، وهو نوع من رد المتشابهات إلى المحكمات، والجزئيات إلى الكليات، فكليات الشريعة ومقاصدها العامة، هي أصول قطعية لكل اجتهاد، ولكل تفكير إسلامي)[1].

ويرى بعض الباحثين أنَّ ما أقدم عليه علماء الأُمَّة بعد الصدر الأول من تاريخها من (بيان علل الأحكام وغايات الإسلام ومقاصد الشريعة وأهدافها، فبينوا أنَّ لكل حكم من أحكام الإسلام وظيفة يؤديها وغاية يحققها وعلة ظاهرة أو كامنة يعمل لإيجادها، ومقصدًا وهدفًا يقصده ويستهدفه لتحقيق مصلحة للإنسان أو دفع مفسدة ومضرة عنه)[2]، إنَّ ذلك كله وما دار في إطاره يُمكن الاعتماد عليه كمنهج في فهم الشريعة الإسلاميَّة وبخاصة ما تميز به الشاطبي في هذا المضمار، وأنَّ ما سُمِّيَ بـ (نظرية المقاصد عند الشاطبي)[3] يُمكن أن يعاد لها الاعتبار (ولابُدَّ من وضعها في المقام الأول، ثم يرتب ما عداها عليها. وهذه خطوة ضرورية لإعادة تشكيل العقل المسلم، ولإعادة ترتيب موازينه وأولوياته، ذلك أن من أهم مظاهر أزمة العقل المسلم: اختلال الموازين والأولويات التي وضعها الإسلام في نصابها، فوقع فيها - على مرِّ العصور - تقديم

=الثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، عن الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة.

(١) طه جابر العلواني: مقدمة كتاب: أحمد الريسوني: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص [د]، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ -١٩٩٢ م، عن الدار العالمية للكتاب الإسلامي - الرياض.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص [أ].

(٣) انظر: أحمد الريسوني: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، (المرجع السابق نفسه).

وتأخير، وتفخيم وتفزيم، على خلاف وضعها الحق)[1].

وفي ختام هذا يحسن الربط بين الشريعة الإسلاميَّة بخصائصها ومنطلقاتها وغاياتها وبين ما قاله ابن منظور في معناها اللغوي من أنَّ (العرب لاتسميها شريعة حتى يكون الماء عدًّا لا انقطاع له، ويكون ظاهرًا معينًا لايسقى بالرِّشاء)[2]، فإنَّ هذا المعنى متحقق في الشريعة الإسلاميَّة وهي بخصائصها التي سبق شرح مجملها تعد من مقومات تميز الأُمَّة الإسلاميَّة ذلك التميُّز الذي تسنَّمَ القمة في تاريخ الأمم والشرائع عندما أنزل الحق تبارك وتعالى على رسوله محمد ﷺ خاتم الأنبياء وسيد المرسلين قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[3]، وكانت حكومة الرسول ﷺ النموذج الأمثل في تطبيق الشريعة، والسلطة السياسيَّة التي تنفذها وتشرف على تطبيقها[4]؛ دستورها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثُمَّ سارت الأُمَّة الإسلاميَّة منذُ عهد الصحابة والسلف الصالح وحتى العصر الحاضر وإلى أن يأتي أمر الله في ظل هذه الشريعة الخالدة، (ومن الحقائق المسلمة أن الشريعة الإسلاميَّة قد وسعت العالم الإسلامي كله على تنائي أطرافه، وتعدد أجناسه، وتنوع بيئاته الحضاريَّة، وتجدد مشكلاته الزمنيَّة... وأنها - بمصادرها ونصوصها وقواعدها - لم تقف يومًا من الأيام مكتوفة اليدين، أو مغلولة الرجلين، أمام وقائع الحياة

---

(١) طه جابر العلواني: مقدمة المرجع السابق نفسه: ص [د].

(٢) لسان العرب: مادة (شرع)، (مرجع سابق).

(٣) سورة المائدة: الآية (٣).

(٤) انظر: علي عبدالحليم محمود: الغزو الفكري...: ص ٦٧، ٦٨، (مرجع سابق).

المتغيّرة.. وأنها ظلت القانون المقدس المعمول به في بلاد الإسلام حوالي ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، إلى أن جاء عهد الاستعمار الغربي الذي استبدل بها تشريعاته الوضعية...)[1]، ثُمَّ استمرت بعض تلك القوانين كأثر من آثار الاستعمار ولأسباب أخرى، منها الاعتماد على بعض التأويلات للنصوص الشريعة التي تنص على وجوب تطبيق الشريعة بما يبرر هذا الواقع[2]، ومنها الجهل بمكانة الشريعة وشمولها وكمالها، ومنها التأثر بالثقافة الغربية والغزو الفكري ومخططات أعداء الأُمَّة الإسلاميَّة[3].

على أنَّ هناك أسبابًا أخرى تعود لما أصاب الفقه الإسلامي في بعض أطواره من (الضعف والركود والتوقف عن سيره الأول شيئًا فشيئًا، (والجنوح) إلى التقليد والتزام مذاهب معيَّنَة لايحيد عنها ولايميل حتى وصل الحال إلى الإفتاء بسد باب الاجتهاد)[4].

ومِمَّا ينبغي ذكره في هذا الصدد أنَّه على الرغم من هذا الواقع فإنَّ هناك جهودًا قام بها بعض الفقهاء ومجتهدي الأُمَّة حفظت للأُمَّة الإسلاميَّة

---

(١) يوسف القرضاوي: وجوب تطبيق الشريعة الإسلاميَّة (ضمن بحوث): وجوب تطبيق الشريعة الإسلاميَّة والشبهات التي تثار حول تطبيقها: ص ٧١، (من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ)، (مرجع سابق).

(٢) انظر: خلاصة تلك التأويلات ونقدها لدى: أحمد محمد جمال: وجوب تطبيق الشريعة الإسلاميَّة: ص ٣١٧، ٣١٩، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: مناع القطان: وجوب تطبيق الشريعة الإسلاميَّة: ص ٢١٣ - ٢١٦، (المرجع السابق نفسه)، ولمزيد المعرفة بذلك. انظر: مناع القطان: معوقات تطبيق الشريعة الإسلاميَّة، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، عن مكتبة وهبة - القاهرة.

(٤) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ١٢٢، (مرجع سابق).

تميُّزَها من خلال المؤلفات التي أنجزوها والتجديد الذي سلكوه[1].

وفي العصر الحديث ظهرت اهتمامات تمثلت في (دراسة الفقه الإسلامي دراسة مقارنة وإظهار مزاياه وخصائصه وكثرة التأليف في مباحثه وظهور المبرزين فيه الجامعين بين الثقافة القانونية والثقافة الشرعيَّة)[2]، وعلى الرغم مِمَّا يكتنف هذه الاهتمامات من المخاوف والمحاذير إلاَّ أن الأمل معقود في (أن يزداد الاهتمام بالشريعة الإسلاميَّة وفقهها حتى تعود إلى مكانتها الأولى وتسترد سيادتها القانونية، وتمد هي والفقه الإسلامي (الأُمَّة الإسلاميَّة) بالتشريعات اللازمة في جميع شؤونها كما كان الأمر في السابق)[3].

وكما شهد بعض رجال الديانة النصرانية ورعاياها بفضل الشريعة الإسلاميَّة وما تتسم به من الرحمة والعدل والإحسان والمساواة في بداية انتشار الإسلام فقد دار التاريخ دورته، وعاد المنصفون من الغربيين ليؤكدوا الشهادة ذاتها.

فأمَّا في بداية انتشار الإسلام، و (لَمَّا بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن بقيادة أبي عبيدة كتب أهالي هذه البلاد المسيحيون إلى العرب يقولون: يا معشر المسلمين ! أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، إنكم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا)[4].

---

(١) انظر: محمد الدسوقي وأمينة الجابر: مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي: ص ٢٣٤، ٢٣٥، (مرجع سابق)؛ (حيث أوردا نماذج من علماء الأُمَّة مثل ابن تيمية وابن قيم الجوزية والعز ابن عبدالسلام...، وغيرهم، وألمحا لجهودهم في الاجتهاد ومحاربة التقليد).

(٢) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة...: ص ١٢٩، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٢٨.

(٤) محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه: ص ٢٨٢، (مرجع سابق). ذكره=

وأمَّا في العصر الحديث: (فهذا مؤتمر القانون المقارن المعقود في لاهاي سنة ١٩٣٧ م الذي حضره مفكرون وباحثون من الغرب ومن مختلف أنحاء العالم وشاركوا فيه، يقرر:

١- اعتبار الشريعة الإسلاميَّة مصدرًا من مصادر التشريع العام.

٢- اعتبار الشريعة الإسلاميَّة شريعة حيَّة.

٣- اعتبارها قائمة بذاتها ليست مأخوذة عن غيرها)[١].

وإذا كانت المملكة العربية السعودية الدولة الوحيدة في العالم الإسلامي التي تطبق الشريعة الإسلاميَّة تطبيقًا كاملاً، ويستمد الحكم فيها (سلطته من كتاب الله وسنة رسوله.. وهما الحكمان على... جميع أنظمة الدولة)[٢]، وأنَّ الحكم فيها يقوم (على أساس العدل والشورى والمساواة وفق الشريعة الإسلاميَّة)[٣]، فإنَّها قد حققت تميُّزًا لفت نظر

=الأزدي في كتابه: تاريخ فتوح الشام: ص ١٥٥، ١٥٦، تحقيق: عبدالمنعم عبدالله عامر، طبعة مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠ م، وذكر البلاذري عن أهل حمص أنهم قالوا للمسلمين: «لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مِمَّا كنا فيه من الظلم والغش ولندفعنَّ جند هرقل مع عاملكم» فتوح البلدان: ص ١٤٣، تحقيق رضوان محمد رضوان، عن دار الكتب العلمية، ١٤١٢ هـ- ١٩٩١ م، بيروت، وانظر: أحمد محمود الحوفي: سماحة الإسلام، العدد الرابع من سلسلة دراسات إسلامية، عن مكتبة نهضة مصر بالفجالة القاهرة (بدون تاريخ): ص ٩٠.

(١) السيد محمد علوي مالكي: كمال التشريع الإسلامي، محاضرة مدرجة في: ندوة المحاضرات (مجموعة محاضرات ثقافية للموسم ١٣٩٣ هـ / ١٣٩٤ هـ و ١٣٩٤ / ١٣٩٥ هـ، برابطة العالم الإسلامي – مكة المكرمة): ص ٤، عن دار عكاظ للطباعة والنشر – جدة، وانظر: كامل موسى: المدخل إلى التشريع الإسلامي: ص ١٨٩، ١٩٠، (مرجع سابق).

(٢) النظام الأساسي للحكم، الرقم [أ/٩٠] التاريخ ١٤١٢/٨/٢٧ هـ، الباب الثاني، المادة السابعة، منشور بملحق المجلة العربية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م: ص ١٣.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٣، (المادة الثامنة).

العالم من حولها وأظهر كبار رجال القانون والفكر في الغرب إعجابهم بذلك، يقول المستر (ماك برايد): (من هنا ومن هذا البلد الإسلامي (أي المملكة العربية السعودية) يجب أن تعلن حقوق الإنسان لا من غيره من البلدان، وإنَّه يتوجب على العلماء المسلمين أن يعلنوا هذه الحقائق المجهولة عند الرأي العام العالمي، والتي كان الجهل بها سببًا لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين والحكم الإسلامي عن طريق أعداء الإسلام والمسلمين...)[1].

وقال آخر: (إني بصفتي مسيحيًّا أعلن أنَّه هنا في هذا البلد الإسلامي يعبد الله حقيقة، وأنَّ أحكام القرآن في حقوق الإنسان: هي بلاشك تفوق على ميثاق حقوق الإنسان)[2].

* * *

---

(١) نقلاً عن: ندوة علمية فيما بين فريق من كبار علماء المملكة العربية السعودية وبين فريق من كبار رجال القانون والفكر في أوروبة حول الشريعة الإسلاميَّة وحقوق الإنسان في الإسلام، يلحق بها مذكرة حكومة المملكة العربية السعودية حول شريعة حقوق الإنسان في الإسلام وتطبيقها في المملكة، الموجهة للهيئات الدولية المختصَّة: ص ٤١، ٤٢، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦ م، نشر وزارة الإعلام - المملكة العربية السعودية من وقائع الندوات الثلاث التي نظمتها وزارة العدل في المملكة العربية السعودية، ابتداءً من يوم الأربعاء ٧ صفر ١٣٩٢ هـ - الموافق ٢٢ مارس ١٩٧٢ م. وانظر: ص ٣ - ٦، المرجع السابق نفسه، لمزيد الاطلاع على أسماء المشاركين في الندوة من الطرفين والتعريف بهم.

(٢) نقلاً عن المرجع السابق نفسه: ص ٤٢.

المطلب الثاني

موقف المستشرقين من الشريعة الإسلاميَّة

درج معظم المستشرقين[1] على الزعم بعدم أصالة الشريعة الإسلاميَّة ودرسوها في ضوء منهج يقوم على تفتيتها إلى أجزاء عديدة، وذهبوا بكلٍّ جزء إلى أصل آخر في الموروثات الرومانية واليهودية والنصرانية والمجوسيَّة[2]، وكذلك تقاليد الجاهليَّة وأعرافها؛ كما فعلوا في مجال العقيدة، وأظهروا مزاعمهم تلك بمظهر البحث العلمي والدراسات الموضوعية والمنهجية المتداولة في المجامع العلمية والمؤتمرات والدوريات الاستشراقية[3] فضلاً عن تأليف الكتب العديدة[4]، وتدريس

---

(١) انظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة، ص ٦٢، (مرجع سابق). وانظر: محمد يوسف موسى: التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي، ص ٨١، (مرجع سابق).

(٢) انظر: جولدزيهر في مجلة تاريخ الأديان، سنة ١٩٠١ م ج ٤٣، ص١ ومابعد (R. H.R)، نقلاً عن: ج. هـ. بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره، دراسة مدرجة في كتاب: هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي، ص ٥٦، عن دار البحوث العلمية، الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م - بيروت.

(٣) مثل المؤتمر الدولي للقانون الرومي المنعقد سنة ١٩٣٣ م في روما؛ انظر: كارلو ألفونسو نالينو ومحمد حميدالله وآخرون: هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي (المرجع السابق نفسه) ص ٧.

(٤) مثل مؤلفات جولدزيهر ويوسف شاخت وقبلهما: دومينيكو غاتيسكي في مؤلفه (المسمى كتاب يدوي للحقوق العثمانية العامة والخاصة.. المطبوع في الاسكندرية ١٨٥٦ م) انظر: نالينو: نظرات في علاقة الفقه الإسلامي بالقانون الرومي: المرجع السابق ص ٩.

أمَّا مؤلفات جولدزيهر فمنها: العقيدة والشريعة في الإسلام (مرجع سابق)، وأمَّا=

تلك المزاعم في الجامعات والمعاهد الاستشراقية.

ولاشك أن تلك الدراسات والبحوث ونحوها تهدف في مجملها إلى القضاء على مقومات تميز الأُمَّة الإسلاميَّة من خلال زعزعة الثقة في استقلالية شريعتها والتشكيك في أصالتها هذا من جانب، وتحاول من جانب آخر أن تبعدها (شيئًا فشيئًا عن قيمها وتراثها وفي مقدمة ذلك التشريعات التي تحكم حياتها)(١)، ومن ثَمَّ تتهيَّأ الفرصة لدخول القوانين الوضعية في واقع الأُمَّة وتحل محل الشريعة الإسلاميَّة حتى تصبح الأُمَّة الإسلاميَّة غريبة عن دينها، ويصبح انتماؤها إلى شريعة ربها اسمًا أو شكلاً فحسب(٢).

وتنوعت كتابات المستشرقين لبلوغ هذه الغاية وبخاصة إشاعتهم دعوى اعتماد الشريعة الإسلاميَّة على مصادر غير إسلامية مع التركيز على تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني بصفة خاصَّة، ويكاد يجمع

=يوسف شاخت فمن مؤلفاته في هذا المجال: أصول الفقه الإسلامي، صدرت طبعته الثالثة عام ١٩٥٩ م، وكتاب آخر اسمه: مدخل إلى التشريع الإسلامي، صدر عام ١٩٦٤م، انظر: أحمد فؤاد الأهواني التشريع الإسلامي؛ مجلة الأزهر، العدد [١٠]، المجلد [٤٠]، ذي الحجّة ١٣٨٨ هـ - فبراير ١٩٦٩ م: ص ٨٢٤.

(١) محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي، مجلة حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، جامعة قطر، العدد [٥] ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م: ص ٧٢٢. وانظر: محمد الدسوقي وآمنة الجابر: مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي، ص ٥٥، (مرجع سابق)، وقد أدرجا مقال: الاستشراق والفقه الإسلامي (المرجع السابق) في هذا الكتاب في الصفحات (٣٧ - ٥٧)، وقد اعتمدتُ العزو - في هذا المطلب - إلى المقال (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧٠٧، (المرجع السابق نفسه).

المستشرقون على ذلك، وقد ينفي بعضهم ذلك التأثر ولكنه يرجح تأثير التلمود اليهودي على الفقه الإسلامي[1]، ثُمَّ يختلفون أيضًا في مقدار التأثر؛ فبعضهم يزعم بأن الشريعة الإسلاميَّة ما هي إلا القانون الروماني أو هي (يهودية ذات نزعة عالمية)[2]، وبعضهم الآخر (يذهب إلى أن الفقهاء المسلمين تأثروا بهذا التلمود وذاك القانون في طرفٍ مِمَّا كتبوا)[3].

ويعالج البحث هنا هذه الدعوى من جانبين:

١ - عرض نماذج من أقوال المستشرقين في دعوى تأثر الشريعة الإسلاميَّة بمصادر مختلفة، كالقانون الروماني، والتلمود اليهودي[4]، والتعاليم النصرانية، وأعراف العرب وتقاليدهم قبل الإسلام.

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٧٢٥.

(٢) ج. هـ بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره: المقالة الثالثة المدرجة في كتاب هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي (مرجع سابق) ص ٨٤، وانظر: الدسوقي المرجع السابق نفسه: ص ٧٢٥.

(٣) الدسوقي: المرجع السابق نفسه: ص ٧٠٧.

(٤) التلمود يتكون من (المشنا) وهي السنة الموسويَّة و (الجيمارة) شرح تلك السنة من قبل علماء اليهود. انظر: الدسوقي: المرجع السابق، ص ٧٢٤، وانظر: المراجع الآتية:

* عبدالحميد متولي: الإسلام وموقف علماء المستشرقين (اتهامهم الشريعة بالجمود وعلمائها الأقدمين بالتأثر بالقانون الروماني):

ص ٤٥، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، عن شركة مكتبات عكاظ للنشر..، جدة.

* ن. ج. كولسون: في تاريخ التشريع الإسلامي، ترجمة وتعليق: محمد أحمد سراج: ص ١٣٧، ١٣٨، تعليق المترجم، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م، عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت.

* ج. هـ. بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره.. ص ٧٠، (المرجع السابق نفسه).

٢ - نقد أقوالهم في دعوى تأثر الشريعة بتلك المصادر.

الجانب الأول: عرض نماذج من آراء المستشرقين في دعوى تأثر الشريعة الإسلاميَّة بمصادر مختلفة منها:

أولاً: القانون الروماني:

جنح معظم المستشرقين إلى القول بأن الشريعة الإسلاميَّة أو الفقه الإسلامي تأثر بالقانون الروماني ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

١- يقول المستشرق (شيلدون آموس): (إن الشرع المحمدي ليس إلاَّ القانون الروماني للامبراطورية الشرقية معدلاً وفق الأحوال السياسية في الممتلكات العربية)[١]، ويقول أيضًا: (إنّ القانون المحمدي ليس سوى قانون جوسيتنان في لباس عربي)[٢].

---

(١) نقلاً عن محمد يوسف موسى: التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي، ص ٨٣، (مرجع سابق)، وانظر: محمد حميد الله: هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي (تأثير الحقوق الرومية على الفقه الإسلامي) ص ٢٧، ٢٨، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالله العلي الركبان: دعوة تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني ص ٦٨ مجلة أضواء الشريعة، العدد [١٤] ١٤٠٣ هـ، كلية الشريعة - الرياض، وانظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص١٠٧، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة، ص ٦٣، (مرجع سابق)، وانظر: المراجع السابقة، وقد عزا محمد حميد الله قول (شيلدون آموس) إلى كتابه الإنجليزي: تاريخ القانون المدني لروما وأصوله، ص ٤٠٦ - ٤١٥، بصيغة قريبة من المثبت أعلاه.

أمَّا قانون جوستينان فهي: المدونة الشهيرة التي تتضمن صفوة التشريع الروماني من نصوص قانونية وآراء حقوقية قام الإمبراطور الروماني (جوستينيان Justinien) المتوفى في عام ٥٦٥ م)، بإنجازها خلال ست سنين (٥٢٨ - ٥٣٤ م) وألفت من أربعة كتب (كوديكس، ديجست، انستيتود، نوفل) وأسهم فيها أساتذة يشتغلون تحت رعايته=

٢- ذكر المستشرق الإيطالي (كارلو ألفونسو نالينو) بأن أول من زعم من المستشرقين إن القانون الإسلامي في جوهره مأخوذ من القانون الرومي هو (دومينيكوغاتيسكي) في كتابه (كتاب يدوي للحقوق العثمانية)[١] إذ قال: (إن القواعد الرومية دخلت في الإسلام بسهولة)[٢].

٣- وذكر - أيضًا - بأنه (منذ ذلك الحين وجد هذا الاشتقاق تأييد عدد كبير من الناس في الغرب، مع ألوان لا نهاية لها، فمنهم من ادعى هذه الفكرة بكل صراحة، ومنهم من قال بها على أنها شيءٌ فيه نصيب من الاحتمال وكانوا جميعًا إمَّا من القانونين غير المستشرقين (الذين) أفصحوا رأسًا أن الفقه الإسلامي في الأساس ليس إلاّ القانون الرومي بتبديل لايذكر - كما قال هنري هيوغ -، وإمَّا من الذين درسوا العلوم الإسلاميَّة ولم يدرسوا

=ويعملون في معهد حقوق بيزانس (القسطنطينية)، ومعهد حقوق بيروت.

ولمزيد من الاطلاع على تاريخ هذه المدونة ومخطوطاتها ومصادرها وطبعاتها والقائمين عليها وأماكن وجودها في المكتبات الأوروبية راجع: محمد محسن البرازي: حول الفقه الإسلامي والفقه الروماني: ص ١٢١٥، (مرجع سابق).

ولمزيد الاطلاع على القانون الروماني قبل تلك المدونة وبعدها ومراحل تطوراته؛ راجع: عبدالحميد متولي: الإسلام وموقف علماء المستشرقين (اتهامهم الشريعة بالجمود وعلمائها الأقدمين بالتأثر بالقانون الروماني) ص ٣٩، ٤٠، ٤١، (مرجع سابق).

وانظر: علي محمد جعفر: تاريخ القوانين ومراحل التشريع الإسلامي، ص ١١٣ – ١١٨، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت.

(١) انظر: نالينو: نظرات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي؛ المقالة الأولى في كتاب هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي: ص ٩، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٩.

العلوم القانونية جيدًا)[1]، بل بلغ الأمر ببعض المستشرقين إلى القول: (إنَّ العرب لم يضيفوا إلى القانون الرومي إلاَّ بعض الأخطاء)[2].

٤- كتب (جولدزيهر) تحت مادة (الفقه) في دائرة المعارف الإسلاميَّة: (بأنَّ مصادر التشريع الإسلامي لم تنضب بسبب وجود القانون الرومي)[3].

٥- أقام المستشرق (كاروزي) نظرية في الفقه الإسلامي تقول: (الفقه الإسلامي ليس إلاَّ القانون الرومي بدون تغيير)[4].

وعندما قال هؤلاء المستشرقون هذه الأقوال فإنَّهم يتبعونها باستدلالات لتؤكد ما ذهبوا إليه، من أبرزها الآتي:

١- إنَّ النبي محمدًا ﷺ كان على معرفة واسعة بالقانون الروماني، وممن قال بذلك، المستشرق (كاروزي)، يقول أحد الباحثين: (وقد بلغ الإسفاف في القول بالمستشرق الإيطالي (كاروزي) إلى أن يقرر أن الرسول ﷺ كان على علم واسع بهذا القانون)[5].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٩، ١٠.

(٢) نقلاً عن فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي؛ (المقالة الخامسة من كتاب هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي ؟): ص ١١٨، تعريف: محمد سليم العوا، وأصل هذه المقالة نشر في مجلة القانون الفصلية الإنكليزيَّة: ٦٧/٨١ – ١٠٢، (عدد يناير ١٩٥١ م بعنوان: The Alleged Debt of Iamic to the Romah Law).

(٣) دائرة المعارف الإسلاميَّة، (مرجع سابق)، وانظر: بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره، (مرجع سابق) ص ٦٢.

(٤) نقلاً عن مترجم مقالة بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره، (مرجع سابق) ص ٥٨.

(٥) الدسوقي السيد الدسوقي عيد: استقلال الفقه الإسلامي عن القانون الروماني والرد على شبه المستشرقين، ص ١٧، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م، عن مكتبة التوعية الإسلاميَّة مصر.

٢- إن الفقهاء المسلمين (قد تعرفوا على آراء فقهاء القانون الروماني وأحكام المحاكم الرومانية في البلاد التي كانت لاتزال فيها هذه المدارس والمحاكم قائمة بعد الفتح الإسلامي)[١]، وممن قال بهذا الاستدلال (جولدزيهر) و (سانتيلا) و (شيلدون آموس)[٢].

٣- وخصص المستشرق (فون كريمر) استدلاله على اثنين من فقهاء المسلمين في قوله: (إن اثنين من الفقهاء المسلمين الأوائل؛ الأوزاعي والشافعي، قد ولدا في سوريا وكانا على علم بكثير من قواعد القانون الروماني البيزنطي التي استمرت في صور عادات قانونية)[٣].

٤- واستدل بعض المستشرقين على تأثير القانون الروماني في الفقه الإسلامي بسرعة تدوين الفقه الإسلامي، وأن ذلك لايُمكن تأويله إلا بوجود نماذج جاهزة اعتمد عليها المسلمون في تدوين تشريعهم[٤].

٥- واستدلوا بالتشابه بين النظم القانونية في القانون الروماني والأحكام والقواعد في الشريعة الإسلاميَّة، وبما أنَّ القانون هو السابق، فإنّ الشريعة الإسلاميَّة هي المتأثرة به[٥].

---

(١) زقزوق: الاستشراق... ص ١٠٧، (مرجع سابق).

(٢) انظر: الدسوقي عيد: استقلال الفقه الإسلامي..: ص ٢٤، (مرجع سابق).

(٣) فون كريمر: التاريخ الثقافي للشرق، ص ٤٤٧، نقلاً عن: فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١٣٦، (مرجع سابق).

(٤) انظر: نالينو: نظرات في علاقات الفقه الإسلامي..: ص ٢٠، ٢١، (المرجع السابق نفسه).

(٥) انظر: محمد يوسف موسى: التشريع الإسلامي..: ص ٧٩، (المرجع السابق نفسه).

ثانيًا: التلمود اليهودي:

وإذا كان عامة المستشرقين يتحدث عن عقيدة الإسلام باعتبارها مقتبسة من التوراة فإنَّ مسارهم العام نحو الشريعة الإسلاميَّة هو نسبتها إلى التلمود اليهودي، وسبق ذكر مقولة بعضهم (بأن الإسلام يهودية ذات نزعة عالمية)[١]، وفيما يأتي بعض الأمثلة على هذه الدعوى:

أ- جاء في كتاب: قاموس الإسلام، تحت مادة (تلمود): (بأن الفقه ليس شيئًا آخر غير التلمود)[٢].

ب- وفي دراسة المستشرق الفرنسي (بوسكة) التي دلَّلَ فيها على انقطاع الصلة بين الشريعة الإسلاميَّة وفقهها وبين القانون الروماني؛ جاء قوله: (وآخر ما أقول هو أن اليهودية لها تأثير عظيم جدًّا على تكون الإسلام في عصر محمد... إن نقاط التشابه بين اليهودية والإسلام بعدما تطورا أكثر لفتًا للانتباه)[٣].

أمَّا كيف حدث هذا التأثر فإنَّهُم يوردون عدَّة استدلالات كتلك التي استدلوا بها على تأثير القانون الروماني في الشريعة الإسلاميَّة كقولهم: إن الرسول ﷺ على علم باليهودية، وقولهم بأن الفقهاء المسلمين وقفوا على التراث التشريعي اليهودي في طور نشأة الفقه الإسلامي[٤]، وللمثال على ذلك:

١- يقول (فون كريمر): (إن الموالي لما وصلوا إلى مناصب القضاء

---

(١) بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره..: ص ٨٤، (المرجع السابق).

(٢) فيما نقله هيوز في كتاب: قاموس الإسلام، تحت مادة (تلمود) عن عمانويل دايتش، نقلاً عن بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره..: ص ٧٦، (المرجع السابق نفسه).

(٣) بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره..: ص ٨٤ (المرجع السابق نفسه).

(٤) انظر: محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧٢٨، (مرجع سابق).

والإفتاء استطاعوا أن يدخلوا في الفقه عناصر ثقافتهم السابقة (غير الإسلاميَّة) وخاصة اليهود الذين اعتنقوا الإسلام أمكن لهم أن يستفيدوا من التلمود)[1].

ويقول (لامنس): (إنَّنَا نعتقد بدخول قسم يعتد به من هؤلاء الأشقياء - يقصد الذين دخلوا الإسلام من اليهود - في صفوف الإسلام، ولقد كان لهؤلاء المرتدين ولذريتهم النصيب الرئيسي في إعداد التشريع الإسلامي وتكوينه، حيث لايُمكن إنكار التأثير التلمودي فيه)[2].

٢- ذكر (كارل بروكلمان) أن بعض المستشرقين يزعمون (بأن الإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة وصاحب أبي يوسف، المتوفى ١٨٩ هـ، قد تأثر في تبويبه للفقه الإسلامي بكتاب «المشنا» اليهودي)[3].

٣- ومن قول (بوسكة) السابق يبرز الاستدلال بالتشابه بين اليهودية والإسلام في تأثر الشريعة الإسلاميَّة بالتلمود اليهودي؛ وبخاصة من قوله: (يبدو لي واضحًا تمامًا أن نقاط التشابه بين اليهودية والإسلام... أكثر... من نقاط التشابه التي توجد في الإسلام والمسيحية)[4].

---

(١) نقلاً عن بوسكة، المرجع السابق نفسه: ص ٨٢.

(٢) بوسكة: المرجع السابق نفسه: ص ٥٩.

(٣) انظر: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٣/٢٥٣، ٢٣٤، (مرجع سابق). وانظر: محمد الدسوقي: المرجع السابق نفسه: ص ٧٢٩.

(٤) بوسكة، المرجع السابق نفسه: ص ٨٤.

ثالثاً: التعاليم النصرانية:

يأتي تأثير التعاليم النصرانية على الشريعة الإسلاميَّة في أقوال المستشرقين ضمنًا عندما يبحثون في كيفية تأثير القانون الروماني على الشريعة الإسلاميَّة وفقهها، عن طريق الفرق النصرانية كونها وسيلة غير مباشرة في تسرب القانون الروماني إلى الشريعة الإسلاميَّة، ولعل في استدلالاتهم على تأثر الشريعة الإسلاميَّة بالقانون الروماني ما يتناول هذه الجزئية ولكن بعض المستشرقين أشار إلى قانون آخر كانت تلك الفرق النصرانية تحتكم إليه وليس إلى القانون الروماني، وذكروا بأنَّ ذلك القانون أثر في الفقه الإسلامي إضافة لتأثير التعاليم النصرانية في الإسلام بصفة عامَّة.

يقول (بوسكة): (إنَّ القوانين الكنسية بالشكل الذي وجدت عليه في المناطق التي فتحها الإسلام (في أوائل الخلافة)، استطاعت أن تمارس تأثيرها على تدوين الفقه وتكميله ولكن هذه المسألة لم تدرس بعد من قبل الباحثين المختصين)[1].

ويقول - أيضًا -: (إنَّ فكرة القوانين الدينية هي شيءٌ يقربنا من روح الفقه، وهذا أمر يجب التنبيه الخاص عليه، حتى لو بقيت التأثيرات المتبادلة ضعيفة جداً، وهكذا يُمكن التفكير بإظهار عدد ما من حوادث التشابه في البنية نفسها بين حقوق الكنيسة النصرانية وشريعة الإسلام)[2].

---

(١) بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره..: ص ٦٦، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٦٧.

ويشبه (جولدزيهر) إجماع الأُمَّة في الفقه الإسلامي بالكنيسة النصرانية[1].

أمَّا عن وجود القانون الكنسي واحتكام الفرق النصرانية إليه فيذكر المستشرقون القائلون بذلك عدّة مسوغات من أبرزها:

أ- كراهة النصارى للسيطرة الرومية منعت التأثير بالقانون الروماني والاستعارة منه[2]، ومِمَّا يدل على ذلك وفقاً لرأي (فتزجيرالد) وجود كتاب يسمى (القانون السوري الرومي)[3]، وأنَّ وجوده في الشام يُعَدُّ (شهادة واضحة ضد القول ببقاء مجموعة قوانين «جوسيتينان »)[4].

ب- راج هذا القانون الذي ترجم إلى السريانية والعربية في الكنائس الشامية، ولعله كان السبب في مقولة (نالينو)[5]: (إن السريانيين من القرن التاسع للميلاد لم يسمعوا قط عن «جوستينيان » كواضع قانون)[6].

---

(١) انظر: فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي...: ص ١٥٦، (مرجع سابق).

(٢) انظر: فتزجيرالد: المرجع السابق نفسه: ص ١٥٣.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٢٨، والقانون السوري الرومي كما ذكر (فتزجيرالد) (كتاب دراسي وجيز للقانون) المرجع السابق: ص ١٢٩، وفي المرجع السابق نفسه علق المترجم بقوله: (لما كان الإنجيل لايحتوي على القوانين فقد اكتفى نصارى الشام بالقانون الرومي المعاصر للملوك النصرانيين من بيزنطة).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٢٨.

(٥) فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١٢٩، (المرجع السابق نفسه).

(٦) نقلاً عن: فتزجيرالد: المرجع السابق نفسه: ص ١٢٩، ١٣٠.

وأمَّا عن تأثير هذا القانون الكنسي - الذي تحتكم إليه الفرق النصرانية في الدولة البيزنطية - في التشريع الإسلامي فإنَّ من المستشرقين من يزعم بأن مؤلفات الفرق النصرانية - على تعددها - قد أثرت في الفقه الإسلامي[1] من جهة وأثَّر فيه كذلك الذين دخلوا الإسلام من النصارى وأهل الذِّمَّة من جهة أخرى[2].

رابعًا: أعراف العرب وتقاليدهم قبل الإسلام:

لاتدع طائفة من المستشرقين في مناقشتها للشريعة الإسلاميَّة مسألة من مسائلها إلاَّ وقذفت بشكوكها في تلك المناقشة بغية نفي تميز الأُمَّة الإسلاميَّة الذي تشكل الشريعة الإسلاميَّة أحد مقوماته، وإذا كانت دراسات المستشرقين قد اتسمت بالتعميم وإطلاق الأحكام على عواهنها فإنَّ بعض درساتهم الحديثة التي يقوم بها مستشرقون معاصرون تنحو منحًى متخصص، وبخاصة في مجال الشريعة الإسلاميَّة لتؤكد بالأدلة التفصيلية تأثرها بالسابق واللاحق من النظم والتشريعات والأعراف والتقاليد الأُخرى[3].

ومن هذه الدراسات؛ الدراسة التي قام بها (ن. ج. كولسون): في تاريخ التشريع الإسلامي، فقد سلك منهجًا يتسم بالتركيز الشديد على نشأة التشريع الإسلامي ومدارس الفقه وتطوراته حتى وصل إلى

---

(١) انظر: محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧١٤. وانظر: نالينو: نظرات في علاقات الفقه الإسلامي...: ص ٢٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد حميد الله: تأثير الحقوق الرومية على الفقه الإسلامي، (مرجع سابق)، ص ٣٣، ٤٣، ٤٤، وانظر: ن. ج. كولسون: في تاريخ التشريع الإسلامي: ص ٥٠ - ٥٣، ٦٠، (مرجع سابق).

(٣) انظر: محمد الدسوقي: المرجع السابق نفسه: ص ٧٠٦.

التشريع الإسلامي في العصر الحديث؛ وإذا كان في بداية مناقشته لنشأة التشريع الإسلامي ذهب إلى القول بأن الإسلام عمد إلى العرف السائد في مجتمع العرب قبل الإسلام وعدَّل فيه وغيَّرَ دون أن يلغيه بل أبقى على قواعده[1]، فإنَّه يختم دراسته مؤكدًا على (استمرار خضوع المجتمعات الإسلاميَّة لتلك السياسات القائمة على احتذاء مفاهيم الحياة الغربية)[2].

مِمَّا يؤكد تلاقي آراء المستشرقين على اختلاف أزمانهم وبلدانهم حول غاية واحدة وإن تنوعت الأساليب والصياغات هذه الغاية هي الإصرار على نفي أصالة الشريعة الإسلاميَّة وإثبات مصادر أخرى وضعية اعتمدت عليها الشريعة في فقهها وتشريعها، وبالتالي فإنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة لاتتميز عن غيرها سواء في بدء نشأتها أو في حاضرها بل هي - كما يشتهي المستشرقون - عالة على اليهودية والنصرانية في تاريخها الماضي وعالة على الحضارة الغربية وقوانينها ونظمها في الحاضر[3].

ولايقتصر أولئك المستشرقون على القول باعتماد الشريعة الإسلاميَّة على العرف السائد في العرب قبل الإسلام باعتباره ذاتيًّا للعرب من صميم حياتهم الخاصة وفكرهم العربي بل باعتباره متأثرًا هو الآخر بالقانون الروماني الذي تسرب إلى عادات العرب وأعرافهم عن طريق

---

(١) انظر: ن. ج. كولسون: في تاريخ التشريع الإسلامي: ص ٣٥، (مرجع سابق)، ويوافقه في قوله هذا المستشرق (دارست)؛ انظر: الدسوقي عيد: استقلال الفقه الإسلامي عن القانون الروماني...: ص ١٥، (مرجع سابق).

(٢) محمد أحمد سراج: في تعليقه على خاتمة كتاب: ن. ج. كولسون: في تاريخ التشريع الإسلامي: ص ٢٢٠، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: محمد الدسوقي:الاستشراق والفقه الإسلامي...: ص ٧٢٤، ٧٢٥، (مرجع سابق).

رحلاتهم التجارية إلى الشام، أو عن طريق القانون الساساني[1].

الجانب الثاني: نقد أقوال المستشرقين حول الشريعة:

تصدَّى عدد من الباحثين لنقد تلك الأقوال والاستدلالات (السابق ذكرها) وخرجوا بنقضها جملة وتفصيلاً ودللوا بأنها (لاتعدُّ أدلة صحيحة، وأنها مجرد فرضيات لاتثبت أمام البحث التاريخي والنقد الموضوعي)[2]، وفي (المؤتمر القانوني المقارن الدولي الذي انعقد بمدينة «لاهاي» في دورته الثانية في جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ هـ/١٩٣٧ م، وشارك فيه نفر من علماء الأزهر الشريف إجابة لدعوة المؤتمر ببحوث متنوعة حول الشريعة الإسلاميَّة، ومنها ما يتعلق بالرد على دعوى تأثر الشريعة الإسلاميَّة بالقانون الروماني، اتخذت قرارات عديدة من أبرزها:

أ- اعتبار الشريعة الإسلاميَّة مصدرًا من مصادر التشريع.

ب- اعتبار الشريعة الإسلاميَّة قائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها)[3].

وتتابعت الندوات والبحوث تؤكد تميُّز الشريعة الإسلاميَّة واستقلالها عن غيرها من الشرائع والنظم والقوانين[4]، وتوافر عدد من المستشرقين على نقد بعضهم بعضهم الآخر حتى ليكاد الباحث في دراساتهم وبحوثهم وأقوالهم أن يخرج بنتيجة باهرة البيان وهي كون

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٧٢٥، ٧٢٣. وانظر: نالينو: نظرات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي...: ص ٧، (مرجع سابق).

(٢) محمد الدسوقي: المرجع السابق؛ ص ٧١٦.

(٣) انظر: كامل موسى: المدخل إلى التشريع الإسلامي، ص ١٨٩، ١٩٠، (مرجع سابق).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٩٠.

لشريعة الإسلاميَّة مفخرة البشرية إذا هي انضوت تحت لوائها وطبقت حكامها وأفادت من حلولها الناجعة لمشكلات الإنسانية جميعًا حتَّى في لعصر الراهن، وعن هذا المعنى قال أحدهم: (إنَّ البشرية تفخر بهذا لتشريع، وإننا سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألف عام)(١).

وفي ضوء ما سبق يُمكن نقد أقوال المستشرقين واستدلالاتهم في النقاط الآتية:

الأولى : دعوى التأثر بالقانون الروماني.

الثانية : دعوى التأثر بالتلمود اليهودي.

الثالثة : دعوى التأثر بالتعاليم النصرانية.

الرابعة : دعوى التأثر بأعراف العرب وتقاليدهم قبل الإسلام.

نقد الدعوى الأولى: دعوى التأثر بالقانون الروماني:

أكدت دراسات بعض المستشرقين بأن الشريعة الإسلاميَّة وفقهها منقطعة الصلة بالقانون الروماني، وفي ذلك يقول (بوسكة): (إنَّ الفقهاء المسلمين أعطوا لبنائهم إطارًا خاصًا ووجهًا مميزًا. وهم بهذا الاعتبار لايدينون بشيء للقانون الروماني وإنَّ طبيعة الفقه الخاصة لاتدين له بشيء)(٢).

ويقول (فتزجيرالد): (من المستبعد أن يكون للقانون الروماني الغربي أدنى تأثير على تأسيس الشريعة الإسلاميَّة)(٣).

---

(١) محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧٠٨، (مرجع سابق).

(٢) بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره..: ص ٦٦، (مرجع سابق).

(٣) فتزجيرالد: الدَّين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١٢٧، (مرجع سابق).

ويتفق كثيرٌ من الباحثين على هذه النتيجة التي توصَّلَ إليها نفرٌ من المستشرقين، وأمَّا الاستدلالات التي بنى عليها أولئك الزاعمون رأيهم، فإنها مزاعم باطلة لا سند لها من علم ولا حقيقة لها في التاريخ وهي مردودة من أوجه عدة، وبيان ذلك في الآتي:

١ - زعمهم أن الرسول ﷺ على علمٍ واسع بالقانون الروماني يبطله العلم اليقيني والواقع التاريخي على حد سواء فإنَّه ﷺ كان أُميًّا لايقرأ ولايكتب؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[1] وأُمية الرسول ﷺ مع ماجاء به من العلم والهدى من دلائل نبوته ومعجزاتها، وأثبت التاريخ بما لايحتمل التأويل أن النبي ﷺ نشأ في بيئة عربية خالصة مقطوعة الصلة بالقانون الروماني وغيره مِمَّا كانت عليه الأمم السابقة من التنظيم والتقنين الوضعيين، وفي هذا يقول ﷺ: «إنَّا أُمَّة أُميَّة لانكتب ولانحسب»[2].

ويكفي هذا الزعم إبطالاً وتهافتًا أنَّه ورد على لسان المستشرق (شيلدون آموس)، وقد وصف بالجهل والصفاقة من صفوف المستشرقين أنفسهم إذ يقول عنه المستشرق (فتزجيرالد): (ومن مصيره الأسيف المضحك أنَّ الموضوع الذي كان حجة فيه قد غمره موج البحث العلمي منذ أمد طويل... وأصبح لايذكر الآن إلاَّ بمحاولته غير الموفقة حول موضوع كان فيه حين تناوله أقرب ما يكون إلى الجهل التام)[3]، ويواصل

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٨).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢/٦٧٦، الحديث رقم [١٨١٤]، ترتيب: البُغا، (مرجع سابق). والحديث عن ابن عمر رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١١٩، (مرجع-

قوله متهمًا ذلك المستشرق بالهوى والتملق على حساب البحث العلمي النزيه، إذ قال: (فقد أضلته الرغبة في أن يجد مثيلاً للقاعدة الرومية اللاتينية التي تقول: إنَّ ما يعجبُ الحاكم له قوة القانون فتورط في القول)[1].

والشاهد من هذا: إن الزعم بأن الرسول ﷺ كان على علم واسع بالقانون الروماني زعم متهافت باطل وكذلك الاستدلالات التي يوردها أصحاب ذلك الزعم (لايصح مطلقاً أن تكون دليلاً)[2].

٢ - إنَّ ما زعموه من أن الفقهاء المسلمين قد تعرفوا على القانون الروماني من المدارس الرومانية ومحاكمها، زعمٌ باطل من وجوه عدة أبرزها الآتي:

أ - (من المسلم به لدى المؤرخين القدماء والمحدثين أن هناك أحداثًا تاريخية جاءت على تلك المدارس الرومانية؛ أولها قرار الإلغاء لتلك المدارس عدا ثلاث مدارس منها فقط في بيروت والقسطنطينية وروما؛ فقد صدر بذلك قرار (جوستينان) في ١٦ ديسمبر ٥٣٣ م)[3]، ثُمَّ في

=سابق)، وانظر: عبدالحميد متولي: الإسلام وموقف علماء المستشرقين..: ص ٧٢، ٧٣، (مرجع سابق).

(١) فتزجيرالد: المرجع السابق نفسه: ص ١١٩.

(٢) محمد يوسف موسى: التشريع الإسلامي..: ص ٩٢، (مرجع سابق).

وانظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة..: ص ٦٤ - ٦٥، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالله الركبان: دعوة تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني: ص ٦٩ - ٧١، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالحميد متولي: الإسلام وموقف علماء المستشرقين..: ص ٧٢، ٧٣، (مرجع سابق).

(٣) انظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة.. ص ٦٥، (مرجع سابق)، وانظر:=

سنة (٥٥١ م) ضرب زلزال مدمر مدينة بيروت أتى على كل ما فيها بما في ذلك تلك المدرسة الرومانية للقانون وحين دخول المسلمين بيروت لم تكن إلاَّ أطلالاً، لايُمكن لعقل أن يتصور تأثير تلك المدرسة في الفقه الإسلامي بعد دمارها وما فيها من أساتذة وطلاب وآثار علمية بنحو مائة عام[١].

ب – كذلك ما يقال عن تأثير الإسكندرية[٢] فقد ألغيت مدرستها القانونية بموجب قرار (جوستينيان) السابق ذكره، ومِمَّا ورد في التاريخ بأن (جوستينيان) لم يكتفِ بقرار الإلغاء فحسب وإنَّما (أحرق ما كان بها من برديات قانونية بلغت عشرات الآلاف في بعض الروايات. والمعروف أن المسلمين دخلوا الاسكندرية سنة (٦٤١ م) بعد أن أغلقت مدرستها ودمر تراثها العلمي بأكثر من مائة عام)[٣].

ج – أمَّا تأثر الفقهاء المسلمين بمدرستي القسطنطينية وروما فهو مردود من ناحيتين:

الأولى: دخل المسلمون (القسطنطينية) عام (١٤٥٣ م) بعد أن كان للفقه الإسلامي مدارسه العامرة ومذاهبه المحدَّدة وهو في هذه وتلك متميز تمامًا عن المدارس الرومانية والقوانين الوضعية[٤].

=عبدالله الركبان: دعوة تأثر الفقه الإسلامي.. ص ٧٢، (مرجع سابق).

(١) انظر: محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي..: ص ٧٠٩، (مرجع سابق)، وانظر: فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١٣٥، (مرجع سابق).

(٢) انظر: عبدالكريم زيدان: المرجع السابق نفسه: ص ٦٥.

(٣) محمد الدسوقي: المرجع السابق نفسه: ص ٧١٠.

(٤) انظر: محمد الدسوقي: المرجع السابق نفسه: ص ٧١٠، وانظر: عبدالكريم زيدان: المرجع السابق نفسه: ص ٦٦.

الثانية: لم يدخل المسلمون (روما) فاتحين إلى العصر الحديث.

٢- أمَّا دعوى تأثر الفقهاء المسلمين بالمحاكم الرومانية الذي قال به بعض المستشرقين زاعمًا أنه حدث نتيجة الفتح الإسلامي للبلاد التي كانت فيها محاكم تطبق القانون الروماني، فإن دعوى هذا التأثر باطلة لعدة أسباب[١] من أبرزها:

أ- إنَّ الفتح الإسلامي لم يصل إلى البلدان التي كانت تخضع للمحاكم الرومانية إلاَّ بعد زوال تلك المحاكم من جهة وتشكل الفقه الإسلامي وتكامله في منأىً عن تلك المحاكم من جهة ثانية[٢].

ب- قضى الفتح الإسلامي على أيٍّ سلطة أجنبية للقضاء في الدولة الإسلاميَّة[٣]؛ لأنَّ الفتح الإسلامي ينطلق من عقيدة الحكم بما أنزل الله، وهذا يعني رفض أيٍّ سلطة لغير شرع الله، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٤]، وأيُّ سلطة لغير الله فهي في منظور الإسلام جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، ومن شأن الفتح الإسلامي أن يقضي على الجاهليَّة والضلال ويحول بين من ركن لحكم الجاهليَّة أو ارتضاه وبين رغبته في بعث الجاهليَّة، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٥].

---

(١) انظر: عبدالكريم زيدان: المرجع السابق نفسه: ص ٦٦. وانظر: عبدالله الركبان: المرجع السابق نفسه: ص ٧٤، ٧٥.

(٢) انظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ١٠٨، ١٠٩، (مرجع سابق)، وانظر: بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره: ص ٦٠، ٦٦، ٨٣، (مرجع سابق).

(٣) انظر: فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١٤٢، (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق..: ص ١٠٨، ١٠٩، (مرجع سابق).

(٤) سورة المائدة: الآية (٤٤).

(٥) سورة المائدة: الآية (٥٠).

وقد أدرك بعض المستشرقين هذه النقطة الجوهرية وعبَّر عنها بقوله: (ويبدو من المحال سماح العرب الفاتحين ببقاء المحاكم التي تأخذ سلطتها من دولة أجنبية غير خاضعة للإسلام، وتبذل ولاءها لها، وهذا بقطع النظر عن الفرق الأساس بين قانون مبني على مشيئة الله وبين قانون مصدره الأساس رضا الامبراطور)[1].

٤ - أمَّا قول بعض المستشرقين بأن الأوزاعي والشافعي قد كانا على علم بالقانون الروماني وعن طريقهما تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني، فإنَّ هذا القول مردود من وجوه عدة من أبرزها:

أ- إن تراث القانون الروماني قد اندثر من قبل عصر الإمام الأوزاعي والإمام الشافعي بنحو قرنين من الزمان، ولم يكن أحدٌ في تلك البيئة الشامية يعرف شيئًا عن القانون الروماني[2].

ب- إن الإسلام قد صبغ مجتمع الشام بصبغته الإسلاميَّة المختلفة عن الصبغة التي كان عليها في عصر البيزنطينيين[3].

ج- انقطاع صلة فقه الإمام الأوزاعي والإمام الشافعي بالقانون الروماني؛ لأنهما من مدرسة أهل الحديث التي تعول على النص (الكتاب والسنة) وفهم سلف الأُمَّة أكثر من الميل للقول بالرأي الذي رُبَّمَا لو كانا من أهله لتطرق الشك إلى فقههما باعتبار أن الفكر التشريعي القانوني مستمد من العقل في المقام الأول، وعلى هذا فإنَّ دعوى التأثر هذه ساقطة حجة وتاريخًا[4] (والعالم كله قبل الإسلام لم يعرف فكرًا

---

(١) فتزجيرالد: المرجع السابق نفسه: ص ١٤٢.

(٢) محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧١١، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٧١١.

(٤) انظر: محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧١١، (مرجع سابق).

أصـوليًّا للقوانـين والتشـريعات)[1]، وإنَّمـا السـبق في هـذا للمسـلمين إذ أصلوا المناهج ووضعوا قواعد البحث العلمي وعن طريقهم نقل الغرب ذلك الفكر وأفادوا منه ثُمَّ تجاهلوا ذلك وانثنوا ينسبون هذا السبق وتلك الريادة إلى القانون الروماني[2].

٥ - أمَّا استدلال بعض المستشرقين بسرعة تدوين الفقه الإسلامي على كونه اقتبس من نماذج جاهزة تمثلت في القانون الروماني فقد ردَّ على ذلك المستشرق (نالينو) بقوله: (إنهم - أي المسلمين - جعلوا الفقه جزءًا من علم الدين لاينفك عنه، ولم يجعلوه علمًا ماديًّا من أمور الدنيا، فازدهار الفقه السريع ليس إلاَّ أحد مظاهر الازدهار العام للعلوم الدينيَّة عند المسلمين وكان ابتداؤها من تفسير القرآن ومن جمع الحديث وتشريحه)[3].

وعلى الرغم من كون تلك السرعة في تدوين الفقه الإسلامي ليست على إطلاقها بل تدرجت في سلم الحضارة الإسلاميَّة فإنها تُعدُّ في نظر المنصفين مِمَّا تميَّزت به الأُمَّة الإسلاميَّة، وقد أثبت الباحثون: (أن الفقه الإسلامي لايلتقي مع القانون الروماني في منهج التدوين لا من حيث التقسيم وترتيب المسائل، وتشقيق الفروع، ولا من حيث الصياغة واستخدام الألفاظ والعبارات)[4]، كما أثبتوا كذلك بأنَّ (كتب ذلك

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٧١٢. وقد أدمجت الرد على هذه المقولة؛ لأن فقه الأوزاعي اندثر ولم يبق منه إلاَّ ما ورد في فقه الشافعي؛ ولمزيد الاطلاع راجع: عبدالحميد متولي: الإسلام وموقف علماء المستشرقين.. ص ٥٨، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧١٢، (المرجع السابق نفسه).

(٣) نالينو: نظرات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي: ص ٢١، (مرجع سابق).

(٤) محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧١٩، (مرجع سابق).

الفقه لاتحتوي على كلمة واحدة أو إشارة عابرة توحي بالتأثر والنقل)[1]، مِمَّا يبرهن على فساد آراء أولئك المستشرقين ومجافاتهم قواعد البحث العلمي وضوابطه المنهجية، حتى لقد بلغ الإسفاف ببعضهم إلى القول: (إنَّ هناك تواطؤًا مقدسًا على السكوت الجنائي عند المؤلفين المسلمين بصدد المصادر التي أخذوا منها مادتهم)[2].

ويدل هذا القول ونحوه عن أزمة الاستشراق، وإن توارى وراء ادعاء أنه يعالج قضية تاريخية وقد استدل (فتزجيرالد) بسكوت التاريخ الإسلامي عن مسألة التأثر بالقانون الروماني في الفقه الإسلامي وتدوينه على انتفاء ذلك التأثير وذكر بأن الذين زعموا ذلك التأثر (لايقدرون على إثبات وجود الاستعارة من القانون الرومي في الفقه الإسلامي بمجرد قولهم: إن الفقه لم يعترف بوجودها)[3].

٦ - أمَّا قولهم بالتشابه بين الشريعة الإسلاميَّة والقانون الروماني فهو مسألة تحتاج إلى تفصيل ومناقشة وقد أجرى هذه المنافسة نفرٌ من الباحثين وفصلوا القول فيها وخرجوا بنتائج محدّدة.. وفيما يأتي استعراض لأبرز ما قاله ثلاثة من أولئك الباحثين وما خلصوا إليه من نتائج:

الأول: تناول المستشرق (نالينو) في دراسته لعلاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي جانب القول بالتشابه بينهما وذكر بأن تلك المزاعم

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٧١٩.

(٢) السير رولاند ولسون: خلاصة القانون المحمدي، ص ٢٤، نقلاً عن فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١٦٤، (مرجع سابق).

(٣) فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١٦٤، (مرجع سابق).

جاءت ثمرة للتخمين والاحتمال أكثر من كونها نتيجة لبحث علمي عميق وأنهم حشدوا المتشابهات التي تدهش ولكنها لاتملك قوة الإثبات[1]، ثُمَّ انتقد هذا الاتجاه بقوله: (إنَّ من الضلالة؛ المماثلة الظاهرية الخارجية التي لاتؤيدها العناصر الداخلية ولا الوثائق التاريخية)[2] وبيَّنَ (أن الذين جمعوا المتشابهات لكي يثبتوا أن قسمًا عظيمًا من الفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني، قد أهملوا ثلاث نقاط مهمة في المسألة:

أ - أنهم أهملوا.. الاختلافات التي توجد بين مذهب ومذهب، وهي أحيانًا ذات أهمية حتى فيما بين مذاهب أهل السنة الأربعة، فإذا كانت هناك مماثلة في بعض المسائل بين رأي مذهب فقهي وبين القانون الرومي، فقد لايكون تشابه بين رأي المذاهب الأُخرى والقانون الرومي في تلك المسائل.

وبسبب هذا الإهمال ذكر بعض الذين لم يعرفوا العربية خصائص مذهب واحد من المذاهب كأنها عناصر نموذجية في عموم الفقه الإسلامي.

ب - إنَّهُم يحاولون جاهدين اصطياد المماثلات، ويهملون من جانب آخر أي إشارة إلى الاختلافات التي تعد محكًا لقيمة المماثلات وقدرها.

ج - إنَّهم أهملوا الفرق العظيم الذي يوجد بين.. الغرب وبين العالم الإسلامي في تصور القانون وفي مصادره)[3].

---

(١) نظرات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي: ص ١٠، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٧، ١٨.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٨، ولمزيد الاطلاع على الاختلافات العميقة بين أحكام الشريعة الإسلاميَّة والقانون الروماني واختلاف مصادرهما؛ انظر: محمد يوسف موسى: التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي: ص ٨٨ - ٩٤، (مرجع سابق).

وبعد مناقشاته لهذه الفروق والاختلافات وإيراده أمثلة عديدة لتوضيحها قال: (إنه لو كان فقهاء العرب وضعوا أمامهم كتابًا من الكتب المتداولة من القانون الروماني ليحاكوه، لما فكروا أنْ يبعثروا مسائل المعادن أو العبيد، أو ملكية الأراضي في أبواب شتى لايمر ببال أحد من أهل القانون من الأوروبيين أن يجدوها فيها أبدًا، ولما وضعوا مسائل الربا في باب البيوع)[1].

ثُمَّ يصل إلى النتيجة الآتية: (إنَّ العرب أنشأوا فقههم إنشاءً مستقلاً في القسم الأعظم منه، وفي رأيي أن هذا الإنشاء المستقل كان نتيجة الأحوال التاريخية الخاصة التي تطورت فيها المؤسسات القانونية والاجتماعية الإسلاميَّة أكثر مِمَّا كان بسبب النظريات القانونية المجردة)[2].

الثاني: تناول محمد معروف الدواليبي دعوى التشابه بين الشريعة الإسلاميَّة والقانون الروماني ضمن دراسته عن الحقوق الرومية وأثرها في التشريع الإسلامي عند المستشرقين[3]، وذكر بأن خلاصة ذلك التشابه المزعوم تنقسم (إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تشابه في الأفكار الحقوقية.

الأمر الثاني: تشابه في لغة التعبير في كثير من النصوص.

الأمر الثالث: تشابه في كثير من الكلمات الاصطلاحية الحقوقية)[4].

---

(١) نظرات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي: ص ٢٠، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٢٠.

(٣) الحقوق الروميَّة وأثرها في التشريع الإسلامي (المقالة الرابعة) مدرجة في كتاب: هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي: ص ٨٥ – ١١٤، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٩٨.

وفي سياق مناقشته لهذه الأمور الثلاثة قال: (وإذا كان التشابه المدعى به فيما بين التشريعين هو تشابه في الأفكار أحيانًا، وفي لغة التعبير تارة، وفي بعض الاصطلاحات الحقوقية مرة أخرى، فإننا نجد أن أقوى أنواع التشابه تأييدًا للفرضية إنَّما هو النوع الثالث، وذلك لأنَّ ما بين البشر من وحدة أساسية في التفكير تبعًا للحاجة ولظروف الحياة المتشابهة لدى الأمم هو عامل كبير للوحدة فيما بينهم في كثير من أفكارهم، وللتقارب في التعبير عن كثير منها، من غير حاجة إلى نقل أحدهم عن الآخر)[1].

ثُمَّ ركَّزَ مناقشته على الكلمات الاصطلاحية في الحقوق الرومية، وقسمها إلى أصيل ولاحق، وإلى اصطلاحات متروكة وأخرى مُحْتَفَظٍ بها، وصنفها بحسب متعلقاتها[2] إلى (أحكام الأشخاص، أحكام الأشياء، أحكام الدعاوى)[3].

ثُمَّ يقرر بأن دعوى التشابه التي ضخمها المستشرقون تنحصر (في الكلمات الاصطلاحية الجديدة دون الأصيلة)[4]، وأنه إذا أُمعِنَ النظر في المتشابهات - بغض النظر عن معنى التشابه - لم يوجد (في جميع ما يدعي فيه المستشرقون من تشابه في الكلمات الاصطلاحية كلمة واحدة من الكلمات الاصطلاحية التابعة لعهد الحقوق الرومية القديمة الأصيلة حتى ولو كانت هذه الكلمة الاصطلاحية القديمة لاتزال متداولة

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) انظر: الحقوق الروميَّة وأثرها في التشريع الإسلامي..: ص ١٠٠، ١٠٢، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٤.

ومستعملة في الحقوق الرومية الجديدة اللاحقة)[1].

وهذا يعني أنَّ الحقوق الرومانية تأثرت هي بالطابع الشرقي ولم يكن لها تأثير في التقاليد والأعراف الشرقية فضلاً عن تأثيرها في الحقوق الإسلاميَّة[2]، وخلص في هذه المسألة إلى حصر التشابه المزعوم في المعنى اللغوي فقط وأنه إذا نُظِرَ (نظرة خاصة في كل ما يدعى به من تشابه ما بين الكلمات الاصطلاحية في التشريعين.. وعن معنى التشابه المدعى به)[3]، فإنَّ التقارب يأتي (من جهة المعنى اللغوي الحقيقي، لا من جهة المعنى الاصطلاحي الخاص)[4].

وقد ضرب لذلك مثالاً بكلمتين (لتكونا أنموذجًا لغيرهما من الكلمات)[5] التي ضخمها المستشرقون وبنوا عليها دعوى تأثر الشريعة بالقانون الروماني، (وهاتان الكلمتان.. هما كلمة الإجماع عند الفقهاء في التشريع الإسلامي وكلمة كونسانسوس Consensus اللاتينية المفيدة معنى الإجماع أيضًا عند الفقهاء في التشريع الرومي)[6]، ثُمَّ أجري المقارنة بينهما من حيث الأسس والغايات وطرق الحصول عليهما وخلص إلى القول: (من المقارنة بين كلمتين اصطلاحيتين هما الإجماع في

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٤.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٠٦. وقد أورد محمد يوسف موسى في كتابه: التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي، جملة من الأدلة على تأثر القانون الروماني بالفقه الإسلامي؛ ص ٨٦، ٩٥ – ١٠٢، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٦، ١٠٧.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٧.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٧.

(٦) الحقوق الرومية وأثرها في التشريع الإسلامي..: ص ١٠٧، (المرجع السابق نفسه).

التشريع الإسلامي والإجماع في التشريع الرومي يتضح أنَّه لاتشابه بينهما كما ادعى المستشرقون لا في الأساس، ولا في الغاية، ولا في طريق الحصول عليهما.. إنَّما هناك تقارب في المعنى اللغوي)[1].

ويقرر بأن هذا التقارب في المعنى اللغوي لايسمح بدعوى التشابه في المعنى الاصطلاحي، وأن دعوى التشابه فرضية لاتقوم على أساس سليم بل تخالف الوقائع العلمية[2].

الثالث: تناول المستشرق (فتزجيرالد) مسألة التشابه المزعوم ضمن دراسة علميَّة نشرها في إحدى المجالات العلمية وأدرجت في كتاب هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي[3]، وتقوم هذه الدراسة على المنهج التاريخي المقارن الموضوعي[4]، وقد تعقب فيها آراء كل من (آموس) و (جولدزيهر) و (سوساس باشا)[5] ونقض تلك الآراء في ضوء المنهج العلمي الذي يظهر بمظهرٍ النزاهة - والله أعلم - (وردَّ على كل واحدٍ منهم بالتفصيل ردوداً قاطعة، كما أبان سطحية الأول منهمٍ بصفة خاصة في تفكيره واستدلاله بما لايصح مطلقاً أن يكون دليلا.

كما وصم (سواس باشا) بكونه ذا عقلية غير علميَّة ولا دقيقة، وأنه كان مدفوعًا في كتاباته بغرض سياسي وهو إظهار التشريع الإسلامي

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١١٣.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١٤.

(٣) الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١١٥ - ١٦٦، (مرجع سابق).

(٤) انظر: محمد يوسف موسى: التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي: ص ٩٢، (مرجع سابق).

(٥) انظر: فتزجيرالد: المرجع السابق نفسه: ص ١١٨.

بأنَّه دائماً قابل للمؤثرات الغربية..)[1].

أمَّا (جولدزيهر) فذكر أنه مع علو شأنه في الأوساط الاستشراقية فقد جاءت آراؤه في الشريعة الإسلاميَّة مماثلة لتلك الآراء الخاطئة وأنها وجدت رواجًا كبيرًا. ويؤكد - أيضًا - بأن آراءه هذه على النقيض مع اتجاهه العام في دراسته خارج هذا البحث، كما يؤكد - أيضًا - بأنه قد عدل عن تلك الآراء)[2]، ولكن فيما يبدو لي أن (جولدزيهر) يعد زعيم ذلك المنهج الذي يهدف للنيل من تميز الأُمَّة الإسلاميَّة في عقيدتها وفي شريعتها وفي تاريخها وإن حاول صياغة أبحاثه في قوالب تظهر بمظهر العلمية والمنهجية.

وبعد أن يناقش (فتزجيرالد) هؤلاء المستشرقين الثلاثة وغيرهم ويفند مزاعمهم يصل إلى القول بأنه لاتوجد (حتى كلمة واحدة مستعارة من اللاتينية أو اليونانية في العدد الضخم من المصطلحات الفقهية)[3]، وقبل ذلك أثبت بأن (القانون التلمودي مليء بالمصطلحات اليونانية واللاتينية.. في قالب عبراني)[4]، وكذلك دخلت القانون الروماني كلمات (تنادي جهارًا على الفور أنها يونانية الأصل)[5].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٢٠. وانظر: محمد يوسف موسى: المرجع السابق نفسه: ص ٩٢، وانظر: عبدالحميد متولي: الإسلام وموقف علماء المستشرقين..: ص ٧٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١٤٤، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: المرجع نفسه: ص ١٢١، وانظر: محمد يوسف موسى: التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي: ص ٩٢، (مرجع سابق).

(٣) انظر: الدين المزعوم..: ص ١٦٠، (المرجع السابق نفسه).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٥٨.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ١٥٨.

وينهي بحثه بالنتيجة الآتية:

(الشريعة كما ذكرنا من قبل تختلف اختلافًا أساسيًا عن القانون الرومي، سواء في طبيعتها أو في غرضها، فالقانون الرومي، حتى في خالص ناحيته المجردة والعلمية، ليس إلا قانون العلماء القانونيين أو كما يقال في المثل اللاتيني: كل قانون وضع فإنَّه وضع بسبب الإنسان.. أمَّا القانون الإسلامي فهو أولاً وقبل كل شيء نظام أهل دين يطبقون الأحكام الموجودة على الوقائع، وغرضهم وصل كل نفس إنسانية بالله تعالى. وهذا القانون يتضمن كثيرًا من أحكام الصوم والصلاة والحج وأمثالها وحتى حينما يعالج أمورًا مدنية مثل البيع والرهن.. تغلب فيها ناحيتها الدينية)[1]، والجدير بالذكر أن (فتزجيرالد) وضَّحَ أن مراده بالقانون الإسلامي الشريعة الإسلاميَّة[2].

وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسة (لفتزجيرالد) وما وصل إليه من نتائج حاسمة في دعوى تأثير القانون الروماني على الشريعة الإسلاميَّة، وأن هذه الدعوى تسقطها الحجج البينة ويبطلها التاريخ الثابت، فإنَّ هذا المستشرق يستثني من بحثه التأثير بطرق غير مباشرة، ويعد ببحثها في مستقبل الأيام[3] غير أنني لم أقف على شيء من ذلك، والله أعلم.

وفي هذا الصدد ينفي (محمد أسد) أيَّ مظهر للتأثر والتأثير، ويرى بأنَّ الموازنة بين الامبراطورية الرومانية والأُمَّة الإسلاميَّة من السخافات الكثيرة التي تغذى بها عقول الجيل الحاضر، إذ ليس ثمة شيءٌ ما

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٥٨.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ١٥٨.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٦٦.

مشترك بينهما إلاَّ (إنَّهُما امتدتا فوق أرض شاسعة وشعوب متباينة)[1]، ويؤكد المستشرق (زيس) بأن (الصلة منقطعة بين الشريعة الإسلاميَّة، وهذا القانون - القانون الروماني - فبينما يمتمد قانونيًّا على العقل البشري تقوم الشريعة على الوحي الإلهي، فكيف يتصور التوفيق بين نظامين قانونين وصلا إلى هذه الدرجة من الاختلاف)[2].

وخلاصة القول: إنَّ دعوى تأثر الشريعة الإسلاميَّة بالقانون الروماني دعوى غير صحيحة تعارضها الأدلة الثابتة وتبطلها شواهد التاريخ (والشريعة الإسلاميَّة تناقض القانون الروماني في القيم الخلقية والاجتماعية وتخالفه مخالفة واسعة الأمد في النظرة إلى الإنسان وإلى الحياة كلها)[3]، ولايوجد بينهما توافق (في المنابع والغايات، أو تشابه في الحقوق والواجبات، أو تقارب في المبادئ والعقوبات)[4].

وقبل هذا وبعده فإنَّ هناك فرقًا جوهريًا بينهما (حيث بدأ القانون عادات.. ونما وازدهر عن طريق الدعوى والإجراءات الشكلية.. أمَّا الشريعة فقد بدأت كتابًا منزلاً من عند الله وازدهر فقهها عن طريق القياس والأحكام الموضوعية)[5].

---

(١) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق: ص ٣٥، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة: ص ٧٤، (مرجع سابق)، وانظر: محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧٢٢، (مرجع سابق).

(٣) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة..: ص ٨٦، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٨٦.

(٥) انظر: عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة..: ص ٧٤، (مرجع سابق)، وانظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ١٠٩، (مرجع سابق).

وفرق جوهريٌّ آخر: (هو أن أساس الفقه يبنى على عقيدة التوحيد، بينما القانون الرومي يبنى على الإيمان بتعدد الآلهة، ومن هذا الأصل تتشعب الاختلافات وتتفرع في كثير من المسائل بين النظامين)[١].

نقد الدعوة الثانية: دعوى التأثر بالتلمود اليهودي:

وصل تحامل بعض المستشرقين على تميز الأُمَّة الإسلاميَّة إلى الادعاء بأن (اليهودية أثرت في الإسلام كله، عقائده وعباداته ومعاملاته)[٢]، والمقصود هنا هو الرد على دعوى تأثر الشريعة الإسلاميَّة وفقهها بالتلمود ممثلة في أقوال (فون كريمر) و (كارل بروكلمان) و (بوسكة) و (لامنس) المتقدم ذكرها، وبالنظر إلى تلك الأقوال يتضح أنَّها تدور حول النقاط الآتية:

١- دعوى أن الذين دخلوا من اليهود في الإسلام نقلوا إلى شريعته عناصر ثقافتهم وبخاصَّة إدخال تعاليم التلمود في الفقه الإسلامي.

٢- وما يلحظ من تشابه التشريع الإسلامي وفقهه بالتلمود اليهودي؛ وبما أنَّ الإسلام متأخر عن اليهوديَّة فإنَّه هو المتأثر بها، وهو المقتبس من تلمودها.

٣- ما يزعم من تأثر بعض علماء المسلمين في تبويب الفقه الإسلامي ببعض كتب اليهود.

---

(١) محمد حميد الله: تأثير الحقوق الرومية على الفقه الإسلامي: ص ٤٣، (مرجع سابق)، لمزيد من الاطلاع على الفروق بين الشريعة الإسلاميَّة والقانون الروماني؛ انظر:

* محمد الدسوقي: المرجع السابق نفسه: ص ٧١٩ - ٧٢٢.
* محمد حميد الله: المرجع السابق نفسه: ص ٤١ - ٤٣.
* عبدالكريم زيدان: المرجع السابق نفسه: ص ٧٠ - ٧٤.

(٢) محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧٢٥، (مرجع سابق).

وفي الرد على هذه النقاط التي تصدى لها بعض الباحثين وكشفوا زيفها يتضح ما يأتي:

١- (التفاوت بين التعاليم اليهودية وتشريعات الإسلام وأحكامه الفقهية.

٢- عدم وقوف الفقهاء المسلمين في عصر نشأة الفقه الإسلامي وتكون مذاهبه على تراث اليهود)[1].

٣- عدم تأثير اليهود الذين دخلوا الإسلام على الشريعة الإسلاميَّة وفقهها[2].

ومن خلال عدد من هذه الدراسات ونتائجها تفند الردود أقوال المستشرقين وفق ما يأتي:

١- يرد على (فون كريمر) و (لامنس) اللذين ادعيا بأن الثقافة اليهودية وبعض تعاليم التلمود دخلت في الشريعة الإسلاميَّة وفقهها بواسطة الذين دخلوا الإسلام من اليهود أو بعض المتأثرين بتلك الثقافة وتلك التعاليم: (بأن التاريخ حفظ.. أسماء الأشخاص الذين أسهموا في الحركة العلمية الإسلاميَّة التي بدأت منذ صدر الإسلام، وكان من بين هؤلاء نفر من اليهود شاركوا في تلك النهضة العلميَّة، ولكننا لانعثر على فقيه إسلامي واحد كان من أصل يهودي، أو تثقف بالثقافة اليهودية، كما أن الذين أسلموا من علماء اليهود لم يكن من بينهم من تخصص في دراسة التلمود، حتى يكون هذا مسوغا للظن بأن

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٧٢٦.

(٢) انظر: عبدالله الركبان: دعوة تأثر الفقه الإسلامي...: ص ٨١، (مرجع سابق).

التراث اليهودي في مجال التشريع قد انتقل إلى المسلمين عن طريق هؤلاء العلماء)[1].

٢- يرد على ما نقله (بروكلمان) عن بعض المستشرقين: (من أن الشيباني قد تأثر في تبويبه للفقه الإسلامي بكتاب المشنا اليهودي)[2]؛ بأنَّ الإمام الشيباني (دون الفقه على منهج علمي لم يسبق إليه.. وما كان يعرف إلا العربية وقد توفي رحمه الله سنة ١٨٩ هـ، ومن الثابت تاريخيًا أن الفقهاء المسلمين خلال القرون الثلاثة لم يطلعوا على التراث اليهودي؛ لأنه كان مكتوبًا بلغة غير عربية، وما كان الإمام محمد يعرف إلا العربية، وبذلك تصبح دعوى تأثر هذا الإمام في ترتيب كتبه بمنهج المشنا باطلة وليست غير وهم سيطر على مخيلة القائلين بها)[3].

٣- أمَّا أقوال (بوسكة) فإنَّها جاءت بعد أن أثبت بصفة قاطعة عدم تأثر الشريعة الإسلاميَّة وفقهها بالقانون الروماني مستدلاً بأدلة عقلية وتاريخية وطبق في ذلك منهجًا علميًا يتسم بالجديَّة، ولو طبق ذلك المنهج وأعمل تلك الأدلة لخلص إلى النتيجة ذاتها حتى على صعيد التلمود ولكنَّه لم يفعل ذلك، ولعله كان يحاول أن يوهم بذلك المنهج الجاد أنه أهل للثقة والاحترام حتى تنسحب هذه الثقة على آرائه جميعها ومنها: دعواه عدم تميز

---

(١) محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧٢٩، ٧٣٠، (مرجع سابق)، وانظر: الركبان: دعوة تأثر الفقه الإسلامي: ص ٨٠، ٨١، (مرجع سابق).

(٢) انظر: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٢٣٥/٣، ٢٥٣، (مرجع سابق).

(٣) محمد الدسوقي: المرجع السابق نفسه: ص ٧٢٩، وانظر: عبدالحميد متولي: الإسلام وموقف علماء المستشرقين: ص ٦٤ وما قبلها ص ٦٢، ٦٣، (مرجع سابق).

الأُمَّة الإسلاميَّة وعدم أصالة شريعتها وفقهها، ونسبة ذلك إلى اليهودية والتلمود.

ولقد ساق (بوسكة) جملة من الأمور التي ادعى فيها التشابه بين الشريعة الإسلاميَّة والتلمود وعقب على ذلك بقوله: (إنَّ هناك تشابهًا فكريًا عميقًا بين نظامين استطاع أحدهما أن يؤثر في الآخر.. بحيث يبدو أن ثمة صعوبة في رد مقولة أن الفقه قد استوحى من التلمود كثيرًا، وخاصة بالنسبة للروح المشتركة بينهما)[1]، بل لقد ادعى أن الإسلام (يهودية ذات نزعة عالمية)[2] و (أنَّ اليهودية لها تأثير عظيم جدًّا على تكون الإسلام في عصر محمد)[3].

هذا وقد تتبع بعض الباحثين (أوجه التفاوت بين التلمود والفقه.. في مختلف المجالات التشريعية كنظام الأسرة، ونظام العقوبات، فضلاً عن الإجراءات الشكلية التي تحكم التعاليم اليهودية.. ولايعرفها الفقه الإسلامي)[4]، وخلص إلى: (أن الخلاف جوهري بينهما، وأن الطريق مقطوع بين التعاليم اليهودية والأحكام الفقهية الإسلاميَّة)[5]، وهذا من حيث الواقع التاريخي، أمَّا ما قد يتبادر إلى الذهن من الصلة التشريعية بين الإسلام والتوراة والإنجيل باعتبار أنَّ الدين الإلهي واحد، فإنَّ ذلك أمرٌ آخر ليس هذا محل مناقشته.

---

(١) بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره: ص ٧٣، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٨٤.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٨٤.

(٤) محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧٢٧، ٧٢٦، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ٧٢٧.

نقد الدعوى الثالثة: دعوى التأثر بالتعاليم النصرانية:

تنحصر دعوى تأثر الشريعة الإسلاميَّة بالتعاليم النصرانية عند التحقيق في مسألتين:

الأولى: أثر مؤلفات الفرق النصرانية الشرقية على تأليف الفقه الإسلامي.

الثانية: أثر الذين دخلوا الإسلام من النصارى وأهل الذِّمَّة على الشريعة الإسلاميَّة وفقهها.

أمَّا المسألة الأولى فإنَّ الذين أثاروها ومنهم (بوسكة) عاد ليعترف بأن (الاختلافات بين الفقه والقانون الكنسي الكاثوليكي ذات أهميَّة واعتبار، وهي تشير - كما قال - إلى أن الأمر يتعلق بنظامين لايُمكن عقد مقارنة بينهما إلاَّ قليلاً)[1]، ثُمَّ أشار لجملة من تلك الاختلافات في أربع نقاط تناولت مصادر النظامين ومجمل أحكامهما وما يتميز به كلٌّ نظام منهما، وخلاصة هذه النقاط:

١- اتصاف النظام الإسلام بالثبات واختلاف القانون الكنسي عنه في ذلك.

٢- التعارض بين النظامين من حيث تكونهما حيث انبثق الفقه الإسلامي من القرآن والسنَّة والقانون الكنسي من مصادر عديدة غير إنتاج الفقهاء النصارى.

٣- شمول الفقه الإسلامي لحياة الفرد وحياة الأُمَّة (ابتداءً من أحكام الاستنجاء وقضاء الحاجات الطبيعية وصلاة وقواعد الجهاد والحرب، والزكاة... مارًّا بالزواج والبيوع والوصايا...

---

(١) سر تكون الفقه وأصل مصادره: ص ٦٧، (مرجع سابق).

والأمر ليس كذلك في القانون الكنسي)[١].

٤- ارتباط الفقه الإسلامي بالأخلاق الإسلاميَّة، أمَّا في القانون الكنسي فإنَّ الأخلاق شيءٌ (والقانون الكنسي شيءٌ آخر مختلف عنه)[٢].

وفي ختام هذه المقارنة قال مستنتجًا: (إنه ليبدو لي أننا نستطيع أن نستنتج أن نظامي التفكير الإسلامي والكاثوليكي هما غير متشابهين، وأنهما تطورا طبقا لمبادئ مختلفة حيث انتهيا إلى نتائج لاتقبل المقارنة بينهما، إنَّ روح النظامين ليست واحدة)[٣].

أمَّا مؤلفات الفرق النصرانية فإنّ مِمَّا حفظه التاريخ (أنَّها وضعت في تاريخ لاحق لنضج الفقه الإسلامي واكتماله.. إذ وضعت بعد القرن العاشر الميلادي)[٤].

ومن جهة أخرى فإنها هي التي تأثرت بالفقه الإسلامي وأفادت منه، يقول (يوسف شاخت): (بالنسبة للجانب المسيحي فليس هناك شك في أن الفرعين الكبيرين للكنيسة المسيحية الشرقية وهما: اليعاقبة والمونوفيزية... والنسطوريون...، لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي)[٥].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٦٩.

(٣) سر تكون الفقه وأصل مصادره: ص ٦٩، (مرجع سابق).

(٤) محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧١٤، (مرجع سابق).

(٥) الشريعة الإسلاميَّة، بحث مدرج في كتاب: تراث الإسلام ١٦٢/٢، ٢١٣، تصنيف: شاخت وبوزورث؛ ترجمة: حسين مؤنس وإحسان صُدقي العَمَد، ومراجعة فؤاد زكريا، وقام بمراجعة بحث شاخت: (الشريعة الإسلاميَّة)؛ محمد عبدالهادي أبو ريدة، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عن عالم المعرفة (سلسلة تصدر شهريًا عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، الكويت.

وأمَّا حركة الترجمة التي بدأت في نهاية القرن الهجري الأول ونشطت في العصر العباسي وتزامنت في بعض مراحلها مع تدوين الفقه الإسلامي (فإنَّها أهملت إهمالاً واضحًا كتب القانون فلم يترجم إلى العربية أيُّ كتاب قانوني من لغة أجنبيَّة.. وكانت أول ترجمة للكتب القانونية الأجنبيَّة في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي على أيدي النصارى السوريان، ولم يكن لهذا تأثير على الفقه الإسلامي؛ لأنَّه كان قد بلغ نضجه - قبل ترجمة هذه الكتب بعدة قرون)[1].

وأمَّا المسألة الثانية وهي أثر الذين دخلوا الإسلام من النصارى وأهل الذِّمَّة على الشريعة وفقهها فإنَّ هذه المسألة لاتعدو أن تكون مجرد افتراض يدحضه الواقع التاريخي من وجوه عدة، من أبرزها:

١- من المتعذر على الذين دخلوا الإسلام من النصارى وغيرهم أن يؤثروا في التشريعات الإسلاميَّة (لأنّ السلطة التشريعية في الإسلام هي في يد النبي ﷺ أثناء حياته يستمد ذلك من الوحي الإلهي، وبعد وفاته انتقلت تلك السلطة إلى نفر من المسلمين يسمون المجتهدين، وهؤلاء يشترط فيهم شروط خاصَّة أفاض في تفصيلها وبيانها الأصوليون في كتبهم، وليس هذا مجال إيرادها، ولايعرف أن أحدًا من مجتهدي القرن الأول والثاني كان متثقفًا)[2] بغير الثقافة الإسلاميَّة أو ممن اهتدى إلى الإسلام وهو عارف بالقانون الكنسي أو غيره من القوانين الأُخرى[3].

---

(١) محمد الدسوقي: المرجع السابق نفسه: ص ٧١٤، ٧١٥.

(٢) عبدالله الركبان: دعوة تأثر الفقه الإسلامي: ص ٨٠، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٨٠.

٢- ومن المسلمات في دين الإسلام أنَّ من يدخل فيه يخلع عنه كلَّ أمر من أمور الجاهليَّة ويستسلم لأمر الله وحكمه، وفي مقدمة ذلك الانصياع لشرع الله في جميع شؤون الحياة إجابة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [١]، وجاء في الحديث أن الرسول ﷺ كان يتلو قول الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [٢] حينما دخل عليه عديٌّ بن حاتم؛ قال عديٌّ: (فقلت: إنَّهم لم يعبدوهم)، فقال الرسول ﷺ: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إيَّاهم» [٣].

والشاهد من ذلك أن التشريع في الإسلام منبثق من عقيدة التوحيد الخالصة لله، ولايُمكن أن يسمح لمن دخل الإسلام من النصارى أو غيرهم من ذوي الثقافات الأُخرى أن يشرعوا للمسلمين ولو فرض جدلاً أنَّهم بلغوا درجة الاجتهاد فإنَّهم عند ذلك ينطلقون من الكتاب والسنَّة وإجماع الأُمَّة الإسلاميَّة وما خلفه الصحابة والتابعون من ثروة فقهيَّة انبعثت من صميم عقيدة الإسلام وهدي رسوله ﷺ، والشريعة الإسلاميَّة وفقهها في كل ذلك متميزة تميزًا جليًا يشهد به الواقع التاريخي والحقائق المسلم بها.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٦).

(٢) سورة التوبة: الآية (٣١).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣٤٨/٢، (مرجع سابق). والحديث مروي من طرق منها ما رواه الترمذي: الجامع الصحيح ٢٦٠/٥، الحديث رقم [٣٠٩٥]، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق).

٣- أمَّا أهل الذِّمَّة فإن الإسلام وفَّرَ لهم حريَّة قضائية خاصَّة بهم؛ قال تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [(١)]، (وكذلك اليهود، وسائر أهل الذِّمَّة، ومنه ينتج أن لاتماس بين الحقوق الإسلاميَّة والحقوق الأجنبية فلايوجد بينهما فعلٍ ورد فعل، ذلك لأنّ هذا الحكم الذي فرضه القرآن لم يبق قولاً بلا عمل، بل نراه قد طبق بحذافيره في عهد الرسول ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين وغيرهم من ملوك الإسلام، وكان لكل ملة من ملل أهل الذِّمَّة «مسيحية كانت أو يهودية أو مجوسية أو أي ملة أخرى» نظام حقوقي وقضائي خاص بها... والحالات التي راجع فيها غير المسلمين المحاكم الإسلاميَّة ورجحوها على محكمتهم الخاصة كانت نادرة، وكان الواجب فيها أن يرضى الفريقان الحضور أمام القاضي المسلم – سواء لأنهما من ملتين مختلفتين: واحد نصراني وآخر يهودي مثلاً، أو من نفس الملة ولكن لم يرضيا بقاضي ملتهم لسبب من الأسباب، وفي هذه الحالة كانت المحكمة الإسلاميَّة تطبق (القانون) الإسلامي، فلم يكن كذلك تماس بين أنظمة القانون المختلفة...) [(٢)].

---

(١) سورة المائدة: الآية (٤٧).

(٢) محمد حميد الله: تأثير الحقوق الروميَّة على الفقه الإسلامي: ص ٤٠، ٤١، وانظر: نالينو: نظرات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي: ص ٢٢، ٢٣، (مرجع سابق)، وانظر: فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الرومي على القانون الإسلامي: ص ١٤١، ١٤٢ (مرجع سابق).

الدعوى الرابعة: دعوى التأثر بأعراف العرب وتقاليدهم قبل الإسلام:

لهذه الدعوى شقان رئيسان:

الأول: كون العرب في تقاليدهم وعاداتهم قد تأثروا بالأمم المجاورة لهم، بل يزعم بعض المستشرقين أنه كان للعرب قبل الإسلام قانون (راقٍ إلى حدٍّ يعتد به)[1]، ومن المحتمل أن هذا القانون مقتبس أو متأثر بالقانون الروماني، أو القانون الساساني.

الثاني: اعتماد الإسلام في شريعته على قانون العرب باعتبار (إنَّ الإسلام أقر بعض نظم الجاهليَّة)[2].

أمَّا الشق الأول لهذه الدعوى فهو باطل ومردود حتى لدى بعض المستشرقين لأسباب عدَّة تجمل في الآتي:

١ - (تفشي الأُمِّيَّة في العرب وجهلهم باللغات الأجنبية)[3]، وعلى الرغم من عنايتهم باللغة والشعر والأدب والسير والتاريخ، وكذلك احتكامهم إلى العادات والأعراف القبلية في تنظيم معاملاتهم إلاَّ إنَّهم لم ينقلوا عن الروم بخاصة شيئًا من القوانين[4]، ولايوجد - كما ذكر المستشرق (نالينو): (أيُّ دليل على تسرب التشريعات الرومانية إلى الشريعة الإسلاميَّة بواسطة العرب في الجاهليَّة)[5]، كما أورد (نالينو)

---

(١) نالينو: المرجع السابق نفسه: ص ١٥.

(٢) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية: ص ٦٩، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٦٩.

(٤) انظر: الدسوقي عيد: استقلال الفقه الإسلامي...: ص ٤٥، (مرجع سابق).

(٥) نقلاً عن عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية: ص ٦٩، (مرجع سابق)، وانظر: نالينو: نظرات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي: ص ١٣، (مرجع سابق).

شـهادة (تيودوريـتو)[1] إذ قـال: (إنَّـه توجـد أقـوام في أقصـى حـدود الامبـراطوريَّة الروميَّة رغم أنهم خاضعون لحكم الروميين، فإنَّ القانون الرومي لايطبق عليهم. يصرح (يتودوريتو) أن منهم القبائل الإسماعيلية الكثيرة العدد)[2].

والشاهد من هذا إنَّه إذا كانت بعض القبائل في أطراف الجزيرة العربية مع أنها خضعت للامبراطورية الروميَّة لم تعرف القانون الروماني ولم تخضع لأحكامه، فمن باب أولى عرب الحجاز الذين لم يخضعوا لأيٍّ سلطة أجنبية ولم يتأثروا بحضارات الأمم المجاورة لهم، وهذا ما حفظه لهم التاريخ[3].

٢ - وإذا كان القول السابق ينفي تسرب القانون الروماني إلى عادات العرب وأعرافهم ومن ثَمَّ استحالة تسربه عن طريق العرب في الجاهليَّة إلى الشريعة الإسلاميَّة؛ فإنَّ تأثر العرب بالقانون الساساني ليس إلاّ كما قال (نالينو): (ظنٌّ يسيرٌ ادعاؤه عسيرٌ إثباته)[4].

وهذا القانون طواه التاريخ وأصبح في حكم النسيان وإلى ذلك يشير (فتزجيرالد) في رده على (جولدزيهر) إذ قال: (وكذلك فإنّ مصدرًا ممكنًا آخر للقانون الإسلامي الذي يشير إليه (جولدزيهر) أيضًا في سياق مختلف - فإنه يتكلم عنه في صدد العادات والعبادات الدينية

---

(١) لعلّه من مؤرخي (النصف الأول من القرن الخامس الميلادي). انظر: نالينو: المرجع السابق نفسه: ص ١٤.

(٢) نالينو: المرجع السابق نفسه: ص ١٤.

(٣) انظر: الدسوقي عيد: استقلال الفقه الإسلامي: ص ٤٢ - ٤٥، (مرجع سابق).

(٤) نالينو: المرجع السابق نفسه: ص ١٧.

(لا القانونية)، ولكن لانعرف عن هذا المصدر إلاَّ النزر اليسير، ألا وهو النظام القانوني للامبراطورية الساسانية)[1].

أمَّا الشق الثاني من هذه الدعوى وهو إقرار الإسلام لبعض عادات الجاهليَّة وأعرافها وهو ما عبَّر عنه (كولسون) بالعرف السائد في مجتمع العرب قبل الإسلام، وأن الرسول ﷺ عمد إليه فعدَّل فيه وغيَّر دون أن يلغيه بل أبقى على قواعده(٢).

والصحيح عند التحقيق (إنَّ إقرار الرسول ﷺ لهذا العرف أو ذاك لم يكن مبنياً على أساس التأثر بما أقر، أو على أساس الأخذ بعرفٍ سائد بدافع التقليد، بل على أساس أنَّ ذلك هو حكم الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فضلاً عن أن أخذه ﷺ بهذا العرف أو ذاك إنَّما كان بإلهام سابق أو إقرار لاحق من الله سبحانه وتعالى، ولهذا كان ﷺ يقر بعض الأعراف لصلاحه؛ «كالمضاربة والبيوع والإجارات الخالية من المفاسد والقسامة وجعل الدية في القتل الخطأ على عاقلة الجاني.. وغير ذلك» ، ويلغي... كثيرًا من الأعراف السائدة لفساده؛ «كالتبني والربا وشرب الخمر وحرمان الصغير والنساء من الميراث... وغير ذلك» ، ثُمَّ إنَّه يُمكن القول إضافة إلى ما سبق: إن أكثر ما أقره الرسول ﷺ من الأعراف، لم يقره على حاله، وإنَّما عدَّله وشذَّب منه وأضاف إليه وحدَّدَ له الحدود الشرعية، فوضع - على سبيل المثال - للمضاربة شروطاً، وللوصية حدودًا، وللطلاق وتعدد الزوجات قيوداً وضوابط)[3].

(١) فتزجيرالد: المرجع السابق نفسه: ص ١٥٧.

(٢) كولسون: في تاريخ التشريع الإسلامي: ص ٣٥، (مرجع سابق).

(٣) الدسوقي عيد: استقلال الفقه الإسلامي...: ص ٤٦، ٤٧، (مرجع سابق).

وعلى هذا فإنَّ مقولة (كولسون) - آنفة الذكر - لكي تتفق مع حقائق الأمور ينبغي أن تعكس لتصير: والذي أبقاه الرسول ﷺ من العرف السائد عند العرب قبل الإسلام لم يبقه على عواهنه وإنَّما عدَّل فيه وغيَّرَ حتى أعاده لما كان عليه من الحق والفطرة السليمة؛ لأن العرب كانوا (في أول أمرهم على دين إسماعيل (عليه السلام) المبني على التوحيد والتقوى، المشتمل على شريعة قائمة على أساس العدل والإنصاف، وهم لم يتحوَّلوا إلى الشرك إلاَّ بعد طول العهد وتقادم الزمن، ولم يبتعدوا عن أحكام تلك الشريعة إلاَّ بعد توالي الحقب وتصرم الأزمان. وابتعادهم هذا لايعني أنهم ضيعوا كل أحكام شريعة سيدنا إسماعيل (عليه السلام)، وفقدوا كلَّ جزئياتها وقواعدها؛ لذلك من المعقول جدًّا أن ما أقرَّه الرسول (ﷺ) من الأعراف هو من بقايا شريعة إسماعيل (عليه السلام)، التي توارثها العرب، ويكون هذا الإلهام نتيجة إلهام الله له بأنَّ مثل هذه الأحكام هو من أحكام شريعته كما كان من أحكام شريعة إسماعيل (عليه السلام)، إذ من المعلوم أن بعض أحكام الشرائع السماويَّة تتفق كلَّ الاتفاق فيما بينها؛ لأنها من الأحكام التي لها طابع الدوام والثبات والصلاح لكل وقت وزمان)[1].

---

(١) نظام الدين عبدالحميد: مفهوم الفقه الإسلامي (تطوره، وأصالته، ومصادره العقليَّة والنقلية): ص ٦٢، ٦٣، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت.

وفي ختام هذا المطلب ألمح إلى بعض الاستنتاجات في الآتي:

١ - إن مقولة أن الشريعة الإسلاميَّة أو فقهها قد تأثرت بمصادر أجنبية سواء القانون الروماني أو التلمود اليهودي أو القوانين الكنسية أو غيرها، أو أنها امتداد للعرف السائد عند العرب قبل الإسلام، تقوم على الخلط بين جانبٍ من الشريعة الإسلاميَّة وجانب آخر، تخلط بين الشريعة الإسلاميَّة من حيث كونها منبثقة من الوحي ومصدرها الكتاب والسنَّة، وأنها قد اكتملت في حياة الرسول ﷺ في مبادئها الأساسية وأحكامها العامَّة وسار عليها سلف الأُمَّة الصالح، وبين بعض مسائل الاجتهاد وما انبثق عنه من ثروة فقهية قام بها فقهاء الأُمَّة سواء في بعض القضايا المستجدَّة أو تطبيق أحكام الشريعة على الوقائع والحوادث التي تجري في حياة المسلمين.

٢ - وإن الشريعة الإسلاميَّة من حيث مصدرها ومن حيث واقعها متميِّزة عن غيرها، (ويدل كل ما فيها على أنَّها قائمة بذاتها غير مستمدَّة من غيرها ولا متأثرة به)[١]، وهذا ما وصل إليه نفرٌ من المستشرقين جاء الاستدلال بأقوالهم فيما سلف.

٣ - ظاهرة الاقتباس والتأثر والتأثير واضحة في تاريخ القانون الروماني والتلمود اليهودي والقوانين الكنسية وكلها عرضة للتغيير والتبديل والإلغاء.. أمَّا الشريعة الإسلاميَّة فإنها اختصت بصفات الثبات والاستمرار في جانب من أحكامها واتسمت بالمرونة ومواكبة التطورات في جانب آخر مِمَّا أهلها للإحاطة

---

(١) عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة: ص ٧٥، (مرجع سابق).

بقضايا الإنسان وشمول أحكامها لمستجدات الزمان والمكان.

وفي هذا الصدد عاب المستشرق المجري (فيري) على بعض الدول العربية والإسلامية إدخال القوانين الوضعية في بلدانهم وإحلالها محل الشريعة؛ إذ قال: (إنَّ فقهكم الإسلامي واسع جداً إلى درجة أنني أعجب كلما فكرت في أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لبلادكم وزمانكم)[١].

وقال آخر: (إن النظام القانوني الإسلامي حيٌّ متفاعل ومطبق في المجتمعات الإسلاميَّة وقائم في ضمائر أفرادها، وينبغي أن يعتمد عليه في تشكيل النظم القانونية في البلاد الإسلاميَّة، لتأتي هذه النظم معبرة عن روح البلاد التي تطبقها)[٢].

٤ - أثبت بعض الدارسين في تاريخ القوانين أن القانون الغربي هو الذي تأثر بالفقه الإسلامي وأفاد منه في خلال الاحتكاك الحضاري في الأندلس ومن منافذ أخرى، أمَّا ما حدث في الأندلس فورد في بعض المصادر (أنَّ طلبة العلم من الإفرنج الذين كانوا يسافرون إلى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيراً بنقل فقه الإسلام إلى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة ما فيها من الأحكام خصوصاً في المائة الرابعة والخامسة من الهجرة،

---

(١) نقلاً عن: محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي: ص ٧٠٨، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن: محمد سليم العوا: النظام القانوني الإسلامي في الدراسات الاستشراقية المعاصرة (دراسة لمنهج المستشرق: نويل ج. كولسون) بحث مدرج في: مناهج المستشرقين في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة: ١/٢٥٤، ٢٥٥، (مرجع سابق)، وانظر: سامي الصقار: دور المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي بجلة المنهل (العدد السنوي المتخصص عام ١٤٠٩ هـ عن الاستشراق والمستشرقين): ص ١٤٥، (مرجع سابق).

ومن الثابت أن كثيرًا منهم قد برعوا في اللغة العربية، ومنهم (هوبرت) و (ألبرت)، اللذان طلبا مساعدة علماء المسلمين بغية التمكن من استيعاب هذه الأحكام، وقد ساعدوهما حتى دونوا الفقه كاملاً ثُمَّ حوروه إلى ما يوافق بلادهم)[1].

ويذكر سعيد مراد الغزي بأن طلبة العلم أولئك (اتفق رأيهم على... عدم عزو المأخوذ عن الشرائع الإسلاميَّة لمنبعه الأصلي خوفًا من نفرة العامة من المسيحيين الذين كانوا بواسطة رؤساء الدين ينفرون من كل شيء مصدره الإسلام مهما كان حسنًا ونافعًا، فاتفقوا على إهمال مصدر ما يأخذونه عن الشريعة الإسلاميَّة من تلك الحقوق «الشرائع الرومانية» أو «القانون المدني» بل لقد عزوا ذلك إلى اجتهادات علماء الحقوق منهم بنتيجة البحث والدرس)[2].

* * *

(١) هذا الكلام منسوبٌ إلى: مفضل بن رضي الاسفرنكاني: مجموعة رسائل في شوارد المسائل (لم أجده)؛ نقلاً عن: سعيد مراد الغزي: الحقوق المدنية في العالم القديم ومنابعها الثابتة؛ مجلة المجمع العلمي العربي، الجزء الرابع، المجلد الثاني، شعبان ١٣٤٠ هـ - نيسان ١٩٢٢ م ص ١١٦٠، وأصلها محاضرة ألقاها في بهو المجمع العربي ليلة الجمعة ١٣ تشرين الأول ١٩٢١ م، ثُمَّ نشرتها مجلة المجمع.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١٦، ويؤكد الباحث بأنَّ مسألة ظهور القانون الروماني فجأة بعد اختفائه مدَّة أربعة أو خمسة قرون تعزز هذه المقولة كما أنَّه أورد لإثباتها قولين من مصدرين أحدهما شرقي وهو المثبت أعلاه وآخر غربي، لمزيد الاطلاع انظر:: المرجع السابق نفسه: ص ١١٧.

المبحث الثالث
الأُخُوَّة ووحدة الأمة
وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: الأُخُوَّة ووحدة الأمة.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منها.

المطلب الأول
الأُخُوَّة ووحدة الأُمَّة الإسلاميَّة

تبين - من خلال البحث في العقيدة والشريعة - أنَّ تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة يقوم على عقيدة راسخة حقه يتسع نطاقها لتشمل كلَّ من قال: (لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله)، كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «من شهد أن لا إله إلاَّ الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما للمسلم وعليه ما على المسلم»[1].

فهذه العقيدة تصبغ الأُمَّة بصبغتها المتميِّزة ولاتحجبها عن أحد أراد الانتماء إليها والدخول فيها، ويقوم - أيضًا - على شريعة تربط تلك الأُمَّة بمنظومة من القيم والنظم، تنبثق من تلك العقيدة.

ومن هذا المرتكز فإنَّ تميز الأُمَّة الإسلاميَّة يقوم على أخوة توجبها عقيدة الإسلام وشريعته، وتربط أواصر العلاقات الاجتماعية بقيم الحق والود والتراحم والتعاون، فإنَّ هذه الأُخُوَّة لاتركز على وشائج الدم والنسب ودواعي الحسب والجاه، أو مؤثرات التاريخ واللغة، أو دوافع العنصر والبيئة أو اللون، أو ما عدا ذلك من الأعراض والأوصاف الماديَّة، التي إن دارت حولها العلاقة أو ارتبطت بها ظهرت بمظهر العنصرية الزائفة، أمَّا في الإسلام فهي أخوة إيجابية، أخوة في الله، حبًّا فيه وبغضًا من أجله ولاءً وبراء، ثُمَّ لكل رابط من الروابط الأخرى مايناسبه من البر والإحسان أو العداوة والبغضاء، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١/١٥٣، الحدث رقم [٣٨١، ٣٨٥]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1].

ويتناول البحث في الأخوة ما يأتي:

١- تعريف الأُخُوَّة في اللغة والاصطلاح.

٢- منهج الإسلام في تقرير الأُخُوَّة، ووحدة الأُمَّة.

٣- أثر الأُخُوَّة في تميز الأمة الإسلاميَّة، ووحدتها.

(١) - تعريف الأُخُوَّة في اللغة والاصطلاح:

أ - الأُخُوَّة لغة: تطلق الأُخُوَّة ويراد بها النسب القريب ويسمى الواحد (الأخ)، والاثنان (أخوان) والجمع (إخوان) و (إخوة)[2]، وفي اللغة تفصيلات كثيرة في أصل الكلمة وتصريفها... وما يهم البحث منها هو: أنها تطلق على معانٍ عدَّة منها ما ذكر آنفاً[3].

ومنها: النسب البعيد الذي يراد به الأُخُوَّة في الأصل الأول إلى أبي البشر عليه السلام[4]، أو النسب إلى قوم كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[5] قال بعض اللغويين: (أخاهم لأنَّه من قومهم)[6].

ومنها: الصديق والصاحب، ومنها آصرة الدين كقوله تعالى: ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾[8]، ومنها آصرة العمل، أو الاتفاق في صفة خير أو شر، فيقال:

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٩).

(٢) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (أخا)، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: المادة نفسها.

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: المادة نفسها.

(٥) سورة هود: الآية (٥٠).

(٦) ابن منظور: المرجع السابق نفسه: مادة (أخا).

(٧) سورة الأحزاب: الآية (٥).

(٨) سورة الأعراف: الآية (٢٠٢).

إخوان العمل وإخوان العزاء، وأخو كربة أي صاحب كربة[١].

كما تطلق ويراد بها وحدة القصد، قال بعض النحويين: (سُمِّيَ الأخ أخًا؛ لأنَّ قصده قصد أخيه)[٢]، ويقال: (وآخى الرجلَ مؤاخاةً وإخاءً ووخاءً)[٣]، ويقال: (ولقد تآخيت وآخيت... وتأخيت أخًا، أي اتخذت أخًا)[٤].

ومِمَّا ورد في اللغة من مادة الأُخُوَّة ولها دلالة تفيد سياق البحث: (الأَخِيَّة والآخِيَّة، واحدة الأواخي: عودٌ يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدَّابَّة)[٥]، وقيل: (حبل يدفن في الأرض ويبرز طرفه فيشد به)[٦].

---

(١) انظر: ابن منظور: المرجع السابق نفسه: مادة (أخا)؛ ولأنَّ تصريف اللفظ في الأصل فيه إبدال فقد تشتَّت في معاجم اللغة العربية واكتنف البحث عنه صعوبة. انظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة: مادة (أخو)، الزمخشري: أساس البلاغة: مادة (أخو)، ولمزيد الاطلاع على ما قيل حول مادتها من آراء في النحو.. (وإحصاء لورود مادتها ومشتقاتها لدى البخاري). انظر: محمود حسين أبو الفتوح: معجم ألفاظ الحديث النبوي الشريف في صحيح البخاري، (المجلد الأول): المادة [٢٦] (أخو): ص ١٠٩ – ١١٦، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م، عن مكتبة لبنان – بيروت.

(٢) ابن منظور: المرجع السابق نفسه: المادة نفسها.

(٣) المرجع السابق نفسه. وانظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط: مادة (أخا)، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه. وانظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط: مادة (أخا)، (مرجع سابق).

(٥) ابن منظور لسان العرب: مادة (أخا)، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط: مادة (أخا)، (مرجع سابق).

(٦) ابن منظور: المرجع السابق نفسه، وانظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط: مادة (أخا)، (مرجع سابق).

وخلاصة ذلك أنَّ للأخوة في اللغة معانٍ عدَّة من أهمها:

النسب القريب، النسب البعيد، الصداقة والصحبة والملازمة، آصرة الدين، آصرة العمل، الاشتراك في صفة من الصفات حسنةً كانت أم سيئة، الاشتراك في القصد.

وتدل بعض الألفاظ التي تشترك معها في الاشتقاق على معنى الآصرة أو الركيزة أو الرابط القوي الذي يُشَدُّ إليه.

ب- تعريف الأُخُوَّة اصطلاحًا:

عرَّفها الراغب الأصفهاني بقوله: (الأصل أخو، وهو المشارك آخر في الولادة من طرفين، أو أحدهما أو من الرضاع، ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة أو في مودَّة، وفي غير ذلك من المناسبات)[(١)].

أمَّا المقصود بالأخوة هنا فهي: (الأُخُوَّة الإيمانيَّة التي تربط فيما بين أصحاب العقيدة الإسلاميَّة)[(٢)]، بما تقتضيه من التناصر والتراحم والتكافل، والتعاون والمناصحة، (التي لاتقاربها رابطة مهما كانت وشائج القربى متينة)[(٣)].

(ولقد اختير وصف الأُخُوَّة دون الأبوة أو البنوة؛ لأنها جامعة تماثل،

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (أخ). وانظر: محمد عبدالرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف (معجم لغوي مصطلحي): مادة (الأخ)، (مرجع سابق).

(٢) محمود محمد بابللي: معاني الأُخُوَّة في الإسلام ومقاصدها: ص ١٤، ١٧، سلسلة دعوة الحق، العدد [٣٨]، السنة الرابعة، جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، عن رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٤.

في الاعتقاد والتفكير والعمل، فشابهت تماثل الأخوين؛ لأن الأُخُوَّة يلزمها التماثل)[1].

كذلك لما تتسم به الأُخُوَّة من الشعور بالارتياح وعدم التكلف بخلاف الأُبُوَّة والبُنُوَّة فإنَّ لكل منهما مشاعر تتسم بنوع من المهابة والإجلال والتوقير والطاعة من الابن لأبيه، واستمداد الأب الطاعة والبر والإحسان من ابنه، وتتسم الأُخُوَّة أيضًا بأنها تجمع أواصر كثيرة منها: التماثل في الطباع والإلفة والصحبة والمحبة[2].

(٢) - منهج الإسلام في تقرير الأُخُوَّة:

انتهج الإسلام في تقرير الأُخُوَّة وبنائها منهجًا تربويًّا فريدًا، ينطلق من عقيدة التوحيد الصحيحة الأصيلة، وما يندرج تحتها من مبادئ وقيم تضبط الفكر ورؤية الكون والحياة...، في ضوء العبوديَّة الخالصة لله - عزوجل - وما ينجم عنها من آثار إيجابيَّة تنعكس على سلوك الفرد، وسلامة الأُمَّة، إلى جانب نظم الإسلام الشرعيَّة وأخلاقياته الساميَّة التي عنت بالأخوة ووحدة الأُمَّة غاية العناية، أمرًا بها وحثًا عليها، وحرصًا على كل ما يجعلها راسخة في سلوك الفرد، وبناء الأُمَّة، ومن جانب آخر النهي عن كل مايمسها أو يُصدِّع بنيانها أو يضعف تأثيرها من الاعتداد بالروابط المنافية لها، أو المواقف التي تجافيها والأخلاق التي تصادمها...، وتفصيل ذلك في الآتي:

أولاً: جعل العقيدة آصرة تلك الأُخُوَّة دون غيرها من الأواصر

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٣.

(٢) انظر: محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ص ١٢١، طبعة، ١٩٧٩م، عن الشركة التونسية للتوزع، تونس.

الأُخرى، كآصرة النسب أو القبيلة أو اللغة أو التاريخ أو المناهج المتنوعة، والمصالح المختلفة، مع أن الإسلام لم ينكر تلك الأواصر أو يلغها مادامت في المسلك الفطري السليم، من حيث صلة الرحم، وحقوق القرابة والجوار ونحو ذلك، وإذا كان قد ركَّزَ على آصرة العقيدة، والرابطة القائمة على أساسها فهو إنَّما ميَّز هذه (الأُخُوَّة الإيمانية عن غيرها ورفع من شأنها؛ لأنها أخوة مستمدّة من عناصر روحيَّة لاتدانيها في التقارب أيُّ علاقة أخرى)[1]، أمَّا لو اجتمعت الآصرتان معًا فإنَّ ذلك أبعد أثرًا وأعمق في التقارب؛ والإسلام يقر ذلك ولاينكره، ولعل في سؤال نبي الله موسى عليه السلام ربه أن يَشُدَّ عضده بأخيه هارون عليه السلام ما يؤكد هذا[2]، بل إنَّ الإسلام حينما أطلق على رابطة العقيدة مسمى الأُخُوَّة إنَّما فعل ذلك إقرارًا بمكانتها الغريزية، وما تقتضيه من العصبية والحميَّة من الأخ لأخيه في الدم والنسب[3]، ولكنه أراد أن تكون تلك الرابطة مشدودة بعقيدة الإسلام وشريعته في المقام الأول، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[4]، (وأُخُوَّة الإيمان أوثق روابط النفوس، وأمتن عرى القلوب، وأسمى صلات العقول والأرواح)[5]؛ لأنَّها ترتكز على عقيدة التوحيد الخالص لله، (ووحدة العقيدة هي ملاك

---

(١) محمود محمد بابللي: معاني الأُخُوَّة في الإسلام..: ص ١٤، (مرجع سابق).

(٢) انظر: سورة طه: الآيات (٢٩ – ٣٦). وانظر: محمود محمد بابللي، المرجع السابق نفسه: ص ١٥.

(٣) انظر: محمود محمد بابللي: المرجع السابق نفسه: ص ١٥.

(٤) سورة الحجرات: الآية (١٠).

(٥) محمد علي الهاشمي: شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة: ص ١٨٥، من مطبوعات الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابيَّة، رقم [٤٢]، (بدون تاريخ).

ذلك كـله؛ لأنها هي التي تزود القلوب برصيد الحب الخالص، وروح الأُخُوَّة الصادقة، وتسل من النفوس مايعلق بها من أوضار الحقد، وتطهرها من شوائب التنافر، وتصوغ الإنسانية صياغة فريدة، قوامها التناصح والتآزر، وجوهرها الإخلاص والوفاء، بحيث يحب المؤمن لأخيه مايحب لنفسه، ويسعى لخيره وما يصلح شأنه، سعيه لذاته وصلاح أمره)[1].

أمَّا إذا ارتكزت الأُخُوَّة على عصبية النسب، وحميَّة الجاهليَّة جنسية كانت أو إقليمية فإنها تكون (وليدة نزعات خاصَّة لاتعرف غير الجنس أو الإقليم، ولا تمت في أكثر أحوالها إلى القلب، ولا إلى الصالح العام، وبها يذوي الضمير العالمي، وينكمش الروح الإنساني، وينسى الرحم العام، الذي يقضي بالتعاون العام، والسلام العام، ويقضي بالحدب الشديد على المصالح العامَّة، ثم تجعل من أفراد الإنسان أو جماعاته حيوانات غابيَّة مفترسة، يفتك قويها بضعيفها، ويأكل كبيرها صغيرها)[2].

إنَّ تميُّزَ الأُمَّة الإسلاميَّة يقوم على مبدأ الأُخُوَّة ووحدة الأُمَّة الذي أعلنه رسول الهدى ﷺ بقوله: «أيها الناس إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى»[3].

---

(١) عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية: ص ٢٠٦، (مرجع سابق).

(٢) محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام: ص ٢٢٥، (مرجع سابق).

(٣) من إحدى خطب الرسول ﷺ في حجة الوداع، وذكر الإمام الصالحي: سبل الهدى والرشاد.. ٤٨٢/٨، أنَّ الرسول ﷺ خطب الناس بعد أن نزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ ﴾ السورة، (فعرف أنه الوداع... فوقف للناس=

قال أبو الحسن الندوي: (هذا الإعلان يتضمن إعلانين، هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام، وعليهما قام السلام في كل مكان وزمان، هما وحدة الربوبية والوحدة البشرية، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين، والإنسان أخو الإنسان مرتين: مرَّة، وهي الأساس؛ لأنَّ الرب واحد، ومرَّة ثانية لأن الأب واحد، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1]، وقال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[2]، ويقول الرسول ﷺ: «إنَّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهليَّة وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بَرٌّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب»[3]؛ لذلك كان الدين الإسلامي حقًا مشاعًا وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب والعناصر والأجناس، والأسر والبيوت والبلاد والأوطان،

=بالعقبة.. وحمد الله وأثنى عليه...)، وكان مِمَّا جاء في الخطبة ما ذكر أعـــلاه... وأن هذه الخطبة كانت في اليوم الثاني ليوم النحر، وقد أخرج الحديث الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥٧٠/٦، الحديث رقم [٢٢٩٧٨]، ترتيب وترقيم: دار إحياء التراث العربي، (مرجع سابق).

(١) سورة النساء: الآية (١).

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٣) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح ٣٦٣/٥، رقم الحديث [٣٢٧٠]، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق). ومعنى (عُبِّيَّة الجاهليَّة: أي نخوتها وكبرها وفخرها). المرجع السابق نفسه، حاشية الصفحة [٣٦٣].

ليس فيه احتكار مثل احتكار بني لاوي من اليهود، أو البراهمة من الهنود، لايتميز فيها شعب عن شعب، ولا نسل عن نسل وليس الاعتماد فيها على العرق والدم، بل الاعتماد فيها على الحرص والشوق، وحسن التلقي وزيادة التقدير والتفوق في الجهاد والاجتهاد)[1].

إنَّ هذه الرابطة التي قررها الإسلام وأعلنها رسول الله ﷺ مشدودة بالعقيدة والإيمان ولذلك فإنَّ من لوازمها الولاء لله وللرسول وللمؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[3]، فالمسلم مطالب (بأن يكون ولاؤه القلبي والعملي لإخوانه في الدين)[4]، ومقتضى ذلك الحب في الله، قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾[5]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: (نزلت هذه الآية في المتحابين في الله)[6]، وقال الرسول ﷺ: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله

---

(١) أبو الحسن علي الحسني الندوي: الإسلام (أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية): ص ٣٤، ٣٥، (مرجع سابق).

(٢) سورة المائدة: الآية (٥٥).

(٣) سورة التوبة: الآية (٧١).

(٤) عبدالستار فتح الله سعيد: المعاملات في الإسلام: ص ١٠٨، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ، عن دار الطباعة والنشر الإسلاميَّة - القاهرة.

(٥) سورة الأنفال: الآية (٦٣).

(٦) أخرجه الحاكم: المستدرك على الصحيحين ٣٥٩/٢، الحديث رقم [٣٢٦٩/٣٨٦]، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، (مرجع سابق).

ورسوله أحب إليه مِمَّا سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[1]، ومن لوازم مبدأ الأُخُوَّة في الإسلام من جانب آخر مِمَّا تقتضيه العقيدة ويوجبه الإيمان البغض من أجل الله والبراء من أعدائه وأعداء رسوله وأعداء المؤمنين، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[2]، قال بعض المفسرين: (لايجتمع هذا وهذا، فلايكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى إيمانه ولوازمه، من محبةً من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه، وهذا هو الإيمان على الحقيقة الذي وجدت ثمرته)[3].

والآيات والأحاديث مستفيضة في هذا المضمار تؤكد الحب في الله ولوازمه والبغض في الله ولوازمه ومقتضياته وكلها يدور حول وحدة العقيدة كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾[4]، وقوله تعالى في النهي عن موالاة اليهود والنصارى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١/١٤ الحديث رقم [١٦]، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (مرجع سابق)، وأورده في عدّة مواطن بألفاظ متقاربة وهو من الأحاديث المتفق عليها.

(٢) سورة المجادلة: الآية (٢٢).

(٣) السعدي: تيسير الكريم الرحمن.. ٣٢٢/٦، (مرجع سابق).

(٤) سورة التوبة: الآية (٢٣).

(٥) سورة المائدة: الآية (٥١).

ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾[1]، فكل هذه الآيات وماجاء على نحو منها من الأحاديث والآيات الأخرى تبني شخصية الأُمَّة المسلمة بناءً متميِّزًا تجعل الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة من مقوماته وتأمر بالترابط والتماسك والالتفاف حول عقيدة التوحيد الخالص لله وتنهى عن التفرق والاختلاف والذوبان في شخصيات الآخـــرين، وبلغ ذلك أن نهى الله عن اتخاذ البطانة مـــن دون المؤمنـــين، قال تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾[2]، (فوضح لعباده المؤمنين، الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لايألونكم خبالا: أي هم حريصون غير مقصرين، في إيصال الضرر بكم...)[3].

ومع هذا التحذير وإظهار الشخصية المتميِّزة فإنَّ الله عزوجل جعل من خصائصها أيضًا الانفتاح على الآخرين والإيجابية في التعامل وتبادل البر، لا أن تكون شخصية منغلقة متعصبة، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

---

(١) سورة الممتحنة: الآية (١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٨).

(٣) السعدي: تيسير الكريم الرحمن..: ٤١٣/١، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب: أوثق عرى الإيمان، بتحقيق: الوليد بن عبدالرحمن الفريان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م، يُعْنى بتأصيل الولاء والمحبة وما يقتضيان من البغض والبراء وأنهما أساس أُخوَّة الإسلام وساق الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة وفهم سلف الأُمَّة، ثم جعل خاتمة الرسالة في فضل الحب في الله ص ٦٨ - ٧٤، وأورد على ذلك أدلَّة مستفيضة من الكتاب والسنَّة.

وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [1]، ذلك أنه لما (نزلت... الآيات الكريمات المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه فأخبرهم الله أ؛ ذلك لايدخل في المحرم...)[2]، وإنَّما (نهاكم الله أن تولوهم بالنصرة والمودَّة، بالقول والفعل، وأمَّا بركم وإحسانكم الذي ليس بتول للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم، من الآدميين وغيرهم)[3].

ثانيًا: ومِمَّا انتهجه الإسلام في تحقيق الأُخُوَّة وبناء وحدة الأُمَّة ما أوجبه على عباده من عبادات يؤدونها في جماعة، وأخلاق يتعاملون بها في علاقاتهم الخاصَّة والعامَّة، ومقتضيات تقضي إليها الأُخُوَّة من التناصر، والتراحم، والتعاون والمناصحة.

أمَّا العبادات فإنَّ الإسلام حثَّ على صلاة الجماعة وفيها يلتقي المؤمنون المجاورون لكل مسجد في مسجدهم خمس مرات لأداء الفروض الخمسة من الفجر إلى العشاء، ويجمعهم لقاءً أكبر يتم في كل أسبوع مرة لأداء صلاة الجمعة والاستماع لخطبتيها، ثُمَّ يجتمعون في عيد الفطر وفي عيد الأضحى، ويجتمعون لصلاة الاستسقاء وصلاة الخسوف وصلاة الكسوف ونحو ذلك.

---

(١) سورة الممتحنة: الآية (٨).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن...: ٣٥٦/٧، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ٣٥٧/٧.

وفي هـذه اللقـاءات الـتي تتكرر يوميًّا وأسبوعيًّا وفي العيدين ونحوهـا مِمَّا أشير إليه تتجلى الأُخُوَّة ووحدة الأُمَّة في أسما معانيها حيث تتضح الغاية من تلك الاجتماعات وهـي عبادة الله والخضـوع له والتذلل بين يديه يلتقي مـن أجلها المؤمـنون في بيـت مـن بـيوت الله يـتقدمهم إمـام يـأتمون به، رمزًا لوحدة الغاية ووحدة الهـدف، ويصطفون من خلفه في نسقٍ ونظام متجهين لرب واحد، وقبلة واحدة وعلى منهج واحد[1] اتباعًا لنبيهم محمد ﷺ إمـام الأُمَّة وقدوتها الـذي قـال: «وصلوا كما رأيتموني أصلي»[2] والـذي حثَّ على صلاة الجماعـة وقال بشأنها: «تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده، بخمسة وعشرين جُزْءًا... »[3].

ولايتسع المقام هنا لاستقصاء ما ورد من الحث على تلك اللقاءات، ولا ما تنطوي عليه من الفوائد والحكم التي تتميَّزُ بها الأُمَّة الإسلاميَّة على سائر الأمم الأخرى، والتي تعدُّ – في الحقيقة – من نعم الله على هذه الأُمَّـة وعلى نبينا محمد ﷺ كما قال تعالـى: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، الطبعة التاسعة، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت، وانظر: عبد ربِّ النبي علي أبو السعود: الأُخُوَّة الإسلاميَّة: ص ١١٠ – ١٢٣، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ/١٩٩٠ م، عن مكتبة وهبة – مصر.

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢٢٩/١ الحديث رقم [٦٠٥]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢٣٢/١ الحديث رقم [٦٢١]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[1]، وكما قال: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[2]، ويكفي أن ينوه هنا بما يتصل بالأخوة وما تعكسه تلك اللقاءات من وحدة في القول والعمل والقصد والنيَّة وما ينجم عن هذه اللقاءات من تعارف وتآلف في ظل طهر الضمير ونقاء السريرة وغذاء النفس الذي تصقله العبادة بما فيها من دعاء وذكر وغذاءٍ روحي يرتوي منه المؤمنون في تلك اللقاءات إذا هم أدوها على الوجه الشرعي الصحيح[3].

فالصلاة أولا تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[4]، والصلاة وسائر العبادات في الإسلام تصقل نفوس المسلمين وتحقق فيهم معنى الأُخُوَّة والوحدة في أجمل صورة؛ لأنَّها تشد (آصرة الأُخُوَّة في الدين في تفاعلها العميق مع وجدان المؤمن على هدى وبصيرة ومحبَّة وتعاون، ومشاركة في المثل العليا، فإذا الكثرة المتفرقة وحدة مجتمعه، وإذا النفوس في ألَقِها وصفائها كالمرايا المتقابلة، تنعكس صورٍ بعضها في بعض وتذوب الفوارق مهما عظمت)[5]، فيظهر المسلمون صفًا واحدًا لا فرق بين غني وفقير، ولا رئيس ومرؤوس، ولا

---

(١) سورة النساء: الآية (١١٣).

(٢) سورة النحل: الآية (١٨).

(٣) عن تحول العبادات إلى عادات وأثر ذلك في حياة المسلمين. انظر: محمد أبو الفتح البيانوني: تحول العبادات إلى عادات وأثره في حياة المسلمين: مجلة البحوث الإسلاميَّة، المجلد الأول، العدد الثاني، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة، ١٣٩٥هـ، والمحرم، صفـر، ربيع الأول ١٣٩٦هـ: ص ١٨٥ - ١٩٧، عن إدارة البحوث العلمية والإفتاء... الرياض.

(٤) سورة العنكبوت: الآية (٤٥).

(٥) عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٣٦٦، (مرجع سابق).

سيد وعبد، ولا صغير ولا كبير، الكل سواسية كأسنان المشط تجمعهم الطاعة والإيمان والانقياد لله، ثُمَّ إنَّ لهذه الأُخُوَّة والوحدة في الدين والعبادة امتدادًا في الاهتمام بالشؤون الخاصَّة، فعلى سبيل المثال حينما يَنِدُّ عن هذا النسق بعض المسلمين فإنَّ الأُخُوَّة الإسلاميَّة توجب عليهم التساؤل عن سبب ذلك والتعامل مع كل حالة بما يناسبها من الحقوق والواجبات[1].

وعلى هذا فإنَّ الاجتماع للصلوات والشعائر الإسلاميَّة الأخرى كالعيدين وغيرهما وكذلك صوم رمضان وحج بيت الله الحرام وما يلازمهما من مبادئ وقيم وتعاليم إنَّ ذلك كله يحقق معنى الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأمة وآفاقها الكبرى التي تتجلى في صور كثيرة تؤكد كلها تميُّزَ الأُمَّة الإسلاميَّة.

وأمَّا الأخلاق التي أوجبها الإسلام على أمته أو حثَّ عليها أو ندب إليها فإنَّها من الكثرة بمكان منها ما دعا الإسلام إلى التحلي به كالصدق والأمانة والعدالة والرحمة والصبر، ومنها ما نهى عنه وحذر منه مثل الحسد والحقد والغل والغضب ونحو ذلك.

فأمَّا الصدق فقد أوجب الإسلام على كل مسلم أن يتحلى بهذه الصفة في اعتقاده، وفي قوله وفي فعله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ

---

(1) انظر: محمود محمد بابللي: معاني الأُخُوَّة في الإسلام ومقاصدها: ص ١٥٤ – ١٧٠، (مرجع سابق). وانظر: محمد عبدالله عفيفي: النظرية الخلقية عند ابن تيمية: ص ٤١٨ – ٤٣٩، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، من مطبوعات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة – الرياض.

ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1]، وقال الرسـول ﷺ: «عليكم بالصدق فإنَّ الصدق يهدي إلى البر»[2]، والبر في الإسلام يتناول (كافة وجوه الخير التي يُمكن أن يقوم بها إنسان.. بدءاً من المعتقدات والمعاملات بين الناس ونهاية بالواجبات والأخلاقيات الدينيَّة والدنيويَّة وما يتصل بحياة الإنسان في أسرته وعشيرته وقومه وفي المجتمع الدولي)[3]، ويتبين من قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ..... ﴾[4]: أن مفهوم البر يربط بين العقيدة والشريعة في الإسلام ويربطهما بالأخلاق (حين يمتزج كمال العقيدة بكمال الأخلاق ويرتبط القول بالعمل، ويتصل الشكل بالمضمون ويتزاوج المعنى بالمبنى ليصبح البر واجبًا معلومًا وعمل الخير فريضة مقدَّسة، تستوي عندها إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود والصبر عند الشدائد كأنها محطات التقاء بين الواجبات والأخلاقيات تصبح الأخلاقيات معها كالواجبات سواء بسواء)[5]، وهنا تأتي حقيقة الصدق

---

(١) سورة التوبة: الآية (١١٩).

(٢) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٢٠١٣/٤، كتاب البر والصلة والآداب، الباب [٢٩] الحديث رقم [٢٦٠٧]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، وأخرج البخاري نحوه: صحيح البخاري ٢٢٦١/٥، كتاب الأدب، الباب [٦٩] الحديث رقم [٥٧٤٣]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجـــع سابق)، وأخرجه في كتاب الأدب المفـــرد بلفظ: «عليكم بالصدق فإنَّ الصدق يهدي إلى البر...» الصفحة ٥٧، عن دار الكتب العلمية- بيروت (بدون تاريخ)، (وورد في الموطأ وعند أبي داود والترمذي).

(٣) انظر: عبدالله الكامل الكتاني: مفهوم البر في الإسلام: ص ٣٠، مجلة المنهل، عدد ذي القعدة ١٤٠٤ هـ - أغسطس ١٩٨٤ م، السنة [٥٠]، المجلد [٤٦]، (مرجع سابق).

(٤) سورة البقرة: الآية (١٧٧).

(٥) عبدالله الكامل الكتاني: مفهوم البر في الإسلام: ص ٢٩، (المرجع السابق نفسه).

ومنزلته حيث ختمت هـذه الآية العظيمة بقـول الحـق تبارك وتعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1]، (أي المتصفون بما ذكر، من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان، وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية، فأولئك الذي صدقوا في إيمانهم؛ لأن أعمالهم صدقت إيمانهم)[2]، فإذا اتصف أفراد المسلمين بصفة الصدق على هذا النحو، وبهذا المفهوم الشامل فإنَّ أُخُوَّة الإسلام ووحدة أمته ستقوم على أساس متين يسهم في قوتها مع غيره من الأسس الأخلاقية الأخرى.

أمَّا الأمانة فإنها كذلك من الأسس الأخلاقيَّة المهمَّة في بناء الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة، والنصوص الشرعيَّة من الكتاب والسنة تتضافر في الأمر بها والنهي عما يقابلها كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ..... ﴾[3]، وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[5]، وقال الرسول ﷺ: «لا إيمان لمـن لا أمانة له»، مـن حديث أنس رضي الله عنه قال: ما خطبنا نبي الله ﷺ إلاَّ قال: «لا إيمان لمن لا أمـانة له، ولا دين

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٧٧).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن...، ١/٢١٣، (مرجع سابق).

(٣) سورة النساء: الآية (٥٨).

(٤) سورة المؤمنون: الآية (٨).

(٥) سورة الأنفال: الآية (٢٧).

لمن لا عهد له»[١]، ويتسع مفهوم الأمانة ليشمل ما دلَّ عليه قول الله عزوجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[٢].

جاء في تفسيرها بأنَّها: (امتثال الأوامر، واجتناب المحارم في حال السر والخفيَّة كحال العلانية...)[٣]، وأنَّ الله عزوجل: (عرضها على المخلوقات العظيمة... عرض تخيير لا تحتيم، وأنك إن قمت بها وأديتها، على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤديها فعليك العقاب، «فأبين أن يحملنها وأشفقن منها» ... خوفا أن لايقمن بما حملن لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا في ثوابه، وعرضها على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل، فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام: منافقون قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا، ومشركون تركوها ظاهرًا وباطنًا، ومؤمنون قائمون بها ظاهرًا وباطنًا)[٤].

وعلى هذا فالأمانة هي (باختصار الأخلاق؛ لأن الأخلاق في مجملها الصدق في الأقوال كلها والعمل الصالح في السلوك كلّه)[٥]، ولذلك قال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل... ٥٩٤/٣، بترتيب: دار إحياء التراث العربي...، (مرجع سابق).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٧٢).

(٣) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ٢٥٤/٦، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(٥) مقداد يالجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام: ص ٢٣٩، الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣ م، عن مكتبة الخانجي - القاهرة.

الرسول ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّثَ كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنَّه مسلم»[1]، ويدخل في الأمانة أداء ما أوجبه الله على الإنسان من حقوق لله تعالى، وحقوق لعباده، وحقوق لنفس الإنسان ذاته، وما ينبغي التوجيه إليه والتأكيد عليه هنا من معنى الأمانة هو تعامل الفرد المسلم مع أخيه، ثُمَّ تعامل الأُمَّة بعضها مع بعضها الآخر ومع غيرها من المجتمعات البشرية والأمم الأخرى، والضابط في ذلك هو: أن يتعامل الإنسان مع غيره بمثل مايحب أن يعاملوه به من النصح والصدق والإخلاص والوفاء في شتى ميادين الحياة ومجالات التعامل الإنساني إلاّ أنَّ هناك فرقاً يتميز به المسلم وتتميز به الأُمَّة الإسلاميَّة في التعامل مع الآخرين وهو أنَّ الإسلام (ينهى عن خيانة الذين يخوننا، أي أن اقتراف جريمة الخيانة من قبل الآخرين لايسوغ لنا خيانتهم، فالخيانة ليست من الاعتداءات التي تقابل بالمثل)[2].

وعن هذا المعنى قال الرسول ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولاتخن من خانك»[3]، وهذا مِمَّا امتازت به الأُمَّة الإسلاميَّة عن غيرها

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري، ٥/٢٢٦٢، كتاب الأدب، الحديث رقم [٥٧٤٤]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وزيادة «وإن صلى وصام وزعم أنّه مسلم» وردت في الحديث في بعض روايته لدى مسلم: صحيح مسلم ١/٧٨، كتاب الإيمان، حديث رقم [١٠٩]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام: ص٢٣٨، الطبعة الأولى١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م، عن دار العلوم – الرياض.

(٣) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح، ٣/٥٦٤، الحديث رقم [١٢٦٤]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (مرجع سابق). وانظر شرح الحديث وتخريج طرقه وما قيل عن بعض أحكامه=

من الأمم، فإنَّ اليهود على سبيل المثال كانوا يقولون: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾[1]، (أي لا حرج عليهم في خيانة العرب، ولكن الرسول ﷺ كذبهم وقال: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهليَّة إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنَّها مؤداة للبر والفاجر»[2]، [3].

وعلى هذا فإنَّ الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة ترتكز على أساس متين آخر هو الأمانة بهذا المفهوم الإيجابي الخير كفضيلة من الفضائل الأخلاقية المهمَّة لقيام حياة الأُمَّة بعامة والناحيتين الاجتماعيَّة والاقتصادية بخاصة[4].

وأمَّا العدالة فقد حرص الإسلام على تحقيقها بين أفراد الأُمَّة على نمط (يقوم على الموازنة بين الحقوق والواجبات، والفطرة والجهد، وما إلى ذلك من عناصر الموازنة التي يرتب الشارع عليها حكمه العادل ومساواته المحسوبة، وليست المرسلة إرسالا يعتمد على ظواهر الأشياء)[5].

وهناك معنى آخر للعدل والعدالة تنطلق من ذات الفرد المسلم ومن ذاتيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة وهو (أن يأخذ المرء ويدع طبقًا لمبادئ

=واختلاف العلماء فيها: ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول ١/٣٢٢، ٣٢٣، (مرجع سابق).

(١) سورة آل عمران: الآية (٧٥).

(٢) الآلوسي: روح المعاني ٣/٢٠٣، (مرجع سابق)، وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ١/٣٧٤، (مرجع سابق).

(٣) أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام: ص ٢٣٨، (مرجع سابق).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٤٣.

(٥) انظر: عبدالستار فتح الله سعيد: المعاملات في الإسلام: ص ١٣٨، ١٣٩، (مرجع سابق).

الإسلام)[1]، وعند ذلك يحقق المسلم العدل في ذاته ويتخلق به في تعامله مع إخوانه فتقوم الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة على أساس من العدل في الأخذ والعطاء وتحديد المواقف، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[2]، وقال جلَّ شأنه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[3]، وقال أيضًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[4]، قال بعض المفسرين في تفسيرها: (كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لايستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته، والقسط في حقوق الآدميين أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك كما تطلب حقوقك، فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به من الأخلاق والمكافأة، وغير ذلك، ومن أعظم أنواع القسط، القسط في المقالات

---

(1) أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام: ص ١٢٦، (مرجع سابق)، ولمزيد من الاطلاع على مفهوم العدل في الإسلام ومقارنته بالنظريات الأخلاقية الأخرى، انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٢١ - ١٤٠، وانظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (عدل)، (مرجع سابق)، وانظر: محمد عبدالله عفيفي: النظرية الخلقية عند ابن تيمية: ص ٤٥٥ - ٤٦٠، (مرجع سابق).

(2) سورة الأنعام: الآية (١٥٢).

(3) سورة النحل: الآية (٩٠).

(4) سورة النساء: الآية (١٣٥).

والقائلين، فلايحكم لأحد القولين، أو أحد المتنازعين، لانتسابه أو ميله لأحدهما بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على الأحباب، بل على النفس)[1].

وأمَّا الرحمة فهي (أثرٌ من آثار الإيمان، يبعثها الطمع في رحمة الله - وهي تعد فضيلة من فضائل الإنسان - وتدفع إليها العواطف النبيلة والإحساس الإنساني الشريف، وقد وصف الله بها نفسه، وتفضل بها على خلقه، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]، والله يحب من عباده أن يكونوا... رحماء فيما بينهم، فيعطف كبيرهم على صغيرهم، ويوقر صغيرهم كبيرَهم، يواسي غنيهم فقيرهم، ويعين قويهم ضعيفهم، ويرشد عالمهم جاهلهم، ويهدي حكيمهم سفيههم، ويرى المحكوم رحمة الحاكم به، كما يرى الأبناء رحمة الآباء، والتلاميذ رحمة المعلمين، والمرضى رحمة الأطباء، أولئك هم الذين يرحمهم الله ويعطف عليهم، ويسعدهم بحسن لقائه، وينجيهم من فتنة الحياة والممات «الراحمون يرحمهم الرحمن»[3]، وكما أوجب الله تعالى على الإنسان أن يرحم أخاه الإنسان أوجب عليه أن يرحم الحيوان)[4]. فالرحمة تشمل في قلب

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ٢/١٩١، (مرجع سابق).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٥٤).

(٣) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح، ٤/٢٨٥، الحديث رقم [١٩٢٤]، وفيه: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحمُ شُجْنَةٌ [أي قرابة من الله تعالى مشتبكة كاشتباك العروق] من الرحمن، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله»، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق).

(٤) محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام: ص ٢٧٦، (مرجع سابق).

المؤمن سائر خلق الله من حيوان وطير ونحوها إلاَّ الفواسق[1].

وقد وردت أقوال كثيرة للرسول ﷺ إلى جانب ما ورد في القرآن الكريم كلها تحث على الرحمة وتبين أهميتها، وأنَّهَا من أجلِّ نعم الله، قال الرسول ﷺ: «جعل الله الرحمة في مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[2]، ومن لطف الله وكرمه أن رحمته سبقت غضبه كما في الحديث: «إنَّ الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق: أن رحمتي سبقت غضبي»[3]، ولذلك ورد أيضًا في الحديث الشريف: «لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»[4]، وقد بين الله عزوجل أن رحمته وسعت كل شيء، وأنَّه يختص بها من يشاء، وأنَّه سيكتبها لعباده المؤمنين كما في قوله

---

(١) أجاز الرسول ﷺ قتل بعض المخلوقات السَّامَّة والمؤذية للإنسان مثل الحيَّة والعقرب والكلب العقور وبعض الوحوش المفترسة ولكنَّه نهى عن تعذيبها وإحراقها، وقد عقد الفقهاء والمحدثون فصولاً في كتبهم لمناقشة ذلك وبيان أحكامه. راجع كتب الفقه والسنة مثل: صحيح البخاري، الأحاديث ذات الأرقام [١٨٢٦، ٣٣١٥، ١٨٢٨]، وصحيح مسلم ٨/١١٥، ١١٦، ومسند الإمام أحمد ٨/١١٣، ١١٥، ١١٦، وغيرها.

وانظر من كتب الفقه: شرح الزركشي على مختصر الخرقي (في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل) تأليف: شمس الدين محمد بن عبدالله الزركشي المصري الحنبلي، تحقيق: عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، المجلد [٣] ص ١٥٤ - ١٥٨، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ، عن شركة العبيكان للطباعة والنشر - الرياض.

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٥/٢٢٣٦، رقم الحديث [٥٦٥٤]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٦/٢٧٤٥، رقم الحديث [٧١١٥]، (المرجع السابق نفسه).

(٤) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٤/٢١٠٩، رقم الحديث [٢٧٥٥]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

تعالى: ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَا ﴾[2]، ولئن كانت الرحمة بهذا الشمول والعمق والتأثير فإنَّ ما يتعلق منها بالأُخُوَّة الإسلاميَّة يتمثل في ذلك القلب النابض بالحب والرأفة والحدب على غيره الذي يكتنفه كل مسلم.

ومن هنا تكون لبنات الأُمَّة الإسلاميَّة سليمة الطويَّة مرهفة الحس تتعاطف وتتألف وقدوتها في ذلك وفي كل خلق كريم سيد الأنبياء وخاتم المرسلين ﷺ فقد (كان رحيمًا في كل المواطن، وكانت عيناه تفيضان بالدموع عندما يفيض قلبه بالرحمة، وقد يسمع صوت بكائه عليه الصلاة والسلام، ولم يفقد الرحمة حتى في المواقف التي يضطهد فيها، يُضيق عليه أهلُ مكة الخناق هو وأصحابه، بل يؤذونه ويعذبون أصحابه فيقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون»[3]، وفي يوم الفتح صنع بمن حاربه السنين الطويلة ووقف في وجه الدعوة وقتل أصحابه فعل بهم كما فعل يوسف بإخوته عندما قال: ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[4] وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[5]،

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٦).

(٢) سورة فاطر: الآية (٢).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١٢٨٢/٣، الحديث رقم [٣٢٩٠]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٤) سورة يوسف: الآية (٩٢).

(٥) أخرجه ابن هشام: السيرة النبوية: ٥٥/٤، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (مرجع سابق). وانظر: فاروق حمادة: خطبة الفتح الأعظم (فتح مكة): ص ١٩ - ٤٢، وفيها=

وكانت رحمته ﷺ تسع جميع الناس، ويحس بها كل الناس الضعفاء والأقوياء على حد سواء)[1]، وعندما طُلِبَ منه أن يدعو على المشركين قال: «إني لم أبعث لعَّانًا، وإنَّما بعثت رحمة»[2].

وبهذه الرحمة وما تفعله من آثار وما تتصل به من صفات الجلال والكمال أنشأ الرسول ﷺ الأُمَّة الإسلاميَّة، (فالرحمة مبادرة إنسانية... توطد مشاعر الإخاء الإنساني... وهي التعبير الخلقي العملي عن تعاطف الإنسان مع أخيه الإنسان حين يواجه المرض أو الألم أو حين يقع في المآزق والملمات.. والإنسان الرحيم يبادر إلى هذا وذاك تحدده الرغبة في كشف العذاب عنه أو تخفيفه عن كاهله)[3].

وقد تقتضي الرحمة ضروبًا أخرى من التعامل يفرضها العدل أو تدعو إليها مقتضيات الحكمة، منها ما يكون على مستوى الفرد ومنها ما يكون على مستوى الأُمَّة.

فأمَّا الأول فمثاله إلزام الوالد ولده والأخ أخاه بما يشق عليه لنفعه ومصلحته كأن (يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك

-تخريج موسع لما اشتملت عليه الخطبة ومصادرها من كتب السنة والسيرة والتاريخ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣م، عن دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، العدد [٤٥]، ربيع الأول - جمادى الآخرة ١٤١٦هـ.

(١) مسفر بن سعيد بن دماس الغامدي: رحمة الله، أسبابها وآثارها، مجلة البحوث الإسلاميَّة الصادرة عن إدارات البحوث العلميَّة والإفتاء - الرياض: ص ٢١٧، ٢١٨، العدد [٤٥]، ربيع الأول - جمادى الآخرة ١٤١٦ هـ.

(٢) أخرجه مسلم: صحيح مسلم، ٤/٢٠٠٧، الحديث رقم [٢٥٩٩]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام: ص ١٨٨، (مرجع سابق).

بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظنَّ أنه يرحمه، ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل)[1].

وأمَّا على مستوى الأُمَّة فإنَّ ذلك يتمثل في عدم رحمة الظالمين ومن صدر في حقه حكم شرعي لارتكابه جريمة من الجرائم فلايجوز أن تحول الرحمة بينه وبين ما يستحق من العذاب؛ لأن (البواعث الإنسانية... وراء العمل الرحيم لاتنبعث ولاتتحرك لرؤية كل عذاب، ولكنما تتحرك فقط عند رؤية الأبرياء والرحماء يتعذبون، فتجاوز العدل بالانتهاك أو بالاعتداء يكشف عن العلاقة الدفينة بين فضيلة الرحمة وفضيلة العدل، ويبين بوضوح أن الذي لايعرف وجه العدل لابُدَّ أن يخطيء في الرحمة، فيميل إلى الرحمة بالظالمين والمعتدين الذين لايستحقونها)[2].

ومِمَّا انتهجه الإسلام في بناء الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة وضمان استمرارها وسلامتها الأمر بالصبر والحث عليه لأهميَّته في حياة الأُمَّة كركيزة من ركائز المجتمع الإسلامي السليم، وتتسع دائرة الصبر في الإسلام على مستوى الفرد والأُمَّة ليشمل أنواعًا عديدة منها، الصبر على طاعة الله، والصبر عن معاصيه والصبر على البلايا والمصائب والشدائد، أي الصبر في البأساء والضراء[3]، كما قال تعالى:

---

(١) مسفر بن سعيد بن دماس الغامدي: المرجع السابق نفسه: ص ١٨٠.

(٢) أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام: ص١٩١، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام...: ٢٢٨/٢٨، (مرجع سابق).

(٣) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٢٣/١٠، (مرجع سابق). وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥٤٧/٤، ٥٤٨، (مرجع سابق).

﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ ﴾[1]، قال بعض المفسرين: (في البأساء: الفقر، والضراء: المرض، وحين البأساء: القتال)[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3]، ما يدل على المصاعب التي قد تواجه المجتمع الإسلامي ابتلاءً من الله وأنَّ الصبر فضيلة ينبغي على المسلم وعلى الأُمَّة الإسلاميَّة التذرع بها لمواجهة تلك المصاعب والأعباء وبالصبر يتحقق لها الفلاح والنجاح حيث جاءت البشارة للصابرين في نهاية الآية، وفي آيات أخرى كثيرة كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴾[4].

ومِمَّا تفرد به الإسلام وتميَّزَت به الأُمَّة الإسلاميَّة أنَّ الصبر مأمور به بصفة مستمرَّة ومؤكدة كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[5] فالمصابرة كما ذكر المفسرون: (انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فالصبر دون المصابرة)[6]. (والمصابرة هي الملازمة والاستمرار على ذلك)[7] أي:

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٧٧). وانظر: معاني الصبر في القرآن الكريم: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (صبر) (مرجع سابق).

(٢) أبو القاسم الغرناطي: التسهيل لعلوم التنزيل: ص ٦٩، ٧٠، (مرجع سابق).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٥٥).

(٤) سورة الشرح: الآيتان (٥، ٦).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٢٠٠).

(٦) ابن قيم الجوزيَّة: بدائع التفسير ١/٥٤١، (مرجع سابق).

(٧) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ١/٤٨٠، (مرجع سابق). ولمزيد الاطلاع على الصبر: (ضرورته ومجالاته، درجاته، وعلاقته ببعض الفضائل الأخرى، بعض نماذجه الواقعية)؛=

(لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر على النفوس)[1]، والتي يأتي في قمتها الصبر على مواجهة الإعداد والانتقال من الصبر والمصابرة إلى درجة المرابطة[2]، وهي الإقامة في الثغور استعدادًا لمواجهة الأعداء[3].

ومِمَّا يستفاد من ذلك أن الصبر بهذا المفهوم الإسلامي الأصيل يُوجِدُ في الأُمَّة أفرادًا لهم (قدرات روحيَّة وطاقات خلقيَّة متميِّزَة)[4]، وهذه الطاقات والقدرات تجعلهم قادرين على التضحية والفداء[5]....، وإنَّ ما تستوجبه الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة من حقوق وواجبات يكون من اليسر بمكان لدى تلك النفوس التي تدرَّبت على الصبر واعتادت عليه وأصبح من المبادئ الأساسية في حسها وتصورها لإيمانها بقيمة الدين الذي تعتنقه والأُمَّة التي تنتمي إليها؛ ولذلك (كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثُمَّ يسلم أحدهما على الآخر)[6]، حيث إنّ التواصي

=انظر: محمد عبدالله عفيفي: النظرية الخلقية عند ابن تيمية: ص ٤٦٠ - ٤٧٦، (مرجع سابق).

(١) محمد عبدالله عفيفي: المرجع السابق نفسه: ص ٤٨٠.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية: المرجع السابق نفسه: ٥٤١/١.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ٥٤٢/١، ٥٤٣. وانظر: أبو القاسم الغرناطي: التسهيل لعلوم التنزيل: ص ١٢٧، (مرجع سابق).

(٤) أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام: ص ١٧٨، (مرجع سابق).

(٥) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٧٧، ١٧٨.

(٦) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣٩٧١/٦، (مرجع سابق)...، وانظر: محمد عبده: تفسير سورة العصر: ص ٧، الطبعة الثانية ١٩٧٦ م، عن دار الكتاب الجديد - بيروت، وأصلها محاضرة ألقاها على علماء الجزائر حينما زارهم سنة ١٣٢١ هـ - ١٩٠٣ م. انظر:=

بالصبر، (ضرورة في جهاد النفس وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة... والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار)[1].

هذه من أهم الأخلاق التي تعد بمثابة قاعدة راسخة يقوم عليها بناء الأُخُوَّة والوحدة في الإسلام، ويتصل بها جملة أخرى من مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - ورسوله ﷺ بها وندبا إليها وحثًّا عليها مثل الوفاء والعفو والصفح والستر على المسلم وحفظ سره ونحو ذلك.

وهناك إلى جانب هذه الأخلاق والفضائل المأمور بها والمندوب إليها صفات وأخلاق مذمومة نهى الله ورسوله ﷺ عنها؛ منها البغض والحسد والتدابر والقطيعة والسخريَّة والاستهزاء وإساءة الظن والغيبة والنميمة والتجسس، والغضب، ونحو ذلك مِمَّا يفسد أواصر الأُخُوَّة ويهدم وحدة الأُمَّة من مرذولات الأخلاق ومساوئ الأعمال.

وقد وردت في ذلك نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية منها قوله ﷺ: «لاتباغضوا ولاتحاسدوا، ولاتدابروا، وكونوا عباد الله.

=عمار الطالبي: ابن باديس (حياته وآثاره) ١/٢٥، عن دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م - بيروت.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٣٩٦٨/٦، (المرجع السابق نفسه)، ولمزيد الاطلاع على أهمية الصبر في بناء المجتمع الإسلامي، وأثره في حياة الأُمَّة وقوتها. انظر: محمد عبده: المرجع السابق نفسه: ص ٢١، ٢٥، ٣١ - ٤٥، وانظر: عبدالرحمن بن ناصر السعدي: القواعد الحسان لتفسير القرآن: ص ١٨٣ - ١٨٥، (مرجع سابق).

إخوانًا، ولايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[1]، وقوله ﷺ: «إيَّاكم والحسد، فإنَّ الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النَّار الحطب»[2]، وقوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[3]، وقوله ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به»[4]، وقوله ﷺ: «وإذا غضب أحدكم فليسكت»[5]، وقد امتدح الله - عَزَّ وَجَلَّ - الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وقرن الغضب بالإثم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾[6] وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ

---

(١) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١٩٨٣/٤ الحديث رقم [٢٥٥٩]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، (وأخرج البخاري والترمذي نحوه).

(٢) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود ٢٧٨/٤، الحديث رقم [٤٩٠٣]، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢٧/١، الحديث رقم [٤٨]، وتكرر عنده. انظر: الأحاديث رقم [٥٦٩٧، ٦٦٦٥]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم: صحيحه ٨١/١، الحديث رقم [٦٤]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (المرجع السابق)، وأخرجه الترمذي: الجامع الصحيح، ٢٢/٥، الحديث رقم [٢٦٣٥]، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق).

(٤) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١١٦٤/٣ الحديث رقم [٣٠١٥]، وله روايات عدَّة في الأحاديث ذات الأرقام [٣٠١٦، ٥٨٢٣، ٥٨٢٤، ٦٥٦٥، ٦٦٩٤]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم: صحيح مسلم ١٣٥٩/٣، ١٣٦٠ الحديث رقم [١٧٣٥] بروايات نحو ما أورده البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٥) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل... ٢٣٩/١، رقم الحديث [٢١٣٧] مسند عبدالله بن عباس، وأوله: «علموا وبشروا ولاتعسروا...» الحديث، بترتيب: دار إحياء التراث العربي...، (مرجع سابق).

(٦) سورة الشورى: الآية (٣٧).

مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [1]، وقد بين الرسول ﷺ أنَّ الغضب من الشيطان، وأن الشيطان خلق من نار، وأرشد إلى ما يطفئ حرارة الغضب وهو الوضوء، فالماءُ يطفئ النَّار، والوضوء يطفئ الغضب، حيث قال ﷺ: «إنَّ الغضب من الشيطان، وإنَّ الشيطان خلق من النَّار، وإنَّما تطفأ النَّار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» [2].

ومن هذه النصوص التي تنهى عن مساوئ الأخلاق وترشد للتي هي أقوم يتضح ذلك الحرص الأكيد على سلامة القلوب المؤمنة مِمَّا يكدر صفو الأُخُوَّة الإسلاميَّة وينحرف بالسلوك عن مقتضى الحب في الله والاجتماع على ما يرضيه، وقد بلغ الأمر في الحرص على سلامة القلب وطهر النفس ونقاء الضمير أن أرشد الله سبحانه وتعالى عباده إلى نوعٍ من الدعاء يركز على مكنون القلب وأعماق الوجدان حيث قال تعالى حكاية عن أُخُوَّة الإسلام ووحدة أُمَّته، وأنَّهَا تمتد في أعماق التاريخ لتصل ماضي الأُمَّة بحاضرها ومستقبلها: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [3]، قال بعض المفسرين: (والذين جاؤوا من بعدهم أي: من بعد المهاجرين

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان (١٣٣، ١٣٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل... ٢٦٦/٥، رقم الحديث [١٧٥٢٤]، حديث عطية السعدي ٢٢٦/٤، ترتيب: دار إحياء التراث العربي...، (مرجع سابق).

(٣) سورة الحشر: الآية (١٠).

والأنصار يقولون على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذي سبقونا بالإيمان، وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، من السابقين، من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان، المقتضي لعقد الأُخُوَّة بين المؤمنين التي من فروعها، أن يدعو بعضهم لبعض وأن يحب بعضهم بعضًا...)[1].

إلى أن قال: (ذكر الله في هذا الدعاء نفيَ الغل عن القلب، الشامل لقليله وكثيره الذي إذا انتفى، ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مِمَّا هو من حقوق المؤمنين... ووصفهم بالإقرار بالذنوب، والاستغفار منها واستغفار بعضهم لبعض واجتهادهم في إزالة الغل والحقد لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا ومتضمن لمحبة بعضهم بعضًا، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه وأن ينصح له حاضرًا وغائبًا حيًّا وميتًا)[2].

وفي النهي عن سوء الظن بالمسلم والسخرية به واغتيابه ونحو ذلك مِمَّا لايليق بآداب الأُخُوَّة وحقوقها، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ٧/٣٣٦، (مرجع سابق).

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن...: ٧/٣٣٧، (المرجع السابق نفسه).

﴿أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [1]، ففي هاتين الآيتين ما يؤكد على ضرورة صيانة الأخوة الإسلاميَّة ووقايتها من (هذا السداسي الجاهلي، السخريَّة واللمز والنبز وسوء الظن والتجسس والغيبة... وبذلك ينغصون حياتهم وأخوتهم الإسلاميَّة وترابطهم بقلق وإرجاف ومسالك سيئة.. والآيتان تترابطان وتتساندان في تهذيب المجتمع ورسم المنهج القويم له، فالآية الأولى اختصت بعلاج مرض السخرية واللمز والنبز بالألقاب، والثانية بالظن والتجسس والغيبة، وتلك لبنات الشر وصورة الجهل والدمار، وكلها آخذ بعضها ببعض)[2]، على أنَّ هناك حالات تستثنى من هذا النهي ذكرها العلماء من فقهاء ومفسرين ومحدثين وجعلوا لها ضوابط شرعيَّة محدَّدَة، لايتسع المجال لذكرها وهي مبسوطة في مظانها، والمراد هنا أن الإسلام أقام (سياجًا قويًّا حول حرمات المسلمين فلاتحل، وكراماتهم فلاينال منها، وأعراضهم فلاتنتهك وحرياتهم الممنوحة لهم شرعًا فلاتقيد ولاتصادر)[3] إلاَّ في ضوء ما أباحه الشرع، واقتضته الضرورة، وهذا ما تتميَّز به الأُخُوَّة الإسلاميَّة دون سائر الروابط والصلات والأواصر في المجتمعات

---

(١) سورة الحجرات: الآيتان (١١، ١٢).

(٢) انظر: محمد بن محمد الأمين الأنصاري: منهج الدعوة الإسلاميَّة في البناء الاجتماعي على ضوء ماجاء في سورة الحجرات: ص ٣٨٩، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، عن مكتبة الأنصار - الرياض، وأساسها رسالة علمية نال بها الباحث درجة الماجستير من المعهد العالي للدعوة الإسلاميَّة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة - الرياض، ولم يذكر تاريخ مناقشتها. وانظر: نشأة ظبيان: العالم المتفوق (منهج سلوكي متكامل، انتفت فيه الأثرة وتجلت كرامة الإنسان): ص ٩٥ - ٩٩، (مرجع سابق).

(٣) محمد الأنصاري: المرجع السابق نفسه: ص ٣٨٥.

الإنسانية الأخرى والأمم سوى الأُمَّة الإسلاميَّة المختارة.

وللأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة مقتضيات تعد بمثابة الثمار الحلوة لتلك الأسس الراسخة التي اعتمدت في بناء الأُخُوَّة الإسلاميَّة على الأمر والنهي والحث والندب، الأمر بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال والحث عليها والندب إليها وإلى كل ما يصل بها من عمل صالح وخير وفضيلة، والنهي عن مرذولات الأخلاق ومذموم الصفات وسفاسف الأمور وما يتصل بذلك من أقوال وأعمال ومواقف ومشاعر وأحاسيس.

وأهم ما تقتضيه الأُخُوَّة الإسلاميَّة:

أ - التناصر. وله في أُخُوَّة الإسلام صورٌ كثيرة يتداخل بعضها مع بعض في إطار ما تقتضيه الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة من التراحم والتعاون والتكافل، ويقتصر هنا على بعض تلك الصور مثل ما دلَّ عليه الحديث الشريف في قوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه»[1]، وقوله ﷺ: «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه (أو قال لجاره) ما يحب لنفسه»[2]، وهذا الحديث يؤكد مع أحاديث أخرى كثيرة أن الأُخُوَّة الإسلاميَّة تقتضي من المسلم (أن ينصر أخاه من أعدائه فلايسلمه إليهم وكلمة «لايسلمه» لاتقتصر على أن يسلم المسلم أخاه إلى عدوه بالمعنى الظاهر من هذه الكلمة، وإنَّما يتضح أن لهذه الكلمة شمولا

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٨٦٢/٢، ٨٦٣، رقم الحديث [٢٣١٠]، و ٦/ ٢٥٥٠ رقم الحديث [٦٥٥١]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم: صحيح مسلم، ١٩٩٦/٤ رقم الحديث [٢٥٨٠]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (مرجع سابق)، وورد لدى مسلم برواية «لايظلمه ولايخذله ولايحقره... كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». المرجع السابق نفسه: الحديث رقم [٢٥٦٤] ١٩٨٦/٤.

(٢) أخرجه مسلم: المرجع السابق نفسه ٦٧/١ الحديث رقم [٤٥].

واسمًا، وذلك أن لايسلمه إلى اليأس، ولايسلمه إلى التهلكة، ولايسلمه إلى الخزي والعار، ولايسلمه إلى التردي في مهاوي الفساد، كما تفيد أيضاً أن لايسلمه إلى عدوه... وهذه من بعض معاني التناصر بين المسلمين، وكذلك يجب على المسلم أن لايظلم أخاه المسلم)[1].

ويتجاوز التناصر في أُخُوَّة الإسلام ما يعهده الناس في الجاهليَّة من حميَّة جاهليَّة تقتضي الوقوف إلى جانب الأخ سواء كان ظالمًا أو مظلومًا، إلى نصرته على نفسه وإنقاذه من ذاته، فقد جاء الإسلام والعرب تقول: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)[2] فأقرَّ هذا القول وقال الرسول ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[3]، وعندما سأل رجلٌ الرسول ﷺ بقوله: أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: «تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإنَّ ذلك نصره»[4].

وهناك صورتان أخريان في التناصر تميَّزَ بها الإسلام واختصت بها أخوته على سائر المبادئ والنظم والأعراف الأُخرى:

الأولى: التدخل بين طائفتين من المؤمنين اقتتلوا بالصلح بينهما، وهذه الصورة بما ذكر فيها من تفصيلات وأحكام تعطي دلالة واضحة

---

(١) محمود محمد بابللي: معاني الأُخُوَّة في الإسلام ومقاصدها: ص ٦٤، (مرجع سابق).

(٢) تنسب إلى جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، (ولم أجد له ترجمة وافية)، وأنّه أول من قالها في الجاهليَّة، ذكر ذلك ابن حجر: فتح الباري ٩٨/٥، (مرجع سابق)، وانظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ٧٠، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٨٦٣/٢، رقم الحديث [٢٣١١، ٢٣١٢]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٤) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢٥٥٠/٦، رقم الحديث [٦٥٥٢]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

على مبدأ الأُخُوَّة الإسلاميَّة وأصالته حيث أوجب الإسلام - بمقتضى أُخُوَّة الإسلام - على ولاة أمر المسلمين أن يتدخلوا بالصلح بين فريقين من المسلمين اقتتلوا، ولاينتهي الأمر عند ذلك بل أوجب متابعة الحدث والوقوف بجانب الحق ومن كان عليه من الفريقين حتى يحسم الأمر ويظهر الحق.

وللعلماء في ذلك آراء كثيرة تدل - فيما تدل عليه - أنَّ الأُخُوَّة الإسلاميَّة عميقة الدلالة قويَّة التأثير.. ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]، أوجب الله على الأُمَّة الإسلاميَّة (أن تقف موقف الأُخُوَّة الناصحة كما أمرها الله، وتعيد العلاقات والأُخُوَّة الإسلاميَّة ولوازمها بين فريقين اقتتلا أو اختلفا بأيٍّ سبب من الأسباب وإن أدى ذلك إلى الوقوف إلى جانب الفريق المظلوم ومساندته على الفريق الظالم)[2].

ثُمَّ إنَّ في تحديد موقف الأُمَّة الإسلاميَّة من الطائفة الباغية، أو الفريق المعتدي، تفصيلاتٍ وآراءً كثيرة ذكرها العلماء[3] تؤدي في نهاية الأمر إلى استخلاص النتيجة الآتية وهي: إنَّ مِمَّا يترتب على الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة (أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي

---

(١) سورة الحجرات: الآيتان (٩، ١٠).

(٢) محمد الأنصاري: منهج الدعوة الإسلاميَّة: ص ٣٦٢، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٦٨ - ٣٧٦.

الأصل في (الأُمَّة الإسلاميَّة)، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة وهو إجراء صارم حازم)[1].

أمَّا الصورة الثانية فهي: درء مايحيط بالأُمَّة من الشر بالأخذ على يد الجاهل أو من يتسرب عن طريقه الشر، وإن كان لايقصد ذلك، ولايعلم به، ومِمَّا ورد في ذلك قوله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[2].

في هذه الصورة والتي قبلها ما يميِّز التناصر في المجتمع الإسلامي وعلى مستوى الأُمَّة الإسلاميَّة، وأنَّه تناصرٌ ذو مفهوم شامل واعٍ يقدر المصلحة العليا للأُمَّة، وهو بهذا المفهوم الفريد (أمر توجبه الأُخُوَّة الإيمانية، كما توجبه المصالح المشتركة للجميع)[3].

ب - التراحم: وهو من آثار الرحمة - التي سبق الكلام فيها -

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣٤٣/٦، (مرجع سابق). وانظر: محمد الأنصاري: منهج الدعوة الإسلاميَّة..: ص ٣٧٣، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٨٨٢/٢ رقم الحديث [٢٣٦١]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق). وله رواية أخرى عند البخاري: المرجع السابق نفسه: ٩٥٤/٢ رقم الحديث [٢٥٤٠].

(٣) محمود محمد بابللي: معاني الأُخُوَّة في الإسلام: ص ٦٧، (مرجع سابق).

عندما تفيض قلوب المؤمنين بالرحمة التي تشربها قلب كل مؤمن منهم وأصبح مجتمع الأُمَّة الإسلاميَّة مجتمعًا متراحمًا متعاطفًا متحابًا كالجسد الواحد، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى»[1]، والنصوص الواردة من الكتاب والسنَّة مستفيضة وكلها (توضح للمسلمين أنَّ وضعهم الصحيح المرضي عنه من ربهم هو أن يتراحموا ويتعاطفوا ويتكاتفوا ويتساندوا حتَّى يكونوا كالبنيان المرصوص)[2]، كما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[3]، وقال أيضًا: «المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»[4].

وبهذا التراحم وما يوجبه من تكافل ومحبَّة وتعاون ومناصحة بل وإيثار بين المسلمين (في غير إثم ولا مكروه)[5] تظهر الأُخوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة في صورتها الناصعة وتؤتي ثمارها الطيبة على خير وجه[6].

ج - التعاون: (وقد أمر الله تعالى به المؤمنين على وجه عام مطلق في كل خير، فقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٤/١٩٩٩، ٢٠٠٠ الحديث رقم [٢٥٨٦]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) علي عبدالحليم محمود: مع العقيدة والحركة والمنهج... ص ١٥٩، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٤/١٩٩٩ رقم الحديث [٢٥٨٥]، (المرجع السابق نفسه).

(٤) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٤/٢٠٠٠ رقم الحديث [٢٥٨٦]، (المرجع السابق نفسه).

(٥) محمد فؤاد عبدالباقي في شرحه للحديث السابق «المؤمن للمؤمن كالبنيان...»: صحيح مسلم: ٤/٢٠٠٠، رقم الحديث [٢٥٨٦]، (المرجع السابق نفسه).

(٦) انظر: علي عبدالحليم محمود: المرجع السابق نفسه: ص ١٥٧ - ١٦٥، ص ٧٥ - ٨٠.

﴿ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1]، وقد جعل الله تعالى له وجوهًا عمليَّة محددة منها)[2]:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (وبهذا المبدأ يكون المجتمع متضامنًا في حمل «المسؤولية الاجتماعية» وملزمًا بتحقيق المعروف في ربوعه، ورفع المنكر عن طريق الوجوب، لا عن طريق كفالة الحق له - كما هو شأن الدساتير الوضعية - وهو وجوب ديني ومسؤولية يترتب عليها الثواب والعقاب)[3].

- التعاون في مجال الحياة الاجتماعية والمقصود بذلك (تعاون الناس في شؤون حياتهم، وما يعرض لهم من حاجات، وقد توسع فيه الإسلام حتى مدَّه إلى الشؤون العاطفية، والنفسية وغيرهما، كالمبادأة بالهدية، وعيادة المريض، وصنع الطعام لأهل الميت، ورعاية اليتيم والمسكين وابن السبيل، وإكرام الضيف وتفقد الغائب، وتعهد الضعيف، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإقراء السلام ورده، والتكافل الاقتصادي على سعته جزءٌ من هذا الباب)[4].

ومجالات التعاون كثيرة، ويضيق المجال عن التفصيل، ولكن يكتفى

---

(١) سورة المائدة: الآية (٢).

(٢) عبدالستار فتح الله سعيد: المعاملات في الإسلام: ص ١١٠، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١١١.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١١١. وانظر: بعض ما ورد في ذلك من أحاديث لدى البخاري في صحيحه كتاب المظالم وغيره، ولدى مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، وبخاصة الأبواب [٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣]، ٤/١٩٨٣ - ٢٠٠٤، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

بالقول إن الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة بما تقتضيه من تعاون على البر والتقوى بعامَّة تشكل (شبكة من الروابط الاجتماعيَّة تتبع تسلسلا رائعًا في التكليف فعبادة الله أولاً، فالإحسان للوالدين، ثُمَّ الإحسان لذي القربى، ثُمَّ اليتامى، فالمساكين فالجار القريب، ثُمَّ الجار الغريب، فالقرين فابن السبيل، علاقات تكون شبكة متآلفة تتصل بصلات اجتماعية بارَّة كلها متصل بحبل الله)(١)، وإذا عمل كل مسلم على أداء ما أوجبه عليه الإسلام وندبه إليه في ضوء هذه (الصلات... التي تؤلف دعائم المجتمع المسلم)(٢) مع ما سبق ذكره من حقوق الأُخُوَّة الإسلاميَّة وآدابها فإنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة تتميز على غيرها (بأنَّها أُمَّة الأُخُوَّة في الدين)(٣)، والوحدة في المنطلق والغاية والاتجاه والمسلك، ويقوم تميزها على أُخُوَّة الإسلام ووحدة أُمَّته مع المقومات الأُخرى وفي مقدمتها العقيدة والشريعة فتكون بذلك خير أُمَّة أخرجت للناس (بل إن الأُخُوَّة في الدين من أكبر نعم الله على عباده المؤمنين، فبها صار المسلمون أُمَّة واحدة بعد أن كانوا فرقًا وأحزابًا، وبها صار المسلمون أحبابًا في الله بعد أن كانت العداوة بينهم وبين أسلافهم مِمَّا يتناقل أحاديثه الركبان، لقد امتن الله على عباده المؤمنين بهذه الأُخُوَّة وما تقتضيه من محبة وتعاون وما تفضي إليه من وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا

(١) نشأة ظبيان: العالم المفترق: ص ٤٠، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٤٠.

(٣) علي عبدالحليم محمود: مع العقيدة والحركة والمنهج: ص ٨٠، (مرجع سابق).

حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1]،... ونعمة الله في هذه الآية هي الإسلام واتباع محمد ﷺ، فبه زالت العداوة والفرقة وحلت محلها المحبة والألفة والأُخُوَّة في الدين)[2].

د - المناصحة: قال الراغب الأصفهاني: (النصح: تحرِّي فعل أو قول فيه صلاحُ صاحبه، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[4]، وهو من قولهم: نصحتُ له الود، أي: أخلصتُهُ، وناصحُ العسل: خالصُه... وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[5].. إمَّا الإخلاص، وإمَّا الإحكام)[6].

وقال ابن الأثير في معنى قول الرسول ﷺ: «الدِّين النصيحة.. لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم»[7]: (نصيحة الله: صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النيَّة في عبادته والنصيحة لكتاب الله: هو التصديق به والعمل بما فيه، ونصيحة رسوله: التصديق بنبوته ورسالته، والانقياد لما أمر به ونهى عنه، ونصيحة الأئمة: أن يطيعهم في

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

(٢) علي عبدالحليم محمود: المرجع السابق نفسه: ص ٧٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٩).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢١).

(٥) سورة التحريم: الآية(٨).

(٦) مفردات ألفاظ القرآن: مادَّة (نصح)، (مرجع سابق).

(٧) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٧٤/١ الحديث رقم [٥٥]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

الحق ولايرى الخروج عليهم إذا جاروا، ونصيحة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم)[1].

يتبين من ذلك أن المناصحة من النصح وأن النصح يعني الإخلاص والخلوص والإحكام، كما أنَّها تعني في إطار الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة، أن يحب المسلم لإخوانه (ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم وإن ضرَّ ذلك في دنياه، كرخص أسعارهم وإن كان في ذلك فوت ربح ما يبيع من تجارته، وكذلك يكره جميع مايضرهم عامَّة، ويحب ما يصلحهم وألفتهم ودوام النعم عليهم، ونصرهم على عدوهم ودفع كل أذى ومكروه عنهم)[2].

ومِمَّا تعنيه المناصحة الإخلاص والصدق في الرأي لمن طلب المشورة وهي من حق المسلم على أخيه، كما قال الرسول ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست... »[3] إلى أن قال: «... وإذا استنصحك فانصح له»[4]، ويبلغ الأمر بالنصح - بداعي الأُخُوَّة - درجة الذب عن عرض الأخ المسلم والنصح له في غيابه، وفي ذلك ورد عن الرسول ﷺ: «إنَّ من حق المسلم على المسلم أن ينصح له إذا غاب»[5]، قال ابن رجب في معناه: (ومعنى ذلك أنَّه إذا ذكر في غيبته بالسوء أن ينصره ويرد عنه، وإذا رأى من يريد أذاه في غيبته كفه عن ذلك)[6].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/٦٣، (مرجع سابق).

(٢) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم.. ص ٩٠، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٤/١٧٠٥ الحديث رقم [٢١٦٢]، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ٤/١٧٠٥ الحديث رقم [٢١٦٢]، (مرجع سابق).

(٥) أورده ابن رجب الحنبلي: المرجع السابق نفسه: ص ٩١.

(٦) المرجع السابق نفسه: ص ٩١.

وتعني المناصحة من جانب آخر إرشاد المسلمين لما فيه مصالحهم، (وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم وستر عوراتهم، وسد خلاتهم ونصرتهم على أعدائهم والذب عنهم ومجانبة الغش والحسد لهم... وسلامة الصدور والنصح للأُمَّة... وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرًّا حتى قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنَّما وبخه، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير. وقال عبدالعزيز بن أبي داود: كان من كان قبلكم إذا رأى الرجل من أخيه شيئًا يأمره في رفق فيؤجر في أمره ونهيه)[1].

٣ - أثر الأُخُوَّة في تميز الأُمَّة الإسلاميَّة:

يُعَدُّ أثر الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة - وفق ما انتهجه الإسلام في بنائها وما اقتضته دلالاتها ومنطلقاتها وأهدافها - في تميِّز الأُمَّة الإسلاميَّة من آيات الله الدَّالَّة على قدرته كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ .... ﴾[2]. قال ابن خلدون: (وجمع القلوب وتأليفها إنَّما يكون بمعونة الله في إقامة دينه... وسرُّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل، والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق، ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله اتحدت وجهتها، فذهب التنافس، وقلَّ

---

(١) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم..: ص ٩٠، ٩٢، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٦٢، ٦٣.

الخلاف، وحسن التعاون والتعاطف، واتسع نطاق الكلمة)[1].

ومن رحمته تعالى بهذه الأُمَّة أن جعل آصرة الأُخُوَّة ووحدة الأُمَّة التي هي من مقومات تميزها تتمثل في أخلاق قائدها ومعلمها وهاديها وإمامها محمد ﷺ إذ قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2]، وأرشده - جلَّ وعَلا- في الآية نفسها إلى عوامل الألفة ومظاهر اللين، فقال تعالى: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[3].

وأدَّى الرسول ﷺ الأمانة وبلغ الرسالة، ونصح الأُمَّة وكان في كل ذلك كما قال الله عنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[4]، وبكلمة جامعة وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن)[5].

بهذه الأسوة الحسنة والقدوة الراشدة انداح أثر الأُخُوَّة الإسلاميَّة في الأُمَّة وتحققت به وحدتها وشاع أثرها في الإنسانية، وكان الرسول ﷺ يؤكد على هذه الآصرة الفريدة ويرسم منهجها الذي لايوجد (على وجه الأرض نظامٌ أو منهجٌ يشبه المنهج الإسلامي أو يقاربه فضلاً عن أن

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ١٤٢، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالعال سالم مكرم: أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع: ص ١٦٦، ١٦٧، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م، عن مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

(٤) سورة القلم: الآية (٤).

(٥) أخرجه البخاري: الأدب المفرد، باب: من دعا الله أن يحسن خلقه. ص ٤٧، (مرجع سابق). وانظر تخريجًا أوسع له لدى: محمد بن يوسف الصالحي: سبل الهدى والرشاد...، ٦/٧، (مرجع سابق).

يساويه)[1] في منطلقاته وأهدافه ومراميه إزاء هذه الآصرة وتأثيرها في الأُمَّة، شأنه في ذلك شأن جميع مقومات تميُّز الأُمَّة وخصائصه وأهدافه ووسائله.

ومن أهم ما يبين أثر الأُخُوَّة في تميّز الأُمَّة الإسلاميَّة وتحقيق وحدتها وفق المنهج الإسلامي وتطبيق الرسول ﷺ وصحابته الكرام... الآتي:

أ- ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه قبل الهجرة من الحب والتآخي فقد كان الرسول ﷺ (يغذي أرواحهم بالقرآن ويربي نفوسهم بالإيمان ويحثهم على الخضوع لرب العالمين في أداء ما افترضه عليهم من الصلاة خمس مرات في اليوم في طهارة بدن وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق، وتحريرًا من سلطان الماديات ومقاومة للشهوات ونزوعًا إلى رب الأرض والسموات، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل، وقهر النفس، لقد رضعوا حب الحرب وكأنهم ولدوا مع السيف، وهم من أُمَّة، من أيامها حرب البسوس وداحس والغبراء، وما يوم الفجار منهم ببعيد. ولكن الرسول ﷺ يعالج - بحكمته - ما في طبيعتهم السابقة من قسوة وشدة، يوجههم إلى أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة، فكان أن لانوا، ورقت طبائعهم وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما تهيج به النفوس في غير جبن وفي غير عجز، ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم في مكة عن نفسه بالسيف مع كثرة الدواعي الطبيعية إلى ذلك وقوتها، وذلك غاية ما روي في التاريخ من الطاعة والخضوع، حتى إذا تعدَّت

---

(١) عبد ربِّ النبي علي أبو السعود: الأُخُوَّة الإسلاميَّة: ص ٥٤، (مرجع سابق).

قـريش في الطغـيان وبلـغ السـيل الـزبى أذن الله لرسـوله ولأصـحابه بالهجرة: وهاجروا إلى يثرب وقد سبقهم إليها الإسلام)[1].

ومنذ بعثته ﷺ إلى زمن هجرته وما بينهما من تفصيلات تاريخية كانت نماذج الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة تتجلى في أجمل صورها في ميدان التربية والتعليم والتهذيب والتضحية والفداء[2]، ولايتسع المجال لاستعراض تلك الصور أو معظمها ولكن تكفي الإشارة إلى موقفين تجلت فيهما الأُخُوَّة الإسلاميَّة بصورة لم يشهد التاريخ لها مثيلا:

الأولى: ما ذُكِرَ في بعض مصادر السيرة من أنَّ عليًّا بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهه نام على فراش الرسول ﷺ لدى مغادرته داره في أعقاب ليل مريع، أحاط أبناء القبائل المسلحون طيلة ساعاته بدار الرسول ينتظرون اللحظة التي سيطيحون فيها برأسه ويفرقون دمه بين القبائل.

قال ابن إسحاق: (فلمَّا كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلمَّا رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: «نَمْ على فراشي، وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ٩٢، ٩٣، (مرجع سابق).

(٢) انظر: كتب السيرة والتراجم.. منها سيرة ابن هشام ١/٢٧٤ - ٢٩٣، عن إسلام أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ووقوفها بجانب الرسول ﷺ، وإسلام علي بن أبي طالب ومرافقته للرسول ﷺ، وإسلام زيد بن حارثة، وأنَّه فضل البقاء مع الرسول حين قدم والده يطالب به وخيَّره الرسول ﷺ بين الذهاب مع أبيه والإقامة مع الرسول ﷺ فأقام عنده حتى بعثه الله فصدقه وأسلم وصلَّى معه..، كذلك ذكر إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإيلاف قريش له ودعوته للإسلام.. وفي هذه القصص وما جاء بعدها حتى هاجر الرسول ﷺ وصحابته إلى المدينة.. ما يجلِّي الأُخُوَّة الإسلاميَّة ويبين عمق أثرها في المسلمين.

الأخضر، فنم فيه، فإنّه لن يخلص إليك شيءٌ تكرهه منهم...»، وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده.. وأخذ الله على أبصارهم عنه فلايرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم...)[(١)].

الثانية: اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ليكون رفيق النبي وأخاه في هجرته، وما صاحب ذلك من مشاعر الحب والفداء والتضحية[(٢)] والثقة في نصر الله ووعده الحق، ولئن كان المجال لايتسع لذكر تفاصيل ذلك فإنَّ من المواقف الخالدة ما سجله القرآن الكريم حكاية عن أبي بكر إذ هو مع الرسول ﷺ في الغار، ينظر إلى أقدام المشركين المطاردين الحانقين عند أسفل الغار، فيخاف ويحزن ليس على نفسه بل على الرسول نفسه، وعلى ما يمثله الرسول، فيقول له: «لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا»[(٣)] ويأتي رد الرسول صادرًا عن ذلك

---

(١) ابن هشام: السيرة النبويَّة ١٢٤/٢، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (مرجع سابق)، وانظر: عماد الدين خليل: دراسات في السيرة: ص ١٣٧، الطبعة السادسة ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م، عن مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) كان لأبي بكر وأسرته مواقف كثيرة ذكرتها كتب السيرة إبان هجرة الرسول ﷺ. انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١٢٧/٣ - ١٢٩، ١٣٠، وممَّا ورد من مفادات أبي بكر الصديق رضي الله عنه للرسول ﷺ ما رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة خلفي، وساعة بين يدي ؟» فقال: يارسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد، فأمشي بين يديك...) الحديث، وفي نهايته قال عمر رضي الله عنه وأرضاه: (والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر)؛ انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٨٠/٣، (مرجع سابق)، وانظر: محمد أبا زهرة (خاتم النبيين ﷺ) القسم المكي: ص ٦٢٣، ٦٢٤، وما قبلهما وما بعدها من ص ٦٠٨ - ٦٣٢، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١٣٣٧/٣ الحديث رقم [٣٤٥٣]، والحديث رقم =

الإيمان القوي بعون الله لعباده ودفعه عنهم وحمايته لهم «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1]، ويعلن الله - تبارك وتعالى - هذه الحماية التي لا حماية بعدها بقوله في كتابه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وفي هاتين الصورتين تتجلى معاني الأُخُوَّة بعمقها وشمولها، إذ تضمنت الفداء بالنفس والمال والأهل والثقة المطلقة بموعود الله مع ما اكتنفتا من مشاعر الحب والإيثار، يقول ابن إسحاق: (انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل الرسول ﷺ فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حيَّة يقي رسول الله ﷺ بنفسه)[3]، إنَّها قمة التضحية والفداء التي لاتتأتى إلا بروح الأُخُوَّة الإسلاميَّة وتأثيرها، وهو ما كان من أبي بكر الصديق، ومن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ومن كافة الصحابة الكرام مع رسول الهدى ﷺ مِمَّا

=[٣٧٠٧]، وفي ٤/١٧١٣، الحديث رقم [٤٣٨٦] بألفاظ متقاربة واللفظ المثبت أعلاه هو الحديث رقم [٣٤٥٣]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده بلفظ: (لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط الشيخين؛ انظر: الموسوعة الحديثيّة (مسند الإمام أحمد بن حنبل) ١/١٨٩، ١٩٠، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (مرجع سابق).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده باللفظ نفسه: المرجع السابق نفسه: ص ١٩٠.

(٢) سورة التوبة: الآية (٤٠).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/١٢٧، (مرجع سابق). وانظر: الإمام الصالحي: سبل الهدى والرشاد.. ٣/٢٣٨ - ٢٦٥، (مرجع سابق).

سطّرته صفحات التاريخ.

ولأبي بكر مزيَّة في أُخُوَّة الإسلام ذكرها الرسول ﷺ في خطبة عرَّض فيها بقرب وفاته وكان مِمَّا جاء فيها: «إنَّ من أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أُخُوَّة الإسلام ومودَّته، لايبقين في المسجد بابٌ إلاّ سُدَّ، إلاّ باب أبي بكر»[1]. قال ابن رجب في معناه: (لمَّا عرَّض الرسول ﷺ على المنبر باختياره للقاء على البقاء ولم يصرح، خفي المعنى على كثير ممن سمع، ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به، ثاني اثنين إذ هما في الغار وكان أعلم الأُمَّة بمقاصد الرسول ﷺ، فلمَّا فهم المقصود من هذه الإشارة بكى وقال: بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا، فسكن الرسول ﷺ جزعه وأخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر ليعلم الناس كلهم فضله، ولايقع عليه اختلاف في خلافته...)[2].

ب- المؤاخاة التي شرعها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وجعل منها (أساسًا لمبادئ العدالة الاجتماعية التي قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام اجتماعي في العالم، ولقد تدرجت مبادئ هذه العدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعيَّة ملزمة، ولكنَّها كلها إنَّما تأسست وقامت على الأُخُوَّة الإسلاميَّة التي تأسست على حقيقة العقيدة الإسلاميَّة ولولا ذلك لما كان لتلك المبادئ أيُّ أثر تطبيقي وإيجابي في

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٣/١٣٧٧ الحديث رقم [٣٤٥٤]، والحديث رقم [٣٦٩١]، وقبلهما الحديث رقم [٤٥٤]١/١٧٧، ١٧٨، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٢) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: ص ٢٠٢، تحقيق: ياسين محمد السَّوَاس، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، عن دار ابن كثير – دمشق.

شد أزر المجتمع الإسلامي ودعم وحدته. لم يكن ما أقامه الرسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ التآخي مجرد شعار في كلمة أجراها على ألسنتهم، وإنَّما كان حقيقة عمليَّة تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين)[1].

لقد كانت المؤاخاة من أوائل الأعمال التي قام بها الرسول ﷺ عندما وصل إلى مهاجره، قال ابن إسحاق: (وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال - فيما بلغنا... تآخوا في الله أخوين أخوين، ثُمَّ أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين، وكان حمزة بن عبدالمطلب... وزيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ أخوين...)[2].

ومِمَّا يقوله ابن إسحاق في ذكر تفصيلات المؤاخاة: (فهؤلاء من سُمِّيَ لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه، فلمَّا دوَّن عمر بن الخطاب الدواوين بالشام، وكان بلال قد خرج إلى الشام، فأقام بها مجاهدًا، فقال عمر لبلال: إلى من تجعل ديوانك يا بلال قال: مع أبي رويحة، لا أفارقه أبدًا، للأُخُوَّة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني، فضمَّ إليه)[3].

---

(١) انظر: محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة: ص ١٥٧، الطبعة السابعة، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م، دار الفكر - دمشق، وانظر: حسن زكريا فليفل: إنما المؤمنون إخوة (الأُخُوَّة الإسلاميَّة): ص ٤٢، ٤٣، عن مكتبة الإيمان للطبع والنشر والتوزيع - الإسكندرية (بدون تاريخ).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/١٤٦، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (مرجع سابق).

(٣) ابن هشام: السيرة النبويَّة: ٢/١٤٨، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (المرجع السابق نفسه).

وفيما أورده ابن إسحاق دليل على عمق هذه المؤاخاة ورسوخها في نفوس صحابة الرسول ﷺ كما أنَّه ﷺ اتخذ في سبيلها من التدابير التشريعية والتنظيميَّة ما لم يسبق لمثله من قبل، ولعل وثيقة الموادعة التي كتبها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار وادع فيها اليهود تعطي دلالة حضاريَّة بعيدة المدى وعميقة المعنى ذلك أن الرسول ﷺ أرسى دعائم الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة وبين حقوقها ودعائمها، وأنَّها إحدى مقومات تميز الأُمَّة الإسلاميَّة، وقد ورد نص الوثيقة: (في كل كتب السيرة كاملة وفي كثير من كتب السنة النبويَّة مجزأة)[1]، واستشهد بها بعض الباحثين في دراسة المجتمع الإسلامي واستخلص منها حقائق كبرى في قيام الأُمَّة الإسلاميَّة المتميِّزة[2]، منها:

- (تأكيد وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة وترابطها وتميزها من دون الناس بإيمانها الصحيح وإسلامها الواعي... وبأنَّها الأُمَّة التي تحمل تبعة الدعوة، دعوة البشرية كلها إلى هذا الدين لتأكيد أنها خير أُمَّة أخرجت للناس... وإعلاء عنصر الإيمان ورفع شأن المؤمنين... وأن المؤمن أعلى عناصر الوجود قدرًا وأرفعها ذكرا عند الله...)[3].

- (تكافل المسلمين وتكاتفهم في الحرب... (وأن المؤمنين لايتركون

---

(١) عبد ربِّ النبي علي أبو السعود: الأُخُوَّة الإسلاميَّة: ص ٥٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٥٢ - ٥٤. وانظر: ص ٤٦ - ٥٠، (المرجع السابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٥٤، ٥٥.

مفدحًا بينهم)[1]، والمفدح: المثقل بالدين والكثير العيال، فهذا يرعاه إخوانه المسلمون ولايتركونه لدين يفدحه ولا لنفقة عيال تعجزه، هذا واجب المسلم نحو أخيه المسلم في السلم والأمن، فإذا كانت حرب وجهاد في سبيل الله فإنَّ المسلمين يتكافلون فيما بينهم، ويخفف بعضهم على بعض ما أصابهم من مغارم الحرب وتبعات الجهاد)[2].

- (إقرار المساواة بين المسلمين وتكافؤهم في المكانة والكرامة والحقوق... ويتضح ذلك من قول الرسول ﷺ: «وأنَّ ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس»[3]، ومهما قال.. أصحاب النظريات والنظم من المتشدقين بالمساواة والعدالة، فلن يصلوا إلى أدنى مايدل عليه قول الرسول ﷺ: «ويجير عليهم أدناهم»[4] فأقل المسلمين مالاً أو جاهًا أو قوة كأكبر المسلمين مالاً أو جاهًا أو قوة يجير عليه فلايرد إجارته)[5].

- (والأُمَّة الإسلاميَّة مطالبة أبدًا بأن تكون أبداً مع الحق وضد الباطل ولو تمثل هذا الباطل في واحد منهم، يتضح ذلك من قوله ﷺ: «وأنَّ المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١٤٤/٢، (مرجع سابق). وانظر: مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبويَّة في ضوء المصادر الأصلية (دراسة تحليلية): ص ٣٠٦، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م، من مطبوعات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة – الرياض.

(٢) عبد ربِّ النبي علي أبو السعود: الأُخُوَّة الإسلاميَّة: ص ٥٥، (مرجع سابق).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية: ١٤٤/٢، (المرجع السابق نفسه).

(٤) المرجع السابق نفسه: ١٤٤/٢.

(٥) عبد ربِّ النبي علي أبو السعود: الأُخُوَّة الإسلاميَّة..: ص ٥٥، (مرجع سابق).

أو إثمًا أو عدوانًا فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم»[1] ...)[2].

وبهذا أصبحت الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة شريعة تنتهج ونظامًا يطبق ويقنَّن في إطار الحقوق والواجبات وهذا (مِمَّا تميَّز به الإسلام على غيره من الأديان ومن النظم والنظريات حتى إنَّ بعض العلماء يرون أن هذه المؤاخاة مِمَّا خُصَّ به رسول الله ﷺ دون سائر الرسل عليهم السلام)[3].

وقد اتسمت هذه المؤاخاة بمظاهر كثيرة وتطبيقات رائعة منها ما كان على مستوى الأُمَّة، ومنها ما كان على مستوى الأفراد... ويجمل الحديث عن بعض نماذجها فيما يأتي:

أولاً: لقد بلغ من تأثير المؤاخاة في بداية الأمر حد التوارث بين الإخوة في الدين بعد الموت، (وظلت كذلك حتى تغيرت بجعل هذا التوارث بين أولي الأرحام فحسب)[4]. فكان (ميراث الأنصاري يؤول بعد وفاته إلى أخيه المهاجر بدلاً من ذوي رحمه من الإخوة أو الأبناء أو النساء...

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: المرجع السابق نفسه: ١٤٤/٢. ولمزيد الاطلاع على نصوص هذه الوثيقة (الصحيفة) ومصادرها، وتاريخ كتابتها وشواهدها من كتب السنة والسيرة والتاريخ، وما تضمنت من مبادئ دستورية، وقيم أخلاقية؛ انظر: مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (المرجع السابق نفسه) في الصفحات (٣٠٦ - ٣١٨). وانظر: محمد حميد الله الحيدرآبادي: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة: ص ١ - ٧، (مرجع سابق).

(٢) عبد ربِّ النبي علي أبو السعود: المرجع السابق نفسه: ص ٥٦.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٥٧.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٥١.

واستمر ذلك حتى موقعة بدر التي حظي فيها المسلمون بمقادير لا بأس بها من الغنائم والأموال)[1]، ونزل قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾[2]. قال ابن عباس: (هذه الآية نسخ لما تقدم من الموالاة بالهجرة دون القرابة التي ليس معها هجرة)[3].

وقال ابن العربي: (إنَّه عموم في كل قريب بينته السنّة بقوله: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»[4]، حسبما ثبت في كتاب الله، وقال رسول الله)[5].

وقال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ.... ﴾[6]: (هذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم... لأنهم صدَّقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة، والنصرة، والموالاة،

---

(١) عماد الدين خليل: دراسات في السيرة: ص ١٥٣، (مرجع سابق).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٧٥).

(٣) صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم، تحقيق: راشد عبدالمنعم الرجَّال: ص ٢٥٨، (مرجع سابق). والنص المثبت منقول عن ابن العربي (الآتي ذكره)، أمَّا لفظ الصحيفة فهو: «نسخت ما قبلها، وصار الميراث لذوي الأرحام».

(٤) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١٢٣٣/٣، ١٢٣٤، الحديث رقم [١٦١٥]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٥) أحكام القرآن ٨٨٩/٢، ٨٩٠، تحقيق: علي محمد البجاوي، عن دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت، (بدون تاريخ).

(٦) سورة الأنفال: الآيتان (٧٤، ٧٥).

بعضهم لبعض وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين... وكذلك من جاء بعد هؤلاء من المهاجرين والأنصار، ممن تبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير، وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار أُخُوَّة خاصَّة، غير الأُخُوَّة الإيمانية العامَّة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ فلايرثه إلاَّ أقاربه من العصبات، وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته، من ذوي الأرحام، كما دلَّ عليه عموم الآية الكريمة)[1].

ومِمَّا يستخلص من هذا الحدث الإسلامي الفريد في إطار العقيدة والأُخُوَّة والتشريع: (أنَّ نظام الميراث الذي استقر أخيرًا، إنَّما هو نفسه قائم على أُخُوَّة الإسلام بين المتوارثين، إذ لا توارث بين دينين مختلفين، إلاَّ أنَّ الفترة الأولى من الهجرة وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين أمام مسؤولية خاصَّة من التعاون والتناصر والمؤانسة، بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم في مكة ونزولهم ضيوفًا على إخوانهم الأنصار في المدينة، فكان ما أقامه الرسول ﷺ من التآخي بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانة لتحقيق هذه المسؤولية، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤولية أن يكون هذا التآخي أقوى في حقيقته وأثره من حقيقة أُخُوَّة الرحم المجردة. فلما استقر أمر المهاجرين في المدينة وتمكن الإسلام فيها، وغدت الروح الإسلاميَّة هي وحدها العصب الحقيقي الطبيعي للمجتمع الجديد في المدينة، أصبح من المناسب انتزاع

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ٣/١٩٥، ١٩٦، (مرجع سابق).

القالب الذي كان قد صب فيه نظام العلاقة بين المهاجرين والأنصار إثر التقائهم في المدينة، إذ لايخشى على هذا النظام بعد اليوم من التفكك والتميع في ظل الأُخُوَّة الإسلاميَّة العامَّة وما يترتب عليها من المسؤوليات المختلفة، ولا ضير حينئذٍ أن يعود تأثير قرابة الرحم بين المسلمين من حيث كونها مؤثرًا زائدًا على قرابة الإسلام وأُخُوَّته)[1]، في إطار عقيدة التوحيد وتحت مظلة الشرع؛ ولأنّ في ذلك ما (يلبي جانبًا فطريًا في النفس الإنسانية، ولا ضرر من تلبية المشاعر الفطرية في النفس الإنسانية، ما دام أنْ ليس هناك ما يعارض هذه المشاعر من تكاليف الوجود الإسلامي)[2].

ثانيًا: بلغت مشاعر الأُخُوَّة وتأثيراتها بين المهاجرين والأنصار أعلى درجات الأُخُوَّة ومشاعر الوحدة من الإيثار والسماحة والنبل؛ ولذلك شواهد عدَّة سجلها التاريخ وامتدحها الله عزوجل في محكم التنزيل، وهي من الكثرة بمكان، تعج بها كتب السنة والسيرة والتاريخ والتراجم سواء ما كان منها في صفوف الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار أو من جاء من بعدهم وسار على نهجهم واقتفى أثرهم في فهم عقيدة الإسلام واعتناقها، وطبَّق شريعته وارتبط بآصرة الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة، ويكفي شاهدًا على ذلك قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة: ص ١٥٨، (مرجع سابق). وانظر: حسن زكريا فليفل: إنَّما المؤمنون إخوة..: ص ٤٣، ٤٤، (مرجع سابق).

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٣/١٥٦١، (مرجع سابق).

بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، فهذه صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميَّزة للأنصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق، لولا أنَّها وقعت بالفعل، لحسبها الناس أحلامًا طائرة ورؤى مجنحة ومثلاً عُلْيًا قد صاغها خيال محلق)[2].

وبالرجوع إلى ما ذكره المفسرون في نزول بعض هذه الآية وما ذكروا من شواهد على الإيثار الذي وصف الله به الأنصار تتحقق المقولة السابقة من أنَّ هذه الأفعال التي كانت من أثر الأُخُوَّة الإسلاميَّة لولم تحدث بالفعل ويتواتر خبرُ ذلك لكانت من نسج الخيال، وفي ذلك ما يبرز تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة على سائر الأمم، ومن هذه الشواهد:

- ما ذكره الواقدي من أن الرسول ﷺ: «لمَّا تحول من بني عمرو ابن عوف (في قباء) إلى المدينة تحول أصحابه من المهاجرين، فتنافست فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسُّهمان فما نزل أحد منهم على أحد إلا بقرعة سهم»[3].

- أنزل الأنصار إخوانهم المهاجرين في منازلهم وأشركوهم في أموالهم وأحسنوا إليهم[4] (وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوَّؤوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلاً ومرجعًا يرجع

---

(١) سورة الحشر: الآية (٩).

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٣٥٢٦/٦، (مرجع سابق)، وانظر: أبو الحسن الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة..: ص ١٢٦ - ١٢٨، (مرجع سابق).

(٣) كتاب المغازي: ٣٧٨/١، تحقيق: مارسدن جونس، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م، عن عالم الكتب، بيروت، وانظر: عماد الدين خليل: دراسات في السيرة: ص١٥٣، (مرجع سابق).

(٤) انظر: الشوكاني: فتح القدير ٢٠١/٥، (مرجع سابق).

إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن حماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها، بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدين يأوون إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي وجعل يزداد شيئًا فشيئًا)[1]، حتى إذا أفاء الله على رسوله وغنم أموال بني النضير (دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين... ثم قال: «إن أحببتم قسمت مِمَّا أفاء الله عليَّ من بني النضير بينكم وبينهم وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم» فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونوا في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يارسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار»)[2].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قالت الأنصار: أقسم بيننا وبين إخواننا النخل. قال: «لا» قال: «تكفوننا المؤنة وتشركوننا في التَّمْر» قالوا: سمعنا وأطعنا)[3]، فهذه صورة أخرى من الإيثار الذي اتصفت به الأنصار فقد أشركوا إخوانهم المهاجرين في أموالهم ولم يقف الأمر عند

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ٣٣٤/٧، (مرجع سابق).

(٢) الإمام الصالحي: سبل الهدى والرشاد... ٣٢٥/٤، (مرجع سابق)، والواقدي: كتاب المغازي ٣٧٩/١، (مرجع سابق)، والشوكاني: فتح القدير ٢٠١/٥، (مرجع سابق)، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٨، (مرجع سابق)، وانظر: عماد الدين خليل: دراسات في السيرة النبوية: ص ١٥٣، ١٥٤، (مرجع سابق). وقد ورد لفظ دعاء الرسول ﷺ لدى مسلم على هذا النحو: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» صحيح مسلم ١٩٤٨/٤، رقم الحديث (٢٥٠٦)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١٣٧٨/٣ رقم الحديث [٣٥٧١] و ٨١٩/٢ رقم الحديث [٢٢٠٠] بلفظ قريب منه، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

ذلك بل كفوهم مؤنة العمل وقاسموهم في ثمار أموالهم إجابة لقول الرسول ﷺ: «هم قوم لايعرفون العمل - أي في الزراعة - فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»[1].

- وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[2]: (أي من كرمهم وشرف نفوسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾[3]: أي ولايجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به، من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة)[4].

وقال القرطبي في معنى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[5]: (الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيويّة، ورغبة في الحظوظ الدينيّة، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبّة، والصبر على المشقة، يقال: آثرته بكذا، أي خصصته به وفضلته)[6].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/٣٣٨، (مرجع سابق). وذكر الواحدي: أسباب النزول.. ص ٣٩٣، (مرجع سابق): (أن الأنصار قالوا: يارسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين. قال: «لا، ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم» قالوا: رضينا. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ... ﴾ الآية، لكن الشاهد في سياق القصّة ما أثبتَ أعلاه، وربّما حدث هذا وذاك، والتحقيق في ذلك أمرٌ يخرج عن سياق البحث.

(٢) سورة الحشر: الآية (٩).

(٣) سورة الحشر: الآية (٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٤/٣٣٧، (مرجع سابق).

(٥) سورة الحشر: الآية (٩).

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/١٨، ١٩، (مرجع سابق).

وساق شواهد عدةً على ذلك من تطبيقات الأنصار رضوان الله عليهم، مِمَّا يؤكد أنَّ أُخُوَّة الدين هي التي جعلت الأنصار يفتحون قلوبهم لإخوانهم المهاجرين قبل أن يفتحوا منازلهم[1].

- ومِمَّا أورده المفسرون في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2] أنَّها نزلت في رجل من الأنصار (آثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده، وباتوا جياعًا)[3]، وقيل: (أهدي لرجلٍ من أصحاب الرسول ﷺ رأس شاة فقال: إنَّ أخي

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه ١٧/١٨ - ٢٠. وانظر: محمود محمد بابللي: معاني الأُخُوَّة في الإسلام: ص ٥٠، (مرجع سابق).

(٢) سورة الحشر: الآية (٩).

(٣) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ٣٣٥/٧، (مرجع سابق)، وقد وردت أقوال عديدة في ذلك الرجل ومن هو؛ انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣٣٨/٤، (مرجع سابق)، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٨/١٨، ١٩، (مرجع سابق)، والشوكاني: فتح القدير: ٢٠١/٥، (مرجع سابق).

وأصل الحديث عند البخاري أخرجه في كتاب فضائل الصحابة، باب [٤٠] قول الله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ونصه: (عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلاَّ الماء، فقال رسول الله ﷺ: «من يضم أو يضيف هذا ؟»، فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلاَّ قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا العشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلمَّا أصبحَ غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: «ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما»، فأنزل الله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...... ﴾. صحيح البخاري ١٣٨٢/٣ رقم الحديث [٣٥٨٧]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منَّا، فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات، حتى رجعت إلى أولئك)[1].

- وذكر ابن كثير صورة أخرى - وذكرها غيره - وهي: (الماء الذي عُرِضَ على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء فردَّه الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم)[2].

ومِمَّا ينبغي الإشارة إليه أنَّ ذلك الإيثار الذي اتصف به الأنصار في صور كثيرة تفوق الحصر كانت تقابل من المهاجرين في إطار الأُخُوَّة الإسلاميَّة نبلاً وسماحة خلق، من ذلك قصة عبدالرحمن بن عوفٍ مع أخيه الأنصاري سعد بن الربيع، التي رواها البخاري؛ من أنَّ سعداً قال لعبدالرحمن: (إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضلٌ مِنْ أَقِطٍ وسمن، ثمّ تابع الغُدُوَّ، ثم جاء يوماً وبه أثرُ صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهيم» قال: تزوجت، قال: «كم سقت إليها ؟» قال: نواة من ذهب، أو وزن نواة من ذهب. شك إبراهيم)[3].

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٨، (مرجع سابق). وانظر: الواحدي: أسباب النزول ص ٣١٤، (مرجع سابق). والقصة عنده عن عبدالله بن عمر.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٣٣٨، (مرجع سابق).

(٣) صحيح البخاري ٣/١٣٧٨ الحديث رقم [٣٥٦٩]، ومعنى «مهيم» (ما حالك وما شأنك وما خبرك)، وقوله: (شك إبراهيم) هو راوي الحديث. انظر: مصطفى ديب البُغا - المحقق -، (مرجع سابق).

وهذا يبين ما كان عليه المهاجرون من سماحة الخلق والنبل، وأنَّهم قابلوا (إيثار إخوانهم وسماحتهم بتقدير كامل وسماحة مماثلة رافضين منذ البدء أن يكونوا اتكاليين على إخوانهم وعالة على أولئك الذين آووهم وقاسموهم)[1]، ولايتعارض هذا المعنى مع قول الرسول ﷺ الذي سبق آنفا: «هم قوم لايعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»[2]؛ لأن المقصود بذلك العمل في مجال الزراعة؛ ولأنَّ المجتمع الإسلامي الوليد مجتمع يكمل بعضه بعضه الآخر فهو (ما بين مهاجرين، قد هجروا المحبوبات والمألوفات، من الديار، والأوطان، والأحباب، والخلان والأموال، رغبة في الله ومحبة لرسول الله... وبين أنصارهم؛ الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختيارًا...)[3]؛ ولذلك فإنَّ الله امتدح المهاجرين ووصفهم في الآية السابقة للآية التي وصف فيها الأنصار وامتدحهم بها إذ قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[4]، (وهي صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميِّزة للمهاجرين)[5] إلى جانب الصورة التي ذكرت عن الأنصار، وهما صورتان متكاملتان لتميّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وأنَّ من مقوماته الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة التي تقوم على (مبدأ العطاء قبل الأخذ، وتشده أواصر العقيدة... ويوجهه الإيمان العميق في كل... فاعلياته،

---

(١) عماد الدين خليل: دراسات في السيرة: ص ١٥٤، (مرجع سابق).

(٢) سبق تخريجه: ص ٥٣٦، (البحث نفسه).

(٣) السعدي: تيسير الكريم الرحمن...، ٣٣٣/٧، (مرجع سابق).

(٤) سورة الحشر: الآية (٨).

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣٥٢٦/٦، (مرجع سابق).

ويقوده الرسول (الأسوة) الذي ضرب بتجرده وإيثاره وانسلاخه عن الأخذ وعطائه الدائم مثلاً عاليًا ومؤثراً)[1].

وخلاصة القول: (أن تجربة المؤاخاة نجحت وكان لابد لها أن تنجح ما دامت قد استكملت الشروط وتهيأت لها الأسباب في القيادة والقاعدة على السواء وبغض النظر عن عدد الذين تآخوا عشرات كانوا أو مئات أم ألوفًا)[2]، ومن هذه التجربة الرائدة في تاريخ البشرية بعامَّة انطلقت آثار الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة في أقطار المعمورة وآفاقها (حتى غُمِرَ كل جزء من أجزائها وكل ركن من أركانها بدعاة ربانيين مخلصين مجاهدين مصلحين، مربين عارفين بالله، متحرقين لخلق الله، باذلين نفسهم ونفيسهم لخير الإنسانية، وإنقاذها... أذكوا شعلة الحب الإلهي، وفجروا أنهار العلوم والآداب، والحكم والمعارف والعرفان، والإيمان والحنان، وأنشؤوا في نفوس البشر مقتًا جديدًا للظلم والجور، والعدوان والبغضاء... وضموا المنبوذين والمهجورين والمساكين الذين لفظهم المجتمع، وطردهم أهلهم وعشيرتهم، إلى صدورهم العامرة بالحب والحنان، إنك تجد آثارهم، وتلمس آياتهم على كل جزءٍ من أجزاء

---

(١) عماد الدين خليل: دراسات في السيرة: ص ١٥٦، (مرجع سابق). ولمزيد الاطلاع على نماذج من تطبيقات الإيثار بين المهاجرين والأنصار بل بين إخوة الإسلام؛ انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٥٢ – ١٥٨، وانظر: حسن زكريا فليفل: إنَّما المؤمنون إخوة...: ص ٣٣ – ٤٤، (مرجع سابق)، وانظر: نماذج من الأُخُوَّة والحب بين الصحابة والتابعين وتابعيهم: ص ٤٤ – ٥٢، (المرجع نفسه).

(٢) عماد الدين خليل: دراسات في السيرة: ص ١٥٨، (مرجع سابق).

البسيطة كمواقع المطر، لايَخْلُو منها بيت وبر ولا مدر)[1].

---

(١) أبو الحسن الندوي: الإسلام (أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية): ص ١٢٦، ١٢٧ (مرجع سابق). وعن واقع الأُخُوَّة الإسلاميَّة في العصر الحاضر؛ انظر: حسن زكريا فليفل: إنَّما المؤمنون إخوة..: ص ٥٥، ٥٦، (مرجع سابق)، وانظر: محمد علي الهاشمي: القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلاميَّة (ضمن الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم)، ١/٦٥، ٦٦، من مطبوعات الندوة العالمية للشباب الإسلامي: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م - الرياض، ولمزيد الاطلاع على وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة من حيث مرتكزاتها، وجذورها التاريخية، وضرورتها، ومقوماتها، ودعائمها؛ انظر: المراجع الآتية:

- شيخ الإسلام ابن تيمية: قاعدة في جمع كلمة المسلمين، عن مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م، تحقيق: حمَّاد سلامة، ومراجعة: محمد عويضة.
- الإمام محمد أبو زهرة: الوحدة الإسلاميَّة، عن دار الفكر، القاهرة، (بدون تاريخ).
- عمر يوسف حمزة وأحمد عبدالرحيم السايح: معالم الوحدة في طريق الأُمَّة الإسلاميَّة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م، عن الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
- محمود حمدي زقزوق: قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام: ص ٩ - ٣١، بعنوان (مفهوم وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة)، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م، عن دار المنار، القاهرة.
- أحمد بن سعد الغامدي: الوحدة الإسلاميَّة (أسسها ووسائل تحقيقها) مقال مدرج في مجلة البحوث الإسلاميَّة، العدد [٢١]: ص ٢٣٧ - ٢٧٥، (مرجع سابق).
- أكرم ضياء العمري: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، (الجزء الأول): ص ٩٤ - ١١٤، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، الإصدار [٣٩] من سلسلة كتاب الأُمَّة؛ (سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة، قطر.
- محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره: ص ١٤٦ - ١٥٢، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م، عن دار المنار..، القاهرة.
- يوسف كمال: مستقبل الحضارة: ص ١٧٥ - ٢١٣، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧ م، عن دار الوفاء..، المنصورة - مصر.
- فاروق الدسوقي: مقومات المجتمع الإسلامي: ص ١٢٩ - ١٣٣، (مرجع سابق).

المطلب الثاني
موقف المستشرقين من الأُخُوَّة ووحدة الأُمَّة الإسلاميَّة

تعد وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة من لوازم الأُخُوَّة الإسلاميَّة ومقتضياتها الأساس، وإذا كانت بعض الدراسات الاستشراقية قد وقفت على عوامل هذه الوحدة وما تفرد به الإسلام من تحقيق لها بصفة تقصر دونها جميع المناهج والمذاهب والأديان[1]، فإنَّ هناك دراسات استشراقية وأبحاثًا أنجزها عدد من المستشرقين عرفوا بعدائهم للإسلام وأمته وارتبطوا بالاستعمار والصهيونية وغيرهما من دوائر العداء للإسلام، وجاءت هذه الدراسات والأبحاث محاولة موجَّهة لهدم الوحدة الإسلاميَّة، وذلك بالتحذير منها وإبراز تاريخها وآثارها على الأمم والشعوب أولاً، ثُمَّ العمل على تنشئة عوامل أخرى تعمل على هدمها وتفتيتها.

---

(١) لمزيد من الاطلاع على هذه الدراسات والأبحاث انظر:

- عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٧٨، ١٩٦، ١٩٧، ١٣٦، (مرجع سابق).
- صالح بن حميد: شهود على الوحدة من خارجها: ص ٩ - ١٤، أورد ما يزيد على عشرة أقوال لعدد من المستشرقين منهم (هارولد سمث) و (جوستاف لوبون) و (لوثروب ستودارد) و (برنارد لويس) و (ر. ل. ميليما)، والباحثة الفرنسية (دانكوس) و (مونتغمري وات).

وانظر: هاملتون جيب: أين يتجه الإسلام: ص ٢٠، حيث أبرز في حديثه مظهرًا من مظاهر الوحدة الإسلاميَّة وهي الحروف العربية التي تستعمل في سائر العالم الإسلامي... نقلاً عن السيد رزق الطويل: اللسان العربي والإسلام معًا في معركة المواجهة: ص ١٠٢، العدد [٦٠] السنة السادسة من سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.

وللمثال على إبراز ملامح الوحدة الإسلاميَّة وتاريخها وآثارها على الأمم والشعوب التي انتشر فيها الإسلام وصاغها صياغة فريدة جاءت الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة فيها من أهم مقومات تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، ما كتبه (هانوتو) المستشرق الفرنسي بعنوان: (قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلاميَّة) وجاء فيه: (لايوجد مكان على سطح الأرض إلاَّ واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشرًا في الآفاق.. فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمرًا وأفواجًا، وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه)[1].

وبعد أن يصف رقعة الإسلام في آسيا وإفريقيا، وأنها تفصل الدول الغربيَّة بعضها عن بعضها الآخر، وأن دعائم الإسلام ثابتة الأركان في أوروبا عينها...، قال (وخلاصة القول: إنَّ جميع المسلمين على سطح المعموزة تجمعهم رابطة واحدة بها يديرون أعمالهم، ويوجهون أفكارهم إلى الوجهة التي يبتغونها، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه، ومتى اقتربوا من الكعبة: من البيت الحرام، من زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس، من الحجر الأسود المحاط بإطار من فضة، من الركن الذي يقولون عنه أنه سرة العالم،

---

(١) نقلاً عن: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٣٢، ٣٣، (مرجع سابق)، وانظر: محمد محمد الدهان: قوى الشر المتحالفة..: ص ٢٢، (مرجع سابق)، وأساس مقولة (هانوتو) نشر في مقال له بعنوان (لقد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلاميَّة)، نشرته جريدة المؤيد عام ١٣١٧ هـ، ومثل ذلك ما نشرته مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية في عدد يونية ١٩٣٠ م، تحت عنوان (الجغرافيا السياسيَّة للعالم الإسلامي). انظر: محمد محمد الدهان، المرجع السابق نفسه: ص ٢٢ – ٢٥.

وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام، اشتعلت جذوة الحميَّة الدينيَّة في أفئدتهم، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً... وتقدمهم الإمام مستفتحًا العبادة بقوله: (بسم الله)، فيعم السكوت والسكون وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلين في تلك الصفوف، ويملأ الخشوع قلوبهم ثُمَّ يقولون بصوت واحد: (الله أكبر) ثُمَّ تعنوا جباههم بعد ذلك قائلين: (الله أكبر) بصوت خاشع يمثل معنى العبادة)[1].

وعلى الرغم من وقوف (هانوتو) على هذا المعنى السامي لجوهر الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة الإسلاميَّة فإنَّه لايهتدي بما فيها من نور وروحانيَّة - بغض النظر عن تجاوزاته في بعض العبارات والمفاهيم - بل يرفع عقيرته محذِّرًا بني جلدته من هذه الوحدة ومستنفرًا لهم كي يعملوا على إضعافها وتفتيتها؛ فيقول: (لاتظنوا أن هذا الإسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد، غريب عن إسلامنا (في تونس والجزائر) ولا علاقة له به؛ لأنَّه وإن كانت البلاد (الإسلاميَّة) التي تحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة بـ (دار إسلام) وإنَّما هي (دار حرب)، فإنَّها لاتزال عزيزة وموقرة في قلب كل مسلم صحيح الإيمان ! والغضب لايزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الأسد حول قفص جلست فيه صغارها، وربَّما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة، ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول إليهم من بينها)[2].

---

(١) نقلاً عن محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٣٣، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٣٣، ٣٤.

وممّا سلكه المستشرقون في أبحاثهم ودراساتهم بهدف هدم الوحدة الإسلاميَّة الآتي:

١ - بعث الحضارات القديمة، والعودة بالشعوب الإسلاميَّة تبعًا لتلك الحضارات حتى تفقد وحدتها الإسلاميَّة.

٢ - إحياء القوميات لتحل محل عقيدة الإسلام وأخوته وتمزق وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة.

٣ - إظهار الفرق المنشقة عن الأُمَّة الإسلاميَّة والتنظير لها، ودعوة الدول الاستعمارية لمساندتها ودعمها بغية إضعاف الأُخُوَّة الإسلاميَّة وتفتيت وحدة الأُمَّة.

إضافة لما سبق الحديث عنه من دعوة إلى تطوير الإسلام[1]، والأخذ بالأنموذج الغربي في ذلك التطوير أو انتهاج أساليب أخرى من التطوير تؤدي في نهاية الأمر إلى انفكاك الأُمَّة الإسلاميَّة من أواصر الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة لتعدد نماذج تلك الأساليب التطويريَّة إمَّا باختلاف الأزمان أو باختلاف الأمكنة والبلدان.

إنَّ هذه المنطلقات وغيرها كانت الدوافع والبواعث الحقيقية وراء كثيرٍ من الدراسات الاستشراقية التي لاقت أصداءً واسعة لدى قادة الاستعمار ودهاقين السياسة والفكر الغربي، (فقد جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطاني (أورمسبي غو) لرئيس حكومته بتاريخ ٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٣٨ ما يأتي: (إنَّ الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلاميَّة هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الامبراطوريَّة أن تحذره وتحاربه، وليس الامبراطوريَّة وحدها، بل فرنسا أيضًا، ولفرحتنا فقد

---

(١) انظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث..: ص ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٦ - ٢٣٢، ٢٨٦، ٣٩٢، (المرجع السابق نفسه).

ذهبت الخلافة وأتمنَّى أن تكون إلى غير رجعة)...)[1].

وعن المعنى نفسه قال (لورانس براون): (إذا اتحد المسلمون في إمبراطوريَّة عربيَّة أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضًا، أمَّا إذا ظلوا متفرقين فإنَّهم يظلون حينئذٍ بلا قوة وبلا تأثير)[2].

ولتحقيق هذه الغاية التي يسعى إليها المستعمرون وتنظر لها طائفة من المستشرقين، وهي إضعاف الأُخُوَّة الإسلاميَّة وتفتيت وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة انطلقت بعض الدراسات الاستشراقية من المنطلقات المذكورة آنفاً، وفيما يأتي لمحة موجزة عن ذلك:

١ - أمَّا محاولة بعث الحضارات القديمة، فقد تولاها دعاة ينادون ببعث الحضارات الجاهليَّة التي قامت على أنقاضها حضارة الإسلام مثل الفرعونية في مصر، والفينقية في الشام، وغيرهما من الحضارات البائدة...، ولئن دار الصراع الفكري حول هذه الحضارات في العالم الإسلامي بين دعاة متحمسين لهذه الدعاوى ومعارضين لها يعون ما تهدف إليه من إضعاف لأُخُوَّة الإسلام وتمزيق لوحدة الأُمَّة الإسلاميَّة وتهديم لكيانها في مواجهة الغرب فقد كان للمستشرقين إسهام بارز في الدعوة إلى بعث هذه الحضارات وتنميتها.

يقول (جيب): (وقد كان من أهم مظاهر فرنجة العالم الإسلامي

---

(١) نقلاً عن: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكريَّة للصراع الحضاري... ص ٩٨، (مرجع سابق).

(٢) الإسلام والإرساليات: ص ٤٤، ٤٨، نقلاً عن: أحمد العناني: أطول معارك التاريخ: ص١٤١، (مرجع سابق)، وانظر: الخالدي وفروخ: التبشير والاستعمار... ص ٣٧، (مرجع سابق).

تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن، فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا ومصر، وفي أندونسيا وفي العراق وفي إيران)[1].

أمَّا الدعوة إلى الفرعونية فهي تدرك أبعاد هذه الدعوة، ومقاصدها الخطيرة؛ من خلال المعرفة الوافية بعقائدها وتاريخها، ذلك أن (الفرعونية: نسبة إلى الفراعنة حكام مصر في عهدها القديم، وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾[2] وكانوا طاغين.. أهل بطش وجبروت، زعموا أنفسهم أربابًا من دون الله، وقسروا الناس على تأليههم وعبادتهم، قال تعالى على لسان فرعون: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[3]، وكانوا يعبدون الشمس والعجل ويقدسون النيل ويقدمون إليه القرابين، ولما فتح المسلمون مصر دخل الشعب المصري الإسلام، وربط الإسلام بين هذا الشعب وسائر الشعوب الإسلاميَّة برباط الأُخُوَّة في إطار الأُمَّة الإسلاميَّة الواحدة)[4].

ولم يكن الاستشراق بريئًا مِمَّا أقدم عليه الاستعمار عندما طرح شعار (مصر للمصريين وأخذ ينادي بالفرعونية، ونشط لكي يجعل لمصر

---

(١) وجهة العالم الإسلامي: ص ٣٤٢، نقلاً عن أبي الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلاميَّة والفكرة الغربية: ص ١٨٥، طبعة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، عن دار القلم، الكويت.

(٢) سورة الفجر: الآيات (١٠ - ١٢).

(٣) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٤) عز الدين الخطيب التميمي وآخرون: نظرات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٥١، (مرجع سابق).

الفرعونية حضارة فأخذ ينبش قبور الفراعنة، ويبحث في آثارهم ليختلق تاريخًا، وليؤكد حضارة وليصرف المسلمين في مصر عن الاعتزاز بحضارتهم الإسلاميَّة إلى الاعتزاز بالحضارة الفرعونية)[1].

وعلى الرغم مِمَّا بذله الاستعمار في تضخيم التراث الفرعوني في المناهج الدراسية وعلى صفحات الجرائد والمجلات، ومن خلال المسرح والتمثيل والتماثيل التي نصبت في الساحات والميادين وغيرها لتعبر عن الاعتزاز بتلك الحضارة الغابرة إلى جانب عنايته بعلم الآثار لهذا الغرض بخاصة مستخدمًا في ذلك طائفة من المستشرقين في البحث والتنظير، فإنَّ هذه الدعوى لم تستطع تحقيق الأهداف المرسومة لها من قبل المستشرقين والمستعمرين بالصفة التي كانوا ينشدونها وفي الوقت الذي وقتوا له، إذ قابلها المفكرون والأدباء بالاستهجان وماتت في مهدها.

يقول محمد حسين هيكل: (وانقلبت ألتمس تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلاً لوحي هذا العصر ينشئ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن، وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرًا لنهضة جديدة، ورويَّت فرأيتُ أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو، والفكرة الإسلاميَّة المبنيَّة على التوحيد في الإيمان بالله تنزع في ظلال حرية الفكر إلى وحدة الإنسانية، وحدة أساسها الإخاء والمحبَّة، فالمؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابون بنور الله بينهم، وهم لذلك أمَّة واحدة تحيتها السلام، وغايتها السلام، وهذه الفكرة تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات وتصوير الأمم

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٥٢.

وحدات متنافسة يحكم السيف، وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه، ولقد تأثرنا معشر أمم الشرق بهذه الفكرة القوميَّة واندفعنا ننفخ فيها روح القوة، نحسب أنا نستطيع أن نقف بها في وجه الغرب الذي طغى علينا وأذلنا، وخيل إلينا في سذاجتنا أنَّا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية)[١].

ثُمَّ يواصل نقده لفكرة القومية قائلاً: (ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوي هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتَّاكة بالحضارة التي تقوم على أساسها وحدها. وزادنا ما خيَّم علينا من سُخُفِ الجهل إمعانًا في هذا النسيان. على أن التوحيد الذي أضاء بنوره أرواح أبنائنا قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أنَّ أُمَّة لايتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل.. وكم في ماضينا من أرواح ذات سناء باهر قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الإسلاميَّة خلقًا جديدًا... ومحمد بن عبدالله (ﷺ) هو النور الأول الذي استمدت هذه الأرواح منه ضياءها... لذلك جعلت سيرته موضع دراستي في «حياة محمد»)[٢].

ويقول كاتب آخر: (هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرنًا وثلث من التاريخ الإسلامي نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الصباحية سوابغ الظلال)[٣] ثُمَّ يؤكد بأنَّ (الحضارة الفرعونية قد ماتت)[٤]، غير

---

(١) في منزل الوحي: ص ٢٣، الطبعة السابعة، ١٩٧٩ م، عن دار المعارف، القاهرة.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٢٣، ٢٤.

(٣) عز الدين الخطيب وآخرون: نظرات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٥٢، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٥٢.

أنَّ هذه الدعوة تنشط من حين لآخر وبخاصة في الوقت الراهن[1].

والفينيقية: كلمة يونانية (أطلقها اليونان على إحدى الجماعات الكنعانية التي استقرت على الساحل المعروف الآن بساحل لبنان)[2].

وأصل الكلمة مشتق من (فينيقيا) وتعني اللون الأحمر أو اللون البني، وقد نسبت إليها هذه الجماعة من الكنعانيين؛ لأنهم كانوا تجار أقمشة تصبغ باللون الأحمر أو لأن بشرتهم ذات لون بني[3]، (على أن هذه التسمية قد زالت بزوال الفينيقيين تحت ضغط الهجرات، وأصبحوا تاريخًا لايعدو في صورته أكثر من حجارة وأوابد مدفونة في أعماق الأرض، وعندما جاء الفتح الإسلامي كانت هذه البلاد جزءًا من بلاد الشام، وكان القاطنون فيها شعوبًا مختلفة لايمتون إلى الفينيقيين بسبب أو بآخر وكانوا تحت حكم البيزنطيين وسرعان ما دخلوا في الإسلام

---

(١) انظر: محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية: ص ١٤١، (مرجع سابق).

ولمزيد من الاطلاع على الدعوة إلى الفرعونية والأدبيات التي عولجت بها هذه الدعوة والوسائل والأساليب المستخدمة في بعثها وإحلالها كعقيدة للأمّة المصريّة المنشودة لدى أولئك الدعاة... انظر: محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/١٤٠ – ١٥٨، الطبعة السابعة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤ م، عن مؤسسة الرسالة – بيروت.

(٢) عز الدين الخطيب... وآخرون: المرجع السابق نفسه: ص ٥٥.

ولمزيد الاطلاع على الفينيقية وتأريخها وحضارتها. انظر: جاك ريسلر: الحضارة العربية: ص ٢٥، ٢٦، تعريب خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م، بيروت – باريس، عن منشورات عويدات، وانظر: حسان حلاق: ملامح من تاريخ الحضارات (السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري والديني)، الفصل الرابع: الحضارة الفينيقية: ص ٥٧ حتى ص ٧٩، طبعة ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م عن الدار الجامعية – بيروت.

(٣) عز الدين الخطيب... وآخرون: المرجع السابق نفسه: ص ٥٥. وانظر: الموسوعة الذهبيّة ١٠/١٠٨٦، طبعة يناير ١٩٨٠ م عن مؤسسة سجل العرب – القاهرة.

وصاروا والفاتحين بنعمة الله إخوانًا، وما عرفت هذه البلاد عبر أربعة عشر قرنًا حضارة غير الحضارة الإسلاميَّة)[1].

ثُمَّ جاء المستشرقون وعملوا على تجميع رفات هذه الحضارة وإحياء أمجادها لتكون آصرة أخوة وعقيدة لطائفة من الشعوب الإسلاميَّة، وعلى ذلك تتسلخ من انتسابها لأخوة الإسلام ووحدة الأُمَّة الإسلاميَّة وتصبح عائقًا عويصًا من عوائق وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة التي هي من أهم مقومات تميُّزها ويتحقق للغرب كما قال أحد الباحثين عن آثار إحياء الحضارة الفينيقية، وأنها تعني في المقام الأول: (سلخ لبنان عن بلاد الشام والعالم الإسلامي والحضارة الإسلاميَّة، وهي دعوة تقوم على إرجاع سكان لبنان إلى أصول فينيقية أو صليبية وإلى الأخذ بلغة فينقية والكتابة بالحروف اللاتينية وإلى اتخاذ الفينيقية مصدرا حضاريًّا وتاريخيًّا وفكريًّا)[2].

ولاتقتصر على هذا، بل هي - أيضًا -: (دعوة تستهدف فوق هذا اتخاذ لبنان قاعدة فكريَّة وثقافية وحضارية تنطلق منه حركة التغريب الواسعة)[3].

---

(١) عز الدين الخطيب... وآخرون: نظرات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٥٦، (مرجع سابق)، وممَّا ورد عن الفينيقيين في الموسوعة الذهبيَّة (أنّه لم يكن لديهم أيُّ أفكار عن نظم العلوم والفن والحكم، وإنَّما كانوا تجارًا بسطاء وملاحين إلاَّ أنهم قدموا للحضارة الإنسانية خدمة واحدة بارزة تمثلت في نقلهم حروف الهجاء إلى الإغريق، ومن أجلها أطلق عليهم مسمّى (رسل الحضارة). انظر: مادة (الفينيقيون) من الموسوعة الذهبية: ١٠/١٠٨٦، (المرجع السابق نفسه).

(٢) عز الدين الخطيب.. وآخرون: نظرات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٥٦، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٥٦.

وعلى هذا النحو ركزت الدراسات الاستشراقية على بعث الحضارات الغابرة كالحضارة الآشورية ولغتها في العراق، والبربريَّة في إفريقيا الشمالية[1]، (ولم يكن الغرض بمثل هذه البرامج إلا أن يضطرب حبل المجتمع الإسلامي وتتمزق وحدة المسلمين، وتواجه الحضارة الإسلاميَّة واللغة العربية ضررًا، وتنال الجاهليَّة القديمة حياة من جديد، وقد نجحت كتاباتهم وجهودهم في إنشاء طائفة من تلاميذهم قاموا بحركة إحياء)[2] لهذه الحضارات (الغارقة في التاريخ القديم وإحياء اللغات البالية التي فقدت صلاحيتها، للبقاء ودفنت تحت أنقاض الماضي السحيق منذُ آلاف السنين)[3].

٢ - أمَّا إحياء القوميات فإنَّ ذلك امتداد لإحياء الحضارات القديمة ولكن بدهاء ومكر تلون بلون المرحلة التي انطلقت تلك الدعوات خلالها وحكمتها الظروف التاريخيَّة وسنَّة التدرج وما يعبر عنه الغربيون بمقولة (الفعل ورد الفعل)[4]، فقد نفحوا الروح المغرضة في القوميَّة الطورانية

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلاميَّة والفكرة الغربية: ص ١٨٥، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٨٥.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٨٥.

(٤) يقوم بعض المناهج في تفسير التاريخ ونشوء الحضارات وسقوطها على هذه الجدليَّة بين الفعل ورد الفعل باعتبار أنَّ لكل فعل رد فعل يتكافؤ معه في القوة ويعاكسه في الاتجاه، أمَّا المنهج الإسلامي وبخاصة في مجال الأخلاق فإنَّه لايتأتى لهذه الجدليَّة وإنَّما يدفع بالتي هي أحسن ويقابل السيئة بالحسنة والإساءة بالعفو والإحسان... ولهذا دلائل كثيرة من الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: الآية(١٢٦)]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [القصص: الآية (٥٤)]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ =

بغية فصل الترك عن الأُمَّة الإسلاميَّة أولاً حتى إذا أثمرت هذه الدعوة في فصل الأتراك عن المسلمين وارتكاز دولتهم على القوميَّة الطورانية.. أعقبها بعد ذلك إلغاء الخلافة وفصل الدولة عن الدين وكان من آثار ذلك أن نشطت الدعوة إلى القوميَّة العربية كرد فعل على عمل الأتراك.

يقول الأُستاذ محمد المبارك عن هذه الفكرة: (ولقد أخذت الفكرة القوميَّة أشكالاً وصيغًا مختلفة: فكانت شعورًا طبيعيًّا في بداية الأمر لايتجاوز شعور الإنسان بانتمائه إلى أسرة معينة أو قبيلة أو نسب، وهي في هذه الحدود أمر طبيعي لايتعارض لا مع الشعور الإنساني، ولا مع الأخلاق، ولا مع العقيدة الدينية، ثُمَّ اشتد هذا الشعور في نطاق ظروف معينة بدأت من رد فعل عند العرب... تجاه العصبية التركية التي غذاها ملاحدة الأتراك من جماعة (تركيا الفتاة) و (الاتحاد والترقي)، واستمرت واشتدت في عهد الاستعمار الفرنسي والإنكليزي في بعض البلاد العربية، واتخذ هذا الشعور حينئذٍ شكل مذهب أو خِطة سياسية هدفها توحيد البلاد وتحريرها، وكانت هذه الصيغة في الحقيقة تمهيدًا لمرحلة ثالثة خطيرة وهي اتخاذ القومية عند أبناء الشعوب الإسلاميَّة، من عرب وأتراك وأكراد وغيرهم، مبدأ بل فلسفة بل عقيدة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة)[(١)].

=أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: الآية (١٨٦)].

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر: ص ١١٥، (مرجع سابق)، وانظر: محمد محمود الصواف: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: ص ٤٨، (مرجع سابق)، وفي صفحة ١٨٦ من المرجع نفسه نقل الصواف قولاً لمحمد إقبال عن مجلة رابطة العالم الإسلامي في عددها الصادر في شوال ١٣٨٤ هـ - فبراير ١٩٦٥ م، ذكر فيه أنَّه اطلع على مؤلفات لكتاب=

وفي نهاية حديثة عن تيار الفكرة القوميَّة أكد بأنَّ مهمتها: (ليس إقصاء الإسلام بل تفريغ القضية السياسية والاجتماعية بوجه عام من المحتوى الإسلامي وإحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته واستبدال رابطة أخرى برابطته لعزل الشعوب الإسلاميَّة بعضها عن بعض عزلاً نهائيًا بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلتها بأيِّ شعب من الشعوب الأُخرى التي تدين بالوثنيَّة أو الماركسية أو غيرها والتي لم تكن تربطها بها أي رابطة، وبذلك تنسف الجسور التي تصل بين الشعوب الإسلاميَّة، ويُلْغَى ذلك التيار الطويل، وتمحى روابط الثقافة المشتركة ولغة الدين المشترك والقيم الخلقيَّة المشتركة، وتلغى بذلك الأُخُوَّة الإسلاميَّة)[1].

وإذا تأمل الباحث فيما أنجزه المستشرقون من دراسات في التاريخ والحضارة والدراسات الإسلاميَّة وحاضر العالم الإسلامي فإنَّه يقف على حقيقة أن هذه الدراسات تهدف - بشكل مباشر وغير مباشر - إلى (إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم، وكذلك يفعلون في البلاد الإسلاميَّة، ويجهدون لمنع اجتماع شملها ووحدة كلمتها بكل ما في أذهانهم من قدرة على تحريف الحقائق، وتصيد الحوادث الفرديَّة في التاريخ، ليصنعوا منها

=أوروبيين تدعو للقوميَّة في الشعوب الإسلاميَّة من أجل تحطيم الوحدة الدينية القائمة بين المسلمين. (مرجع سابق). وانظر: شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي ٣٤٢/١، (مرجع سابق).

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر: ص ١١٦، (مرجع سابق)، وانظر: عمر فروخ وآخر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية: ص ١٧٦، ١٧٧، (مرجع سابق).

تاريخيًّا جديدًا يدعو إلى ما يريدون من منع الوحدة بين البلاد العربية والإسلامية والتفاهم على الحق والخير بين جماهيرها المؤمنة)[1].

يقول (لورنس العرب): (وأخذت أفكر طول الطريق في سوريا... وفي الحج، وأتساءل: هل تتغلب القوميَّة ذات يوم على النزعة الدينيَّة، وهل يغلب الاعتقاد الوطني المعتقدات الدينية وبمعنى أوضح هل تحل المثل العليا السياسيَّة مكان الوحي والإلهام)[2].

وعلى هذا فإنَّ الاستشراق نظرَ للقوميات وأسهمت الدراسات الاستشراقية في إضعاف الأُخُوَّة الإسلاميَّة وتمزيق الوحدة الإسلاميَّة من خلال ذلك، وقد ذكر الأستاذ محمد المبارك بأن (الدول الأوروبية ولاسيما فرنسا وإنجلترا، وهما أقوى دول أوروبا يومئذٍ من جهة والمكونتان لامبراطورية استعمارية ينضوي تحت حكمها شعوب إسلامية كثيرة، وجدت في هذا الجو بالذات مجالا لإضعاف الرابطة الإسلاميَّة بين هذه الشعوب بل لتهديمها وازالتها نهائيًّا عن طريق إثارة العصبيات القوميَّة واتخاذ القوميَّة أساسًا لإقامة المجتمع. فإنَّ هذا التفريق وإزالة صعيد الالتقاء المشترك بين الشعوب الإسلاميَّة من مصلحتها، وقد ثبت أن فرنسا وإنجلترا دفعتا أمريكا في ذلك في أواخر العهد العثماني، وليرجع من يريد الأدلة المؤيدة لذلك إلى كتاب جورج أنطونيوس (يقظة

---

(١) عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٢٠٥، (مرجع سابق).

(٢) الثورة العربيَّة: ص ١٢، تعريب: شعبان بركات، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، وانظر: سعد الدين السيد صالح: احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام: ص ١٤٥، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، عن دار الأرقم - مصر. وانظر: توفيق يوسف الواعي: الإسلام في العقل العالمي: ص ٢٥٥، ٢٥٦، الطبعة الأولى،١٤١٠هـ-١٩٩٠م، عن دار الوفاء..، المنصورة، مصر.

العرب) وإلى كتاب (تركيا الفتاة) من تأليف رامزر Ramsaur)[1].

ومِمَّا يستنتجه الباحث من هذا الواقع أن موقف المستشرقين من أُخُوَّة الإسلام ووحدة الأُمَّة الإسلاميَّة انطلق من إدراكهم الشديد لتميز الأُمَّة الإسلاميَّة في ترسيخ مبدأ الأُخُوَّة الإسلاميَّة، وأنَّه ألف بين الشعوب الإسلاميَّة وربط بعضها ببعضها الآخر في دائرة أوسع من دائرة القوميات والأعراق والأجناس وأن دائرة الأُخُوَّة تتسع لتشمل جميع البشر، وهذا السبق نحو العالميَّة لم يتحقق بالصفة العمليَّة المتكاملة إلا في تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة وبهدي الإسلام وتعاليمه، وأنَّ أُخُوَّة الإسلام ووحدة أمته من أهم مقومات تميز الأُمَّة الإسلاميَّة على سائر الأمم، لذلك جدَّ المستشرقون - المعادون للإسلام - في نقل حمى القوميات التي شقي بها الغرب وانقسم من أجلها على نفسه وتطاحنت شعوبه وأممه تحت وطأة النزعات القوميَّة وما انبنى حولها من أفكار وفلسفات

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر: ص ١١٤، (مرجع سابق).، ولمزيد الاطلاع على نشوء القوميَّة العربية وصلتها بالغرب من حيث الفكرة أولاً، ثُمَّ من حيث الرعاية والدعم، وأنَّ الذين دعوا إليها ونظروا لها كانوا من العرب المسيحيين الذين أسسوا جمعيات تدعو إلى القوميَّة العربية تحت ظل البعثات الغربية والأمريكية بخاصة...، وما نجم عنها من تفتيت للوحدة الإسلاميَّة، وما أسفرت عنه من طعنات غادرة وقاتلة لحركة القوميَّة العربية وأحلام العرب في الوحدة والاستقلال والحرية، مثل اتفاقية (سايكس بيكو) التي أبرمتها بريطانيا سرًّا مع فرنسا لاقتسام أجزاء من الوطن العربي، انظر في ذلك: عبدالله محمد سندي: القوميَّة (دراسات في المفاهيم السياسية المعاصرة)، مجلة الدراسات (الدبلوماسية)، العدد الأول، رجب ١٤٠٤ هـ - إبريل ١٩٨٤ م: ص ٨١ - ٩٩، دوريَّة علميَّة متخصصة في الدراسات الدبلوماسيَّة والدوليَّة، عن معهد الدراسات الدبلوماسية، المملكة العربية السعودية - الرياض.

لخصها أحد الباحثين في النقاط الآتية[1]:

١ - عاطفة الفخر القومي.

٢ - عاطفة الغيرة القوميَّة.

٣ - عاطفة الاستعلاء والتوسع.

٤ - عاطفة الحفاظ على المصالح القوميَّة الواقعية والافتراضية.

وذكر أنَّ هذا المبدأ أو الفلسفة القوميَّة (تخلق داخل كلّ أُمَّة متطورة قوية ادعاء أنها أقوى وأسمى من جميع الأمم... وترى من واجبها نشر ثقافتها وحضارتها بين الأمم المختلفة، وترى أنَّ من حقها الطبيعي أن تستفيد من الثروة الطبيعية للدول الأخرى)[2].

وبعد ذلك يرصد الباحث ما نجم عن هذه النظرة الاستعلائية من تمزق وعداء بين أمم الغرب وشعوبه.. فيقول: (هذه هي القوميَّة الأوروبية التي انتشى البعض بها فصاح «ألمانيا فوق الجميع» ، وصاح البعض الآخر «أمريكا بلد الله» وأعلن البعض الآخر «إيطاليا هي الدين» ، ووجه البعض رسالة إلى الدنيا قائلاً: «الحكم حق لبريطانيا»، ويؤمن كل وطني بهذه العقيدة الدينيَّة وهي: «أن بلدي بلدي سواء كان على حق أو على باطل» ، هذا هو جنون القوميَّة الذي (حَلَّ) بالإنسانية في العالم اليوم، وأعظم خطر يحدق بالحضارة الإنسانية، ويجعل من الإنسان وحشًا ضاريًا أمام الأمم الأُخرى إلاَّ أمته)[3].

---

(١) انظر: أبو الأعلى المودودي: الأُمَّة الإسلاميَّة وقضية القوميَّة: ص ١٥٦، ١٥٧، ترجمة وتعليق: سمير عبدالحميد إبراهيم، عن دار الأنصار - القاهرة، (بدون تاريخ).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٥٧.

(٣) أبو الأعلى المودودي: الأُمَّة الإسلاميَّة، وقضية القوميَّة: ص ١٥٧، (المرجع السابق نفسه).

لقد أدرك بعض المستشرقين أهميَّة نقل فكرة القوميات إلى شعوب العالم الإسلامي لإضعاف التآخي بينهم وللقضاء على وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة واستشرف ما تؤول إليه هذه الفكرة على الرغم من كونها قد تسبب في بداية الأمر عداءً للغرب، غير أنها كفيلة بهدم وحدة الأُمَّة أولاً ثُمَّ يُمكن الغرب بعدها أن يتمكن من احتوائها.

وهذا ما أفصح عنه (جيب) حينما تحدث عن المبدأ القومي وأهميَّة تنميته في شعوب العالم الإسلامي في كل من تركيا ومصر والعراق وإيران واندونيسيا، وما يُمكن أن يترتب عليه عاجلاً وآجلاً فقال: (وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوروبا، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دورًا في تقوية الوطنية الشعوبيَّة وتدعيم مقوماتها)[1]، وعندئذٍ يسهل التعامل مع كل وطن بمفرده ويُمكن فرض التبعيَّة عليه بعد أن فقد القوة الكامنة في وحدة الأُمَّة ومواجهة الأخطار المحدقة بها، بل تجاوزوا ذلك إلى تجزئة الوطن الواحد وتفتيته من خلال الأحزاب المتعارضة والمناهج المتناقضة.

٣ - إظهار الفرق المنشقة في تاريخ الإسلام، وذلك بدراسة تاريخها والتنظير لها، وممن كتب عن الفرق من المستشرقين: (فون كريمر: تاريخ الفرق في الإسلام، وهوتسما: العقيدة الإسلاميَّة والأشعري، وبرنارد لويس: أصول الإسماعيلية والنصيريَّة والإباضية والشيعة، وهابولد: المذاهب الباطنيَّة، كما قام شيرنجر بإعداد فهرست كتب

---

(١) نقلاً عن: أبي الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلاميَّة والفكرة الغربية: ص ١٨٥، (مرجع سابق).

الشيعة للطبع، وهو من تأليف الطوسي)[1].

وتطرق (آدم متز) في كتابه: الحضارة الإسلاميَّة للحديث عن الدين وظهور الفرق الشيعية وفرق الخوارج والطرق الصوفية[2]، وكتب (هنري كوبان): تاريخ الفلسفة الإسلاميَّة[3].

وممَّا يلحظ على تناول المستشرقين لتاريخ الفرق وذكر مذاهبها وتطبيقاتها الآتي:

أ - الخلط بين الإسلام الصحيح الذي أبانه الله في كتابه العزيز وطبقه الرسول ﷺ وعلمه أمته وسار عليه السلف الصالح وبين الواقع التاريخي لتلك الفرق الضَّالة على ما فيه من تعارض وتناقض وانحراف، وهذا ما عبَّر عنه أحد الباحثين بقوله: (ولو استعرضنا.. اعتبار المستشرقين لمصادر الإسلام: لوجدناهم يعتبرون أنَّ الإسلام في دراسته كما يؤخذ من القرآن والسنة، يؤخذ من تفكير المسلمين في مدارسهم المتنوعة ومذاهبهم المختلفة في تاريخ جماعتهم. ومعنى ذلك: أنَّ لهذا التفكير نفس الحجَّة التي للقرآن والسنة الصحيحة.. وهذا التفكير كذلك يصور الإسلام تمامًا، كما يجب أن يصوره القرآن والسنة، فالإسلام والمجتمع الإسلامي سواء، أحدهما يصح أن يكون دليلاً على الآخر، بل يجب أن يكون دليلاً على الآخر)[4].

ولو أنَّ اعتبار المستشرقين لمصادر الإسلام اقتصر على المجتمع الإسلامي الذي طبق الإسلام في ضوء القرآن والسنة والمنهج الإسلامي

---

(١) محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق: ص ٥٥، (مرجع سابق).

(٢) ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، الطبعة الخامسة في جزءين عن دار الكتاب العربي - بيروت (بدون تاريخ).

(٣) ترجمة نصير مروة وآخر...، عن منشورات عويدات - بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م.

(٤) محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار: ص ٢١٤، (مرجع سابق).

الصحيح لهان الأمر، ولكن اعتبار المستشرقين لمصادر الإسلام يتسع ليشمل الفرق الضَّالة من باطنيَّة وغلاة الصوفية والشيعة والخوارج وغيرهم، وفي هذا ما يؤكد أنَّ (المذاهب الإسلاميَّة في العقيدة والفقه - من وجهة نظر هؤلاء المستشرقين - تعبيرات صادقة عن القرآن والسنة الصحيحة: والإسلام هو مجموع هذه المذاهب، بالإضافة للقرآن والسنّة، فلا فرق بين رسالة الله، وصنعة الإنسان في هذه الرسالة، ومنطق اعتبارهم أن «تفكير المسلمين ومذاهبهم» تساوي في الحجيَّة القرآن والسنة الصحيحة؛ يؤدي إلى: أن تفكير الباطنية والصوفيَّة والملاحدة مثلاً... له نفس الحجيَّة التي للقرآن والسنة، ومساوٍ في القيمة لمذاهب أهل السنة ومعتدلي الشيعة... وأنّ أنواع تفسير القرآن الكريم المختلفة من صوفيَّة رمزية، إلى تعليميَّة باطنيَّة، إلى تفسير بالتأويل، إلى تفسير بالرواية، إلى تفسير بالقصص الإسرائيلي، لها نفس الحجيَّة التي للقرآن)[1].

ولاشك أنَّ اعتبار المستشرقين للإسلام على هذا النحو من أكبر ما يهدد وحدة المسلمين لتعدد المناهج في فهم الإسلام وتناقضها وتعارضها ومن المعلوم عقلاً وشرعًا أنَّه إذا وجد الاحتمال سقط الاستدلال[2]، وعندئذٍ تكون الأُمَّة الإسلاميَّة محطّمة من داخلها كما قال (جيب): (إنَّ الإرث الديني الإسلامي ليس مهددًا من الخارج بقدر ما هو مهدد من الداخل)[3].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢١٥.

(٢) انظر: أبو الحسن علاء الدين بن اللحام: القواعد والفوائد الأصولية..: ص ٢٣٥، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م، عن دار الكتب العلميَّة، بيروت.

(٣) الاتجاهات الحديثة في الإسلام: ص ١٦٤، ١٦٥، (مرجع سابق).

ب - إحياء مناهج الفرق الضَّالّة وبعثها من جديد لتؤدي في واقع الأمة المعاصر مثل ما أدت في تاريخها الماضي، وهو ما عبَّرَ عنه أحد المفكرين المسلمين بقوله: (الاهتمام البالغ بمظاهر الانحرافات الدينية والثقافية التي ظهرت عبر التاريخ الإسلامي، والتي أدت في الماضي إلى تمزيق المسلمين فكرًا وواقعًا، وطعنت في وحدتهم العقيديَّة وانسجامهم الفكري، أي: إنَّ المستشرقين في إطار مخططات السياسة الاستعمارية الغربية أرادوا نقل الصراع الفكري الدموي الميت من الماضي إلى الحاضر لإشغال المسلمين عن واقعهم والحيلولة دون الاجتماع على مبادئ الإسلام الفطرية القائمة على الوحي الإلهي)[1].

ويرى هذا المفكر أن تلك الفرق الضَّالّة في تاريخ نشأتها، والتي شكلت تيارات هدَّامة لوحدة الأُمَّة الإسلاميَّة من خوارج وشيعة وخرميَّة وقرامطة وحركة الزنج والباطنية بعامَّة[2] كانوا في الحقيقة: (ملاحدة أو مشركين أو يهودًا متآمرين تقدموا إلى المجتمع الإسلامي من خلال الخرافة والفلسفات الماديَّة أو الغنوصيَّة للسيطرة على عقليَّة العوام، متسترين وراء الشعارات المحببة إلى نفوس المظلومين في تلك الأزمان الذين كانوا مهيئين لاتباع كل من كان يدعي خطة لإنقاذهم من أوضاعهم المزرية والانتقام من ظالميهم)[3].

ويمضي في بيان ما آل إليه أمر هذه التيارات من (تسليم الأمة إلى

---

(١) محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث: ص ٣٨، طبعة دار الصحوة..، ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م، القاهرة.

(٢) انظر: محسن عبدالحميد: تجديد الفكر الإسلامي: ص ١٣٦، عن دار الصحوة - القاهرة (بدون تاريخ).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٣٧.

الأعداء عبر تحالفات تاريخية معروفة، بينهم وبين أعداء الإسلام انتهت بتدمير الحضارة الإسلاميَّة في بغداد، والتحالف مع الصليبيين لإقامة مجازرهم التاريخية المعروفة في بلاد الشام)[1].

ج - توسيع الفجوة بين مناهج الفرق واستثمار ذلك بدعوة الدول الاستعماريَّة لمساندة بعض الفرق وإذكاء روح الثورة فيها على غيرها، ومن ثُمَّ حدوث الانقلابات ذات (الأيديولوجية) التي تهدم الأُمَّة من داخلها وتفتت وحدتها، وذلك بتقسيم الأُمَّة إلى أقسام رئيسة ثُمَّ تفتيت تلك الأقسام إلى أجزاء متناثرة متناحرة متهالكة، وإذا كانت مثل هذه الخطط تتم تحت نظر الاستعمار الغربي وسياساته فإنَّ أثر الاستشراق في ذلك ملموس ومؤكد من أكثر من وجه منها:

- كون المستعمرين ورجال السياسة في الغرب (على صلة وثيقة بأساتذة كليات اللغات الشرقية في أوروبا من المستشرقين يرجعون إلى آرائهم قبل أن يتخذوا القرارات المهمَّة في الشؤون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية)[2].

وهذا ما أثبته التاريخ وتحدث عنه بعض المستشرقين قائلاً: (إن مستر (إيدن) كان قبل أن يضع قرارًا سياسيًا في شؤون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين ويستمع لآرائهم، ثُمَّ يقرر ما يقرر في ضوء ما يسمع منهم)[3].

- ما يصرح به بعض المستشرقين من اعتبار إسلام الكتاب والسنة

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٣٨.

(٢) توفيق يوسف الواعي: الإسلام في العقل العالمي: ص ٢٤٢، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٢٤٢.

(إسلامًا ميتًا، أمَّا الإسلام الحي الذي يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراويش في مختلف الأقطار الإسلاميَّة)[1]، وإذا كان الاستشراق يهتم بهذا الواقع المتردي للعالم الإسلامي كي يرسم صورة مشوهة عن المجتمع الإسلامي فإنَّه من ناحية أخرى (يعمل على تعميق الخلاف بين السنة والشيعة، والمستشرقون يعدون المنشقين عن الإسلام على الدوام أصحاب فكر ثوري تحرري عقلي)[2]، ويدعون إلى استخدام تلك الفرق المنشقة والطرق الصوفية لإضعاف وحدة الأمة الإسلاميَّة وتأليب بعضها على بعضها الآخر (وهو ما عبَّرَ عنه «البارون كاردي فو» بقوله: «اعتقد أن علينا أن نعمل جاهدين على تمزيق العالم الإسلامي، وتحطيم وحدته الروحيَّة مستخدمين من أجل هذه الغاية الانقسامات السياسية والعرقيَّة... دعونا نمزق الإسلام بل ونستخدم من أجل ذلك الفرق المنشقة، والطرق الصوفيَّة... وذلك كي نضعف الإسلام.. لنجعله إلى الأبد عاجزًا عن صحوة كبرى»)[3].

- ما كتبه المستشرقون في بعض دوائر المعارف عن تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة وهو يبرز تلك الفرق وتناقضاتها والإشادة بها من ناحية والقدح من ناحية أخرى في الأُمَّة الإسلاميَّة الملتزمة بالمنهج الإسلامي الصحيح في تطبيق الإسلام وإخضاع حياتها المعاصرة وفقا للأنموذج الذي عاشه الرسول ﷺ وصحابته الكرام.

---

(١) زقزوق: الاستشراق.. ص ١١٧، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١٧.

(٣) نقلاً عن: مناع القطان: معوقات تطبيق الشريعة الإسلاميَّة: ص ١١٦، (مرجع سابق).

أمَّا الشق الأول من هذه النظرة الاستشراقية فيدل عليها - كمثال - ما ورد في دائرة المعارف البريطانية حينما ذكرت في وصفها للإسلام (بأن التوترات والانقسامات المتمثلة في الخوارج، والمعتزلة، والإسماعيلية وغيرها من الفرق الضالّة هي أشكال الإسلام)[1].

وهذا يعني عدم (التمييز بين ما هو إسلامي، وما هو غير إسلام (وتجاهل) المبادئ الجوهريَّة والركائز الأساسية التي تنهض عليها العقيدة الإسلاميَّة، (والاجتهاد) في أن يصور الإسلام على أنَّه ليس سوى كم من المتناقضات)[2]، على أنَّ هذا الاتجاه لدى بعض المستشرقين يتجاهل موقف المسلمين من هذا الواقع (فالمسلمون يعتبرون سائر الفرق الباطنية فرقاً خارجة عن الإسلام وإن ادعته... وجميع العلماء المسلمين في كافة أنحاء العالم يعتبرون هذه الطوائف جماعات غير إسلامية وألفوا عشرات الكتب في التعريف بحدود الإسلام ومعالمه وبيان موقع هذه الطوائف علمياً في ضوء القرآن والسنة)[3].

ويدل على شقها الآخر الأوصاف التي يصفون بها تطبيق الرسول ﷺ وصحابته الكرام والسلف الصالح، فقد درجوا على وصف هذا التطبيق للإسلام بأنَّه بدائي، ولايُمكن أن يساير الحياة وتطوراتها ونحو ذلك من الأوصاف التي تقدح في التطبيق الصحيح للإسلام، وفي منهج أُمَّة الاستجابة والاتباع ذلك المنهج الإسلامي الأصيل، وللمثال على هذا ما

---

(١) انظر: ملك غلام مرتضى: دائرة المعارف البريطانية بين الجهل والتضليل: ص ٥٢، ترجمة: محمد كمال علي السيد، الناشر: محمد زيد ملك، لاهور - باكستان، (بدون تاريخ).

(٢) المرجع السابق نفسه:ص ٥٢.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٥٢، وانظر: ص ٥٣، (المرجع نفسه).

أوردته (دائرة المعارف الإسلاميَّة) في تعلقيها على آراء (محمد عبده) فيما يتصل بشرحه للإسلام، إذ قالت: (والإسلام البدائي - نقصد الإسلام على عهد الرسول وصحابته - في نظر الشيخ عبده، ليس هو الإسلام التاريخي (الذي صار إليه الأمر في حياة المسلمين)... وإنَّما هو إسلام اصطنع مثاليته، وجعله متفوقاً على المسيحية في أنَّه دين معقول، ومتصل بالحياة اتصالاً كثيفاً)[1].

د - التنظير لأديان جديدة (تقوم على نسخ المبادئ الأساسية في الشريعة الإسلاميَّة التي كانت تشكل عقبة أساسية أمام مطامع المستعمرين والتي تجلت في ظهور البهائية في إيران والقاديانيَّة في الهند)[2].

والبهائية: نسبة لشخص اسمه (المرزا حسين) ويلقب (البهاء) توفي

---

(١) نقلاً عن: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار: ص ١٨١، (المرجع السابق)، وانظر: ص ٥٩، ٦٠، (المرجع نفسه).

(٢) محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين تجاه الإسلام... ص ٣٩، (مرجع سابق). ولمزيد من التعرف على نشأة القاديانية والبهائية؛ انظر:

- محسن عبدالحميد: حقيقة البابيَّة والبهائية، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ-١٩٦٩ م - بيروت.
- محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار: ص ٤٥ - ٥١، (المرجع السابق نفسه).
- أبو الحسن الندوي: القاديانية ثورة على النبوة المحمديَّة، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة.
- عبدالرحمن عميرة: المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها: ص ٢٣١ - ٢٧٠، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩ م، منشورات دار اللواء..، الرياض، بحث خاص بالبابيَّة، ومن ص ٢٧٣ - ٣٠٧ عن القاديانية.

عام ١٨٩٢ م[1]، وتعود إلى البابيَّة نسبة إلى شخص يسمى (ميرزا علي محمد) وقد تتلمذ على (الرشتي) تلميذ (أحمد الإحسائي)[2] الذي قال عنه محسن عبدالحميد: (هنالك رأي يستند على تقارير المستشرقين يقول: إن الإحسائي لم يكن أصله من الأحساء، ولا ثبت ذلك تاريخيًّا، وإنَّما كان قسًّا غربيًا أرسل من إندونيسيا إلى الشرق حسب خطة مرسومة لإفساد العقيدة، وتغيير أحكام الدين)[3].

وعقيدة البابيين والبهائيين أن الباب هو الذي خلق كل شيء بكلمته والمبدأ الذي ظهرت عنه جميع الأشياء[4]، (ويردد «جولدزيهر» ما يقوله البابيون عن الباب «بأنَّه أرفع مراتب الحقيقة الإلهية التي حلت في شخصه حلولاً ماديًّا وجسمانيًّا»)[5].

وقد أعلنت دعوة البابيَّة سنة ١٨٤٤ م، وقبض على الباب ورتبت له حيلة في مجلس حاكم (شيراز) فصرح بمبادئه وهي نسخ نبوة محمد ﷺ والقرآن الكريم، ثُمَّ أعقب ذلك مؤتمر (بدشت) الذي أعلنت فيه (قرة العين) بأن البابيَّة ناسخة للشريعة الإسلاميَّة وكان وراءها البهاء،

---

(١) انظر: محسن عبدالحميد: حقيقة البابية والبهائية: ص ٨١، ١٤٨، ١٤٩، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م، المكتب الإسلامي...، بيروت.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٥٧، ٥٨، ٦١، وانظر بتوسع: دائرة المعارف الإسلاميَّة، مادة (باب): ٥/٥٠١ - ٥١٠، ومادة (بابية): ٥/٥٥٨ - ٥٦٢، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٤٩.

(٤) انظر: محسن عبدالحميد: حقيقة البابية والبهائية: ص ٤٩، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عبدالرحمن عميرة: المذاهب المعاصرة: ص ٢٤٠، (مرجع سابق).

(٥) نقلاً عن عبدالرحمن عميرة: المرجع السابق نفسه: ص ٢٥١، وانظر: دائرة المعارف الإسلاميَّة، مادة (باب): ٥/٥٠١ (المرجع السابق نفسه).

وجاء إعلانها هذا مؤكداً صلة هذه الدعوة بالدعوات الإلحادية السابقة من مزدكية ومانية وقرامطة وباطنية[1].

أمَّا القاديانيَّة: فنسبة إلى (مرزا غلام أحمد القادياني ١٨٣٩ - ١٩٠٨ م) نسبة إلى قاديان بإقليم البنجاب[2]، قالت عنها الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان المعاصرة: (القاديانية حركة نشأت ١٩٠٠ م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فرضية الجهاد بشكل خاص...)[3]، وقد لحظ الباحثون في نشوء الحركة القاديانية أن صاحبها لم يتهور في إعلان مقاصده وأهدافه بحماقة كما فعل الباب وإنَّما تدرج فيها حتى ادعى النبوة.

وقد قرر علماء المسلمين بأنَّ القاديانية أقلية غير مسلمة ولاتعد من الفرق الإسلاميَّة؛ حكى الإجماع ملك مرتضى في كتابه دائرة المعارف البريطانية فقال: (لقد قرر جميع علماء المسلمين في كافة أنحاء العالم بالإجماع إدانة الأحمديَّة القاديانية واعتبارهم أقلية غير مسلمة في الباكستان، وذلك في شهر سبتمبر من عام ١٩٧٥ م)[4].

ولم يكتف المستشرقون المعادون للإسلام بإظهار الفرق المنشقة عن الأُمَّة الإسلاميَّة في تاريخها القديم، وإظهار الإسلام من خلال معتقداتها كقول دائرة المعارف البريطانية: (إنَّ النبي محمداً قد تبعه

---

(١) انظر: عبدالرحمن عميرة: المذاهب المعاصرة: ص ٢٤٠ وما قبلها، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة...: ص ٣٨٩، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٣٨٩.

(٤) دائرة المعارف البريطانية بين الجهل والتضليل: ص ٥٣، (مرجع سابق).

سبعة أئمة يتولون تفسير إرادة الله إلى الناس، وهم بمعنى معين أسمى منزلة من النبي؛ لأنهم يستمدون علمهم مباشرة من الله وليس من ملك التنزيل)[1].

كذلك لم يقتنعوا بما لدى الفرق الضَّالَّة من عقائد فاسدة حول المهدي المنتظر من شأنها هدم الأُمَّة الإسلاميَّة ونسف عقيدتها وهو ما عبَّرَ عنه (جولدزيهر) بقوله: (وهذا التطبيق لفكرة المهدي يهدم إحدى دعائم الإسلام الأساسية وهي أن محمدًا قد ختم إلى الأبد سلسلة الأنبياء، وأنَّه الحامل لآخر رسالة بعث الله بها إلى الجنس البشري، وتحت لواء هذه الجماعة الشيعيَّة وهي الإسماعيلية، روجت الدعاية السريَّة مبادئ هادمة للإسلام ومقوضة لأركانه وصار ادعاء الألوهية أمرًا هينًا)[2].

وإنَّما تطاولوا على وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة بإيجاد فرق جديدة من شأنها التبشير بشريعة تخضع لإملاءات الاستعمار وتحقق له أكثر من هدف، وفي مقدمة ذلك إلغاء فريضة الجهاد التي وجدها المستشرقون عقيدة راسخة ومبدأ مستقرًّا في عقائد جميع تلك الفرق.

وللمثال على هذا الهدف ما ذكره (جولدزيهر) عن القادياني فقال: (وقد أضاف إلى دعواه المزدوجة - بأنه عيسى الموعود، وأنَّه المهدي المنتظر - زعمًا ثالثًا من أجل إخوانه الهنود وهو أنه (الأوتاد) أي أن الألوهية حلت في جسده، وهو لايرمي فحسب إلى تحقيق آمال الإسلام في فوزه الشامل على سائر الأقطار المعمورة في آخر الزمان فحسب، وإنَّما

---

(١) نقلاً عن ملك مرتضى: المرجع السابق نفسه: ص ٥٣.

(٢) نقلاً عن عبدالرحمن عميرة: المذاهب المعاصرة... ص ٢٣٠، (المرجع السابق).

يعبر عن رسالته العالميَّة التي يتوجه بها إلى الإنسانية جمعاء، غير أنَّ مهدية أحمد تخالف نظرية المهدي كما جاءت في الروايات الإسلاميَّة فهي تتسم بالطابع السلمي، أمَّا السنة الإسلاميَّة فتصور المهدي قائداً حربياً يقاتل الكفار بالسيف وتلوث طريقه بقع الدماء، ويطلق عليه الشيعة - مع ما له عندهم من ألقاب - لقب صاحب السيف، غير أن النبي الجديد أمير من أمراء السلام، إذ أنكر الجهاد وأسقطه من الفرائض الإسلاميَّة وحبب أتباعه السلم والتسامح ونهاهم عن التعصب، وجد أن يبعث في نفوسهم ميلاً للعلم والثقافة)[1].

ويقول (جيب): (فالهند هي التي أنتجت طائفة إسلامية بوسعنا أن نقول أنها ناجحة، فقد اتخذت... شكلاً تحررياً سلمياً، تفتح أمام الذين فقدوا إيمانهم بالإسلام طريق العودة، فمؤسسها (ميرزا غلام أحمد)، لم يكتف باعتبار نفسه مهدي المسلمين بل اعتبر نفسه تجسيداً لكريشنا)[2].

لقد أكد العلماء والباحثون ارتباط هاتين الفرقتين بالاستعمار والاستشراق باعتبار الاستشراق هو المنظر لهما إمعانًا في تفريق كلمة المسلمين والقضاء على وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة، وإيجاد طوائف جديدة ترفع لواء التجديد في الإسلام بإلغاء شريعته وصناعة مدعي النبوة بعد محمد ﷺ الذي أخبر عن مجيء كذَّابين يدعون النبوة من بعده[3].

---

(١) نقلاً عن عبدالرحمن عميرة: المذاهب المعاصرة: ص ٣٠٥، (المرجع السابق نفسه).

(٢) الاتجاهات الحديثة في الإسلام: ص ٩٠، ٩١، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالرحمن عميرة: المرجع السابق نفسه: ص ٣٠٦.

(٣) ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لاتقوم الساعة حتى يبعث دجَّالون كذَّابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله» أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ٤/٢٢٤٠، رقم الحديث (٢٩٢٣)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

وكان هذا الواقع من دلائل إعجازه وعلامات نبوته ﷺ، وكان الاستعمار الداعم والراعي لهاتين الفرقتين الضالتين.

وعن ارتباط البهائية بأعداء الإسلام قال أحد الباحثين: (كانت إيطاليا تمد عدّتها لالتهام طرابلس، وتجد في جمع العدد الوفير من الخونة الذين يمهدون لها الطريق، وقد راعها ما قام به عبدالبهاء من أجل إنجلترا والصهيونية، فبادرت إلى شراء عبدالبهاء، وكانت مقدمة الثمن عرض القنصل الإيطالي عليه الفرار إلى طرابلس على سفينة حربيَّة إيطالية أعدت من أجله، ولكنه رفض أن يحطم أغلال الصهيونية وقيودها التي غاصت في عنقه وقدميه. رفض لأنَّه لم يكن حينئذٍ يستطيع أن يفعل ما لايقدر عليه؛ فلقد كان غريقاً في عبوديته لسيد آخر، فكيف يبيع للسيد الجديد ما لايملك)[1].

وأكَّدَ الباحثون على أن هناك صلات وثيقة تربط القاديانيَّة بالمستعمرين من ملحوظتين بارزتين لازمت حركتها الهدَّامة:

إحداهما: تصريحات القادياني بصداقته لهم ووفائه معهم، إذ نقل عنه قوله: (ينبغي لي أن أقول لكم قبل كل شيء: أنني أنتمي إلى تلك الأسرة التي اعترفت الحكومة البريطانية - منذُ مدَّة طويلة - بأنَّها صديقة، ومتمنية للخير والسعادة للحكومة البريطانية من الدرجة الأولى...) إلى أن يقول: (لذلك أعمل بحرارة قلبي في خدمة هذه الحكومة وأعلن عن منافع هذه الحكومة وإحسانها إلى الناس كما عمل

---

(١) عبدالرحمن الوكيل: البهائية تاريخها وعقيدتها: ص ١٦٤، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦ م، مطبعة المدني، القاهرة، وانظر: عبدالرحمن عميرة: المذاهب المعاصرة: ص ٢٦١ (مرجع سابق).

من قبل أبي وأخي، وأفرض عليهم الخضوع لهذه الحكومة وطاعتها طاعة كاملة)[١].

ونقل عنه قوله - أيضًا -: (لقد خطوت أكبر مرحلة من حياتي في نصرة الدولة البريطانية والدفاع عنها وألفت كتبًا كثيرة أحرم فيها الجهاد ضدها، ووجوب الطاعة والخضوع لها، ولو جمع كل ما كتبته في هذا الصدد لبلغ خمسين كتابًا، ووزعت هذه الكتب كلها في جميع أقطار العالم)[٢].

والملحوظة الأخرى ما صرَّح به (تكلسون) عن القاديانيَّة، وأنَّها وفيةٌ للإنجليز، إذ قال: (إنَّ في قاديان تسكن هذه الأسرة التي وجدنا فيها دون جميع الأسر الوفاء للإنجليز)[٣].

وقد ذكر أبو الحسن الندوي بأنَّه: (تحقق علميًّا وتاريخيًّا أن القاديانية وليدة السياسة الإنجليزية)[٤] وأنَّ القادياني قام بدوره (وبما كلف به خير قيام، وحماه الإنجليز ومكنوه من نشر دعوته، وحفظ القادياني هذه اليد وعرف الفضل للإنجليز في ظهوره)[٥].

وبهذا يتضح أن الاستشراق ضليع في إبراز هاتين الفرقتين لتكونا

---

(١) نقلاً عن: عبدالرحمن عميرة: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨٠.

(٢) نقلاً عن: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨٢.

(٣) نقلاً عن: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨٠.

(٤) القاديانية ثورة على النبوة المحمديَّة والإسلام: ص ٤، (مرجع سابق)، وانظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٤٨، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالرحمن عميرة: المذاهب المعاصرة: ص ٢٨٣، (المرجع السابق نفسه).

(٥) أبو الحسن الندوي: المرجع السابق نفسه: ص ٥، وانظر: محمد البهي: المرجع السابق نفسه: ص ٤٨، وانظر: عبدالرحمن عميرة: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨٤.

معولي هدم في وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة، وعلى الرغم من إجماع المسلمين على تكفيرهما وعدم اعتبارهما من الفرق الإسلاميَّة فإنَّ الأعمال الاستشراقية تؤكد على أنهما من الفرق الإسلاميَّة ويشيد المستشرقون - كما سبق - بمنهجهما في التجديد والإصلاح المزعوم[1].

* * *

---

(١) انظر: ملك مرتضى: دائرة المعارف البريطانية بين الجهل والتضليل: ص ٥٣، (مرجع سابق)، وذكر إحسان إلهي ظهير: القاديانية (دراسات وتحليل) ص ٢٢، الطبعة السادسة عشرة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م، عن إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، بأنه أُلحِقَ بقاموس المنجد؛ ضميمة تعرف (القاديانية) بأنَّها فرقة من فرق المسلمين سوى أنها تعتقد بعدم فرضية الجهاد على المسلمين.

الفصل الثاني
خصائص تميز الأمة الإسلاميَّة
وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مباحث:

المبحث الأول: الربانية وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثاني: العالمية وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثالث: الوسطية وموقف المستشرقين منها.

المبحث الرابع: الإيجابية الخيرة وموقف المستشرقين منها.

المبحث الأول

الربانية وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: الربَّانيَّة.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منها.

المطلب الأول

خصيصة الربانيـــَّة

الربانيَّة خصيصة من خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، إذ هو تميُّزٌ يستند إلى دين الله الموحى به إلى الرسول الخاتم محمد ﷺ وهو دين الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]، والإســلام صبغة الله ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[2].

قال القرطبي: (صبغة الله أحسن صبغة، وهي الإسلام، فسمِّي الدين صبغة استعارة ومجازًا من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب)[3].

وقال أيضًا: (وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعموديَّة (التعميد)[4]، ويقولون هذا تطهير... فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانيًّا حقًّا، فردَّ الله تعالى ذلك عليهم بأن قال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي صبغة الله أحسن صبغة وهي الإسلام...)[5].

يتضح من هذا أنَّ خصيصة الربانيَّة من أهم خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، حيث إنَّ الأُمَّة إذا أضيف إليها الإسلام أو وصفت به فإنَّها

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٣٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/٩٨، (مرجع سابق).

(٤) من الشعائر النصرانيَّة. انظر: مادة (عمد) في معجم المنجد.

(٥) القرطبي: المرجع السابق نفسه ٢/٩٨.

تصطبغ به حتى يصبح الإسلام صبغتها الذي تظهر به وتتطهر بطهوره، ويظهر سمته عليها، وتحقق بذلك ذاتيةً متميِّزَة وبذا فإنَّ من أهم خصائص تميُّزها خصيصة الربانية.

ويتناول البحث في هذا ماياتي:

١- مفهوم الربانيَّة.

٢- القرآن الكريم المصدر الأساس لربانية تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة.

٣- السنة الشريفة ومنزلتها من القرآن الكريم.

(١) - مفهوم الربانية:

أ - معنى الربانية لغة:

الربانية في اللغة: مأخوذة من مادة (ربَّ)؛ قال ابن فارس: (الراء والباء يدل على أصول؛ فالأول: إصلاح الشيء والقيام عليه... والأصل الآخر: لزوم الشيء والإقامة عليه.... والأصل الثالث: ضم الشيء إلى الشيء...)[١].

وقال الفيروزآبادي: (الرَّبَّاني: المتألة العارف بالله عزوجل... وفعلان يبنى من فَعِلَ كثيرًا، كعطشان، وسكران، ومن فَعَل قليلاً كنعسان، أو المنسوب إلى الربّ؛ أي: الله تعالى، فالرباني كقولهم: إلهي، ونونه كلحياني، أو هو لفظة سريانية.... وربَّ: جَمَعَ، وزاد، ولَزِمَ، وأقام)[٢].

وقال الراغب الأصفهاني: (الرَّبُّ في الأصل: التربية؛ وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التَّمَام، يقال: ربَّه، وربَّاه، وربَّبَه... ولايقال: الرَّبُّ مطلقاً إلاّ لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، نحو قوله:

---

(١) معجم مقاييس اللغة: مادة (ربَّ)، (مرجع سابق).

(٢) القاموس المحيط: مادة (ربب)، (مرجع سابق).

﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[1]، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾[2] أي: آلهة وتزعمون أنَّهم الباري مسبب الأسباب، والمتولي لمصالح العباد، وبالإضافة يقال له ولغيره، نحو قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[3]، و ﴿ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾[4]، ويقال: ربُّ الدَّار، وربُّ الفرس: لصاحبهما، وعلى ذلك قول الله تعالى: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾[5]،[6].

وقال ابن الأثير: (الرَّبُّ يطلق في اللغة على المالك، والسيد والمدبِّر والمربِّي والقيِّم والمنعم، ولايطلق غير مضاف إلاَّ على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف فيقال: ربُّ كذا... وفي حديث علي: «الناس

---

(١) سورة سبأ: الآية (١٥).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٨٠).

(٣) سورة الفاتحة: الآية ١().

(٤) سورة الصافات: الآية (١٢٦).

(٥) سورة يوسف: الآية (٤٢).

(٦) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (ربٌّ)، (مرجع سابق). وانظر:

- الحسين بن علي الدامغاني: قاموس القرآن (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) مادة (ربب)، (مرجع سابق).
- أثير الدين أبو حيان الأندلسي: تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: مادة (ربب)، (مرجع سابق).
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مادة (الرَّبّ)، (مرجع سابق).
- أبو البقاء الكفوي: الكليات... مادة (الرب) ومادة (الرباني، الربانيون)، (مرجع سابق).

ثلاثة: عالم ربَّاني... »[1]، هو المنسوب إلى الرَّبّ بزيادة الألف والنون للمبالغة، وقيل: هو الربّ بمعنى التربية، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها، والربّاني العالم الراسخ في العلم والدين، أو الذي يطلب بعلمه وجه الله، وقيل: العالم العامل المعلم)[2].

ومِمَّا يستخلص من هذه النصوص التي وردت في معنى (ربٍّ) و (الرَّبّ)، في معاجم اللغة ومعاجم القرآن الكريم والسنّة النبويَّة: أنّ الرَّبّ يطلق على معانٍ عِدَّة منها: (المربِّي، والجامع، والمالك السيد المتصرف الحاكم، والكفيل المصلح المدبر)[3].

وكل هذه المعاني متحققة في الربانية بصفتها خصيصة من خصائص الأُمَّة الإسلاميَّة، فالرَّبُّ جَلَّ وَعَلاَ هو مربي هذه الأُمَّة المختارة، وهو المالك لها والسيد المتصرف في شؤونها وهو الحاكم الكفيل المدبر المصلح لشأنها كله، وهي تستمد هذه المعاني كلها من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، وتميُّزها تميُّز متصل بالوحي (القرآن والسنَّة) في المقام الأول.

ب - معنى الربَّانيَّة اصطلاحًا:

الرَّبَّانيَّة نسبة إلى الرَّبِّ، وزيادة الألف والنون للمبالغة كما أشار إلى ذلك ابن الأثير - في النص آنف الذكر -، وللعلماء في ذلك أقوال كثيرة ولكنها تنصب على مَنْ وُصِفَ (بالرَّبَّاني)[4]. أمَّا الرَّبَّانيَّة في هذا المطلب

---

(١) ذكره ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/١٨١، ولم أجده عند غيره فيما بحثت من المسانيد والمصنفات.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: مادة (ربب)، (مرجع سابق).

(٣) لمزيد الاطلاع على مادة (ربّ، ربب، رباني) انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة (ربب)، (مرجع سابق).

(٤) انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط: مادة (ربب)، (مرجع سابق).

فالمقصود بها: أنَّ تَميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة ذو صبغة إلهية ربَّانيَّة فهو تميُّزٌ ينبثق من الوحي (الكتاب والسنة) وعلى ذلك فالربَّانيَّة إحدى الخصائص التي يتصف بها تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، من حيث المصدر، ومن حيث الهدف والغاية.

ويقتصر الحديث هنا عن القرآن الكريم والسنَّة النبوية المطهرة، باعتبارهما صَدَرَا عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1]، ومنهما انبثق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة فأصبحت الرَّبَّانيَّة خصيصة لازمة من خصائص هذا التميُّز من حيث المصدر، أمَّا من حيث الهدف والغاية فالحديث عن هذا الجانب متداخل ومماثل للحديث عن العبوديَّة بوصفها من أهداف تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وهي الغاية من خلق الثقلين الجن والإنس، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2]، لذلك فإنَّ الحديث عن هذا الجانب سيكون في مطلب العبوديَّة لالتصاقه بها، ولما اقتضاه سياق البحث.

٢ - القرآن الكريم المصدر الأساس لربَّانيَّة تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة:

ومظاهر العناية الربانية لحفظه في الأُمَّة، ويجلِّي ذلك ماياتي:

أ - تعريف القرآن الكريم وأشهر أسمائه:

ذكر علماء اللغة معاني كثيرة لأصل لفظ القرآن، منها (القرء): ومعناه الجمع، جاء في لسان العرب: (والأصل في هذه اللفظة الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وسمَّى القرآن؛ لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر

---

(١) سورة النجم: الآية (٤).

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

كالغفران والكفران)[1].

وقال الراغب: (والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، (وليس يقال ذلك لكل جمع)[2]. لايقال: قرأت القوم: إذا جمعتهم، ويدل على ذلك أنّه لايقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءة، والقرآن في الأصل مصدر (مرادف للقراءة)[3]، نحو كفران ورجحان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[4]... وقد خصَّ بالكتاب المنزل على محمد ﷺ، فصار له كالعلم كما أن التوراة لما أنزل على موسى، والإنجيل على عيسى ﷺ، قال بعض العلماء: (تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله لكونه جامعًا لثمرة كتبه) بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[5]، وقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[6]،[7].

---

(١) مادة (قرأ).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (قرأ)، (مرجع سابق). وعزا المحقق ما بين القوسين المركنين للزركشي: البرهان في علوم القرآن ٢٧٧/١، عن دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م، وبالرجوع إليه لم أجد لفظ ليس في قوله: [وليس يقال ذلك في كل جمع] بل قال: (ولايقال ذلك في كل جمع) ثُمَّ استدرك عليه الزركشي بقوله: (ولعل مراده بذلك في العرف والاستعمال لا أصل اللغة). المرجع نفسه: ٢٧٧/١. وانظر: مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦٦٨ (الحاشية)، (المرجع السابق نفسه).

(٣) الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ١٤٠/١، الطبعة الثالثة، عن مطبعة الحلبي وشركاه (بدون تاريخ).

(٤) سورة القيامة: الآيتان (١٧، ١٨).

(٥) سورة يوسف: الآية (١١١).

(٦) سورة النحل: الآية (٨٩).

(٧) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (قرأ)، (مرجع سابق).

وقال الزرقاني بعد أن أورد بعض آراء علماء اللغة في لفظ القرآن واختار منها أنَّه (مصدر مرادف للقراءة... ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسمًا للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ، من باب إطلاق المصدر على مفعوله)[١].

قال بعد ذلك: (وعلى الرأي المختار فلفظ قرآن مهموز، وإذا حذف همزه، فإنَّما ذلك للتخفيف، وإذا دخلته (أل) بعد التسمية فإنَّما هي للمح الأصل لا للتعريف)، ثُمَّ تطرق بعد هذا إلى أشهر أسماء القرآن الكريم فقال: (ويقال للقرآن: فرقان أيضًا، وأصله مصدر كذلك، ثُمَّ سمي به النظم الكريم. تسمية للمفعول أو الفاعل بالمصدر، باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل، أو مفروق بعضه عن بعض في النزول، أو في السور والآيات. قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٢] ثم إن هذين الاسمين هما أشهر أسماء النظم الكريم، بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسمائه، كما ترجع صفات الله على كثرتها إلى معنى الجلال والجمال، ويلي هذين الاسمين في الشهرة: هذه الأسماء الثلاثة: الكتاب، والذكر، والتنزيل)[٣].

واعترض الزرقاني أيضًا على التزيد في تعداد أسماء القرآن الكريم، وذكر أن بعض العلماء أوصلها إلى خمسة وخمسين اسمًا، وبعضهم أوصلها إلى نيف وتسعين اسمًا، وذكر أن سبب ذلك هو عدم تفريقهم

---

(١) مناهل العرفان.. ١/١٤، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة الفرقان: الآية ١().

(٣) مناهل العرفان.. ١/١٤، ١٥، (المرجع السابق نفسه).

(بين ماجاء من تلك الألفاظ على أنه اسم، وما ورد على أنه وصف)[1]، ومثَّل لذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾[3]، فإنَّ من العلماء من عدَّ لفظ (كريم) ولفظ (مبارك) اسمين آخرين للقرآن الكريم مع لفظ (قرآن) ولفظ (ذكر)[4]، وعقب الزرقاني على ذلك بقوله: (إنَّ لفظ قرآن وذكر في الآيتين، مقبول كونهما اسمين. أمَّا لفظ كريم ومبارك، فلاشك أنهما وصفان والخطب في ذلك سهل يسير، بيد أنَّه مسهب طويل، حتى لقد أفرده بعضهم بالتأليف)[5].

ومِمَّا أشار إليه بعض الباحثين أن القرآن الكريم عُرف (بصورته الشفويَّة والخطيَّة، وعرفت صورته الشفوية باسم القرآن، أي المرتل، وصورته الخطيَّة باسم الكتاب؛ أي المخطوط)[6]، واستنتج من ذلك: أن في تسمية القرآن الكريم بهذين الاسمين: (إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين، لا في موضع واحد؛ أعني حفظه في الصدور والسطور جميعاً إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه)[7].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ١/١٥.

(٢) سورة الواقعة: الآية (٧٧).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٥٠).

(٤) انظر: الزرقاني: مناهل العرفان: ١/١٥، (المرجع السابق نفسه).

(٥) المرجع السابق نفسه: ١/١٥.

(٦) محمد عبدالله دراز: دراسات إسلامية (في العلاقات الاجتماعية والدوليَّة): ص ٥، ٦، طبعة دار القلم – الكويت ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م.

(٧) محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم: ص ١٢، ١٣، الطبعة الثانية، ١٣٩٠ هـ- ١٩٧٠ م، عن دار القلم، الكويت، وانظر: محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) في بلاد العرب: ص ٣٨، (مرجع سابق).

وأمَّا اسم (مصحف) فهو من الصحيفة وهي: (التي يكتب فيها، وجمعها صحائف وصُحُفٌ. قال تعالى: ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[1]، ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[2] قيل: أريد بها القرآن، وجعله صُحُفًا فيها كتب من أجل تضمُّنه لزيادة ما في كتب الله المتقدمة، والمصحف: ما جُعِلَ جامعًا للصحف المكتوبة وجمعه مصاحف)[3].

وعُرِّف القرآن الكريم بتعريفات كثيرة لدى المتكلمين وعلماء أصول الفقه والفقهاء وعلماء اللغة العربيَّة، منها قولهم بأنه: (اللفظ المنزل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس)[4]، وقولهم: (بأنَّهُ الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته)[5]، ومنها قولهم بأنَّه: (اللفظ المنزل على النبي ﷺ، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته)[6].

وهذه التعريفات ونحوها فيها قدر مشترك بين علماء العلوم المشار إليها آنفًا، وهناك تعريفات أخرى انفرد بها بعض المتكلمين أو وضعتها بعض الطوائف والفرق الضَّالة سأطرِحُها واكتفي بما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من إجماع الأُمَّة: (على أن القرآن كلام الله حقيقة

---

(١) سورة الأعلى: الآية (١٩).

(٢) سورة البينة: الآيتان: (٢، ٣).

(٣) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (صحف)، (مرجع سابق).

(٤) محمد عبدالعظيم الزرقاني: مناهل العرفان.. ١٨/١، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق نفسه: ١٩/١.

(٦) المرجع السابق نفسه: ٢٠/١. وانظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن: ص ٢٠، ٢١، الطبعة الثامنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م مكتبة المعارف - الرياض.

منزل غير مخلوق سمعه جبريل من الله وسمعه محمد من جبريل وسمعه الصحابة من محمد ﷺ، وهو الذي نتلوه بألسنتنا وفيما بين دفتين وما في صدورنا مسموعًا ومكتوبًا ومحفوظًا وكل حرف منه كالباء والتاءُ، كلام الله، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، وبدَّعوا من قال: إنَّه فاض على نفس النبي من العقل الفعَّال، أو غيره كالفلاسفة والصابئية، أو أنَّه مخلوق في جسم من الأجسام، كالمعتزلة، والجهميَّة، أو في جبريل، أو محمد، أو جسم آخر غيرهما، كالكلابية والأشعرية، أو أنَّه حروف وأصوات، قديمة أزليَّة كالكلاميَّة، أو أنه حادث قائم بذات الله، ممتنع في الأزل، كالهاشميَّة والكراميَّة، ومن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فجهمي، أو غير مخلوق فمبتدع)[1].

ب - مصدر القرآن الكريم ونصه:

تبين من تعريفات القرآن الكريم - التي سلف ذكرها - أنَّ القرآن الكريم صادر عن الله - عزوجل - قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ

---

(١) حاشية مقدمة التفسير: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي: ص ١٣ - ١٨، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، (لم يذكر المطبعة ولا الناشر).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١١٤).

(٣) سورة الأحقاف: الآية (٢).

(٤) سورة فصلت: الآية (٢).

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[1]، وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[2].

وعلى هذا فإنَّ القرآن الكريم صدر عن الله وأوحاه إلى رسوله محمد ﷺ ليبشر الناس وينذرهم شأنه في ذلك شأن الرسل من قبله، وقد قصَّ الله عليه قصص بعضهم وترك بعضهم الآخر، والقرآن أنزله الله بعلمه على نبيه محمد ﷺ والملائكة يشهدون بذلك وشهادة الله كافية، ومِمَّا امتاز به القرآن الكريم أنَّه إضافة لكونه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فهو مهيمنٌ عليه.

قال بعض المفسرين: (أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملهأن حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة)[3].

---

(١) سورة النساء: الآيات (١٦٣ – ١٦٦).

(٢) سورة المائدة: الآية (٤٨).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/٦٥، (مرجع سابق).

وقد أحيط القرآن الكريم بعناية ربانية خاصة تمثلت في مظاهر عدة منها:

١- حيث أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ عن طريق جبريل، قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[(٢)].

٢- وجعل الله من أجله رصداً يحرسون السماء ممن يسترق السمع من الشياطين، وعن ذلك رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحي فيخبرون به الكهنة فلمَّا بعث الله محمداً ﷺ دحروا...)[(٣)]، ورُوِيَ عنه أيضًا أنَّه قال: (لم تكن سماء الدنيا تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وكانوا يقعدون منها مقاعد للسمع فلمَّا بعث الله محمداً ﷺ حرست السماء حرسًا شديدًا ورجمت الشياطين)[(٤)].

ويؤيد هذه المرويات وأمثالها ما ورد في القرآن الكريم بشأن حراسة الوحي قبل وصوله إلى الرسول ﷺ وبعد ذلك وحفظ الرسول ﷺ حتى يبلغ رسالة ربه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) سورة النحل: الآية (١٠٢).

(٢) سورة الشعراء: الآيات (١٩٣ - ١٩٥).

(٣) أخرجه ابن سعد والبيهقي وأبو نعيم؛ انظر: السيوطي: الخصائص الكبرى ١/١١٠، (مرجع سابق). وانظر: أبو نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة ١/٢٢٥ - ٢٢٨، (مرجع سابق)، أورد خمسة أحاديث تنص على قصة حراسة السماء وارتباط ذلك بالقرآن الكريم ومبعث الرسول ﷺ.

(٤) أخرجه البيهقي. دلائل النبوة: ص ١١١، (مرجع سابق).

(٥) سورة الحجر: الآية (٩).

قال بعض المفسرين في تفسيرها: (أي في حالة إنزاله وبعد إنزاله. ففي حال إنزاله حافظون له، من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها، والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل)[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾[2]، قال السعدي: (أي أتيناها واختبرناها ﴿ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ عن الوصول إلى أرجائها، والدنو منها ﴿ وَشُهُبًا ﴾ يرمي بها من استرق السمع، وهذا مخالف لعادتنا الأولى فإنَّا كنَّا نتمكن من خبر السماء ماشاء الله، ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي مرصدًا له، معدًّا لإتلافه وإحراقه)[3].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾[4] قال رحمه الله: (أي فإنَّه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيَّدَهُم بتأييد ما أيده أحدًا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته من غير أن تقربه الشياطين فيزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال:﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن.. ٤/١٥٨، (مرجع سابق).

(٢) سورة الجن: الآيتان (٨، ٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن.. ٧/٤٩١، (مرجع سابق).

(٤) سورة الجن: الآيتان (٢٧، ٢٨).

خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ أي: يحفظونه بأمر الله ﴿ لِّيَعْلَمَ ﴾ بذلك ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ بما جعله لهم من الأسباب، ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي بما عندهم، وما أسروه وما أعلنوه)[1].

٣- ومن مظاهر عناية الله بالقرآن الكريم وحفظه ما تَمَّ على يد الرسول ﷺ وأمته من حفظ القرآن في صدورهم وكتابته في الصحف، وقد بلغ الرسول ﷺ وأمته في ذلك أرقى مناهج التوثيق، ذلك أن القرآن الكريم (نزل على رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - منجماً في ثلاث وعشرين سنة[2]، حسب الحوادث ومقتضى الحال، وكانت السور تدون ساعة نزولها، إذ كان المصطفى ﷺ إذا ما نزلت عليه آية أو آيات قال: «ضعوها في مكان كذا... سورة كذا»[3]، فقد ورد أن جبريل - عليه السلام-

---

(١) تيسير الكريم الرحمن.. ٤٩٦/٧، (مرجع سابق).

(٢) انظر: الزرقاني: مناهل العرفان.. ص ٥١، (مرجع سابق). وانظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن: ص ١٠٥، (مرجع سابق). وانظر: إبراهيم الأبياري: تأريخ القرآن: ص ٩٦، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢، عن دار الكتب الإسلاميَّة - القاهرة.

وأخرج البخاري في صحيحه ١٩٠٥/٤ الحديث رقم [٤٦٩٤]، ترتيب: مصطفى ديب البُغا، عن أبي سلمة قال: «أخبرتني عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشر سنين». وللعلماء في مدَّة نزول القرآن عدّة آراء يُمكن التوفيق بينها على نحو أو آخر فمن انقص المدّة عن ثلاث وعشرين سنة كان سبب ذلك عدم احتساب المدّة التي كان ينقطع فيها الوحي عن الرسول ﷺ. انظر: الأبياري: المرجع السابق: ص ٩٦.

(٣) انظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ٦٠/١، ٦١، عن المكتبة الثقافية - بيروت (بدون تاريخ). وانظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ٢٤١/١، (مرجع سابق)، وأصل الحديث مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال لعثمان رضي الله عنه: (ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى البراءة وهي من المئين فقرنتم=

كان ينزل بالآية والآيات على النبي ﷺ، فيقول له: «يا محمد إنَّ الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا»[1]، ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن توقيفي، بمعنى أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف، إنَّما هو بأمر الله ووحي من الله)[2].

وعلى الرغم من هذا التوفيق وما أحاط بالتنزيل من عناية الله - عزوجل - والتأكيد على أنه تكفل بحفظه، كقدر أراده الله، ومشيئة قضاها، فإنَّ الرسول ﷺ وأمته بذلوا جهدهم في حفظ كتاب الله في الصدور والسطور، وكان ذلك من مظاهر حفظ الله لكتابه، ولمزيد الإيضاح والبيان مع الاختصار والإجمال أورد بعض الجهود التي بذلت في تدوين القرآن الكريم إلى جانب حفظه واستظهاره في صفوف الأُمَّة:

=بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال. ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ كان يأتي عليه الزمان تنزل عليه السور ذوات عدد فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وتنزل عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا» الحديث. أخرجه الحاكم: المستدرك على الصحيحين: ٢/٢٤١، رقم الحديث ٢/٢٨٧٥، (مرجع سابق)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وأخرجه الترمذي: الجامع الصحيح: ٥/٢٥٤، رقم الحديث (٣٠٨٦)، (مرجع سابق)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(١) انظر: السيوطي: المرجع السابق نفسه ١/٦٠، ٦١، وانظر: مناع القطان: المرجع السابق نفسه: ص ١٣٩ - ١٤٥. وانظر: الزركشي: المرجع السابق نفسه: ص ٢٣٤، ٢٣٥، وص ٢٤١.

(٢) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم: ص ١٩، (مرجع سابق)، وانظر: الزركشي المرجع السابق نفسه: ص ٢٣٧.

أ - تخصص بعض الصحابة في كتابة الوحي، وذكر بعض العلماء أن عددهم بلغ تسعة وعشرين كاتبًا؛ منهم الخلفاء الراشدون، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت وغيرهم[1]: كانوا يكتبون ماينزل على الرسول ﷺ من القرآن (ويسجلونه آية بعد آية، حتى إذا ما كمل التنزيل، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان القرآن كله مسجلاً في صحف (وكانوا يضمون ما يكتبونه في بيت النبي ﷺ، ثمّ يكتبون لأنفسهم منه صورًا أخرى يحفظونها لديهم)[2]، وإذا كانت مفرقة لم يكونوا قد جمعوها فيما بين الدفتين، ولم يلزموا القراء توالي سورها)[3].

ب - ثبت أن جبريل عليه السلام كان يعارض الرسول ﷺ بالقرآن مرَّة واحدة في كل سنة، ثم عارضه به في السنة التي توفي فيها ﷺ مرتين[4]، ومعنى هذا أنّ القرآن الكريم كان في صورته التَّامَّة في هذه

---

(١) انظر: محمد عبدالعظيم الزرقاني: مناهل العرفان.. ٢٤٦/١، (مرجع سابق). وانظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن: ص ١٢٣، (مرجع سابق). وانظر: إبراهيم الأبياري: تأريخ القرآن: ص ٩٥، (مرجع سابق). وانظر: الفهرست لابن النديم: ص ٤١، طبعة دار المعرفة، بيروت، (بدون تاريخ)، وانظر: ابن حزم: جوامع السير.. ص ٢٦، ٢٧، (مرجع سابق). وانظر: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد.. ٢٩/١، وقد أفرد أحمد عبدالرحمن عيسى كتابًا بعنوان: كتاب الوحي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠، عن دار اللواء، الرياض، وأفرد محمد مصطفى الأعظمي كتاباً آخر عنوانه: كُتَّاب النبي ﷺ، الطبعة الثالثة، ١٤٠١ هـ -١٩٨١ م، عن المكتب الإسلامي، بيروت، وقد أحصى فيه واحدًا وستين كاتبًا للرسول ﷺ؛ (لمزيد الاطلاع).

(٢) انظر: الزركشي: البرهان.. ٢٣٨/١، (مرجع سابق). وانظر: السيوطي: الإتقان.. ٥٨/١ (مرجع سابق). وانظر: محمد عبدالله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم.. ص ٣٦، طبعة دار القلم - الكويت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

(٣) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم: ص ٢٠، (مرجع سابق).

(٤) روى البخاري في صحيحه ١٩١١/٤ الحديث رقم [٤٧١٠]، ترتيب: مصطفى ديب=

السنة التي تَمَّ عرضه فيها مرتان، ولذلك شواهد كثيرة ذكرها العلماء من أظهرهأن ما أورده البغوي عن أبي عبدالرحمن السلمي أنَّه قال: (كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان، وزيد بن ثابت: والمهاجرين والأنصار واحدة، كانوا يقرأون القراءة العامَّة فيه، وهي القراءة التي قرأها رسول الله ﷺ على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان زيد قد شهد العرضة الأخيرة، وكان يقرئ الناس بها حتَّى مات، ولذلك اعتمده الصديق في جمعه، وولاَّه عثمان كتبة المصحف)[1].

بيد أنَّه وردت أقوال وآراء أخرى حول جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ اهتبلها بعض الباحثين وبخاصة بعض المستشرقين في العصر الحديث ليشككوا في نص القرآن الكريم من ناحيتين:

الأولى: من ناحية تواتره.

الثانية: من ناحية ضبط نصه وإجماع الأُمَّة على ذلك.

فأمَّا من ناحية التواتر فزعموا أن نص القرآن الكريم ليس متواترًا، وأنَّه خضع لفكرة التاريخيَّة[2] واستشهدوا بمثل ما رواه البخاري عن

=البُغا، (مرجع سابق) عن مسروق عن عائشة عن فاطمة عليها السلام: (أسر إليَّ النبي ﷺ: «أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلاَّ حضر أجلي»).

(١) شرح السنَّة؛ تحقيق: علي محمد عوض وعادل أحمد عبدالموجود، ٣/٥٠، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) انظر: آرثرجفري: مقدمتان في علوم القرآن؛ نقلاً عن أحمد خليل: دراسات في القرآن: ص٨٦، طبعة ١٩٦٩ م، عن دار النهضة العربية - بيروت.

وانظر: محمد عبدالله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم... ص ٤٤ - ٥١، (مرجع سابق) تناول فكرة (آرثرجفري) بالرد والتفنيد، وأكد أنَّه حاول في فكرته تلك أن يقيس نص=

أنس أنَّه قال: «مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»[1]، وفي رواية أخرى عن قتادة قال: (سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: عن جمع القرآن على عهد الرسول ﷺ؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد)[2].

وللعلماء في ذلك تخريجات كثيرة، منها: أن المراد بذلك مجرد التمثيل لا الحصر، ويدل على ذلك - كما قال الزرقاني -: (أنَّ أنسًا في هذه الرواية ذكر من الأربعة أبي بن كعب بدلاً من أبي الدرداء في الرواية السابقة، وهو صادق في كلتا الروايتين؛ لأنَّه ليس معقولاً أن يكذب نفسه، فتعين أنَّه يريد من الحصر الذي أورده الحصر الإضافي)[3].

ومنها: أن المقصود بقول أنس رضي الله عنه الكتابة لا الحفظ.

=القرآن الكريم، وعمل الأُمَّة الإسلاميَّة في سبيل المحافظة عليه؛ بما حدث للأناجيل، وأنَّ النص القرآني مرَّ (بأطوار تشبه من جوانب كثيرة ما مرَّ به الإنجيل): ص ٤٥، وأكد (دراز) بأن البحوث المسيحية الحديثة تنفي مزاعم (حفري)، واستشهد بقول (شوالي): (لقد أثبتنا فيما تقدم أن نسختي زيد متطابقتان، وأنَّ مصحف عثمان ما هو إلاَّ نسخة من المصحف الذي كان عند حفصة)؛ المرجع السابقة نفسه: ص ٤٦.

(١) صحيح البخاري ٤/١٩١٣ الحديث رقم [٤٧١٨]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وقد اختلف في أبي زيد، من هو ؟ ولكن الأصح والله أعلم أن اسمه: قيس بن السكن، وهذا ما حققه ابن حجر. انظر: فتح الباري ٩/٥٣، (مرجع سابق)، وانظر: المرجع نفسه: ٧/١٢٧، ٣١٣.

(٢) صحيح البخاري ٤/١٩١٣ الحديث رقم [٤٧١٧]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٣) مناهل العرفان... ١/٢٤٣، (مرجع سابق).

ومنها: أن المراد حفظ القرآن بجميع أوجه القراءات، أو تلقي القرآن مشافهة عن الرسول ﷺ أو الجمع شيئًا فشيئًا حتى تكامل نزوله[1].

والسبب في هذه التخريجات دفع ما قد تحمله تلك الرواية وأمثالها من توهين في نص القرآن الكريم؛ من حيث تواتر جمعه سواء بمعنى حفظه في الصدور، أو كتابته في السطور، بل جاءت بعض ردود العلماء على الطاعنين في تواتر نص القرآن الكريم في المصادر القديمة، فقد نقل ابن حجر ردَّ (المازري) على الملاحدة إذ يقول: (وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة، ولا متمسك لهم فيه فإنا لانسلم حمله على ظاهره: سلمناه، ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك ؟ سلمناه لكن لايلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألاّ يكون حفظ مجموعه الجم الغفير وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى)[2]. ومعنى كلامه: أنَّ نصَّ القرآن الكريم متواتر بالحفظ في مجموع الأُمَّة[3].

وأمَّا من ناحية ضبط النص وإجماع الأُمَّة على ذلك، فقد اتكأ المشككون على بعض الروايات وما كان لدى بعض الصحابة من مصاحف خاصَّة بهم، فمن الروايات ما ورد عن زيد بن ثابت أنَّه قال: (قبض الرسول ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء)[4].

ووجه ذلك: أنَّ القرآن الكريم لم يجمع في مصحف واحد (وإنَّما كان

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ١/٢٤٤.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/٥٢، (مرجع سابق). وانظر: الزرقاني..: مناهل العرفان: ١/٢٤٤، ٢٤٥، (مرجع سابق).

(٣) انظر: ابن حجر: فتح الباري.. ٩/١٢، (المرجع السابق نفسه).

(٤) أورده ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/١٢، (المرجع السابق).

مكتوبًا كلّه عند الصحابة، قد لايكون الأمر كذلك عندهم جميعًا، أو عند واحد منهم بعينه، ولكنه كذلك عند الجميع، ومايتقص الواحد منهم يكمله الآخر، ومن ثَمَّ فقد تضافروا جميعًا على نقله مكتوبًا، وإن تقاصر بعضهم عن كتابته كمل الآخر، وكان الكمال النقلي جماعيًّا وليس آحاديًّا)[1].

أمَّا ما كان لدى الصحابة من صحف كتبوا فيها بعض القرآن أو كلّه فربَّما حدث الاختلاف في ترتيب السور، وكتابتها بتمامها، فيما هو مكتوب لديهم، لاعتبارات متنوعة؛ منها: اعتماد بعضهم في ترتيبه لصحفه أو مصحفه نزول القرآن الكريم على الرسول ﷺ، كما هو الحال فيما يروى عن مصحف الإمام علي رضي الله عنه[2]، أو تقديم سورة على سورة أخرى كتقديم سورة النساء على سورة آل عمران، كما هو الحال في مصحف عبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب[3]، ونحو ذلك.

ومنها: ما يحدث من النسخ لبعض الآيات وتبقى مكتوبة عند بعض الصحابة لعدم علمه بالنسخ مثلاً كما حدث في كتابة آية الرجم، وما ذكر عمرو بن العاص عنها حين كتابة المصحف في عهد أبي بكر؛ من

---

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم..: ص ٢١، (المرجع السابق).

(٢) انظر: السيوطي: الإتقان.. ٦٢/١، (مرجع سابق). وانظر: صحيح البخاري ١٩١٠/٤ الحديث رقم [٤٧٠٧]، تحقيق مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، إذ ورد في الحديث ما يدل على أن لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مصحفًا مرتبًا حسب نزول القرآن الكريم.

(٣) انظر: السيوطي: الإتقان..: ٦٤/١، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤٢٠/١٣، (مرجع سابق). وقد نقل عن الإمام مالك: (أن لكل واحد من أهل الشورى مصحفًا خاصًا به؛ وهم: علي وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن ابن عوف وعثمان)، و لم أجد هذا في الموطأ.

نسخها[1]، ومنها: كون ترتيب القرآن الكريم لم يكن موافقًا لترتيب نزوله وإنَّما كان توقيفيًّا فبقيت الكتابة مفتوحة انتظارًا لما يحدث من زيادة، ومنها: ما يتعلق بالأحرف السبعة والقراءات الأخرى.

وأمر آخر يتعلق بالنسخ (لأن النسخ كان يرد على بعضه ويرفع الشيء بعد الشيء من تلاوته، كما ينسخ بعض أحكامه، فلو جمع ثُمَّ رفعت تلاوة بعضه أدى ذلك إلى الاختلاف، واختلاط أمر الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ، ثُمَّ وفق لجمعه الخلفاء الراشدين)[2].

لهذه الاعتبارات ونحوها كانت كتابة المصحف تتسم بالكثرة، والتنوع، وكانت متناثرة لايربطها نظام في كتاب واحد[3]، وقد عَدَّ بعض العلماء هذه الاعتبارات مجتمعة أو متفرقة أسبابًا لعدم جمع ما كتب من التنزيل في كتاب واحد في عهد الرسول ﷺ، ثُمَّ تَمَّ ذلك في عهد الخلفاء الراشدين، ومن المعلوم أنَّ سنتهم متممة لسنّة المصطفى ﷺ، ومِمَّا ورد في ذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله أن الرسول ﷺ قال:

---

(١) انظر: الحاكم: المستدرك على الصحيحين ٤٠١/٤، (مرجع سابق). فقد أورد حديثًا عن كثير بن الصلت، قال: (كان ابن العاص وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف فمرا على هذه الآية، فقال زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فقال عمرو: لما نزلت أتيت النبي ﷺ فقلت: أكتبها فكأنه كره ذلك. فقال له عمرو: «ألا ترى أن الشيخ إذا زنى وقد أحصن جلد ورجم، وإذا لم يحصن جلد، وأن الثيب إذا زنى وقد أحصن رجم» قال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه (المرجع السابق نفسه: الصفحة نفسها).

(٢) البغوي: شرح السنة ٥٠/٣، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٢٣٨/١، (مرجع سابق).

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعضوا عليها بالنواجذ»[1].

ج - وفي عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أجمعت الأُمَّة على أهميَّة جمع القرآن الكريم عندما أدرك ولاة أمرها (الخطر الداهم الذي لاحت نذره في معركة اليمامة، ويوشك أن يلتهم كل حفاظ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم وهم الشهود العدول على وثاقة النص المكتوب وقد كان مفرقًا في لخاف وكرانيف وعسب وأضلاع وأكتاف[2]، إلى جانب ما كان في الصدور، ولم يأخذ بعد صورة الكتاب الواحد، اللهم في صدور الصحابة الذين جمعوه حفاظًا على عهد الرسول ﷺ وقد بدأت الحرب تقرضهم واحدًا إثر واحد)[3].

وفي ذلك روى البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قصة جمع القرآن الكريم وهي قصة تنم عن وعي ولاة أمر الأُمَّة وتحملهم مسؤولية مصالحها وتثبتهم وحرصهم الشديد على متابعة الرسول ﷺ في كل ما يأتي ويذر بغاية الدقة والمحبة والإخلاص، وقد ورد في تلك القصة

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٢٦/٤، الحديث رقم (١٦٦٩٤)، طبعة دار الإحياء العربي: ١٠٩/٥ (مرجع سابق).

(٢) قال السيوطي في معناه: (العُسُبُ: جمع عَسِيْب، وهو جريد النخل؛ كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض، واللخاف [بكسر اللام وبخاء معجمة خفيفة آخره فاء]: جمع لَخْفَة [بفتح اللام وسكون الخاء] وهي: الحجارة الدقاق، وقال الخطابي: صفائح الحجارة... والأكتاف: جمع كتف؛ وهو العظم الذي للبعير أو الشاة؛ كانوا إذا جَفَّ كتبوا عليه) الإتقان ٥٨/١، ٥٩، (مرجع سابق). ولمزيد الاطلاع على مواد الكتابة في الجاهليَّة وصدر الإسلام؛ انظر: محمد قبيسي: القرآن الكريم الوثيقة الأولى في الإسلام: ص ١١٣ - ١١٨، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، من منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت.

(٣) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم... ص ٢٧، (مرجع سابق).

(أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر، مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إنَّ القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه. فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مِمَّا أمرني به من جمع القرآن. قلتُ: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثُمَّ عند عمر حياته، ثُمَّ عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه)[2].

وقد سلك زيد بن ثابت رضي الله عنه في جمع القرآن الكريم مسلكاً علميًّا حقق للأُمَّة الإسلاميَّة السبق في مجال التوثيق، وهو ما عبَّر عنه

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٨).

(٢) صحيح البخاري ١٩٠٧/٤ كتاب فضائل القرآن - باب: جمع القرآن، رقم الحديث [٤٧٠١]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

بعض الباحثين بقوله: (إنَّ زيداً اتبع طريقة في الجمع نستطيع أن نقول عنها في غير تردد، أنها طريقة فذَّة في تاريخ الصناعة العقليَّة الإنسانية، وأنها طريقة التحقيق العلمي المألوف في العصر الحديث، وأن الصحابي الجليل قد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة، وأن هذه الدقة في جمع القرآن متصلة بإيمان زيد بالله، فالقرآن كلام الله جل شأنه، فكل تهاون في أمره أو إغفال للدقة في جمعه وزر ما كان أحرص زيداً - في حسن إسلامه وجميل صحبته لرسول الله ﷺ أن يتنزه عنه، وقد شهد المنصفون من المستشرقين جميعاً بهذه الدقة حتى ليقول (سير وليم موير): «والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظلَّ أربعة عشر قرناً كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته»[1]، [2].

إنَّ ما قام به زيد بن ثابت رضي الله عنه بتكليف من خليفة المسلمين أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومشورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومعاونة عمر رضي الله عنه وأبي بن كعب ومشاركة جمهور الصحابة ممن كان يحفظ القرآن أو يكتبه[3]، وإقرار جمع من

---

(١) نقلاً عن محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم: ص ٣١. وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٧، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨٥، (مرجع سابق).

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق نفسه: ص ٣٠، ٣١.

(٣) انظر: توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٢٨١، ٢٨٢، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عن دار الوفاء...، المنصورة، وقد جاء في فتح الباري لابن حجر: أن أبا بكر رضي الله عنه قال لزيد ولعمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين: «اقعدا على باب المسجد، فمن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه» وقال رجاله ثقات مع انقطاعه ٩/١٤، (مرجع سابق). وانظر: فهد الرومي: دراسات في علوم القرآن..: ص ٩٠، الطبعة الرابعة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، عن مكتبة التوبة، الرياض.

المهاجرين والأنصار، مظهرٌ من مظاهر العناية الربانيَّة بحفظ القرآن الكريم وتوفيق من الله للأُمَّة الإسلاميَّة وتسديد منه لمسيرتها.

ويتضمن ذلك - أيضًا كما قال أبو زهرة -: (حقيقتين مهمتين، تدلان على إجماع الأُمَّة كلها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل، وأنه مصون بصيانة الله سبحانه وتعالى، ومحفوظ بحفظه، وإلهام المؤمنين بالقيام عليه وحياطته.

الأولى: أن عمل زيد رضي الله عنه لم يكن كتابة مبتدأة، ولكنه إعادة لمكتوب[1]، فقد كتب القرآن كله في عهد النبي ﷺ، وعمل زيد الابتدائي هو البحث عن الرقاع والعظام التي كان قد كتب عليها والتأكد من سلامتهاأن بأمرين، بشهادة اثنين على الرقعة التي فيها الآية والآيتان أو الآيات، وبحفظ زيد نفسه، وبالحافظين من الصحابة، وقد كانوا الجم الغفير والعدد الكبير، فما كان لأحد أن يقول: إن زيدًا كتب من غير أصل مادي قائم، بل إنَّه أخذ من أصل قائم ثابت مادي، وبذلك نقرر أنَّ ما كتبه زيد هو تمامًا ما كتب في عصر الرسول ﷺ، وأنه ليس كتابة زيد، بل ما كتب في عصره عليه الصلاة والسلام، وأملاه، وما حفظه الروح القدس...

الثانية: أن عمل زيد لم يكن عملاً آحاديًا، بل كان عملاً جماعيًا من مشيخة صحابة رسول الله ﷺ، فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده شيءٌ

---

(١) وكان يكتب على ورق كما ذكر ذلك السيوطي عن ابن اشته في كتابه (المصاحف) حيث قال: (لَمَّا جمعوا القرآن فكتبوه في الورق قال أبو بكر: التمسوا له اسمًا فقال بعضهم: السفر، وقال بعضهم: المصحف..). الإتقان.. ٥١/١. وانظر: فهد الرومي: المرجع السابق نفسه: ص ٩٣.

مكتوب أن يجيء به إلى زيد وإلى كل من يحفظ القرآن أن يدلي إليه بما يحفظه، واجتمع لزيد من الرقاع والعظام وجريد النخل ورقيق الحجارة، وكل ما كتب أصحاب رسول الله ﷺ، وعند ذلك بدأ زيد يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه، ولايثبت آية إلاّ إذا اطمأن إلى إثباتها، كما أوحيت إلى رسول الله[1]، واستمر الأمر كذلك، حتى إذا ما أتَمَّ زيد ما كتب، تذاكره الناس، وتعرفوه وأقروه، فكان المكتوب متواترًا بالكتابة ومتواترًا بالحفظ في الصدور، وما تَمَّ هذا لكتاب في الوجود غير القرآن، وتلك – وأيم الله – عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن العظيم)[2]، وشرف للأُمَّة الإسلاميَّة تميزت به على سائر الأمم ووفقها الله لخدمة كتابه في منهج علمي سبقت إليه جميع الأمم.

يقول (لويلوا) مشيرًا إلى هذا السبق العلمي للأُمَّة الإسلاميَّة: (من ذا الذي لم يتمنَّ لو أنّ أحدًا من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام

---

(١) انظر: أحمد خليل: دراسات في القرآن: ص ٩٠، طبعة ١٩٦٩ م، عن دار النهضة العربيَّة..، بيروت، حيث أشار إلى أنَّ مِمَّا يعد (أصلاً من أصول النقد العلمي المحرر في الحكم على النصوص ثقة وزيفًا وصحة وفسادًا وهو لغة النص، وخصائصه المتميِّزة له والكاشفة عن سماته وملامحه التي لايضل في معرفتها ما أشار إليه «الحارث المحاسبي» في كتابه: «فهم السنن» عن ثقة زيد ومن معه من المسلمين في النصوص التي تعرض عليهم من الرقاع ونحوها، إذ قال: «لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجز ونظم معروف وقد شاهدوا نزوله وسمعوا تلاوته من الرسول ﷺ عشرين سنة فكان تزوير ما ليس منه مأمونًا وإنَّما الخوف من ذهاب شيء من الصحف؛ ولهذا جمع أبو بكر القرآن»).

(٢) المعجزة الكبرى (القرآن، نزوله، كتابته، جمعه، إعجازه..): ص ٢٦، ٢٧، طبعة دار الفكر، (بدون تاريخ)، وانظر: محمد بيومي مهران: دراسات تاريخيَّة من القرآن الكريم: ص ٣١ – ٣٢، (مرجع سابق).

بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة)[1].

د- وفي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد اتسعت الفتوحات الإسلاميَّة وانتشرت الأُمَّة الإسلاميَّة في أرجاء المعمورة، وصاحب ذلك التوسع والانتشار خوف ولاة أمر الأُمَّة أن يختلف المسلمون في القرآن كما حدث لليهود والنصارى فأقدم خليفة المسلمين رضي الله عنه وأرضاه على عمل آخر في صالح الأُمَّة الإسلاميَّة؛ إذ أمر أربعة من الصحابة الكرام وهم (زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام)[2] أن ينجزوا للأُمَّة مصاحف قيل أنَّ عددها خمسة، وقيل: سبعة، وقيل: أربعة، ثُمَّ بعثها (إلى كل من مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحدًا)[3].

وقد انتهج عثمان رضي الله عنه والجماعة التي كلَّفها بهذا العمل منهجًا علميًّا تجلَّت فيه مظاهر حفظ الله لكتابه حتى بلغ الأمر بكثير

---

(١) نقلاً عن: محمد بيومي مهران: المرجع السابق نفسه: ص ٢٩.

(٢) انظر: تراجمهم لدى: النووي: تهذيب الأسماء واللغات ١/٢٠٠ - ٢٠٢ (ترجمة زيد بن ثابت) و١/٢١٨ (ترجمة سعيد بن العاص) و ١/٢٦٦، ٢٦٧ (ترجمة عبدالله بن الزبير)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون تاريخ)، (ولم أجد لعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ترجمة)، وجاءت أسماؤهم على هذا النحو فيما أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٤/١٩٠٦ - كتاب: فضائل القرآن، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب.. الحديث رقم [٤٦٩٩]، تحقيق: (البُغا)، (مرجع سابق).

(٣) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم: ص ٣٢، (مرجع سابق)، وللاطلاع على ما قيل عن عدد المصاحف. انظر: الزركشي: البرهان.. ١/٢٤٠. وانظر: الإتقان للسيوطي ١/٦٠، والزرقاني.. ١/٣٩٥، ٣٩٦، ولديه أيضًا مبحث بعنوان (أين المصاحف العثمانية الآن ؟) ص ٣٩٧، ٣٩٨.

من المستشرقين أن يعترفوا بذلك المنهج ويتوافر معظمهم على القول بأنَّ الفضل - بعد الله - يعود لعثمان في المحافظة على نص القرآن الكريم كما هو الآن بين ظهراني الأُمَّة الإسلاميَّة كقول (بلاشير): (إنَّ الفضل - (بعد الله) - يعود إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه لإسهامه قبل سنة ٦٥٥ م في إبعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن، واليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نص كتابهم المنزل على مدى الأجيال القادمة)[١].

وله أيضًا مقولة أخرى تبين أنَّ هذا النص ثابت عن الرسول ﷺ إذ يقول: (ليس لدينا أي سبب يحملنا على الاعتقاد بأنَّ هناك آيَّة آية في القرآن كله لم ترد عن محمد)[٢].

ويعترف كثير من المستشرقين أنّ القرآن الكريم منذُ أنجز المصحف الإمام برسمه العثماني حتى العصر الحاضر تواتر نقله في غاية الضبط والمطابقة وعدم تحريف حرف منه أو تغييره أو تبديله؛ من ذلك قول (لوبلوا): (إنّ القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر)[٣].

ويقول (موير): (إنّ المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في

---

(١) نقلاً عن عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٥٢، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن زقزوق: الاستشراق: ص ٩٢، (مرجع سابق).

(٣) نقلاً عن محمد عبدالله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم...: ص ٤٠، (مرجع سابق).

البلاد الإسلاميَّة الواسعة... فلم يوجد إلاَّ قرآن واحد لجميع الفرق الإسلاميَّة المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجّة ودليل على صحة النص المنزل)[(١)].

أمَّا المنهج الذي طبقته الجماعة المكلفة بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنَّه يرتكز على مايأتي:

أولاً: تطبيق مبدأ الشورى فيما استجد في حياة الأُمَّة من سعة الانتشار وتفرق علماء الأُمَّة في الأمصار المفتوحة وما نجم عن تعليم القرأ لناشئة المسلمين من أوجه متعددة في قراءة القرآن؛ أخرج أبو داود في المصاحف عن طريق أبي قلابة أنه قال: (لما كانت خلافة عثمان، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضًا، فبلغ ذلك عثمان، فخطب فقال: «أنتم عندي تختلفون فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافًا»)[(٢)].

وأخرج البخاري: أن حذيفة بن اليمان قَدِم على عثمان، وكان يغازي أهل الشَّام في فتح إرمينيَّة، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنصارى...)[(٣)].

عند ذلك جمع أمير المؤمنين رضي الله عنه (أعلام الصحابة وذوي

---

(١) نقلاً عن محمد عبدالله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم: ص ٤٠، وقد عقَّبَ دراز على قول المستشرق المذكور من ناحيتين؛ انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤١ - ٤٤.

(٢) ص ٢٩. وانظر: الزرقاني: مناهل العرفان: ١/٢٤٩، (مرجع سابق).

(٣) صحيح البخاري ٤/١٩٠٨، الحديث رقم [٤٧٠٢]، فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، تحقيق: (البُغا)، (مرجع سابق).

البصر منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة ووضع حد لذلك الاختلاف، وحسم مادة هذا النزاع، فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها، وألاّ يعتمدوا سواها)[١].

ثانيًا: الاعتماد على المصحف الذي تَمَّ جمعه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، واستقر حفظه عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، ورد في حديث حذيفة بن اليمان - آنف الذكر - (فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثُمَّ نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان)[٢].

ثالثًا: تشكيل جماعة من أربعة من الصحابة أحد أفرادها زيد بن ثابت، وفي ذلك دلائل عميقة، من أهمها: الارتكاز على ما أنجزه في عهد أبي بكر رضي الله عنه، والإفادة من علمه وخبرته، ثُمَّ مساعدته، وتوثيق عمله، وانجازه على أكمل وجه، بجهود الثلاثة الآخرين - وكلهم من قريش - إلى جهوده، وقد جاء في بعض الروايات (أنَّ الذين ندبوا لنسخ المصاحف كانوا اثني عشر رجلاً)[٣].

رابعًا: سلكت هذه الجماعة - سواء كانت من الأربعة أو أكثر - في نسخ القرآن الكريم منهجًا علميًّا، أطلق عليه بعض الباحثين - فيما بعد - مسمى: (دستور عثمان في كتابة المصاحف)[٤]، ثُمَّ وصفه -أيضًا-

---

(١) الزرقاني...: المرجع السابق نفسه: ١/٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) جزء من الحديث الذي رواه البخاري (سبق تخريجه في الصفحة السابقة).

(٣) أبو داود: المصاحف: ص ٣٣، وانظر: فهد الرومي: دراسات في علوم القرآن الكريم: ص ٩٩، (مرجع سابق). وانظر: الزرقاني: مناهل العرفان..: ١/٢٥٠، (مرجع سابق).

(٤) الزرقاني: المرجع السابق نفسه: ١/٢٥٠.

بقولـه: (ومِمَّـا تواضـع علـيه هـؤلاء الصـحابة، أنَّهُـم لايكتـبون في هـذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن، وعلموا أنَّه استقر في العرضة الأخيرة، وأيقنوا صحته عن النبي ﷺ مِمَّا لم ينسخ، وتركوا ما سوى ذلك)[1].

خامسًا: رسمت تلك المصاحف العثمانية بطريقة تحتوي القراءات المتعددة الواردة عن الرسول ﷺ، وكان من أهم سماتها؛ إهمال (النَّقْط والشَّكْل)[2]، واعتماد طريقة في الرسم غاية في الإبداع حيث اشتملت على الأوجه والقراءات الواردة عن الرسول ﷺ مِمَّا لم ينسخ، وفي ضوء العرضة الأخيرة للقرآن الكريم، وهذا ما أجمعت عليه الأُمَّة، وقد وصف أحد الباحثين هـذا الرسم العثماني بقولـه: (فقد وهبهم الله القدرة العظيمة والفكر الثاقب ليكتبوا القرآن بهذه الطريقة التي جمعت العرب والمسلمين على لسان واحد ولغة واحدة في قراءة القرآن الكريم، وبهذا تحققت الوحدة بين المسلمين جميعًا)[3].

سادسًا: كان من توجيه عثمان رضي الله عنه لهم في هـذا الجمع

---

(١) المرجع السابق نفسه: ١/٢٥٠.

(٢) انظر: ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣/٤٠٢، (مرجع سابق). وانظر: محمد ابن محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم: ص٢٥٤، الطبعة الجديدة ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، دار الجيل - بيروت، ولمزيد الاطلاع على المصاحف العثمانية وما قيل عن تطابقها أو تنوعها. انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٥٣، وعن اشتمالها على القراءات والأحرف السبعة انظر: أبي عمر الداني الأحرف السبعة للقرآن: ص ٦٠ - ٦٣، تحقيق: عبدالمهيمن صمان، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م، عن مكتبة المنارة. وانظر: هامش ص ٦٠، ٦١ (المرجع السابق نفسه).

(٣) محمد حسين أبو الفتوح: ابن خلدون ورسم المصحف العثماني: ص ٢٨، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م، مكتبة لبنان - بيروت.

أيضًا قوله لهؤلاء القرشيين[1] : «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنَّما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مِمَّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»[2] .

ومِمَّا ينبغي الإشارة إليه بصدد مظاهر العناية الربانيَّة بالقرآن العظيم من جهة ومن كونه المصدر الأول لتميز الأُمَّة الإسلاميَّة من جهة أخرى، أن الجهود التي بذلت في جمعه في عهد الرسول ﷺ، ثُمَّ في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثُمَّ في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه كانت جهودًا متكاملة في حفظ كتاب الله جاء بعضها ليكمل الآخر ويعتمد اللاحق على السابق؛ ففي عهد الرسول ﷺ كان القرآن الكريم مجموعًا بتمامه، وذلك بالنظر لمجموع الأُمَّة - كما سبق الإشارة إلى ذلك - ثُمَّ كان جمعه في عهد أبي بكر - وحفظه لديه مدوَّنًا في صحف - لايقتصر على إيجاد صورة يسهل الرجوع إليها وتكون في مأمن من الأخطار فحسب بل (إقرار الشكل النهائي لكتاب الله الكريم وتوثيقه عن طريق حفظته الباقين على قيد الحياة واعتماده من الصحابة الذين كان كل منهم يحفظ منه أجزاء كبيرة أو صغيرة)[3] ، ثُمَّ نسخت منه

(١) انظر: البغوي: شرح السنة ٥١/٣ - ٥٨، (مرجع سابق). وانظر: هامش: ص ٥٢ - ٥٤ لمزيد الاطلاع على أقوال العلماء حول هذه المسألة. وانظر: ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٩٥/١٣، (مرجع سابق).

(٢) من حديث حذيفة بن اليمان؛ أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١٩٠٨/٤، الحديث رقم [٤٧٠٢]، (مرجع سابق).

(٣) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم: ص ٢٨، (مرجع سابق)،=

نسخٌ عِدَّة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه برسم جامع أجمعت الأُمَّة على نصه وجعلته المرجع لسائر القراءات التي حفظتها عن رسولها الخاتم ﷺ.

وعلى ذلك فإن (المصحف الذي كتب على أيام أبي بكر - هو نفس المصحف الذي كتب على أيام الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وهو نفسه الذي كتب على أيَّام عثمان، وبالتالي فإنَّ كل قراءة قرآنية يجب أن تكون متفقة مع نصه، وأن الشك فيه كفر، وأن الزيادة عليه لاتجوز، وأنَّه القرآن المتواتر الخالد إلى يوم القيامة)[1]، هذا من جهة.

أمَّا من حيث كون القرآن الكريم المصدر الأول لتميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة من جهة أخرى فإنه ينبغي الإشارة إلى ذلك المنهج التربوي الفريد الذي صاحب نزول القرآن الكريم: (منجمًا في ثلاث وعشرين سنة حسب الحوادث ومقتضى الحال)[2]، وما تلى ذلك من عناية الأُمَّة بكتاب ربها، مِمَّا لايتسع المجال للتفصيل فيه، ولكنني أكتفي بذكر أهم ما يتصل بربانية الأُمَّة الإسلاميَّة كخصيصة من خصائص تميُّزها، فبالنظر إلى المعاني التي وردت في مفهوم الربانيَّة فيما سبق، وإلى ذلك المنهج المشار إليه آنفا يتبين أن القرآن الكريم (تدرج في تربية الأُمَّة الإسلاميَّة تدرجًا فطريًّا لإصلاح النفس البشرية، واستقامة سلوكها، وبناء شخصيتها،

=وانظر: محمد عبدالله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم: ص ٣٦، (مرجع سابق).

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم: ص ٣٧، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام بن تيمية ٣٨٩/١٣ - ٤٠٣ (مرجع سابق). وانظر: الزرقاني: مناهل العرفان.. ١٦١/١، (مرجع سابق).

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق نفسه: ص ١٩. وانظر: محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم: ص ٦٥ - ٧٢، (مرجع سابق).

وتكامل كيانها، حتى استوت على سوقها، وآتت أكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسانية كافة، وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمه ومدارسته وتدبر معانيه، والعمل بما فيه)[1].

وقد عَوَّلَ هذا المنهج على حفظ القرآن الكريم في الصدور في المقام الأول وربَّى الأُمَّة على ذلك وكان (الاعتماد على الحفظ في النقل من خصائص هذه الأُمَّة)[2]، وفي هذا قال ابن الجزري: (إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف والكتب، أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأُمَّة)[3].

ومِمَّا ورد في وصف الأُمَّة الإسلاميَّة لدى أهل الكتاب أنَّ (أناجيلهم في صدورهم)[4].

ومِمَّا اشتهر عن الصحابة أنهم كانوا (يتسابقون إلى تلاوة القرآن ومدارسته ويبذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه، ويعلمونه

---

(١) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن: ص ١١٦، (مرجع سابق). وانظر: محمد أبو شهبة المرجع السابق نفسه: ص ٦٨ - ٧٧، وانظر: الزرقاني: المرجع السابق نفسه: ٤٨/١ - ٥٥.

(٢) مناع القطان: المرجع السابق نفسه: ص ١١٧، وانظر: محمد أبو شهبة المرجع السابق نفسه: ص ٣٥٢، ولمزيد الاطلاع على العوامل المساعدة على حفظ القرآن الكريم؛ انظر: المرجع السابق نفسه ص ٣٥٤ - ٣٧٦.

(٣) نقلاً عن مناع القطان: المرجع السابق: ص ١٢٣، وقد عزاه إلى كتاب ابن الجزري: النشر في القراءات العشر (و لم أتمكن من الرجوع لقوله فيه).

(٤) نقلاً عن ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام... ٤٠٠/١٣، (مرجع سابق)، وانظر: الزرقاني: مناهل العرفان: ٢٣٥/١، (مرجع سابق). وانظر: محمد أبو شهبة: المرجع السابق نفسه: ص ٣٥٠.

أولادهم وزوجاتهم في البيوت، حتى كان الذي يمر ببيوت الأنصار في غسق الدجى، لايسمع فيها إلا صوت القرآن يتلى، وكان المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - يمر على بعض دور الصحابة، فيقف عند بعضها يستمع القرآن في ظلام الليل... وروي عنه ﷺ أنه قال: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»[1].

وكان من منهجهم في حفظه ودراسته ما ذكره ابن كثير وغيره عن عبدالله بن مسعود، وأبي عبدالرحمن السلمي، حيث ذكر أن عبدالله بن مسعود كان يقول: (والذي لا إله غيره ! ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحدًا هو أعلم بكتاب الله مني، تبلغه الإبل، لركبتُ إليه)[2].

ونقل عنه أيضًا أنه قال: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)[3]، وذكر أن عبدالرحمن السلمي كان يقول: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا (زاد ابن تيمية قوله: عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما) أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا)[4].

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١٥٤٧/٤، الحديث رقم [٣٩٩١] كتاب المغازي - باب: غزوة خيبر، (ترتيب البُغا) (مرجع سابق).

(٢) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١٩١٣/٤، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبدالله بن مسعود وأمه، الحديث رقم [٢٤٦٣]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/١ (مقدمة الكتاب)، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٣. وانظر: ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٣/ ٤٠٢، (مرجع سابق).

ولأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كلام حول هذا المعنى، فقد ورد عنها في بعض الروايات أنها قالت: (كانت تنزل علينا الآية في عهد رسول الله ﷺ فنحفظ حلالها وحرامها وأمرها وزجرها، قبل أن نحفظها)[1].

وما ورد عن جندب بن عبدالله وعبدالله بن عمرو وغيرهما أنهم كانوا يقولون: (تعلمنا الإيمان ثُمَّ تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا، وأنتم تتعلمون القرآن ثُمَّ تتعلمون الإيمان)[2].

والشاهد من هذا ونحوه مِمَّا تضافر عن كثير من الصحابة وأصبح منهجًا في التربية والتعليم[3]: أنّ الأُمَّة تربت بالقرآن الكريم وصنعت على عينه تعالى وكان قدوتها الرسول ﷺ الذي قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[4]، وكان تنزلُ القرآن منجمًا في ثلاث وعشرين سنة منذ نزول قول الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ وحتى نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[5] الآية، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾[6] وغيرهما، وما بين ذلك من أمر ونهي وتحريم وتحليل،

---

(١) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد (قولهم في حملة القرآن): ١٠٣/٢، بتحقيق: مفيد محمد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية، ١٤١٧ هـ، بيروت، و لم أجد هذا الأثر عند غيره فيما بحثت فيه من المسانيد والمأثورات، ولكنه يتقوى بما ذكر قبله.

(٢) ابن تيمية: المرجع السابق نفسه: ٤٠٣/١٣.

(٣) انظر: عبدالله بن إبراهيم بن عبدالله الوهيبي: التفسير بالأثر والرأي وأشهر كتب التفسير فيهما، (مقال منشور بمجلة البحوث الإسلاميَّة): ص ٢٠٤ - ٢٠٦، العدد [٧] عن: رجب وشعبان ورمضان وشوال لعام ١٤٠٣ هـ، الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء... الرياض.

(٤) أخرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة [٧٢] آداب الزفاف: ص ٣.

(٥) سورة المائدة: الآية (٣).

(٦) سورة النصر: الآية (١)، لمزيد الاطلاع على آخر ما نزل من القرآن الكريم، انظر:-

ودعوة لمكارم الأخلاق، وزجر عن مرذولاتها وتنظيم لشؤون المجتمع والأسرة والأموال والمواريث وقبل ذلك كله مايتعلق بالعقيدة والعبادة[1]، (والمفاصلة التامة بين الإسلام والشرك)[2]، كل ذلك تَمَّ في مراحل متدرجة أخذت بالأمة من حال إلى حال ومن طور لآخر، وتربت في خلالها حتى اكتمل الدين وتمت النعمة، والله سبحانه وتعالى هو المربي والمنعم والقيم والمالك والسيد والمتصرف والمصلح والمدبر، وقد تجلت هذه المعاني في نشوء الأُمَّة الإسلاميَّة وتطورها وتمامها.

وعن هذا المعنى قال أحد المفكرين المسلمين: (لم تتجاوب - في التاريخ القديم والحديث - أُمَّة مع كتاب تجاوب العرب مع القرآن، فبعد أن اصطفى الخالد من مكارمهم، وأبطل الشائن من عاداتهم، وزكى ما عندهم من استعداد وأنار لهم طريق الهداية بعد حيرة، واستجابوا له، فأصبح الكتاب الذي من خلاله ينظرون إلى الكون والحياة والوجود، وفي جوه الفكري والروحي يعيشون ويحيون، وبمفاهيمه في الحياة يأخذون.

=الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ١/٢٠٩، ٢١٠، (مرجع سابق)، وانظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن: ص ٦٩ - ٧٤، (مرجع سابق).

(١) لمزيد من الاطلاع على ما تضمنه القرآن الكريم من مواعظ وأحكام وقصص وتاريخ ومغيبات وإخبار عن الله وأسمائه وصفاته وملكوت السماوات والأرض والأرض والجنَّة والنار وما كان وما يكون... إلخ. انظر: محمد أحمد العدوي: دعـوة الرسـل إلى الله: ص ٣٦٩ - ٥٢٩، الطبعة الأولى ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م، مطبعة الحلبي - مصر.

وانظر: حسين مطاوع الترتوري: مصادر النظم الإسلاميَّة، مجلة البحوث الإسلاميَّة، العدد [٢٧] عن ربيع الآخر - جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ: ص ١٢٣ - ١٢٥، الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء..، الرياض، وانظر: محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي: ص ١٧٥ - ١٩٣، الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

(٢) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن: ص ١١٦، (مرجع سابق).

ولذلك لم يكن القرآن كتابًا فلسفيًا ولا نظريات فكريةً، بل كتابًا امتزج بحياتهم، ومدرسة حيَّة عاشوا في جوها، ورأوا فيه مراحل الدعوة التي قاوموها ثُمَّ أخذوا بها، ورأوا فيه أحزابهم ومواقفها من الدعوة ونماذج من شخصياتهم. والقرآن على أنَّه وحيٌ نزل من السماء ليصور حياة أفضل ويدعو إليها، وقد وصف حوادث حدثت في الأرض فكان واقعيًا ومثاليًا في آن واحد)[1].

ولولا أنَّ الله جل وعلا أحاط هذه الأُمَّة بعنايته ورعايته، وأصلح شأنها بالقرآن الكريم وبهدي سيد الأنبياء والمرسلين، لما بلغت هذه المرتبة الرفيعة من التربية والثقافة.

٢ - السُّنَّة ومنزلتها من القرآن الكريم:

يتضمن القرآن الكريم الأخذ بالسنة والتزامها من أكثر من وجه، وقبل ذكر تلك الأوجه ينبغي التعريف بالسنة في اللغة والاصطلاح، ثُمَّ بيان منزلتها من القرآن الكريم.

أولاً: تعريف السنة:

أ - السُّنَّة في اللغة: جاء في لسان العرب: (السُّنَّة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة، وقيل: الطريقة المحمودة المستقيمة، والسُّنَّة الطبيعة. سنن الطريق وسُنُنه: نهجه)[2].

وفي القاموس المحيط: (سَنَنُ الطريق...: نهجه وجهته)[3].

وقال الراغب الأصفهاني: (السُّنَن: جمع سُنَّة، وسُنَّة الوجه: طريقته،

---

(١) محمد المبارك: دراسات أدبية لنصوص من القرآن: ص ٩١، الطبعة الرابعة ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٣م، دار الفكر - بيروت.

(٢) ابن منظور: لسان العرب؛ مادة (سنن)، (مرجع سابق).

(٣) الفيروزآبادي: القاموس المحيط؛ مادة (سنن)، (مرجع سابق).

وسُنَّة النبي: طريقته التي كان يتحراها، وسُنَّة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته، وطريق طاعته، نحو ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[1]، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[2]، فتنبيهٌ أنَّ فروع الشرائع – وإن اختلفت صورها – فالغرض المقصود منها لايختلف ولايتبدل، وهو تطهير النفس، وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره)[3].

ب – السُّنَّة في الاصطلاح: قال ابن الأثير: (تكرر في الحديث ذكر (السُّنَّة) وما تصرَّف منها، والأصل فيها الطريقة والسيرة، وإذا أُطلقت في الشرع فإنَّما يراد بها ما أَمَرَ به النبي ﷺ ونهى عنه وندب إليه قولاً وفعلاً، مِمَّا لم ينطق به الكتاب العزيز، ولهذا يقال في أدلة الشرع الكتاب والسُّنَّة أي القرآن والحديث)[4].

وقد كثرت المعاني التي اصْطُلِحَ عليها في تعريف السُّنَّة بالنظر لتعدد العلوم التي تُعنى بالسُّنَّة (فهي عند المحدثين غيرها عند الأصوليين والفقهاء، والشارع في أي علم عليه أن يلم باصطلاحات أهله لئلا تلتبس عليه الأمور وتضطرب الموازين)[5].

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ المعنى المراد هنا بالسُّنَّة: ما صح عن

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٣).

(٢) سورة فاطر: الآية (٤٣).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (سنن)، (مرجع سابق).

(٤) النهاية في غريب الحديث: مادة (سنن)، (مرجع سابق).

(٥) البغوي: شرح السنة ١١/١، (مرجع سابق). وانظر: محمد لقمان السلفي: السُّنَّة (حجيتها ومكانتها في الإسلام والرد على منكريها): ص ١٢، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ، عن مكتبة دار الإيمان – المدينة المنورة.

النبي ﷺ من أقوال وأفعال (تؤكد ما ورد في القرآن الكريم أو تفسر أحكامه وتبين شرائعه؛ من تفصيل لمجمل، أو تخصيص لعام أو تقييد لمطلق، أو توضيح لمشكل، أو بزيادة على ما ثبت في القرآن الكريم في حكم من الأحكام، أو بإنشاء حكم سكت عنه القرآن وثبت بالسنة ونحو ذلك مِمَّا يقتضيه الأخذ بالسُّنَّة، كنسخها لبعض أحكام القرآن الكريم)[1].

ثانيًا: منزلة السُّنَّة من القرآن الكريم:

أ - تماثل السُّنَّة القرآن الكريم في كونها وحيًا من الله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2]، ولما ثبت عن النبي ﷺ أنَّه قال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حقٌّ وأشار بيده إلى فيه)[3]؛ وذلك في قصة كتابة عبدالله بن عمرو بن العاص لما يسمعه عن الرسول ﷺ، وأنَّ قريشًا نهته عن ذلك، وقالوا:

---

(١) انظر: محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر: ص ٨٨، ٩١، ٩٢، ١٥٠ - ١٥٦، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون تاريخ)، (لمزيد الاطلاع على أمثلة مستفيضة على جميع هذه الأحوال). وانظر: ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين ٢٢٠/٢ - ٢٧٤، وانظر: حسين مطاوع الترتوري، (مجلة البحوث الإسلاميَّة، الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية.. الرياض) مقال بعنوان: مصادر النظم الإسلاميَّة: ص ١٤٥ - ١٤٧، (مرجع سابق).

(٢) سورة النجم: الآيتان (٣، ٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد... (مسند عبدالله بن عمرو ١٩٢/٢) الحديث رقم [٦٧٦٣] المجلد ٣٩٥/٢، عن دار إحياء التراث، (مرجع سابق)، وزيادة (وأشار بيده إلى فيه) لم ترد هنا، ووردت لدى الحاكم: المستدرك على الصحيحين ١٨٧/١، الحديث رقم (٧٠/٣٥٩)، (مرجع سابق).

تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الرضاء والغضب ؟)[1]، فأمسك عن الكتابة وذكر ذلك للرسول ﷺ فقال ﷺ القول المذكور آنفا.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ قال ابن قيم الجوزية: (أي ما نطقه إلا وحي يوحى. وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدًا إلى القرآن، فإنَّه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وأنّ كليهما وحي يوحى)[2].

وللعلماء في كون السُّنَّة وحيًا من الله تفصيلات طويلة تخرج عن إطار هذه الدراسة[3]، ويكفي منها مايأتي:

● أنَّ ما صدر عن الرسول ﷺ قسمان: (وحيٌ - قطعًا - معصوم عن الخطأ والسهو فيه... وهذا القسم: إمَّا أن يكون قد أوحي إليه مصحوباً بلفظ دال عليه أولا، فإن كان مصحوبًا به: فإمَّا أن يكون قد قصد به التعبد والإعجاز والتحدي بأقصر سورة منه، وهو القرآن. وإمَّا أن لايكون كذلك وهو الحديث القدسي... ولاشكّ في أنَّه وحيٌ؛ لأنَّه يخبر

---

(١) انظر: الحاكم: المستدرك على الصحيحين: ١/١٨٧، ١٨٨، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١/٣٠٠، الحديث رقم [٣٨٩]، تحقيق: أبي الأشبال، عن دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م - الرياض.

(٢) بدائع التفسير ٤/٢٧٦، ٢٧٧، (مرجع سابق).

(٣) انظر: الشافعي: الرسالة: ص ٩٣ - ١٠٣، (مرجع سابق). وانظر: محمد أبو شهبة: دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين: ص ٣، ٤، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م، عن دار اللواء.. الرياض، وانظر: محمد محمد أبو زهو: الحديث والمحدثون (أو عناية الأُمَّة الإسلاميَّة بالسنة النبوية: ص ١١ - ١٩، طبعة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، عن دار الكتاب العربي - بيروت.

به عن الله... وهو خبر معصوم عن الكذب، فدلَّ أنه كلام الله، كما دلَّ خبره على أن القرآن كلامه، وإن لم يكن مصحوبًا بلفظ فهو الحديث النبوي...، ثُمَّ إنَّ الموحى به إذا لم يكن مصحوبًا بلفظ: فإمَّا أن يكون قد دلَّ عليه الملك (جبريل عليه السلام) بإشارة أو فعل من أفعاله...، القسم الثاني: ما صدر عن (النبي ﷺ) غير قاصد به التبليغ عن الله فإمَّا أن يكون قد أقره الله عليه أو لا، فإنْ أقرَّه الله عليه، فهو - وإن لم يكن في ذاته موحًى به - إلاَّ أنَّه بمنزلته، وفي حكمه؛ لأنَّ التقرير المصاحب له يدلنا على صحته وحقيقته ومطابقته لما عند الله، بل لم يقتصر الأمر على هذا التقرير: فإنَّ الله تعالى أمرنا باتباعه فيما يصدر عنه؛ فإن كان بعض ما يصدر عنه ليس بوحي - فقد فرض الله علينا - في الوحي اتباعه فيه: فمن قبل عنه فيما لم يوح إليه: فإنَّما قبل بفرض الله. فكان ما يصدر عنه من هذا القبيل بمنزلة الموحى إليه في حقيقته وصوابه بلا شبهة... فتبين من هذا كله: أنَّ جميع ما صدر عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير وأقرَّه الله عليه فهو وحي من عند الله أو بمنزلته)[1].

وممَّا ترتَّبَ على ذلك: أنَّ سُنَّة المصطفى ﷺ (حجَّة على العباد يلزمهم العمل بمقتضاها)[2]، وهو ما أجمعت عليه الأُمَّة الإسلاميَّة، كما (أنَّ الإجماع قد انعقد على أنَّه كان يوحى (إلى الرسول ﷺ) غير

---

(١) عبدالغني عبدالخالق: حجيَّة السُّنَّة: ص ٣٣٤ - ٣٤١، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ -١٩٨٦م، عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي واشنطن، ونشر دار القرآن الكريم - بيروت. وانظر: توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٢٨٤، (مرجع سابق).

(٢) عبدالغني عبدالخالق: المرجع السابق نفسه: ص ٣٤١.

القرآن)[1]، وفي مثل قول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾[2]، قال الشافعي: (الحكمة سُنَّة رسول الله)[3].

● أمَّا بالنسبة لنقل السُّنَّة فإنها تختلف عن القرآن الكريم من حيث إنَّ القرآن الكريم (مقطوع به في الجملة والتفصيل)[4].

والسُّنَّة: (القطع فيها إنَّما يصح في الجملة لا في التفصيل)[5].

ب - تدخل السُّنَّة النبويَّة في حفظ الله تعالى الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[6]، فقد أكد بعض العلماء أن السُّنَّة داخلة في الذكر، وفي ذلك قال ابن حزم: (فصح أن كلام رسول الله ﷺ كله في الدين وحي من عند الله عزوجل، ولاشك في ذلك، ولا خلاف بين أحدٍ من أهل اللغة والشريعة: في أن كل وحي نزل من عند الله تعالى فهو ذكر منزل، والوحي كله محفوظ بحفظ الله تعالى له بيقين... لا سبيل البتَّة إلى ضياع شيء قاله رسول الله ﷺ في الدين، ولا سبيل البتَّة أن يختلط به باطل موضوع اختلاطا لايتميز عن أحد من الناس بيقين إذ لو جاز ذلك لكان الذكر غير محفوظ)[7].

وما قاله ابن حزم ينطبق على السُّنَّة من حيث الجملة لا على وجه

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٣٣٨.

(٢) سورة الجمعة: الآية (٢).

(٣) الرسالة: ص ٣٢، (مرجع سابق). وقد ذكرها في مواضع كثيرة من الرسالة منها ما ورد في الفقرات التالية (٩٦، ٢٤٥ - ٢٥٧، ٣٠٥ - ٣٠٧).

(٤) الشاطبي: الموافقات ٦/٤، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ٦.

(٦) سورة الحجر: الآية (٩).

(٧) الإحكام في أصول الأحكام ١/١١٤، ١١٥، (مرجع سابق).

التفصيل، كما ذكر الشاطبي فيما سبق ذكره.

وبالنظر لتاريخ السُّنَّة الشريفة تتجلى بعض صور ذلك الحفظ الرباني، فقد حفظ (الصحابة سُنَّة نبيهم في الصدور، ومن أمن منهم التباس السُّنَّة بالقرآن، كتب ما سمعه من رسول الله بعد إذنه، وكان الرسول ﷺ قد نهى عن كتابة الأحاديث، ولاسيما إذا كتب هذا في صحيفة واحدة من القرآن، مخافة التباس أقواله وشروحه وسيرته ﷺ بالقرآن، وقال: «لاتكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[(١)].

وظل الحال على هذا المنوال في عصر الخلفاء الراشدين، ولم يتغير الحال كثيرًا، فأبو بكر رضوان الله عليه يجمع بعض الأحاديث، ثُمَّ يحرقها[(٢)]، وهذا عمر بن الخطاب لايلبث أن يعدل عن كتابة السُّنَّة بعد أن عزم على تدوينها... «فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، فأشار عليه عامتهم بذلك، ثُمَّ عدل عن ذلك»[(٣)].

وجاء في عصر التابعين، فمنهم من كان متشددًا في المنع... وما تزال الأخبار عن الخلفاء بمنعه مستفيضة[(٤)]، ثُمَّ جاءت بعدهم طبقة بدأت تستسيغ التدوين...، ثُمَّ جاء عهد عمر بن عبدالعزيز (١٠١ هـ)، فأمر

---

(١) أخرجه مسلم: صحيح مسلم - الحديث رقم [٣٠٠٤]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، والإمام أحمد ١٢/١، ٢١، ٣٩، ٥٦، (مرجع سابق)، والنسائي: فضائل القرآن ٣٣، (مرجع سابق)، ولمزيد الإطلاع على طرق هذا الحديث ورواته وما قيل في التوفيق بينه وبين الأحاديث الواردة في جواز الكتابة، انظر: مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، ٤٤٦/٢، ٤٦٧، الحديث رقم (١٢٨٨/٣١٤) وحاشيته، (مرجع سابق).

(٢) انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ ٥/١، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون تاريخ).

(٣) انظر: ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ٢٧٥/١، (مرجع سابق).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه ٢٦٨/١ - ٢٩٧.

رسميًّا بالشروع في تدوين الحديث كما هو المشهور)[1]، وتوافر علماء الأُمَّة على كتابة السنَّة وجمعها[2] وقد اشتهر في القرن الثاني الإمام الزهري، (ثُمَّ شاع التدوين في الجيل الذي يلي جيل (الزهري)....، ثُمَّ جاء القرن الثالث فكان أزهى عصور السُّنَّة وأسعدها بأئمة الحديث وتأليفهم العظيمة الخالدة فقد ابتدأ التأليف في هذا القرن على طريقة المسانيد، وهي جمع ما يروى عن الصحابي في باب واحد... ولكنهم كانوا يمزجون فيها الصحيح بغيره، وفي ذلك من العناء ما فيه على طالب الحديث، فإنَّه لايستطيع أن يتعرف على الصحيح منها إلاَّ أن يكون من أئمة الشأن، فإن لم يكن له وقوف على ذلك اضطر إلى أن يسأل أئمة الحديث فإن لم يتيسر له بقي الحديث مجهول الحال عنده[3].

وهذا ما حدا بإمام المحدثين ودرَّة السُّنَّة في عصره محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦ هـ) أن ينحو في التأليف منحًى جديدًا بأن يقتصر على الحديث الصحيح فقط دون ما عداه، فألف كتابه الجامع الصحيح المشهور، وتبعه في طريقته معاصره وتلميذه الإمام مسلم بن

---

(١) توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٢٨٤، ٢٨٥، (مرجع سابق).

(٢) انظر: مصطفى السباعي: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ١٠٤، ١٠٥، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، عن المكتب الإسلامي، بيروت، (لمزيد من الاطلاع على بدايات جمع الحديث من الأمصار الإسلاميَّة، ومن جمع الحديث في مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام وغيرها من البلاد الإسلاميَّة).

(٣) قام بعض العلماء بتحقيق مسند الإمام أحمد، كما فعل أحمد محمد شاكر ولم يتمه، وشرعت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة بالمملكة العربية السعودية في الرياض، بتحقيقه، وقد أصدرت منه أجزاء عدَّة.

الحجاج القشيري (- ٢٦١ هـ) فألف صحيحه المشهور، وكان لهما فضل تمهيد الطريق أمام طالب الحديث ليصل إلى الصحيح من غير بحث وسؤال، وتبعهما بعد ذلك كثيرون، فألفت بعدهما كتب كثيرة.

ثُمَّ جاء القرن الرابع فلم يزد رجاله على رجال القرن الثالث شيئًا جديدًا إلاّ قليلاً مِمَّا استدركوه عليهم، وكل صنيعهم جمع ما جمعه من سبقهم، والاعتماد على نقدهم، والإكثار من طرق الحديث... بهذا تَمَّ تدوين السُنَّة وجمعها، وتمييز صحيحها من غيره، ولم يكن لعلماء القرون التالية إلاّ بعض الاستدراكات على كتب الصحاح كمستدرك أبي عبدالله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) الذي استدرك على البخاري ومسلم أحاديث يرى أنها من الصحاح متفقة مع شرطيهما مع أنهما لم يخرجاها في صحيحيهما، وقد سلم له العلماء - ومن أشهرهم الذهبي - قسمًا منها وخالفوه في قسم آخره)[١].

وخلاصة القول في ذلك: (أنَّ السُنَّة حفظت زمن النبي ﷺ وصحابته في الصدور، ودُوِّنَ بعضها في السطور، وبعد عصر الصحابة بذل العلماء جهودًا كبيرة في التثبت من صحة الأحاديث عن طريق دراسة سند الحديث ومتنه، دراسة دقيقة، ودراسة السند من العلوم التي اختصت

---

(١) مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ١٠٤ - ١٠٧، (مرجع سابق). ومِمَّا ينبغي ذكره ما تشهده الأُمَّة الإسلاميَّة من إقبال العلماء وطلبة العلم على خدمة السنة وعلومها ومتون الحديث والأثر وشروحها وتراجم أعلامها وخدمة معاجمها، وتحقيق المسانيد والصحاح والسنن والمصنفات المتنوعة... مع الإفادة من الوسائل الحديثة، ولمزيد الاطلاع انظر: محاضرة لمحمد مصطفى الأعظمي؛ بعنوان: تقنية المعلومات وفك القيود عن كتب السنَّة، ألقاها في قاعة المحاضرات التابعة لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة - الرياض، بتاريخ ١٤١٤/٦/١٦ هـ.

بهـا الأُمَّـة الإسـلاميَّة[1]، وهـو عـلم هـام يـتوقف عليه قـبول الحديـث أو رده[2]، وبلغ مـن عناية السلف به أن اعتبروا (علم أسماء الرجال نصف علم الحديث)[3].

وإلى جانـب ذلـك فـإن عـلماء الحديـث طـبقوا مـنهجًا علمـيًّا نقديًّـا شرعيًّا أفاد منه النقد التاريخي في العصر الحديث، واعترف المنصفون بأنَّ منهج علماء الحديث في نقد الرواة وبيان حالهم، وفي حفظ السُّنَّة وكتابتها، وتدوينها...؛ يعد تاجاً على رأس الأُمَّة الإسلاميَّة[4]، وقد كان من ثمرات تلك الجهود أن (استقام أمر الشريعة بتوطيد دعائم السُّنَّة التي هـي ثاني مصادرها التشريعية، واطمأن المسلمون إلى حديث نبيهم، فأقصي عنه الدخيل، وميّز بين الصحيح والحسن والضعيف، وصان الله

---

(1) انظر: عاصم بن عبدالله القريوتي: الإسناد من الدين ومن خصائص أُمَّة سيد المرسلين ﷺ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عن مكتبة المعلا - الرياض. وانظر: عصام أحمد البشير: أصول النقد عند أهل الحديث، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢، عن مؤسسة الريان للطباعة والنشر - بيروت.

(2) انظر: مقدمة صحيح مسلم: ص ١٤ - ٢٩، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(3) عاصم بن عبدالله القريوتي: الإسناد من الدين: ص ١٧، (مرجع سابق). وهذا القول منسوب إلى علي بن المديني. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون: ٨٧/١، عن المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، (بدون تاريخ).

(4) انظر: مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ١٠٧، ١٠٨، ١٢٣، (مرجع سابق). وانظر: محمد مصطفى الأعظمي: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: مقدمة الكتاب، صفحة (س)، الطبعة الثالثة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، عن شركة الطباعة العربية السعودية - الرياض، وانظر: توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة: ص ٢٨٩، ٢٩٠، (مرجع سابق).

شرعه من عبث المفسدين، ودسّ الدَّسَّاسين، وتآمر الزنَّادقة والشعوبيين، وقطف المسلمون ثمار هذه النهضة... المباركة)[1].

ج - كونها مصدرًا من مصادر الأحكام وحجة على المكلفين: (اتفق علماء الأُمَّة على أن السُّنَّة بمجموعها حجّة، ومصدر من مصادر الأحكام)[2]، واستدلوا على ذلك بأدلة من الكتاب والسُّنَّة وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح.

فمن الكتاب آيات كثيرة جاءت تأمر الأُمَّة بطاعة الرسول ﷺ فيما يشرع لها، وتبين أنَّه مبين لما نزل عليه من القرآن، وحاكم، وقاضٍ، ومعلم يعلم الكتاب (القرآن)، والحكمة (السُّنَّة) كما فسَّرَها الشافعي بذلك[3].

وقد جاءت تلك الآيات بصيغ عِدَّة كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[4]، وجعل الله تعالى محبة عباده له مرتبطة باتباع الرسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5]، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ

---

(١) مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ١٠٣، ١٢٣، (مرجع سابق).

(٢) حسين مطاوع الترتوري: مصادر النظم الإسلاميَّة، مجلة البحوث الإسلاميَّة..، العدد [٢٧]: ص ١٣٩، (مرجع سابق).

(٣) انظر: الرسالة للإمام الشافعي: ص ٣٢، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، (مرجع سابق).

(٤) سورة النساء: الآية (٥٩).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٣١).

عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[4].

ومِمَّا ورد عن الرسول ﷺ في وجوب الأخذ بالسُّنَّة أحاديث كثيرة؛ لعل من ألصقها بهذا السياق ما ورد من قوله ﷺ: «لا ألفينَّ أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مِمَّا أمرتُ به، أو نهيت عنه؛ فيقول: لاندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[5].

وقوله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، لايوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لايحل لكم (لحم) الحمار الأهلي ولا أكل ذي ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه »[6]، وقد وردت لهذا الحديث روايات أخرى جاء في بعضها:

---

(١) سورة الحشر: الآية (٧).

(٢) سورة النساء: الآية (٦٥).

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٣٦).

(٤) سورة الجمعة: الآية (٢).

(٥) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود ١٩٩/٤، الحديث رقم (٤٦٠٥)، (مرجع سابق).

(٦) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود ١٩٩/٤، الحديث رقم: (٤٦٠٤)، (مرجع سابق).

«وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرَّم الله»[1].

ثُمَّ إنَّه ﷺ كان يؤكد في وصاياه لأُمَّته على الالتزام بالكتاب والسُّنَّة، وكان يقول: «تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي»[2]، ويقول: « فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي (محمد ﷺ) وشر الأمور محدثاتها...»[3].

أمَّا الصحابة رضوان الله عليهم فكانوا يلتزمون بالسُّنَّة في جميع شؤون حياتهم، في العقيدة، والعبادة، والخلق والسلوك، والحياة الخاصَّة والعامَّة، على المستوى الفردي، وعلى مستوى الأُمَّة، وكانوا يحتكمون إليها.

ومِمَّا ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[4]؛ ما قاله ابن قيم الجوزية: (وقد أجمع الناس على أن الرد إلى الله إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، وإلى سنته بعد مماته)[5].

وقال بعض المفسرين عن تفسيرها: (ثُمَّ أمر برد كل ما تنازع الناس

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد ١٣٢/٤ الحديث رقم: (١٦٧٤٣)، ترتيب: دار إحياء التراث العربي: ١١٨/٥، ١١٩، (مرجع سابق)، وانظر: الشافعي: الرسالة: ص ٩٠ (مرجع سابق). وانظر: عبدالغني عبدالخالق: حجيَّة السنة: ص ٣٠٨ - ٣٣٨، (مرجع سابق).

(٢) سبق تخريجه في مقدمة البحث: ص ٢٢.

(٣) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٥٩٢/٢، الحديث رقم [٨٦٧]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق). وانظر: ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١١٦١/٢ الحديث رقم [٢٣٠٠]، تحقيق: أبو الأشبال، (مرجع سابق).

(٤) سورة النساء: الآية (٥٩).

(٥) بدائع التفسير ٢٣/٢، ٢٤، (مرجع سابق).

فيه؛ من أصول الدين وفروعه، إلى الله والرسول؛ أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إمَّا بصريحهما، أو عمومهما، أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى، يقاس عليه ما أشبهه)[(١)].

وبلغ الأمر بالصحابة رضوان الله عليهم في التأسي بالرسول ﷺ أنَّ أحدهم يقتفي أثره في كل شيء حفظه عنه مِمَّا يفعله ﷺ ما لم يكن فعله خاصًّا به ﷺ[(٢)]، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[(٣)]، وقد (استدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أنَّ أمته أسوته في الأحكام، إلاَّ ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به)[(٤)].

ومِمَّا أورده بعض المفكرين عن حال علماء الأُمَّة مع السُّنَّة من حيث التمسك بها، والعمل بمقتضاها، والاحتجاج بها أن قوله: (إذا تتبعنا آثار السلف، وأخبار الخلف، من ابتداء عهد الراشدين إلى هذا العهد؛ لم

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن..، ٨٩/٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: السيوطي: مفتاح الجنَّة في الاعتصام بالسنة، (تحقيق: بدر بن عبدالله البدر): ص ١٢٠، ١٢١، (مرجع سابق)، حيث أورد من الآثار ما يؤكد شدّة متابعة عبدالله بن عمر رضي الله عنهما للرسول ﷺ، وأنّه كان يترسم خطاه في حله وترحاله، حتى في أيسر الأحوال..، وانظر: المرجع نفسه: ص ٦٠ - ٧٩، فقد أورد جملة من القضايا التي كانت تعرض للخلفاء الراشدين فيقضون فيها بسنة الرسول ﷺ حين تظهر لهم ويجتهدون في البحث عنها والسؤال عنها حتى تظهر لهم قبل أن يجتهدوا فيما يجد من القضايا..، وانظر: محمد أبو شهبة: دفاع عن السنة..: ص ١٧ - ١٩، (مرجع سابق).

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٢١).

(٤) السعدي: تيسير الكريم الرحمن..، ٢٠٨/٦، (مرجع سابق).

نجد إمامًا من الأئمة المجتهدين في قلبه ذرة من الإيمان وشيء من النصيحة والإخلاص: ينكر التمسك بالسنة من حيث هي سُنَّة والاحتجاج بها، والعمل بمقتضاها، بل بالعكس من ذلك: لانجد إلا متمسكًا بها، مهتديًا بهديها، حاثًّا غيره على العمل بها، محذرًا من مخالفتها... معتبرًا لها مكملة للكتاب شارحة له؛ راجعًا عن رأيه الذي ذهب إليه باجتهاده في كتاب أو غيره من الأدلة، إذا ما ظهر له حديث صح عنده، واعتبر في نظره، ولقد رويت هذه العبارة المشهورة «إذا صح الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط» ، وتواتر معناها عن الشافعي، ونقل ما يقرب منه عن كثير من المجتهدين... وما ذاك إلا لأمر عظيم الخطر، جليل الأثر، ألا وهو: أنه أصل من أصول الإسلام، وعليه مدار فهم الكتاب وثبوت الأحكام، فعلى حجية السُّنَّة انعقد إجماعهم، واتفقت كلمتهم، وتواطأت أفئدتهم)[1] ، ثُمَّ في نهاية قوله بين أن الخلاف إنَّما حدث بين الأئمة في أمرين:

أولهما: الاقتناع بأن الحديث صح إسناده للنبي ﷺ أو لم يصح.

وثانيهما: أن هذا الحديث أيدلُّ على هذا الحكم أم لايدلّ ؟)[2].

ومِمَّا يتصل بالسُّنَّة ما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة من فهم للقرآن والسُّنَّة، وتطبيق لهما في شؤون دينهم ودنياهم، والدليل على

---

(١) عبدالغني عبدالخالق: حجية السُّنَّة: ص ٣٤١، ٣٤٢، (مرجع سابق).

(٢) عبدالغني عبدالخالق: حجية السنة: ص ٣٤٢، (المرجع السابق نفسه)، وللمزيد من الاطلاع على تمسك السلف - ومن تبعهم من أئمة الأُمَّة وعلمائها - بالسّنّة واحتجاجهم بها، وإنكارهم على من خالفها، ورفعهم من شأنها، واحترامهم للحديث والتأدب في مجالسه، وعنايتهم بحفظه وكتابته؛ انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٤١ - ٣٨٢، فقد أورد عن ذلك آثاراً مستفيضة.

ذلك ما ورد من قوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإنْ عبداً حبشياًن فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين: تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[1].

وفي حديث آخر يحذر الرسول ﷺ فيه أمته من متابعة بني إسرائيل في التفرق، والانحراف عن المنهج الرباني المتميِّز، ويخبر بأن أمته تفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النَّار إلا واحدة، وحينما (قالوا: من هي يارسول الله ؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[2].

فدلَّ هذا الحديث وما قبله على اتصال سُنَّة الصحابة والخلفاء الراشدين بسنته ﷺ، ذلك أنهم صفوة الأُمَّة وخيارها، وحملة الرسالة وصفهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وعنهم أجمعين بقوله: (أولئك أصحاب محمد أبرُّ هذه الأُمَّة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم فإنَّهم كانوا على الهدي المستقيم)[3].

---

(١) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود ٤/٢٠٠، الحديث رقم: (٤٦٠٧)، (مرجع سابق).

(٢) سبق تخريجه: ص ٩٨، ٣٧٠، (البحث نفسه).

(٣) ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين ١٤١/٢. وانظر: الشاطبي: الموافقات ٥٨/٤، (مرجع سابق). وقد أورد نحوه عن غير عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه من أقوال الحسن وسعيد ابن جبير، وحذيفة بن اليمان، وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، وأثر ابن مسعود أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٠٥/١، ٣٠٦، وانظر: ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله: ٩٤٧/٢، رقم [١٨١٠]، وأخرج نحوًا منه للحسن البصري، برقم: [١٨٠٧]، تحقيق: أبو الأشبال، (مرجع سابق).

ولأنهم تلقوا العلم عن معلم البشرية ﷺ وعاصروا نزول القرآن الكريم، وشاهدوا بيان الرسول له وتطبيقه لأحكامه فكانوا أقرب الأُمَّة فهمًا لمقاصده ومراده، وقد أجمل الإمام أحمد الحديث عن ذلك في كتاب صنَّفه في طاعة الرسول وردٌ فيه - كما ذكر ابن قيم الجوزية - على من احتج بظاهر القرآن في معارضة سنن الرسول ﷺ وترك الاحتجاج بهأن ومِمَّا جاء فيه: (إنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُه وتقدست أسماؤه بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأنزل عليه كتابه. الهدى والنور لمن اتبعه، وجعل رسوله الدَّال على ما أراده من ظاهره وباطنه، وخاصه وعامه وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب؛ فكان رسول الله ﷺ هو المعبر عن كتاب الله الدَّال على معانيه، شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه واصطفاهم له، ونقلوا ذلك عنه، فكانوا أعلم الناس برسول الله ﷺ، وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم وما قصد له الكتاب، فكانوا هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ، قال جابر: ورسول الله بين أظهرنا عليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به)[1].

وخلاصة القول: أن الأُمَّة الإسلاميَّة أُمَّة ربانيَّة، وقد تبين ذلك حين الحديث عن كيفية تلقيها القرآن الكريم، على مدى ثلاث وعشرين سنة، وهي تتفاعل مع هديه وتوجيهاته، وأحكامه وأوامره ونواهيه، وكان قدوتها في ذلك الرسول ﷺ حتى بلغت ذروة التمام والكمال وفي ضوء المنهج الرباني، الذي تدرج في تربيتها من طور إلى طور ومن مرحلة إلى أخرى، وستبقى الأُمَّة الإسلاميَّة أُمَّة متميِّزة، ما تمسكت

---

(١) ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين ٢/٢٠٧، (مرجع سابق).

بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، وما دمت على ما كان عليه ﷺ وما كان عليه أصحابه الغر الميامين، ففي ذلك الصلاح والفلاح، والخير والهدي والنور، لأنهم التزموا صراط الله المستقيم، والمنهج الرباني القويم، ورسموا للأمَّة السبيل إلى ربها[1].

يقول عمر بن عبدالعزيز: «سنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنَّم وساءت مصيرًا»[2]، وللصحابة أقوال متقاربة حول هذا المعنى؛ كقول ابن مسعود: «اتبعوا آثارنا ولاتبتدعوا فقد كفيتم»[3]، وقول حذيفة: «اتبعوا آثارنا، فإن أصبتم فقد سبقتم سبقًا بينًا، وإن أخطأتم فقد ضللتم ضلالاً بعيدًا»[4].

* * *

(١) انظر: ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين ١٧٢/٢، (مرجع سابق). وانظر: الشاطبي: الموافقات ٥٤/٤ – ٥٩، (مرجع سابق). وفيها بحث ما يتعلق بسنة الصحابة وأورد الأدلة التي توجب العمل بها ومضامين ذلك.

(٢) الشاطبي: المرجع السابق نفسه: ٨٥/٤.

(٣) الشاطبي: المرجع السابق نفسه: ٥٨/٤.

(٤) الشاطبي: المرجع السابق نفسه: ٥٨/٤.

المطلب الثاني
موقف المستشرقين من خصيصة الربَّانيَّة

من أبرز ما يوضح موقف المستشرقين من خصيصة الربانيَّة موقفهم من القرآن الكريم، والسنة النبوية وسيرة الرسول ﷺ، وتدل نماذج من أقوالهم في ذلك على حقيقة هذا الموقف، وذلك وفق مايأتي:

أولاً: أقوالهم في مصدر القرآن الكريم مع الرد عليها.

ثانيًا: أقوالهم في السنة النبوية والسيرة النبوية مع الرد عليها.

أولاً: أقوالهم في القرآن الكريم:

تناول كثيرٌ من المستشرقين القرآن الكريم بالطعن والتشكيك من جوانب عدَّة؛ من حيث لفظه ومعناه، وتلاوته وأسلوبه، ونظمه وشكله، وطريق تنزيله وتدوينه، وثبوته، والأحكام المستنبطة منه، وما ورد فيه من أخبار وقصص، وكذا فيما ورد فيه من مغيبات والأوامر والنواهي ومايتصل بتاريخ القرآن الكريم وتفسيره، وكأنهم بعملهم هذا يرمون إلى إحداث اللغو فيه كما فعل المشركون من قبل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1].

ولعل من أبرز أقوالهم في القرآن الكريم التي تبين موقفهم من خصيصة الربانية ما يتعلق بمصدر القرآن الكريم، إذ يحاول معظمهم - بشكل مباشر وغير مباشر - أن ينسبه إلى محمد ﷺ وينفي كونه وحيًا من الله؛ ويبثون محاولاتهم تلك في مؤلفاتهم عن القرآن الكريم[2].

---

(١) سورة فصلت: الآية (٢٦).

(٢) انظر: عمر إبراهيم رضوان: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره ص٩٩- =

وفيما صنعوه من ترجمات لمعانيه بمختلف اللغات الغربية[1]، وكذلك في الموسوعات ودوائر المعارف ونحو ذلك من الأعمال التي أصدروها تحت مسمى البحث العلمي[2].

وإذا كانت تراجم معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية، أو الإنجليزية، أو الفرنسية، أو غيرها تعدُّ - في الغرب - السبيل إلى معرفة مصدر القرآن الكريم فقد حرص المستشرقون الذين تخصصوا في هذا المجال على ترسيخ الاعتقاد لدى كل من يطلع على تلك التراجم من الغربيين بأن مؤلف القرآن الكريم هو محمد ﷺ لنفي كونه رباني المصدر؛ ومن أمثلة ذلك ما ورد في مقدمة ترجمة (جورج سيل) لمعاني القرآن الكريم بالإنجليزية الصادرة في عام ١١٤٩ هـ - ١٧٣٦م: (أمَّا إنَّ محمدًا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيس له فأمرٌ لايقبل الجدل وإنْ كان

=١٨٨، (مرجع سابق)، تناول الباحث ثلاثة عشر كتابًا مؤلفة حول القرآن الكريم لثلاثة عشر مستشرقًا أفردوا تلك المؤلفات عن القرآن الكريم، وفي فصل آخر تناول مؤلفات أخرى خصصت للحديث عن القرآن الكريم صفحات منها وختم ذلك الفصل بذكر ١٠٨ عنوانًا حول القرآن الكريم ما بين كتاب مستقل عن القرآن الكريم أو مقال أو بحث أو دراسة؛ انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٢٠ - ١٣١.

(١) انظر: محمد صالح البُنْدَاق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، (مرجع سابق)، وانظر: ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية: ٢/٣٠٩ - ٣١٣، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد حسين علي الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية، أفرد فصلاً عن كتابة المستشرقين حول تاريخ القرآن...، وآخر حول ترجمة القرآن... وآخر حول التحقيق والفهرسة والتدوين... وآخر حول الدراسات الموضوعية في القرآن الكريم... ثُمَّ قوم الجهود الاستشراقية في فصل آخر وختم دراسته بمعجم للدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم؛ مرتبة على الحروف الهجائية من الألف إلى النون؛ انظر: المرجع نفسه: ص ١٠٥ - ١٢٢.

من المرجع - مع ذلك - أن المعاونة التي حصل عليها في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة، وهذا واضح في أنَّ مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك)[1].

وقد أصبحت فرية تأليف محمد ﷺ للقرآن الكريم من المسلمات لدى غالبية المستشرقين حتى العصر الراهن، وإذا كان بعضهم يورد ذلك بطريقة غير مباشرة، وبأسلوب أقل حِدَّة فإنَّهم - بالجملة - يحرصون على أن يبدوا هذا الأمر في سياق مايطلقون عليه الاستنتاجات العلمية[2].

ولَمَّا كان القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من القصص والتاريخ والعلوم والمعارف والنظم والمغيبات وغير ذلك مِمَّا تميز به من معالم الرؤية الشاملة الدقيقة للإنسان والكون والحياة وهذه الأمور لايتصور معرفتها والإحاطة من محمد ﷺ ولا من قومه، فقد زعم أكثر المستشرقين - على أساس من إنكارهم المصدر الرباني، ودعواهم أن

---

(١) نقلاً عن إبراهيم اللبان: المستشرقون والإسلام (ملحق مجلة الأزهر، عدد صفر ١٣٩٠هـ): ص٤٤ (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق... ص ٨٣، (مرجع سابق)، وانظر: أحمد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق... ص ٣٤ - ٣٦، (مرجع سابق)، وانظر: إبراهيم خليل إبراهيم: المستشرقون والمبشرون في العالم العربي... ص ٥٨.

(٢) انظر: زقزوق: الاستشراق... ص ٨٣، وانظر: ثابت عيد: ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الألمانية بين سموم المستشرقين وجهود المسلمين: ص ١٧، من جريدة الحياة ٢ شعبان ١٤١٦هـ، العدد [١١٩٩٤]، وهو مقال نشر في أربع حلقات على التوالي كان هذا الحلقة الأخيرة، وفيه دلَّلَ الباحث بأنَّ تراجم المستشرقين لمعاني القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية في القديم والحديث ترتكز على ركيزة واحدة مهما تغيَّر الأسلوب وهي أن مصدر القرآن الكريم بشريٌّ وليس ربانيًا.

القرآن من تأليف محمد ﷺ - قد اعتمد في تأليفه للقرآن الكريم على مصادر عِدَّة من أهمها:

١ - الكتاب المقدس، وفي ذلك يقول (ريتشارد بل) في كتابه: مقدمة القرآن: (إن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية)[(١)].

وقال آخر: (إن النصارى العرب سائرون في معتقداتهم في الاتجاه غير الصحيح؛ ولهذا كان هناك مجال لظهور الآراء البدعيَّة المنحرفة، ولولا ذلك لما كان محمد على علم بأمثال تلك الآراء التي تنكر صلب المسيح)[(٢)]، والذي يعنيه هذا المستشرق أن مصدر القرآن الكريم ليس ربانيًّا، وإنَّما جاء به محمد من لدنه متأثرًا بنصارى العرب؛ لأنهم ينكرون صلب المسيح ووافقهم القرآن الكريم في ذلك، وهذا يؤكد من وجهة نظر ذلك المستشرق - إنَّ محمدًا ﷺ هو مؤلف القرآن الكريم[(٣)].

٢ - الاعتماد على اليهود، وهذا مبني من وجهة النظر الاستشراقية على أمور عِدَّة، منها:

أ - التشابه بين القرآن الكريم مع كتب اليهود في القصص كقصة ابني آدم وقصة هاروت وماروت وقصة موسى عليه السلام، ونحو ذلك[(٤)].

ب - التشابه بين القرآن والتوراة في بعض القضايا العقدية

---

(١) اللبان: المستشرقون..: ص ٤٢ (المرجع السابق نفسه)، وانظر: زقزوق: الاستشراق... ص ٨٤، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: زقزوق: الاستشراق... ص ٨٥، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٨٥.

(٤) انظر: ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية... ٣٢٢/٢، (مرجع سابق).

والتشريعية.

ج - التأثر والاقتباس في فواتح السور وكذلك تقسيمه إلى سور وآيات[1].

وعن ذلك قال (لوت): (إنَّ محمداً مدين بفكرة فواتح السور من مثل: آلم، حم... إلخ لتأثير أجنبي)[2]، ويرجح أنه تأثير يهودي[3].

٣ - الاعتماد على الراهب (بحيرى)، وهذه المقولة تشكل لدى كثير من المستشرقين مصدر إلهام لمحمد ﷺ ويزعمون (أنَّ محمداً قد تمثل في نفسه ما سمعه من الراهب (بحيرى) في رحلته التجارية إلى الشام، وخرج على الناس يعلن دينه الجديد الذي لفقه من الدينيين الكبيرين)[4].

٤ - الاعتماد على الوسط الوثني الذي عاش فيه، واستدلوا على ذلك بالآتي:

أ - التشابه بين بعض آيات القرآن وبعض أشعار الجاهليين من أمثال (امرؤ القيس) في قوله:

دنت الساعة وانشق القمر　　　عن غزال صاد قلبي ونفر[5]

إلى قوله:

---

(١) انظر: أحمد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق... ص ١٣٤، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن زقزوق: الاستشراق... ص ٨٥، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٨٥.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٨٥.

(٥) أوردها (توسدال)؛ نقلاً عن: التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون: مناهج المستشرقين.. ٤/١، (مرجع سابق)، وقد بحثتُ عن هذه الأبيات في سائر دواوينه و لم أجدها ولعلّها من المنحولات في الشعر الجاهلي التي لاقت رواجًا لدى المستشرقين.

بسهامٍ من لحـــاظٍ فاتك   تركتني كهشـــيم المحتضر[1]

و (أُميَّة بن أبي الصلت): الذي وصف طوفان نوحٍ عليه السلام وغرق فرعون، وذكر الساعة وأهوالها، من مثل قوله - على حد زعمهم -:

ويومٌ موعدهـم أن يحشروا زمرا   يوم التغابن إذ لا ينفـع الحـذر

مستوثقين مع الداعي... كأنهم   رجل الجراد رمتـه الريح فتنتشر

وأبرزوا بصعيـــد... جـــرز   وأنزل العـــرش والميزان والزبـر

يقول خزانها ما كان عنـــدكم   ألم يكن جاءكم من ربكـم نـذر

قالوا بلى فتبعنا فتية... بطـروا   وغرّنا طول هذا العيش والعمر[2]

ب - التشـابه بـين عقـائد الإسـلام وشـعائره وبـين عـادات الجاهليَّة وتقاليدها، وعلى هذا فالقرآن الكريم امتداد للحركة الدينية التي كانت سـائدة في الوسـط الوثـني مـثل مناسـك الحـج وتقديـس الكعبة ونحـو ذلك)[3].

٥ - ذات الرسول ﷺ وأنَّـه مصدر القرآن الكريم مع تأثره بالمؤثرات السابقة مجتمعة أو متفرقة ولكنَّه المصدر الأساس في القرآن الكريم، ثُمَّ يتفرع عن هذه المقولة اتجاهان:

الأول: يرى أن محمدًا ﷺ كـان مصاباً بالصرع والهلوسة أو الجنون

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٣٤.

(٢) التهامي نقرة: المرجع السابق نفسه: ص ٣٣، ٣٤، وهذه الأبيات أيضًا مِمَّا وضع على لسان أُميَّة كما أشار إلى ذلك جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٩٥/٦، (مرجع سابق).

(٣) انظر: مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون... (مرجع سابق): ص ٤٦. وانظر: كليرتسدال: مصادر الإسلام: ص ٦، نقلاً عن عمر رضوان: آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره... ٢٤٠/١، (مرجع سابق).

ومنهم من زعم أنَّه ساحر وأنَّ ماجاء به السحر[1].

الثاني: ينفي عن الرسول ﷺ كل هذه الاتهامات ويصفه بالصدق والإخلاص، ولكنه مع ذلك يتفق وبقية المستشرقين في كون القرآن الكريم صدر عن محمد ﷺ وأنه هو مصدره وليس من عند الله، كما ينفي الوحي ونبوة الرسول ﷺ، أمَّا تفسيره للقرآن الكريم وماجاء به الرسول ﷺ وما حققه من قيام أُمَّة وتأسيس دولة وإنشاء حضارة فإنه يعزو ذلك إلى (الخيال الخلاق).

يقول (مونتغمري وات): (من وجهة نظري هناك خيال خلاّق متدفق لدى محمد، وإنَّ معظم الأفكار الناجمة عن هذا الخيال صحيحة وعادلة، ولكن ليست كل الأفكار القرآنية صحيحة وعادلة بل توجد على الأقل نقطة واحدة غير صحيحة، ألا وهي أن الوحي أو الخيال الخلاق أسمى من تصرفات الإنسان المادية باعتبارها مصدرًا لوقائع تاريخيَّة مجملة)[2].

هذه بعض النماذج من مزاعم المستشرقين حول مصدر القرآن الكريم، والحقيقة أنَّ (أكثرهم يكادون يتفقون على أنَّه ليس من عند الله، وعلى أن محمدًا استقى مادته من الأحبار والرهبان... وكان يتلقى عنهم المعلومات الدينيَّة من كتب العهدين)[3]، وحتى أولئك المستشرقين الذين أثنوا على محمد ﷺ ووصفوه بالعظمة والعبقرية والخيال الخلاق

---

(1) انظر: عمر رضوان: المرجع السابق نفسه: ١/٣٧١، ٣٨١ - ٤٠٥.

(2) انظر: مونتغري وات: WAATT(M.) Monamet, Op. Cit, P.210 نقلاً عن ساسي سالم الحاج، الظاهرة الاستشراقية ٢ / ٣٥٥ (مرجع سابق).

(3) انظر: التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون: مناهج المستشرقين: ١/٢٦، (مرجع سابق).

يلتقون مع غيرهم من المستشرقين الذين زعموا بأن محمداً ﷺ اعتمد في تأليفه القرآن الكريم على الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد، فالكلُّ ينفي ربانية المصدر بصفتها خصيصة من خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة ولايُسْتَثْنَى منهم إلاَّ أفراد قلائل انفكوا عن المنهج الاستشراقي الموجَّه واعترفوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته وبأن الإسلام صادر عن الله عزوجل وبأن ربانية المصدر من خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وسيتضح ذلك من خلال الردود على مزاعم المستشرقين.

وقبل الرد على تلك المزاعم ألمح إلى أبرز ما ترتَّبَ على نفي ربانية مصدر الإسلام وكون محمد ﷺ هو الذي لفق القرآن الكريم، إذ كرس المستشرقون مجهوداتهم حول تأليف محمد ﷺ القرآن الكريم ليترسخ الاعتقاد من خلال الدراسات الاستشراقية بأنَّ الإسلام دين بشري وضعه محمد ﷺ[1]، وبالتالي جاء وصف المسلمين (بالمحمدية) أو (المحمديون) إزاء وصف النصرانية بـ (المسيحية)، ومِمَّا يترتب على ذلك أنَّه مادام الإسلام دين محمد ومحمد بشر فإنَّ الإسلام لايستحق الانتشار ولا السيادة ويلزم أنْ لا ينتشر لأنه وضعي ومصدره بشري، أمَّا المسيحية فهي على حد زعمهم منسوبة إلى المسيح وهو جزء من الإله في عقيدتهم وعلى ذلك فالنصرانية دين سماوي لابُدَّ أن يعلو وينتشر[2].

إنَّ مثل هذه المحاور التي تدور عليها دراسات المستشرقين تدلنا بما فيه الكفاية على أن تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة أحد أهدافها البارزة، ومن

---

(١) انظر: ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية.. ٣١٢/٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: هستون سميث: ديانات الإنسان.. نقلاً عن عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية ومقالات أخرى: ص١١٩، من منشورات المكتبة العصرية - بيروت (بدون تاريخ).

يدري فلعل تلك الحروب الصليبية الطاحنة التي تحاول استئصال المسلمين في بقاع شتى من العالم بكل قسوة وتعسف تنطلق من هذه العقيدة التي رسختها الدراسات الاستشراقية في أذهان صانعي القرار في الغرب، ولاسيما بعد عودة العالم بعامة إلى العقيدة الدينيَّة وارتكاز النظام العالمي الجديد عليها فيما يظهر، والله أعلم.

أمَّا الردود على تلك المزاعم حول مصدر القرآن الكريم فيأتي أبرزها في النقاط الآتية:

١ - يردُّ على المستشرقين بالردود القرآنية على المشركين؛ لأنَّ المستشرقين حذوا في موقفهم المعادي للقرآن حذو مشركي مكة، فقد زعموا بأنَّ الذي يعلم الرسول ﷺ عبدٌ رومي[١]، كان يصنع السيوف في مكة فردَّ عليهم المولى - عزَّ وجلَّ - زعمهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[٢].

وفي سورة (الفرقان) إجمال لادعاءاتهم ودحضها، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَقَالُوا۟ مَالِ

---

(١) سبق ذكر هذا الشخص وما ذكره المفسرون حوله وأنه كان قينًا نصرانيًّا قيل اسمه (بلعام) وقيل: (يعيش)، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام: ص ٢٧٠ - ٢٧١. وانظر: الجواب الصحيح.. لابن تيمية ١/٤٠٥، وانظر: تفسير الطبري ١٤/١١٩ ومابعدها و ١٨/١٣٧ ومابعدها، (مراجع سابقة).

(٢) سورة النحل: الآية (١٠٣).

هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [1].

وفي سورة (الحاقة) نفي لدعواهم وذكرٌ لما يلزم منها لو كانت صحيحة، قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [2]

وفي سورة (الشعراء) وصف لطريق نزوله ومصدره والمراد منه، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [3] إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) سورة الفرقان: الآيات(٤ - ١١).

(٢) سورة الحاقة: الآيات (٤١ - ٥٢).

(٣) سورة الشعراء: الآيات (١٩٢ - ١٩٥).

بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[1].

وبعد بضع آيات ينفي - جَلَّ وَعَلاَ - أن تتنزل به الشياطين أو تسمعه قبل نزوله على الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[2].

كذلك بيَّن الله - جَلَّ وَعَلاَ - أنَّ ما حدث لمحمد ﷺ من هذه التهم سنَّة جرت عليها الكفارُ مع أنبيائهم، قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[3].

٢ - وفيما يتعلق بالقصص القرآني؛ سواءً قصص العرب، أو اليهود، أو النصارى، وما حدث في تاريخ الجميع من انحراف وفساد وضلال وتحريف وتعطيل في مجال العقيدة أو الشريعة أو المنهج والسلوك، فكل ما ورد في القرآن الكريم لم يكن الرسول ﷺ ولا قومه على علم بحقيقته ولايدري به، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[5].

وإذا كان بعض ما ورد في القرآن الكريم من قصص أهل الكتاب

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (١٩٨ - ٢٠١).

(٢) سورة الشعراء: الآيات (٢١٠ - ٢١٢).

(٣) سورة فصلت: الآية ٤٣. وانظر: ابن تيمية:ا لجواب الصحيح...: ١٦١/١ - ١٦٢، (مرجع سابق).

(٤) سورة هود: الآية (٤٩).

(٥) سورة يوسف: الآية (١٠٢).

يتوافق مع بعض ما لديهم من بقايا الحقائق والوقائع التاريخية فإنّ القرآن الكريم قد أورد وجوهًا أخرى لذلك القصص، وعلى نحو يجهله أهل الكتاب مثل قصة مريم عليها السلام، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[1].

وبالجملة فإنّ القصص في القرآن الكريم قد جاء بما هو أوسع مِمَّا يعرفه اليهود والنصارى في شتَّى بقاع العالم وما يعرفه العرب وما يعرفه الراهب (بحيرى)، وجاء في صورة أكمل وأعلى مِمَّا يعرفه جميع البشر.

يقول جواد علي: (... التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث عن العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنّة والنار والحساب والثواب والعقاب، ونحو ذلك... لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى)[2].

والسؤال الذي يفرض نفسه عندئذٍ من أين أخذ محمد ﷺ كل ذلك؟! إنها النبوّة والوحي والرسالة، إنَّه الإعجاز الذي يُعَدُّ من دلائل نبوّة المصطفى ﷺ[3]، قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٤٤).

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٩٥/٨، (مرجع سابق)، وانظر: أحمد محمد شاكر، في تعليقه على مادة حديث في دائرة المعارف الإسلاميّة: ٤٠١/١٣ - ٤٠٨، (مرجع سابق).

(٣) انظر: الإمام الباقلاني: إعجاز القرآن..: ص ٣١، ٣٨، ٣٩ - ٥٦، ٥٧ - ٧٢، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عن مؤسسة الكتب الثقافية..، بيروت.

شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾[1] إنَّه وحي الله الذي اصطفى له صفوة من الخلق هم أنبياء الله ورسله، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[2].

إذن فالقرآن الكريم من الكتب السماوية التي يؤمن بها المسلمون أُنْزِلَ مصدقًا لها ومهيمنًا عليها: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[3]، صدر عن الله وحده لا شريك له وأوحى به إلى نبينا محمد ﷺ كما أوحى إلى الأنبياء من قبله، وإذا كان المستشرقون - كما قال أحد الباحثين -: (يعترفون بالوحي والأنبياء فلماذا ينكرون على محمد ﷺ ما يجيزونه لليهود والنصارى، ولماذا لايكون الإسلام حلقة أخيرة في حلقات الأديان ولبنة متممة لذلك الصرح الشامخ...، أمَّا إذا كانوا ينكرون الوحي ويجعلون الأديان على صعيد واحد مع الاتجاهات الفكرية البشرية فإنَّ منهجهم هذا مرفوض وقاصر عن فهم طبيعة الأديان، وعندها تكون الأديان

---

(١) سورة النجم: الآيتان (٤، ٥).

(٢) سورة النساء: الآيات (١٦٣ - ١٦٦).

(٣) سورة المائدة: الآية (٤٨).

جميعًا مهدَّدَة بموجة إلحادية تعصف بكل القوى الروحية في العالم)[1].

ولكن الغريب في أمر أولئك المستشرقين أنهم جعلوا ربانية المصدر للإسلام مجالاً للنقد والجدل النظري والمنهج التجريبي ونأوا بالديانة النصرانية عن ذلك أو بعبارة أدق، (لم يحاولوا التشكيك في وحي عيسى عليه السلام باسم المنهج العلمي نفسه بل صانوه وأقاموا الدعوى على أنَّه بديهي التسليم وبعيد عن مجال الجدل العقلي النظري أو العلمي التجريبي)[2].

ويتساءل أحد المفكرين عن هذا التناقض والنظرة المتعصبة إزاء الوحي، إذ يسلمون به لعيسى عليه السلام وينكرونه في حق رسولنا محمد ﷺ فيقول: (إذا كان الوحي - كأمر غير اعتيادي - يخضع للطريقة العلميَّة الحديثة، أفلا يقضي المنهج السليم أن يكون أنواع الوحي في ذلك سواء، فلِمَ يناقش نوع واحد من الوحي (الوحي المحمدي) باسم العلم ويتشكك فيه، ويصان الآخر، ويقال فيه: إنه بديهي التسليم وبعيد عن مجال الجدل العقلي النظري، أو العلمي التجريبي.. والهجوم على الإسلام.. في فكرة (بشرية القرآن)، يقابله رفق ورقة في التعبير عن «المسيحية» أو عن الكنيسة)[3].

٣ - ويرد على المستشرقين بردود علماء الإسلام على النصارى

---

(١) انظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ٨٦، ٨٩، ١٢٠، (مرجع سابق).

(٢) محمد البهي: الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار: ص ٢٤٧، (مرجع سابق)، وانظر: عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام: ص ٢١، (مرجع سابق).

(٣) انظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي..: ص ٢٤٧، ٢٤٨، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام..: ص٢١، (المرجع السابق نفسه).

وغيرهم[1] ممن أثار شبهة بشرية القرآن الكريم (لأنَّ المستشرقين يجترون افتراءات من سبقهم من المشركين واليهود والنصارى، وإذا كان علماء المسلمين والذين هداهم الله للإسلام من علماء أهل الكتاب بأقوالهم وكتاباتهم الصريحة قد زلزلوا تلك الشبهات من جذورها حتى غدت هشيمًا تذروه الرياح فإنَّ ردودهم الشَّافية ومنهجهم العلمي ومجادلتهم الشرعيَّة من أنجع الردود على شبهات المستشرقين حول مصدر القرآن الكريم)[2].

٤ - أمَّا قول (جورج سيل): (وهذا واضح في أنَّ مواطنيه - يعني محمدًا ﷺ - لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك) مستدلا بمجرد اعتراضهم على تأليف الرسول ﷺ للقرآن الكريم - حسب زعمه - فإنَّ المنهج العلمي يلزم (سيل) باستقصاء هذا الاعتراض ليوضح لقارئيه نهاية الدعوى التي أشار إليها وبنى عليها استنتاجاته الضَّالة بيد أنَّه ومن سلك منهجه من المستشرقين - كما قال أحد الباحثين -: (يضعون الفكرة أولاً ثُمَّ يبحثون عن أدلة تؤيدها مهما كانت واهية، ويلجأون إلى الاعتماد على أسلوب المغالطات والأكاذيب واقتطاع النصوص والحوادث التاريخية وفقا لأهوائهم ونزعاتهم، وهذا عكس المنهج العلمي في

---

(١) انظر: المبحث الختامي ص ١١٥٧، (البحث نفسه).

(٢) انظر: محمد أحمد محمد عبدالقادر خليل ملكاوي: بشرية المسيح ونبوة محمد ﷺ في نصوص كتب العهدين (ردٌّ على شبه المنصرين والمستشرقين) وهو القسم الثاني لكتاب المناظرة الكبرى بين العلامة الشيخ رحمه الله، والقسيس الدكتور فندر: ص٧، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، مطابع الفرزدق التجارية - الرياض. وانظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٤٩٣، (مرجع سابق).

الاستدلال)[1].

ولو التزم (سيل) بالمنهج العلمي لذكر ردّ القرآن الكريم على مشركي مكة ولكنه يعرف بعمق كيف يؤثر القرآن الكريم بقوة حجته وبيانه ويجلو الحق، فترك هذا الجانب مجافاة للمنهج العلمي الصحيح، وافتِئَاتًا على الحقيقة التاريخية في هذه الدعوى التي أثارها وكانت نهايتها التاريخية ظهور الحق وعلو كلمة الله، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، ونزول قول الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[2]، فقد نزلت هذه الآية بعد أن نصر الله عبدَه وأعزَّ جندَه، وهزم الأحزاب وحده، وثبت للدنيا بأسرها بأنَّ القرآن الكريم كلام الله أوحاه إلى نبي الرحمة والهدى... وبأنَّ اعتراضات مشركي مكة ودعواهم قد تهافتت، فنَّدَها القرآن الكريم، وكذبتها الوقائع التاريخية ولكن (سيل) وزمرته في غمرتهم لاهون.

٥ – أمَّا مقولة (لوت) عن التأثير الأجنبي في القرآن الكريم وترجيحه أن يكون التأثير يهودياً، وأن محمدًا – كما يزعم – مدان لهذا التأثير في فواتح السور؛ من مثل (آلم..) ونحوهاأن فإنَّ هذا المستشرق نسي أو تناسى أن عدد السور التي افتتحت بهذه الحروف تسع وعشرون سورة، نزل منها سبع وعشرون سورة على النبي ﷺ بمكة المكرمة قبل مجاورته لليهود في المدينة، ونزلت سورتان فقط، هما (البقرة،

---

(١) عبدالرحمن حبنكة: أجنحة المكر الثلاثة..: ص ١٤٧، (مرجع سابق).

(٢) سورة المائدة: الآية (٣).

وآل عمران) بعد هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة[1].

ثُمَّ إنَّ هذا المستشرق نسي أو تناسى أن علاقة الرسول ﷺ باليهود في المدينة كانت علاقة دعوة وجهاد، ولم تكن علاقة تأثرٍ وتلمذةٍ واقتباس[2].

٦ - أمَّا تأثير الراهب (بحيرى) على الرسول ﷺ بسبب ملاقاته إيَّاه في رحلته التجارية إلى الشام[3]، فإنَّ ذلك مردود من الناحيتين العقليَّة والتاريخية:

فمن الناحية العقليَّة كيف يُمكن الرسول ﷺ أن يحصل قدرًا من المعارف والعلوم والمغيبات والقصص في لقاءٍ عابر لايُمكن لعقل سليم أن يتصور مثل ذلك، ولئن كانت بعض مزاعم المستشرقين في هذا الصدد

---

(١) انظر: إبراهيم الأبياري: تاريخ القرآن: ص ١٧٢، ١٧٣، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد عبدالله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم: ص ١٥١، (مرجع سابق).

(٣) جاء في المصادر الإسلاميَّة أنه ﷺ سافر مرَّةً مع عمه أبي طالب إلى (بُصْرَى) التي كانت موطنًا لصوامع الرهبان ومنهم (بحيرى) وأنَّ عمره آنذاك تسع سنين كما في: الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٢٣/١، ٢٧٨/٢، (مرجع سابق)، والروض الأنف للسهيلي: ٢٢١/٢، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، الطبعة الأولى، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م، عن دار الكتب الحديثة، القاهرة، وعيون الأثر لابن سيد الناس: ٥٢/١، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي..، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م، عن منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

وقيل: وهو ابن اثنتي عشرة سنة كما يرى ابن الجوزي في كتابه: الوفا بأحـوال المصطفى ١٣١/١، الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، عن دار الكتب الحديثة القاهرة، إذ يقول: (لَمَّا خرج أبو طالب إلى الشام خرج معه رسول الله ﷺ في المرة الأولى وهو ابن اثنتي عشرة سنة).

تقتصر على مجرد أنَّه بثَّ في روع الرسول ﷺ أنَّه النبي المنتظر[1] ، فإنَّ مجرد هذا البثّ أو الإيهام لايكفي تفسيرًا لما جاء به الرسول ﷺ من العلم والحكمة والنبوة.

ومن الناحية التاريخية؛ لم يثبت في كتب التاريخ والسيرة أنّ أحدًا من قوم الرسول ﷺ أثار هذا الاحتجاج مع قوته لو وقع بالفعل، وإذ لم يحتج به المشركون مع شدّة عدائهم للرسول ﷺ وحاجتهم لمثل هذه الحجة كان ذلك دليلاً على إسقاط هذه الحجّة[2] .

ومن ناحية أخرى فإنَّ حادثة ملاقاة الرسول ﷺ للراهب (بحيرى)، قد أثير حولها كثيرٌ من التساؤلات والتشكيك في سندها التاريخي[3] ، مِمَّا دعا المستشرق (هوارت) إلى القول: (لاتسمح النصوص العربية التي عثر عليها، ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى في الدور

---

(١) انظر: شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان: ص ٣٥، (مرجع سابق)، أورد مقولات لنفرٍ من المستشرقين أمثال (سيديو) و (نورمان دنيال) و (لوبون)، زعموا فيها أنَّ (القرآن من تأليف الراهب بحيرى أعطاه محمدًا أثناء وجوده في بلاد الشام).

(٢) انظر: ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية... ٣٣٣/٢، ٣٣٤، (مرجع سابق).

(٣) لدراسة موسعة حول ما قيل عن سند الروايات التي ذكرت رحلة الرسول ﷺ إلى الشام وخبر ملاقاته بـ (بحيرى) راجع الآتي:

- الذهبي: تاريخ الإسلام.. ٥٥/١ - ٦٠، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، عن دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
- عماد الدين خليل: دراسة في السيرة: ص ٣٩، ٤٠ وص ٢٧١، ٢٧٢، (مرجع سابق).
- أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية: ص ١٠٣ - ١٠٥، طبعة دار الشروق، جدة، ١٩٧٧ م.
- محسن عبدالحميد: تحقيق قصة بحيرى، مجلة الجامعة، عدد [٤] سنة [٩]:ص ٦٩- ٧٣.

المسند إلى هذا الراهب السوري إلاّ مجرد قصة من نسج الخيال)[1].

ولو صحت قصة الراهب (بحيرى) كما وردت في المصادر الإسلاميَّة فإنَّها حجة لنبوة محمد ﷺ ورسالته وليست ضدها كما فسرها بعض المستشرقين؛ لأنّ ما تفوه به الراهب (بحيرى) مجرد بشارة بنبوة الرسول ﷺ جرت على لسان غيره في كثير من المواقف التي ذكرت في بعض المصادر التاريخية[2].

٧ - أمَّا دعوى المستشرقين بأنَّ (الوسط الوثني) أو البيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ كانت مصدرًا من مصادر القرآن الكريم باعتباره

---

(١) نقلاً عن محمد عبدالله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم: ص ١٣٤، (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق...: ص ٨٥، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ابن إسحاق: سيرة ابن إسحاق: ص ٥٣ - ٥٧، تحقيق: محمد حميد الله، (مرجع سابق)، وسيرة ابن هشام ٢٠٥/١ - ٢٠٧، (مرجع سابق)، وتاريخ الطبري ٢٧٧/٢، ٢٧٨، (مرجع سابق)، وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، جـ١، الجزء الأول، المجلد الأول: ص ٢٧٠ - ٢٧١، ترتيب: عبدالقادر بدران، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، عن دار التراث العربي، بيروت، وانظر: دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني: ١٦٨/١ - ١٧٤، (مرجع سابق)، ونهاية الأرب للنويري: ٩٠/١٦ - ٩٢، طبعة القاهرة، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥ م، عن وزارة الثقافة..، المؤسسة المصرية العامة للتأليف..، والسيرة النبوية لابن كثير ٢٤٣/١ - ٢٤٩، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، (بدون تاريخ)، والخصائص الكبرى للسيوطي ٨٤/١، (مرجع سابق).

وأصل قصة ملاقاة الرسول ﷺ مع الراهب (بحيرى) ما ورد في بعض كتب السنة واشتهر عند أهل المغازي، ومن أصحها ما أخرجه الترمذي عن عبدالرحمن بن غزوان ولقبه قراد وكنيته أبو الفرج وقد قال عنها الترمذي بعد أن ساق الرواية: (هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلاّ من هذا الوجه) الترمذي: الجامع الصحيح... ٥٥٠/٥ - ٥٥١، الحديث رقم [٣٦٢٠]، (مرجع سابق).

تشابه مع شعر بعض الشعراء الجاهليين مثل (امرئ القيس) و (أميَّة بن أبـي الصلت)، فإنَّ الـرد علـى هـذه المـزاعم مـن وجـوه كـثيرة[1]، مـن أبرزها:

أ - كيف يسمح المنهج العلمي للمستشرقين بقبول الأخبار والروايات التي ذكرت تلك الأشعار المشابهة لبعض آيات القرآن الكريم على لسان (امرئ القيس) و (أميّة بن أبي الصلت)، وهـم يشككون - بل يتجاوز أكثرهم الشك إلى الجحود - فيما يتعلق بالأخبار والـروايات الواردة في السيرة النبوية والسنة المطهرة مع أنّ تلك الأخبار والروايات الواردة في أشعار (امرِئ القيس) و (أميَّة بن أبي الصلت) أدنى إلى الشك وأقل صحة وصدقا.

وقد تساءل بعض الباحثين عن هذا المنهج الزائغ ونقد ذلك الموقف الاستشراقي نقدًا لاذعًا إذ قال: (والغريب في أمر المستشرقين في هذا الموضوع وأمـثاله، أنَّهُـم يشـكون في صـحة (السـيرة) نفسـها، ويـتجاوز بعضـهم الشـك إلى الجحـود، فلايـرون في السـيرة مصـدرًا تاريخـيًّا صحيحًا، وإنَّما هي عندهم كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعًا طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق ليَمْتَاز صحيحها من منحولها: هم يقفون هذا الموقف العلمي من السيرة ويغلون في هذا الموقف؛ ولكنهم يقفون من أميَّة ابن أبي الصلت وشعره موقف المستيقن المطمئن، مع أن أخبار أميَّة ليست أدنى إلى الصدق، ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة. فما سرّ هذا الاطمئنان الغريب إلى نحوه من

---

(١) لمزيد من الاطلاع على دحض تلك المزاعم؛ انظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٤٩٢ - ٤٩٩، (مرجع سابق).

الأخبار دون النحو الآخر ؟، أيمكن أن يكون المستشرقون أنفسهم لم يبرؤوا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات) [١].

ب - وهذه الأشعار التي رويت عن (امرئ القيس) و (أميَّة بن أبي الصلت) أثبت بعض الناقدين بأنها منحولة ومتكلفة، ونظمت في العصر الإسلامي، يقول العقاد: (وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين في أمر العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم، أنَّهم يحسبون أن العلماء المسلمين يجدون في بحث تلك الأبيات وصبًا واصبًا لينكروا نسبتها إلى الجاهليَّة، ولايلهمهم الذوق الأدبي أن نظرة واحدة كافية لليقين بإدحاض نسبتها إلى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهليَّة) [٢].

وانتقد أحد المستشرقين القول بأنَّ محمدًا ﷺ تأثر بشعر (أُمَيَّة بن الصلت) وأنَّ ذلك الشعر من مصادر القرآن الكريم بقوله: (أمَّا القول بأن محمدًا قد اقتبس شيئًا من قصائد أُمَيَّة فهو زعم بعيد الاحتمال) [٣].

إلاَّ إنَّه سقط هو أيضًا في الدعوى الاستشراقية الدراجة في أوساط

---

(١) طه حسين: في الأدب الجاهلي: ص ١٤٣، الطبعة الثانية عشرة، ١٩٧٧ م، عن دار المعارف، القاهرة، وانظر: التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون: مناهج المستشرقين..: ٣٣/١، (مرجع سابق).

(٢) الإسلاميات، المجلد السابع، الجزء الثالث: ص ٢٥٨، الطبعة الأولى، ١٩٧٤ م، دار الكتاب اللبناني، بيروت، وانظر: التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون: مناهج المستشرقين..: ٣٤/١، (المرجع السابق نفسه).

(٣) نقلاً عن دائرة المعارف الإسلاميَّة: ٤٦٣/٤، (مرجع سابق).

المستشرقين وهي الزعم بأنّ اليهودية والنصرانية هما مصدرا القرآن الكريم، وأدرج الرسول محمداً ﷺ في زمرة المتأثرين بأهل الكتاب؛ إذ يقول: (ومحمد وأُمَيَّة وغيرهما من رجال الدين.. اقتبسوا جميعًا من مصادر واحدة)[1].

وقد عُلِّقَ على أقواله بردودٍ من أبرزها:

- إنَّ المشركين لم يعدوا شعر أميّة بن أبي الصلت من مصادر القرآن مع شدّة عدائهم للرسول ﷺ وحاجتهم والحالة هذه لمثل هذا القادح، وإذ لم يجعلوه مصدرًا من مصادر القرآن الكريم تبين من ذلك أنّه[2] (لم تكن مشابهة بين شعر أُميَّة والقرآن المجيد)[3].
- (إنَّ الأشعار المنسوبة إلى أُمَيَّة في أخبار القرون الأولى وما شابه ذلك ليست له بل نحله الرواة إيَّاهَا.. فيها الصنعة.. وفيها ضعف المولدين.. وليس فيها قوة الجاهليين)[4].

هذه أبرز الردود على مقولة المستشرقين في هذا الصدد، أمَّا ما يتعلق

---

(١) دائرة المعارف الإسلاميَّة: ٤/٤٦٤، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: محمد عرفة: تعليق على مادة (أُميَّة بن أبي الصلت) في دائرة المعارف الإسلاميَّة؛ المرجع السابق نفسه: ٤/٤٦٥.

(٣) محمد عرفة: المرجع السابق نفسه: ٤/٤٦٥، ولاينفي ذلك كون الرسول ﷺ قد سمع شعر أميَّة وأثنى عليه، كما ورد لدى مسلم: صحيح مسلم: ٤/١٧٦٧، كتاب الشعر، الحديث رقم (٢٢٥٥)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ٤/٤٦٥، وانظر: تور أندريا: المرجع السابق نفسه: ٤/٤٦٤، غير أنّه اتهم مفسري القرآن الأولين بالانتحال وخصَّ على سبيل المثال: السدي وابن عباس. انظر: المرجع السابق: ٤/٤٦٤.

بمزاعمهم عن التشابه بين القرآن الكريم وبعض عادات الجاهليَّة وتقاليدها ونظمها فقد سبق الرد عليها[١].

٨ - تناول محمد عبدالله دراز جميع الافتراضات المتعلقة باحتمال وجود مصدر بشري للقرآن الكريم وناقشها مناقشة علميَّة أظهر من خلالها زيف تلك الافتراءات وبطلانها وقال إنَّ: (جميع سبل البحث التي وقعت تحت أيدينا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أيٍّ احتمال لطريق طبيعي أتاح له - يقصد النبي ﷺ - فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة، (وعلى الرغم من) الجهد الذهني الذي نبذ له لتضخيم معلوماته السمعية، ومعارف بيئته، فإنَّه يتعذر علينا اعتبارها تفسيرًا كافيًا لهذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة والمفصلة التي يقدمها لنا القرآن الكريم في مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون...)[٢].

٩ - اعترف بعض الغربيين بإعجاز القرآن الكريم وأنَّ مصدره إلهي، وقال: (لو كان محمد مؤلف القرآن فكيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع العلوم الحديثة...)[٣].

ثُمَّ يستشهد بعلم الأجنَّة، وتطور الجنين، وأنَّ القرآن الكريم وصفها

---

(١) انظر: مبحث العقيدة: ص ٣٦٤ - ٣٧٠، (البحث نفسه).

(٢) محمد عبدالله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم.. ص ١٦٥، (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ٨٦، (مرجع سابق).

(٣) موريس بوكاي: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. ص ١٤٥، عن الفتح للإعلام العربي - مصر، (بدون تاريخ)، وانظر: زقزوق: الاستشراق... ص ٣٦، (مرجع سابق).

بصورة تطابق معطيات علم الأجنّة الحديث[1].

ومع التقدير لهذا الباحث وما توصل إليه إلاّ أنّه ينبغي ألا يَنْسَاق المسلمون وراء بريق التفسير العلمي للقرآن الكريم؛ لأنّه هو الحجّة... وهو المهيمن على غيره من الكتب والعلوم فما وافقه من معطيات العلم ونظرياته وحقائقه فهو شاهد لها وليست هي الفيصل في ذلك، وإنّما تؤخذ العبرة ويلزم الخصم بمنطقة من باب الدعوة والجدل.

١٠ - وقد اعترض بعض المستشرقين ومنهم المستشرق السويدي (توراندريه) على تلك الطريقة التي سلكها عامّة المستشرقين في البحث ومحاولتهم أن يثبتوا بشرية القرآن الكريم، وأعلن أن جوهر النبوة لايُمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية، وأن الإسلام لاينكر صلاته بالديانة اليهودية والنصرانية وعقيدة الحنيفية وتقاليد العرب، ولكن لايعني ذلك أنّه مجرد مجموعة من هذه العناصر[2].

وعلى الرغم من كونِ (توراندريه) لم يرقَ في كلامه إلى الاعتراف التام بنبوة محمد ﷺ إلاّ إنّه يقترب من بيان عقيدة الإسلام في الكتب السماوية والرسل؛ قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[3].

---

(١) انظر: موريس بوكاي: المرجع السابق نفسه: ص ٢٣٢ - ٢٣٤.

(٢) نقلاً عن: التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون: مناهج المستشرقين..: ٣٦/١، (مرجع سابق).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٨٥).

وخلاصة القول:

أن كل ما طرحه المستشرقون من شبهات حول مصدر القرآن الكريم لايعدو كونه مزاعم واهية لا حظ لها من العلم ولاتقوم بها أدنى حُجَّة وليس لها سند تاريخي موثوق، وإنَّما هي تخمينات وافتراضات أساءت إلى المنهج الاستشراقي في دراسته للإسلام، وأثبتت فساده ومجانبته لحقائق الأمور ووقائع التاريخ مِمَّا جعل بعض الباحثين، يقول: (نحن نرفض - ومعنا الحق - منهج المستشرقين في دراسة الإسلام؛ لأنَّه منهج مصطنع جاء وليد اللاهوت الأوروبي؛ ولأنَّه منهج يقصر عن طبيعة الأديان السماويَّة ويحاول أن يضعها في صعيد واحد مع الاتجاهات الفكرية الإنسانية)[1].

لذلك فإنَّ معظم المستشرقين يحاول أن ينفي عن تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة خصيصة الربانية من خلال نفيهم الوحي والنبوة والرسالة، وزعمهم أنَّ القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ.

ثانيًا: أقوالهم في السنة النبوية والسيرة النبوية:

مِمَّا ترتب على أقوالهم في القرآن الكريم، ونسبته إلى محمد ﷺ إنكار السُّنَّة النبوية والتشكيك في السيرة والتعامل عليهما لأسباب عدَّة من أبرزها:

١ - ذلك الفارق الواضح بين أسلوب القرآن الكريم في الفصاحة والبيان والإعجاز وبين أسلوب الحديث النبوي الشريف، إذ يدلُّ دلالة واضحة على أن القرآن كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ - والحديث النبوي كلام الرسول ﷺ وكلاهما وحيٌ من عند الله كما بين الرسول ﷺ بقوله:

---

(١) زقزوق: الاستشراق... ص ٨٦، ٨٩، (مرجع سابق).

«ألا إنني أوتيتُ الكتابَ ومثله معه...»[1].

أمَا وقد ساغ للمستشرقين أن ينسبوا القرآن الكريم إلى الرسول ﷺ فلا غرابة أن ينسبوا حديثه إلى غيره من المسلمين، وأن يعملوا ما وسعهم العمل في التشكيك في سنته وسيرته ﷺ لزعزعة مصادر الإسلام والطعن في تميز الأُمَّة الإسلاميَّة.

٢ - إنَّ السنَّة النبوية تمثل أكبر عائق (لأعداء الإسلام عن تفسير القرآن بالهوى والشهوات فهي التي تحدد تفسيره وتبينه)[2]، قال تعالى: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]، فكانت سنته ﷺ المتمثلة في أقواله وأفعاله وتقريراته للقرآن الكريم بمثابة (تفصيل مجمله، وبيان مشكله، وبسط مختصره)[4].

والسنَّة شديدة الارتباط بالقرآن الكريم، يقول الشاطبي: (فالقرآن على اختصاره جامع.. وأنت تعلم أنّ الصلاة، والزكاة، والجهاد، وأشباه ذلك لم يتبين جميع أحكامها في القرآن، إنَّما بينتها السنَّة وكذلك العاديات من الأنكحة والعقود والقصاص والحدود وغيرها)[5]، لذلك فإنَّ الذين يحاولون إنكار السنة يريدون إزالة عرقلة السنة بينهم وبين

---

(١) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود: ١٩٩/٤، الحديث رقم [٤٦٠٤]، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد لقمان السلفي: السنّة حجيتها ومكانتها في الإسلام والرد على منكريها: ص ٢٥٧، (مرجع سابق).

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٤) الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة ٩/٤، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق نفسه ٢٧٤/٣، ٢٧٥.

القرآن، وإذا فعلوا ذلك تيسر لهم تأويل القرآن حسب أهوائهم وميولهم[1].

٣ - إنَّ السنة النبوية اشتملت على نظام شامل للحياة، وحدَّدت الطريق السوي للأُمَّة الإسلاميَّة، وقدمت الحلول الجذرية لمشكلات الحياة[2]، وقد وصف بعض المستشرقين السنّة بأنها: (إطار من الفولاذ حول ذلك البناء الاجتماعي العظيم)[3]، وهدم هذا الإطار الفولاذي لايتأتى إلاَّ بإنكار صحة السنة بأيٍّ أسلوب كان، ليسهل عليهم جعل الإسلام موافقًا للأفكار الغربية وخاضعًا لها[4].

٤ - إنَّ مِمَّا حملهم على ركوب متن الشطط في دعواهم ضد السنة ما رأوه في الحديث النبوي (من ثروة فكرية وتشريعية مدهشة وهم لايعتقدون بنبوة الرسول ﷺ فادعوا أن هذا لايعقل أن يصدر كله عن محمد الأمي بل هو من عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى)[5] من تاريخ الإسلام، ولكن محاولاتهم كلها ستبوءُ بالإخفاق وسيكونون كما قال الشاعر:

كناطح صخرةً يومًا ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل[6]

---

(١) انظر: محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق: ص ٩٧، ترجمة عمر فروخ، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد لقمان السلفي: السنة..: ص ٢٥٧، (مرجع سابق).

(٣) محمد أسد: المرجع السابق نفسه: ص ٣٧.

(٤) انظر: محمد لقمان السلفي: السنة..: ص ٢٥٧، (مرجع سابق).

(٥) انظر: محمد لقمان السلفي: السنّة..: ص ٢١٥، (المرجع السابق نفسه).

(٦) ينسب هذا البيت إلى الأعشى ميمون بن قيس. انظر: حنَّا نصر الحتي: شرح ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس): ص ٢٨٦ البيت رقم [٤٩] من قصيدة عنون لها الشارح (نحن الفوارس) وقد أورد الشارح (ليفلِقَها) بدلاً من (ليوهنها) وذكر بأنَّ الأخيرة وردت في بعض الروايات، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عن دار الكتاب العربي - بيروت. =

لأنَّ السنة محفوظة بحفظ القرآن الكريم؛ ولأنَّها وحي الله - عَزَّ وَجَلَّ - أمَّا الأقوال الاستشراقية في الحديث النبوي الشريف التي تبين موقفهم المتشكك في صحة نسبته إلى الرسول ﷺ فتأتي دراسات (جولدزيهر) معبِّرة عن ذلك باعتبار دراساته في موضوع الحديث النبوي تحتل الصدارة عند المستشرقين وأنَّه (حدَّدَ تحديدًا حاسمًا اتجاه وتطور البحث في هذه الدراسات)[1] من وجهة نظرهم، حتى بلغ الأمر أن تعتمد دائرة المعارف الإسلاميَّة على دراساته وتتخذ منها مصدرًا أساسًا للكتابة عن مادة (حديث) ومِمَّا وصفته به بأنَّ (العلم مدين دينًا كبيرًا لما كتبه Goldziher في هذا الموضوع)[2]، وفيما يأتي خلاصة مركزة لأبرز مزاعمه في الحديث في النقاط الآتية:

١ - (إنَّ القسم الأعظم من الحديث كان بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والاجتماعي والتاريخي في القرن الأول والثاني من تاريخ الإسلام.

٢ - وضع أصحاب المذاهب النظرية والعملية في الإسلام أحاديث لتأييد مذاهبهم ونسبوها إلى الرسول ﷺ وأصحابه.

=وانظر: محمد محيي الدين عبدالحميد: عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام: ٢١٨/٣، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، عن دار الجيل - لبنان.

(١) زقزوق: الاستشراق.. (مرجع سابق): ص ١٠١، نقلاً عن يوهان فك: عن الدراسات الاستشراقية في أوروبا، الصادر عام ١٩٥٥ م: ص ٢٣١، Fueck, Op. Cit. P. ولم أجد هذا القول تحت مادة (حديث)، في دائرة المعارف الإسلاميَّة، (مرجع سابق).

(٢) مادة (حديث) ٣٨٩/١٣ - ٤٠١، (مرجع سابق)، وانظر: محمد لقمان السلفي: السنة..: ص ٢١٨، (مرجع سابق).

٣ – إنَّ الأتقياء وضعوا أحاديث تؤيد معارضتهم للحكام.

٤ – قام الحكام بوضع الحديث كرد فعل على عمل العلماء الأتقياء لتأييد أفكارهم السياسية ولإسكات الأتقياء)[١].

من هذه المزاعم يتبين القصد من دراسات (جولدزيهر) وزمرته من المستشرقين في الحديث الشريف، وهو نفي نسبته إلى الرسول ﷺ لزعزعة الدين الإسلامي فإذا كان القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ كما يزعم المسشرقون – والحديث انعكاس لتطور المسلمين، وأن نسبته إلى محمد ﷺ كذب وافتراء فكيف يكون صرح الإسلام !.

وهذه النوايا مكشوفة جدًّا، أمَّا ذلك المنهج فهو عار عن العلمية، ويرد على مزاعم (جولدزيهر) في الآتي:

١ – إنَّ ما زعمه من أنَّ (القسم الأعظم من الحديث ليس إلاّ بمثابة نتيجة للتطور الديني والتاريخي والاجتماعي...)[٢]؛ ليس صحيحًا، وفيه خلط الحق بالباطل ومنهجه في ذلك هو المنهج المذموم الذي وصف الله به أهل الكتاب بعامة واليهود بخاصة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٣]، فمقولته خلطت الحق بالباطل، وكتم (جولدزيهر) الحق وهو عالمٌ به؛ فقد تحدث عن جهود علماء الحديث في جمعه وحفظه وغربلته والتحقق من نسبته إلى

---

(١) انظر: جولدزيهر: دراسات إسلامية من ص ٤٣ إلى ص ٤٨ نقلاً عن: محمد لقمان السلفي: السنة... ص ٢٣٠ – ٢٣١ (مرجع سابق).

(٢) انظر: دراسات إسلامية: ص ٤٣– ٤٨، وانظر: محمد لقمان السلفي: السنَّة: ص٢٣٠، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق ص ١٠١، (مرجع سابق).

(٣) سورة البقرة: الآية (٤٢).

الرسول ﷺ، وليس بخافٍ عليه ما بذله علماء الحديث في هذا المضمار[1] (فإنَّ علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا يتلقون أحاديث الرسول ﷺ بعضهم عن بعض في أمانة وضبط، وكانوا يذبون عنها أكاذيب الشيعة والخوارج والزنادقة، ومن كان على شاكلتهم في الكيد للإسلام عن طريق الحديث.

وما زالوا يجاهدون صادقين في سبيل السُّنَّة حتى أسلموها إلى علماء القرن الثالث كاملة غير منقوصة، وصحيحة غير مكذوبة، عن طريق الأسانيد التي تطمئن لها القلوب، ثُمَّ قام علماء القرن الثالث بدورهم في رواية السنة وحفظها وكتابتها وتدوينها حتى وصلت إلينا طاهرة نقية)[2].

أمَّا الوضع مهما كان كثيراً وهائلاً فإنه كان معزولاً عن حديث المصطفى ﷺ بفضل الله ثُمَّ بسبب جهود علماء الحديث، ونحن لاننكر أنّ هناك الكثير من الموضوعات التي نسبت إلى الرسول ﷺ ولم يكن ذلك خافيًا في عصرٍ من العصور على علماء المسلمين[3]، فقد طبق علماء الحديث منهجاً نقديًا شرعيًا أفاد منه النقد التاريخي، واعترف المنصفون بأن منهج علماء الحديث في نقد الرواة، وبيان حالهم؛ يعد

---

(١) انظر: محمد لقمان السلفي: السنة..: ص٢١٩، (المرجع السابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق..: ص ١٠٤، (مرجع سابق)، وانظر: دائرة المعارف الإسلاميَّة، ٧/٣٣٥، (مرجع سابق).

(٢) محمد محمد أبو زهو: الحديث والمحدثون (أو عناية الأُمَّة الإسلاميَّة بالسنّة النبوية): ص٣٠١، ٣٠٢، (مرجع سابق)، وانظر: محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فروخ: ص ٩٦، (مرجع سابق).

(٣) انظر: زقزوق: الاستشراق..: ص ١٠٢، (مرجع سابق).

تاجاً على رأس الأُمَّة الإسلاميَّة[1].

(ولعلماء الحديث باع طويل في نقد الرواة)[2].. قيل: ليحيى بن سعيد القطان: (أمَّا تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله عزوجل ؟ قال: لأن يكون هؤلاء خصمائي أحب إليَّ من أن يكون النبي ﷺ خصمي، يقول لي: لِمَ لَمْ تذب الكذب عن حديثي...)[3]، وكان ابن المبارك يقول: (بيننا وبين القوم القوائم)[4]؛ يعني الإسناد، ويقول: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال مَنْ شاء ماشاء)[5].

والسؤال الآن: هل يجهل (جولدزيهر) هذه الصفحات البيضاء، بل: هل بذل أتباع اليهودية أو النصرانية عشر معشار ما بذله علماء الحديث المسلمون في توثيق العهدين؛ القديم والجديد[6].

إنَّ الجواب على ذلك يأتي من خلال مقولة (وليم باركلي) فيما شاب الكتابات النصرانية من اضطراب، بسبب الحذف والإضافة ونحو ذلك، فهو يؤكد: (أن المتشابهات التي أثارتها التعاليم والإلحاقات التي أدخلت على الكتابات المسيحية بعد عيسى عليه السلام والتي حولت عيسى من

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢، ١٠٣.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٣.

(٣) السيوطي: تحذير الخواص عن أكاذيب القصاص: ص ١١٩، تحقيق: محمد الصباغ، الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م، عن المكتب الإسلامي - بيروت، وانظر: محمد لقمان السلفي: اهتمام المحدثين..: ص ٦٦، (مرجع سابق).

(٤) رواه الإمام مسلم: في مقدمة صحيحه ص ١٥.. (مرجع سابق).

(٥) رواه الإمام مسلم: المرجع السابق نفسه: الصفحة نفسها.

(٦) انظر: زقزوق: الاستشراق..: ص ١٠٤، (مرجع سابق)، وانظر: محمد لقمان السلفي: السنة..: ص ٢٤٣، ٢٤٤، (مرجع سابق).

شخصية بشرية إلى شخصية إلهية، ظلت كتابات والحاقات وتعاليم قابلة للتعديل بالحذف والزيادة حتى سنة (٤٠٠) ميلادية، وهو تاريخ أول طبعة رسمية للعهد الجديد بالطبعة السريانية، المعروفة باسم (البيشيتو)، وظلت قانونية العهد الجديد مجال أخذ ورد، وحذف وإضافة، ولم تستقر على حالتها الراهنة إلا بعد قرار مجمع (ترنت) سنة ١٥٤٦ م، فجاء هؤلاء العلماء ليجدوا أمامهم تراثًا هشًا غير متناسق، ضعيفًا في إسناده التاريخي، وقابلاً بذاته للشك والتفنيد)[١].

٢ - أمّا ماقيل من أنّ أصحاب المذاهب النظرية والعملية قد وضعوا أحاديث لتأييد مذاهبهم ونسبوها إلى الرسول ﷺ وأصحابه، فالواقع أنّه (ظهرت حركة الوضع في الحديث وهدّدت هذا الأصل الكبير من أصول الإسلام بالتحريف)[٢]، إذ سعت الفرق الضّالّة للوضع ونسبته إلى الرسول ﷺ وإلى أصحابه لمآرب سياسية وشخصية (ولكن العلماء بذلوا جهودًا جبارة في تمحيص الحديث ونقده وتمييز الصحيح من الموضوع، فكما كان الوضع في الحديث لم يوجد له مثيل في عالم العلم والأدب، كذلك الجهود التي بذلت لتنقية الصحيح وتمييزه من الموضوع والعلوم التي اخترعت للوصول إلى هذه الغاية والوسائل التي أُخذت لم يوجد لها نظير في الدنيا ولم يحظ تاريخ قوم ولا أُمّة بمثل هذه العناية، فالحركة التي كادت أن تهدم السنّة قد أدت إلى نتائج إيجابيّة أثرت في إشادة

---

(١) انظر: مقال حمدي عبدالعال: تحقيق القول في تحول بولس، مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميّة، العدد [١٦]، شعبان ١٤١٠ هـ مارس ١٩٩٠ م، عن مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت: ص ١٩.

(٢) محمد لقمان السلفي: السنة..: ص ١٩٨، (مرجع سابق).

صرح السنة وبناء علوم الحديث)[1].

٣ - وأمَّا مقولة (جولدزيهر) عن الأتقياء وأنهم وضعوا أحاديث عارضوا بها سياسة الحكام، فإنها مقولة خاطئة وموهمة، فإنَّ المستشرقين وفي مقدمتهم (جولدزيهر) يطلقون على الشيعة (العلماء الأتقياء)[2] مع أنَّ منهم (من كانوا أداة فساد وإفساد يتظاهرون بحب آل علي رضي الله عنه ويغالون في ذلك حتى ألهوه ووضعوا الأحاديث في تأليهه ويضمرون في أنفسهم كيد الإسلام والمسلمين)[3]، في حين أنَّ العلماء الأتقياء الذين خدموا السنة وحملوها هم غير أولئك؛ إنهم الذين عملوا على حفظ الأحاديث الصحيحة ونشرها، والاحتياط لها وبيان الأحاديث التي نسبت كذبًا وزورًا إلى الرسول ﷺ وأفتوا بعدم جواز روايتها أو نشرها من غير أن يخافوا في الله لومة لائم ولا سطوة ظالم، ومنهم الأئمة (الزهري، وسعيد بن المسيب «سيد التابعين»، وعامر الشعبي، وقد (عدّه) يحيى بن سعيد القطان «أول من فتش عن الإسناد»، وإبراهيم النخعي، وهو «صيرفي الحديث» والأعمش، وشعبة بن الحجاج، وحماد، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، ومالك بن أنس، رضي الله عنهم أجمعين)[4]، هؤلاء هم حملة الحديث الأتقياء.

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٩٨، وانظر: أحمد محمد شاكر: حاشية رقم [١] على الصفحة ٣٣٤ من دائرة المعارف الإسلاميَّة، المجلد السابع، (مرجع سابق).

(٢) انظر: جولدزيهر: دراسات إسلاميَّة (الترجمة الإنجليزية): ص ٤٣ - ٤٨، نقلاً عن: محمد لقمان السلفي: السنة..: ص ٢٢٨ - ٢٣٠، (مرجع سابق).

(٣) محمد محمد أبو زهو: الحديث والمحدثون..: ص ٣٠٥، (مرجع سابق).

(٤) انظر: محمد لقمان السلفي: السنة..: ص ٢٣٧، (مرجع سابق)، وانظر: تراجمهم لدى: النووي: تهذيب الأسماء واللغات.. (مرجع سابق).

٤ - أمَّا وضع الحكام للحديث كرد فعل على أولئك (الأتقياء) المزعومين فإنَّه اتهام لحكام بني أُميَّة يدحضه التاريخ من ناحيتين:

الأولى: لم يكن بين علماء الحديث وبني أميَّة خصومة، ولا أيُّ نوع من العداء، وإذا كان هناك عداء بين الحكام وبين الشيعة والخوارج فإنَّ علماء الحديث غير هؤلاء وهؤلاء[١].

الثانية: لمْ يثبت أيُّ دليل يدين حكام بني أُميَّة بوضع الحديث ولو بُحث في دواوين السنة لما وجد من بين الأحاديث الموضوعة حديث واحد رُوي عن طريق أيِّ حاكم من حكام بني أميَّة[٢].

وخلاصة القول:

إنَّ مزاعم (جولدزيهر) ومن سار على نهجه من المستشرقين تأتي مؤكدة المنهج الاستشراقي المعادي للإسلام الذي انتهج أسلوب المغالطات والتلبيس، وكتمان الحق، وتحكيم الهوى، والحسد، ودس الزيف والشبهات، وهو بذلك ينتظم في تلك الحركة الباطنية التي تضرب في أعماق التاريخ الإسلامي منذُ عبدالله بن سبأ، وما تشعب عنه من شيعة وخوارج، ثُمَّ معتزلة وزنادقة... ثُمَّ تطفل على هذه المزاعم بعض أبناء المسلمين الذين قال عنهم أحد المفكرين المسلمين: (إنَّهُم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا بيد أنهم خطر على كياننا)[٣]، وقال عنهم قبل ذلك: (وولدوا في بلادنا ولكن عقولهم وقلوبهم تربت في الغرب،

---

(١) انظر: محمد لقمان السلفي: السنة..: ص ٢٤٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٤٤.

(٣) انظر: محمد الغزالي: ظلام من الغرب: ص ٣، الطبعة الثانية، ١٩٦٥ م، عن دار الكتب الحديثة، القاهرة.

ونمت أعوادهم مائلة إليه فهم أبدًا تبع لما جاء به)[1].

أمَّا السيرة النبوية فقد تناولتها دراسات المستشرقين بالبحث والتقصي حول كل جزئية من جزئياتها، فقد تكلموا عن بيئة الرسول ﷺ ولغته، وعن اسمه ونشأته، وتكلموا عن تحنثه في غار حراء، وخاضوا في سيرته قبل البعثة وبعدها، في الفترة المكية، ثُمَّ ازداد اهتمامهم بهجرته إلى المدينة وسيرته فيها، وعلاقاته بمن حوله من يهودٍ ومنافقين ومشركين، ولم يتورعوا عن الخوض في أخص خصوصيات البيت النبوي، بل تناولوا أمهات المؤمنين، وعللوا زواج الرسول ﷺ بهن، وتكلموا عن أيام الرسول ﷺ الأخيرة[2].

وهم في ذلك كله يتذبذبون ما بين مقذع فاحش متفحش في تناوله لسيرة الرسول ﷺ كلها أو بعض جوانبها، وما بين متناقض ينصف في جانب ويتحامل في جانب آخر.

ومهما يكن فإنَّ معظمهم يصدر من منطلق تجريد الرسول ﷺ من نزول الوحي الإلهي عليه؛ لذلك فإنَّ الإطار الذي يدورون فيه هو الإنكار والجحود والتدليل على ذلك بألوان شتى من الأوهام والأباطيل، وقد يشيد بعضهم بعظمة الرسول ﷺ ويصفه بالعبقرية، بل يضفي عليه ملامح العبقرية وصفات العظمة ليجرده من النبوة ويسلبه نعمة الرسالة، وليتسنى له أن ينسب الإعجاز في سيرته والتميُّز في تاريخ أمته إلى عبقريته وليس إلى كونه نبي الله ورسوله[3].

* * *

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٣.

(٢) انظر: نذير حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين: ص١٤ - ٢٤، (مرجع سابق).

(٣) انظر: نذير حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين... ص١٣٤، ١٣٥، (المرجع السابق نفسه).

المبحث الثاني

العالمية وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: العالمية.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منها.

المطلب الأول
خصيصة العالميَّة

والعالميَّة خصيصة أخرى من خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، إذ ليست من جنس بعينه وإنَّما هي عامَّة جميع الناس الذي ارتضوا الإسلام دينًا، وانضموا تحت لوائه دون أن يحد هذه العالمية زمان أو مكان.

ولاستجلاء هذه الخصيصة يتناول البحث النقاط الآتية:

١ - مفهوم العالمية.

٢ - دلائل عالمية الإسلام من الكتاب والسنة، ووقائع السيرة النبوية، وأحداث التاريخ الإسلامي.

٣ - دلائل عالمية الأُمَّة الإسلاميَّة، من العقيدة والنظم.

١ - مفهوم العالَميَّة:

أ - تعريف العالميَّة لغة: نسبة إلى العَالَمْ، والعالم في اللغة: (الخَلْقُ كلُّهُ، أو ما حَوَاهُ بَطْنُ الفَلَك)[(١)]، (وهو في الأصل: اسمٌ جامع لما يعلم به كالطَابَع والخاتَم لما يُطْبَعُ به ويُخْتَمُ به، وجعل بناؤه على هذه الصيغة لكونه كالآلة)[(٢)] أي أنَّه يُستَدَلُّ به على صانعه وخالقه جلَّ وعلا، يقول الراغب الأصفهاني: (والعَالَمُ آلة على الدلالة على صانعه، ولهذا أحالنا

---

(١) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة (العَالَم)، (مرجع سابق). وانظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (عَلْمَ)، (مرجع سابق).

(٢) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن؛ مادة (عَلَم)، (مرجع سابق). وانظر: الفيروزآبادي: بصائر ذوي التميز.. مادة (علم)، (مرجع سابق).

تعالى عليه في معرفة وحدانيته، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [1]، [2].

وعن جمعه - حيث جاء على غير قياس، (ولا واحد للعَالَم من لفظه؛ لأنّ عالَمًا جمع أشياء مختلفة) [3] - قال الراغب: (وأمَّا جمعه فلأنَّ من كل نوعٍ من هذه قد يسمى عالَمًا، فيقال: عالَمُ الإنسان، وعالَمُ الماء، وعالَمُ النَّار... وقيل: إنَّما جمع هذا الجمع لأنَّه عني به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والإنس، دون غيرها... (وقيل) العالَمُ عالَمَان الكبير وهو الفلك بما فيه، والصغير وهو الإنسان) [4].

وفصَّلَ الدامغاني مادة (العالمين) في القرآن الكريم على خمسة أوجه (فوجه منها: العالمين الجن والإنس...، والثاني: العالمين عالمو الزمان... (كقوله تعالى)...: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [5] يعني: عالمي زمانهم. الثالث: العالمين من وُلِدَ من ولد آدم إلى قيام الساعة... الرابع: العالمين من كان من الخلق من بعد نوح عليه السلام... الخامس: العالمين أهل الكتاب) [6].

وجاء في لسان العرب: (معنى العَالَمين: كل ما خلـق الله، كما قال: ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [7]، [8].

---

(1) سورة الأعراف: الآية (١٨٥).

(2) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (عَلَم)، (مرجع سابق).

(3) ابن منظور: لسان العرب، مادة (علم)، (مرجع سابق).

(4) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (علم)، (مرجع سابق).

(5) سورة الدخان: الآية (٣٢).

(6) قاموس القرآن (أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم)، مادة (العالمين)، (مرجع سابق).

(7) سورة الأنعام: الآية (١٦٤).

(8) ابن منظور: مادة (علم)، (مرجع سابق).

وهذا المعنى يلتقي مع قول بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، إذ قالوا: (يراد به كل موجود سوى الله تعالى، فيعم جميع المخلوقات)[2].

ب - تعريف العالميَّة في الاصطلاح: يتضح مِمَّا تقدم في معنى (العالم) و (العالمين)، عموم هذين اللفظين وشمولهما لأجناس من الخلق في زمان أو مكان سواء اقتصرا على جنس بعينه، أو على زمان محدد، أو مكان معين، أو اتسع ذلك العموم والشمول لجميع أجناس المخلوقات فيدخل فيه جميع خلق الله وما سوى الله فهو عَالَم، واتسع لكل مكان ولكل زمان إلى قيام الساعة.

لذلك فإنَّ مفهوم العالم يتأرجح حول هذه المعاني، فمن العلماء من عرَّف العالم بأنَّه: (عبارة عمن يعقل؛ وهم أربع أمم: الإنس، والجن، والملائكة، والشياطين)[3]، ويخرج من ذلك كل العوالم التي لاتعقل كالبهائم، والطير، ونحوهما.

ومن العلماء من عرَّف العالم بأنه: (الجن والإنس)[4] بالنظر إلى كونهم المعنيين بالرسالة والتكليف.

ومن العلماء من عرَّف العالم بأنه (كل ما خلق الله في الدنيا

---

(١) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢٣/١، ٢٤، (مرجع سابق). وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٩٧/١، (مرجع سابق). وانظر: الشوكاني: فتح القدير ٢١/١، (مرجع سابق).

(٢) أبو القاسم محمد بن أحمد الغرناطي: التسهيل لعلوم التنزيل: ص ٣٣، (مرجع سابق).

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٩٧/١، (مرجع سابق).

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٩٧/١، (المرجع السابق نفسه).

والآخرة)[1]، وربُّ العالمين: (إله الخلق كلّه، السموات كلهن، ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن ومن بينهن مِمَّا يعلم ومِمَّا لايعلم)[2].

وأمَّا المفهوم العام للعالميَّة[3] باعتبارها إحدى خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة فهو: السمة العامَّة الشاملة لهذا التميُّز وملاءمته للمكلفين في كل مكان، وصلاحيته في كل زمان؛ لأنَّه ينبثق من عقيدة الإيمان بالله المالك لكل شيء، ورب كل شيء، والذي أحاط بعلمه كل شيء، ويقف المكلفون إزاءه على قدم المساواة، دون النظر إلى أجناسهم، أو لغاتهم، أو أوطانهم، أو أزمانهم، ولأنه ينتهج نظامًا شرعه الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

فعلى هذا يكون هذا التميُّز عامًّا شاملاً، وإذا كان المكلفون (الجن والإنس) هم المعنيين به في المقام الأول منذُ بعث إليهم الرسول الخاتم ﷺ وإلى أن تقوم الساعة، فإنَّ هذا التميُّز بملاءمته لأوضاع الحياة يستوعب غيرهما من أصناف الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

قال ابن قيم الجوزية في تفسيرها: (أصح القولين في هذه الآية: أنها على عمومها، وفيها على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أمَّا اتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة...)[5].

---

(١) الشوكاني: فتح القدير ٢١/١، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه ٢١/١.

(٣) وزيادة الياء المشدَّة والتاء المربوطة في العالميَّة يسمى (مصدر صناعي) كالحريَّة والإنسانية ونحوهما؛ انظر: أحمد الحملاوي: شذى العرف في فن الصرف: ص ٥٠، الطبعة الخامسة، ١٣٤٥ هـ، عن مطبعة دار الكتب العربية.

(٤) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٥) بدائع التفسير ١٩٨/٣، (مرجع سابق).

وبعد أن يبين تحت هذا الوجه ما ناله أعداؤه المحاربون من هذه الرحمة، وكذلك المعاهدون قال: (وأمَّا المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها، وأمَّا الأمم النائية عنه: فإنّ الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنَّه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض)[1].

ويتسع نطاق العالميَّة في الإسلاميَّة لتشتمل العناية بالعجماوات وقضايا البيئة[2]، وجميع مشمولات الكون، والدلائل على ذلك كثيرة

---

(١) بدائع التفسير ٣/١٩٨، (مرجع سابق).

(٢) بدأت العناية بالبيئة تشق طريقها الرسمي الدولي منذ عام ١٩٦٢ م، تحت تأثير التلوث البيئي الذي حدث بسبب تدخل الإنسان وإفساده لخواص البيئة الطبيعية بما أدخله من مواد ملوثة، وكلما ازدادت هذه الظاهرة وضوحاً وازداد الاهتمام بأسبابها ووسائل سلامتها ازداد الكشف عن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم لتناوله هذه القضية في وقت سابق لظهور أهميتها والأهم من ذلك طرحه التدابير الواقية من فسادها واختلال التوازن فيها؛ لمزيد من الاطلاع على هذا انظر: عبدالوهاب العشري: التلوث البيئي.. والإعجاز العلمي للقرآن الكريم بمجلة تجارة الرياض: ص ٣٤، ٣٥، العدد [٣٧٨]، السنة [٣٣] رمضان ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

وانظر: محمد أحمد رشوان: تلوث البيئة وكيف عالجه الإسلام: ص ٤٧ - ٦٩، من منشورات جامعة الإمام، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

لايتسع المجال لذكرها، ويكفي الإشارة إلى أمرين:

أولهما: أن الرسول ﷺ كان يأمر بالإحسان في التعامل مع ذوات الأرواح حتى في القتل والذبح، وينهى عن العبث بها أو أنْ تتخذ هدفا، أو تقتل صبرًا أو تحرق، فقد ورد عنه ﷺ أنه «نهى أن يقتل شيء من الدواب صبراً»[1].

والآخر: أنّ من الثابت في سيرته ﷺ ما يحدث من شكوى بعض العجماوات إليه، وعلى سبيل المثال: القصّة التي رواها الإمام أحمد عن (الحُمَّرَة)[2] التي جاءت: «ترف على رأس الرسول ﷺ ورؤوس أصحابه»[3]، فسأل الرسول ﷺ أصحابه: «أيكم فجع هذه»؟ فقال رجل من القوم: أنا أصبت لها بيضًا. قال رسول الله ﷺ: «اردده»[4].

وخلاصة القول: أنَّ المراد بالعَالَمِيَّة هنا ما اتسم به تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة من السعة والشمول والصلاح والملاءمة لجميع خلق الله، وأنَّ نظام الإسلام وهديه يحقق الانسجام مع حركة الكون والتاريخ والحياة؛ لأنَّه صراط الله المستقيم، ودينه الخاتم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أمَّا مصطلح العالميَّة بوصف أنَّها: (مذهب معاصر يدعو إلى

---

(١) أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ٣/ ١٥٥٠، الحديث رقم: (١٩٥٩)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (مرجع سابق)، وانظر: مقال مسفر بن سعيد بن دماس الغامدي: رحمة الله..، ص ٢١٩، (مرجع سابق)، مجلة البحوث الإسلاميَّة.

(٢) (الحُمَّرَة: بضم الحاء وتشديد الميم وقد تخفف: طائر صغير كالعصفور). ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر: ص ٤٣٩ مادة (حمر)، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه أحمد: المسند للإمام أحمد: ١/ ٤٠٤، بتحقيق: أحمد شاكر: ٥/ ٣٢٠، الحديث رقم: (٣٨٣٥)، وقال: «حديث صحيح»، (مرجع سابق).

(٤) جزء من الحديث السابق نفسه.

البحث عن الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء المظاهر المتعددة في الخلافات المذهبيَّة)[1] فإنَّه يتعارض - على إطلاقه - مع الإسلام من حيث كون الاختلاف من سنن الله في المجتمع البشري لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾[2]. فالصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والجاهلية والإسلام؛ صراع قدري واقعي بأدلته النقلية والعقلية، بيد أنَّ الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يحقق العالميَّة ليس من حيث قسر الخلق على السير في منهجه وإكراههم على الدين، ولكن من حيث ملاءَمتُه لطبيعة الخلق ووفاؤه بحاجاتهم فهو - كما سلف القول -: (هذا دواء لهذا المرض فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواءً لذلك المرض)[3].

٢ - دلائل عالميَّة الإسلام من الكتاب والسُّنَّة:

توافرت الأدلة من الكتاب والسُّنَّة على عالميَّة الإسلام ممثلاً في رسالة محمد ﷺ وأمته، (وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام... وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن دعوة المشركين، وعُبَّاد الأوثان ، وجميع الإنس والجن ما لايحصى إلا بكلفة)[4]، وكذلك في السنَّة النبويَّة.

أولاً: القرآن الكريم: جاءت في كتاب الله - عزوجل - آيات مستفيضة بصيغ متنوعة، وأساليب عديدة؛ منها:

---

(١) بكر بن عبدالله أبو زيد: معجم المناهي اللفظية: ص ٣٧٠، ٣٧١، مادة (عالمية الإسلام)، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، عن دار العاصمة - الرياض.

(٢) سورة هود: الآية (١١٨).

(٣) ابن قيم الجوزية: بدائع التفسير ١٩٨/٣، (مرجع سابق).

(٤) ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣٣٦/١، ٣٣٧، (مرجع سابق).

أ - بوصف رسالته ﷺ والإخبار عنها بأنَّها للناس أو كافة للناس؛ كقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2]، فدلت الآيتان ونحوهما على عالميَّة الرسالة المحمديَّة، وهما من النصوص الصريحة على ذلك، وفي الآية الثانية جاء لفظ (كافة) لزيادة الدلالة في العموم، وقد قال بعض المفسرين: (في الكلام تقديم وتأخير؛ أي: وما أرسلناك إلاَّ للناس كافة أي عامَّة)[3]، وقال آخر: (إلاَّ إرسالة عامَّة لهم فإنَّها إذا عمتهم كفتهم أن يخرج أحد منهم، أو إلاَّ جامعًا لهم في البلاغ، فهي حال من الكاف والتاء للمبالغة)[4]، ومهما كان تقدير الكلام وإعرابه فإنَّه دالٌّ على العموم والعالمية.

ووصف الله الرسالة المحمديَّة بأنها رحمة للعالمين، وأنَّه ﷺ يهدي سبل السلام، وأن الله أنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا، وأخبر الله - عزَّ وَجَلَّ - بأن محمدًا ﷺ نذير للبشر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[5]، وقال تعالى يخاطب أهل الكتاب، ويخبرهم بأنَّهم مقصودون بدعوة محمد ﷺ وملزمون بالإيمان برسالته: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ

---

(١) سورة النساء: الآية (٧٩).

(٢) سورة سبأ: الآية (٢٨).

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٣٠٠/١٤، (مرجع سابق).

(٤) أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ١٣٣/٧، طبعة دار إحياء التراث..، بيروت، (بدون تاريخ).

(٥) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[2]، وقال - أيضًا -: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴾[3].

ب - وجاءت آيات مستفيضة فيها أمر الله تعالى لمحمد ﷺ أن يبلغ الناس رسالة ربه، وأنّه أرسل إليهم جميعًا، وأن عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[5]، وقبل هذه الآية أثنى الله على الذين يؤمنون بمحمد ﷺ وينصرونه ويعزرونه ويتبعون النور الذي أنزل معه وأنهم هم المفلحون؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ..... ﴾[6] الآية.

ج - وجاء الخطاب في آيات كثيرة موجهًا إلى أهل الكتاب

---

(١) سورة المائدة: الآيتان (١٥، ١٦).

(٢) سورة الفرقان: الآية (١).

(٣) سورة المدثر: الآية (٣٦).

(٤) سورة آل عمران: الآية (٢٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٥٨).

(٦) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

- بخاصة - كالآية السابقة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1]، وكقوله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وفي آيات عديدة بين الله لأهل الكتاب أنهم مشمولون بدعوة محمد ﷺ وأبلغهم بمبعثه وأنه جاءهم على فترة من الرسل يبشرهم وينذرهم، وتأتي دعوتهم للإيمان به في بعض الأحوال مقترنة بالوعيد الشديد إن لم يقبلوها، كما بين لهم جلَّ وعلا أنها مصدقة لما معهم من الكتاب، وأن محمدًا ﷺ مأمور بأن يظهر ما أخفوه من الكتاب؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

(٢) سورة البقرة: الآيتان(٤١ ، ٤٢).

(٣) سورة المائدة: الآية (١٥).

(٤) سورة المائدة: الآية (١٩).

﴿لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾[1].

د - ومِمَّا جاء في القرآن الكريم وهو يدل على عالميَّة رسالة محمد ﷺ: بصفة تضرب في أعماق تاريخ البشريَّة وتستمر عبر تاريخها المقبل إلى قيام السَّاعة في الآخرة: أخذ الميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى أتباعهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينصروه وأن يأمر بعضهم بعضًا بذلك، وبين الله أنه أخذ عليهم هذا الميثاق وأقروا به وأشهدهم عليه وأكد شهادتهم بشهادته جلَّ وعلا، والدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2].

قال ابن كثير في تفسيرها: (يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ثُمَّ جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه... قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلاّ أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدًا وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعثَ محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه)[3].

وحيث إن نبي الله ورسوله عيسى عليه السلام كان آخر الأنبياء والمرسلين قبل محمد ﷺ فإنَّه قد بشَّرَ به، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى

---

(١) سورة النساء: الآية (٤٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٨١).

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/٣٧٨، (مرجع سابق).

ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[1].

ومن يتدبر الآيات التي جاءت بعد الآية التي ذُكِرَ فيها الميثاق يتبين له من منطوقها ومفهومها، ومِمَّا تدل عليه صراحة وضمنًا: أنَّ (الوفاء بهذا العهد هو الدين، فمن ابتغى سواه من الأديان والملل والنحل والمذاهب فقد ابتغى غير دين الله، وهذا ما يفيده الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[2])[3].

وقبل هذه الآية: (حكم الله تعالى على المتولين الذين يعرضون عن الرسالة بالفسق)[4]، إذ قال تعالى: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[5]، ثُمَّ بين الله تعالى في تلك الآيات أنه لايقبل من أحد غير دين الإسلام فقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[6]، (وهذه الصيغة عامَّة، فإنَّ

---

(١) سورة الصف: الآية (٦). ووردت أحاديث كثيرة أخبر فيها الرسول ﷺ بأنَّ نبي الله عيسى عليه السلام سيرجع في آخر الزمان ويحكم بالإسلام أربعين سنة بعد أن يقضي على فتنة المسيح الدجَّال، وأنَّه يأتم في صلاته بإمام من أئمة المسلمين في الصلاة، وفي هذا دلالة عظيمة على عالميَّة الإسلام وأمته حيث إن عيسى عليه السلام سيحكم بالإسلام على الأمتين (اليهودية والنصرانية) في وقت كادت السيادة على العالم أن تكون بأيديهم وتحت شعار العولمة والعالميَّة.

(٢) سورة آل عمران: الآية (٨٣).

(٣) مناع القطان: الشريعة الإسلاميَّة (شمولها، عالميتها، ووجوب تطبيقها): ص ٢٥، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م، الدار السعودية للنشر... - الرياض.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٢٥.

(٥) سورة آل عمران: الآية (٨٢).

(٦) سورة آل عمران: الآية (٨٥).

صيغة «مَنْ» الشرطية من أبلغ صيغ العموم، فيدخل فيها أهل الكتاب وغيرهم، وسياق الكلام مع أهل الكتاب، وهذا يدل على أنَّه تعالى أراد أهل الكتاب بهذه الآية كما أراد غيرهم، بل معظم صدر سورة آل عمران: في مخاطبة أهل الكتاب ومناظرة النصارى.. وذكر الله تعالى في أول السورة أن الدين عنده هو الإسلام، وأنَّ أهل الكتاب أمروا بالإسلام كما أمر به الأميون الذي لا كتاب لهم)[١].

وملحظ آخر؛ وهو أنَّ ميثاق دينهم الذي واثقهم عليه رسل الله إليهم وواثقهم الله به وأخذ عليهم إصرهم والإصر - كما فسَّرَهُ العلماء - هو: (العهد المؤكد الذي يُثبِّط ناقضه عن الثواب والخيرات)[٢]: يأمرهم بالإيمان بمحمد ﷺ أي بالدخول في دين الإسلام، وأنَّ الذين يؤمنون بمحمد ﷺ يؤمنون بجميع الرسالات ويؤمنون بجميع الأنبياء والرسل، وبهذا تتحقق للمسلمين العالميَّة الحقّة وتكون الأُمَّة الإسلاميَّة ذات تميُّز من أهم خصائصه خصيصة العالميَّة، قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٣]. إنه الإسلام والإسلام - فحسب - الطريق الوحيد للعالمية، والأُمَّة الإسلاميَّة هي الوحيدة التي تتجلى فيها العالمية؛ لأنها تؤمن بجميع الرسالات وتقر بجميع الأنبياء والمرسلين، وتؤمن بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على جميع أنبياء

---

(١) مناع القطان: الشريعة الإسلاميَّة... ص ٢٦، (المرجع السابق نفسه).

(٢) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (أصر)، (مرجع سابق).

(٣) سورة آل عمران: الآية (٨٤).

الله ورسله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

ثانيًا: وأمَّا في السنة النبوية؛ فقد وردت أحاديث كثيرة تبين عموم رسالته ﷺ وشمولها وعالميتها، منها الآتي:

أ - قوله ﷺ: «أُعطيتُ خمسًا لم يعطهنَّ أحد من قبلي: نصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصَّة، وبعثتُ إلى الناس عامَّة»[2].

والشاهد في هذا الحديث قوله ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصَّة، وبعثتُ إلى الناس عامَّة» حيث أخبر ﷺ إنَّ مِمَّا خصَّه الله به دون سائر المرسلين كونه بعث برسالة عامَّة لجميع الناس لذلك فإنَّ من أهم خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة العالميَّة في الخطاب إلى جميع الناس.

ب - وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لايسمع بي أحد من هذه الأُمَّة، يهودي، ولا نصراني، ثُمَّ يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار»[3].

والشاهد من هذا الحديث برواياته المختلفة أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٨٤).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١/١٢٨ الحديث رقم [٣٢٨] تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم: صحيح مسلم ١/٣٧٠، ٣٧١، الحديث رقم (٥٢١)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ١/١٣٤، الحديث رقم: (١٥٣)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

لاتقصر على قوميَّة بعينها، وإنَّما هي أُمَّة متميِّزَة، ومن أهم خصائص تميُّزها عالميتها، وأن هذه العالمية تمتد إلى اليهود والنصارى، ولايسعهم الخروج عنها لكونهم أهل كتاب وإنَّما دخلوا في عموم خطاب الإسلام، فهم ابتداءً من أمة الدعوة باعتبارهم مقصودين بدعوة الإسلام[1]، وفي هذا دلالة واضحة على عالمية الأُمَّة الإسلاميَّة.

ج - وبالنظر إلى سيرة الرسول ﷺ يلحظ أنَّ عموم رسالته ﷺ وعالميتها واضح من وقت مبكر ومن الأدلة على ذلك ما تفوه به ﷺ حين الجهر بالدعوة، فقد ورد في مصادر السيرة أنه ﷺ حينما أمر بالجهر بالدعوة، ونزل عليه قول الله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾[2] جمع قومه وقال: «الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» ثُمَّ قال: «إنَّ الرائد لايكذبُ أهله والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلاَّ هو إني لرسول الله إليكم خاصَّة وإلى الناس كافة... »[3].

د - وأخبر ﷺ بأنَّهُ مرسل إلى الناس كافة بل إلى الثقلين وهو ما تواترت به أخبار السيرة، وعن ذلك يقول ابن تيمية: (فإنَّه قد علم

---

(١) انظر: مفهوم الأُمَّة فيما سبق من البحث.

(٢) سورة الحجر: الآية (٩٤).

(٣) الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد... ٣٢٢/٢، ٣٢٣، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرون، (مرجع سابق)، وانظر: علي برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبيَّة: ٤٥٩/١، (مرجع سابق)، والكامل لابن الأثير: ٥٨٥/١، تحقيق: أبي الفداء عبدالله القاضي، عن دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م، بيروت، وانظر: أحمد زكي صفوة: جمهرة خطب العرب: ١٤٧/١، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون تاريخ).

بالاضطرار من دين الإسلام: أن رسالة محمد بن عبدالله ﷺ لجميع الناس؛ عربهم وعجمهم، ملوكهم وزهادهم، وعلمائهم وعامتهم، وأنها باقية دائمة إلى يوم القيامة، بل عامَّة للثقلين الجن والإنس، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة مايشرعه لأمّته من الدين...، بل لو كان الأنبياء المتقدمون أحياء لوجب عليهم متابعته وطاعته)[1].

ومِمَّا يؤيد ذلك أنَّه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه وقد عرض عليه بمكتوب من التوراة: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثُمَّ اتبعتموه وتركتموني لضللتم...»[2]، وفي رواية أخرى: «لو أن موسى ﷺ كان حيًّا ما وسعه إلاّ أن يتبعني»[3].

هـ - وأخبر ﷺ أمته، إبان حفر الخندق: بأنَّ ملكها سيبلغ ما زُوِيَ له من الأرض، وقد وردت في هذه القصَّة روايات كثيرة يذكرها المؤلفون في دلائل نبوته ﷺ[4]، ولعل من أصح تلك الروايات ما أخرجه الإمام مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وأنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي

---

(١) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية، ١١/٤٢٢، ٤٤٣، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد... ٣/٤٧١، الحديث رقم: (١٥٤٣٧)، ترتيب: دار إحياء التراث العربي: ٤/٥١٣، ٥١٤، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد... ٣/٣٨٧، الحديث رقم: (١٤٧٣٦)، ترتيب: دار إحياء التراث العربي: ٤/٣٧٦، ٣٧٧، (المرجع السابق نفسه).

(٤) انظر: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي: أعلام النبوة: ص ١٢٧، ١٢٨، تحقيق: محمد شريف سكر، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، دار إحياء العلوم - بيروت. وانظر: أبو نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة: ص ٤٩٨، ٤٩٩، (مرجع سابق).

منها، وأعطيتُ الكنزين الأحمروالأبيض»[1].

ففي هذا الحديث ذكر الرسول ﷺ أنَّ الله جمع له الأرض، وأطلعه على مشارقها ومغاربها، وبشَّرَه بأن ملك أمته سيبلغ ما رآه منها، وأنه سيورث هذه الأُمَّة الإسلاميَّة ملك كسرى وقيصر، حيث فسَّرَ العلماء قوله ﷺ: «وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض» بأن المراد بهما الذهب والفضَّة، وفيهما رمز لملك كسرى وملك قيصر[2].

و- وفي قصة إسلام (عدي بن حاتم) أورد ابن إسحاق أنَّ عديًّا قال: (بعث رسول الله، وكنتُ أشد الناس له كراهة - أو من أشد الناس - فلحقت بأقصى أرض العرب، من قبل الروم، وكرهتُ مكاني أشد من كراهتي الأمر الأول، فقلتُ: لآتين هذا الرجل، فلئن كان صادقًا لاتخفى علي، ولئن كان كاذبًا لايخفى عليَّ - أو لايضرني، شك محمد - فقدمت المدينة، فاستشرفني الناس، فقالوا: عدي بن حاتم، فأتيت رسول الله ﷺ فقال: « يا عدي بن حاتم، أسلم تسلم»، فقلت: إنَّ لي دينًا، فقال: «أنا أعلم بدينك منك»[3].

ويذكر تفاصيل الحوار الذي دار بينه وبين الرسول ﷺ إلى أن قال له الرسول ﷺ: «هل أتيت الحيرة ؟» فقلتُ: لا، وقد علمت مكانها، قال: «يوشك الظعينة أن تخرج من الحيرة حتى تطوف بالبيت بغير جوار، ويوشك أن تفتح كنوز كسرى بن هرمز» فقلت: كنوز كسرى بن هرمز ؟

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢٢١٥ الحديث رقم [٢٨٨٩]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي في تعليقه على الحديث السابق: المرجع السابق نفسه ٤/٢٢١٥ (حاشية الصفحة).

(٣) سيرة ابن إسحاق: ص ٢٦٧، ٢٦٨، تحقيق: محمد حميد الله، (مرجع سابق).

فقال: «كنوز كسرى بن هرمز - مرتين - ويوشك أن يخرج الرجل الصدقة من ماله، فلايجد من يقبلها» قال: فقد رأيتُ الظعينة تخرج من الحيرة حتى تطوف بالبيت بغير جوار، و قد كنت في أول جيش أغار على المدائن، وأيمُ الله لتكونن الثالثة، إنَّه لقول رسول الله ﷺ)[1].

وفي رواية أخرى أخرجها الإمام أحمد جاء في قوله ﷺ: «والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر»[2] من حديث خَبَّاب قال: (شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا الله عزوجل؟... قال: «قد كان الرجل فيمن كان قبلكم يؤخذ فيحفر له في الأرض فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل بنصفين، فمايصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون العظمة من لحم أو عصب فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنٍ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من المدينة إلى حضرموت لايخاف إلاّ الله عزوجل، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[3].

ز - ومن الأحاديث الصحيحة - في ذلك أيضًا - حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عن فتح القسطنطينية، وأنَّه دعا بصندوق له حلق، وأخرج منه كتاباً ثُمَّ قال: (بينما نحنٍ حول رسول الله ﷺ نكتب؛ إذ سئل رسول الله: أيّ المدينتين تفتح أولاً ؟ قسطنطينية أو روميَّة ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل أولاً، يعني قسطنطينية»[4].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص٢٦٨.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣٩٥/٦، الحديث رقم: (٢٦٦٧٥)، ترتيب: دار إحياء التراث العربي، ٥٤٢/٧، (مرجع سابق).

(٣) بقية الحديث السابق: مسند الإمام أحمد: ٥٤٢/٧، الحديث رقم: (٢٦٦٧٥)، (المرجع السابق نفسه).

(٤) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد ١٧٦/٢، تحقيق: أحمد شاكر: ١٣١/١٠، ١٣٢،=

ح - ومن الأحاديث الصحيحة الدَّالَّة على عالميَّة الأُمَّة الإسلاميَّة ما أخرجه الإمام مسلم أن الرسول ﷺ قال: «تغزون جزيرة العرب، فيفتحها الله، ثُمَّ فارس، فيفتحها الله، ثُمَّ تغزون الروم، فيفتحها الله، ثُمَّ تغزون الدَّجَّال، فيفتحه الله»[1].

والحقيقة أنَّ ما ورد من الأحاديث الشريفة، وما تحدثت عنه مصادر السِّيرة النبويَّة الشريفة عن عالميَّة الإسلام وانتشاره من الكثرة بمكان، وقد جاء الواقع التاريخي مصدقًا لما أخبر به الرسول ﷺ، ومؤكدًا صدق رسالته وصحة نبوته، وقد اجتهد العلماء في مؤلفاتهم في القديم والحديث لإظهار هذا الجانب وهو جانب تدعمه الآيات القرآنية الصريحة، والأحاديث النبويَّة المفسرة والشارحة والمفصلة لأمور الإسلام وشؤون أُمَّته، والوقائع التاريخية المتظافرة، ولعل فيما تقدم من إيراد الآيات والأحاديث وبعض وقائع السِّيرة ما يبرز جانب التميُّز، ولعل من المناسب - أيضًا - إيراد بعض الأحداث التاريخية الأخرى التي تؤكد هذه الخصيصة، وخلاصتها في الآتي:

أ - تكونت الأُمَّة الإسلاميَّة في بداية تاريخ السيرة النبوية وظهور الإسلام في مكة المكرمة من أجناس مختلفة، فكان منها علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد وإمامهم ومعلمهم وقائدهم محمد ﷺ وهؤلاء من سادة قريش وعلية مجتمعها،

=الحديث رقم: (٦٦٤٥)، (مرجع سابق). وانظر: المرجع نفسه ١٧٤/٢، الحديث رقم [٦٦٢٣]، وفيه (وفتح مدينة، قالوا يارسول الله، أيُّ مدينة ؟ قال: «القسطنطينية»، ولكن في إسناده ضعف، كما ذكر المحقق. انظر: المرجع السابق نفسه: ١١٦/١٠.

(١) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٢٢٢٥/٤، الحديث رقم [٢٩٠٠]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

وكان يقف معهم على قدم المساواة بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، مِمَّا يرمز إلى رابطة أخرى غير رابطة الجنس والوطن ونحوهما من الروابط الأخرى، وإنَّما قامت الأُمَّة على رابطة التقوى والإيمان بالله)[(١)].

ب - ومِمَّا يؤكد مفهوم عالميَّة الإسلام: (ما قام به الرسول ﷺ؛ من إرسال الكتب، وبعث الرسل إلى من عاصره من ملوك وحكام، غير مستند في ذلك إلى قوته الماديَّة أو منعة جيشه إذ لم يكن يملك من ذلك (إلاَّ الشيء القليل)... ولكنه كان يبشر بدعوة الخير، منطلقاً من يقينه بضرورة أن يشع نورها في أرجاء المعمورة فيمحو ظلام النفوس... ويعفي على فساد الواقع... معتمداً قبل كل شيء على نصر الله وتأييده)[(٢)]، ومبلغًا رسالة ربه[(٣)].

ج - ومِمَّا يؤكد عالميَّة الأُمَّة الإسلاميَّة مجيء الوفود إلى الرسول ﷺ إلى المدينة، قال ابن إسحاق: (لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه)[(٤)].

وقال ابن هشام: (إنَّ ذلك في سنة تسع، وأنَّها كانت تسمى سنة

---

(١) انظر: موقف المستشرقين من عالميَّة تميز الأُمَّة الإسلاميَّة: في الصفحات (٧٠٧ - ٧٣٠) البحث نفسه.

(٢) محمد عقلة: الإسلام دعوة عالميَّة ونظام متكامل للحياة، مجلة المنهل، العدد [٤٥٢]، رجب ١٤٠٧ هـ: ص ٨، (مرجع سابق).

(٣) للاطلاع على كتب الرسول ﷺ ورسله إلى الملوك والعظماء والجبابرة في عصره؛ انظر: موقف المستشرقين من عالمية تميز الأُمَّة الإسلاميَّة: ص (٧١٥ - ٧١٨)، البحث نفسه.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٠٣/٤، (مرجع سابق).

الوفود)[1]، وقد علل المؤرخون في القديم والحديث أسباب توافد العرب إلى عاصمة دولة الإسلام لإشهار إسلامهم ومبايعة الرسول ﷺ، والانضواء تحت مظلة الأُمَّة الإسلاميَّة وراية لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، عللوا ذلك بسبب (سقوط مكة زعيمة الشرك بأيدي الفاتحين، وهزيمة التحالف الوثني الأخير في حنين (فكان ذلك) آخر ضربتين حاسمتين للوجود الوثني في جزيرة العرب، انهار بعدها جدار الكفر وانطلقت حركة الإسلام بخفة وسرعة، حيث أزيلت العوائق، إلى كل مكان، وأدركت القبائل العربية التي ظلت على وثنيتها ألاّ مناص لها من تحديد موقفها من الإسلام ودولته المتفردة بالحكم والسلطان في الجزيرة كلها، وأن عنادها وتشبثها بمواقفها السابقة فقد مبرراته بدخول مكة في الإسلام، وانتماء هوازن، أكبر القبائل الوثنيَّة، للدين الجديد، فراحت هذه القبائل تتسابق في إرسال وفودها إلى المدينة قاعدة الإسلام، مبايعة على الإسلام أو مصالحة رسول الله ﷺ، ولكثرة هذه الوفود التي انهالت على المدينة في العام التالي لفتح مكة ومطلع الذي يليه، سماه المؤرخون «عام الوفود»[2]،[3].

وواضح أنَّ هذا يتفق مع ما ذكره ابن إسحاق مؤرخ السيرة الأول، إذ قال: (وإنَّما كانت العرب تربّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب، لاينكرون ذلك، وكانت قريش

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٢٠٣/٤.

(٢) السيرة النبويَّة لابن هشام: ٢٠٣/١، (المرجع السابق نفسه).

(٣) عماد الدين خليل: دراسات في السيرة: ص ٢٥٧، (مرجع سابق).

هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوّخها الإسلام، وعرفت العرب أنّه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كما قال الله عزوجل: «أفواجًا» يضربون إليه من كل وجه)[1].

وتاريخ هذه الوفود وما اشتمل عليه من معانٍ عميقة ودلالات ذات أبعاد واسعة، فيما يتعلق بعالمية الإسلام وأمته، ممًّا أسهب العلماء في ذكره ودراسته وتفسير أحداثه ومتعلقاتها[2]، بيد أنّ ممًّا ينطوي عليه بصفة خاصَّة التأكيد على عالميَّة الأُمَّة الإسلاميَّة، فقد وسعت قبائل وشعوب، وبلدان على الرغم ممًّا كان بينها من الاختلافات، والتناقضات؛ على صعيد المصالح، وعلى صعيد الاتجاهات الفكريَّة، والتشريعية، والسلوكيَّة، وعلى الرغم ممًّا تتسم به علاقاتُها من صراع واقتتال وتناحر وتناجزٍ لأتفه الأسباب، وما كانت عليه من انحطاط، وتخلف في الثقافة والحضارة، وفي العقيدة والتصور، فإنَّ الإسلام صهرها في أُمَّة واحدة وأخرجها لتكون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[3] بما لم يشهد له التاريخ مثيلاً فدلَّ ذلك على خصيصة العالمية وأنها إحدى خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة.

د - ومن بين تلك الوفود بخاصّة نصارى العرب ممن كان منهم في جنوب الجزيرة أو شمالها، فقد كان لهم مع رسول الله ﷺ مواقف فيها الكثير من العبر، والدلائل على عالميَّة الإسلام والاعتراف بنبوة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٠٣/١، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: ابن قيم الجوزيَّة: زاد المعاد ٥٩٥/٣ - ٦٨٧، (مرجع سابق).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

محمد ﷺ وأنّه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنّه هو الذي بشرت به كتبهم، وإذا كانت قصة عدي بن حاتم تشتمل على شيء من ذلك فإنّ هناك شواهد أخرى من أبرزها:

١- ما حدث من وفد نجران من مجادلة الرسول ﷺ ومناظرته حول المسيح عليه السلام، وقد ذكر بعض المفسرين أن صدرًا من سورة آل عمران نزل بهذا الشأن[١]، وجاءت فيه آية المباهلة، ولكنّهم أحجمَوا عنها، واختاروا لأنفسهم دفع الجزية، وكانــوا - كما ذكر العلماء - أول من دفع الجزية في الإسلام[٢]، وقصة ذلك مذكورة في كتب السيرة والتفسير وأسباب النزول.

قال ابن كثير: (سورة آل عمران... مدنية؛ لأنّ صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة...)[٣]. ثمّ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[٤]: (كان سبب نزول المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران: أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية فأنزل الله صدر هذه

---

(١) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣٤٣/١، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح... ١٧٠/١، تحقيق: علي بن حسن وآخرون، (مرجع سابق)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣٧٠/١، (مرجع سابق).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٤٣/١، (مرجع سابق).

(٤) سورة آل عمران: الآية (٦١).

السورة ردًّا عليهم)[1].

وبعد أن أورد ابن كثير تفاصيل ما حدث بينهم وبين الرسول ﷺ من مناظرة وجدال قال: (فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها...)[2]، وذكر ما كان من أمر مشورتهم فيما سمعوا من القرآن الكريم، وما وقفوا عليه من حقيقة نبوة محمد ﷺ، وأن صاحب الرأي فيهم قال: (والله يا معشر النصارى لقد عرفتم إنَّ محمدًا لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمت أنه ما لاعن قوم نبيًّا قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنّه الاستئصال منكم إن فعلتم، فإنْ كنتم أبيتم إلاَّ ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم)[3].

والشاهد من هذا اعتراف وفد النصارى بنبوة محمد ﷺ ، ومن المُسَلَّم به عندئذٍ الاعتراف بأصلين آخرين يتصلان بهذا الأصل ؛ وهما : أنَّ محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنَّه بعث للناس كافة ؛ لأنَّ الاعتراف بنبوته يلزمهم أن يعترفوا بهذين الأصلين الآخرين لكون النبي لايكذب ، وهذا مِمَّا يسلمون به فلزم أن يصدقوه فيما قال من كونه آخر الأنبياء والمرسلين ، وأنّ رسالته عامَّة وشاملة[4] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٦٨/١، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ٣٦٨/١.

(٣) المرجع السابق نفسه ٣٦٨/١، ولقصتهم وما حدث لهم في شأن الرسول ﷺ أوجه أخرى وردت في المصادر الإسلاميَّة؛ انظر: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٦٣٠/٣، ٦٣٦، (مرجع سابق).

(٤) انظر : حسن خالد : موقف الإسلام من الوثنيَّة واليهودية والنصرانية : ص ٥٦٢ – ٥٨٠ الطبعة الأولى ١٩٨٦ ، ومعهد الإنماء العربي – بيروت .

١ - وحدث أنَّ (فروة بن عمرو الجذامي)، وكان ملك عرب الروم، وعاملاً لهم على من يليه من العرب، بعث برسوله إلى الرسول ﷺ، معلناً إسلامه، وأهدى للرسول ﷺ بغلة بيضاء، (وكان منزله (مَعَان) بأرض الشام، فلمَّا بلغ الروم ذلك من إسلامه، طلبوه حتى أخذوه، فحبسوه عندهم، فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له: عفراء بفلسطين قال:

بلغ سراة المسلمين بأنَّني سلم لربِّي أعْظُمِي ومقامي

ثُمَّ ضربوا عنقه، وصلبوه على ذلك الماء يرحمه الله)[١].

هـ - وتوافدت القبائل مرة أخرى في حجة الوداع لملاقاة الرسول ﷺ والأخذ عنه أمور الإسلام ومناسك الحج وشعائر الدين، وقد كان أناب عنه في حجَّة العام التاسع للهجرة أبا بكر الصديق وألحق به علي بن أبي طالب رضي الله عنهما لنزول سورة (براءة) لإعلانها للناس في يوم الحج الأكبر[٢]، وجاءت حَجَّة الوداع وقد علت كلمة الله، واكتمل الدين، فالتقت الأُمَّة الإسلاميَّة برسولها ﷺ في صورة مثاليَّة، بعد أن أصبحت مصطبغة بعقيدة التوحيد داخلة تحت لواء الشريعة الإسلاميَّة.

يقول أحد المؤرخين عن هذه الصورة الجليَّة للأُمَّة الإسلاميَّة في حجة الوداع وعن دولة الرسول ﷺ: (حَجَّ في العام العاشر حجَّته الأخيرة على النظام الإسلامي وحجَّ معه فيها مايزيد على مائة ألف[٣] لم يكن من

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/٢٣٤، ٢٣٥، (مرجع سابق). وانظر: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٣/٦٤٦، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبويَّة ٤/١٨٧ - ١٩٠، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: المقريزي: امتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع: ١/٥١٢، تحقيق: محمود محمد شاكر، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١ م.

بينهم مشرك واحد، وفي الفترة التي تقع بين إعلان (البراءة من المشركين) ووفاة الرسول ﷺ طبق الرسول (أمر البراءة) بحذر شديد وكياسة سياسية بارعة وتجنب الاصطدام بالقبائل، ولذلك كان يكتفي من وفودها بإعلان إسلامهم، ويرسل معهم عند عودتهم مسلمين يعلمونهم الإسلام في بلادهم، والواقع أن (إعلان البراءة) بوقف الوثنيَّة نهائيًّا، أمر لايُمكن إدراك أبعاده، إلا إذا نظرنا إلى المسألة من جانبيها الحضاري و (الاستراتيجي) كضرورتين يرتبط بعضها ببعض، وتسوقان إلى اتخاذ إجراء حاسم كهذا.

فأمَّا أولاهما: فهي أنَّ الوثنية، على خلاف سائر الأديان الأخرى، تمثل الدرك الأسفل في موقف الإنسان الديني من الكون، موقف يشده إلى الحجارة ويصده عن التقدم إلى الأمام، ويحجب عن بصيرته الرؤية الشاملة لدور الإنسان في الأرض وعلاقته بالقوى الأخرى في الوجود، ولو بقي العربي على وثنية لظل بحكم موقفه هذا أسير جهله وتأخره، وسجين عالم تضيق آفاقه ثُمَّ ما تلبث أن تعزله عن العالم وتحصره في قلب الصحراء.

وأمَّا ثانيتهما: فتقوم على أن الدولة (العقيدية) التي أنشئت في قلب المنطقة العربية، وامتد نفوذها السياسي إلى كافة أرجاء الجزيرة، وبدأت تحشد قواها وطاقاتها الجهادية للانتقال صوب الخطوة التالية في التحرك إلى العالم المحيط كله، هذه الدولة كان عليها أن تعتمد (استراتيجية) صارمة، واضحة المعالم من أجل أن تحمي وجودها في شبه الجزيرة العربية، من جيوب الوثنية العربية، ومراكز القوى الجاهليَّة، وأن تحيط مركز انطلاقها إلى العالم بسياج الوحدة العقيدية والسياسية على السواء، لئلا تضرب من الخلف وهي تمارس صراعها مع

القوى الخارجيَّة، حاشدة له جل طاقاتها.

وهكذا يجيءُ إعلان (البراءة) نصرًا حضاريًّا واستراتيجيًّا لدولة الإسلام، وهي تتهيأ للخطوة التالية في (تحضير) العالم و (جهاد) قياداته (الكافرة) جميعًا من أجل منح حريَّة الاعتقاد للإنسان حيثما كان)[1].

وربَّما يصدق هذا الوصف على مظهر الدولة الإسلاميَّة في عهد الرسول ﷺ وفي بعض عهودها الأخرى، حينما يُنْظَرُ إليها من خارج الأحداث، وتفسر بطريقة فلسفية، ولكن من ينعم النظر في طبيعة التشريع الإسلامي؛ في جوانبه العقدية، والسياسيَّة، والأخلاقيَّة، وغيرها؛ يلحظ أنَّ مجرى الأحداث فيه، تختلف عن تلك التفسيرات، التي رُبَّمَا تستقيم من وجه، ولكنها لاتستقيم من كل وجه؛ ذلك أنّ الرسول ﷺ أبلغ رسالات ربه، وفعل ما أُمِرَ به، وبالنظر إلى قضية (البراءة من المشركين)؛ يدرك الناظر أن الرسول ﷺ؛ أمَّرَ أبا بكر الصديق على الحج في السنة التاسعة، وبعد أن انطلق إلى حيث أمره، نزل أول سورة (براءة)، فألحق الرسول ﷺ به عليًّا رضي الله عنهما، مِمَّا يدل على عدم التخطيط المسبق من قبل الرسول ﷺ، وانَّما نزل الوحي بأمر جديد، وأسرع المصطفى ﷺ في تنفيذه، كعادته في إجابة أمر ربه القائل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2]، وكان ﷺ يتلقى أمر ربه فيهتدي به ويسير في ضوئه منذُ بعثه الله وحتى توفاه إليه، ولعل ما فعله ﷺ في مبرك ناقته حين نزوله في المدينة، وقوله: «خلوا سبيلها فإنَّها

---

(١) عماد الدين خليل: دراسات في السيرة: ص ٢٦٦ - ٢٦٨، (مرجع سابق).

(٢) سورة المائدة: الآية (٦٧).

مأمورة»[1] من الشواهد على ذلك: صحيح أنَّه ﷺ يخبر عن أحداث ستقع ويعلم من الغيب ما علَّمَهُ الله، ولكن لايعني ذلك أن تفسر أحداث السيرة على نحوٍ يصبغها بالعبقرية والسياسة وأساليب الحنكة والدهاء، وحقيقة تلك الأحداث مرتبط بالنبوة ومقتضياتها.

وما حدث من ردَّة بعض قبائل العرب عقب وفاة الرسول ﷺ، وموقف أبي بكر الصديق منها وعدم مهادنته لهم، أو النظر إليها من منطلق الموازنة بين قدرة دولة الإسلام على مواجهتهم، والتغاضي عن بعض ما أوجبه عليهم الإسلام، بل التمسك بالمبدأ، مهما آلت إليه الأوضاع، ومهما كانت النتائج، على الرَّغم مِمَّا أشار به عمر بن الخطاب، من التدرج معهم، ومهادنتهم[2]، إنَّ هذا الموقف مِمَّا يعزز ما سبقت الإشارة إليه من كون طبيعة الأحداث والمواقف في تاريخ الإسلام

---

(١) أخرجه ابن سعد بهذا اللفظ في الطبقات ١/١٦٠، (مرجع سابق)، ووردت ألفاظ كثيرة ذكرها الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد..: ٣/٣٧٢، ٣٧٣، وعزاها لكتب السنَّة، وأمَّا مبرك الناقة وإقامة الرسول ﷺ وأصحابه عليه المسجد النبوي الشريف، فقد ورد عند البخاري من حديث عروة بن الزبير ومنه: (فسار يمشي معه الناس حتى بركت به راحلته عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذٍ رجال من المسلمين، وكان مربدًا للتمر، لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثُمَّ دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نهبه لك يارسول الله، فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبةً حتى ابتاعه منهما ثُمَّ بناه مسجدًا) الحديث. صحيح البخاري: ٣/١٤٢١، ١٤٢٢ الحديث رقم: (٣٦٩٤)، تحقيق: البُغاء، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٦/٣١١ – ٣١٣، (مرجع سابق). وانظر: محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية..: ص ٢١٥ – ٢٤٤، (مرجع سابق). وانظر: شوقي أبو خليل: في التاريخ الإسلامي: ص ٢٢٣– ٢٢٨، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ–١٩٩١م عن دار الفكر – دمشق، وانظر: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي) ١/١٧٠، الطبعة [١٣] ١٤١١ هـ– ١٩٩١ م، دار الجيل – بيروت.

لهـا خصوصـيتها ومـنطلقها المشـدود بـرباط الربانـيَّة، والـنظر في المستجدات وبحثها وفقًا للبحث عن مراد الله فيها.

غير أنَّه يُمكن القول بأنَّ ما أشار إليه الباحث في قوله السابق يؤكد منطلق عالميَّة الأُمَّة الإسلاميَّة من خلال الناحيتين اللتين ذكرهما، وهما الوحدة العقيدية والوحدة السياسيَّة باعتبارهما أساس عالميَّة تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وهذا ما أكده تطور الأحداث وامتدادها.

وبالنظر لتاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة منذُ أنْ أخرجها الله للناس لتكون خير أُمَّة تؤمن بالله وتعلي كلمته وتطبق شرعه وتدعو لوحدانيته وطاعته، وجعلها بذلك شاهدة على الناس، انداحت دائرة امتدادها في مشارق الأرض ومغاربها من ذلك الحين وحتى العصر الراهن وإلى ما شاء الله، وفي عهد الرسول ﷺ تكونت الأُمَّة الإسلاميَّة من أفراد من العرب والروم والفرس والحبشة - كما سبق الإشارة إلى ذلك - ثُمَّ خرجت دعوتها إلى نطاق عالمي، إذ وصلت إلى (آذان المسؤولين في الدولتين الكبيرتين في آسيا وأوروبا، وإلى الحبشة ومصر وأفريقيا)[1].

وفي غضون بضعة عقود أصبحت الأُمَّة الإسلاميَّة: هي الأُمَّة العالميَّة التي دان لها الشرق والغرب أو كاد، واستظلت البشرية بحضارتها الزاهرة ردحًا من الزمن، تحررت فيها الضمائر والعقول، وراجت العلوم والمعارف، ثُمَّ دالت دولتها بسببٍ من ذاتها، وبسبب مكائد القوى المعادية لها، وما نالت من سيادتها، حتى تراجعت إلى الوراء، وغُلِبَتْ على أمرها، وفرض عليها التخلف والحرمان، إلى درجة غير معقولة، ومع

(١) عطية صقر: الدعوة الإسلاميَّة دعوة عالميَّة: ص ٤٣٢، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠م، مؤسسة الصباح للنشر.

ذلك (فإنَّ الإسلام بمبادئه السامية، وتشريعاته الملائمة وجد له أعوانًا وأنصارًا وقلوبًا في كل جهات العالم، وأن البيئات التي وجدوا فيها لم تكن حائلة دون تطبيق تعاليمه، وأن أجناسهم وألوانهم ولغاتهم لم تقف حائلاً دون اعتناق هذا الدين والتفاعل مع مبادئه، وإن له في بعضها تاريخًا قديمًا لازمها قرونًا عدَّة لم تزده الأيام إلا قوة في نفوسهم واعتزازًا به، وهذا من أكبر الأدلة على عالميَّة الإسلام وحيويته واتفاقه مع جميع الحاجات البشرية، فكل الجماعات الإنسانية التي جاء لينظمها ويسمو بها، دون النظر إلى الحواجز التي أقامها الناس فكانت سببًا في متاعبهم وآلامهم التي لن تنتهي إلا إذا عادوا إلى الأوضاع الصحيحة التي فطر الله الإنسان عليها)[1].

وتبقى جوانب أخرى تعد من دلائل عالميَّة الأُمَّة الإسلاميَّة يأتي الحديث عنها في:

٣- دلائل عالميَّة الأُمَّة الإسلاميَّة من العقيدة والتشريع:

تناول البحث في النقاط السابقة دلائل عالميَّة الإسلام وأمته من خلال نصوصه الكتاب والسُّنَّة، وبعض أحداث السيرة النبويَّة والتاريخ الإسلامي، وهناك دلائل أخرى لها أهميتها في عالميَّة الأُمَّة الإسلاميَّة، وتعد بمثابة الموجِّهات الذَّاتيَّة لتلك العالمية باعتبارها من خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، من أبرزها الآتي:

أ - تلك العقيدة الميسورة التي ترتكز على فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكانت قدرًا مشتركًا في بني آدم بعامَّة وما تشتمل عليه من

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٤٥٦، وانظر: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ١/١٢٩ - ١٤١، (مرجع سابق).

هداية وعلم وسعادة دونما تعقيد فلسفي ولا وسائط بين العبد وربه فهي عقيدة (عامَّة وشاملة وواضحة، تراعي في الإنسان فطرته وقدراته وإمكاناته، وتسعى لتوجيهه في حياته كفرد، ولتوجيهه إلى كيفية التعامل مع بني جنسه، ومع جميع مظاهر الكون الأُخرى حتى تتحقق في النهاية سعادة الإنسانية أفرادًا وجماعات، فالعقيدة يجب أن توضح للإنسان فكرة الوجود؛ وجود الخالق ووجود المخلوق حتى تلبي حاجة الإنسان الملحة في معرفة خالقه، والتي تساءل الإنسان عنها منذ خلق، كذلك يجب أن تهتم العقيدة الموصوفة بالشموليَّة بجميع جوانب الإنسان الروحيَّة والماديَّة.. وإذا كان المراد من العقيدة هو الاهتمام بالإنسان وضبطها لسلوكه فإن أهم ميزة يجب أن تتمتع بها هي ألا تكون نظرية بحته لاتتصل بالواقع ولاتتفاعل معه؛ لأن ذلك يجعلها بعيدة عن الواقع العملي وغير ميسورة التطبيق، واعتماداً على ما تقدم يُمكن أن نقرر أن العقيدة الإسلاميَّة هي عقيدة شاملة وعامَّة، ذلك لأنها تخاطب في الإنسان فطرته التي خلق عليها، وحققت له نظامًا دقيقًا لحياته، وأجابت عن كل تساؤلاته الروحيَّة والعقلية، واهتمت بتربية عقله وفكره ووجدانه)[1].

بل إنَّها حررت الإنسان من الخرافات والوهم، وربطته بربه في ضوء منهج أصيل يغذي عقله وروحه ويزكيه، ويضع عنه أغلال الجهل والشر والشقاء، لذلك كانت العقيدة الإسلاميَّة المرتكزة على الفطرة والتوحيد والإيمان والإحسان عقيدة غير محصورة في جنس أو زمان أو مكان،

(١) محمد فتح الله الزيادي: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه: ص ٢٠، ٢١، (مرجع سابق)، وانظر: ص ٣٢١ - ٣٣٠ (البحث نفسه).

وإنَّما هي مرتكز لوحدة عالميَّة تتسع جميع المكلفين[1].

ب - وتلك الشريعة الربانيَّة الغراء التي جاءت نظامًا عالميًّا شاملاً عامًّا: (أتى بالمبادئ التشريعية والخلقيَّة التي تسمو بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال، جاء من عند الله عامًّا لكل أجناس البشر جنّهم وإنسهم، لايختص بقوم دون قوم أو جيل دون جيل، موجه إلى الناس كافة باعتبار إنسانيتهم التي ميَّزهم الله بها عن سائر الحيوان، يحقق مصالحهم في كل عصر ومصر، ويفي بحاجاتهم، ولايضيق بها، ولايتخلف عن أيٍّ مستوى عال يبلغه أيٌّ مجتمع من المجتمعات، ومع عموميَّة التشريع الإسلامي فإنَّه شامل كذلك لكل جوانب الحياة، ومناحي الاجتماع، لم يترك شاردة ولا واردة إلاّ ذكر فيها خبرا أو شملها حكما، أو أدرجها تحت أصل أو قاعدة، فالشريعة الإسلاميَّة منذُ نشأتها الأولى كذلك رسالة للعالمين طبيعتها عالميَّة شاملة، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة، وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد، ومن نهج إلى نهج عن طريق مصدرين أساسين هما: القرآن الكريم، وسنَّة النبي ﷺ)[2].

وخلاصة القول: أنَّ من أهم خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة خصيصة العالميَّة، وهي ما درج العلماء على تسميته (بالعموم والشمول)، وهو ما أجمله ابن قيم في قوله: (وعموم رسالته ﷺ في كل

---

(١) انظر: ص ٣٢١-٣٣٠ (البحث نفسه).

(٢) صالح بن غانم السدلان: حتمية تطبيق شرع الله في الأرض، مجلة البحوث الإسلاميَّة العدد (٢٩)، لذي القعدة وذي الحجة ١٤١٠ هـ ومحرم وصفر ١٤١١ هـ: ص ١٨٠، (مرجع سابق). وانظر: ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين ٢٨٥/٤، ٢٨٦، ٢٨٧، (مرجع سابق).

مايحتاج إليه العباد، في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنّه لم يحوج أمته إلى أحدٍ بعده، وإنّما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ماجاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لايتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة للمُرْسَل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بُعث إليه في أصول الدين وفروعه؛ فرسالته كافية شافية عامة، لاتحوج إلى سواها، ولايتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلايخرج أحدٌ من المكلفين عن رسالته، ولايخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأُمَّة في علومها وأعمالها عمَّا جاء به)[1].

---

(١) أعلام الموقعين ٤/٢٨٥، (المرجع السابق نفسه).

المطلب الثاني
موقف المستشرقين من خصيصة العالَمِيَّة

تختلف آراء المستشرقين ومواقفهم حول هذه الخصيصة من خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، فمنهم من أقرَّ بها مثل (جولدزيهر)[1] و (سير توماس أرنولد) وغيرهما[2]، ومنهم من أنكرها، ومنهم من أقرَّ بها ولكنه نفى أن يكون الرسول ﷺ فكر فيها أو عمل لها، وإنَّما أفضت إليها حركة الأُمَّة الإسلاميَّة التاريخية، ومنهم من تأرجح بشأنها، قائلاً: لايُمكن إثباتها أو نفيها فهناك نصوص تثبتها ودلائل تؤكدها، وهناك نصوص أُخرى تدل على عكس ذلك.

ويعرض هذا المطلب بعض آراء منكري هذه الخصيصة واستدلالاتهم سواء الذين أنكروها البتَّة، أو أنكروها كخصيصة تميّز بها الإسلام من حيث المبدأ وطبيعته الذَّاتيَّة، أو تأرجحوا بشأنها.

أمَّا الذين اعترفوا بها فسيجري الاستشهاد بأقوالهم في سياق الردود على المنكرين، وتفصيلُ ذلك وفق الآتي:

أولاً: موقف المنكرين لخصيصة العالَمِيَّة وأدلة إنكارهم مع الرد عليها:

أ - زعم (فنسك): (أن دعوة الإسلام خاصة بالعرب)، وحُجَّتُه في

---

(١) اعترف (جولدزيهر) بعالمية الإسلام على الرغم من مزاعمه في القرآن الكريم والسنّة النبويَّة. ولكنه لايجد حرجًا أن يكون الإسلام عالميًا وهو من وضع محمد ﷺ وليس وحيًا من عند الله. انظر: جميل عبدالله المصري: دواعي الفتوحات الإسلاميَّة ودعاوى المستشرقين: ص ٣١، الطبعة الأولى، عن دار القلم - دمشق، والدار الشامية - بيروت، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

(٢) انظر: العقاد: الإسلام دعوة عالمية: ص ١٢٩، (مرجع سابق).

ذلك أنَّ (الرسول عربي، وظهر في جزيرة العرب، والقرآن عربي، وأحكامه عربية، ويجري العمل به في بلاد العرب، والدعوة ظهرت في بلاد العرب)[1]، ويخلص من هذا إلى نتيجة محدَّدَة هي (أنَّ الإسلام خاصٌ بالعرب)[2].

واستدل (فنسك) على دعواه بعدّة آيات من القرآن الكريم زعم أنها تؤكد ما ذكر، منها قول الله - جَلَّ وَعَلاَ -: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[5].

فهذه الآيات من وجهة نظره تؤكد خصوصية الإسلام لكون القرآن الكريم نزل باللغة العربية موجهًا إلى أم القرى ومن حولها، ويستدل بآيات أخرى يرى أنها تدل من وجهة نظره على أن الرسول ﷺ عربي وبعث في أُمَّة عربية، منها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾[6]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ

---

(١) نقلاً عن محمد أمين حسين: خصائص الدعوة الإسلاميَّة: ص ١٩٩، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ عن مكتب المنار - الأردن، وانظر: محمد الراوي: عالمية الدعوة: ص ٥٣، عن الدار العربي - بيروت.

(٢) انظر: محمد أمين حسين: المرجع السابق: ص ١٩٩.

(٣) سورة الشورى: الآية (٧).

(٤) سورة الشعراء: الآيات (١٩٣ - ١٩٥).

(٥) سورة يوسف: الآية (٢).

(٦) سورة الجمعة: الآية (٢).

(٧) سورة البقرة: الآية (١٥١).

عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[1].

أمّا الرد على هذا الزعم الذي قرره (فنسك) فمن وجوه عِدّة من أبرزها الآتي:

١ - هناك آياتٌ أخرى وأحاديث كثيرة تدل على عالمية الإسلام، كقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيراً ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[4]، فهذه الآيات وغيرها ذكر ابن كثير أنها: (خطاب للناس جميعًا الأحمر والأسود، العربي والعجمي، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ؛ لأنه خاتم النبيين، وأنّه مبعوث إلى الناس كافة)[5].

وقال الألوسي في ذلك: (أمر ﷺ بأن يصدع بما فيه تكبيت لليهود الذين حرموا اتباعه، وتنبيه لسائر الناس على افتراء من زعم منهم أنّه ﷺ مرسل إلى العرب خاصة.. ببيان عموم رسالته ﷺ وهي عامّة للثقلين)[6].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٦٤).

(٢) سورة سبأ: الآية (٢٨).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥٨). والغريب في أمر (فنسك) أنّه احتزأ آخر هذه الآية عن سياقه، وسياقه جاء خطاباً للناس جميعاً بأن النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته مرسلاً لجميع الناس وأن عليهم اتباعه.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٢/٢٥٥، (مرجع سابق)، وانظر: البيضاوي: أنوار التنزيل ١/٣٦٣ (مرجع سابق).

(٦) روح المعاني ٩/٨٢، (مرجع سابق).

ومن الأحاديث الشريفة قوله ﷺ: «أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحدٌ قبلي...» [1] وذكر منها: « وبعثتُ إلى الناس عامَّة»، ومنها قوله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لايسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثُمَّ يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلاّ كان من أصحاب النار» [2].

يقول الشوكاني في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ......﴾ الآية: (بعث الله محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأحمر والأسود، فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ والأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة) [3].

ومن السنَّة – أيضًا – ما رواه البخاري عن عدي بن حاتم قال: (بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثُمَّ أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: « يا عدي، هل رأيت الحيرة ؟ » قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها. قال: «فإنْ طالت بك حياة، لَتَرَيَنَّ الظَّعينَةَ ترتحلُ من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة، لاتخاف أحداً إلاّ الله» – قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّارُ طيءٍ الذين قد سعروا البلاد – «ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوزُ كسرى». قلتُ: كسرى بن هرمز ؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الرجلَ يخرجُ ملءَ كفه من ذهب أو فضَّة، يطلب من يقبله فلايجد أحدًا يقبله منه، وليَلْقَيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يلقاه،

---

(١) سبق تخريجه؛ ص ٦٨٦، (البحث نفسه).

(٢) سبق تخريجه؛ ص ٦٨٦، (البحث نفسه).

(٣) فتح القدير: ٢/٢٥٥، (مرجع سابق).

وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولنَّ: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك، فيقول: بلى...»الحديث[1].

٢ - وإلى جانب هذه النصوص من الكتاب والسنّة وغيرها هناك دلائل متنوعة منها ما يتعلق بطبيعة الإسلام من حيث عقيدته وشريعته وأخلاقه وقيمه التي تميّزت بالعالميَّة، ومنها تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة المجيد الذي كانت العالميَّة من الخصائص المميِّزَة لهذه الأُمَّة فقد اشتملت على جميع الأجناس ومختلف الفئات وانتشرت في أصقاع المعمورة، واستمرت مع كر الجديدين متألقة متفردة[2].

فكيف ساغ لـ (فنسك) وأضرابه أن ينسوا كلَّ هذه الحقائق ويحصروا أنفسهم في دائرة الاجتزاء وإغفال هذا الواقع الذي لايحتاج إلى دليل:

وليس يصح في الأفهام شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل[3]

٣ - ومن ناحية أخرى فإنَّ ما استدلَّ به (فنسك) من آيات موجَّهَة إلى العرب فيما بداله من ظاهرها عالميَّة الإسلام؛ وفي هذا يقول العقاد: (وإذا كان عرب الجاهليَّة قومًا لم يأتهم نذير من قبل فالدين الذي جاء به صاحب الدعوة المحمديَّة يعم المتدينين الذين سبقت إليهم الرسل،

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١٣١٦/٣، ١٣١٧، الحديث رقم: (٣٤٠٠)، ترتيب: البُغا، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المطلب السابق.

(٣) لأبي الطيب المتنبي من قصيدة مطلعها:

أتيت بمنطق العرب الأصيل وكان بقدر ما عانيتُ قيلي

انظر: ناصيف اليازجي: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ١٤٢/٢، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، عن دار بيروت، بيروت.

ويقوم النبي العربي بالدعوة إليه ليظهره على الأمر كله)[1]، ثُمَّ يستشهد بقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[2].

كذلك مهما كان القول في اللغة التي خاطب بها الرسول ﷺ الناس فإنَّ العبرة بكونه خاطب الناس كافة، أم القرى ومن حولها ولايُمكن أن تعزل الهداية عن غير أهل أم القرى[3].

وعن هذا قال العقاد أيضًا: (إذا كان خطاب الناس كافة يمنع أن يكون الخطاب مقصورًا على أمِّ القرى ومن حولها، فإنَّ خطاب أم القرى ومن حولها لايمنع أن يعم الناس أجمعين)[4].

٤ – وثَمَّة ناحية ثالثة قد لايسَلِّمُ بها بعض المستشرقين ولكنها حُجَّة عقليَّة دامغة، وهي: (كيف يسيغ العقل أن يكون صاحب الدعوة المحمديَّة خاتم النبيين إذا كانت رسالته مقصورة على قوم لم يأتهم من قبل من نذير)[5].

٥ – وإذا كان بعض المستشرقين يعترف بأن محمدًا ﷺ مرسلٌ إلى العرب فإنَّه (يلزم من تصديقهم بذلك أن يصدقوا ماجاء به من دعوة عامَّة وشاملة للعالمين)[6].

---

(١) الإسلام دعوة عالمية: ص ١٣٠، ١٣١، (مرجع سابق).

(٢) سورة الصف: الآية (٩).

(٣) انظر: العقاد: المرجع السابق نفسه: ص ١٣١.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٣١.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ١٣١.

(٦) انظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح... ١/١٦٤، (مرجع سابق)، وانظر: الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد: ص ١٢٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م، عن دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر: ص ٦٩٦ – ٦٩٧، (البحث نفسه).

ب - وبلغ الأمر ببعض المستشرقين بقصد نفي عالميَّة الإسلام أن يَعْمَدَ إلى التحريف في الآيات القرآنية التي وجَّهت الخطاب إلى الناس بعامة، وللمثال على ذلك فإنَّ (جورجٍ سيل) ترجم قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ بقوله: (يا أهل مكة)[1].

ولاشك أن مثل هذا العمل ينم عن مجافاة واضحة للمنهجية والموضوعية والعلميَّة لدى (جورج سيل) وأمثاله من المستشرقين ويؤكد ما ذكر من أن المنهجيَّة الاستشراقية في دراستها للإسلام تحدد الفكرة ابتداءً ثُمَّ تبحث عن أدلة تؤيدها فإذا لم تجد لجأت إلى التحريف والتبديل، وليس قول (جورج سيل) هذا إلا أحد الشواهد الدّالة على ذلك[2].

ج - وعَمَدَ بعض المستشرقين لتقرير دعواهم إنكار عالميَّة الإسلام إلى إنكار رسل النبي ﷺ ورسائله إلى الملوك والعظماء في عصره المجاورين لدولة الإسلام من الأكاسرة والأقباط والروم وغيرهم، (ولقد اتكأ بعضهم في إنكاره على ما في الروايات ونصوص الرسائل المرويَّة من ثغرات)[3].

ولعل مِمَّا أُخِذَ على (توماس أرنولد) - الذي يعترف بعالمية الإسلام- أنَّه رُبَّمَا تأثر بهذه الثغرات إذ عبَّر في سياق استشهاده بتلك الرسائل على عالميَّة الإسلام بقوله: (لم تكن رسالة الإسلام مقصورة

---

(١) انظر: محمد دياب: أضواء على الاستشراق: ص ٥٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: عبدالرحمن حبنكة: أجنحة المكر..: ص ١٤٧، (مرجع سابق).

(٣) محمد عزّة دَرْوَزة: القرآن والمبشرون: ص ٢٨٩، الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ-١٩٧٢ م، عن المكتب الإسلامي.

على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيبًا فيها... ولكي تكون هذه الدعوة عامة، وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب، نراها تتخذ صورة عمليةً في الكتب التي قيل أن محمدًا بعث بها في السنة السادسة من الهجرة)[1]، فقد عبَّر (توماس أرنولد) بقوله: (قيل) التي تفيد التضعيف أو التشكيك، مع أنّه مقرٌّ بعالمية الإسلام وردَّ ردًّا قويًّا على منكري عالمية الإسلام بما ذكره في سياق كلامه.

أمَّا غالبية المستشرقين فإنهم لتأكيد إنكارهم عالمية الإسلام أنكروا أن يكون الرسول ﷺ قد بعث برسله ورسائله إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة، ومنهم (مرجليوث) الذي (ادعى أن الرسول لم يوجه أي كتاب للملوك والأمراء خارج الجزيرة)[2]، و (موير) فإنَّه يقول: (لم يوجه الرسول دعوته منذُ بعث إلى أن مات إلاّ للعرب دون غيرهم)[3].

وأنكر (برنارد لويس) في كتابه: السياسة والحرب في الإسلام: (أن يكون الرسول ﷺ قد أرسل الكتب والرسائل إلى الأمراء والملوك الذين عاصروه بحجة عدم العثور على ما يدل على شيء من ذلك في الوثائق التي خلّفها هؤلاء)[4].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام... ص ٤٨، ٤٩، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرين، الطبعة الثالثة، ١٩٧١م، عن مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٧٠م، وانظر: محمد فتح الله الزيادي: انتشار الإسلام: ص ٣١، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن: نذير حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين: ص ١٦٤، (مرجع سابق).

(٣) نقلاً عن: المرجع السابق نفسه: ص ١٦٤.

(٤) انظر: جميل عبدالله محمد المصري: دواعي الفتوحات الإسلاميّة ودعاوى المستشرقين: ص ٣١، (مرجع سابق).

ويرد على هذه الأقوال من وجوه أبرزها:

١ - إن تلك الكتب أو الرسائل والرسل التي بعث بها الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء المجاورين لدولة الإسلام، سواء في داخل الجزيرة أو خارجها حدث تاريخي (مدون في أقدم كتب السيرة التي وصلت إلينا ولم يكن هناك أيّة ضرورة دينيّة أو سياسيّة تحمل أحدًا في القرن الأول والثاني على اختراع خبر هذا الحادث وروايته وتدوينه)[1].

وقد اعترف بها بعض المستشرقين مثل (إميل درمنغم) في قوله: (ثُمَّ بعث النبي السرايا فدانت للإسلام قبائل كثيرة، ثُمَّ أرسل الكتب إلى الملوك والأمراء الأجانب)[2].

وكتب المستشرق (د، م، دنلوب) إلى محمد حميد الله الحيدرآبادي بأنّه ظفر بأصل الكتاب الذي بعثه الرسول ﷺ إلى (النجاشي)، وأنّه

---

(١) محمد عزة دروزة: القرآن والمبشرون: ص ٢٨٩، (مرجع سابق).

(٢) حياة محمد: ص ٣٣٥، (مرجع سابق)، ولمعرفة مصادر هذه الكتب والرسائل والوقوف على نصوصها؛ انظر: محمد حميد الله الحيدرآبادي: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة: ص٢٩ - ٥٠، ص ٥٧ - ١٠٨، (مرجع سابق)، وقد استعرض في هذه الصفحات وصفحات أخرى حتى الصفحة ص ٢٢٦ جملة من الكتب والرسائل والعهود التي كتبها الرسول ﷺ وأرسلها إلى الملوك والأمراء المجاورين لدولة الإسلام وكذلك ما أرسل إليه من إجابات على رسله ورسائله تلك، وأورد مصادر تلك الوثائق وصورًا لما وجد منها، وذكر أماكن حفظها في العالم، وانظر: عبدالجبار محمود السامرائي: الرسائل التي بعث بها الرسول ﷺ إلى ملوك الدول المجاورة، مجلة الفيصل العدد [٥٥]: ص ٧١ - ٨١، (مرجع سابق)، وقد تطرق لذكر وجهات نظر بعض المستشرقين حول صحة تلك الرسائل، وصحة ما حُفِظَ منها حتى العصر الحديث، وذكر ممن زعم بأنها مزورة من المستشرقين (بيكر، وأملينو، وكرابجك، وكيتاني، وفيت وشفالي).

سينشر صورته الشمسية في مجلة الجمعية الملكية الآسيائية (JRAS) الإنجليزية[1].

إنَّ مثل هذه الشواهد والتحقيقات تسقط حجّة (برنارد لويس) التي تنفي العثور على مايدل على شيء من تلك الرسائل التي بعثها الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء الذين عاصروه، وتكشف دخل تلك المنهجيَّة الاستشراقية التي تنفي حقائق التاريخ ومسلماته بالآراء العارية عن الأدلة الناصعة، والتي لاتعدو كونها مجرد الاحتكام للأهواء والتعصب الأعمى.

٢ - ويتصل بما سبق ما جرى من أحداث أخرى مثل توجيه الرسول ﷺ سريَّة (زيد بن حارثة)[2] لقتال بني جذام لما حدث منهم (لدحية الكلبي) وهو في طريق عودته من هرقل[3].

ومثل تجييش الرسول ﷺ جيش مؤتة بقيادة (زيد بن حارثة) أيضًا لما حدث من (عمرو بن شرحبيل) إذ قتل (الحارث بن عمير) رسول الرسول ﷺ إلى ملك (بصرى)[4].

(ومثل قدوم (مارية القبطية) وأختها من مصر هدية من المقوقس، وقد تسرى النبي بأولاهما وأولدها ابنه إبراهيم، وهذه حقيقة يقينيَّة)[5].

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق السياسية... (المرجع السابق نفسه) ص ٣٠، ٣١.

(٢) انظر: محمد عزة دروزة: القرآن والمبشرون: ص ٢٨٨، (مرجع سابق).

(٣) انظر: محمد عزة دروزة: المرجع السابق: ص ٢٨٨.

(٤) انظر: محمد عزة دروزة: القرآن والمبشرون: ص ٢٨٨.

(٥) انظر: محمد رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ص ٥٢٠، ٥٢١، (مرجع سابق)، وقد تقصَّى مصادر هذا الحدث ومايتصل به ويماثله في معظم كتب السنة والسيرة والتراجم، وانظر: المرجع نفسه: ص ٥١٣ - ٥٢٥.

ومثل (إسلام (باذان) عامل كسرى على اليمن...)[1].

وما ورد حول هذه الأحداث التاريخية ونحوها من قصص تؤكد عالميَّة الإسلام وكونها من خصائص تميز الأُمَّة الإسلاميَّة (ومهما أحاط بها من زيادة أو نقصان في سياق الروايات وتفاصيلها وتواريخها ونصوصها وأسماء أعلامها، فإنَّ كل ذلك لاينهض لتكذيب الحادث، بل الثابت أن الرسول ﷺ عقب هدنة الحديبية مع قريش وما أعقبه من انتصارات على اليهود، ونزول بعض الآيات التي أمرت الرسول ﷺ بنشر دعوته في الناس)[2] كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3].

وعلى الرغم مِمَّا أورده المفسرون حول زمن نزول هذه الآية إلا أن ابن كثير رجَّحَ أنها مدنية ومن أواخر ما نزل بالمدينة، إذ قال: (والصحيح أنَّ هذه الآية مدنية بل هي من أواخر ما نزل بها والله أعلم)[4].

فمن الثابت أن الرسول ﷺ (بادر إلى إبلاغ دعوته ورسالته إلى من هم خارج بيئته الخاصة)[5]، والمرجح أن ذلك حدث عقب (صلح الحديبيَّة مع قريش وما أعقبه من انتصارات على اليهود)[6]، وكان الوقتُ مناسبًا لإبلاغ الناس بعامّة رسالة الإسلام، ولعل في قول الله

---

(١) محمد عزة دروزة: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨٩.

(٣) سورة المائدة: الآية (٦٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/٧٩، (مرجع سابق).

(٥) محمد عزة دروزة: القرآن والمبشرون: ص ٢٨٩، (المرجع السابق نفسه).

(٦) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨٩.

تعالى في نهاية الآية السابقة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[1] مايدلّ على صحة ما تقدم ذكره، وقد قال ابن كثير في تفسيرها: (وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي: بلغ أنت والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء)[2].

من هذا كله تتضح عالميَّة الأُمَّة الإسلاميَّة من حيث مبادئها ومن حيث تاريخها، وأنَّ خصيصة العالميَّة ملازمة لتميز الأُمَّة الإسلاميَّة في جميع أطوارها.

ثانيًا: موقف من نفى خصيصة العالمية من حيث كونها من المبادئ التي تميزت بها الأُمَّة الإسلاميَّة على الرغم من الإقرار بها تاريخيًّا بسبب ما أفضى إليها تطور الأُمَّة وتدل على هذا الموقف آراء بعض المستشرقين، كما يتضح مِمَّا يأتي:

أ - ادعى (موير) بأنَّ عالميَّة الإسلام (قد جاءت فيما بعد، وأنَّ هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنَّه فكر فيها، فقد كانت الفكرة غامضة، فإنَّ عالمه الذي كان يفكر فيه إنَّما كان بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلاَّ لها)[3].

ويواصل مزاعمه قائلاً: (نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنَّما يرجع هذا إلى

---

(١) سورة المائدة: الآية (٦٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧٩/٢، (المرجع السابق نفسه).

(٣) نقلاً عن محمد دياب: أضواء على الاستشراق... ص ٥٢، ٥٣، (مرجع سابق)، وانظر: العقاد: الإسلام دعوة عالمية: ص ١٢٨، ١٢٩، (مرجع سابق)، وانظر: سير توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٥٠، (مرجع سابق).

الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج)[1].

أمَّا الرد على (موير) فإنَّه من وجوه كثيرة، من أبرزها النصوص والأدلة التي ذكرتُ سابقًا ويضاف إليها الآتي:

١ - إن قول (موير) بأنَّ نواة العالمية قد غرست يناقض ما ذهب إليه من قوله بأن محمدًا ﷺ لم يفكر فيها، وهذا الزعم يناقضه أيضًا اعترافه بالآيات الكثيرة، وكذلك الأحاديث الكثيرة التي تؤيدها، فإذا كان الرسول ﷺ المبلغ عن الله هو الذي نطق بالآيات والأحاديث المؤيدة للعالميَّة فكيف يتسنَّى لـ (موير) أو غيره أن ينفي عن الرسول ﷺ كونه فكَّرَ في عالمية الإسلام[2].

إنَّ مثل هذه الآراء لاتقوم بها حُجَّة ولايقبلها العقل والمنطق.

---

(١) محمد دياب: المرجع السابق نفسه: ص ٥٣. وانظر: محمد أمين حسن: خصائص الدعوة الإسلاميَّة: ص ٢٠١، (مرجع سابق).

(٢) أورد ابن سعد في طبقاته أقوالاً عن الرسول ﷺ تبين عالمية الأُمَّة الإسلاميَّة منها قوله عن الرسول ﷺ: «أنا سابق العرب»، «صهيب سابق الروم»، «سلمان سابق فارس»، «بلال سابق الحبشة». في مواضع متفرقة من الطبقات؛ انظر: المرجع نفسه: ١/ ١٨، ٣/ ١٦٩، ٣/ ١٧٤، ٤/ ٦٢، بتحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م، عن دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر: ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق: ٦/ ٤٤٦، بتحقيق: عبدالقادر بدران، (مرجع سابق)، وانظر: أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء..: ١/ ١٤٩، طبعة المكتبة السلفية، القاهرة (بدون تاريخ)، وانظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة: ٣/ ٢٥٥، الترجمة رقم: (٤٠٩٩)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ)، ولفظ الحديث لدى الحاكم: «السباق أربعة: أنا سابق العرب، وسلمان سابق الفارس، بلال سابق الحبشة، وصهيب سابق الروم»، المستدرك ٣/ ٢٨٥، الحديث رقم: (٥٢٤٣/ ٨٤١) بترتيب: مصطفى عبدالقادر عطا: ٣/ ٣٢١، (مرجع سابق)، وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد.

وإذا كان (موير) يقصد من قوله هذا؛ إنَّ دعوة الإسلام مرت بمراحل لم تظهر العالميَّة في بدايتها فإنّ ذلك أمر طبيعي تقتضيه السنن الكونية والاجتماعية، ولكنه فسَّرَ هذا بأنه (يرجع إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والبرامج)[1]، وهنا يلحظ البون الشاسع بين هذا المستشرق وبين طبيعة الإسلام وخطوات الرسول ﷺ في تبليغه، إذ ينطلق - هذا المستشرق - في تفسيره للإسلام من بيئته هو وكأنه يتحدث عن رئيس حزب أو جمعيَّة أو نحوِ ذلك وليس عن نبي مرسل يحكمه الوحي في كل خطوة يخطوها، ويجلي ذلك ما في الكتاب والسنة في حجة الوداع، فقد نزل فيها قول الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[2]، وخطب فيها الرسول ﷺ قائلا: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلاَّ بالتقوى، أبلغتُ ؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ .. إلى أن قال: ليبلغ الشاهد الغائب»[3].

---

(١) نقلاً عن: سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام... ص ٥٠، (مرجع سابق)، وانظر: محمد أمين حسن: خصائص الدعوة الإسلاميَّة: ص ٢٠١، (مرجع سابق)، وانظر: جميل المصري: دواعي الفتوحات الإسلاميَّة... ص ٣٢ - ٣٨، (مرجع سابق).

(٢) سورة المائدة: الآية (٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤١١/٥، الحديث رقم: (٢٢٩٧٨)، ٥٧٠/٦، بترتيب دار إحياء التراث العربي، (مرجع سابق)، وأخرجه البيهقي في سننه ٢٨٩/٤، رقم الحديث [٥١٣٧]، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، عن دار الكتب العلمية - لبنان.

والحديث لديه عن جابر بن عبدالله بلفظٍ قريب مِمَّا أخرج الإمام أحمد بيد أنه قال: (وفي هذا الإسناد من يجهل).

إنّ من ينظر في هذا يجد أنَّ دعوة الرسول ﷺ قد سارت (حسب الطريق الذي رسمه له رب العزّة والجلال، في تبليغ دعوته، حيث إنَّه بدأ بدعوة أقرب الناس إليه، ثُمَّ أخذ يتدرج، فبعد أن دعا قريشًا قام بدعوة من جاورها، وذلك عندما ذهب إلى الطائف لدعوة أهلها، بعد أن أبت قريش الاستجابة له ومناصرته، وبعد عودته من الطائف أخذ (يعرض دعوته) على جميع القبائل التي تحضر الحج، وتجتمع في أسواق مكة، ثُمَّ نقل دعوته إلى المدينة بعد أن هيأ الله الأسباب لذلك، وفي المدينة سارت الدعوة في طريقها (إلى العالم أجمع) وراح الرسول ﷺ يزيل العقبات التي تعترض طريقها، ثُمَّ قام بمكاتبة الملوك ودعوتهم إلى الإسلام، وهكذا تدرجت الدعوة حتى بلغت لأهل الأرض)[(١)].

والسؤال هنا ألا يجد (موير) في هذا التاريخ وفي هذه السيرة معنى للخطط والبرامج قد يختلف معه المؤمنون في أصل الإيمان بأنَّ هذا كله مكتوب بما يفي بالخطط والبرامج التي يقصدها، ولكن ذلك في اللوح المحفوظ، وأجراه الله في واقع التاريخ على يد سيد الخلق وصفوة الأنبياء والمرسلين وخاتمهم محمد بن عبدالله ﷺ.

٢ - إن هناك دلائل أُخرى صاحبت سيرة الرسول ﷺ منذُ البعثة وحتى انتقل إلى الرفيق الأعلى تدل على عالميَّة الإسلام، وإذا كان (موير) ينفي تلك العالميَّة استنادًا إلى سيرة الرسول ﷺ قبل الهجرة وبعدها إلى حين صلح الحديبيَّة أو ما أعقب ذلك من انتشار الإسلام، فإنَّ من أبرز الدلائل على عالميَّة الإسلام وقبل أن يهاجر الرسول ﷺ

---

(١) محمد حميد الله الحيدرآبادي: مجموعة الوثائق السياسية... ص ٢٢٨، (مرجع سابق).

إلى المدينة المنورة القصص التاريخية الواردة في كتب السيرة[1] والتاريخ كقصة (ورقة بن نوفل) و (النجاشي) ملك الحبشة، والراهب (بحيرى) و (نسطورا) و (عدَّاس)، فلكل واحدٍ من هؤلاء مع الرسول ﷺ أو مع خبر بعثته قصة تدل على عالمية رسالته ﷺ وكانت كلها قبل أن يهاجر إلى المدينة المنورة[2].

وبعد أن هاجر حدثت له قصصٌ أخرى مثل إسلام (سلمان الفارسي) وإسلام (عبدالله بن سلام) وقصة (مخيريق) ونحو ذلك مِمَّا هو مبسوط في المصادر الإسلاميَّة[3]، وفي هذا دلالة صريحة على أن الرسول ﷺ كان يعلم بأنَّه مرسل إلى الناس كافة بل إلى الثقلين الجن والإنس، وكان عندما يعرض نفسه على القبائل يعلنها صريحة (بأنَّه مرسل إلى الناس كافة)[4]، بل ورد ذلك في خطبته الأولى في الإسلام حينما أمره الله عزوجل بالجهر بالدعوة فقال ﷺ: «والله الذي لا إله إلا

---

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية: ٢١٦/١، ٢١٧، ٢٧٠، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (مرجع سابق)، وقد أورد ابن هشام من دلائل نبوته ﷺ الشيء الكثير ومنها ما يدل على عالميَّة الرسالة مثل أخذ الميثاق على الرسل بالإيمان به ﷺ؛ انظر: ص٢٦٣وما قبلها ومابعدها، (المرجع نفسه).

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢١٢/١، ٢١٣، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: الروض الأنف ٢١١/١، ٢١٢، (مرجع سابق)، وانظر: ص ٦٥٠-٦٥١، (البحث نفسه).

(٣) من كتب السيرة والتاريخ والتراجم بل وكتب الحديث والتفسير.

(٤) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٧٦/٢، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: جماعة من كبار العلماء: سيرة سيد المرسلين ص ٥٢، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، من منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت.

هو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة»[1].

ب - زعم (يوليوس فلهوزن) بأنَّ الإسلام يرتكز على رابطة قوميَّة تتسم بالعصبية والضيق ولاتتسع في غير حدود رابطة الدم.. إذ قال: (لقد كان في وسع محمد عن طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التي ترسمها رابطة الدم، أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها، ولا كانت ذات صفة خارجية عارضة، هذا هو الذي جعلها لاتتسع لقبول عنصر غريب عنها، ولكن محمداً لم ير ذلك، ومن الجائز أيضًا أنَّه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكانية رابطة دينيَّة في غير حدود رابطة الدم)[2].

ويرد على هذا الزعم من ناحيتين:

الأولى: طبيعة العقيدة الإسلاميَّة وما امتازت به، فهي عقيدة منفكة عن رابطة الدم والعنصر وأي رابطة أخرى غير التقوى كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[3]، وفي الحديث النبوي الشريف جاء قوله ﷺ: «يا أيها الناس، إنَّ الله قد

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ١/٥٨٥، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، (مرجع سابق)، وانظر: الحلبي: السيرة الحلبيَّة: ١/٤٥٩، (مرجع سابق)، وانظر: أحمد زكي صفوة: جمهرة خطب العرب: ١/١٤٧، (مرجع سابق)، وانظر: ص ٦٨٧ - ٦٨٨، (البحث نفسه).

(٢) تاريخ الدولة العربية؛ (من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية): ص ٤ ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، وحسين مؤنس، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ١٩٥٨ م، القاهرة، وانظر: محمد أمين حسن: خصائص الدعوة الإسلاميَّة: ص ٢٠٠، ٢٠١، (مرجع سابق).

(٣) سورة الحجرات: الآية (١٣).

أذهب عنكم عُبِّيَة[1] الجاهليَّة وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله عزوجل، وفاجر شقي هين على الله عزوجل، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب[2]. قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ..... ﴾ الآية ».

وفي حديث آخر أنه ﷺ سئل أيُّ الناس أكرم ؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»[3].

وقد أورد ابن كثير جملة من الروايات التي تبين بجلاء أنَّ رابطة الإسلام هي رابطة التقوى عند تفسيره للآية السالفة وقال: (فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنَّما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ)[4].

وبهذا يتضح أنَّ رابطة العالميَّة في الإسلام رابطة دينيَّة لا وجود للتفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح، وربَّمَا دعا (فلهوزن) إلى مقولته هذه بحثه فيما أسماه الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأمويَّة، ولعله استنتج من بحثه هذا قصر الإسلام على

---

(١) عُبِّيَة: على هذا جاء ضبطها لدى الترمذي، وجاء لدى ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ١٦٩/٣: (عُبِّيَّة)، وقال في معناها: (يعني الكِبْر)، وانظر: ص ٤٨٦، (البحث نفسه).

(٢) رواه الترمذي: الجامع الصحيح ٣٦٣/٥، الحديث رقم [٣٢٧٠]، وقال عنه الترمذي: (حديث غريب)، (مرجع سابق)، وانظر: ص ٤٨٦، (البحث نفسه).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١١٩/٤، ١٢٠، كتاب الأنبياء، باب [١٤]، تحقيق: فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢١٧/٤، (مرجع سابق).

العرب، إنْ لم يكن حدَّدَ النتيجة سلفًا كما يظهر من عنوان مؤلفه[1]، ولاشك أن هذا استنتاج خاطئ؛ لأنَّ دولة الإسلام عندما كانت بقيادة العرب لايستلزم من ذلك كون رسالة الإسلام خاصة بهم.

الثانية: إنّ الناظر في مبادئ الإسلام وتعاليمه من ناحية وفي الأُمَّة التي حملت تلك المبادئ والتعاليم من ناحية أخرى يجد أجناسًا عدّة، وشعوبًا شتى، قد دخلت الإسلام وحملت دعوته وتكونت منها جميعًا أُمَّة ولم يحدّها زمان ولا مكان ولا اختصت بقوم دون آخر بل كانت دعوة عالميَّة شاملة للبشرية أجمع.

وفي بداية الإسلام كانت أُمَّة الإسلام تتكون من بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، إلى جانب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد، يرتصون في الصلاة خلف الرسول ﷺ صفًا واحدًا متحاذي المناكب والأقدام يتوجهون إلى قبلة واحدة ويعبدون إلهًا واحدًا مقتدين في ذلك بمحمد ﷺ، وفي هذا المظهر البديع دلالة على تلك الرابطة العقديَّة التي ترتكز عليها العالمية في الإسلام، والتي تتجاوز رابطة الدم والجنس واللون والقوم إلى رابطة التقوى وعقيدة التوحيد، وقد اعترف بتفرد الإسلام في هذا بعض المستشرقين قائلاً: (كان محمد ﷺ رسول الله إلى الشعوب الأُخرى، كما كان رسول الله إلى العرب)[2]،

---

(١) وقد ظهر عنوانه في ترجمة أخرى: (الدولة العربيَّة وسقوطها) ترجمة: يوسف العش، عن مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥٦ م.

(٢) دافيد دي سانتيلا: تراث الإسلام: ص ٤٠٦، تأليف: جمهرة من المستشرقين بإشراف (سير توملس أرنولد)، تعريب: جرجيس فتح الله المحامي، الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م، عن دار الطليعة، بيروت، وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام... ص ١٠٧، (مرجع سابق).

وقبل ذلك أشاد بما أحدثه الإسلام في المجتمع العربي من تغيير جوهري، جاء على مفهوم القبيلة والأسرة المعروف آنذاك، فمحا عنه النزعة الفردية الشخصية (Gentes)، والموالاة، والجماعات المتحالفة، وأقام بدل ذلك صرحًا اجتماعيًا جديدًا، يرتكز على عقيدة الإيمان بالله، وينشئ روابطه كلها ومنها رابطة القرابة والأسرة على أساس من عقيدة دين الإسلام ووفق مبادئه وقيمه[1].

ثالثًا: موقف المتشككين في عالمية الإسلام:

إذا كان بعض المستشرقين قد أقر بعالمية الإسلام وبعضهم الآخر أنكرها فإنَّ هناك رأيًا آخر شكك فيها، وممن عبَّر عن هذا الموقف المستشرق النيوزيلاندي (سوندرس) الذي يقول: (إنَّ هناك أدلة تفيد أن محمدًا قد أراد بدينه أن ينشر على الناس، كما أن هناك أدلة أُخرى تفيد أنَّه لم يفعل ذلك، فهي إذن مسألة من مسائل الشك لايقطع فيها بأي القولين)[2].

ويعد أن يستشهد بآيات ظاهرها التعارض من وجهة نظره بين عالميَّة الإسلام وخاصيَّته بالعرب، يعقب على ذلك بقوله: (إنَّ الأوروبيين المتخصصين بالإسلاميات ينقسمون انقسامًا شديدًا في هذه المسألة، فإنَّ (موير) يرى أنَّ الدعوة من البداية إلى النهاية كانت دعوة للعرب ولم يدع بها أحد غيرهم... ولكن (ولدكه) و (جولدزيهر) و (أرنولد) - وكلهم ثقات - يقولون: إنَّ محمدًا أراد بدينه منذُ أوائل الدعوة أن يكون

---

(١) انظر: دافيد دي سانتيلا: تراث الإسلام: ص ٤٠٥، ٤٠٦، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام..: ص ١٠٧، (المرجع السابق نفسه).

(٢) نقلاً عن عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية.. ص ١٢٨، (مرجع سابق).

عالميًّا ولم يرد به أن يكون مجرد عقيدة وطنيَّة محليَّة)[1].

ولم تقنع هذا المستشرق بعالميَّة الإسلام دلائلها من القرآن الكريم والسنّة النبوية والسيرة المطهرة، وهي الدلائل القوية الثابتة القائمة على النصوص الموثقة التي لايعتريها الشك، بل كان يود أن يرى مصداق ذلك في وقائع تاريخيَّة تخرجه، ومن سار على أثره من دائرة الشك في عالميَّة الإسلام إلى دائرة الاعتراف بهذه العالمية مثل كتب الرسول ﷺ ورسله إلى الملوك والعظماء في عصره، فيقول: (إنَّه لو كان قد ثبت أنَّه كتب إلى هرقل، وملك الفرس وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى الإسلام لانتفى الشك بالواقع، ولكن آراء الباحثين - مع الأسف - لاتميل إلى قبول هذه الأخبار، و (مونتغمري وات) يقول: (إنَّ هذه القصَّة لايُمكن أن تقبل على حسب هذه الروايات)[2].

أمَّا الرد على هذا وأضرابه ممن يُمكن أن يندرجوا مع المنكرين لأدلة عالميَّة الإسلام النقليَّة والعقليَّة والواقعيَّة، فيوضحه بعض من تصدَّى للرد على (سوندرس) في إنكاره أو شكه في هذه الأدلة وذلك بقوله: (بالنظر إلى القرآن الكريم وحده هناك أكثر من أربعين آية يُذكرُ فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين، وهذا عدا الآيات التي ذكر فيها بالنص الواضح أنَّه عليه السلام قد أرسل إلى الناس كافة، وأن القرآن قد تنزل عليه ليقرأ على الناس)[3].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٢٩.

(٣) أحمد إبراهيم الشريف، نقلاً عن عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية: ص ١٢٨، (المرجع السابق نفسه).

أمَّا الأدلة العقليَّة فمنها ما أشار إليه العقاد بقوله: (بأنَّ القرآن الكريم جاء خطابًا من الله على لسان المصطفى ﷺ لعباد الله ويستحيل أن يكون أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من البشر في جميع البلدان هم عباد الله)[1].

ومِمَّا يذكر في الرد - أيضًا - أنَّ (سوندرس): (كان منساقًا مع إغراء المقارنة في غير موضع للمقارنة.. من حصر الدعوة الإسلاميَّة بين أبناء الجزيرة العربيَّة التماسًا لوجوه الشبه - التي لا وجود لها - بين الدعوة إلى الموسويَّة والدعوة المسيحية والدعوة إلى الإسلام، فإنَّ اتباع موسى عليه السلام قد دخلوا أرض الميعاد بعد وفاته، وأتباع عيسى عليه السلام هم الذين قاموا بتوجيه الدعوة إلى العالم بعد حصرها في بني إسرائيل، فينبغي على هذا القياس ذهابًا مع شهوة المقارنة بين الأديان في غير موضع للمقارنة أن يكون خلفاء النبي ﷺ هم الذين نشروا الإسلام بين الأمم غير العربيَّة، ولم يكن ذلك من برنامج محمد عليه الصلاة والسلام ولا من أصول رسالته إلى قومه)[2].

ومِمَّا يكشف حقيقة مقولة (سوندرس) وأبعادها أنَّ رأيه في عالمية الإسلام جاء في سياق حديثه في مقال بعنوان: «الخليفة عمر المستعمر العربي»[3]، ولكي يجري المقارنة بين انتشار الإسلام وانتشار اليهودية والنصرانية عمَد إلى التشكيك في عالمية الإسلام بل قاده هواه وغرضه إلى نفيها.

---

(١) الإسلام دعوة عالمية: ص ١٢٨، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٣٠، ١٢٧.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٢٧.

وقد تنبه العقاد إلى هدف آخر يرنو إليه (سوندرس) من خلال مقولته تلك عبَّر عنه بقوله: (أمَّا إذا ساءت النية، وما أكثر الدواعي إلى سوء النية في كتابة تاريخ فلسطين.. فقد يفهم من كلام الكاتب أنَّ دخول الإسلام إلى فلسطين إنَّما كان عملاً من أعمال الاستعمار العربي، ولم يكن هداية دينية خالصة لوجه الله)[1]، وعزَّز العقاد هذا الاستنتاج بقرينة صاحبت ذلك المقال، إذ قال: (ويرد هذا الخاطر - قسرًا - إذا اطلع القارئ في العدد نفسه على مقال مسهب عن دخول اليهود إلى فلسطين، ليتخذوها مأوى لهم وموطنًا موعودًا من عهد الخليل إبراهيم)[2].

هذا إضافة لما سبق ذكره من الأدلة النقلية والعقلية والواقعية التي تثبت عالميَّة الإسلام وعالميَّة الأُمَّة الإسلاميَّة، ولكن هذا المستشرق وأمثاله من الذين وصفهم العقاد بأنَّهم: (يقرأون الكتاب المبين ولايستبينون منه أظهر معانيه، بل أظهر كلماته، التي لاتحتاج إلى مراجعة من أخبار الإسلام أو أخبار التواريخ)[3]، وصدق القائل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[4]، والقائل جل وعلا: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً

---

(١) الإسلام دعوة عالمية..: ص ١٢٧، ١٢٨، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٢٨.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٣٠، وانظر: محمد فتح الله الزيادي: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه: ص ٣٢ - ٣٤، (مرجع سابق).

(٤) سورة الإسراء: الآية (٨٢).

أن يفقهوه وفي ءاذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرءان وحده ولوا على أدبرهم نفورا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ قل هو للذين ءامنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في ءاذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾[2].

وخلاصة القول في آراء (سوندرس) وغيره من المستشرقين الذين شككوا في عالميَّة الإسلام وفي كونها خصيصة تميَّزت بها الأُمَّة الإسلاميَّة على سائر الأمم؛ أن آراءهم تلك آراء أقرب إلى الجهل والغرض والحقد على الإسلام وأمته منها إلى العلم والمنهج النزيه.

والعالميَّة خصيصة من خصائص تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة ثابتة بالنص والعقل والتاريخ[3].

* * *

(١) سورة الإسراء: الآيتان (٤٥، ٤٦).

(٢) سورة فصلت: الآية (٤٤).

(٣) لمزيد من الاطلاع على أدلة عالميَّة الإسلام؛ انظر: علي عبدالحليم محمود: عالميَّة الدعوة الإسلاميَّة، الباب الثاني: ص ١٥٩ - ٤٤٨، عن دار الوفاء بمصر، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.

المبحث الثالث

الوسطية وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: الوسطية.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منها.

المطلب الأول

خصيصـــة الوسطيَّة

والـوسطيَّة مــن خصائص تميـز الأُمَّــة الإســلاميَّة، قال تعالــى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [(١)]؛ حيث صرحت الآية الكريمة (بوصف الأُمَّة بالوسطيَّة وذكرت لها مفهومًا آخر يبرز جانبًا من جوانب التميُّز لهذه الأُمَّة إذا حرصت بالتزامها على هذا الانتماء الكريم، هذا المفهوم يتمثل في شهادة رسولها عليها في الوقت الذي يتخذ منها ربُّ العالمين شهداء على الناس) [(٢)].

وهـناك مواضـع أخـرى في القـرآن الكـريم قدَّمـت (نمـاذج لتطبـيق الوسطية في مجتمع المسلمين... تدل على أن هذه الخصيصة التي عرف بها الدين الحق، وأصبحت سمة للأُمَّة الملتزمة به ينبغي أن تظل سلوكيَّة تحكم حياة المسلم، ويعتصم بها في كل ما يأتي وما يدع؛ لأنها كفيلة بتحقيق الخير له من جميع أطرافه سواء في نفسه، أم في أسرته، أم في المجتمع الذي يعيش فيه...) [(٣)]، وكنتيجة طبيعية لتطبيق الإسلام في حياة المسلمين، والتزامهم بعقيدته وشريعته وأخلاقه ومبادئه وقيمه

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) السيد رزق الطويل: الوسطية ومواقعها في القرآن الكريم: ص ٢١، مجلة منبر الإسلام، العدد [٥]، السنة [٥٣]، جمادى الأولى ١٤١٥ هـ - أكتوبر ١٩٩٤، تصدر عن وزارة الأوقاف المصرية - القاهرة.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٢٤.

تصبح الوسطيَّة صفةً لهم بعد أن كانت صفةً للقيم المجردة، بل تصبح الوسطية سمةً للأُمَّة الإسلاميَّة كما هي سمة للإسلام)[1].

ولمزيد التفصيل والبيان يتناول هذا المطلب الوسطية في النقاط الآتية:

١ - مفهوم الوسطية.

٢ - وسطية الأُمَّة في مجال العقيدة والعبادة.

٣ - وسطية الأُمَّة في مجال التشريع والأخلاق.

١ - مفهوم الوسطية:

أ - الوسطيَّة في اللغة: مشتقة من مادة (وَسَطَ)، قال ابن فارس عن أصلها: (الواو والسين والطاء بناءٌ صحيح يدلُّ على العدل والنِّصف، وأعدل الشيء أوسطه ووسطه...، ويقولون: ضربتُ وَسَطَ رأسه؛ بفتح السين، وَوَسْطَ القوم بسكونها، وهو أوسَطهم حَسَبًا، إذا كان في واسطة قومه وأرْفَعِهم محلا)[2]، والذي يعنيه ابن فارس من قوله: (وَسَط رأسه؛ بفتح السين، وَوَسْط القوم بسكونها)[3]، أنَّ ما كان متصل الأجزاء أطلق على وَسَطِه: لفظ (وَسَط) بفتح السين، وما كانت أجزاؤه منفصلة أطلق على وسطه: لفظ (وَسْط) بسكون السين، وهذا ما ذكره أكثر العلماء في هذين اللفظين[4]، مع أنَّه قد يحدث خلاف ذلك ولكنه المرجوح[5].

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢١.

(٢) معجم مقاييس اللغة مادة (وسط)، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: مادة (وسط).

(٤) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (وسط)، (مرجع سابق). وانظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة (وسط) (مرجع سابق).

(٥) انظر: الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز... مادة (وسط)، (مرجع سابق).

ذكر ذلك الفيروزآبادي، وذكر قياسًا آخر وهو أنَّ (كلَّ موضع صَلُحَ فيه بَيْنَ فهو وَسْط بالتسكين، وإلاَّ فهو وَسَط بالتحريك، وقال ثعلب: الفرق بينهما أنَّ ما كان يبين جزءٌ من جزء، فهو مثل الحَلَقة من الناس والسُّبْحَة والعِقْد، فهو وَسْط بالتسكين، وما كان مصمتًا لايبين جزءٌ من جزء فهو وسط بالتحريك... وقد تسكن السين من الوسط، وليس بجيد)[1]، هذا عن أصل الكلمة وتصريفها.

ب - أمَّا عن معانيها فإنَّ لها معاني متقاربة غالبًا، منها: (العدل والخيار، والشرف في الحسب والنسب)[2]، ومنها: (العزَّة، والقوة، والمنعة، والظهور)[3].

ومن معاني الوسطيَّة: الموقع المتوسط بين طرفين، وقد يكون ذلك الوسط هو (القصد المصون عن الإفراط والتفريط، فيمدح به نحو السواء والعدل والنَّصفة)[4]، فهذا يلحق بالمعاني السابقة من جهة الأفضلية والخيريَّة، وفيه معنى الوسط من جهة البينيَّة، والمثال على ذلك (الجود الذي هو بين البخل والسرف)[5]، فهو وسط بين خلقين مذمومين أو هو (فضيلة بين رذيلتين)[6]، وقد يكون ذلك الوسط وسطا

---

(١) المرجع السابق نفسه مادة (وسط).

(٢) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (وسط)، (مرجع سابق). وانظر: إبراهيم أنيس وآخرين: المعجم الوسيط، مادة (وسط)، (مرجع سابق).

(٣) انظر: يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام: ص ١٣١ - ١٣٤، (مرجع سابق).

(٤) محمد عبدالرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف: مادة (وسط)، (مرجع سابق). وانظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (وسط)، (مرجع سابق).

(٥) الراغب الأصفهاني: المرجع السابق نفسه: مادة (وسط).

(٦) جميل صليبا: المعجم الفلسفي: مادة (الوسط، والأوسط)، طبعة دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م - بيروت.

بين طرفين أحدهما مذموم والآخر محمود، فيكون أقل من الأعلى، وأعلى من الأدنى، إمَّا أن يكون بين الجيد والرديء أو بين الخير والشر، أو وسطًا حسيًّا كوسط العصا والطريق[1]، ومن المعاني القريبة من هذه المعاني - أيضًا - وسط الشيء بمعنى مركزه كمركز الدائرة ونحوها[2].

وأمَّا ما نَدَّ عن تلك المعاني واسْتُعْمِلَ لصفة مذمومة فهو كقولهم: (فلان وسط من الرجال تنبيهًا أنَّه قد خرج من حَدِّ الخير)[3]، حيث استعمل لفظ (وَسَط) للكناية عن صفة مرذولة[4].

وقد وردت هذه المعاني في لفظ (وَسَط) و (وَسْط) ومشتقاتها؛ في أشعار العرب وآدابها، وورد أكثرها في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهرة[5]، ولايتسع المقام هنا لذكرها مفصلة وانَّما يُمكن القول بأنَّ وسطيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة تعني من تلك المعاني المتعددة أن الأُمَّة الإسلاميَّة خيار الأمم في ذاتها، وأعدلها في حكمها، وأنصفها في شهادتها على الناس، وأقومها في السير على منهج الله، وأحسنها رجعة إلى الله وأنها الأظهر، والأمنع، والأقوى والأعز؛ إذا هي سارت على صراط الله المستقيم وتمسكت بالعروة الوثقى لقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى

---

(١) انظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (وسط)، (مرجع سابق)، وانظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط: مادة (وسط)، (مرجع سابق). وانظر: المعجم الوسيط: مادة (وسط)، (مرجع سابق). وانظر: لسان العرب: مادة (وسط)، (مرجع سابق).

(٢) انظر: يوسف القرضاوي: الخصائص العامَّة للإسلام: ص ١٣٤، (مرجع سابق).

(٣) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (وسط)، (مرجع سابق).

(٤) انظر: الراغب الأصفهاني: المرجع السابق نفسه: مادة (وسط).

(٥) انظر: السيد رزق الطويل: الوسطية ومواقعها في القرآن الكريم: ص ٢٠ - ٢٤، (مرجع سابق). وانظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث: مادة (وسط)، (مرجع سابق).

ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

كما أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة وسط بين الأمم من حيث الزمان والمكان[2].

وتبقى الإشارة إلى وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة من حيث التعريف الاصطلاحي فهو: ما اتصفت به الأُمَّة الإسلاميَّة من تسنمها موقع الوسط في العقائد والشرائع والمكان والزمان، وكون ذلك الموقع هو القمَّة السامقة وتحيط بها الأطراف من كل جانب، وهذا الموقع يحقق لها العزَّة والمنعة والظهور، وهو في ذاته الأفضل والأحسن والأنصف والأعدل، وبعبارة موجزة: (الوسط: العدل الذي نسبة الجوانب إليه كلها على السواء، فهو خيارُ الشيء، ومتى زاغ عن الوسط حصل الجور الموقع في الضَّلال عن القصد)[3].

---

(١) سورة المنافقون: الآية (٨).

(٢) انظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح.. ١/١٦٤، ١٦٥، (مرجع سابق). وانظر: ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون: ص ٨٤ - ٨٧، (مرجع سابق). وفيهما تناول ابن تيمية وابن خلدون جانبًا من وسطيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة من حيث التوسط في الناحية الجغرافية وأثره في وسطية الأُمَّة وتميُّزها دون سائر الأمم؛ ومِمَّا قاله ابن تيمية في ذلك: (فبلغ ملك أمته [يعني الرسول ﷺ] طرفي العمارة شرقًا وغربًا وانتشرت دعوته في وسط الأرض، كالإقليم الثالث والرابع والخامس؛ لأنهم أكمل عقولاً، وأخلاقًا، وأعدل أمزجة، بخلاف طرفي الجنوب والشمال، فإن هؤلاء نقصت عقولهم وأخلاقهم، وانحرفت أمزجتهم). الجواب الصحيح.. ١/١٦٤، وعلل ذلك بما يتفق مع ما ذكره ابن خلدون في مقدمته.

أمَّا وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة من حيث الزمان فإنَّ ذلك يعني أنها جاءت خاتمة الأمم وعلى قمة تاريخها وكانت أُمَّة وسطاً باعتبارها شاهدة على الأمم، ولابُدَّ لذلك من أن يكونوا عدولاً، وعلى هذا فإنَّ وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة من حيث الزمان يعني في المقام الأول العدل والإنصاف والخيريَّة.

(٣) محمد عبدالرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف: مادة (وسط)، (مرجع سابق).

٢ - وسطيَّة الأمَّة الإسلاميَّة في مجال العقيدة والعبادة:

تتميَّز الأُمَّة الإسلاميَّة من بين سائر الأمم بالوسطيَّة في عقيدتها وفي عباداتها، وهذه الوسطيَّة لاتعني الموقف الوسط بالمنطوق الرياضي[١]، بل تعني الأفضليَّة المرتبطة بالوسط وهي بذلك كما وصفها أحد المفكرين: (إنَّها الحق، بين باطلين.. والعدل بين ظلمين، والاعتدال بين تطرفين، والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الرافض للغلو - إفراطًا أو تفريطًا - لأن الغلو، الذي يتنكب الوسطية، هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبي الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتي الميزان، يفتقر إلى توسط الوسطية الإسلاميَّة الجامعة.. والوسطيَّة الإسلاميَّة الجامعة ليست ما يحسبه العامَّة، من المتعلمين والمثقفين: انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام المشكلات و (القضايات) المشكلة.. لأنها هي الموقف الأصعب الذي لاينحاز الانحياز السهل إلى أحد القطبين فقط.. فهي بريئة من المعاني.. التي شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام، وهي كذلك ليست (الوسطية الأرسطية)[٢] كما

---

(١) انظر: السيد رزق الطويل: الوسطية ومواقعها في القرآن الكريم: ص ٢٠، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقيَّة في الإسلام: ص ٢٩٠ - ٣٠٦، (مرجع سابق). درس في هذه الصفحات (الوسطية الأرسطية) وقارنها بمقولة (الفضيلة وسط بين رذيلتين) لدى بعض علماء الأُمَّة الإسلاميَّة ومفكريها، وخرج بمصطلح آخر أسماه (مبدأ التناسق)، وأبدى استغرابه من متابعة بعض علماء الأُمَّة ومفكريها لمقولة (أرسطو)، ولكن مِمَّا ظهر لي أنَّ مقولة (الوسطية في الأخلاق والفضائل الإسلاميَّة) لدى علماء الأُمَّة ومفكريها، وبخاصة غير الفلاسفة، مستقلة عن (الوسطية الأرسطية) لسبب جوهري وهو أن الوسطية في الأخلاق الإسلاميَّة خصيصة وصفة وسمة، وليست معيارًا كما هو الحال=

يحسب كثيرٌ من المثقفين ودارسي الفلسفة الغربية وطلابها... إنها في التصور الإسلامي: موقف ثالث، حقا... ولذلك فإنَّها كموقف ثالث... إنَّما يتمثل تميُّزها... في أنَّها تجمع وتؤلف ما يُمكن جمعه وتأليفه -كنسق غير متنافر ولا ملفق - والوسطية هي العدل بين ظلمين لايمتدل ميزانه بتجاهل كفتيه والانفراد دونهما، كما أنَّه لايمتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين وإنَّما يمتدل بالوسطية التي تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبينات الفريقين المختصمين - ككفتي الميزان - ولهذا كان قول الرسول ﷺ: «الوسط: العدل.. جعلناكم أُمَّة وسطاً»[(١)] .. والعدل هنا، وبهذا المعنى هو أبعد ما يكون عن الاعتدال، عندما يراد به الاستسلام للواقع إذا كان جائرًا، بل إن الوسط العدل في المفهوم الإسلامي... الاعتدال الرافض لغلو الإفراط والتفريط فلا الرهبانية المسيحية، والنسك الأعجمي، ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف)[(٢)].

ولاستجلاء سمات الوسطية في جانب العقيدة والعبادة بوصفها من خصائص تميز الأُمَّة الإسلاميَّة يتناولها البحث في الآتي:

-لدى (أرسطو) ثُمَّ إن معيار الأخلاق والفضائل في الإسلام ينبثق من القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية ومصدرهما الوحي في حين يصدر معيار الأخلاق لدى (أرسطو) من القانون ومصدره العقل وليس الشرع كما هو الحال في الأخلاق الإسلاميَّة، وهذا ما أشار إليه أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية..: ص ٢٩٣، (المرجع السابق نفسه).

(١) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد.. ٣٢/٣، تحقيق: دار إحياء التراث العربي: ٤١٧/٣، الحديث رقم: (١٠٨٧٨)، (مرجع سابق).

(٢) محمد عمارة: معالم المنهج الإسلامي: ص٧٧- ٧٩، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ-١٩٩١م، عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي أمريكا.

أولاً: في الجانب العقدي:

تتضح الوسطية في الجانب العقدي من تميز الأُمَّة الإسلاميَّة من خلال مقارنته بمعتقدات الأمم الأُخرى، وهذا الجانب مبسوط في كتب الملل والنحل، بعامَّة، وفيما كتبه علماء الأُمَّة الإسلاميَّة لبيان مناقب الإسلام وفضله على غيره من الأديان، بخاصَّة؛ وللمثال على ذلك عقد أبو الحسن العامري مقارنات متنوعة بين الإسلام وغيره من الأديان الأخرى في ضوء منهج علمي يتسم بالموضوعية والإنصاف، إذ قال: (إنَّ تبيان فضيلة الشيء على الشيء بحسب المقابلات بينهما قد يكون صوابًا وقد يكون خطأً، وصورة الصواب معلقة بشيئين:

أحدهما: ألاَّ يوقع المقايسة إلاَّ بين الأشكال المتجانسة، أعني ألاَّ يعمد إلى أشرف ما في هذا فيقيسه بأرذل ما في صاحبه، ويعمد إلى أصل من أصول هذا فيقابله بفرع من فروع ذاك.

والآخر: ألاَّ يعمد إلى خَلَّة موصوفة في فرقة من الفرق، غير مستفيضة في كافتها، فينسبها إلى جملة طبقاتها.

ومتى حافظ العقل في المقابلة بين الأشياء على هذين المعنيين فقد سهل عليه المأخذ في توفية حظوظ المتقابلات، وكان ملازمًا للصواب في أمره)[1].

وفي ضوء هذا المنهج عقد (العامري) مقارنة بين عقيدة الأُمَّة الإسلاميَّة وبين عقائد الأمم الأخرى في أركان الإيمان (الإيمان بالله

---

(١) كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٢٥، تحقيق ودراسة: أحمد عبدالحميد غراب، (مرجع سابق).

وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)[1].

وقال في سياق مقارنته وتقيده بالأسس الموضوعيَّة التي وضعها لنفسه والتزم بها في مقارنته: (علينا أن نقابل كلَّ واحد مِمَّا أسسته الملة الحنيفيَّة منها بنظيره من الأديان؛ ليتضح به شرف الإسلام عليها... وأن نبدأ أولاً بإثبات الصانع فنقول: إنَّا لم نجد أهل دين من الأديان عنوا بتقديم المقدمات العقليَّة، لاستخراج النتائج النظريَّة، في استخلاص توحيد الله تعالى من شبهات المعاندين، ومغالطات المغالطين - ما عُنِيَ به متكلموا الإسلام فإنَّهُم بلغوا فيه مبلغًا شهد المعنيون بالفلسفة، والمحققون من ذوي الحكمة، على تقدم شأْوِهم في تحصيل الحق منه، وسلامتهم عن التشبيه الذي اعتقده اليهود، والتثليث الذي اعتقده النصارى، والضد[2] الذي اعتقده المجوس، والشرك الذي اعتقده عبدة الأوثان، حتى جردوا القول بالتصريح فقالوا: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[3]، ثُمَّ أُجْروا كلمة الإخلاص في دعائهم، حتى إنك تجد العملة والصنَّاع، والمحاربة، والحرَّاثين يتنادون بها في البر والبحر، والسهل والجبل، ليلاً ونهارًا، ومساءً وصباحًا مصدقين به لما وصفوا في الكتب المنزَّلة بأنَّهم يملأون

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٢٢.

(٢) الضد هو الاعتقاد بإلهين أحدهما للخير والآخر للشر؛ لدى الزرادشتية، انظر في ذلك: الشهرستاني: الملل والنحل ٢٨٣/١، (مرجع سابق). وانظر: ابن الجوزي تلبيس إبليس: ص ٤٤، (مرجع سابق). وانظر: ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ١٤٣/١، تحقيق: ناصر عبدالكريم العقل، (مرجع سابق).

(٣) سورة آل عمران: الآية (٦٤).

الأرض تهليلاً وتسبيحًا، وتكبيرًا، وتحميدًا، وأهل سائر الأديان لايذكرونها إلاّ بالفرط النادر، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [1] [2].

إنَّ نتيجة هذه المقارنة التي أجراها العامري في إيمان الأُمَّة الإسلاميَّة بالله، وإيمان الأمم الأخرى؛ يبين خيريَّة الأُمَّة الإسلاميَّة وأفضليتها دون سائر الأمم، وإلى جانب هذه الخيريَّة والأفضليَّة فهي وسط بين الأمم في هذا الإيمان، وتوسطها بين الأمم يعني (الوسط العدل الذي نسبة الجوانب إليه كلها على السواء، فهو خيارُ الشيء، ومتى زاغ عن الوسط حصل الجور الموقع في الضلال عن القصد) [3].

وعلى هذا المنوال يمضي (العامري) في بيان وسطيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة في جميع أركان الإيمان، ويقول عن إثبات الرسل: (إنَّ أحدًا من أهل الأديان الستة لم يسلم في طرفي الغلو والتقصير في شأنهم إلاّ الإسلاميون: أمَّا الغلو فما ادعته النصارى في عيسى، وأمَّا التقصير فبجحود اليهود نبوة إبراهيم...) [4].

ثُمَّ يقول: (وأهل الإسلام سَلِمُوا عن ذلك، وقالوا في الأنبياء كلهم: إنهم عباد الله مصطفون وخيار معصومون، ثُمَّ رُؤوا تجمع كلمة الشهادة وصف نبيهم بالعبودية والرسالة، تحرزا عن أبواب الزلل... بل جردوا القول

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٦).

(٢) كتاب الإعلام بمناقب الإسلام.. ص ١٢٧ - ١٢٩، (مرجع سابق). وانظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح.. ٢/١٣٥ - ١٥٤ (مرجع سابق).

(٣) محمد عبدالرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف: مادة (وسط)، (مرجع سابق).

(٤) كتاب الإعلام.. ص ١٢٩، ١٣٠، (مرجع سابق). وانظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح.. ٢/٤٦، (مرجع سابق). وانظر: ابن تيمية: المرجع نفسه: ٢/٤١٣ - ٤١٨.

فيهم بأن قالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [1]، [2].

وذكر توسط الأُمَّة الإسلاميَّة في اعتقادها بأن الملائكة عباد الله ﴿ ...... مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴾ [3]، وتوسطها في الإيمان بالكتب وأنَّها كلها جليلة القدر بيد أن القرآن الكريم أفضلها لما (استجمعه القرآن من الفضيلة في صورة الخطاب، ومن الفضيلة في نظم الألفاظ، ومن الفضيلة في تأليف المعاني) [4].

ففيما يتعلق بخطابه ولفظه صدر عن الله - عزوجل - بلفظه ومعناه بطريقة معجزة تدل على أنَّه صادر عن إله مقتدر يخاطب عباده بعزائم أمره ونهيه، ووعظه وزجره، ووعده ووعيد [5].

وفيما يتعلق بمعانيه جاءت شاملة لجميع أبواب الاعتقاد والمعاملات والفضائل والأخلاق وتاريخ الكون والحياة وقصص الأمم الماضية [6]، وجاءت هذه المضامين في (بلاغة مُيسَّرة للذكر،ووجازة مُسَهَّلة للحفظ،

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٣٦).

(٢) كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٣٠، (مرجع سابق). وانظر: ابن تيمية: الجواب الصحيح.. ٢/١٤٤ - ١٥٤، (مرجع سابق). وانظر: ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: ص ٣١٣ - ٣٥٨، تحقيق: أحمد حجازي السقا، عن دار المطبعة السلفية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م - القاهرة.

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان (٢٦، ٢٧).

(٤) كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٣٢، (مرجع سابق).

(٥) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٣٢.

(٦) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٣٣.

ومعانٍ لو بسطت لاستغرقت الأخلاد والطوامير)[1].

وذكر - أيضًا - عقيدة الأُمَّة الإسلاميَّة في إثبات المعاد، وأنَّه (متى أضيف إلى سائر ما يعتقده أهل الأديان، وحكم العقل فيه ظهر فضله)[2]، وقد أفرد هذا الجانب بكتاب أسماه: (الأمد على الأبد)[3] تناول اعتقاد الأُمَّة الإسلاميَّة في اليوم الآخر وما يتصل به من الأمور الغيبيَّة، وفيما أورده من بيان لمعتقدات الأُمَّة الإسلاميَّة ورد على (شبهات الملحدين، واعتراضات الطبيعيين، وشكوك المتكلمين ومطاعن أعداء الدين)[4]، ما يجلي وسطية الأُمَّة في هذا الباب ولاسيما أنّه قارنها بمعتقدات الأمم الأخرى التي تقف على أطراف منحرفة عن الحق كقوله: (فإنَّ بعضًا منهم يعتقدون القول بالتناسخ وبعضهم يعتقد أن انقلاب النفس إلى حالة الضياء والنور هو الثواب، وانقلابها إلى ضده هو العقاب، وبعضهم يعتقد أن تخلص الأرواح من الأجساد هو الثواب، وضده هو العقاب)[5].

ثُمَّ يعقب على ذلك بقوله: (ثُمَّ الذي بني عليه الإسلام هو: أن العالم

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٣٣.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٣٣.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٣٣ وص ١٣٤، وقد ذكر فيهما محققه (أحمد عبدالحميد غراب) أنّه يقوم بتحقيق الكتاب المشار إليه (الأمد على الأبد)، وأنّه في طور الإعداد للنشر.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٣٣، (رقم ٢ في الحاشية).

(٥) المرجع السابق: ص ١٣٣، ١٣٤، وانظر: الشهرستاني: الملل والنحل ٦٠٦/٢، (مرجع سابق). وانظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٦٥/١ - ١٦٩، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وآخر، طبعة دار الجيل، بيروت، (بدون تاريخ).

منقض بالساعة التي هي آتية لا ريب فيها، وأن الله تعالى يعيد الأرواح إلى أجساد الموتى، على تركيب تتحد به قوَّتا: الحس والعقل، فتعرف الأنفس بقوة العقل أحوالها التي مضت عليها في حال الدنيا، وما اكتسبت من حسنة وسيئة، وتدرك بقوة الحس اللذات التي تتمتع بها، والآلام التي تتعذب بها، وأن الثواب لا محالة يقع في جنس المِلذِّ، والعقاب في جنس المؤلم، وأن كيفيتها لن تدرك إلا بأن يجعل لها عيارٌ مهما شهدته الحواس من أجناس المُلذّات والمؤلمات)[1].

وقبل ذلك بين ما عليه الآخرون من اعتقادات باطلة في الملائكة، وأنها تقع على طرفي نقيض، إذ يعتقد بعضهم أنهم بنات الله، ويعتقد بعضهم الآخر أنهم آلهة[2]، وبهذا يتضح أن الوسطيَّة من خصائص

---

(١) أبو الحسن العامري: الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٣٤، ١٣٥، (مرجع سابق). وانظر: أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد ١/٣٤٥ - ٣٥٠، طبعة ١٤١١ هـ-١٩٩٠م، عن المكتبة العصريَّة - بيروت. وانظر: محمد السفاريني الحنبلي: لوامع الأنوار البهيَّة وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرَّة المضيَّة في عقيدة الفرقة المرضيَّة، بتعليقات: عبدالرحمن أبا بطين وسليمان بن سحمان ٢/١٥٧ - ٢٥٦، عقد السفاريني فصلاً في أمر المعاد وتحدث فيه عن البعث والنشور، وأتبعه بمباحث عن اليوم الآخر والجنَّة والنار والصراط والشفاعة ورؤية الرب جل وعلا، وما له صلة بالحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك من الأمور المغيبة التي وردت عن الله وبلغها رسوله ﷺ عن طريق الوحي. وانظر: أبو بكر الآجرّي: الشريعة؛ تحقيق: محمد حامد الفقي: ص ٣٤٣ - ٣٤٩، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢، مكتبة دار السلام - الرياض.

(٢) انظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن.. ٦/٦٣٧، ٦٣٨، (مرجع سابق). وانظر: ابن عطية: المحرر الوجيز.. ٥/٥٠، (مرجع سابق). ولمزيد الاطلاع على أدلة وجود الملائكة وحقيقتهم وصفاتهم والأعمال الموكلة إليهم فيما يخصه تعالى، وما يتعلق بعباده وملكوت السموات والأرض؛ انظر: محمد أحمد الخطيب ومحمد عوض الهزايمة: دراسات في العقيدة الإسلاميَّة: ص ٩٦ - ١٠٩، (مرجع سابق).

تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة بصفة تجمع بين الوسط بمعنى البينيَّة من تلك الأقوال، والعدل والخيريَّة والأفضلية حيث كانت تلك العقيدة عين الحقيقة وجوهر الصواب، وما عداها فهو باطل.

وإذا كانت هذه وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة في مجال الاعتقاد بين الأمم، فإنَّ تلك الوسطيَّة تتركز في عمقها وجوهرها وقمة الفضل والخيريَّة في أُمَّة الاتباع (أهل السنة والجماعة)، وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (كما أنّ الأُمَّة هي الوسط في الأمم، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبريَّة والقدريَّة وغيرهم، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيديَّة من القدرية وغيرهم، وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحروريَّة والمعتزلة، وبين المرجئة والجهميَّة وفي باب أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج)[1].

---

(١) العقيدة الواسطية، شرح: صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان: ص ١٢٤، الطبعة الخامسة، ١٤١١ هـ، عن الرئاسة العامَّة لإدارات البحوث العلمية.. الرياض. وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٧١/٣، (مرجع سابق). ولمزيد الاطلاع على وسطيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة في الجانب العقدي؛ انظر:

- ابن أبي العز الحنفي: شرح الطحاوية، تحقيق: التركي والأرنؤوط: ٤٠١/٢ - ٤٢٦، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٦٢ - ٧٠ - ٨٣، ٩٥ - ١٢٧ تحقيق: بشير محمد عيون: (مرجع سابق).
- عثمان جمعة ضميريَّة: مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة: ص ١٥٦ - ١٥٩، (مرجع سابق).
- إبراهيم بن محمد البريكان: المدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة على مذهب أهل السنة والجماعة: ص ٧٦ - ٨٣، (مرجع سابق).

ثانيًا: في جانب العبادة:

أمَّا العبادة فقد حدَّد الإسلام لها منهجاً وسطاً لايقلل من أهميتها أو يلغيها، ولايبالغ في الانقطاع لها وترك ما سواها، والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنَّة: قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾[1].

قال ابن العربي في تفسيرها: (فيها مسألتان: المسألة الأولى في معنى النصيب، وفيه ثلاثة أقوال: الأول: لاتنس حظك من الدنيا للآخرة كما قال ابن عمر: احرث لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا، الثاني: امسك ما يبلغك، فذلك حظ الدنيا، وأنفق الفضل، فذلك حظ الآخرة، الثالث: لاتغفل شكر ما أنعم الله عليك. المسألة الثانية: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ذُكر فيها أقوال كثيرة، جماعُها: استَعْمِلْ نِعَمَ الله في طاعته، وقال مالك: معناها تعيش وتأكل وتشرب غير مضيق عليك في رأي، قال القاضي: أرى مالكًا أراد الردَّ على من يرى من الغالين في العبادة التقشُّف، والتقصُّف، والبأساء؛ فإنَّ النبي ﷺ كان يأكل الحلوى، ويشرب العسل، ويستعمل الشواء، ويشرب الماء البارد)[2].

والشاهد من هذه الأقوال ما علَّلَ به القاضي رأي مالك حيث يتضح منه وسطيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة في عبادتها مع أنَّها غاية الخلق، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[3].

---

(١) سورة القصص: الآية(٧٧).

(٢) أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البيحاوي ٣/١٤٨٣، (مرجع سابق).

(٣) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

وممَّا يوضح هذه الوسطيَّة، ما ورد عنه ﷺ في شأن الثلاثة الذين اندفعوا نحو الترهب والتزيد في العبادة فذكر أحدهم أنَّه يريد أن يقوم الليل بمعنى أنه يحييه كله بالصلاة دون أن ينام، وأراد الآخر أن يواصل الصيام فيصوم الدهر ولايفطر، وعزم الثالث على أن يعتزل النساء فلايتزوج، وكانوا قد تشاوروا في هذا المسلك بعد أن سألوا عن عبادة الرسول ﷺ، (فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر)[1]، ولمَّا علم الرسول ﷺ بقصدهم قال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟، أمَّا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

---

(١) من حديث أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١٩٤٩/٥، كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح، الحديث رقم: (٤٧٧٦) تحقيق: البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم، صحيح مسلم: ١٠٢٠/٢ الحديث رقم [١٤٠١]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (مرجع سابق).

(٢) من الحديث السابق نفسه: لدى البخاري، وانظر: الشاطبي: الموافقات ٩٣/٢ – ١٢٨، وانظر: ٢٤٠/٣ – ٢٥١، (المرجع نفسه، مرجع سابق).

وقد أورد الشاطبي شواهد عدَّة على وسطيَّة منهج الإسلام في العبادات من خلال فعل الرسول ﷺ لتأخذ به الأُمَّة، وأنَّه كان يترك بعض العبادات التي تدخل في باب المستحبات لئلا يشق على أمته؛ وفي ذلك قال الشاطبي: (ومسلك آخر وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يترك العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم...) إلى أن يقول: (إنَّ الصحابة عملوا على هذا الاحتياط في الدين لمَّا فهموا هذا الأصل من الشريعة وكانوا أئمة يُقْتَدَى بهم فتركوا أشياء وأظهروا ذلك ليبينوا أن تركها غير قادح وإن كانت مطلوبة... وإنَّ أئمة المسلمين استمروا على هذا الأصل على الجملة وإن اختلفوا في التفاصيل). المرجع السابق نفسه ٢٤٠/٣، ٢٤١.

إنَّ مِمَّا يستفاد من هذا الحديث رسمه ﷺ منهج الوسطيَّة في العبادة، وأنَّه المنهج الذي يحقق التقوى والخشية لله تعالى؛ لأنَّ هذا المنهج ليس خاصاً بالرسول ﷺ بل هو المشرع والقدوة في هذا لأمته، مِمَّا يعني أن الوسطيَّة هي الخيار وهي الوسط وأن ما سواها منحرفٌ عن الجادة ومنهي عنه[1].

٣ - وسطية الأمَّة الإسلاميَّة في مجال التشريع والأخلاق:

أولاً: في مجال التشريع:

أمَّا الوسطية في مجال التشريع فإنَّ الشريعة إجمالاً كما قال الشاطبي: (جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة ولا انحلال، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال كتكاليف الصلاة والصيام والحج، والجهاد والزكاة، وغير ذلك مِمَّا شرع ابتداءً على غير سبب ظاهر اقتضى ذلك، أو لسبب يرجع إلى عدم العلم بطريق العمل... فإنْ كان التشريع لأجل انحراف المكلف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع رادًّا إلى الوسط الأعدل)[2].

ويستمر الشاطبي في بيان الوسطية في التشريعات الإسلاميَّة، وأنَّهَا

(١) انظر: أبو الحسن العامري: الإعلام بمناقب الإسلام: ص١٣٧ - ١٥٠، (مرجع سابق). وانظر: ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان؛ تحقيق: محمد عفيفي ٢٠٥/١ - ٢١٣، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، عن دار الخاني...، الرياض حيث قرر بعض جوانب تميُّز الأمَّة الإسلاميَّة في بعض الشعائر الدينيَّة، ولمزيد الاطلاع؛ انظر: مطلب العبودية، فيما يأتي من البحث ص ٨٩٨ - ٨٩٩.

(٢) الموافقات ١٢٤/٢، (مرجع سابق).

تتخذ نوعًا من المرونة ومراعاة الأحوال والظروف، وما سلكته في سبيل ذلك من أساليب متنوعة صاحبت تاريخ التشريع الإسلامي، ثُمَّ يصل إلى القول: (فإذا نظرتَ في كليَّة شرعيَّة فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيتَ ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر، فطرف التشديد - وعامَّة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر - يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين، وطرف التخفيف - وعامَّة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص - يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحًا، ومسلك الاعتدال واضحًا، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعقل الذي يلجأ إليه)[1].

وقد ألمح الشاطبي في نهاية هذه المسألة إلى أن (التوسط يعرف بالشرع، وقد يعرف بالعوائد، وما يشهد به معظم العقلاء، كما في الإسراف والإقتار في النفقات)[2].

ولعل ما بينه الشاطبي عن وسطية الشريعة الإسلاميَّة يتضمن وصفًا بالغ الأهمية يضفي على الوسطيَّة في الإسلام نوعًا من المرونة ومسايرة الأحداث بما يفي بحاجة تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة إلى الاستمرار والحركة الإيجابيَّة إزاء مايجد في حياتها من قضايا ونظم[3]، على أنَّ الإسلام قد

---

(١) الموافقات: ١٢٨/٢، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ١٢٨/٢.

(٣) لمزيد الاطلاع على وسطيَّة التشريعات الإسلاميَّة وأثرها على الأُمَّة.. انظر:

- يوسف القرضاوي: الخصائص العامَّة للإسلام: ص ١٤٥ - ١٤٧، (مرجع سابق).
- محمد عقله: الإسلام مقاصده وخصائصه: ص ٥٧ - ٦٢، (مرجع سابق).
- عبدالرحمن حنبكة: الالتزام الديني منهج وسط: ص ٦٥- ٨٦، من سلسلة (دعوة الحق)،=

حدَّد مسلك الوسط في جميع تشريعاته في العبادات وفي المعاملات وفي الحلال والحرام، وأمر الحق تبارك وتعالى الأُمَّة أن تلتزم بذلك المسلك ولاتتجاوز حدوده، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[1]، وقد جاءت هذه الآية بعد أن بين الله - عزوجل - أحكامًا كثيرة تناولت جوانب متنوعة على صعيد الأسرة، والنفقة، وبعض القضايا السياسيَّة والاجتماعية، والشعائر الدينية، وقال الرسول ﷺ: «إنَّ الله - عزوجل - فرض فرائض فلاتضيعوها، وحرَّم حرمات فلاتنتهكوها، وحدَّ حدودًا فلاتعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلاتبحثوا عنها»[2].

شرح ابن رجب - رحمه الله تعالى - هذا الحديث، وبين طرقه في كتب السُّنَّة وما قيل عنه، وشواهده من طرق أخرى، وأفاض في شرحه بما تضمن إيضاح خصيصة الوسطية في التشريعات الإسلاميَّة وبيانها، وساق من الأدلة من القرآن الكريم والسنّة وفهم سلف الأُمَّة وتطبيقاتهم في عباداتهم ومعاملاتهم ما فيه جلاء هذه الخصيصة، ولعل من أجمع ما يبين ذلك قوله: (ضرب النبي ﷺ مثل الإسلام... بصراط مستقيم وهو الطريق السهل الواسع الموصل سالكه إلى مطلوبه، وهو مع هذا

=السنة [٤] العدد [٣٤]، محرم ١٤٠٥ هـ - أكتوبر ١٩٨٤ م، عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

● وانظر: ما تقدم في مطلب (الشريعة)؛ من هذا البحث نفسه: ص ٤١٠ - ٤٢٢.

(١) سورة البقرة: الآية (٢٢٩).

(٢) أخرجه الدارقطني: سنن الدارقطني ١٨٤/٤، وبذيله التعليق المغني على الدارقطني، لأبي الطيب: محمد آبادي، الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م، عن عالم الكتب - بيروت.

مستقيم لا عوج فيه، فيقتضي ذلك قربه وسهولته، وعلى جنبتي الصراط؛ يمنة ويسره سوران؛ وهما حدود الله، وكما أنَّ السور يمنع من كان داخله من تعديه ومجاوزته فكذلك الإسلام يمنع من دخل فيه من الخروج عن حدوده ومجاوزتها، وليس وراء ما حدَّ الله من المأذون فيه إلا ما نهى عنه، ولهذا مدح سبحانه الحافظين لحدوده، وذم من لايعرف حد الحلال من الحرام)[1].

فالوسطيَّة في هذه الأحكام والتشريعات سمة بارزة تؤكدها دلائل كثيرة من أهمها:

● الآيات والأحاديث التي تؤكد يسر الشريعة ورفع الحرج في تشريعاتها كقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[4]، وفيما ذكره العلماء في مجمل تفسير هذه الآيات، ما يدل على وسطيَّة التشريعات في الإسلام في جميع مجالات الحياة مِمَّا كان له الأثر العميق في تميز الأُمَّة الإسلاميَّة واتسامه بالوسطيَّة.

---

(١) جامع العلوم والحكم: ص ٣٠٥، ٣٠٦، (مرجع سابق). وانظر: ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري ١٠٤٥/٢، ١٠٤٦، (مرجع سابق). ولديه تخريج واسع للحديث، وما قيل عن صحته وضعفه وكذلك ما قيل عن رفعه ووقفه، وشواهده.

(٢) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ.. ﴾ الآية؛ قال ابن كثير: (أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل، والحام، ونحو ذلك، مِمَّا كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث... كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكل التي حرمها الله تعالى)[1].

وجاء في الحديث عنه ﷺ أنَّه قال: «يسروا ولاتعسروا، وبشروا ولاتنفروا»[2]، وقال ﷺ: «إنَّ الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا»[3]، حيث دلَّ هذا الحديث والذي قبله، ونحوهما على يسر التشريعات الإسلاميَّة، وبالتالي فإنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة بالنظر لهذه التشريعات وبالنظر إلى ما كانت عليه الأمم من قبلها تتسم بالوسطية العادلة الخيِّرَة.

- ومِمَّا يؤكد هذه الوسطيَّة ما كانت عليه الأمم من قبلها إذ إنَّها حادت عن هذه الوسطيَّة، وعلى سبيل المثال فإنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة كانت

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٥٤، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١/٣٨، الحديث رقم [٦٩]، كتاب العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لاينفروا، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم: صحيح مسلم، برقم [١٧٣٤]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١/٢٣، الحديث رقم [٣٩]، كتاب الإيمان، باب: الدين يسر، وقد ترجم للباب بقوله: (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة). المرجع السابق نفسه.

وسطًا (في التحليل والتحريم بين اليهوديَّة التي أسرفت في التحريم وكثرت فيها المحرمات، مِمَّا حرمه إسرائيل على نفسه، ومِمَّا حرمه الله على اليهود، جزاء بغيهم وظلمهم كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[1]، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة، حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، مع أنّ الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة، بل ليكمله، ومع هذا أعلن رجال المسيحية أن كل شيء طاهر للطاهرين، فالإسلام قد أحل وحرم، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر، بل من حق الله وحده، ولم يحرم إلاّ الخبيث الضار، كما لم يحل إلاّ الطيب النافع، ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنّه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[2]،[3].

---

(١) سورة النساء: الآيتان (١٦٠، ١٦١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

(٣) يوسف القرضاوي: الخصائص العامّة للإسلام: ص ١٤٦، (مرجع سابق).

ثانيًا: في مجال الأخلاق:

وتتجلى الوسطيَّة كخصيصة من خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة في مجال الأخلاق والفضائل والآداب، ولعلماء الأُمَّة الإسلاميَّة أقوال عدَّة تبين مسلك الأُمَّة الإسلاميَّة في هذا المجال، ولا غرو في ذلك فالقرآن الكريم وسنة سيد المرسلين وسيرته الطاهرة ومسلك السلف الصالح تؤكد هذه الوسطية وتجليها في أنصع صورة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[3]، حيث دلت هذه الآيات على خصيصة الوسطية في الأقوال والأفعال.

وجاءت بعض الآثار تؤكد ذلك، فقد ورد في الأثر: «خير الأمور أوسطها»[4] قال ابن الأثير: (كلُّ خصلة محمودة فلها طرفان مذمومان، فإنَّ السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم، وتجنبه بالتعري

---

(١) سورة الإسراء: الآية (١١٠).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٢٩).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٦٧).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، عن مطرف، برقم [٣٥١١٨]، وفي رواية أخرى عن أبي قلابة: «خير أموركم أوساطها» برقم [٣٥١٧٤] ترتيب: محمد عبدالسلام شاهين، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، عن دار الكتب العلمية بيروت.

منه والبعد عنه وكلما ازداد منه بعدًا ازداد منه تعريًا، وأبعد الجهات والمقادير والمعاني من كل طرفين وسطهما، وهو غاية البعد عنهما، فإذا كان الوسط فقد بعد عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان)[١].

والأخلاق الإسلاميَّة متسمة بالوسطيَّة وكل خلق منها يُعَدُّ فضيلة بين رذيلتين، وعن ذلك قال الرازي: (إنَّ الخلق الفاضل إنَّما سُمِّيَ وسطًا لا من حيث إنَّه خلق فاضل، بل من حيث إنَّه يكون متوسطًا بين رذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط، مثل الشجاعة فإنَّها خلق فاضل وهي متوسطة بين الجبن والتهور، فيرجع حاصل الأمر إلى أنَّ لفظ التوسط حقيقة فيما يكون وسطًا بحسب العدد، ومجازًا في الخلق الحسن، والفعل الحسن، من حيث إنَّه من شأنه أن يكون متوسطًا بين الطرفين اللذين ذكرناهما)[٢].

ويتناول أحد العلماء الوسطيَّة في الأخلاق الإسلاميَّة بإحاطة وشمول فيقول: (وكل الفضائل منحصرة في التوسط بين الإفراط والتفريط، فإنَّ رؤوس الفضائل؛ الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة، فالحكمة نتيجة تكميل القوة العقليَّة وهي متوسطة بين (الجربزة)[٣] والغباوة، فتوسطه أن تنتهي القوة العقليَّة إلى حد يُمكن للعقل الوصول إليه ولايتجاوز عن

---

(١) النهاية في غريب الحديث، مادة (وسط)، (مرجع سابق).

(٢) التفسير الكبير ٢/٤٨٧، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، عن دار إحياء التراث العربي- بيروت. وانظر: أبو الحسن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: ص ٤٥ - ٤٩ الطبعة الثانية، عن دار مكتبة الحياة - بيروت (بدون تاريخ).

(٣) كلمة معربة تدل على الخب والخداع؛ انظر: أبو الحسن مسكويه: المرجع السابق نفسه: ص ٤٦ بالحاشية.

الحد الذي وجب أن يتوقف عليه ولايتعمق فيما ليس من شأنه التعمق، كالتفكير في المتشابهات والتفتيش في مسألة القضاء والقدر، والشروع بمجرد العقل في المبدأ والمعاد كما هو دأب الفلاسفة والعفة هي نتيجة تهذيب القوة الشهوانيَّة وهي متوسطة بين الخلاعة والجمود، والشجاعة نتيجة تهذيب القوة الغضبيَّة وهي متوسطة بين التهور والجبن، وإنَّما يحمد فيها التوسط؛ لأنَّ النفس الحيوانية هي مركب للروح الإنسانية، فلابد من توسطها لئلا تضعف عن السير، ولاتجمح بل تنقاد للروح، ثُمَّ التوسط في هذا المجموع أي الحكمة والعفة والشجاعة هي العدالة،... فلهذا فسر الوساطة بالعدالة، فالعدالة تقتضي الرسوخ على الصراط المستقيم وتنفي الزيغ عن سواء السبيل)[1].

وخلاصة القول: أن الوسطيَّة تعد من خصائص تميز الأُمَّة الإسلاميَّة، لازمت مسيرتها بمفهومها الشامل المرتكز على معنى الخيريَّة والعدالة، واستمدتها من منهج الإسلام ونظامه، وهو منهج الوسط والاعتدال والتوازن[2]، الذي اختاره الله شعارًا مميزًا لهذه الأُمَّة

---

(١) سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه: ٤٨/٢، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون تاريخ)، وانظر: مسكويه: تهذيب الأخلاق.. ص ٤٥ – ٤٩، (المرجع السابق نفسه). وانظر: الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص ٤٠٩ – ٤١١، ١٤٢ – ١٥٢، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م، عن دار الوفاء للطباعة والنشر.. المنصورة – مصر.

(٢) انظر: يوسف القرضاوي: الخصائص العامَّة للإسلام: ص ١٢٧ – ١٨٦، لمزيد الاطلاع على جوانب الوسطيَّة في الكون والحياة، ولمزيدٍ من معانيها ودلالاتها.

التي هي آخر الأمم، وللرسالة التي ختمت بها الرسالات، فحملته بتوفيق الله، وعن ذلك قال الشاطبي: (إنَّ الحمل على التوسط هو الموافق لقصد الشارع، وهو الذي كان عليه السلف الصالح)[1].

* * *

(١) الشاطبي: الموافقات ٤/٢٥٨، (مرجع سابق). ولمزيد من الاطلاع على منهج الوسطية في الأخلاق وآراء العلماء في ذلك؛ انظر: محمد عبدالله عفيفي: النظرية الخلقية عند ابن تيمية: ص ٥٢١ - ٥٥٦، (مرجع سابق)، حيث اشتمل على رأي ابن تيمية: ص ٥٢١ - ٥٤٥ ورأي ابن حزم: ص ٥٤٦، ٥٤٧، ورأي الفارابي: ص ٥٤٧ - ٥٥٦، وقارن في ما بين هذه الآراء فيما يتعلق بفكرة الوسطية وخرج بنتيجة تتفق مع ما توصل إليه: أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام، (مرجع سابق)، من كون مقولة الوسطية في الأخلاق الإسلاميَّة غير مضطردة وأن للأخلاق مقياسًا آخر أسماه (مبدأ التناسق) كما سبق ذكر ذلك وسبق أن علقتُ على ذلك بكون وسطية الأخلاق في الإسلام سمة وصفة ظهرت بها الأخلاق الإسلاميَّة فيما له طرفان منبوذان، وليس المقصود بها في البحث المعياريَّة.

المطلب الثاني

موقف المستشرقين من خصيصة الوسطية

إنَّ الوسطية هي إحدى خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة كما تدل على ذلك النصوص الثابتة من الكتاب والسنة، والشواهد التاريخية، ولكن المستشرقين - المتحاملين على الإسلام - يصدرون في هذا الموضوع عن زعم باطل وحكم ظالم جائر؛ فقاموس الاستشراق حافل بمسميات وألقاب من مثل البربريَّة والهمجيَّة والرجعيَّة وأخيرًا الأصوليَّة والتطرف.

وعلى هذا فإنَّ مفهوم وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة كان أبعد من أن يدركه الغرب بعامة وينكره المستشرقون في الأعم الأغلب على الرغم من معرفتهم لأدلته وشواهده، ويتضح هذا الموقف في إنتاجهم الفكري في مجال الإسلام والدراسات العربية الإسلاميَّة، وللتدليل على ذلك أورد ملامح من الصورة التي تشكلت عن الإسلام والأُمَّة الإسلاميَّة في الفكر الغربي في العصور الوسطى وما تلا ذلك حتى العصر الحديث:

١ - يكاد يجمع المستشرقون وغيرهم ممن كتب عن الإسلام والغرب بأنَّ مفهوم الإسلام في العصور الوسطى قد تشكل على نحوٍ عدائي، وأنَّ صورة الأُمَّة الإسلاميَّة قد رسخت في الفكر الغربي مشوهة كريهة؛ يقول (مونتغمري وات): (والنقاط الأربع الرئيسية التي تختلف بصددها صورة الإسلام في العصور الوسطى عنها في الدراسات الموضوعية الحديثة، هي:

أ - أنَّ الدين الإسلاميَّة أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة.

ب - أنَّه دين العنف والسيف.

ج - أنه دين يطلق لشهوات المرء العنان.

د - أنَّ محمدًا هو المسيح الدجال)[1].

ثُمَّ يورد (مونتغمري وات) تحت هذه النقاط الأربع جملة من الأقوال لمشاهير مفكري القرون الوسطى من أمثال (توما الأكويني) الذي وصفه بأنَّه كان من بين أكثر مفكري القرن الثالث عشر اعتدالاً، ومع ذلك فإنَّه كان يتحدث عن الإسلام تحت ما أسماه بالفِرَق، وأنَّه (أي الإسلام) كان يبيح المتع الجسديَّة التي تجذب الناس إليه، وأنَّ الأدلة والحجج التي جاء بها محمد ﷺ ساذجة، وأنَّه خلط الحق بالباطل في القصص التي جاء بها، وليس لها سند من التاريخ، وأنَّ تعاليم الإسلام زائغة، ويفتقر إلى المعجزات التي تؤيد مزاعمه ثُمَّ يصف الأُمَّة الإسلاميَّة بأنها تعيش في الصحراء حياة أقرب إلى حياة الحيوانات، وكانوا من الكثرة بحيث تمكنوا من إجبار الآخرين بالقوة العسكرية على اعتناق الإسلام، وأن النظرة المدققة توضح أن الرسول ﷺ - كما يزعم (توما الأكويني) - (حرَّف كل شواهد العهدين القديم والجديد)[2].

ومِمَّا ذكره (مونتغمري وات) في النقطة الثانية: (أنَّه بلغ الأمر بأحد المتحمسين المدافعين عن الحروب الصليبية وهو Humbert of Romans إلى حد قوله: (إن المسلمين شديدو الحماسة لدينهم لدرجة أنَّهُم يقطعون دون رحمة رأس أي مخلوق يهاجم هذا الدين في أيِّ إقليم

---

(١) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١٠٠، ترجمة: حسين أحمد أمين، وعنوانه الأصلي: (تأثير الإسلام في أوروبا خلال العصر الوسيط)، وهو مجموع محاضرات (مونتغمري وات) في (الكوليج دوفرانس) ألقاها عام ١٩٧٠ م، وصدر عن جامعة (أدنبرة) باسكوتلندا، عام ١٩٧٢ م.

(٢) انظر: فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١٠٠، ١٠١، (المرجع السابق نفسه).

يسيطرون عليه)[1].

وقد نفى (مونتغمري وات) هذا الزعم بقوله: (والواقع أن الصورة الأوروبية للإسلام هي أبعد ما تكون عن الحقيقة)[2]، ويقول: (إنَّ اليهود والنصارى وأتباع الديانات الأُخرى التي يعترف بها الإسلام لم يخيَّرُوا بين الإسلام والسيف، وأن الذين خيروا بينهما هم عبدة الأوثان وحدهم)[3].

ويواصل قائلاً: (ولم نسمع الكثير عن حدوث هذا خارج شبه جزيرة العرب، أمَّا النشاط الحربي للمسلمين، وهو الذي يملأ خبرُه كتب التاريخ، فإنَّما أدى إلى توسع سياسي، وجاء اعتناق الإسلام نتيجة للدعوة إليه، أو نتيجة الضغط الاجتماعي)[4].

وبعد نفيه لتلك المقولة أشار إلى الهدف منها بقوله: (وفي تلك الصور للإسلام باعتباره دين عنف مما يُراد به الإيحاء بأنَّه مخالفٌ تمامًا لصورة المسيحية باعتبارها دين سلام انتشر عن طريق الإقناع)[5]، ويلفت (مونتغمري وات) النظر إلى التناقض الشديد بين دعوى الصليبيين بأنهم أصحاب ديانة تدعو إلى السلم والمثالية وبين واقعهم التاريخي المخزي فيقول: (وقد أدرك بعض الكتاب أن مفهوم دين السلام مثالي لا علاقة كبيرة بينه وبين الواقع، وذهبوا إلى أنَّ عدم

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢، وانظر: رودي بارت: الدراسات العربيَّة..: ص١٠، ترجمة: ماهر مصطفى، (مرجع سابق).
(٢) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١٠٢، (المرجع السابق نفسه).
(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢.
(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢.
(٥) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢.

مراعاة المسيحيين السيئين لهذا المثل الأعلى لايشكل اعتراضًا مقبولاً على المسيحية، ويبدو أنَّهُم فسروا هذا التناقض بذكرهم أنَّ الغرض من الحروب الصليبية لم يكن إجبار العدو على اعتناق المسيحية بالقوة، وإنَّما كان - على حد تعبير (توما الأكويني) فيما بعد - منع الكفار من الوقوف حجر عثرة في سبيل العقيدة المسيحية، وربَّما كانوا يعنون أيضًا استرداد أراضٍ يرون أنَّها من حق المسيحيين)[1].

وتحت النقطة الثالثة تحدث (مونتغمري وات) عن نظرة الغرب إلى الإسلام بالادعاء أنَّه دين يطلق لشهوات المرء العنان، من خلال مزاعم عدَّة منها:

● حديثهم عن الزواج في الإسلام، وتعدد الزوجات، وأنَّه بلغ بهم الأمر أن يفسروا بعضٍ آيات القرآن الكريم بما يبيح الزنى، إلى أن يقول: (وقيل إن أشكالاً حيوانية وغير طبيعية للاتصال الجنسي بين الأزواج يمارسها المسلمون بكثرة، ويحثون عليها، بل ذهبوا إلى أنَّ القرآن يبيح الشذوذ الجنسي، ورأى بعضهم أن ذروة الإباحية الجنسية الإسلاميَّة في التصوير القرآني للجنة، وتحدثوا طويلا عن الحور العين اللواتي سيكنَّ من نصيب المؤمنين فيها، ووجدوا في ذلك فضيحة أيُّما فضيحة، كذلك انتقدوا بشدة حياة محمد الزوجية، وإنْ كانوا كثيرًا ما بنوا انتقاداتهم على مبالغات أو مزاعم كاذبة)[2].

---

(١) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١٠٢، ١٠٣، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٣، وانظر: زاهر عواض الألمعي: مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش (دراسة تحليلية): ص ٢٢، ٢٣ - ٢٥، الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، عن مطابع الفرزدق، الرياض.

● ومنها قوله: (وزعموا أن القرآن يعلم الناس أن ينقضوا عهودهم متى كان في نقضها مصلحة لهم)[1].

أمَّا في النقطة الرابعة وهي قولهم: (إنَّ محمداً هو المسيح الدجال)[2] يقول (مونتغمري وات): (وكان جوهر التفكير المسيحي في هذا الصدد هو أنَّه حيث إنَّ محمداً ليس بنبي، وحيثُ إنَّه أسس مع ذلك دينًا جديدًا فلابُدَّ أنَّه ساهم إيجابيًّا في مساندة قوى الشر، ولابُدَّ أنَّه كان إمَّا أداة للشيطان أو عميلا له، وبهذا جعلوا الإسلام والمسيحية على طرفي نقيض)[3].

وقبل ذلك أشار إلى ما عرضه (بطرس المكرم) من أفكار علماء اللاهوت اليونانيين الذين زعموا أن الإسلام (هرطقة مسيحية وذهبوا إلى أن الإسلام أسوأ من هذا، وأنَّه من الواجب اعتبار المسلمين كفرة، وأنَّ القرآن يحتوي الكثير من الكذب، وأنَّ محمداً ليس بنبي)[4].

وإلى جانب ما ذكره (مونتغمري وات) يجد الباحث الحشد الهائل من مثل تلك المزاعم التي صدرت عن: (الكتاب والشعراء والمرتزقة في الغرب في قرونهم الوسطى ليهاجموا بها الإسلام، وتضافرت جهودهم مع جهود اللاهوتيين في ترسيخ تلك الصورة المشوهة للإسلام ونبيه

---

(١) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١٠٤، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٠، ١٠٥.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٥، وانظر: مصطفى عمر حلبي: الخلفيَّة الثقافية لاتجاهات المستشرقين في دراسة شخصية الرسول ﷺ: ص ٣٤ - ٣٦، مجلة المنهل (العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ عن الاستشراق والمستشرقين)، (مرجع سابق).

(٤) فضل الإسلام على الحضارة الغربيَّة: ص ١٠٥، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمد حسين هيكل: حياة محمد: ص ٢٥ - ٢٩، (مرجع سابق).

وحملته، وهي التي يظهر الإسلام من خلالها على أنَّه عقيدة وثنيَّة، وأنّ المسلمين يعبدون ثلاثة آلهة أو أكثر، أوصلها بعضهم إلى ثلاثين إلهًا)[1]، وأظهر الرسول ﷺ على أنَّه المسيح الدجال، وأنَّه الأمارة لليوم الآخر، وأنَّ حملة الإسلام إرهابيون وحشيون، وأُمَّته مجموعة من (الوحوش وأبناء الشياطين، وأهل لواط، ومشركون يعبدون مجمعًا من الأصنام الذي يضم الآلهة: جوبيتر، آبولو، دايانا، أفلاطون، والمسيح الدجال)[2].

وقد استمرت هذه الصور البشعة التي اختلقها اللاهوتيون وقتًا طويلاً تسيطر على الشعوب الأوروبية ولازالت تتأكد في العصر الراهن بجهود الصهيونية وتأثيراتها على الدراسات الاستشراقية وهيمنتها على الدوائر السياسية ووسائل الإعلام الغربية، وإذا كانت أصوات بعض المستشرقين وتلاميذهم تحاول نفي هذه الصورة عن الإسلام والأُمَّة الإسلاميَّة في الدراسات الاستشراقية الحديثة فإنَّ الاختلاف بين تلك الصورة المشار إليها وبين الدراسات الاستشراقية الحديثة وقع في أساليب العرض وطرق التناول فحسب، أمَّا المنطلق والغاية بين هذه وتلك فإنَّه لايكاد يتغيَّر ولم يحدث بصددها إلاَّ تعديل طفيف لايمس جوهر القضية[3].

---

(١) انظر: عبدالقادر طاش: الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي: ص٢٨، (مرجع سابق). وانظر: نشأة الاستشراق..: ص ٢٥٧ – ٢٦١، (البحث نفسه).

(٢) عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام (محاولة أولية لتفهم الأسس التاريخية لطبيعة العلاقات الفكرية بين الإسلام والغرب): ص ١٠، (مرجع سابق)، وانظر: ص ١٣، ٢٠، ٢٨ من المرجع نفسه.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٥، ٦، وانظر: عبدالقادر طاش: الصورة النمطية..:=

وممَّا لاشك فيه أنَّ هناك آراء اتسمت بالنزاهة والإنصاف وأظهرت بطريقة ضمنية أو مباشرة وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة وقد وردت هذه الآراء في كتابات بعض المستشرقين، وسيجري بحثها لاحقًا.

٢ - على الرغم مِمَّا حدث في التاريخ الغربي عقب القرون الوسطى؛ من حركات دينيَّة، وتطورات سياسيَّة، وما صاحب ذلك من التحولات الفكرية، وما كان لها من آثار على العلم والمعرفة، إلاَّ أنَّ موقف الغرب بعامة والمستشرقين بخاصة - في مسار الحركة الاستشراقية العام - من وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة كان موقفًا أقرب إلى الإنكار والجحود منه إلى فهم هذه الخصيصة من خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة.

يقول: (إدوارد روز): (إنَّ المعرفة بالمحمديَّة (يعني الإسلام والأُمَّة الإسلاميَّة) التي تملكها أوروبا منذُ قرون قائمة على أساس التقارير المشوهة والمغلوطة كليًّا، التي أعدها المسيحيون، وهذا هو الأمر الذي أدَّى إلى نشر الأكاذيب والافتراءات المتنوعة حول المحمديَّة فكل خير وجدوه في المحمديَّة أخفوه تمامًا، وكلُّ شيء لم يكن محمودًا في عين أوروبا كبروه وبالغوا في بيانه أو شوهوا صورته في التعبير عنه)(١).

ويقول باحثٌ آخر: (إنَّ الحضارة الأوروبية المعاصرة تستند في تكوينها العقلي إلى حدٍ كبير على حركات فكريَّة تتابعت في تاريخها الحديث مثل (النهضة الأوروبية) و (الإصلاح الديني) و (حركة التنوير)، وقد زادت

= ص٣٠، (مرجع سابق). وانظر: حلمي ساري: المعرفة الاستشراقية (دراسة في علم اجتماع المعرفة): ص ١٩٤، ١٩٥، مجلة العلوم الاجتماعية، خريف ١٩٨٩ م، المجلد السابع عشر، العدد الثالث، مجلة فصلية أكاديمية تصدر عن جامعة الكويت.

(١) نقلاً عن: محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق: ص ٦٢، وقد عزا ذلك إلى (ص ١٧٧ من ترجمة القرآن لجورج سيل، طبع نيويورك ١٩٥٦ م).

هذه الحركات من رسوخ ملامح الصورة المشوهة التي كونتها أوروبا عن الإسلام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وذلك كنتيجة لترديد التهم الباطلة التي أُلصقت بالإسلام ونبيه وكتابه المقدس)[1].

ويستشهد على ذلك بعدّة أعمال أنجزها رواد الفكر والمعرفة في الغرب عن الإسلام والأُمَّة الإسلاميَّة، وكانت متأثرة بتلك الثقافة اللاهوتية المشوهة الشائنة، منها:

أ - ما قام به (دانتي) الذي قال عنه: (فدانتي الشاعر الإيطالي المشهور، وأحد أعمدة حركة النهضة، صور الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد أُلقِيَ في الدرك الثامن والعشرين من جهنَّم، وقد شطر إلى نصفين من رأسه إلى منتصفه، وصوره وهو ينهش بيديه في جسمه، عقابًا له على ما اقترف من فضائع وآثام، وسبب من شقاق؛ ولأنَّه في رايه تجسيد كامل للروح الشريرة، وصور الإسلام كمن سبقوه زندقة انتجت ظلاً مخيفًا خيَّم على العالم كله)[2].

ب - ويورد مثالاً آخر فيقول: (وأكد «بوليدور فيرجيل» - الذي يعتبر هو الآخر واحدًا من أكبر أركان النهضة - ما ذكره سابقوه من تهم وزاد عليها؛ فزعم أنَّ الإسلام نسيجٌ مشوه مستقى من مصادر مسيحية وأن الرسول كان مصابًا بالصرع، وأن الإسلام انتشر بحد السيف، وشيوعية المرأة)[3].

ج - كذلك قال: (أمَّا «فولتير ١٦٩٤ - ١٧٧٨م» الذي يعتبر من أبرز

---

(١) عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام: ص ١٥، (مرجع سابق).

(٢) عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام..: ص ١٦، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٦.

رواد حركة التنوير فقد وصف الرسول ﷺ بأنه مثير فتن ودجَّال، يدعي كذبًا المناجاة مع روح القدس، ويزعم أنَّه صاحب رسالة كلُّ سطر فيها ينم عن السخف الذي يناقض مبادئ العقل الأولي)[١].

د - ويذكر هنا أيضًا ما ورد في الموسوعة الفرنسية عن الرسول ﷺ (فقد وصف (ديدرد) - وهو الآخر من رجال التنوير الفرنسي ومن كتاب الموسوعة الفرنسية - الرسول ﷺ بأنَّه: (قاتل رجال وخاطف نساء وأكبر عدو للعقل الحر)[٢].

من هذا يتبين أن الصورة المشوهة للإسلام وأُمَّته في الفكر الغربي، قد ازدادت مع مرور الزمن سعة ورسوخًا.

٣ - رُبَّمَا أوحت عبارة (مونتغمري وات) المشار إليها فيما سبق بأنَّ تلك الصورة المشوهة للأُمَّة الإسلاميَّة لم تكن من عمل المستشرقين المحدثين، وذلك إذ يقول: (والنقاط الأربع الرئيسة التي تختلف بصددها صورة الإسلام في العصور الوسطى عنها في الدراسات الموضوعية الحديثة...)[٣].

لكن هذا القول وإن كان يصح على النزر اليسير من الدراسات الاستشراقية التي قام بها أفراد قلائل وفي فترات تاريخية متباعدة، فإنَّه لاينطبق بحال على معظم المستشرقين الذين وصفهم أحد المفكرين بقوله: (إنَّ المستشرقين جميعًا فيهم قدر مشترك من هذا الخصام

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٦، وانظر: محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق: ص ٦٠، ٦١، (مرجع سابق).

(٢) عرفان عبدالحميد: المرجع السابق نفسه: ص ١٦، وانظر: عبدالقادر طاش: الصورة النمطية للإسلام...: ص ٥٣ (مرجع سابق).

(٣) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١٠٠، ترجمة: حسين أحمد أمين، (مرجع سابق).

المتجني، والتفاوت - إنْ وجد بينهم - إنَّما هو في الدرجة فقط، فبعضهم أكثر تعصبًا ضد الإسلام، وعداوته له من البعض الآخر، ولكن يصدق عليهم جميعًا أنَّهم أعداء وإذا كان الاستشراق قد قام على أكتاف الرهبان والمبشرين في أول الأمر ثُمَّ اتصل من بعد ذلك بالمستعمرين - فإنَّه ما زال حتى اليوم يعتمد على هؤلاء وأولئك، ولو أنَّ أكثرهم يكرهون أن تنكشف حقيقتهم، ويؤثرون أن يختفوا وراء مختلف العناوين والأسماء)[1].

والحقيقة أنَّ هذا ينطبق على أكثرهم حتَّى (مونتغمري وات) على الرغم مِمَّا اتسمت به بعض دراساته من الموضوعية والإنصاف، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام عن خصيصة الربانية، وما أظهره (مونتغمري وات) من نفي لها في تناوله سيرة المصطفى ﷺ[2].

وإذا كانت الأبحاث الاستشراقية، ودراسات المستشرقين المتنوعة قد انتشرت في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، وتناولت الإسلام وتاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة وادعى أصحابها أو معظمهم بأنَّها دراسات متجردة، وتتسم بالنزاهة والبحث العلمي المجرد عن التعصب الديني، وما يمليه من الهوى، والمحاباة العاطفية[3] (إلاَّ إنَّ نظرة تحليلية في هذه الدراسات تثبت نقيض ما يدعي أصحابها، فالصورة المشوهة القائمة للإسلام لازالت كذلك في كلياتها، وإن طرأ تغير جزئي على بعض

---

(١) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة... ص ١٣، ١٤، (مرجع سابق). وانظر: محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق: ص ٦١، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ص ٦٤١ (البحث نفسه).

(٣) انظر: عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام... ص ١٧، (مرجع سابق).

تفاصيلها، والدراسة التي تتنكب الموضوعية والنزاهة لازالت هي السائدة الغالبة على هذا الحقل، وإن كان ثمة تغير فذلك مِمَّا تحتمه القاعدة المشهورة (اختلاف الأحكام باختلاف المصالح والأزمان)[1].

إنَّ النظرة التحليلية الشاملة تدرك بأن دراسات المستشرقين لاتزال تدور في فلك تلك (الأفكار الجامحة التي كونتها أوروبا في فجر ولادتها الفكرية)[2]، ومن الأمثلة على ذلك؛ ما قاله عدد من المستشرقين في الإسلام والقرآن والرسول وبخاصة فيما يتعلق بالنظرة الاستشراقية إلى وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة:

أ- يقول (بروكلمان) عن الرسول ﷺ وعن القرآن الكريم: (أعلن ما ظنَّ أنَّه سمعه كوحي من عند الله)[3].

ب - ويقول (توراندريه): (إن أفكار محمد غير متجانسة، وغير منسجمة ومضطربة أشد الاضطراب)[4]، ويقول أيضًا: (يبدو محمد في القرآن بصورة حالم ضال ينشد الحقيقة فيشكل آراءه ومثله استنادًا إلى ما تلقاه من تعليمات تصله اتفاقًا من غير أن يقيمها على حقائق ثابتة وحيَّة)[5].

ج - ويقول (جولدزيهر): (من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهبًا عقيديًّا موحدًا متجانسًا وخاليًا من التناقضات، ولم يصلنا من

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٧.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٧، (مرجع سابق).

(٣) تاريخ الشعوب الإسلاميَّة: ص ٤٠، (مرجع سابق). وانظر: عرفان عبدالحميد: المرجع السابق نفسه: ص ١٨.

(٤) نقلاً عن: عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام..: ص ١٨، (المرجع السابق نفسه).

(٥) نقلاً عن عرفان عبدالحميد: المرجع السابق نفسه: ص ١٩.

المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطرًا إلاَّ آثارٌ عامّة نجد فيها إذا بحثنا في تفاصيلها أحيانًا تعاليم متناقضة)[١].

ويقول أيضًا: (كان وحي النبي حتى في حياته معرضًا لحكم النقاد الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص، وكان عدم الاستقرار والطابع المتناقض البادي في تعاليمه موقع ملاحظات ساخرة)[٢].

د – ولعل موقف المستشرقين من وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة يتضح بصورة جلية في قول (يوليوس فلهوزن): (يبرز في القرآن شأن القدرة الإلهيَّة تارة وشأن العدل الإلهي تارة أُخرى، وذلك بحسب ما كان يحس به النبي دون مراعاة للتوازن بين الطرفين، ولايشعر محمد بما في ذلك «من تناقض؛ لأنَّه لم يكن فيلسوفًا ولا واضعًا لمذهب نظري في العقائد Dogmatiker»)[٣].

ويبرز كذلك في قول (دي بوير): (قبل الرعيل الأول من المؤمنين ما في القرآن من تناقض وهو الذي نعلله نحن بتقلب الظروف التي عاش فيها النبي وباختلاف أحواله النفسية)[٤].

ولكل من (ينكلسون) و (مكدونالد) و (سنوك هورغرونيه) و (شاخت)، وغيرهم من أعلام الاستشراق أقوالٌ مشابهة لما قاله

---

(١) نقلاً عن عرفان عبدالحميد: المرجع السابق نفسه: ص ١٩.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي: ص ٤، ترجمة: النجار، (مرجع سابق).

(٣) تاريخ الدولة العربيَّة؛ (من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية): ص ٢، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، وحسين مؤنس، (مرجع سابق)، وانظر: ترجمة يوسف العش: ص١٠، الدولة العربيَّة وسقوطها، (مرجع سابق).

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام: ص ٦٩، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، الطبعة الثالثة، ١٣٧٤ هـ-١٩٥٤ م، عن دار النهضة العربيَّة للطباعة والنشر، بيروت.

(جولدزيهر) و (بروكلمان) و (توراندريه) و (فلهوزن) و (دي بوير)، المشار إليها فيما تقدم[1].

وعلى ذلك فإنَّ خصيصة وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة محجوبة خلف تلك الأقوال ولايُمكن الباحث أن يجد في كتابات معظم المستشرقين إلاَّ النزر اليسير مِمًّا يشير إلى تلك الوسطية... سيتطرق البحث إليه فيما بعد.

٤ - وفي العصر الراهن تهز حمَّى الصهيونية أوصال الشعوب الغربية من خلال وسائل الإعلام المختلفة بهذه المزاعم والافتراءات، مضيفة إليها بريق الدعاية وفنون الخداع، وطرائق المكر السيء بما تملك تلك الوسائل (من قدرة على الانتشار، وقوة الجذب والتأثير، من أن تجعل الصورة المشوهة عن الإسلام وأمته ضمن اهتمامات الفرد الغربي حتى أصبحت حديث المجالس والمنتديات الشعبية)[2]، وتجاوزت ذلك إلى أنحاء واسعة من أصقاع المعمورة في ظل تطور الإعلام الغربي وهيمنته الدوليَّة[3].

وفيما يأتي بعض النماذج على ذلك:

أ - تقول (جانيس تيري): (إنَّ صورًا للمجتمع العربي والعالم الإسلامي تبدو متشابهة تمامًا في الروايات المعاصرة، وسواء وصف العرب والمسلمون بالتخلف أو الجشع، أو الشهوانية، أو الشيطان وعدم الإنسانية، فإنَّه كبش الفداء في جميع الروايات المعاصرة التي تتناول

---

(١) انظر: عرفان عبدالحميد: المرجع السابق نفسه: ص ٢٠، ٢١.

(٢) عبدالقادر طاش: الصورة النمطية للإسلام... ص ٤٣، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٤.

موضوعات عن الشرق الأوسط تقريبًا)[1].

ومِمًّا لحظته أيضًا أن هناك حشدًا هائلاً من الروايات تدور أحداثها حول فكرة أن المسلمين إرهابيون يهددون حياة البرآء من الناس، وأنَّ هذه الروايات تبرز تعاون المخابرات والحكومات الغربية مع (الأبطال الإسرائيليين) في مقاومتهم للإرهاب العربي)[2].

وتخلص (تيري) إلى القول: (بأنَّ صورة العالم العربي في الروايات المعاصرة مشحونة بكراهية ما هو عربي وإسلامي، ويُصوِّر العرب بشكل مستمر في الروايات بأحقر أنواع القذف العنصري، فهم يصورون على أنهم لا إنسانيون، جبناء، معادون للمرأة والأطفال، ويصور الإسلام في صورة سلبيَّة للغاية، ولاتجد في تلك الروايات ولو إشارة إلى الجوانب والإسهامات الإيجابية للعرب وللحضارة الإسلاميَّة)[3].

ب - أمَّا المؤلفات العلمية فإنَّها تطفح بالتجني على الأُمَّة الإسلاميَّة وحقائق الإسلام بما يكشف البون الشاسع بين ما يكتبه عامَّة المستشرقين وبين وسطية الإسلام، وكون هذه الوسطية من خصائص الأُمَّة الإسلاميَّة.

---

(١) J.J Terry ((Image of the Middle East in Contempray Fiction)) inE. Ghareeb (ed) , split vision: The portral of Ar abin the American Medla (Wash.d.c) The American - Arab Affairs Council, 1983,P.316.
نقلاً عن: عبدالقادر طاش: المرجع السابق نفسه: ص ٥١.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: نقلاً عن: عبدالقادر طاش: المرجع السابق نفسه: ص ٥٢.

(٣) المرجع السابق نفسه: ٣٢٤، نقلاً عن: عبدالقادر طاش: الصورة النمطية للإسلام..: ص٥٢، (المرجع السابق نفسه).

وإذا كانت المعاجم والموسوعات من أبرز مظاهر العناية بالعلم والمعرفة وألصقها بالمنهجيَّة والعلمية والتجرد، فإنَّ معظم المعاجم والموسوعات الحديثة في أوروبا وأمريكا وروسيا درجت على تناول الإسلام من خلال وجهة النظر الصهيونية وبأيدي مستشرقين إن لم يكونوا يهوداً فهم في خدمة اليهود والصهيونية العالميَّة، وبناءً على ذلك فإنَّ ما كتب عن الإسلام والأُمَّة الإسلاميَّة جاء في الغالب موجهًا في هذا السياق وتحت هذا التأثير[١].

وقد أجرى بعض الباحثين دراسة نقدية للموسوعة البريطانية، والفرنسية، والسوفيتية، واليهودية[٢]، وخرج بنتيجة مفادها أنَّ هذه الموسوعات (تغافلت عن تتبع الجانب التاريخي المُشَكِّلِ للوجود والهويَّة العربية الإسلاميَّة)[٣]، وأنَّ دائرة المعارف البريطانية في سياق تشويهها للإسلام والعرب عمدت إلى القول: (أنَّ محمداً زعم أنَّه نبي مرسل من الله وأنَّه أعظم الأنبياء وخاتمهم وأن المسلمين يعبدون محمداً ويعتقدون

---

(١) انظر: أنور الجندي: سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلاميَّة: ص ٧، ٨، ١٦ -٢٠، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م، عن دار الجبل، بيروت، وانظر: زياد أبو غنيمة: السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية: ص ١١٥ - ١٢٥، تحت عنوان: (سموم الصهيونية تغزو الموسوعات العلميَّة والدراسات الاستشراقية)، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م، عن دار عمار للنشر..، عمان.

(٢) انظر: عبدالقادر طاش: المرجع السابق نفسه: ص ٥٢، ٥٣.

(٣) عبدالقادر طاش: المرجع السابق: ص ٥٣، وانظر: عفيف البوني: صورة العرب في العقل الغربي من خلال الموسوعات العلمية الغربية، مقال منشور في مجلة المستقبل العربي، العدد [١٠١]، ١٩٨٧/٧ م: ص ١٦ - ٣١، تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت.

أن الكون خلق من نور محمد)[1].

أمَّا دائرة المعارف الفرنسية فتقول كما سبق الإشارة إلى ذلك: أنَّ الرسول ﷺ (قاتل دجَّال، وخاطف نساء، وأكبر عدو للعقل الحر)[2].

وزعمت دائرة المعارف السوفيتية أن الإسلام (يؤدي دورًا رجعيًّا، إذ أصبح أداة في أيدي الطبقات المستغلة لكبح الطبقة العاملة روحيًّا)[3]، وزعمت أن القرآن (مجموعة من المواد المذهبية والأسطورية والقانونية)[4].

ويذهب قاموس التاريخ العالمي البريطاني إلى القول بأنَّ (عصابة المافيا الإجرامية العالمية تمتد جذورها إلى أصول عربية، ويؤكد القاموس أن طبيعة العرب الإجرامية التي لاتقف عن السطو والقتل تؤكد هذه المقولة)[5].

ج - تؤكد الدراسات التي أجريت على المناهج الدراسيَّة في الغرب بأنَّ تلك المناهج قد صيغت على نحو لم تظهر من خلاله وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة بل أظهرتها بأوصاف من أهمها: (أن الإسلام ولد بين بدو الجزيرة العربية الذين هم (أميون) كليًّا، والذين يتخذون من غزو

---

(1) زياد أبو غنيمة: السيطرة الصهيونية..: ص ١١٧، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: ملك غلام مرتضى: دائرة المعارف البريطانية بين الجهل والتضليل: ص ١٧ - ٢٣، ٦٧، ترجمة: محمد كمال علي السيد، (مرجع سابق).

(2) عبدالقادر طاش: المرجع السابق نفسه: ص ٥٣.

(3) نقلاً عن: مرعي مدكور: الإعلام الإسلامي وخطر التدفق الإعلامي الدولي: ص ٥٢، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م، عن دار الصحوة للنشر، القاهرة.

(4) نقلاً عن: المرجع السابق نفسه: ص ٥٢.

(5) نقلاً عن: زياد أبو غنيمة: السيطرة الصهيونية: ص ١١٧، (المرجع السابق نفسه).

القوافل تسلية يمتزون بها)[1]، وأن المسلمين نشروا دينهم عن طريق العنف، وتركز تلك المناهج على مسألة الرق في الإسلام، وتعدد الزوجات، ووضع النساء في المجتمع الإسلامي وأنهنّ في منزلة دونيّة بالنسبة للرجال والأبناء[2]، وتذكر بعض كتب التاريخ التي تُدرَّس في المدارس الفرنسية بأنَّ العرب (لم يكونوا إلاَّ غزاة غلاظاً متزمتين ومتعصبين، فرضوا دينهم بحد السيف، وأن الدول أو الشعوب التي قبلت باعتناق الإسلام إنَّما فعلت ذلك كي لاتدفع الجزية الباهضة التي فرضها المسلمون على الذين لايدخلون في دينهم)[3].

ويتناول (مارسيل بوازار) دراسةً علميّة حديثة العهد وهي رسالة ماجستير نوقشت عام ١٩٨٠ م في جامعة (تولون) بفرنسا.. عن الكتب المدرسية من ١٩٤٥ م إلى ١٩٧١ م، ويقول (بوازار): (إنَّ النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة بالغة الدلالة؛ فمن جهة لم تحظ الحضارة الإسلاميَّة إلاَّ بنصيب ضئيل من الكتب المدرسية لايتجاوز ٤٪ من مضمون هذه الكتب، ومن جهة أخرى اتسم وصفها للإسلام بجمود كبير بالرغم من اكتشافات الدراسات التاريخية المعاصرة)[4].

---

(١) عبدالقادر طاش: الصورة النمطية للإسلام..: ص ٥٥، (مرجع سابق)، وانظر: محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة الاستعمار (تطور الصراع الغربي مع الإسلام): ص٣٨٢ - ٣٩٠، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجعين السابقين: الصفحات نفسها.

(٣) هدى الزين: نحن في عيون تلاميذ باريس، استطلاع أعده مكتب جريدة عكاظ في باريس: ص ٥، العدد: [٧٠٧١]، الصادر بتاريخ، ١٤٠٦/٢/١٤ هـ، الموافق ١٩٨٥/١٠/٢٨ م، وانظر: عبدالقادر طاش: المرجع السابق نفسه: ص ٥٦.

(٤) نقلاً عن: عبدالقادر طاش: الصورة النمطية للإسلام..: ص ٥٦، ٥٧، (المرجع السابق نفسه).

ومن النماذج التي عرضها (بوازار) الزعم المبثوث في هذه المناهج بأن الرسول ﷺ منذُ (أُخْرِجَ من مكة ظلَّ مشغولاً باسترجاعها ومنذُ البداية التجأ للعنف، ومكنه فنه في قيادة الجموع من توحيد أنصاره الذين زرع فيهم روح التعصب، ووعدهم بالجنة إذا ماتوا في سبيل الحرب المقدسة[١].

يلحظ (بوازار) من خلال تلك الدراسات[٢] جملة ملحوظات في مقدمتها ملحوظتان في غاية الأهمية:

أولاهما: (أنَّ الملامح الجوهرية للدين الإسلامي ونبيه تؤكد على (الحرب المقدسة) التبشيرية لإجبار العالم على اعتناق الإسلام، وعلى هذه الصورة التي هي أثر من آثار القرون الوسطى يقدم الإسلام على أنَّه ثقافة عدوانية من خلال نصوص حكمها وقدمها فكر عدواني في أساسه، تحرص على عرض العلاقات بين الإسلام والغرب بعبارات العنف والعداء، حتى يصبح التشويه هو معالم الإسلام الأساسية)[٣].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٥٧.

(٢) لمزيد من الاطلاع على تلك الدراسات التي أجريت على المناهج الدراسية في أوروبا وأمريكا؛ راجع: مارسيل بوازار: الإسلام اليوم: ص ٢٢ – ٣٠، صدر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة – (اليونسكو)، الطبعة العربيَّة ١٩٨٤ م، باريس. وانظر: عبدالقادر طاش: الصور النمطية للإسلام.. في الصفحات (٥٢ – ٥٧) وراجع: محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق.. في الصفحات (٣٧٩ – ٣٩٠)، (مرجع سابق).

(٣) نقلاً عن: محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق... ص ٣٩٧، ٣٩٨، وأصله بحث قدمه الدكتور مارسيل بوازار في المؤتمر الثالث لجمعية الإسلام والغرب الذي عقد في أشبيلية في الفترة من ١٠ سبتمبر إلى ١٢ منه سنة ١٩٨٢ م؛ انظر: حاشية ص ٣٩١ من المرجع السابق نفسه.

وأخراهما: المشكلة الفلسطينيَّة إذ (إنَّ المشكلة الفلسطينية ليست درسًا من التاريخ المعاصر، وإنَّما هي خطاب سياسي ومذهبي لئيم وشرير، تعرض باللون الأبيض والأسود وبصورة تبسيطية، كأبطال رواية في العصر الحاضر)[1].

على أنَّ هناك تطورًا بطيئًا يتخذ طريقة لتصحيح تلك المناهج في أوروبا وأمريكا (ولن تكون النتائج مرئية إلاّ خلال بضعة عقود؛ لأنَّ الإعلام المبتور والقوالب المضحكة حول الإسلام ما تزال هي الرائجة)[2].

٥ - على الرغم مِمَّا اتسمت به الدراسات الاستشراقية وسار عليه معظم المستشرقين من نفي لوسطية الأُمَّة الإسلاميَّة بصفة مباشرة أو غير مباشرة، فإنَّ هناك من المستشرقين من اعترف بتلك الوسطية وأظهرها بطريقة مباشرة أو ضمنية... وتفصيل ذلك في النماذج الآتية:

أ - يقول المستشرق (جورج سارطون): (وكان الإيمان في الإسلام بسيطًا، كريمًا، معتدلاً، ومع ذلك فقد كان بالإمكان أن تشيع فيه الحماسة حين البأس إلى حد بعيد فينقلب المجاهدون حينئذٍ ذوي حميَّة إمَّا أن يبلغوا بها الظفر وأن يسقطوا دونه شهداء)[3].

ففي قول (جورج سارطون) ما يبين وسطية الإسلام واعتداله، وأنه يتسم بالتسامح والكرم والبساطة، وقد تبلغ الحماسة فيه حين البأس

---

(١) محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق..: ص ٣٩٨، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٨١.

(٣) جورج سارطون: الإسلام كما ينظر إليه المستشرقون المنصفون، محاضرة نقلها عمر فروخ إلى العربية وألحقها محمد إبراهيم الفيومي في كتابه: الاستشراق..: ص ٤١١ - ٤٥٥، (المرجع السابق نفسه)، والمنقول أعلاه: ص ٤٣٢، (المرجع نفسه).

إلى حـد الاستشـهاد أو الظفـر، وقـد علّـق عمـر فـروخ عـلى مقولـة (سـارطون) هـذه بمقارنـة بينها وبين ما ذهب إليه (توماس أرنولد) من مبالغة في وصفه للتسامح في الإسلام إلى درجة قد تؤثر على مشروعية الجهاد وقال: (وهكذا يستطيع الإنسان فيما يتعلق بالتسامح أن يظهر المسلمين في صورة وضاءة (كما فعل أرنولد) أو في صورة حالكة شديدة الظلمة)[١]، ولاشك أن الأُمَّة الإسلاميَّة وسط بين طرفين.

ب - ما قاله أحد المستشرقين من (أنَّ القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأُخرى، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرَّم محمدٌ قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس)[٢]، ويشير مستشرق آخر إلى ما فعله الصليبيون حينما دخلوا القدس قائلًا: (بعد أن سقطت المدينة، وقعت المذبحة، إذ ذبح كل المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً... وفي معبد سليمان وحوله؛ خاضت الجياد في الدم حتى الركب بل وحتى اللجام.. أمَّا بالنسبة ليهود القدس فحين اجتمعوا في معبدهم الرئيسي أضرمت فيه النيران وحرقوا جميعًا أحياء)[٣].

---

(١) الإسلام كما ينظر إليه المستشرقون المنصفون: ص ٤٣٢، (المرجع السابق نفسه).

(٢) ميشو: تاريخ الحروب الصليبية، نقلاً عن: عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة: ص ٨٦، (مرجع سابق).

(٣) كافين رايلي: الغرب والعالم (تاريخ الحضارة من خلال موضوعات): ص ١٩٧، ترجمة: عبدالوهاب محمد المسيري وآخر، (مرجع سابق)، ولمزيد الاطلاع على خلفية الحروب الصليبيَّة في تاريخ الغرب واتسامه بالعنف في أعقاب ذلك؛ انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٧٥ - ٢١١.

وإذا كانت هذه الأقوال تنصب على جانب واحد من جوانب الوسطيَّة كخصيصة من خصائص الأُمَّة الإسلاميَّة، صاحبت انتشار الإسلام، واتسمت بها علاقاتها مع الأمم الأخرى، فإنَّ هناك أقوالاً أخرى بينت الوسطية كخصيصة من خصائص الأُمَّة الإسلاميَّة في جانب العقائد وجانب العبادات، ولكنَّها تأتي ضمنًا في تلك الأقوال إذا أُخذَ في الاعتبار ما عليه الأمم الأخرى في تلك الجوانب.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره بعض المستشرقين عن هذه الوسطية:

أ - يقول (فرانز روزنثال): (وعندما ظهر الرسول ﷺ كانت اليهودية والنصرانية منتشرتين في الجزيرة ولهما آراء متشابهة في التفسير التاريخي للحياة الإنسانية، غير أن الدين الإسلامي الذي بشر به الرسول ﷺ كان يتميز بالوضوح والقدرة على تفهم أسس الوجود بصورة واضحة جدًّا ومن غير تعسف، والواقع أنَّ مفاهيم الإسلام أوضح وأقل جمودًا من ناحية العقيدة، من مفاهيم اليهود والنصارى الدينية)[1].

ب - ويقول (جاك ريسلر): (أمَّا الإسلام المسكون بهاجس وحدانية الله وتوحيده، فقد رفض في سياق بحثه عن المطلق عقيدة الأقانيم الثلاثة، وابتعد بذلك عن المسيحية التي كان يتهمها بنوعٍ من الشرك في تصورها لألوهيةٍ ذات ثلاثة أشخاص، ولكن الإسلام كان يعترف، بوفاءٍ نادرٍ جدًّا في تاريخ الأديان بأنَّ الكتب العبرانية أو المسيحية كانت منزلة (قبل أن يمسها التحريف)، وكان يتقبل قصص التوراة اليهوديَّة - المسيحية.

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين ص ٣٩؛ ترجمة: صالح أحمد العلي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت.

وكبرهان على رسالته الإلهية، يعترف النبي ويحتج حتى بالتوافق القائم بين القرآن والتوراة،... ويدعو اليهود بتسامح وبتعقل في آن إلى طاعة شريعتهم، ويدعو المسيحيين إلى احترام أناجيلهم ولكن من المؤكد أنَّ عليهم التسليم بالقرآن بصفته آخر كلام الله، ودينه المنزل المميَّز)[1].

ج - ويتحدث (آرثركين) الفيلسوف الأمريكي المسلم، عن سبب إسلامه؛ قائلاً: (لقد بحثت طويلاً في سر الوجود وتعمقت في أبحاثي بحكم دراستي للفلسفة وعلم النفس، ورأيتُ أن الإسلام هو أقرب الأديان إلى السماء وإلى النفس الإنسانية فتأكد يقيني بأنَّه الدين الكريم الذي أرتضيه وأؤمن به...)[2].

د - وعن العبادات في الإسلام قال (أميل درمنغم): إنَّ الإسلام (يرى كمال العبادة في نيل الجسم حقه الشرعي)(٣)، وقال بعد ذلك: (كان الكثير من المسلمين يكثرون من التوبة والاستغفار والصلاة والصوم، فرأى محمد أن القصد أولى من الإفراط... وأشار بالاعتدال في التقشف، وبترك كلِّ ما يميتُ النفس)[4].

ولعل (أميل درمنغم) يشير بقوله هذا إلى النفر الثلاثة الذين جاءوا إلى الرسول ﷺ فقال أحدهم: أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أصلي ولا أنام، وقال الثالث: وأمَّا أنا فلا أتزوج النساء. فنهاهم الرسول ﷺ

---

(١) الحضارة العربية: ص ١٧، تعريب: خليل أحمد خليل، (مرجع سابق).

(٢) عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٩/١٥٥، ١٥٦، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م، عن دار القلم، الكويت، وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام.. ص ٢٣٠، (مرجع سابق).

(٣) حياة محمد: ص ٢٨٤، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٢٨٦.

عن ذلك، وقال: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وعلى أيٍّ حال فقد تحدث (أميل درمنغم) عن خصيصة الوسطية في جانب العبادات، وله - أيضًا - أقوالٌ أخرى عن وسطية المجتمع الإسلامي فيما يتعلق بمبادئ العقيدة والتشريع والنظرة إلى الدنيا والآخرة، إذ قال: (على ما تراه في دعوة النبي من المبادئ الأخروية لم يأل النبي جهدًا في تنظيم المجتمع الإسلامي تنظيمًا عمليًّا، فكان القرآن كتاب شريعة كما كان مثل كتاب التنبيه والزبور)[2].

وله بعد ذلك أقوال في مشروعية الآذان ومقاصد العبادات في الإسلام[3] تأتي في مكان آخر إن شاء الله.

* * *

---

(١) سبق تخريجه: ص ٧٤٨، (البحث نفسه).

(٢) حياة محمد: ص ٢٨٩، ٢٩٠، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٩٠.

المبحث الرابع
الإيجابية الخيرة
وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: الإيجابية الخيرة.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منها.

المطلب الأول

خصيصة الإيجابيَّة الخيِّرَة

الإيجابيَّة الخيِّرَة هي تلك الخصيصية الأخرى من خصائص تميز الأُمَّة الإسلاميَّة، وهي السِّمَة البيِّنَة التي اتصفت بها الأُمَّة الإسلاميَّة، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[1]، فالسبق والمسارعة من خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وليس ذلك السبق، وتلك المسارعة لذاتهما، وإنَّما هما في الحقيقة إيجابيَّة خيِّرَة اختصت بها الأُمَّة الإسلاميَّة لتحقق من خلالها الخير والسعادة للإنسانية قاطبة، ولاتقتصر نظرتها في ذلك على العاجل فحسب في الدار الدنيا، بل تتجاوز نظرتها هذه الحياة الأولى إلى الحياة الآخرة، وتعمل للعاجلة والآجلة بهدي من قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[2].

وتتجلى إيجابيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة في جوانب كثيرة، سأتناول جانبين من أهم تلك الجوانب، ولكن قبل ذلك أبين مفهوم المسارعة والسبق.

مفهوم المسارعة والسبق:

أ - المسارعة: مشتقة من الفعل الثلاثي (سَرُع) يقال: (سَرُعَ، يَسْرُعُ سرعة، وسِرْعًا فهو سَرِعٌ وسريعٌ، والأُنثى: سَرْعى)[3] بمعنى (خَفَّ

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٦١).

(٢) سورة القصص: الآية (٧٧).

(٣) ابن منظور: لسان العرب المحيط: مادة (سَرُع)، (مرجع سابق).

وعجل. تسرَّع بالأمر بادر به. المتسرع: المبادر إلى الشر، المسرع: السَّريع إلى خير أو شر)[1].

والمسارعة فيها مبالغة ومفاعلة من السُّرعة، وتختلف عن العجلة، وعن الفرق بينهما قال الرازي: (فإن قيل: أليس العجلة مذمومة... «العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن»[2] فما الفرق بين السرعة وبين العجلة ؟ قلنا: السرعة مخصوصة بأن يقدم ما ينبغي تقديمه، والعجلة مخصوصة بأن يقدم ما لاينبغي تقديمه، فالمسارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدِّين؛ لأنَّ من رغب في الأمر آثر الفور على التراخي، قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[3]، وأيضًا العجلة ليست مذمومة على الإطلاق بدليل قوله تعالى: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[4])[5].

كما أن المسارعة ليست ممدوحة على الإطلاق فإن الله عزوجل وصف بها الكفار والذين في قلوبهم مرض، وأنَّهم يسارعون كذلك في الكفر وفي الإثم والعدوان، مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ

---

(١) المرجع السابق نفسه: المادة نفسها.

(٢) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح ٣٢٢/٤، ورقمه [٢٠١٢]، ولفظه: «الأناة من الله والعجلة من الشيطان»، كتاب البر والصلة، باب [٦٦]، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق)، غير أنه قال فيه: (هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث في عبدالمهيمن بن عباس بن سهل، وضعَّفه من قِبَل حفظه) وعبدالمهيمن هو راوي الحديث عن أبيه عن جده (سهل بن سعد الساعدي).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٣٣).

(٤) سورة طه: الآية (٨٤).

(٥) التفسير الكبير ٣٣٤/٣، (مرجع سابق).

﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3].

والشاهد في هذه الآيات أنَّ صفة المسارعة قد تكون مذمومة كما أنَّها صفة ممدوحة، والذي يحدد ذلك الغاية التي ترتبط هذه الصفة بها، فإن كانت في الخير والبر والمعروف، فهي صفة إيجابيَّة خيِّرَة، وإن كانت المسارعة في الكفر والإثم والعدوان، وفيما نهى الله عنه بعامَّة؛ فهي صفة ذم ونقيصة.

ب - السبق: مشتقة من الفعل الثلاثي (سَبَقَ)، قال ابن فارس: (السين والباء والقاف أصل واحد صحيح يدل على التقدم، يقال: سَبَق يسبق سبقاً، فأمَّا السَّبْق فهو الخطر الذي يأخذه السَّابق)[4]، ولعل ابن فارس يريد بقوله: (الخطر الذي يأخذه الفارس) إمَّا القدر والمكانة وهو أحد معاني الخطر[5]، أو يريد بقوله هذا (ما يُجْعَلُ من المال رهناً على المسابقة)[6].

---

(١) سورة المائدة: الآية (٤١). وانظر: سورة آل عمران: الآية (١٧٦).

(٢) سورة المائدة: الآية (٥٢).

(٣) سورة المائدة: الآية (٦٢).

(٤) معجم مقاييس اللغة: مادة (سبق)، (مرجع سابق).

(٥) انظر: المرجع نفسه: مادة (خطر).

(٦) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، مادّة (سبق)، (مرجع سابق).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[١] قال بعض المفسرين: (ينافسون فيها، وقيل: يسابقون... ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾...: هم سابقون الناس لأجلها)[٢].

ويُمكن القول أنَّ مفهوم المسارعة والسبق في ضوء هذه المعاني يشكل المضمون الحقيقي لخصيصة الإيجابيَّة الخيِّرة بصفتها إحدى خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وهذه الخصيصة لها جوانب كثيرة لايتسع المجال لاستقصائها والإلمام بجميعها، ويتناول هنا جانبان منها؛ أحدهما يبين تلك الخصيصة على مستوى الأفراد من خلال نماذج اتسمت بالمسارعة في الخير وأعمال البر وحققت السبق في ذلك، والآخر يبين تلك الخصيصة على مستوى الأُمَّة، وبعض مظاهر تلك الإيجابيَّة في نطاق العرب والشرق، والعالم بعامَّة.

فأمَّا الجانب الأول فإنَّ له شواهد عدَّة تمثلت فيما أقدم عليه أفراد من الصحابة من البذل والعطاء والجود بالأنفس والمال والأولاد في سبيل الله بعد أن تمكن الإيمان في قلوبهم، وامتلأت نفوسهم بمحبَّة الله ومحبة رسوله ﷺ، وصَغُرت الدنيا في أعينهم بما فيها من لذَّات ومطامع ومكاسب وزخارف، واشتاقوا للقاء الله وما عنده من الثواب، فكان منهم من يقذف بالتمرات مسرعًا إلى الاستشهاد في سبيل الله والسبق إلى الشهادة، ويرى أنَّ الوقت الذي يمضيه في أكل تلك التمرات يؤخره عن لقاء الله، وكان منهم من قدَّم ماله في سبيل الله ولم يترك منه شيئًا، وكان منهم من أخرج نفسه من أعز ما يملك لينال البر ويتقرب بذلك

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٦١).

(٢) الشوكاني: فتح القدير ٣/٤٨٨، ٤٨٩، (مرجع سابق).

إلى الله عزّوجل؛ وقصة هذه النماذج في الآتي:

أ - ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال في غزوة بدر: «قوموا إلى جنَّة عرضها السماوات والأرض»[(١)]، فقال: عمير بن الحمام الأنصاري: يارسول الله ! جنَّة عرضها السماوات والأرض. قال: «نعم» قال: بخ بخ، فقال الرسول ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ بخ» قال: لا، والله يارسول الله إلا رجاءه أن أكون من أهلها. قال: «فإنَّك من أهلها» فأخرج تمرات من قَرَنِه فجعل يأكل منهنَّ ثُمَّ قال: لئن حييت حتى آكل هذه. إنَّها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر. ثُمَّ قاتلهم (أي مشركي قريش) حتى قتل)[(٢)].

ب - وأخرج الترمذي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكر، إنْ سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك ؟» قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكلِّ ما عنده، فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟» قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، قلتُ: والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا)[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم ١٥١٠/٣، كتاب الإمارة، الباب [٤١]، الحديث رقم [١٩٠١]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه، (بقية الحديث).

(٣) الجامع الصحيح ٥٧٤/٥، كتاب المناقب، الباب [١٦]، الحديث رقم [٣٦٧٥]، وقال عنه: (حديث حسن صحيح)، (مرجع سابق). وانظر: الشاطبي: الموافقات ٢٤١/١، ٢٤٢، بتحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧ م، عن دار ابن عفان، الخبر. وانظر: ابن الجوزي: صفة الصفوة ١٠٦/١، (مرجع سابق).

ج - وحينما نزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[1]، جاء أبو طلحة إلى الرسول ﷺ يقول له: (يارسول الله، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرُحاء، وإنَّها صدقة لله، أرجو بِرَّها وذخرها عند الله، فضعها يارسول الله، حيثُ أراك الله)[2] قال راوي الحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: (فقال الرسول ﷺ: «بَخْ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يارسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه)[3].

تبين هذه النماذج الثلاثة - وهي غيض من فيض مِمَّا كان عليه السلف الصالح[4] - أنَّ المسارعة في أعمال البر والإحسان والسبق إليها من أهم خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وأنَّ هذه الخصيصة تأتي منسجمة مع خصائص أخرى امتدح الله - عَزَّ وَجَلَّ - الأُمَّة الإسلاميَّة

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢/٥٣٠، ٥٣١، كتاب الزكاة، الباب [٤٣] رقم الحديث [١٣٩٢]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق). وأخرجه مسلم: صحيح مسلم: رقم الحديث [٩٩٨]، كتاب الزكاة، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، وانظر: ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/٢٢١، ٢٢٢، (المرجع السابق)، وانظر: ابن العربي: أحكام القرآن ١/٢٨١، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه البخاري: المرجع السابق نفسه (بقية الحديث).

(٤) لمزيد الاطلاع من النماذج الدَّالَّة على خصيصة الإيجابيَّة الخَيِّرَة؛ انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ١١١- ١١٣، وقبلها: ص ٩٦- ١٠١، ص١٠٣- ١٠٩، الطبعة الرابعة عشرة، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢، عن دار القلم - الكويت.

بها، وميَّزَها بها عن غيرها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[1]، فقد بينت الآيات الكريمة جوانب كثيرة لهذه الإيجابيَّة الخيِّرَة للأُمَّة الإسلاميَّة، إذ هي إيجابيَّة نحو ربها جلَّ وعلا: تتمثل في خشيته تعالى، والشفقة منه تعالى والإيمان بآياته، وعدم الإشراك به، ومن الإيمان بآياته الإيمان برسوله ﷺ وماجاء به من الآيات والذكر الحكيم، والوعد والوعيد، والحلال والحرام، وما يتبع ذلك من وجوب طاعته ومحبته ومناصرته والرضى بحكمه، وهذه إيجابيَّة نحو رسول الأُمَّة محمد بن عبدالله ﷺ، وإيجابيَّة نحو الناس تتمثل في الصدقة والنفقة والإحسان، ونحو ذلك من وجوه البر.

ثُمَّ إنَّ هذه الإيجابيَّة لاتبعث على الركون إلى العمل أو الاغترار به بل يمارس المؤمن تلك الإيجابيَّة الخيِّرَة وهو متواضع لله يرجو رحمته ويخاف عقابه، وقلبه (يستشعر يد الله عليه ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة... ومن ثُمَّ يستصغر كل عباداته ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه... ومن ثَمَّ يشعر بالهيبة ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة، ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرًا)[2].

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات (٥٧- ٦١).

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤/٢٤٧٢، (مرجع سابق).

وفي الحديث أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (سألت الرسول ﷺ عن هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[1]، قالت عائشة: هُمُ الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أنْ لايقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[2].

وأمَّا الجانب الآخر من إيجابيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة، على مستوى العالم من حولها بدءًا بالعرب ثُمَّ بمن جاورهم من الأمم الأخرى ثُمَّ العالم أجمع، فإنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة انطلقت وهي تحمل عقيدة التوحيد وشريعة الله، وما انبثق عنهما من قيم وأخلاق ومبادئ ومثل، في حركة إيجابيَّة خيِّرَة نال من خيرها العرب في الجزيرة العربيَّة، واتسع نطاقها شرقًا وغربًا حتى بلغت المحيط الأطلسي غربًا، إلى بلاد الهند والصين شرقًا، وفي خلال هذا الانتشار والفتح أسهمت الأُمَّة الإسلاميَّة: (في بناء حضارة جديدة ضخمة، قدر لها أن تصبح أعظم حضارة عرفها العالم أجمع طوال العصور الوسطى، وهي الحضارة الإسلاميَّة العربية، وكما يتضح من الاسم المركب لهذه الحضارة، فإنَّها استمدت عظمتها من مبادئ الإسلام ومثله وروحه، ومن المهد الذي ولدت فيه، وحسب العرب في عهدهم الجديد، أنَّهُم أحسوا بكونهم بناة الدولة وحماتها، ودعاة الإسلام وحاملوا رسالته، والمبشرون بعقيدته في مختلف أرجاء الأرض)[3].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح ٥/٣٠٦، ٣٠٧، كتاب تفسير القرآن، الباب [٢٤]، رقم الحديث [٣١٧٥]، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق).

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته: ص ١١٠، (مرجع سابق).

ولكي تُعْرَفَ خصيصة الإيجابيَّة الخيِّرَة في محيط العرب بخاصة، ثُمَّ في محيط الأمم الأخرى بعامَّة، ينبغي أن يُنْظَرَ في حال هؤلاء وأولئك قبل الإسلام، ثُمَّ في حالهم بعد ظهوره وانتشاره.

أ - فأمَّا العرب فقد كانوا قبل الإسلام: (في جاهليَّة جهلاء، وفي ضلالة عمياء، يسفكون الدماء، ويخيفون الطرق، وينتهبون الأموال، ويتعاطون كبائر الآثامِ، ليس لهم مَلِكٌ يَنْظم بَدْوَهم، ولا سائسٌ يقيم أَوَدَهم، فرزقوا رسولاً من الله تعالى، مبعوثًا بالحق والهدى؛ ليعلمهم الكتاب والحكمة، ويأمرهم بالعدل والإحسان، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر، ويدعوهم إلى ترك العصبيَّة، وحميَّة الجاهليَّة. فآواهم وأيدهم بنصره، ومكنهم من الممالك، بعد أن كانوا قنعوا من أربابها بالسلامة من سطوتهم، فضلاً عن الاستيلاء على خططهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ [1]، فأصبحوا بمكان هذه الدعوة أصنافًا ثلاثة:

صنف منهم ملوك أعزَّة، وولاة المنابر والأسرة، قد نفذ حكمهم على الأقربين والأبعدين؛ لتحصيلهم الرياسة في الدين، وتوسعهم في معرفة أحكامه، والتفقه في حلاله وحرامه، فسعدوا بأشرف خطوة، وأجل أُكْرُومة.

وصنف منهم توجهوا إلى الآفاق في المغازي، فسهَّل الله لهم فتح البلاد، وذلَّلَ لهم رقاب العباد فتقابلوا في النواحي التي فتحت لهم، وحازوا فيها نعمًا جسيمة، وأملاكًا عريضة، بعد أن كانوا مَمْنُوِّين في جاهليتهم بضيق الحال، وضنك العيش.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٢٦).

وصنف منهم - وهم الجمهور من أفناء العرب، المقيمون في ديارهم - قد اقتنوا بالنسبة التي جمعت بينهم وبين صاحب الدعوة شرفا لايجهل أن يقال لهذا الدين في رفعته وجلاله: « دين العرب »[1] : ويقال لهذا الملك في اتساع رقعته، وعلو مكانه: «ملك العرب»[2] ، فهذه مجامع ما سَعِدَ به جيل العرب في أيام هذا الدين)[3] .

ب - وأمَّا الأمم المجاورة للجزيرة العربيَّة فإنها نالت من إيجابيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة الخيِّرة ما حرَّرها من العقائد الفاسدة والمظالم المستحكمة وأخذ بها في مدارج الرفعة والشرف، وللمثال على ذلك فإن الفرس وهم إحدى الأمم المجاورة للعرب والسابقة لهم في الميدان الحضاري، كانت على حالٍ قبل الإسلام ثُمَّ تحولت بدخولها الإسلام إلى حال آخر؛ ولمعرفة ما كانت عليه قبل الإسلام وما صارت إليه بعده، أنقل ما ذكره أبو الحسن العامري في قوله: (وأمَّا العجم فإنَّهم - مع ما كانوا رزقوا في أيام الأكاسرة من الأَبْنِيَات الحميدة، والآداب المنقولة، والعناية الصادقة بحفظ رسوم العمارة... ابتلوا بمحنتين عظيمتين ، لا يدانيهما شيءٌ من المحن الدنيويَّة في الفظاعة والنُّكر:

إحداهما: عَوْقُ المَوَابِذَة - (جمع مويذان وهو مثل (البابا) عند النصارى)[4] - لدهمائهم - بالقهر - عن اقتناء الحكمة الإلهية، التي

---

(١) باعتباره حكمًا عربيًا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ سورة الرعد: الآية (٣٧).

(٢) ولهذا القول شاهد من قوله ﷺ: «وإنَّ أُمَّتي سيبلغ ملكها ما زوي لي»؛ سبق تخريجه: ص٦٨٩، (البحث نفسه)، وانظر: أبو نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة ٥٣٨/٢، الحديث رقم [٤٦٤]؛ (مرجع سابق).

(٣) أبو الحسن العامري: كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٧٣، ١٧٤، (مرجع سابق).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: رقم [٣] في حاشية الصفحة [١٧٤]، وانظر: الشهرستاني: الملل والنحل ٢٨٤/١، (مرجع سابق).

بها يُتَوَصَّلُ إلى كمال الإنسانيَّة، وباقتنائها تستحق الرتّبة الروحانيَّة، وكان سببه أن (زرادشت) المتنبيء لمَّا أَسَّسَ لهم في الأبواب الاعتقاديَّة تلك الأصول الدَّالة على نزارةٍ حظه من الحكمة النظريَّة: نحو كون العالم من قديمين، وحصول جبلته من امتزاج الضدين، وأنواع هذيانه في العفاريت والشياطين، وخطئه الفاحش في شكل الأرض، وتخطيط الأفلاك - صيرهم بالمأخذ التقليدي مزجورين عن الحكمة الإلهية، تحرزًا من أن يتنبه الناظر فيها، والمتحقق لبراهينها، على سخافة دعاويه، فابْتُلِيَ أَلِبَّاءُ العجم لمكان الدعوة المجوسيَّة - مع أفهامها الزكيَّة، وعقولها السريَّة - بالمنع القادح عن أشرف أبواب الحكمة، بل ثكلوا روح اليقين بالحقائق البرهانية.

والأخرى: أن طبقاتهم بأسرهم كانوا مضطهدين بسياسة الاستعباد، وإيالة الاستخوال؛ إذ كان ملوكهم وسَمُوا أنفسهم بسمة (الخُذَايكانية)[1]، ووسموا كافة من سواهم بسمة (الدهكانية)[2].

وليس يُشك أن تسخير العاقل الحر بالقهر والغلبة على المنزلة الواحدة، وزجره عن اكتساب المحامد بالهمَّة العليَّة، والتمني باجتهاد سعيه إلى ما يتمناه من الجاه والمَعْلُوَة - في الغاية في الاتِّضَاع والخسَّة - وهي النهاية في الاستسلام للغضاضة.

وإذْ وجدت المحنتان مطبقتين على العجم: إحداهما من جهة

---

(١) مصطلح فارسي يعني طبقة السادة والعظماء والملوك.

(٢) مصطلح فارسي آخر يعني طبقة الفلاحين والمزارعين والقرويين، ولمزيد الاطلاع على هذه المسيمات والتفرقة العنصرية، انظر: المسعودي: التنبيه والإشراف: ٩٧، ١٠٣، ٤٢٠، طبعة ليدن بمطبعة برلين ١٨٩٣ م، وانظر: كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٧٥، ١٧٦ (الحاشية) تعليقات المحقق، (مرجع سابق).

ملوكهم، والأخرى من جهة مَوَابِذَتِهم - فمن الواجب أن نعلم أنَّ مجيء الإسلام قد أفادهم بشرفه واستعلاء مكانه عوائد ثلاث:

إحداها: إفادة السلامة عن التسخير للعبوديَّة، وإزالة الحجر عنهم في التطلب للرفعة، إذ قيل لهم: «إن الناس كلهم لآدم، وآدم من تراب»[(١)] و ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[(٢)]، «والمسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمَّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»[(٣)].

الثانية: الهداية للحكمة الإلهية، وتحقيق مبادئها بالأدلة، ليقتنوا باقتباسها والتوسع في معالمها فضيلة روحانية، وغبطة نفسانيَّة، فتجلَّ بها مراتبهم عند الخلق، ويبقى لهم الذكرُ في العواقب.

الثالثة: فتح الطريق لهم إلى التفيُّؤ بظل هذه الدولة الميمونة، وقصد الأمم المصاقبة لهم باستخلاصها على شرائط الجهاد، ليعمروا بلادهم بما يفيدونه من الفيء، وينقلوا ذراريهم إلى أكناف ديارهم، فيأخذونهم بالآداب الحسنة، ويروضونهم على الأخلاق الحميدة، حتى إذا استحكمت دربتهم فيها، واستولت مِرَّاتهم عليها، منُّوا عليهم بالإعتاق، وأكرموهم بالإفضال، فيصيرون بذلك قائلين على الدوام: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٤)]، فهذه هي عوائد جيل العجم في أيام هذا الدين)[(٥)].

---

(١) سبق تخريجه: ص ٤٨٥ - ٤٨٦، (البحث نفسه).

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٣) سبق تخريجه: ص ٥٣٠، (البحث نفسه).

(٤) سورة الحشر: الآية (١٠).

(٥) كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٧٤ - ١٧٧، (مرجع سابق). وانظر: أبو الحسن=

ج - وأمَّا إيجابيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة الخيِّرَة على العالم، فإنَّها من المسلمات التاريخيَّة لدى كثير من الباحثين المحققين، والمفكرين المنصفين، وقد تمثلت في مظاهر عدَّة من أبرزها:

أولاً: الإقبال على العلم والمعرفة، فتعلم المسلمون (القراءة والكتابة، لينشروا دينهم ولغتهم، وتعلموا لغات أعدائهم، ليأمنوا مكرهم وشرهم، وبحثوا عن أيِّ علم يفيدهم وينفعهم؛ لأنَّهم يعلمون أن هذا جهاد في سبيل البشرية كالجهاد بالسيف لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، (حيث يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء يوم القيامة)[1]، ومن هنا انطلق المسلمون يبحثون عن تراث الأقدمين، وعن علمهم في الأمم اللاهيَّة، التي لم تستطع الاستفادة أو الإفادة منه، ويجب أن يعلم أن العلوم التي اتصل بها المسلمون واستفادوا منها، كانت بعيدة عن العقائد والعبادات وعلوم الشريعة؛ لأنَّ هذه كانت لها مصادرها الموثوقة عند المسلمين، التي لاتقبل الإضافة أو التبديل أو التغيير، وإنَّما هي العلوم التي تدخل تحت قول الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[2]،

=الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ٨٧ - ٩٠، وقبلها: ص ٥٣ - ٥٧، ٥٨ - ٦٣، (المرجع السابق).

(١) ورد في ذلك حديث عن أبي الدرداء؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوزن يوم القيامة مِدَاد العلماء ودم الشهداء»، وبقيته: «فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»، والبقية من حديث أنس وغيره، ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١/١٥٠، ١٥١، ورقمه [١٥٢]، بتحقيق: أبي الأشبال الزهيري، (مرجع سابق). وفي تخريجه للحديث قال: (ضعيف جدًّا)، ونقل عن بعض علماء الحديث قوله أنَّه موضوع.

(٢) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٤/١٨٣٦، الحديث رقم [٢٣٦٣]، كتاب الفضائل، باب [٣٨]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (مرجع سابق).

وانطلق المسلمون يأخذون كل مفيد، ويتعلمون كل نافع، فترجموا كتب الأقدمين في الطب والهندسة، والكيمياء، والفلك، والحكمة والجغرافيا، والحيوان، والنباتات، وكانت معرفتهم معرفة تمحيص وليست معرفة تبعيَّة أو تقليد)[1]، وسلكوا في أخذها والعلم بها منهجًا علميًّا يعتمد على الانتقاء والتجربة والتمحيص، وإعمال العقل والفكر، متأثرين في ذلك المنهج بما جاء به الإسلام من رؤية للكون والحياة والإنسان، فكانت حركتهم العلميَّة في هذا المضمار حركة إيجابيَّة أفادت منها البشريَّة، ولعل المنهج التجريبي الذي شقَّ طريقه إلى الغرب وأسهم في قيام الحضارة الحديثة، والنهضة الأوروبيَّة، يعد من فضائل الأُمَّة الإسلاميَّة على العالم، وهذا ما يعترف به المنصفون من مؤرخي الغرب ومفكريه.

يقول (جوليفة كستلو) Jolivet Castelot في كتابه (قانون التاريخ) Lal oli de l Histoire.(كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول عظيمًا، جرى على أسرع ما يكون، وكان الزمان مستعدًّا لانتشار الإسلام، فنشأت المدنيَّة الإسلاميَّة باهرة، قامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب، ظهر أثره في الفنون والآداب، والشعر والعلوم، وقبض العرب بأيديهم خلال عِدَّة قرون، مشعل النور العقلي، وتمثلوا جميع المعارف البشريَّة التي لها مساس بالفلسفة، والفلك، والكيمياء والطب، والعلوم الروحيَّة، فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين، لا بالمعنى المعروف، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة للغاية)[2].

---

(١) توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٣٨٣، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ٢/٥٤٣، ٥٤٤، الطبعة الثانية،=

ويواصل قوله عن فضل الأُمَّة الإسلاميَّة على أوروبا في مجال العلم والمعرفة فيقول: (وإنَّ أوروبا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، وعنها أخذت...، وأوروبا تدين بالهواء النافع الذي تمتعت به في تلك العصور للأفكار العربية، وقد انقضت أربعة قرون ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق)(١).

ويصحح (غوستاف لوبون) الخطأ الذي ارتكب في التاريخ الحضاري عندما ينسب المنهج التجريبي إلى (باكون Francis Bacon) فيقول: (ينسب الناس إلى «باكون» قاعدة التجربة والملاحظة والمنطق الاستقرائي، وهما الأصل في أساس البحث العلمي الحديث، بيد أن الواجب أن يُعْتَرف اليوم أنَّ هذه الطريقة كلها هي من مبتدعات العرب)(٢).

ومِمَّا ينبغي الإشارة إليه في هذا الصدد أن الأُمَّة الإسلاميَّة كانت

=١٩٥٠م، عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، وانظر: أبو الحسن الندوي: الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية: ص ١٠٣، ١٠٤، (مرجع سابق).

(١) المرجع السابق نفسه، وانظر: أبو الحسن: المرجع السابق نفسه: ص ١٠٤.

(٢) نقلاً عن محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية: ٢٠٢/٢، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: أبو الحسن الندوي: الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية: ص ١٠٤، ١٠٥، (المرجع السابق). وانظر: محمد الرابع الحسني الندوي: الثقافة الإسلاميَّة والواقع المعاصر: ص ٤٤ - ٤٦، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، عن دار الصحوة - القاهرة، ولمزيد الاطلاع على أثر الإسلام وعلومه وحضارته في نشوء الحضارة الغربية وارتقائها؛ انظر: محمد شريف: الفكر الإسلامي، منابعه وآثاره: ص ٦٧ - ٨٨، ٩٩ - ١٣٦، ترجمة: أحمد شلبي، (مرجع سابق).

ملتزمة في تلك المعارف والعلوم إلى حدٍّ كبير بمبادئ الإسلام وقيمه وضوابطه الأخلاقيَّة، أمَّا مفكروا الغرب فقد انطلقوا بالعلوم والمعارف التي اقتبسوها من الأُمَّة الإسلاميَّة وتتلمذوا في بداية الأمر على علماء الأُمَّة الإسلاميَّة؛ انطلقوا بتلك المعارف والعلوم نحو (نظريات غير ملتزمة بالأخلاق الإنسانية في بعض جوانبها، ومتعارضة معها في بعضها الآخر)[1]، مِمَّا كان له الأثر البالغ على الإنسانية، فبقدر ما نالت من معطيات العلم ومكتشفاته، شقيت بتلك النظريات غير الملتزمة بالمبادئ الدينيَّة والأخلاقية، وما حملت مِن الشرور والمخاوف، التي لم تكن لتحدث لو أنَّ التطور العلمي سار وفقًا للمنهج الإسلامي الملتزم بالأخلاق والمبادئ والقيم.

ثانيًا: ومن مظاهر إيجابيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة الخيِّرَة على العالم، ما اضطلعت به من إنقاذ الناس من فساد المعتقدات، وظلم بعضهم لبعضهم الآخر، ورد المسار البشري العام إلى صراط الله المستقيم، والإسهام في إصلاح أوضاع البشريَّة وإرشادها، والنهوض بها في مجال الأخلاق والاجتماع وفي المجال الحضاري بعامَّة، وقد ظهرت آثار تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة وإيجابياته الخيِّرَة في جميع هذه المجالات.

كتب أبو الحسن الندوي؛ تحت عنوان (عشر معطيات هامَّة ومنح أساسيَّة)[2]: (إذا كان لابُدَّ من تحديد جوانب ومجالات في حياة الأمم والشعوب والحضارة، ظهرت فيها التأثيرات الإسلاميَّة في أجلى أشكالها،

---

(١) انظر: محمد الرابع الحسني الندوي: المرجع السابق نفسه: ص ٤٦.

(٢) انظر: الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية: ص ١٦ - ١٢٠، (مرجع سابق).
وانظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي: ص ١٧٤ - ٥٣٣، عن دار مصر للطباعة (بدون تاريخ).

نحددها - على سبيل الاختصار والاختيار - في عشرة من المعطيات الهامَّة والمنح الأساسية الغالية، التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النوع البشري وإصلاحه وإرشاده، ونهضته وازدهاره، والتي خلفت عالما مشرقا جديدًا لايشبه العالم الشاحب القديم في شيء، وهي كما يلي:

١- عقيدة التوحيد النقية الواضحة.
٢- مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية.
٣- إعلان كرامة الإنسان وسموه.
٤- رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها.
٥- محاربة اليأس والتشاؤم، وبعث الأمل والرجاء، والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان.
٦- الجمع بين الدين والدنيا، وتوحيد الصفوف المتنافرة والمعسكرات المتحاربة.
٧- إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم، وربط مصير أحدهما بالآخر، وتفخيم شأن العلم، والحث عليه، وتوجيهه إلى علم هادف نافع موصل إلى الله.
٨- استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينيَّة، والحث على النظر في الأنفس والآفاق.
٩- حمل الأُمَّة الإسلاميَّة على قبول مسؤولية الوصاية على العالم، والحسبة على الأخلاق، والاتجاهات، وسلوك الأفراد والأمم، وتحمل مسؤوليَّة القيام بالقسط والشهادة لله.
١٠- الوحدة العقائدية الحضارية العالميَّة)[1].

---

(١) الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية: ص ١٦- ١٧، (مرجع سابق). وانظر:=

ثُمَّ شرع المؤلف في شرح هذه المعطيات، في مقارنة لطيفة بين ماجاء به الإسلام وما كانت عليه الأمم من شرك ووثنيَّة، وتأثير الأُمَّة الإسلاميَّة على تلك الأمم في مجال التوحيد[1]، والأُخُوَّة الإسلاميَّة والإنسانية، وإقرار مبدأ المساواة البشرية، وأثره العالمي، كذلك إعلان كرامة الإنسان وسموه، وشرف الإنسانية وعلو قدرها، ورد الاعتبار للمرأة وإعطاؤها حقوقها وحظوظها والنظرة العادلة إليها من غير إفراط ولا تفريط، مع بيان ما كانت تعانيه في ظل العقائد والشرائع الأخرى من امتهان وحرمان، وبيَّن ما أحاق بالإنسان في ظل العقائد الفاسدة مثل العقائد القديمة في الهند التي دانت بعقيدة التناسخ وفلسفتها، والنصرانية وعقيدة الخطيئة والصلب والفداء والتثليث، ونحو ذلك من العقائد المنحرفة، حيث أصيب الإنسان تحت وطأتها باليأس من رحمة الله وبسوء الظن بفطرته الإنسانية السليمة، فجاء الإسلام ليعيد للإنسان ثقته بفطرته السليمة، ومواهبه الطبيعية، إذْ (أعلن النبي ﷺ بكل قوة وصراحة أن فطرة الإنسان هي كاللوح الصافي، الذي لم يكتب عليه بعد، ويُمكن أن ينقش فيه أروع نقش، ويحرر فيه أجمل تحرير، وأن الإنسان يستهل حياته بنفسه، ويستحق الثواب والعقاب والجنَّة والنار بعمله، وهو غير مسؤول عن عمل غيره، فقد ذكر القرآن في مواضع كثيرة أن الإنسان مسؤول عن عمله فحسب، وأنه مثاب

=أبو الحسن العامري: كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٦٣ – ١٦٩، (مرجع سابق).

وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٢٦٥ – ٣٢٧، (مرجع سابق).

(١) انظر: الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية: ص ١٨ – ٣٢، ٣٣، ٤١، ٤٧، ٥٥، ٧١ – ٧٣، (مرجع سابق).

ومشكور على سعيه: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[1] [2].

وتحدث عن إيجابيَّة أخرى اضطلعت بها الأُمَّة الإسلاميَّة على غير مثال سابق؛ إذ يقول: (إنَّ مِمَّا شهد به التاريخ الإنساني الطويل وعلم النفس والأخلاق، أن الغايات والتعاليم الفاضلة والنماذج العملية الرفيعة، لاتقوم - وإذا قامت لاتدوم - إلا إذا كانت وراءها جماعة من البشر - وبالأصح أُمَّة من الناس - تحمل دعوتها وترفع رايتها وتجاهد في سبيلها وتمثلها عمليًّا)[3].

وبعد أن يستعرض ما آلت إليه تعاليم بعض الرسل صلوات الله عليهم، وأنها لم تعش طويلاً لعدم وجود الأُمَّة التي تحمل تلك التعاليم وتمثلها في حياتها[4]، يؤكد خصيصة الأُمَّة الإسلاميَّة وإيجابية تميُّزها الخيِّرَة في هذا المضمار؛ حيث أخرج الله الأُمَّة الإسلاميَّة وربطها ببعثه محمد ﷺ لأنَّه آخر الأنبياء والمرسلين ورسالته الرسالة الخاتمة، (فكانت البعثة المحمديَّة بعثة مقرونة؛ بعثة نبي مرتبطة ببعثة أُمَّة، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يصف أمته بصفات لاتنطبق إلا على مبعوث - من غير نبوة - مأمور من الله فيقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[5]، ويقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ

---

(١) سورة النجم: الآيات (٣٨ - ٤١).

(٢) الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية: ص ٧١ - ٧٢، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٦.

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٠٦.

(٥) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾[1]، ... وجاء في الحديث... «إنَّما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[2]... وقد نيطت بهذه الأُمَّة مسؤولية الوصاية على العالم، والحسبة والأخلاق، والاتجاهات، وسلوك الأفراد والأمم، ومسؤولية القيام بالقسط والشهادة لله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتبار نفسها أُمَّة تسأل يوم القيامة عن مدى قيامها بهذا الواجب)[3].

ثالثاً: ومِمَّا اكتسبه العالم من الأُمَّة الإسلاميَّة خلق الرفق والرحمة والتسامح، بعد أن حرَّرَ أممه من القهر والظلم والطغيان، وقد تبين في نقطة سابقة ما ناله الشرق وبخاصَّة الفرس من الخير والعدل والإحسان إبَّان حكم الأُمَّة الإسلاميَّة لهم وانتشار الإسلام فيهم، والآن تحسن الإشارة إلى بعض ما نالته الشعوب المحرَّرة من ربقة الاستعباد الرومي والبيزنطي من إيجابيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة الخيِّرَة، في مجال التسامح الديني، على سبيل المثال فحسب، فمن المعروف: أنَّ تلك الشعوب كانت - كما قال أحد الباحثين - في حالة من (الذعر والقهر والعسف، والاضطهادات التي تعرضت لها... على أيدي الرومان، وطبقة رجال (الإكليروس)... في الشرق وفي أوروبا)[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري، ولفظه: « فإنَّما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» ٨٩/١، كتاب الوضوء، الباب [٥٧] رقم الحديث [٢١٧]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٣) الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية: ص ١٠٧، ١١٠، (مرجع سابق). وانظر: أبو الحسن العامري: كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٥١ - ١٦١، (مرجع سابق).

(٤) جلال مظهر: حضارة الإسلام: ص ٢٢١، ٢٢٧، (مرجع سابق).

وذكر أنَّ هذا الاضطهاد اصطبغ بقداسة دينيَّة، واستشهد على ذلك بمقولة (بولس): (باركوا على الذين يضطهدونكم باركوا ولاتلعنوا)[1]، وبلغ الأمر بهذه التعاليم ونحوها أن اعتنقها رجال الكنيسة ومن بعدهم رجال (الإكليروس)، وتمسك بها الملوك والإقطاعيون[2]، (وتعاونت طبقة رجال الدين مع الملوك والأمراء على إخضاع الجماهير وإذلالها، واستغلالها أبشع استغلال)[3].

وعندما سادت الأُمَّة الإسلاميَّة وسطع نورها على آفاق الدنيا بما فيها أوروبا (انتهت موجة الذعر والقهر والعسف والاضطهادات... وحلَّ محلها عصر جديد... من التسامح...، تلك الروح التي كانت هاديًا ومنارًا في عصور كثيرة للشعوب الأوروبية، والتي انبثقت منها روح التسامح في صورتها الحديثة، فالعرب كانوا في الحقيقة أول غزاة طبعوا حضارتهم بروحٍ من العدل والتسامح - النسبي - أثارت إعجاب الشعوب التي اختلطو بها)[4].

وقد شهد كثيرٌ من مؤرخي الغرب بعدل المسلمين وتسامحهم مع أصحاب الديانات الأخرى وفق ضوابط شرعيَّة من شأنها إعلاء كلمة الله، وإرساء قواعد العدل والخير والإحسان، وممن تحدث عن هذا الجانب المؤرخ (ول ديورانت) إذ قال: (كان أهل الذِّمَّة المسيحيون، والزردشتيون، واليهود، والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأمويَّة

---

(١) رسالة (بولس) إلى أهل روميَّة ١٤/١٢؛ نقلاً عن جلال مظهر: حضارة الإسلام: ص ٢٢٧، (مرجع سابق).

(٢) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام: ص ٢٢٧، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٢٢٧.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٢٢١، ٢٢٣.

بدرجة من التسامح لانجد نظيرًا لها في المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم... وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم)[1].

ويقول - أيضًا -: (وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون، أو بسبب هذه الخطة، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين، وجميع الزردشتيين والوثنيين إلا عددًا قليلاً جدًا منهم، وكثيرون من اليهود.... وحيث عجزت (الهلينية) عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي، في هذه الأقاليم كلها انتشرت فيها العقائد والعبادات الإسلامية، وآمن السكان بالدين الجديد، وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله؛ إخلاصًا واستمساكًا أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين وإلى مراكش والأندلس، وتملك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعها، وأوحى إليهم العزة والأنفة، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به في هذه الأيام (نحو ثلاثمائة وخمسين مليونًا) من الأنفس، يوحد هذا الدين بينهم، ويؤلف

---

(١) قصة الحضارة ١٣/١٣٠، ١٣١، ترجمة: محمد بدران، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤ م، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٢٨٦ (مرجع سابق).

قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسيَّة)[1].

يتضح من هذا وما سبق الحديث عنه فيما قبله أن خصيصة الإيجابيَّة الخيِّرَة إحدى خصائص تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة نال من خيرها ونفعها العرب في المقام الأول، ثُمَّ من جاورهم من الشعوب والأمم التي وصلها الفتح الإسلامي وانتشر فيها الإسلام، بل ونال من خيرها ونفعها العالم أجمع، وهي في ذلك كله موصولة بالله - عَزَّ وَجَلَّ - لأن هذه الإيجابيَّة الخيِّرَة جاءت ضمنًا؛ من خلال سير الأُمَّة الإسلاميَّة إلى ربها، إجابة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[2].

* * *

(١) قصة الحضارة ١٣/١٣٣، (المرجع السابق نفسه). وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٢٨٦، ٢٨٧، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة الإنسان: الآية (٩).

المطلب الثاني
موقف المستشرقين من خصيصة إيجابيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة

إذا كانت الأُمَّة الإسلاميَّة من خلال تميّزها قد شيدت صروح المجد والحضارة، وأسهمت في رقي البشرية، والنهوض بعزيمة الشعوب والأفراد، وبالعمل الصالح، والإصلاح الشامل، وما تنطوي عليه رسالة الإسلام من قيم إيجابيَّة خيِّرَة استظلت الإنسانية بها ردحًا من الزمن، وتدرجت بها في معارج العلم والمعرفة والنور، ودفعت بعجلة التنمية الشاملة أشواطا كبرى لم يشهد التاريخ لها مثيلا، رعاية لحقوق الإنسان، وحفاظا على مكانته، وإسعادًا له أنَّى كان، فإنَّ معظم المستشرقين - من خلال دراساتهم وأبحاثهم التي يروج لها بأنَّها علمية وتوصف بالنزاهة والمنهجية - قد درجوا على القول بأن الأمَّة الإسلاميَّة أُمَّة خاملة تفرض عليها قيمها الدينية - من خلال ما زعموا من الجبر في عقيدتها - واقعًا متخلفا تهبط معه الهمم، وتستسلم بسببه لأيٍّ مصير، ولاتحسن إلا الجمود والكسل والخمول والتهالك على الملذات الجسديَّة والدنيويَّة التي يفترون على الإسلام بأنَّه دعا إليها.

(فهذا «رينان» المستشرق الفرنسي يصور عقيدة التوحيد في الإسلام بأنَّها عقيدة تؤدي إلى حيرة المسلم، كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك، على حين أنَّ عقيدة التوحيد مزيَّة الإسلام، وآية على أنَّه الرسالة الكاملة الواضحة لخالق الكون في كونه، كما أنَّها الطريق السليم والوحيد إلى رفع شأن الإنسان وتكريمه؛ لأن صاحب هذه العقيدة لايخضع في حياته لغير الله، ولايتوجه في طلب

العون إلى غير الله سبحانه وتعالى)[1].

يقول (رينان) عن عقيدة القدر والاختيار: (المسائل الأساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر، والمغفرة، والحساب، وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينيَّة تلقي في النفس الاعتقاد بوعورة المسالك في تفهمها... وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان: إحداهما ربانية. والثانية بشرية، تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين، ولكن بتلطيف في التناقض... أمَّا الأولى (الديانة الربانية) - ويقصد بها النصرانية - ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية، على حين أن الديانة الثانية البشرية: وهي الإسلام المشوية بتأثير مذهب الساميَّة، تنحط بالإنسان إلى أسفل درك، وترفع الإله عنه في علاء لا نهاية له)[2].

ويقول عن العقل الباطن في ظل الإسلام، وعن عقلية الأُمَّة المسلمة: (إنَّ الدين الإسلامي أخر العقل البشري، وحجبه عن التأمل في حقائق الأشياء بنفوذ زاد مفعول تأثيره عن الأديان الأُخرى حتى جعل بعض البلاد التي انتشر فيها كميدان لايعبر البحث عن حقائق الأشياء الذي به يتسع العقل، وزد على ذلك أن عقول أهل هذه البلاد قاصرة من نفسها، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم،

---

(١) محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٥٣، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن: محمد البهي: المرجع السابق نفسه: ص ٥٣، ٥٤، ٥٥، وانظر: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربيَّة: ١٦/١، ١٧، ٢١، (مرجع سابق)، وقد ذكر أن سبب تحامل (رينان) على الإسلام والمسلمين خصومةٌ وقعت بينه وبين أهل جزيرة (أرواد) حين زارها فهجا أهل الجزيرة بأسرهم بل الشاميين بأجمعهم بل المسلمين عامَّة، انظر: المرجع نفسه: ١٥/١، ١٦.

واعتقاده أن البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه)[١].

وقبل هذا قال عن عقول المسلمين: (كل من ذهب معنا إلى المشرق أو إلى إفريقيا رأى أنَّ عقولهم بلغت من الحمق غايته حتى كأنَّ دينهم صار كنانا على قلوبهم فحجبها عن أن تعي شيئًا من العلوم والأفكار الجديدة، فلاترى إلا القليل من أولادهم من تشاهد فيه النباهة، لكن إذا بلغ العشر أو الاثنتي عشرة سنة وتعلم العقائد صار متعصبًا في الدين وأخذ يختال حمقًا على غيره ظانًّا أنَّ هذا هو الحق فيعد نفسه سعيدًا بما اختصه مِمَّا هو في الحقيقة سببًا لانحطاطه)[٢].

ولهذا المستشرق (رينان) أقوال كثيرة تحامل فيها على الإسلام وعلى الأمة الإسلاميَّة وحاول أن يحجب بأقواله هذه إيجابيتها الخيِّرة التي شهد بها المنصفون من أبناء جنسه وكتبوا فيها كتابات مشهورة، وقد يصعب الرد التفصيلي على ما ورد في أقواله من أفكار واتهامات التي إن صدقت على بعض البيئات الإسلاميَّة أو على بعض الفئات أو بعض المراحل التاريخيَّة في حياة الأُمَّة الإسلاميَّة فإنَّها لاتصدق على الإسلام بحال من حيث العقيدة والتشريع والأخلاق والنظام، وهي تتنافى مع تميز الأُمَّة الإسلاميَّة وما اختصَّ به من إيجابية خيِّرة أثبتها التاريخ وسطرتها الأقلام المنصفة، وسيرد بعد قليل ما يوضح ذلك، ويُمكن أن يشار هنا بيانًا لموقف (رينان) وأمثاله إلى ما ذكره

---

(١) نقلاً عن: عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة: ص ١٥٨، (مرجع سابق)، وانظر: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربيَّة: ١٧/١، (المرجع السابق نفسه).

(٢) نقلاً عن عفاف صبرة: المرجع السابق نفسه: ص ١٥٧، وانظر: عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني: افتراءات المستشرقين على الإسلام (عرض... ونقد): ص ٣٩ - ٤٣ وص ٩٥ - ٩٨، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م، مكتبة وهبة - مصر.

(غوستاف لبون) في مؤلفه (حضارة العرب) عن غالبيَّة المستشرقين حينما يكتبون عن الإسلام وتاريخ أُمَّته فكان مِمَّا قال: (نجد المقابلة مدهشة بين الإسلام وسائر المعتقدات التي تزعم مع هذا أنها أسمى منه... ورُبَّما تساءل القارئ: لماذا غمط اليوم حق العرب وتأثيرهم، وأنكر حسناتهم علماء عرفوا باستقلال أفكارهم، وكانوا بحسب الظاهر بمعزل عن الأوهام الدينيَّة ؟، وهذا السؤال قد سألته نفسي، وأرى أن الجواب عليه غير ما أنا كاتب ذلك أن استقلال آرائنا هو في الواقع صوري أكثر مِمَّا هو حقيقي؛ ونحن لسنا أحرارًا على ما نريد في خوض بعض الموضوعات، وهذا لأن فينا أحد رجلين: الرجل الحديث الذي صاغته دروس التهذيب، وعملت البيئة الأدبية والمعنويَّة في تنشئته، والرجل القديم المجبول على الزمن بخميرة الأجداد، وبروح لايعرف قراره يتألف من ماضٍ طويل؛ وهذا الروح اللاشعوري هو وحده الذي ينطق في معظم الرجال، ويبدو في أنفسهم بمظاهر مختلفة، يؤيد فيهم المعتقدات التي اعتقدوها، ويملي عليهم آراءهم، وتظهر هذه الآراء بالغة حدًّا عظيمًا من الحريَّة في الظاهر فتحترم)[1].

ويواصل قوله: (لاجرم أن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم في عهد شارل مارتيل، وفي الحروب الصليبية، وبعد استيلائهم على الاستانة، يذلوننا بمدنيتهم الساميَّة الساحقة، وإلى أمس الدابر لم ننج من تأثيراتهم، ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا، والنقمة

---

(١) حضارة العرب: D.Le Bon: La Divilisation dee Arabes نقلاً عن: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربيَّة: ١/٨، ٩، (مرجع سابق).

على الإسلام وأشياعه في عدة قرون، حتى أصبحت جزءًا من نظامنا، وكانت هذه الأوهام طبيعة متأصلة فينا، كالبغض الدوي المستتر أبدًا في أعماق قلوب النصارى لليهود،.. وإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة في إنكار فضل المسلمين هذا الوهم الموروث أيضًا النامي في كل جيل، بفعل تربيتنا المدرسية المقوتة، ودعوانا أن جميع العلوم والآداب الماضية أتتنا من اليونان واللاتين فقط، ندرك على أيسر سبيل أن تأثير العرب البليغ في تاريخ مدنية أوروبا قد عم تجاهله)[(١)].

ويؤكد (لوبون) (أنّه كان للمدنية الإسلاميَّة تأثير عظيم في العالم، وتم لها هذا التأثير بفضل العرب، بل بصنع العناصر المختلفة التي دانت بالإسلام، وبنفوذهم الأدبي هذبوا الشعوب البربرية التي قضت على الامبراطورية الرومانية، وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوروبا عالم المعارف العلميَّة والأدبيَّة والفلسفية، وهذا ما كانت تجهله، وعلى ذلك كان العرب ممدّنينا وأساتذتنا مدّة ستمائة سنة)[(٢)].

وكان ثمة رد آخر خص به (غوستاف لوبون) المستشرقون (إرنست رينان) مفندًا زعمه أن الإسلام كان يقيم عائقًا حيال تقدم العلوم ؛ ففي محاضرة ألقاها (رينان) في (السوربون) في ٢٩ آذار (مارس) ١٨٨٢م، وضمنها فيما بعد كتابه: (الإسلام والعلم، المطبوع في باريس سنة ١٨٨٣ م أراد إثبات مناقضة الإسلام للعلوم، ولكنه لم يستطع أن ينكر ما اتفق للعلوم من ازدهار في البلدان الإسلاميَّة في قرون كثيرة، وبما كان لمفكري الإسلام من نفوذ دائم مارسوه في أوروبا في القرون

---

(١) المرجع السابق نفسه: ١/٩.

(٢) المرجع السابق نفسه: ١/٩.

الوسطى، ولكنه عزا ذلك التقدم والنفوذ إلى تقصير البزنطيين في حفظ التراث العلمي، وإهمالهم له بباعث من تدينهم القائم على الجهل، فحالوا بذلك دون نفوذ الحضارة القديمة التي كانوا مؤتمنين عليها في الغرب مباشرة. ولو كانوا حفظة على هذه الحضارة علمًا بها وفهمًا لها وحرصًا على الاستفادة منها؛ لما كان هنالك اضطرار إلى تلك (الدورة العربيَّة) التي وصل العلم اليوناني بها إلينا في القرن الثاني عشر مارًا من سورية وبغداد وقرطبة وطليطلة.

وكان مِمَّا رد به (غوستاف لوبون) على رينان قوله: (أراد مسيو رينان أن يثبت - في محاضرته - عجز العرب ولكن ترهاته كانت تنقض بما يجيء في الصفحة التي تليها.

فبعد أن قال مثلاً: إن تقدم العلوم مدين للعرب وحدهم مدة ستمائة سنة؛ عاد فزعم أن الإسلام اضطهد العلم والفلسفة، وقضى على الروح في البلاد التي دانت له....)[1].

ويرى بعض المستشرقين بأنّ الأُمَّة الإسلاميَّة بحكم سلبيتها ورجعيتها لاتصلح إلاّ أن تقاد، وقد كان الاستشراق وراء نشر هذا المبدأ الاستعماري، وفرض التبعيَّة للحضارة الغربية عليها يقول (جيب): (إنَّ العالم الإسلامي له حق الاختيار في تحديد طبيعته في الحياة ولكن بعد أن يتابع الفكر الغربي، ويخضع لقوانينه الوضعية)[2].

---

(١) انظر: حيدر بامَّات، مجالي الإسلام، ترجمة: عادل زعيتر: ص ٧٥ - ٧٧، نشر دار إحياء الكتب العربيَّة، القاهرة، ١٩٥٦ م.

(٢) نقلاً عن عابد السفياني: أهميَّة أصول المعرفة في الإسلام، حاشية الصفحة [٣٥] من مجلة (البيان) العدد [١٧] شعبان ١٤٠٩ هـ.

وانظر: حلمي ساري: المعرفة الاستشراقية: ص ١٩٤، ١٩٥، (مرجع سابق)، أورد فيها كثيرًا=

وحيث إن من المستشرقين من تصدى للكتابة عن إيجابية الأُمَّة الإسلاميَّة وأبرز جوانب الريادة والسيادة فيها وأنصف تاريخها في الإسهام الحضاري ونشر العلم والمعرفة وتنمية الحياة البشرية على خير وجه، فقد جاءت مثل هذه الكتابات ردًا مفحمًا - باستخدام المناهج الاستشراقية نفسها - على المتحاملين على الإسلام وأمجاده وتاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة وحضارتها ويذكر هنا نموذجان[1] - فقط - من المؤلفات التي عالجت هذا الجانب:

=من آراء المستشرقين التي تدور حول تبرير استعمار العالم الإسلامي حيث يدعو أحدهم بريطانيا إلى القيام بمهمتها الحضارية الضرورية الرامية إلى تثقيف ذلك العالم المتوحش.

انظر: ص ١٩٤، وفي ص ١٩٥ وصف الكاتب مبررات (كرومر) إزاء مطالب المصريين بالاستقلال (بأن الشرقيين لايعرفون مصالحهم الحقيقية التي يعرفها الغربيون نيابة عنهم وبطريقة أفضل)، وعلى نحوٍ من هذا الادعاء نجد نفرٌ من المستشرقين الاستعمار ورأى فيه هدفًا جليلاً شريفًا، إذ كان غرضه تنمية الإمكانات الاقتصادية واستغلال الموارد الطبيعية في البلدان الإسلاميَّة (وأن المسلمين غير مؤهلين لأن يستغلوا خيرات بلدانهم، وأن الوصاية عليهم وحدها كفيلة بالنهوض بهم). انظر: عبدالوهاب أبو حدبية: الحياة الاجتماعية في الإسلام كما صورها بعض المستشرقين (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلاميَّة): ١٥٧/٢، ١٥٨، (مرجع سابق).

(١) لمزيد من الاطلاع على إيجابية الأُمَّة الإسلاميَّة وتفسيرها ونقد آراء المستشرقين التي تعمل على نفي هذه الخصيصة، انظر:

- عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني: افتراءات المستشرقين على الإسلام (عرض ونقد): ص ٣٩ - ٤٣، (مرجع سابق).
- مصطفى الشكعة: مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلاميَّة في الأندلس (كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية)،: ٢٧٣/٢ - ٣٤٣، (مرجع سابق).

النموذج الأول:

كتاب شمس العرب تسطع على الغرب[1] لمؤلفته (زيغريد هونكة)، وقد حاز هذا الكتاب شهرة واسعة ما بين مادح له وقادح فيه؛ حيث انبرى عددٌ من النقاد الأوروبيين لمهاجمة المؤلفة وكتابها واتهامها بالتعصب للعرب والتحيز لهم، وفي مقابل ذلك انبرى آخرون للدفاع عنها وتأييد ما توصلت إليه من نتائج، وقررته من ثناء على الحضارة العربية.

بينت المؤلفة في مقدمة كتابها: أنها تود: إنصاف الحضارة العربية بعد أن تعرضت لظلم الدراسين الغربيين، وأن أقصى ما اعترفوا به: (أنَّ العرب نقلوا كنوز القدامى إلى بلاد الغرب)[2]، ورأت أنَّ هذه المقولة لاتعدو أن تجعل للعرب في الواقع دور (ساعي البريد فقط)، وأنها تقلل من قدر دورهم الحضاري وتطمس الكثير من حقائق تاريخهم.

والحقيقة كما تقول المؤلفة: (أنَّ هذا الشعب رائدٌ لغيرِه من الشعوب في أنحاء الدنيا في غضون سبعمائة وخمسين عامًا وحاملاً مشعل الثقافة ردحًا جاوز عصر الإغريق الذهبي بضعفيه أكثر من أي شعب آخر، كما بينت (فضل الحضارة العربية على الإنسانية، وتميزها عن الحضارات السابقة بعدد من الصفات النبيلة)[3]، وأوضحت: (مدى تأثُّرِ الحضارة الغربية بالحضارة العربية، ودورها في حفظ التراث الحضاري للإنسانية جمعاء، وإبداع العلماء في ظل هذه الحضارة في تصحيح عددٍ كبير من

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوروبة) ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، الطبعة الثامنة؛ ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م، عن دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة - بيروت.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٦٢.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١١ - ١٤.

المفاهيم الثقافية والحضارية، وما أضافوا من إنجازات مهمَّة في خدمة الإنسانية، ظلت تُدَرَّس في أوروبا إلى عهد قريب...)[1].

ومِمَّا عنت به كذلك دراسة المراكز العلمية للاتصال بين الحضارتين مثل الأندلس وصقلية والبندقية وجنوب فرنسا وإيطاليا، وكذا الأحداث التاريخية التي سببت الاحتكاك الحضاري وبخاصة الحروب الصليبية[2].

كما استشهدت بعدد من الدارسين الغربيين على يد العرب.. كما فصَّلت القول في أثر الحضارة العربية في تقدم كثير من المعارف والعلوم، وعرضت لأسماء بارزة من العلماء المسلمين، وما ابتكروه في شتى العلوم والمعارف.

وخصت الأندلس بقسم مستقل قارنت فيه بين ما كانت عليه الأندلس في ظلِّ الحضارة العربية من نهضة علميَّة وأدبية وفنيَّة وبين ما كانت عليه أوروبا من جهالة مطبقة[3]، وأوضحت أن العرب: (حولوا الأندلس في مائتي عام حكموها من بلد جدب فقير مستعبد إلى بلد عظيم مثقف مهذب يقدس العلم والفنّ والأدب، قدَّم لأوروبا سبل الحضارة وقادها في طريق النور)[4].

وفي تصوير مظاهر الحضارة العربية الإسلاميَّة في الأندلس، وتأثيرها الكبير على الحضارة الغربية، أشارت إلى:

---

(١) انظر: شمس العرب تسطع على الغرب: ص ١٧ – ٥٥، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٥٤، ٥٥ وص ٤٨٥.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٤٦٥ – ٥٢٤.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٥٤١.

١ – نقل بعض أنماط الحضارة الغربية عن العرب؛ (كالزخرفة المحببَّة إلى النفوس، التي ألقت أضواء باهرة جميلة على ذلك العالم الرتيب الذي كان يومًا من الأيام قاتِمًا كالحًا باهتًا)[(١)].

٢ – نقل كثيرٍ من الكلمات العربيَّة إلى بعض اللغات الأوروبية[(٢)]، وكذا نقل الأرقام العربية التي تعلمتها كل الأمم المتحضرة من العرب، (ولولا تلك الأرقام لما وُجِدَ هذا الصرح الشامخ من علوم الرياضة والطبيعة والفلك بل لما وجدت الطائرات التي تسبق الصوت، أو صواريخ الفضاء. لقد كرمنا هذه الشعب الذي منَّ علينا بذلك الفضل الذي لايقدر، حين أطلقنا على أرقام الأعداد عندنا اسم الأرقام العربية)[(٣)].

٣ – هدية هارون الرشيد لشارلمان ذلك الرمز الحضاري الذي يدل على مهارات العرب في اختراع الساعات، وقد وصف مؤرخ القيصر (شارلمان) تلك الساعة بقوله: (نحن مازلنا حتى يومنا هذا نقف فاغري الأفواه دهشةً وإعجابًا كلّما رأينا ساعة كبيرة في مبنى البلدية، وما يرافق دقاتها من ظهور شخوص صغيرة متحركة، تذكرنا بما فعله العرب، في الماضي البعيد، حبًّا بالألعاب الميكانيكية وولعًا بها)[(٤)].

وفي الكلام عن تأثير الأُمَّة الإسلاميَّة في المسار الحضاري وما أسهمت به من ثقافة وعلم ومعرفة تأكيد على خصيصة من خصائص تميزها هي خصيصة الإيجابية الخيِّرة.

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٠.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ١٧ – ١٩.

(٣) انظر: شمس العرب تسطع على الغرب: ص ٦٨، (المرجع السابق نفسه).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٤٢.

النموذج الثاني:

كتاب (فضل الإسلام على الحضارة الغربية) الذي نقله إلى العربية حسين أحمد أمين، وهو - أصلاً - بعنوان (تأثير الإسلام في أوروبا خلال العصر الوسيط) من تأليف المستشرق مونتغمري وات[(١)].

انطلق مؤلف هذا الكتاب من الرغبة في إنصاف الإسلام والاعتراف للأُمَّة الإسلاميَّة بتأثيرها في شتى مجالات المعرفة وميادين الحياة، وما أسهمت به في تاريخ البشريَّة العام وأفادت منه الحضارة الغربية.

يقول المؤلف في هذا الصدد: (إنَّه من أهمِ واجباتنا معشر الأوروبيين الغربيين، والعالم في سبيله أن يصبحِ عالمًا واحدًا، أنْ نصحح هذه المفاهيم الخاطئة.. وأن نعترف اعترافا كاملا بالدين الذي ندين به للعالم العربي والإسلامي)[(٢)].

وفي منحى المؤلف من حيث إبراز جوانب التأثير للثقافة العربية الإسلاميَّة على الحضارة الغربية ما يدل دلالة واضحة على خصيصة إيجابيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة؛ وتتمثل هذه الدلالة في الإسهام الحضاري الذي نالت من خيره البشرية واستظلت بظل الحضارة الإسلاميَّة ردحًا من الزمن.

ويتكون هذا الكتاب من ستة فصول، تحدث فيها المؤلف عن المسلمين

---

(١) صدر عن مطبعة جامعة (أدنبرة) بإسكوتلندا، عام ١٩٧٢ م، وهو مجموع محاضرات ألقاها (مونتغمري وات) في الكوليج دوفرانس عام ١٩٧٠ م، وصدرت طبعته الأولى بالعربية عام ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، عن مكتبة مدبولي - القاهرة، وتوجد له ترجمة أخرى قام بها: جابر أبي جابر وجعلها بعنوان: أثر الحضارة العربية الإسلاميَّة على أوروبا، من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بسوريا - دمشق، ١٩٨١ م.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١٤.

في أوروبا، ومواجهة الغرب لهم، وذيله بقائمة تشتمل على كلمات إنجليزية اشتُقّت من أصل عربي...، وفيما ورد في بحث المؤلف من أفكار تتصل بإيجابيَّة الأُمَّة الإسلاميَّة مايدفع بعض الشبهات المناقضة لذلك؛ كما أثارها كثيرٌ من المستشرقين الغربيين في مجمل إنتاجهم الفكري، ومن أبرز ما تناوله المؤلف في كتابه بعنوان: (المسلمون في أوروبا) وساق حديثه في نقاط عدَّة منها:

١ - كلامه عن كثرة المؤلفات الاستشراقية التي تناولت الأوجه المختلفة لتأثير العالم الإسلامي في أوروبا خلال العصر الوسيط، ويرى أنها تفقد النظرة الشاملة إلى ذلك التأثير، ويبين أنَّه لم يعثر فيها على محاولة واحدة تتسم بالشمول وتقوم أهمية الإسهام الإسلامي في الحضارة الأوروبية[١].

ثُمَّ أوضح أنَّه لاينظر (إلى المسلمين باعتبارهم دخلاء على القارة الأوروبية - كما قد يفعل بعض مؤرخي أوروبا - وإنَّما باعتبارهم ممثلين لحضارة ذات إنجازات عظيمة تدين لها بالفضل رقعة كبيرة من سطح الأرض، ثُمَّ فاضت ثمار هذه الإنجازات على رقعة أرض مجاورة)[٢].

٢ - في نظرته لاحتكاك المسلمين بالغرب في أسبانيا عسكريًّا يشير إلى مراحل قوة الدولة الإسلاميَّة في أسبانيا ومراحل ضعفها وما صاحب ذلك من تأثيرات إيجابية في الحضارة الغربية.

ويذكر أنَّ: (مملكة غرناطة الصغيرة التي كانت تحكمها أسرة النصريين قد حققت إنجازات رائعة في ميدان الأدب العربي وخلفت في

---

(١) انظر: فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ٧، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٧.

ميدان المعمار أثرًا من أعظم ما شهدته أسبانيا الإسلاميَّة ألا وهو قصر الحمراء)[1].

٣ - تحدث عن الجانب العسكري إبَّان وجود المسلمين في صقلية وإيطاليا وأنَّه على الرغم من وضع حد دائم لاحتلال المسلمين إيطاليا، وأنهم أخرجوا منها ثُمَّ خرجوا أيضًا من صقلية فإنَّ الطابع الإسلامي في مظاهر حياة بعض حكام الجزيرة التالين كان أقوى من الطابع المسيحي[2].

٤ - تحت عنوان: الدوافع وراء التوسع العربي؛ يتحدث (مونتغمري وات) عن الجهاد فيرد على فرية انتشار الإسلام بالسيف، ويحاول إنصاف المسلمين في هذه القضية إلاَّ أنَّه يدس بشكل خفي في كلامه عن هدف الجهاد عند المسلمين، إذ يقول: (رُبَّمَا كان القصد من الآيات القرآنية التي تحث على القتال في سبيل الله أو الجهاد في سبيل الله هو حض الآخرين على الانضمام إلى هذه الغزوات)[3].

ويقول أيضًا: (إنَّه إذ نَمت قوة النبي وعظمت سلطته، وتطلعت قبائل كثيرة وجماعات أصغر إلى التحالف معه، اشترط على هؤلاء اعتناق الإسلام والشهادة أنَّه نبي مرسل)[4].

ولاشك أنَّ أهداف الجهاد في الإسلام أجل وأسمى مِمَّا ذكره (مونتغمري وات)[5]، كذلك الإيمان بنبوة محمد ﷺ وأنَّه مرسل إلى

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١١.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٣.

(٣) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١٤، (المرجع السابق نفسه).

(٤) المرجع السابق: ص ١٤.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ١٤، ١٥.

الثقلين من أسس الدخول في الإسلام، ولكن (مونتغمري وات) لايؤمن برسالة الرسول ﷺ ولا بنبوته[1].

وعلى الرغم مِمَّا في كلامه من دس مردود فإنَّه يؤكد (أنَّ تأثير العالم الإسلامي في أوروبا الغربية جاء بصورة أساسية من خلال أسبانيا، ثُمَّ بدرجة أقل من خلال صقليَّة)[2].

٥ - يفرق في كلامه عن الفتوحات الإسلاميَّة والغزوات الهمجيَّة التي كان يقوم بها الألمان والسلافيون والمجريون والاسكندنافيون، موضحًا ما بينهما من فروق، ومقررًا أنَّ الواجب يقضي برفض أيّ ميل إلى تشبيه العرب بأولئك الآخرين[3]؛ لأنَّ العرب أصحاب (أعظم حضارة وثقافة في تلك المنطقة الشاسعة ما بين المحيط الأطلسي وأفغانستان، وإننا لنجد شيئًا لايكاد العقل يصدقه، وبالتالي فهو يخلب اللب حين (نرى) كيف تحولت الحضارات القديمة إلى حضارة إسلامية)[4].

وفي مقارنة لطيفة بين الحضارة اليونانية والحضارة الإسلاميَّة، حيث أوقعت الأولى (فاتحها القوي في أسرها)[5] على حين أنَّ العرب نشروا لغتهم وبعض مناحي تفكيرهم على معظم الشعوب التي دانت لهم على الرغم من أنَّهم (كانوا على مستوى حضاري وثقافي أعلى من مستوى الفاتحين)[6] وخرج من هذه المقارنة معترفًا بذلك التميُّز للأمَّة

---

(١) انظر: ص ٦٤١ (البحث نفسه).

(٢) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١٨، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٩.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٩.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ٢٠.

(٦) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ٢٠، (المرجع السابق نفسه).

الإسلاميَّة، وأنَّ هذا التميُّز هو السر في إيجابيتها الحضارية.

وعلى الرغم مِمَّا يرد في بحثه من أخطاء فقد أشاد بالثقافة الإسلاميَّة، وتحدث عن أصالتها وعن إسهام (العلماء والكتاب في أسبانيا الإسلاميَّة مساهمة جليلة في إثراء الأدب والعلم العربيين، وتلك إذن هي الثقافة التي قدر لأسبانيا أن تعرفها وتنهل منها بعد فتح العرب والبربر لها)(١).

٦ - تناول في موضوع آثار وجود المسلمين في أوروبا ما تحقق للأوروبيين من فنون الحياة الرغيدة في مختلف نواحي الحياة في أسبانيا في ظل الحضارة الإسلاميَّة سواء في الملبوسات أو المأكولات أو أساليب الأناقة والتجميل والنحت وتجليد الكتب ونحت العاج وأساليب البناء والزخرفة، والآنية وصناعة الخزف، ونحو ذلك(٢).

وما أدت إليه تلك الحضارة من قيام مدن لها مسميات ويحكمها النظام والإدارة والقانون، وأنَّ (ميادين الإدارة المحلية في أسبانيا الإسلاميَّة قائمة على أساس من الأفكار المستقاة من الشرق الأوسط حيث ورث العرب تراث آلاف من سني الخبرة في مجال حياة الحضر)(٣)، كما تحدث عن امتزاج الثقافات في أسبانيا في العصر الإسلامي مؤكدًا على أنها كانت تستلهم الإسلام بصفة أساسية واستشهد بشكوى (ألفارو) - وهو مسيحي من قرطبة برتبة (أسقف) (من أن شباب الطائفة المسيحية يجذبهم الشعر العربي لدرجة أنهم

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٣.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٦ - ٤١.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٤١.

أغفلوا دراسة اللغة اللاتينية، وأقبلوا على دراسة العربية)[١].

وعالج (مونتغمري وات) (إنجازات العرب في ميادين العلم والفلسفة)[٢] متسائلاً (إلى أيٍّ حد كان العرب مجرد نقلة لما اكتشفه اليونانيون ؟، وإلى أيٍّ حد بلغت إنجازاتهم المبتكرة ؟)[٣]، مشيرًا إلى تحيُّزِ كثير من المستشرقين في دراستهم، مؤكدًا أنَّ ذلك التحيز كان مرتبطًا بالصورة المشوهة عن الإسلام.

ويؤكد أن العرب ليسوا مجرد نقلة للفكر اليوناني، وإنَّما كانوا حملة للشعلة، مبدعين، حافظوا على العلوم التي درسوها، ثُمَّ وسعوا آفاقها، ثُمَّ بيَّن بأن الأوروبيين حينما شرعوا حوالي عام (١١٠٠ م) في الاهتمام الجدي بعلوم أعدائهم العرب وفلسفتهم كانت هذه العلوم والفلسفة في أوجها، وكان على الأوروبيين أن يتعلموا كل ما بوسعهم تعلمه من العرب قبل أن يتمكنوا هم أنفسهم من إحراز المزيد من التقدم في هذه المجالات[٤].

وفي الفصل الأخيرِ من كتابه تحدث (مونتغمري وات) عن الإسلام والوعي الأوروبي، وركزَّ في هذا الفصل على أربع نقاط، وهي:

الأولى: الفكرة الشائهة عن الإسلام، وقد سبق الحديث عنها[٥].

الثانية: الصورة المناقضة لأوروبا، ومحورها أنَّ الصورة التي ألصقها

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٤٢، وانظر: برنارد لويس: العرب في التاريخ: ص ١٧٥، تعريب نبيه امين فارس، وآخر، (مرجع سابق)، وانظر: ١٠٠٨ – ١٠٠٩، (البحث نفسه).

(٢) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ٤٦، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٤٦.

(٤) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ٦٢، (المرجع السابق نفسه).

(٥) انظر: ص ٧٥٩ – ٧٦٧، (البحث نفسه).

الأوروبيون بالإسلام هي في حقيقة الأمر صورة أوروبا الغربية، وإلى جانب ذلك ذكر المؤلف: بأنَّه ترسخ في العقليَّة الغربية التنكر الشديد للأثر الإيجابي الذي قامت به الحضارة الإسلاميَّة، واستشهد على ذلك بأقوال للمشاهير من علماء الغرب[١].

الثالثة: الوضع المخالف في العالم الإسلامي، وفيها بين ماحدث للعالم الإسلامي من ضعف نتيجة الفرقة في صفوف المسلمين، وأنَّ ذلك مكن للغرب من التفوق والقيادة الحضارية فيما بعد[٢].

الرابعة: مغزى الاحتكاك بالإسلام بالنسبة لأوروبا وقد وضح في هذا أنَّ إحساس الأوروبيين بالنقص أمام الحضارة الإسلاميَّة كان سببًا لتشويه صورة الإسلام رغبة في تعويض هذا النقص[٣] من جهة ومن جهة أخرى (كان لصورة الإسلام التي خلقها الباحثون المسيحيون في ذلك الوقت في إقناع المسيحيين الآخرين بأنَّهم في حربهم ضد المسلمين إنَّما يحاربون من أجل نصرة النور على قوى الظلام، وأنَّه حتى وإن كان المسلمون أقوياء، فإن دينهم خير من الإسلام)[٤].

ويرد على ذلك ردودًا قويَّة يرتكز بعضها على نظريات علميَّة كقوله: (وبفضل ما أسهم به (فرويد) من أفكار، نعلم جيدًا أن الظلمة التي ينسبها المرء إلى أعدائه ما هي إلا إسقاط للظلمة الكامنة فيه هو، والتي لايريد الاعتراف بها.

---

(١) انظر: فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١٠٥ - ١٠٩، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٠٩ - ١١١.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١١٢.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١١٣.

وعلى ذلك فإنَّه ينبغي علينا أن ننظر إلى الصورة الشائهة للإسلام باعتبارها إسقاطًا لما اكتنف عقول الأوروبيين من الجهالة...)[1]، وقوله - أيضًا -: (إنّ الصورة الأوروبية للإسلام ترمز للشرور القائمة في أوروبا ذاتها)[2].

ويخلص (مونتغمري وات) في نهاية كتابه إلى القول: (لم يقتصر دور الإسلام على تعريف أوروبا الغربية بالكثير من منتجاته الماديّة، واكتشافاته (التكنولوجية)، ولا على إثارة اهتمام الأوروبيين بالعلوم والفلسفة، بل دفع أوروبا أيضًا إلى تكوين صورة جديدة لذاتها، وقد أدَّت مواجهة الأوروبيين العدائية للإسلام إلى تهوينهم من شأن المسلمين في حضارتهم، ومبالغتهم في بيان أفضال التراث اليوناني والروماني عليها)[3].

وفي ختام هذا المطلب فإنَّ من المناسب الربط بين ما سطرته الأُمَّة الإسلاميَّة من إيجابية خيرة عادت بالنفع والخير على الإنسانية قاطبة وسجّلها التاريخ البشري بإعزاز وإكبار، وبين إيجابية الإسلام ذاته وأنَّ هذا الإسهام الحضاري الخيِّر كان منبثقًا عن حيويَّة الإسلام في عقيدته وشريعته ورؤيته للكون والحياة والإنسان، وفي ذلك تقول المستشرقة الإيطالية (لورا فيشيا فاغليري) في كتابها دفاع عن الإسلام: (بفضل الإسلام هزمت الوثنية في مختلف أشكالها. لقد حرَّرَ مفهوم الكون وشعائر الدين، وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهولات أو المسوخ

---

(١) فضل الإسلام على الحضارة الغربية: ص ١١٣، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١٣.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١١٤.

التي كانت تحط من قدرها، (وحرر) العقول الإنسانية من الهوى. لقد أدرك الإنسان آخر الأمر، مكانته الرفيعة.. لقد (حرر) الروح من الهوى، (وأطلق) إرادة الإنسان من القيود التي طالما أبقته موثوقا إلى إرادة أناس آخرين، أو إلى إرادة قوى أخرى يدعونها خفية. لقد هوى الكهان، وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون، وسماسرة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنَّهم وسطاء بين الله والإنسان والذين اعتقدوا بالتالي أن سلطتهم فوق إرادات الآخرين، لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم. إنَّ الإنسان أمسى خادم الله وحده، ولم تعد تشده إلى الآخرين من الناس غير التزامات الإنسان الحر نحو الإنسان الحر، وبينا قاسى الناس في ما مضى مظالم الفروق الاجتماعية أعلن الإسلام المساواة بين البشر، لقد جُعِلَ التفاضل بين المسلمين، لا على أساس من المحتد أو أي عامل آخر غير شخصية المرء، ولكن على أساس من خوفه الله وأعماله الصالحات، وصفاته الخلقية والفكرية ليس غير...)[1].

ولعله من المسلمات والبدهيات أن يقال: إنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة كلما التزمت الإسلام واستلهمت قيمه وتعاليمه حققت بذلك إحدى الخصائص الملازمة لتميزها وهي خصيصة الإيجابية الخيِّرَة، وكلما نكصت عن تلك القيم والتعاليم ارتكست في دركات التخلف والانحطاط، وخسر العالم بانحطاطها خسائر فادحة[2].

***

(١) ص ٢٤ - ٢٥، نقلاً عن عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٢٠٦، (مرجع سابق). وقد وردت عبارة (حرر، وأطلق) مؤنثة ولكن السياق يدل على التذكير وهو ما أثبته في المنقول، وأحطتها بالقوس المركنة [...].

(٢) تساءل أبو الحسن الندوي عن خسارة العالم بانحطاط المسلمين، وألف كتابًا تحت هذا العنوان رصد فيه ما نال العالم من خسائر فادحة بسبب انحطاط المسلمين، (مرجع سابق).

الباب الثاني

أهداف

تميز الأمة الإسلاميَّة ووسائل تحقيقه وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على فصلين؛ هما:

الفصل الأول: أهداف تميز الأمة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها.

الفصل الثاني: وسائل تميز الأمة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها.

الفصل الأول
أهداف تميز الأُمَّة
الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تحقيق العبودية لله وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثاني: تحقيق الاستخلاف وموقف المستشرقين منه.

المبحث الأول
تحقيق العبودية لله
وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: تحقيق العبودية لله.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منها.

المطلب الأول

تحقيق العبوديَّة لله

تعدُّ العبادة من أهم أهداف تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، فالتميُّز بمقوماته الأساس من عقيدة وشريعة وأُخُوَّة وما تقتضي من وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة، وبخصائصه التي تجليها: الربانيَّة والعالمية والوسطيَّة والإيجابيَّة الخيِّرَة، إنَّما يهدف في المقام الأول إلى تحقيق العبوديَّة لله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ إذْ العبادة هي الغاية من خلق الثقلين، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]، فالعبادة لله: هي الهدف من خلق الخليقة، وجعلها خالصة لله وفقًا لما شرع، واقتداءً برسوله ﷺ، فهي بذلك في قمة أهداف تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، الأُمَّة التي تعبد الله وحده ولاتشرك به شيئًا، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

ولابُدَّ هنا من توضيح مفهوم العبادة في الإسلام، وأثرها في حياة الأُمَّة في أقوالها وأفعالها، وسائر جوانب حياتها، وبيان كيف تتميَّزُ الأُمَّة الإسلاميَّة بالعبودية لله، ويقتضي ذلك مناقشة قضية الاتباع والابتداع والرهبانيَّة، والإشراك، ونحو ذلك من المسائل المتصلة بتميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، ويتناول البحث مايأتي:

١-مفهوم العبادة، ومقتضياتها.

٢-أنواع العبادة وصورها.

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢١).

٣-روح العبادة وأسرارها.

٤-آثار العبادة في الفرد وفي الأُمَّة.

١ - مفهوم العبادة، ومقتضياتها:

أ - العبادة في اللغة أصلها من الفعل (عَبَدَ)؛ قال ابن فارس: (عَبَدَ: العين والباء والدَّال أصلان صحيحان، كأنَّهُما متضادان؛ الأول... يدل على لين وذل، والآخر على شدَّة وغِلَظ)[١].

ويقول في بيان الأصل الأول من هذين الأصلين: (فالأوَّل: العَبْدُ: وهو المملوك، والجماعة العبيد،... وهم العباد،... إلاَّ أن العامَّة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله، والعبيد المملوكين، يقال: هذا عبدٌ بين العُبُودَة، ولم نسمعهم يشتقو؛ منه فعلاً، ولو اشتق لقيل: (عَبُدَ)؛ أي: صار عبداً وأقَرَّ بالعُبُودة، ولكنه أُميتَ الفِعْلُ فلم يستعمل؛... وأمَّا عَبَدَ يَعْبُدُ عبادةً، فلايقال إلاَّ لمن يعبد الله تعالى)[٢].

وجاء في اللسان: (العبوديَّة: الخضوع والتذلل، العابد: الموحد... عبدالله يَعْبُدُه عبادة ومعبداً ومعبدة: تأله له، التعبُّد: التنسك. العِبَادة: الطاعة، طريق معبد: مذلل...، المُعَبَدُ: المُكَرَّم المُعَظَّمُ)[٣].

وقال الراغب الأصفهاني: (العبوديَّة: إظهار التذلُّلْ... والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير،... وعبادة بالاختيار...، والعبد يقال على أربعة أضرب: الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه...، الثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلاَّ لله...، الثالث: عبدٌ

---

(١) معجم مقاييس اللغة: مادة (عَبَدَ)، (مرجع سابق).

(٢) معجم مقاييس اللغة: مادة (عَبَدَ)، (المرجع السابق نفسه).

(٣) ابن منظور: لسان العرب: مادة (عَبَدَ)، (مرجع سابق).

بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان: عبد لله مخلص...، وعبدٌ للدنيا وأغراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها...)[1].

ب - العبادة في الاصطلاح للعبادة في الاصطلاح تعريفات كثيرة، بعضها عام، وبعضها الآخر خاص، والعام قد يراد به خضوع المخلوقات لله من حيث كونها خاضعة له سبحانه كونًا وقدرًا، لذلك تطلق العبادة ويُراد بها: (الخضوع الشامل، والطاعة الكاملة بصفة قسريَّة من جميع المخلوقات، ويشمل ذلك الكون كلّه بأملاكه ومشمولاته، من جمادٍ وحيوان ونبات وإنسان، فالكل خاضع لله، ولايخرج عن طاعته قيد شعرة)[2].

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[5].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (عَبَدَ)، (مرجع سابق). وانظر: محمد عبدالرّؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف. مادة (العَبْد)، (مرجع سابق).

(٢) محمد أبو الفتح البيانوني: تحول العبادات إلى عادات وأثره في حياة المسلمين: ص ١٨٧ (مرجع سابق).

(٣) سورة الرعد: الآية (١٥).

(٤) سورة فصلت: الآية (١١).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٨٣). وانظر: ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/١٥٥، (مرجع سابق).

وقد تُعَرَّفُ العبادة تعريفًا عامًّا ولكنَّه فيما يخص المكلفين، وقد عرَّفها بعض الباحثين بأنَّهَا: (عمل العبد الإرادي الموافق (لمراد) المعبود)[1]، وعلى هذا تكون العبادة شاملة لجميع ما يقوم به المكلف من عمل فإذا وافق عمله مراد المعبود كان طاعة وقربة، وإذا خالف مراده كان معصية.

وقد جاء تعريف العبادة بصفة شاملة وواضحة في قول شيخ الإسلام ابن تيمية: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[2]، ثُمَّ شرح هذا الشمول وذلك العموم وما يتناوله من أنواع العبادات؛ فقال: (فالصلاة والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة)[3].

وإذا كانت هذه الأنواع تشتمل على الأفعال والأقوال الظاهرة فإنَّه يضيف إليها أنواعًا أُخرى من الأعمال الباطنة، ويقول: (وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة)[4].

---

(١) محمد أبو الفتح البيانوني: العبادات؛ خصائصها وآثارها في الفرد والمجتمع: ص ٣، محاضرة ألقاها ضمن البرنامج العام لعام ١٤٠٠ هـ - ١٤٠١ هـ، قسم الثقافة الإسلاميَّة، كلية الشريعة - الرياض.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/١٤٩، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه ١٠/١٤٩.

(٤) المرجع السابق نفسه ١٠/١٤٩.

أمَّا تعريف العبادة بصفة خاصَّة فهي: (الأعمال الخاصَّة المحدَّدة (من الله) التي كلَّفَ العبدُ بالقيام بها كتمرين عملي له على الخضوع الكامل)[1]، ويدخل في ذلك أركان الإسلام الخمسة، والشعائر الدينيَّة التعبّديَّة مثل الأذان والجهاد، ونحو ذلك من العبادات.

ج - مقتضيات العبادة في الإسلام: وبالنظر إلى معنى العبادة في اللغة، ومعناها في الاصطلاح في إطاره العام والخاص، فإنَّ للعبادة في الإسلام مقتضيات عدَّة من أهمها الآتي:

أولاً: الالتزام بما شرع الله ورسوله ﷺ من الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم؛ لأنَّ ذلك كلّه من مقتضى الخضوع لله والطاعة له ولرسوله ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعًا ﴾[3].

ثانيًا: وتتضمن العبادة لله إلى جانب الخضوع له والذل لعظمته الحب له ولرسوله ﷺ، وعن هذا المعنى أوضح ابن تيمية أنَّ العبادة (تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبَّة له)[4]، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ

---

(1) محمد أبو الفتح البيانوني: العبادات وخصائصها وآثارها... ص ٤، (المرجع السابق نفسه). وانظر: أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم: ص ٩٥ - ١١٥، الطبعة الثامنة، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م، عن دار القلم، الكويت.

(2) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(3) سورة النساء: الآية (١٧٢).

(4) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/١٥٣، (مرجع سابق).

ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1].

وقال الرسول ﷺ: «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله، وماله، والناس أجمعين» [2]، وفي حديث آخر أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال للرسول ﷺ: «يا رسول الله، والله لأنت أحبّ إليّ من كل شيء إلاّ من نفسي» فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنَّه الآن، والله، لأنت أحبُّ إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر» [3].

وتستلزم هذه المحبَّة موافقة الله - عَزَّ وَجَلَّ - والرسول ﷺ فيما أحباه، وفيما أبغضاه، ولاتتحقق العبوديَّة إلاّ بذلك لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [4].

---

(1) سورة آل عمران: الآية (31).

(2) أخرجه مسلم: صحيح مسلم 1/67، الحديث رقم [69] كتاب الإيمان، باب [16]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، وأخرجه البخاري بلفظ: «فوالذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده»، وبلفظ: «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» صحيح البخاري 1/14، كتاب الإيمان، باب [7]، حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم الحديث [14، 15]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(3) أخرجه البخاري: صحيح البخاري 6/2445، 2446، كتاب الأيمان والنذور، باب [2] الحديث رقم [6257]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(4) سورة التوبة: الآية (24).

ثالثًا: أنَّ العبادة ترجع فائدتها للعابد من المكلفين؛ لأنَّ الله غنيٌّ عن العالمين لاتنفعه طاعة الطائعين، ولايضره إعراض المعرضين، وقد جاءت العبادات معلّلة بذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[1]. وفي قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[2].

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: «يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم، كانوا على أفجر قلب واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»[3]، أمَّا فائدة العبادة للعابد فسيأتي الحديث عنها في مكان آخر إن شاء الله تعالى.

رابعًا: أن تكون العبادة لله عن إرادة وقصد، أمَّا الجانب القدري الكوني فإنَّ ذلك يدخل تحت التسخير، (ولما كان الخضوع الإرادي لله عزوجل عنوان العبادة الحقيقة من هذا الإنسان كان كافيًا أن يرافق هذا الخضوع أيَّ تصرف من تصرفات الإنسان الاختياريَّة أو الاضطرارية ليصبح هذا التصرف عبادة لله عزوجل؛ لأنَّه ابتغى به وجهه، وجاء وفق رضائه، ومن هنا كان بإمكان المسلم أن يجعل حياته كلها عبادة حتى عاداته

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٧).

(٢) سورة النمل: الآية (٤٠).

(٣) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١٩٩٤/٤، ١٩٩٥، كتاب البر والصلة والآداب، باب [١٥]، الحديث رقم [٢٥٧٧]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

وغرائزه من طعام وشراب ولباس وسكن ومتعه في هذه الحياة... فهو يماثل غيره في صور هذه التصرفات، ويتميز عن غيره في حقيقتها واعتبارها... ففي الحديث الشريف: «وفي بضع أحدكم صدقة» ، قالوا: يارسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟، قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ»[1].

كما يكفي أنّ يفارق هذا الخضوع الإرادي أيَّ تصرف من تصرفات الإنسان ليفقد هذا التصرف وصف العبادة، حتى ولو كان هذا التصرف صلاة أو صيامًا، أو زكاةً وحجًّا أو غير ذلك من شعائر العبادات: «إنَّما الأعمال بالنيات وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى»[2] ، كأن يقوم بمثل هذه العبادات ولايقصد منها العبادة، أو أن تكون من فاقد العقل...)[3] ، أو يداخلها الرياء والشرك، والبدعة.

خامسًا: أن تكون غاية باعتبارها طاعة لله وانكسارًا بين يديه، وخضوعًا له، وذُلًا لعظمته وجلاله، وتكون وسيلة باعتبارها تدريبًا

---

(١) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٦٩٧/٢، كتاب الزكاة، باب [١٦]، الحديث رقم [١٠٠٦]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق). وكلمة «أجر» ضبطها المحقق بالنصب على أنها تمييز، وبالرفع باعتبارها اسم كان وخبرها الجار والمجرور «له».

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٣/١، كتاب بدء الوحي، باب [١] الحديث رقم [١]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم: صحيح مسلم ١٥١٥/٣، ١٥١٦، كتاب الإمارة، باب [٤٥]، رقم [١٩٠٧]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق). والحديث متفق عليه، ويبدأ به في طلب العلم عادة للتنبيه على أهمية النية، فيه وفي كل أمرٍ ذا بال.

(٣) محمد أبو الفتح البيانوني: تحول العبادات إلى عادات... ص ١٨٨، (مرجع سابق).

للخضوع لله ورمزًا لطاعته[1] وطريقًا إلى العبادة بمعناها الشامل.

سادسًا: أن تكون حياة المسلم، بل حياة الأُمَّة الإسلاميَّة قاطبة منضبطة بضوابط الشرع، إذْ إنَّ (الشعائر التعبديَّة الممثلة في الصلاة والصيام والصدقة والنسك جزءٌ من العبادة، وليست هي كل العبادة، والعبادة الحقة هي الحياة وفق النظم الإلهيَّة التي تحدد علاقة الإنسان بالإنسان في المجتمع علاوة على توجيه النيَّة لله وحده في الشعائر التعبديَّة)[2]، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[3] حيث بينت الآية الكريمة الغاية من خلق الإنس والجن وهي العبادة.

وقد استنبط أحد الباحثين من صيغة الحصر في الآية أنَّها (تحصر نشاطات البشر، والهدف من وجودهم وتقصره على العبادة، ولمَّا كان الواقع يدل على استحالة أن يقوم الإنسان بالصلاة والصيام والحج دون أن يأكل أو يشرب أو ينام أو يتزوج أو يتاجر، أو يزرع أو يصنع، وغير ذلك سائر الأعمال، وأنواع النشاط اليومي في الحياة البشرية، لما كان الأمر كذلك فإنَّه قد وجب القول بأنَّ كل هذه النشاطات ضروريَّة للعبادة بمعنى الشعائر والنسك بل هي مؤديَّة لها، ومن ثُمَّ فهي عبادة من هذا الوجه ومن جهة أخرى هي عبادة أيضًا في ذاتها بشرط أن يقوم بها الإنسان من خلال البناء الاجتماعي الإسلامي، ومبتغيًا بها وجه الله تعالى... خاضعًا لله وسائرًا حسب نهجه وتعليماته ووصاياه وتشريعه في كل أمر.

---

(١) انظر: محمد أبو الفتح البيانوني: العبادات خصائصها وآثارها... ص ٤، (مرجع سابق).

(٢) فاروق الدسوقي: مقومات المجتمع المسلم: ص ١١١، (مرجع سابق).

(٣) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

ومن ثَمَّ يصبح الأكل والشرب والنوم واليقظة والذهاب والإياب والتعلم والإنتاج بأشكاله، وكل أنواع السعي على الرزق، وغير ذلك من تفصيلات الحياة اليوميَّة،... عبادة يثاب عليها المرء، وذلك واضح من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1]... وذلك هو المفهوم الحقيقي للعبادة، والذي به يتحقق تمام الخضوع، ويصبح الإنسان كفرد، وكمجتمع موحدًا لله إلهًا وربًّا لا إله غيره ولا ربَّ سواه)[2].

٢ - أنواع العبادة وصورها:

يتضح من خلال التعريف العام للعبادة، وأنَّها (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنية)[3]، ومن خلال ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من علماء الأُمَّة الإسلاميَّة، من أنواع العبادة وصورها في الإسلام، أنَّ للعبادة أنواعًا كثيرة يُمكن تقسيمها وفقًا للآتي:

أولًا : عبادات اعتقادية.

ثانيًا : عبادات قلبيَّة.

ثالثًا : عبادات لفظية.

رابعًا : عبادات بدنيَّة.

خامسًا : عبادات ماليَّة[4].

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان (١٦٢، ١٦٣).

(٢) فاروق الدسوقي: مقومات المجتمع المسلم: ص ١١١، ١١٢، ١١٣، (مرجع سابق).

(٣) ابن تيمية: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/١٤٩، (مرجع سابق).

(٤) انظر: عثمان جمعة ضميريّة: مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة: ص ٢٩٢ - ٢٩٦، (مرجع سابق). وانظر: محمد أبو الفتح البيانوني: العبادة (دراسة منهجية شاملة في ضوء=

وقد تجمع العبادة الواحدة أكثر من نوع كما هو الحال في الصلاة، فهي تجمع بين العبادة الاعتقادية ممثلة في الإقرار لله بالربوبيَّة والألوهية، والأسماء والصفات، وتجتمع هذه العبادات في قراءة سورة الفاتحة، ففيها الإقرار بالربوبيَّة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، والألوهية في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2]، وكذلك الأسماء والصفات، في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[3].

وتشتمل أيضًا على العبادة القلبيَّة، ممثلة في القصد والنيَّة عندما يقف العبد بين يدي الله ليؤدي الصلاة بما فيها من خضوع وذل وخوف ورجاء، ودعاء وإنابة، واستغفار، وذكر، ونحو ذلك من العبادات القلبيَّة.

وتشتمل - أيضًا - على العبادات اللفظية، وهي القراءة والذكر والدعاء وقراءة القرآن، وأمَّا البدنيَّة فتتمثل في أعمال التكبير والركوع والقيام والسجود، وغير ذلك من أركان الصلاة وواجباتها وشروطها[4].

ومن العبادات الاعتقاديَّة: الإيمان بالله وأنَّه المتفرد بالخلق والأمر، وأنَّه الذي يملك الضرر والنفع والموت والحياة والنشور وأنَّه المستحق للعبادة دون سواه، ويدخل فيها أنواع التوحيد الأخرى وأركان الإيمان

=الكتاب والسنة): ص ٤٧، ٥١، عن دار السلام، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م بيروت والقاهرة، وأساسها المحاضرة المشار إليها سابقاً.

(١) سورة الفاتحة: الآية(٢).

(٢) سورة الفاتحة: الآية (٥).

(٣) سورة الفاتحة: الآيتان (٣، ٤).

(٤) لمزيد من الاطلاع على دراسة تطبيقية على عبادة الصلاة وما اشتملت عليه من خصائص ووظائف؛ انظر: محمد أبو الفتح البيانوني: العبادات خصائصها وآثارها..: ص ١٨ - ٣٢ (المرجع السابق نفسه).

الستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وقد جاءت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مبينة لهذه العبادات، وجعلتها أساسًا لشعائر الدين الأخرى، كقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[2].

ومن العبادات القلبيَّة: المحبَّة، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والخوف، والنيَّة والتوبة، ونحو ذلك من المشاعر المرتبطة بالله كحب ما يحب وبغض ما يبغض، وما يتصل بهذه المشاعر من الولاء والبراء في طيات النفس وأعماق الشعور، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾[5]، قال بعض المفسرين في تفسيرها: (﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ بقلوبكم ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ بجوارحكم)[6]، ثُمَّ قال: (إذا أُفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٧٧).

(٢) سورة الحديد: الآية (٢٢).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٦٥).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢١٨).

(٥) سورة الزمر: الآية (٥٤).

(٦) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ٤٨٤/٦، (مرجع سابق).

كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا)[1].

وقال في معنى الآية: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾: (دليل على الإخلاص، وأنَّه من دون إخلاص، لاتفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئًا)[2].

وأمَّا التوكل فدليله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[3]، كذلك الخوف عبادة قلبيَّة لاتصرف إلا لله تعالى؛ لأنَّه المستحق أن يخاف منه العبد؛ قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾[4] ولأنَّه تعالى هو كاشف الضر، وهو صاحب الفضل ومالك الخير ومسديه إلى عباده، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[5].

وفي الحديث الشريف قال الرسول ﷺ، فيما رواه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «أنَّه ركب خلف الرسول ﷺ يومًا، فقال له رسول الله ﷺ: يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأُمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»[6].

---

(١) المرجع السابق نفسه ٦/٤٨٤.

(٢) المرجع السابق نفسه ٦/٤٨٥.

(٣) سورة المائدة: الآية (٢٣).

(٤) سورة المائدة: الآية (٤٤).

(٥) سورة يونس: الآية (١٠٧).

(٦) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل١/٢٩٣، ورقم الحديث [٢٦٦٩]،=

ومن العبادات اللفظيَّة: التلفظ بالشهادتين، والذكر والدعاء، وقراءة القرآن، والكلمة الطيِّبَة ونحو ذلك من الألفاظ التي يقصدُ بها وجه الله فتكون عبادة وفقاً لما سبق شرحه وبيانه من أنَّ كل قول يحبه الله فهو عبادة، مثل إفشاء السلام ورد التحيَّة بأحسن منها أو بمثلها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطاره الشرعي وبضوابطه المعيَّنة.

أمَّا التلفظ بالشهادتين فدليله قول الرسول ﷺ: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاَّ الله، فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلاَّ بحقها وحسابهم على الله»[1]، ومن هنا قال العلماء بأنَّ من نطق بكلمة التوحيد ولم يعتقدها بقلبه وقام بأعمال الإسلام الظاهرة من صلاة ونحوها عصم ماله ودمه وحسابه على الله[2].

ومن العبادات البدنيَّة: الصلاة والصيام والحج ومناسكه، وكذلك الجهاد في سبيل الله، وقد سبق أن الصلاة تشتمل على أنواعٍ عدَّة من العبادات الاعتقادية والقلبيَّة واللفظيَّة، وكذلك البدنية، لما فيها من القيام والركوع والسجود، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟

=تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (مرجع سابق)، وانظر: تخريج الحديث واستقصاء طرقه، وما فيه ٤١٠/٤، ٤١١ (المرجع السابق نفسه)، (مرجع سابق).

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١٥٣/١، كتاب الصلاة، باب [١٠] رقم الحديث [٣٨٥]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا (مرجع سابق).

(٢) انظر: الشاطبي: الموافقات ٣١/٣، تحقيق: أبو عبيدة، (مرجع سابق). وانظر: ابن قدامة: المغني ٢٨٨/١٢، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، وعبدالفتاح محمد الحلو، (مرجع سابق)، وانظر: المرجع السابق نفسه: ٣٢/١٣، ١٨٠، ١٨١، ٢٠٨، ٢٠٩.

وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

قال ابن قيم الجوزيَّة: (أخبر تعالى أنَّه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من اجتبى الشيء يجتبيه إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه، وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين، ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حقَّ جهاده فيبذلوا له أنفسهم، ويفردوه بالمحبَّة والعبوديَّة، ويختاروه وحده إلهًا معبودًا محبوبًا على كل ما سواه، كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم، وجوارحهم وقلوبهم، ومحبتهم، وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءَه وأحباءَه وآثرهم بذلك على من سواهم)[2].

وقد أظهر ابن قيم الجوزية - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وربط هذا التميُّز بهدف من أهدافه وهو تحقيق العبوديَّة لله، وأظهر - أيضًا - مدلول العبوديَّة في الإسلام، وأنَّه يشتمل

---

(١) سورة الحج: الآيتان (٧٧، ٧٨).

(٢) بدائع التفسير: ٣/٢٢٣، (مرجع سابق).

على عمل القلب واللسان والجوارح[1].

أمَّا العبادات الماليَّة: فتتمثل في فريضة الزكاة، وهي قرينة الصلاة، ويأتي بعدها الوفاء بالنذر إذا كان المنذور به مالاً، لقوله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾[2]، ومنها النفقة في سبيل الله ونحوها[3].

وقد قام ابن قيم الجوزيَّة بدراسة مستفيضة حصر من خلالها أنواع العبادات وصورها، وقسَّمها على القلب واللسان والجوارح من المكلف، وأجرى عليها الأحكام الفقهيَّة الخمسة ما بين واجب ومستحب ومباح، ومحرم ومكروه؛ ويبدأ هذه الدراسة بقوله: (ورحى العبوديَّة تدور على خمس عشرة قاعدة، من كمَّلها كمَّل مراتب العبوديَّة، وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبوديَّة تخصه، والأحكام التي للعبوديَّة خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح)[4].

ثُمَّ شرع في بيان الأعمال القلبيَّة الواجبة والمستحبَّة مع ذكر أنواعها وصورها من إخلاص ونية وصدق وتوكل ومحبَّة وإنابة وصبر ورجاء وخوف وتحدث عن تفصيلاتها واختلاف العلماء فيما هو واجب منها ومستحب، وما اتفقوا عليه من ذلك[5].

ثُمَّ قال: (والقصد أن هذه الأعمال - واجبها ومستحبها - هي

---

(١) انظر: مدارج السالكين ١/١٢٣ - ١٣٧، (مرجع سابق).

(٢) سورة الإنسان: الآية (٧).

(٣) انظر: عثمان جمعة ضميريَّة: مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة: ص ٢٩٦، (مرجع سابق).

(٤) مدارج السالكين ١/١٢٣، (مرجع سابق).

(٥) انظر: المرجع السابق نفسه: ١/١٢٤ - ١٢٧.

عبوديَّة القلب، فمن عطلها فقد عطل عبوديَّة الملك، وإن قام بعبوديَّة رعيته من الجوارح، والمقصود أن يكون ملك الأعضاء - وهو القلب - قائمًا بعبوديَّته لله سبحانه هو ورعيته)[1].

ثُمَّ تطرَّق لما هو محرم على القلب لكي تتحقق عبوديته لله، فقال: (أمَّا المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق، وهي نوعان: كفر، ومعصية، فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك وتوابعها، والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر، فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا، وشرب الخمر، وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلاَّ باجتنابها، والتوبة منها وإلاَّ فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن)[2].

وتناول أمورًا أخرى تعرض للقلب بعضها يصل إلى درجة الكفر كشهوة الكفر والشرك، وبعضها يكون فسقًا كشهوة البدعة، وبعضها الآخر يكون معصية[3].

---

(١) مدارج السالكين ١/١٢٧، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه ١/١٢٧، ١٢٨، وانظر: عثمان جمعة ضميرية: مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة: ص ٣١١ - ٣٥٤، (مرجع سابق).

(٣) انظر: مدارج السالكين ١/١٢٨، المرجع السابق نفسه، وانظر: إبراهيم بن محمد البريكان: المدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة على مذهب أهل السنة والجماعة: ص ١٢٤ - ١٩٠، (مرجع سابق).

ثُمَّ تحدث عن أنواع العبادات اللفظية التي يقوم بها اللسان فذكر ما هو واجب وهو النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزم المكلف من القرآن، والتلفظ بالأذكار الواجبة في الصلاة ونحو ذلك من رد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على نحو ما سبق ذكره، وأضاف إلى ذلك إرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث، وتعليم الجاهل، وذكر من الأقوال المستحبة: تلاوة القرآن الكريم ودوام ذكر الله ومذاكرة العلم النافع[1].

ثُمَّ ذكر مايحرم على اللسان النطق به بتعبير جامع، إذ قال: (وأمَّا المحرمة: فهو النطق بكل مايبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف، وسب المسلم، وأذاه بكل قول، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريماً)[2].

ويدخل في ذلك التلفظ بألفاظ الشرك، والاستهزاء بالله ورسوله ﷺ وآياته لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3]، وفي الحديث الشريف قال الرسول ﷺ لرجلٍ قال له: (ماشاء الله وشئت)[4] فقال له الرسول: «أجعلتني والله عدلاً ؟! بل ماشاء الله وحده»[5].

---

(١) مدارج السالكين ١/١٢٨، ١٢٩، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه ١/١٢٩.

(٣) سورة يونس: الآية (١٠٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٢١٤، ورقم الحديث [١٨٣٩]، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (مرجع سابق).

(٥) بقية الحديث: المرجع السابق نفسه. وانظر: تخريج الحديث وما قيل فيه: المرجع السابق=

وأمَّا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله فقد نزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ... ﴾ (١).

قال ابن العربي في تفسيرها: (لايخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جداً أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر؛ فإنَّ الهزل بالكفر كفر، لا خلاف فيه بين الأُمَّة. فإنَّ التحقيق أخو الحق والعلم، والهزل أخو الباطل والجهل) (٢).

وتناول ما يكره من الأقوال وما يباح منها واختلاف العلماء في ذلك، وأنَّ كل ما يلفظ به الإنسان مكتوب إمَّا له وإمَّا عليه لقوله ﷺ: «كل كلام ابن آدم عليه، لا له، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه» (٣).

=نفسه: ٣/٣٤٠،٣٣٩، وحاشية الحديث رقم [١٨٣٩]، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (مرجع سابق).

(١) سورة التوبة: الآيتان (٦٥، ٦٦).

(٢) أحكام القرآن ٢/٩٧٦، (مرجع سابق). وانظر: محمد بن عبدالوهاب وبعض أبنائه وأحفاده وغيرهم من العلماء: مجموعة التوحيد؛ (الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة): ص ٢٨٢ – ٢٩٩ – ٣٣٢، عن شركة العبيكان للطباعة والنشر – الرياض، (بدون تاريخ).

(٣) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح ٤/٥٢٦، كتاب الزهد – باب [٦٢] رقم الحديث [٢٤١٢]، تحقيق: كمال يوسف الحوت (مرجع سابق). وانظر: تخريج الحديث، وما قيل فيه وطرقه: مسند أبي يعلى الموصلي ١٣/٥٦، ٥٧، (وحاشية الحديث رقم [٧١٣٢] رقم [١١] في مسند أم حبيبة)، تحقيق: حسين سليم أسد، وقال: إسناده حسن على شرط ابن حبان وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، وفي سنده أم صالح ليس فيها جرح ولم ترد منكرًا فهي على شرط ابن حبان، وباقي رجاله ثقات.

وفي معناه: ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [سورة ق: الآية (١٨)] إذ قال: (يكتب كلُّ ما تكلم به من=

ويصل إلى عبادات الجوارح فيرتبها على هذا النحو: (وأمَّا العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة - أيضًا - إذ الحواس خمسة، وعلى كل حاسة خمس عبوديات، فعلى السمع وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة في الجمعة في أصح قولي العلماء، ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة: من رده، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنّة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك)[1].

ويستمر في شرح هذه المراتب الخمس والعشرين في مختلف صورها وأحكامها ما بين واجب ومستحب ومكروه ومحرم وواجب إلى أن يقول[2]: (وهذه المراتب - أيضًا - مرتَّبَة على البطش باليد والمشي بالرجل، وأمثلتها لاتخفى؛ فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب، وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف، والصحيح وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولايجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج

=خير وشر حتى أنه ليكتب قوله: أكلتُ وشربتُ، جئتُ، ورأيتُ، (حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقرَّ منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقي سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [سورة الرعد: الآية (٣٩)]، صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن العظيم: ص٤٦٢، (مرجع سابق). وانظر: مدارج السالكين ١/١٢٩، (المرجع السابق نفسه).

(١) مدارج السالكين ١/١٣١، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه ١/١٣١ - ١٣٥.

نظر، والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء المناسك، والمشهور عدم وجوبه، ومن البطش الواجب: إعانة المضطر، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم. والحرام: كقتل النفس التي حرم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب من لايحل ضربه ونحو ذلك)[١].

وقد تناول تفصيلات كثيرة، أَلَمَّتْ بصور عدَّة[٢]، وقال في نهايتها: (فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدَّابَّة)[٣].

والحقيقة أنَّ ما قام به ابن قيم الجوزية من تصنيف للعبادة، وحصر لمراتبها، وما ألحق بذلك من منازل لـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[٤]، وبالنظر للعبادة نفسها ووقتها وما يتعلق بها، كلُّ ذلك يعطي الدلالة الواضحة على شمول العبوديَّة في الإسلام، لكل ما يأتي المكلف ويذر من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، وأنَّه مسؤول عن جميع تصرفاته: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[٥]، ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٦].

وبهذا المفهوم الشامل للعبادة (عَرَفَ المسلمون الأولون معنى العبادة

---

(١) مدارج السالكين ١٣٦/١، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه ١٣٦/١، ١٣٧.

(٣) المرجع السابق نفسه ١٣٧/١.

(٤) سورة الفاتحة: الآية (٥). وانظر: المرجع السابق نفسه ١٣٨/١ ومابعدها.

(٥) سورةالإسراء: الآية (٣٦).

(٦) سورة ق: الآية (١٨).

فكانوا عباداً لله حقاً، وكان وصف العبوديَّة جليّاً في حياتهم وجميع أعمالهم، بل كانت عاداتهم عبادات... إذ كانوا لايتحركون تحركا ولايسكنون سكونًا إلاَّ ويستشعرون رضاء الله عن ذلك التحرك والسكون، حتى أصبح هذا الشعور محور تركهم، ومبعث سلوكهم، لاتشوبه شائبة، ولايغفلون عنه لحظة، ولمَّا ضعف هذا المفهوم في نفوس من بعدهم، وخفت ذلك الشعور في تصرفاتهم، بعدوا عن حقيقة العبادة تدريجيًّا حسب بعدهم عن ذلك المحور، وانقلبت كثير من عباداتهم إلى عادات، وكان هذا التحول والبعد متنوعًا فيهم، ومتفاوتًا بينهم... فهناك من المسلمين من انحصر مفهوم العبادة عندهم في جانب من جوانب الحياة، ففصلوا بين علاقة الإنسان بربه وبين علاقته مع نفسه وغيره... وحصروا معنى العبادة في علاقتهم مع الله فخرجوا بذلك عن الجادة)[١].

٢ - روح العبادة وأسرارها:

سبق التعريف بالعبادة والعبوديَّة، وما تقتضيه من خضوع لله ومحبة له ولرسوله ﷺ، وأنَّ تلك المحبَّة تفضي إلى متابعته ﷺ عن نيَّة وقصد، والتزام بما كان عليه من عبادة.

ثُمَّ إنَّ فائدة العبادة تعود للمكلف نفسه في المقام الأول، وكذلك تنعكس آثارها على حياته وحياة الأُمَّة من حوله، وسيأتي الحديث عن هذا الجانب في نقطة أخرى، أمَّا البحث هنا فيتركز على روح العبادة

---

(١) محمد أبو الفتح البيانوني: تحول العبادات إلى عادات... ص ١٨٩، (مرجع سابق). وانظر: سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي: ص ١٣١ - ١٣٥، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، عن دار الشروق، بيروت، وانظر: الشاطبي: الاعتصام ٤٤٣/٢، تحقيق: أحمد عبدالشافي، (مرجع سابق).

وأسرارها، وإن كان من المسلمات لدى المسلمين (أن العبودية لله شعارها الإيمان بالغيب ولولم تره، والطاعة لأمره ولولم تحط بسره، وحسب المؤمن أن يعلم بالإجماع أن الله غنيٌّ عن العالمين، وإذا تعبد سبحانه عباده بشيء فإنَّما يتعبدهم بما يصلح أنفسهم، ويعود عليهم بالخير في حياتهم الروحيَّة والماديَّة، الفردية والاجتماعية، الدنيويَّة والأُخرويَّة، بيد أن الإنسان المحدود قد تخفى عليه حكمة الله جل علاه، وكم لله من أسرار خافية حتى عن أفهام الأذكياء من الناس، وكما أخفى سبحانه كثيرًا من أسرار هذا الكون عن الإنسان، أخفى عليه بعض أسرار ما شرع ليظل الإنسان في هذا وذاك متطلعًا بأشواقه وراء المجهول آملاً في الوصول، معترفًا بالقصور، وليظل دائمًا في دائرة العبوديَّة المؤمنة التي شعارها دائمًا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1])[2].

---

(1) سورة البقرة: الآية (٢٨٥).

(2) محمد بن أمين أبو بكر: العبادة وأثرها كما جاء بها القرآن الكريم، مجلة كلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب، أبها، العدد [٣] ١٤٠٣ هـ - ١٤٠٤ هـ: ص ١١٢، ١١٣، عن جامعة الإمام...، الرياض. وانظر: الشاطبي: الاعتصام ٢/٤٨٠،٤٧٩، تحقيق: أحمد عبدالشافي، (مرجع سابق). أورد في هذا المعنى كلامًا لطيفًا؛ مِمَّا جاء فيه: (إنَّ كل ما ورد عليهم (يقصد المكلفين) في شرع الله مِمَّا يصادم الرأي فإنَّه حق يتبين على التدريج حتى يظهر فساد ذلك الرأي، وأنَّه كان شبهة عرضت، وإشكالاً ينبغي أن لايلتفت إليه، بل يتهم أولاً، ويعتمد على ماجاء في الشرع، فإنَّه إنْ لم يتبين اليوم يتبين غدًا، ولو فُرِضَ أنَّه لايتبين أبدًا فلا حرج فإنَّه متمسك بالعروة الوثقى) أي: من تمسك بشرع الله ولولم تظهر له حكمة التشريع أو صادمت رأيه في أمر من الأمور. وانظر: أبو العز علي بن علي: شرح العقيدة الطحاوية ٣٤١/١، ٣٤٢، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، وشعيب الأرنؤوط، (مرجع سابق).

ولذلك فإنَّ جوهر العبادة وروحها الحقيقية هي كما قال ابن تيمية: (غاية الذل لله بغاية المحبَّة له)[1]، وإنَّما شرعت العبادات المفروضة من صلاة وزكاة وحج وصوم ونطق بالشهادتين ونحوها من العبادات المعيَّنَة بأوصافها وأوقاتها لتدريب الإنسان على تحقيق العبوديَّة الشاملة لله، ولتذكيره بعظمة الله وسلطانه عليه[2].

وأمَّا أسرار العبادة فإنَّها من الكثرة بمكان ومنها ما هو ظاهر جلي، ومنها ما هو خفي حتى يصل إلى ما لايحيط بعلمه إلاَّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - وفيما يأتي ذكر بعض هذه الأسرار:

أولاً: أن العبادة حق لله عزوجل على أن تكون خالصة له دون سواه، فهو المستحق للعبادة لأنَّه الخالق الرازق، الذي له الأمر كله، وإليه المصير، ومن حقيقة كونه الخالق المالك المتصرف، وما سواه عبيد له فإنَّه يستحق أنْ يعبد ولايعصى، وأنْ يشكر ولايُكفر، وقد أمر بعبادته وجعلها الغاية من خلق الثقلين - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - (والأصل في العبادات أن تؤدى امتثالاً لأمر الله وأداء لحقوقه على العباد، وشكرًا لنعمائه التي لاتنكر...، والأصل فيها (كذلك) أنَّها ابتلاء لعبوديَّة الإنسان لربه)[3].

قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/١٥٣، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد بن أمين أبو بكر: العبادة وأثرها... ص ١١٣، (المرجع السابق نفسه).

(٣) محمد بن أمين أبو بكر: العبادة وأثرها..: ص ١١٢، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: الشاطبي: الموافقات ٢/٢٩، ٣٠، ١١٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤ - ١٦٩، تحقيق: عبدالله دراز، ومحمد عبدالله دراز، (مرجع سابق).

(٤) سورة القصص: الآية (٦٨).

إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[2].

فدلت هذه الآيات على أن العبادة حق لله فرضه على عباده، وفي الحديث الشريف، أنّ الرسول ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «هل تدري ما حقُّ الله على عباده؟»[3]، فقال معاذ: الله ورسوله أعلم[4]. فقال الرسول ﷺ: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن لايعذب من لايشرك به شيئًا»[5].

ثانيًا: ومن أسرار العبادة أنَّها تحقق الانسجام مع حقيقة الوجود وحقيقة المكلف، فكل الوجود قانت لله وعابد له بالتسخير، والمكلف من الإنس والجن عابد لله بالاختيار، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[6]، ومن رحمة الله بخلقه أن جعل الفطرة

---

(١) سورة القصص: الآية (٧٠).

(٢) سورة الملك: الآيتان (١، ٢).

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢٢٢٤/٥، كتاب اللباس، باب [٩٩]، رقم الحديث [٥٦٢٢]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم: صحيح مسلم ٥٨/١، كتاب الإيمان، باب [١٠] رقم الحديث [٤٨]، [٤٩]، [٥٠]، [٥١]، بألفاظ متقاربة، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (مرجع سابق).

(٤) جزء من الحديث السابق، المرجع السابق نفسه.

(٥) جزء من الحديث السابق: لدى البخاري ومسلم، (المرجع السابق نفسه)، واللفظ (هنا) لمسلم: صحيح مسلم ٥٨/١، ٥٩، (المرجع السابق نفسه).

(٦) سورة الشمس: الآيتان (٧، ٨).

تميل إلى الحق وتريده وتطلبه.

يقول ابن تيمية عن هذا: (والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنَّه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل، ولهذا قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنْهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنْهَا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[2]...)[3].

وقبل ذلك بيَّن أنَّ من سر العبوديَّة لله إصلاح القلب من الفساد، وأنَّ ذلك لايتحقق إلاَّ بتعبئة القلب بحب الله والخضوع له، ويقول: (ومن أعظم أسباب البلاء أعراض القلب عن الله، فإنَّ القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيءٌ قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لايترك محبوبًا إلاَّ بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه، فالحب الفاسد إنَّما يصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر، قال تعالى في حق يوسف (عليه السلام): ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[4]، فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبوديَّة لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص، وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج،

---

(١) سورة الشمس: الآيتان (٩، ١٠).

(٢) سورة الأعلى: الآيتان (١٤، ١٥).

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/١٨٨، (مرجع سابق).

(٤) سورة يوسف: الآية (٢٤).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ [1]. فإنَّ الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله، وهذا المحبوب أكبر من دفع المكروه، فإنَّ ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها)[2].

وقال - أيضًا - في مكان آخر: (إنَّ ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك)[3].

ثُمَّ إنَّ انسجام المكلف مع حقائق الوجود، وشعوره بوجوده هو لايتحقق إلاَّ بعبوديته لله (وإذا تبين هذا، فكلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبوديَّة، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وحريّة عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائيّة، ومن جهة الاستعانة والتوكل،وهي العلة الفاعليَّة، فالقلب لايصلح، ولايفلح، ولايلتذ، ولايسعد ولايطيب، ولايسكن، ولايطمئن إلاَّ بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذَّة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لايحصل إلاَّ بإعانة الله له، لايقدر على تحصيل ذلك له إلاَّ الله، فهو دائم مفتقر إلى حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [4])[5].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٥).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/١٨٧، ١٨٨، (مرجع سابق).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/١٨٩، (المرجع السابق نفسه).

(٤) سورة الفاتحة: الآية (٥).

(٥) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/١٩٤،١٩٣، (المرجع السابق=

٤ - آثار العبادة في الفرد وفي الأمّة:

تبين - فيما سبق - الإطار العام للعبادة، وما يعنيه تحقيق العبوديّة لله من قيام الحياة برمتها وفقاً لشرع الله، وأنَّ العبادة تشمل جميع جوانب حياة المسلم إذا أراد بها وجه الله واستقام فيها على صراط الله المستقيم.

وتبين - أيضًا - أنَّ من أسرار العبادة شكر المنعم والاعتراف له بالجميل والثناء عليه والخضوع له والاستسلام لعظمته، ومن أسرارها - أيضًا - انسجام العبد مع فطرته ومع حقائق الوجود، فالكل قانت لله بالتسخير، ويتميَّز الإنسان بأنَّه مخيَّر في الإقبال على طاعة الله وله الأجر والثواب، أو الإعراض وعليه تبعات ذلك من الوعيد والعذاب.

ولعل - فيما سبق - كذلك مايوضح بعض آثار العبادة على الفرد والمجتمع، ولايتسع المجال لبيان ذلك بالتفصيل، ولذا فيقتصر هنا على أبرز آثار العبادة في معناها الخاص، وبخاصة العبادات الأربع؛ الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، على النحو الآتي:

أولاً: الصلاة:

وهي في اللغة: (الدعاء، والتَّبْريك والتمجيد)[١]، ولها معانٍ أخرى كثيرة منها، الاستغفار، والرحمة، والتزكية واللزوم[٢]، والصلاة في الشرع: (أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم)[٣].

=نفسه)، وانظر: ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ٤٦٣/١ - ٤٦٥، (مرجع سابق).

(١) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (صلَى)، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه، وانظر: ابن منظور: لسان العرب: مادة (صلا)، (مرجع سابق).

(٣) شرف الدين أبو النجا الحجاوي: الروض المربع شرح زاد المستقنع، مختصر المقنع في فقه الإمام أحمد ٣٨/١، بشرح: منصور بن يوسف البهوتي، الطبعة السادسة، (بدون تاريخ).

قال الراغب الأصفهاني: (والصلاة التي هي العبادة المخصوصة، أصلها الدعاء، وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه)[1].

وقال - أيضًا -: (والصلاة من العبادات التي لم تنفك شريعة منها، وإن اختلفت صورها بحسب شرع فشرع)[2].

وقد أكّدَ الإسلام على ضرورة إقام الصلاة، وجعلها عمود الإسلام، وجاءت الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة تأمر بالصلاة وتحث عليها بصيغ متنوعة، وأساليب كثيرة. منها: الأمر الصريح بإقامتها وحسن أدائها. ومنها: أمر الأهل بها. ومنها: أمر الأنبياء والمرسلين بإقامتها والصبر عليها والوصية بذلك. ومنها: مدح المقيمين لها المداومين عليها. ومنها: ذم المتساهلين بها الساهين عنها. ومنها: بيان فضلها وأهميتها والأمر بها أو الحث عليها مقترنة بالفضائل والصفات الحميدة[3].

ومن الصلاة في الإسلام ماهو فرض كالصلوات الخمس. ومنها ما هو مندوب أو سنّة مؤكدة كالسنن الرواتب، ومنها ما هو نافلة، وقد يدخل في بعض صورها التحريم أو الكراهة[4]، كما أنّهَا عبادة توقيفيّة لايصح أن يزاد عليها، ولا أن ينقص منها بل تؤدي وفقًا لما فرضه الشارع وندب إليه وأباحه وما خرج عن ذلك فهو بدعة[5].

وللصلاة شروط وأركان وواجبات وسنن وآداب، ويشترط لها كذلك

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (صلّى)، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر: محمد أبو الفتح البيانوني: العبادة... ص ١٠٠ - ١٠٣، (المرجع السابق نفسه).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١١٤.

(٥) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١١٤.

الطهارة، والوضوء وللطهارة والوضوء سنن وواجبات ومقتضيات كثيرة ومتنوعة، وكل ذلك مبسوط في كتب السنّة والفقه وغيرها من كتب التفسير والأحكام.

وعندما تؤدي الصلاة في ضوء الكتاب والسنَّة ووفقاً لما أداه الرسول ﷺ، وهو القائل: « صلوا كما رأيتموني أصلي »[1]، فإنَّها عندئذٍ تحقق منافع جمة تعود بالخير على الفرد والمجتمع، ومن أهم آثار ذلك على الفرد الآتي:

أ- دوام صلة العبد بربه وتجديدها، وتتمثل هذه الصلة في الأعمال والأقوال، وكذلك النيَّة والقصد؛ لأنَّ الصلاة - كما سبق ذكر ذلك - تجمع أنواع العبادات (الاعتقادية، والقلبيَّة، واللفظية، والبدنية)، وعندما يؤدي العبد صلاته فإنَّه يغذي نفسه بذكر الله وعبادته وطاعته ويطهر نفسه من أدران الذنوب والخطايا، ويقيها من الغفلة عن الله، وقد شبَّه الرسول ﷺ الصلاة في عملها هذا بنهر يغتسل فيه العبد خمس مرات كلَّ يوم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيءٌ ؟ » قالوا: لايبقى من درنه شيءٌ. قال: « فكذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا »[2].

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري: ١/٢٢٦، باب الأذان للمسافر...، الحديث رقم (٦٠٥)، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١/٤٦٢، ٤٦٣، كتاب المساجد ومواضع الصلاة؛ باب [٥١] الحديث رقم [٦٦٧]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (مرجع سابق).

ب - وفي اتجاه المسلم إلى القبلة في صلاته رمز لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، ورمز لوحدة المسلمين العالميَّة، حيث تتكون الأُمَّة من مجموعة الأفراد فإذا التزم كلُّ فرد بهذا القصد وتلك الغاية نتج عن ذلك وحدة الأُمَّة في عقيدتها وعبادتها، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[1]، ويبلغ التسليم والذل والخضوع بالمسلم غايته لله تعالى في حالة السجود.

يقول أحد الباحثين: (إنّ العبد وهو يقف أمام مولاه تبارك وتعالى في سجوده إنَّما يبلغ الغاية في الخضوع والتذلل، وينصب أشرف أعضائه على أذلِّ شيء في الوجود.. الأرض....، ويهتف بأعظم كلمة يعلن بها عظمة الله وعلوه، فيقول: «سبحان ربي الأعلى»، وهنا تتفق روعة الهيئة والمكان[2]، مع روعة البيان والإعلان. وإذا سجد فك سلاسل التقليد،

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٤٤).

(٢) الأصل في الأرض الطهارة، وقد جُعلَت الأرض للرسول ﷺ ولأمته مسجدًا وطهورًا، وهذا مِمَّا خصَّ به الرسول ﷺ (تقدم ذكر ذلك)، ولايستثنى من ذلك إلاَّ ما ورد النهي عن السجود فيه مثل أماكن النجاسة أو المقابر؛ انظر: منصور بن يونس بن إدريس البهوتي: شرح منتهى الإرادات: ص ١٥٦، (حيث ذكر سبعة مواضع لاتصح الصلاة فيها، وفي ذلك تفصيل وخلاف)، نشر إدارة البحوث العلمية والإفتاء... - الرياض، (بدون تاريخ).

والشاهد من ذلك أنَّ مواضع السجود تشرف بالعبادة مع كونه مظهرًا من مظاهر الذل والخضوع؛ لأنَّ ذلك الذل والخضوع مصروف لمستحقه وهو الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

ومن هنا جاءت العناية بالمساجد من حيث التشريف والتعظيم والمحافظة على نظافتها وطهارتها وعمارتها بالصلاة والذكر والدعاء، إلى جانب عمارتها الحسيَّة بالتشييد=

السلاسل التي فرضها عليه المجتمع والأعراف والعادات والآداب، فخر ساجدًا لله تعالى، يمرغ وجهه، ويعفر جبينه، وأعطى القلب زمامه، وأرسل النفس على سجيتها، فلا حجر على الخشوع، ولا ملامة على الدموع...)[1].

ج - ومن آثار الصلاة على المسلم أنها من أسباب استقامته وصلاح أخلاقه، وسلامة قلبه وروحه وعقله، وقد جاء الأمر بها في القرآن الكريم مقرونًا بالبر، وبالمسلك الحسن، وبالإخلاص وبالشكر وبالأمن والرخاء، والفضل والرزق والطهارة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[2]، وقال تعالى في حق نساء الرسول: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

=والبناء، ولكل ذلك أحكامه وآدابه وهديه من القرآن والسنة وإجماع الأمَّة وسار عليه المسلمون في تاريخهم القديم والحديث. لمزيد الاطلاع؛ انظر: مجلة البحوث الإسلاميَّة، المجلد الأول، العدد الثاني: ص ٤٣٣ - ٦٠١، الصادرة عن الرئاسة العامَّة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء..، الرياض.

(١) رفعت فوزي عبدالمطلب: أركان الإسلام الخمسة (أحكامها وآثرها في بناء الفرد والمجتمع): ص ٦٣، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، عن دار السلام.. بيروت، والأصل في قول: «سبحان ربي الأعلى» حديث الرسول ﷺ: «إذا سجد أحدكم فليقل: سبحان ربي الأعلى» رواه أبو داود في سننه ١/٢٣٠، (مرجع سابق).

(٢) سورة العنكبوت: الآية(٤٥).

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).

تُرْحَمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

ولا غرو أن تبعث الصلاة على الاستقامة الشاملة وهي تربط الإنسان بربه فيستشعر عظمته ومراقبته له واطلاعه عليه، وإحاطته بسره وجهره، ثُمَّ هو في موقف اختبار دائم من خلال هذه الصلاة التي هي الصلة بين العبد وربه فلابُدَّ أن يحرص العبد على سلامتها وحسنها، وذلك يقتضي أن تأخذ أثرها في شأنه كله قلبًا وقالبًا، وبالتالي فإنَّ الصلاة تضفي على المسلم (من تهذيب للأخلاق وتقويم للسلوك.. وانقياد لإرادة الله وخشيته ومحبته سبحانه)[3] ما يصلح حياته في علاقته بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بمن حوله من الأهل والأقارب والمجتمع بعامَّة.

أمَّا آثار الصلاة على المجتمع فهي أكثر من أن تحصى، ويُمكن أن يذكر منها الآتي:

أ - بث روح الجماعة بين المسلمين وما تقتضيه من تعاون على البر والتقوى، والتراحم، والتناصر، والتواصل، ولذلك شرعت صلاة الجماعة لقوله تعالى: ﴿ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة النور: الآية (٥٦).

(٢) سورة النور: الآيات (٣٦ - ٣٨).

(٣) فهد بن عبدالرحمن الرومي: الصلاة في القرآن الكريم (مفهومها وفقهها): ص ٣٨، الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ (لم يذكر الناشر). وانظر: ابن قيم الجوزية: الوابل الصيب: ص ٢١، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، الطبعة الثانية، عن مكتبة البيان، دمشق، (بدون تاريخ).

(٤) سورة البقرة: الآية (٤٣).

قال ابن كثير: (استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة)[1].

واستدلوا أيضًا بكون الصلاة في جماعة مأمور بها حتى في ساحة المعركة ومع العنوف لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾[2]، فدلَّ ذلك على أن الجماعة في حال الأمن آكد، واستدل العلماء كذلك بقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[3].

واستدلوا بأحاديث كثيرة؛ منها: ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أن الرسول ﷺ فقدَ ناسًا في بعض الصلوات فقال: «لقد هممتُ أنْ آمر رجلاً يصلي بالناس، ثُمَّ أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فآمر بهم فيُحَرِّقوا عليهم بحزم الحطب، بيوتهم»[4]، وقوله ﷺ: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[5].

والأدلة في ذلك كثيرة ناقشها الفقهاء في مظانها من كتبهم[6]، وليس القصد - هنا - بحث ذلك، وإنَّما الإشارة إلى أهميَّة أن تؤدي

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٨٦، (مرجع سابق). وانظر: فهد الرومي: الصلاة..: ص ٩٦، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة النساء: الآية (١٠٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٩).

(٤) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١/٤٥١، كتاب المساجد ومواقع الصلاة، باب [٤٢]، الحديث رقم [٦٥١]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٥) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١/٤٥٠، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب [٤٢]، رقم الحديث [٦٥٠]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٦) انظر: منصور البهوتي: شرح منتهى الإرادات: ص ٢٤٤ - ٢٥٣، (مرجع سابق).

الصلاة في جماعة وفي المساجد والجوامع سواء الصلوات الخمس المفروضة أو الجمعة أو صلاة العيد أو الاستسقاء أو الكسوف والخسوف، وفي ذلك كله بَثٌّ لروح الأُخُوَّة الإسلاميَّة وما توجبه من التواصل والتواصي بالحق والتواصي بالصبر تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (١).

ب - إظهار شعائر الإسلام وتعظيمها، وإشهار ذلك بصفة عامَّة وحيث إن الصلاة (أعظم العبادات وأشملها وأتمها فإنَّه من الواجب أن تشيع بين المسلمين، وأن يجتمعوا لها، وإذا كان في (الأُمَّة) العلماء الذين يقتدى بهم وضعفاء يتهاونون في الصلاة لولم يؤدوها في جماعات على رؤوس الأشهاد. فلا أنفع ولا أوفق بالمصلحة في حق هؤلاء جميعًا أن يكلفوا أن يطيعوا الله على أعين الناس؛ ليتميز فاعلها من تاركها، وراغبها من الزاهد فيها، ويقتدى بعالمها، ويعلم جاهلها، وتكون طاعة الله فيهم كسبيكة تعرض على طائف الناس، ينكر منها المنكر، ويعرف منها المعروف، ويرى غِشَّها وخالصها، وأيضًا فلاجتماع المسلمين؛... راجين راهبين... مُسَلِّمين ووجوهم لله خاصية عجيبة في نزول البركات، وتدلي الرحمة... فمراد الله من نصب هذه الأُمَّة أن تكون كلمة الله هي العليا، وألا يكون في الأرض دينٌ أعلى من الإسلام، ولايتصور ذلك إلا بأن تكون سنتهم أن يجتمع خاصتهم وعامتهم، وحاضرتهم وباديتهم، وصغيرهم وكبيرهم لما هو أعظم شعائره، وأشهر طاعاته، فلهذه المعاني انصرفت العناية التشريعية إلى شرع الجمع والجماعات، والترغيب فيها،

---

(١) سورة العصر: الآيات (١- ٣).

وتغليظ النهي عن تركها)[1].

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[2].

ومن شعائر الإسلام التي تميزت بها الأمة الإسلامية الأذان وهو الإعلان عن دخول وقت الصلاة والدعوة إلى أدائها. قال عنه أحد العلماء: (الأذان مقصوده الإعلام بأوقات الصلاة تنبيهًا على أن الدين قد ظهر، وانتشر علم لوائه في الخافقين، واشتهر، وسار في الآفاق على الرؤوس فبهر، وأذل الجبابرة وقهر)[3].

وقال أيضًا: (واعلم أن الأذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملة على نوعيَّة من العقليات، والسمعيات، فأوله إثبات الذات، وما يستحقه من الكمال، والتنزيه عن الأضداد، وذلك بقوله: (الله أكبر)، وهذه اللفظة مع اختصار لفظها دالة على ما ذكر، ثُمَّ صرح بإثبات الوحدانية، ونفي ضدها من الشرك... في حقه سبحانه وتعالى، وهذه عمدة الإيمان والتوحيد المقدمة على وظائف الدين، ثُمَّ صرح بإثبات النبوة، والشهادة بالرسالة لنبينا ﷺ، وهي قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية... ثُمَّ دعا إلى ما دعاهم إليه من العبادات التي هي حكمة الدنيا فدعاهم إلى الصلاة)[4].

---

(١) رفعت فوزي عبدالمطلب: أركان الإسلام... ص ٨١، (مرجع سابق).

(٢) سورة الحج: الآية (٤١).

(٣) إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي: الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان: ص ٥٣، تحقيق: مجدي فتحي السيد، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، عن مكتبة الرشد، الرياض، وانظر: إميل درمنغم: حياة محمد: ص ٢٩٠، ترجمة: عادل زعيتر، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٦٠.

وبهذا يتضح تأثير الصلاة في الفرد والأُمَّة وأنها (بمنزلة القلب من الجسد، فبصلاحها يصلح وبفسادها يفسد... ومن هنا كانت أول ركن عملي شرع من أركان الإسلام، وكانت أول عمل ينظر فيه من عمل المرء، فإن قبلت منه نُظرَ فيما بقي من عمله، وإن لم تقبل لم ينظر في شيء من علمه)[١].

ثانيًا: الزكاة:

وهي في اللغة: من الفعل (زكى) ويدل على معانٍ عدَّة منها النماء والزيادة والطهر. قال ابن فارس: (والأصل في ذلك كله راجع إلى هذين المعنيين، وهما النماء والطهارة)[٢].

وعرّفت الزكاة في الاصطلاح بتعريفات كثيرة؛ منها: (اسم لإخراج شيء مخصوص، من مال مخصوص على وجه مخصوص)[٣].

ومنها: (مال مخصوص يخرج من مال أو بدن مخصوص على وجه مخصوص)[٤].

ومنها: (هي حق واجب في مالٍ مخصوص، لطائفة مخصوصة، وفي وقت مخصوص)[٥].

ومهما كانت هذه التعريفات تلم بالزكاة من حيث أحكامها

---

(١) محمد أبو الفتح البيانوني: العبادة... ص ١٣١، (مرجع سابق).

(٢) معجم مقاييس اللغة: مادة (زكى)، (مرجع سابق).

(٣) شمس الدين الزركشي: شرح الزركشي: ٣٧٢/٢، تحقيق: عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، (مرجع سابق).

(٤) محمد حسن أبو يحيى: أهداف التشريع الإسلامي: ص ٣٤٤، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، عن دار الفرقان – الأردن.

(٥) المرجع السابق: ص ٣٤٤.

ومشمولاتها ومن تجب عليه ومن تجب له ومقدارها، والأنواع التي تجري فيها إلا أنَّ التركيز هنا على الزكاة باعتبارها (العبادة المالية الاجتماعية المهمة، وهي الفريضة الثانية في الإسلام، قرنها القرآن بالصلاة في عشرات المواضع، وذكرها تارة بلفظ الزكاة، وطورًا بلفظ الصدقة، وأحيانًا بلفظ الإنفاق)[1].

وبلغ أمر الاهتمام بشأنها وهي قرينة الإيمان والصلاة والعمل الصالح، أن قاتل أبو بكر الصديق وهو خليفة رسول الله ﷺ عليها من منع أداءها وأقرته الأُمَّة على ذلك، وحكمت على من لم يؤدها لبيت مال المسلمين بالردَّة عن الدين، وقد رُويَ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «والله لأقاتلنَّ من فرَّقَ بين الصلاة والزكاة»[2].

كما أنَّ الزكاة من العبادات المعروفة في الأديان السابقة للإسلام التي تبرز (جانب البر بالفقراء والإحسان إلى المساكين)[3] في الأديان السماويَّة بيد أنها في الإسلام بلغت ذروة التمام والكمال شأنها في ذلك شأن سائر أركانه وشعائره وهديه، (إنَّها ركن من أركان الإسلام، ودعامة من دعائم الإيمان وإيتاؤها - مع إقامة الصلاة والشهادة لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة - عنوان الدخول في الإسلام، واستحقاق أُخُوَّة المسلمين: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾[4]، ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ

---

(١) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٣٥، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١/٥٠٧، كتاب الزكاة، باب [١] الحديث رقم [١٣٣٥]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان.

(٣) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٣٧، (مرجع سابق).

(٤) سورة التوبة: الآية (٥).

فِي ٱلدِّينِ ﴾[1]..., والزكاة في الإسلام ليست (تبرعًا) يتفضل به غني على فقير، أو يحسن به واجد إلى معدم، إنَّها أبعد من ذلك غورًا، وأوسع أفقًا، إنَّها جزءٌ مهم من نظام الإسلام الاقتصادي... الفريد، الذي عالج مشكلة الفقر، أو مشكلة المال على وجه عام، قبل أن تعرف الدنيا نظامًا عني بعلاج هذا الجانب الخطير من حياة الإنسان)[2].

وإنَّ للزكاة في جميع أنواعها آثارًا حميدة تعود بالخير على الفرد والأُمَّة، منها على سبيل الإيجاز الآتي:

أ - تهذيب النفوس البشريَّة وتطهيرها من عوامل الأثرة والشح والبخل، وسيطرة المال بمختلف صوره على نفوس الأغنياء من جهة، وتطييب لنفوس الفقراء والمساكين والمستحقين للزكاة من الفئات الأخرى، والإسهام في إغنائهم ودفع غائلة الحاجة عنهم وما تسببه من مفاسد وانحرافات، قد تضر بسلامة الأُمَّة وأمنها، وتسبب الفوضى في المعتقدات والسلوك، وهذا واقع المجتمعات الأُخرى، أمَّا مجتمعات الأُمَّة الإسلاميَّة فإنها وبقدر ما تلتزم بشرع الله ومنه أداء الزكاة المفروضة تسهم في قيام نظام اجتماعي متوازن يتحقق فيه التضامن والتكافل والتراحم والتعاطف والإلفة والمحبَّة؛ يعطي الغني فيه الفقير من ماله الذي هو في تصوره واعتقاده مال الله وهو مستخلف فيه مسؤول عنه، وأن

---

(١) سورة التوبة: الآية (١١).

(٢) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٣٨، (مرجع سابق). وانظر: رفعت فوزي: أركان الإسلام... ص ١٠٢ - ١٠٤ (مرجع سابق). وانظر: أثر تطبيق النظام الاقتصادي في المجتمع (من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة بالرياض ١٣٩٦ هـ)، ونشرته ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م: ص٧، ٨، ٢٨١، ٣٠٧، ٣٨٠، ٣٨٦ - ٣٩٤، ٤٣٤ - ٤٣٦، ٥١٠، ٥١١، ٥٧٦.

عليه فيه حقوقًا متنوعة ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [1]، ابتغاء مرضاة الله والفوز بثوابه، فيخرجه أداءً للواجب وبراءة للذمَّة من غير استعلاء ولا منَّة، بل عبادةً لله وشكرًا واستثمارًا للبركة التي يرجو أن يطرحها الله في ماله، ويأخذه الفقير والمستحق بصفة مشروعة، والمنَّة في ذلك والشكر لله، مع الشعور بالأخوة الإسلاميَّة التي أوجبت له في مال أخيه ما يسهم في سد حاجته.

يقول الماوردي عن الزكاة هي: (مواساة للفقراء، ومعونة لذوي الحاجات تكفهم عن البغضاء، وتمنعهم من التقاطع، وتبعثهم على التواصل)[2].

وفي هذا السياق فإنَّ الإسلام تفرد في نظام الزكاة ونحوها من النفقة والصدقة والكرم والإيثار بآداب سامية، حيث نهى الباذل أن يلحق ما بذله شيئًا من الأذى والمنَّة ونحوهما، وذهب بعض العلماء إلى أن المنّ من كبائر الذنوب[3].

ومن الآداب التي أرشد الإسلام الفقير إليها أن يشكر الله أولاً ثُمَّ يشكر من أعطاه ويدعو له ويثني عليه ولايستصغر المبذول له أو يذمه،

---

(1) سورة المعارج: الآية (٢٥).

(2) أدب الدنيا والدين: ص ٧٣، طبعة دار الصحابة، القاهرة، (بدون تاريخ)، وانظر: أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام: ص ٢٠٣، ٢٠٤، (مرجع سابق).

(3) انظر: أحمد عبدالرحمن إبراهيم: المرجع السابق نفسه: ص ٢٠٧، ٢٠٨، وانظر: شمس الدين المقدسي: الآداب الشرعية ٣٣٦/١، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر، الطبعة الثانية: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت، حيث قال: «ويحرم المنُّ بما أعطى، بل هو كبيرة على نص أحمد رضي الله عنه»، واستشهد على ذلك بحديث أخرجه الإمام أحمد، وآخر أخرجه مسلم. انظر: المرجع السابق نفسه: ٣٣٦/١.

كما أنَّ عليه ألا يأخذ إلاَّ بقدر حاجته ولايستكثر بما يعطى، وأن يعتمد على الله ثُمَّ على نفسه فيجد ويجتهد للكسب من عمله، وهذا ما حثَّ عليه الإسلام، أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لأنْ يأخذ أحدكم حبله ثُمَّ يغدو - أحسبه قال - إلى الجبل، فيحتطب، فيبيع، فيأكل ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس»[1].

ب - الزيادة والنماء في المال المزكي، وإن كانت الزكاة في ظاهرها، تنقص المال باعتبارها أخذت بعضه، إلا أن الزكاة - بموعود الله - سببٌ لزيادة المال ونموه ومضاعفته، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[2]، وقال الرسول ﷺ - فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه -: «ما نقصت صدقة من مال»[3]، وأخرج الإمام أحمد عن أبي كبشة الأنماري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن... ما نقص مالَ عبدٍ صدقة، ولا ظلم عبد بمظلمة فيصبر إلاَّ زاده الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ولايفتح عبدٌ بابَ مسألة إلاَّ فتح الله له باب فقر»[4].

---

(١) صحيح البخاري ٥٣٨/١، ٥٣٩، كتاب الزكاة، باب [٥٢] الحديث رقم [١٤١٠]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق). وقبل هذا الحديث وردت عدّة أحاديث تنهى عن المسألة وتحث على العمل والعفّة والقناعة، وبعضها يجيز قبول ماجاء في المال من غير استشراف إليه ولا سؤاله.

(٢) سورة سبأ: الآية (٣٩).

(٣) أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ٢٠٠١/٤، كتاب البر والصلة والآداب، باب [١٩]، الحديث رقم [٢٥٨٨]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٣١/٤، ورقم الحديث [١٧٥٧٠]، ترتيب: دار إحياء التراث العربي، (٢٧٣/٥)، (مرجع سابق).

ج – ومن آثار الزكاة أنها تعمل على كسر حدَّة الفوارق بين فئات المجتمع المسلم، ومع أنَّ نظام الإسلام الاقتصادي يقدر (التفاوت الفطري في الأرزاق بين الناس، وأنَّه ناشيءٌ عن تفاوت فطري آخر في المواهب، والملكات، والقدر، والطاقات، لكن هذا التفاوت الفطري في الرزق ليس معناه أن يدع الغني يزداد غنىً، والفقير يزداد فقرًا، فتتسع الشقة بين الفريقين ويصبح الأغنياء طبقة... تعيش في أبراج من العاج، ويصبح الفقراء طبقة... تموت في أكواخ من البؤس والحرمان، بل تدخل الإسلام بتشريعاته القانونية، ووصاياه الروحيَّة والخلقيَّة لتقريب المسافة بين هؤلاء وأولئك، فعمل على الحد من طغيان الأغنياء، والرفع من مستوى الفقراء)[1].

وتأتي الزكاة في مقدمة ما شرعه الإسلام لتحقيق هذا الهدف النبيل، وأحاطها بالترغيب والترهيب، وقرنها بالصلاة والإيمان والطهر والتزكية والفضل والنماء، وغير ذلك من المبادئ والقيم والفضائل لتؤدي وظيفتها على أكمل وجه، ويكفي كنموذج على الترغيب في أداء الزكاة وفي الإنفاق بعامة قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، وأمَّا في الترهيب من التهاون فيها فكقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ

---

(١) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٦٢، (مرجع سابق). وانظر: رفعت فوزي عبدالمطلب: أركان الإسلام...: ص ١٤٥، ١٥١، (مرجع سابق).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٦١).

ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

ثالثًا: الصوم:

وهو في اللغة: من الفعل صام يصوم صومًا[2]، قال ابن فارس بأنَّه: (أصل يدل على إمساك وركود في مكان، من ذلك صوم الصائم هو إمساكه عن مطعمه ومشربه وسائر ما مُنِعَه، ويكون الإمساك عن الكلام صومًا... وأمَّا الركود فيقال للقائم صائم... والصوم ركود الريح، والصوم استواء الشمس انتصاف النهار كأنها ركدت عند تدويمها، وكذلك يقال صام النهار)[3].

وعرّف الصيام أو الصوم في الشرع بتعريفات عدَّة، منها: (إمساك مخصوص، في وقت مخصوص، على وجه مخصوص)[4].

ومنها: (إمساك عن أشياء مخصوصة، بنيَّة في زمن معين من شخص مخصوص)[5].

ومنها: (الإمساك عن جميع المفطرات من أكل وشرب ونكاح بنيَّة، وذلك طيلة النهار، أي من الفجر وحتى غروب الشمس)[6].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨٠).

(٢) انظر: ابن منظور: لسان العرب: مادة (صام)، (مرجع سابق).

(٣) معجم مقاييس اللغة: مادة (صام)، (مرجع سابق).

(٤) شمس الدين الزركشي: شرح الزركشي... ٢/٥٤٩، تحقيق: عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، (مرجع سابق).

(٥) شرف الدين المقدسي: الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل ١/٣٠٢، تصحيح وتعليق: عبداللطيف السبكي، عن المطبعة المصرية في الأزهر ١٣٥١ هـ - القاهرة. وانظر: محمد حسن أبو يحيى: أهداف التشريع... ص ٣٥٧، (مرجع سابق).

(٦) محمد حسن أبو يحيى: المرجع السابق نفسه: ص ٣٥٧.

وكما سبق القول بأنَّ مثل هذه التعريفات يهدف لبيان مشمولات المُعَرَّف من ناحية الأحكام الفقهية، وما يندرج تحتها من صور للعبادة، وتفاصيل تلك الأحكام، أمَّا المراد هنا فهو أهمية الصيام بصفته عبادة تعدُّ من أركان الإسلام ممثَّلة في شهر رمضان المبارك، وما يلحق به من أنواع أُخرى من قضاء ونذرٍ وكفارة وصيام التطوع، وعلى أيٍّ حال من تلك الأحوال فإنَّ الصيام وفقًا لضوابطه الشرعية وسننه وآدابه؛ ذو آثارٍ عميقة (في مجالات الحياة: كالصحة، والشعور بحاجة الآخرين، والتعود على الصبر، والتربية، وغير ذلك... وهو عبادة قديمة كانت موجودة في الأديان السابقة على الإسلام، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [1]، التوراة فرضت الصيام أيامًا معدودات، وكذا الإنجيل، وصام عيسى عليه السلام والحواريون، وكان الوثنيون يصومون... ولايزال الوثنيون في الهند يصومون إلى الآن) [2].

ولَمَّا جاء الإسلام أوجب صيام شهر رمضان (على كل مسلم بالغ عاقل قادر على الصوم برؤيته أو إكمال شعبان ثلاثين يومًا) [3]، ورتَّب على ذلك المغفرة ومضاعفة الأجر والرضى من الله عزوجل، يقول الرسول ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه» [4] و «من قام

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٨٣).

(٢) مصطفى إبراهيم الزلمي: فلسفة الشريعة: ص ٢٧، عن دار الرسالة للطباعة – بغداد، ١٩٧٩ م.

(٣) عبدالرحمن بن عبدالكريم العبيِّد: أصول المنهج الإسلامي: ص ٦٢، ٦٣، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤ م، مطابع الفرزدق – الرياض.

(٤) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١/٢٢، كتاب الإيمان، باب [٢٧] حديث رقم [٣٨]، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (مرجع سابق).

رمضـــان إيمانًا واحتسابـــًا غفـر له ما تقدم من ذنبه»[1] **و «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»**[2].

وإلى جانب صيام رمضان الذي هو الركن الرابع (من أركان الإسلام المعلومة من دين الله بالضرورة، وقد شهد لذلك قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾[3] إلى قوله: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[4]، وقول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**»[5] إلى غير ذلك من الأحاديث)[6].

إلى جانب صيام هـذه الفريضة نـدب الإسلام إلى الصيام الذي قد يبلغ صيام يوم وترك يوم، عدا أيَّام العيد والتشريق، والشاهد من ذلك أنَّ الإسلام حثَّ على الصيام لما ينطوي عليه من حكم وأسرار (نعرف

---

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري١/٢٢، كتاب الإيمان، باب [٢٦] حديث رقم [٣٧]، المرجع السابق نفسه.

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخـــاري ٢/٦٧٢، كتاب الصـــوم، باب [٦] رقـــم الحديث [١٨٠٢]، تحقيق: مصطفى ديب البغا (المرجع السابق نفسه).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٨٣).

(٤) سورة البقرة: الآية (١٨٥).

(٥) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ١/١٢، كتاب الإيمان، باب [٢] الحديث رقم [٨]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق)، وأخرج مسلم نحوه بألفاظ متقاربة، كتاب الإيمان الباب [٥]، وعنوانه: (باب بيان أركان الإسلام، ودعائمه العظام): ١/٤٥، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٦) شمس الدين الزركشي..: شرح الزركشي: ٢/٥٤٩، (مرجع سابق)، وقد أورد الحديث بلفظ: (... وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً) وبترتيب الصلاة ثُمَّ الزكاة ثُمَّ الصوم ثُمَّ الحج، و لم أجد الزيادة «من استطاع إليه سبيلاً» عند البخاري ومسلم.

منها ما نعرف ونجهل ما نجهل، ويكشف الزمن عن بعضها ما يكشف)[1]، وقبل الكلام في آثاره على الفرد والأُمَّة ينبغي ذكر مراتب الصوم في الإسلام، وقد جعلها بعض الباحثين على ثلاث مراتب هي:

المرتبة الأولى: (الإمساك عن الطعام والشراب والشهوات.

المرتبة الثانية: صوم الجوارح عن ارتكاب الآثام والإجرام؛ فصوم اليد: إمساكها عن الأذى، والاعتداء بها على حقوق الآخرين، وصوم الرجل: إمساكها عن المشي إلى الفساد، والذهاب بها إلى عمل الشر، وصوم اللسان: إمساكه عن كل قول يؤذي قلوب الآخرين، وصوم الأُذُن: إمساكها عن كل ما هو شر للفرد والمجتمع.

المرتبة الثالثة:... صوم القلوب وتطهيرها عن كل ما لايناسب الإيمان، ولايلائم الإخلاص، تطهير النفس عن التفكير في إلحاق الأذى بالآخرين، والامتناع عن تصميم أعمال الشرور والجرائم، تطهير النفس من الحقد والحسد، والأنانيَّة، والكبر، واللؤم، وروح العداء، والتفرقة، وسوء المعاشرة مع الآخرين)[2].

أمَّا آثار الصيام على الفرد والمجتمع فإنَّها بقدر ما تكتسب من هذه القيم والفضائل التي شملت القلب والعقل واللسان واليد والقدم – فيما ذكر أعلاه – بقدر ما ينعكس أثر ذلك على حياة الفرد فيعيش في أمن وسعادة وطمأنينة، وعلى الأُمَّة فتحقق عبوديتها لله – عَزَّ وَجَلَّ – وتلتزم

---

(١) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٧٢، (مرجع سابق).

(٢) مصطفى إبراهيم الزلمي: فلسفة الشريعة: ص ٢٨، (مرجع سابق). وانظر: الغزالي إحياء علوم الدين (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الزبيدي) ٤/٤٠٥، (مرجع سابق).

صراطه المستقيم الذي يوصلها بالتقوى والسيادة والعلو، وتحقيق الخيريَّة المنوطة بها، وإلى ذلك فإنَّ من آثار الصوم في حياة الفرد والمجتمع الآتي:

أ - تَرْبِيَةُ الفَرْد تربية قوية تتجلى فيها العبوديَّة لله في نواحٍ عدَّة منها: (تعويده على الصبر، وهو قمة الأخلاق وروح الفضائل الإنسانية...، وعلى أن يراقب الإنسان نفسه بنفسه، وأن يحاسب نفسه بنفسه قبل أن يحاسبه غيره، وفي الصوم تعويد على أن يكون ظاهر الإنسان موافقًا لباطنه، وسره مطابقًا لعلنه؛ لأنَّ الصيام عبادة بين العبد وبين الله، يمتنع الصائم سرًّا عن كل ما هو محرم عليه، كما يمتنع علنًا، ومن هذه الناحية لاتشبه عبادة أخرى في مطابقة الظاهر للباطن وموافقة السر للعلن، وفي الصوم تعود المؤمن على أن لايعرف الذلة والاستكانة، ولا الخضوع المطلق إلا لله.

وهنا نقطة جوهريَّة يجب أن ينتبه إليها المسؤولون في كل بلاد العالم؛ وهي: أنَّ الوازع الديني يفعل في النفوس ما لايفعله وازع القوة والسلطان، فإذا تعود الإنسان عن طريق الدين على أن يستمع إلى صوت ضميره، وأن يراقب نفسه بنفسه، وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه غيره، فقد أمن المجتمع من بوائقه، واستراح الناس من شروره، أمَّا إذا كان الاعتماد على القوة والخوف والسجن والفصل والطرد والنفي، فإنَّ الإنسان تزداد رُدودُ فعله، ويزداد غليان حقده على كل شيء، حتى على نفسه، وبذلك يتبع ألف حيلة وحيلة للتخلص من سلطان القانون، وتنفيذ ما تسول له نفسه سرًّا)[1].

ب - وللصيام آثارٌ تعود بالخير والنفع على المجتمع من أهمها:

---

(١) مصطفى إبراهيم الزلمي: فلسفة الشريعة: ص ٢٨، ٢٩، (مرجع سابق).

(المساواة بين الأغنياء والفقراء،... فالمسلمون حين يفطرون في وقتٍ واحد، لايتقدم أحدٌ على الآخر، يمتنعون جميعًا عن المأكل والمشرب في وقت واحد، فما ذاك إلا مظهر اجتماعي عظيم من مظاهر الوحدة والمساواة، ومظهر المساواة ميزة وخاصيَّة امتازت بها الأُمَّة الإسلاميَّة، وتفردت به على جميع الأمم، فليس هناك دستور ولا قانون، أمر بالمساواة، ودعا إليها، وطبقها الأفراد مثل ما فعل الدين الإسلامي الحنيف، وهذا يتجلى في كثير من العبادات التي أحدها الصيام)[1].

ومن آثار الصيام على المجتمع أنَّه يشعر الأُمَّة بوحدتها حيث فرض على جميع المسلمين صيام (شهر واحد بعينه ليصوموا جميعًا لا متفرقين، وفي ذلك أيضًا الكثير من المنافع حيثُ يكون فيهم الشعور العام بأنَّهم جميعًا جماعة واحدة، تلك وسيلة ناجحة لتنشأ فيهم عاطفة التحاب والإخاء والمساواة والتعاون والوحدة)[2].

ج - وللصيام آثارٌ صحيَّة ونفسية واقتصادية تعود فائدتها على الفرد وعلى المجتمع، وتحدثت عنها بعض الدراسات المتخصصة وأثبتت أنٍ الصيام علاوة على كونه شرع (تزكية لنفس الإنسان، وتهذيباً لسلوكه)[3]، فإنَّه كذلك شرع (وقاية وعلاجاً مِمَّا قد يصيبه من علل

---

(١) محمد سالم محيسن: أركان الإسلام في ضوء الكتاب والسنة وأثرها في تربية المسلم: ص٢٢٢، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م عن دار الكتاب العربي - بيروت. وانظر: يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٧٧، ٢٧٨، (مرجع سابق).

(٢) محمد بن أمين أبو بكر: العبادة وأثرها... ص ١٢٣، مجلة كلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب، (مرجع سابق).

(٣) عبدالجواد الصاوي: الصيام معجزة علميَّة (دراسة عن الحقائق العلميَّة في الصيام): ص ٢٠٨، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ/١٩٩٣ م عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة، منشورات: دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة- جدة.

وآفات، في نفسه وجسده من جراء كثرة الأكل ودوامه)[1]، ولذلك قال الرسول ﷺ فيما رُويَ عنه: «صوموا تصحُّوا»[2]، وقال أيضًا: «الصوم جنَّة»[3].

يقول أحد الباحثين عن أثر الصوم في الناحية الاقتصادية: (ليعلم الجميع أن الصيام مدرسة عملية للاقتصاد، وتعويد النفس الصبر، والجلد وقوة التحمل عند الأزمات والملمات، وضبط النوازع والرغبات، وكل هذا لايريده أعداء المسلمين، فتناشد الجميع أن يفطنوا لذلك، ويحرصوا على جني ثمار صومهم بتزكية أنفسهم، وصحة أبدانهم، وتوفير وجبة طعام واحدة يقدمها المستغني عنها لإخوانه، الذين يعانون من وطأة الفقر، والتنصير في بعض بلاد المسلمين)[4].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٠٨.

(٢) ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١/٤٢٠، رقم الحديث [٢٥٣]، مشكلة الفقر [٣٥]، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٣ م، طبعة مكتبة المعارف، الرياض، وأخرجه أبو نعيم في الطب [ق ٢٤/١و٢] عن أبي هريرة، وله شاهد عند الطبراني في الأوسط: «اغزوا تغنموا، وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا» [٢/٢٢٥/١/٨٤٧٧].

(٣) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢/٦٧٠، كتاب (الصوم) باب [٢] الحديث رقم [١٧٩٥]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا (مرجع سابق)، ومعنى (جنة) وقاية وسترة. وأخرجه مسلم: كتاب الصيام (باب فضل الصيام)، (مرجع سابق).

(٤) عبدالجواد الصاوي: الصيام معجزة علميَّة: ص ٢٠٨ - ٢١٠، (المرجع السابق نفسه)، وقد تناول في دراسته عن الحقائق العلمية في الصيام - أبحاث تجريبيَّة ودراسات على الصيام في الصحة والمرض شملت معظم وظائف الأعضاء في جسم الذكر والأنثى وأظهرت منافع الصوم بما يُعَدُّ - حقيقة - معجزةً علميَّة تؤكد قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[سورة فصلت: الآية (٥٣)].

وممَّا ينبغي الإشارة إليه أن المؤلف ربط تلك المعطيات بالآيات القرآنية والأحاديث=

ومِمَّا يزيد الناحية الاقتصادية وضوحًا في عبادة الصيام النظر إليها من وجوهٍ عدّة منها: اقتران الصيام بالحث على الصدقة وزيادة النفقة والترغيب في إفطار الصائم، ففي الحديث الشريف: (كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان... كان أجود من الريح المرسلة)(١)، وورد أنه ﷺ قال: «من فطّرَ صائمًا كان له مثل أجره غيرَ أنَّه لاينقص من أجر الصائم شيئًا»(٢)، ولايخفى أثر هذه الأعمال في الاقتصاد بصفة أو أخرى.

رابعًا: الحج:

والحُجُّ في اللغة: القصد(٣).

وفي الشرع: (اسم لأفعال مخصوصة)(٤)، وعُرِّفَ - كذلك - بأنَّه: (قصد بيت الله تعالى إقامةً للنسك)(٥)، وهو أحد أركان الإسلام

=النبوية وشروح العلماء وأقوال المفسرين؛ انظر: المرجع السابق نفسه: ص١٤١ - ٢٠٦، ص٢٩ - ٥١.

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٦٧٢/٢، ٦٧٣، كتاب (الصوم) باب [٧] الحديث رقم [١٨٠٣]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح ١٧١/٣، كتاب الصوم، باب [٨٢]، الحديث رقم [٨٠٧]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (مرجع سابق). وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الصوم، باب [٤٥] حديث رقم [١٧٤٦] بتحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) انظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، مادة (حجَّ)، (مرجع سابق). وانظر: أبو البقاء الكفوي: الكليات... مادة (حَجَّ)، (مرجع سابق). وانظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة: مادة (حجَّ)، (مرجع سابق).

(٤) ابن قدامة: المغني ٥/٥، تحقيق: التركي والحلو...، (مرجع سابق).

(٥) الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن: مادة (حجَّ)، (المرجع السابق نفسه).

الخمسة، والركن الخامس منها.

(والأصل في وجوبه الكتاب والسنة والإجماع، أمَّا الكتاب فقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾[2]، وأمَّا السنة؛ فقول الرسول ﷺ: «بني الإسلام على خمس»[3]، وذكر فيها الحج... وأجمعت الأُمَّة على وجوب الحج على المستطيع في العمر مرة واحدة)[4].

ويشتمل الحج على (مجموعة عظيمة من الأعمال البدنية، والروحية التي إذا أديت على وجهها الصحيح انتهت بالمسلم إلى الدخول في جنَّة عرضها السموات والأرض أعدَّها الله لعباده المتقين)[5].

كما تتمثل في الحج وشعائره جملة العبادات التي سبق بيان أنواعها؛ من عبادات اعتقادية وقلبيَّة ولفظية وبدنية وماليَّة فهو (تربية للجسم والروح معًا، وترويض لهما على طاعة الله تعالى...، وفي الحج إظهار العبودية... لأن الحاج حال إحرامه يظهر الشعث ويتخلى عن أسباب التزين، والتمتع، وفي حال وقوفه بعرفة يبدو كعبد عصى مولاه فوقف بين يديه متضرعًا حامدًا له مثنيًا عليه مستغرقًا مستقبلاً لعثراته، ولذا روي

---

(١) سورة آل عمران: الآية(٩٧).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٩٦).

(٣) سبق تخريجه: ص ٨٨٣، (البحث نفسه).

(٤) ابن قدامة: المغني: ٥/٥، ٦، (المرجع السابق نفسه).

(٥) محمد سالم محيسن: أركان الإسلام... ص ٢٢٥، (مرجع سابق). وانظر: محمد حسن أبو يحيى: أهداف التشريع الإسلامي: ص ٣٧٠ – ٣٧٨، (مرجع سابق). وانظر: رفعت فوزي عبدالمطلب: أركان الإسلام... ص ١٩٦، ١٩٧، (مرجع سابق).

عن أم المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها، أنَّها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النَّار من يوم عرفة»[1]، وبالطواف حول البيت يكون الحاج بمنزلة عبد معتكف على باب مولاه، لائذ بحماه، وفي هذا ترويض للنفس، وتعويد لها على أنه ينبغى للإنسان ألا يلجأ إلاَّ لله تعالى لا لأحد سواه مهما كان...)[2].

وللحج منافع وآثار تخص الفرد وتعم الأُمَّة، ومن أبرزها الآتي:

أ - منافع وآثار ينتفع بها الفرد وتؤثر في حياته بعمق وإيجابيَّة فالحج بمثابة (شحنة روحيَّة كبيرة يتزود بها المسلم، فتملأ جوانحه خشية وتقى لله، وعزمًا على طاعته، وندمًا على معصيته، وتغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسول الله، ولمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وتوقظ فيه مشاعر الأُخُوَّة لأبناء دينه في كل مكان، وتوقد في صدره شعلة الحماسة لدينه والغيرة على حرماته)[3].

ويؤثر الحج على أخلاق الفرد وسلوكه بعد أداء هذه الفريضة فينتقل من (حالة إلى حالة (ويظهر) بنعمة الأخلاق الفاضلة، الطاهرة الخالصة، من كل الشوائب؛ لأنَّ الحاج إذا قصد الحج يتوب إلى الله

---

(١) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٢/٩٨٣، كتاب الحج، باب [٧٩]، الحديث رقم [١٣٤٨]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) محمد سالم محيسن: أركان الإسلام... ص ٢٢٦، (مرجع سابق).

(٣) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٨٧، (مرجع سابق). وانظر: محمد حسن أبو يحيى: أهداف التشريع الإسلامي: ص ٣٧٠، (مرجع سابق). وانظر: محمد بن أمين أبو بكر: العبادة وأثرها... ص ١٢٥، مجلة كلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب (المرجع السابق نفسه)، ولم يشر لمرجعه فيما نقل عن القرضاوي وقد تكرر منه ذلك في مواضع كثيرة من مقاله المشار إليه دون أن يعزو ما أخذه من القرضاوي إليه.

ويعزم على ألا يعود إلى ارتكاب الذنوب، وفي هذا تكفير له عن ذنوبه إذا صدقت نيته في التوبة)[1]، روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أُمُّه»[2].

إضافة لما تترك رحلة الحج في أعماق المسلم من ذكريات لمناسكه وشعائره ودلالاته ومقاصده وهي كما عبَّرَ عنها بعض الباحثين: (رحلة السلام إلى أرض السلام في زمن السلام)[3]، ويضيف إلى ذلك قوله: (إنَّ الأرض المقدسة وما لها من ذكريات، وشعائر الحج وما لها من أثر في النفس... كل هذا يترك أثره واضحًا في أعماق المسلم، فيعود من رحلته أصفى قلبًا، وأطهر مسلكًا، وأقوى عزيمة على الخير، وأصلب عودًا أمام مغريات الشر، وكلما كان حجه مبرورًا خالصًا لله كان أثره في حياته المستقبلية يقينًا لا ريب فيه)[4].

ولعل مجيء فريضة الحج الركن الخامس من أركان الإسلام يعني - فيما يعنيه - بلوغ المسلم به قمَّة الاستقامة والتهذيب، وتمام العبوديَّة والتدريب كي يواجه المسلم متطلبات الدنيا والآخرة بهمَّة وعزم وإبداع مستكملا مقومات ذلك من خلال برنامج محكم: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[5].

---

(١) محمد سالم محيسن: أركان الإسلام... ص ٢٢٨، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢/٥٥٣، كتاب الحج، باب [٤]، الحديث رقم [١٤٤٩]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا (مرجع سابق).

(٣) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٩٢، (مرجع سابق). وانظر: محمد بن أمين أبو بكر: العبادة وأثرها... ص ١٢٤، (المرجع السابق نفسه).

(٤) يوسف القرضاوي: المرجع السابق نفسه: ص ٢٨٧، وانظر: محمد أمين أبو بكر: العبادة وأثرها... ص ١٢٤ (المرجع السابق نفسه).

(٥) سورة البقرة: الآية (١٣٨).

ب - أمَّا منافع الحج وآثاره على الأُمَّة فمنها: ذلك المظهر المعجز لوحدة الأُمَّة وعظمتها وقيمها ومثلها العليا، ويتجلّى ذلك (عندما يقف الحجاج على صعيد واحد لابسين نوعًا واحدًا من الملابس متوجهين إلى مكان واحد، خاضعين لنظام واحد، خاشعين لرب واحد، طالبين هدفا واحدًا، ففي هذه الحالة يشعرون بأن كلهم سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى وتحقيق مصالح البشرية)[1].

ويأتي الحج من حيث اجتماع الأُمَّة فيه ممثلا لاجتماعها الأكبر في كل عام حيث (يتدرج الاجتماع بين المسلمين من اجتماع الحيِّ (الواحد) لأداء الصلوات الخمس، إلى اجتماع البلدة في الجمعة وعيد الفطر، ثُمَّ يكون الاجتماع الأكبر في عرفة حيث يجتمع الحجيج من شتّى بقاع الأرض مُلَبِّين نداء أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام)[2].

وهذا الاجتماع يحقق للأُمَّة منافع شاملة، قال تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ ﴾[3]، (فجمع بين الدين والدنيا في ركن عظيم من أركان الإسلام، وهو فرصة لاجتماع المسلمين وولاة الأمر من الحكام في مؤتمر موسع يتشاورون فيه ويتبادلون الرأي حول قضاياهم العامَّة والخاصَّة)[4]، ومهما كان ضعف الأُمَّة

---

(١) مصطفى إبراهيم الزلمي: فلسفة الشريعة: ص ٣١، (مرجع سابق). وانظر: محمد عوض المزايدة: التيسير في فقه العبادات: ص ١٣٧، ١٣٨، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م، عن دار عمان - الأردن، وانظر: محمد حسن أبو يحيى: أهداف التشريع الإسلامي: ص ٣٧٣، ٣٧٤، (مرجع سابق).

(٢) عبدالرحمن بن عبدالكريم العُبَيْد: أصول المنهج الإسلامي: ص ٦٥، (مرجع سابق).

(٣) سورة الحج: الآية (٢٨).

(٤) عبدالرحمن بن عبدالكريم العُبَيْد: المرجع السابق نفسه: ص ٦٥.

الإسلاميَّة وجور الأمم الأُخرى عليها فإنَّ الحجَّ يبرهن على قوة الأُمَّة في مواجهة كل التحديات بما يعنيه من خضوع وذلة لله، وأنَّ الأُمَّة منساقة إلى العبوديَّة لله بدواعي الفطرة ومقتضيات السنن الإلهية في النفوس البشريَّة[(١)].

ويأتي تبعًا لهذه العبودية التي هي المقصد الأول للحج ما تظهر به الأُمَّة في خلال الحج وشعائره من كونها (قوة سياسيَّة ضخمة)[(٢)]، ويتمثل ذلك كما عبَّرَ عن الحج أحد الباحثين قائلا: (بوصفه مؤتمرًا سياسيًا دوريًا يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلاميَّة، ورجال الرأي وعلماؤها في كافة أنواع المعرفة، وكتابها، وملوك الصناعة فيها، وتجارها وشبابها وشيوخها...، ليضعوا... خطوطًا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معًا عامًا بعد عام)[(٣)].

فهو: (مؤتمر عالمي في عالم الإسلام لتوحيد أهداف المسلمين، وتوجيههم إلى مصادر الحياة الصحيحة بما يقتبسه بعضهم من بعض الثقافات، ويمد قسم منهم قسمًا آخر بالفكر الثاقب، لبلوغ السيادة في كل مجالات الحياة كي لايركن كلٌّ نحو السراب، ولايخضع لنزوات وشهوات نفر تنقصهم تجربة الحياة ويفوتهم الحرص على مستقبل «الأُمَّة»)[(٤)].

---

(١) انظر: مصطفى إبراهيم الزلمي: فلسفة الشريعة: ص ٣٠، ٣١، (مرجع سابق).

(٢) مصطفى إبراهيم الزلمي: فلسفة الشريعة: ص ٣٠، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٣٠. وانظر: يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٩٢ – ٢٩٥، (مرجع سابق). وانظر: محمد حسن أبو يحيى: أهداف التشريع الإسلامي: ص ٣٧٦ – ٣٧٨، (مرجع سابق).

(٤) مصطفى إبراهيم الزلمي: المرجع السابق نفسه: ص ٣٠.

ومِمَّا ينبغي الإشارة إليه في هذا السياق أنَّ بعض التفسيرات للحج تأتي من خارج واقع العبادة فتحمل معها بعض المحظورات، كالتعبير عن الحج بأنَّه برلمان إسلامي، أو مؤتمر، كالمؤتمرات المعهودة في التصورات السياسيَّة الحديثة أو انتهاز فرصة لرفع شعارات ذات بريق خادع أو مذاهب ضالَّة أو عقائد منحرفة تمزق وحدة الأُمَّة، وتؤثر على سلامة عباداتها وشعائرها، وتحدث من البلبلة والتشويش ما يتعارض مع غايات الحج ومقاصده التي أمر الله بتعظيمها، وجعل ذلك من تقوى القلـوب ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾[1]، ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[2].

أن الحج - شأنه شأن العبادات الإسلاميَّة - محدد الغاية محدد الوسيلة ولايصح بحال: أن تدخل في العبادات الإسلاميَّة أي بدعة؛ لأنَّ ذلك يخرج بها من منهجها الربَّاني التوقيفي، أمَّا ما يظهر من مقاصد سياسيَّة لهذه العبادة العظيمة فإنَّ ذلك يأتي ضمنًا لما تميَّزت به العبادات الإسلاميَّة من شمولٍ لأمور الدنيا والآخرة، بيد أنَّ الحج بخاصَّة ينبغي أن يتم تطبيقه وفقًا لقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3].

جاء في تفسيرها لدى بعض المفسرين: (والجدال.. هو: المماراة

---

(١) سورة الحج: الآية (٣٠).

(٢) سورة الحج: الآية (٣٢).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٩٧).

والمنازعة، والمخاصمة، لكونها تثير الشر وتوقع العداوة، والمقصود من الحج، الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنَّه بذلك، يكون مبرورًا، والمبرور ليس له جزاءٌ إلاَّ الجنَّة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنَّه يتغلظ المنع عنها في الحج)[1].

ج - وللحج منافع يفيد منها الأفراد وتفيد منها المجتمعات الإسلاميَّة قاطبة، ويتمثل ذلك في تبادل (المنافع الماديَّة بين المسلمين جميعًا على مختلف أجناسهم وألوانهم، فالمنافع الماديَّة ليست كل مقاصد الحج بل بعض مقاصده، وهي لاتخص أهل الحجاز بل تعم جميع المسلمين... روى البخاري عن ابن عباس قال: «كانت عكاظ ومجنَّة وذو المجاز أسواقًا في الجاهليَّة، فتأثموا أنْ يتَّجِرُوا في المواسم، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[2]. في مواسم الحج»[3]، ومِمَّا قيل في معنى قوله تعالى:﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يشعر بأن ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنَّه فضل من الله تعالى نوع من أنواع العبادة)[4].

وتحسن الإشارة في ختام هذا إلى أن العبادة في الإسلام توقيفيَّة - كما سبق بيان ذلك -، وحق التشريع فيها مقصور على الله وحده؛ (لأنَّه المتعبِّدُ، الذي خلق العباد لعبادته، وهو أعلم بما يتعبدهم به، وأخبر بما

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن ١/٢٤٤، (مرجع سابق).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٩٨).

(٣) صحيح البخاري: ١٦٤٣/٤، كتاب التفسير، باب [٣٦]، الحديث رقم [٤٢٤٧]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا (مرجع سابق).

(٤) محمد حسن أبو يحيى: أهداف التشريع الإسلامي: ص ٣٧٥، (مرجع سابق). وانظر: يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٨٨، ٢٨٩، (مرجع سابق).

يصلح لهم من عبادات، وما يرضيه من أعمال... ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1]، ولو ترك الناس وشأنهم في اختيار أنواع العبادات، لخبطوا فيها خبط عشواء، وهذا مظهر من مظاهر نعمة الله في إكمال دينه، وإتمام نعمته، وحكمة إرسال رسله، وإنزال كتبه... وهذه الخصيصة التوقيفيَّة، متفق عليها بين العلماء جميعًا... وذلك عائد إلى توافر الأدلة عليها وتضافرها على الأمر بالاتباع وذم الابتداع، من ذلك قول الرسول ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[2]، وقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[3]... وقوله ﷺ في شأن الصلاة: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[4]، وقوله - أيضًا - في شأن الحج: «لتأخذوا مناسككم»[5].

ومن هنا قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله -: (وجماع الدين أصلان:

أحدهما: ألا يعبد إلاَّ الله.

والثاني: أن يعبد بما أمر وشرع، لا بغير ذلك من البدع)[6].

---

(١) سورة الملك: الآية (١٤).

(٢) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢/٩٥٩، كتاب الصلح، باب [٥]، الحديث رقم [٢٥٥٠]، تحقيق: مصطفى ديب البُغا (مرجع سابق)، وأخرجه مسلم، كتاب الأقضية، رقم الحديث: [١٧١٨]، (مرجع سابق).

(٣) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ٣/١٣٤٤، كتاب الأقضية، باب [٨]، الحديث رقم [١٧١٨]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٤) سبق تخريجه: ص ٨٦٨، (البحث نفسه).

(٥) سبق تخريجه: ص ١٩٦، (البحث نفسه).

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/١٧٢، ١٧٣، (مرجع سابق).

فتبين من ذلك أنَّ منهج العبادة في الإسلام محدد في منطلقه وغايته ووسيلته وأسلوبه، وأنَّ من أهداف تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة تحقيق العبوديَّة لله خالصة من شوائب الشرك والرياء والنفاق.

يقول أحد المفكرين: (من مزايا العبادة في الإسلام أنَّها خالصة لله وحده، وقد أكَّدَ القرآن على حصر العبادة في الله وحده فقال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[2]، وقال: ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾[3]، وقال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[4]، فكل أنواع العبادة من ذكر ودعاءٍ وصلاةٍ وذبيحة، إنَّما تكون لله، ولاتجوز لغيره، فلايصلي إلاَّ له، ولايدعى إلاَّ الله، ولايذبح إلاَّ باسم الله، وكل ما فيه معنى العبادة والتقديس المطلق فلايكون إلاَّ لله...)[5].

ويستمر في بيان الألفاظ التي خصها الله بذاته ولم يجعلها لغيره، وما استعمله في حق رسوله ﷺ إلى أن يقول: (ومن أجل المحافظة على هذا الأساس منع الإسلام كل ما يؤدي إلى عبادة البشر، أو يفسح المجال لالتباس عبادة الله بعبادة البشر؛ كتحريم الركوع والسجود لغير الله، وتحريم الذبيحة التي ذكر عليها اسم غير الله، أو جعلت لغير الله، وكتحريم إشادة المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وتحريم تشييد

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٢٣).

(٢) سورة النساء: الآية (٣٦).

(٣) سورة النور: الآية (٥٥).

(٤) سورة الكهف: الآية (١١٠).

(٥) محمد المبارك: نظام الإسلام (العقيدة والعبادة): ص ١٨٣، (مرجع سابق).

القبور ورفعها، وكتحريم التماثيل والصور للأنبياء والصالحين والعظماء، وتحريم الحلف بغير الله، والنذر لغير الله)[١].

كما أن العبادة في الإسلام تتسم باليسر والسهولة، والموازنة بين مطالب الروح والجسد، والدنيا والآخرة، وحررها الإسلام (من قيود الوساطة والمكان وكل مظاهر العبوديَّة (للكهنوت)، فالأرض كلها محراب كبير للمسلم، فحيثما توجه يستطيع أن يتجه بعبادته إلى الله... وقد كانت هذه الخصيصة للعبادة الإسلاميَّة موضع الإعجاب العظيم، والتأثير البالغ من كثيرين من غير المسلمين، حتى من رجال الأديان (الأخرى) أنفسهم...، حرر الإسلام العبادة من القيود المكانية المتزمتة، ولم يشترط المكان الخالص في عبادة من عباداته إلا في الحج؛ لما فيه من فوائد تفوق فائدة التحرر من المكان، من التجمع العالمي للمسلمين حول أول بيت وضع للناس، وفي أرض الذكريات الإبراهيمية، والذكريات المحمديَّة...، ومع اشتراط المكان لعبادة الحج، فليس فيه أي شائبة لتأثير (الكهنوت)، وليس فيه أيُّ ثغرة لتدخل الوسطاء والكهان بين المسلمين وبين الله، شأنه في ذلك شأنه في سائر عبادات الإسلام)[٢].

---

(١) نظام الإسلام (العقيدة والعبادة): ص ١٨٤، (المرجع ا لسابق نفسه).

(٢) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ١٥١، (مرجع سابق). وانظر: عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: ص ٩٨ - ١٠٢، طبعة ١٩٨٩ م، عن نهضة مصر للطباعة والنشر..، القاهرة، وانظر: القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإظهار محاسن دين الإسلام، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: ص ١١٥ - ١٢٦، ٣٩٦ - ٤٣٧، تحقيق: أحمد حجازي السَّقَّا، عن دار التراث العربي، القاهرة، ١٩٨٠م، وانظر: عبدالعال سالم مكرم: أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع: ص٥٩ - ٦٧، (مرجع سابق).

وسلمت العبادات في الإسلام - لما فيها من الموازنة بين مطالب الدنيا والآخرة، والروح والجسد - مِمَّا آلت إليه العبادات لدى الأمم الأخرى من الغلو في أمور الدنيا لدى اليهود، وبلغ الأمر بالنصارى أن فرضوا على أنفسهم الرهبانيَّة وتركوا أمور الدنيا وبالغوا في ذلك إلى أن أفسدوا دينهم...؛ فأمَّا اليهود فقد جنحوا إلى الماديَّة، (ولانكاد نجد (في اليهودية) للروحانية أثرًا، ولانكاد نرى للآخرة مكانًا، حتى الوعد والوعيد في... التوراة للمطيعين والعصاة، إنَّما يتعلقان بأمور دنيويَّة، وتكاد تستأثر بها النزعة الماديَّة الخالصة. فالخِصب والصحة والثراء وطول العمر، والنصر على الأعداء ونحوها من المكاسب الدنيويَّة الحسيَّة العاجلة، هي المثوبات التي تبشر بها التوراة...، وأضداد هذه الأمور من الجدب والمرض والموت والوباء والفقر والهزيمة ونحوها للذين يعرضون عن الشريعة)[١].

وأمَّا الرهبانيَّة فعلى الرغم من كونها بدأت بصفتها ردًّا على تلك النزعة الماديَّة التي اتسمت بها اليهوديَّة بعد تحريفها، وانتهجتها الرومانيَّة في حكمها وتشريعها وحضارتها، فإنَّها (تطورت فيما بعد مع الزمن وأصبحت خاضعة إلى أنظمة متبعة وأسس معتمدة يخضع لها الراغب فيها، وأصبح الرهبان يعيشون في شبه قلاع وحصون عيشاً جماعيًّا فقد الكثير من المعاني والأهداف التي وجدت الرهبانيَّة من أجلها)[٢].

---

(١) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ١٧٥، (مرجع سابق). وانظر: المرجع نفسه: ص ١٧٦ - ٢٠٠، وانظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ١٥٦ - ١٩٥، (مرجع سابق). تحدث في الفصل الأول من الباب الرابع عن (أوروبا الماديَّة، وكيف نشأت الرهبانيَّة رداً عليها ثُمَّ كيف أخفقت في مواجهة تلك الماديَّة وما ترتب على الرهبانيَّة من مفاسد في جميع مجالات الحضارة الغربية).

(٢) حسن خالد: موقف الإسلام من الوثنيَّة واليهوديَّة والنصرانية: ص٦١٣، (مرجع=

يقول أبو الحسن العامري: (إنَّ أحق الأديان بطول البقاء، ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدَّة واللين، ليجد كلٌّ من ذوي الطبائع المختلفة ما يصلح به حاله في معاده ومعاشه، ويستجمع له منه خير دنياه وآخرته، وكلُّ دينٍ لم يوجد على هذه الصِّفَة، بل أسس على مثال يعود بهلاك الحرث والنسل، فمن المحال أن يسمَّى هيِّنًا فاضلاً، وذلك مثل ما تمسك به رهابين النصارى من هجران المناكح، والانفراد في الصوامع، وترك طيبات الرزق)[1].

أمَّا شيخ الإسلام ابن تيميَّة فإنَّه تحدث عن توسط المسلمين بين تقصير اليهود، وغلو النصارى في مجال العقيدة والعبادة وسائر الشعائر الدينيَّة وربط ذلك بانحرافهم عن التميُّز الذي هو صراط الله المستقيم، وهو الدين الذي شرعه الله، والذي من أبرز أهدافه تحقيق العبوديَّة لله؛ قال - رحمه الله -: (أمَّا تعظيم المسيح وأمه فهو حق، وكذلك مدح من كان على دينه الذي لم يبدل قبل أن يبعث - ﷺ - أو

=سابق)، ولنبذة تاريخية عن الرهبانيَّة ومفهومها وتطبيقاتها المختلفة عند النصارى؛ انظر: المرجع نفسه: ص ٦١٢ - ٦١٤، وانظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم... ص ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢ - ١٧٨، (مرجع سابق).

(١) كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٣٧، (مرجع سابق). وقد عقد فصلاً بعنوان (القول في فضيلة الإسلام بحسب الأركان العباديَّة)، قارن بين العبادة في الإسلام والعبادة عند اليهود والنصارى، والمانوية، ونسَّاك الهند، وبين مزايا العبادة في الإسلام ومناقبها وعظمة شعائرها، وما اتسمت به من اليسر والوضوح والتوازن، وأنها عبادات تشمل النفس والبدن والمال، وقال في نهاية الفصل المذكور: (وإذ قد أتينا على المقابلة بين الإسلام وسائر الأديان في الأركان الاعتقادية، والأركان العباديَّة، وأوضحنا السبل في كيفية المقابلة بينه وبينها...، ثمَّ كان الطريق فيها (أي في دين الإسلام) أسهل، والمأخذ في أبوابها أقرب).

بقي على ذلك إلى أن بعث محمد ﷺ، فآمن به، فإنَّ هؤلاء، مؤمنون مسلمون مهتدون، كذلك من كان على دين موسى الذي لم يبدل إلى أن بعث المسيح فآمن به، فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون، وقد قدمنا أن المسلمين هم عدل متوسطون لاينحرفون إلى غلو، ولا إلى تقصير، وأمَّا اليهود والنصارى: فهم على طرفي نقيض، هؤلاء ينحرفون إلى جهة، وهؤلاء إلى الجهة التي تقابلها - كما ذكرنا تقابلهم في النسخ -، وكذلك تقابلهم في التحريم والتحليل، والطهارة والنجاسة، فإنَّ اليهود حرمت عليهم الطيبات، وهم يبالغون في اجتناب النجاسات...، وأمَّا النصارى: في مقابلتهم تجد عامتهم لايرون شيئًا حرامًا، ولا نجسًا إلاَّ ما كرهه الإنسان بطبعه، ويصلون مع الجنابة والحدث، وحمل النجاسات، ويأكلون الخبائث...، والمسلمون وسط... أي: عدلاً خيارًا)[1].

* * *

(١) الجواب الصحيح... ٢/١٣٥، ١٣٦، (مرجع سابق). وانظر: المرجع نفسه ٢/١٣٥ - ١٥٤.

المطلب الثاني

موقف المستشرقين من قضية العبوديَّة

إذا كانت العبوديَّة من أهم أهداف التميُّز، وهي الغاية من خلق الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [(1)]، وإذا كانت العبادة متميزة في المنهج الإسلامي وتختلف في ظاهرها وجوهرها عن الرهبانية المبتدعة لدى النصارى، ولها نظام ينأى بها عن الابتداع ويحقق تميز الأُمَّة الإسلاميَّة؛ فإنَّ المستشرقين درجوا على الطعن بتميُّز الأُمَّة في مجال العبادة، واتهامه بأنَّه مجموعة من الطقوس والشكليات المستمدة - في زعمهم - مِمَّا في اليهودية والنصرانية وغيرهما من الملل والنحل، ويستغلون ما وقعت فيه بعض الفرق والجماعات - التي انحرفت عن سنة الإسلام - من بدع في العبادة فيعممون ذلك على الإسلام.

ويعالج هذا في نقطتين بارزتين:

الأولى: ذكر نماذج من أقوال المستشرقين وآرائهم حول العبادة في الإسلام وصلتها باليهودية والنصرانية وغيرهما من الملل والنحل.

الثانية: الرد على تلك الأقوال والآراء.

فمن أقوال المستشرقين وآرائهم:

١ - زعم (كارل بروكلمان) أن شعائر الإسلام مقتبسة مِمَّا لدى اليهود، وأنَّ الرسول ﷺ حينما هاجر إلى المدينة كيَّف شعائر العبادة في الإسلام على نحوٍ مِمَّا لدى اليهود ليكسب ودَّهم، وعن ذلك يقول:

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

(وهكذا حاول أن يكسبهم من طريق تكييف شعائر الإسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض المناحي)[1].

ويبدأ في تفصيل تلك الشعائر قائلاً: (فشرع صوم العاشوراء وهو اليوم العاشر من المحرم على غرار الصوم اليهودي...)[2]، ويشاركه في هذا الزعم (مونتغمري وات) إذ يقول: (ويحوم شك حول صيام عاشوراء الذي يقع في يوم عيد الكفارة اليهودي، وحينما حل العاشر من تشرين اليهودي أمر محمد المسلمين بصيام هذا اليوم، وإنْ كُنَّا لانعرف على التأكيد في أيِّ شهر هجري يقع هذا الصيام)[3].

ويزعم (كارل بروكلمان) - أيضًا - أن صلاة الظهر شرعت في المدينة تقليدًا لليهود فيقول: (وبينما كان المؤمنون في مكة لايصلون إلا مرتين في اليوم، أدخل في المدينة على غرار اليهود صلاة ثالثة عند الظهر)[4].

ويرى - أيضًا - أن صلاة الجمعة جاءت تقليداً للسبت عند اليهود فيقول عنها: (كذلك جعل يوم الجمعة يوم صلاة عامَّة على غرار السبت اليهودي)[5].

وتحدث في موضع آخر عن الصلاة بشكل تفصيلي فقال: (بينما كان محمد وأصحابه يصلون مرتين في اليوم في مكة وثلاث مرات في المدينة

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلاميَّة: ص ٤٦، (مرجع سابق).

(٢) المرجع نفسه: ص ٤٧.

(٣) نقلاً عن مصطفى عمر حلبي: الخلفية الثقافية لاتجاهات المستشرقين..، مجلة المنهل؛ العدد المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ: ص ٣٩، (مرجع سابق).

٤٤) انظر: كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلاميَّة: ص ٤٧، (المرجع السابق نفسه).

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ٤٧.

كاليهود، جعلت الطقوس المتأخرة، المتأثرة بالفرس، عدد الصلوات المفروضة في اليوم الواحد خمسًا)[1].

٢- ويرى (ترتون) بأنَّ (الصوم أول ما شُرع كان تقليدًا لما عند اليهود، ثُمَّ بدّل وغير وصار أشبه بصوم النصارى مع شيء من التغاير)[2].

ويرى - أيضًا - (أن فكرة صلاة الجمعة اقتبسها الرسول من الزرادشتية)[3].

٣- وذهب (جيب) في كتابه المذهب المحمدي، وذهب - أيضًا - (تسدال) في كتابه مصادر الإسلام إلى القول بأن (شرائع الإسلام تأسست من شرائع الأديان المعاصرة له والمنتشرة وقتئذٍ في الشرق ألا وهي اليهودية والمسيحية والهنديَّة والصابئة والفارسية والجاهلية)[4].

٤- ومنهم من زعم (بأنَّ الإسلام أخذ من الجاهليَّة صلاة الجمعة وصوم عاشوراء والتكبير، والأشهر الحرام، والحج والعمرة، والوضوء والاغتسال ونتف الإبط، وتقليم الأظافر والختان... وأنَّه أخذ من الصابئة الصلوات الخمس، والصلاة على الميت، وصيام شهر رمضان، والقبلة، وتعظيم مكة، وتحريم الميتة، ولحم الخنزير...)[5].

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٧٤.

(٢) نقلاً عن: عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام..: ص ٢٥، (مرجع سابق).

(٣) نقلاً عن: المرجع السابق نفسه: ص ٢٥.

(٤) نقلاً عن: عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة: ص ٦٥، (مرجع سابق).

(٥) نقلاً عن: عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة: ص ٦٦، (مرجع سابق).

٥- ويقول (كلود كاهين): (أمَّا الحج إلى مكة فقد أسبغ طابعًا إسلاميًّا على الحج الوثني القديم)[١].

٦- ويجمل (جولدزيهر) هذه المفتريات في قوله: (تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينيَّة عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهوديَّة والمسيحية وغيرها، والتي تأثر بها تأثرًا عميقًا)[٢].

٧- وانتهج (ماسنيون) منهجًا آخر يُمكن الباحث أن يستنتج منه نتائج كثيرة، من أبرزها: محاولة تأكيد الجانب الصوفي في العبادات الإسلاميَّة بما يبدو وكأنَّه تأثرٌ مباشر بالرهبانية التي ابتدعها النصارى؛ ذلك أنَّه جعل نفسه وقفًا على شخصية (الحلاج) فتمثلها في سلوكه وكتب عنها ولم يقتصر على ذلك بل نافح وكافح لإبراز الجانب الصوفي في تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة[٣]، وجعل طريقة (الحلاج) هي الطريقة المثاليَّة في فهم الإسلام، وأسماه (شهيد التصوف في الإسلام)[٤].

---

(١) نقلاً عن: زيد بن أحمد زيد العيلان: الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلاميَّة..: ص ٤٣٣، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن: عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام: ٢٥، ٢٦، (مرجع سابق).

(٣) انظر: عمر فروخ: الاستشراق في نطاق السياسة، (بحث مدرج في كتاب الإسلام والمستشرقون لنخبة من العلماء المسلمين: ص ١٣٥، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين: ص ٣٦٤، (مرجع سابق).

(٤) جزءٌ من عنوان رسالته الثانية للدكتوراه، وعنوانها: (عذاب الحلاج شهيد التصوف في الإسلام)، وقد نوقشت بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٢٢م، ويذكرُ أنَّ اختيار هذا التاريخ عن قصد لمناسبة مرور ألف عام على صلب الحلاج: انظر: عبدالرحمن بدوي: موسوعة=

ولاشك أنَّ لهذا المسلك الدلالة الكافية في إعطاء الانطباع والتصور الكافيين على أنَّ العبادة في الإسلام تقليد بين للرهبانية في النصرانية[1].

٨- انتزع بعض المستشرقين من بعض الكلمات التي وردت في القرآن الكريم أو على لسان المصطفى ﷺ من مثل (حنيف) و (التزكي) و (المؤمنون) وصفا للإسلام والمسلمين بأنَّها تقلبات في أمور العبادة خضعت لظروف علاقة الرسول ﷺ بأهل الكتاب (اليهود والنصارى) وبخاصة اليهود، وأنَّه ﷺ (جاهد لكي يجذبهم إلى جانبه مستعينًا في ذلك بالوحي القرآني الموائم لما في ضمائرهم لكن جهوده ذهبت سدى)[2].

ويقول (مونتغمري وات): (لم يكن اسم دين الإسلام دائماً.. ويبدو أنَّ الاسم الذي أطلق عليه في الفترة المدنية كان (التزكي) ولايذكر اسم الدين وأتباعه إلاَّ قليلاً في النصوص، ونجد بعد الهجرة عدّة إشارات إلى (المؤمنين) ويشمل في بعض الأحيان هذا اللفظ اليهود، حتى إذا ما قطع محمد علاقاته بهم صرح بأنَّه يتبع دين إبراهيم (الحنيف) وَسُمِّيَ دين محمد، فترة من الزمن بالحنيفية... ومن الصعب القول متى حلتا (مسلم) و (الإسلام) محل (حنيف) و (حنيفية)... ولاشك أنَّ لفظ (الإسلام) هو أفضل تسمية، ولهذه الكلمة معنى ديني أعمق يعني

=المستشرقين: ص ٣٦٧، (المرجع السابق نفسه).

(١) انظر ما قاله (ماسنيون) عن المؤثرات في الصوفية، وبخاصة (الرهبانية)؛ في الصفحات: (٣٣٢ - ٣٣٦)، من دائرة المعارف الإسلاميَّة، الجزء التاسع، (مرجع سابق).

(٢) موريس غودا فروا: النظم الإسلاميَّة... ص ٢١؛ نقلاً عن: زيد العبلان: الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلاميَّة: ص ٤١٥، (مرجع سابق).

الاستسلام والخضوع لإرادة الله...)[1].

٩- وكان لبعض المستشرقين وقفة كذلك عند القبلة وماحدث للأُمَّة الإسلاميَّة، حينما استقبل الرسول ﷺ بيت المقدس في بداية الهجرة، ثُمَّ تحول عنه إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، فسَّرَ بعض المستشرقين ذلك بقوله: (إنَّ محمدًا كان في أول الأمر يؤمل الاعتماد على اليهود، ورتَّب خططه على أساس الحصول على مساعدتهم وتأييدهم له، ولذلك جعل قبلة المسلمين في الصلاة نحو القدس في تلك المرحلة التي لم يفرق فيها بين اليهود والمسيحيين واعتبرهم شيئًا واحدًا، ولكن عندما خاب ظنه فيهم بسبب رفضهم الاعتراف به كنبي، دخل في عداء صريح معهم، وأمر بتحويل قبلة المسلمين في الصلاة نحو مكة)[2].

١٠- زعم (شاخت) أن الرسول ﷺ أخذ مفهوم الزكاة عن اليهودية، إذ قال: (وعلماء الإسلام يفسرون كلمة (زكاة) في العربية بأنها تعني الطهارة والنماء، والحقيقة أن محمدًا استعارها بمعنًى أوسع من ذلك بكثير، أخذًا عن استعمالها عند اليهود (في العبرية – الأرميَّة: زكوات)[3].

---

(١) مونتغمري وات: محمد في المدينة... ص٤٦٣، ٤٦٤، نقلاً عن: المرجع السابق ص ٤١٦.

(٢) نقلاً عن: سعيد عبدالفتاح عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته: ص ٢٨، (مرجع سابق)، وانظر: جميل عبدالله المصري: أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري: ص ٨٣، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، المدينة المنورة عن مكتبة الدار.

(٣) نقلاً عن: محمد أنس الزرقاء: الزكاة عند شاخت... (بحث مدرج في مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلاميَّة) ٢٠٧/٢، (مرجع سابق). وانظر: عبدالعظيم المطعني: افتراءات المستشرقين: ص ١٣٦ - ١٣٩، (مرجع سابق).

هذه نماذج من أقوال المستشرقين وآرائهم حول العبوديَّة في الإسلام، وإنْ كانت العبادة - كما سبق شرحها - أشمل من ذلك، ولكن الموضوع هنا هو استجلاء موقف عامَّة المستشرقين من قضية العبوديَّة باعتبارها من أهم أهداف تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة.

ولعل في هذه النماذج الواردة في الصفحات السابقة ما يؤكد موقف المستشرقين في مسارهم العام من تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وأنَّهم يصرون إصرارًا يجافي مناهج البحث العلمي ويقدح - بصفة واضحة - في مصداقيتهم؛ بل ويؤكد بما لايدع مجالا لحسن الظن بهم أنَّهُم يتحاملون على الإسلام كمبدأ وعلى الأُمَّة الإسلاميَّة في هويتها وشخصيتها المميَّزة، فهم حريصون غاية الحرص على نسبة كلِّ جانب من جوانب تميُّزها إلى أُمَّة أخرى، وإظهار الإسلام بمظهر ملفق من الوثنية الجاهليَّة واليهودية والنصرانية، وغير ذلك من الملل والنحل.

أمَّا الرد على أقوالهم وآرائهم فستتركز في النقاط الآتية:

١ - إن التشابه بين بعض الشرائع والشعائر في الإسلام وبين ما سبقها من الديانة اليهوديَّة أو النصرانية أو غيرهما من الملل والنحل لايصح بأيِّ حال من الأحوال أنْ يكون دليلاً قاطعًا وحُجَّة مقنعة بأنَّ الإسلام مقتبس من غيره أو ملفق مِمَّا سبقه.

يقول أحد المفكرين: (إنَّ الأفكار التي تبدو متشابهة في دوائر الحضارات الإنسانية المختلفة لاتدل بالضرورة على الاقتباس، ومع ذلك ورغم التشابه الضئيل القائم بين تعاليم الإسلام واليهودية والمسيحية، فإنَّ هناك اختلافات جوهرية - (سواء كان) في الصورة والشكل (أم) في المحتوى والغاية - بين العبادات في الدين الإسلامي

وبينها في المسيحية واليهودية)[1].

والمستشرقون الذين يتوافرون على ذكر تلك المتشابهات للنيل من تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة وأمته عن الأديان والأمم السابقة يهملون بطريقة تبدو متعمدة الحديث عن الاختلافات الجوهرية بين الإسلام وأمته وغيرها من الأديان والأمم الأخرى، ولايذكرون من جهة أُخرى الأسباب الحقيقية في ما يبرزونه من التشابه، مع أنَّ (هذا التشابه النسبي يفسر - وهو المعقول من وجهة النظر الدينية - بوحدة المصدر الإلهي الذي نبعت منه هذه التعاليم السماوية)[2].

تروي كتب التاريخ أنَّ النجاشي لما سمع آيات القرآن الكريم يتلوها على مسمعه جعفر بن أبي طالب هتف قائلاً: (إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة... والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت)[3]، وكان القسس والرهبان كلما سمعت آية يتلوها جعفر (انحدرت دموعهم مِمَّا عرفوا من الحق...، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى)[4].

إذن فالتشابه إذا وجد فسببه أنَّ الكتب السماويَّة كلها مصدرها واحد وهو الله عزوجل، والإسلام جاء ليكمل بناء الأديان من قبله وليس

---

(١) عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام..: ص ٢٦، (مرجع سابق).

(٢) عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام..: ص٢٦، (مرجع سابق). وانظر: شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان: ص ٥٣، (مرجع سابق).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٣٦٢/١، ٣٦٣، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (مرجع سابق).

(٤) الواحدي: أسباب النزول..: ص ١٥١، ١٥٢ (مرجع سابق)، وانظر: ابن هشام: المرجع السابق نفسه: ٣٦٢/١، وانظر: عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام: ص ٢٦، (مرجع سابق).

مناقضًا لما فيها أو ما بقي لدى الجاهليين من بقايا الحق سواء في مجال العقيدة أو العبادة أو السلوك والأخلاق[1]، وقد ثبت عنه ﷺ أنَّه قال: «بعثتُ لأتمم حسن الأخلاق»[2].

٢ - إنَّه بالأدلة العقليَّة والبراهين المنطقية تسقط آراء المستشرقين وأقوالهم التي زعموا فيها أن الرسول ﷺ لفق العبادات في الإسلام مِمَّا عرفه من اليهود والنصارى، ومِمَّا عرفه هو ثُمَّ المسلمون من بعده من بقايا الوثنية الجاهليَّة وبعض الملل والنحل الأخرى، وذلك بالنظر إلى موقف الإسلام من تلك المصادر المتنوعة (ذلك أنَّ طبيعة المسألة تقضي - عادة - أن يضفي المقلد الآخذ أسباب الكمال ومعاني الأصالة وسمات الحق على المصدر الذي استقى منه أصول فكره وعلمه، وأن ينزل صاحبه منزلة العدل في الحكم، والنزاهة في الرأي، والسداد في الفكرة والعقيدة.

أمَّا إذا وجدنا الأمر معكوسًا فإنَّ المنطق يحتم خلاف ذلك، إذ كيف يجوز لعاقل أن يتصور النبي ﷺ تلميذًا لأحبار اليهود ورهبان النصارى يشكل قرآنه (نعوذ بالله) ويلفق عقيدته من توراتهم وإنجيلهم وسائر مصادرهم، وهو يرى القرآن الكريم يصدر في انتقاده لهذه المصادر عن موقف قوي صريح هو موقف الحاكم المتمكن من الأمر المتهم لأرباب تلك

---

(١) انظر: سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته: ص ٢٧، ٢٨، (مرجع سابق).

(٢) أخرجه الإمام مالك: الموطأ، ٢/٦٩٠، كتاب حسن الخلق، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، وفي رواية الإمام أحمد في مسنده: «إنَّما بعثتُ لأتمم صالح الأخلاق»: ٢/٣٨١، ورقم الحديث [٨٩٥٢]، بتحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (مرجع سابق)، ولمعرفة طرق الحديث والحكم عليه وورووده بلفظ «مكارم الأخلاق» راجع: حاشية الحديث لدى الأرنؤوط (٥١٣/١٤)، المرجع السابق نفسه.

المصادر، المنتقد لما (أحدثوا فيها من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان)، وهكذا فإنَّ القرآن الكريم إذ يستعرض آراء اليهود ومعتقدات النصارى لايصدر عن موقف ضعيف متخاذل وهو ما يتصف به المقلد للغير بل يتبين الحق في هذه العقائد من باطلها ويحمل وزر الباطل على أهله)[1].

لقد وصف اليهود (تارة بالتحريف والتبديل ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[2]، وباللبس والكتمان ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3]، وبالافتراء وزور القول ﴿ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾[4]، والقرآن إذ يستعرض عقيدة المسيح عليه السلام بالله تعالى يبعده عن لوثة التثليث، ويعتبر ذلك مسخا لحقيقة ما بشر به، وتلفيقاً من الرأي نسب إليه ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[5] وإذا كان هذا شأن القرآن الكريم من تلك المصادر... فليس لعاقل سديد الرأي أن يورد هذا الزعم الباطل)[6].

٣ – أمَّا دعوى أنَّ الإسلام اقتبس بعض الأحكام التعبديَّة مِمَّا كان

---

(١) عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام..: ص ٢٧، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة النساء: الآية (٤٦).

(٣) سورة البقرة: الآية (٤٢).

(٤) سورة المائدة: الآية (١٠٣).

(٥) سورة المائدة: الآية (١١٦).

(٦) عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام: ص ٢٧، (مرجع سابق).

عليه الجاهليون فلايُمكن أن يستنتج (من الإبقاء عليها تأثر الرسول بها باعتبارها أمورًا استمدها من بيئته ولم يوح بها الله إليه في محكم كتابه، ولو كان الأمر خلاف ذلك لأبقى على سائر القوانين والأعراف الجاهليَّة ولما حرَّم بعضًا منها وأباح بعضها الآخر، ولكن التشريع يراعي دومًا مصالح الناس والعباد التي شرعت الأحكام لمصلحتهم، فتبقى الأحكام الصالحة، وتبطل الأحكام الفاسدة... إنَّ الإسلام احتفظ بالعديد من أعراف الجاهليين وتشريعاتهم؛ لأنها صالحة للتطبيق...؛ ولأنها تحقق مصالح من شرعت هذه الأحكام لهم؛ ولأنَّه عندما ألغى الفاسد منها، فإنَّه قد راعى هذه التعاليم الإلهيَّة التي جاءت بالرسالة المحمدية)[1].

ولايتسع المجال هنا للتعرض لشعائر الجاهليين وعباداتهم ومقارنتها بالعبادات الإسلاميَّة وشعائرها لمعرفة مدى التوافق بينهما والاختلاف، ولكن تُعْرَضُ بعض العبادات والشعائر التي كان العرب في جاهليتهم يمارسونها ثُمَّ ما حدث من تعديل أو إبطال أو إقرار لبعضها وترك لبعضها الآخر.

فمن شعائر الجاهليين التي أقرها الإسلام (الاختتان والاغتسال من الجنابة، وتغسيل الموتى وتكفينهم)[2].

وكان الجاهليون يؤدون الحج والعمرة، ولهما شعائر عدَّة، وعندما جاء الإسلام أبقى على بعض تلك الشعائر وأبطل بعضها الآخر[3]... (فالطواف كان معروفًا في الجاهليَّة، وهو عندهم ركن من أركان الحج،

---

(١) ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية..: ص ٣٢٧، (مرجع سابق).

(٢) ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية..: ص ٣٢٤، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٢٤.

ومنسك من مناسكه، وعدده عندهم سبعة أشواط، وكان الطائفون على صنفين: صنف يطوف عرياناً، وصنف يطوف في ثيابه. ويعرف من يطوف بالبيت عريان (بالحلة)، أمَّا الذين يطوفون بثيابهم، فيعرفون (بالحمْس)، وعندما جاء الإسلام أقر الطواف حول الكعبة بسبعة أشواط، ومنع طواف العري، وحتم على الجميع لبس الإحرام)[1].

ومِمَّا أبقى الإسلام من أعمال الحج التي كانت معروفة ومعمولاً بها في الجاهليَّة، السعي بين الصفا والمروة، والتلبية، والوقوف بعرفة اليوم التاسع من ذي الحجة، والإفاضة منها إلى مزدلفة والمبيت بمنى، ورمي الجمرات[2].

ولكن الإسلام أذهب ما علق بها من أمور الجاهليَّة سواء الشركيات في الاعتقاد أو المبتدعات في أشكال العبادة، ذكر اليعقوبي (أنَّ العرب إذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها، فصلوا عنده، ثُمَّ لبوا حتى يقدموا مكة، فكانت تلبياتهم مختلفة)[3]، فقد نقَّى الإسلام التلبية من أوضار الشرك وجعلها خالصة لله ولم يبطلها من حيث أصل المشروعيَّة.

(وكان الجاهليون يطوفون بين الصفا والمروة، ومنصوب عليها صنمان هما (أساف) و (نائلة) وكانوا يطوفون بهما سبعة أشواط، ووصف الإسلام مشي الحاج بين الصفا والمروة بـ (السعي) وأبقى هذه الشعيرة)[4] بعد أن أزاح الأصنام وشرع أدعية التوحيد وإخلاص العبادة لله.

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٣٢٤.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٣) أديان العرب ١/٢٢٥، وانظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٢٤.

(٤) ساسي سالم الحاج: المرجع السابق نفسه: ص ٣٢٥.

ولاشك أنَّ ما أبقاه الإسلام من العبادات والشعائر التي كانت معروفة في الجاهليَّة هو الحق الذي شرعه الله وبلَّغه الرسول الخاتم ﷺ لأمته، ومنه ما كان من بقايا الحنيفيَّة السمحة، ومنه ما أوجبه الله على عباده على لسان المصطفى ﷺ أو أُمِرَ بفعله وأمر هو ﷺ أُمَّتَه أن تفعل كفعله، كما في الحديث: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1].

وكما أمر المسلمين في حجة الوداع وقال: «لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[2].

٤ - أمَّا قول (بروكلمان) و (مونتغمري وات) عن صوم يوم عاشوراء فهو مردود من وجوه عدَّة، من أهمَّها:

أ - ما ذكره بعض الإخباريين (من أنَّ قريشًا كانت تصوم يوم عاشوراء، وأن الرسول ﷺ كان يصومه أيضًا وعندما هاجر إلى المدينة استمر في صيامه له، وأمر أصحابه بذلك أيضًا حتى أول السنة الثانية للهجرة، وبعد أن فرض الصيام أصبح صوم يوم عاشوراء اختيارًا)[3]،

---

(١) سبق تخريجه: ص ٨٦٨، (البحث نفسه).

(٢) أخرجه مسلم: صحيح مسلم: ٩٤٣/٢، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا وبيان قوله ﷺ: «لتأخذوا عني مناسككم» من كتاب الحج، (مرجع سابق)، وأخرجه أبو داود في سننه: ٢٠٧/٢، كتاب المناسك، باب: رمي الجمار باللفظ نفسه، (مرجع سابق)، وأخرجه النسائي في سننه بلفظ: «يا أيها الناس: خذوا عني مناسككم..»، الحديث رقم (٣٠٦٢)، (مرجع سابق)، انظر: البحث نفسه: ص ٩٠، ٥٢٦.

(٣) انظر: سامي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية..: ص ٣٢٤، وفيما أخرجه البخاري؛ قال الرسول ﷺ: «من شاء أن يصمه فليصمه، ومن شاء أن يتركه فليتركه»، صحيح البخاري: ٥٧٨/٢، كتاب الحج، باب (٤٧)، الحديث رقم (١٥١٥)، تحقيق: البُغا، (مرجع سابق). والحديث مرويٌّ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ومِمَّا قالت:=

فإذا صح هذا القول فإنَّ الرسول ﷺ صام عاشوراء قبل أن تكون هناك مظنَّة تأثر باليهود، كما أن بعض المستشرقين ادّعى أن الرسول ﷺ كان متأثراً في صوم يوم عاشوراء بما كان عليه قومه[1] وليس اليهود، وقد سبق الرد على هذا القول ضمنًا فيما ذكر من قبل.

ب - أنَّ الرسول ﷺ حينما قدم المدينة المنورة ووجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، وسأل عن سبب صومهم له فذكروا أنَّه يوم أنجى الله فيه موسى عليه السلام وقومه وأغرق فرعون وجنده[2] فأمر الرسول ﷺ بصيامه ولم يقتصر على ذلك وإنَّما قال - فيما رواه ابن عباس رضي الله عنه -: «صوموا يوم عاشوراء، وخالفوا اليهود، صوموا قبله يوماً أو بعده يومًا»[3]، ففي هذا نفيٌّ تام لما زعمه (بروكلمان) وتأكيد جازم على تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة من بداية احتكاكها باليهود في المدينة المنورة،

=«كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان، وكان يومًا تُستر فيه الكعبة، فلما فرض الله رمضان قال رسول الله ﷺ...» (وذكرت الحديث)، فدلَّ ذلك على صحة ما ذكره الإخباريون عن كون صوم يوم عاشوراء عادة جرت عليها قريش من قبل.

(١) انظر: عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة: ص ٦٦، (مرجع سابق).

ولمزيد من الاطلاع على ما جرت به العادة مع صيام الأنبياء ليوم عاشوراء، وصوم قريش له، وأن الرسول ﷺ صامه قبل الهجرة وأمر بصيامه بعدها إلى أن شرع صيام رمضان وأحواله مع هذا الصيام؛ راجع: الإمام الحافظ ابن رجب: لطائف المعارف..: ص ١٠٢ - ١١٣، تحقيق: ياسين محمد السَّواس، (مرجع سابق).

(٢) انظر: الحافظ ابن رجب: المرجع السابق نفسه: ص ١٠٣، ١٠٤.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل: مسنده: ٢٤١/١، بتحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخـرين: ٥٢/٤، ورقم الحديث [٢١٥٤]، (مرجع سابق)، وانظر: الحافظ ابن رجب: لطائف المعارف: ص ١٠٨، (المرجع السابق نفسه).

وتميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة هو الاستنتاج الأولى من هذه الحادثة وما يشبهها ولكن (بروكلمان) يصدف عن هذا الاستنتاج الذي يفضي إليه العقل والمنطق، ويصر على محاولة النيل من نبوة محمد ﷺ، والقدح في تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة.

٥ - وأمَّا ما ذهب إليه (بروكلمان) بشأن مشروعية الصلاة وصلاة الجمعة فإنَّ ذلك كله كما قال أحد المفكرين يسجل على (بروكلمان) (تعصبًا مقيتًا ضد الإسلام)[١]؛ لأنَّ المسلمين كانوا يصلون خمس صلوات في اليوم والليلة قبل الهجرة، وقد فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء وورد في ذلك عدّة أحاديث، منها قوله ﷺ: «... ففرض الله على أُمَّتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك فإنَّ أمتك لاتطيق ذلك...»[٢] إلى قوله ﷺ: «فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون...»[٣]. ومن الثابت تاريخيًّا أن الإسراء حدث قبل الهجرة[٤].

ومِمَّا ذكر المفسرون في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) عبدالكريم علي باز: افتراءات فليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي: ص ١٠٧، (مرجع سابق).

(٢) رواه البخاري: صحيح البخاري: ٩٢/١، كتاب الصلاة، باب [١] كيف فرضت الصلاة في الإسراء ؟.

(٣) المرجع السابق نفسه ٩٣/١.

(٤) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية: ٢٧٧/١ - ٢٧٩، (مرجع سابق).

وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[1] أنَّها تعني الصلوات الخمس، وهذا التفسير عزاه القرطبي لابن عباس أنَّه قال: (الصلوات الخمس في القرآن، قيل له: أين ؟. فقال: فسبحان الله حين تمسون: صلاة المغرب والعشاء، وحين تصبحون: صلاة الفجر، وعشيًّا: العصر، وحين تظهرون: الظهر)[2]، ومن الثابت أن سورة الروم نزلت بمكة قبل الهجرة ببضع سنين[3].

ويتساءل أحمد حماني عن هذا الموقف لـ (بروكلمان) قائلاً: (ما الذي يحمل (بروكلمان) على تزوير التاريخ وتشويه الحقائق ؟!)، ثُمَّ يؤكد بأنَّه (يهاجم الإيمان في صدور أبنائنا ليزعزع العقيدة ويتركهم مذبذبين)[4].

وأمَّا قول (بروكلمان) أن المسلمين تأثروا بالفرس في جعل فروض الصلاة خمسة فروض في اليوم والليلة بعد زعمه أنهم تأثروا قبل ذلك باليهود، فإنَّ زعمه هذا كمزاعمه التي سبقت مناقشتها والرد عليها، وكلها تؤكد ما ذكره أحد الباحثين عن فئة من المستشرقين نذرت نفسها لإبراز الإسلام وأمته كذيل لليهود وامتداد لتاريخهم[5].

وأمَّا زعمه بأن المسلمين فيما بعد تأثروا بالفرس فأوصلوا فروض

---

(١) سورة الروم: الآيتان (١٧، ١٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/١٤، (مرجع سابق).

(٣) انظر: الواحدي: أسباب النزول... ص ٢٥٩، (مرجع سابق)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/٤٢٢ - ٤٢٦، (مرجع سابق).

(٤) مجلة جوهرة الإسلام: ص ٤٨، نقلاً عن عبدالكريم علي باز: ص ١٠٧، (مرجع سابق).

(٥) انظر: محمد أنس الزرقاء: الزكاة عند شاخت.. مناهج المستشرقين..: ٢/٢١٣، (مرجع سابق).

الصلاة إلى خمسة فروض فليس في الأديان التي اعتنقها الفرس عبادة كصلاة المسلمين إلاّ أن المجوس كان منهم من يسجد للنجوم ومنهم من يسجد للنار[١]، وإذا حدث من بعض الفرق المنشقة عن الأمَّة الإسلاميَّة تأثرٌ بهم فإنَّ ذلك حدث في عصور متأخرة بعد أن استقرت شرائع الإسلام[٢]، بل من الثابت تاريخيًّا أن الإسلام أثَّرَ في الفرس ودخل سوادهم تحت مظلته[٣].

وأمَّا صلاة الجمعة فإنها شعيرة تميزت بها الأُمَّة الإسلاميَّة وخصَّها الله بها بعد أن ضلّ عنها اليهود والنصارى، وفضلت بها عليهما كما سبق بيان ذلك.

٦ - ومِمَّا ينبغي ذكره في الرد على سائر المزاعم الاستشراقية التي تحاول جاهدة أن تعود بأصول العبادات في الإسلام إلى ملل ونحل لدى أمم شتّى بغية إذابة تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة والقول بأنها ملفقة من هنا وهناك:

(إنَّ العبادات الإسلاميَّة المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج، عبادات قديمة، عرفتها الأديان قبل الإسلام على صورة من الصور، فالله يقول عن بعض الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[٤]، وفي الصيام يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ

---

(١) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل ١/٢٧٤ - ٣٠٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: شكيب أرسلان: إسلام الفرس ومبدأ التشيع: ١/١٦١ - ١٩٣ من كتاب حاضر العالم الإسلامي، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ١/١٨٠، ١٨٤، ١٨٧، ١٩١، وانظر: الصفحة السابقة لهذه الصفحات: ١/١٥٦، (المرجع السابق نفسه).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]،
وفي الحج يقول: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي
شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾
وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن
كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[2].

ولكن هذه العبادات الأربع كانت في تلك الديانات مناسبة لعصرها وبيئتها، فلمًّا جاء محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة الملائمة للبشرية في طور نضوجها، فرض الله عليه هذه العبادات في أكمل صورة لها، ورقى كل نوع منها إلى غايته ومنتهاه، ونقَّاها من كل ما شابها خلال العصور وكر الدهور.

فالصلاة لم تعد مجرد ابتهال ودعاء فحسب، ولكنها ذكر ودعاء وتلاوة، وهي أقوال وأعمال يشترك فيها الفكر والقلب واللسان والبدن، واشترط الإسلام لها النظافة والطهارة، وأخذ الزينة، والاتجاه إلى قبلة واحدة، ووزعها على أوقات النهار والليل بمواقيت معينة، وحدد لكلٍّ صلاة منها ركعات معدودة، ورتب كيفيتها على نسق فريد، وكملها بما شرع فيها من جماعة وجمعة وزان ذلك كله بما شرع لها من أذان وإقامة. فالصلاة في الإسلام بهذه الصورة، وتلك الشروط، عبادة فذَّة لم تعرف هكذا في دين من الأديان.

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٨٣).

(٢) سورة الحج: الآيتان (٢٦، ٢٧).

والزكاة في الإسلام عبادة فذَّة - كذلك -، إنَّها ليست مجرد إحسان يتبرع بها متطوع، ولكنّها حق معلوم وفريضة مقدرة على كل من يملك نصابًا محددًا ناميًا من المال حال عليه الحول، فاضلًا عن الحاجات الأصلية لمالكه، إنها حق الله فيما أنعم به من مال أو تجارة أو زرع، حق يدفع الإيمان إلى أدائه، وتقوم الدولة على جبايته ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [(١)]، فمن أدَّاها طيبة بها نفسه، فقد كسب رضا الله، وفاز بخيري الآخرة والأولى، ومن أبى قسرته الأُمَّة على أدائها قسرًا، فإن كانت له شوكة قوتل وجندت له الجنود حتى يؤديها، وهذا ما صنعه الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع مانعي الزكاة، فالزكاة بهذا الوضع وبمصارفها التي بينها القرآن عبادة جديدة لم تعرف بهذا الكمال في دين من الأديان.

وكذلك الصيام والحج والذكر والدعاء عبادات قديمة مشتركة في أديان كثيرة، ولكن الإسلام نقى هذه العبادات جميعًا من كل شائبة ورقى كل نوع منها إلى غايته، وركز فيها من الأسرار، وربط بها من الآثار، وجعل لها من التأثير في الحياة ما يليق بدين عام خالد، مهمته إصلاح الفرد والأُمَّة وهداية العالمين) [(٢)].

٧ - يبدو أنَّ ما انتهجه (ماسنيون) من عشق وهيام بشخصية (الحلاج) وطريقته في الفلسفة الصوفية، ليس مجرد قناعة ذاتية أو اختيارًا لرأي شخصي، بل الأمر أعمق من ذلك، إذ يظهر من نهجه ذاك - والله أعلم - إبراز التأثر والاقتباس بالنصرانية في تاريخ الأُمَّة

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٠٣).

(٢) انظر: يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام: ص ٢٠٥، ٢٠٦، (مرجع سابق).

الإسلاميَّة في جانبي العقيدة والعبادة، ففيما يخص العقيدة إبراز عقيدة الحلول وفلسفتها التي تتفق مع عقيدة الصلب والتثليث في الديانة النصرانية المحرَّفة.. وهذا جانب لايتسع المجال هنا للخوض فيه والرد عليه، وقد سبق أن أفردت العقيدة وموقف المستشرقين منها بمبحث مستقل[1]، وموضع الرد هنا على جانب العبادة.

ففيما يخص هذا الجانب يظهر أن (ماسنيون) يريد بطريقة غير مباشرة محاولة أن يثبت من خلال بحثه في شخصية (الحلاج) التطابق الذي يكاد يكون تامًّا بين فلسفة العبادة في الإسلام والنصرانية، وبما أن النصرانية هي السابقة فإنَّ الإسلام وأمته تكون في وضع المحاكي المقلد.

ولعل مِمَّا يدلُّ على صحة هذا الفهم والتفسير مايأتي:

أ - ما ذكره عمر فروخ عن (ماسنيون) من أنَّه (جعل همَّه دراسة (التصوف المتطرف) وفيما يتعلق (بالحلاج) خاصة)[2]، على الرغم من أنَّ (الحلاج) (كان أشد الناس عداوة للإسلام وأشد عداء للمسلمين من الكفار: ادَّعى الألوهيَّة فقتله العباسيون بذلك، ولكن أتباعه قالوا: إنَّه لم يمت ولكن (شبهه) ألقي على غيره فقتل العباسيون شبهه هذا ولم يقتلوه هو (تشبيهًا بالمسيح)[3].

ويقول أيضًا: (ولمَّا أصدرت كتابي (التصوف في الإسلام) في طبعته الأولى (١٣٦٦ هـ ١٩٧٤ م) ثُمَّ زار (ماسنيون) بيروت عاتبني على ما كتبته عامَّة وخاصة، فلم أبدل رأيي في الضرر الذي أصاب المسلمين من

---

(١) انظر: ص ٣٤٧ - ٣٧١ (البحث نفسه).

(٢) الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة: ص ١٣٥، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ١٣٥.

حركة التصوف المتطرف والتصوف المعتدل أيضًا)[1]، مِمَّا يدل على الاهتمام البالغ من لدن (ماسنيون) بهذا الجانب ومحاولته إبرازه وترسيخه في واقع المسلمين، وقد التفت عمر فروخ إلى أمرين تجدر الإشارة إليهما:

الأول: أن (ماسنيون) كان مستشارًا في قسم المستعمرات بوزارة الخارجية الفرنسية[2].

الثاني: أنَّ من طلاب (ماسنيون) من تابعه في الكتابة عن (الحلّاج)[3].

وفي هذا وذاك مايؤكد أن هناك رغبة في إبراز هذا الجانب الفلسفي وما يترتب عليه من تقليد ومتابعة للجانب الروحي في الديانة النصرانية التي تأتي (الرهبانية) في تضاعيفه وطياته[4].

ب - كتب بعض المستشرقين ما يوضح دخول التيارات النصرانية في الطرق الصوفية وعدوا ذلك تأثرًا بالروحانية في الديانة النصرانية وتأثيراً في دين الإسلام؛ يقول (آدم متز): (... إنَّ الحركة التي غيرت صورة الإسلام في أثناء القرنين الثالث والرابع ليست في مجموعها سوى نتيجة لدخول التيارات الفكرية النصرانية في دين محمد)[5].

---

(١) الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة: ص ١٣٥، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٣٥.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٣٥.

(٤) انظر: آدم متز: الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تعريب: محمد عبدالهادي أبو ريدة، الصفحات: ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٨٢، ٨٣، ٩٠، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق: ص ١٩.

ويقول (آسين بلاثيوس): (إنَّ المنهج الصوفي بكل جوانبه الروحيَّة مستمد من النصرانية)[1].

ج - وذكر أنَّ أول من تأثر بهذا النهج وتلك الفلسفة هو (الحلاَّج)، وأنَّه سُمِّيَ (مسيح المسلمين)[2].

وعلى هذا فإنَّ الاهتمام بشخصية (الحلاَّج) من قبل (ماسنيون) و (جولدزيهر)[3] وغيرهما من المستشرقين تعني الانحراف بتميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة في مجال عقيدتها وعبادتها إلى الطرائق الفلسفية التي أفسدت العقائد النصرانية والعبادات فيها وحولتها إلى مفاهيم خاطئة وممارسات شاذَّة، وإذا كان لقول (آدم متز) مصداقية في واقع تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة حيث انحرفت بعض الفرق الإسلاميَّة عن جادة الإسلام إلى الرهبانية النصرانية فإنَّ ذلك ليس تغييرًا في الإسلام ذاته، وإنَّما في واقع تلك الفرق، أمَّا الإسلام فقد حفظه الله من التبديل والتغيير، ممثلاً في الأُمَّة الإسلاميَّة؛ (أُمَّة الاتباع) وفقًا لما أخبر به الرسول ﷺ عن افتراق الأُمَّة، والتزام أُمَّة الاتباع بما كان عليه هو

---

(١) نقلاً عن: سارة بنت عبدالمحسن بن عبدالله بن جلوي آل سعود: نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام: ص ٣٢٦، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ/١٩٩١ م، عن دار المنار - جدة.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٣٠، ٣٣١.

(٣) انظر: عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين: ص ٣٦٧، (مرجع سابق). وانظر: محسن عبدالحميد: تجديد الفكر الإسلامي ص ٥١، (مرجع سابق)، حيث ذكر أنَّ (جولدزيهر) و (نيكلسون) ذهبا إلى القول بتأثير الرهبانية النصرانية على الأُمَّة الإسلامية ممثلاً في مظاهر الصوفية لدى المسلمين.

وصحابته الكرام[1].

٨ - أمَّا ما ذهب إليه (مونتغمري وات) حول تنوع المسميات التي تطلق على المسلم وعلى الأُمَّة الإسلاميَّة مثل (حنيف) و (حنيفية) و (مؤمن) و (مؤمنين) و (مسلم) و (مسلمين) وكذلك ما قاله عن (التزكي) فإنَّ ذلك مردود من وجوه عِدَّة منها:

أ - لا تعارض بين هذه المسميات بل هي - كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أسماء متعددة لدين واحد: (يسمى إيمانًا وبرًّا وتقوى وخيرًا ودينًا وعملاً صالحاً مستقيمًا، ونحو ذلك... وهو في نفسه واحد، لكن كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة التي يدل عليها الآخر، وتكون تلك الصفة هي الأصل في اللفظ والباقي.. تابعا لها لازماً لها، ثُمَّ صارت دالَّة عليه بالتضمن)[2].

وهذا من البدهيات العقليَّة التي يتفق عليها جمهرة الناس ولاتقوم لمعترض عليها أدنى حُجَّة، يقول أحد الباحثين في سياق الرد علىهذه المقولة: (إنَّ هؤلاء المستشرقين يعرفون ويعرف غيرهم أنّ الشيء قد يسمى بعدة أسماء، ويوصف بعدة أوصاف من غير تعارض، ولايلزم من وجود أحدهما انتفاء الآخر؛ فمثلاً (جولدزيهر) يهودي ومجري وإنسان ورجل، ولايلزم من وجود هذه الأوصاف جميعًا أن يكون أحدها معارضًا للآخر... وكذلك ماجاء به النبي ﷺ يسمى بالإسلام، ويسمى بالإيمان والحنيفية، وغير ذلك وليس في ذلك تعارض)[3].

---

(١) انظر: ص ٩٨ - ١٠٢ (البحث نفسه).

(٢) كتاب الإيمان: ٧/١٥٥، من (مجموع فتاوى شيخ الإسلام)، (مرجع سابق).

(٣) زيد العيلان: الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلاميَّة: ص ٤٢٥، ٤٢٦، (مرجع سابق).

ب – وإذا كان المستشرقون ينتزعون من تنوع هذه المسميات مايستدلون به على محاكاة الرسول ﷺ لأهل الكتاب في عباداتهم ومداهنته لهم وبخاصة اليهود بعد هجرته إلى المدينة وأنَّه استخدم في سبيل ذلك مسمى (المؤمنين) ليدخلوا فيه بعد أن اقتبس كثيراً من شعائرهم في العبادة وطقوسها، ثُمَّ استخدم مسمى (التزكي)، وبعد يأسه من دخول اليهود والنصارى دينه ومصادمة اليهود لدعوته استخدم مصطلح (حنيف) و (حنيفية) ثُمَّ حلَّ مصطلح (مسلم) و (مسلمين) محلّه فيما بعد؛ فإنَّ هذا الاستدلال متهافت وساقط من الناحية التاريخية، ومن الناحية العقليَّة، ذلك أنَّ منطق التاريخ ينسفه من أصله؛ حيث إنَّ هذه المسميات والمصطلحات قد أطلقت على دين الإسلام وأمته قبل الهجرة.

وعلى سبيل المثال فإنَّ مسمى (التزكي) وإن لم يكن علمًا على دين الإسلام (كحنيف) و (حنيفية) قد جاء في بعض الآيات التي نزلت في مكة قبل الهجرة كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[1]، كذلك مصطلح الإسلام ورد في آيات عدَّة قبل الهجرة كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[3]، وورد في روايات إسلام كثير من الصحابة كرواية إسلام أبي ذر وإسلام الطفيل ابن عمرو الدوسي، بل ورد في دعوة الرسول ﷺ: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحب

---

(١) سورة الأعلى: الآية(١٤).

(٢) سورة لقمان: الآية (٢٢).

(٣) سورة النحل: الآية (٨١).

هذين الرجلين إليك أبي جهل أو بعمر بن الخطاب»[1].

وجاء مصطلح (حنيف) و (حنيفية) في آيات عدَّة - كذلك - نزلت قبل الهجرة منها قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3]، وقال الرسول ﷺ: «إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ولكن بعثت بالحنيفية السمحة»[4].

وجاء الإسلام مقترنًا بالحنيفية في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[5].

وأمَّا من الناحية العقليَّة؛ فإنَّ هذه المسميات والمصطلحات تدل - فيما تدل عليه - على تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة في منطلقاتها وغاياتها وأهدافها ووسائلها في عقيدتها وعبادتها، وأنها ليست على منهج المشركين ولا على منهج اليهود ولا منهج النصارى، وإنَّما كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ

---

(١) رواه الترمذي: الجامع الصحيح ٥/٥٧٦، ورقم الحديث [٣٦٨١]، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق)، وانظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/٣٦٩ - ٣٧٦، إسلام عمر ابن الخطاب، (مرجع سابق)، وقد ورد في هذه القصة وتفاصيلها مسمى (الإسلام) ومشتقاته أكثر من ست مرات.

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٣).

(٣) سورة الأنعام: الآية (٧٩).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/٢٦٦، بتحقيق: دار التراث العربي: ٦/٣٥٧، ورقم الحديث [٢١٧٨٨]، (مرجع سابق).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٦٧).

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

إذًا فالأُمَّة الإسلاميَّة ذات منهج متميِّز وصف بالتزكي في العبادات عن الشركيات والبدع، ووصف بالإيمان ووصف بالإحسان ووصف بالحنيفية، ولكل مسمى من هذه المسميات مفهومه ومعناه، وحينما يتدبر الباحث في هذه المعاني ويعمل عقله يفضي به منطق العقل وسياق الفكر إلى تأكيد معنى تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وأنَّ من أهم أهداف هذا التميُّز ما تدل عليه هذه المسميات من معان عميقة واسعة منها على سبيل المثال:

- مايدل عليه الإسلام من الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة والخضوع له بعبادته وحده دون سواه[2].
- ماتدل عليه الحنيفية من ميل عن الشرك في العبادة والعقيدة إلى الإسلام والثبات عليه[3]، وقد وصفت أيضًا بأنها سمحة كما في قول الرسول ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[4]،

---

(١) سورة الأنعام: الآيات (١٦١ - ١٦٣).

(٢) انظر: ابن منظور: لسان العرب..: مادة (سلم)، (مرجع سابق)، وأبو البقاء: الكليات: ص ٢١٧، (مرجع سابق)، وابن تيمية: كتاب الإيمان (الجزء السابع من الفتاوى): ص ٢٦٣، (مرجع سابق).

(٣) انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث... ٤٥١/١، مادة (حنف)، وزاد أبو البقاء في كلياته، مادة (الحنيف) ص ٣٥٩ قوله: (مخالفًا لليهود والنصارى منصرفًا عنهما).

(٤) ترجم البخاري في كتاب الإيمان أحد الأبواب بهذا الحديث: صحيح البخاري: ١٥/١، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، ووصله البخاري في الأدب المفرد من طريق داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس (قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الأديان أحبّ ؟=

وهي ملة إبراهيم عليه السلام وهو الذي سمَّى أُمَّة محمد ﷺ مسلمين، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[1].

- ما يدل عليه الإيمان والإحسان من تدرج في مراتب الإسلام التي أدناها الإسلام ثُمَّ الإيمان ثُمَّ الإحسان فهي مراتب ثلاث يترقى فيها المسلم بإخلاص العبادة لله والانقياد لسنة رسوله ﷺ حتَّى يعبد الله كأنه يراه[2]، ومن المعهود أن الإسلام والإيمان إذا ذُكِرَا مجتمعَيْن دلَّ الإسلام على العبادات الظاهرة من النطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج لمن استطاع إليه سبيلاً، ودلَّ الإيمان على العبادات القلبية كما وردت في الحديث: **«أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث»**[3]، وإذا ذكر أحدهما دون الآخر دلَّ عليه، ففي الحديث: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها لا إله إلاَّ الله، وأدناها**

=قال: «الحنيفية السمحة»؛ ص ٨٧، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده من طريق أبي أمامة (جزء من حديث): ٢٦٦/٥، ٣٣/٦، (مرجع سابق)، ومن طريق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بلفظ: «أرسلت بحنيفية سمحة». قال السخاوي في المقاصد الحسنة إنَّ إسناده حسن: ص ١٠٩، وكذا في كشف الخفا: ٢٥١/١، (مرجع سابق)، ولمزيد الاطلاع على طرقه ورواياته والحكم عليها، انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ بتحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين: ١٧/٤، ورقمه [٢١٠٧]، (مرجع سابق).

(١) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٢) انظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ١٨/١، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٣) حديث جبريل: صحيح البخاري، كتاب الإيمان: ١٨/١، (المرجع السابق نفسه).

إماطة الأذى عن الطريق»[1]، فدخل الإسلامُ في مسمى (الإيمان) ودخلت كذلك الأعمال الصالحة[2].

ولئن كان الحديث يطول في هذه الفروق والدلالات عند افتراق مسمى الإسلام والإيمان والإحسان واقترانها فإنَّ ما يتصل بهذا الرد في هذه النقطة هو أن النبي ﷺ (جعل الدين ثلاث درجات أعلاها (الإحسان) وأوسطها (الإيمان) و يليه (الإسلام) فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسناً، ولا كل مسلم مؤمناً)[3].

وعلى هذا فإنَّ تعدد المسميات والمصطلحات التي توقف عندها (مونتغمري وات) تدلُّ على تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له وأدائها في أنصع صورة وأكملها، وهذا من أهم أهداف تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة.

٩ - وحادثة تحويل القبلة إلى بيت الله الحرام بمكة جاء استجابة لأمر الله جل وعلا من الرسول ﷺ ومن أمته؛ لأن استقبال بيت المقدس كان أمرًا من الله - على الأرجح من أقوال العلماء[4] - وكان صرف القبلة عنه إلى الكعبة أمرًا من الله بالوحي والقرآن الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد ذكر العلماء أن أول نسخ في

---

(١) انظر: ابن تيمية: كتاب الإيمان: ص ٩، (مرجع سابق)، وأصل الحديث عند مسلم ولفظه: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة...» الحديث؛ صحيح مسلم: ٦٣/١، باب: عدد شعب الإيمان...، الباب (١٢) ورقم الحديث [٥٨]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٧.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٧.

(٤) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٨٩/١، (مرجع سابق).

القرآن كان نسخ القبلة، وقالوا: إن استقبال الكعبة في بيت الله الحرام بمكة المكرمة قطعي الدلالة قطعي الثبوت[1].

وقد استفاضت كتب السنة والسيرة وغيرها من المصادر الإسلاميَّة بذكر هذه الحادثة الكبيرة في تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾[2]، ولايُمكن هنا ذكر تفصيلاتها وما يستفاد منها من عبر وعظات ومقاصد عدّة بشكل مفصل ولكن يكفي القول بأن هذه الحادثة في مجمل دلائلها، وخلاصة ما يستنتج منها تنسجم مع شخصية الأُمَّة الإسلاميَّة المتميِّزة ولاسيما إذا أخذ بعين الاعتبار ما صاحبها من تمحيص وابتلاء وامتحان مايز بين المسلمين واليهود والنصارى ومايز كذلك بين المهتدين والناكصين[3] من الأُمَّة الإسلاميَّة، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].

قال ابن كثير في تفسيرها: (يقول تعالى: إنَّما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ثُمَّ صرفناك عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه مرتداً عن دينه، وإن كانت لكبيرة، أي: هذه الفعلة وهو صرف التوجه

---

(١) انظر: جميل المصري: أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية... ص ٨٣، (مرجع سابق).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

(٣) انظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن..: ١/١٥٩ الحاشية رقم [١٠]، (مرجع سابق).

(٤) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا لأمرًا عظيمًا في النفوس إلاّ على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأنَّ كل ماجاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأنَّ الله يفعل ما يشاء ويحكم مايريد، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ مايشاء)[1].

وقال قبل ذلك: (ولمَّا وقع هذا - يعني تحول القبلة - حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك وقالوا: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ ...)[2].

إلى أن قال: (الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنا فالطاعة في امتثال أمره ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفي تصرفه وخدّامه حيثما وجهنا توجهنا وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة، إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3]، [4].

جاء كلامه هذا في سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[5].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/١٩١، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ١/١٩٠.

(٣) سورة البقرة: الآية (١٤٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/١٩٠، (المرجع السابق نفسه).

(٥) سورة البقرة: الآية (١٤٢).

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[1]، قال: (إنَّما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل... ولما جعل الله هذه الأُمَّة وسطاً خصَّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب)[2].

وأورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[3] حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال الرسول ﷺ: «إنهم لايحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها فضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين»[4]، والمقصود بالضمير في «يحسدوننا» يعني أهل الكتاب.

وقد تحدث ابن قيم الجوزية عن حادثة تحويل القبلة في كثير من المواضع من كتبه وما صاحب هذه الحادثة من إرهاصات وما اشتملت عليه من حكم ودلائل منها:

أ - إنَّ مشروعية الصلاة إلى بيت المقدس إنَّما كانت أولاً بسبب كونها قبلة الأنبياء وبعث محمد ﷺ بما بعثوا به (وبما يعرفه أهل الكتاب، وكان استقبال بيت المقدس مقررًا لنبوته، وأنه بعث به الأنبياء

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٩٠/١، (مرجع سابق).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٤٢).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٣٥/٦، ورقم الحديث [٢٤٥٠٨] ترتيب: دار إحياء التراث: ١٩٤/٧، (مرجع سابق). وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٩٠/١، (المرجع السابق نفسه).

قبله، وأنَّ دعوته هي دعوة الرسل بعينها، وليس بدعًا ولا مخالفًا لهم، بل مصدقًا لهم مؤمنًا بهم، فلمَّا استقرت أعلام نبوته في القلوب وقامت شواهد صدقه من كل جهة، وشهدت القلوب له بأنَّه رسول الله حقًا وإنْ أنكروا رسالته عنادًا وحسدًا وبغيًا، وعلم سبحانه أن المصلحة له ولأمته أن يستقبلوا الكعبة البيت الحرام أفضل بقاع الأرض وأحبها إلى الله، وأعظم البيوت وأشرفها وأقدمها قرر قبله أمورًا كالمقدمات بين يديه لعظم شأنه فذكر النسخ أولاً...)[1].

ويقول أحد المؤلفين في هذا الصدد: (إنَّ صلاته ﷺ إلى بيت المقدس ثُمَّ تحوله إلى الكعبة في مكة ليوحي بأنَّه هو النبي الذي يجب أن يدين له أهل القبلتين، ويؤمن برسالته كل العالمين، حيث لم تكن دعوته دعوة محلية ولا رسالة إقليمية، وإلا لما احتاج إلى هذه السياحة التي جمعت له أطراف الأرض)[2].

والمؤلف يقصد بهذه السياحة قصة الإسراء وما حدث فيها من استقبال الأنبياء لمحمد ﷺ وتقديمه عليهم إمامًا حيث صلى بهم في المسجد الأقصى، وقد انتزع المؤلف المذكور من هذه الحادثة: إقرار الأنبياء بنبوة محمد ﷺ وتفوقه عليهم في المكانة وعلو القدر، وأنَّ إقرار كلِّ نبي ملزم لأمته وموجب عليها أن تقر برسالة محمد ﷺ، وأن تقديمه في الصلاة بهم يوضح عالمية رسالته واعترافهم - صلوات الله عليهم أجمعين[3] - (بحقه في التقدم عليهم، ودعوة صريحة لأممهم بطاعته والائتمام به)[4].

---

(١) ابن قيم الجوزية: بدائع التفسير ١/ ٣٦٠، (مرجع سابق).

(٢) محمد السيد الوكيل: تأملات في سيرة الرسول ﷺ: ص ٨١، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٨١.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٨١.

كما ذكر بعض المفسرين أنَّ توجه محمد ﷺ بالصلاة إلى بيت المقدس ثُمَّ تحوله إلى الكعبة من دلائل نبوته التي أَخْبَرتْ بها الكتب السابقة[1].

ب - أن حادثة تحويل القبلة جاءت مؤكدة على التمايز بين المسلمين وأهل الكتاب، وأنَّ لكل أُمَّة منهم قبلة توليها، وأنَّ بعضهم لن يتبع بعض، وأنَّه لا مصلحة ترجى في موافقته بعدما ظهر منهم من الكبر والحسد والسخرية بالمسلمين، وأنَّهُم لن يرضوا عن الرسول ﷺ حتى يتبع ملتهم[2].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[3].

ج - (إنَّه كما جعلهم أُمَّة وسطاً خياراً اختار لهم أوسط وجهات الاستقبال وخيرها، كما اختار لهم خير الأنبياء، وشرع لهم خير الأديان، وأنزل عليهم خير الكتب، وجعلهم شهداء على الناس كلهم، لكمال فضلهم وعلمهم وعدالتهم، وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة وأشرفها لتتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة)[4].

---

(١) انظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن..: ١٦١/١، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية: بدائع التفسير ٣٦١/١، (مرجع سابق).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٤٥).

(٤) ابن قيم الجوزية: بدائع التفسير ٣٦٢/١، (المرجع السابق نفسه).

١٠ - أمَّا ما زعمه (شاخت) في مفهوم الزكاة، وأنَّ الرسول ﷺ استعارها من الاستعمال اليهودي لها بمعنىً أوسع مِمَّا تعنيه في معناها العربي قبل الإسلام، فإنَّ زعمه هذا يأتي في سياق دراسته للزكاة في الإسلام، وقد أكد الباحثون بأنَّ دراسته تلك غير دقيقة، وأنها اتسمت بالآتي:

أ - انتهج فيها (إطلاق تعميمات تحتاج إلى تقييد، أو إغفال تفصيلات مهمة تتعلق بمبدأ عام، أو استعمال عبارات مجملة بينما يقتضي المقام التعبير عن معنى واحد لا غير، وعدم الدقة في العبارة والفكرة)[١].

ب - استحوذ على فكره ومنطلقه في تلك الدراسة الربط بين مفهوم الزكاة في الإسلام ومفهومها في اليهودية ليدلل بذلك على أن الرسول ﷺ أخذه من اليهود، وأنَّه في سبيل ذلك حجَّرَ واسعًا وجعل نفسه حبيسًا في أغلال المباحث اللفظية، ولم يتعدها إلى مقارنة المعاني والأحكام[٢].

ج - خضع في منهجه هذا لذلك المنهج الشائع بين علماء اليهود وهو (الإصرار على نسبة كل الكلمات المشتركة بين اللغات السامية إلى اللغة العبريَّة)[٣].

وإذا كانت دراسة (شاخت) للزكاة قد اتسمت بعدم الدِّقَّة وانتقدت من حيث المنهج ومن حيث المضمون وتصدَّى لذلك أهل الاختصاص من

(١) محمد أنس الزرقاء: الزكاة عند شاخت، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلاميَّة ٢١١/٢، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه ٢١٨/٢.

(٣) المرجع السابق نفسه ٢١٣/٢.

علماء الأُمَّة الإسلاميَّة[1]، فإنَّ ما يهم هنا هو الرد على زعمه الخاص بأنَّ مفهوم الزكاة في الإسلام مقتبس ومنقول عن اليهود والرد على ذلك من وجوه أبرزها الآتي:

أ - إنَّ اللغة العبريَّة والاراميَّة والعربية وغيرها تعود إلى اللغة الساميَّة، فإذا وجدت جذور مشتركة لبعض الكلمات في هذه اللغات فلايعني ذلك أن إحدى اللغات المذكورة نقلت من الأُخرى ولايُمكن الجزم بذلك فقد يكون سبب ذلك الاشتراك عودتها جميعًا إلى أصل واحد[2].

ب - لو فرض أن لفظ (زكاة) مقتبس من العبرية فإنَّ الرسول ﷺ ليس هو الذي نقله من العبريَّة إلى العربية، إذ إنَّ هذا اللفظ موجود في اللغة العربية قبل الإسلام، ولئن كان من معانيه في العربية ما يوافق بعض معانيه في العبرية مثل الطهر فإنَّ له معاني أُخرى استقل بها في العربية منها: (النماء والزيادة والبركة والصلاح والزكا والمدح)[3].

ويشترك من ناحية ثانية مع كلمات عدّة، مِمَّا يدل على عمق دلالته في

---

(١) انظر: ما علّق به محمد يوسف موسى على مادة (زكاة) التي حرَّرها يوسف شاخت: دائرة المعارف الإسلاميَّة؛ مادة (زكاة)، (مرجع سابق)، وانظر: أبو الحسن الندوي: الأركان الأربعة (الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج): ص ٩٥ - ١٧٥، الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ-١٩٧٤م، عن دار القلم، الكويت، وانظر: يوسف القرضاوي: فقه الزكاة: ١/١٨١-١٨٣ و ١٩١ و ٢/٩٢١، الطبعة الرابعة والعشرون، ١٤١٨ هـ/١٩٩٧ م، عن مؤسسة الرسالة، بيروت، وانظر: محمد أنس الزرقاء: المرجع السابق نفسه: ص ٢٠٥ - ٢٢١.

(٢) انظر: محمد أنس الزرقاء: الزكاة عند شاخت: ٢/٢١٣، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: ابن منظور: لسان العرب: مادة (زكى)، وانظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة: مادة (زكى).

اللغة العربية وأصالته، بينما الكلمات المقترضة من لغة أخرى تكون جامدة، ومقطوعة الصلة بغيرها من الكلمات الأخرى في تلك اللغة التي نقلت إليها[1].

ج - جعل الإسلام للزكاة مفهومًا شرعيًا متميزًا وهو زكاة الأموال وعروض التجارة بصفة محدَّدة ومقررة شرعًا، ويؤكد الباحثون بأنّ الإسلام استخدم هذا المعنى أو المفهوم الشرعي قبل الهجرة وبعدها.

د - مِمَّا سبق الرد به على شبهات المستشرقين التي تدور حول دعوى التشابه تبين أنَّ التشابه حدث بسبب وحدة المصدر، وحيث إنَّ الزكاة قد فرضت في الأديان والشرائع السابقة للإسلام فإنَّ ذلك مدعاة للتشابه فيما بين أحكام تلك الأديان والشرائع وبين أحكام الإسلام، وفي سياق قصص الأنبياء والرسل الذين ذكرهم الله جل وعلا لنبيه ﷺ ورد ما يبين مشروعية الزكاة في شرائعهم، كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾[2]، وقوله عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[3].

وإذا كانت هذه الأوجه كفيلة بدحض مزاعم (شاخت) وإسقاط الاحتجاج بها فإنَّ هناك أوجهاً أخرى كثيرة تبين بجلاء استقلال تشريع الزكاة في الإسلام عما هو معهود في الشرائع السابقة للإسلام وعن النظم المعاصرة في المجتمعات الغربية، وهو ما يعرف بالضمان الاجتماعي، وأنَّه كما قال أحد الباحثين يُعَدُّ معجزة الرسول ﷺ الاقتصادية[4].

---

(١) انظر: محمد أنس الزرقاء: المرجع السابق نفسه: ٢/٢١٣، ٢١٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٧٣).

(٣) سورة مريم: الآية (٣١).

(٤) انظر: محمد أنس الزرقاء: الزكاة عند شاخت: ص ٢٢١، (المرجع السابق نفسه)،=

وهذا التميُّز الذي اتسم به تشريع الزكاة في الإسلام ليس محصورًا في ناحية دون أخرى بل في كل ناحية (سواء في صفته الإلزامية، أو في تحديده التفصيلي أو خصائصه الاقتصادية، أو في استخدامه للسلطة الاجتماعية في إعادة التوزيع من الأغنياء إلى الفقراء، أو في عزله الصارم لموارد الزكاة عن مالية الدولة العامَّة)[1].

ويُمكن الاقتصار في الرد على مزاعم (شاخت) بإيراد مثالين - فقط- يبين أحدهما أهمَّ الفروق بين تشريع الزكاة في الإسلام وبين الواجبات الدينية في الديانات الأُخرى، ويبين الآخرُ الفارقَ بين تشريع الزكاة في الإسلام - أيضًا - وبين التشريعات المعاصرة للضمان الاجتماعي في الدول الصناعية[2].

أمَّا الأول: فإنَّ (الواجبات الدينية في الديانات الأُخرى هي أساس لتمويل وظيفة الوساطة الدينية، ولإعاشة رجال الدين وتشغيل وإنشاء المعابد)[3]، على حين تكون الزكاة في الإسلام مقصورة بالدرجة الأولى (على الفقراء، وقد حرمت الزكاة والصدقة عمومًا على النبي ﷺ وعلى آله، وعلى العلماء بالشريعة إلا أن يكونوا فقراء فيتقاضونها بصفة الفقر لا بصفة العلم والدين، بل اتفقت المذاهب الأربعة على أنَّه لايجوز صرف الزكاة حتى لبناء المساجد، بل ينبغي بناؤها من غير أموال الزكاة)[4].

=وانظر: أبو الحسن الندوي: الأركان الأربعة..: ص ٩٥ - ١٧٥، (مرجع سابق).

(١) محمد أنس الزرقاء: المرجع السابق نفسه..: ٢/٢٢١.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ٢/٢١٩، ٢٢٢.

(٣) محمد أنس الزرقاء: المرجع السابق نفسه: ٢/٢١٩، وانظر: أبو الحسن الندوي: الأركان الأربعة..: ص ١٢٨ - ١٢٩، (مرجع سابق).

(٤) محمد أنس الزرقاء: المرجع السابق نفسه: ٢/٢١٩، وانظر: يوسف القرضاوي: فقه=

وأما الثاني: فإنَّ (التشريعات المعاصرة للضمان الاجتماعي في الدول الصناعية (تولدت) نتيجة تعاظم القوة السياسية للفئات الاجتماعية المستفيدة منه، وتهديدها الصريح أو الضمني للمجتمع إن لم يستجب لمطالبها)[1]، على حين كان تشريع الزكاة في الإسلام أحد أركان الإسلام الخمسة، وجاء (جزءًا من نظام حياة متكامل أوحي إلى نبي أمّي)[2].

وقد لفت نظر بعض الباحثين ذلك الموقف الحازم الحاسم الذي وقفه أبو بكر الصديق رضي الله عنه من مانعي الزكاة، وقال: (والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة)[3]، إذ كان ذلك الموقف (حدثًا فريدًا في تاريخ الإنسانية، وهو أن يخاطر مجتمع بوجوده فيدخل حربًا لمصلحة فقراء وضعفاء لم يكن لهم فيه وزن سياسي متميز، وما كانوا ليفكروا أو ليقدروا على التشويش أو إحداث القلاقل والاضطراب تأكيدًا لمصالحهم)[4].

* * *

=الزكاة: ص ٦٤٤، (مرجع سابق)، وانظر: ابن قدامة: المغني ٢/٤٩٧، (مرجع سابق).

(١) محمد أنس الزرقاء: الزكاة عند شاخت: ٢/٢٢١، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ٢/٢٢١.

(٣) سبق تخريجه: ص ٨٤٦، (البحث نفسه).

(٤) محمد أنس الزرقاء: المرجع السابق نفسه..: ٢/٢٢٠.

المبحث الثاني
تحقيق الاستخلاف
وموقف المستشرقين منه

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: تحقيق الاستخلاف.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منه.

المطلب الأول

تحقيق الاستخــلاف

يتحقق الاستخلاف بإقامة دين الله في الأرض، وذلك من أبرز أهداف تميز الأمّة الإسلاميَّة لقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]، فبإقامة دين الله في الأرض بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله يتحقق الاستخلاف في الأرض، وتضطلع الأُمَّة بحمل الأمانة.

ولتجلية هذا الهدف يتناول البحث الآتي:

٢- مفهوم الاستخلاف وأهميته.

٣- مقومات الاستخلاف بعامّة.

٤- مقومات استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة بخاصة.

١- مفهوم الاستخلاف وأهميته:

أ- معنى الاستخلاف في اللغة:

أصل الاستخلاف في اللغة من (خَلَفَ)، وله - كما قال ابن فارس -: (أصول ثلاثة، أحدها: أنْ يجيءَ شيءٌ بعد شيء يقوم مقامه، والثاني: خلاف قُدَّام، والثالث: التغيُّر؛ فالأول، الخلف، والخلف: ماجاء بعد، ويقولون: هو خَلَفُ صِدْقٍ من أبيه، وخَلَفَ سَوْء من أبيه؛ فإذا لم يذكروا صِدقًا ولا سَوْءًا، قالوا للجيِّد: «خَلَفٌ»، وللرديّ: «خَلْفٌ»)[2].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة (خَلَفَ)، (مرجع سابق).

وقال الفيروزآبادي: (الخَالِفَة: الأُمَّة الباقية بعد الأُمَّة السالفة... والخليفة: السلطان الأعظم... كالخليف (وجمعه) خلائف وخلفاء، وخَلَفَه خِلافَةً: كان خليفته، وبقيَ بعده)[1].

وقال الراغب الأصفهاني: (الخلافة النيابة عن الغير إمَّا لغيبة المَنُوبِ عنه، وإمَّا لموته، وإمَّا لعجزه، وإمَّا لتشريف المُسْتَخْلَف، وعلى هذا الوجه الأخير: استخلف الله أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾[4])[5].

ب - مفهوم الاستخلاف عند بعض المفسرين والعلماء والباحثين:

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾[6]: (أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه)[7].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[8]، قال بعض المفسرين: (هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر، وفضله، وأنّ الله - حين أراد خلقه - أخبر الملائكة

---

(1) القاموس المحيط، مادة (خَلَفَ)، (مرجع سابق).

(2) سورة فاطر: الآية (٣٩).

(3) سورة الأنعام: الآية (١٦٥).

(4) سورة هود: الآية (٥٧).

(5) مفردات ألفاظ القرآن: مادة (خَلَفَ)، (مرجع سابق).

(6) سورة هود: الآية (٥٧).

(7) الجامع لأحكام القرآن ٣٧/٩، (مرجع سابق). وانظر: الرازي التفسير الكبير ٣٦٥/٦، (مرجع سابق)، وانظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ٤٣٣/٣، (مرجع سابق).

(8) سورة البقرة: الآية (٣٠).

بذلك، وأنّ الله مستخلفه في الأرض)[1]، وقد أشار بعض المفسرين إلى أن المراد بالخليفة في الآية المذكورة هو آدم وبنوه[2].

وللعلماء في خلفة وخلائف وخلفاء آراء كثيرة منها: (الخلافة عن الله، ومنها: أن خليفة بمعنى خلفاء يعقب بعضهم بعضًا ولا بقاء لهم، ومنها: أنهم يخلفون من كان قبلهم من الجن بعد أن أهلكهم الله بسبب فسادهم)[3].

وقد اعترض شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – على القول بأن الإنسان خليفة الله في الأرض احترازاً مِمَّا يحمله هذا القول من تأثير فلسفي مؤداه (قولهم: الإنسان هو العالم الصغير... وضموا إليه أن الله هو العالم الكبير، بناءً على أصلهم الكفري في وحدة الوجود، وأنّ الله هو عين وجود المخلوقات، فالإنسان من بين المظاهر هو الخليفة الجامع للأسماء والصفات، ويتفرع على هذا ما يصيرون إليه من دعوى الربوبيّة والألوهية المخرجة لهم إلى الفرعونية والقرامطة والباطنية)[4]، بيدَ أنّ بعض المفكرين ناقش المقصود من الخلافة مستندًا إلى ما ورد في معناها من كونها النيابة عن الغير لتشريف المستخلف (كما ذكر ذلك الأصفهاني)؛ ولأنّ ما ذهب إليه شيخ الإسلام لايتأتى في هذا المعنى المشار إليه[5]، وقد عزّزَ ذلك أحد المفكرين بقوله: (إنَّ القول بخلافة

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ١/ ٧٠، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠ – ٧٣، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١/ ٧١، وانظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير ١/ ٣٨٨، ٣٨٩، (مرجع سابق). وانظر: الشوكاني: فتح القدير ١/ ٦٢، (مرجع سابق).

(٤) فتاوى شيخ الإسلام بن تيميَّة ٣٥/ ٤٤، (مرجع سابق).

(٥) أحمد حسن فرحات: الخلافة في الأرض ص١٥، الطبعة الأولى١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، عن دار الأرقم – الكويت.

الإنسان لله - عَزَّ وَجَلَّ - في الأرض جائز ولايلزم من ذلك خلو الأرض من سلطان الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فكما أن المؤمنين يرثون الأرض ويتبوأون من الجَنَّة حيث يشاءون في الآخرة، والله - عَزَّ وَجَلَّ - هو الذي يورثهم إيَّاها، دون أن يلزم من هذا المعنى والمفهوم موت المورث جل جلاله ولا غياب هيمنته أو خلو الجنّة من سلطانه، كذلك يجوز القول بأن الله تعالى حين استخلف الإنسان في الأرض أصبح الإنسان المؤمن خليفة له - عَزَّ وَجَلَّ - دون أن يلزم من هذا خلو سلطانه من الأرض أو غياب هيمنته عليها)[1].

ثُمَّ إنّ الخلافة إمَّا أن تكون ممثلة في (آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه)[2]، وإمَّا أن تكون لجميع البشر يخلف بعضهم بعضًا، ومنهم من يخرج عن طاعة ربه ويكفر بما جاءه من الهدى[3]، ولذلك فرَّق بعض الباحثين بين مسمَّى (خلائف) ومسمّى (خلفاء)، وجعل (صيغة «خلائف» في الوراثة الزمنيَّة للأمم الكافرة التي أهلكها الله، والتي يجب أن تكون الأمم الخالفة فيها مخالفة للأمم المخلوفة في نهجها وسلوكها)[4]، وجعل (صيغة «خلفاء» في الوراثة الدينيَّة الصالحة؛ لأنَّها جاءت بعد انقضاء أجل الأُمَّة الصالحة، وهذا يعني أنّ

---

(١) فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض... ص ٧٠، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦، عن مكتبة فرقد الخانجي، الرياض.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: أحمد حسن فرحات: الخلافة في الأرض: ص ٢٣، (المرجع السابق نفسه).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٢٧.

على الأمة الخالفة أن تقتدي بالأُمَّة المخلوفة وأن تسير على نهجها وسلوكها)[1].

ومهما بلغت الفوارق بين صيغ (خليفة) و (خلائف) و (خلفاء) و (مستخلفين) ونحو ذلك مِمَّا ورد في قضية الاستخلاف فإنَّ العبرة بما قصَّهُ الله من تفضيله لآدم عليه السلام وذريته على سائر المخلوقات، وما فطره عليه من التوحيد والعلم، وكذلك ما حدث منه وزوجه من معصية كانت سبباً لإخراجهما من الجنَّة ثُمَّ ما حدث منهما من ندم وتوبة، وما تفضل به أرحم الراحمين[2] من قبول لتوبتهما، ومن ثَمَّ بدأ تاريخ الاستخلاف، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3]، وببداية الاستخلاف بدأ الصراع بين الخير والشر، فقد أهبط آدم وزوجه ومعهما إبليس إلى الأرض لتبدأ ملحمة العداء بين آدم هو وذريته في جانب مع إبليس وذريته في الجانب الآخر[4].

قال بعض المفسرين: (ومن المعلوم أن العدو يجد ويجتهد في ضرر عدوه، وإيصال الشر إليه بكل طريق؛ وحرمانه الخير بكل طريق، ففي

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٧.

(٢) اشتملت الآيات (٣٠ - ٣٩) من سورة البقرة على مجمل القصة وما تشتمل عليه من دلائل ومضامين تتعلق بوجود الجنس البشري ومهمته في الحياة وعاقبته فيها إزاء موقفه مِمَّا جاءه عن الله من الهدى.

(٣) سورة البقرة: الآيتان (٣٨، ٣٩).

(٤) انظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن..: ٧٤/١، ٧٨، (مرجع سابق). وانظر: ابن قيم الجوزية: بدائع التفسير ٣٠٤/١ - ٣١٢، (مرجع سابق).

هذا (أي قوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [1]) تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [2]، ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [3] ثُمَّ ذكر الإهباط فقال: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ [4] أي: مسكن وقرار، ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [5] انقضاء آجالكم، ثُمَّ تنتقلون منها للدار التي خلقتم لها، وخلقت لكم، ففيها أنَّ مدة هذه الحياة، مؤقتة عارضة، ليست مسكنًا حقيقيًا، وإنَّما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولاتعمر للاستقرار... ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ [6] أي: أي وقت وزمان جاءكم مني، يا معشر الثقلين، هدىً أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي، فمن تبع هداي منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾) [7]، وفي الآية الأخرى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [8]؛ فرتَّب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف، والحزن، وإذا انتفيا، ثبت

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٦).

(٢) سورة فاطر: الآية(٦).

(٣) سورة الكهف: الآية (٥٠).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٦).

(٥) سورة البقرة: الآية (٣٦).

(٦) سورة البقرة: الآية (٣٨).

(٧) سورة البقرة: الآية (٣٨).

(٨) سورة طه: الآية (١٢٣).

ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية، والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه)[1].

يتبين من هذا ونحوه: أنَّ الاستخلاف ينطوي على شيء من الابتلاء والامتحان، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾[4].

واقتضت حكمة الله أن يتحقق الاستخلاف بظهور الحق وانتصار الصالحين وتمكينهم في كل دورة من دورات الصراع بين الحق والباطل وأن تكون العاقبة للمتقين، وأن يؤول الاستخلاف إليهم؛ قال تعالى:

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن..: ١/٧٥، ٧٦، ٧٧، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سورة الأنعام: الآية(١٦٥).

(٣) سورة يونس: الآية (١٤).

(٤) سورة فاطر: الآية (٣٩)، وانظر أقوال المفسرين في تفسير هذه الآيات لاستجلاء ماينطوي عليه الاستخلاف من الابتلاء والامتحان وعلى سبيل المثال انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٢/٤٠٩، (مرجع سابق)، فقد أشار لشيء من ذلك واستشهد ببعض الأحاديث وبعض المواقف التاريخية، وذلك عند تفسيره الآية ١٤ من سورة يونس.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾[1]، وفي آية أخرى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾[2]، قال ابن كثير في تفسيرها: (أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره)[3].

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾[4].

ج - تعريف الاستخلاف في الاصطلاح:

أمَّا تعريف الاستخلاف في الاصطلاح فهو: (عبادة طوعيَّة لله بالتزام هديه وشرائعه ينشأ عنها ضبط للسلوك الإنساني في علاقته مع الله وعلاقته بالكون والمخلوقات بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح)[5].

د - أهمية الاستخلاف:

يشتمل استخلاف الإنسان في الأرض - كما ذكر بعض الباحثين -

---

(١) سورة هود: الآية (٥٧).

(٢) سورة محمد: الآية (٣٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٨٢/٤، (مرجع سابق).

(٤) سورة النور: الآية (٥٥).

(٥) أحمد حسن فرحات: الخلافة في الأرض: ص ٢١، (مرجع سابق). وانظر: فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض: ص ٦، ٧، (مرجع سابق)، وانظر: محمد الصادق عرجون: الأمَّة الإسلاميَّة كما يريدها القرآن العظيم: ص ٩٦، (مرجع سابق). وانظر: عبدالحميد النجار: خلافة الإنسان بين الوعي والعقل (بحث في جدلية النص والعقل والواقع): ص ٤٧، ٤٨، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م، عن دار الغرب الإسلامي - بيروت.

على علاقتين هما وجهان لحقيقة واحدة وهي الخلافة أو الاستخلاف:

أمَّا العلاقة الأولى فهي (بين الإنسان وربه... تتمثل في الخضوع والطاعة والاستجابة واستسلام الخليفة لمن استخلفه، أو هكذا يجب أن تكون، وبكلمة واحدة نعبر بها عن هذه العلاقة نقول: إنها عبودية، أمَّا العلاقة الثانية من علاقتي الخلافة، فإنَّها تتمثل في سيطرة الإنسان الخليفة وهيمنته واستغلاله وحاكميته وتسخيره لكل ما استخلفه الله عليه، أي: لكل ما في الأرض وما عليها، وما في باطنها من أشياء وأحياء، وبكلمة واحدة نقول: إنّ الإنسان سيد عليها، أي أنّ هذه العلاقة تسمى سيادة، فالخلافة: عبوديَّة وسيادة)[1].

كما أنَّ هذه السيادة لاتتأتى للإنسان في وضعها الصحيح إلاَّ بتحقيق العبوديَّة لله (فإذا لم يحقق الإنسان عبوديته لله فإنَّه يضيع سيادته في الأرض؛ لأنَّه إذا لم يحقق عبوديته لله وحده، فإنه سيسقط بالضرورة في عبوديته لغير الله ومن ثُمَّ يفقد سيادته على هذا الغير، وإذا لم يحقق الإنسان سيادته في الأرض، فإنَّه بالتالي يصعب عليه أن يكون عبداً لله - عَزَّ وَجَلَّ - وحده، والمثل الواضح على هذا هو الوثني الذي يتوسل إلى الله بأحياء أو أشياء مادية، فإنَّ هذا التوسل أو التزلف بها إلى الله هو المانع الأول والحقيقي لسيادة الإنسان عليها ما دام يعتقد أنها أفضل منه وأقرب إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - فكيف يُمكن أن يسخرها لنفسه ؟ وهذا التوسل شرك بالله - عزوجل -، ومن ثَمَّ فالشرك أو الكفر فقد للسيادة،... وفقد للعبوديَّة،... والتوحيد تحقيق للسيادة،... وتحقيق

---

(١) فاروق دسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض... ص ١٨، ١٩، (مرجع سابق). وانظر: عبدالمجيد النجار: خلافة الإنسان: ص ٣١، ٣٤، ٣٥، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٧٢، ٩٩، ١٢٥، (مرجع سابق).

للعبوديَّة؛ لأنّ معنى إفراد الله بالعبادة استعلاء الموحد على كل ما سوى الإنسان في الأرض، وهذا معنى السيادة)[1].

وبهذا تتضح أهميَّة الاستخلاف، وأنّه هدف مهم من أهداف تميز الأمّة الإسلاميَّة يقترن بهدف تحقيق العبوديَّة، وأن [استخلاف الإنسان في الأرض من أهم الأصول الاعتقادية للحضارة الإسلاميَّة، فإذا كان التوحيد الإسلامي هو إفراد الله بالألوهية والربوبيَّة، فإنَّ (الاستخلاف) هو التطبيق العملي للتوحيد الإسلامي على جميع المستويات المختلفة للفعل الإنساني: الفردية والاجتماعية والتاريخية، بل وعلى مستوى الإنسان كنوع من أنواع الخلق... لذلك، فالاستخلاف هو الجانب الإنساني للتوحيد الإسلامي، ومن ثَمَّ اختلفت - بالضرورة - الحضارة الإسلاميَّة - بمقتضى هذا الأصل - عن سائر الحضارات المخالفة لها، وبخاصة الحضارة الغربية المعاصرة التي تقف عقيديًا وتشريعيًا على النقيض من الحضارة الإسلاميَّة، التي تعتبر بحق هي الحضارة الإنسانية الصحيحة الحقة اللائقة بالإنسان (بوصفه إنسانًا)][2].

٢ - مقومات الاستخلاف بعامَّة:

من خلال مفهوم الاستخلاف وأهميته يتضح أنّه على نوعين اثنين، أحدهما: استخلاف عام لجميع البشر، والآخر: استخلاف خاص بالمؤمنين، و (نستطيع أن نُمَيِّزَ بين نوعين من أنواع الخلافة: خلافة

---

(١) فاروق الدسوقي:استخلاف الإنسان في الأرض: ص ١٩، (مرجع سابق). وانظر: محمد خليل هراس: دعوة التوحيد (حقيقتها، الأدوار التي مرت بها، مشاهير دعاتها): ص ٨٨ - ١٠٥، (مرجع سابق).

(٢) فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض: ص ٦، ٧، (مرجع سابق). وانظر: محمد الصادق عرجون: الأمّة الإسلاميَّة... ص ٧، ٨، (مرجع سابق).

كونيَّة يشترك فيها الناس جميعًا، وخلافة شرعيَّة خاصة بالمؤمنين وحدهم)[1]، فالخلافة الشرعية (هي التي ينبغي أن تمسك بزمام الخلافة الكونيَّة لتضبط حركتها، ولتوجهها إلى طريق الخير)[2].

ينبغي إجمال مقومات استخلاف الأُمَّة بعامَّة، ثُمَّ يعقبه مقومات استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة بخاصة، أمَّا مقومات الاستخلاف بعامَّة فيمكن بيانها فيما يأتي:

أولاً: العلم.

أساسه قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[3]، قال ابن القيم الجوزية - في صدد حديثه عن قصَّة استخلاف آدم عليه السلام في الأرض وسؤال الملائكة ربهم بقولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[4] -: (إنَّه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصَّه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة وأمرهم بالسجود له تكريمًا له وتعظيمًا له، وإظهارًا لفضله...، ثُمَّ إنَّه سبحانه لما علم آدم ما علَّمه، ثُمَّ امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جوابًا لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض فإنَّه يفسد فيها، ويسفك الدماء، فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان ظنهم)[5].

---

(١) أحمد حسن فرحات: الخلافة في الأرض: ص ٣٨، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٣٨.

(٣) سورة البقرة: الآية (٣١).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٥) بدائع الفوائد ١٣٨/٤، ١٣٩، عن دار الفكر (بدون تاريخ)، وانظر: بدائع التفسير ٣٠٣/١، ٣٠٤، (مرجع سابق).

وبهذا تتضح أهميَّة العلم في الاستخلاف، وأنَّه من مقومات الاستخلاف الرئيسة، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: (أمَّا تحقيق السيادة فيقوم على ركيزتين، الأولى: وهبها الله للإنسان فهي ركيزة ذاتية وتتمثل في الفاعلية الإنسانية، التي تعمل بترشيد من العلوم التجريبيَّة التي تمكن الإنسان من توسيع دائرة عمله، وتأكيد وترسيخ وتقوية فاعليته، فعلم الأسماء يدخل مقومًا أساسيًا في هذه الركيزة؛ لأنَّ العلم التجريبي ليس سوى معرفة خصائص الأشياء، والقوانين التي تحكم العلاقات والتأثير بينها، فإذا عرف الإنسان طبيعة الشيء، أو الحي وخصائصه، وتأثيره وتأثره بغيره استطاع تسخيره له والانتفاع به، وتحقيق سيادته عليه، فالعلم التجريبي هو المؤهل الذاتي المحقق لسيادة الإنسان في الأرض)[1].

ومِمَّا يلحظ في قضية الاستخلاف من حيث المبدأ والتاريخ، أنَّ هذا النوع من العلم قد ينفك عن الخلافة الشرعيَّة، ويتأتى للأمم الكافرة، وتستطيع عن طريقه أنْ تحقق شيئًا من السيادة والعلو في الأرض، وبمعنًى آخر أن تقيم حضارة بالمفهوم الوضعي، وقد وصف الله بعض الناس بأنهم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[2]، قال ابن عباس في تفسيرها: (يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم في أمر الدين جُهَّال)[3].

---

(١) فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض... ص ٢٣، ٢٤، (مرجع سابق). وانظر: صبحي الصالح: الإسلام ومستقبل الحضارة: ص ٢٦ – ٣٠، الطبعة الثانية ١٩٩٠ م، عن دار قتيبة – بيروت.

(٢) سورة الروم: الآية(٧).

(٣) صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم: ص ٣٩٩، (مرجع=

وقال بعض المفسرين: (إنَّما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر، الذي في رأيهم، انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئًا، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها، ﴿ وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ ، قد توجهت قلوبهم، وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها، وحكامها فعملت لها، وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة... ومن العجيب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم، الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذريَّة، والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزًا عما أقدرهم الله عليه)[1].

ويندرج تحت هذا النوع من العلم ما توصَّل إليه الإنسان في هذا العصر من (أنواع المعارف الإنسانية سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات أم الحس والتجربة بالإضافة إلى العقل كالطب)[2]، ولكنها مهدَّدة بصور عدّة من العقاب الإلهي إذا لم ترتبط بالإيمان بالله والسير في طريقه المستقيم، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ

=سابق). وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤٢٧/٣، (مرجع سابق).

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن... ١١١/٦، ١١٢، (مرجع سابق).

(٢) عبدالرحمن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي (دراسة نقدية في ضوء الإسلام): ص ٤٨، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ومكتبة المؤيد - الرياض، وانظر: ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ٣٣/١، ٣٤، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، (مرجع سابق).

مَكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

فهذه الآيات تبين - بجلاء ووضوح - أنّ الله عزوجل علم الإنسان وبهذا العلم مكنه من استعمار الأرض وعمرانها وسيادته عليها وعلى كثير من المخلوقات الموجودة فيها حتى من بني جنسه، وأنّ هذا التمكين يُمثّل البلاء والامتحان، فإنْ أحسن وحقق عبوديته لله واستقام على الطريق المستقيم فاز في الدنيا والآخرة، وإن تنكب الطريق وظلم وطغى وبغى فإنّه يصبح عرضة للعقاب التدريجي الذي يمثل الإنذار والدعوة لتصحيح المسار والعودة إلى صراط الله المستقيم فإن حدث هذا تاب الله عليه ومتعه إلى حين وهذا ما حدث لقوم يونس عليه السلام، قال

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٦).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٤٠).

(٣) سورة الأنعام: الآيات (٤٢ - ٤٥).

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[1]، وإن استمر الإنسان في انحرافه ولم يتعظ تتابعت عليه الآيات وكانت كل آية أكبر من أختها[2]، حتى يتم (الاستئصال التام... كما حدث لقوم لوط وفرعون وغيرهم)[3].

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة يونس: الآيات (٩٦ - ٩٨).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة الزخرف: الآية (٤٨)].

(٣) عبدالسلام بن نصر الله الشريف: سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم: ص ٤٩، ٥٠ الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م عن دار المعراج الدولية للنشر - الرياض.

(٤) سورة النحل: الآية (٢٦).

(٥) سورة الروم: الآيتان (٩، ١٠).

وقد يسلب الله الأُمَّة التي أخفقت في حمل الرسالة سلطانها ويصيبها بهيمنة أمة أخرى عليها[(١)]، كما حدث لبني إسرائيل، ولمشركي مكة، والفرس والروم، فإنَّ الله سبحانه وتعالى استخلف الأُمَّة الإسلاميَّة فسادت وهيمنت بشرع الله عليهم جميعًا، وإذا كانت الحضارة الغربيَّة وما يلتف حولها من أمم في العصر الراهن تتطلع للسيادة والهيمنة وذريعتها في ذلك العلم ومناهجه التجريبيَّة والتطبيقيَّة ونحوها فإنَّها ستواجه المصير الذي آلت إليه الأمم من قبل؛ لأنَّها حصرت - في مسارها العام - (العلم فيما جاء عن طريق التجربة والخبرة الحسيَّة وحدها)[(٢)]، وفصلت بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

وعن ذلك يقول أحد المفكرين: (وعليه فإنَّ العلم باصطلاحهم محصور - مصدرًا - في التجربة، - وميدانًا - في المجال الرياضي والطبيعي، وما يقبل موضوعه الخضوع للتجربة والاستقراء والمقاييس الكميَّة، وهذا التحديد لمفهوم العلم متولد من المذهب التجريبي في الفلسفة المعاصرة، الذي يتمثل في اتجاهات فلسفية، أبرزها الاتجاهان: الوضعي والماركسي...، وقد أدى هذا المفهوم... إلى إنكار العلم فيما يتجاوز ميدان التجربة، وهو: عالم الطبيعة، وانكار عالم ما وراء الطبيعة وكل ما كان مصدره الوحي الإلهي أو الشعور الأخلاقي من العلوم)[(٣)]،

---

(١) انظر: عبدالسلام بن نصر الله الشريف: سنة الله في عقاب الأمم...: ص ٥٠ و ٢٩ - ٦١ (المرجع السابق نفسه)، وقد تحدث المؤلف في تلك الصفحات عن سنة العقاب؛ (مفهومها وأدلتها)، وعن ضوابطها، وعن أشكال العقاب وأنَّ منها العام ومنها العقاب المعنوي ومنها العقاب الحسي، وما وقع للأمم المكذِّبة من هذه الأشكال.

(٢) انظر: عبدالرحمن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة... ص ٤٨، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٤٧، ٤٨.

وبذلك شقيت أمم الغرب ومن دار في فلكها بهذا العلم، وصرَّح نخبة من المفكرين الغربيين بإفلاس الحضارة الغربيَّة، وما أسموه بالانتحار العلمي[1].

يقول رجاء الجارودي: (إن حضارتنا تقوم على أسس خاطئة، فنحن في المرحلة الأخيرة من الحضارة التي لاتكاد تبدأ مازلنا لانعرف أن نحدد لأنفسنا غايات حقيقيَّة، ولانسيطر على وسائلنا، إن حضارتنا تقوم على هذه الموضوعات الثلاث:

- تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك.
- تحيل الفكر إلى ذكاء.
- تحيل اللانهائي إلى الكم)[2].

ثُمَّ يقرر: (إنَّها حضارة مؤهلة للانتحار، انتحار لفقدان الهدف، يشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات، وانتحار المراهقين بأعداد أكبر في الأصقاع الأغنى، انتحار لإفراط الوسائل، يبرهن على ذلك مثلاً المنظور الجائر لنضوب المصادر الطبيعية والتلوث، وذلك نتيجة لازمة لتصور لايرى في الطبيعة شيئًا آخر، سوى أنها مستودع ومعمل...)[3]، أمَّا الإسلام فإنَّه ينظر إلى العلم باعتباره يشتمل على (جميع أنواع

---

(١) انظر: توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٧٦٦ – ٧٩٧، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن: المرجع السابق نفسه: ص ٧٦٧، ولعل الأصح من قوله: تحيل أن يقول: (تحول).

(٣) نقلاً عن: توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة..: ص ٧٦٧، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض...: ص ١٣١ – ١٤٩، (مرجع سابق). وقد ركَّز على رؤية (توينبي) في سقوط الحضارة الغربية.

المعارف الإنسانية، سواء كان مصدرها العقل - كالرياضيات - أم الحسّ والتجربة، بالإضافة إلى العقل - كالطب - أو النقل والسماع - كاللغة - أو الوحي والنقل - كعلوم الدين -)[1].

وعلى هذا فإنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة هي الوارث الشرعي للخلافة وهي الأحق بالاستخلاف وما من شيء يحول دون ذلك إذا هي جدَّدت صلتها بدينها وتلتزم صراط الله المستقيم تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[2].

ثانيا: التسخير:

وهو من المقومات العامَّة للاستخلاف في الأرض، ويعني ذلك أن الله سخر ما في الكون من مخلوقات على نحو يتمشَّى مع استخلاف الإنسان في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن

---

(١) عبدالرحمن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة... ص ٤٨، (مرجع سابق).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٣) سورة الجاثية: الآية (١٣).

(٤) سورة لقمان: الآية (٢٠).

﴿تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]،
وفي سورة النحل وردت ثلاث عشرة آية على التوالي تعرض (صورة جامعة للكون في شيء من التفصيل بذكر أقسامه الكبرى «عالم الأفلاك، عالم النبات، عالم الحيوان، إلخ »،... أوضحت ما سخره الله للإنسان من منافع الطبيعة)[٢]؛ (فللإنسان في الأنعام دفء ومنافع، وفي الخيل والبغال والحمير وسائل للركوب، وفي الشمس والقمر فوائد، والبحر يأكل من حيتانه، ويسير فيه السفن ليبتغي من فضل الله، إنَّ وصف الطبيعة بهذه الأوصاف وعرض هذا الجانب النافع منها تحريضًا على استغلالها والانتفاع بها وتسليطًا للإنسان عليها بعد أن كان الإنسان يخاف من الطبيعة بل يعبد بعض أجزائها)[٣].

وإضافة لهذا التسخير فإنَّ موجودات الكون تشتمل على عنصر الجمال الذي هو من عناصر الحضارة مِمَّا يؤكد قضية الاستخلاف، وأنَّ التسخير مقومٌ من مقوماته العامَّة، ثُمَّ إنّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - (أودع في الأرض من المنافع، والمعادن، والأنهار والعيون، والثمرات، والحبوب والأقوات، وأصناف الحيوانات، وأمتعتها، والجبال، والجنان والرياض والمراكب البهيَّة والصور البهيجة)[٤] (و أخبر عن منافعها... وأنه جعلها مهاداً وفراشًا وبساطًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات)[٥]، ما يتسق مع

---

(١) سورة الحج: الآية (٦٥).

(٢) محمد المبارك: دراسات أدبية لنصوص من القرآن: ص ٥٨، ٥٩، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٦٣.

(٤) ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد ١٤١/١، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق نفسه ١٤٠/١.

خلافة الإنسان وما يحتاج إليه ليحقق ذلك الاستخلاف، ويستوي في التمتع بهذا التسخير البر والفاجر، والتقي والشقي، ولكن النهاية للتقوى والمتقين والوراثة النهائية لعباد الله الصالحين، وفي ذلك وردت آيات كثيرة منها - إضافة لما سبق - قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[1]، وقال تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام وهو يخاطب قومه في وقت كان فرعون يهددهم فيه بقتل الأبناء واستحياء النساء: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

هذان المقومان: العلم والتسخير هما أبرز مقومات الاستخلاف بعامّة مع ما يقتضيانه من العقل والأجل وعوامل القوة المختلفة والوسائل والأساليب، كذلك الإرادة والعزم، وكل ذلك ونحوه هيأه الله للإنسان وزوده به، في إطار الفرد وعلى صعيد الأُمّة، والآيات الدّالة على ذلك من الكثرة بمكان، وكذلك الأحاديث والآثار، والوقائع التاريخية مِمّا لايتسع هذا المجال لذكره[3]، ولكن تكفي الإشارة إلى أن العلم والتسخير هما

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٠٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢٨).

(٣) انظر تفاصيل ذلك لدى:

- فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض... ص ١٧ - ٧٥، (مرجع سابق).
- عبدالمجيد النجار: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل... ص ٤٧ - ٧٢، (مرجع سابق).
- علي محمد نصر: استخلاف آدم عليه السلام: ص ٨ - ٦٣، ٩٠ - ٩٦، العدد [٧٦] من سلسلة دعوة الحق، السنة [٧] رجب ١٤٠٨ هـ، فبراير ١٩٨٨ م، رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.

الأساس في كل ذلك، وأنهما مرتبطان بالاستخلاف الكوني القدري الذي قد يرتفع الإنسان به إلى أحسن تقويم، أو يرتد به إلى أسفل سافلين.

وعن هذا قال أحد الباحثين: (بيَّن سبحانه أنَّ آثار الإنسان في الأرض تشتد وأن قوته تزيد على الأشياء والأحياء، ويتمكن منها بالعلم، وأن الناس في المجتمعات التي تكون على درجة متقدمة في مجال السيادة بسبب زيادة حصيلتهم من العلم عادة أو غالبًا ما يفتنون وينحدرون في جانب الأخلاق ويتسفلون في الجانب الإنساني أي جانب العبودية، ومن ثمَّ تجري عليهم سنة فناء الحضارات بهذا السبب، ولايغني تقدمهم في الجانب المادي عن ارتدادهم إلى أسفل سافلين في جانب العبودية، قال تعالى - مبينًا ذلك كله -: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1].

ويتضح لنا من قوله تعالى: ﴿ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أن التقدم المدني والتقني والعمراني يحدث في جانب السيادة بسبب زيادة حصيلتهم في العلوم والخبرات، وقد فتنهم هذا كله فلم يستجيبوا لدعوة الرسل للسمو في جانب العبودية والارتقاع إلى أحسن تقويم

---

(١) سورة غافر: الآيات(٨٢ - ٨٥).

فحقّت عليهم سنة الله في فناء الحضارات)[1] ، وما يقال عن العلم كمقوم للاستخلاف في مفهومه العام يقال عن المقوم الآخر وهو التسخير.

٢ - مقومات استخلاف الأمّة الإسلاميّة بخاصّة:

يعد استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة هو الخلافة الشرعيَّة كما تبين ذلك حين الحديث عن معاني الاستخلاف وأهميته، وبالنظر إلى مقومات الاستخلاف العامَّة وأبرزها العلم والتسخير، وبهذا يتضح أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة هي الوارث الشرعي لهما، وبيان ذلك في الآتي:

أولاً: العلم:

إن الأُمَّة الإسلاميَّة - في ضوء القرآن الكريم والسنَّة النبوية وما جاءا به (من إعلاءٍ لشأن العلم، وبيان قضاياه، وتحديد مساربه، وإبراز عطاياه، وضبط لقواعده ورؤاه)[2] - تفاعلت مع هذه الهبة الربانية والرحمة المهداة[3] ، فقد تلقاه (الصحابة الأبرار والتابعون الأخيار، فكانوا مثالاً يحتذى، وأسوة لكل من اقتدى... وجاء جيلٌ خيِّرٌ فاضل، فجمع الآيات الكريمات، والأحاديث النبويَّة الهاديات، ومسالك التابعين وأقوالهم النيرات، مِمَّا يتعلق بالعلم والمعرفة؛ لتكون منهاجًا وطريقاً للأجيال، وكذلك كان، (ففتَّحت) هذه الأحاديث والآيات بهداها ورؤاها عقولاً كبيرة، حتى غدت هذه العقول في عداد الكرامات...، فأقاموا

---

(١) فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض... ص ٥٧، ٥٨، (مرجع سابق).

(٢) فاروق حمادة: أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية: ص ٦، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ، عن دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١١، ١٢.

حضارة وأيُّ حضارة لمن تدبَّر واعتبر)[١].

ولم يكن العلم في منظورِ الأُمَّة الإسلاميَّة، وفي واقعها التاريخي، وفاعليتها الحضاريَّة، مفصولاً عن الإيمان، بل ارتبط بإيمانها بالله تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[٢]، ولذلك (أجمع العلماء (كما حكاه ابن عبدالبر) على أنَّ من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصَّة نفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع. واختلفوا في تلخيص ذلك، والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك ما لايسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه نحو الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأنَّ الله وحده لا شريك له، ولا شبه له ولا مثل له، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، خالق كل شيء وإليه يرجع كل شيء، المحيي المميت الحي الذي لايموت، عالم الغيب والشهادة، هما عنده سواء، لايعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

والذي عليه جماعة أهل السنة والجماعة أنَّه لم يزل بصفاته وأسمائه، ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انقضاء، وهو على العرش استوى، والشهادة بأن محمداً عبده ورسوله، وخاتم أنبيائه حق، وأنَّ البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال، والخلود في الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة في الجنَّة، ولأهل الشقاوة والكفر والجحود في السعير حق، وأنَّ القرآن كلام الله، وما فيه حق من عند الله يلزم الإيمان

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٦.

(٢) سورة محمد: الآية (١٩).

بجميعه، واستعمال محكمه، وأن الصلوات الخمس فريضة ويلزمه من علمها علم ما لاتتم إلاّ به من طهارتها وسائر أحكامها، وأن صوم رمضان فرض، ويلزمه علم ما يفسد صومه، وما لايتم إلا به، وإن كان ذا مال وقدرة على الحج لزمه فرضًا، وأن يعرف ما تجب فيه الزكاة ومتى تجب وفي كم تجب، ولزمه أن يعلم بأن الحج عليه فرض مرة واحدة في دهره إن استطاع السبيل إليه، إلى أشياء يلزمه معرفة جملها ولايعذر بجهلها نحو تحريم الزنا، وتحريم الخمر وأكل الخنزير، وأكل الميتة، والأنجاس كلها، والسرقة والربا، والغصب، والرشوة في الحكم، والشهادة بالزور، وأكل أموال الناس بالباطل، وبغير طيب من أنفسهم، إلاّ إذا كان شيئًا لايتشاح فيه، ولايرغب في مثله، وتحريم الظلم كله، وهو كل ما منع الله - عَزَّ وَجَلَّ - منه رسوله ﷺ، وتحريم نكاح الأمهات والبنات، والأخوات، ومن ذكر معهن، وتحريم قتل النفس المؤمنة بغير حق، وما كان مثل هذا كله مِمَّا قد نطق به الكتاب، وأجمعت الأُمَّة عليه، ثُمَّ سائر العلم وطلبه والتفقه فيه، وتعليم الناس إيَّاه وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم، والحكم به بينهم فرض على الكفاية، يلزم الجميع فرضه، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين بموضعه، لا خلاف بين العلماء في ذلك، وحجتهم فيه قول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ [1] فألزم النفير في ذلك البعض دون الكل)[2].

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/٥٧ - ٥٩، (مرجع سابق).

وقد فصل ابن عبدالبر ما يتعلق بفرضية العلم على الفرد وما يكون فريضة على الأُمَّة فيما يتعلق بالعلم النافع المتصل بالدين ومعرفة العبد ما أوجبه الله عليه من فرائض وواجبات وأن منها ما لايعذر أحدٌ من أفراد الأُمَّة الإسلاميَّة بجهله، وهذا جانب تميَّزت به الأُمَّة الإسلاميَّة، بل إنّ الاستخلاف - والعلم من مقوماته الأساس - كان هدفًا من أهداف ذلك التميُّز تفرضه عقيدة الأُمَّة وشريعتها ومبادؤها وقيمها الكبرى، ولم يشهد التاريخ أُمَّة من الأمم نظرت إلى العلم بهذا الشمول وارتكز العلم في حياتها على الإيمان بالله وكان مرتبطًا بتحقيق العبودية في حياتها كما كان عليه حال الأُمَّة الإسلاميَّة، فقد (حضَّ رسول الله ﷺ أصحابه أن يصنعوا بالجيل، بل الأجيال من بعدهم كذلك، وكانت وصيته بذلك إلى جميع الأجيال في الأُمَّة الإسلاميَّة إلى قيام الساعة.

ولمَّا تفرق أصحابه بعده في الأمصار جعلوها مراكز علميَّة وحلقات واسعة من الدرس والتلقي، فأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل وآخرون في الشام، وابن مسعود وعلي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري في الكوفة، وأنس بن مالك وأبو موسى - من قبل - في البصرة، مع جلة من الصحابة الأبرار، وعبدالله بن عمرو بن العاص وآخرون في مصر، وابن عباس ونفر آخرون في مكة المكرمة، وعبدالله بن عمر وأبو هريرة والسيدة عائشة وآخرون كثيرون في المدينة، ولم تبق حاضرة من الحواضر الإسلاميَّة إلاَّ وجعلها أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين ومن بعدهم قاعدة للمعرفة، ومنارة للعلم، وتواريخ المدن الإسلاميَّة - ولجميعها تاريخ - شاهد على ذلك، وقد اضطر علماء الإسلام إلى كتابة تواريخ هذه المدن وسبقها العلمي، ولم يكن هذا التاريخ ليدور إلا على العلم والعلماء، وما أبدعوه وصنعوه، فتأريخ دمشق، وبغداد، وأصبهان،

وجرجان، ونيسابور، والموصل، والجزيرة، وحمص، والقاهرة... وغيرها هي بين أيدي الباحثين والدارسين، وقد أثر الصحابة والتابعون عن رسول الله ﷺ التأكيد والتحضيض على تلقي طلاب العلم من الآفاق بالترحيب والسرور والرعاية، فقد أوصى رسول الله ﷺ صحابته الكرام بقوله: «إنَّ الناس لكم تبع، وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا»[(١)]، وعملوا بهذه الوصية، فكانوا إذا جاءهم طلاب العلم قالوا لهم: «مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ»)[(٢)].

وإذا كان العلم وهو على هذا النحو يرتكز على جانب الأمور الدينيَّة فإنَّ العلوم المتصلة بالحياة والمنافع الدنيويَّة ليست - في الإسلام - مفصولة عن العلوم الدينيَّة بل تدخل تحت القاعدة الأصولية التي تقول: (ما لايتم الواجب إلاّ به فهو واجب)[(٣)]، ومن هنا كانت عناية العلماء المسلمين بأنواع كثيرة من العلوم التي تتصل بحياة الأُمَّة الإسلاميَّة وسيادتها، وأداء رسالتها في الاستخلاف، وقبل ذلك بسبب مفهوم العلم كما جاء في القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة، فقد جاء العلم بمفهوم (مطلق كل الإطلاق، شامل كل الشمول، لايقيده قيد، ولايحده حد، وأنَّه

---

(١) أخرجه الترمذي: الجامع الصحيح ٣٠/٥، كتاب العلم، باب [٤] الحديث رقم [٢٦٥٠]، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (مرجع سابق).

(٢) جزء من كلام راوي الحديث السابق: المرجع السابق نفسه، الحديث نفسه، وانظر: البغوي: شرح السنة ٢٢٩/١، ٢٣٠، تحقيق: علي محمد عوض وعادل أحمد عبدالموجود، (مرجع سابق)، وانظر: فاروق حمادة: أسس العلم وضوابطه... ص ٢٩، ٣٠، (مرجع سابق).

(٣) من القواعد الأصوليَّة وقد سبق ذكرها. وانظر: نجم الدين الطوفي: شرح مختصر الروضة ٣٣٥/١ - ٣٣٧، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، (مرجع سابق).

قابل باستمرار للتقدم والزيادة والتغيير والتطوير، وأنَّ هذا ليس مرده إلى الفهم الشخصي، الذي قد يخطئ وقد يصيب، بل إلى الخطاب القرآني الصريح، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1]، فمن الواضح كما قال أهل البيان: أن التنوين في لفظ (علمًا) يوحي بالاستغراق والشمول)[2].

وبهذا المفهوم والمفهوم الذي قبله أسهمت الأُمَّة الإسلاميَّة في تطور الحضارة الإنسانية (وانطلق المسلمون بهذه الأفكار الفطريَّة السليمة المتقدمة إلى الحياة، (فكشفوا عن) كنوزها واكتشفوا مجاهيلها، بحيويَّة وتفتح... وانطلقوا يبحثون في كل مكان... فالتهموا تراث اليونان، وبحثوه بعقل مفتوح وبصيرة ناقدة، وعرفوا الطيب منه والخبيث، ولم يتوقفوا عنده، بل ساروا إلى الاختراع والبحث والتنقيب، حتى صححوا العلم، ووجهوه إلى النفع، وإلى الإفادة وكان منهجهم التجريبي خير مثل على ذلك)[3].

ثانيًا: التسخير:

وكان مفهوم الأُمَّة الإسلاميَّة للتسخير ذا أثر عميق في انطلاقتها العلميَّة، وإفادتها من موجودات الحياة والكون من حولها ذلك أنَّ الإسلام، ومن خلال آيات القرآن الكريم (أزال ما بين الإنسان والكون من حواجز ودفعه إلى اكتشاف آفاقه، إنَّه أول كتاب (أي القرآن الكريم)

---

(١) سورة طه: الآية (١١٤).

(٢) صبحي الصالح: الإسلام ومستقبل الحضارة: ص ٤٩، (مرجع سابق).

(٣) توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة... ص ٣٠٠، (مرجع سابق). وانظر: موقف المستشرقين من إيجابيَّة الأُمَّة.. الخيرة: ص ٨٠٩ - ٨٢٧، (البحث نفسه).

وضع الإنسان وجهًا لوجه أمام مشاهد الطبيعة، كما تبدو للحس وفي الواقع، مستعرضًا أجزاءها الكبيرة والصغيرة وأنواعها وأجناسها وحركتها وسكونها ومراحل نمو مخلوقاتها، من إنسان وحيوان ونبات، إنَّه يعرضها مجردة من أساطير اليونان، وخرافات الهنود، فلاتحرك أمواج بحارها آلهة البحر، ولاتهيج رياحها الشياطين (بل يعرضها) متصلة الأجزاء متتابعة الحوادث منتظمة السير مطردة السنن)[1]، وفي خلال هذا العرض يحفز العقل على النظر والتفكير وإعمال العقل للإفادة من هذه المخلوقات والعلم بما يحكمها من سنن، ولاسيما أنّها مسخرة للإنسان ليحقق استخلافه في الأرض.

يقول أحد المفكرين: (وهل العلم إلاّ ملاحظة الحوادث واستقراؤها وجمعها وتصنيفها وضبط كمياتها ومقاديرها، وربط أجزائها بعضها في بعض في قانون عام مطرد، وذلك عن طريق الحواس من سمع وبصر، وعن طريق الفكر والعقل)[2]، ويقول في مكان آخر: (وكان لهذه الفكرة نتائج عظيمة جدًا من الناحيتين الفكريَّة والعلمية في الإطار العربي والإنساني، وكانت نقطة الانطلاق للتفكير العلمي المبني على التجربة واستخراج سنن الطبيعة، وكان لها أثر عميق في توجيه الحضارة الإنسانية وجهة جديدة كما كانت دافعًا لاستثمار الطبيعة والانطلاق في آفاقها الواسعة)[3]، وقبل ذلك قال: (لقد نقلت هذه الفكرة... العرب

---

(١) محمد المبارك: نحو إنسانية سعيدة: ص ٣٤، (مرجع سابق). وانظر له: دراسات أدبية: ص ٦٤، (مرجع سابق).

(٢) محمد المبارك: نحو إنسانية سعيدة: ص ٣٥، (المرجع السابق نفسه).

(٣) محمد المبارك: دراسات أدبية... ص ٦٤، (مرجع سابق).

من نوع من التفكير المجزأ المشوب بالوثنيَّة والخرافة إلى نوع آخر من التفكير الشامل المتحرر من الخضوع للطبيعة)[1].

والحقيقة أن الأُمَّة الإسلاميَّة تميَّزت إلى جانب ذلك بتحقيق التوازن بين مفهوم العلم الشامل ومفهوم الاستخلاف الراشد وتعد الحضارة الإسلاميَّة (في عصور الخلافة الراشدة والدولة الأمويَّة والعباسية هي الحضارة الإنسانية الكاملة الفذَّة في تاريخ الإنسانية، فقد عاشت البشرية - مؤمنها وكافرها - خلال عصور هذه الحضارة في ظل شريعة الله ونظمه وحكمه،... وكان العالم الإسلامي على أعلى درجة من التقدم العلمي والتقني في هذه العصور، فاكتمل للمسلمين أساسا، أو مقوما الحضارة، وما نعلم حضارة سواها اكتمل لها هذان الأساسان، ومن ثُمَّ نمت الحضارة الإسلاميَّة وارتقت بجانبها الروحي والمادي بتوازن دقيق، فكانت وليدًا صحيحًا متناسقًا في ذاته، ومحققًا للأهداف الإنسانية العليا التي قامت من أجلها، وهي خلافة الإنسان... في الأرض، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة كانت أقل دائمًا من عصر الخلافة الراشدة)[2].

كما أنَّ ما آلت إليه الأُمَّة الإسلاميَّة من تراجع في ميادين العلم والسيادة يعود في مجمله إلى الاختلال في مفهوم العلم ومفهوم الاستخلاف وتطبيقاتهما في حياتها، وعن هذا الجانب قال أحد المفكرين: (إنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة في بدء أمرها سادت بالعلم والتمسك بهذا المفهوم وإعلاء شأنه، وفي انحدارها انتكست بتنحيته والإعراض

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٦٤.

(٢) فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض... ص ١٢٤، ١٢٥، (مرجع سابق).

عنه، وها هي اليوم تدفع ثمن المعرفة والعلم غاليًا، فهي مستهلكة لسلعة غيرها بأبهظ الأثمان، ليس من حيث القيمة الحقيقية، بل جراء ثمن المعرفة التي أنتجت السلعة، وهناك معارف يحاول الآخرون حجزها عنها والحيلولة دون وصول الأُمَّة الإسلاميَّة إليها، وتعاني من جراء ذلك ما تعاني، ولهذا لابُدَّ من إعادة مفهوم السيادة العلميَّة والمعرفيَّة... بتخطيط محكم، وتنظيم دقيق ينبثق من روح الأُمَّة وفكرها، ورغبتها في بلوغ المعالي،... وإنَّ من أوجب الواجبات على أهل العلم فيها شعورهم بأنهم حملة رسالة يستشعرون ثقل الأمانة التي شرفوا بالانتساب إليها... منطلقين وملتزمين بمبادئ القرآن والسنة، متواضعين خاشعين، فهم منارات هداية للأُمَّة لتكون مسلمة حقا، مؤدية لما أراد الله منها صدقا... ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1])[2].

ويمكن القول أنَّ مقومات استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة بخاصة إضافة لما ذكر من العلم والتسخير وما يتبعهما من مقتضيات، جاء ذلك مجملاً في قول الله - عزوجل -: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا

---

(١) سورة المائدة: الآيتان (١٥، ١٦).

(٢) فاروق حمادة: أسس العلم وضوابطه... ص ١٦، (مرجع سابق).

(٣) سورة الحج: الآية (٤١).

يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[1]، وعلى هذا النحو جاءت الكثرة الكاثرة من الآيات المحكمات، وجاءت الأحاديث النبويَّة الشريفة تبين مقومات استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة وتعدها بالنصر والرفعة والسيادة على الأرض والشهادة على الناس إذا هي حققت تلك المقومات:

وأولها: الإيمان (فالإيمان بخصائصه هو منبع الاعتزاز بالله تعالى، والاعتزاز بالله هو مصدر الدوافع القياديَّة في الأُمَّة الإسلاميَّة، وبهذا كان منصب الخلافة في أرض الله بوضع إلهي، وتكليف سماوي، لا اختيار لها في فرضه عليها وتكليفها القيام بمبثه، وقد أوتيت هذه الأُمَّة من الوصايا الإلهية والأوامر التكليفية، ومنحت من العوامل النفسية والفضائل الخلقيّة والحوافز التربويَّة ما مكن لها - يوم أن كان الإيمان والاعتزاز بالله يقودانها - من إعداد أقوى الدعائم الماديَّة للدفاع عن دعوة الحق، فكان يكفي أن تبلغ مسامع أحد خلفائها صيحة امرأة مسلمة من أبواب أسوار الأسر قائلة: «وامعتصماه» فيهب في تعبئة لكتائب الحق لاتعود إلى قلاعها حتى تريح الحق إلى ساحته، فهي أُمَّة قد اختارها الله لتكون خاتمة الأمم صاحبة الشرائع الإلهية، واختار نبيها ﷺ ليكون أكمل رسول بأكمل رسالة ختمت الرسالات السماويَّة، فكان لابُدَّ أن تكون رسالة جامعة لكل خير جاءت به رسالة سابقة عليها إلى جانب ما يقتضيه تطور الإنسانية الفكري والاجتماعي من حقائق لم تكن تتطلبها، ولاتطيقها الأمم في طورها الفكري والاجتماعي)[2].

---

(١) سورة النور: الآية (٥٥).

(٢) محمد الصادق عرجون: الأُمَّة الإسلاميَّة... ص ٤٧، ٤٨، (مرجع سابق).

(وقد جاءت النبوة الخاتمة نبوة محمد ﷺ تحدد المنهاج النهائي للخلافة، وتتوج الوحي المرشد الذي بصَّر الإنسان منذ خلقته بمسالكها، وهذا المنهاج النهائي سيظل الموجّه الأبدي للإنسان فيما ينبغي أن يعتقد من حقيقة الوجود، وفيما ينبغي أن يسلك في تصريف الحياة، ويتصف هذا المنهاج النهائي للخلافة بشمول البيان لكل مناحي التصرف الإنساني في فكرة وسلوكه، ومصدره الأوحد هو الله تعالى الذي أنزله بطريق الوحي إلى نبي مختار وكلفه أن يبلغه للناس، وأسفر هذا الوحي عن أصلين نصيين هما: القرآن والحديث، واشتملا على كل ما في منهاج الخلافة من مضمون، وجعلا المرجع الأبدي لهذا المنهاج، يرجع إليهما الإنسان ليصوغ حياته على قدر ما فيهما من التحديد والإرشاد)[1].

وثانيهما: تحقيق العبودية لله،وقد ذكرت الآية الأولى (محل الشاهد) الصلاة والزكاة وهما العمل الصالح في الآية الأخرى[2]، والاقتصار على الصلاة والزكاة؛ لأنّ الصلاة عمود الإسلام، وتشتمل على مجمل العبادات وتأتي الزكاة لتؤكد الانتماء للإسلام بنوعٍ آخر من العبادة يعتمد على البذل والعطاء، وتعبيد المال لله، وقد سبق بيان ذلك.

---

(١) عبدالمجيد النجار: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل... ص ٥٢، ٥٣، (مرجع سابق).

(٢) انظر: ابن تيمية: دقائق التفسير ٣٩٣/٤، (مرجع سابق). والعمل الصالح، وكذلك المعروف ونحوهما من مثل الخير والبر والإحسان، كل ذلك يرد في سياق الاستخلاف بصفة كل مفهوم من هذه المفاهيم (اسم جامع لكل ما ينفع الجنس البشري، ويرتقي بسلوكهم والعلاقات المتبادلة بينهم) ماجد عرسان الكيلاني: إخراج الأمّة المسلمة... ص٥٩، (مرجع سابق). ولمزيد التفاصيل عن هدف الاستخلاف باعتباره من أهداف تميُّز الأمّة الإسلاميّة. انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٥٨ - ٦٢، ٦٥ - ٧٨.

والثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذا من المبادئ الإسلاميَّة ذات الخطر في قضية استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة؛ لأنها بهذا المبدأ أو المقوم من مقومات استخلافها تضطلع بحمل المسؤولية[1] (لترفع راية الحق، ولتضع على الأرض موازين القسط بين الناس، إذا استقام أمرها على طريق الله الذي رسمه منزلاً في كتابه، وذلك بقيام قادتها وولاة أمرها، وعلمائها العاملين، بما أوجبه الله عليهم من العمل بكتاب الله وسنة رسوله وتنفيذ حدوده وزواجره، والصدع بقول الحق، وأطر الظالمين على الحق أطرًا، قيامًا بحق النصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، والوقوف في وجه أعداء الله وأعداء دينه، وأمته بعزائم صارمة أداءً لحق تمكين الله لهم في الأرض بما وضع في أيدي الحاكمين من قوة السلطان، ورهبة الكلمة وصولة الرادع للخارجين على الحق المنحرفين عن طريق الاستقامة، وبما وضع في قلوب العلماء من نور شريعته وهدايته، وبما أخذه عليهم من الميثاق ليقولون كلمة الحق ولايكتمونه وأن يكونوا في سلوكهم أسوة للناس يدعونهم بأعمالهم وأخلاقهم إلى آفاق العزّة والكرامة وإخلاص الدين لله...)[2].

وفي مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشريف للأُمَّة الإسلاميَّة، إذ (لم يقف التوجيه الإسلامي بالأُمَّة عند هذا، ولكنه... ناط بها أمانة القيام بأعباء الحق الذي تدعو إليه، فأشركها في أقوى دعائم الدفع

---

(١) انظر: ابن تيميّة: الحسبة في الإسلام: ص ٦٩ – ١١٧، تحقيق: سيد محمد بن محمد بن أبي سعدة، الطبعة الأولى١٤٠٣هـ-١٩٨٣م عن الرئاسة العامَّة لإدارات البحوث العلمية – الرياض.

(٢) محمد الصادق عرجون: الأُمَّة الإسلاميَّة... ص ٤٢، ٤٣، (مرجع سابق).

القيادي على أسس الإخاء والمحبة تعززًا بالله تعالى وعزته، وقوته وقهره باعتبارها النموذج الأفضل لقوة الرقابة على تنفيذ معاقد الحق تنفيذًا يستند إلى القيم الخلقيَّة والفضائل الإنسانية)[1].

وقد اجتهد علماء الأُمَّة في تطبيق هذا المبدأ ليحقق المراد منه وفقًا لضوابط الشريعة في جلب المنافع ودفع المفاسد، وحققوا تميُّزًا فريدًا في مراعاة أحوال المكلفين ودقة في الموازنة بين المصالح والمفاسد، وتعاملوا مع الأحوال بما تقتضيه من حكمة ولطف ورحمة.

وعن هذا المعنى قال أحد الباحثين: (ومثال ذلك في تنزيل الحكم الشرعي في التكليف بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن ينظر في الوضع المعين الذي يكون فيه المكلف المأمور بالقيام بهذا الواجب، فربَّما أسفر ذلك النظر على أن هذا المكلف يتصف في نفسه بالقدرة على هذا الواجب، والتحمل لتبعاته نفسيًّا وبدنيًّا، وأن المخاطبين بالأمر والنهي يحدثون في أنفسهم وفي المجتمع الضرر البالغ بما يأتون من المنكر وما يصدون عن المعروف، وأنهم يغلب على الظن أنهم يستجيبون عندما يُدعون، وربَّما أسفر ذلك النظر على عكس ذلك كليًّا أو جزئيًّا؛ من اتصاف المكلف بالضعف الذي لايتحمَّل معه تبعات هذا الواجب، واتصاف المخاطبين بحسب ما يغلب على الظن بالعناد الذي لاتجدي معه دعوة، أو بالشراسة التي يقابلون فيها الدعوة بالاعتداء الغليظ، أو بالحمق الذي ينهيهم إلى ترك ما نهوا عنه لفعل ما هو أبلغ ضررًا وأشد مفسدة، وبحسب مايحصل في العقل من هذه المعطيات يترجح أن ينزَّل على المكلف الحكم بوجوب القيام بفعل الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٤٦.

المنكر، أو الحكم بإسقاط هذا الواجب عليه)[1].

وما ذكر هنا سبق أن تطرق إليه العلماء وفصلوا القول فيه وفي شروطه، وعلى سبيل المثال فإن ابن تيمية يقول: (ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود، ولابُدَّ في ذلك من الرفق... ولابُدَّ أيضًا من أن يكون حليمًا صبورًا على الأذى، فإنَّه لابُدَّ أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مِمَّا يصلح...)[2].

ثُمَّ يخلص إلى القول: (فلابد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، والعلم قبل الأمر والنهي والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحبًا في هذه الأحوال)[3].

وفي موضع آخر قال: (ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر، وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات فالواجبات والمستحبات، لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بعثت الرسل، ونزلت الكتب، والله لايحب الفساد بل كل ما أمر الله به فهو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مِمَّا أمر الله به، وإن كان في ترك

---

(١) عبدالمجيد النجار: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل... ص ١١٨، (مرجع سابق). وانظر: الشاطبي: الموافقات ٣/٧٠ - ٧٦ تحقيق: عبدالله دراز ومحمد عبدالله دراز، (مرجع سابق)، حين فصَّل القول عن الاجتهاد في النظر في كل مكلف بالنسبة إلى ما وقع عليه من الدلائل التكليفيَّة، وتحقيق: مناط الاجتهاد في ذلك.

(٢) الحسبة في الإسلام: ص ٨٣، تحقيق: سيد بن محمد بن أبي سعدة (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٨٤.

واجب وفعل محرم، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده، وليس عليه هداهم)[1].

بيد أنَّ شيخ الإسلام أشار إلى جانب له أهميته في التوسط في هذا المبدأ والتجرد في النظرة إلى إنفاذه تحقيقاً لأمر الله وطاعة له عزوجل، ولئلا يتخاذل المسلمون في القيام بهذا المقوم من مقومات استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة، قال: (وليعلم أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مِمَّا يوجب صعوبة على كثير من النفوس، فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه، وذلك مِمَّا يضره أكثر مِمَّا يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل، فإنَّ ترك الأمر الواجب معصية، فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها «كالمستجير من الرمضاء بالنار»)[2].

ومن الضوابط التي حدَّدها العلماء - في ضوء قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد - أنَّهم جعلوا مايتعلق بإزالة المنكر باليد: راجعًا إلى ولي

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٧٣، ٧٤.

(٢) الحسبة في الإسلام: ص ٨٤، ٨٥، (المرجع السابق نفسه). وانظر: فضل إلهي: شبهات حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ص ٢٥ وما قبلها وبعدها حيث تعرض المؤلف لعدة شبهات مؤداها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وردَّ عليها من وجوه كثيرة، ولكن يبقى الجانب الذي أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، مناطًا للاجتهاد في ضوء ما ذكره الإمام الشاطبي، وأشار إليها عبدالمجيد النجار - فيما سبق ذكره -، وعن الحسبة وتطبيقاتها في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين؛ انظر: فضل إلهي: (الحسبة تعريفها، مشروعيتها، وحكمها)، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م، عن مكتبة المعارف. الرياض.

وانظر: له - أيضًا -: الحسبة في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م، عن مكتبة المعارف - الرياض.

أمر المسلمين، وليس إلى الرعيَّة، ونصوا على أن يتم التغيير باليد وليس بالسيف والسلاح إلا ماكان من باب التعزير العائد لرأي السلطان وذكروا - كذلك - أنَّ الأمر بالمعروف لايليق بكل أحد وإنَّما يقوم به السلطان.. وينصب له من يرى فيه الصلاح والأمانة؛ وللعلماء في هذا نصوص كثيرة منها ما ذكره الإمام الجويني في قوله: (الشرع كله أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، والدعاء إلى ذلك يثبت لكافة المسلمين إذا أقدموا على بصيرة، وليس للرعية إلا الوعظ والترغيب)[1]، وقال البيهقي: (ينصب الإمام في كل بلدٍ رجلاً قويًّا، وأمينًا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقيم الحدود..)[2] وذكر نحو هذا القرطبي[3]، وأمَّا تغيير المنكر باليد وليس بالسيف والسلاح فهو مرويٌّ عن الإمام أحمد ابن حنبل - رضي الله عنه -[4].

ويستنتج من هذه النقول نتائج كثيرة من أهمها:

- أن تغيير المنكر باليد من حق الإمام وليس من حق الرعيَّة، وفي هذا ترسيخ الأمن واستتبابه، والقضاء على الفوضى وما يؤدي إليها من الاجتهادات القاصرة ونحوها.
- أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشروط بالبصيرة، ولاتتأتى

---

(١) أبو بكر الخلاَّل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دراسة وتحقيق: عبدالقادر أحمد عطا: ص ٩٤، الطبعة الأولى، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، عن دار الاعتصام، جدة.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٩٤.

(٣) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن..: ٣١/٢، (مرجع سابق). وانظر: البحث نفسه: ص ٢٧ - ٢٨.

(٤) أبو بكر الخلاَّل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ص ٩٣، ٩٤، (المرجع السابق نفسه).

إلاَّ بالعلم الشرعي والوعي الشامل لأوضاع المجتمع، مِمَّا يدل على أنه من مسؤولية العلماء فلايجوز لغيرهم القيام بذلك، ولضمان كفاءة من يقوم بهذه المهمة ينبغي أن تتم من خلال جهات رسميَّة بالكيفيَّة الملائمة للزمان والمكان في ضوء ما يراه ولاة أمر المسلمين فيكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتكليف من الإمام.

وخلاصة القول: إنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة هي المعنيَّة بما ورد في الآيتين (محل الاستشهاد)، وهذا ما عليه أكثر المفسرين، وفي تفسير الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ الآية.

قال ابن كثير: (هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنَّه سيجعل أمته خلفاء الأرض أيّ أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع العباد، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم آمنًا وحكمًا فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنَّة فإنَّه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر، والبحرين، وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة - الذي تملك بعد أصحمة - رحمه الله وأكرمه، ثُمَّ لمَّا مات رسول الله ﷺ، واختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعد خليفته أبو بكر الصديق، فلَمَّ شعث ماوهى بعد موته ﷺ وأخذ جزيرة العرب ومهدها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرفا منها...، وجيشًا آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن تبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه

إلى بلاد مصر؛ ففتح الله للجيش الشامي أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عزوجل واختار له ما عنده من الكرامة ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق فقام بالأمر قيامًا تامًّا...)[(١)].

ويستمر ابن كثير في ذكر الفتوحات الإسلاميَّة وتمكين الأُمَّة الإسلاميَّة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثُمَّ في عهد عثمان رضي الله عنه، وأن الدولة الإسلاميَّة بلغت في عهده أقصى بلاد الصين شرقا، وأقصى بلاد المغرب والأندلس وقبرص، وأنَّه تحقق للأُمَّة الإسلاميَّة ما وعدها به ربها عزوجل في الآية الكريمة، وما بشرها به الرسول ﷺ حين قال: «إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها»[(٢)][(٣)].

وتطرق في شرحه لما كانت على الخلافة الراشدة في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، وأورد أحاديث تتعلق بمستقبل الخلافة الإسلاميَّة من بعدهم[(٤)]، وختم ذلك بقوله: (فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأَيَّدَهُم تأييدًا عظيمًا، وحكموا في سائر العباد والبلاد، ولَمَّا قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٠، (مرجع سابق)، والدعاء بالرحمة يعود الضمير فيه إلى النجاشي، وليس إلى أصحمة.

(٢) سبق تخريجه: ص ٦٨٨، (البحث نفسه).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٠ (المرجع السابق نفسه).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه ٣/٣٠١.

بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة»[1]، وفي رواية: «حتى يأتي أمرالله وهم على ذلك»[2]، وفي رواية: «حتى يقاتلون الدجال»[3]، وفي رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون»[4]، وكل هذه

---

(1) سبق تخريجه بلفظ مقارب، وله ألفاظ كثيرة عند البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والإمام أحمد والطبراني والحاكم، وغيرهم، ولفظه عند مسلم: «لاتزال طائفة من أمتي على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». صحيح مسلم ٣/ ١٥٢٣، كتاب الإمارة، باب: [٥٣] حديث رقم [١٩٢٠]، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، وبلفظ آخر لدى مسلم أيضًا: «لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، صحيح مسلم ١٥٢٤/٣، كتاب الإمارة، باب [٥٣]، حديث رقم [١٩٢٣]، (المرجع السابق نفسه).

(2) سبق تخريجه: مقدمة البحث نفسه: ص ٢١.

(3) أخرجه الحاكم في مستدركه ٤٥٠/٤، (مرجع سابق)، ووافقه الذهبي ولفظه: «لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال».

(4) أخرجه مسلم: صحيح مسلم ١٣٧/١، كتاب الإيمان، باب [٧١]، الحديث رقم [١٥٦]، ولفظه: «لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم عليه السلام، فيقول أميرهم: تعال؛ صلّ بنا، فيقول: لا. إنّ بعضكم على بعض أمراءُ تَكْرِمَةَ الله هذه الأُمَّة»، (مرجع سابق). وانظر: أبو يعلى الموصلي: مسند أبي يعلى الموصلي ٥٩/٤، ٦٠، الحديث رقم [٢٠٧٨] ورقمه في مسند جابر بن عبدالله ﷺ[٣١٣]، ولفظه: «لاتزال أمتي ظاهرين على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم، فيقول إمامهم: تقدّم. فيقول: انتم أحق بعضكم أمراء بعض، أمر أكرم الله به هذه الأُمَّة»، تحقيق: حسين سليم أسد، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ-١٩٩٢م، عن دار الثقافة العربيَّة – بيروت.

الروايات صحيحة ولا تعارض بينها)[1].

على أنَّ بعض الباحثين ركزَ مفهوم الخلافة والاستخلاف في جانبها السياسي، وأفضى به البحث إلى وجوب قيام الخلافة الإسلاميَّة، فهو يقول: (إنَّا نجد خلافة «الخلفاء» يتردد أمرها بين مد وجزر بحسب اقترابها أو ابتعادها من تعاليم الدين وقيمه، كما نلاحظ ذلك في تاريخ خلافة هذه الأُمَّة، وما انتهى إليه أمرها يوم أن تحطمت دولة الخلافة بعد أن فقدت مقوماتها الحقيقية وانحرفت عن منهج الله، فوقعت فريسة للقوى المتآمرة عليها المتربصة بها، وبذلك طويت صفحة من صفحات القوة في تاريخ هذه الأُمَّة)[2].

ثُمَّ يخلص إلى القول: (إن عصر الدول المعتمدة على نفسها، المكتفية بقوتها ومواردها، والتي لاترى حاجة للتعاون مع غيرها قد ولى... لقد أصبح العالم بفعل التطور العلمي السريع كأنَّه بلد واحد، لقد قضت الاتصالات السريعة، والوسائل العلميَّة الحديثة، والمكتشفات على ما كان من عزلة بين الدول، فطويت المسافات البعيدة، وتداخلت مصالح الأمم والشعوب، فنشأت التكتلات العقائدية والفكرية، والتحالفات السياسية، ولم يعد مكان للدول المنعزلة، والدويلات الصغيرة في عالم الكبار.

إنَّ هذا التطور جاء ليؤكد ماجاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا حين أقام دولته على أساس العقيدة، وجعل أمته تضم شعوبًا وقبائل متعددة، تجمعها الأُخُوَّة الإسلاميَّة، فكانت الخلافة الإسلاميَّة خلال التاريخ المظلة التي استظل بها المسلمون، والقوة التي حمتهم من بطش الغزاة)[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٢، (المرجع السابق نفسه).

(٢) الخلافة في الأرض: ص ٥٤، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٥٥، ٥٦.

وينهي بحثه قائلاً: (إنَّ ما نراه في واقعنا المعاصر... يؤكد لنا أن للخلافة الإسلاميَّة مكانًا في عالمنا، فلابُدَّ لنا أن نسعى من جديد ليكون للمسلمين ما ينظم شملهم، ويحقق مصالحهم، ويحفظ وجودهم ولن نجد مثل الخلافة)[1].

أمَّا شيخ الإسلام ابن تيمية فإنَّه تناول مسألة الخلافة والملك بشيء من التفصيل، وقال في خلاصتها: (قولان متوسطان: أن يقال: الخلافة واجبة، وإنَّما يجوز الخروج عنها بقدر الحاجة، أو أن يقال: يجوز قبولها من الملك بما ييسر فعل المقصود بالولاية ولايعسره؛ إذ ما يبعد المقصود بدونه لابُدَّ من إجازته)[2].

وذكر في ضمن تفصيلاته في هذا الجانب أنّ من أنظمة الملك ما يكون متقيدًا بما كان عليه الخلفاء الراشدين، وفي ذلك فسحه واسعة للأُمَّة الإسلاميَّة؛ لأنّ العبرة ليست في قوانين وأنظمة لاتتغير ولاتتبدل تحت مسمى (الخلافة) بل العبرة بالمنهج الذي يلتزم بالقرآن والسنّة وما كان عليه سلف الأُمَّة حتى ولولم يسمى (خلافة)، وإنَّما سُمِّيَ مُلكًا لظرف أو آخر، ولعل هذا واضح في قول ابن تيمية: (وتحقيق الأمر: أن يقال: انتقال الأمر عن خلافة النبوة إلى الملك: إمَّا أن يكون لعجزِ العبادِ عن خلافة النبوة، أو اجتهاد سائغ، أو مع القدرة على ذلك قولاً وعملاً؛ فإن كان مع العجز علمًا أو عملا كان ذو الملك معذورًا في ذلك)[3].

* * *

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٥٦.

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٤/٣٥، (مرجع سابق).

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية..: ٢٥/٣٥، (المرجع السابق نفسه).

المطلب الثاني
موقف المستشرقين من قضية استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة

إنَّ قضية استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة في الأرض بعد الأمتين اليهودية والنصرانية، ورسالتها في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقيادة الناس كافة تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي منهج الله القويم وصراطه المستقيم، ومكافحتها للشر والباطل والفتنة، واضطلاعها بالنهي عن المنكر، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[1]، وما يترتب على ذلك من سيادة الأُمَّة الإسلاميَّة واستخلافها، يتعارض ذلك كله مع مايطمح الكفار إليه من السعي للسيطرة على العالم وقيادته والتحكم في مصيره.

وقد درج المستشرقون - في مسارهم العام - على الطعن في رسالة الأُمَّة الإسلاميَّة، وتفسير هذا الهدف من أهداف تميُّزها بتفسيرات مختلفة كدعواهم أن هذا الهدف مضاد للحريات على صعيد الأفراد والجماعات، أو أنَّه يقضي على الإبداع والابتكار ويعيق التطور والتقدم، وينطلقون في هذه القضية من منطلقات العداء للإسلام، والحسد لأُمَّته، والتعصب المقيت للعقائد اليهودية والنصرانية.

وقد اصطبغت دراساتهم - في الأعم الأغلب - بدوافعها الدينيَّة، والاستعماريَّة، والسياسيَّة، وغيرها، ويتضح ذلك في النقاط الآتية:

الأولى: الصبغة الدينيَّة.

الثانية: الصبغة الاستعمارية.

الثالث: الصبغة السياسيَّة.

---

(١) سورة سبأ: الآية (٢٨).

أمَّا الصيغة الدينيَّة، فقد ذهب نفرٌ من المستشرقين منهم (تتمان، وفكتور كوزان، والكونت جوبينو، وكرستيان لاش، وكوتيه)[١]، إلى القول: بأنَّ الإسلام وكتابه المقدس (كانا بطبيعتهما سجناً لحريَّة العقل وعقبة كأداء في سبيل نهوض فكر مبدع مبتكر وخلاق إضافة لموقف حزب أهل السنة المحافظ الذي منع اتباعه عن البحث العقلي المجرد، وحال دون ظهور الآراء الحرَّة والمذاهب الفلسفية المستقلة)[٢].

ويأتي قول (كوزان) عن النصرانية على نحوٍ آخر، إذ يقول: (المسيحيَّة هي آخر ما ظهر على الأرض من الأديان، وهي أيضًا أكملها، والمسيحية تمام كل دين سابق، وغاية الثمرات التي تمخضت عنها الحركات الدينيَّة في العالم وبها (خُتِمَ) الدين، الدين المسيحي ناسخ لجميع الأديان.. كذلك كانٍ الدين المسيحي إنسانيًّا واجتماعيًّا إلى أقصى الغايات، ومن أراد دليلاً فلينظر ماذا أخرجت المسيحية وجماعة المسيحيين للناس: أخرجت الحريَّة الحديثة والحكومات النيابيَّة، ثُمَّ ينظر من دون المسيحيَّة منذُ عشرين قرنًا سائر الأديان. ماذا أنتج الدين البرهمي والدين الإسلامي، وسائرِ الأديان التي لاتزال قائمة فوق الأرض ؟ أنتج بعضها انحلالاً موغلاً، وبعضها أثمر استبدادًا ليس له مدى)[٣].

ويقول (كودتيه): (الدين الإسلامي دين سامي بحت، مفرق وموحد بأضيق المعاني غير عقلي، لايتفق والتفكير الحر... وقليل الميل إلى

---

(١) انظر: عرفان عبدالحميد: دراسات في الفكر العربي الإسلامي: ص ٣٨، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٣٩.

(٣) عرفان عبدالحميد: دراسات في الفكر العربي الإسلامي: ص ٣٩، (المرجع السابق نفسه).

التصوف.. ومن المحال أن نتصور دينًا أكثر منه تعارضًا مع الفلسفة الإغريقيَّة الآريَّة بأعمق المعاني، وبناءً على هذا فالعقل العربي عاجز عن استخلاص القوانين والقضايا ووضع الفروض والنظريات، ومن ثُمَّ فإنَّه يمتنع على العقليَّة الإسلاميَّة أن تنتج آراء علميَّة ومذاهب فلسفية)[1].

ومِمَّا استخلصه المفكر الإسلامي محمد البهي من دراسات المستشرقين إنَّ (الذي يسير عليه علماء الاستشراق في تقييم المبادئ الإسلاميَّة.. إذا خالف الإسلام مثلاً في عرض مبادئه في القرآن ما تتضمنه النصرانية واليهوديَّة من مبادئ فاختلافه مع أي منهما دليل على أنَّه غير صحيح في نسبته إلى الله)[2].

ويذكر أيضًا (أنَّ الفيصل في هذا وذاك (في نظرهم مبادئ اليهودية والنصرانية)، وما يقوم عليه منهج الاستشراق على هذا النحو هو على العكس تماماً مِمَّا جاء في القرآن الكريم من جعل القرآن نفسه هو الفيصل والحجَّة في أنَّ ما طابقه هو دين الله بينما ما خالفه ليس من دين الله بل هو دخيل عليه)[3]، ولعله يشير بهذا إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا﴾[4].

وبالرجوع إلى جذور الاستشراق وتطوراته التاريخيَّة يتضح أن الدافع الديني والأهداف المرتبطة به ولَّدت حركة فكريَّة مضادة للإسلام جاءت

---

(١) عرفان عبدالحميد: المرجع السابق: ص ٣٩.

(٢) محمد البهي: الشباب والإسلام في مجتمعنا المعاصر، مجلة الأُمَّة، عدد صفر ١٤٠٣ هـ: ص ٢٠، الصادرة عن مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية – قطر.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٢٠.

(٤) سورة المائدة: الآية (٤٨).

استجابة لنداءات أمثال (روجر بيكون) و (ريموند لل) اللذين طالبا بنقل المعركة والمواجهة مع الإسلام والأُمَّة الإسلاميَّة والغرب النصراني من ساحة الحرب إلى ميدان الغزو الثقافي المضاد[١]، وهو ما أطلق عليه (رينان): (محاولات (لل) الراميَّة إلى استبدال الصليبية العسكريَّة بالصليبية الثقافيَّة)[٢]، وقال عنه: (من المعلوم أن هدم الإسلام كان حلم جميع حياته، وقد قدم سنة (١٣١١ م)؛ وذلك في مجمع (فيينا) الديني، ثلاث عرائض إلى كليمانس الخامس (بابا روما) حول إيجاد منظمة حربية جديدة لهدم الإسلام، وإنشاء كليات لدراسة العربية)[٣].

(أمَّا روجر بيكون فقد شدد على وجوب نقل الصراع ضد الإسلام إلى دائرة المواجهة العقائدية السلميَّة، حيث إن الصراع العسكري المسلح قد أثبت فشله)[٤]، ويرى (أنّ الحكمة في العمل تقتضي استبدال الحرب بالدعوة السلميَّة التي حالت دون القيام بها على الوجه الأكمل والأمثل عدّة اعتبارات منها: الجهل باللغة العربية، لغة الإسلام وأهله، ومنها: أن العقائد الإسلاميَّة لم تدرس بدقة ومن وجهة نظر نقديَّة تحليليَّة وتاريخيَّة حتى يسهل أمر تفنيدها والاحتجاج على بطلانها)[٥].

---

(١) انظر: عرفان عبدالحميد: دراسات في الفكر العربي الإسلامي..: ص ١١٨، ١١٩، (المرجع السابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١٩.

(٣) نقلاً عن: قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: ص ١٦، (مرجع سابق). وانظر: عرفان عبدالحميد: المرجع السابق نفسه: ص ١١٩.

(٤) عرفان عبدالحميد: المرجع السابق نفسه: ص ١١٩.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ١٢٠.

ويعلل (وليم روبروك) الرأي الذي يدعو إلى الاحتجاج الفكري المضاد للإسلام بقوله: (لأنَّ الإسلام دين يقوم أصالة على عقيدة الفتح والجهاد، ومن ثَمَّ فإنَّ عملية النقض العقدي للإسلام وأصوله تستوجب ابتداءاً معرفة اللغة العربية، وضرورة إقامة المراكز العلميَّة المتخصصة للاهتمام بها وتعليمها)[1].

ويكشف في ختام قوله هذا - الذي جاء في تقرير شارك به في المؤتمر الدولي للأديان الذي عقد في ٣٠ مارس ١٢٥٤ م في (قره قروم)[2] -: عن توظيف الاستشراق لغرض عرقلة المد الإسلامي وإعاقة استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة في الأرض، يقول (وليم روبروك): (إذا أمكن الوفاق والمصالحة مع النساطرة المنشقين البسطاء في مداركهم وأعيدوا إلى حضيرة الكنيسة العالميَّة، وبذلت الجهود من أجل هداية التتار إلى نور المسيحيَّة، أو حيل بينهم وبين اعتناق الإسلام، فإنَّ من الممكن إيقاف المد الإسلامي واحتجازه ومنع خطره عن الغرب)[3].

يقول عرفان عبدالحميد: (ومع تصاعد هذه الدعوة إلى نقل الصراع من دائرة الحرب والاستغراق في حملات الافتراء والتضليل إلى ميدان الدعوة السلميَّة، والاحتجاج العقدي على بطلان الإسلام فإنَّ سيل الدراسات العاطفية التي تنم عن مزيجٍ من الخوف والحقد على أهل العربية وعقيدة الإسلام بقي موصولاً ومستمرًا لايعرف المهادنة والتعقل)[4].

---

(١) نقلاً عن المرجع السابق نفسه: ص ١١٩ (الحاشية).

(٢) نقلاً عن: عرفان عبدالحميد: دراسات في الفكر العربي الإسلامي: ص ١١٩ (الحاشية) وأوضح أن (قره قروم) هو (منغوليا) حاليًا.

(٣) عن المرجع السابق: ص ١١٩ (الحاشية).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٢٠.

وبعد أن يورد نماذج عديدة لمفترياتهم على الإسلام ونبيه وأمته؛ يقول: (هذه بعض مفردات الصورة التي تولدت في التصور الغربي عن الإسلام كدين، وعن العرب كفاتحين، وعن القرآن الكريم.. وهي الصورة التي لم تزدها القرون والدراسات إلا رسوخًا وتأكيدًا في مجالات ثلاثة لها خطورتها في مجمل الحياة الفكريَّة العامَّة للغرب أعني: دائرة المباحث الخاصة بتاريخ العهدين القديم والجديد... وحقل التصورات والقصص والمسرحيات الأسطوريَّة، ثُمَّ الموروثات المتراكمة في الخيال الشعبي... ومع تغير المواقف الغربية المجوجة هذه تحت تأثير التطورات الداخلية للفكر الغربي، طرأت تغييرات هامشية عرضية على هذه الصورة المخزيَّة المعراة عن الحقيقة[1]، أمَّا جوهر هذا الموقف ودلالاته التاريخية فقد بقيت موصولة ومستمرة لاتكاد تعرف التحول عن المنطلقات الأولى التي بدأت حركتها منها)[2].

إن الدوافع الدينيَّة للدراسات الاستشراقية فيما يتعلق بالأُمَّة الإسلاميَّة جاءت لتحقق ما يتلخص في الآتي[3]:

١- بث الدعوة الدينيَّة النصرانية في الشعوب الإسلاميَّة وغيرها من أمم الأرض الأخرى، وخدمة أهداف التنصير بصفة عامَّة.

٢- الحد من انتشار الإسلام في العالم بعامَّة وتحصين الشعوب التابعة للكنيسة ونفوذها بخاصَّة.

---

(١) انظر: موقف المستشرقين من وسطية الأُمَّة الإسلاميَّة: ص ٧٥٩- ٧٨١ (البحث نفسه).

(٢) دراسات في الفكر العربي الإسلامي: ص ١٢١، ١٢٢، (المرجع السابق نفسه).

(٣) لمزيد الاطلاع: انظر: الدافع الديني للدراسات الاستشراقية وأهدافه: ص ٢٨٨-٢٨٩ (البحث نفسه).

٢- تشكيك المسلمين في صحة الإسلام وصدق النبي ﷺ وزعزعة ثقتهم في قيم الإسلام الحضارية والثقافية عن طريق إشاعة الشكوك والشبهات والمزاعم والآراء المتضاربة حول الإسلام من حيث عقيدته وشريعته وآدابه، وحول تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة وما سطرت من أمجاد[1].

وكل ذلك عن طريق دراسات توصف بالعلميَّة والمنهجية والموضوعيَّة، وتدخل عالم الفكر والتاريخ تحت مسمى البحث العلمي وبالتالي تتشكل خلفيَّة فكريَّة صارمة تحكم على الإسلام وعلى الأُمَّة الإسلاميَّة بما لايتفق مع جوهر الإسلام وحقيقة الأُمَّة الإسلاميَّة.

وعلى ذلك فإنَّ هذه الدراسات في مختلف أطوارها التاريخيَّة وأهدافها المتنوعة تمت لتعويق الأُمَّة الإسلاميَّة عن تحقيق هذا الهدف العميق من أهداف تميُّزها أعني قضية استخلافها في الأرض.

أمَّا النقطة الثانية وهي: الصبغة الاستعماريَّة: فإنَّ دراسات فئة من المستشرقين خضعت للباعث أو الدافع الاستعماري، وفيما يأتي أورد نماذج تبين ذلك، ثُمَّ أعقب على ذلك بالرابط بين تلك الدراسات وقضية استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة باعتبارها هاجس الخوف من الأُمَّة الإسلاميَّة، وسبب الحقد عليها من قبل أولئك المستشرقين والقوى المعادية للإسلام من ورائهم.

(كتب كاتب اسمه (اشعيا بومان) في مجلة (العالم الإسلامي) مقالاً عنوانه: الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي؛ ذكر فيه أن شيئًا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي، لهذا الخوف أسباب، منها:

---

(١) انظر: عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ١٩١، ١٩٢، (مرجع سابق).

أن الإسلام منذُ ظهر في مكة لم يضعف عدديًا، بل هو دائمًا في ازدياد واتساع، ثُمَّ إن الإسلام ليس دينًا فحسب، بل إن من أركانه الجهاد، ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الإسلام ثُمَّ عاد نصرانيًا.. وكذلك يرى هذا الكاتب أن الصحراء كانت للمسلمين حصنًا منيعًا، ذلك لأن (البدو) نسبة مئوية كبيرة في المسلمين، وأنَّه ما من دولة حاولت التغلب على المسلمين واتفق أن ظفرت إلاَّ خسرت أضعاف ما خسر المسلمون في ذلك الكفاح.. من أجل ذلك يقترح هذا الكاتب أن تتفق بريطانيا وفرنسة، ما دامتا أكثر الدول سيطرة على العالم الإسلامي على سياسة السيطرة على الشواطئ...)[1].

فهذا الكاتب يطرح فكرته - في ذلك الحين - في خدمة الاستعمار، ويؤكد الواقع بأنَّ هذه الفكرة قد وجدت طريقها للتنفيذ بشكل أو آخر على أيدي الدول المستعمرة[2].

ويرى أحد الباحثين أن المستشرقين فيما قبل حملة نابليون على مصر كانوا لايعتمدون على تخطيط دقيق وكافٍ[3]، أمَّا حمله نابليون فإنَّها (كانت منذُ البداية - وقبل أن تتحرك الحملة فعلاً - تهدف إلى احتواء مصر تمامًا، وقد وضعت الخطة على هذا الأساس، وهي خطة كان لها جانبها العسكري والاستعماري ولكن كان لها جانبها العلمي والثقافي، وكانت مصر تعتبر الحلقة الأولى فقط ضمن سلسلة طويلة لاحتواء

---

(١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار: ص ١٣١، (مرجع سابق).

(٢) انظر: مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار: ص ١٣١، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: أحمد أبو زيد: الاستشراق والمستشرقون، مجلة عالم الفكر، المجلد [١٠] العدد الثاني: ص ٥٥١.

الشرق، ولقد تمخضت الحملة من الناحية العلميَّة، وبخاصة من ناحية الاستشراق عن إنشاء (المعهد المصري) بكل ما فيه من علماء ومفكرين في مختلف فروع التخصص، وهم الذين توفروا علىدراسة مصر من مختلف الجوانب)[1].

ومِمَّا ذكر (إدوارد سعيد) أن كتاب (وصف مصر) الذي أنجزه هؤلاء المستشرقون تحت أنظار (نابليون) كان فيه متأثرا بكتاب (كونستانتان دو فولني): (رحلة في مصر وسوريا) الذي ظهر في مجلدين عام ١٧٨٧ م.

ومِمَّا يجدر ذكره أن (كونستانتان) وصف الإسلام بأنَّه نسق من النظم السياسية التي كانت تتسم بالعدوان والتحامل[2].

وفي هذا من الدلالات ما يؤكد أثر الاستشراق في التمكين للاستعمار، وأنَّه خدم الاستعمار - كما سبق بيان ذلك - قبل دخوله العالم الإسلامي، وأثناء سيطرته عليه وبعد خروجه منه[3]، وقد تمثل ذلك في توفير المعلومات عن الأُمَّة الإسلاميَّة وعالمها أرضًا وسكانًا ومايتعلق بذلك من جغرافيا وعادات وتقاليد.. ثُمَّ دعم الاستعمار بالمعلومات التي يستخدمها لإحكام سيطرته على الشعوب الإسلاميَّة (ولقد ازداد الدور الذي لعبه المستشرقون في القرنين التاسع عشر والعشرين نتيجة لازدياد قوة العلاقة بين أوروبا والشرق؛ إذ أصبح الشرق مجالاً للتنافس السياسي والاقتصادي الغربي حيث كان الغربيون يبحثون عن أسواق

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٥٥٢.

(٢) انظر: الاستشراق: ص ١٠٧ (مرجع سابق).

(٣) انظر: علاقة الاستشراق بالاستعمار: ص ٣٠٢، ٣٠٤؛ (البحث نفسه).

جديـدة ومسـتعمرات جديـدة ومـوارد اقتصـادية جديـدة... وكـان المستشـرقون أثناء هـذا كله يؤمـنون بـأنَّ (الشـرق شـرق) وأنَّـه لايـتغير، وهـذا أساس قوي لظهور النزعة العنصرية لدى عدد كبير منهم، وإن لم يكونوا جميعًا قد عبروا عن ذلك (بالصراحة نفسها) التي نجدها عند (رينان)... الذي ينسب كثيرًا جدًّا من الأوصاف والنعوت غير الكريمة للساميين وغيرهم من الشرقيين المنحطين - حسب تعبيره - وقد شاعت هذه الآراء بسرعة في الثقافة الأوروبية)[١].

وخلاصة القول: إن المستشرقين أو فئة منهم قد اصطبغت دراساتهم عن الأُمَّـة الإسـلاميَّة بالصـبغة الاسـتعمارية، وعـن ذلـك قـال أحـد الباحـثين: (لعـب هـؤلاء المستشـرقون دور (العمـيل) لحكومـاتهم، وحاولوا (وصف) الشرق (وبيان ما فيه) لتلك الحكومات بطريقة تشبع (رغباتها وتتفق مع أغراضها)... وكان لابُدَّ لهذا التحول في الموقف من أن ينعكس على شخصية المستشرق ذاته، وبنظرته إلى نفسه، فلم يعد المستشرق في الأغلب يعتبر نفسه عالمًا ينتمي إلى طائفة أو فئة من العلماء لهم قيمهم وطقوسهم العلميَّة وتقاليدهم وأخلاقياتهم ومبادئهم التي تتحكم في عملهم، وتوجه هذا العمل، كما ترسم لهم سلوكهم داخل نطاق هـذه الطائفة، وإنَّما أصبح يعتبر نفسه ممثلاً لثقافته الغربية ضد ثقافة الشرق)[٢].

وهذه الصبغة الاستعمارية التي اصطبغت بها الدراسات الاستشراقية

---

(١) أحمد أبو زيد: الاستشراق والمستشرقون، مجلة الفكر: ص ٥٥٢، (المرجع السابق نفسه).

(٢) أحمد أبو زيد: المرجع السابق نفسه:ص ٥٥٧.

تعدُّ من وجهة نظر كثير من الباحثين: (عمليَّة تسليم الشرق للغرب)[1] أو كما وصفها (إدوارد سعيد) بأنَّها (المعرفة الاستعمارية)[2].

لذلك فإنَّ هذه الدراسات قد أظهرت (الشرق عامَّة والعالم العربي والإسلامي على وجه الخصوص في صورة العالم (العاجز فطريًّا) عن التقدم المادي والثقافي، وأنَّ خيره يكمن في إلغاء وجوده الحضاري المستقل وهويته الثقافية المميزة له؛ والارتباط بالغرب: لغة وثقافة باعتباره (عالم التفوق والسيادة)، وكان هذا الشعور الأوروبي بالتفوق يزداد رسوخًا كلما تقدم الزمن بأوروبا في العصور الحديثة.. وكان على الاستشراق الضالع مع الاستعمار، والقائم على خدمة أهدافه ومقاصده وغاياته أن يُهَيِّئَ الأسباب النفسية والثقافية التي من شأنها أن تولد عند الشرقيين عامة ميلاً للخضوع والخنوع والاستسلام للغرب وتفوقه الحضاري وسموِّه المادي)[3].

وعلى هذا فإنَّ قضية استخلاف الأُمَّة الإسلاميَّة تغيب في هذا الزخم الاستعماري المضاد الذي عاد بالحروب الصليبية متذرعة بالفكر وسلاح العلم والمعرفة الموجهة ضد تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة ومايهدف إليه هذا التميُّز من سيادة وريادة وقيادة.

أمَّا النقطة الثالثة وهي: الصبغة السياسية: فإنه إذا كان الاستعمار

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٥٥٨.

(٢) الاستشراق...: ص ٦، ٤٢، ٤٦، ٤٧، ٤٩، (مرجع سابق)، وانظر: أحمد أبو زيد: المرجع السابق نفسه: ص ٥٥٨.

(٣) عرفان عبدالحميد: دراسات في الفكر العربي الإسلامي..: ص ١٢٣، (مرجع سابق)، وانظر: إدوارد سعيد: الاستشراق، فإنَّ كتابه يعالج هذا الجانب بصفة خاصَّة)، وبخاصة الصفحات، ٧١، ٧٢، ٧٣ - ٧٩.

قد رحل عن معظم بلدان الشرق وعن العالم العربي والإسلامي لظروف تاريخيَّة وسياسية وتطورات فكريَّة لايتسع المجال لذكرها، فإنَّ الصراع الفكري والغزو الثقافي استمر في صور جديدة يموج بها العالم الإسلامي للنيل من عقيدة الأُمَّة الإسلاميَّة والقضاء على شخصيتها المتميِّزة (لقد تطورت الوسائل، وتعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة، ويكفي... أنَّ مراكز البحوث والدراسات، سواء كانت مستقلة أو أقسامًا للدراسات الشرقية، في الجامعات العلميَّة في الغرب وما يوضع تحت تصرفها من الإمكانات الماديَّة، والمبتكرات العلمية والاختصاصات الدراسية، تمثل الصورة الحديثة التي تطور إليها الاستشراق حيث تمكن أصحاب القرار السياسي من الاطلاع والرصد لما يجري في العالم يوميًّا)[١].

وقد ذكرت بعض الإحصائيات ما قيل قبل عقد من الزمان بأن (في القارة الأمريكية وحدها، حوالي تسعة آلاف مركز للبحوث والدراسات، منها حوالي خمسين مركزًا متخصصًا بالعالم الإسلامي، ووظيفة هذه المراكز تتبع ورصد كل ما يجري في العالم، ثُمَّ دراسته وتحليله، مقارنًا مع أصوله التاريخية، ومنابعه العقائدية، ثُمَّ مناقشة ذلك مع صانعي القرار السياسي، لتبنى على أساس ذلك الخطط، (والاستراتيجيات)، وتحدد وسائل التنفيذ)[٢].

وعلى الرغم مِمَّا اتسمت به بعض الدراسات الاستشراقية الحديثة من اتزان وموضوعية إلاَّ إنَّ تلك الدراسات المرتبطة بدوائر العداء

---

(١) عمر عبيد حسنة: مقدمته لكتاب الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: لمحمود حمدي زقزوق: ص ٨، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٨.

للإسلام والصراع الحضاري مع الأُمَّة الإسلاميَّة بخاصة والشرق بعامَّة تحاول - بصفة مباشرة وغير مباشرة - (إلغاء النسق الفكري الإسلامي، وتحاول تشكيل العقل المسلم، وفق النسق الغربي)(١)، وقد انتهجت في ذلك الوسائل والأساليب الآتية:

١ - إنجاز دراسات تظهر تفوق الغرب وخطره و (أنَّ أوروبا مركز الكون كله، وأن الثقافات والحضارات والآداب العالمية ليس لها قيمة إلا إذا اتفقت تمامًا مع الثقافات والحضارات والآداب الأوروبية)(٢).

٢ - التحذير من الإسلام، وقد وصل الأمر ببعض المستشرقين إلى أن يقول: (إنَّ الإسلام حكاية متقلبة وخطرة، وحركة سياسيَّة تتدخل في شؤون الغرب وتقلق راحته، وتحرض على العصيان والتعصب في كل أرجاء العالم)(٣)، ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن المستشرقين كانوا (يعتبرون الإسلام أكبر عائق في سبيل التقدم والرقي)(٤).

٣ - أسهمت الدراسات الاستشراقية المغرضة في تحفيز الدول

---

(١) عمر عبيد حسنة: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة: ص ٢٥، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٧)، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، الرياض.

(٢) استيفان فيلد: الثقافة العربية في غاية الأهمية بالنسبة للثقافة الأوروبية (حوار أجْرِيَ معه على صفحات مجلة الحرس الوطني، عدد رجب ١٤٠٩ هـ): ص ١٢٤، (مرجع سابق).

(٣) إدوارد سعيد: إعادة النظر في الاستشراق، مقال منشور في جريدة الحياة في ثلاث حلقات، الحلقة الثانية، العدد (١١٩٦٤) الصادر بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩٩٥ م؛ ص ٢١، تصدر عن شركة الحياة الدوليَّة للنشر، لندن.

(٤) أحمد أنس: الإسلام كما يراه المستشرقون، مجلة البعث، عدد شعبان ١٣٩١ هـ: ص ٢٦، تصدر عن ندوة العلماء لكناؤ، الهند.

الغربية على العمل ضد الإسلام وقد تمثل ذلك في أساليب عدَّة منها[1]:

أ - العمل على إضعاف صلة المسلمين بالإسلام.

ب - نشر الإلحاد العلمي في الأوساط الإسلاميَّة.

ج - الحد من اليقظة الإسلاميَّة.

٤ - ومن الأساليب التي انتهجها بعض المستشرقين وكانت ذات صبغة سياسيَّة مرحليَّة الدعوة إلى (فكرة أن الإسلام نفسه يتجدد، ويخضع لعامل الزمن في تطوره، ومن ثَمَّ فلا داعي للتقيد بتعاليم الماضي جملة في تكييف الحاضر)[2].

ولعل من أبرز المستشرقين في هذا المضمار المستشرق الإنجليزي (جيب)، وتتجلى فكرته هذه في كتاب: (إلى أين يتجه الإسلام Whither Islam) الذي كتب مقدمته، وتولى إعداده مجموعة من الباحثين فظهر عبارة عن مجلة للدراسات الإسلاميَّة كان هو أكثر المسهمين فيها عطاءً، وكان يعمل مستشارًا لوزارة الخارجية البريطانية[3].

ولعل هذا الكتاب وما تضمن من أفكار جديدة نحو الأُمَّة الإسلاميَّة كان أساسًا للتقرير الذي يذكر أنَّ بريطانيا أعدَّته بعد الحرب العالميَّة

---

(١) انظر: محمد البهي: الشباب والإسلام في مجتمعنا المعاصر، مجلة الأُمَّة، عدد صفر ١٤٠٣ هـ: ص ٢٠، (المرجع السابق).

(٢) جابر قميحة: آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم: ص ٢٧، العدد (١١٦) من سلسلة دعوة الحق، عام ١٤١٢ هـ-١٩٩١ م، عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

(٣) انظر: عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ١٩٣، ١٩٤، (مرجع سابق)، وانظر: الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ترجمة: هاشم الحسيني: ص ١٥، طبعة ١٩٦٦م، عن دار مكتبة الحياة، بيروت.

الثانية[1]، ويدعى (Scarbrough Repcrt)[2]، ويقول أحد الباحثين: (إنَّ هــذا التقــريــر يستحــق أن يعتبــر ميثـاق الاسـتشـراق الـجــديــد «Orientalism Charrter of Modern»)[3]. وذلك لما تضمنه من إشارات إلى الاتجاهات الحديثة في احتواء الأُمَّة الإسلاميَّة وإعاقتها عن أداء رسالتها، وذلك عن طريق تطوير الإسلام نفسه، وتطبيعها على الحياة الغربية وأنماطها في الفكر والسلوك، وبالتالي فإنَّه لن يتحقق لها الاستخلاف في الأرض وإنَّما تفرض عليها التبعيَّة بعد إذابة تميُّزها.

والذي يظهر من أطروحات (جيب) هو إدراكه العميق لذلك الهدف الملازم لتميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وقد عبَّرَ عنه بقوله: (لتعاليم الدين الإسلامي من السيطرة على المسلمين في كل تصرفاتهم مايجعل لها مكانًا بارزًا في أيِّ تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامي، فالإسلام ليس مجرد مجموعة من القوانين الدينيَّة، ولكنه حضارة كاملة)[4]؛ لذلك يرى (جيب) أنَّه يُمكن زحزحة المسلمين تدريجيًّا عن مواقفهم ومواقعهم التي يوجبها عليهم الإسلام من خلال الإسلام ذاته، وذلك بمحاولة تطوير الإسلام عن طريق تطويع المسلمين وتطبيعهم شيئًا فشيئًا على مفاهيم الغرب وليكن ذلك عن طريق التجديد في الأمور الشكلية والمظاهر الخارجيَّة من خلال التأثر بالأساليب الغربية في وسائل

---

(١) انظر: خليق أحمد النظامي: عهود متعددة لأفكار المستشرقين ونظرياتهم (بحث مدرج في كتاب الإسلام والمستشرقون) تأليف: نخبة من العلماء: ص ١١٠، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١٠.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١١٠.

(٤) نقلاً عن: عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ١٩٤، (المرجع السابق نفسه).

الحضارة وأنماط الثقافة والفكر والمعرفة والعلوم الحديثة ومن ثَمَّ تتمكن الموازين المسيحيَّة من الهيمنة على ذاتية المسلمين حتى تبلغ بهم حالة الذوبان الكامل ويأخذون بصورتها وملامحها[1].

وعن هذه الفكرة قال (جيب): (قد يبدو للنظرة الأولى أن الجمهرة العظمى من المسلمين لم تتأثر بمؤثرات دينيَّة أوروبية، وأنّ التفكير الديني الإسلامي قد ظلَّ وثيق الصلة بأصوله الدينيَّة التقليديَّة، ولكن ذلك ليس هو الحقيقة كلها، فالواقع أن التعاليم الدينيَّة ومظاهرها عند أشد المسلمين محافظة على الدين وتمسكاً به قد أخذت في التحول ببطء خلال القرن الماضي)[2].

وتأتي فكرة تطوير الإسلام ليواكب الحضارة الغربيَّة وقيمها ومبادئها ومفاهيمها كأفضل بديل يطرحه المستشرقون - المرتبطون بدوائر الصراع الفكري - لإعاقة الأُمَّة الإسلاميَّة عن تميُّزها الكفيل بإعادة دورها في التاريخ حتى تسترد مكانتها في القيادة والسيادة وهي متمسكة بمقومات ذلك التميُّز وخصائصه وأهدافه.

إنَّ ما يهدف إليه هذا المشروع الاستشراقي الحديث في حقيقته، وفي نهاية تحليله هو إذابة تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة عن طريق تطوير الإسلام ذاته وإيجاد صيغ جديدة لهذا التطوير انطلاقاً من ضغط ظروفها الداخلية وبما يتلاءم مع معطيات الثقافة الغربية ومفاهيم الغرب وقيمه[3]، وليس ارتقاءً بحاضر الأُمَّة وإنَّما هو كما قال أحد الباحثين:

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٩٤، ١٩٥.

(٢) نقلاً عن: عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ١٩٤، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٩٢، وتتركز كتابات (جيب) حول هذه الغاية في كتابه: الاتجاهات الحديثة في الإسلام، (مرجع سابق).

(قتل الشعور بالذات... في صورة فكر تلفيقي انتخابي مشوه ليس فيه مايعكس عبقرية أهله... وليس فيه من الدفق الذاتي الذي يعين على انبعاث حضاري ويقظة فكرية، وإذا سلمنا بحقيقة: أن وجود الأُمَّة واستمرارها التاريخي مرهون بشعورها القوي والمتجدد بذاتها الممتدَّة في الزمان، أدركنا خبث هذه الدعوى من حيث إنَّها أرادت خلق حالة من الغربة والانفصام بيننا وبين تاريخنا الفكري والحضاري، لننتهي إلى خواء روحي وعقلي مدمر، وينتهي الأمر بنا إلى الانتحار الحضاري)[1].

ويبدو أن هذا المشروع الاستشراقي هو الخيار الأخير للأُمَّة الإسلاميَّة - من وجهة النظر الاستشراقية - فها هو المستشرق (ك. كراج) رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي يعبر عن ذلك فيقول: (إن على الإسلام إمَّا أن يعتمد تغييرًا جذريًّا فيه أو يتخلى عن مسايرة الحياة الحديثة)[2].

وخلاصة القول: إنَّ الدراسات الاستشراقية - في جملتها - قد اصطبغت بالصبغة السياسيَّة إلى جانب الصبغة الدينيَّة والاستعمارية مستجيبة في ذلك للتطورات الفكرية والتاريخية في الغرب وفي العالم الإسلامي على السواء للحيلولة دون قيام الأُمَّة الإسلاميَّة بما أوجبه الله عليها من الشهادة على الناس وقيادتهم في صراط الله المستقيم، وكان إسهام الاستشراق في ذلك كما قال إدوارد سعيد: (النظر إلى الأُمَّة الإسلاميَّة كمشكلة تتطلب الحل أو

---

(١) عرفان عبدالحميد: دراسات في الفكر العربي الإسلامي...: ص ٤٠، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين تجاه الإسلام: ص ٢٩، (مرجع سابق).

الحصر ضمن حدود، أو الاحتلال...)[1].

وإذا كان الاستشراق المعادي للإسلام يقدم هذه النظرة من خلال دراساته إلى القوى المعادية للأُمَّة الإسلاميَّة فإنَّ ماتضمنته هذه الدراسات لايعدو أن يكون: (شن غزو فكري عام على الإسلام وعقيدته وشريعته وحضارته، واتهامه بالقصور عن مسايرة الحياة الحديثة ومحاولة تغييره بما ينسجم مع الحياة الغربية الحديثة)[2]، بهدف إعاقة رسالة الأُمَّة الإسلاميَّة ومحاولة صد الناس عن الاستجابة لها وتفاعلهم معها، فهذه المحاولة التي تبنَّاها المستشرقون؛ تنطلق من مبدأ أن لايسمح للشرق أبدًا بأن يتجه وجهته الخاصة أو ينفلت من السيطرة، إذ أن وجهة النظر في ذلك كله هي (أن الشرقيين لايمتلكون تراثًا من الحريَّة)[3].

* * *

---

(١) انظر: الاستشراق... ص ٢١٥، (مرجع سابق).

(٢) محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين (المرجع السابق): ص ٣٨، ٣٩.

(٣) إدوارد سعيد: الاستشراق... ص ٢٤٧، (المرجع السابق نفسه).

الفصل الثاني

وسائل تحقيق تميز الأُمة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: وسيلة اللغة العربية وموقف المستشرقين منها.

المبحث الثاني: وسيلة تاريخ الإسلام وحضارته وموقف المستشرقين منه.

المبحث الأول

اللغة العربيَّة وموقف المستشرقين منها

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: مكانة اللغة العربيَّة وارتباطها بالإسلام.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منها.

المطلب الأول
مكانة اللغة العربيَّة وارتباطها بالإسلام

جاء الإسلام واللغة العربية على درجة رفيعة من الفصاحة والبيان في الشعر والنثر، بيد أنَّها في حدود قبليَّة ضيقة، ثُمَّ اجتباها الله لتكون لغة الإسلام ولسان القرآن الكريم، كما قال الله عزوجل: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [٢]، وبلَّغ الرسول ﷺ رسالة ربه بهذه اللغة المختارة، وأعطي جوامع الكلم [٣]، ليكون رحمة للعالمين ومرسلاً للناس كافة.

وبذلك تجاوزت اللغة العربيَّة حدود القبيلة والقوم وارتبطت بالإسلام فكانت لغة عقيدته وشريعته وخطابه إلى جميع البشر، وسارت (في ركاب الدعوة أينما ذهبت؛ لأنَّ القرآن الكريم كان في أيدي جند هذه الدعوة، وكان المسلمون كلما غلبوا على إقليم تركوا فيه القراء والمحدثين من أصحاب رسول الله ﷺ يعلمون الناس أمر دينهم، ويدعون أهل البلاد للدخول في حوزة الإسلام) [٤].

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (١٩٢ – ١٩٥).

(٢) سورة الشورى: الآية (٧).

(٣) جزء من حديث سبق تخريجه: ص ١٣٦-١٣٧، (البحث نفسه).

(٤) تمام حسَّان: اللغة العربية والشعوب الإسلاميَّة؛ بحث مدرج في: من قضايا اللغة العربية المعاصرة، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة تونس ١٩٩٠ م=

وعلى الرغم من عدم فرض اللغة العربية على الشعوب الإسلاميَّة ذات اللغات الأُخرى إلاَّ أنَّها انتشرت بانتشار الإسلام في بلاد الشام والعراق وما وراء النهر من بلاد فارس والهند والسند وأنحاء واسعة من القارة الآسيوية حتى وصلت إلى أرخبيل الملايو[1]، وانتشرت في مصر وشمال إفريقيا وغربها ووسطها وجهات السودان وعلى السواحل وفي الجنوب، وكذلك تأثرت اللغات الأوروبية بها منذُ بداية الصراع البيزنطي الإسلامي في الشرق، ثُمَّ الصراع القوطي (الأسباني) مع الإسلام في أسبانيا، وما أسهمت به الحروب الصليبيَّة على مدى قرون من الزمان، وعبر الاتصال الحضاري بين الحضارة الإسلاميَّة والغرب في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وبلدان البلقان.

وقد أثبت التاريخ أن الغرب النصراني نهلٍ من معين اللغة العربية وتزود من ثقافتها، وأن إتقان العربيَّة كان شرطًا أوليًّا لمن أراد أن يدرس الحضارة ويتثقف بالعلم والمعرفة، وقد لمعت أسماءُ عدّة لعلماء غربيين برعوا في اللغة العربية من أمثال (روجر بيكون)، ومن الطرفة بمكان أن طلابه في الجامعات الأوروبية لايقلون إتقانًا للعربية منه حتى قيل عنه إنَّ

=عن مطبعة المنظمة: ص ٧٤، وانظر: محمد مصطفى بن الحاج: عالميَّة اللغة العربية: المرجع السابق نفسه: ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(١) وصلت الفتوحات الإسلاميَّة إلى تخوم الصين والهند وعلى مشارف (سنكياج الصين) وبلاد الزنط في الهند؛ انظر: حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام: ص ٢٢٨، خارطة رقم [٦٤]، عن دار الزهراء للإعلام العربي - مصر، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م، ولكن انتشار الإسلام ومعه اللغة العربية وأبجديتها وصل عن طريق الصلات التجارية والدعويَّة وغيرهما من الوسائل السلميَّة إلى أقصى الجزر الواقعة جنوب شرق آسيا ومنها الجزر المعروفة باسم أرخبيل الملايو، ويطلق عليها الآن الفلبين، انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٨١، ٣٨٢.

تلاميذه كانوا يتهكمونه أحيانًا إذا أخطأ في ترجمة بعض النصوص العربية إلى اللاتينية[1].

وذُكِرَ أن (ألفارو) وهو أحد أساقفة قرطبة[2] كتب رسالة إلى صديق له عام (٨٥٤ م) جاء فيها قوله: (من الذي يعكف اليوم بين أتباعنا.. على دراسة الكتاب المقدس أو يرجع إلى كتاب أيِّ عالم من علمائنا، ممن كتبوا باللاتينية ؟ من منهم يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرسل ؟ إننا لانرى غير شبان مسيحيين هاموا حبًا باللغة العربية يبحثون عن كتبها ويقتنونها، ويدرسونها في شغف، ويعلقون عليها ويتحدثون بها في طلاقة، ويكتبون بها في جمال وبلاغة، ويقولون فيها الشعر في رقة وأناقة، يا للحزن ! مسيحيون يجهلون كتابهم وقانونهم ولاتينيتهم، وينسون لغتهم نفسها...)[3].

وإذا كان النصارى قد نجحوا في إخراج المسلمين من (الأندلس) ومن غيرها، وأفلت شمس الحضارة الإسلاميَّة في الغرب، فقد استمر (الموريسكيون) يستخدمون الحروف العربيَّة ويكتبون بها أدبهم وهو ما

---

(١) انظر: محمد مصطفى بن الحاج: عالميَّة اللغة العربيَّة: ص ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٥، (المرجع السابق نفسه).

(٢) سبق ذكره؛ انظر: ص ٨٢٣، (البحث نفسه).

(٣) نقلاً عن: أبي عبدالله محمد بن سعيد بن رسلان: فضل العربية ووجوب تعلمها على المسلمين: ص ٣٤، طبعة جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ، يناير ١٩٨٩ م، عن دار العلوم الإسلاميَّة – القاهرة، ودار البخاري – المدينة المنورة، وانظر: محمد سويس: اللغة العربية في مواكبة الفكر العلمي، (من قضايا اللغة العربية)... ص ١٤٢، وانظر: برنارد لويس: العرب في التاريخ (مرجع سابق)، وانظر: جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي..: ص ١٩–٢٠، طبعة دار الثقافة، بيروت، (بدون تاريخ).

عرف في أوساط المستشرقون باسم (al-hamiado) حتى التزمت بعد ذلك الحروف اللاتينيَّة[1].

أمَّا بلاد البلقان فبقيت الثقافة الإسلاميَّة والأبجديَّة العربية حتى منتصف القرن العشرين تقاوم صنوفاً من ألوان المصادرة والحرب على كل ما له صلة بالعربية والإسلام[2].

وقد كتب كثير من الباحثين المحدثين من المستشرقين وغيرهم عن أثر اللغة العربية في اللغات التي دخلت معها في صراع لغوي وأنجزوا إحصائيات علميَّة مقارنة للمفردات العربية المبثوثة خلال تلك اللغات وأظهروا نسبة تأثيرها.

وعلى سبيل المثال قال أحد الباحثين: (درستُ أثر العربية في اللغات الشرقية وأحصيتُ نسبتها وهي: في الفارسية (٦٠,٦٧٪)، وفي التركية (٦٥,٣٠٪)، وفي الأردية (٤١,٩٥٪)، وفي التاجيكية (٤٦,٣٩٪)، وفي الأفغانية (٥٦,٩٩٪))[3].

وذكر آخر أنه أحصى (ستاً وعشرين لغة آسيويَّة تستخدم الأبجديَّة العربية بعضها مايزال مستمسكاً بها حتى اليوم، وبعضها الآخر استبدلت بها الحروف اللاتينية أو المحليَّة)[4].

---

(١) انظر: محمد مصطفى بن الحاج: عالميَّة اللغة العربية: ص ٢٦٦، (المرجع السابق) ومسمى (الموريسكو) أُطلق على المسلمين الذين لم يهاجروا من الأندلس بعد سقوط غرناطة وعرف أدبهم باسم (الجمياد) وهو محرف عن لفظ (أعجمي) الذي يسمَّى به غير العربي في العربية، انظر: صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة: ص ٣٥٧، ٣٥٨، الطبعة الحادية عشرة ١٩٨٦ م، عن دار العلم للملايين - بيروت.

(٢) انظر: محمد مصطفى بن الحاج:عالمية اللغة العربيَّة: ص ٢٦٥، (المرجع السابق نفسه).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٦٠.

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٦٠.

وعلى هذا المنوال لاحظ الباحثون في اللغات المقارنة تأثير اللغة العربية العميق في سائر اللغات المنتشرة في العالم الإسلامي، ولاحظوا كذلك دخول كثير من مفرداتها في اللغات الأوروبية[(١)] أيضًا، ومِمًّا لفت نظرهم أنَّه (لأول مرَّة في تاريخ اللغات تحدث ظاهرة عجيبة وهي أن لغة من فصيلة معينة تؤثر في لغة من فصيلة أخرى تأثيراً بعيد المدى)[(٢)].

وعللوا ذلك بتعليلات كثيرة ومتنوعة يأتي في مقدمتها الدين[(٣)]؛ ومهما كانت التعليلات فإنَّ اللغة العربية حققت هذا الإعجاز؛ لأنَّها في المقام الأول حملت آيات القرآن الكريم: (المعجز إلى آفاق المعمورة، وصادفت الحفاوة والترحيب أينما ذهبت، فغلبت على اللغات المحليَّة في الشام والعراق ومصر وشمال إفريقيا والسودان...، وأزاحت لغات محليَّة أخرى عن الدواوين في الأقاليم الإسلاميَّة، وأصبحت لغة العلم والثقافة في كافة بلاد الإسلام، واستوعبت تراث الأمم السابقة ذوات الحضارات

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٢٦٥ - ٢٦٩، ومِمًّا ذكر عن اللغة الإنجليزية أنها استعارت من اللغة العربية ما قدره بعض الباحثين بألف كلمة مِمًّا دعا المستشرق (تيلور) أن يكتب بحثًا عنوانه (Arabic Words in English). انظر: ص ٢٦٧، المرجع السابق نفسه.

(٢) علي الشابي: اللغة العربية لغة القرآن ورسالة الإسلام (المرجع السابق نفسه): ص ٦٢، ولمزيد الاطلاع على قائمة بالكلمات العربية في الإنجليزية؛ انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي: ص ٤٦٩ - ٤٨٦، عن مكتبة الخانجي - القاهرة بدون تاريخ، وانظر: مونتغمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة: حسين أحمد أمين: ص ١١٥ - ١٢٥، (مرجع سابق). وانظر: زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب: ص ٥٥٢ - ٥٥٩، فقد أوردت جدولاً لبعض الكلمات المنقولة عن العربية والفارسية إلى الألمانية.

(٣) علي الشابي: اللغة العربيَّة لغة القرآن ورسالة الإسلام: ص ٦٢، (المرجع السابق نفسه).

القديمة، وقاومت في العصر الحديث كل محاولات غزوها في ديارها، أو تغليب اللهجات الدراجة عليها، حتى غدت آخر الأمر لغة من لغات المنظمات الدوليَّة على الرغم من غفلة الأجيال العربية الحاضرة، وفتور (حماستها) للحفاظ على مقومات وجودها)[1].

إنَّ الإحاطة بمنزلة اللغة العربية ومميزاتها الأساسية التي عملت على قوتها وانتشارها من الصعوبة بمكان، ولكن يقتصر هنا - بإيجاز - على الآتي:

١ - كون اللغة العربية ارتبطت بشعائر الإسلام وعباداته وغدت جزءًا أساسيًّا من لغة المسلم اليوميَّة وفي حياة الأُمَّة الإسلاميَّة؛ لأنَّها ملازمة للفرائض الإسلاميَّة؛ [فقد أوجب الإسلام أن تكون إقامة الصلاة وتلاوة القرآن وترتيله، والأذان، ومناسك الحج والدعاء، وسائر الشعائر الدينيَّة، ونحو ذلك باللغة العربية، كما فرض على المسلمين في مختلف الأقطار والأمصار تعلم آي القرآن الكريم وحفظه وفهمه، والإكثار من تلاوته، ويتحتم على الإمام والواعظ إتقان العربية، لكي يفهم أحكام القرآن والسنَّة، ويحسن شرحها وتفسيرها، ومعروف أن أحكام القرآن وتعاليمه لايصح أن تؤخذ إلا من نصه العربي، ولاتعد ترجمته إلى أيٍّ لغة إلا تفسيرًا لمعانيه، فلاتستنبط أحكامه منها.

لكل هذا ارتفعت منزلة اللغة العربية عند المسلمين، وتفقه المختصون في دراسة علوم العربية ووضع قواعدها في النحو والصرف، والبيان، والمعاني، وموازين الشعر، ورسم الحروف، والخط وغيرها، وألفوا فيها

---

(١) تمام حسَّان: اللغة العربيَّة والشعوب الإسلامية: ص ٧٢، (مرجع سابق)، وانظر: ما يذكر فيما يأتي عن قرار الجمعية العامَّة للأمم المتحدة بصدد عالمية اللغة العربية: ص ٦١٢.

عددًا ضخمًا من نفائس الكتب، ومنهم العرب وغيرهم، ونشطت لذلك بوجه خاص في زمن باكر، مدرستا البصرة والكوفة، فظهر في الأولى مثلاً أول معجم لغوي وأول كتاب في أوزان الشعر، وأشهر كتاب في نحو العربية، منذ أكثر من اثني عشر قرنًا، وهو معجم العين وكتاب العروض للعالم الفذ (الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري) والكتاب (لسيبويه)] [1].

وسبق ذلك وصحبه نشأة سائر علوم الثقافة الإسلاميَّة بدءًا بعلوم القرآن وتفسيره، وعلوم السنة المختلفة، وعلم الفقه وأصوله وغير ذلك[2].

٢ – حركة التعريب التي بدأت في (خلافة (عبدالملك بن مروان ٦٥ – ٨٦ هـ) الذي بدأ يسك عملة عربيَّة، وكانت الدواوين والأعمال الرسميَّة تكتب باللغة الإفريقية أو الفارسيَّة أو القبطيَّة حسبما تقتضيه الظروف المحليَّة (فغيَّرَ ذلك كله إلى اللغة العربية)، وحين أصبحت العربيَّة أداة رسميَّة في الشؤون العامة كان ذلك سببًا في تعميم

---

(١) جميل عيسى الملائكة: اللغة العربية ومكانتها في الثقافة العربية الإسلاميَّة (المرجع السابق): ص ١٢٤، ١٢٥، أمر وجوب اللغة العربية في شعائر الإسلام وفرضيتها في تعلم القرآن الكريم وتعليمه ليس على إطلاقه وإنَّما لفقهاء الإسلام في ذلك تفصيلات وأقوال متفاوتة لايتسع مجال البحث هنا لذكرها، وإنَّما الاكتفاء بالقول أن الإسلام قد حثَّ على أن تكون اللغة العربية هي لغة العبادة والدعاء والشعائر الدينية في الإسلام ما بين واجب كقراءة الفاتحة في الصلاة وهو ما عليه جمهور الفقهاء ثُمَّ يتدرج الحكم بعد ذلك إلى الندب والاستحباب، انظر: الشافعي: الرسالة، ص ٤٨، ٤٩، تحقيق: أحمد شاكر، (مرجع سابق).

(٢) انظر: تمام حسَّان: اللغة العربيَّة والشعوب الإسلاميَّة: ص ٧٣، (مرجع سابق).

استعمالها لدى الناس)[1]، إذ أصبح (لها طابعها العالمي لكونها لغة العلم والبحث والمراسلات الدوليَّة والعلاقات السياسيَّة والاقتصادية، كما كانت لغة الآداب والفنون في مختلف الثقافات التي اعتنق أهلوها الإسلام)[2].

ومِمَّا ساعد على ترسيخ اللغة العربية ونشرها حركة الترجمة التي بلغت أوجهًا في عهد (المأمون) وحققت للغة العربية في بعض جوانبها كما قال أحد المفكرين: (حضارة واحدة عالميَّة المنزع، إنسانية الرؤية وذلك لأول مرة في التاريخ، وفي ظل القرآن الكريم أصبحت العربية لغة عالميَّة، واللغة الأم لبلاد كثيرة، قد عمت المنطقة التي عرفت في ماضيها التأثير السامي فعوضت بيسر اللغات الساميَّة التي كانت شائعة فيها، عوضت الأراميَّة والآشوريَّة في العراق والشام، وبقايا البونيقية في إفريقية، ووجدت في سامية البربر حسب رأي بعض المؤرخين جسرًا واصلاً ومهادًا مكن لها في بلاد المغرب بأكملها وسادت مصر بسبب الهجرات السابقة القديمة وقرب لغتها الحامية من اللغات السامية، أمَّا بلاد فارس فقد بقيت فيها العربية طيلة قرنين لغة الثقافة والإدارة (حتى) احتدت الشعوبية)[3].

---

(١) تمام حسَّان: المرجع السابق نفسه: ص ٧٤.

(٢) محمد بن مصطفى بن الحاج: عالمية اللغة العربيَّة: ص ٢٥٨، (مرجع سابق).

(٣) علي الشابي: اللغة العربيَّة لغة القرآن ورسالة الإسلام: ص ٦١، (مرجع سابق)، وانظر: إبراهيم مراد: مكانة اللغة العربية...، المرجع السابق نفسه: ص ٢١٦، ويفسر بعض الباحثين ما حدث للغة العربية في فارس والأندلس من تقلص وانحسار بعدم قدرة اللغة العربية على اللغتين الفارسية واللاتينية. انظر: محمد أحمد أبو الفرج: مقدّمة لدراسة فقه اللغة: ص ١٢٠، ١٢١، وإن كان أشار إلى حاجة هذا الجانب لمزيد البحث بيد أنّ=

٣ - مميِّزَات اللغة العربية الذاتية، فقد (كسبت الصراع اللغوي (الذي خاضته وهي تلازم انتشار الإسلام) بسبب عامل جوهري هو أنها لم تكن لغة مستعمر غاصب ولا سلطان مستغل، وإنَّما كانت لغة الفطرة، لغة القلب والعقل، لغة الغيب والشهادة، لغة العدل والرحمة والمساواة والحق، ولولم يلمس الناس حقيقة هذه المعاني وغيرها مِمًّا جاء به الإسلام، وقارنوا بينها وبين ما كانوا عليه من ظلمات وظلم ومفاسد لما أذعنوا وتشربوا الإيمان وتوارثوه جيلاً بعد جيل)[١].

وإلى جانب ذلك فإنَّها امتازت بخصائص فريدة كتب عنها كثيرٌ من الباحثين في اللغات، وكان من أبرز ما استنتجوه الآتي:

أ- أنها اللغة (التامَّة الحروف، الكاملة الألفاظ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشينها نقصانه، ولم يزد فيها شيءٌ فيعيبها زيادته، وإن كان لها فروع أخرى من الحروف فهي راجعة إلى الحروف الأصلية. وسائر اللغات فيها حروف مُوَلَّدة وينقصُ عنها حروف أصيلة)[٢].

=الظاهر في هذه القضية هو وجود حركة مضادة لرسوخ اللغة العربية وتمكينها، وهذه الحركة نالت من اللغة العربية حتى في معاقلها، أمَّا إذا تركت لها قوتها الذاتية فإنها تنتشر وتترسخ في الأفئدة والعقول شأنها في ذلك شأن الإسلام ذاته. (المرجع السابق صادر عن دار النهضة - بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٦ م. وانظر: إبراهيم عبدالله رفيدة: اللغة العربية لغة القرآن والعلم والمسلمين، (من قضايا اللغة العربية المعاصرة): ص ١١٧، ١١٨، (مرجع سابق).

(١) محمد مصطفى بن الحاج: عالميَّة اللغة العربية: ص ٢٥٨، (مرجع سابق).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١/١٤٩، طبعة، ١٣٨٣ هـ-١٩٦٣ م، عن المؤسسة المصرية العامة..، القاهرة، وانظر: نايف معروف: خصائص العربية وطرائق تدريسها: ص ٣٨، ٣٩ الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م، عن دار النفائس - بيروت.

وقد تحدث العقاد عن هذه الخاصيَّة بقوله: (فإذا قيس اللسان العربي بمقاييس علم الألسنة، فليس في اللغات أوفى منه بشروط اللغة في ألفاظها وقواعدها)[1].

ثُمَّ يعلل ذلك بقوله: (ويحق لنا أن نعتبر أنها أوفى اللغات جميعًا بمقياس بسيط واضح لا خلاف عليه وهو مقياس جهاز النطق في الإنسان، فإنَّ اللغة العربية تستخدم هذا الجهاز الإنساني على أتمه وأحسنه، ولاتهمل وظيفة واحدة من وظائفه، كما يحدث ذلك في أكثر الأبجديات اللغوية...)[2].

واعترف بعض المستشرقين بهذه الخصيصة، إذ يقول (رينان): (من أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة... وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أُمَّة من الرُّحَّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها)[3].

ويستمر في وصف خصيصة عميقة تفردت بها لغة القرآن، فيقول: (ولم يعرف لها في كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة، ولانكاد نعلم من شأنها إلاّ فتوحاتها وانتصاراتها التي لاتبارى، ولانعرف شبيهًا بهذه

---

(١) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب: ص ١١، عن دار المعارف – مصر، الطبعة السادسة، (بدون تاريخ)، وانظر: محمد مصطفى بن الحاج عالميَّة اللغة العربية: ص ٢٧٠، (مرجع سابق).

(٢) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب: ص ١١، ١٢، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمد مصطفى الحاج: عالمية اللغة العربيَّة: ص ٢٧٠، (المرجع السابق نفسه).

(٣) نقلاً عن: الحاج: المرجع السابق نفسه: ص ٢٧٤، وانظر: نائف معروف: خصائص العربيَّة وطرائق تدريسها: ص ٤٠، (مرجع سابق).

اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة)[1].

ب - لاتقتصر اللغة العربية على كونها وسيلة تعبير كما تذهب إليه البحوث النظرية في الغرب التي لاتفرق بين لغة وأخرى؛ لأنها كلها وسائل تعبير وتواصل وتفاهم وإنَّما تتميَّز اللغة العربية بأنها ذات مضامين[2] علميَّة ومنهجيَّة وموضوعيَّة وحضارية، وتميَّزت في ذلك كله

---

(١) نقلاً عن: الحاج: المرجع السابق نفسه: ص ٢٧٤، وانظر: نالف معروف: المرجع السابق نفسه: ص ٤٠. ويعد هذا سرٌ اختصت به اللغة العربية مِمَّا جعل الباحثين يجتهدون في أصل نشأة اللغة العربية، وذهب بعضهم إلى أنها لغة توقيفية، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [سورة البقرة: الآية (٣١)]، وقال بعضهم الآخر: إنها اصطلاحية... لزيادة الاطلاع على هذه القضية؛ انظر: ابن فارس: الصاحبي: ص ٦ - ٣١، (مرجع سابق)، وابن جني: الخصائص ٤٤/١ - ٤٧، تحقيق: محمد علي النجار، (بدون تاريخ ولم يذكر الناشر)، وانظر: السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ٨/١ - ٥٥، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، طبعة دار إحياء الكتب العربيَّة (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، بدون تاريخ، وانظر: ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام: ٢٩/١ - ٣٥، (مرجع سابق)، وانظر: محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها: ص ١٠، الطبعة الثانية ١٣٨٠ هـ-١٩٦٠ م، عن المكتب الإسلامي، دمشق، وعددًا آخر من المراجع الحديثة، ونوقشت هذه القضية حتى عند اللغويين في الغرب وأكثروا القول فيها وطال الجدل حولها مِمَّا دعا الجمعية اللغوية الفرنسية إلى اتخاذ قرار بمنع البحث في هذه المسألة في قاعات الجمعية لعدم جدوى البحث فيه ولعقم النظريات المطروحة بصدده حسب زعمهم؛ انظر: نايف معروف: المرجع السابق نفسه: ص ٢٣.

(٢) انظر: ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة.. ص ٧٧ - ٨١، (مرجع سابق)، وانظر: شكري فيصل: قضايا اللغة العربية المعاصرة...، بحث مدرج في: من قضايا اللغة العربية المعاصرة، المرجع السابق نفسه: ص ٣٢.

بالبيان والسهولة والوضوح على الرغم مِمًّا قد يبدو من صعوبة تعلمها في باديء الأمر[1].

ويذكر الباحثون المختصون إنَّ واقعها (منحها نوعًا من التميُّز والتفرد إذ أكسبتها تجربتها الحضارية على مدى قرون ثروة هائلة من البنى. واحتبست تعابيرها في أرحامها قدرات خفيَّة على العطاء وعلى الإيحاء وعلى تنويع التعبير... كما أكسبها انتشارها الواسع في بقاع فسيحة من الأرض وتفاعلها مع جماعات لغويَّة كثيرة ألوانًا من الغنى، تأثرًا وتأثيرًا، فهي إذن ليست... اللغة الأوليَّة البدائية التي تحاول أن تصبو إلى مقاربة الحضارة أو ملاحقتها أو الاندماج فيها... وانَّما هي اللغة ذات التجربة السابقة وما كان لظاهرة ما اجتماعية أو إنسانية أن تقوى على التخلي عن تجاربها السابقة، فهذه التجارب جزءٌ منها)[2].

ومن أعظم تجاربها أنَّها خالطت لغات كثر (فلم تفسد في ألفاظها ولا في اشتقاقاتها، ولا في تراكيبها وأساليبها، أو في بيانها الدقيق المشرق، ولم يتعد تأثيرها بها عددًا محدودًا من الألفاظ التي تعربت استجابة لمتطلبات تطور أنماط الحياة وتنظيمها وازدهار الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والعسكرية والعمرانية في ربوع بلاد المسلمين)[3].

وإذا كان من سنن الله في خلقه أن تتأثر اللغة سلبًا وإيجابًا بواقع الأُمَّة فتعز بعزها وتذل بذلها فإنَّ اللغة العربية خضعت لهذه السنة ردحًا من

---

(١) انظر: جميل عيسى الملائكة: اللغة العربيَّة ومكانتها في الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة: ص ١٢٩، (مرجع سابق)، وانظر: محمد سعيد بن رسلان: فضل العربية: ص ٤٠ - ٤٤، (مرجع سابق).

(٢) شكري فيصل: قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة: ص ٣٢، (المرجع السابق نفسه).

(٣) محمد مصطفى الحاج: عالمية اللغة العربيَّة: ص ٢٥٨، (المرجع السابق نفسه).

الزمن ولكن جذوتها لم تنطفئ، والسر في ذلك ارتباطها بالقرآن الكريم فحفظت بحفظه[1] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2].

وخلاصة القول: إنَّ (اللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميَّزُون)[3]، واللغة العربيَّة شعار الأُمَّة الإسلاميَّة، وهي من أهم وسائل تميُّزها وهو ما أدركته الأُمَّة وسار تاريخها في ضوئه وبهدي منه.

وعن هذا الجانب قال ابن تيمية: (إنَّ الله أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغًا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به؛ لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلاّ بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم، واللسان تقارنه أمور أخرى: من العلوم، والأخلاق، فإنَّ العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله، وفيما يكرهه، فلهذا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين في أقوالهم وأعمالهم، وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة)[4].

---

(١) انظر: الحاج: المرجع السابق نفسه: ص ٢٥٨.

(٢) سورة الحجر: الآية (٩).

(٣) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم..: ص ٢٠٣، تحقيق: محمد حامد فقي، (مرجع سابق).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم..: ص ١٦٢، (المرجع السابق نفسه).

وقال في مكان آخر: (اعلم أنّ اعتياد اللغة: يؤثر في العقل والخلق والدين، تأثيرًا قويًّا بينًا، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأُمَّة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق)[1].

لقد سبق شيخ الإسلام برؤيته هذه علماء اللغات الذين خلصوا إلى القول بأنّ اللغة ليست مجرد أداة للفكر بل هي جزء منه ووسيلة للتميُّز والحفاظ على الذاتية والهويَّة المستقلة عن غيرها[2].

* * *

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٠٧.

(٢) انظر: مازن المبارك: اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي (محاضرات تتناول التعريب في الوطن العربي تدريسًا وتأليفًا ومصطلحًا): ص ٦٣، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - مؤسسة الرسالة.

المطلب الثاني
موقف المستشرقين من اللغة العربيَّة

وإذا كانت اللغة العربية تحتل تلك المكانة في تميز الأُمَّة الإسلاميَّة (التي تناولها البحث في المطلب السابق) فقد أدرك المستشرقون أهميتها ووقفوا على أثرها في وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة من جانب آخر، نقل عن (بوستل) قوله عن اللغة العربية: (... إنَّها تفيد بوصفها لغة عالميَّة في التعامل مع المغاربة والمصريين والسوريين والفرس والأتراك والتتار والهنود، وتحتوي على أدب ثري، ومن يجيدها يستطيع أن يطعن كل أعداء العقيدة النصرانية بسيف الكتاب المقدس، وأن ينقضهم بمعتقداتهم التي يعتقدونها، وعن طريق معرفة لغة واحدة (العربية) يستطيع المرء أن يتعامل مع العالم كله)[1]، ويتباهى (بوستل) أنَّه يقطع العالم الإسلامي من أقصى غربه إلى تخوم الصين دون حاجة إلى مترجم[2]. وما ذلك إلاّ لأنه حذق العربية لغة العالم حينذاك.

ويعترف أغلب المستشرقين بأنَّ القرآن الكريم هو سبب عالميَّة اللغة العربية، وللمثال على ذلك ما قاله (كارل بروكلمان): (بلغت العربيَّة بفضل القرآن من الاتساع مدى لاتكاد تعرفه أيُّ لغة أُخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعًا مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلاتهم)[3].

---

(١) نقلاً عن: محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية..: ص ٣٠، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن: إدوارد سعيد: الاستشراق.. ص ٨١، (مرجع سابق).

(٣) نقلاً عن: محمد مصطفى بن الحاج: عالميَّة اللغة العربية: ص ٢٧٤ (مرجع سابق).

ويقول (برنارد لويس): (وقد وجد الطلبة الإنكليز في الهند لدى دراستهم لغات مسلمي الهند ومدنيتهم، أن أبحاثهم وتنقيباتهم تحتم عليهم دراسة العربية التي هي أساس الثقافة الإسلاميَّة في أيِّ لغة من اللغات)[1].

وانطلاقًا من هذه الحقيقة توافر فئام من المستشرقين على تعلم العربية ودراستها ودراسة علاقتها بالإسلام و (كل ما يتصل بها من قريب أو بعيد، فبحثوا في فقهها، وأصواتها، ولهجاتها، ونحوها، وصرفها، وأصولها، ومعاجمها، وأطوارها، وغزارتها، ومادتها، وفلسفتها، وعلاقاتها باللغات الأخرى، وخاصة اللغات الساميَّة، ومميزاتها وعناصرها، وتاريخها، ونقوشها، وكل ما أنتجته هذه اللغة)[2].

وفيما يأتي ذكر بعض المهتمين بالدراسات اللغويَّة العربية وذكر بعض مؤلفاتهم فيها كنماذج ترد على سبيل المثال:

- (ويهان فاك: العربية (دراسات في اللغة واللهجات والأساليب)... اهتم المؤلف في هذا الكتاب بدراسة العلاقة بين الإسلام واللغة العربية، ودرس خصائصها وارتباطها بالقرآن الكريم، وتطورها بعد وفاة الرسول ﷺ، وحياتها في العهد الأموي، وأطوارها في العهد العباسي... وسيطرتها على العالم الأدبي والعلمي والفكري، ولهجاتها وفصاحتها، وظهور اللغات الدارجة، والعلاقات اللغويَّة في المحيط الإسلامي...، وبداية مرحلتها الحديثة بحملة نابليون،

---

(١) نقلاً عن: إسماعيل أحمد عمايرة: المستشرقون ونظرتهم في نشأة الدراسات اللغويَّة: ص٢٠، (مرجع سابق).

(٢) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق..: ص ١٨٤، (المرجع السابق نفسه).

ومشكلة اللحن وأطوارها، وغيرها من المسائل)[1].

- (إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية... بحث في اللغة العربية ومنزلتها بين اللغات السامية الأخرى، ثُمَّ في اللهجات العربية البائدة واللهجات العربية الباقية، مشيرًا إلى المنهج العلمي لعلماء الاستشراق في دراستهم للغة العربية وما يتعلق بها)[2].
- هنري فليش: العربيَّة الفصحى... درس اللغة العربية بإسهاب... من جوانبها الصوتيَّة والصرفيَّة والاشتقاقيَّة)[3].
- (يوسف جبرا: تاريخ دراسة اللغة العربيَّة بأوروبا، بحث في تاريخ دراسة العربية بأوروبا قديمًا وحديثًا، واهتمام علماء الاستشراق بها ومتعلقاتها)[4].

ومن المستشرقين من توافر على (المعجم العربي كشفاً وتحقيقاً ونشراً، ودراسة)[5]، ومنهم الآتية أسماؤهم:

- (ماثيو لمسدن: نشر القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي.
- إدوارد وليام لين: له مد القاموس، وهو معجم عربي إنجليزي... وقد ضمن مقدمته وصفا لعدد غير قليل من

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٨٤.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٨٤.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٨٤.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ١٨٤.

(٥) أحمد شرقاوي: معجم المعاجم (تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية): ص أ، الطبعة الثانية ١٩٩٣ م، عن دار الغرب الإسلامي – بيروت.

المعاجم العربية القديمة جاء في الإيجاز والإفادة)[1].

- (وليام رايت: له جرزة الحاطب وتحفة الطالب، وهو اسم مجموعة تحتوي على: صفة السرج واللجام لابن دريد، وصفة السحاب والغيث لابن دريد أيضًا، وتلقيب القوافي لابن كيسان)[2].
- (فريتس كرانكو: له بواكير المعاجم العربية حتى عصر الجوهري... ونشر: المأثور فيما اتفق لفظه واختلف معناه)[3].
- (أرثر ج. أربري: نشر تمام الفصيح لابن فارس)[4].

وكل هؤلاء المستشرقين من الإنجليز وغيرهم كثير من مختلف الجنسيات الأوروبية والأمريكية والروسية بذلوا جهودًا كبيرة في خدمة المعجم العربي في مجال التحقيق والترجمة والنشر[5].

ومن المسشرقين من شارك في المجمعات اللغوية العربية في كل من مصر ودمشق وبغداد وغيرها وأسهم بجهوده في خدمة تلك المجامع[6]، وتسللَ بعض المستشرقين في هذه المجمعات لنفث سمومه وقوادحه في

---

(١) أحمد شرقاوي: معجم المعاجم..: ص ب، (المرجع السابق نفسه).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ب.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ب.

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ب.

(٥) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ب، ج، د. وقد أورد أكثر من ثلاثين مستشرقًا من مختلف البلدان الغربية ومؤلفاتهم في المعاجم اللغوية العربية.

(٦) انظر: نذير حمدان: اللغة العربية..: ص ٩٨ - ١٣٤، (مرجع سابق)، وانظر: له أيضًا: مستشرقون (سياسيون، جامعيون، مجمعيون): ص ١٣٧-٢٣١، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، عن مكتبة الصديق - الطائف.

اللغة العربية من خلال دراساته وآرائه التي يسهم بها في أعمال تلك المجمعات وفقًا لقول الشاعر:

.... (وداوني بالتي كانت هي الداءُ)[(١)]

ومهما يكن من جدية هذه الدراسات والبحوث والأعمال التي تصدّى لها أعداد كبيرة من المستشرقين، ومهما يكن لها من إيجابيات فإنَّه قد شاع من بينها شبهات أحاقت باللغة العربية وكادت أن تقتلها بتضافر تلك الدراسات الاستشراقية مع الخطط الاستعمارية والتنصيريَّة والتغريبيَّة[(٢)] التي جندت أفرادًا من المستشرقين لإشاعة تلك الشبهات على أنَّها مِمَّا يعوق تطور اللغة العربية، وبالتالي فإنَّها عوائق في مسيرة العرب الحضاريَّة.

وللمثال على ذلك ما قاله (دوفرين) في تقرير وضعه عام (١٨٨٢ م): (إنَّ أمل التقدم ضعيف في مصر طالما أن العامَّة تتعلم الفصحى العربية)[(٣)]، ولتحقيق تلك السياسات الرامية (لزعزعة مكانة

---

(١) من بيت شعر لأبي نواس في إحدى قصائده المعروفة بالخمريات؛ انظر: ديوانه ص ٧، طبعة دار صادر، بيروت، (بدون تاريخ) قال فيه:

دع عنك لومي فإنَّ اللوم إغراءُ ... وداوني بالتي كانت هي الداءُ

(٢) انظر: لمجموعة باحثين: من قضايا اللغة العربية المعاصرة: ص ٢٩، ٢١، ٢١٧، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٦١، ٢٦٤، (مرجع سابق)، ففيها ما أكد الرباط الوثيق بين أعمال المستشرقين في مسار حركتهم العامَّة تجاه اللغة العربية والإسلام وبين التنصير والاستعمار والتغريب، وانظر: نذير حمدان: مستشرقون... (المرجع السابق نفسه): ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٣) نقلاً عن: محمود محمد شاكر: أباطيل وأسمار..: ص ١٤٧، الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م، عن مطبعة المدني، القاهرة، ولمزيد من معرفة عدد من المستشرقين الذين جندوا لإشاعة تلك الشبهات انظر:

- كارم السيد غنيم: اللغة العربية والصحوة الحديثة: ص ٢٥، (مرجع سابق). =

اللغة العربية ومكانة موروثها الذي يحتفظ بمقومات المجد الأصيل، ويدخر للأجيال صورًا مشرقة من تاريخهم التي يطمع الغربيون في طمسها، وكان من المستحيل التفكير في إحلال أي لغة أجنبيَّة أو تشجيعها ولكنه من المعقول في رأيهم التفكير في اللغات العاميَّة العربية وإعطائها فرصة للظهور على مسرح الحياة الثقافية والفكرية، ومن هذا الأمل في نفوسهم بدأت انطلاقة العاميَّة الأولى)[1]؛ لذلك فُتِحَتْ المدارس المتخصصة المتشعبة عن الدراسات الاستشراقية في أكثر من بلد غربي لدراسة العاميات الدارجة في شعوب العالم الإسلامي بعامة والبلاد العربية بخاصة[2]، (وركزوا برامج تلك المدارس على التفقه في العاميات خاصة واستمروا على هذا الحال حتَّى أصلوا دراستها في نفوس عدد كبير من العرب الذين أخذوا مبدأ الاهتمام بالعاميات على أنَّه ثقافات إقليمية وبدأوا بنشرها في بلادهم على الطريقة والمنهج الذي سارت عليه مدارس الاستشراق سواء بسواء)[3].

وفيما يأتي إيراد لأهم الشبهات ثُمَّ الرد عليها:

١- قصور اللغة العربية عن التطور الحضاري وعجزها العلمي.

٢- صعوبة نطقها وصعوبة كتابتها.

٣- ارتفاع مستواها عن فهم الناس.

= ♦ نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العاميَّة: ص ٥٥- ٧٧، الطبعة الأولى، ١٩٦٤ م، عن دار المعارف، القاهرة.

(١) مرزوق بن صنيتان بن تنباك: الفصحى ونظرية الفكري العامي: ص ٣٠، عن مطابع الفرزدق ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م - الرياض.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣٠.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٣١.

٤- التفاوت فيها بين طريقة النطق وطريقة الكتابة[١].

وحرص المستشرقون القائلون بهذه الشبهات على أن تكون شبهاتهم هذه من المسلمات، ولذلك انتقلوا من مناقشتها في أساسها والبحث العلمي فيها إلى طرح أساليب ووسائل أخرى للخروج بالعربية من تلك الأزمات التي اختلقوها، ومجمل تلك الوسائل والأساليب فيما يأتي:

٢- كتابة اللغة العربية أو العاميَّة بالحرف اللاتيني.

٣- الدعوة إلى العاميَّة، وتقعيدها.

٤- إهمال الإعراب.

٥- الدعوة إلى تطوير اللغة والتصرف فيها[٢].

---

(١) انظر: رمضان عبدالتواب: بحوث ومقالات في اللغة: ص ١٦٦ - ١٨٧، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عن مكتبة الخانجي - القاهرة.

وانظر: أنور الجندي: الإسلام في وجه التغريب (مخططات التبشير والاستشراق): ص ٣٥٥ دار الاعتصام، القاهرة، (بدون تاريخ).

وانظر: نذير حمدان: اللغة العربية (بحوث في الغزو الفكري، المجالات والمواقف): ص ٣٩ - ٥٥، (مرجع سابق).

وانظر: جميل عيسى الملائكة: اللغة العربية ومكانتها في الثقافة العربية الإسلاميَّة (من قضايا اللغة العربية...): ص ١٢٩، (مرجع سابق).

وانظر: محمد خليفة الدناع: العربية الفصحى رباط قومي (من قضايا اللغة العربية): ص ١٦٨، (مرجع سابق).

(٢) انظر: من قضايا اللغة العربية المعاصرة: ص ١٣٠، ١٦٨، ١٨٥، ٢٧٢، (مرجع سابق)، وانظر: نذير حمدان: اللغة العربيَّة..: ص ٧٤ - ٩٧، (مرجع سابق)، وانظر: السيد رزق الطويل: اللسان العربي والإسلام معًا في معركة المواجهة: ص ٤٧، من سلسلة (دعوة الحق)، السنة السادسة، العدد [٦٠]، ربيع الأول ١٤٠٧ هـ، عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

الرد على الشبهة الأولى:

إن رمي اللغة العربية بالقصور وعدم الكفاية العلميَّة تهمة لاتتفق مع حقيقة اللغة العربية؛ لأنَّها لغة حيَّة عمليَّة لها طاقة هائلة على استيعاب المعاني الغزيرة في الكلمات القليلة[1]، يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه عن هذا الجانب في اللغة العربية: (ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولانعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غيرُ نبيٍّ)[2].

وقد أقرت هيئة الأمم المتحدة عالمية اللغة العربية وأدرجتها في اللغات المعتمدة (كلغة سادسة لشعوب الأرض كافة، يتكلمها ما يزيد على (١٨٠) مليون من العرب، ويقدسها المسلمون؛ لأنَّهَا لغة القرآن الكريم ولغة الرسول ﷺ)[3].

ومِمَّا جاء في قرار الجمعيَّة العامَّة للأمم المتحدة الذي اتخذته بالإجماع في دورتها الثامنة والعشرين لسنة (١٩٧٣ م): (إنَّ اللغة العربية أدت دورًا مهمًّا في الحفاظ على حضارة الإنسان وتراثه الثقافي، وفي العمل على نشرهما)[4].

ولئن خرجت اللغة العربية من صراعها مع الاستشراق والاستعمار أو

---

(١) انظر: نايف معروف: خصائص العربية...: ص ٧٤، (مرجع سابق).

(٢) الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر: ص ٤٢، (مرجع سابق).

(٣) انظر: أحمد محمد جمال: تآمر الأعداء على لغة القرآن، (مجلة رابطة العالم الإسلامي، محاضرات موسم ١٣٩٤/٩٣ هـ): ص ٩٨، تصدر عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، وانظر: إسماعيل العرفي: اللغة العربية أم اللغات ولغة البشرية: ص ٢١، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م، عن دار الفكر - دمشق.

(٤) نقلاً عن: أحمد محمد جمال: المرجع السابق نفسه: ص ٩٨.

كادت أن تخرج بهذه النتيجة فإنها في حقيقة الأمر اللغة الأولى ويكفيها شرفًا أنَّ الله اختارها لكلامه المجيد، وما أصدق ما قاله (حافظ إبراهيم) في رده على شبهات المستشرقين وتلاميذهم على لسان اللغة العربية:

وسعت كتاب الله لفظًا وغايةً ... وما ضقتُ عن آيٍ بهِ وعظاتِ
فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحرُ في أحشائه الدر كامنٌ ... فهل سألوا الغوَّاصَ عن صدفاتي؟[(١)]

أمَّا الاعتراف للغة العربيَّة بأنها حافظت على تراث الإنسان وعملت على نشره فإنَّ ذلك جزءٌ من الحقيقة، وجزؤها الآخر هو ما أسهمت به اللغة العربيَّة من صنع الحضارة الحديثة في مختلف مجالاتها، وما أضافت من ابتكارات علميَّة ومنهجيَّة إضافة لتلك الوحدة السلميَّة الفذَّة بين شعوب المعمورة التي عبَّرت عنها المستشرقة (زيغريد هونكة) بقولها: (إنَّ كل الشعوب التي حكمها العرب اتحدت بفضل اللغة العربيَّة والدين الإسلامي، بتأثير قوة الشخصية العربيَّة من ناحية، وتأثير الروح الإسلاميَّة الفذَّة من ناحية أخرى، في وحدة ثقافية ذات تماسك عظيم)[(٢)].

وأمَّا تخلف الأُمَّة الإسلاميَّة عن ركب الأمم الأخرى في ميادين الصناعة والعلوم فليس مرجعه إلى قصور في اللغة العربيَّة وعدم كفايتها

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم (ضبط وتصحيح وشرح وترتيب): أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ١/٢٥٣، ٢٥٤، عن دار الجيل – بيروت، (بدون تاريخ).

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب: إبراهيم بيضون وآخر: ص ١٣، ١٤، (مرجع سابق).

العلميَّة كما يدعي خصومها من المستشرقين وغيرهم؛ بل يرجع ذلك لعوامل كثيرة... منها:

أولاً: وهن الأُمَّة... كما لحظ ذلك ابن حزم بقوله: (إنَّ اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنَّما يفيد لغة الأُمَّة وعلومها وأخبارها قوة دولتهم ونشاط أهلها وفراغهم، وأمَّا من تلفت دولتهم وغلب عليها عدوها واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمونٌ منهم موت الخواطر، وربَّما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم، وبيود علومهم، وهذا موجود بالمشاهدة معروف بالعقل ضرورة)[1].

وقال أحد المفكرين المعاصرين في هذا المعنى: (الأُمَّة العزيزة تعتزُّ بلغتها وتحرص على استقلالها كما تحرص على استقلالها العسكري والاقتصادي سواء، وتحترم قوانينها اللغويَّة وتتمسك بها)[2].

ثانياً: ما قام به الاستعمار في سبيل الحيلولة دون ممارسة اللغة العربيَّة وتغليب لغة المحتل عليها وتشجيع اللهجات العاميَّة، حيث رسم دهاقنة الاستعمار من أمثال (دنلوب)[3] سياسة التعليم على أساس

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/٣٢، (مرجع سابق).

(٢) محمد بن سعيد رسلان: فضل العربيَّة ووجوب تعلمها على المسلمين: ص ٢٨، (مرجع سابق).

(٣) لمزيد من الاطلاع على هندسة (دنلوب) الماكرة وآثارها على اللغة العربيَّة والدين الإسلامي، راجع: محمود محمد شاكر: أباطيل وأسمار: ١٦٦، ١٧١، ٢٢٧، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، (مرجع سابق)، وانظر: محمد قطب: واقعنا المعاصر: ص ٢١٧ – ٢٢٢، (مرجع سابق). وانظر: نايف بن ثنيان بن محمد آل=

الحيلولة بين اللغة العربيَّة وبين أن تصبح الأداة الثقافية لأبناء الأُمَّة الإسلاميَّة ولغة العلوم والتقنية؛ (فحلت مصطلحات أجنبية عن دينها ولغتها في جوانب: الحكم، والقضاء، والتعليم، ولغة الحياة العامَّة والسلوك، وغيرها متابعة بذلك سنَّة الإبعاد عن كتب الشريعة وفقهها بتحنيط لغتها. وبذلك يستحكم الانفصام بين المسلم وتراثه، ليكون رسمًا لا معنى له، وصورة لا حقيقة له)[1].

ولعل من الشواهد المعاصرة على صلاحيَّة اللغة العربيَّة لتدريس كافة العلوم؛ ما يحدث في الجامعات والمعاهد التي اتخذتها أداةً للعلم والمعرفة وأفادت منها، فعلى سبيل المثال مضى على تأسيس كلية الطب في دمشق ما يزيد على سبعين عاماً وأساتذتها يدرسون الطب باللغة العربيَّة[2]، وقد (أغنوا خزانة الكتب العربيَّة بما لايقل عن ثمانين مجلداً في فروع الطب المختلفة)[3].

كما أن كثيرًا من الأساتذة الذين جربوا التدريس بالعربيَّة لا في دمشق وحدها وإنَّما في القاهرة والرياض وبغداد لم يجدوا عائقًا يذكر

=سعود: المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، مع دراسة تطبيقية على دول الخليج العربي (دول مجلس التعاون)، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، وأساسها رسالة ماجستير في الثقافة الإسلاميَّة نوقشت عام ١٤١١ هـ في كلية الشريعة بالرياض: ص ١٨٦ - ١٩٧.

(١) بكر أبو زيد: فقه النوازل: ص ١٠٢، ١٠٣، (من رسالة بعنوان: المواضعة في الاصطلاح على خلاف الشريعة وأوضح اللغى؛ دراسة ونقد)، (مرجع سابق).

(٢) انظر: مازن المبارك: اللغة العربيَّة في التعليم العالي والبحث العلمي: ص ٤٣، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٤٣، ٤٤.

من اللغة ذاتها، وإذا كانوا قد اصطدموا بصعوبات فهي خارج الإطار اللغوي[١]، بل (استطاع عدد من المخلصين في هذا العصر أن يثبتوا قدرة اللغة العربيَّة على استيعاب العلوم، فوضعوا عددًا من الكتب العلميَّة تناولت شتى الموضوعات، وقدمت أمثلة لقدرة اللغة العربيَّة على التعبير عن دقائق العلوم)[٢].

وعلى الرغم من الجهود المبذولة في هذا المضمار فإنَّه ينبغي أن تتسم حركة التعريب بالصفة الشموليَّة فلاتقتصر على تعريب الحرف وتنسى مرتكز التعريب وهي العقيدة الإسلاميَّة وليست القوميَّة العربيَّة[٣] حيث إنَّ العقيدة الإسلاميَّة هي السر في انتشار اللغة العربيَّة وسيادتها، ومن جهة أخرى فإنَّه ينبغي أيضًا الاهتمام بالتعريب كأسلوب حياة ووسيلة

---

(١) انظر: أحمد مطلوب: دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات: ص ٢٥ - ٥٣، عن دار البحوث العلمية، الكويت ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م، وانظر: نائف معروف: خصائص العربيَّة..: ص ٨٠، ٨١، (مرجع سابق).

(٢) مازن المبارك: المرجع السابق نفسه: ص ٤٧، وانظر: شحادة الخوري: دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب: ص ١٨٥ - ١٩٣ الطبعة الأولى ١٩٨٩ م، عن دار طلاس، دمشق، فقد أورد في الصفحات المشار إليها آنفًا ثلاث تجارب تاريخيَّة أثبتت قدرة اللغة العربيَّة على استيعاب مسيرة الإنسانية الحضارية؛ وكانت التجربة الأولى في القرن الثاني للهجرة...، أمَّا التجربتان الأخريان فكانتا في العصر الحديث إحداهما في مصر وبيروت، إذ بدأ التعليم الطبي فيهما باللغة العربيَّة، والثانية بدأت في دمشق، وهي المشار إليها أعلاه.

(٣) مِمَّا يؤكد العلاقة الفكريَّة بين اللغة العربيَّة والإسلام ذلك التلازم بينها وبين خطاب الإسلام وانتشارها بانتشاره وضعفها بضعف أمته، ويؤكد هذه الحقيقة من جهة أخرى ما وُجِّه من نقد حاد للقومية العربيَّة عندما (أغفل الدَّاعون إلى إحياء القوميَّة العربيَّة جانب اللغة). محمد خليفة الدناع: العربيَّة الفصحى رباط قومي (من قضايا اللغة العربيَّة): ص ١٦٥، (مرجع سابق).

تميُّز يحفظ للأُمَّة شخصيتها وهويتها الذَّاتيَّة في كافَّة ميادين الحياة.

الرد على الشبهة الثانية:

إنَّ صعوبة النطق وصعوبة الكتابة في اللغة العربيَّة شبهة فيها كثيرٌ من التعسف؛ لأنَّ قواعد النحو والصرف وطريقة كتابة الحرف العربي وضبطه بالشكل والإعجام من ناحية[1]، وتحقيقه في مجال الأداء الصوتي[2] من ناحية أخرى، خُدِمَ ذلك كله بعبقرية وبراعة أظهرت تميُّز اللغة العربيَّة على سائر اللغات، وحدَّدَت دلالة الألفاظ على المعاني بغاية الدقَّة، (فقد عكف علماء الأُمَّة على اللغة العربيَّة وعلومها، واستنبطوا قواعدها، ووضعوا أصول نحوها وصرفها حتى تمت الضوابط والمقاييس في غاية الوضوح والبيان مِمَّا جعلها لغةً علميَّة مكتسبة يسهل حذقها وتعلمها على أبناء اللغة العربيَّة الناشئين)[3]، (وعلى أبناء غير العربيَّة الذين دخلوا دين الإسلام أفواجًا، فانتشرت اللغة بينهم كما لم تنتشر لغة من قبل سرعة ويسرا. ولم يكن أبو الأسود الدؤلي، والخليل ابن أحمد، وسيبويه، والمبرد، وأبو علي بن فارس، والثعالبي، وابن سيده، والزبيدي... وغيرهم كثير علماء في اللغة يتشدقون في المجتمعات بعلمهم، أو سعيًا لرزق صغير أو طلب لمنصب... بل كان كل منهم يهب حياته في خدمة علم من علوم العربيَّة يتقرب به إلى الله عزوجل،

(١) انظر: نذير حمدان: اللغة العربيَّة: ص ٤٤، ٤٥، (مرجع سابق).

(٢) انظر: محمد مصطفى بن الحاج: عالمية اللغة العربيَّة، (من قضايا اللغة العربيَّة)..: ص ٢١٧ (مرجع سابق).

(٣) انظر: صلاح عبدالمقصود وحسن علي ربا: لغة القرآن بين مكر الأعداء... وحرص الأبناء؛ تحقيق: نشر في مجلَّة الأُمَّة (مرجع سابق)، العدد [٤٣]، رجب ١٤٠٤هـ: ص ٥٩ تحت عنوان: (مجمع اللغة العربيَّة لماذا ؟).

وهذه غايتهم الأولى ! فدانت لهم العربيَّة وذلل لهم علمها)[1].

وبالنظر إلى علماء التجويد فإنَّهم كما قال أحد الباحثين: (حققوا في مجال الأداء الصوتي القرآني ظاهرة نادرة الحدوث في أيِّ لغة من لغات العالم، وإليهم يرجع الفضل في حفظ النطق العربي الفصيح سالماً - إلى حد بعيد - من تأثيرات التطور اللغوي)[2].

أمَّا صعوبة التعلم وتدريب اللسان حتى يلين لقواعد اللغة وتصاريفها فإنَّ الصعوبة محدودة وليست عائقاً لمن أراد التعلم؛ ثُمَّ إنَّ الصعوبة أمرٌ نسبي يختلف من شخص لآخر وتحكمه ظروف عدّة منها ما يعود إلى المتعلم ذاته، ومنها ما يعود لغيره من معلم أو منهج تعليم[3].

الرد على الشبهة الثالثة:

أمَّا ارتفاع اللغة العربيَّة عن مستوى فهم الناس فهذه شبهة مردودة من عدّة أوجه، أهمها الآتي:

أ - اتصال العربيَّة بالطبيعة، فقد توصَّلَ علماءُ اللغة العربيَّة إلى

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٥٩.

(٢) محمد مصطفى بن الحاج: عالمية اللغة العربيَّة: ص ٢٧١، (مرجع سابق).

(٣) انظر: رمضان عبدالتواب: بحوث ومقالات في اللغة: ص ١٦٧ - ١٧٠، (مرجع سابق)، ذكر المؤلف أوجه الصعوبة في تعليم اللغة العربيَّة وأكد بأنّ الصعوبة تعود لعرض النحويين لقواعد اللغة وما وقع في ذلك من خلط بين الواقع اللغوي والمنطق العقلي وما ترتب على ذلك من محاكات لفظية وجدال وخلافات امتلأت بها كتب قواعد اللغة العربيَّة. والحقيقة أن القواعد الأساسية لنحو اللغة العربيَّة ميسورة وسهلة، وهذا ما شهد به المستشرق (مارس) في مجلة التعليم الفرنسية ١٩٣٠ - ١٩٣١ م، إذ قال: (من السهل تعلم أصول اللغة العربيَّة فقواعدها التي تظهر معقدة لأول نظرة هي قياسية ومضبوطة بشكل عجيب لايكاد يصدق فذو الذهن المتوسط يستطيع تحصيلها بأشهر قليلة وبجهد معتدل). نقلاً عن: نايف معروف: خصائص العربيَّة: ص ٤٠، ٤١، (مرجع سابق).

القول: (بأنَّ أصولها الثنائية تحاكي في الغالب كما هو الحال في بعض اللغات الأُخرى أصوات الطبيعة بما فيها من جماد وحيوان وإنسان بدائي، ومن هنا كانت بعض كلمات أمثال: خرير الماء، وهبوب الرياح، وهدير العاصفة، ومواءُ الهر، وصهيل الجواد، ونباح الكلب، ورغاءُ الجمل)[١]، وأمثالها انعكاسًا للطبيعة ومنبثقة عنها.

ب - اتصالها المحكم بالمجتمع: (ذلك أن العرب عاشوا أسرًا محكمة الأواصر، تجتمع في أفخاذ وبطون وعشائر وقبائل، تغوص عمقًا في النسب الصريح وتنداح اتساعًا بالتزاوج والتوالد، وهي في كل حال متماسكة يشد بعضها بعضًا... وعلى صورة هذا المجتمع ومثاله كان كلامهم وجرى لسانهم: الألفاظ تتوالد وبينها آصرة القربى، فالأصل هو المصدر مثل: (عِلْم)، ومنه الماضي المجرد: عَلِمَ، ومنه اسم الفاعل: عالم، واسم المفعول: معلوم، والصفة المشبهة: عليم، ووزن المبالغة: علامة، واسم التفضيل: أعلم. ومن فعل (جمع) يؤخذ اسما الزمان والمكان: مَجْمَعَ ومن فعل (فتح) يؤخذ اسم الآلة: مفتاح... وجميع هذه المشتقات متفقة في حروفها الأصلية وترتيبها ومعناها الأصلي...)[٢].

إذن فاللغة العربيَّة مطبوعة وتعبر عن الفطرة وتتفق وحقائق الأشياء ولها جرسها الشاعري الجميل وهي سهلة التعلم والتعليم تامَّة في ألفاظها

---

(١) شحادة الخوري: دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب: ص ١٤٤، (مرجع سابق). وانظر: المعجم العربي الأساسي الصادر عن المنظمة العربيَّة للتربية والثقافة والعلوم (١٩٨٩ م) توزيع (لاروس): ص ١٤.

(٢) شحادة الخوري: المرجع السابق نفسه: ص ١٤٤، وانظر: المعجم العربي الأساسي: ص ١٤، (المرجع السابق نفسه).

كاملة في حروفها، وكما قال ابن خلدون فهي: (أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد)[1].

الرد على الشبهة الرابعة:

أمَّا التفاوت بين النطق وطريقة الكتابة فإنَّه موجود في سائر اللغات الأخرى وواسع فيها، واللغة الإنجليزيَّة وهي تتسنم المركز الأول في سلم اللغات العالميَّة في العصر الراهن فيها ما يزيد على (٢٠٠) أصل لغوي شاذ[2]، في حين أنَّ التفاوت بين النطق والكتابة في اللغة العربيَّة محدود في كلمات تعد على أصابع اليد الواحدة مثل (هذا، لكن، داود، عمرو، اللام الشمسية)[3]، ولايعد هذا التفاوت عيبًا ولاسيما أنَّه مسموع عن العرب يحفظ ولايقاس عليه[4].

وينبغي أن يذكر أنَّ ما يؤخذ على اللغة العربيَّة - في هذا الصدد وغيره - هو في واقع الأمر من مزاياها، فمثلاً مثنى الكلمة العربيَّة يختزل في كلمة واحدة مثل رجل مثناها: رجلان، في حين يكتب في اللغات الأخرى كلمتين[5].

خلاصة القول: إنَّ هذه الشبهات التي أظهرها بعض المستشرقين ونظَّروا لها في دراساتهم اللغويَّة بدعم من الدوائر المعادية للإسلام،

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ٥٤٦، (مرجع سابق)، وانظر: نايف معروف: خصائص العربيَّة: ص ٣٨، (مرجع سابق).

(٢) انظر: نذير حمدان: اللغة العربيَّة: ص ٤٢، (مرجع سابق). وانظر: رمضان عبدالتواب: بحوث ومقالات في اللغة: ص ١٦٧، (مرجع سابق).

(٣) انظر: نذير حمدان: المرجع السابق نفسه: ص ٤١.

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٢.

(٥) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٣.

وبخاصة الاستعمار والصهيونية وقبلهما التنصير، لاترتكز على أساس ولايوجد لها مبرر من حيث منطلق الشبهة في أساسها، ولذلك فإنَّ مارتبوا عليها من حلول تمثلت في الدعوة إلى الكتابة بالحرف اللاتيني والعاميَّة... وغيرهما مِمَّا سبق ذكره كل ذلك يسقط بسقوط شبهاتهم، ويكفي هنا الإلماح لأبرز الأهداف من تلك الحلول فيما يأتي:

١ - إهمال القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف لغة وأصلاً وتشريعًا[١].

٢ - هجر لتراث المسلمين واجتثاث لوجودهم الفكري والثقافي[٢].

ذلك أنَّ المستشرقين العاملين في خدمة الدوائر المعاديَّة للأُمَّة الإسلاميَّة أدركوا (قوة ارتباطها بالدين والثقافة الإسلاميَّة...)[٣]، وأنها من أقوى أسباب الوحدة الإسلاميَّة، وهو ما عبَّرَ عنه المستشرق الإنجليزي (جيب) بقوله: (إنَّ من أهم مظاهرها الحروف العربيَّة التي تستعمل في سائر العالم الإسلامي واللغة العربيَّة التي هي لغته الثقافية الوحيدة، والاشتراك في الكلمات والاصطلاحات العربيَّة الأصل)[٤]، وعملوا من أجل ذلك على إثارة الشبهات في حياض اللغة العربيَّة ودعوا

---

(١) انظر: نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامّية وآثارها في مصر: ص ٢٠٣، (مرجع سابق)، إذ تقول: (يريد أن يباعد بيننا وبين القرآن ويحرمنا من تلك النعمة التي خصنا الله بها، وهي معرفتنا للغته والقواعد التي عليها) في سياق كلامها عن دعوة المستشرقين للعاميَّة في مصر وترك الفصحى متذرعين بصعوبتها.

(٢) انظر: نذير حمدان: اللغة العربيَّة...: ص ٧٨، ٧٩، (مرجع سابق).

(٣) انظر: مرزوق بن صنيتان بن تنباك: الفصحى ونظرية الفكر العامي: ص ٢٩، (مرجع سابق).

(٤) أين يتجه الإسلام: ص ٢٠، نقلاً عن: السيد الطويل: اللسان العربي والإسلام...: ص ١٠٢، (مرجع سابق).

إلى الكتابة بالحرف اللاتيني حينا وإلى العاميَّة حينا آخر، أو الجمع بينهما أو تطوير اللغة سواء بإهمال الإعراب، أو التصرف فيها وتطويرها على نحو مِمَّا حدث للغة اللاتينيَّة، وذلك كله يهدف لما سبق ذكره.

وقد نبه الرافعي إلى حملة الاستعمار على اللغة العربيَّة بقوله: (لاجرم كانت لغة الأُمَّة هي الهدف الأول للمستعمرين؛ فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلاَّ من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضية ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر؛ حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة ونشأ الثاني على أخرى، والثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء)[(١)].

ومِمَّا يؤكد اضطلاع الاستشراق بالأهداف الاستعمارية في إطار اللغة العربيَّة وإسهام المستشرقين فيما فرضه الاستعمار م[illegible]خطوات مضللة هدمت اللغة العربيَّة وعملت على انحسارها من أرجاء العالم واستبدلتها بالحروف اللاتينية أو اللغات واللهجات المحليَّة ما أبداه المستشرق الألماني (كامفماير) من سرور حينما رأى غياب السمت الإسلامي، وذهاب اللغة العربيَّة والحرف العربي من تركيا فقال في شماتة واضحة[(٢)]: (إنَّ قراءة القرآن العربي، وكتب الشريعة الإسلاميَّة قد أصبحت الآن مستحيلة بعد استبدال الحروف اللاتينيَّة بالحروف العربيَّة)[(٣)].

* * *

---

(١) وحي القلم ٣/٣٣، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، (بدون تاريخ).

(٢) انظر: السيد رزق الطويل: اللسان العربي والإسلام..: ص ١٠٣، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٣.

المبحث الثاني

تاريخ الإسلام وحضارته

وموقف المستشرقين منه

ويشتمل على مطلبين؛ هما:

المطلب الأول: تاريخ الإسلام وحضارته.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين منه.

المطلب الأول

تاريخ الإسلام وحضارته

منذُ شرع الرسول ﷺ في بناء الأُمَّة الإسلاميَّة، وتكوين حقيقتها المثلى، ونموذجها الفريد على أساس من عقيدة التوحيد وشريعة الله، والمنهج الإلهي للحياة بما يتسم به من مفاهيم متميِّزة، وقيم عالية، منذُ بدء انبثاق هذا النور في بطحاء مكة مهبط الوحي نشأ للإسلام والمسلمين تاريخ مميز بالغ التفرد يختلف عمًّا ظهر في حياة البشر من تواريخ في النشوء والتطور، وولدت في تلك الفترة كذلك حضارة جاءت على غير مثال سابق؛ من حيث أصالة الأُسس وقوة الجذور، وروح الحياة المتجددة ذات التأثير الفاعل في حياة البشرية وحركتها وآمالها وأهدافها، لقد بدأ هذا التاريخ، ونشأت هذه الحضارة في دنيا الواقع، وبصورة فعليَّة ملموسة، وبوقائع ذات أبعاد ضخمة في حاضر الإسلام ومستقبله منذُ قدم الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة وبدأت الجهود تبذل بقوة ومثابرة وصبر على تكوين هذه الأُمَّة الإسلاميَّة ذات التميُّز الفريد في مسارها التاريخي، وبنائها الحضاري، وكل ما يؤكد ذاتيتها وشخصيتها وهويتها من تفرد واستقلال عن سواها من الأمم الأُخرى.

ولمزيد الإيضاح يتناول هذا المطلب الآتي:

٢- الالتزام بالإسلام والاعتزاز به.

٣- الوعي الثقافي الشامل.

٤- التعاون والتكامل.

٥- الدعوة والجهاد.

١ - الالتزام بالإسلام والاعتزاز به:

يعد الالتزام بالإسلام والاعتزاز به من أهم وسائل تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة؛ فإنَّ ذلك من أظهر ما يدعو لتميزها، فالقدوة الصالحة تحقق هذا التميُّز من خلال الالتزام بالإسلام والاعتزاز به، انطلاقًا من جعل مفاهيم الأُمَّة ومناهجها ومواقفها أساسًا لهذا الاعتزاز، وعناية به، وحرصًا عليه، وهذا ما طبقه الرسول ﷺ، وسار عليه أصحابه والتابعون لهم بإحسان؛ فقد كان الرسول ﷺ يحرص على أن تكون الأُمَّة الإسلاميَّة ذات تميُّز في التزامها، بما يؤكد ذاتيتها، كما تدل على ذلك نماذج كثيرة في حياة المسلمين؛ تتضح في الآتي:

أ) - في المفاهيم.

ب) - في المناهج.

جـ) - في المواقف.

أ) - أمَّا في المفاهيم فإنَّ النماذج على ذلك في حياة الأُمَّة كثيرة جدًّا، منها تلك الحقبة التي كان الرسول ﷺ فيها بين ظهراني الأمة أو الحقب التي تلت ذلك، فقد جاء الإسلام و (العرب على إرث في جاهليتها من إرث آبائهم في لغاتهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت... فكان مِمَّا جاء في الإسلام: ذكر المؤمن والمسلم والكافر، وأنَّ العرب إنَّما عرفت المؤمنٍ من الأمان والإيمان وهو التصديق، ثُمَّ زادت الشريعة شرائط، وأوصافًا بها سمَّى المؤمن بالإطلاق مؤمنًا، وكذلك الإسلام والمسلم، إنَّما عرفت منه إسلام الشيء، ثُمَّ جاء في الشرع من أوصافه ما جاء، وكذلك كانت لاتعرف من الكفر إلا الغطاء والستر.

فأمَّا المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع، ولم يعرفوا في الفسق إلاَّ قولهم: (فسقت الرطبة) إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأنَّ الفسق: الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جَلَّ ثناؤُه.

ومِمَّا جاء في الشرع: الصلاة وأصله في لغتهم الدعاء، وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود، وإن لم يكن على هذه الهيئة (كما بينه الرسول ﷺ وطبقه وأمر أمته أن تفعل فيه كفعله)... والذي عرفوه منه... (طأطأ وانحنى)، وهذا وإن كان كذا فإن العرب لم تعرفه بمثل ما أتت به الشريعة من الأعداد، والمواقيت، والتحريم للصلاة، والتحليل منها.

وكذلك الصيام: وأصله عندهم الإمساك... ثُمَّ زادت الشريعة النيَّة، وحظرت الأكل والمباشرة وغير ذلك من شرائع الصوم.

وكذلك الحج لم يكن عندهم غير القصد، وسبر الجراح...، ثُمَّ زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره.

وكذلك الزكاة، لم تكن العرب تعرفها إلاَّ من ناحية النماء، وزاد الشرع ما زاده...، وعلى هذا سائر (أمور) العمرة والجهاد، وسائر أبواب الفقه)[1].

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس: الصاحبي (في فقه اللغة العربيَّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها): ص ٧٩، ٨٠، ٨١، تحقيق: عمر فاروق الطبّاع، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٣ م، عن مكتبة المعارف - بيروت، وانظر: السيوطي: المزهر: ٢٩٤/١، ٣٠٣، (مرجع سابق)، وانظر: أبو عبدالله الخوارزمي: مفاتيح العلوم حول أهميته المصطلح: ص ١٣ - ١٥، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م، عن دار الكتاب العربي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، وانظر: مطلب مدلول الأُمَّة في القرآن الكريم: ص ٧٧، (البحث نفسه).

يتضح من هذا أنّ الإسلام رسَّخ مفاهيم وحدَّد مصطلحات في مجال العقيدة والعبادة والشعائر الأخرى، وما يتصل بذلك من مفاهيم ومصطلحات في مجال المعاملات وسائر العلاقات والسلوك والأخلاق، وكل ذلك يرتكز على عقيدة التوحيد ويهدف إلى إخلاص العبادة لله، وهو مع ذلك من وسائل تميزُ الأُمَّة الإسلاميَّة[1].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رؤية شاملة فيما يتعلق بمفاهيم الإسلام سواء في مجال العقيدة أو العبادة أو غيرهما مِمَّا يتصل بحياة الأُمَّة، وما كان منها قد حدده الرسول ﷺ، وما ترك أمره للأُمَّة؛ فقام الصحابة الكرام بتحديد بعضه، وتُرِكَ بعضُه الآخر للأُمَّة الإسلاميَّة عبر تاريخها.

وعن ذلك قال: (الأسماء التي علق الله بها الأحكام في الكتاب والسنّة منها: ما عرف حده ومسماه بالشرع، فقد بينه الله ورسوله: كاسم الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والإيمان، والكفر، والنفاق، ومنه ما يعرف حده باللغة: كالشمس والقمر، والسماء والأرض، والبر، والبحر، ومنه ما يرجع حده إلى عادة الناس وعرفهم فيتنوع بحسب عاداتهم، كاسم البيع، والنكاح، والقبض، والدرهم، والدينار، ونحو ذلك من الأسماء التي لم يحدها الشارع بحد، ولا لها حد واحد يشترك فيه جميع أهل اللغة بل يختلف قدره وصفته باختلاف عادات الناس؛ فما كان من النوع الأول فقد بينه الله ورسوله، وما كان من الثاني والثالث فالصحابة والتابعون، المخاطبون بالكتاب والسنة، قد عرفوا المراد به، لمعرفتهم بمسماه المحدود في اللغة أو المطلق في عرف الناس وعاداتهم

---

(١) انظر: بكر بن عبدالله أبو زيد: فقه النوازل: ص ١٦١ – ١٩٦، (مرجع سابق).

من غير حدٍ شرعي ولا لغوي، وبهذا يحصل التفقه في الكتاب والسنة...)[1].

إنَّ هذه الرؤية لشيخ الإسلام إزاء مفاهيم الأُمَّة الإسلاميَّة تؤكد أصالة تلك المفاهيم وارتكازها على الحق، وأثرها في تحقيق تميُّز الأُمَّة، وهذا واضح في قوله: (فالصحابة كانوا يعلمون ماجاء به الرسول... وبيان ذلك بقياس صحيح أحق وأحسن بيانًا من مقاييس الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[2]، أخبر سبحانه أنَّ الكفار لايأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلا جاءه الله بالحق، وجاءه من البيان والدليل، وضرب المثل بما هو أحسن تفسيرًا وكشفًا وإيضاحًا للحق من قياسهم)[3].

أمَّا عن أثر المفاهيم في تميُّز الأُمَّة فيشير إليها بقوله: (ولا ريب أن الألفاظ في المخاطبات تكون بحسب الحاجات كالسلاح في المحاربات، فإذا كان عدو المسلمين - في تحصنهم وتسلحهم - على صفة غير الصفة التي كان عليها فارس والروم: كان جهادهم بحسب ما توجهه الشريعة، التي مبناها على تحري ما هو لله أطوع وللعبد أنفع، وهو الأصلح في الدنيا والآخرة)[4].

وإذا كانت مفاهيم الأُمَّة الإسلاميَّة تنبثق من عقيدة التوحيد وتلتزم

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٣٥،٢٣٦/١٩، (مرجع سابق). وانظر: محمد بن عمر بن سالم بازمول: الحقيقة الشرعية في تفسير القرآن العظيم والسنة النبوية: ص ١٣ - ٣٢، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، عن دار الهجرة... الرياض.

(٢) سورة الفرقان: الآية (٣٣).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠٦/١٢، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ١٠٧/١٢.

بشريعة الإسلام وبسنة المصطفى ﷺ وفهم الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من سلف الأُمَّة الصالح، وهي بذلك وسيلة من وسائل تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة في تاريخها كلِّه، فإنَّ الإسلام أكد على أهميَّة سلامة هذه المفاهيم من اللبس والاختلاط في معناها بما قد يحمل معنى فاسداً أو يكون وسيلة إلى محرم[1]، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْ ﴾[2]، حيث نهى - عزوجل - عن استخدام لفظ (راعنا)، التي يقصد بها في الأصل ما تعنيه كلمة («راعيت الأمر»: نظرت إلام يصير، ورعيت النجوم: رقبتها)[3]، وكان سبب النهي عن استخدامها اختلاط معناها بما يدل عليه لفظ «رعن» من (هوج واضطراب)[4]؛ ولأنَّها (كلمة كانت اليهود تتساب بها وهو من الأرعن؛ قرأها «راعنًا» منونة فتأويلها: لاتقولوا حمقاً من القول؛... لأنه يكون كلاماً أرعن: أي مضطربًا أهوج)[5].

يقول ابن قيم الجوزية في تفسيرها: (نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم، فإنهم كانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويقصدون بها السب، يقصدون فعلا من الرعونة، فنُهيَ المسلمون عن قولها سداً لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي ﷺ تشبهاً

---

(١) انظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن ١/١٢٠، (مرجع سابق).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٠٤).

(٣) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة (رعى)، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: مادة (رعن)، (مرجع سابق).

(٥) المرجع السابق نفسه: مادة (رعن).

بالمسلمين يقصدون بها غير ما قصده المسلمون)[١].

إنَّ هذا الحدث التاريخي يكشف عن أهميَّة المفاهيم كوسائل ينبغي على الأُمَّة الإسلاميَّة أن تدرك خطورتها من ناحيتين؛ أولهما: باعتبارها وسيلة يستخدمها أعداء الأُمَّة في الكيد لها ويربطونها بمقاصدهم الشريرة ولو على الصعيد النفسي على أقل تقدير، وأخراهما: باعتبارها وسيلة من وسائل تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، ويتضح هذا الأمر بجلاء إذا أُنْعِمَ النظرُ فيما جاء قبل تلك الآية وماجاء بعدها، فالآيات السابقة كانت تضع (المسلمين وجهًا لوجه أمام الهدف الحقيقي لأهل الكتاب من اليهود والنصارى... إنَّه تحويل المسلمين عن دينهم إلى دين أهل الكتاب ولن يرضوا عن النبي ﷺ حتى يتبع ملتهم، وإلا فهي الحرب والكيد والدس إلى النهاية، وهذه هي حقيقة المعركة التي تكمن وراء الأباطيل والأضاليل، وتتخفى خلف الحجج والأسباب المقنعة)[٢].

وتأتي الآيات بعدها فتبين ما خصَّ الله به الأُمَّة الإسلاميَّة من الفضل والرحمة، وترسخ اليقين في الله في نفوس المسلمين، وأنَّ له ملك السموات والأرض وهو وليهم ونصيرهم، وذلك تعليلاً - والله أعلم - لما حدث من نسخ سواء في الآيات القرآنية أو الأحكام والشعائر الدينيَّة، وبخاصة حادثة تحويل القبلة التي اهتبل اليهود فرصتها للتشكيك في عقيدة المسلمين وتابعهم المشركون وسائر أهل الكتاب، وجاءت الآيات - المشار إليها - لتحذر المسلمين مِمَّا وقع فيه اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام من مُسَاءلة أدت بهم إلى الجحود والانحراف عن حقيقة التميُّز الذي ألزمهم

---

(١) بدائع التفسير ١/٣٣٣، (مرجع سابق).

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/١٠٠، (مرجع سابق).

الله به، وأنَّهم إذ لم يحققوه وسلبهم الله إياه وسلب غيرهم من أهل الكتاب والمشركين، واختار له المسلمين ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾[1]، طفحت نفوس كثير من أهل الكتاب بالحسد الذي تحول إلى إرادة وعمل لصرف المسلمين عن دينهم إلى الكفر، كما جاء ذلك في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾[2]، ومِمَّا يلحظ في كثير من آيات الذكر الحكيم أنَّها: تجمع (بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر... وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قدم سواء من هذه الناحية، وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغن، ولايود لهم الخير، وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين، هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن، ويحبوهم بهذه النعمة، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض، وهي الأمانة الكبرى في الوجود... وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة، وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه، وفي هذا التلميح مايستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، وفي التقرير الذي سبقه عمّا يضمره الذين كفروا للذين آمنوا مايستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد، وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها - ويقودها - اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين...)[3].

ومِمَّا ينبغي ذكره في سياق الالتزام بالإسلام والاعتزاز به في نطاق

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٦).

(٢) سورة النساء: الآية (٨٩).

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/١٠١، ١٠٢، (مرجع سابق).

المفاهيم، أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة تعي ما كان منها موروثًا بشريًا عامًّا تأخذ به أيُّ أُمَّة من الأمم، فهي بقدر حرصها على تأصيل مفاهيمها وتميُّزها فيما يتصل بعقيدتها وشريعتها وشعائرها وما يتصل بسلوك أفرادها ومجتمعاتها وآدابهم، فإنَّها لاترد المفاهيم المتأصلة بمجهود الأمم الأُخرى في نطاق العلم التجريبي ونحوه، وقد تصدى لبيان ذلك بعض علماء الأُمَّة.

وعلى سبيل المثال ما بيَّنه ابن تيمية في قوله: (... فإنَّ ذكر ما لايتعلق بالدين مثل مسائل «الطب» و «الحساب» المحض التي يذكرون فيها ذلك، وكتب من أخذ عنهم، مثل محمد بن زكريا الرازي، وابن سينا ونحوهم من الزنادقة الأطباء ما غايته انتفاع بآثار الكفار والمنافقين في أمور الدنيا، فهذا جائز، كما يجوز السكنى في ديارهم، ولبس ثيابهم وسلاحهم، وكما تجوز معاملتهم على الأرض، كما عامل النبي يهود خيبر، وكما استأجر النبي ﷺ، هو وأبو بكر لما خرجا من مكة مهاجرين (ابن أريقط) - رجلاً من بني الدِّيل - هاديًا خريتًا، والخريت الماهر بالهداية، وائتمناه على أنفسهما ودوابهما، ووعداه غار ثور صبح ثالثة، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ، مسلمهم وكافرهم، وكان يقبل نصحهم، وكلُّ هذا في الصحيحين[1]، وكان أبو طالب ينصر النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري: صحيح البخاري ٢/٩٧٤ - ٩٨٠، كتاب الشروط، باب [١٥] من حديث طويل رقمه [٢٥٨١، ٢٥٨٢] وفيه أن خزاعة (كانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ) تحقيق: مصطفى ديب البُغا، (مرجع سابق). وأمَّا الرجل الذي استأجره الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد أخرج ذلك البخاري في صحيحه في حديث الهجرة وهو حديث طويل جاء فيه: (واستأجر الرسول ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل، وهو من بني عبد عدي، هاديًا خريتًا، والخريت الماهر بالهداية) صحيح البخاري ٣/١٤١٩ كتاب فضائل الصحابة، باب [٧٤] رقم الحديث [٣٦٩٢، ٣٦٩٤]، (المرجع السابق نفسه).

ويذب عنه مع شركة، وهذا كثير)[١].

ب) - الالتزام بالإسلام والاعتزاز به في المناهج[٢]، وهذا جانب آخر رصده التاريخ للأمَّة الإسلاميَّة وانطلقت من خلاله حضارتها، وكان الالتزام بالإسلام والاعتزاز به في مناهج الأمَّة من أهم وسائل تميُّزها، و (المناهج الإسلاميَّة المختلفة ترتكز على قاعدة إيمانية، تمد جذورها إلى أعماق الحياة الإنسانية جميعها، تتغلل في العقيدة، وتسري في الأخلاق، وتختلط بالمادة، وتظهر في شؤون الحياة، ولاريب أن المجتمع المسلم له غاية في الحياة، كما له مثل وقيم وأخلاق ومقاييس في المجتمع، وأهداف خاصَّة، ومزاج نفسي منبعث من عقائده وموروثاته، كما أنَّه ينظر إلى كل شيء بمنظار معين، ينظر إلى الإنسان برؤية وينظر إلى الحيوان برؤية أخرى، وإلى الجماد بغير ذلك، ثُمَّ يركز على الإنسان، في حياته وسلوكه وفي غايته، وفي هدفه، فيحرر طاقاته كلها فكريَّة وعمليَّة، من الظنون والأوهام والخرافات والأهواء، كما يخلصه من الجهل والعبوديَّة لغير الله، ومن سلطان الاستبداد والطغيان والشهوات، ثُمَّ وجه الإسلام الفكر البشري إلى ما ينفعه، وضرفه عما يهلكه ويبدد طاقاته بغير نفع أو فائدة، أبعده عن البحث وراء الطبيعة (عالم الغيب) وقدَّم له منهجًا كاملاً يرضي أشواقه النفسية وحاجاته الروحيَّة، وذلك حتى يفرغ لمهمته في بناء الحياة، وتعمير الكون، وتحقيق العدل والإخاء الإنساني)[٣].

وقد اصطبغت مناهج الأُمَّة الإسلاميَّة في سائر تاريخها، ومجمل

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٢/١١٤، (مرجع سابق).

(٢) انظر: توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٢٤٧ - ٢٤٩، (لمزيد من الاطلاع على تعريف المنهج في اللغة العربيَّة وغيرها)، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٢٥٠، ٢٥١.

حضارتها بهذه السمات، وكانت ثمارًا يانعة لمقومات تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة من عقيدة صافية نقية ترتكز على التوحيد الخالص والإيمان العميق بالله وأسمائه وصفاته وفقًا لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه، ومن شريعة غراء منبثقة عن تلك العقيدة ومماثلة لها في إخلاص التوحيد والعبادة لله، وما اتصف به تميُّز الأُمَّة من خصائص كثيرة من أبرزها ربانية المصدر، وعالميَّة الرسالة، ووسطية المنهج، إلى جانب فاعليتها الحضاريَّة الخيِّرَة، وما يتصل بذلك من أهداف يأتي في مقدمتها تحقيق العبودية لله، وتحقيق الاستخلاف في الأرض بإقامة دين الله، وحيث إنَّ استقصاء مناهج الأُمَّة الإسلاميَّة في جوانب حياتها المختلفة لايتأتى في مساحة ضيقة كما هو حال هذه المفردة فإنني أتناول منها - على سبيل المثال - الآتي:

أولاً: المناهج النقلية وعمادها الوحي، بقسميه القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد اعتنت الأُمَّة الإسلاميَّة عناية لم يسبق لها مثيل في المحافظة على نص القرآن الكريم ونص السنة النبويّة واعتمدت لتحقيق ذلك مناهج بارعة، جرى الحديث عنها فيما سبق[1].

ثانيًا: المناهج العقليَّة، وهي منبثقة من المناهج النقليَّة حيث أسس القرآن الكريم قواعدها، وضبط منطلقاتها وربطها بأخلاقه ومثله ومبادئه وقيمه، وسار علماء الأُمَّة الإسلاميَّة في تاريخها وحضارتها في

---

(١) انظر: مطلب الربانيَّة ص٥٩٢ - ٦٣٣، (البحث نفسه). وانظر: عماد الدين خليل: حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي: ص ١١٨ - ١٢١، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م، عن دار الثقافة، الدوحة، تحدث عن أهميَّة منهج المحدثين في علمي (الجرح والتعديل) و (مصطلح الحديث) اللذين تميَّزت بهما الأُمَّة الإسلاميَّة على سائر الأمم، ودعا للإفادة منه في كتابة التاريخ ودراسته.

ضوء الكتاب والسنّة فكان الاجتهاد، وكان القياس، وكان الإجماع، والاستحسان والاستصحاب، والعرف والعادة، وسد الذرائع، والاستقراء، وكل ذلك ونحوه حقق للأُمَّة الإسلاميَّة بخاصَّة والبشرية بعامّة الكثير من المصالح سواء ما كان منها في إطار الضرورة، أو الحاجيَّة، أو التحسينيَّة، ودفع عنها الكثير من المفاسد والأضرار، وذلك بقدر ما تلتزم الأُمَّة بالإسلام وتعتز به، وتسلك مناهجه وتتقيد بمفاهيمه.

وبالجملة - فإنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة قد سلكت في علوم القرآن الكريم والحديث الشريف، وفي الفقه وأصوله، وفي علوم اللغة والتاريخ والحضارة، مناهج لم تسبق لمثلها، (ولقد جهد السلف الصالح بدءًا من الصحابة رضوان الله عليهم، ومن تبعهم، كل جهدهم لينالوا... المراتب السنية، فضربوا أكباد الإبل في فجاج الأرض، شرقًا وغربًا بهمم عالية، ونفوس سخيَّة راضية، بحثًا عن العلم، وتحصيلاً للمعرفة، فأثمر صنيعهم هذا أطيب الثمار، وترك في المجتمع الإسلامي كله أبلغ الآثار من توحيد لصفوف الأُمَّة، وترسيخ لمبادئها، وصون لأطرافها، ونشر لمراكز العلم في أقطارها، قاصيها ودانيها، وتنافس بين هذه الأقطار في مراقي الخير هذه، وانتشار لصحيح الأفكار، وجليل المؤلفات، خلال زمن يسير في جميع البلاد، وغير ذلك من مظاهر القوة العلمية ما يستحق أن يوضع تحت الدرس والتأمل للعبرة والاستلهام)[1].

أمَّا مايخص مناهج المسلمين في مختلف العلوم، وسبقهم إلى المنهج العلمي الحديث فمرده إلى حقيقة تاريخية تبين أنَّ علماء الأُمَّة الإسلاميَّة كانوا الرواد في وضع هذه المناهج وتطويرها، فلقد (ترجم

(١) فاروق حمادة: أسس العلم وضوابطه... ص ١٩، (مرجع سابق).

سلفنا الصالح هذه المعاني في عصور ازدهار الحضارة الإسلاميَّة إلى حقائق ومناهج علمية سديدة لازالت آثارها قائمة بيننا، نغترف من مناهلها الصافية، لاينقصها التخطيط السليم، والأصالة الفكريَّة، والأسلوب السلس الواضح في مختلف ميادين الفكر والمعرفة.

ويعجب المرء وهو يعالج موضوعَ كتابة البحوث العلمية ومناهجها الحديثة أن يجد في مصادر تراثنا المبكر دروسًا عمليَّة قائمة؛ لكل قواعد ومناهج كتابة البحث العلمي على الأصول الحديثة، حتى بالنسبة للعلوم التي (تحتاج إلى دقة وتحديد في المضمون والصياغة) كالفقه وأصول الفقه، فكلاهما له طابعه وملامحه وصعوباته النابعة من طبيعة الموضوعات التي يعالجها، والكتابة فيهما تختلف تمامًا عن الكتابة حتى في المواد الشرعية الأُخرى، فضلاً عن البحث في علوم العربيَّة والموضوعات الأدبية، ولكن على الرغم من كل هذا فقد طوعها العلماء المسلمون - في عصور الإسلام المبكرة - للمنهج العلمي السليم شكلا وموضوعًا وأسلوبًا)[1].

ويدلل على صحة هذا مثالان من تأليف الشافعي رحمه الله في كتاب (الرسالة) وفي كتاب (الأم)، فقد كان رحمه الله (يعالج أصعب الموضوعات وأصعب العلوم بطريقة علميَّة موضوعيَّة، ويضع منهج البحث، والخطة التي سيسير عليها بحيث تحقق التصور الكامل لجوانب الموضوع في مقدمة الكتاب، وجعل للكتاب محورًا هو مدار كل البحوث التي يعرضها

---

(١) انظر: عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان: كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلاميَّة: ص ٢٤، ٢٥، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م، عن دار الشروق... جدة.

في أسلوب الأديب، وبيان الحكيم)[1].

وكانت هذه الطريقة هي المتبعة من علماء الأُمَّة في (جملة المصادر الإسلاميَّة في كل العلوم دون استثناء في عصور ازدهار الفكر الإسلامي، وقد كانت الناحيَّة المنهجية والموضوعيَّة أمرًا ضروري الاعتبار، فالمؤلف يلتزم منهجًا معينًا يشرحه في مقدمة الكتاب، ويذكر السبل التي سلكها لإثبات فكرته، كما يلتزم أن يكون البحث في إطار الموضوع دون استطراد، وفي كل هذا لايغفل ذكر المصادر التي اعتمدها في تكوين كتابه)[2].

وهكذا فقد (كان العلماء المسلمون في هذا أحرص من أيِّ أُمَّة أخرى، فكانوا يعتمدون السند قبل تدوين العلوم، وأصبح للكتب سندٌ حتى بعد التدوين، بالإضافة إلى تعيين المصادر...)[3].

ويؤكد بعض المستشرقين فكرة أصالة مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ومن أمثلة ذلك ما أكده (فرانتز روزنثال) في مواضع كثيرة من كتابه (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)[4]، وإن كان يحاول في مواطن أخرى، أنْ لايركز على سبق المسلمين في مجال البحث العلمي، وتفوق منهجهم في بعض العلوم، ومثال ذلك قوله: (أمَّا علماء الحديث والفقه فقد كانا يستندان في الدرجة الأولى على الدِّقَّة والأمانة في ذكر المصدر المأخوذ عنه؛ لأنَّ الأسانيد هي جزءٌ من مادة البحث،

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٢٤، ٢٥، وانظر: عصام الصفدي: تصنيف المعرفة والعلوم في ضوء خصائص الأُمَّة الإسلاميَّة: ص ٤٤، ١٤٢، ١٤٣، (مرجع سابق).

(٢) عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان: المرجع السابق نفسه: ص ٢٥.

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٢٥.

(٤) ترجمة: أنيس فريحة، ومراجعة: وليد عرفات، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م، عن دار الثقافة، بيروت.

وكل علمٍ آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين - الحديث والفقه - تأثر إلى حد بعيد بالأسلوب المتبع في درسهما ومعالجتهما، مثال ذلك كتب التراجم التي نشأت بدافع تدعيم علمي الحديث والفقه، أو لتكون في عون المحدث والفقيه...)[1]، وعلى أي حال فإنَّ في قوله ما يؤكد اتسام مناهج المسلمين العلميَّة بالموضوعية والمنهجية والأمانة والدِّقة، وأن ذلك كان خدمة لعلوم الشريعة، ولم يغفل ذكر امتداد هذه المنهجيَّة إلى علوم أخرى وبخاصة علم التاريخ وفي ذلك يقول: (أمَّا أصحاب الكتب التاريخية فإنهم كانوا شديدي الحرص على ذكر المصادر التي يأخذون عنها)[2]، ويستشهد على ذلك بالسبكي والسيوطي وأنهما شددا على هذه الناحية ولكنه حين يعرض تطبيقات العلماء في هذه الناحيَّة المنهجيّة يجانبه أسلوب الباحث الموضوعي الرصين[3].

أمَّا المنهج التجريبي فإنَّ قصب السبق فيه راجع للمسلمين كعمود الصبح[4]، ومن الحق أنْ يقال: (إنَّ أعظم ما يُمكن أن يفخر به العلم الإسلامي في عصر ازدهاره، هو أنّه أضاف بالتدريج إلى مفهوم العلم

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١١٥.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ١١٦، ١١٧.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١١٧، ولعل (فرانتز روزنتال) قد تأثر في هذا المنحى بما يشيعه بعض المستشرقين أمثال (جولدزيهر): من كون علماء المسلمين يهتمون بالسند ولاينقدون المتن.

(٤) انظر: أكرم ضياء العمري: التراث والمعاصرة: ص ٦٤ - ٧١، من سلسلة كتاب الأُمَّة، العدد [١٠] تصدرها: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر، الطبعة الأولى شعبان ١٤٠٥ هـ. وانظر: أحمد عصام الصفدي: تصنيف المعرفة والعلوم في ضوء خصائص الأُمَّة الإسلاميَّة: ص ٩٦ - ٩٩، (مرجع سابق).

معنى جديداً، لم يكن يلقى اهتمامًا عند اليونانيين، وهو استخدام العلم في كشف أسرار العالم الطبيعي (وما يردده كثير من الباحثين من التعبير الغربي)؛ «قهر الإنسان للمادة، والسيطرة عليها» ، واستخدم المسلمون الرياضة في حل المشكلات الواقعية التي تواجه الإنسان، وبرعوا في علوم المادة، واخترعوا علومًا مساعدة لذلك، فمثلاً برعوا في استخدام الأرقام، ووضع أسس علم الحساب، الذي يُمكن تطبيقه في حياة الناس اليوميَّة، وكان اختراعهم للجبر، وتفوقهم في الهندسة التحليلية، وابتكارهم لحساب المثلثات: إيذانًا بعصر جديد، تستخدم فيه الرياضة للتعبير عن قوانين العالم الطبيعي، وعلى هذا فقد وضحت على يد العلماء الإسلاميين أصول المنهج التجريبي، بما يقتضيه من ملاحظات دقيقة دائبة، ومن تسجيل منظم لهذه الملاحظات، ثُمَّ وضع الفروض لتفسيرها، وإجراء التجارب للتحقق من صحة هذه الفروض)[1].

وكان هذا المنهج نتيجة طبيعيَّة لمنطلقات الإسلام وقيمه حيث إنَّ الإسلام فتح المجال للعقل والفكر، وحثَّ على النظر في الكون والحياة وما يحكم ذلك من سنن وأسباب ومسببات.

ومِمَّا ينبغي التركيز عليه في هذا المجال أن: (النقلة المنهجيَّة التي أتيح للعقل المسلم أن يتحقق بها، وأن يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها،

---

(١) توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٢٩٤، ٢٩٥، (مرجع سابق). وانظر: ستانوودكب: المسلمون في تأريخ الحضارة، ترجمة: محمد فتحي عثمان: ص ٨٩ - ١٠٩، تحت عنوان (جهود المسلمين الحضارية)، عرض - بصورة مجملة - جهود المسلمين في مجال العلوم والمناهج التجريبية، وأكد أنهم لم يسبقوا في هذا المجال الحضاري، ووصف إسهام المسلمين بأنَّه معجزة تكاد تكون غير قابلة للتصديق، وعاد ليؤكد ذلك للمسلمين دون غيرهم في الصفحات ١١١ - ١١٨، (المرجع السابق نفسه).

امتدت باتجاهات ثلاثة:

٢- السببيَّة: فمن خلال التمعن في نسيج كتاب الله نجد كيف منحت آياته البينات العقل المسلم رؤية تركيبيَّة للكون والحياة والإنسان والوجود، تربط... بين الأسباب والمسببات.

٣- القانونية التاريخيَّة: ولأول مرَّة في تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشري عن حقيقة منهجيَّة على درجة كبيرة من الخطورة: إنَّ التاريخ البشري لايتحول فوضى، وعلى غير هدف، وإنَّما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء سواء بسواء، وان الوقائع التاريخية لاتتعلق بالصدفة وإنَّما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك.

٤- منهج البحث الحسي (التجريبي): يُمكن القول هنا بأنَّه لا الكشف عن السببية، ولا القانونية التاريخية يعدل الكسب المعرفي القيم الذي أحرزه العقل المسلم خصوصًا، والعقل البشري عمومًا، والذي تمثل بمنهج البحث الحسي (التجريبي) الذي كشف النقاب عنه، ونظَّمه، وأكَّده، ودعا إليه كتاب الله... لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم، وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسي) إلى ما حولهم، ابتداءً من مواقع أقدامهم وانتهاءً بآفاق النفس والكون)[1].

---

(١) انظر: عماد الدين خليل: تحليل للتاريخ الإسلامي (إطار عام): ص ٢٠٥ - ٢٠٧، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م، عن دار الثقافة - قطر، وانظر: المرجع نفسه: ص ٢٠٢ - ٢٠٩، وانظر: عبدالرحمن بن عبدالله التركي: لمحات في التفسير الإسلامي للتاريخ: ص ٤٢ - ٥٩، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ-١٩٩٤م، عن مؤسسة الرسالة - بيروت.

جـ) - الالتزام بالإسلام والاعتزاز به من خلال المواقف، وهذا جانب آخر له أهميته في تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، ولاسيما أن التاريخ أصبح في العصر الراهن من أهم الوسائل التي تستخدم (لتوجيه الشعوب وتربيتها كما استعان به أصحاب المذاهب الفكريَّة في فلسفة مذاهبهم وتأييدها وإيجاد سند تاريخي لها، بل إنَّ الأوروبيين ينظرون له نظرة تقديس وإجلال ويطلبون منه تفسير الوجود وتعليل النشأة الإنسانية... ودراسة التاريخ الإسلامي وبالأخص السيرة النبويَّة، وتاريخ الخلفاء الراشدين، والفتوحات الإسلاميَّة، وسير العلماء والمجاهدين، والقادة من سلفنا الصالح)[1]، تسهم في تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة؛ لأنها بمثابة النماذج للقدوة الصالحة في حياة الأُمَّة من خلال مواقفهم الملتزمة بالإسلام والمنبثقة من الاعتزاز به.

وتاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة ينطوي على صفحات ناصعة لتلك المواقف، وهي من الكثرة بمكان ولايُمكن الإحاطة بها، ويقتصر هنا على ذكر موقفين - فقط - بصفتها من النماذج التي توضح بجلاء الالتزام بالإسلام والاعتزاز به في أيّ موقف تاريخي حاسم...، وأول هذه المواقف ذلك الموقف الحازم الذي وقفه الرسول ﷺ من مساومات قريش التي طالبوه من خلالها بالتخلي عن دعوتهم إلى الإسلام على أن يغدقوا عليه من الأموال ما يغنيه، وإذا كانت له رغبة في الرئاسة نصبوه لرئاستهم، وإذا كان ما يحس به مسًا من الجنون طلبوا له العلاج، فكان

---

(١) محمد بن صامل العلياني السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ص ٥٦، ٥٧، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م، عن دار طيبة - الرياض، وانظر: عمر فروخ: كلمة في تعليل التاريخ: ص ٦ - ٣٣، طبعة دار العلم للملايين ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م، بيروت.

موقف الرسول ﷺ زهدًا وترفعًا في كل ما عرضوا سواء بما كان في مقالهم من جد أو سخرية، وكذا ما حمل الإغراء بالثراء والجاه، أو التلميح بالمجابهة والقسر[1]، وكان التزامه ﷺ بالإسلام مرتكزًا على أنَّه رسالة ودين ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2].

وقد سجلت مصادر السيرة هذا الموقف؛ حيث اتفقت قريش على أن يفاوض عتبة بن ربيعة الرسول ﷺ على أمور لعله يقبل بعضها فيعطونه ويكف عن دعوتهم إلى الإسلام: (فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنَّك منَّا حيث قد علمت من السِّطة (الشرف) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنَّك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به ما مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها...، فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع»، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنَّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا، حتى لانقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا (ما يظهر للناس من الجن) تراه لاتستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنَّه رُبَّمَا غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه؛ أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه؛ قال: «أقد فرغت يا

---

(١) انظر: عماد الدين خليل: دراسات في السيرة: ص ١٠٨، (مرجع سابق).

(٢) سورة النجم: الآيتان (٣، ٤).

أبا الوليد» ؟ قال: نعم، قال: «فاستمع مني »، قال: أفعل؛ فقال:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ...... ﴾[1]، ثُمَّ مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلمَّا سمعها منه عتبة: أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليها يسمع منه، ثُمَّ انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها[2]، فسجد ثُمَّ قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»[3].

والشاهد من هذا الموقف أن الرسول ﷺ ارتفع فوق مساومات قريش ملتزمًا بما جاءه من الحق الذي كان مصدر اعتزازه أنَّه مبينًا لايملك لنفسه ولا لقريش أو غيرهم نفعًا ولا ضرًّا وإنَّما يتبع ما يوحى إليه، ويمضي فيما أمره ربه حتى تعلو كلمة الحق، وفي موقف آخر قال ﷺ لعمه أبي طالب حين أتعبته قريش وهي تنهاه عن مناصرةٍ ابن أخيه فجاء إلى الرسول ﷺ يطلب منه الإبقاء عليه وعلى نفسه وإلاَّ يحمله ما لايطيق[4] (كما جاء في الخبر)، فقال له الرسول ﷺ: «يا عمٍّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته»[5].

---

(١) سورة فصلت: الآيات (١ - ٥).

(٢) سورة فصلت: الآية (٣٨).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٣٢٢/١، ٣٢٣، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (مرجع سابق). وانظر: سيرة ابن إسحاق، تحقيق: محمد حميد الله ص ١٨٧، ١٨٨، (مرجع سابق).

(٤) انظر: سيرة ابن إسحاق: ص ١٣٥، بتحقيق: محمد حميد الله، (مرجع سابق).

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ٢٩٩/١، (المرجع السابق نفسه). وانظر: سيرة ابن إسحاق: ص ١٣٥، (المرجع السابق نفسه).

بهذا رسم المصطفى ﷺ منهج الالتزام بالإسلام والاعتزاز به، وكان موقفه ذلك أحسن أسوة لأمته إلى أن يأتي أمر الله، وقد سار الصحابة الكرام على هذا، ففي موقف آخر لجعفر بن أبي طالب[1] بين يدي النجاشي، ما يؤكد هذا التوجه الحاسم الواضح الذي ينبثق من الاعتزاز بالإسلام الذي هو دين الله الحق، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد.

وخلاصة هذا الموقف: أن جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين في الحبشة في جوار النجاشي، تعرضوا لكيد قريش إذ أرسلت اثنين من دهاتها لاسترجاعهم ورسموا لذلك خطة ماكرة على أن يسلمهم النجاشي من عنده من المهاجرين دون أن يكلمهم لئلا يتأثر بما عندهم من الحق، ولكن النجاشي أبى إلا أن يسمع جواب المهاجرين عنده على دعوى قريش فأرسل إليهم (فلمَّا جاءهم رسوله اجتمعوا، ثُمَّ قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما كان، فلمَّا جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم؛ فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟... فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش،

---

(١) انظر: محمود شيت خطاب: جعفر بن أبي طالب، مقال مدرج في مجلة البحوث الإسلاميَّة الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلميَّة والإفتاء...، الرياض، العدد [٢٧] (مرجع سابق)، في الصفحات ١٩١ - ٢٢١، لمزيد من الاطلاع على ترجمته ومواقفه وسبقه للإسلام، وما سجل له التاريخ من فضائل.

ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكلِ القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لانشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والصيام... (وعدَّدَ عليه أمور الإسلام ثُمَّ قال:) فصدقناه وآمنَّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، لانشرك به شيئا، وحرمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ من الخبائث، فلمَّا قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيُّها الملك... فقال له النجاشي: هل معك مِمَّا جاء به عن الله من شيء ؟... فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ:... فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ... فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثُمَّ قال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة؛ انطلقا [والضمير يعود للاثنين اللذين أرسلتهما قريش]، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولايكادون)[1].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣٦١/١، ٣٦٢، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (مرجع سابق). وانظر: سيرة ابن إسحاق، بتحقيق: محمد حميد الله ص ١٩٤ - ١٩٦، (مرجع سابق).

وإذا كان هذا الموقف في حد ذاته كافيًا في الدلالة على الالتزام بالإسلام والاعتزاز به في موقف حرج، وفي ظل خطة ماكرة صنعتها قريش وأحكمت خطواتها، إلا أن الخبر لاينتهي هنا والموقف له بقية تؤكد صرامة المسلم وشدة اعتزازه بإسلامه والتزامه به، وهو موقف يعكس تميز الأُمَّة الإسلاميَّة ممثلاً في جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة.

أمَّا بقية الخبر ومن ثَمَّ تمام الموقف فإنَّ عمرو بن العاص وهو أحد رسولي قريش لم يفقد الأمل ولَمْ يخشع قلبه في هذا المقام لما سمع من الحق بل قال: (والله لآتينَّه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم... ثُمَّ غدا عليه من الغد، فقال: أيُّها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم فسلهم عمَّا يقولون فيه....، فأرسل إليهم ليسألهم عنه....، فاجتمع القوم [المهاجرون من المسلمين في الحبشة]، ثُمَّ قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا: نقول والله ما قاله الله، وما جاءنا به كائنًا في ذلك ما هو كائن....، فلمَّا دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟... قال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا محمد ﷺ، هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول... فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا، ثُمَّ قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود)[1].

وتاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة مملوء بمثل هذه المواقف، وقد سبق ذكر

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣٦٣/١، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: سيرة ابن إسحاق: ص١٩٦، (المرجع السابق نفسه). وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٦٩/٣ - ٧٦، (مرجع سابق)، أورد روايات القصة من وجوه كثيرة، وانظر: تاريخ الطبري ١٦/٤، (مرجع سابق).

موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه في مواجهة حركة الردَّة، بقتال المرتدين وكيف أنَّه التزم الإسلام واعتز به في أحلك المواقف، على الرغم من الأخطار المحدقة بالأُمَّة، وقد سار السلف الصالح ومن تبعهم من الأمَّة الإسلاميَّة على هذا المنهج[1]، وكانت مواقفهم التاريخيَّة وما أنتجته من حضارة رائدة، من أعظم وسائل تميّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وفي هذا ما يؤكد على أن هذا (الدين والاستمساك به وإقامة دعائمه، أساس ومصدر لكل قوة، وهو السياج لحفظ كل حق من مال وأرض وحريّة وكرامة، ومن أجل هذا كان واجب الدعاة إلى الإسلام والمجاهدين في سبيله أن يجندوا كلّ إمكاناتهم لحماية الدين ومبادئه، وأن يجعلوا من الوطن والأرض والمال والحياة وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها، حتى إذا اقتضى الأمر بذل ذلك كله في سبيلها وجب بذله؛ ذلك أن الدين إذا فقد أو غلب عليه، لم يغنِ ما وراءه من الوطن والمال والأرض، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضاً، أمَّا إذا قوي شأن الدين، وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأفئدة عقيدته، فإنَّ كل ما كان قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود أقوى من ذي قبل حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة... ولقد جرت سنة الله في الكون على مر التاريخ أن تكون القوى المعنويَّة هي الحافظة للمكاسب والقوى الماديَّة، فكلما كانت الأُمَّة غنيَّة في خلقها وعقيدتها السليمة

---

(١) انظر: موقف ربعي بن عامر مع قائد الفرس (رستم) لدى الطبري في تاريخه ٣/٣٣، (مرجع سابق). وانظر: محمد يوسف الكاندهلوي: حياة الصحابة: ٤/٥١٥ - ٥١٨، الطبعة الرابعة، ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦ م، عن دار الكتاب العربي، بيروت، وانظر: أحمد عصام الصفدي: تصنيف المعرفة والعلوم في ضوء خصائص الأُمَّة الإسلاميَّة: ص ١٤٩، ١٥٠، (مرجع سابق).

ومبادئها الاجتماعية الصحيحة؛ فإن سلطانها المادي يغدو أكثر تمسكًا وأرسخ بقاءً وأمنع جانبًا)[1].

٢ - الوعي الثقافي الشامل:

يعد الوعي الثقافي الشامل من أهم وسائل تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة؛ الوعي أولا: بالثقافة الإسلاميَّة من حيث شمولها وكمالها وأصالتها، والتميُّز في مصادرها، وتطبيقاتها، ومدلولاتها وظلالها الواسعة المتكاملة التي تتناول جميع جوانب الحياة، والوعي من جهة أخرى بالثقافات الأخرى والتي تختلف في مصادرها ومقوماتها، وأهدافها عن الثقافة الإسلاميَّة، وقيمها ونظرتها للكون والإنسان والحياة، وتختلف كذلك عنها في المنابع الأولى، والغايات والمقاصد.

فأمَّا الوعي بالثقافة الإسلاميَّة فإنَّه من أهم وسائل تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة؛ لأنَّه يعني معرفة شخصية الأُمَّة ويحدد ملامح هويتها، ويبرز ذاتيتها الخاصَّة، وعلى الرغم مِمَّا يثار حول معنى (الثقافة) واستخداماته في تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة ومصادر علومها ومعارفها، وأنَّه لم يعرف على النحو الذي يعرف به في العصر الحديث بصفته مصطلحًا أصيلاً، أو أنَّه قد نقل عن مصطلح أجنبي.... فإنَّ المصادر الإسلاميَّة تشتمل على (الثقافة) في مصادر اللغة العربيَّة، وفي مصادر العلوم الشرعيَّة.

وعلى سبيل المثال ما أورده أبو نعيم الأصفهاني في مقدمة كتابه (دلائل النبوة) إذ قال: (ثُمَّ إنَّ هذه النبوة.. لاتتم إلا بخصائص أربعة يهبها الله - عَزَّ وَجَلَّ - لهم، كما أنَّ إزالة علل العقول لاتتم إلاَّ بالسلامة

---

(١) انظر: محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة... ص ١٠٠، (مرجع سابق).

من آفات أربعة، يعصم منها)[1].

وبعد أن يرتب كمالِ الخصائص الأربعة بانتفاء الآفات الأربعة، يذكر تلك الخصائص قائلاً: (فالمواهب الأربعة؛ أولها: الفضيلة النوعيَّة، وثانيها: الفضيلة الإكرامية، وثالثها: الإمداد بالهداية، ورابعها: التثقيف عند الزَّلة)[2]، فدلَّ رابعها على مكانة الثقافة في تحصين شخصية الأُمَّة، وكمال المحافظة على ذاتيتها وهويتها.

وهذا ما قرَّره أبو نعيم الأصفهاني؛ فهو بعد أن يذكر الآفات الأربع التي يعصم الله منها الأولياء... يشرع في شرح المواهب الأربعة إلى أنٍ يقول في معنى التثقيف عند الزَّلة: (يثقفه بها صيانة لمحله وحفاظا لحراسته، واستقامته، علمًا منه بأنَّ من ينته عن فلتاته أوشك أن يألفه ويعتاده، فالله لطيف بعباده، الوافي لأوليائه بالنصر، والتأييد، ولايعدم وافده وصفيه المرشّح لحمل النبوة؛ التنبيه والتثقيف، وإليه يرجع قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[3]، وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - لداود عليه السلام: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾[4]، وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - لسليمٰن عليه السلام: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[5].

---

(١) انظر: أبونعيم الأصبهاني: دلائل النبوة: ص ٣٤، بتحقيق: محمد روّاس قلعه جي وعبدالبر عباس، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٣٤.

(٣) سورة هود: الآية (٤٦).

(٤) سورة ص: الآية (٢٢).

(٥) سورة ص: الآية (٣٤).

وقوله - عزَّ وَجَلَّ - لمحمد ﷺ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [1]، وقوله - عزَّ وَجَلَّ -: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ [3]، فهذه الخصائص الأربعة لاتنال بالاكتساب والاجتهاد؛ لأنَّها موهبة إلهية، وأثرة علويَّة، حكمها معلقة بتدبير من له الخلق والأمر، ولايظهرها إلاّ في أخص الأزمنة، وأحق الأمكنة، إحساس الحاجة الكليَّة، وإطباق الدهماء على الضلال من البريَّة، وكلها أعلى من أن تفوز به العقول الجزئية، أو تحصلها المساعي المكتسبة، وإليه يرجع قوله - عزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [4]، وقوله: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [5]، وقوله: ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ......... ﴾ [6]) [7].

إنَّ هذا التأصيل لعلم الثقافة الإسلاميَّة ينصب على جانب مصدرها، وأنها جزءٌ من علم النبوة له حقله ومجاله، وقد وجد من الأُمَّة الإسلاميَّة العناية التامَّة عبر تاريخها، وعلى الرغم من ذلك ذهب بعض الباحثين إلى القول بأنَّ (الثقافة مفقودة في أغلب المعاجم الكبرى،

---

(١) سورة هود: الآية (١١٢).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٦٨).

(٣) سورة الأنعام: الآية (٣٥).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٧٩).

(٥) سورة إبراهيم: الآية (١١).

(٦) سورة الجن: الآيتان (٢٦، ٢٧).

(٧) دلائل النبوة: المقدمة: ص ٣٦، (المرجع السابق نفسه).

وهي تفيد العمل بالسيف، وحِذْقُ الشيء والفطنة)[1]، ويواصل قوله عن تعريف المعاجم لها بأنها (العلوم والمعارف والفنون والآداب التي يطلب الحذق بها)[2].

ثُمَّ يستخلص من ذلك أنَّ (التعريفات القديمة تفيد بصفات أخلاقيَّة، والتعريفات الحديثة تفيد باكتساب المعارف العامَّة، مِمَّا لايحيط بمفهوم الثقافة المجازي الحديث، وما له من صلة بمفاهيم أخرى أساسيَّة)[3].

ولتجلية هذا الأمر يتناول البحث هنا ناحيتين:

الناحية الأولى: مفهوم الثقافة: هل هي (مصطلح عربي في أصله ومعناه ومبناه؟ أم هو ترجمة لمفهوم أجنبي)[4]، وقد تصدى للإجابة على ذلك كثيرٌ من علماء الأُمَّة ومفكريها، وأثبتوا بأنَّ (الثقافة): (كلمة عربيَّة أصيلة ولها وجود مستمر في اللغة العربيَّة، وإن كانت دلالاتها تتراوح بين المعاني الحسيَّة المادية والمعنويَّة.. من جهة، وبين الحقيقة والمجاز والتخصيص من جهة أخرى، وفقاً لظروف الزمن، وملابسات الاستعمال، ووجهات النظر في التفسير والتحديد)[5].

فهي في أصلها اللغوي ترجع إلى الفعل (ثَقُفَ) على وزن (كَرُم) و (ثَقِفَ)، على وزن (فَرِحَ)، ولها في الحالتين دلالتان:

---

(١) محمد رشاد الحمزاوي: النظريات المعجميَّة العربيَّة وسبلها في الإحاطة بالفكر العربي (مقال) مدرج في كتاب: (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة): ص ٢٩٥، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٢٩٥، وانظر: المعجم الوسيط: مادة (ثقف)، (مرجع سابق).

(٣) محمد رشاد الحمزاوي: النظريات المعجمية العربيَّة..: ص ٢٩٥، (المرجع السابق نفسه).

(٤) كمال محمد بشر: الثقافة (حديث إذاعي سجل لإذاعة الرياض في ١٤١٥/٧/٤ هـ ورقم الشريط ٢٩٨٢٨)، أفرغه الباحث في أوراق أدرجت في مكتبته: ص ١.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ١.

إحداهما حسيَّة ماديَّة، وثانيتهما معنويَّة[1].

وواضح مِمَّا تقدم أنَّ الفعل بصورتيه المذكورتين (ثَقُفَ) بضم القاف، و (ثَقِفَ) بكسرها فعل لازم، وقد يأتي هذا الفعل متعدِّيًا ولكن على وزن واحد فقط هو (ثَقِفَ) بكسر القاف (يَثْقَفُ) بفتحها؛ (كسَمِعَ، يَسْمَعُ)، وهو في هذه الحالة ذو دلالات عدَّة لكنها جميعًا دلالات معنويَّة لا ماديَّة، فمن معانيه: إدراك أوصاف الشيء أو الظفر به، وعلى هذا المعنى الأخير جاء قوله تعالى: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾[2]، ومن معانيه في هذه الحالة - أيضًا - (وهو المراد في سياق المفهوم) حذق الأمور والبراعة فيها يقال مثلاً: ثَقِفَ الرجل العلم والصناعة ثقافة: أي حذقهما وبرع فيهما، وللفعل من هذه المادة ذاتها صورة أُخرى هي صورة التضعيف (ثقف)؛ فيقال: ثَقَّفَ الشيء، أو الرمح تثقيفًا بمعنى أقام المعوج منه وسواه، وهو في الأصل ذو معنىً مادي، ثُمَّ توسَّع فيه بالتوليد الدلالي لينتظم المعنى والمعاني (غير) المادية - أيضًا - كما في...؛ ثقف الغلام: أي أدَّبه وهذَّبه وعلَّمه[3]، وهكذا فإذا كان لكلمة الثقافة بهذا

---

(١) انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط: مادة (ثَقِفَ)، (مرجع سابق)، وانظر: ابن منظور: لسان العرب: مادة (ثَقِفَ)، وانظر: المعجم الوسيط: مادة (ثَقِفَ)، وانظر: كمال بشر: المرجع السابق نفسه: ص ١.

(٢) سورة البقرة: الآية (١٩١).

(٣) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (ثَقِفَ)، (مرجع سابق). وانظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، مادة (ثَقِفَ)، (مرجع سابق)، وانظر: محمد عبدالرؤوف المناوي: التوقيف على مهام التعاريف، مادة (الثَّقف)، (مرجع سابق)، وانظر: المعجم العربي الأساسي، تأليف وإعداد جماعة من اللغويين العرب، عن المنظمة العربيَّة للتربية والثقافة والعلوم: مادة (ثَقُفَ) و (ثَقِفَ) ومشتقاتهما، (مرجع سابق)، وانظر: كمال محمد بشر: الثقافة: ص ٢، ٣، (المرجع السابق نفسه).

البناء بصورتها تلك دلالتان عامتان في أصل الاستعمال، إحداهما: ماديَّة، والأخرى: معنويَّة؛ فإنَّ بين الدلالتين صلة ونسبًا من نوع ما، إنهما تشتركان في مطلق المعنى وجوهره[(١)].

وهذا التأصيل لمعنى (الثقافة) في اللغة العربيَّة، يؤكد (بأنَّ كلمة (ثقافة) بوصفها مصطلحًا فنيًّا ذا مفهوم خاص لما يُعْرف اليوم ليس ترجمة لكلمة أو مصطلح أجنبي، أو تعريبًا لمفهوم أجنبي كما يدعي بعض الدراسين غير العارفين بأصول العربيَّة)[(٢)]، فقد استخدمت في تراث المفكرين القدماء من العرب والمسلمين بمفهومها العام، ثُمَّ أصاب ذلك المفهوم بمرور الزمن التخصيص وتضييق المجال، ومع ذلك فإنَّه لازال محافظاً على دلالته الجوهريَّة في جوانبها الماديَّة والمعنويَّة، المنقول منها والمنقول إليها، وأنَّ هناك قدرًا مشتركًا في المعنى الأساس على إطلاقه، الذي يعني الصقل والتهذيب، وجعل الإنسان أو الشيء سويًّا لا اعوجاج في عمله أو سلوكه[(٣)].

الناحية الثانية: الثقافة الإسلاميَّة بصفتها من أنجع الوسائل في تحقيق تميز الأُمَّة الإسلاميَّة في تاريخها وحضارتها، ذلك أن الثقافة الإسلاميَّة ذات أصالة، (ودعامة الأصالة الثقافية للأمَّة الإسلاميَّة هي الفهم الصحيح لكتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وسنّة رسوله ﷺ، والتفقه في

---

(١) انظر: كمال محمد بشر: الثقافة، ص ٢، ٣، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٢٢ - ٣٠، (مرجع سابق)، وانظر: محمد المبارك: بين الثقافتين الغربية والإسلامية: ص ٥٥، طبعة ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م، عن دار الفكر - دمشق، وانظر: مالك بن نبي: مشكلة الثقافة: ص ١٩ - ٢٦، (مرجع سابق).

(٢) كمال محمد بشر: المرجع السابق نفسه: ص ٤، ٥.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤.

الدين، واستيعاب التاريخ الإسلامي، وحل المشكلات المعاصرة للمجتمع الإسلامي من خلال تحكيم شرع الله تبارك وتعالى تحكيمًا كاملاً من غير تأويل تمليه الأهواء، أو تحمل عليه نزعة الانهزام الفكري والنفسي أمام التيارات المعادية الطاغية... ولاتتحقق هذه الأصالة إلا بالإحاطة الشاملة بالإسلام عقيدة وعبادة وتشريعًا وخلقًا)[1].

وأمَّا الوعي بالثقافات الأُخرى، فإنَّ الثقافة الإسلاميَّة في بعض جوانبها (تتعرض لكافة أشكال التفاعل والتأثير المتبادل، فالثقافة تشكل هويَّة زمنيَّة لحياة الأُمَّة.. وتحمي الأُمَّة من عوامل التذوب والتشكيك والاختراق)[2]، وهي ثقافة ذات إيجابيَّة ونزعة إنسانية فريدة طالما أُفتُقِدَت في غيرها من الثقافات الأُخرى.

يقول أحد المفكرين: (إنَّ المعنى الإنساني للثقافة الإسلاميَّة واضح في كل جوانبها؛ لأنَّها ثقافة منبثقة عن المفاهيم والمثل الإنسانية العليا، في أوسع آفاقها، وأسمى أهدافها)[3]، ويؤكد في صدد حديثه عن رعاية الثقافة الإسلاميَّة للوحدة الإنسانية والمثل العليا أنَّ المعنيين بدراسة الثقافات البشريَّة افتقدوا هذا المعنى في تلك الثقافات مستشهداً ببعض أقوال الباحثين الذي شاركوا في المؤتمر العام لليونسكو، ونشرت في كتاب (أصالة الثقافات)، وما دعا إليه بعضهم من (إنشاء نظام إيجابي عالمي يلبي مطامح الشعوب... مشيرًا إلى أن على هذا النظام أن يعدل

---

(١) عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ١١١، ١١٢، (مرجع سابق).

(٢) مجلة الأزهر، عدد محرم ١٤٠٥ هـ - يونية ١٩٩٤ م: ص ١٠٥، كلمة بعنوان (دور الثقافة الإسلاميَّة) كتبها للمجلة يحيى السيد النجار.

(٣) عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٩٤، (مرجع سابق).

طبائع الشعوب وأوضاعها وعاداتها، مستندًا في ذلك إلى المكتسبات العقليَّة والخلقية، ومبتكرات الأفراد - في الإطار العالمي طبعًا - في ميدان الفكر والعمل والتعبير)[١]، وأنَّ البيان المشترك لمجموعة الخبراء المجتمعين صدر بدعوة من اليونسكو لدراسة المشكلات الناشئة عن الاتصالات والعلاقات بين الحضارات في العالم الراهن[٢]، وقد جاء فيه (إنَّ جامعة عالميَّة في المثل العليا والتطلعات تتبجس ببطء، ويُمكن أن تكون أساسًا للمنظمات السياسية، والمبادلات الاقتصادية الدولية، فإذا توصلت الأمم إلى أن تتفاهم، حلت الثقة محل الخوف والتوترات، وأصبح من الممكن - في إطار قيم مفهومة ودوافع معروفة - أن يتوصل التعاون الاقتصادي، والاتفاق السياسي إلى نهاية موفقة حقيقية. أمَّا إذا أغفل هذا الإطار الثقافي، أو حطمته سرعة التبدلات التي تهدد التطور، وتكييف القيم، فإنَّ التقدم المادي والمصالح الخاصّة تكون معرضةً هي الأخرى للخطر)[٣].

وينتهي البيان بالتأكيد على النزعة الإنسانية لذلك الإطار الثقافي فيقول: (إنَّ مشكلة التفاهم الدولي هي مشكلة علاقات بين الثقافات، فمن هذه العلاقات بين الثقافات يجب أن ينبثق مجتمع عالمي جديد، قوامه التفاهم والاحترام المتبادل، وهذا المجتمع يجب أن يأخذ صورة

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٩٤، ٩٥.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٩٦.

(٣) أصالة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي (مجموعة مقالات لكتاب عالميين): ص ٤٢٥، ترجمة حافظ الجمالي، ويوسف مراد، عن دار الفكر العربي، ١٩٦٣ م، وهو من مطبوعات اليونسكو، وانظر: عمر عودة الخطيب: المرجع السابق نفسه: ص ٩٦.

نزعة إنسانية جديدة، يتحقق فيه الشمول بالاعتراف بقيم مشتركة تحت شعار تنوع الثقافات)[١].

وبالنظر لتاريخ الإسلام وحضارته يتبين أن الثقافة الإسلاميَّة سابقة إلى الدعوة لهذه النزعة الإنسانية التي تدعو إلى احترام الإنسان من حيث هو إنسان واحترام كل ما يتصل به من الأشياء والأحياء، ولا أدل على ذلك من قول الرسول ﷺ في حلف الفضول[٢]، فقد رُوي عنه أنَّه قال: «لقد شهدت في دار (عبدالله بن جدعان) حِلْفًا، ما أُحبُّ أنَّ لي به حمر النعم، ولو أُدْعَى به في الإسلام لأجبت»[٣]، وما رُوي عنه ﷺ في

(١) أصالة الثقافات: ص ٤٢٦، المرجع السابق نفسه، وانظر: عمر عودة الخطيب: المرجع السابق نفسه: ص ٩٦، وقد أنهى المؤتمرون ذلك المؤتمر ببيان مشترك بعنوان: (إنسانية الغد وتنوع الثقافات). انظر: ص ٤٢٣ - ٤٢٦، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١٥٣/١، ١٥٤، (مرجع سابق)، وانظر: جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ٨٦/٤ - ٩٠، ١٠٠، (مرجع سابق).

(٣) أورد هذه الرواية ابن إسحاق في سيرته عن طلحة بن عوف الزهري، وهي عند أهل الحديث مرسلة؛ لأن طلحة بن عوف (المذكور) تابعي، توفي سنة ٩٧ وهو ابن ٧٢ سنة، وكان يروي عن رسول الله ﷺ دون أن يذكر اسم الصحابي، ورواه الحميدي عن سفيان عن عبدالله عن محمد وعبدالرحمن بن أبي بكر مرفوعًا، وأخرجه الحارث في مسنده، انظر: الروض الأنف ١٥٥/١ - ١٥٦، (مرجع سابق)، وانظر: ابن هشام السيرة النبوية ١٥٥/١ وقبلها ١٥٣، ١٥٤، (مرجع سابق)، وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٢٩١/٢، (مرجع سابق).
وأخرجه البيهقي: سنن البيهقي ١٦٧/٦، (مرجع سابق). وانظر: الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد... ١٥٤/٢، ١٥٥، (مرجع سابق).
وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٩٣/١، الحديث رقم [١٦٧٦] بلفظ: «شهدتُ غلامًا مع عمومتي حِلْفَ المطيَّبين، فما أحب أن لي حمر النعم، وإني أنكثُهُ»، وقال المحقق: (إسناده صحيح). الموسوعة الحديثية، مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢١٠/٣، عن مؤسسة الرسالة بإشراف عبدالله بن عبدالمحسن التركي، (مرجع سابق).

حادثة وضع الحجر في مكانه من بناء الكعبة حيث (إنَّ القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثُمَّ بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا؛ وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دمًا، ثُمَّ تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا لعَقة الدَّم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا، ثُمَّ إنَّهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية: أنَّ أبا أميَّة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذٍ أسنّ قريش كلها، قال: يا معشر قريش: اجعلوا بينكم - فيما تختلفون فيه - أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا؛ فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ هَلُمَّ إليَّ ثوبًا، فأُتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثُمَّ قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثُمَّ ارفعوه جميعًا، ففعلوا، حتى بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثُمَّ بني عليه)[1].

=ولمزيد الاطلاع على تخريج الحديث وتوثيقه انظر: المرجع السابق نفسه ٣/٢١٠ الحاشية رقم [١] فقد خرجه المحقق من سائر كتب السنة، وصححه الألباني في الصحيحة: (١٩٠٠)، وصحيح الأدب المفرد للإمام البخاري: ص ٢١٢، ٢١٣، رقم الحديث [٤٤١ / ٥٦٧]، (مرجع سابق).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/٢٢٣، ٢٢٤، (مرجع سابق). وانظر: علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبيَّة في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون: ١/٢٣٥، ٢٣٦، طبعة دار المعرفة.. (بدون تاريخ).

إنَّ الثقافة الإسلاميَّة بصفتها سمة ذاتيَّة وموهبة ربانية من جهة، وبصفتها سمات مكتسبة من جهة أخرى، تصدر في هذا وذاك عن ذلك الحذق والذكاء والتوفيق الذي اتسم به موقف الرسول ﷺ وهو يتصدَّى لحلٍ مشكلة وضع الحجر الأسود في مكانه من بناء الكعبة، وقد كان حلاً موفقًا يصدر عن عبقرية وموهبة ربانيَّة عصم الله بها الدماء والحرمات، تصدر الثقافة الإسلاميَّة - أيضًا - عن ذلك القول النزيه الطاهر من المصطفى ﷺ في حلف الفضول وما يرمز إليه من دعوة الثقافة الإسلاميَّة إلى السلام الشامل العام المرتكز على الحق والخير والفضيلة ذلك أن قريشًا عندما اجتمعت (تعاقدوا وتعاهدوا على أن لايجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف: حلف الفضول)[1]، وقد جاء في بعض الأحاديث تفسير هذا الاسم بأنَّه انبثق من كونهم (تحالفوا أن تردّ الفضول على أهلها، وألا يَعُزَّ ظالمٌ مظلومًا)[2] لذلك سمّي (حلف الفضول).

وستبقى الثقافة الإسلاميَّة الرائدة في هذه القيم السامقة ولن يتأتى لغيرها من الثقافات الأُخرى ما يتأتى لها في هذا المضمار، وما ذلك إلا لأنها في وحدتها (المترابطة المتناسقة ترتكز من وجهة نظر الإسلام على

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/١٥٤، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: تفصيلات هذا الحلف وغيره من أحلاف قريش لدى: جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/٨٦ –١٠٠، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: حسين مؤنس: تاريخ قريش: ١٦٥ – ١٦٩، (مرجع سابق).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/١٥٣، (المرجع السابق نفسه)، واللفظ في مسند الحارث بن عبدالله بن أبي أسامة التميمي برواية الحميدي (سبق تخريجه)، ص ١٠٧٣– ١٠٧٤، (البحث نفسه).

أساس منطقي قوي وهو: أن الحقائق لايُمكن أن تكون متناقضة، ولَمَّا كان الإسلام قد قدَّم للبشرية الحقائق كاملة، وحسم بذلك كل المنازعات والخلافات التي ثارت حول كثير من قضايا الإنسان والكون والحياة، فإنَّه قد أرسى دعامة الوحدة الفكرية والروحيَّة على قاعدة المنهج الرباني الذي هدم الخرافات والأوهام والتناقضات، برد الأمر في هذه القضايا إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ومن هنا لم يستطع أعداء الإسلام أن ينفذوا إلى كيانه الاعتقادي والفكري والروحي والتشريعي، المرتكز على الوحدة الدينية الأصليَّة، التي تستجيب لها القلوب، وتنشرح لها الصدور، وتتفاعل العقول، ليهدموه جملة بل لجؤوا إلى أسلوب التفريق والتمزيق... تفريق المسلمين إلى شيع وطوائف وأحزاب، وتمزيق وحدة عقيدتهم ونظامهم بإثارة الشبهات ونشر الافتراءات، وتشويه حقيقة الإسلام)[١].

أمَّا الثقافات الأخرى فإنها في مسارها العام وفي مجملها ثقافات مرتكزة (على النظرات البشريَّة والفلسفات المحدودة، المرتبطة بقيود الزمان والمكان، والخاضعة لمؤثرات البيئات والظروف، والمتأثرة بالأزمات النفسية والهزات الاجتماعيَّة، وما ينجم عنها من ردود الفعل التي يبعدها عن العمق والصدق والاتزان... إن هذه الثقافات - وهذا حالها - إنَّما تعيش في الحقيقة خارج دائرة الوجدان الإنساني في أصالته ونقائه، فهي بعيدة كل البعد عن أيٍّ نزعة تحفظ للإنسان مكانته الرفيعة التي أكرمه الله بها، ولاتملك إلا أن تسوق الإنسان بنزعة القوة التي تسيطر بها عليه سيطرة تسلب بها حريته، أو نزعة الخديعة التي تسلبه بها كرامته، أو بهما معًا، كما هو حال كثير من الأمم والشعوب في ظل هذه

(١) عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٧٦، (مرجع سابق).

الفلسفات الماديَّة المنحرفة التي استطاعت أن تتخذ من السلطة منطلقاً لممارسة نزعة القوة والخديعة في آن واحد)[1].

وخلاصة القول: إنَّ الوعي الثقافي الشامل بشقيه الوعي بالثقافة الإسلاميَّة ومنهجها الرباني ونزعتها الإنسانية ورسالتها العالميَّة، وما تتسم به من الدعوة إلى الخير والسلام والفضيلة، ومكافحة الشر والفتنة والرذيلة، والوعي بالثقافات الأُخرى مقارنة بالثقافة الإسلاميَّة وما يُمكن أن يرفض منها، وما يقبل، وما يُمكن اعتباره جسورًا للتواصل بين المسلمين وغيرهم في جوانب المعطيات المكتسبة من الثقافة.

إنَّ الوعي الشامل بذلك كله يعد من أنجع الوسائل لتحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة.

٣ – التعاون والتكامل:

التعاون والتكامل؛ بوصفه وسيلة من وسائل تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة وقيام حضارتها، وقد سبق تناول التعاون، وأنَّه من مقتضيات الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة، وتبين أنّ التعاون إنَّما يكون على البر والتقوى، وليس على الإثم والعدوان قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾[2]، وبذا تحقق الأُمَّة الإسلاميَّة تميزها بأنَّها أُمَّة تنطلق من الخير وتعمل من أجله، وتلتزم في أقوالها وأفعالها بتقوى الله، وكلما التزمت بهذا المبدأ كانت آثارها في التاريخ والحضارة غاية في الإبداع والتنمية الراشدة.

---

(١) عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة: ص ٦٤، ٦٥، (مرجع سابق).

(٢) سورة المائدة: الآية (٢).

فبالتعاون على البر والتقوى تنهض الأُمَّة الإسلاميَّة بحمل رسالتها وأداء أمانتها في الحياة، وقد أثبت الواقع التاريخي والحضارة الإسلاميَّة (أنَّ المسلمين كانوا في حياتهم الاجتماعية مثالاً حيًّا... حينما كان الإسلام قوة حيَّة فاعلة في قلوبهم وعقولهم، يستلهمونه في صياغة حياتهم، وفي إقامة العلاقات بينهم، وكان هذا من أعظم أسباب قوتهم القاهرة التي تفوقوا بها على غيرهم، على الرغم مِمَّا كان يملك من آلة الحرب الضخمة، والثروة الوفيرة، والخبرة العريقة التي كان المسلمون يفتقدونها، لقد كانوا كما وصفهم الله تعالى بنيانًا مرصوصًا متلاحماً ليس فيه ثغرات، بينما كان عدوهم بناءً منهارًا تتخلله الثغرات الناجمة عن فساد تركيبه الاجتماعي، الناشئ عن امتهان كرامة الإنسان فيه، نتيجة اعتبار تلك الكرامة رهينة أمور غير إنسانية، هكذا كانوا ولكنهم حين تخلوا عن هدى الله، ولم يعد الإسلام هو الذي يقرب بينهم تخلت عنهم قوتهم، وغلبهم على أرضهم وأنفسهم غيرهم؛ لأنَّ سبب القوة فارقهم، إنَّ القوة شيءٌ ينبع من داخل النفس الإنسانية، وما الأموال، والأسلحة، والمؤسسات إلا وسائل تستخدم لتحويل تلك القوة إلى إنجازات عسكرية أو حضاريَّة، أمَّا الوسائل نفسها فلاتعطي الإنسان قوة يفقدها في داخل نفسه، إنَّ القفزات الحضارية.. العظمى في تاريخ كل أُمَّة ليست ناشئة من وجود قوة ماديَّة طارئة كانت تفتقدها تلك الأُمَّة، وإنَّما هي ناشئة من روح (تدب) في أعماق الكثرة العظمى من أبناء تلك الأُمَّة، فتحولها من مجرد كميَّة بشريَّة هائلة إلى قوة فاعلة في التاريخ، وكان الإسلام هو الروح التي غيرت العرب وغيرهم تغييراً نوعياً، فجعلت منهم - بعد أن كانوا كميَّة مهملة في تاريخ منطقتهم والعالم - قوة عالميَّة فريدة في

تاريخ البشرية كله؛ بانية، هادية، مشعة، مصلحة)[1].

وعن هذا التحول الذي تحقق للأُمَّة الإسلاميَّة - بفضل الله الذي رضي لها الإسلام دينًا وأكمله وأتمَّ به نعمته عليها - يقول جواد علي: (وعندي أنَّ الإسلام، هو الذي صيَّر قريشًا قريشًا المذكورة في الكتب، وهو الذي سودها على العرب وجعل لها المكانة الأولى...، ولولا الإسلام، لكانت مكة قرية من القرى، لبعض أسرها ثراء حصلت عليه بفضل نشاطها، وتقرب رجالها إلى سادات القبائل، وحكام العراق، وبلاد الشأم، واليمن، وبفضل دعوة رجال قريش القبائل المحيطة لحج البيت، والتقرب إلى الأصنام التي كدسوها فيه وحوله...)[2].

ومن هنا يُمكن القول: إنَّ تعاون الأُمَّة الإسلاميَّة وتكاملها لا مناص له من أن ينبع من (إحساس المسلمين العميق بوحدتهم السياسيَّة الجامعة رغم انقسامهم عمليًّا إلى دول وممالك، ورغم عمليات التقسيم والتجزئة التي فرضت عليهم، لقد كان المسلمون عشية اصطدامهم مع الغرب الاستعماري الحديث موزعين بين خمس دول رئيسة هي: الامبراطوية المغوليَّة في الهند، والدولة الصفويَّة في فارس، والدولة المملوكيَّة في مصر والحجاز والشام، والدولة العثمانية في تركيا وآسيا الصغرى، والدولة السعدية في المغرب، وعلى الرغم من ذلك فقد كان إحساس المسلمين بوحدتهم الجامعة أقوى من أن تحده هذه التقسيمات السياسيَّة التي تقوم على أساس الصراع على السلطة بين الحكام، ذلك

---

(١) محمد مهدي شمس الدين: بين الجاهليَّة والإسلام ص ١٧٦، ١٧٧، (مرجع سابق)، وانظر: جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/١٢٦، ١٢٧، (مرجع سابق).

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/١٢٦، (مرجع سابق).

الصراع الذي كان من أعظم أسباب شقاء هذه الأُمَّة وضعفها، لكن هذا الصراع بكل آثاره السيئة لم يقضِ على إحساس المسلمين بوحدتهم، وأكبر دليل على ذلك أنَّه ما أن يتهدد العالم الإسلامي خطر خارجي داهم حتى تراهم جميعاً يتنادون للتوحيد أمام هذا الخطر، متجاوزين ما بينهم من خلافات)[(١)].

وستبقى مجالات التعاون ومقتضيات التكامل مفتوحة الأبواب بين شعوب الأُمَّة الإسلاميَّة ودولها على تباعد أقطارها، وتنوع دولها، وستجد الأُمَّة من الوسائل والأساليب الحضاريَّة المعاصرة ما يعزز ذلك التعاون والتكامل كلما التزمت بهدي الإسلام وشرعه شريطة أن يكون تعاونها منبثقاً من مفهوم البر والتقوى، وسيكون ذلك من أعظم ما يحقق للأُمَّة تميُّزها، ويتيح لها الفاعليَّة الخيِّرَة في التاريخ والحضارة، ولعل من النماذج الحيَّة في العصر الراهن ما تشهده الأُمَّة الإسلاميَّة من دعوات إلى التضامن الإسلامي، وغيرها من الأعمال والروابط التي يتحقق من خلالها التعاون والتكامل بأساليب عصريَّة ووسائل متحضرة، مثل عقد مؤتمرات الفقه الإسلامي وما تقدمه من حلول لمشكلات الأُمَّة الإسلاميَّة المعاصرة، بل ومشكلات الإنسانية بعامَّة، ومثل رابطة العالم الإسلامي، ونحو ذلك من الأعمال التي تؤكد فاعليَّة الأُمَّة الإسلاميَّة في التاريخ والحضارة، وتثبت قدرتها على العطاء للإنسان قاطبة[(٢)].

---

(١) محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره: ص ١٥٩، ١٦٠، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م، عن دار المنار... القاهرة.

(٢) انظر: عبدالواحد محمد الفار: الثقافة الإسلاميَّة (دراسة تأصيلية): ص ٢٩٠ - ٣٥٣، (مرجع سابق)، استعرض فيه ظاهرة التضامن بين الدول وموقف الإسلام منها، وأهمية التضامن الإسلامي وأهدافه وخصائصه وأشكاله، ومظاهر التضامن العربي الإسلامي=

٤ - الدعوة والجهاد:

الدعوة والجهاد: باعتبارهما من أنجع الوسائل في تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وهما جناحا انتشار الإسلام، ونشوء تاريخه وحضارته، فالأُمَّة الإسلاميَّة أُمَّة دعوة وجهاد، ولها منهجها المتميِّز في تطبيق هذين المبدأين اللذين أعطيا تاريخ الإسلام وحضارته طابعه الفريد، وبهما تحقق تميُّز الأُمَّة، فالدعوة إعلام بذاتية الأُمَّة، والجهاد تأكيد لها ودفاع عن وجودها من عدوان غيرها أو جعلها بالقهر والاستبداد تحت نير سيادة أمم أخرى.

أمَّا الدعوة فإنها تنبثق من قول الحق - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، (فهو إعلان تشمل مساحته الزمنية جميع الأجيال، ومساحته المكانية تسع العالم كله...، ومسلك النبي ﷺ وأصحابه من بعده، وإجماع المسلمين في كل مكان يدل على عالميَّة هذه الدعوة.. ويترتب على ذلك... مواصلة نشر الدعوة وإبلاغها للناس...، ولما كانت الدعوة الإسلاميَّة دعوة عالميَّة في الزمان والمكان جاءت أنظمتها شاملة لجميع شؤون الحياة، ومتطلبات المجتمعات في كل زمان ومكان، فهي تشمل أمور العقيدة، والعبادة وما يتفرع عنهما من أنظمة للحياة)[2].

=في العصر الحديث، كما تطرق للحديث عن منظمة المؤتمر الإسلامي، ورابطة العالم الإسلامي باعتبارهما من مظاهر التضامن الإسلامي، وفي ذلك كُلّه ما يؤكد وجود صيغ سياسيَّة وفكريَّة ودعويَّة وثقافية وإعلامية، يتحقق بها التعاون والتكامل بين دول الأُمَّة الإسلاميَّة وشعوبها.

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧). وانظر: بكر بن عبدالله أبو زيد: حكم الانتماء... ص ١٥٧ - ١٦٨، (مرجع سابق)، بيَّن المؤلف في الصفحات المشار إليها (أن الدعوة إلى الله توقيفيَّة في حقيقتها ووسائلها، وبيَّن منهاجها في ضوء الكتاب والسنة وتطبيق السلف الصالح لها).

(٢) محمد أمين حسين: خصائص الدعوة الإسلاميَّة: ص ٣٣٨، ٣٣٩، (مرجع سابق).

ولأنَّ الإسلام هو دين الله المختار لجميع المكلفين، وهو الدين الخاتم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1]، ولايقبل الله من مكلف دينًا سواه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2]؛ ولأنَّ دعوة الإسلام ترتكز على عقيدة التوحيد الخالص لله وتحقيق العبوديَّة له، بما يتوافق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ فقد (دعا الله - تبارك وتعالى - الناس جميعًا - في غير إكراه - إلى اتباعها؛ لأنها دعت إلى عقيدة التوحيد التي دعا إليها الرسل وفاصلوا أقوامهم عليها، فوضح للناس جميعًا منذُ خلق آدم أبي البشر أن جميع ما أنزله، هو في حقيقته كتاب واحد ورسالة واحدة، تلخصت كلها في القرآن الكريم، فلا مدعاة للاختلاف بينهم إذا صدقوا العزم، وأخلصوا القصد، ونبذوا البغي والعصبيَّة، وفي هذا يقول جلَّ شأنه: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3]....

إنَّ الحق تبارك وتعالى لم يترك عباده هملا دون أن يبين لهم ما يتقون، فما دام قد بين لعباده أنَّه قد ضمن لهم الرزق في حياتهم الدنيا، فلابدَّ أن يتضمن كتابه له ما يضرهم، وما ينفعهم في مسار حياتهم المتعددة

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٨٥).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢١٣).

الجوانب، في شتّى صورها بدءًا من واجب الفرد إلى نظام الأُسرة مرورًا بشرائع الأُمَّة....، ثُمَّ بعد ذلك لايقف جهد النظام الإسلامي عند هذا الهدف وإنَّما يبني أحكامه على وحدة شاملة لجميع أهل الأرض أعلنها الله تعالى في كتابه....، فشمول الرسالة المحمديَّة للنظام يحكم الفرد والأسرة والمجتمع والدولة، فضلاً عما يدعو الله إليه من وحدة أهل الأرض جميعًا تحت راية الإسلام، لايستهدف علوًّا في الأرض ولا فسادًا، وإنَّما يستهدف تمكين سلطان الدين في الأرض....، ثُمَّ يظل نداء الله للمؤمنين والمؤمنات يعلو بخصوصية ما ميَّزهم الله به على طوائف البشر جميعًا، وبما حققه المؤمنون أنفسهم من إدراك عملي لجوهر رسالة التوحيد في الأرض)[1].

والدعوة إلى هذا الحق وإلى صراط الله المستقيم جوهر رسالة الرسول ﷺ للناس كافة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[2]، وقد حمل الرسول ﷺ عبءَ الرسالة فبلغ عن ربه، واستفرغ في ذلك جهده، والدّارس لسيرته الشريفة يقف على حقيقة أنَّه ﷺ كان يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن في (جميع الأماكن والأزمان والأحوال، ودعا جميع أصناف الناس، كما

---

(١) صلاح شادي: الحريَّة مدخل إلى الدعوة الإسلاميَّة، (من أبحاث اللقاء الخامس للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد في نيروبي بكينيا بتاريخ ٢٦ من جمادى الآخرة إلى أول رجب ١٤٠٢ هـ (الموافق ٢٠ - ٢٤ إبريل ١٩٨٢ م)، مدرج في كتاب الدعوة الإسلاميَّة (الوسائل، الخطط، المداخل): ص ١٢٦، ١٢٧، ١٣٢، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، عن الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض.

(٢) سورة سبأ: الآية (٢٨).

استخدم جميع الأساليب والوسائل المشروعة المتاحة له،... يدعو فوق الجبل، وفي المسجد، والطريق، والسوق، وفي منازل الناس في المواسم، وحتى في المقبرة كما... يقوم بالدعوة في الحضر والسفر، وفي الأمن والقتال، وفي صحته ومرضه، وحينما كان يزور أو يزار، وكان يوجه دعوته إلى من أحبوه، ومن أبغضوه، وآذوه، ومن استمعوا إلى دعوته، ومن أعرضوا عنها، وبعث - عليه الصلاة والسلام -: الرسائل والرسل، إلى الملوك والرؤساء ممن لم يتمكن من الذهاب إليهم بنفسه، واستمر - عليه الصلاة والسلام - في أداء هذه المهمَّة الجليلة مشمرًا عن ساعديه، باذلاً كل ما في وسعه،... حتى لحق بالرفيق الأعلى،... وما أكثر المواقف في سيرته المطهرة التي يتجلى فيها حرصه الشديد على إخراج البشرية من الظلمات إلى النور، وإبعادهم عن كل ما يعرضهم لغضب الرب وعذابه)[1]، وسلك الصحابة الكرام وسلف الأُمَّة الصالح هذا المسلك متأسين برسولهم ﷺ، فقد (حفظ تاريخ الدعوة الإسلاميَّة المشرق مواقف السلف من هذه الأُمَّة من الصحابة ومن بعدهم رضي الله عنهم، وهي تدل على تحمسهم البالغ للدعوة الإسلاميَّة، وحرصهم الشديد على إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتعليمهم الكتاب والحكمة،... كانوا يبدؤون بدعوة الأعداء إلى الإسلام قبل القتال معهم، كما كانوا يحثونهم على قبوله، ويفرحون عند استجابتهم لذلك، ويتأسفون

---

(١) فضل إلهي: الحرص على هداية الناس: ص ١٨، ١٩، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ-١٩٩١ م، عن مكتبة المعارف - الرياض، وانظر: المرجع نفسه: ص ٢٠ - ٤٠، نماذج من أحوال دعوة الرسول ﷺ، وأساليبها ووسائلها، ومَنْ توجَّه إليهم بالدعوة ومراحلها.

ويحزنون لإعراضهم عنه... بل كان الدعاة والمعلمون يُبْعَثُون إلى البلاد المفتوحة لنشر الإسلام، وتفقيه الناس أمور دينهم)[(١)].

والدعوة على هذا النحو تسهم في تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة وهو ما اتسم به تاريخ الإسلام وحضارته، وقد شهد بذلك بعض المنصفين من الغربيين مثل (سير توماس أرنولد) الذي ألف كتابًا وأسماه (الدعوة إلى الإسلام)، وقال فيه: (إنَّ الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكانًا بين ما نسميه أديان الرسالة لهي حماسة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدتهم، وليس موضوع هذا الكتاب، إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة في تبليغ الدعوة، ودواعي وألوان نشاطها)[(٢)].

وقال - أيضًا -: (يرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض إلى أسباب شتى: اجتماعية وسياسيَّة ودينيّة، على أن هناك عاملاً من أقوى العوامل الفعَّالة التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة المسلمين، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام متخذين من هدي الرسول ﷺ، مثلاً أعلى، وقدوة صالحة)[(٣)].

ويلفت (توماس أرنولد) النظر إلى جهود التجار المسلمين والحجاج

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٤١، وانظر: تطبيقات السلف في الصفحات: ٤٢ - ٨٣، المرجع السابق نفسه.

(٢) الدعوة إلى الإسلام: ص ٢٥، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، (مرجع سابق)، وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٢٦٥، (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٩٤، وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٢٦٥، (المرجع السابق نفسه).

العائدين من مكة المكرمة، وطلبة العلم في نشر الدعوة إلى الإسلام، قائلاً: (وحيثما شق الإسلام طريقه نجد هناك الداعي المسلم حاملا الدليل لعقائد هذا الدين؛ فالتاجر سواء أكان من العرب أم (الفلبي) أم (المندنجو) يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته، وإن مهنته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام، والحاج الذي عاد من مكة مليئًا بالحماسة من أجل نشر العقيدة الإسلاميَّة التي وقف عليها كل جهوده متنقلاً من مكان إلى آخر، وطالب العلم الذي يلقى تكريمًا باعتباره رجل علم تفقه في الدين والشريعة الإسلاميَّة)[1].

ويربط باحث آخر من الغربيين وهو (لو ثروب ستودارد) بين نهضة الدعوة إلى الإسلام في العصر الحديث وبين بداية انتشارها فيقول: (لا شيءَ أدلَّ على هذه النهضة الإسلاميَّة الحديثة الكبرى، من هذه اليقظة الروحانية الدينيَّة التبشيرية، الناشئة والمنتشرة خلال مائة السنة الأخيرة، ولا غرابة في ذلك، فقد كان الإسلام على الدوام دين هداية الناس، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، هذا التاريخ شاهد حق على ما قام به المبشرون المسلمون في أول عهد الإسلام من الأعمال الجليلة التي لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين، ولاننسى أن روح التبشير ونشر الدعوة في سبيل الرسالة لم تبرح حيّة على الدوام، على انحطاط الممالك الإسلاميَّة وتدنيها، فلذلك ما انفك الإسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر في الهند والصين، وبينما كانت الرسالة المحمديَّة تنتشر في نائي تلك الأصقاع، كان الترك ينشرونها، ويرفعون أعلامها في

---

(١) الدعوة إلى الإسلام: ص ٣٩١، ٣٩٢، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: فضل إلهي: الحرص على هداية الناس: ص ٦١، (مرجع سابق).

شبه جزيرة البلقان، وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربي إفريقيا، وجزائر الهند الهولندية، وجزائر الفليبين فتحًا دينياً مبينًا)[1].

وبعد أن يذكر ما حدث للدعوة الإسلاميَّة من خمود في أعقاب ذلك، ثُمَّ ما حدث لها في العصر الحديث من يقظة أشار إلى حقيقة لازمت الدعوة إلى الإسلام، فيقول: (وعند اعتبار شأن انتشار الإسلام هذا الانتشار، يجب أن تعلم العلم اليقين أنّ كل مسلم هو بغريزته وفطرته مبشرٍ بدينه، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعلى ذلك أن نشر الرسالة المحمديَّة لم يقم به رجال التبشير وحدهم... بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج على اختلاف أجناسهم، ولايؤخذن من هذا أن لم يقم في المسلمين مبشرون (دعاة) ارتشفوا كؤوس الحمام في سبيل الدعوة الإسلاميَّة، فعديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير،...، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر، فقد قال أحد الإنكليز - في هذا الصدد - منذ عشرين سنة: «والإسلام يفوز في أواسط أفريقية فوزًا عظيمًا حيث الوثنيَّة تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلول الصباح، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات» ، وقال مبشر بروستنتي فرنسي: «ما برح الإسلام (يتقدم) منذ نشوئه حتى اليوم فلم يعثر في سبيله إلاّ القليل، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقية مذلّلاً أشق المصاعب، ومجتازًا أشد الصعاب، غير واهن العزم،

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ١/ ٣٠٠، ٣٠١، (مرجع سابق). وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٢٩٢، (مرجع سابق).

فالإسلام حقًا لايرهب في سبيله شيئًا، وهو لاينظر إلى النصرانية، منازعته الشديدة، نظرة المقت والازدراء، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر، إذ بينما كان النصارى يحلمون بفتح إفريقية في نومهم، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم»)[1].

أمَّا الجهاد فله مفهوم واسع، يقول الراغب الأصفهاني: (الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[4]... والمجاهدة تكون باليد واللسان)[5].

وبهذا يتبين أنَّ الجهاد يبدأ من داخل المؤمن كي ينتصر على أهوائه وشهواته ويجاهد نزغات الشيطان ووسوسته، ليستقيم على صراط الله المستقيم، وبذلك يكون فردًا صالحًا في مجموع الأُمَّة، ثُمَّ يرقى إلى إدراك مهمته في الحياة، وواجبه في نشر الدعوة والدفاع عنها، وبذلك يندرج في الأُمَّة الإسلاميَّة، ثُمَّ إنّ هذه الأُمَّة مضطرة إلى الجهاد للمحافظة على ذاتيتها والدفاع عن وجودها والاضطلاع برسالة ربها في

---

(١) حاضر العالم الإسلامي: ١/٣٠١، ٣٠٢، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام: ص ٢٩٣، (مرجع سابق).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٣) سورة التوبة: الآية (٤١).

(٤) سورة الأنفال: الآية (٧٢).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (جَهَد)، (مرجع سابق).

نشر دينه وإعلاء كلمته، وللجهاد في الإسلام معنى حضاري فريد؛ (فالجهاد يعكس مفهوم الأمن الإسلامي الذي يركز على إيصال الرسالة وتبليغها إلى الآخرين بغية توفير الأمن الفكري والمادي والنفسي لبقاء النوع البشري ورقيه، ذلك أن مصدر الخطر على بقاء النوع البشري ورقيه - حسب التصور الإسلامي - يكمن في (القيم) التي تَكْفُرُ - أي تَحْجُبُ وتُخْفِي - قوانين الخلق في النشأة والمصير، وتقتصر على نوازع التمتع بالحياة وشهواتها، ومن هذا - الكفر - تتشوه جميع أشكال الاعتقاد والشعور والممارسات في ميادين السلوك والاجتماع، والعلاقات، حتى إذا ظهر أهل الكفر في الأرض أشاعوا الفتن، والمظالم السياسيَّة، والمفاسد الاجتماعية وردوا شبكة العلاقات الاجتماعية إلى عهود الغاب والهمجيَّة والتخلف، ولذلك كان طلب بذل النفس لمحاربة قيم الكفر ومؤسساته وممثليه، وبذل المال لنشر قيم الرسالة الإسلاميَّة وإقامة مؤسساتها والإنفاق على العاملين والدارسين فيها حتى يتحقق التفوق للقيم الإسلاميَّة فيشيع السلام ويكون الدين كله لله، وهذا المفهوم الإسلامي للأمن والسلام يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الأمن القومي الذي ترفع لواءه المجتمعات المعاصرة، وتتخذه ذريعة لممارسة مختلف أشكال العدوان ضد بعضها...)[1].

ويختلف مفهوم الجهاد في الإسلام - كذلك - تمام الاختلاف عن المفاهيم القديمة والحديثة، فهو مختلف عن مفهوم الغزو لدى العرب

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني: الأُمَّة المسلمة (مفهومها، إخراجها، مقوماتها): ص ٧١، ٧٢، (مرجع سابق).

قبل الإسلام، ويختلف عن مفهوم الحرب المقدسة لدى الغرب[1]، وإنَّما هو (بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب، وأكبر وطر للمسلم طاعة الله ورضوانه، والخضوع لحكمه، والاستسلام لأوامره، وذلك يحتاج إلى جهاد طويل وشاق ضد كل ما يزاحم ذلك من عقيدة وتربية، وأخلاق، وأغراض، وهوى، وكل ما ينافس في حكم الله وعبادته من آلهة في الأنفس والآفاق، فإذا حصل ذلك للمسلم وجب عليه أن يجاهد لتنفيذ حكم الله، وأوامره في العالم من حوله، وعلى بني جنسه، فريضة من الله، وشفقة على خلق الله؛ ولأنَّ الطاعة الانفراديَّة قد تصعب وتمتنع أحيانًا بغير ذلك، وذلك ما يسميه القرآن (الفتنة)، ومعلوم أنَّ العالم كله بما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان، خاضع لمشيئة الله وأحكامه التكوينيَّة، وقوانينه الطبيعيــة ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾[2]، ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾[3]، فيتعين أن جهاد المسلم إنَّما هو لتنفيذ شريعته التي جاء بها الأنبياء، وإعلاء كلمته ونفاذ أحكامه، فلا حكم إلا لله، ولا أمر إلا له، وهذا الجهاد مستمر ماضٍ إلى يوم القيامة، وله أنواع وأشكال لايأتي عليها الحصر، منها القتال، وقد يكون أشرف أنواعه، وغايته أن لاتبقى في الدنيا قوتان متساويتان متنافستان، تتجاذبان الأهواء والأنفس

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٧٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية (٨٣).

(٣) سورة الحج: الآية (١٨).

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[1].

ومن مقتضيات هذا الجهاد أن يكون الإنسان عارفاً بالإسلام الذي يجاهد لأجله، وبالكفر والجاهلية التي يجاهد ضدها، يعرف الإسلام معرفة صحيحة ويعرف الكفر والجاهلية معرفة دقيقة، فلا تخدعه المظاهر، ولاتغره الألوان، ولايجب على كل مسلم أن تكون معرفته دقيقة بالكفر والجاهلية، ومظاهرهما، وأشكالهما وألوانهما، ولكن على من (يتولى زمام الدعوة إلى الإسلام، أو) يتولى قيادة الجيش الإسلامي ضد الكفر والجاهلية، أن تكون معرفته بالكفر والجاهلية فوق معرفة عامة المسلمين وأوساطهم، كذلك يجب أن يكون استعدادهم كاملاً وقوتهم تامّة، يقارعون الحديد بالحديد، بل باقوى من الحديد، ويقابلون الريح بالإعصار، ويواجهون الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه،...، وبكل ما اكتشفه الإنسان ووصل إليه العلم في ذلك العصر، من سلاح وجهاز، واستعداد حربي لايقصرون في ذلك ولايعجزون: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2])[3].

ومن خلال القيام بدراسة الدعوة والجهاد باعتبارهما من وسائل تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة يظهر الترابط بينهما، ويتجلى مفهوم الجهاد، وتحديد مظاهره، وفي ضوء هذا فإنَّه: (لايكون الجهاد أصيلا

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٣).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٦٠).

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ١٣٠، ١٣١، الطبعة الرابعة عشرة، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م، عن دار القلم، الكويت.

شاملاً ما لم تتابع التربية وظيفتها في تأصيل معناه وتبيان مظاهره، وتفصيلها حسب متطلبات الزمان والمكان، والذي يقرر عمل التربية في هذا المجال ثلاثة عوامل؛ الأول: درجة تطور البشرية، والثاني: نوع التحديات القائمة في الداخل والخارج، والثالث: نسخ المظهر الجهادي، أو رفع النسخ عنه، وانطلاقاً من هذه العوامل الثلاثة تنقسم مظاهر الجهاد إلى ثلاثة مظاهر رئيسية يندرج تحت كل منهما تطبيقات عملية لا حصر لها ولا نهاية؛ وهذه المظاهر الرئيسية هي:

١- **الجهاد التربوي:** يستهدف الجهاد التربوي تزكية الإنسان المسلم من منزلة - الخضوع للغرائز والدوافع - الآنية المؤقتة التي تبقيه حبيس الشهوات والانفعالات الفردية التلقائية والارتقاء به إلى منزلة - تحقيق الذّات - التي يحقق الإنسان عندها إنسانيته، فيسترشد بتفكيره وعقله وخبراته المنظمة عن الخالق والكون والإنسان والحياة.

٢- **الجهاد التنظيمي:** وغاية هذا الجهاد تنظيم (وسع) الأُمَّة - حسب التعبير القرآني - أي طاقاتها وقدراتها المعنوية والماديّة والبشرية، والتنسيق بينها بما يكفل حشدها وتكاملها - دون هدر أو نقص - لتحقيق أهداف الرسالة.

٣- **الجهاد العسكري:** وغاية هذا الجهاد هو إزالة العوائق التي تحول دون الحفاظ على بقاء النوع البشري ورقيه، حين لاتنجح أشكال الجهاد التربوي والتنظيمي في تحقيق هذه الغاية وحدها، ويتجلى اقتران هذا النوع من الجهاد بالرسالة الإسلاميّة من خلال الضوابط العقيديّة والأخلاقية التي تحكمه وتوجهه بحيث لايخرج لحظة واحدة عن غايات

الرسالة وأهدافها، وحين تتحقق أهداف الرسالة دون قتال يتوقف الجهاد القتالي ويصير ممنوعًا)[1].

وبالنظر لمنطلقات الجهاد وغاياته ومظاهره، وضوابطه الشرعيَّة ومجالاته ووسائله، يتبين أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة أُمَّة مجاهدة لتحقيق مراد الله في نفسها أولاً وقبل كل شيء، ثُمَّ لنشر دعوة الإسلام إلى الخلق كافة، ثُمَّ يأتي الدفاع عن وجود الأُمَّة، ونشر الدعوة، والاضطلاع بحمل الرسالة لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى؛ ولأنَّ حكمة الله اقتضت أن لايستجيب جميع الناس لصوت الحق ولايلتزم أكثرهم بالإسلام، بل ينبري لدعوة الإسلام في كل زمان أعداء ألداء، وخصومٌ جائرون فإنَّ مجاهدة هؤلاء تكون من المبادئ الإسلاميَّة والمجاهدة تكون في صور كثيرة منها الصبر على أذاهم وتقوى الله في ذلك لقوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[2]، ومنها المجادلة بالتي هي أحسن وبخاصة مع أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾[3]، وقد تنتهي المجادلة معهم بالمباهلة لقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني: الأُمَّة المسلمة... ص ٧٢ – ٧٤، (المرجع السابق نفسه). وانظر: عبدالعال سالم مكرم: أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع: ص ١٥٩ – ١٦٤، (مرجع سابق). وانظر: محي الدين حسن القضماني: مصطلحات إسلامية: ص ٨٣ – ٩١، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م، عن المكتب الإسلامي – بيروت.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٨٦).

(٣) سورة العنكبوت: الآية (٤٦).

مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1].

ومن صور الجهاد المصابرة والمرابطة لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] قال ابن قيم الجوزية في تفسيرها: (والمصابرة مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنَّها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة... والمرابطة: وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة... فالمرابطة كما أنَّها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان...، وسمِّي المرابط مرابطًا: لأنَّ المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع، ثُمَّ قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها مرابط...)[3].

وقال في موضع آخر: (وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى)[4].

وقد تصل مجاهدة الأُمَّة الإسلاميَّة لغيرها من الأمم إلى درجة القتال وعندها فإنَّ للإسلام منهجًا متميزًا لم يشهد له التاريخ مثيلاً، من حيث الضوابط الشرعيَّة لإعلان الحرب والقتال، وما شرعه الإسلام في التعامل مع أهل الكتاب - ومن ألحقه علماء الأُمَّة الإسلاميَّة بهم -

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٦١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٢٠٠).

(٣) بدائع التفسير ١/٥٤٠، ٥٤١، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ١/٥٤٣.

إذا لم يستجيبوا لدعوة الإسلام، فإنهم يخيرون بين دفع الجزية أو القتال، فإذا اختاروا الجزية فإنها تؤخذ منهم لاعتبارات عدّة، وإلى جانب ذلك فإنَّ لأسلوب أخذها في الإسلام أخلاقًا ساميًّة (سبق ذكر مجملها)، وإذا أبوا إلا القتال فإنَّ للقتال والحرب في الإسلام منهجًا فريدًا يُمكن تلخيص مرتكزاته في الآتي:

١- أن يكون لإعلاء كلمة الله، يقول أبو الحسن العامري: (لسنا نشك أنَّ الوقائع الحربيَّة بين أصناف الخليقة لن تقع إلاّ على جهات ثلاثة، هي: الجهاد، والفتنة، والتصعلك، فأمَّا الجهاد: فهو الذي يتولاه عمَّار البلاد، وساسة العباد، من الدفاع عن الدين، وصيانة للمراتب، وأمَّا الفتنة: فهو ما يقع بين طبقات الأمم من الهيَجِ والقتال: لتعصب بلدي، أو تعصب نسبي، وأمَّا التصعلك: فهو ما يقصد به من انتهاب المال، واستلاب الأملاك، فالنوع الأول نتيجة القوة التمييزية، وهو محمود عند ذوي الألباب، وأمَّا النوعان الآخران فأحدهما نتيجة القوة الغضبيَّة، والآخر نتيجة القوة الشهويًّة، وكلاهما مذمومان عند ذوي الألباب)[1].

---

(١) كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٥٦، (مرجع سابق). ومن الضوابط للقتال في الإسلام، أو للدخول في الحرب أن تكون في سبيل الله، وأن تكون معلنة من قبل ولاة أمر الأمّة الإسلاميَّة وألاّ يدخلها الفرد إلاّ بإذن من ولي أمر المسلمين، وإذا كانت راية الجهاد مرفوعة في بلدٍ من بلدان الأمّة الإسلاميَّة فإنّه لايجوز لأيّ فردٍ من قطر آخر أن يدخل الجهاد إلاّ بإذن ولي الأمر في قطره، وكذلك يشترط لمن كان أبواه حيين إذنهما ليذهب إلى الجهاد، (انظر في هذا كتب الفقه).

وعلى سبيل المثال: المغني لابن قدامة ٨/١٣ - ١٠، ١٦، ١٧، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٣ - ٣٥، ٣٧ - ٤١، ففي الصفحات (٨-١٠)، ذكر شروط الجهاد وهي: (الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحريّة، والسلامة من الضرر، ووجود النفقة)، وفي الصفحة ١٦ قال:=

ويصف أبو الحسن العامري الجهاد القتالي في الإسلام ممثلاً في الرسول ﷺ فيقول: (ونحن متى تتبعنا حال محمد ﷺ في حروبه ووقائعه وجدناه جاعلاً لقصارى غرضه من الثبات القوي في مصاف القتال كلمة يبذلها خصمه قريبة من الإقرار بوحدانية من له الخلق والأمر، والتصديق بما أرسل إليه من عنده – جل جلاله – حتى إذا وجدها منه أغمد سيفه، وأوجب على نفسه حمايته)[1].

ب- أن لايكون اعتداءً ولاتجاوزًا، وكون القتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وإظهار الحق، وإزهاق الباطل فإنَّ أيَّ مظنَّة للظلم أو التجاوز أو التعسف في استعمال الحق، ونحو ذلك ممَّا لايتفق مع غاية القتال وأخلاق الإسلام فيه، كل ذلك لايجيزه الإسلام ولايرضاه، بل نهى عنه وحرَّمه.

وقد استنتج بعض الباحثين من ذلك أمرين؛ أحدهما: أنَّ القتال في الإسلام (ليس للإجبار على اعتناق الإسلام...)[2].

والآخر: أنَّه (ليس عقابًا على الكفر... الذي ولد عليه صاحبه ونشأ

=(وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده ويلزم الرعيَّة طاعته فيما يراه)، وقال في الصفحة ٢٥: (وإذا كان أبواه مسلمين لم يجاهد تطوعًا إلاَّ بإذنهما).

وناقش في الصفحات التي قبلها وبعدها مسائل كثيرة بيَّن فيها أحوال الجهاد ومتى يكون فرض كفاية ومتى يكون فرض عين، والجهاد في هذا المقام بمعنى الخروج لقتال العدو.. وفي هذه المسائل ما يبين عمق الأخلاق الإسلاميَّة وسماحة الإسلام وما ينطوي عليه من الحكمة والنظرة الدقيقة الفاحصة لأمن الأمَّة الإسلاميَّة وسلامتها والبعد بها عن مواطن الفتن والتهور بقدر ما يحافظ على عزتها وكرامتها وسيادتها.

(١) كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٥٧، (المرجع السابق نفسه).

(٢) عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني: سماحة الإسلام... ص ١٤٩، (مرجع سابق).

عليه... وصاحبه لم يسبق له الدخول في الإسلام (أمَّا) الكفر الطارئ على صاحبه بعد الدخول في الإسلام... ففيه حدّ الردَّة كما ورد في السنة وعمل الخلفاء الراشدين مع إجماعهم عليه...)[1].

وفي هذا ما يؤكد سماحة الإسلام في أمر الجهاد، ومن أبرز ذلك؛ هذان الأمران:

الأول: إنَّه لَمْ يكن من مشروعية القتال في الإسلام حمل الناس بالقوة المسلحة على اعتناق الدين؛ لأن في القرآن العظيم نصًا واضحًا وصريحًا ومحكمًا يمنع من هذا الهدف، وهو قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[2].

الثاني: أن لايكون عقابًا على الكفر الأصلي الذي ولد عليه صاحبه ونشأ، فالكفر أعظم الذنوب، ومع ذلك فالأمر فيه موكول إلى الله سبحانه يعاقب عليه في الآخرة بالخلود في النَّار، أمَّا في الدنيا فليس لأحد أن يعاقب صاحب الكفر الأصلي بالقتال عليه أو القتل، ودم الكافر كفرًا أصليًّا مصون كماله وعرضه، إلاّ إذا حارب المسلمين أو انضم لمن يحاربهم فيكون هو الذي أهدر دم نفسه)[3].

ج – للقتال في الإسلام ضوابط وأخلاق تكفل السلام للبشرية قاطبة، بل تجعل السلام هو السائد وهو المأمور بالجنوح إليه لقوله تعالى:

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٤٩، ١٥٠.

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

(٣) انظر: عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني: سماحة الإسلام... ص ١٥١، (المرجع السابق).

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾[1]؛ فالسلام في الإسلام يحقق (احترام النوع الإنساني لإنسانيته، وذلك عام لكل الناس: أفرادًا وأسرة، وجماعات، ومجتمعات إنسانية عالميَّة في إطار الكرامة، والمساواة والعزَّة، وإرادة الخير والحق... وشامل لكل أحوال الإنسان فهو لايعني مجرد الكف عن الحرب بأيٍّ ثمن، ولو كانت هناك حرب نفسية داخل الإنسان، أو جحيم لايطاق داخل الأسرة، أو مهما يقع في الأرض من ظلم وفساد، ومهما يلحق العباد من لأواء وشدة وضنك، وإنَّما يمتد ليشمل هذه المراحل كلها، وتلك الأحوال كلها، في خطوات متدرجة تدرجًا منطقيًا متوازنًا)[2].

ومن هنا يتضح (إنَّ الإسلام يبدأ محاولة السلام أولاً في ضمير الفرد، ثُمَّ في محيط الأسرة - ثُمَّ في وسط الجماعة - وأخيرًا يحاول في الميدان الدولي بين الأمم والشعوب... وإنَّه ليسير في تحقيق هذه الغاية الأخيرة في طريق طويل يعبر فيه عن سلام الضمير إلى سلام البيت إلى سلام المجتمع إلى سلام العالم في نهاية المطاف)[3].

ولعل تحية الإسلام وهي (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)؛ التي يتبادر بها المسلمون عند لقائهم، وعند وداعهم، مِمَّا يدل على نزعة السلام على الأُمَّة الإسلاميَّة، حتى لقد بلغ الأمر بالآداب الإسلاميَّة أن لو فرقت بين اثنين شجرة أو شاخص أو نحوهما، وهما في طريق ما أن

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٦١).

(٢) انظر: عثمان جمعة ضميرية: منهج الإسلام في الحرب والسلام: ص ٣٦، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، عن مكتبة دار الأرقم الكويت.

(٣) سيد قطب: السلام العالمي والإسلام: ص ٢٨، طبعة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م.

يبادر أحدهما الآخر بالسلام حال لقائهما في ذلك الطريق، وقبل ذلك وبعده مسمًّى (الإسلام) ذاته فهو يتضمن السلام والمسالمة.

أمَّا حالة القتال والحرب فهي حالة طارئة ومقيدة بشروط دقيقة، ولها ضوابط وأخلاق تكفل الرحمة بالخلق من إنسان وحيوان وما يحيط بهما من موجودات البيئة الفطريَّة[1]، ومن هذه الضوابط مايأتي:

أولاً: (ضوابط قبل بدء القتال، ومنها: أن لايقاتل العدو إلا إذا سُدَّت كل الطرق أمام التوصل إلى عقد اتفاق سلمي...، ومنها: ألا نبدأ هم بالقتال حتى يبدؤوناهم به مع أخذ الحذر الدقيق منهم.. ومنها: أنه إذا كان بيننا وبين العدو عهد بعدم الاعتداء، وبدرت (منه) بوادر قويَّة على خيانة العهد وجب علينا أن نعلمه بنقض العهد من جانبنا قبل أن نقاتله...

الثاني: ضوابط أثناء القتال، أن يكون مقصورًا على من قاتلنا فعلاً، أو عزم على قتالنا يقينًا، أو ظنًّا قويًّا تؤيده قرائن الأحوال الواردة من العدو... وأن لايكون اعتداءً وتجاوزًا من جانبنا كقتل الشيوخ والنساء والذرية، والضعفاء، والرهبان المعتزلين في خلواتهم أو بيوتهم... وحظر ضرب الأهداف المدنية - كما هو معروف في الفقه الدولي الحديث - أي أنَّ الجيش المسلم حين يخوض حربًا واجبة شرعًا، فعليه أن يقتصر حربه على قتال من حمل السلاح من العدو وجابهنا به، أو شارك فيه بأي لون من ألوان المشاركة كالتخطيط، ونقل المؤن والعتاد والجنود إلى ميدان القتال، أو المؤسسات الحربية، ومركز القيادات وإصدار الأوامر وتدبير شؤون القتال، أمَّا النساء والأطفال وكبار السن ورجال الدين والرهبان

---

(١) انظر: مطلب العقيدة الإسلاميَّة: ص ٣٣١ - ٣٣٥، (البحث نفسه)، وانظر: عبدالكريم الخطيب: الحرب والسلام في الإسلام: ص ١٣ - ٣٢، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م، عن دار الفكر - دمشق.

الذين حبسوا أنفسهم في أديرتهم ومعابدهم ولم تكن لهم صلة بأمور الحرب الدائرة، وكذلك الزروع والماشية والمؤسسات المدنية كمخازن المياه والتموين الغذائي للمدنيين، والطرق غير الحربية ومراكز الطاقة الحيويَّة المتصلة بحياة العامَّة اليوميَّة، والمدارس والمعاهد والجامعات والمستشفيات المدنية، فهذه كلها لايتعرض لها بسوء أخذًا بسنة صاحب الرسالة ﷺ وخلفائه الراشدين، والاعتداء عليها داخل في الاعتداء المنهي عنه (في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[1]) هذا ما يرجحه كثير من الفقهاء، ولكنه مشروط بشرط عادل ومهم وهو: أن لايعتدي علينا العدو بضرب هذه الأهداف لدينا فإذا اعتدى العدو علينا بضرب مثل هذه الأهداف جاز لنا ضرب ما تصل إليه أيدينا من منشآته كذلك أخذًا بمبدأ المعاملة بالمثل لقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾[2]...)[3].

ومن الضوابط الأخلاقية أثناء القتال (عدم المثلة بقتلى الأعداء... لأنها عمل حقير ولاتليق بكرامة الإنسان مسلمًا كان أو غير مسلم... والاستجابة إلى كف القتال إذا طلب العدو ذلك شريطة ألا يكون مخادعًا...)[4].

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٠).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٩٤).

(٣) انظر: عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني: سماحة الإسلام... ص ١٥٤، ١٥٥، (مرجع سابق).

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٥٦.

أمَّا الضوابط التي تكون بعد القتال فتتعلق بالأسرى وكيفية التعامل معهم على نحو ما ذكر الفقهاء في ذلك[1]، وما يجب على المسلمين بعد القتال مع إحراز النصر من (الالتزام الكامل بمنهج الله من التواضع وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصر الله واتباع هديه في كل شؤون الحياة الخاصة والعامة: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[2]... إن النصر والتمكين في الأرض من أجل النعم على المسلمين بعد الإيمان بالله، وشكر هذه النعم يكون بطاعة الله ورسوله، لا بالسعي في الأرض فسادًا، والطغيان على عباد الله... وفي هذا الإطار المحكم من التوجيه الإسلامي الخلقي جرت معارك المسلمين مع أعدائهم)[3].

* * *

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٥٧، وانظر: عثمان جمعة ضميريَّة: منهج الإسلام في الحرب والسلام: ص ٢١٦ - ٢١٩، (مرجع سابق). وانظر: عبدالكريم الخطيب: الحرب والسلام في الإسلام: ص ٣٢ - ٣٨، (مرجع سابق).

(٢) سورة الحج: الآية (٤١).

(٣) عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني: سماحة الإسلام: ص ١٥٧، (المرجع السابق نفسه).

المطلب الثاني

موقف المستشرقين من تاريخ الإسلام وحضارته

تَمَيُّز تاريخ الإسلام وحضارته بالتوازن بين الروح والمادَّة، والربط بين عالم الغيب والشهادة، ولذلك فإنَّ تفسير هذا التاريخ وحضارته لايتأتى بتلك المناهج التي درج عليها بعض المستشرقين في تفسير التاريخ بعامة، وتاريخ الإسلام وحضارته بخاصَّة، فقد تجنَّى أولئك المستشرقون - في عامة دراساتهم - على ثوابت التاريخ الإسلامي، وفسروه تفسيراً ماديًّا، أو قوميًّا، وكأنهم إزاء تاريخ الغرب وحضارته الماديَّة، بل درج بعضهم على تطبيق المنهج المعكوس في حق تاريخ الإسلام وحضارته[1]، فإذا كان يدرس تاريخ الديانة النصرانية في جوانبها الروحيَّة في طور تاريخي يركز على جانب الروح، طبَّق في حق تاريخ الإسلام وحضارته عكس هذا المنهج بما يظهر أنَّ الإسلام ذو نزعة ماديَّة شهوانية، وإذا حدث في طور آخر التركيز على الجانب المادي في بناء الحضارة، ودراسة مقوماتها، أبرز الإسلام وكأنَّه ذو نزعة روحية - فحسب - ولايحفل بالجانب المادي في بناء الحضارة وتفسير التاريخ[2].

---

(١) انظر: محمد بن عبود: منهجيَّة الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي؛ مقال مدرج في مناهج المستشرقين في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة ٣٦٢/١، إصدار مكتب التربية العربي لدول الخليج، (مرجع سابق).

(٢) انظر: عبدالعظيم محمود الديب: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي: ص١٠٣ - ١١٤، ١٢٠ - ١٢٥، (مرجع سابق)، وانظر: عبدالعليم عبدالرحمن خضر: المسلمون وكتابة التاريخ (دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ): ص ٢٨٨، الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، عن الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض.

وقد نتج عن هذه المناهج القاصرة عن تفسير تاريخ الإسلام وحضارته تفسيرًا يتفق مع حقائقه، وما يصدر عنه من مبادئ وقيم، وأخلاق ومثل؛ نتج عن هذه المناهج، مصادرة بطولات المسلمين، واستلاب حضارتهم، وتزييف تاريخ الإسلام وحضارته في معظم ما أنجزه المستشرقون من دراسات وصفيَّة أو نقدية لهذا التاريخ وحضارته[1].

وفي ضوء ما سلف بيانه - من دوافع الاستشراق ومظاهر نشاطه، وعلاقاته بدوائر العداء للإسلام - يتضح أن منهج المستشرقين في دراساتهم لتاريخ الإسلام وحضارته قد تأثر بالظروف التاريخية التي عاشها المستشرقون في مختلف مراحل حركتهم الاستشراقية وأطوارها.

ويتأكد أنّ ذلك المنهج كان خاضعًا في مساره العام للكنيسة والتنصير ثمّ للاستعمار، ووقع في وقت مبكر في براثن الحركة الصهيونية وانطلق كذلك من منطلقات عقدية وسياسية واقتصادية كان لها تأثير في مسار ذلك المنهج وكانت سببًا في تجريمه ليس من قبل المفكرين المسلمين فحسب بل ومن المنصفين في الغرب ذاته وإن كان بعضهم يفرق بين الاستشراق اللاهوتي والاستشراق العلمي ولكن مهما اختلف المنحى وتغير الأسلوب فإنَّ المنهج الاستشراقي لم يسلم أبدًا من كونه مجافيًا لما يقتضيه المنهج العلمي الصحيح من موضوعية وإنصاف وبعد عن التعصب ونوازع الأهواء.

ولمزيد الإيضاح والاستدلال يجري الحديث عن المنهج الاستشراقي في

---

(١) انظر: محمد بركات البيلي: الخلفيَّة التاريخية للاستشراق ومنهجه في كتابة التاريخ الإسلامي: ص ١٣٦ - ١٤١، (مرجع سابق).

دراسة تاريخ الإسلام وحضارته في النقاط الآتية:

أولاً: نقد بعض المستشرقين للمنهج الاستشراقي:

درج المستشرقون في الأعم الأغلب على نقد من سبقهم من المستشرقين بعامة ومستشرقي العصور الوسطى بخاصة، ومما يتناوله هذا النقد منهج أولئك المستشرقين في كثير مما تركوا من دراسات تتسم بالقصور في البحث أو عدم الاستيعاب أو مجانبته الصواب.. ومن ذلك ما يتصلِ بتاريخ الإسلام وحضارته، ويطلقون على ذلك مسمى الاستشراق اللاهوتي، ومن النماذج التي تذكر في هذا الموضوع من آراء المستشرقين الناقدين ما يأتي:

أ) - يقول أحد المستشرقين: (حقيقة إن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعًا ما، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للمسيحية لايُمكن أن يكون فيه خير. وهكذا كان الناس لايولون تصديقهم إلاّ لتلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل، وكانوا يتلقفون بنهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي أو إلى دين الإسلام)[١].

ب) - ويقول مستشرق آخر: (.. توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة

---

(١) رودي بارت: الدراسات الإسلاميَّة والعربية في الجامعات الألمانية، ص ٩، ١٠، ترجمة مصطفى ماهر، (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ٢٥، ٢٦، (مرجع سابق).

الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة)[١].

ج) - ويقول (ساذرن) عن المنهج الاستشراقي في العصور الوسطى ويطلق عليها اسم عصر الجهالة: (إن الشيء الوحيد الذي يجب أن لانتوقع وجوده في تلك العصور هو الروح المتحررة الأكاديمية، أو البحث الإنساني الذي تميز به الكثير من البحوث التي تناولت الإسلام في المائة سنة الأخيرة)[٢].

د) - ويقول (مونتجمري وات): (منذُ القرن الثامن عشر جد الباحثون من أجل تقديم الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا للإسلام، ولكن رغم الجهد العلمي المبذول فإنَّ آثار الموقف المجافي للحقيقة والتي ولدتها كتابات القرون الوسطى في أوروبا لازالت قائمة، فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتثاثها كليًّا)[٣].

هـ) - ويقول مستشرق آخر: (على الرغم من المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا كليًّا عنها كما يتوهمون)[٤].

---

(١) زقزوق: الاستشراق.. ص ٤٤، (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الإسلام في الفكر الغربي (عرض ومناقشة)، ص ٦٠ الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، عن دار القلم - الكويت.

(٢) سازرن: نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة علي فهمي خشيم وغيره نقلاً عن زقزوق: الاستشراق.. ص ٢٣، (مرجع سابق).

(٣) عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام: ص ٤، ٥، (مرجع سابق).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٥.

و) - وعن رسوخ النزعة المعادية للإسلام في صفوف المستشرقين وعبر طبقاتهم يقول أحد المستشرقين: (ولقد قامت في صفوفهم في السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفاذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني للمسلمين، بدل السطحية الفاضحة التي صبغت دراساتهم السابقة، ولكن (على الرغم) من ذلك فإنّ التأثر بالأحكام التي صدرت مسبقاً على الإسلام والتي اتخذت (صورة تقليد منهجي) في الغرب لا زال قوياً في بحوثهم ولايُمكن (إغفالها) في آيّة دراسة لهم عن الإسلام)[1].

ز) - ويقول مستشرق آخر: (لاتزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية)[2].

هذه نماذج للنقد الذي وجهه بعض المستشرقين للمنهج الاستشراقي في دراسته للإسلام وهي تبين في جلاء إخفاق ذلك المنهج ومجافاته للمنهج العلمي الرصين، ولعل سائلاً يسأل، ألم يصحح هذا المنهج على أيدي هؤلاء الناقدين من المستشرقين ؟.

ولعل الجواب على هذا السؤال ما قاله أحد الباحثين: (إنّ الدارس المتصف بشيء من العلمية الحيادية ليدهش إذا دفع بأنفه في خضم الدراسات الاستشراقية المعاصرة في الإسلام وما يتصل به عندهم.. وهكذا يبدو أن ازدياد المعرفة لم يقطع سوى خطوات محدودة لتبديد ما

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٥.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٥.

تراكم عبر القرون من موروثات متراكمة في نفسية المستشرق.. إنهم لم يحاولوا بالرغم من معرفتهم هذه أن يتخطوا الحواجز النفسية المتراكمة حتى يطلعوا بجديد لم يقله أجدادهم.. فإن الباحث يردد الآراء المعروفة والصور المألوفة بمشاعر المغير على ما لايملك والفخور بالاكتشاف الجديد. وهو بعد ذلك يلبس القديم ثوبًا جديدًا يشف عن طويته)[1].

ثانيًا: نقد بعض المفكرين والباحثين من العرب والمسلمين للمنهج الاستشراقي:

توافر عدد من المفكرين والباحثين من العرب والمسلمين على نقد الاستشراق ودراسة تاريخه في جذوره البعيدة وحاضره المشاهد وعلائقه وصلاته ووصل بعضهم إلى نتائج حاسمة في الحكم على منهجه (وبيان أخطائه وخياناته العلميّة.. والكشف عن مقدماته ونتائجه الفاسدة إلاّ أن هذه الدراسات وإن لم ترتقع بعد إلى المستوى الذي يستطيع إلحاق الهزيمة النهائية بعالم الاستشراق فقد كان له أثر لاينكر في توجيه الأنظار بصورة عامّة إلى منهجه الفاسد في دراسة الإسلام وحضارته وتاريخه وفضح نوازعه السيئة والكشف عن أهدافه، وتعد هذه الدراسات النقدية بداية طيبة لعمل كبير في هذا المضمار لأن دراسات المستشرقين - كما سبق - من الكثرة والتنوع والذكاء في المعالجة بحيث تحتاج إلى جهود)[2] كبيرة جداًّ.

من أولئك الباحثين: مصطفى السباعي، وعمر فروخ، وعبداللطيف الطيباوي، ومالك بن نبي، وادوارد سعيد، ومحمود حمدي زقزوق،

---

(١) قاسم السامرائي: الاستشراق.. ص ٦٩، (مرجع سابق).

(٢) محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين تجاه الإسلام ص ١٣١، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م، عن دار الصحوة.. مصر.

ومحسن عبدالحميد، وعماد الدين خليل، ومحمد البهي، وقاسم السامرائي، ومحمد عبدالله مليباري، وعلي النملة، وآخرون.

وفيما يأتي نماذج من تلك النتائج التي خلص إليها هؤلاء الباحثون:

أ) - لعل من أبرز تلك الدراسات في نقد المنهج الاستشراقي الدراسة التي أنجزها (إدوارد سعيد) وقال عنها محسن عبدالحميد: (من بين عشرات الكتب والدراسات والمقالات التي قرأتها حول الاستشراق.. الدراسة النفيسة التي كتبها الدكتور إدوارد سعيد حول الاستشراق بمنهج علمي حيادي صارم)[١].

فتعد دراسة (إدوارد سعيد) عن الاستشراق كما ذكر محسن عبدالحميد ذات (منهج علمي حيادي وثائقي صارم) في تعرية المنهج الاستشراقي وكشف زيفه وربطه بالعنصرية الغربية[٢] ضد الشرق بعامة والإسلام والمسلمين والعرب بصفة خاصة.

ومما ذكره في ذلك أن المستشرقين انتهجوا في دراستهم للإسلام منهجًا يستجيب للمراحل التاريخية التي مرَّ بها الغرب في علاقته بالشرق والإسلام[٣]، وأنهم عمدوا إلى تطبيق المقاييس النصرانية على الدين الإسلامي[٤].

وبعبارة مجملة فإنّ كتاب إدوارد سعيد عن الاستشراق (الاستشراق:

---

(١) محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين: ص ٣٤، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق.. ص ٨٧، ١٠٠، وص ٤٢، وص ٩٣، (مرجع سابق).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٥٥ وص ٤١.

(٤) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٩٠.

المعرفة. السلطة. الإنشاء)[1] كان بمثابة الإعلان عن هزيمة المنهج الاستشراقي هزيمة علميَّة منهجية[2]، فقد دلّل مؤلفه بطرق شتى على أن مهمة الاستشراق في تاريخه الطويل هي إنتاج العالم الإسلامي إنتاجًا آخر من شأنه تحقيق تبعيته للغرب ودوام انقياده لفكره وحضارته وثقافته[3].. ويتضح ذلك في كثير مما أورده في هذا الجانب مثل ما يأتي:

- (لقد استجاب الاستشراق للثقافة التي أنتجته - الثقافة الغربية - أكثر مما استجاب لموضوعه المزعوم)[4].

- (إذا كان جوهر الاستشراق هو التمييز الذي يستحيل اجتثاثه بين الفوقية الغربية والدونية الشرقية، فإنّ علينا أن نكون على استعداد لنلاحظ كيف أن الاستشراق في تناميه وفي تاريخه اللاحق قد عمَّق هذا التميُّز بل أعطاه أيضًا صلابة وثباتًا)[5].

- يعد كتاب (بارتلمي ديربيلو: المكتبة الشرقية، الذي طبع عام ١٦٩٧م، بعد وفاته مع مقدمة لأنطوان غالان، المرجع الرئيسي السائد في أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر.. وقد قسم هذا الكتاب التاريخ إلى نوعين: مقدس، ومدنس)[6]، وكان اليهود والمسيحيون في (النوع الأول،

---

(١) انظر: عنوان الكتاب، الطبعة الثانية ١٩٨٤م، نقله إلى العربية: كمال أبو ديب، (مرجع سابق).

(٢) انظر: مقدمة المترجم للمرجع السابق نفسه: ص ١، ٤، ٥، ٧.

(٣) انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق..: ص ٣٩، (المرجع السابق نفسه).

(٤) المرجع السابق نفسه: ص ٥٥.

(٥) المرجع السابق نفسه: ص ٧٣.

(٦) انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق ص ٩٣، ٩٤، (المرجع السابق نفسه).

والمسلمون في النوع الثاني)[1]، ويعدُّ هذا الكتاب - كما ذكر بعض المؤرخين - (الأب الأول لدائرة المعارف الإسلاميَّة الحديثة)[2].

- (لقد كان أحد الضوابط المقيدة التي أثرت على المفكرين المسيحيين الذين حاولوا فهم الإسلام ينبع من عملية قياسية، مادام المسيح هو أساس العقيدة المسيحية، فقد افترض - بطريقة خاطئة تمامًا - أن محمداً كان للإسلام ما كان المسيح للمسيحية ومن ثمَّ إطلاق التسمية.. «المحمدية» على الإسلام)[3]، وإنَّ مما يترتب على هذا الخطأ العلمي والمنهجي الذي وضحَّه (إدوارد سعيد) هو نسبة النصرانية إلى الإله، وعلى هذا تكون ديانة سماوية؛ لأن المسيح جزءُ - في معتقداتهم - من الإله فالنصرانية بناءً على هذا تعد ديانة إلهية سماوية، أمَّا عندما ينسب الإسلام إلى محمد ﷺ فليس يعني ذلك في مفهومهم إلاّ أن الإسلام دين بشري من صنع محمد وليس من عند الله.

ومن أبرز ما ترمي إليه هذه المغالطة أن الدين الجدير بالنشر والعلو والسيادة هو الدين السماوي وهو - في تصورهم - النصرانية (المسيحية) وليس الإسلام، وقد أصبح هذا التلبيس والخلط الذي يعمد إليه المنهج الاستشراقي ويستثمره الغرب بمثابة منهج تربوي مؤثر في الأجيال الغربية، يقول (موريس بوكاي): (لا أنكر تأثير التعاليم التي تلقيتها في شبابي حيث لم تكن الأغلبية تتحدث عن الإسلام وإنّما عن المحمديين، لتأكيد الإشارة إلى أن (هذا) الدين أسسه رجل وبالتالي،

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٩٣.

(٢) جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي...: ص ٩٥، (مرجع سابق).

(٣) إدوارد سعيد: المرجع السابق نفسه: ص ٩٠، ٩٤.

فهو ليس بدين سماوي فلا قيمة له عند الله وكان أن أظل محتفظاً كالكثيرين بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام وهي شديدة الانتشار)[1].

- ويقول إدوارد سعيد - أيضًا -: (والمستشرق إلى حد بعيد يزود مجتمعه بتمثيلات للشرق:

١ - تحمل طابعه المميز الخاص.

٢ - توضح تصوره لما يُمكن للشرق أو ينبغي له أن يكون.

٣ - تتحدى تحديًا واعيًا وجهة نظر إنسان آخر إلى الشرق.

٤ - تزود الإنشاء الاستشراقي بما يبدو، في تلك اللحظة، بأمسّ الحاجة إليه.

٥ - تستجيب لمتطلبات معينة ثقافية، ومهنية، وقومية، وسياسية، واقتصادية تفرضها الحقبة التاريخية)[2].

ب) - وفي دراسة محمود حمدي زقزوق للاستشراق في كتابه (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري) بيان لما في المنهج الاستشراقي من الانحرافات عندما يدرس تاريخ الإسلام وحضارته بصفة خاصة، (في حين أنهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرهما يكونون موضوعيين في عرضهم لهذه الأديان. فالإسلام فقط من بين كل الديانات التي ظهرت في الشرق والغرب هو الذي يهاجم، والمسلمون فقط من بين الشرقيين جميعًا هم

---

(١) موريس بوكاي: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: ص ١٤٤، (مرجع سابق)، وانظر: محمد بركات البيلي: الخلفية التاريخية للاستشراق ومنهجه في كتابة التاريخ الإسلامي: ص ١٣٩، (مرجع سابق).

(٢) إدوارد سعيد: الاستشراق: ص ٢٧٥، (المرجع السابق نفسه).

الذين يوصمون بشتى الأوصاف الدنيئة)[1].

وتحت عنوان: منهج المستشرقين ناقش مقولة (رودي بارت) في المنهج الاستشراقي، ومما جاء فيها: (... ونحن بطبيعة الحال لانأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزنًا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي.. أو يبدو وكأنه يثبت أمامه. ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن)[2]، وعقبت الدراسة على هذه المقولة بما ذكره أحد المفكرين في مناقشته المنهج الاستشراقي وعمل المستشرقين إذ قال: (فالقوم يدرسون العلوم الإسلاميَّة العربية، ويضعون نظريات ويكونون آراء في أثناء ما يقومون به من دراسات، ويهتمون بتقديم أدلة وأسانيد لهذه الآراء والنظريات، يستمدونها من المراجع الإسلاميَّة نفسها، وهذا العمل في ظاهره عمل سليم، ولكن الفحص الدقيق أثبت أن كثيرًا منه مصنوع، وكثيرًا ما يكون الدافع إليه الرغبة في التجريح، وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلاميَّة)[3].

وأورد في مناقشته مثالاً يبين تحامل المنهج الاستشراقي على الإسلام

---

(١) زقزوق: الاستشراق.. ص ١١٧، (مرجع سابق)، وانظر: محمود حمدي زقزوق: الإسلام في تصورات الغرب ص ١٤، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، عن مكتبة وهبة - مصر.

(٢) رودي بارت: الدراسات الإسلاميَّة والعربية..: ص ١٠، (مرجع سابق)، وانظر: زقزوق: الاستشراق..: ص ٧٧، (مرجع سابق).

(٣) إبراهيم اللبان: المستشرقون والإسلام، ص ٣٢، نقلاً عن زقزوق: الاستشراق..: ص ٧٧، ٧٨، (المرجع السابق نفسه).

وتاريخه بما يخالف المنهج العلمي في المنطلق والغاية والمثال هو منهج (جاستون فييت) في كتابه (مجد الإسلام) وفيه يعرض تاريخ الإسلام من خلال (صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتاب المعاصرين لكل فترة من فترات هذا التاريخ)[1].

والكتاب ينضح بالحقد والطعن في تاريخ الإسلام وحضارته؛ (لأن (جاستون فييت) اختار - فقط - النصوص التي تتفق مع الاتجاه الذي اختاره هو سلفاً، وهو اتجاه يتسم بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين)[2].

وتؤكد دراسة محمود حمدي زقزوق عدم صلة هذا المنهج بالمنهج العلمي النزيه فالواقع أنه (ليس من العلم في شيء وإنَّما هو انحراف عن النهج العلمي السليم.. وهذا الانحراف.. طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام)[3].

إنّ المتأمل في مقولة (بارت) وما كتبه (جاستون فييت) في كتابه (مجد الإسلام) لايسعه إلاّ أن يسجل على المنهج الاستشراقي مأخذين في غاية الأهمية:

أحدهما: إنّ المنهج النقدي الذي يذكر (بارت) بأن المستشرقين يطبقونه على تاريخ الغرب وعلومه لايصلح أن يطبق على الإسلام

---

(١) حسين مؤنس: كتاب مجد الإسلام لجاستون فييت، دراسة للأستاذ حسين مؤنس أستاذ التاريخ الإسلام بجامعة القاهرة (حينذاك) نشرت بالملحق الأدبي لجريدة الأهرام.. وألحقها محمد البهي في كتابه الفكر الإسلامي الحديث.. ص ٤٥٧ - ٤٧١، المنقول أعلاه في ص ٤٦٠. وانظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ٧٨، (المرجع السابق نفسه).

(٢) زقزوق: الاستشراق.. ص ٧٨، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ٧٨، ٧٩.

وتاريخه لاختلاف المنطلقات والغايات ومصادر المعرفة وتباين البيئات.

والآخر: إنّ ما عمد إليه (جاستون فييت) في كتابه (مجد الإسلام) يعد منهجًا اختياريًا انتقائيًا تحكمه الأهواء والأغراض والمصالح، وهذا لايمت إلى المنهج العلمي بصلة، وقد درج على مثل هذا المنهج الزائغ كثيرٌ من المستشرقين، كما أشار إلى ذلك (رودنسون) في قوله: (ولم ير المستشرقون في الشرق إلاّ ما كانوا يريدون رؤيته، فاهتموا كثيرًا بالأشياء الصغيرة والغريبة)[1]، وقال أيضًا: (حين كان الغربيون يذهبون إلى الشرق كانت تلك (أي الصورة المشوهة للشرق) هي الصورة التي يبحثون عنها، فينتقون ما يرونه بعناية ويتجاهلون كل ما لاتنسجم مع الصورة التي كونوها سابقًا)[2].

ويصل الباحث في نهاية دراسته لما يتصف به المنهج الاستشراقي إلى القول: (إنّ الإسلام الذي يعرضه هؤلاء المستشرقون - المتحاملون على الإسلام - في كتبهم هو إسلام من اختراعهم، وهو بالطبع ليس الإسلام الذي ندين به، كما أن محمدًا الذي يصورونه في مؤلفاتهم ليس هو محمد الذي نؤمن برسالته، وإنَّما هو شخص آخر من نسج خيالهم، وهكذا يُمكن القول بأن الاستشراق - في دراسته للإسلام - ليس علمًا بأي مقياس علمي، وإنَّما هو عبارة عن إيديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام، بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات)[3].

---

(١) نقلاً عن محمود حمدي زقزوق: الاستشراق.. ص ١١٦، (مرجع سابق).

(٢) نقلاً عن المرجع السابق نفسه: ص ١١٦.

(٣) المرجع السابق نفسه: ١١٩، ١٢٠، وانظر: جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام: ص ٩٥ (مرجع سابق)، فقد انتقد أحد المستشرقين بقوله: «إنَّ المستشرق (كيتاني) وهو من=

وفي موضع آخر يقول: (نحن نرفض - ومعنا الحق - منهج المستشرقين في دراسة الإسلام؛ لأنه منهج مصطنع جاء وليد اللاهوت الأوروبي؛ ولأنّه منهج يقصر عن فهم طبيعة الأديان السماوية، ويحاول أن يضعها في صعيد واحد مع الاتجاهات الفكرية الإنسانية)[١].

ج) - وإذا كانت دراسة إدوارد سعيد قد تناولت الاستشراق بشكل شمولي وكشفت أن (الاستشراق كان - جوهريًّا - مذهبًا سياسيًّا مورس إراديًّا على الشرق..)[٢] فإن دراسة محمود حمدي زقزوق في تناولها منهج المستشرقين وتاريخهم خلصت إلى هذه النتيجة نفسها، وهي أن الاستشراق في حقيقته لم ينفصل عن مبادئ السياسة الغربية وأهدافها على اختلاف نزعاتها ومذاهبها، وتؤكد هذه الحقيقة جُلُّ الدراسات التي تناولت منهج المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي أو كتابة السنة النبوية أو سيرة المصطفى ﷺ ونحو ذلك من الدراسات في كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين وتكشف ذلك كثير من الدراسات التي ركزت على نقد منهجية مستشرق بعينه أو صنف من المستشرقين حسب جنسياتهم أو فتراتهم التاريخية أو انتماءاتهم العقيدية والسياسية، فهذه الدراسات

=المستشرقين الكبار الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول ﷺ؛ كان يعتمد منهجًا معكوسًا في البحث يذكرنا بكثير من التلامذة الجدد في حقل التاريخ الإسلامي، والذين يعملون وفق منهج خاطئ من أساسه إذ أنهم يبيتون فكرة مسبقة ثُمَّ يجيئون إلى واقع التاريخ لكي يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا مادون ذلك..» إلى أن قال: «لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأي طريقة كانت، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إذا ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث... ».

(١) المرجع السابق نفسه: ص ٨٩.

(٢) إدوارد سعيد: الاستشراق.. ص ٢١٥.

على اختلاف موضوعاتها ودارسيها من المستشرقين تبين قدرًا مشتركًا من منهجهم حينما يكتبون عن الإسلام وعلومه وتاريخ أمته يتفق مع ما توصل إليه الناقدون من العرب والمسلمين.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره عماد الدين خليل في نقده لمنهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتكمري وات) في دراسة السيرة النبوية، فهو يقول: (نعم.. ثمة فرق بين مستشرق وآخر.. ونحن إذا قارنا (وات) بـ (لا مانس) مثلاً أو حتى بـ (فلهوزن)، وجدنا هوة واسعة تفصل بين الرجلين.. يقترب أولهما حتى ليبدو أشد إخلاصًا لمقولات السيرة من أبناء المسلمين أنفسهم.. ويبعد ثانيهما حتى ليبدو شتامًا لعانًا وليس باحثًا جادًّا يستحق الاحترام. ومع ذلك فهو فرق في الدرجة وليس في النوع)[١].

ويبدو أن الناقد اختار (مونتغمري وات) في بحثه؛ لأنه - كما يرى - أكثر المستشرقين حيادية)[٢]، فقد خلص مع ذلك إلى النتيجة الآتية: (فإذا بنا نقف على بعض جوانب الخلل في منهج العمل.. نزعة نقدية مبالغ فيها تصل إلى حد النفي الكيفي، وإثارة الشك حتى في بعض المسلمات، تقابلها نزعة افتراضية تثبت بصيغة الجزم والتأكيد ما هو مشكوك بوقوعه أساسًا.. وإسقاط للتأثيرات البيئة المعاصرة وإعمال للمنطق الوضعي في واقعة تكاد تستعصي على مقولات البيئة وتعليلات العقل الخالص)[٣].

---

(١) عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات)؛ مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ١٩٣/١، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ١٩٣/١.

(٣) المرجع السابق نفسه: ١٩٣/١.

ثالثًا: نماذج لأهم القضايا التي تطرقت إليها دراسات المستشرقين لتاريخ الإسلام وحضارته:

تناول البحث في النقطتين السابقتين الإطار العام لمناهج المستشرقين في دراسة تاريخ الإسلام وحضارته، ويتناول البحث هنا بعض ما ركز عليه المستشرقون - المعادون للإسلام - في دراستهم للتاريخ من نماذج لما شوهوه وزيفوه وعرضوه بطريقة لاتتفق وتَميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة إدراكا منهم أنّ (للتاريخ أهميَّة عظمى في بناء الأمم، والمحافظة على هويتها وشخصيتها، بل على قوتها، وقدرتها على الشموخ، والاستطالة، والاستمرار، فهو جذور الأُمَّة التي تضرب بها في الأعماق، فلاتعصف بها الأنواء، ولاتزلزلها الأعاصير، ولايفتنها الأعداء... وهو ذاكرة الأُمَّة... بها تعي الأُمَّة ماضيها، وتفسر حاضرها، وتستشرف مستقبلها)[(١)].

ومن أهم القضايا التي تطرقت إليها دراسات المستشرقين في هذا الإطار الآتي:

١- الدعوة والجهاد.

٢- العادات والتقاليد.

٣- الجانب السياسي والحضاري من تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة.

(١) - الدعوة والجهاد:

فأمَّا الدعوة والجهاد، فتتأرجح دراسات المستشرقين في هذا المجالِ من مجالات تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة بين مسلكين متعارضين، يصدران معا عن نوايا سيئة، ومقاصد ماكرة؛ فمن نماذج أحد المسلكين أنَّ معظم كتابات المستشرقين تركز على انتشار الإسلام بالسيف، وتروج دوائر

---

(١) عبدالعظيم محمود الديب: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي: ص٥٤، ٥٥، (مرجع سابق).

العداء للإسلام لهذه المقولة خشية أن يجتاح الإسلام العالم - كما يظنون -، ولتبرير ما ينادون به، ويحرصون عليه من القضاء على المسلمين بالقوة وجعلهم ضعفاء عاجزين لايقدرون على مواجهة أي قوة تعاديهم أو تتربص بهم.

ومِمَّا يدل على المسلك الثاني؛ المخالف للمسلك الأول: محاولتهم مداهنة المسلمين، وتحذيرهم بإظهار الكتابات أن الإسلام انتشر بالدعوة والقدوة الحسنة وقوة الأخلاق الإسلاميَّة، وهذه الكتابات - أيضًا - كانت تخدم دوائر العداء للإسلام، بشكل آخر، وقد ثبت أنَّ الاستعمار كان يؤيد مثل هذه الدراسات من أجل كبح جماح المسلمين من مجاهدته، وليستسلموا للواقع المفروض، ولئلا يعودوا لروح الجهاد التي تُعَدُّ وسيلة لتحقيق تميُّز الأُمَّة بأنَّها ذات رسالة، وأنها شاهدة على الناس، وأنَّ مهمتها أن يكون الدين كله لله، وعن طريق الجهاد يُمكنها تبليغ دعوة ربها، وبه تستطيع إزالة العوائق وتحطيم الحواجز، وهي في هذا وذاك مرتبطة بقيم الحق والعدل والرحمة والإحسان.

أمَّا دعوى انتشار الإسلام بالسيف فهي دعوى قديمة[1] جدّدها المستشرقون المعادون للإسلام، و (جاءت الكتب والمؤلفات والبحوث الحديثة التي صدرت في الغرب عن الإسلام - باستثناء قلّة مِمَّا كتبه المنصفون - لاتختلف في روحها ومادتها ونظرتها إلى الإسلام، عمَّا كتبه

(١) انظر: توفيق علي وهبة: الإسلام في مواجهة أعدائه: ص٨٠، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، عن دار اللواء - الرياض. وانظر: ما قاله العامري في الرد على هذه الدعوى منذ القرن الرابع الهجري؛ أبو الحسن العامري: كتاب الإعلام بمناقب الإسلام: ص ١٨٨ - ١٩١، (مرجع سابق).

السابقون... يقول (بيكر) في موسوعة تاريخ (كمبردج) عن العصور الوسطى ما نصه: (نظرت العصور الوسطى إلى القطيعة بين أوروبا المسيحية والشرق الإسلامي من زاوية واحدة، تعبر عن وجهة نظر كنسية؛ استهدفت حجب الحقيقة التاريخية، وإسدال ستار مظلم عليها، وأوضح ما يعبر عن وجهة النظر هذه - التي ما زالت سائدة بين المثقفين اليوم - تلك المعلومة التي ما زالت حيَّة قائمة على الوجه الآتي: خرجت جموع العرب تحت تأثير الحماسة التي بعثها فيهم نبيهم، لينقضوا على الشعوب المسيحيَّة، ويفرضوا عليها الدخول في الإسلام بحد السيف، وهكذا انفرط عقد الحضارة القديمة، وتمزقت أوروبا، وحلت حضارة جديدة تعهدها العرب محل الحضارة المسيحية السابقة، وبذلك وقفت البلاد الشرقية والغربية على طرفي نقيض وجهًا لوجهه)...)[1].

والحقيقة أنَّ الفتوحات الإسلاميَّة وانتشار الإسلام بالصورة التي حدثت في تاريخ البشرية، وكانت على غير مثال سابق بهرت الغرب في تاريخه القديم والحديث، وكانوا مشدودين إلى ذلك بدوافع وأهداف مختلفة (سبق ذكرها)، وفي هذا السياق توافر عدد كبير من المستشرقين

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: بحوث في تاريخ الإسلامي وحضارته: ص ١٩، ٢٠، (مرجع سابق).
ولمزيد الاطلاع على أقوال المستشرقين ونصوصهم في دعوى انتشار الإسلام بالسيف:

- انظر: شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: ص١٤٧ -١٦١، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، عن دار الفكر المعاصر - بيروت.
- وانظر: عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة: ص ٨٠ - ٩٠، (مرجع سابق).
- وانظر: محمد فتح الله الزيادي: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه: ص ١٢٧ - ١٤٢، (مرجع سابق).

لدراسة هذه الظاهرة التاريخيَّة وتحليلها وصنفوا [مؤلفات عديدة عن تاريخ سكان البلدان التي فتحها المسلمون، فدرسوا أحوالها السياسية والإدارية والاجتماعية، لتفسير بعض شؤون الفتح، كما درسوا ثقافاتها لتبيان الصلات بينها وبين ما أخذه الفاتحون عنها، وقد تناولوا الفتح جملة وتفصيلاً من الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية حتى الشرق الأقصى وأفريقيا، والأندلس، وفرنسا، وإيطاليا، وصقليَّة، وقد درسوا أثر ذلك الفتح في الحملات الصليبيَّة، والامبراطوريَّة المغولية، والسلطنة العثمانية، وطرق التجارة؛ ومن الذين كتبوا في هذا الموضوع (بيكر): (تاريخ العصر الوسيط)، و (كيتاني): (حوليات الإسلام)، وقد أنفق على ثلاث بعثات إلى مواقع الفتح لرسمها جغرافيًّا (وطبوغرافيًّا)، وجمع المصادر من اللاتينية، والسريانية، والعربيَّة، ومنهم (دغوية): (فتح سورية) و (ميادنيكوف): (فلسطين منذ الفتح العربي حتى الحروب الصليبية)، و (بتلر) في: (فتح العرب لمصر)، كما كتب (فلهوزن) عن: (الفتوح في إيران)، و (لوران) عن: (الفتوح في أرمينيَّة)، و (بارتولد)، عن: (الفتوح في آسيا الوسطى)، و (جاتو)، عن: (الفتوح في أفريقيا والأندلس)، و (جون جلوب): (الفتوحات العربيَّة الكبرى)، وكتب (فايل)، (تاريخ الشعوب الإسلاميَّة من النبي محمد (ﷺ) إلى سليم الأول (العثماني)، و (بروكلمان): (تاريخ الشعوب الإسلاميَّة)، تناول فيه تاريخ المسلمين منذ أقدم العصور إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى...، كما كتب (برنارد لويس): العرب في التاريخ)، و (لو لفريد كانتويل سميث): (الإسلام في التاريخ الحديث)، و (هاملتون جيب، وآخرون): (الشرق الأدنى الإسلامي)][1].

(١) محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق: ص ٥٥، ٥٦، (مرجع سابق). وانظر:=

ومِمَّا لاريب فيه أنَّ المناهج التي سلكها هؤلاء المستشرقون في كتاباتهم عن تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة وحضارتها متنوعة من حيث أساليب المعالجة والتناول، ومن حيث المنطلقات والغايات، ومهما يكن الأمر في ذلك فإنَّ القدر المشترك بين تلك الدراسات كما أظهره الباحثون يُمكن أن يلخص في جانبين، هما:

أ) – تبدأ الدراسات التاريخية لدى هؤلاء المستشرقين (في كثير من الأحيان بالافتراض التقليدي أن الإسلام يتكون من ألوان مختلفة من التأثيرات الأجنبية التي لو دققت فسوف تفسر... ذلك السر الغامض الذي ينسبه الغربيون إلى الإسلام)[١].

وهذا ينفي تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة من حيث مقومات تميزها وخصائصه، ويفسر الفتوحات الإسلاميَّة وانتشار الإسلام، (تفسيرًا ماديًّا يُبْنَى على الدوافع الاقتصادية أو الاجتماعية ويتجاهل الدافع الديني على الرغم من أهميته وخصوصيته في التاريخ الإسلامي، ولم يسلم من ذلك المعتدلون منهم... والقول في الإسلام بما هو (منه) براء، مثل ادعاء بعضهم أن الإسلام انتشر بحد السيف، وعدم تسامح المسلمين)[٢].

=محمد بن عبود: منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ٣٦٢/١ – ٣٨٦، (مرجع سابق). وانظر: جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام: ص ٢٢ – ٣٥، ٣٨ – ٤٣ ، (مرجع سابق).

(١) محمد بن عبود: منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلام ٣٥٣/١، (المرجع السابق نفسه). وانظر: مجلة المنهل، العدد السنوي المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م: ص ٢٢٨، ٢٢٩، (مرجع سابق).

(٢) محمد بركات البيلي: الخلفية التاريخية للاستشراق ومنهجه في كتابة التاريخ الإسلامي: ص ١٤٠، (مرجع سابق).

ب) - يحاول هؤلاء المستشرقون ردّ الفتوحات الإسلاميَّة وانتشار الإسلام إضافة إلى مايزعمونه من (روح الاعتداء التي كانت سمة من سمات البدو من الأعراب - على حد تعبيرهم - إلى الانحلال الاجتماعي الذي كانت تعاني منه المجتمعات التي قبلت الإسلام... وما كان يسود الجيوش الإسلاميَّة من حالة نفسية، أو العوامل التاريخية التي استمرت تعمل منذ وقت طويل؛ مثل: عواقب الصراع بين الامبراطوريات الساسانية والبيزنطية، أو عدم الاستقرار الداخلي لمملكة القوط في أسبانيا)[1].

أمَّا إبراز جانب الدعوة في الإسلام فقد جاء بوضوح شديد في كتاب (الدعوة إلى الإسلام: لسير توماس آرنولد)، وقد أنصف الإسلام في كثير من القضايا التي ناقشها، وأثبت أنَّ الإسلام انتشر بالدعوة، وأن عقيدته (تلتزم التسامح وحريَّة الحياة الدينيَّة لجميع أتباع الديانات الأخرى، أولئك الذين يؤدون الجزية كفاء حمايتهم، وعلى الرغم من أن صفحات التاريخ الإسلامي قد تلوثت بدماء كثير من الاضطهادات القاسية !!، (فقد) ظل الكفار، على وجه الإجمال، ينعمون في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لم نكن نجد لها مثيلاً في أوروبا حتى عصور حديثة جداً، وإن التحويل إلى الإسلام (عن) طريق الإكراه محرم، طبقاً لتعاليم القرآن: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[2]، ﴿ ... أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ

---

(١) محمد بن عبود: منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ١/٣٥٤، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: جميل عبدالله محمد المصري: دواعي الفتوحات الإسلاميَّة ودعاوى المستشرقين: ص ٧٤ - ٧٧، (مرجع سابق).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... ﴾ [1]، وإن مجرد وجود كثير جداً من الفرق والجماعات المسيحية في الأقطار التي ظلت قروناً في ظل الحكم الإسلامي، لدليل ثابت على ذلك التسامح، الذي نعم به هؤلاء المسيحيون، كما يدل على أنَّ الاضطهادات التي كانوا يَدَّعُون... معاناتها بأيدي الطغاة والمتعصبين، إنَّما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصَّة وإقليمية، أكثر من أن تكون منبعثة عن مبدأ مقرر من التعصب) [2].

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ المناخ الفكري الذي ظهر فيه كتاب (الدعوة إلى الإسلام لسير توماس أرنولد)، يؤكد أنَّ إظهار جانب الدعوة في انتشار الإسلام، وإضعاف جانب الجهاد، كان يحقق للمستعمرين أهدافاً ضد الأُمَّة الإسلاميَّة، وينال من سيادتها وهويتها المتميِّزة، فقد ظهر هذا الكتاب (في سنة ١٨٩٦ م،... وقبل ذلك بثماني سنوات، كان قد ترك (كمبردج) ليشغل منصباً في الكلية الإنجليزية الإسلاميَّة في عليكرة... وكانت قد تأسست حديثًا... وهنا وضع خطَّة هذا الكتاب... وقد أوتي (أرنولد) موهبة لاتنكر، وكان مِمَّا جرى عليه في معظم أيام حياته، جمعه بين التوافر على الأعمال الإدارية والغيرة على البحث) [3]، وبغض النظر عن نيَّة (أرنولد) إن كانت حسنة أو غير حسنة فإنَّ المناخ الفكري لظهور كتابه صاحب (مظهرًا فكريًّا تبناه

---

(١) سورة يونس: الآيتان (٩٩، ١٠٠).

(٢) سير توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ٤٦١، ٤٦٢، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، (مرجع سابق).

(٣) انظر: نيكلسون: مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ص ١٥، ١٦ (المرجع السابق نفسه)، كتبها سنة ١٩٣٥م، كامبردج.

الإنجليز لمصلحة الاستعمار الغربي)[١].

وقد تحدث المفكرون والباحثون عن علاقة الاستشراق بالاستعمار وعلاقتهما بالقاديانية والأحمدية وأنهما (غرس غرسته الحكومة الإنجليزية)[٢] - كما نقل عن القادياني -؛ وأنَّه (كتب ذلك في التماسه الذي قدمه إلى حاكم مقاطعة البنجاب الإنجليزي في ١٤ فبراير سنة ١٨٩٨ م، وجاء نصه في كتاب: (تبليغ رسالته) من المجلد السابع لمير قاسم علي القادياني، وقد ذكر في مؤلفاته بكل صراحة... ما يدين به للحكومة الإنجليزية من الولاء والوفاء، وما قدم لها من خدمة مشكورة، وترجمته: «لقد قضيتُ معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها، وقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولي الأمر الإنجليز من الكتب والنشرات ما لو جمع بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة، وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربيَّة، ومصر، والشام، وكابل» ... وبقيت طائفة القاديانية في عهد مؤسسها وبعده معتزلة جميع الحركات الوطنيَّة، وحركة التحرير والجلاء في شبه القارة الهندية، واتخذت موقف الصمت إزاء كل ما أصاب العالم الإسلامي من رزايا ونكبات على يد المستعمرين الأوروبيين وعلى رأسهم الإنجليز، واشتغلت وشغلت الناس بإثارة المجادلات حول موت السيد المسيح وحياته ونزوله، ونبوة ميرزا غلام أحمد ونحو ذلك، مِمَّا لا اتصال له بالحياة العامَّة، وقضايا الأُمَّة الإسلاميَّة)[٣].

---

(١) محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٥١، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٤٨.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٤٨، ٤٩، وانظر: ص ٥٦٨ - ٥٧٣، (البحث نفسه).

ومِمَّا يؤكد هذا الاتجاه الاستشراقي الذي أظهر جانب الدعوة والتسامح، ومبدأ طاعة ولاة الأمر في الإسلام، في وقت ترزح فيه كثير من أوطان المسلمين تحت نير الاستعمار الغربي، وما يهدف إليه ويعمل عليه من السيطرة على الأُمَّة الإسلاميَّة، والنيل من سيادتها، وتَمَيُّز شخصيتها، ما أورده بعض الكتاب عن رحلة مستشرق فرنسي أعلن إسلامه، ودخل مكة في هيئة معتمر، إبَّان الاستعمار الفرنسي للجزائر، وكان من مقاصده - كما ذكر -: (... أن يتحقق من صحة فتوى... إطاعة الجزائريين للسلطات الفرنسية)[١]، وقد نسب نقل هذه الفتوى إلى المفتي المالكي محمد عابد ابن الشيخ حسين مفتي المالكية بمكة المكرمة، وادعى المستشرق الفرنسي (جيل جيرفيه - كورتلمان) أنَّ هدفه من رحلته التحقق من هذه الفتوى[٢]، وأشار الباحث الذي روى خبر تلك الرحلة أن (كورتلمان): (في لقائه مع كبار رجال الدين إنَّما كان يؤدي مهمة رسمية، إذ أنه عند عودته إلى فرنسا بعد أداء فريضة العمرة والتجول في أرض الحجاز منح وسام (جوقة الشرق)، وجاء في الأسباب الموجبة منحه الوسام، أنَّه كلف بمهمة رسمية في شبه الجزيرة العربيَّة، تمكن من تأديتها برغم الظروف الصعبة بفضل شجاعته وفطنته، وأنَّه عاد من رحلته إلى مكة بوثائق ومعلومات هامَّة، فما هي هذه المعلومات والوثائق ؟ هنا تكشف الوثائق في المحفوظات الرسمية

---

(١) جيل جيرفيه - كورتلمان: رحلتي إلى مكة، نقلاً عن: كمال سنو: رحلة إلى مكة عمرها مائة عام، مقال منشور بمجلة (أهلاً وسهلاً): ص ٨، تصدر عن إدارة العلاقات العامَّة - الخطوط الجويَّة السعودية، عدد [١٠]، السنة [١٧]، جمادى الأولى ١٤١٤هـ- أكتوبر ١٩٩٣م - جدة.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٠.

الفرنسية أن الحاكم الفرنسي العام في الجزائر تلقى من الكاتب تقريرًا يؤكد أن الفتوى التي حملها الحاج (عقلي) في العام ١٨٩٣م، هي فتوى حقيقية غير مزيَّفة)[١].

[٢]- العادات والتقاليد:

إذا كان من وسائل تحقيق تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة؛ النهي عن تقليد غيرهم في العادات والتقاليد، بدءًا بالآداب العامَّة والأعياد، والشعائر الظاهرة، وانتهاءً بالملابس، والمظاهر العامَّة على صعيد الأفراد والمجتمع، فإنَّ ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث، وأقوال العلماء، وما درج عليه سلف الأُمَّة الصالح، مستفيض جدًّا، (سبق تناول طرف منه)[٢]، ولكن المستشرقين دخلوا في هذه الجوانب بأساليب شتى حتى لاتكاد أي جزئية من جزئيات مظاهر حياة المسلمين الاجتماعية، وتقاليدها وعاداتها، وأنماط سلوك المسلمين في أوضاعهم العامَّة والخاصَّة وسائر أحوالهم تخلو من تدخل المستشرقين فيها بالطعن والتشويه والذم والافتراء، وكل ما يتسم في عمومه بالحقد والعداء، وهم

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٢، ومن الملحوظ: أن هذا الخبر الذي أورده الكاتب، ونشرته المجلَّة ينقصه التوثيق العلمي، وعزوه إلى مراجع يعول عليها، فقد يكون كل ماجاء في الخبر من أمر هذه الفتوى، ونقلها إلى الجزائر، ودعوى نسبتها إلى مفتي المالكية في مكة المكرمة، وقدوم المستشرق الفرنسي للتحقق منها وزعمه موافقة (رجال الدين) !! - وفق تعبيره -، وقوله في تقريره للحاكم الفرنسي العام في الجزائر بأن الفتوى حقيقية غير مزيفة !! قد يكون كل ذلك مكذوبًا لا صحة له، ولعل ذلك هو الأرجح، أمَّا الرحلة فلاتعدو أن تكون - إن صح وقوعها - بهدف الترويج للفتوى المزعومة، وإشاعة أنَّها صحيحة مضمونًا ونسبة، وموافقة مِمَّا سمَّاه رجال الدين، وهو هدف استعماري مكشوف لايخفى على ناقد بصير.

(٢) انظر: ص ١٩٧ - ٢٠٥، (البحث نفسه).

لايفتأون دائمًا من محاولة توجيه ذلك كله بما يضعف من شأن هذه الأُمَّة والاستهانة بها، ويذهب تَمَيُّزَها، ومِمَّا لايخفى أن الاستشراق في مساره العام وفي قمَّة ازدهاره الذي امتد إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين (كان يترجم المؤلفات الإسلاميَّة ليقدمها إلى مفكريه الماديين، و (الإكليروسيين) ممهدًا لهم بها طريق مناقشة تلك المترجمات على ضوء الوقائع الفكرية والدينية والتاريخية التي يعيشونها، (بهدف) النيل منها بمناقشات تبدو في مظهر موضوعي، وكان هذا الاستشراق يكتب في كل المجالات الإسلاميَّة... ابتداءً من التوحيد بالله، وانتهاء بالملابس والأزياء في الشعوب الإسلاميَّة، ولكنه يحاول في كل ما يكتب أن يدس ويشكك ويشوه، فالثوب العربي، والعباءة العربيَّة هي في نظره من معوقات الحضارة التي لاتساعد على العمل الجاد المضني، والصناعي والتجاري)[1].

ثُمَّ إنَّهم من ناحية أخرى يتخذون أسلوب (الاستطالة على التراث الإسلامي، وقيمه الدينية، والعلمية، والأدبية، وذلك بدعوى إعادتها إلى جذور تتصل بتراثهم هم ا....، وبهذه الاستطالة المتجنية على الحقائق، مزق الغرب خوفه من تأثير الفكر الإسلامي عليه، ونال من المقومات الحضارية والدينية والإسلامية... ومن خلال هذه الاستطالة المتجنية التي أضعفت التأثير الإسلامي على القوى الزمنية بدأوا تأثيرهم على الفكر القومي في الشعوب الإسلاميَّة، ساعدهم على ذلك النمو الظافر

---

(١) انظر: محمد عبدالله مليباري: المستشرقون والدراسات الإسلاميَّة: ص ٤٩، (مرجع سابق)، وانظر: محمد بن عبود: منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ١/٣٤٧ - ٣٥٥، (مرجع سابق).

الذي حققته الحضارة الحاليَّة في كل المجالات، بعيدًا عن الإطار الروحي والديني وتأثيرهما...)[1].

وكان من نتائج هذه الاستطالة على التراث الإسلامي ما يأتي:

أ) - تغير العادات الإسلاميَّة في كثير من الشعوب الإسلاميَّة (وانزواء الحكم بالأحكام الشرعية واستبدالها بأحكام القانون الوضعي، واختفاء الزي الإسلامي الذي كان سائدًا، حتى في بعض الشعوب العربيَّة،... ففي شمال أفريقيا العربيَّة كادت اللغة العربيَّة أن تندثر لولا اليقظة العربيَّة الأخيرة، كما أن التقاليد الإسلاميَّة على المستوى العام والخاص انحسرت تمامًا في كثير من الأصقاع العربيَّة في الشرق، ففي مصر والشام تفشى السفور كل تفش، والأحكام الشرعية لاتطبق كما يجب في كثير من القضايا، كما أن كثيرًا من المنكرات تمارس علنًا ويحميها القانون، المهم أن الفكر القومي في الشعوب الإسلاميَّة كان له نصيب من النجاح، ولم يتحقق هذا النجاح إلا بعد تلك الاستطالة المتجنية على التراث الإسلامي، التي كان للاستشراق والمستشرقين دور فعال فيها)[2].

ب) - الادعاء بأن الإسلام لايحدث تميُّزًا في العادات والتقاليد تنبع من أصالته وجدّته، وإنَّما يتلون هو نفسه بعادات الشعوب وتقاليدها، وهو ادعاء تشتمل عليه بعض دراسات (هاملتون جيب) في تاريخ الإسلام وحضارته وهي دراسات يُمكن القول فيها إنها: (تخفى وراءها الكثير من

---

(١) انظر: محمد عبدالله مليباري: المرجع السابق نفسه: ص ٥٠.

(٢) انظر: محمد عبدالله مليباري: المستشرقون والدراسات الإسلاميَّة: ص ٤٩ - ٥١، (المرجع السابق نفسه).

الآفات الفكرية، فنراه مثلاً في الفصل الأول من كتابه (دراسات في حضارة الإسلام) يقول: «فقد ظهرت للإسلام ملامح مختلفة في مختلف الأزمنة والأمكنة بتأثير المحليَّة الجغرافية، والاجتماعية، والسياسية فيه، وبقوة استجابته لها، ولنمثل على ذلك بما تَمَّ في الغرب، أعني في شمال غربي إفريقية، وفي أسبانيا أثناء العصور الوسطى؛ ففي تلك المناطق اتخذ الإسلام لنفسه خصائص فارقة على الرغم من الصلة الوثيقة بين تلك المناطق وقلب العالم الإسلامي في غرب آسيا، وعلى الرغم من أنَّ الثقافة فيها كانت فرعًا من الثقافة السائدة في قلب العالم الإسلامي، وكان لبعض تلك الخصائص الفارقة أثرها في الإسلام نفسه في غربي آسيا»[1]، بهذا النوع من التعبير يتناول في تفسيره التاريخ الإسلامي، الكثير من الإساءات إلى الإسلام نفسه.. فهو حينما يجعل الاستجابة للعوامل المحليَّة الجغرافية والاجتماعية والسياسية، من خصائص الإسلام، يسلب الإسلام عوامل التأثير الكامنة فيه التي يواجه بها التحديات الاجتماعية والسياسية والعوامل المحليَّة الأخرى)[2].

ومِمَّا لاشك فيه أنَّ العوامل التي ذكرها (جيب) تتفاعل مع معطيات الإسلام ولكنها هي التي تستجيب لما يحدثه الإسلام فيها من تغيير ومن تهذيب وصقل حتى تصطبغ بصبغة الدين، وتسير في صراط الله المستقيم، والفرق بين تفسير (جيب) لتاريخ الإسلام وحضارته، وبخاصَّة فيما يتعلق بالعادات والتقاليد وبين ما حدث فعلاً، كبيرٌ جدًا

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ٦٧.

(٢) نقلاً عن: محمد عبدالله مليباري: المرجع السابق نفسه: ص ٦٧.

حيثُ يتحقق في الآخر تميُّز الأُمَّة الإسلاميَّة على صعيد العادات والتقاليد لاحتكامها إلى شريعة الإسلام وهديه، ولايتحقق ذلك فيما ذهب إليه (جيب) من تفسير بل يتحقق به العكس تمامًا[١].

ج) - وحاول بعض المستشرقين في كلامهم عن حجاب المرأة المسلمة إبرازه بمظهر لايتفق مع حقيقته، وما يرمز إليه من الطهر والعفاف، والبعد عن مواطن الفتنة والريبة والزلل؛ فهذا (المستشرق الهولندي (سنوك هورغرونية)... يدعي: (أن الرابطة الزوجيَّة عند المسلمين.. غير متينة، وإلاَّ لما وضعت على النساء القيود وفرض الحجاب والعزلة عليهن، وأن المرأة غير المتزوجة سواء كانت عزباء أم بكرًا تعتبر عبئًا ثقيلاً على أهلها وأقاربها ما لم يكونوا أثرياء... ولذلك فإنَّ امرأة مثل هذه تتشبث بأن تكون شريكة مؤقتة لرجل من الرجال في حياته، وبذلك تحصل على معيشة مجانيَّة لنفسها، عدا نوع من المهر الذي يتفق عليه إذا كانت أحوال الرجل المالية تساعد على ذلك...، وحتى بعض النساء الثريات يتمنين لو يحصلن على مثل هذا الزوج بالمقاولة ليتخلصن من استغلال أقاربهن لهن)[٢]، ويقول في مكان آخر: (إنَّ الغربي بينما يجد صعوبة في الافتراق عن خليلته، فإنَّ علاقة الزواج المستديم، والحب الصادق بين الأزواج بعيدة كل البعد عن تفكير الرجل المسلم)[٣].

---

(١) انظر: محمد عبدالله مليباري: المستشرقون والدراسات الإسلاميَّة: ص ٦٧، ٦٧، ٦٨ (المرجع السابق نفسه).

(٢) موسوعة العتبات المقدسة: ص ٣١١، نقلاً عن: محمد عبدالله مليباري: المرجع السابق نفسه: ص ٨٠.

(٣) موسوعة العتبات المقدسة: ص ٣١١، نقلاً عن: المرجع السابق نفسه: ص ٨١.

ويلاحظ أنّه دلل على عدم متانة الرابطة الزوجيَّة عند المسلمين بقيود الحجاب والعزلة..، وفاته أن يدرك مدى الآفات الاجتماعية التي تنشأ من الاختلاط، والسفور، ومدى ما في هذا الاختلاط من تجريح لرجولة الرجل، وابتذال لعاطفة المرأة....، إنَّ المآسي التي يعيشها الكثير من المجتمعات التي أباحت اختلاط الجنسين بمقارنتها بمآسي المجتمعات التي تفرض الحجاب، تعطي دليلاً مزودًا بأرقام إحصائية على فعالية الحجاب، وحدهِ لكثير من المآسي... إنَّ الإسلام يوم نادى بالحجاب أوثق به الرابطة الزوجيَّة، بإبعادها عن مواطن الشك والريبة، ومهاوي الزلل، ثُمَّ أعطى النفس المؤمنة بواعث الاطمئنان، والاستقرار، ودلل بالحجاب إحاطته بكوامن النفس البشريَّة، ومدى ضعفها في المواقف الزاخرة بالعواطف المثيرة.. وما يقال عن الحجاب يقال عن الطلاق[١] في الإسلام، فإنَّه دعامة من الدعائم التي تزيد المجتمع الإسلامي تماسكا، فالزواج.. المستديم الذي لا طلاق فيه كان بذرة من بذرات الانهيار الأسري في مجتمعاته، لذلك سنت بعض مجتمعات أوروبا الطلاق واعترفت به، ولم يكن الطلاق عاملاً مؤثرًا في الحب الصادق بين الأزواج، بل كان علاجًا حاسمًا لكثير من المشكلات الأسرية، وباترًا لها)[٢].

---

(١) انظر: ما قاله (بروكلمان) عن الطلاق عند المسلمين: تاريخ الشعوب الإسلاميَّة: ص ٨٠، (مرجع سابق) والرد عليه لدى: شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان: ص ٧٩ – ٨١، (مرجع سابق).

(٢) محمد عبدالله مليباري: المستشرقون والدراسات الإسلاميَّة: ص ٨٠، ٨١، (المرجع السابق نفسه)، وللاطلاع على مكانة المرأة في الإسلام ومكانتها لدى الغرب، وعناية الإسلام بها أكثر من الرجل، وللرد على شبهات المستشرقين حول قضايا المرأة والأسرة والزواج والطلاق ونحو ذلك؛ انظر:

- توفيق يوسف الواعي: الإسلام في العقل العالمي: ص ٢٩ – ٣٥، (مرجع سابق). =

[٢] - الجانب السياسي والحضاري من تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة:

انطلق المستشرقون في دراستهم للجانب السياسي من تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة من منطلقات غير علميَّة من أهمها الآتي:

أ) - إنكار نبوة الرسول محمد ﷺ، وإرجاع ماجاء به إلى أصول يهودية ونصرانيَّة وغيرهما، وبناءً على ذلك أنكروا أن يكون الإسلام وحيًا من عند الله وأن تكون الأُمَّة الإسلاميَّة أُمَّة ربانية، وبالتالي فإنَّ تفسير تاريخ الإسلام وحضارته يتم عند معظمهم من خلال منظور مادي مجرد بدعوى العلمية والمنهجية[١]، وقد ترتب على ذلك إنكار كثير من أسس السيرة النبوية الشريفة والتقليل من شأن الرسول ﷺ، وتناول شخصيته - فيما كانت الدراسات (اللاهوتية) تفرغ عليه الأساطير والخرافات، وأقذع الشتائم وأشنع السباب - وكأنَّه من رجال السياسية أو الحكام العسكريين أو عباقرة الإنسانية، و (مهما كان

- = أحمد محمد العسال: الإسلام وبناء المجتمع: ص ١٦٦ - ٢٩٥، الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، عن دار القلم - الكويت.
- نبيل السمالوطي: بناء المجتمع الإسلامي ونظمه (دراسة في علم الاجتماع الإسلامي): ص ٧٥ - ١٠٨، (مرجع سابق).
- زاهر عوَّاض الألمعي: مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش (دراسة تحليلية): ص ٢٢ - ٤٥(مرجع سابق).
- محمود مهدي الاستانبولي: نساء حول الرسول والرد على مفتريات المستشرقين: ص ٣٠٧ - ٣٧٥، الطبعة الرابعة ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م، عن مكتبة السوادي - جدة.

(١) انظر: محمد بركات البيلي: الخلفية التاريخية للاستشراق..: ص ١٤٠، (مرجع سابق)، وانظر: شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين..: ص ١٩، (مرجع سابق)، وانظر: محمد بن عبود: منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ٣٥١/١، ٣٥٢، (مرجع سابق).

المستشرق ملتزمًا بقواعد البحث التاريخي وأصوله، فإنَّه من خلال رؤيته الخارجية وتغربه يمارس نوعًا من الهدم والتجريح في كيان السيرة ونسيجها، فيصدم بذلك الحس الديني، ويرتطم بالبداهات الثابتة، وهو من خلال منظورة العقلي والوضعي، يسعى إلى فصل الروح عن جسد السيرة ويعاملها كما لو كانت حقلاً ماديًّا للتجارب والاستنتاجات وإثبات القدرة على الجدل... إن البحث في السيرة بوجه خاص، يستلزم أكثر من أيٍّ مسألة أخرى في التاريخ البشري؛ شرطين من شروطه الأساسية: التأثير الجمالي الذي يُمكنه من أداء وظيفته الوجدانية، والمقومات العلميَّة التي تمكنه من أداء وظيفته الحيويَّة إنَّ هذين الشرطين اللذين يُمكن أن يوفرهما منهج متماسك سليم يقوم على أسس علميَّة موضوعيَّة لايخضع لتحزب أو ميل أو هوى... وقد كانت مناهج البحث الغربي (الاستشراقي) في السيرة تفتقر إلى أحد هذين الشرطين أو كليهما معًا.. وكانت النتيجة أبحاثًا تحمل اسم السيرة وتتحدث عن حياة الرسول ﷺ، وتحلل حقائق الرسالة، ولكنها - يقينًا - تحمل وجهًا وملامح وقسمات مستمدة من عجينة أخرى غير مادة السيرة، وروح أخرى غير روح النبوة ومواصفات أخرى غير مواصفات الرسالة.. إنَّ نتائجها تنحرف عن العلم؛ لأنها تصدر عن الهوى... وتسعى لأن تخضع حقائق السيرة لمقاييس تؤدي إلى نسخ كل ما هو جميل، وتزييف كل ما هو أصيل، وتميل بالقيم المشعَّة إلى أن تفقد إشعاعها وترتمي في الظلمة، أو تؤول إلى البشاعة)[1].

---

(١) انظر: عماد الدين خليل: المستشرقون والسِّيرة النبوية (بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغومري وات) ١/١١٦، ١١٧، (مرجع سابق).

ب) - وتناول المستشرقون - المعادون للإسلام - عهد الخلفاء الراشدين وعهد الخلافة الأمويَّة، والخلافة العباسية وما بعد ذلك إلى العصر الحديث، في ضوء مناهج بحثيَّة زائفة أظهرت تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة السياسي في صورة مزيَّفة اعتمدت على تراث الزنادقة والشعوبيين وسائر الفرق المنشقة على الأُمَّة الإسلاميَّة، كما أنَّ كثيرًا من تلك الدراسات اهتمت بالنزعات العرقية والقبليَّة وفسرت بها تاريخ الإسلام السياسي، كما اتهمت الحضارة الإسلاميَّة بأنها اصطبغت بالأفكار (الهلينستية)، والآراء الهنديَّة وفلسفة الافلاطونيَّة الجديدة.

يقول بعض الباحثين: (كان للشعوبيَّة والعصبيَّة أثر في وضع الأخبار التاريخية، والحكايات، والقصص الراميَّة إلى تشويه التاريخ الإسلامي، وإلى إعلاء طائفة على طائفة، أو أهل بلد على آخر، أو جنس على جنس، وإبعاد الميزان الشرعي في التفاضل، وهو ميزان التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]، كما أن الفرق المنحرفة استغلت القصَّاصَ، وانتشارهم وجهل معظمهم، وقلة علمهم بالسنة، وانحراف طائفة منهم تبتغي العيش والكسب، فنشروا بينهم أكاذيبهم وحكاياتهم، وقصصهم الموضوعة، فتلقفها هؤلاء القصاص دون وعي وإدراك ونشروها بين العامة، وانتشرت عن طريقهم كثير من الأحاديث الموضوعة المنسوبة كذبًا إلى النبي ﷺ، وعدد لايحصى من الأخبار والأقوال المكذوبة على الصحابة والتابعين، وعلماء الإسلام، مِمَّا يسيء لهم، ويشوه تاريخهم وسيرتهم.. وقد تلقفت هذه الأكاذيب والتحريفات (طائفة) من المستشرقين.... فوجدوا فيها ضالتهم، وأخذوا يعملون على

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

إبرازها، والتركيز عليها، مع ما أضافوه إليها - بدافع من عصبيتهم وكرههم للمسلمين - من أكاذيب وافتراءات كاختراع حوادث لا أصل لها، أو التفسير المغرض للحوادث التاريخية بقصد التشويه أو التفسير الخاطئ تبعًا للتصور والاعتقاد الذي يدينون به)[١].

وقد نتج عن ذلك أن فسرت الخلافة الراشدة بدءًا بحروب الردة وانتهاءً بمقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ومن بعده علي بن أبي طالب، وقبلهما عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين وما تلا ذلك من افتراق الأُمَّة... وكأنه نتيجة لنزعات قبليَّة وعرقيَّة ولرغبات النفوس وشهواتها.

وعن ذلك يقول (بروكلمان): (بيد أنه لَمْ تلبث أن اجتاحت بلاد العرب بأكملها روح الردَّة، ولم يكن للدوافع الدينيَّة في ذلك دور يذكر، وإنَّما أريد - فقط - التخلص من سلطة حكومة المدينة غير المريحة)[٢].

ويقول مفسرًا مقتل مالك بن نويرة: (وعندما ظهر خالد بن الوليد في منطقة تميم، وجد الطاعة في كل مكان تقريبًا إلا أن مالكًا بن نويرة، سيد يربوع الذي انفصل عن المدينة عقب وفاة محمد مباشرة ظلَّ مؤمنًا بسجاح، بيد أنه عندما حاصره خالد بفصائله، عرض هو أيضًا

---

(١) انظر: محمد بن صامل العلياني السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ص ٤٩٩ - ٥٠٢ (مرجع سابق)، وانظر: محمد ياسين مظهر صديقي: المحمات المفرضة على التاريخ الإسلامي: ص ١٠، ١١، ١٤ - ١٧، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨ م، عن دار الصحوة، القاهرة.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلاميَّة: ص ٤٨، (مرجع سابق). وانظر: عبدالكريم علي باز: افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي: ص ١١١ - ١١٤، (مرجع سابق).

استسلامه، ومع ذلك سمح خالد بالقضاء عليه (بقتله) مع رجال آخرين، وذلك لأنه اشتهى زوجته الجميلة كما يروى)[(١)].

ويقول (بروكلمان) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: (وقد يكون أصله (الارستقراطي) هذا، الذي عادل عند النبي نقص كفاءته الشخصية)[(٢)]، ويقول أيضًا: (وليس من شك أيضًا أن أعضاء المجلس - كبار الصحابة - آثَرُوا اختياره رغبة منهم في أن يروا على رأس المسلمين رجلاً يستطيعون توجيهه والتعامل معه في سهولة ويسر)[(٣)].

وعلى هذا المنوال يفسر (بروكلمان) ونحوه من المستشرقين تاريخ الإسلام في جانبه السياسي بما يشوه صورة الأُمَّة الإسلاميَّة ويخفي تميُّزها في جميع جوانب حياتها السياسية والحضارية والاجتماعية وقد تصدى بعض الباحثين للرد على مزاعم (بروكلمان) ومقارنتها بمزاعم (فيليب حتى) والرد عليهما[(٤)]، وتوصل إلى أنهما اتفقا على ذكر القضايا الآتية:

- (أن سبب خروج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في معركة الجمل كان من أجل التشفي بعلي بن أبي طالب.
- اتهام الحسن بن علي بأنه تنازل عن الخلافة مقابل رشوة قدَّمها له معاوية.
- اتهام عبدالملك بن مروان ببناء بيت المقدس لتحويل الحجاج إليه.

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلاميَّة: ص ٨٦، (المرجع السابق نفسه).

(٢) تاريخ الشعوب الإسلاميَّة: ص ١١٠، (المرجع السابق نفسه).

(٣) المرجع السابق نفسه: ص ١١٠.

(٤) انظر: عبدالكريم علي باز: افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي: ص ١١١ - ١٣٨، (مرجع سابق). وانظر: شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان: ص ٨٩ - ١٤٠، (مرجع سابق).

- مسألة العباسة وجعفر البرمكي.
- اتهام بعض خلفاء بني أميَّة وبني العباس بالمجون.
- جعل الناحية الاقتصادية هي الدافع الأساسي للفتوحات الإسلاميَّة)[1].

وممَّا درج عليه المستشرقون في تفسير التاريخ الإسلامي في جانبه السياسي أن بعضهم أبرز (تاريخ الفرق الضالة وعمد إلى تضخيم أدوارها، وتصويرها بصورة المصلح المظلوم، وبأنَّ المؤرخين المسلمين، قد تحاملوا عليها، فالقرامطة، والإسماعيلية والرافضة الإمامية، والفاطمية، والزنج، وإخوان الصفا والخوارج، كلهم في نظرهم واعتبارهم دعاة إصلاح وعدالة وحريَّة ومساواة، وثوراتهم كانت ثورات إصلاح للظلم والجور)[2].

وأظهر بعض المستشرقين تاريخ الخلافة الأمويَّة من خلال (النزعة القبلية، وشعر النقائض بين جرير والفرزدق والأخطل،... ولم يرَ من تاريخ الدولة العباسية كله غير دور الموالي من الفرس... وغير السباق بين العناصر المختلفة، وبداية التنافس والطموح)(٣)، وتؤكد الحقيقة

---

(١) عبدالكريم علي باز: المرجع السابق نفسه: ص ١٣٥، وانظر: في الرد على مسألة العباسة...؛ شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان: ص ١٢٤ - ١٢٦، (المرجع السابق نفسه).

(٢) محمد بن صامل العلياني السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ص ٥٠٥، (مرجع سابق). وانظر: حسين مؤنس: كتاب مجد الإسلام لجاستون فييت (ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث...) ص ٥٧٣ - ٥٧٥، (مرجع سابق).

(٣) محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره: ص ١٧، (مرجع سابق).

التاريخية أنَّ (تاريخ بني أميَّة كما يراه الثقات من أهل العلم هو تاريخ تثبيت دولة الإسلام، وذلك على الرغم مِمَّا ارتبط بهذا التاريخ من أحداث مؤلمة لها ظروفها وملابساتها التاريخية الخاصة، التي يجب أن تفهم في ضوئها)[1].

وقد قال عنها ابن خلدون: (وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أميَّة لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم، فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحاً، ولايرتاب أحد في ذلك، ولايُظَنُّ بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما يُدَّعى عليه من الفسق حاشا اللّه لمعاوية من ذلك، وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه، وإن كانوا ملوكاً، لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، إنَّما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلاَّ في ضرورة تحملهم على بعضها، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل قصد، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء، وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم، فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبدالملك، وأمَّا مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالتهم معروفة)[2].

ويقول عن العباسيين: (كانوا من العدالة بمكان وصرَّفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح، ثُمَّ أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها، ونبذوا الدين وراءهم ظهرياً فتأذن اللّه

---

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٨، ١٩، ٢٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص ٢٠٦، (مرجع سابق).

بحربهم وانتزاع الأمر من أيدي العرب)[1].

وممَّا يذكر في هذا المقام أنَّ الدراسات الاستشراقية في مجال تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة وحضارتها قد بلغت من التنوع حدًّا يصل بها إلى درجة التعقيد، من حيث طبيعة الموضوع وأسلوب معالجته، إذ (لايُمكن حصره وتصنيفه في سهولة ويسر، لاختلاف هوية المستشرقين، وخلفيتهم البيئية والفكرية التي ينطلقون منها في دراساتهم، فالمستشرقون اللاهوتيون - مثلاً - يختلفون في ذلك عن المستشرقين العلمانيين وإذا كان الاستشراق من الظاهر تيارًا عامًّا فإنَّ وراء هذا العموم مدارس متنوعة وتقاليد متعددة وتوجهات شتى تختلف فيما بينها بقدر اختلاف مصالحها واحتكاكها بالعالم الإسلامي...، كما يرجع ماتتصف به من تعقيد في كثير من الدراسات إلى تنوع منطلقات المعالجة، وأهدافها، وما تحرص على أن لاتحيد عنه من المسلك الاستشراقي المعهود، ومناهجه

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ٢٠٦، (المرجع السابق نفسه).

ولمزيد الاطلاع على آراء المستشرقين وشبهاتهم حول تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة وحضارتها منذ نهاية الخلافة العباسية وحتى العصر الحديث؛ انظر: شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان: ص ١٣٠ - ١٧٢، (مرجع سابق)، وانظر: لوثروب ستودارد الأمريكي: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، وبتعليق الأمير شكيب أرسلان: ٢٠٨/٣ - ٣٤٢، (مرجع سابق).

وانظر: شوقي أبوخليل: غوستاف لوبون: ص ٤٩ - ١٦٩، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠م، عن دار الفكر - دمشق، وانظر: أحمد العناني: أطول معارك التاريخ: ص ١٥٣- ١٧٣، (مرجع سابق)، وانظر: جمال الدين الشيَّال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة: ص ٧٧ - ١١٣، (مرجع سابق).

الخاصَّة[1]؛ وعلى أيِّ حالة فإنَّه مهما اختلفت المنطلقات والأهداف فإنَّ القدر المشترك بين معظم الدراسات الاستشراقية لتاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة وحضارتها هو محاولتها نفي التميُّز عنها واتخاذ أسلوب التشكيك في عقيدتها وشريعتها وأمجادها التاريخية والحضارية[2]، ومن المعروف أنَّهم نسبوا القرآن الكريم إلى الرسول ﷺ، وقالوا إنه من تأليفه، وألصقوا الحديث النبوي بتطور المجتمع الإسلامي في عصوره الأولى، وشككوا في نسبته إلى الرسول ﷺ ونسبوا عمل المسلمين واجتهادهم في الفقه الإسلامي إلى القانون الروماني، كما شوهوا تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة في جوانبه السياسية والاجتماعية، ونالوا من حضارته الفريدة.

يقول (جولد زيهر): (إنَّ نمو الإسلام مصطبغ نوعًا بالأفكار (الهلينستية)، ونظامه الفقهي الدقيق يشعر بأثر القانون الروماني، ونظامه السياسي كما تكون في عصر الخلفاء العباسيين يدل على عمل الأفكار والنظريات السياسية الفارسية)[3].

---

(١) محمد بركات البيلي: الخلفية التاريخية للاستشراق... ص ١٣٧، (مجلة المنهل)، (المرجع السابق نفسه).

(٢) عن الحضارة الإسلاميَّة وموقف المستشرقين منها انظر: عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة: ص ١٥٧ - ١٧٦، (مرجع سابق)، وانظر: مصطفى الشكعة: مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلاميَّة في الأندلس: (مقال مدرج في مناهج المستشرقين في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة): ٢/٢٧٣ - ٣٤٣، (مرجع سابق).

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام...: ص ١١، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين، (مرجع سابق).

ويخلص إلى القول: (وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مطبوعًا على جبهته منذُ ولادته، فمحمد مؤسسه لم يبشر بجديد من الأفكار، كما لم يمدنا أيضًا بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره وباللانهاية، لكن هذا وذاك لاينقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية)[1].

رابعًا: استخلاص موازين البحث عند المستشرقين:

(يُمكن تلخيص موازين البحث عند المستشرقين بما يأتي[2]:

- تحكيم الهوى ونزعات العداء للإسلام والمسلمين، والتعصب الأعمى للنصرانية، وللشعوب والأمم المنتمية إليها.

- وضع الفكرة مقدمًا ثم البحث عما يؤيدها مهما كانت ضعيفة واهية، وكثيرًا ما يعمدون إلى أسلوب المغالطات والأكاذيب، وبتر النصوص أو التشكيك بها، أو الأخذ بالواهي منها.

- تفسير النصوص والأحداث والوقائع والنيات والغايات تفسيرات لاتتفق مع دلالاتها وأماراتها الحقيقية، ولا مع النتائج التي أثبتها تاريخ الأُمَّة الإسلاميَّة.

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام: ص ١١، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: محمد عبدالله مليباري: المستشرقون والدراسات الإسلاميَّة: ص ٦٩، (مرجع سابق).

(٢) عبدالرحمن حبنكة: أجنحة المكر.. ص ١٤٧، (مرجع سابق)، وانظر:

- السباعي: الاستشراق.. ص ٤٣، (مرجع سابق).
- عبدالعظيم الديب: المستشرقون والتراث.. ص ٢٧ - ٤١، (مرجع سابق).
- محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن.. ص ١٠١ - ١٠٥، (مرجع سابق).
- إسماعيل سالم عبدالعال: المستشرقون والقرآن ١/ ٣٨ - ٤٠، ٤١، (مرجع سابق).

- تضخيم بعض الأخطاء اليسيرة والتركيز عليها، وتحليلها والاستنتاج منها نتائج تتنافى وتاريخ المسلمين، وما يحفل به من صور رائعة مشرقة.

- تجميع الهفوات التي لاتخلو منها أُمَّة مهما عظمت ووضعها في صورة واحدة، وتقديمها على أنها هي صورة تاريخ المسلمين.

- تصيد الشبهات التي يلتبس وجه الحق فيها على كثير من الناس، ولايستبين لهم ما لم يمتحنوها بالتجارب الطويلة، والتشبث بإثارة الانتقادات حولها، اتباعًا لأهواء النفوس وشهواتها في إطارٍ من استغلال شعارات براقة المظهر تخدع من لايعرف الحقائق.

- اعتماد ما يوافق هواهم من كل خبر ضعيف، ورأي مردود شاذ، وقول ساقط لا سند له من عقل ولا نقل صحيح.

- رفض الحق بالنفي المجرد، الذي لايدعمه دليل صحيح مقبول في المنهج العلمي السليم.

- تفسير التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميَّة بالمنظار الغربي الذي يفسرون به التاريخ الغربي والحضارة الغربية، مع تباين كل من التاريخين والحضارتين عقيدة ونظامًا، وبيئة ودوافع تباينًا كليًّا.

- استنباط القواعد الكلية العامَّة من الحوادث الفرديّة الجزئية التي لايصح منطقيًّا تعميمها.

- الاعتماد على الوهم المجرد لتفسير الأمور والوقائع.

- قياس المؤمن المسلم الذي يخشى الله على الذين لاتردعهم روادع دين ولا خلق، وتفسيرهم لسلوك المسلمين أفرادًا وجماعات بأنه مدفوع بأغراض شخصية، ونوازع نفسية دنيوية، وليس أثرًا لدافع ابتغاء مرضاة

الله وثواب الآخرة)[1].

- (يعطي الاستشراق نفسه في دراسته للإسلام دور ممثل الاتهام والقاضي في الوقت نفسه)[2].

- (يخلط الاستشراق كثيراً بين الإسلام بوصفه دينًا وتعاليم ثابتة في القرآن والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردي في العالم الإسلامي)[3]، ويحرص على إسقاط عمل المسلمين المخالف لتعاليم الإسلام على الإسلام نفسه، ويعد ذلك حجة على الإسلام في حين أن الإسلام حجة على المسلمين وليس العكس[4].

- (يستمثر الاستشراق الفرقة بين المسلمين ويظهر تاريخ الفرق الضّالة، ويمجد المنشقين عن الإسلام وأمته من فرق قديمة وحديثة ويعرضهم وكأنهم أصحاب فكر متحرر، ويهتم بإظهار كل شاذ وغريب)[5].

ومِمَّا يلحظ على كثير من دراسات المستشرقين فيما يخص تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة بصفة خاصَّة مايأتي:

- إهمال جوانب المخالفة إذا كانت دليلاً على التميُّز في إطار العقيدة والشريعة والقيم الأخلاقية والنظم، أو في إطار تاريخ الأُمَّة

---

(١) عبدالرحمن حبنكة: أجنحة المكر..: ص ١٤٧، ١٤٨ (المرجع السابق نفسه).

(٢) زقزوق: الاستشراق.. ص ١١٧، (مرجع سابق)، وانظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٢١٢، (مرجع سابق).

(٣) زقزوق: المرجع السابق نفسه: ص ١١٦، وانظر: محمد البهي: المرجع السابق: ص ٦٢.

(٤) انظر: زقزوق: المرجع السابق نفسه: ص ١١٦.

(٥) انظر: زقزوق: المرجع السابق نفسه: ص ١١٦.

الإسلاميَّة وحضارتها.

- اصطياد جوانب المشابهة والموافقة بهدف نفي التميُّز عن الأُمَّة الإسلاميَّة، وإهمال ما تدل عليه تلك المشابهة أو الموافقة من وحدة الفطرة أو المسلمات العقليَّة والمنطقية، ونحو ذلك مِمَّا يعد في الحقيقة قدرًا مشتركًا بين الشعوب والأمم، وإنَّما تنظر معظم الدراسات الاستشراقية لجوانب المشابهة والموافقة بين الأُمَّة الإسلاميَّة وغيرها من الأمم الأخرى نظرة ذات نزعة عاطفيَّة معادية.

- إهمال أسباب المشابهة والموافقة بين الأُمَّة الإسلاميَّة وغيرها من الأمم الأخرى، وإغفالها إذا كان ذلك لايخدم الفكرة التي تسعى الدراسات الاستشراقية لتقريرها[١].

* * *

(١) لمزيد الاطلاع؛ انظر:

- عبدالعظيم الديب: المنهج في كتابات الغربيين عن تاريخ الإسلام: ص ٥٩ - ٦٩، ٧٠ - ١٢٣، (مرجع سابق).
- ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية..: ١/١٩٧- ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٧٥، (مرجع سابق).
- أحمد عبدالحميد غراب: رؤية إسلاميَّة للاستشراق: ص ٧٩- ٨٤، ٨٥- ١٤٠، (مرجع سابق).
- محمد أحمد ذياب: أضواء على الاستشراق والمستشرقين: ص ١١٦- ١٢٠، (مرجع سابق).
- عمر بن إبراهيم رضوان: آراء المستشرقين حول القرآن..: ١/٧٧- ٩١، (مرجع سابق).

مبحث ختامي

ويشتمل على مطلبين، هما:

المطلب الأول: تقويم الحركة الاستشراقية ومنهج الإسلام في مواجهتها.

المطلب الثاني: أساليب مواجهة تحدي الاستشراق والمستشرقين ووسائلها.

المطلب الأول
تقويم الحركة الاستشراقية
ومنهج الإسلام في مواجهتها

من خلال استعراض تاريخ الاستشراق في جذوره الضاربة في أعماق تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب والإحاطة بعوامل نشأته وتطوره وازدهاره وعلائقه، ومظاهر نشاطه وحاضره ومستقبله وما أثاره من شبهات حول تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة، وموقف المستشرقين من مقومات هذا التميُّز، وخصائصه، وأهدافه، ووسائل تحقيقه؛ يُمكن تقويم الحركة الاستشراقية فيما يأتي:

أولاً: إنَّها حركة فكرية هائلة متشعبة شملت مناطق واسعة جداً من العالم وركزت على العالم الإسلامي بخاصة، ووجهت اهتمامها نحو الإسلام واللغة العربية - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - كما قامت بدراسة جوانب من حياة الأُمَّة الإسلاميَّة وبخاصة منها العقدية والفكرية والاجتماعية والسياسية والتاريخية، فهي متعددة المجالات متنوعة في دوافعها وأهدافها، متأثرة بالمراحل التي قطعتها، والأطوار التي مرت بها، ومختلفة في النتائج التي وصلت إليها، (وقد ساهم في تلك الحركة آلاف من المستشرقين، عبر العصور التاريخيَّة المختلفة، وكانت جهودهم متفاوتة مختلفة في صورها)[1]، ووسائلها، وأساليبها، وتبعًا لذلك جاءت كتابات المستشرقين عن الإسلام؛ (تتراوح بين الجهل

---

(١) علي حسين الخربوطي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي: ص ٩٧، نشر الهيئة المصريَّة للكتاب، ١٩٨٨ م.

التام، والمعرفة الموجهة، بين الإسفاف الشنيع، والموضوعيَّة النسبيَّة، بين الافتراء والإنصاف، بين الاستعلاء والنزاهة، بين الفحش الصارخ، والتسامح العاقل)[1].

أمَّا ما نتج عن هذه الدراسات المتنوعة الشاملة التي تولتها الحركة الاستشراقية فقد كان بالغ الأثر على ذاتية الأُمَّة الإسلاميَّة المتميزة، ولاسيما بعدما اتضح مدى تحامل المنهج الاستشراقي على الإسلام وأمته ومجافاته للحقيقة التاريخية ومايتطوي عليه ذلك من أخطار أجملها أحد المفكرين في قوله: (إن هذا الاستشراق.. كان أداة بشعة لتصوير الإسلام وتزييفه لمنع عبوره إلى الحياة الأوروبية، وكان منطلق ومخطط الغزو الفكري في بلاد الإسلام، استطاع أن يخترق حياة المسلمين ويشوه أمام أجيالهم - التي تربت في ظل ثقافة الخمود والجمود - الإسلام بكل معانيه من خلال الاحتكاك الحضاري بالمسلمين في القرن الأخير، ولاسيما في مرحلته الأخيرة التي اختفى فيها وراء براقع العلمية والموضوعية والحياد. فاستطاع في هذه المرة أن يقوم بمنع تسرب الإسلام الحق إلى حياة الثقافية الجديدة، سواء عن طريق الإعلام العام أم المؤسسات الثقافية في البلاد الغربية أو المراكز والمدارس والجامعات في البلاد الإسلاميَّة)[2].

ثم (إنَّ الاستشراق قام بدور تضليلي تاريخي ضخم في حياة المسلمين وتاريخهم وثقافتهم ودينهم، ولقد تغلغلت الكتابة الاستشراقية المتعددة

---

(١) محمود حمدي زقزوق: سيرة الرسول ﷺ في تصورات الغربيين لجوستاف بفانمو: ص ٦، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، مكتبة ابن تيمية المحرق، البحرين.

(٢) محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين تجاه الإسلام.. ص ٣٤، (مرجع سابق).

الجوانب في حياة الأُمَّة خلال قرن كامل بحيث نفذت إلى كل جزئية من جزئياتها، لايدرك خطرها إلا العالم الخبير الموازن بين حقائق الإسلام وأوضاعه الحضارية وبين مزاعم المستشرقين ودراستهم لها)[1].

ثانيًا: إنَّها حركة موجهة ارتبطت في مسارها العام بالتنصير وبالاستعمار كما ارتبطت بالصهيونية العالمية وانطبعت بالروح المعادية للأُمَّة الإسلاميَّة وتاريخها، لتحقيق هدف هذه القوى المعادية للإسلام والمسلمين في تشويه الإسلام ودفع العالم الإسلامي إلى مزيد من الضعف والتخلف.

وعلى هذا فإنَّ أعمال المستشرقين تحتاج إلى مواجهة دقيقة عميقة بأساليب مجدية ووسائل فاعلة ومنهج محكم يحيط بأبعاد القضية ويناقشها بروح علمية موضوعية.

إن المنهج المطلوب في مواجهة المستشرقين تصحيحًا وتقويمًا هو منهج الإسلام في مجادلة أهل الكتاب وغيرهم ممن كان يثير الشبهات على هدي الإسلام وتعاليمه وهو منهج بين واضح، وقد وردت آيات عديدة في القرآن العظيم تبين آداب الحوار والجدل والمناقشة، ثمَّ طبق الرسول ﷺ بأفعاله وأقواله ومواقفه ذلك المنهج، وسار سلف الأُمَّة عليه والتزم الخلف الصالح به، وهو منهج يقوم على أسس رصينة تحقق النزاهة والموضوعية والقوة والأصالة والعدل والإحسان والعفو والصفح.. ولعل من أهم هذه الأسس ما يأتي:

١- بيان الحق والدعوة إليه.. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٣١.

بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1].

٢- إدراك السنن الإلهية في النفس والكون والحياة وتلافي الاصطدام بها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[5].

٣- مناقشة الأديان والعقائد والملل والنحل والمذاهب المختلفة مناقشة موضوعية نزيهة تكشف ما فيها من وجوه الزلل والزيف والبطلان وتبين الحق في ذلك كله.

ومن الأمثلة علي ذلك أن الله قد أشار إلى مقالة الملاحدة والذين ينكرون البعث واليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[6]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم

(١) سورة آل عمران: الآية (٦٤).

(٢) سورة هود: الآيتان (١١٨، ١١٩).

(٣) سورة يونس: الآية (٩٩).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

(٥) سورة يوسف: الآية (١٠٣).

(٦) سورة الجاثية: الآية (٢٤).

مُّخْرَجُونَ ۝ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[1].

وعند تأمل هذا الطرح والمناقشة التي أعقبته تظهر عبارات «تَعْلَمُونَ»[2]، «تَذَكَّرُونَ»[3]، «تَتَّقُونَ»[4]، وقد ذيلت بأسئلة لطيفة متدرجة من مقدمة إلى نتيجة، وهي ترتقي بالفكر والوجدان وفيها احترام لعقلية المجادل والنزول معه إلى ما يعقله ويدركه وتذكيره بلوازم ذلك ثمّ السمو به إلى التقوى، وإيقاظ شعوره ووجدانه وهمته للزوم الحق والخير وتحذيره من مغبة الكذب على الله ووصفه بما هو منزه عنه.. حيث قال تعالى: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[5].

لعل في هذا الأسلوب وما أدى إليه من نتائج وأحكام صورة واضحة جلية على المنهج القرآني الجدلي وما يتسم به من نزاهة وقوة في البيان والأصالة.

٤- التزام الأدب والجدال بالتي هي أحسن؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾[6] ذكر في تفسير هذه الآية: (ينهى تعالى عن مجادلة

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات (٣٤ - ٣٧).

(٢) سورة المؤمنون: من الآية (٨٤).

(٣) سورة المؤمنون: من الآية (٨٥).

(٤) سورة المؤمنون: من الآية (٨٧).

(٥) سورة المؤمنون: الآيات (٩٠ - ٩٢).

(٦) سورة العنكبوت: الآية (٤٦).

أهل الكتاب إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل أو بغير قاعدة مرضية، وأن لايجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لايكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة، وحب العلو، بل يكون القصد، بيان الحق، وهداية الخلق)[1]. أمَّا في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾، فقد جاء في تفسير ذلك: (إلاّ الذين ظلموا من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله، أنّه لا إرادة له في الحق وإنّما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله؛ لأنّ المقصود منها ضائع)[2].

٥- أخذ الحيطة والحذر من أهل الكتاب مع الالتزام بآداب المجادلة معهم، والتنبه لما قد يلجؤون إليه من:

أ) - التحريف: قال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

ب) - التلبيس والكتمان: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[4].

ج) - المخادعة: قال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن...: ٦/٩٢ (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ٦/٩٣.

(٣) سورة البقرة: الآية (٧٥).

(٤) سورة آل عمران: الآية (٧١).

﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

د) - الحسد: قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾[3].

هـ) - التعصب لما هم عليه من الباطل: قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[4].

و) - تزكية النفس وادعاء التفوق: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[7].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٧٢).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٠٩).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢١٧).

(٤) سورة البقرة: الآية (١٢٠).

(٥) سورة النساء: الآية (٤٩).

(٦) سورة البقرة: الآية (١١١).

(٧) سورة المائدة: الآية (١٨).

٦- النهي عن موالاتهم، والإعلان لهم بأنا مسلمون، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ .... فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2].

٧- الإشادة بفئة من أهل الكتاب عرفت الحق فآمنت به وتعاطفت معه، قال تعالى: ﴿ ... ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[3].

هذه أهم أسس المنهج في المجادلة بعامة ومجادلة أهل الكتاب بخاصة، وقد طبقه الرسول ﷺ مع المجادلين ورسخه في الواقع وسار السلف الصالح عليه، و (اهتم العلماء المسلمون - بتأثير مباشر من القرآن والسنة - اهتمامًا بالغًا بدراسة أديان الأمم وعقائدها وطقوسها وعقدوا لذلك كتبًا مفردة أو فصولاً مطولة في مصنفاتهم كالمسعودي وابن خلدون)[4]، وابن حزم، والجويني، وابن تيمية، وتلميذه ابن قيم

---

(١) سورة المائدة: الآية (٥١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٦٤).

(٣) سورة المائدة: من الآية ٨٢ والآية ٨٣.

(٤) انظر: محمد الشرقاوي: مقدمة لكتاب أبي حامد الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ): الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل: دراسة وتحقيق: محمد عبدالله الشرقاوي، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ، عن دار أمية للنشر والتوزيع - الرياض، ص ١٩.

وللاطلاع على أبرز المؤلفات في هذا... انظر:

● المرجع السابق: ص ١٩ - ٢٤.

الجوزية، والقرطبي، ثُمَّ برزت في العصر الحديث مؤلفات تُعْنَى بهذا الجانب مثل مؤلفات رحمة الله الهندي وأبي زهرة وغيرهما.

ومِمَّا انتهجه علماء الأُمَّة الإسلاميَّة في الاحتجاج على الطوائف التي أثارت بعض الشبهات على عقائد الإسلام؛ أنَّهم كانوا يردون على بعضهم بما قال بعضهم الآخر، ويحتجون بما تورده طائفة من الحق أو ما هو أقرب إليه على الطائفة الأُخرى، حتى تضيق دائرة الخلاف ويُجتَلَى الحق من خلال تحرير محل النزاع، وعن هذا يقول ابن تيمية: (ومِمَّا ينبغي - أيضًا - أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات، منهم من يكون قد خالف السنَّة في أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنَّما خالف السنَّة في أمور دقيقة، ومن يكون قد ردَّ على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنَّة منه، فيكون محمودًا فيما ردَّه من الباطل، وقال من الحق، لكن يكون قد جاوز العدل في ردِّه بحيث جحد بعض الحق، وقال بعض الباطل، فيكون قد ردَّ بدعة كبيرة ببدعة أخف منها، وردَّ باطلاً بباطل أخف منه، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنَّة والجماعة)[1].

- ● عثمان جمعة ضميرية: مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة، ص ٦٥ (مرجع سابق).
- ● سيرتوماس. و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، الملحق [٢]، كتب الجدل بين المسلمين واتباع الديانات الأخرى ص ٤٧٦، ٤٧٧، ومراجع عن أدب الجدل في الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، (مرجع سابق).
- ● إدغار فيبير: في الجدل الديني في الأندلس والابستمولوجيا الحديثة، المجلة العربية للثقافة الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد [٢٧] ربيع الأول ١٤١٥ هـ- سبتمبر ١٩٩٤ م، ص ٧٢ - ٩٣، (مرجع سابق).

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/٣٤٨، (مرجع سابق).

ويُمكن أن يفيد علماء الأُمَّة الإسلاميَّة من هذه الركيزة المنهجيَّة - التي ألمح إليها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - في الرد على بعض المستشرقين بما قاله بعضهم الآخر، وفيما رُدَّ به على المستشرقين من غيرهم.

وخلاصة القول: إنَّ منهج الإسلام في مواجهة الاستشراق والمستشرقين من علماء الأُمَّة الإسلاميَّة وباحثيها ومفكريها محدد المعالم راسخ الأسس واضح السمات ملائم للتطبيق يكشف الزيف ويهدم الباطل ويهدي للتي هي أقوم.

* * *

المطلب الثاني
أساليب مواجهة تحدي الاستشراق والمستشرقين ووسائلها

بعد الإلمام بطبيعة المنهج الاستشراقي في دراسة الإسلام وأُمَّته وأنّه يهدف بطرق مباشرة وغير مباشرة إلى طمس معالم هويّة الأُمَّة الإسلاميَّة، والتشكيك في عقيدة الإسلام وشريعته وتاريخه وحضارته وتراثه، والنيل من ذاتيتها المتميزة واستقلالها[1]، فإنَّ التصدي لهذا الفكر الغازي يحتاج إلى مواجهة تعتمد على الآتي:

أولاً: الثقة في الله قبل كل شيء، وإخلاص النية له ثم تحديد الهدف من اتخاذ أي أسلوب أو التذرع بأي وسيلة لمكافحة هذا الفكر الغازي والتصدي له أو لغيره من الأخطار المحدقة بالأُمَّة.. وأن يكون الهدف هو إعلاء كلمة الله، والانتصار له تعالى لتكون كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[3].

ثانيًا: الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذا شرط جوهري لمواجهة الاستشراق وغيره من الأخطار التي تهدد تميز الأُمَّة، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

---

(١) انظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ١٣٠، (مرجع سابق).

(٢) سورة محمد: الآية (٧).

(٣) سورة الأنفال: الآية (١٠).

بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]، وقال الرسول ﷺ: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما مَسَكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه»[2].

إذا تحقق هذا وذاك نهضت الأُمَّة الإسلاميَّة من كبوتها وحققت بذلك تميز شخصيتها وتفرد ذاتيتها؛ لأنها بذلك تحدد هدفها في الحياة، وترتكز على عقيدة قويّة سليمة واضحة، وتنطلق في مسيرتها على جادة بينة في منهج محدد مرسوم مستقيم؛ وهو صراط الله المستقيم، الذي فسَّرَهُ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حينما سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾[3] الآية، بقوله: (تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة)[4].

بهذا التمسك وعلى ذلك المنهج سادت الأُمَّة الإسلاميَّة وانتصرت وقادت البشرية ردحًا من الزمان.. (وإذا جدّد المسلمون في هذا العصر سيرة سلفهم الصالح عادوا أقوياء بقوة الإسلام أعزاء بعزته، منتصرين باتباع كتابه وسنته)[5].

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٥٣).

(٢) أخرجه الإمام مالك: الموطأ، كتاب القدر، باب: النهي عن القول بالقدر، الحديث رقم [٣]، الجزء الثاني، ص ٦٨٦، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مرجع سابق)، (والحديث برواية أنس بن مالك، وسبق تخريجه في رواية أخرى وبلفظ آخر لابن عبدالبر). انظر: مقدمة البحث؛ ص ٢٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية (١٥٣).

(٤) أورده ابن كثير عند تفسيره للآية المذكورة في تفسيره ٢/١٩١، ص٦٩٦.

(٥) انظر: أحمد محمد جمال: التحديات الدينية واللادينية وموقف الإسلام منها، مجلة كلية أصول الدين، العدد [١]: ص ٢٦، صدرت عام ١٣٩٧ هـ - ١٣٩٨ هـ، عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، الرياض.

ثالثًا: إدراك واقع الأُمَّة.. وأنها في حالة ضعف شديد، وهذا الضعف حدث واشتدّ بسبب بعد المسلمين عن كتاب الله وعن سنة رسوله ﷺ، وليس بسبب تمسكهم بهما كما يصور ذلك أعداؤها ومنهم عامة المستشرقين.. وهذا الضعف الذي تعاني منه الأُمَّة الإسلاميَّة شكّل مناخًا ملائمًا وبيئة خصبة لنشوء قوىً وتيارات تعادي عقيدة الإسلام وشريعته وتاريخه وحضارته، (ولابُدّ لنا أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامي عن معرفة ذاته، فالاستشراق في حد ذاته دليل وصاية فكرية، ويوم يعي العالم الإسلامي ذاته وينهض من عجزه.. سيجد الاستشراق نفسه في أزمة وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام، ويومها لن يجد الجمهور الذي يخاطبه لا في أوروبا ولا في العالم الإسلامي)[1].

رابعاً: إذا كان ما قام به الاستشراق في القديم وما يقوم به في الحاضر يعدُّ جزءًا مهمًّا في الصراع الفكري ضد وجود الأُمَّة الإسلاميَّة وتميزها؛ (لما يسهم به في صياغة التصورات الغربية عن العالَمْ الإسلامي، معبرًا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما)[2]، فإن هذا الصراع الفكري المرير ضد الأُمَّة الإسلاميَّة والمعركة التي فرضت عليها يُعَدّ أشد وطأة وأقوى أثرًا وأعظم فتكًا من أيٍّ معركة حربية مهما كان حجمها؛ لأن هذه المعركة معركة أفكار[3] حول إثبات الذات وتميزها.

---

(١) زقزوق: الاستشراق.. ص ١٢٧ - ١٢٨، (مرجع سابق).

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ٣٣، (مرجع سابق).

(٣) انظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ١٢٥، (المرجع السابق نفسه)، وانظر: عماد الدين خليل: هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي: ص ٢٤ - ٥٢، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦ م، عن مكتبة النور، القاهرة.

ويتساءل بعض الباحثين: (هل نحن حريصون حقاً على الحفاظ على هويتنا وعقائدنا وتراثنا واستقلالية شخصيتنا الإسلاميَّة أم لا ؟ إذا كانت الإجابة بالإيجاب فنحن إذن أصحاب قضية مصيرية من أجل إثبات الذات.. قضية صراع حضاري مرير. والاستشراق طرف في هذه القضية)[١].

والحربُ على الإسلام وأمته في هذا المجال حربٌ عقديَّة فكرية لها منطقها ووسائلها وأساليبها، ومِمَّا تتمثل به البحوث والدراسات، والتراجم المختلفة لمعاني القرآن الكريم وإنجاز المعاجم اللغوية والموسوعات المتنوعة في التاريخ والاجتماع والعقائد والمذاهب والحضارة وذلك إلى جانب تأسيس المعاهد والجمعيات وإصدار المجلات وعقد المؤتمرات ونحو ذلك من الأعمال العلمية والتعليمية والإعلامية[٢] التي تظهر في أحيان كثيرة بالمظهر الحضاري والرقي الفكري، بينما هي في الحقيقة تكيد للأُمَّة الإسلاميَّة وتقوم بتفريغ شخصيتها من مضامينها الصحيحة وتحاول إعادة صياغتها وفق أهدافها - كما وصف - إدوارد سعيد مكانة الاستشراق في الثقافة الغربية وأنها استطاعت (عن طريقه أن تتدبر الشرق - بل حتى - أن تنتجه سياسيًّا، واجتماعيًّا، وعسكريًّا، وعقائديًّا، وعلميًّا، وتخيليًّا في مرحلة ما بعد عصر التنوير)[٣]، وسواء بلغ الاستشراق هذا الهدف أو لم يبلغه فلا أقل من كونه أصبح يشكل ما يشبه الوصاية الفكرية على الأُمَّة الإسلاميَّة وأوضاعها العامة والخاصة.

---

(١) زقزوق: الاستشراق: ص ١٣٠، (المرجع السابق نفسه).

(٢) انظر: مظاهر النشاط الاستشراقي: ص ٢٩٤ - ٢٩٦، (البحث نفسه).

(٣) انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق.. ص ٣٩، (مرجع سابق).

إنَّ التصدّي لهذا الواقع يستوجب إعداد الوسائل والأساليب المناسبة لمواجهة هذا التحدي والتصدي لخطره، وقد اجتهد كثيرٌ من الباحثين في طرح ما يقابل التحدي الاستشراقي بمثله بل ويتغلب عليه.. ومن أبرز الوسائل والأساليب ما يأتي:

١- إعداد موسوعة للرد على المستشرقين.

٢- إعداد دائرة معارف إسلامية جديدة.

٣- إنجاز ترجمة إسلامية لمعاني القرآن الكريم.

٤- تأسيس مؤسسة إسلامية علمية عالمية.

٥- تكوين جهاز عالمي للدعوة الإسلاميَّة.

٦- إنشاء دار نشر إسلامية عالمية.

٧- العمل على تنقية التراث الإسلامي.

٨- الحضور الإسلامي في الغرب.

٩- الحوار مع المستشرقين المعتدلين)[1].

وهناك أطروحات كثيرة أخرى من أبرزها:

١- فتح معاهد للدراسات الإستشراقية في الجامعات الإسلاميَّة تعنى بما صدر عن المستشرقين تصنيفاً ودراسة ونقداً.

٢- عقد مؤتمرات لمناقشة الأعمال المنجزة في هذا الصدد ورصد النتائج وتبادل التجارب والخبرات.. ثم الاتفاق على جمع النتائج ونشرها من لدن لجان متخصصة في سلسلة علمية مفصلة تتحول عبر السنين إلى موسوعة كاملة في الرد على المستشرقين.

٣- توجيه بعض الرسائل الجامعية في أقسام الدراسات العليا في

---

(١) انظر: زقزوق: الاستشراق.. ص ١٣٠ - ١٥٤، (المرجع السابق نفسه).

الأقسام الإسلاميَّة والإنسانية نحو دراسة آثار المستشرقين.

٤- تدريس الاستشراق ومناهجه وتراثه وآثاره في الأقسام العلمية في الجامعات)[1].

ويأتي بعد ذلك تساؤل عما إذا كان ذلك في الإطار النظري فحسب، أو تجاوز هذا الإطار إلى التطبيق العمليِ؟.

والجواب على هذا بأن هناك أعمالا جماعية وأخرى فردية بذلت في مواجهة الاستشراق وأعمال المستشرقين يُمكن الإلماح إلى بعضها على سبيل الإجمال والإيجاز سواء ما كان منها على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي من خلال المؤسسات العلمية والمراكز والهيئات المتخصصة في العالم الإسلامي.

أولاً: قام على المستوى الفردي (كثيرٌ من علماء الأُمَّة ومفكريها وبعض الباحثين والدّارسين بالتصدي للاستشراق ومناقشة منهجه في دراسة الإسلام وبيان مخاطره وخياناته العلمية.. والكشف عن مقدماته ونتائجه الفاسدة)[2].

ومن أبرز هؤلاء العلماء والمفكرين والباحثين: (محمد رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان، ومصطفى الرافعي، وعباس محمود العقاد، ومصطفى السباعي، وعائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، ومالك بن نبي، ومحمد البهي، ومحمد الغزالي، ومحمد محمد حسين، وأنور الجندي، ومحمود شاكر وغيرهم)[3].

---

(١) انظر: محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين.. ص ١٣٢ - ١٣٤، (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه: ص ١٣١.

(٣) انظر: أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق.. ص ٦٨٤، ٦٨٥، (مرجع سابق)، وانظر ما سبق في ص ١١٠٨ - ١١٠٩، (البحث نفسه).

كما توجد مخطوطة عن المستشرقين وأعمالهم لمحب الدين الخطيب في حوزة ابنه ذكرها أحمد سمايلوفتش (أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلاميَّة بكلية الدراسات الإسلاميَّة بيوغسلافيا)[١]، ذكر بأنّه اطلع عليها وقال عن مؤلفها: (... حاول أن يسجل كل ما يتعلق بالاستشراق، مبتدئًا بمطبوعات شرقية في أوروبا، الجمعيات الاستشراقية المختلفة، مؤتمرات المستشرقين.. مشاهير المستشرقين، دائرة المعارف الإسلاميَّة، مجلات الاستشراق المختلفة، مطابع العربية في أوروبا، المكتبات الأوروبية التي تحتوي على المؤلفات العربية، وما إلى ذلك مما يبدو لنا أنه كان ينوي التأليف في هذا الموضوع علاوة على ما يؤكد دقة تتبعه لأعمال المستشرقين المختلفة وما كان يصدره علماؤه الكبار في الشرق والغرب على السواء)[٢].

ثانيًا: وأمَّا على المستوى الجماعي من خلال المؤسسات العلمية والهيئات ومراكز البحث في العالم الإسلامي فهناك على سبيل المثال لا الحصر الآتي:

١- ما قامت به الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.. بالتنسيق مع الأمانة العامة لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنورة، من إعداد تراجم لمعاني القرآن الكريم بأكثر من لغة (الإنجليزية، الفرنسية، وغيرها) وتَمَّ إنجاز عددٍ من التراجم في مقدمتها الإنجليزية والفرنسية، ومما يجدر ذكره هنا تلك العناية الفائقة بالترجمة بدءًا بتشكيل

---

(١) انظر كتابه: فلسفة الاستشراق: ص ٦٨٥، (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق نفسه: ص ٦٨٥، في الحاشية، وانظر: مقدمة البحث: ص ٣٥.

لجانٍ متخصصة لتدارس التراجم السابقة واختيار أدق التعابير وأنسبها للتعبير عن معاني القرآن الكريم وألطف الألفاظ في اللغات المترجم إليها، ومما يدل على التأدب مع كتاب الله والدّقة في التعبير، كتابة العنوان على النحو الآتي: (القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة..) إلى اللغة التي ترجمت إليها، فنص القرآن مكتوب بتمامه ثمّ تأتي الترجمة لمعانيه على الحواشي.. غير إن إخراج الترجمة الفرنسيةْ فيما يبدو لي أكثر إبداعًا حيث جاء نص القرآن الكريم وفقًا لمصحف المدينة المنورة وجاءت الترجمة في الصفحة المقابلة، وهذا يحفظ لرسم المصحف كمال العناية والرعاية.. وحبذا لو أخضعت الترجمة أيضًا لترتيب صفحات مصحف المدينة فتبقى الصفحة اليمنى في المصحف هي الصفحة اليمنى في الترجمة، والصفحة اليسرى في المصحف هي الصفحة اليسرى في الترجمة لئلا يختل تصور الصفحات على من يعتمد على التصور في حفظه للقرآن وحفظ مواقع الآيات من الصفحات.

ومِمّا لاشك فيه أنَّ إنجاز ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغات العالمية الحيّة بدءًا بالإنجليزية والفرنسية.. بأيدٍ أمينة وقلوب مؤمنة محبة لله ورسوله ولكتابه ولأُمَّة الإسلام وتعمل بعقول واعية مدركة.. من شأنه أن يكافح سموم الاستشراق ويصد عاديته على الأُمَّة الإسلاميَّة وعلى دستور حياتها الذي جاء رحمة للعالمين كما يكشف بصورة عملية سوء عمل المستشرقين في ترجماتهم المنتشرة لدى الأوروبيين لما فيها من باطل، وتزوير وافتراء، يرمي إلى صرف غير المسلمين بعامة والأوروبيين بخاصة عن قبول الإسلام، وليبقى هؤلاء على كراهيتهم له وحقدهم

عليه، فقد أسهمت (هذه الترجمات في صنع سدٍّ منيع لمنع عبور الإسلام إلى غير المسلمين بعامة والأوروبيين بخاصة وعن طريقها دبت كراهية الإسلام والمسلمين في دماء الشعوب الأوروبية)[1].

٢- تعنى كثير من الجامعات في العالم الإسلامي بدراسات المستشرقين ومناهجهم ولعل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة من أبرز المهتمين بما صدر عن المستشرقين بروح متميزة، ومن أبرز ما عملت الآتي:

أ) - أنشأت وحدة خاصة لدراسات المستشرقين في مركز البحوث بالرياض.

ب) - أنشأت قسمًا دراسيًّا خاصًّا بالاستشراق في كلية الدعوة والإعلام بالمدينة المنورة(٢).

ج) - قررت تدريس الاستشراق في بعض مستويات الدراسة الجامعية في بعض الكليات.

د) - تسجيل بعض الرسائل العلمية في مرحلتي (الماجستير والدكتوراه) في أقسام عديدة من كليات الجامعة[3].

٣- نظمت أكاديمية (دارٍ المنصفين) بالتعاون مع (ندوة العلماء لكهنؤ) في الهند ندوة علمية بعنوان (الإسلام والمستشرقون) وقد عقدت الندوة ما بين (٢٦ - ٢٨ ربيع الآخر من عام ١٤٠٢هـ

---

(١) انظر: محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين.. ص ٣٣، ٣٧، (مرجع سابق).

(٢) لمزيد الاطلاع على مناهج هذا القسم ومقرراته انظر: دليل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، ١٤٠٧ هـ، ص ٣٦، ٣٧، ٤٢ - ٤٦، عن مطابع جامعة الإمام.

(٣) من الرسائل العلمية التي طبعت رسالة الدكتوراه لعمر إبراهيم رضوان: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره (دراسة ونقد) (مرجع سابق).

الموافق ٢١ - ٢٣ فبراير ١٩٨٢ م) شارك فيها عدد من العلماء والباحثين المسلمين ووفد إليها مندوبون عن بعض الجامعات الإسلاميَّة ومراكز البحث والهيئات العلمية في أرجاء العالم الإسلامي.. وقد صدرت أعمال هذه الندوة في كتاب بعنوان: (الإسلام والمستشرقون) تأليف: نخبة من العلماء.. وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٤- في إطار التعاون المشترك بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، وبمناسبة احتفائهما بحلول القرن الخامس عشر الهجري وقع اختيارهما على معالجة موضوع الاستشراق.. وشكلت لهذا الغرض لجنة استكتبت عددًا من العلماء المسلمين للكتابة عن مناهج المستشرقين ونقدها.

وقد صدر هذا العمل في كتاب يقع في جزأين بعنوان (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلاميَّة) وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٥- أصدرت بعض المجلات أعدادًا متخصصة عن الاستشراق والمستشرقين، منها على سبيل المثال:

أ) - عدد خاص عن الاستشراق أصدرته مجلة عالم الكتب وأسهمت في نشره جامعة الإمام.. وهو العدد الأول من المجلد الخامس الصادر في رجب ١٤٠٤ هـ- إبريل ١٩٨٤ م.

ب) - وصدر عدد خاص عن الاستشراق وهو العدد السادس من المجلد الخامس عشر من مجلة عالم الكتب - أيضًا - في جمادى الأولى والآخرة ١٤١٥ هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٤ م.

ج) - حمل العدد السنوي المتخصص من مجلة المنهل لعام ١٤٠٩ هـ عنوان: (الاستشراق والمستشرقون) وهو العدد (٤٧١) السنة (٥٥) المجلد (٥٠) عن رمضان وشوال عام ١٤٠٩ هـ - إبريل مايو ١٩٨٩م.

* * *

الخاتمــــة

الخاتمة

تتضمن هذه الخاتمة خلاصة لأهم ما في هذه الرسالة من موضوعات فكريَّة، ونتائج...، وتوصيات؛ مِمَّا خلص إليه البحث في تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة والدراسة النقديَّة لموقف المستشرقين منه، وذلك على النحو الآتي:

[١] - في ضوء الدراسة التأصيلية لتميز الأُمَّة الإسلاميَّة؛ تبين الآتي:

أولاً: اشتمال مفهوم تميز الأُمَّة الإسلاميَّة على ما اختصت به من دون سائر الأُمم، وتحقق هذا المفهوم بمدلوله العلمي فيها، وبمعطياته المتنوعة، على نحوٍ متفرد من حيث وحدة المصدر والاتجاه، وشمول الرؤية، وكمال النظم بحيث صبغها بصبغته، وميَّزها بطابعه، فكانت أُمَّةً وسطاً.

ثانيًا: ارتكاز تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة على القرآن الكريم والسنة المطهرة، على ضوءِ فهم السلف الصالح لهما، وتحقيق ذلك في حياة الأُمَّة عبر عصورها.

ثالثًا: استفاضة الأدلة على منزلة التميُّز وضرورته وأنَّه من سنن الله - عزوجل - مِمَّا يؤكد أنَّ تَمَيُّز هذه الأُمَّة قدرًا إلهيًّا واختيارًا ربانيًّا، وتكريمًا من العليم الخبير، ويبين عظم المسؤولية في تحقيقه.

رابعًا: أنَّ ضرورة التميُّز أساس في إبراز ذاتيَّة الأُمَّة وإظهار سمتها وسماتها، ولاسيما مع تقدم الزمان، وتقدم وسائل الاتصال، وتداخل الثقافات، وتلاقي الأمم بمناهجها المختلفة، وثقافاتها المتنوعة، وسيرورة البشريَّة نحو العالمية في نظمها وقيمها وتصوراتها، فالتميُّز ضرورة للأُمَّة الإسلاميَّة ليكون ضمانة لها من الضياع، أو التراجع، أو التفريط.

خامسًا: إنَّ تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة بمقوماته وخصائصه وأهدافه

ووسائله، تَمَيُّز فريد لايعني - بحال - الانغلاق في دوائر الذاتيَّة الضيقة، أو الإقليمية المحدودة، أو العنصرية المقيتة، بل هو تَمَيُّز يعلي من قيمة الفرد، ويهتم بمصلحة المجتمع، وسيادة الأُمَّة لارتكازه على مايأتي:

أ) - عقيدة التوحيد؛ التي فطر الله الناس عليها، فهي بذلك: عقيدة سهلة المأخذ، واضحة بينة بيضاء نقية، تعرض قضايا الوجود، وحقائق عالم الغيب وعالم الشهادة، بأسلوب حي مؤثر، يجعل للإيمان أثره العميق في نفس الفرد، وفي استقامة سلوكه، وفي الجماعة ونظام حياتها، وبذلك يتحقق تَمَيُّز الأُمَّة بهذه العقيدة الفذَّة الأصيلة، دون غيرها من عقائد الأمم التي داخلها الشرك، والشك، والهوى، والآراء الفاسدة، والأفكار الرديئة، فصارت بذلك أسوأ نماذج التعقيد والتناقض.

ب) - الشريعة الإسلاميَّة الغراء، المنبثقة من عقيدة التوحيد، التي تربط الأُمَّة بمنظومة من القيم والنظم، تلازم هذه العقيدة ملازمة محكمة، وتعتمد على مصادر جعلتها صالحة لكل زمان ومكان وإنسان، لما اشتملت عليه من أحكام تجلب المصالح، وتدفع المفاسد، وتنطوي على مرونة تمكنها من احتواء المستجدات، وربطها بالقواعد المقررة والأصول الثابتة، وفقًا لضوابط شرعيَّة دقيقة.

ج) - الأُخُوَّة الإسلاميَّة ووحدة الأُمَّة؛ فهي أُخُوَّة توجبها عقيدة الإسلام، وشريعته، وتربط شبكة العلاقات الاجتماعية بأواصر قويَّة، قوامها الحق والخير والإحسان، والتعاون على البر والتقوى، ومكافحة الشر والرذيلة والفتن.

وعلى أساس من هذه الأُخُوَّة تحققت وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة على أوسع نطاق، وكانت بما تفردت به من ارتكازها على التقوى ميزانًا

للكرامة، والتفاضل والتنافس، ونمو البر والإحسان، وشيوع العفو والتسامح؛ الوحدة النموذجيَّة الراسخة، التي أقامت صروح الحق والعدل في أرجاء المعمورة، كما تشهد بذلك حضارتها الزاهرة.

د) - الخصائص التي تفرد بها تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة؛ وأهمها:

- الربانية: فمصدر التميُّز كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وسنة رسوله ﷺ، فهو ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾[1].
- العالميَّة: التي تقتضيها ربانيَّة الإسلام من حيث هو خطاب لكافة البشر، ومنهج شامل مستجيب لحاجاتهم في إطار عالمي لجميع الناس الذين ارتضوا الإسلام دينًا وانضموا تحت لوائه، دون قيد بزمان أو مكان.
- الوسطيَّة: التي هي سمة الأُمَّة الإسلاميَّة، ودليل تحققها بالحق والخير ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.
- الإيجابيَّة الخيِّرة: ومظهرها السبق إلى الخير والصلاح والإصلاح، والمسارعة إلى الحق والعدل والبر والإحسان وكل عمل صالح يراد به وجه الله - عَزَّ وَجَلَّ - فهو سبق مبرأ مِمَّا يضر بالآخرين، أو بالكون، بل ينسجم مع سنن الله في الكون والأنفس والحياة.

هـ) - أهداف تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة المتمثلة في تحقيق العبوديَّة لله، التي هي الغاية من خلق الثقلين، وجعلها خالصة لله رب العالمين، وفقًا لما شرع، واقتداء برسوله ﷺ.

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٣٨).

ويهدف كذلك لتحقيق الاستخلاف بإقامة دين الله في الأرض، بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، ولايتأتى هذا إلاَّ بتحقيق الهدف الذي سبق؛ لأنَّ الأُمَّة إذا لَمْ تحقق عبوديتها الخالصة لله فقدت سيادتها وعزتها.

و) - وسائل تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة التي يتحقق من خلالها، والتي تسهم في بناء الشخصية الإسلاميَّة للفرد والأُمَّة.

● تأتي اللغة العربيَّة في مقدمتها، فهي شعار الأُمَّة، وهي من أهم وسائل تَمَيُّزها؛ لأنَّها اللسان الذي أُنْزِلَ به القرآن الكريم، وبلغ به الرسول الكريم ﷺ رسالة ربه وهو السبيل لفهم نصوص الدين، والطريق إلى معرفته، ومعرفة نهج السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وتأثيرها عظيم في العقل والخلق والسلوك والدين.

● ثُمَّ يأتي تاريخ الإسلام وحضارته؛ حيث نشأ هذا التاريخ من انبثاق النور في بطحاء مكة المكرمة، متواصلاً مع تاريخ النبوات السابقة، ومتميِّزًا في نشأته وتطوره، وجاءت حضارة الإسلام على غير مثال سابق؛ من حيث أصالة الأسس وقوة الجذور، وروح الحياة المتجددة، ذات التأثير الفاعل في حياة البشريَّة، وحركتها وآمالها وأهدافها، وبدأ هذا التاريخ، ونشأت هذه الحضارة في دنيا الواقع بصورة فعليَّة ملموسة، وبوقائع ذات أبعاد ضخمة في حاضر الإسلام ومستقبله.

وإذا كان مِمَّا اتسم به تاريخ هذه الأُمَّة تفرده واستقلاله عن تواريخ الأُمم الأخرى، فإنَّ مرد ذلك جملة من المقومات التي استندت إليها حياة المسلمين، ومنها:

● الالتزام بالإسلام والاعتزاز به.

- الوعي الشامل بالثقافة الإسلاميَّة، وما يخالفها من الثقافات الأُخرى.
- الدعوة والجهاد.
- التعاون والتناصر والتآزر.

وبهذه المقومات ونحوها، تحقق تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة تاريخاً وحضارة، وتجلى أثر الإسلام في التاريخ البشري.

[٢]- وفي ضوء الدراسة النقديَّة لموقف المستشرقين من تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة؛ تبين الآتي:

أولاً: استهداف الأُمَّة الإسلاميَّة من قبل أعدائها منذُ أن تكونت، كما بين ذلك الله - عَزَّ وَجَلَّ - في كتابه الكريم.

ثانيًا: أنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة واجهت - في سالف عصرها - أصنافًا من التحديات التي تستهدف دينها ووحدتها؛ ومن أبرز تلك التحديات، الغزو العقدي الذي حاول النيل من عقيدة التوحيد، من خلال التفسيرات الفلسفيَّة لقضايا العقيدة، ونشر العقائد الباطنيَّة.

ثالثًا: انتصار الأُمَّة الإسلاميَّة في كافة التحديات التي واجهتها منذُ بداية تاريخها العسكريَّة منها والفكريَّة.

رابعًا: تواجه الأُمَّة الإسلاميَّة في تاريخها الحديث تحديًا خطيرًا يتمثل في غزو الحضارة الغربية التي تتعارض في كثير من مبادئها وقيمها ومنطلقاتها ومنهجها في الحياة مع مبادئ الإسلام وقيمه، ومنهجه ونظمه، والتي اتخذت مختلف الوسائل والأساليب، لتحقيق غزو الأُمَّة الإسلاميَّة واحتوائها ثقافيًا، ومن ذلك تبني الاستشراق ودعمه فنشأت مؤسسات استشراقية كبرى بما توفر لها من دعم مادي ومعنوي، وسارت حركة الاستشراق هادفة - في مسارها العام - إلى تقويض المقومات

العقديَّة والثقافيَّة والروحيَّة لهذه الأُمَّة، ومحاولة اجتثاث الجذور التاريخيَّة المقومة لشخصيتها، وروحها الذاتيَّة، لتصير إلى خلل فكري، وخواء روحي، يسهل في مناخه الفاسد المشوش غزو الأُمَّة الإسلاميَّة، بالفكر والمبادئ والمفاهيم والتصورات الغربية على دين الأُمَّة وعقيدتها، فعمدوا إلى ما يأتي:

أ) – إنكار تَمَيُّز العقيدة الإسلاميَّة، والزعم بأنَّها مستقاة من اليهوديَّة، والنصرانيَّة، والمجوسيَّة، والوثنيَّة.

ب) – الزعم بأنَّ الشريعة الإسلاميَّة مقتبسة من القانون الروماني.

ج) – الزعم بأنَّ النبي ﷺ؛ قد ألف القرآن الكريم، وأنَّ السنَّة الشريفة – في معظمها – من وضع المسلمين لمقاصد شخصية، وسياسيَّة، ومذهبيَّة.

د) – أنَّ العبادات والشعائر الدينيَّة في الإسلام مقتبسة من اليهود، ومتأثرة بالمجوسيَّة والنصرانيَّة، وكذلك بقايا الوثنيَّة.

هـ) – إلصاق التهم بالإسلام ونبيه ﷺ، وحملته وسائر الأُمَّة الإسلاميَّة، وعلى الرغم من التحولات الفكريَّة والتاريخيَّة في الغرب نحو الماديَّة والمناهج العقليَّة والعلميَّة؛ فإنَّ تلك الصورة لم تتغير كثيرًا عن زمن سيادة النصرانيَّة، فسرعان ما اصطبغت بالصبغة الاستعمارية ثُمَّ بالصهيونية، في مسار الحركة الاستشراقية العام.

و) – الإساءة إلى التاريخ الإسلامي، وإخفاء محاسنه؛ ومن أبرز ما أظهروه:

- دعوى انتشار الإسلام بالسيف.
- تفسير التاريخ الإسلامي بمنظور روحي أو مادي بحسب تغيُّر النظرة الغربية من النصرانيَّة إلى الماديَّة.

وانطلاقًا من التناقض في المناهج المستخدمة، فقد وصف الإسلام بأنَّه دين شهواني، ونزعته ماديَّة، ووصف العقل المسلم بأنَّه غير قادر على البحث العلمي الموزون؛ لأنَّه فطر بالوراثة على البساطة وإدراك المسائل في صورة جزئيات، منفصلة متباعدة، في غير ما تناسب ولا انسجام، ولا ارتباط، فهو غير قادر على الربط بين الأشياء برباط منطقي.. يتأثر بالخرافة، ويميل إلى التفسير الغيبي، فلايقدر على تفسير القضايا تفسيرًا علميًّا موزونًا، واتهموا المسلمين - بحكم عقيدتهم - بالجبريَّة، والتواكل، والكسل والخمول، وانتهوا بناءً على ذلك، إلى زعمهم أن انحطاط الأُمَّة الإسلاميَّة وتخلفها، يرجع إلى تمسكهم بالدين، والتقيد بتعاليمه وعقائده.

ز) - أنكر معظم المستشرقين تأثير الإسلام في الحضارة الأندلسيَّة، وتجاهلوا تأثيره الحضاري في الغرب.

وعلى الرغم من ذلك كله؛ فإنَّ من الإنصاف أن يذكر هنا أنَّ أفرادًا قلائل، وفي فترات متباعدة في تاريخ الاستشراق، ذبوا عن الإسلام، وعن الأُمَّة الإسلاميَّة، وانصفوا تاريخ الإسلام وحضارته، وأشادوا بقيمه ومبادئه، وتوافروا على خدمة علوم العربيَّة والإسلام، ومنهم من دخل الإسلام، ومنهم من اقتصر على الثناء عليه، والدفاع عنه، خدمة للحق، وانتصارًا للعلم والمنهج والموضوعيَّة.

بالإضافة إلى ما سبق؛ فإنَّ من أهم النتائج والتوصيات التي خلص إليها البحث؛ ما يأتي:

أولاً: استمرار تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة بتمييز الله لها، وكما يدل على ذلك وعد المصطفى ﷺ، ولكن ينبغي عليها أن تحقق في ذاتها جملة من الشروط الشرعيَّة اللازمة لتحقيق التميُّز، ومن أهمها:

أ) - الثقة في الله قبل كل شيء، وإخلاص النيَّة له، ثُمَّ تحديد الهدف من اتخاذ أيِّ أسلوب أو وسيلة للتصدي للأخطار المحدقة بها.

ب) - الاعتصام بكتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وسنَّة رسوله ﷺ كالسلف الصالح.

ج) - المعرفة بحال الأُمَّة وما فيها من ضعف، وأخطأ نتيجة الانحرافات عن الصراط المستقيم.

د) - الوعي بالغزو الثقافي والصراع الفكري ضد تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة وإعطائه مايستحق بوصفه قضية مصيريَّة من أجل إثبات الذات وكشف الخصم.

ثانيًا: ومن النتائج التي توصل إليها البحث سقوط الشبهات الاستشراقية، حول تَمَيُّز الأُمَّة الإسلاميَّة جملة وتفصيلاً، ويوصي البحث أن يستخدم في إسقاطها المنهج الذي طبقه سلف الأُمَّة في حق الفرق الضالة، حيث تدفع بعض الشبهات من طرف بما قاله الطرف الآخر، ويدفع الباطل الأكثر بما هو أقل باطلاً منه، ثُمَّ بما في تلك الشبهات من التعارض والتناقض، وما يرد به بعضهم على بعضهم الآخر، إلى أن تنحصر الشبهات في أضيق نطاق، ثُمَّ ينصب عليها النقد والرد، حتى يتحقق دفعها وإسقاطها البتة، ومن ثُمَّ الاحتجاج بتلك الشبه والآراء على فساد المنهج الاستشراقي ذاته.

ثالثًا: ومِمَّا يوصي به البحث الالتزام بمنهج الإسلام في المجادلة، كما أصَّله القرآنُ الكريم، وطبقه الرسول ﷺ، وسار عليه سلف الأُمَّة الصالح وتقيَّد به علماء الأُمَّة ومفكروها في تاريخها القديم والحديث على السواء، وأنَّ هذا المنهج يحقق العدل والإحسان، ويجلب الخير والنفع للأُمَّة الإسلاميَّة في اتصالها بالآخرين، ويتضمن حسن التعامل مع أهل

الكتاب، والتسامح مع المخالفين، وفي الوقت نفسه يعصمها من الخديعة، والخب، ويدرأ عنها مغبَّة الإذابة، والنزول عن تَمَيُّزها الذي عصمها الله به من الانزلاق والخسران، ولئلا يصدق عليها إبليس ظنّه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

رابعًا: ومن النتائج التي توصل إليها البحث: التفريق بين الحكم على الاستشراق كحركة، وعلى المستشرقين بصفتهم أفراد ومدارس، ففيما يتعلق بالاستشراق - بصفته حركة - فهو حركة معادية للإسلام، وجهت في مسارها العام ضد الأُمَّة الإسلاميَّة، وارتبطت بدوائر العداء للإسلام وأمته، أمَّا المستشرقون بصفتهم أفرادًا أو مدارسًا، فإنَّ المنهج العادل - والله أعلم - في الحكم عليهم هو أن يدرس إنتاج ذلك المستشرق أو تلك المدرسة دراسة نقديَّة تبين ما في ذلك الإنتاج من أخطاءٍ، وما فيه من صواب ثُمَّ تتم الموازنة والتقويم، والرد على مايشتمل عليه ذلك الإنتاج من الباطل، وتتم الإفادة مِمَّا وصل إليه من آراء صائبة، ويستفاد منها في الرد على شبهات المستشرقين الآخرين وآرائهم، وعندئذٍ ينفك النقد عن الشخص لذاته، وينصب على أقواله بطريقة منهجيَّة موضوعيَّة بعيدة عن الانفعال والمؤثرات الجانبيَّة، ويتحقق بذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2].

خامسًا: ومِمَّا يوصي به البحث: ضرورة الاحتراز مِمَّا وقع فيه بعض

(١) سورة الحشر: الآية (١٦).

(٢) سورة المائدة: الآية (٨).

المفكرين والباحثين الذين تصدوا للاستشراق والرد على شبهات المستشرقين، إذ وقع في ردودهم تزيدٌ في دفع الشبهات، بما جرَّ على حقائق الإسلام شيئًا من التشويه، أو النفي، أو وقع فيها مايخل ببعض عقائد الإسلام وتشريعاته وأخلاقه، ومسلمات تاريخه وحضارته؛ بسبب مايتصف به ذلك المفكر أو الباحث من خلل في ذلك أو بعضه، أو قصور في تصوره، أو عجز في معلوماته ومعارفه تجعله دون الدرجة التي يستوجبها الأمر الذي تصدى له، لذلك فإنَّ الباحث يرى أهميَّة اللجان المتخصصة في تناول الدراسات الاستشراقية، ونقدها ليتحقق بذلك العمل العلمي المتخصص في كل حقل علمي.

سادسًا: ومِمَّا يوصي به البحث: ضرورة الوعي بالمراحل التاريخيَّة التي تمر فيها الأُمَّة الإسلاميَّة في علاقتها بالأمم الأخرى، والأطوار التي تطورت خلالها الدراسات الاستشراقية؛ لتحديد حجم العداء، وإنزاله في منزلته الملائمة له، من غير تهوين لشأنه، ولا تعظيم لخطره، ولأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، لذلك فإنَّه ينبغي على ولاة أمر الأُمَّة الإسلاميَّة، من قادة وعلماء ومفكرين وباحثين؛ أن يحققوا في معرفة التيارات والقوى المعادية للأُمَّة الإسلاميَّة خصيصة السبق والمسارعة، ولعله ما قد يُعْرَفُ في العصر الراهن بمسمى (الدراسات الاستراتيجية)، وعن طريقها، أو مايحل محلها: يتم الوعي بوضع الأُمَّة على حقيقته، ومايحيط بها من قوى معادية، ومن جهة أخرى إدراك التحولات في مسار الدراسات الاستشراقية، وتقديرها بقدرها، من حيث سلبياتها وإيجابياتها، والموازنة بين ذلك، لتكون الأُمَّة على بينة من أمرها، ولتعد للأمر عدَّته، وما يستلزم من وسائل وأساليب، وبخاصة مايتصل بالاستشراق بصفته حركة تعتمد على البحوث العلميَّة والأعمال

الموسوعيَّة، والدوريات ونحو ذلك من الأعمال (الأكاديميَّة) والتعليميَّة، وما يتصل بها من عقد المؤتمرات الدوليَّة، التي زادت على ثلاثين مؤتمرًا دوليًّا، أمَّا المؤتمرات الإقليميَّة: فإنَّه يصعب حصرها، وذلك كله يتصل بفكر الأُمَّة الإسلاميَّة وثقافتها وتاريخها وحضارتها، وواقعها ومستقبلها، ويعدُّ - في حقيقة الأمر - من خصوصياتها، وبطانة أمرها، والتصدي لهذا الواقع، ومواجهة هذا التحدي لايتأتى على الوجه المطلوب إلاَّ على مستوى الأُمَّة، من حيث الاهتمام والتخطيط والإعداد والتنسيق والشمول والتكامل والتنفيذ.

وختامًا فإنَّه ينبغي الإشادة بما أنجز من أعمال نقديَّة لإنتاج المستشرقين مع ما تنطوي عليه من تكرار وعدم تنسيق وأوجه قصور أخرى متنوعة؛ منها: أنَّها لم ترق بعد لتكون في مستوى الإنتاج الاستشراقي لا من حيث الكم أو الكيف، ولكنَّها خطوات راشدة - بمشيئة الله وعونه وتوفيقه - تشق طريقها لدفع عادية الاستشراق والمستشرقين بالوسائل والأساليب العلميَّة المستخدمة في المناهج البحثيَّة المقررة.

كما ينبغي الإشادة بما تَمَّ إنجازه على مستوى الأُمَّة من أعمال تعالج ما أحدثه الاستشراق بصفة مباشرة أو غير مباشرة، وبخاصة العمل على إنجاز تراجم لمعاني القرآن الكريم إلى اللغات العالميَّة، وفي مقدمتها اللغة الإنجليزيَّة والفرنسية، لما لها من أهميَّة في مزاحمة تلك التراجم التي أنجزها المستشرقون وظلت على مدى قرون عدّة، منتشرة لدى الغرب بما فيها من باطل وتزوير وافتراء يرمي إلى صرف غير المسلمين بعامة والأوروبيين بخاصة عن قبول الإسلام، أو أي شيء فيه ليبقى هؤلاء على كراهيتهم له وحقدهم عليه.

وإنَّ ما قامت به الرئاسة العامَّة لإدارات البحوث العلميَّة والإفتاء بالتنسيق مع الأمانة العامَّة لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة؛ من إعداد تراجم لمعاني القرآن الكريم إلى اللغات العالميَّة الحيَّة بدءًا بالإنجليزية والفرنسية، ليُعَدُّ عملاً رائدًا من شأنه أن يدفع أثر الاستشراق ويصد عاديته عن الأُمَّة الإسلاميَّة وعلى دستور حياتها الذي جاء رحمة للعالمين.

ومِمَّا يجدر ذكره في هذا السياق تلك العناية الفائقة بالترجمة - المشار إليها - بدءًا بتشكيل لجان متخصصة لتدارس الترجمات السابقة، واختيار أدق التعابير، وأنسبها للتعبير عن القرآن الكريم، وألطف المعاني في اللغات المترجم إليها، بأيدٍ أمينة وقلوب مؤمنة محبة لله ورسوله ﷺ وكتابه ولأُمَّة الإسلام، وتعمل بعقول واعية مدركة.

وتوجد أعمال أخرى تقوم بها بعض الجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات الإعلاميَّة والصحفيَّة في العالم الإسلامي تتناول الاستشراق والمستشرقين بالدراسة والنقد، ولكنها دون المستوى المطلوب وبخاصَّة إذا قورنت بما قام به المستشرقون، وما أنجزته الحركة الاستشراقية خلال قرون عدّة، ويكفي للمثال على ذلك المؤتمرات الدوليَّة الاستشراقيَّة التي زادت على الثلاثين مؤتمرًا دوليًّا، واتسمت بالتنسيق والتعاون والتكامل فيما بين المستشرقين من ناحية، والأطروحات والقضايا المدروسة في تلك المؤتمرات من ناحية أخرى، وما اتخذته الأُمَّة الإسلاميَّة إزاء ذلك.

ولاشك أنَّ البون شاسع جدًّا ولكن ما يعول عليه أن تحقق الأُمَّة الإسلاميَّة في ذاتها الشروط التي تقدم ذكرها، وعند ذلك سيكون الاستشراق ذاته والمستشرقون - المعادون للإسلام - أنفسهم في أزمة ويتحقق فيه وفيهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، سبحان ربك ربِّ العزَّة عمَّا يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) سورة الأنفال: الآيات (٣٦ - ٣٨).

فهارس الرسالة

وتشتمل على الآتي:

١. فهرس الآيات.

٢ - فهرس الأحاديث والآثار.

أولا: الأحاديث.

ثانيًا: الآثار.

٣ - فهرس الأبيات الشعرية.

٤ - فهرس الأمكنة والبلدان.

٥ - فهرس الفرق والطوائف.

٦ - فهرس الكلمات الغريبة المشروحة.

٧ - فهرس الأعلام.

٨ - فهرس المصادر والمراجع.

٩ - فهرس الموضوعات

١ - فهرس الآيات القرآنية

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٥٤	﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ...... ﴾	١٥٠	١٩٠
٥٥	﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ........ ﴾	١٥١	٧٠٨
٥٦	﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ .... ﴾	١٥٥	٥٠٥
٥٧	﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا .... ﴾	١٦٥	٨٥٠
٥٨	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا ..... ﴾	١٦٨	٦١
٥٩	﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ .... ﴾	١٦٩	٦١
٦٠	﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ............... ﴾	١٧٧	٣٢٤، ٤٠٢، ٥٠٥، ٤٩٤، ٨٥٠
٦١	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى .... ﴾	١٧٨	٤١٦
٦٢	﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ..... ﴾	١٧٩	٤٢٠
٦٣	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا .... ﴾	١٨٣	٨٨٢، ٨٨٣، ٩١٩-٩٢٠
٦٤	﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ .... ﴾	١٨٥	٨٨٣
٦٥	﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ .... ﴾	١٩٠	٣٢٢، ١١٠٠
٦٦	﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ .... ﴾	١٩١	١٠٦٩

الصفحة التي وردت فيها	رقم الآية	السورة وطرف الآية	م
١٠٩١	١٩٣	﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ ...﴾	٦٧
١١٠٠	١٩٤	﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ....﴾	٦٨
٢٣٥ ،٢٣٤	١٩٥	﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ....﴾	٦٩
٨٨٩	١٩٦	﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ....﴾	٧٠
٨٩٤	١٩٧	﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ....﴾	٧١
٨٩٥	١٩٨	﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ....﴾	٧٢
٧٩	٢١٣	﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ....﴾	٧٣
١٨	٢١٤	﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ....﴾	٧٤
١١٥٥ ،٢٣	٢١٧	﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ ....﴾	٧٥
٨٥٠	٢١٨	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى ....﴾	٧٦
٢٤٣	٢١٩	﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ............﴾	٧٧
١٩٣	٢٢٢	﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟.............﴾	٧٨
٧٥١	٢٢٩	﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ ...﴾	٧٩
١٣٦	٢٥٣	﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.....﴾	٨٠

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٨١	﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ....﴾	٢٥٦	١٠٩٧، ١١٢٣، ١١٥٢
٨٢	﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ.....﴾	٢٦١	٨٨٠
٨٣	﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ....﴾	٢٦٨	٦١
٨٤	﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ....﴾	٢٨٥	١٢٥، ٣٢٤، ٦٥٨، ٨٦١
٨٥	﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ....﴾	٢٨٦	٧٥٢
	آل عمــــــران		
٨٦	﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ............﴾	٧	٦٢
٨٧	﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ....﴾	١٩	٥٧٩، ١٠٨٢
٨٨	﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ.......﴾	٢٠	٦٨١
٨٩	﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ.................﴾	٣١	٦٢٦، ٨٤٣-٨٤٤
٩٠	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ....﴾	٣٣	١٣٦
٩١	﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ ....﴾	٤٤	٦٤٦
٩٢	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴾	٥١	١٥٠
٩٣	﴿ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ..........﴾	٦١	٦٩٥، ١٠٩٣- ١٠٩٤

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٩٤	﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا .... ﴾	٦٤	٣٢٢، ٧٤١، ١١٥١-١١٥٢، ١١٥٦
٩٥	﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن .... ﴾	٦٧	١١٧، ٩٢٧
٩٦	﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ .... ﴾	٧١	١١٥٤
٩٧	﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ .... ﴾	٧٢	١١٥٤ — ١١٥٥
٩٨	﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى .... ﴾	٧٣	١٨٢
٩٩	﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ..... ﴾	٧٥	٩٤٨
١٠٠	﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ﴾	٨٠	٥٨١
١٠١	﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن .... ﴾	٨١	١١٧، ٦٨٣
١٠٢	﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾	٨٢	٨٦٤
١٠٣	﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى .... ﴾	٨٣	١١٥، ٦٨٤، ٨٤١، ١٠٩٠
١٠٤	﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ .... ﴾	٨٤	٦٨٥
١٠٥	﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ .... ﴾	٨٥	٦٨٤، ١٠٨٢

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
١٠٦	﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ .... ﴾	٩٢	٧٩٠
١٠٧	﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ .... ﴾	٩٧	٨٤٥، ٨٨٩
١٠٨	﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ .... ﴾	١٠١	١٥٠
١٠٩	﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟.......... ﴾	١٠٣	٢٢، ٥١٨ - ٥١٩
١١٠	﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ .... ﴾	١٠٤	٢١، ٧٩، ٨٨، ٩٤٣
١١١	﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ .... ﴾	١١٠	١٤، ١٩، ٣١، ١٤٠، ١٧٧، ٦٩٤، ٨٠٣
١١٢	﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ...... ﴾	١١٢	١٧٦
١١٣	﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ .... ﴾	١١٣	٨٠
١١٤	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ .... ﴾	١١٨	٤٨٩
١١٥	﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا .... ﴾	١٣٣	٥٠٨-٥٠٩، ٧٨٧
١١٦	﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ .... ﴾	١٣٤	٥٠٩
١١٧	﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .... ﴾	١٣٩	١٦٢

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
١١٨	﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا.......................﴾	١٥٩	٥٥٢
١١٩	﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ.....﴾	١٦٤	٣٩٩، ٧٠٨-٧٠٩
١٢٠	﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ.......................﴾	١٧٩	٢٠٩-٢١٠، ١٠٦٧
١٢١	﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن.......................﴾	١٨٠	٥٨٠- ٥٨١
١٢٢	﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ.....................﴾	١٨١	١٧٤
١٢٣	﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ..........﴾	١٨٦	٥٥٤- ٥٥٥، ١٠٩٣
١٢٤	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ.....................﴾	٢٠٠	٥٠٥، ١٠٩٤
	النســـاء		
١٢٥	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن........﴾	١	٣٨٤، ٤٨٦
١٢٦	﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ.......................﴾	١٣	٤٠٧
١٢٧	﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ....﴾	١٤	٤٠٧
١٢٨	﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ .....﴾	٣٣	٣١٥
١٢٩	﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ....﴾	٣٦	٨٩٧

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
١٤٤	﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ ... ﴾	١٠٢	٨٧٢
١٤٥	﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ .... ﴾	١١٣	٤٩١- ٤٩٢
١٤٦	﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ .... ﴾	١١٥	١٧٨، ١٨٣
١٤٧	﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن .... ﴾	١٢٣	١٨
١٤٨	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ .... ﴾	١٣٥	٤٩٩
١٤٩	﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ.......... ﴾	١٦٠	١٧٤، ٧٥٤
١٥٠	﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ .... ﴾	١٦١	١٧٤، ٧٥٤
١٥١	﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ .... ﴾	١٦٣	١١٦، ٥٨٨- ٥٨٩، ٦٤٧
١٥٢	﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا .... ﴾	١٦٤	١١٦، ٥٨٩، ٦٤٧
١٥٣	﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ .... ﴾	١٦٥	٥٨٩، ٦٤٧
١٥٤	﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ............ ﴾	١٦٦	٥٨٩، ٦٤٧

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
١٥٥	﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ....﴾	١٧٢	٨٤٣
١٥٦	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ .....﴾	١٧٤	١٥٥
١٥٧	﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ ....﴾	١٧٥	١٥٥
	المائـــدة		
١٥٨	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا .....﴾	٢	٤١٥، ٥١٦- ٥١٧، ١٠٧٨
١٥٩	﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ.....﴾	٣	١٧٧، ٤٠٠، ٤٢٥، ٦١٤، ٦٥٠، ٧٢٠
١٦٠	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ ....﴾	٨	١١٨١
١٦١	﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا ....﴾	١٢	١٣
١٦٢	﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ ....﴾	١٣	١٢، ١٧٥
١٦٣	﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ ....﴾	١٤	١٣- ١٤، ١٧٧
١٦٤	﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ....﴾	١٥	١٥٠، ٦٨٠، ٦٨٢
١٦٥	﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ...............﴾	١٦	١٥٠، ٦٨٠

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
١٦٦	﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ ......﴾	١٨	١٢، ١١٥٥
١٦٧	﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ....﴾	١٩	٦٨٢
١٦٨	﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ ...﴾	٢٣	٨٥١
١٦٩	﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ......﴾	٣٣	٤٠٧
١٧٠	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ ....﴾	٤١	٧٨٦- ٧٨٧
١٧١	﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ....﴾	٤٤	٤٤٩، ٨٥١
١٧٢	﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ......﴾	٤٧	٤٦٩
١٧٣	﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ ....﴾	٤٨	٦١- ٦٢، ٣٧٨، ٥٨٩، ٦٤٧، ٩٨٧
١٧٤	﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ ......﴾	٤٩	٦٢
١٧٥	﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ ....﴾	٥٠	٤٤٩
١٧٦	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ ....﴾	٥١	٤٨٨، ١١٥٦
١٧٧	﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ....﴾	٥٢	٧٨٧
١٧٨	﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ ....﴾	٥٥	٤٨٧
١٧٩	﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ ....﴾	٦٢	٧٨٧

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٢٠٤	﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ .... ﴾	١٢٤	١٠
٢٠٥	﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ..... ﴾	١٢٦	١٥٠- ١٥١
٢٠٦	﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾	١٢٧	١٥١
٢٠٧	﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ .... ﴾	١٤٢	٦١
٢٠٨	﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .... ﴾	١٥٢	٤٩٩
٢٠٩	﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ .... ﴾	١٥٣	١٥١، ١١٥٩- ١١٦٠
٢١٠	﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ..... ﴾	١٦١	٣٦٦، ٩٢٧، ٩٢٨
٢١١	﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	١٦٢	٢٣٥، ٣٧٦، ٨٤٨، ٩٢٨
٢١٢	﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ .... ﴾	١٦٣	٢٣٥، ٣٧٦، ٨٤٨، ٩٢٨
٢١٣	﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ...... ﴾	١٦٤	٦٧٤
٢١٤	﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ .... ﴾	١٦٥	٩٤٤، ٩٤٩
	الأعــراف		
٢١٥	﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾	٢١	٥١٩
٢١٦	﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ.............. ﴾	٢٩	٨٧٢

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٢١٧	﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ............﴾	٥٤	٤٠٤
٢١٨	﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ.............﴾	٧٩	٥١٩
٢١٩	﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم.............﴾	٩٦	١٥٨، ١٥٩
٢٢٠	﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾	٩٧	١٥٩
٢٢١	﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى............﴾	٩٨	١٥٩
٢٢٢	﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ............﴾	٩٩	١٥٩
٢٢٣	﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ...﴾	١٢٨	٩٦٢
٢٢٤	﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ......﴾	١٣٧	١١، ١٧٠- ١٧١، ١٧١ - ١٧٢
٢٢٥	﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ............﴾	١٣٨	١٩٢
٢٢٦	﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً............﴾	١٤٥	١٦٩
٢٢٧	﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ............﴾	١٤٦	١٦٩
٢٢٨	﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ............﴾	١٥٦	٥٠٢

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٢٢٩	﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي .... ﴾	١٥٧	٢٥٣، ٦٨١، ٧٥٢، ٧٥٤
٢٣٠	﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .... ﴾	١٥٨	٦٨١
٢٣١	﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ .... ﴾	١٦٧	١٧٦
٢٣٢	﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ .... ﴾	١٧٢	١١٥ - ١١٦، ١٦٧ - ١٦٨، ٣١٩
٢٣٣	﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً .... ﴾	١٧٣	١٦٧، ٣١٩
٢٣٤	﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾	١٧٤	١٦٨
٢٣٥	﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ .... ﴾	١٧٥	١٦٥
٢٣٦	﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ .... ﴾	١٧٦	١٦٥
٢٣٧	﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ .... ﴾	١٧٩	١٣٥، ١٦٨
٢٣٨	﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .... ﴾	١٨٥	٦٧٤
٢٣٩	﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾	٢٠٢	٤٨٠

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
	الأنفــال		
٢٤٠	﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ ....﴾	١٠	١١٥٩
٢٤١	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا ....﴾	٢٤	٣٤٤
٢٤٢	﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ...............﴾	٢٦	١١٩٣
٢٤٣	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ....﴾	٢٧	٤٩٥
٢٤٤	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ....................﴾	٢٩	١٧١
٢٤٥	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن....................﴾	٣٦	١١٨٤- ١١٨٥
٢٤٦	﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ.....................﴾	٣٧	٢١٠، ٢١١ -٢١٢، ١١٨٥
٢٤٧	﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ ....﴾	٣٨	١١٨٥
٢٤٨	﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ....﴾	٦٠	٤٢٠، ١٠٩١
٢٤٩	﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ....................﴾	٦١	١٠٩٨
٢٥٠	﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ ....﴾	٦٢	٥٢١

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٢٥١	﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ.......... ﴾	٦٣	٤٨٧، ٥٢١
٢٥٢	﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ.............. ﴾	٦٨	١٠٦٧
٢٥٣	﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ .... ﴾	٧٢	١٠٨٨
٢٥٤	﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ .... ﴾	٧٤	٥٣٢
٢٥٥	﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ .... ﴾	٧٥	٥٣٢
	التوبة		
٢٥٦	﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ .... ﴾	٥	٨٧٦
٢٥٧	﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ... ﴾	١١	٨٧٦- ٨٧٧
٢٥٨	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ .... ﴾	٢٣	٤٨٨
٢٥٩	﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ .... ﴾	٢٤	٨٤٤
٢٦٠	﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى .... ﴾	٣٠	٣٦٤
٢٦١	﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ .... ﴾	٣١	٣٦٤، ٤٦٨
٢٦٢	﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ .... ﴾	٣٢	٣٦٠

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٢٧٦	﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ...... ﴾	١٩	٨٧
٢٧٧	﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ .... ﴾	٢٥	١٥٢
٢٧٨	﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .... ﴾	٢٦	١٥٢
٢٧٩	﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ .... ﴾	٧٢	١١٧
٢٨٠	﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ .... ﴾	٨٤	١١٨- ١١٩
٢٨١	﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ .... ﴾	٩٠	١١٩
٢٨٢	﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم .... ﴾	٩٣	١٧١
٢٨٣	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾	٩٦	٩٥٧
٢٨٤	﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾	٩٧	٩٥٧
٢٨٥	﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ...... ﴾	٩٨	٩٥٧
٢٨٦	﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا .... ﴾	٩٩	١١٢٣- ١١٢٤
٢٨٧	﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ .... ﴾	١٠٠	١١٢٤
٢٨٨	﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ .... ﴾	١٠٦	٨٥٦

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٢٨٩	﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ...... ﴾	١٠٧	٨٥١
	هـــود		
٢٩٠	﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ ...... ﴾	١	٤٠٠
٢٩١	﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ...... ﴾	٤٦	١٠٦٦
٢٩٢	﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ...... ﴾	٤٩	٦٤٥
٢٩٣	﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ...... ﴾	٥٠	٤٨٠
٢٩٤	﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ ...... ﴾	٥٧	٩٤٤
٢٩٥	﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ...... ﴾	١١٢	١٠٦٧
٢٩٦	﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ ...... ﴾	١١٨	٧٩، ٦٧٩، ١١٥٢
٢٩٧	﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ...... ﴾	١١٩	١١٥٢
	يوســـف		
٢٩٨	﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾	٢	٧٠٨
٢٩٩	﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ ...... ﴾	٢٤	٨٦٤
٣٠٠	﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى .. ﴾	٤٢	٥٨١
٣٠١	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا .... ﴾	٤٥	٧٩

الصفحة التي وردت فيها	رقم الآية	السورة وطرف الآية	م
		الحجـــر	
٤٠٠، ٥٩١، ٦٢١، ١٠١٩	٩	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾	٣١٣
١٥٣	٤١	﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾	٣١٤
١٥٣	٤٢	﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ .... ﴾	٣١٥
١٥٣	٤٣	﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾	٣١٦
٦٨٧	٩٤	﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾	٣١٧
		النحـــل	
٤٩٢	١٨	﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ .... ﴾	٣١٨
٩٥٧	٢٦	﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم............ ﴾	٣١٩
٦٦٠	٤٤	﴿ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ .... ﴾	٣٢٠
٩٢٦	٨١	﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا .... ﴾	٣٢١
٤٠٨، ٥٨٤	٨٩	﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم .... ﴾	٣٢٢
٤٩٩	٩٠	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى .... ﴾	٣٢٣
٥٩٠	١٠٢	﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ .... ﴾	٣٢٤
٦٤٣	١٠٣	﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ .... ﴾	٣٢٥

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٣٣٨	﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ .... ﴾	١١٠	٨٩٧
	مــــريم		
٣٣٩	﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾	١	١٠٦٢
٣٤٠	﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ......... ﴾	١٦	٢٢٦
٣٤١	﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي ...... ﴾	٣١	٩٣٨
٣٤٢	﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ..... ﴾	٥٩	٦٢- ٦٣
	طـــه		
٣٤٣	﴿ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾	٨٤	٧٨٦
٣٤٤	﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ .... ﴾	١١٤	٩٦٩
٣٤٥	﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ .... ﴾	١١٦	٢٨٣
٣٤٦	﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ .... ﴾	١١٧	٢٨٣
٣٤٧	﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾	١١٨	٢٨٣
٣٤٨	﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾	١١٩	٢٨٣
٣٤٩	﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ .... ﴾	١٢٠	٢٨٣
٣٥٠	﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا .... ﴾	١٢١	٢٨٣
٣٥١	﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾	١٢٢	٢٨٣
٣٥٢	﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا .... ﴾	١٢٣	٢٨٣- ٢٨٤، ٩٤٨
٣٥٣	﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾	١٢٤	٢٨٤، ٢٩٣- ٢٩٤

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٣٦٥	﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ.........﴾	٢٤	١٥٣
٣٦٦	﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ..................﴾	٢٦	٩٢٠
٣٦٧	﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ..........................﴾	٢٧	٩٢٠
٣٦٨	﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ.......................﴾	٢٨	٨٩٢
٣٦٩	﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ.....﴾	٣٠	٨٩٤
٣٧٠	﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾	٣٢	٨٩٤
٣٧١	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾	٣٨	١٦١
٣٧٢	﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ........﴾	٤١	٨٧٤، ٩٧٢، ١١٠١
٣٧٣	﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ.........﴾	٦٥	٩٦٠- ٩٦١
٣٧٤	﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ..........﴾	٦٧	٢٠٢
٣٧٥	﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾	٧٥	٩، ١٣٦
٣٧٦	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ...................﴾	٧٧	٨٥٢- ٨٥٣
٣٧٧	﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ..................﴾	٧٨	٩-١٠، ١٢١، ١٢٣، ١٣٨، ١٣٩، ٧٥٢، ٨٥٣، ٩٢٩، ٩٦٠، ١٠٨٨

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٤٤٨	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ .....﴾	٣٦	٤٠٥، ٤٦٨، ٦٢٧
٤٤٩	﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن .....﴾	٤٠	٢٠
٤٥٠	﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ..............﴾	٧٢	٤٩٦
	سـبـأ		
٤٥١	﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ....﴾	١٥	٥٨١
٤٥٢	﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا..................﴾	٢٨	٦٨٠، ٧٠٩، ٩٨٥، ١٠٨٣
٤٥٣	﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ.....................﴾	٣٩	٨٨٠
	فاطـر		
٤٥٤	﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ....﴾	٢	٥٠٢
٤٥٥	﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ......﴾	٦	٩٤٨
٤٥٦	﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ....﴾	١٨	٣٩١
٤٥٧	﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾	١٩	١٣٥
٤٥٨	﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾	٢٠	١٣٥
٤٥٩	﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾	٢١	١٣٥
٤٦٠	﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ....﴾	٢٢	١٣٥
٤٦١	﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ...........﴾	٢٤	٣٢٥

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٤٦٢	﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا .... ﴾	٣٢	٩٣، ٩٥
٤٦٣	﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ......... ﴾	٣٩	٩٤٤، ٩٤٩
٤٦٤	﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ .... ﴾	٤٣	٦١٧
	يس		
٤٦٥	﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾	٣٧	٣٨٢
٤٦٦	﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾	٣٨	٣٨٢
٤٦٧	﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾	٣٩	٣٨٢- ٣٨٣
٤٦٨	﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ .... ﴾	٤٠	٣٨٣
٤٦٩	﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾	٥٩	٥٣
٤٧٠	﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾	٦٨	٣٨٨
	الصافات		
٤٧١	﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾	١٢٦	٥٨١
	ص		
٤٧٢	﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ............... ﴾	٢٢	١٠٦٦
٤٧٣	﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾	٣٤	١٠٦٦

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
	الزمـــر		
٤٧٤	﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ....﴾	٢٣	١٨٥
٤٧٥	﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن....﴾	٥٤	٨٥٠
	غافـــر		
٤٧٦	﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ............﴾	٢٩	٢٣٨
٤٧٧	﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ....﴾	٥١	١٦٠
٤٧٨	﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ....﴾	٦٠	١٣٩
٤٧٩	﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ ....﴾	٨٢	٦٩٣
٤٨٠	﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم ....﴾	٨٣	٦٩٣
٤٨١	﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ......﴾	٨٤	٦٩٣
٤٨٢	﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا .....﴾	٨٥	٦٩٣
	فصلـت		
٤٨٣	﴿ حمٓ ﴾	١	١٠٦٠
٤٨٤	﴿ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾	٢	٥٨٨، ١٠٦٠
٤٨٥	﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾	٣	١٠٦٠
٤٨٦	﴿ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾	٤	١٠٦٠

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٤٨٧	﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ....﴾	٥	١٠٦٠
٤٨٨	﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا ....﴾	١١	٨٤١
٤٨٩	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ....﴾	٢٦	٦٣٥
٤٩٠	﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ....﴾	٣٧	٣٨٢
٤٩١	﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴾	٣٨	١٠٦٠
٤٩٢	﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ ....﴾	٤٣	٦٤٥
٤٩٣	﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا ....﴾	٤٤	٧٣٠
٤٩٤	﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ ....﴾	٥٣	٨٨٧
	الشـــورى		
٤٩٥	﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ ....﴾	٧	٧٠٨، ١٠٠٧
٤٩٦	﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا ....﴾	١٣	١١٦، ١٥١، ٣٦٢، ٣٧٨
٤٩٧	﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾	٣٧	٥٠٨

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
	الزخــــرف		
٤٩٨	﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ .... ﴾	٢٢	٧٢، ٧٩، ٨٦
٤٩٩	﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ .... ﴾	٢٣	٧٣، ٨٦
٥٠٠	﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .... ﴾	٣٢	٣٧٨
٥٠١	﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا .... ﴾	٤٨	٩٥٧
	الدخـــان		
٥٠٢	﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾	٢٩	١٧٠
٥٠٣	﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾	٣٠	١٧٠
٥٠٤	﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾	٣١	١٧٠
٥٠٥	﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	٣٢	١٧٠، ٦٧٤
	الجاثـيـة		
٥٠٦	﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ........... ﴾	١٣	٩٦٠
٥٠٧	﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ............ ﴾	١٦	١٧١، ١٨٩
٥٠٨	﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ .... ﴾	١٧	١٨٩
٥٠٩	﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا .... ﴾	١٨	١٨٩، ٣٧٨

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
٥١٠	﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ..............﴾	١٩	١٨٩
٥١١	﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا.........................﴾	٢٤	١١٥٢
	الأحقاف		
٥١٢	﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾	٢	٥٨٨
	محمد		
٥١٣	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾	٧	١٦٠- ١٦١، ١١٥٩
٥١٤	﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ.......................﴾	١٩	٩٦٥
٥١٥	﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ.........................﴾	٣٥	١٦٢
٥١٦	﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ.................﴾	٣٨	٩٥٠
	الفتح		
٥١٧	﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ.....﴾	٢٣	٦١٧
٥١٨	﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ....﴾	٢٦	٧٤٢، ١٠٤٨
٥١٩	﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ....﴾	٢٩	٢٠، ٥٧، ٤٨٠

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
	الحجرات		
٥٢٠	﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ .... ﴾	٩	٥١٤
٥٢١	﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ .... ﴾	١٠	٤٨٤، ٥١٤
٥٢٢	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ...... ﴾	١٣	١٠٦، ٣٨٤، ٤٨٦، ٧٢٣، ١١٣٥
	قٓ		
٥٢٣	﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾	١٨	٨٥٧، ٨٥٩
	الذاريات		
٥٢٤	﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	٥٦	٣٨٣، ٥٨٣، ٧٤٧، ٨٤٧، ٩٠٣
	النجم		
٥٢٥	﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾	٣	٦١٨، ١٠٥٩
٥٢٦	﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾	٤	٥٨٣، ٦١٨، ٦٤٦، ١٠٥٩
٥٢٧	﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾	٥	٦٤٦- ٦٤٧
٥٢٨	﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾	٣٨	٨٠٣
٥٢٩	﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾	٣٩	٨٠٣
٥٣٠	﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾	٤٠	٨٠٣
٥٣١	﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾	٤١	٨٠٣
	القمر		
٥٣٢	﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾	٤٩	٣٨٢

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
	القلـــم		
٥٥٤	﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	٤	٥٢٢
٥٥٥	﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾	٣٥	١٣٥
	الحاقـــة		
٥٥٦	﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾	٤١	٦٤٤
٥٥٧	﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾	٤٢	٦٤٤
٥٥٨	﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	٤٣	٦٤٤
٥٥٩	﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾	٤٤	٦٤٤
٥٦٠	﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾	٤٥	٦٤٤
٥٦١	﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾	٤٦	٦٤٤
٥٦٢	﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾	٤٧	٦٤٤
٥٦٣	﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾	٤٨	٦٤٤
٥٦٤	﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾	٤٩	٦٤٤
٥٦٥	﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾	٥٠	٦٤٤
٥٦٦	﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾	٥١	٦٤٤
٥٦٧	﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾	٥٢	٦٤٤
	المعـــارج		
٥٦٨	﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾	٢٥	٨٧٨
	الجـــنّ		
٥٦٩	﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا ....﴾	٨	٥٩١

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
	الأعلى		
٥٨١	﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾	١٤	٤٦٨، ٩٢٦
٥٨٢	﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾	١٥	٤٦٨
٥٨٣	﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾	١٩	٥٨٧
	الفجر		
٥٨٤	﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾	١٠	٥٤٨
٥٨٥	﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾	١١	٥٤٨
٥٨٦	﴿ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾	١٢	٥٤٨
	الشمس		
٥٨٧	﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾	٧	١٩٢، ٨٦٣
٥٨٨	﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾	٨	١٩٢، ٨٦٣
٥٨٩	﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾	٩	١٩٢، ٨٦٤
٥٩٠	﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾	١٠	١٩٢، ٨٦٤
	الليل		
٥٩١	﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾	٥	٣٢٥
	الشرح		
٥٩٢	﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾	٥	٥٠٥
٥٩٣	﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾	٦	٥٠٥
	العلق		
٥٩٤	﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾	١	٦١٤

م	السورة وطرف الآية	رقم الآية	الصفحة التي وردت فيها
	البينـة		
٥٩٥	﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾	٢	٥٨٧
٥٩٦	﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾	٣	٥٨٧
	الزلزلـة		
٥٩٧	﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾	٧	٣٤١
٥٩٨	﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾	٨	٣٤١
	النصـر		
٥٩٩	﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾	١	٤٨٥، ٦١٤
٦٠٠	﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾	٢	

* * *

٢ - فهرس الأحاديث والآثار

أولاً: الأحاديث

التسلسل	طرف الحديث	رقم الصفحة
	(حرف الفاء)	
١٠١	«فإنَّ الله - عزَّوجلَّ - لن يجمع أُمتي إلاَّ على هدى...»	٦٥
١٠٢	«فإنَّ خير الحديث كتابُ الله...»	٦٢٨
١٠٣	«فرقُ ما بيننا وبين المشركين: العمائم والقلانس...»	٢٠٠
١٠٤	«فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم...»	٢٥٢
١٠٥	«فضلت على الأنبياء بست...»	١٣٦- ١٣٧
١٠٦	«ففرض الله على أُمتي خمسين صلاة...»	٩١٧
	(حرف القاف)	
١٠٧	«قد كان الرجل فيمن كان قبلكم...»	٦٩٠
١٠٨	«قل أبا الوليد اسمع...»	١٠٥٩-١٠٦٠
١٠٩	«قوموا إلى جنّة عرضها السموات والأرض...»	٧٨٩
	(حرف الكاف)	
١١٠	«كان خلقه القرآن...»	٥٢٢
١١١	«كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير...»	٨٨٨
١١٢	«كذب أعداء الله...»	٤٩٨
١١٣	«كل كلام ابن آدم عليه، لا له...»	٨٥٧
١١٤	«كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته...»	٤٠٥
١١٥	«كلهم من هذه الأُمَّة...»	٩٥
١١٦	«كم سقت إليها...»	٥٣٩

* * *

ثانيًا: الآثار

التسلسل	طرف الأثر	صاحب الأثر	رقم الصفحة
	(حرف الألف)		
١	«اتبعوا آثارنا فإنَّ أصبتم فقد سبقتم...»	عن حذيفة	٦٣٣
٢	«اتبعوا آثارنا ولاتبتدعوا فقد كفيتم...»	عن ابن مسعود	٦٣٣
٣	«احرث لدنياك كأنَّك تعيش أبدًا...»	عن ابن عمر	٧٤٧
٤	«إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء...»	عن عثمان بن عفان	٦١٠
٥	«أربعة كلهم من الأنصار...»	عن أنس	٥٩٦
٦	«أرسل إليَّ أبو بكر...»	عن زيد بن ثابت	٦٠٠- ٦٠١
٧	«إلى من تجعل ديوانك يا بلال...»	عن عمر بن الخطاب	٥٢٨
٨	«أمر الله المؤمنين بالجماعة...»	عن ابن عباس	١٥٢
٩	«إنَّ قريشًا نهته عن ذلك...»	عن عبدالله بن عمرو	٦١٨
١٠	«إنَّ هذه الأمَّة ثلاثة أثلاث يوم القيامة...»	عن ابن مسعود	٩٦
١١	«إنَّا قومٌ أعزنا الله بالإسلام...»	عن عمر بن الخطاب	١٤١
١٢	«إنِّي أعلم إنَّك حجر لاتضر ولاتنفع...»	عن عمر بن الخطاب	٣٦٧، ٣٦٨

التسلسل	طرف الأثر	صاحب الأثر	رقم الصفحة
٢١	«كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء...»	عن ابن عباس	٥٩٠
٢٢	«كانت تنزل علينا الآية في عهد رسول الله ﷺ»	عن أم المؤمنين عائشة	٦١٤
٢٣	«كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقًا في...»	عن ابن عباس	٨٩٥
٢٤	«كنتم أقل الناس فأعزّكم الله بالإسلام...»	عن عمر بن الخطاب	١٤١
	(حرف اللام)		
٢٥	«لا إسلام إلاّ بجماعة، ولا جماعة إلاّ بإمارة...»	عن عمر بن الخطاب	٩٠
٢٦	«لم تكن سماء الدنيا تحرس في الفترة بين...»	عن ابن عباس	٥٩٠
	(حرف الميم)		
٢٧	«ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلاّ أخذ عليه...»	عن علي بن أبي طالب وابن عباس	٦٨٣
٢٨	«مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة...»	عن أنس	٥٩٦
٢٩	«من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم...»	عن عبدالله بن عمرو	١٩٩-٢٠٠
٣٠	«من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤدِّ...»	عن عمر بن الخطاب	١٤٠

رقم الصفحة	صاحب الأثر	طرف الأثر	التسلسل
١٧٨	عن سفيان بن عيينة	«من فسد من علمائنا ففيه شبهٌ من اليهود...»	٣١
		(حرف النون)	
٥٨١-٥٨٢	عن عليّ بن أبي طالب	«الناس ثلاثة: عالم رباني...»	٣٢
٤٨٧	عن ابن مسعود	«نزلت هذه الآية في المتحابين في الله...»	٣٣
		(حرف الهاء)	٣٤
٥٣١-٥٣٢	عن ابن عباس	«هذه الآية نسخ لما تقدم من الموالاة بالهجرة...»	٣٥
٩٥	عن ابن عباس	«هم أُمَّة محمد ﷺ...»	٣٦
		(حرف الواو)	
٦١٣	عن ابن مسعود	«والذي لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم فيما أُنزلت...»	٣٧
٨٤٦، ٩٣٩	عن أبي بكر الصديق	«والله لأقاتلنَّ من فرق بين الصلاة والزكاة...»	٣٨
٦٣٢	عن جابر	«ورسول الله بين أظهرنا عليه ينزل القرآن...»	٣٩
		(حرف الياء)	
٦٠٧	عن حذيفة بن اليمان	«يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا في الكتاب...»	٤٠
٩٥٤	عن ابن عباس	«يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا...»	٤١
٢١١	عن ابن عباس	«يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة...»	٤٢

* * *

٣ - فهرس الأبيات الشعرية
(مرتبة حسب القافية)

الأبيات الشعرية		رقم الصفحة
(دع عنك لومي فإنَّ اللوم إغـراءُ)	وداوني بالتي كانت هـي الداء	١٠٢٥
وسعت كتاب الله لفظًا وغـايةً	وما ضقت عن أي بـه وعظـاتِ	١٠٢٩
فكيف أضيق اليوم عن وصـف آلة	وتنسيق أسْـماء لمخترعـاتِ	١٠٢٩
أنا البحر فـي أحشائـه الدر كـامنٌ	فهل سألوا الغـواص عن صدفـاتي	١٠٢٩
وهل أنا إلاَّ من غزيَّـة إن غـوتْ	غويتُ وإن ترشدْ غزيّـة أرشـدُ	٣٩٦
ويوم موعدهـم أن يحشروا زمـرا	يوم التغابن إذ لاينفـع الحـذرُ	٦٤٠
وأبرزوا بصعـيد.......... جـرز	وأنزل العرشُ والميـزان والزبرُ	٦٤٠
قالوا: بلى فتبـعنا....... بطـروا	وغرنا طول هـذا العيش والعمرُ	٦٤٠
مستوثقين مـع الداعي...... كأنهـم	رجل الجراد رمتـه الريح فتنتشرُ	٦٤٠
بسهام من لحـاظ....... فاتكٍ	تركتني كهشـيم... المحتضر	٦٤٠
يقول خزانها ما كان عنـدكم.....	ألم يكن جاءكم من ربكـم نذر	٦٤٠
دنت الساعـة وانشـق القمـر	عن غـزالٍ صـادق قلبي ونفر	٦٤٠
وليس يصـح في الأذهـان شيءٌ	إذا احتاج النـهار إلى دليل	٧١١
كناطـح صخـرة يومًا ليوهنـها	فلم يضرها وأوهى قرنـه الوعل	٦٦١
ومن لم يذد عن حوضـه بسـلاحه	يهدم ومن لايظلـم الناس يظلم	٣٩٦
بلغ سـراة المسلمين بأنني	سلم لربي أعظـمي ومقامي	٦٩٧

* * *

٤ – فهرس الأمكنة والبلدان

* * *

٥ - فهرس الفرق والطوائف

اسم الفرقة أو الطائفة	رقم الصفحة
الهاشمية	٥٨٨
الوندا ليون	٢٦٠



٦ - فهرس الكلمات الغريبة المشروحة

* * *

٧ - فهرس الأعلام

* * *

٨ - فهرس المصادر والمراجع

١- آدم متز: الحضارة الإسلاميَّة، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، بيروت، دار الكتاب العربي ط/٥. (د. ت).

٢- أ. ل: شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة وتلخيص: محب الدين الخطيب ومساعد اليافي (د.م): العصر الحديث، ط٣، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م.

٣- إبراهيم الأبياري: تاريخ القرآن، القاهرة: بيروت، دار الكتب الإسلاميَّة، ط٢، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م، والقاهرة: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م.

٤- إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، القاهرة: مجمع اللغة العربيَّة، ط٢، (د. ت)، القاهرة: مجمع اللغة العربيَّة، ط٢، ١٣٩٢ هـ-١٩٧٢ م، وتركيا: المكتبة الإسلاميَّة.

٥- إبراهيم عبدالله رفيدة: اللغة العربيَّة، لغة القرآن والعلم والمسلمين، (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة)، تونس: المنظمة العربيَّة للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة (د. ط)، ١٩٩٠ م.

٦- إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي: الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان، تحقيق: مجدي فتح السيد، الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٦ هـ-١٩٩٥ م.

٧- إبراهيم بن محمد البريكان: المدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة على مذهب أهل السنة والجماعة، الخبر: دار السنة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٨- إبراهيم مراد: مكانة اللغة العربيَّة، (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة)، انظر: إبراهيم عبدالله رفيدة: اللغة العربيَّة....

٩- ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت، بيروت: دار التاج، ط١، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م.

١٠- ابن الأثير الجزري: مجد الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالواحد الشيباني (ت ٦٠٦ هـ): جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط،

بيروت: مكتبة الحلواني، ١٣٨٩ هـ- ١٩٦٩ م.

١١- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، بيروت: دار بيروت، ١٣٨٥ هـ-١٩٦٥ م.

١٢- ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي وآخر، بيروت: المكتبة العلمية، (د. ت).

١٣- إحسان إلهي ظهير: القاديانية (دراسات وتحليل)، لاهور (باكستان): إدارة ترجمان السنة، ط ١٦، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م.

١٤- أحمد إبراهيم شريف: دراسات في الحضارة الإسلاميَّة، القاهرة: دار القرآن، ١٣٩٦ هـ- ١٩٧٦ م، وبيروت: دار الفكر العربي.

١٥- أحمد أبو زيد: الاستشراق والمستشرقون، مجلة عالم الفكر، المجلد (١٠) العدد (٢)، ١٩٧٩ م، تصدر عن وزارة الإعلام في الكويت.

١٦- أحمد أحمد علوشن: الدعوة في عصر النبوة، (د. م): مطبعة المدني، (د. ت).

١٧- أحمد الإسكندري وآخرون: المفصل من تاريخ الأدب العربي، القاهرة: (د. ن)، ١٩٣٤ م.

١٨- أحمد أنس: الإسلام كما يراه المستشرقون، مجلة البعث، عدد شعبان ١٣٩١ هـ، تصدر عن ندوة العلماء لكناؤ، الهند.

١٩- أحمد حسن فرحات: الأُمَّة في دلالتها العربيَّة والقرآنية، الأردن: دار عمار، ط١، ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

٢٠- أحمد حسن فرحات: الخلافة في الأرض، الكويت: دار الأرقم، ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٢١- أحمد الحملاوي: شذى العرف في فن الصرف، (د. م): دار الكتب العربيَّة، ط٥، ١٣٤٥ هـ.

٢٢- أحمد بن حنبل أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١ هـ): المسند، تحقيق: أحمد شاكر، مصر: دار المعارف، ١٤٠٧ هـ-١٩٥٠ م.

٢٣- أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، فهرسة: رياض عبدالهادي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

٢٤- أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، وعادل مرشد، بيروت (ضمن الموسوعة الحديثيَّة، تقدمها مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر...)، ط ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٢٥- أحمد خليل: دراسات في القرآن، بيروت: دار النهضة العربيَّة، ١٩٦٩ م.

٢٦- أحمد رضا: معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة) بيروت: مكتبة الحياة، ١٣٧٨ هـ- ١٩٥٩ م.

٢٧- أحمد زكي صفوة: جمهرة خطب العرب، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).

٢٨- أحمد الريسوني: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٢٩- أحمد زكي يماني: الشريعة الخالدة ومشكلات العصر، جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢٢، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٣٠- أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مصر: دار المعارف، ١٩٨٠ م.

٣١- أحمد شرقاوي: معجم المعاجم، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٣ م.

٣٢- أحمد بن الصديق الغماري: الاستنفار لغزو التشبه بالكفار، تحقيق: عبد الله التليدي، بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ط٢، ١٤٠٩ هـ.

٣٣- أحمد العايد وآخرون: المعجم العربي الأساسي، (د. م): المنظمة العربيَّة للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٦ م.

٣٤- أحمد عبدالحميد غراب: رؤية إسلامية للاستشراق، (د. م): المنتدى الإسلامي، ط٢، ١٤١١ هـ.

٣٥- أحمد عبدالرحمن إبراهيم: الفضائل الخلقية في الإسلام، الرياض: دار العلوم، ط١، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م.

٣٦- أحمد عبد الرحمن عيسى: كتاب الوحي، الرياض: دار اللواء، ط١، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م.

٢٧- أحمد عبد الرحيم السائح: بحوث في مقارنة الأديان، قطر: دار الثقافة، ط ١، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٢٨- أحمد عصام الصفدي: تصنيف المعرفة والعلوم في ضوء خصائص الأمة الإسلاميَّة، الرياض: المطابع الأمنية بالمركز العربي للدراسات الأمنية، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٢٩- أحمد العناني: أطول معارك التاريخ، قطر: مؤسسة الشرق، ط٢، ١٩٨٥ م.

٤٠- أحمد فؤاد الأهواني: التشريع الإسلامي، مجلة الأزهر، العدد ١٠ المجلد (٤٠) ذو الحجة ١٣٨٨ هـ، فبراير ١٩٦٩ م، تصدر عن مجمع البحوث الإسلاميَّة بالأزهر، القاهرة.

٤١- أحمد محمد جمال: تآمر الأعداء على لغة القرآن، مجلة رابطة العالم الإسلامي، محاضرات موسم ٩٣ - ١٣٩٤ هـ، تصدر عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

٤٢- أحمد محمد جمال: التحديات الدينية واللادينية وموقف الإسلام منها، مجلة كلية أصول الدين، العدد (١) عام ١٣٩٧-١٣٩٨ هـ، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة.

٤٣- أحمد محمد العسال: الإسلام وبناء المجتمع، الكويت: دار القلم، ط٦، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٤٤- أحمد محمود الحوفي: سماحة الإسلام، القاهرة: مكتبة نهضة مصر بالفجالة، (د. ت)، العدد الرابع من سلسلة دراسات إسلامية.

٤٥- أحمد مطلوب: دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٣٩٥ هـ-١٩٧٥ م.

٤٦- إدغار فيبير: في الجدل الديني في الأندلس والإبتمولوجيا (الإبستمولوجيا الحديثة) ترجمة: الصادق الميساوي، المجلة العربيَّة للثقافة، السنة الرابعة عشرة، العدد السابع والعشرون، ربيع الأول ١٤١٥ هـ، سبتمبر ١٩٩٤ م، تونس: المنظمة العربيَّة للدراسات والثقافة والعلوم.

٤٧- إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربيَّة، ط٢، ١٩٨٤ م.

٤٨- إدوارد سعيد: الإعلام الغربي، المستقبل وحادث أوكلاهوما، جريدة الحياة في ٨-١٢-١٤١٥ هـ، تصدر عن شركة الحياة الدوليَّة للنشر، لندن.

٤٩- الأزدي، عبدالله بن محمد الأزدي، تاريخ فتوح الشام، تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر، القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠ م.

٥٠- استيفان فيلد: الثقافة العربيَّة في غاية الأهمية بالنسبة للثقافة الأوروبية، مجلة الحرس الوطني، عدد رجب ١٤٠٩ هـ، تصدر عن رئاسة الحرس الوطني السعودي، الرياض.

٥١- ابن إسحاق (محمد بن إسحاق بن يسار ٨٥ - ١٥١ هـ): سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق وتعليق: محمد حميد الله، تقديم: محمد الفاسي، فاس (المغرب): معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، مطبعة محمد الخامس، ٩٦ ١٣هـ-١٩٧٦ م.

٥٢- إسماعيل أحمد عمايرة: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيَّة، مجلة المنهل، العدد السنوي عن الاستشراق ١٤٠٩ هـ، جدة.

٥٣- إسماعيل أحمد عمايرة: المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، عمان: دار حنين، ط٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٥٤- إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، (د. م) (د. ن)، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٥٥- إسماعيل سالم عبد العال: المستشرقون والقرآن، العدد (١٠٤)، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، والعدد (١٢٠)، ١٤١٢ هـ-١٩٩١ م، من سلسلة دعوة الحق، تصدرها رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

٥٦- إسماعيل العرقي: اللغة العربيَّة أم اللغات ولغة البشرية، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٥ م.

٥٧- إسماعل عمايرة: المستشرقون وصلتهم بالعربيَّة، مجلة المنهل، العدد السنوي عن الاستشراق، ١٤٠٩ هـ.

٥٨- أبو الأعلى المودودي: الأمَّة الإسلاميَّة وقضية القومية، ترجمة وتعليق: سمير عبد الحميد

إبراهيم، القاهرة:دار الأنصار (د. ت).

٥٩- أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم، الكويت: دار القلم، ط ٨، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٦٠- أكرم ضياء العمري: التراث والمعاصرة، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، كتاب الأمة، العدد (١٠)، ط١، شعبان، ١٤٠٥ هـ.

٦١- أكرم ضياء العمري: الرسالة والرسول، (د. م) (د. ن)، ط١، ١٤٠١ هـ-١٩٩٠ م.

٦٢- الألباني، محمد ناصر الدين الألباني: آداب الزفاف في السنة المطهرة، بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٨، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٦٣- الألباني، محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيءٌ من فقهها وفوائدها، الرياض: مكتبة دار المعارف، طبعة ١٤١٥ هـ-١٩٩٥ م.

٦٤- الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، الرياض: مكتبة المعارف، ط٥، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٦٥- ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، تعريب: شفيق أسعد فريد، بيروت: طبعة مكتبة المعارف (د. ت).

٦٦- الألوسي (العلامة أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥ هـ ١٩١٤ م، وطبعة دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٦٧- أمير عبد العزيز: دراسات في الثقافة الإسلاميَّة (مدخل إلى الدين الإسلامي) بيروت: دار الكتاب العربي ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩ م.

٦٨- إميل در منغم: حياة محمد، ترجمة: عادل زعيتر، بيروت: المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٨٨ م.

٦٩- أنور الجندي: الإسلام في وجه التغريب (مخططات التبشير والاستشراق)، القاهرة: دار الاعتصام، (د. ت).

٧٠- أنور الجندي: سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلاميَّة، بيروت: دار الجيل، ط٢،

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٧١- أوليريشن هارمان: الاستشراق الألماني، منجزات ومراجعة مواقف، مجلة الباحث، المجلد (٥)، العدد الصادر في ٢-١٩٨٣ م، عن دار الباحث للطباعة والنشر، بيروت.

٧٢- باول شمتز: الإسلام قوة الغد العالمية، ترجمة: محمد شامة، القاهرة: مكتبة وهبة، ط٢، (د. ت).

٧٣- الباقلاني (أبو بكر محمد ين الطيب بن القاسم): إعجاز القرآن، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٧٤- البخاري: الأدب المفرد، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).

٧٥- البخاري، محمد بن إسماعيل بن جعفر: صحيح البخاري، ترتيب: محمد فؤاد عبدالباقي، تركيا: المكتبة الإسلاميّة، وتحقيق: مصطفى ديب البغا، دمشق: دار ابن كثير، ط٤، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٧٦- بركات البيلي: الخلفية التاريخية للاستشراق، مجلة المنهل، العدد (٧١) رمضان - شوال ١٤٠٩ هـ، عدد خاص عن الاستشراق والمستشرقين.

٧٧- برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط، تعريب: نبيل صبحي، القاهرة: المختار الإسلامي، ط١، ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م.

٧٨- (البرهان فوري) علاء الدين علي المتقي بن حسان الدين الهندي البرهان فوري (ت ٩٧٥ هـ): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبطه وفسر غريبه: بكري حيّاني، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه: صفوة السّقا، بيروت: مؤسسة الرسالة، طبعة ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٧٩- بطرس البستاني: محيط المحيط (قاموس مطول للغة العربيّة) بيروت: (د. ن) ١٨٦٧ - ١٨٧٠ م، وطبعة ١٩٨٢ م.

٨٠- البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ٣٩٢ هـ - ٤٦٣ هـ): شرف أصحاب الحديث، بتحقيق: محمد سعيد خطب أوغلي، جامعة أنقرة: منشورات كلية الإلهيات - (د. ت).

٨١- البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الشافان الجديدة (د. م): دار الشافان الجديدة، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٧ م.

٨٢- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء (ت ٥١٦ هـ): شرح السنة، تحقيق: علي محمد عوض، وعادل أحمد عبدالموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٨٣- البغوي: معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبدالله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، الرياض: دار طيبة، ١٤٠٩ هـ

٨٤- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسين الكفوي، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) عمل: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٨٥- أبو بكر الآجري: الشريعة، تحقيق: محمد حامد الفقي، الرياض: مكتبة دار السلام، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٨٦- بكر عبد الله أبو زيد: حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلاميَّة، الدمام: دار ابن الجوزي ط٢، ١٤١٣ هـ.

٨٧- بكر بن عبد الله أبو زيد: فقه النوازل، الرياض: مكتبة الرشد، ط١ ١٤٠٧ هـ.

٨٨- بكر عبد الله أبو زيد: معجم المناهي اللفظية، الرياض: دار العاصمة، ط٣، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦ م.

٨٩- بكر عبد الله أبو زيد: المواضعة في الاصطلاح على خلاف الشريعة وأفصح اللغى، ضمن كتاب فقه النوازل، الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٧ هـ.

٩٠- البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود): فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط١، ١٩٣٢ م.

٩١- البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس (ت ١٠٥١ هـ): شرح منتهى الإرادات، الرياض: إدارة البحوث العلمية والإفتاء (د. ت).

٩٢- البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت: لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

٩٣- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨ هـ): السنن الكبرى، وفي ذيله: الجوهر النقي فهرس الأحاديث: يوسف عبدالرحمن المرعشلي، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م.

٩٤- الترمذي، محمد بن عيسى بن سوار: سنن الترمذي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٧ م.

٩٥- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر الشافعي المتوفى سنة ٧٩٢ هـ: شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، وبالهامش شرح التوضيح للتنقيح المذكور، بيروت: دار الكتب العلميَّة (د. ت).

٩٦- تمام حسان: اللغة العربيَّة والشعوب الإسلاميَّة (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة)، انظر: إبراهيم عبدالله رفيدة: اللغة العربيَّة....

٩٧- التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون، (مناهج المستشرقين في الدراسات العربيَّة والإسلامية)، الجزء الأول، الرياض: المكتب العربي للتربية لدول الخليج، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.

٩٨- توفيق علي وهبة: الإسلام في مواجهة أعدائه، الرياض: دار اللواء، ط١، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٩٩- توفيق محمد الشاوي: الشرق الأوسط والأمة الوسط، مصر: دار الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

١٠٠- توفيق يوسف الواعي: الإسلام في العقل العالمي، ط ١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، المنصورة: دار الوفاء....

١٠١- توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلاميَّة - مقارنة بالحضارة الغربية المنصورة: دار الوفاء، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٠٢- ابن تيمية، تقي الدين أحمد عبد الحليم بن عبد السلام: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: راشد الرجال، القاهرة: المكتبة السلفية، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م، وتحقيق: محمد حامد الفقي، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ط٢، ١٣٦٩ هـ-١٩٥٠ م.

١٠٣- ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل المسيح، تحقيق: علي بن حسن وآخرين، الرياض: دار العاصمة، ط١، ١٤١٤ هـ.

١٠٤- ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، تحقيق: سيد محمد بن محمد بن أبي سعدة، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، ط١، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

١٠٥- ابن تيمية: الرسالة التدمرية، دمشق، دار الوعي، (د. ت)، ومصر: المكتبة السلفية، ط٤، ١٤٠٥ هـ، والرياض: طبعة جامعة الإمام....، ط ٣، ١٤٠٣ هـ.

١٠٦- ابن تيمية: شرح العقيدة الواسطية، شرح: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، ط٥، ١٤١١ هـ.

١٠٧- ابن تيمية: الفتاوى، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد القاسم، بيروت: مطابع دار العربيَّة، ط١، ١٣٩٨ هـ.

١٠٨- ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق: بشير محمد عيون، دمشق: مكتبة دار البيان ط١، ١٤١٢ هـ.

١٠٩- ث. ج. كولسون: في تاريخ التشريع الإسلامي، ترجمة وتعليق: محمد أحمد سراج، مراجعة: حسن محمود عبد اللطيف، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

١١٠- ثابت عيد: ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الألمانية بين سموم المستشرقين وجهود المسلمين، جريدة الحياة، شعبان ١٤١٦ هـ العدد ١١٩٩٤.

١١١- ج. هـ. بوسكة: سر تكون الفقه وأصل مصادره، دراسة مدرجة في كتاب، هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي ؟ (مجموعة دراسات لخمسة من العلماء المختصين)، بيروت: دار البحوث العلمية، ط١، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

١١٢- جابر قميحة: آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم، العدد (١١٦) من سلسلة عودة الحق، عام ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

١١٣- جاك ريسلر: الحضارة العربيَّة، تعريب: خليل أحمد خليل، بيروت، باريس: منشورات

عويدات، ط١، ١٩٩٣ م.

١١٤- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة: دليل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، الرياض، ١٤٠٧ هـ.

١١٥- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربيَّة، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٢ م.

١١٦- ابن جزي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل، (د. م): الدار العربيَّة للكتاب، (د. ت).

١١٧- جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، (د. م): دار مصر للطباعة، (د. ت)، والقاهرة: مكتبة الخانجي، (د. ت).

١١٨- جماعة من كبار العلماء: سيرة سيد المرسلين، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.

١١٩- جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة.

١٢٠- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢ م.

١٢١- جميل عبد الله المصري: أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري، المدينة المنورة: مكتبة الدار، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٨٩ م.

١٢٢- جميل عبد الله المصري: دواعي الفتوحات الإسلاميَّة ودعاوى المستشرقين، دمشق، دار القلم، ط١، (د.ت) وبيروت: دار الشامية، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

١٢٣- جميل عيسى الملائكة: اللغة العربيَّة ومكانتها في الثقافة العربيَّة والإسلامية، (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة)، انظر: إبراهيم عبدالله رفيدة، اللغة العربيَّة....

١٢٤- ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني): الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، (د. م): (د. ن)، (د. ت).

١٢٥- جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، لبنان: دار الحداثة، ط٢، ١٩٨٨ م.

١٢٦- جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٠ م.

١٢٧- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

١٢٨- ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن (٥١٠ - ٥٩٧ هـ): تلبيس إبليس، بيروت: دار القلم، ١٤٠٣ هـ.

١٢٩- ابن الجوزي: صفة الصفوة، ضبطه وعلق عليه وخرج آياته وأحاديثه: عبدالرحمن اللاذقي وآخر، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٣٠- ابن الجوزي: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: محمد عبدالكريم الراضي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٤ هـ.

١٣١- ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط١، ١٣٨٦ هـ-١٩٦٦ م.

١٣٢- جوستان لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: طبعة الحلبي، ١٩٦٩ م.

١٣٣- جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، تاريخ التطور العقدي والتشريع في الديانة الإسلاميَّة: ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرين، ترجمة: يوسف موسى وآخر، عبدالعزيز عبدالحق، علي حسن عبدالقادر، القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٤٦ م.

١٣٤- جولدزيهر: Ignaz Goldziher

١ - محاضرات عن الإسلام — 1 - Vorlesungen uber den Islam

١٣٥- جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبدالحليم النجار، بيروت، دار إقرأ، ط٨، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.

١٣٦- جون هك: أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، تعريب: نبيل صبحي، الكويت: دار القلم، ط١، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.

١٣٧- حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الحلبي والمعروف بحاجي خليفة (ت ١٠١٧ هـ-١٠٦٧ م): كشف الظنون، مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية (د. ت).

١٣٨- حافظ إبراهيم: ديوان حافظ إبراهيم، ضبط وتصحيح وشرح وترتيب: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الجيل، (د. ت).

١٣٩- الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩٠ م.

١٤٠- ابن حجر، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المصري الشافعي، المعروف بابن حجر (٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت)، مصورة عن النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣ م - كلكتا بمقابلتها مع النسخة الخطية في دار الكتب بالأزهر - مصر.

١٤١- ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبدالعزيز بن عبد الله بن باز، ومحمد فؤاد عبدالباقي، الرياض: إدارات البحوث العلمية والإفتاء، (د. ت).

١٤٢- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ): الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: منشورات الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م.

١٤٣- ابن حزم: جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم، تحقيق: إحسان عباس وناصر الدين الأسد، ومراجعة: أحمد محمد شاكر، مصر: دار المعارف (د. ت).

١٤٤- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبدالرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل (د. ت).

١٤٥- حسان حلاق: ملامح من تاريخ الحضارات (السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري والديني)، بيروت: الدار الجامعية، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

١٤٦- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي)، بيروت، دار الجيل: ط١٣، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

١٤٧- أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت: المكتبة العصرية ١٤١٨ هـ-١٩٩٠ م.

١٤٨- حسن خالد: موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية، بيروت: معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٦ م.

١٤٩- حسن زكريا فليفل: إنَّما المؤمنون إخوة (الأُخُوَّة الإسلاميَّة)، الإسكندرية: مكتبة الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، (د. ت).

١٥٠- حسن سعيد الكرمي: معجم الهادي إلى لغة العرب، بيروت: دار البنان، ط١، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

١٥١- أبو الحسن العامري: الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق: أحمد عبدالحميد غراب، الرياض: دار الأصالة ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

١٥٢- أبو الحسن علي الحسني الندوي: الأركان الأربعة (الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج)، الكويت: دار القلم، ط٣، ١٣٩٤ هـ-١٩٧٤ م.

١٥٣- أبو الحسن الندوي: الإسلام (أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية) جدة: دار المنار، ط١ ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

١٥٤- أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلاميَّة والفكرة الغربيَّة، الكويت: دار القلم، ط ٥، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

١٥٥- أبو الحسن الندوي: القاديانية ثورة على النبوة المحمدية، القاهرة: المكتبة السلفية ومكتبتها، ط ٢، ١٤٠١ هـ.

١٥٦- أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟، الكويت: دار القلم، ط١٤، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

١٥٧- حسن عيسى عبد الظاهر... وآخرون: بحوث في الثقافة الإسلاميَّة، القاهرة: دار الحكمة، ط ١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

١٥٨- حسين مطاوع الترتوري: مصادر النظم الإسلاميَّة، مجلة البحوث الإسلاميَّة، العدد (٢٧)، ربيع الآخر/ جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء.

١٥٩- حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، مصر: دار الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

١٦٠- حسين مؤنس: تاريخ قريش، جدة: الدار السعودية،... ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٦١- حسين نصار: الاستشراق بين المصطلح والمفهوم، مجلة المنهل، العدد السنوي المتخصص عن الاستشراق، والمستشرقين ١٤٠٩ هـ.

١٦٢- الحسيني الدامغاني: قاموس القرآن الكريم، أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهل، بيروت: دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٥ م.

١٦٣- الحكيم الترمذي: تحصيل نظائر القرآن، تحقيق: حسني نصر زيدان، القاهرة: مطبعة دار السعادة، ط١، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.

١٦٤- الحلبي، علي بن برهان الدين الحلبي (٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ): السيرة الحلبيَّة في سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، (د. م): دار المعرفة (د. ت).

١٦٥- حلمي ساري: المعرفة الاستشراقية (دراسة في علم اجتماع المعرفة) مجلة العلوم الاجتماعية - خريف عام ١٩٨٩ م، المجلد السابع عشر، العدد الثالث، الكويت: جامعة الكويت.

١٦٦- حمدي عبد العال: تحقيق القول في تحول بولس، مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، العدد (١٦) شعبان ١٤١٠ هـ، مارس ١٩٩٠ م، الكويت: مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.

١٦٧- حنى نصر الحتى: شرح ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

١٦٨- ابن حيان الأندلسي: تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، تحقيق: سمير المجذوب، بيروت: المكتبة الإسلاميَّة، ط١، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

١٦٩- حيدر بامَّات: مجالي الإسلام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: دار إحياء الكتب العربيَّة، ١٩٥٦ م.

١٧٠- خالد سعيد علي: رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، الكويت: مكتبة التراث، ط١، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

١٧١- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضْرمي: مقدمة ابن خلدون، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م.

١٧٢- الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ – ١٧٥ هـ): كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بيروت: منشورات الأعلمي، (د. ت).

١٧٣- خليل أحمد النظامي: عهود متعددة لأفكار المستشرقين ونظرياتهم (بحث مدرج في كتاب الإسلام والمستشرقون)، (مجموعة أبحاث قدمت للندوة العلمية عن الإسلام والمستشرقين التي عقدة بمجمع دار المنصفين في الهند): لنخبة من العلماء المسلمين، جدة: عالم المعرفة، ط١، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.

١٧٤- أبو داود، أبو بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود، القاهرة: دار الحديث، (د. ت).

١٧٥- الدارقطني، شيخ الإسلام الحافظ الإمام علي بن عمر الدارقطني (٣٠٦ – ٣٨٥ هـ): سنن الدارقطني، وبذيله التعليق المغني على الدارقطني لأبي الطيب محمد آبادي، بيروت: عالم الكتب، ط٣، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م.

١٧٦- الدارمي، الإمام الحافظ عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي السمرقندي (١٨١ – ٢٥٥ هـ- ٧٩٧ – ٨٦٩ هـ): سُنن الدّارمي، حقق نصّه، وخرج أحاديثه، وفهرسه: فواز أحمد زمرلي وخالد السّبْع العلمي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٩٧ م.

١٧٧- دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، مقال مدرج في تراث الإسلام، تأليف: جمهرة من المستشرقين (بإشراف سيرتوماس أرنولد)، بيروت: دار الطليعة، ط٢، ١٩٧٢ م.

١٧٨- أبو داود، أبو بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني: كتاب المصاحف، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.

١٧٩- داود علي الفاضل الفانحوري: العقيدة الإسلاميّة من القرآن الكريم، عمان: دار الفكر، ١٩٨٩ م.

١٨٠- الدسوقي السيد الدسوقي عيد: استقلال الفقه الإسلامي عن القانون الروماني والرد

على شبهة المستشرقين، مصر: مكتبة التوعية الإسلاميَّة، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٨٩ م.

١٨١- دي بوير: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: عبدالهادي أبو ريدة، بيروت: دار النهضة العربيَّة، ط٢، ١٣٧٤ هـ-١٩٥٤ م.

١٨٢- الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ): تاريخ الإسلام، تحقيق: عبدالسلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م.

١٨٣- الذهبي: تذكرة الحفاظ، بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).

١٨٤- الرازي: تفسير الرازي، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤١١ هـ، وبيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥ م.

١٨٥- الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط١، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

١٨٦- الرافعي: وحي القلم، بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ت).

١٨٧- رجاء غارودي: عن تاريخ فلسطين... صوت البلاد، العدد (٣٤)، السنة الأولى، الأربعاء ٢٧ فبراير ١٩٨٥ م، قبرص: مؤسسة الديار للطباعة والنشر.

١٨٨- ابن رجب، أبو الفرج عبدالرحمن بن رجب (ت ٧٩٥ هـ): جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

١٨٩- ابن رجب: القواعد في الفقه الإسلامي، بيروت: دار الجيل، ط٢، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

١٩٠- ابن رجب: لطائف المعارف، تحقيق: ياسين محمد السواس، دمشق: دار ابن كثير، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

١٩١- رفعت فوزي عبدالمطلب: أركان الإسلام الخمسة (أحكامها وأثرها في بناء الفرد والمجتمع)، بيروت: دار السلام، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٦ م.

١٩٢- رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات في اللغة، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٢، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

١٩٣- رودي بارت: الدراسات العربيَّة والإسلامية في الجامعات الألمانية: المستشرقون الألمان

منذ تيودور نولدكه رودي بارت، ترجمة: مصطفى ماهر، القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧ م.

١٩٤- روز مارى صايغ: نهاية الاستشراق، مجلة العربي، العدد ٢٥٨ مايو ١٩٨٠ م، وزارة الإعلام بدولة الكويت.

١٩٥- رءوف شلبي: عالمية الإسلام، ملحق مجلة الأزهر، عدد ربيع الأول ١٤٠٩ هـ.

١٩٦- زاهر عواض الألمعي: مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش (دراسة تحليلية) الرياض: مطابع الفرزدق، ط٤، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

١٩٧- الزبيدي، السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بالمرتضى (ت ١٢٠٥ هـ): إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

١٩٨- الزرقاني، محمد عبدالعظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، مصر: مطبعة الحلبي وشركاه، ط٣، (د. ت).

١٩٩- الزركشي، الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤ هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م.

٢٠٠- الزركشي: شرح الزركشي على مختصر الخرقي، تحقيق: عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، الرياض: مكتبة العبيكان للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٠ هـ.

٢٠١- الزركلي، خير الدين الزركلي: الأعلام؛ (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٦، ١٩٨٤ م.

٢٠٢- الزمخشري، الإمام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ): أساس البلاغة، بيروت: دار بيروت، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٢٠٣- الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتَّبه مصطفى حسين أحمد، بيروت: طبعة دار الكتاب العربي (د. ت).

٢٠٤- زهير بن أبي سلمى: معلقة زهير بن أبي سلمى المزني، (ضمن فتح الكبير المتعال

إعراب المعلقات العشر الطوال...) تأليف: محمد على طه الدرَّة، حمص: دار الإرشاد، ط ١، ١٩٨٦ م.

٢٠٥- زياد أبو غنيمة: السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، عمان: دار عمان، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٢٠٦- زيد بن أحمد بن زيد العبلان: الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلاميَّة، الرياض: كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، رسالة ماجستير قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، ١٤٠٦ هـ.

٢٠٧- زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربيَّة في أوربة)، ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، بيروت: دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م.

٢٠٨- سارة بنت عبدالمحسن بن عبدالله آل جلوي آل سعود: نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام، جدة: دار المنار، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٢٠٩- ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلاميَّة (د. م): مركز دراسات العالم الإسلامي، ط١، ١٩٩١ م.

٢١٠- سامي الصقار: دور المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي، مجلة المنهل العدد السنوي، المتخصص لعام ١٤٠٩ هـ، عن الاستشراق والمستشرقين.

٢١١- ستانودركب: المسلمون في تاريخ الحضارة، ترجمة: محمد فتحي عثمان، جدة: الدار السعودية، ط ٢، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٢١٢- السدي الكبير، الإمام أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير (ت ١٢٨ هـ) : تفسير السدي الكبير، تحقيق: محمد عطا يوسف، مصر: دار الوفاء بالمنصورة، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣ م.

٢١٣- سعد الدين السيد صالح: احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، مصر: دار الأرقم، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٢١٤- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء التراث، (د. ت).

٢١٥- سعيد عبد الفتاح عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة: عالم الكتب، ط١، ١٩٨٧ م.

٢١٦- سعيد مراد الغزي: الحقوق المدنية في العالم القديم ومنابعها، مجلة المجمع العربي، الجزء الرابع، المجلد الثاني، شعبان ١٣٤٠ هـ، نيسان ١٩٢٢ م - دمشق.

٢١٧- سليمان داود الواسطي: عرض كتاب (الثقافة والاستعمار) لإدوارد سعيد، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، العدد الأول، ١٩٩٤ م، تصدر عن دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن.

٢١٨- سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبدالوهاب: أوثق عرى الإيمان، تحقيق: الوليد بن عبدالرحمن الفريان (د. م)، (د. ن)، ط١، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٨ م.

٢١٩- سميرة عزمي الزين: مقدمة كتاب هيم ماكي: بولس وتحريف المسيحية (د. م): المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٢٢٠- السهيلي، عبدالرحمن السهيلي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية للإمام ابن هشام المتوفى ٢١٨ هـ، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط١، ١٣٨٧ هـ-١٩٦٧ م.

٢٢١- السيد إبراهيم بن أبو عمه أبو محمد: الصحيح المسند من التفسير النبوي للقرآن الكريم، طنطا: دار الصحابة للتراث، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٢٢٢- السيد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أبيات وإنشاء لغة العرب، بيروت: مؤسسة المعارف، (د. ت).

٢٢٣- السيد رزق الطويل: اللسان العربي والإسلام معًا في معركة المواجهة، سلسلة دعوة الحق، السنة السادسة العدد (٦٠) ربيع الأول، مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي.

٢٢٤- السيد رزق الطويل: الوسطية ومواقعها في القرآن الكريم، مجلة منبر الإسلام، العدد

(٥) السنة (٥٣) جمادى الأولى ١٤١٥ هـ - أكتوبر ١٩٩٤ م، القاهرة: وزارة الأوقاف المصرية.

٢٢٥- السيد علوي مالكي: كمال التشريع الإسلامي، (محاضرة ضمن مجموعة محاضرات ثقافية للموسم ١٣٩٣ هـ - ١٣٩٤، ١٣٩٥ هـ)، جدة: دار عكاظ للطباعة والنشر.

٢٢٦- سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي، بيروت: دار الشروق، ط ٤، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

٢٢٧- سيد قطب: السلام العالمي والإسلام، (د. م): (د. ن)، ١٣٨٦ هـ-١٩٦٧ م.

٢٢٨- سيد قطب: في ظلال القرآن، بيروت: دار الشروق، ط٧، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م.

٢٢٩- ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م.

٢٣٠- سير توماس. و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميَّة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وغيره، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠ م.

٢٣١- سيرج لاتوس: تغريب العالم (كتاب العالم الثالث)، (بحث حول دلالة ومغزى وحدود تنميط العالم) ترجمة خليل كلفت، القاهرة: دار العالم الثالث، ط١، ١٩٩٢ م.

٢٣٢- السيوطي، جلال الدين بن عبدالرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ): الإتقان في علوم القرآن، بيروت: المكتبة الثقافية، (د. ت).

٢٣٣- السيوطي: تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، تحقيق: محمد الصباغ، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٣٩٤ هـ-١٩٧٤ م.

٢٣٤- السيوطي: الخصائص الكبرى، حيدر آباد الدكن: دار الكتاب، ١٣٢٠ هـ، والقاهرة: دار الكتاب العربي (د. ت).

٢٣٥- السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها (شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه): محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربيَّة (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، (د. ت).

٢٣٦- السيوطي: مفتاح الجنَّة في الاعتصام بالسنة، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، لبنان: دار

النفائس، ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م.

٢٣٧- الشاطبي: الاعتصام، ضبط وتصحيح: أحمد عبدالشافي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

٢٣٨- الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح وتخريج وترجمة وفهرسة: عبدالله دراز ومحمد عبدالله دراز وعبدالسلام عبدالشافي محمد، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت)، وبتحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، الخبر: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧ هـ-١٩٩٧ م.

٢٣٩- الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت).

٢٤٠- ابن شبه، أبو زيد عمر بن شبه بن عبيد بن ريطة النميري البصري (١٧٣ - ٢٦٢ هـ): كتاب تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، القاهرة: دار الكتب العلمية، وجدة: دار الأصفهاني (د. ت).

٢٤١- الشجري، أبو الحسن يحيى بن الحسني(ت ٤٩٩ هـ): كتاب الأمالي، المشهور بالأمالي الخميسية، بيروت: عالم الكتب، (د. ت).

٢٤٢- شحاده الخوري: دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، دمشق: دار طلاس، ط١، ١٩٨٩ م.

٢٤٣- شرف الدين أبو النجا الحجاوي: الروض المربع شرح زاد المستقنع مختصر المقنع في فقه الإمام أحمد (د. م): (د. ن) ط٦، (د. ت).

٢٤٤- شكري حسين: قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة)، انظر: إبراهيم عبدالله رفيدة، اللغة العربيَّة....

٢٤٥- شرف الدين المقدسي: الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، تصحيح وتعليق: عبداللطيف السبكي، القاهرة: الطبعة المصرية في الأزهر ١٣٥١ هـ.

٢٤٦- شمس الدين المقدسي، شمس الدين محمد بن مفلح الحنبلي المقدسي (ت ٧٦٣ هـ):

الآداب الشرعية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيّام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٧ هـ-١٩٩٦ م.

٢٤٧- شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان، دمشق: دار الفكر، ط ١٤٠٨ هـ-١٩٨٧ م.

٢٤٨- الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠ هـ): در السحابة في مناقب القرابة والصحابة، تحقيق ودراسة: حسين بن عبد الله العمري، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٢٤٩- الشوكاني: فتح القدير، بيروت: دار الفكر، (د. ت).

٢٥٠- شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٢٥١- شوقي أبو خليل: غوستاف لوبون، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٢٥٢- شوقي أبو خليل: في التاريخ الإسلامي، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤١٢ هـ-١٩٩١ م.

٢٥٣- الشهرستاني، محمد بن أبي القاسم عبدالكريم بن أبي بكر (ت ٥٤٨ هـ): الملل والنحل، تحقيق: أمير على المهنا وآخر... بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م.

٢٥٤- الشيرازي، أبو إسحاق الفيرزآبادي: حكمة التشريع، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، المنصورة، (مصر): دار الوفاء للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٧ م.

٢٥٥- صالح ذياب هندى: دراسات في الثقافة الإسلاميَّة، عمان: دار الفكر للنشر، ط٩، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م.

٢٥٦- صالح غانم السدلان: حتمية تطبيق شرع الله في الأرض، مجلة البحوث الإسلاميَّة، عدد ذي القعدة وذي الحجة ١٤١٠ هـ ومحرم وصفر ١٤١١ هـ، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء....

٢٥٧- صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان: الولاء والبراء في الإسلام، مجلة البحوث العلمية، العدد (٢٥)، رجب - شوال، ١٤٠٩ هـ، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء....

٢٥٨- صبحي الصالح: الإسلام ومستقبل الحضارة، بيروت: دار قتيبة، ط٢، ١٩٩٠ م.

٢٥٩- صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، بيروت: دار العلم للملايين، ط١١، ١٩٨٦ م.

٢٦٠- ابن الصلاح، عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري: فتاوى ومسائل ابن الصلاح، تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٦١- صلاح شادي: الحرية مدخل إلى الدعوة الإسلاميَّة (ضمن كتاب الدعوة الإسلاميَّة - الوسائل - الخطط المداخل) من أبحاث اللقاء الخامس للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد في نيروبي بكينيا بتاريخ ٢٦ من جمادى الآخر إلى أول رجب ١٤٠٢هـ الموافق ٢١ - ٢٤ إبريل ١٩٨٢ م، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٥ هـ.

٢٦٢- صلاح الصاوي: تحكيم الشريعة وصلته بأصل الدين، القاهرة: دار الإعلام الدولي، ط١، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

٢٦٣- صلاح عبدالمقصود وحسن علي ربا: لغة القرآن بين مكر الأعداء وحرص الأبناء، مجلة الأمة، العدد (٤٣) رجب ١٤٠٤ هـ، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر.

٢٦٤- صلاح الدين المنجد: جهود المستشرقين في تحقيق التراث، مجلة المنهل، العدد السنوي المتخصص عن الاستشراق والمستشرقين ١٤٠٩ هـ.

٢٦٥- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية، (د. ت).

٢٦٦- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ): جامع البيان في تأويل القرآن، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٢ هـ.

٢٦٧- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ): تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ط٢، ١٣٨٧ هـ، وبيروت: دار صادر، ١٣٨٥ هـ- ١٩٦٥ م.

٢٦٨- طه حسين: في الأدب الجاهلي، القاهرة: (د. ن)، ١٩٥٨ م، والقاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٩٧٧ م.

٢٦٩- الطوفي: شرح مختصر الروضة، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، لبنان: مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٢٧٠- عابد السفياني: أثر الاجتهاد في المحافظة على منهاج الأمة وعقيدتها، مجلة البيان، العدد (٢٥) رجب ١٤١٠ هـ، لندن: المنتدى الإسلامي.

٢٧١- عابد السلفي: أهمية أصول المعرفة في الإسلام، مجلة البيان، العدد (١٧) شعبان ١٤٠٩ هـ (المجلة نفسها).

٢٧٢- عاصم بن عبد الله القريوتي: الإسناد من الدين ومن خصائص أمة سيد المرسلين ﷺ، الرياض: مكتبة المعلا، ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٢٧٣- عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية ومقالات أخرى، بيروت: منشورات المكتبة العصرية.

٢٧٤- عباس محمود العقاد: أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، مصر: دار المعارف، ط٦، (د. ت).

٢٧٥- عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، مصر: نهضة مصر، ١٩٨٩ م، (د. ط).

٢٧٦- عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام، بيروت: المكتبة العصرية، (د. ت).

٢٧٧- عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الوهيبي: التفسير بالأثر والرأي وأشهر كتب التفسير فيهما، مجلة البحوث الإسلاميَّة، العدد (٧) عن رجب وشعبان ورمضان وشوال لعام ١٤٠٣ هـ، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء....

٢٧٨- عبد الله بن عباس: صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم، تحقيق: راشد عبدالمنعم الرجال، مصر: مكتبة دار السنة، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٢٧٩- عبدالله العلي الركبان: دعوة تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني، مجلة أضواء الشريعة، العدد (١٤) سنة ١٤٠٢ هـ، الرياض: كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة.

٢٨٠- عبد الله الكامل الكتاني: مفهوم البر في الإسلام، مجلة المنهل - عدد ذي القعدة ١٤٠٤ هـ أغسطس ١٩٨٤ م السنة (٥٠) المجلد (٤٦)، (مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة)، جدة: دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة.

٢٨١- عبدالله بن محمد بن حميد: التوحيد وبيان العقيدة السلفية النقية، الرياض: مكتبة طبرية، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٢٨٢- عبدالله محمد سندي: التوعية (دراسات في المفاهيم السياسية المعاصرة) مجلة الدراسات الدبلوماسية، العدد الأول رجب ١٤٠٤ هـ - إبريل ١٩٨٤ م، الرياض: معهد الدراسات الدبلوماسية.

٢٨٣- ابن عبدالبر، أبو عمر يوسف بن عبدالبر (ت ٤٦٣ هـ): جامع بيان العلم وفضله، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ط) (د. ت)، تحقيق: أبي الأشبال، الرياض: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٤ م.

٢٨٤- عبدالجبار محمود السامرائي: الرسائل التي بعث بها النبي إلى الملوك المجاورين، مجلة الفيصل، العدد (٥٥) محرم ١٤٠٢ هـ، الرياض: دار الفيصل الثقافية.

٢٨٥- عبدالجليل شلبي: صور استشراقية، القاهرة: دار الشروق، ط ٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٨٦- عبدالجواد الصاوي: الصيام معجزة علمية (دراسة عن الحقائق العلمية في الصيام) جدة: دار القبلة للثقافة الإسلاميّة، ط١، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م.

٢٨٧- عبدالحليم أحمدي: معنى فطرية الإسلام عند الإمام ابن تيمية، الكويت: مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميّة العدد (٢٠) السنة (٨) ذو القعدة ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م، مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت.

٢٨٨- عبدالحميد أبو سليمان: دليل مكتبة الأسرة المسلمة، (د. م): المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٢٨٩- عبدالحميد متولي: الإسلام وموقف علماء المستشرقين (اتهامهم الشريعة بالجمود وعلمائها الأقدمين بالتأثر بالقانون الروماني)، جدة: مكتبات عكاظ، ط ١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٢٩٠- عبدالحميد محمود طهماز: ميزات الشريعة الإسلاميَّة على القوانين الوضعية، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٢٩١- عبدالحميد النجار: خلافة الإنسان بين الوعي والعقل (بحث في جدلية النص والعقل والواقع) بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٢٩٢- عبد رب النبي علي أبو السعود: الأُخُوَّة الإسلاميَّة، مصر: مكتبة وهبة، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩٠ م.

٢٩٣- عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٤ م.

٢٩٤- عبدالرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار) دراسة وتحليل وتوجيه، دمشق: دار القلم، ط٥، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٦ م.

٢٩٥- عبدالرحمن حبنكة الميداني: الالتزام الديني، منهج وسط، سلسلة دعوة الحق، السنة (٤) العدد (٣٤) محرم ١٤٠٥ هـ - أكتوبر ١٩٨٤ م، مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي.

٢٩٦- عبدالرحمن الدوسري: صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، الكويت: دار الأرقم، ط١، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٢٩٧- عبدالرحمن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي (دراسة نقدية في ضوء الإسلام) الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرياض: مكتبة المؤيد، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٢٩٨- عبدالرحمن بن عبدالله التركي: لمحات في التفسير الإسلامي للتاريخ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٤ م.

٢٩٩- عبدالرحمن بن عبدالله الدرويش: الشرائع السابقة ومدى حجيتها في الشريعة الإسلاميَّة، (د. م): (د. ن) ط١، ١٤١٠ هـ.

٣٠٠- عبدالرحمن بن عبدالكريم العبيد: أصول المنهج الإسلامي، الرياض: مطابع الفرزدق، ط١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م.

٣٠١- عبدالرحمن عميرة: المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، الرياض: دار اللواء، ط٢، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

٣٠٢- عبدالرحمن بن قاسم: حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، الرياض: المطابع الأهلية، ط١، ١٣٩٧ هـ.

٣٠٣- عبدالرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي: مقدمة التفسير، (د. م): (د. ن) ط٢، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٣٠٤- عبدالرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: محمد زهري النجار، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والدعوة والإرشاد، ١٤١٠ هـ.

٣٠٥- عبدالرحمن بن ناصر السعدي: القواعد الحسان لتفسير القرآن، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.

٣٠٦- عبدالرحمن الوكيل: البهائية تاريخها وعقيدتها، القاهرة: مطبعة المدني، ط٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

٣٠٧- عبدالرزاق بن همام الصنعاني (١٢٦ - ٢١١ هـ): تفسير القرآن، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، الرياض: مكتبة الرشد، ط١ ١٤١٠ هـ-١٩٨٩ م.

٣٠٨- عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، الكويت: دار القلم، ط١، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٣٠٩- عبدالستار الحلوجي: دراسات في الكتب والمكتبات، جدة: مكتبة مصباح: ط١، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

٣١٠- عبدالستار فتح الله سعيد: المعاملات في الإسلام، القاهرة: دار الطباعة والنشر الإسلاميّة، ط٢، ١٤٠٦ هـ.

٣١١- عبدالستار فتح الله سعيد: معركة الوجود بين القرآن والتلمود، الأردن: مكتبة المنار، ط٢، ١٤٠٢ هـ ومصر: دار التوزيع والنشر الإسلاميّة، ط٤، ١٤١١ هـ.

٣١٢- عبدالستار فتح الله سعيد: نظرات في الاستدلال القرآني، الرياض: مجلة كلية

أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة ١٣٩٩ هـ-١٤٠٠ هـ.

٣١٣- عبدالسلام بن نصر الله الشريف: سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، الرياض: دار المعراج الدولية للنشر، ط١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

٣١٤- عبدالعال سالم مكرم: أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٣١٥- عبدالعظيم بن إبراهيم محمد المطعني: سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية (منهاجًا.. وسيرة) القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٣ م.

٣١٦- عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني: افتراءات المستشرقين على الإسلام (عرض.. ونقد) مصر: مكتبة وهبة ط١، ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م.

٣١٧- عبدالعظيم الديب: المستشرقون والتراث، البحرين: مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٣١٨- عبدالعظيم الديب: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، كتاب الأمة، ربيع الثاني، ١٤١١ هـ، ط١، سلسلة فصلية تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر.

٣١٩- عبدالعليم عبدالرحمن خضر: المسلمون وكتابة التاريخ (دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ) الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥ م.

٣٢٠- عبدالغني عبدالخالق: حجية السنة، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت: دار القرآن الكريم ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٦ م.

٣٢١- عبدالقادر طاش: الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام، مجلة المنهل، العدد السنوي عن الاستشراق ١٤٠٩ هـ.

٣٢٢- عبدالقادر طاش: الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي، الرياض: شركة الدائرة للإعلام ط١، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م.

٣٢٣- عبدالكريم الخطيب: الحرب والسلام في الإسلام، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٣٢٤- عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١١، ١٤١١ هـ-١٩٩٠ م.

٣٢٥- عبدالكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلاميَّة، الرياض: مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع، ط٣، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

٣٢٦- عبدالكريم علي باز: افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي، جدة: (د. ن) ط١، ١٤٠٣ هـ.

٣٢٧- عبداللطيف الطيباري: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية (دراسة نقدية)، ترجمة: قاسم السمرائي، الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٣٢٨- عبدالملك بن هشام، الإمام أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ): السيرة النبوية، علق عليها وخرج أحاديثها، وصنع فهارسها عمر عبدالسلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م.

٣٢٩- عبدالمنعم أبو زنط: التميُّز الإسلامي، (د. م): مكتبة سندس، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٣٣٠- عبدالواحد محمد الفار: الثقافة الإسلاميَّة (دراسة تأصيلية لمضمون الرسالة الإسلاميَّة في ضوء القرآن والسنة) جدة: مكتبة الخدمات الحديثة، الكتاب الجامعي، الكتاب الرابع، (د. ت).

٣٣١- عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان: كتاب البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلاميَّة، جدة: دار الشروق ط١، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٣٣٢- عبدالوهاب العشري: التلوث البيئي.. والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، مجلة تجارة، الرياض: العدد (٣٧٨) السنة ٣٣ رمضان ١٤١٤ هـ-١٩٩٤ م، تصدرها الغرفة التجارية في الرياض.

٣٣٣- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ): كتاب الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٣٣٤- عثمان بن جمعة ضميرية: الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى، الطائف: دار الفاروق،

ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٢٣٥- عثمان جمعة ضميرية: مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة، جدة: مكتبة السوادي، ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٣ م.

٢٣٦- عثمان جمعة ضميرية: منهج الإسلام في الحرب والسلام، الكويت: دار الأرقم، ط١، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م.

٢٣٧- عجيل جاسم النشمي: طريق البناء التربوي الإسلامي، الكويت: دار الدعوة، ط١، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م.

٢٣٨- عرفان عبدالحميد فتاح: دراسات في الفكر العربي الإسلامي (أبحاث في علم الكلام والتصوف والاستشراق والحركات الهدامة)، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١٢ هـ-١٩٩١ م.

٢٣٩- عرفان عبدالحميد: المستشرقون والإسلام (محاولة أولية لتفهم الأسس التاريخية لطبيعة العلاقات الفكرية بين الإسلام والغرب)، بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٨٠ م.

٢٤٠- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبدالله (ت ٥٤٣ هـ): أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، (د. ت).

٢٤١- العز بن عبدالسلام أبو محمد عز الدين بن عبدالسلام السلمي (ت ٦٦٠ هـ): قواعد الأحكام في مصالح الأنام، بيروت: دار المعرفة، (د. ت).

٢٤٢- أبو العز الدمشقي: علي بن علي بن محمد أبو العز الدمشقي المتوفى ٧٩٢ هـ: شرح العقيدة الطحاوية، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدَّم له: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، وشعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٢٤٣- عز الدين الخطيب.. وآخرون: نظرات في الثقافة الإسلاميَّة، عمان (الأردن): دار الفرقان، ط١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤.

٢٤٤- عزية طه: من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحيد، الكويت: مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، العدد (١٣) رمضان ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م، جامعة الكويت.

٢٤٥- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر

(ت ٥٧١ هـ): تهذيب تاريخ دمشق، هذّبه ورتبه: عبدالقادر بدران، بيروت: دار التراث العربي، ط٣، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٢٤٦- عصام أحمد البشير: أصول النقد عند أهل الحديث، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٢٤٧- ابن عطية الأندلسي، القاضي أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، (ت ٥٤٦ هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٢٤٨- عطية صقر: الدعوة الإسلاميَّة دعوة عالمية (د. م): مؤسسة الصباح للنشر، ط١، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٠ م.

٢٤٩- عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة، القاهرة: دار النهضة العربيَّة، ١٩٨٥ م.

٢٥٠- علي إبراهيم النملة: الاستشراق في الأدبيات العربيَّة، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة، ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٣ م.

٢٥١- علي جريشة: الغزو الفكري، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، ١٤٠٤ هـ-١٩٩٤ م.

٢٥٢- علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ م.

٢٥٣- علي الشابي: اللغة العربيَّة لغة القرآن ورسالة الإسلام، (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة)، انظر: إبراهيم عبدالله رفيدة، اللغة العربيَّة....

٢٥٤- علي عبدالحليم محمود: عالمية الدعوة الإسلاميَّة، مصر: دار الوفاء بالمنصورة، ط١، ١٤١٢ هـ.

٢٥٥- علي عبدالحليم محمود: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام (بحث ضمن البحوث المقدمة في مؤتمر الفقه الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، سنة ١٣٩٦ هـ)، الرياض.

٢٥٦- علي عبدالحليم محمود: مع العقيدة والحركة والمنهج في خير أمة أُخرجت للناس، مصر: دار الوفاء بالمنصورة، ط١، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٢٥٧- علي علي منصور: المدخل للعلوم القانونية والفقه الإسلامي (مقارنات بين الشريعة والقانون)، القاهرة: (د. م)، ط١، ١٣٨٦ هـ-١٩٦٧ م.

٢٥٨- علي محمد جعفر: تاريخ القوانين ومراحل التشريع الإسلامي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٢٥٩- علي محمد نصر: استخلاف آدم عليه السلام: سلسلة دعوة الحق، العدد (٧٦) السنة (٧) رجب ١٤٠٨ هـ - فبراير ١٩٨٨ م، مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي.

٢٦٠- عماد الدين خليل: تحليل للتاريخ الإسلامي (إطار عام)، قطر: دار الثقافة، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٢٦١- عماد الدين خليل: حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، قطر: دار الثقافة، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٦٢- عماد الدين خليل: دراسات في السيرة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م.

٢٦٣- عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط١، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.

٢٦٤- عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات)، (ضمن مناهج المستشرقين في الدراسات العربيّة والإسلامية)، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج والمنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.

٢٦٥- عماد الدين خليل: مؤشرات إسلامية في زمن السرعة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.

٢٦٦- عماد الدين خليل: هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، القاهرة: مكتبة النور، ط١، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م.

٢٦٧- عمار الطالبي: ابن باديس (حياته وآثاره) بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٣٦٨- عمر إبراهيم رضوان: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، الرياض: دار طيبة، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٣٦٩- عمر إبراهيم: مفهوم الأُمَّة بين لغة وأخرى، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد (١٧) كانون أول ١٩٨١ م/ كانون الثاني ١٩٨٢ م، بيروت: مركز الإنماء القومي.

٣٧٠- عمر عبيد حسنة: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٣٧١- عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلاميَّة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

٣٧٢- عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩ م.

٣٧٣- عمر فروخ: الاستشراق في نطاق العلم وفي نطاق السياسة، (ضمن الإسلام والمستشرقون: لنخبة من العلماء).

٣٧٤- عمر فروخ: الاستشراق ما له وما عليه، مجلة المنهل، العدد (٧١) رمضان - شوال ١٤٠٩ هـ، (العدد المتخصص عن الاستشراق والمستشرقين).

٣٧٥- عمر فروخ ومصطفى الخالدي: التبشير والاستعمار، بيروت: المكتبة العصرية، ط٢، ١٩٨٦ م.

٣٧٦- عمر فروخ: كلمة في تعليل التاريخ، بيروت: دار العلم للملايين، طبعة ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٣٧٧- أبو عمرو الداني: الأحرف السبعة للقرآن، تحقيق: عبدالمهيمن طحَّان، (د. م): مكتبة المنار، ط١، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

٣٧٨- غريب محمد غريب: مقدمته لكتاب زيفريد هونكه: الله ليس كمثله شيء، مجلة النور، العدد (١١٩) ربيع الثاني، ١٤١٥ هـ-١٩٩٤ م، تصدر عن بيت التمويل الكويتي، الكويت.

٣٧٩- الغزالي، أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٢٨٠- الغزالي: الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، دراسة وتحقيق: محمد عبدالله الشرقاوي، الرياض: دار أمية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٣ هـ.

٢٨١- غيثان علي جريس: افتراءات المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية، أبها: نادي أبها الأدبي، ط١، ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م.

٢٨٢- ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلاميَّة، ترجمة: حمزة طاهر، القاهرة: دار المعارف، ط٤، ١٩٦٦ م.

٢٨٣- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي؛ (ت ٣٩٥ هـ): الصاحبي في فقه اللغة العربيَّة وسنن العرب في كلامها، تحقيق: أحمد صقر، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د. ت)، وبتحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت: مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٣ م.

٢٨٤- ابن فارس: مجمل اللغة، تحقيق: زهير عبدالمحسن سلطان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٢٨٥- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

٢٨٦- فاروق حمادة: أسس العلم وضوابطه في السنة النبوية، الرياض: دار طيبة، (د. ت).

٢٨٧- فاروق حمادة: خطبة الفتح الأعظم (فتح مكة)، الدار البيضاء (المغرب): دار الثقافة، ط١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م.

٢٨٨- فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م، الرياض، مكتبة فرقد الخاني، (د. ت).

٢٨٩- فاروق الدسوقي: مقومات المجتمع المسلم، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م، والرياض: مكتبة فرقد الخاني، (د. ت).

٢٩٠- فاروق النبهان: مبادئ الثقافة الإسلاميَّة، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٢٩١- فاطمة السيد علي سباك: الشريعة والتشريع، مكة، سلسلة دعوة الحق، العدد (١٧٢)

جمادى الأولى ١٤١٧ هـ - مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي.

٣٩٢- فرانز روز نثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٣٩٣- فضل إلهي: الحرص علي هداية الناس، الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٣٩٤- فضل إلهي: الحسبة تعريفها، مشروعيتها وحكمها، الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٣٩٥- فضل إلهي: الحسبة في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، الرياض، مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٣٩٦- فضل إلهي: شبهات حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باكستان: إدارة ترجمان الإسلام، ط٢، ١٤١٢ هـ-١٩٩١ م.

٣٩٧- فهد عبدالرحمن الرومي: دراسات في علوم القرآن الكريم، الرياض: مكتبة التوبة، ط٤، ١٤١٥ هـ-١٩٩٤ م.

٣٩٨- فهد عبدالرحمن الرومي: الصلاة في القرآن الكريم (مفهومها وفقهها) (د. م): (د. ن)، ط٢، ١٤٠٩ هـ.

٣٩٩- فؤاد أحمد فرسون: المسافة بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشراقية، مجلة المنهل، العدد السنوي المتخصص عن الاستشراق والمستشرقين، ١٤٠٩ هـ.

٤٠٠- فتزجيرالد: الدين المزعوم للقانون الروماني على القانون الإسلامي، تعريب محمد سليم العوا، مطبوع ضمن كتاب (هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي).

٤٠١- قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض: دار الرفاعي، ط١، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٤٠٢- ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي الصالحي الحنبلي: (٥٤١ - ٦٢٠ هـ): المغني، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، القاهرة: دار هجر، ط١، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

٤٠٣- القرطبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مفرح الأنصاري القرطبي: (ت ٦٧١ هـ): الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، (تحقيق وتعليق: أحمد حجازي السَّقَّا) القاهرة: دار التراث العربي (د. ت).

٤٠٤- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م.

٤٠٥- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ت ٨٢٠ هـ-١٤١٨ م: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية (ومذيلة بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية) القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، ١٣٨٣ هـ-١٩٦٣ م.

٤٠٦- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر: (ت ٧٥١ هـ): أحكام أهل الذمة، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥ م.

٤٠٧- ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ترتيب وضبط وتخريج: محمد عبدالسلام إبراهيم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٤٠٨- ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، تحقيق: محمد عفيفي، الرياض: دار الخاني، ط٢، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م.

٤٠٩- ابن قيم الجوزية: بدائع التفسير - الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية - جمع وتوثيق وتصحيح: يسرى السيد محمد، الدمام: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٤ هـ.

٤١٠- ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، (د. م): دار الفكر، (د. ت).

٤١١- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢٥، ١٤١٢ هـ-١٩٩١ م.

٤١٢- ابن قيم الجوزية: طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق: يوسف علي بديوي، بيروت: دار ابن كثير، ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٣ م.

٤١٣- ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، بيروت: دار

الكتب العلمية، (د. ت).

٤١٤- ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق: أحمد حجازي السقا، القاهرة: دار المطبعة السلفية، ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩ م.

٤١٥- ابن قيم الجوزية: الوابل الصيب، تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط، دمشق: مكتبة البيان (د. ت).

٤١٦- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبدالحليم النجار، مصر: دار المعارف، ط٥، (د. ت).

٤١٧- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلاميَّة، ترجمة: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط١٠، ١٩٨٤ م.

٤١٨- كارم السيد غنيم: اللغة العربيَّة والصحوة الحديثة، القاهرة: مكتبة ابن سينا ....، ١٤١٠ هـ-١٩٨٩ م.

٤١٩- كافين رايلي: الغرب والعالم، ترجمة: عبدالوهاب محمد المسيري وغيره، الكويت: سلسلة عالم المعرفة كتاب رقم (٩٠) رمضان ١٤٠٥ هـ، يونيو (حزيران) ١٩٨٥ م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

٤٢٠- كامل موسى: المدخل إلى التشريع الإسلامي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٨٩ م.

٤٢١- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ): البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف، ط٢، ١٩٧٤ م.

٤٢٢- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار المعرفة، ١٣٨٨ هـ-١٩٦٩ م.

٤٢٣- كمال سنو: رحلة إلى مكة عمرها مائة عام، مجلة أهلاً وسهلاً، عدد (١٠) السنة (١٧) جمادى الأولى ١٤١٤ هـ - أكتوبر ١٩٩٣ م، جدة: إدارة العلاقات العامة للخطوط الجوية السعودية.

٤٢٤- كمال محمد بشر: الثقافة، حديث إذاعي سجل لإذاعة الرياض في ٤-٧-١٤١٥ هـ، رقم الشريط ٢٩٨٢٨.

٤٢٥- اللالكائي ، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي (ت ٤١٨ هـ): شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة (من الكتاب والسنَّة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم)، تحقيق: أحمد سعد حمدان، الرياض: دار طيبة، ط٢، ١٤١١ هـ.

٤٢٦- لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، تعليق، شكيب أرسلان، (د. م): (د. ن)، ط٤، ١٣٩٤ هـ.

٤٢٧- لورانس: الكولونيل لورانس (المشهور بلورانس العرب): الثورة العربيَّة، (د. م): (د. ن)، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٨٩ م.

٤٢٨- ماجد عرسان الكيلاني: الأُمَّة المسلمة، مفهومها، إخراجها، مقوماتها، عمان: (د. ن)، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٤٢٩- ابن ماجه، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ): سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، تركيا: المكتبة الإسلاميَّة، (د. ط)، (د. ت).

٤٣٠- مازن المبارك: اللغة العربيَّة في التعليم العالي والبحث العلمي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠١ هـ.

٤٣١- ماكسيم رودنسون وكريستيان روبان وجيوفاني غرابيتي وفرانكوريش: أبحاث في الجزيرة العربيَّة الجنوبية قبل الإسلام، ترجمة: نجيب عزاوي، عرض: عبد اللطيف الأرناؤوط، الكويت: مجلة قرطاس، عدد (١٠) نوفمبر ١٩٩٦ م.

٤٣٢- مالك بن أنس: الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة: دار الحديث، ط٢، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م.

٤٣٣- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

٤٣٤- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دمشق: دار الفكر، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٤٣٥- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ): أدب الدنيا والدين، القاهرة: دار الصحابة للتراث، (د. ت).

٤٣٦- الماوردي: أعلام النبوة، تحقيق: محمد شريف سكر، بيروت: دار إحياء العلوم، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٤٣٧- المباركفوري (الإمام الحافظ أبو العلا محمد بن عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري): تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٤٣٨- مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العربي، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت: المكتبة العلمية، (د. ت).

٤٣٩- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ): القاموس المحيط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٤٤٠- مجموعة مقالات لكتّاب عالميين: أصالة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي، ترجمة: حافظ الجمالي ويوسف مراد، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٣ م، (مطبوعات اليونسكو).

٤٤١- أثر تطبيق النظام الاقتصادي في المجتمع (من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، الرياض، ١٣٩٦ هـ)، الرياض: جامعة الإمام، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٤٤٢- الموسوعة الذهبية: القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٨٠ م.

٤٤٣- مجموعة من الباحثين والمترجمين: الموسوعة الذهبية، القاهرة: سجل العرب، ١٩٨٠ م.

٤٤٤- مجموعة من اللغويين العرب: المعجم العربي الأساسي الصادر عن المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، (د. م): توزيع: (لاروس)، ١٩٨٩ م.

٤٤٥- مجموعة من المستشرقين: دائرة المعارف الإسلاميّة، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد وغيره، مصر: دار الشعب، ط٢، ١٩٦٩ م.

٤٤٦- محب الدين الخطيب: الجيل المثالي، القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها (د. ت).

٤٤٧- محب الدين الخطيب: حملة رسالة الإسلام الأولون، القاهرة: المكتبة السلفية

ومطبعتها، (د. ت).

٤٤٨- محسن عبدالحميد: أزمة المثقفين تجاه الإسلام، مصر: دار الصحوة، ط١، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٤ م.

٤٤٩- محسن عبدالحميد: الإسلام والتنمية الاجتماعية، جدة: دار المنار، ط١، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م.

٤٥٠- محسن عبدالحميد: تجديد الفكر الإسلامي، مصر: دار الصحوة، (د. ت).

٤٥١- محسن عبدالحميد: تحقيق قصة بحيرى، مجلة الجامعة عدد (٤) سنة (٩).

٤٥٢- محسن عبدالحميد: حقيقة البابية والبهائية، بيروت: (د. ن)، ط١، ١٣٨٩ هـ-١٩٦٩ م.

٤٥٣- محمد آبادي: التعليق المغني على الدارقطني، بيروت: عالم الكتب، ط٤، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٤٥٤- محمد إبراهيم الخطيب: الأُمَّة الإسلاميَّة بين الماضي والحاضر، القاهرة: مجلة منبر الإسلام، عدد (٥) جمادى الأولى، ١٤١٤ هـ، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة.

٤٥٥- محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار (تطور الصراع الغربي مع الإسلام) القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م.

٤٥٦- محمد أبو شهبة: دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، الرياض: دار اللواء، ط٢، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٤٥٧- محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم، بيروت: دار الجيل، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٤٥٨- محمد أبو الفتح البيانوني: تحول العبادات إلى عادات وأثره في حياة المسلمين، مجلة البحوث الإسلاميَّة، المجلد الأول، العدد الثاني، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة، ١٣٩٥ هـ، والمحرم، صفر، ربيع الأول ١٣٩٦ هـ الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء... الرياض.

٤٥٩- محمد أبو الفتح البيانوني: العبادات: خصائصها وآثارها في الفرد والمجتمع، محاضرة

ألقاها ضمن البرنامج العام لقسم الثقافة الإسلاميَّة بكلية الشريعة بالرياض، الرياض: كلية الشريعة، ١٤٠٠ هـ - ١٤٠١ هـ.

٤٦٠- محمد أبو الفتح البيانوني: العبادة (دراسة منهجية شاملة في ضوء الكتاب والسنة)، القاهرة، وبيروت: دار السلام، ط١، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٤٦١- محمد أحمد أبو الفرج: مقدمة لدراسة فقه اللغة، بيروت: دار النهضة، ط١، ١٩٦٦ م.

٤٦٢- محمد أحمد جمال: نقد كتاب العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدزيهر، مجلة رابطة العالم الإسلامي، المجلد (٧) العدد (٥) ١٣٨٩ هـ-١٩٦٩ م، مكة المكرمة.

٤٦٣- محمد أحمد الخطيب ومحمد عوض الهزاية: دراسات في العقيدة الإسلاميَّة، عمان (الأردن): دار عمار، ط ١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٤٦٤- محمد أحمد خلف الله: التكوين التاريخي لمفاهيم الأمة (القومية، الوطنية، الدولة والعلاقة فيما بينها)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيَّة، ط٢، ١٩٨٢ م.

٤٦٥- محمد أحمد دياب: أضواء على الاستشراق والمستشرقين، القاهرة: دار المنار، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٨٩ م.

٤٦٦- محمد أحمد رشوان: تلوث البيئة وكيف عالجه الإسلام، منشورات جامعة الإمام ١٤١٤ هـ-١٩٩٤ م.

٤٦٧- محمد أحمد العدوي: دعوة الرسل إلى الله، مصر: مطبعة الحلبي، ط١، ١٣٥٤ هـ-١٩٣٥ م.

٤٦٨- محمد أحمد محمد عبدالقادر خليل ملكاوي: بشرية المسيح ونبوة محمد ﷺ في نصوص كتب العهدين (رد على شبه المنصرين والمستشرقين)، الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ط١، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م.

٤٦٩- محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فروخ، ببيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١ م.

٤٧٠- محمد أسد: منهاج الإسلام في الحكم، ترجمة: منصور محمد ماضي، بيروت: دار العلم

للملايين، ط٥، ١٩٧٨ م.

٤٧١- محمد بن أكرم بن منظور: لسان العرب المحيط، بيروت: دار لسان العرب، (د. ت).

٤٧٢- محمد بن أمين أبو بكر: العبادة، وأثرها كما جاء بها القرآن الكريم، مجلة كلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب، أبها، العدد (٣)، ١٤٠٣ هـ-١٤٠٤ هـ، الرياض: جامعة الإمام.

٤٧٣- محمد أمين حسين: خصائص الدعوة الإسلاميَّة، الأردن: دار المنار، ط١، ١٤٠٣ هـ.

٤٧٤- محمد أمين المصري: المجتمع الإسلامي، الكويت: دار الأرقم، ط٤، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٤٧٥- محمد أنس الزرقاء: الزكاة عند شاخت، (مناهج المستشرقين في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة الجزء الثاني).

٤٧٦- محمد بركات البيلي: الخلفية التاريخية للاستشراق، مجلة المنهل، العدد السنوي عن الاستشراق والمستشرقين ١٤٠٩ هـ.

٤٧٧- محمد البهي: الشباب والإسلام في مجتمعنا المعاصر، مجلة الأمة، عدد صفر ١٤٠٢ هـ، قطر: مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية.

٤٧٨- محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، بيروت: دار الفكر، ط٦، ١٩٧٣ م.

٤٧٩- محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) في بلاد العرب، الرياض: جامعة الإمام،.., ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٤٨٠- محمد حسن أبو يحيى: أهداف التشريع الإسلامي، الأردن: دار الفرقان، ط١، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.

٤٨١- محمد حسين أبو الفتوح: ابن خلدون ورسم المصحف العثماني، بيروت: مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٢ م.

٤٨٢- محمد حسين علي الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، ط٢، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٤٨٣- محمد حسين هيكل: حياة محمد، مصر: دار المعارف، ١٩٨٩ م.

٤٨٤- محمد حسين هيكل في منزل الوحي، القاهرة: دار المعارف، ط٧، ١٩٧٩ م،

٤٨٥- محمد حميد الله: تأثير الحقوق الرومية على الفقه الإسلامي، (هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي ؟).

٤٨٦- محمد حميد الله الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية (د. ت).

٤٨٧- محمد الخضر حسين: دراسات في العربيَّة وتاريخها، جمعه وصححه: علي الرضا التونسي، الناشر: المكتب الإسلامي، ومكتبة دار الفتح، دمشق: ط٢، ١٣٨٠ هـ-١٩٦٠ م.

٤٨٨- محمد الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الإسلاميَّة، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط٨، ١٣٨٢ هـ.

٤٨٩- محمد خليفة الدفاع: اللغة الفصحى رباط قومي (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة)، انظر: إبراهيم عبدالله رفيدة، اللغة العربيَّة....

٤٩٠- محمد خليل هراس: دعوة التوحيد (حقيقتها، الأدوار التي مرت بها، مشاهير دعاتها)، مصر: مطبعة الإمام، (د. ت).

٤٩١- محمد الدسوقي: الاستشراق والفقه الإسلامي، مجلة حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، جامعة قطر العدد (٥) سنة ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٤٩٢- محمد الدسوقي وأمية الجابر: مقدمة في دراسة الفقه الإسلامي، قطـر: دار الثقافة، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩٠ م.

٤٩٣- محمد الرابع الحسني الندوي: الثقافة الإسلاميَّة والواقع المعاصر، الإنسانية، القاهرة: دار الصحوة، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٤٩٤- محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلاميَّة، جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

٤٩٥- محمد الراوي: عالمية الدعوة، بيروت: الدار العربي، (د. ت).

٤٩٦- محمد رشاد خليل: ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة (الحضارة) العربيَّة قبل البعثة المحمدية (د. م): (د. ن)، ط١، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م.

٤٩٧- محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، القاهرة: دار المنار، ط١، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٤٩٨- محمد رشاد الخمراوي: النظريات المعجمية العربيَّة وسبلها في الإحاطة بالفكر العربي (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة)، انظر: إبراهيم عبدالله رفيدة: اللغة العربيَّة....

٤٩٩- محمد رشيد رضا: خلاصة السيرة المحمدية وحقيقة الدعوة الإسلاميَّة وكليات الدين وحكمه، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.

٥٠٠- محمد رشاد رضا: الوحي المحمدي، (د. م): (د. ن)، ط٢، (د. ت).

٥٠١- محمد سالم محيسن: أركان الإسلام في ضوء الكتاب والسنة وأثرها في تربية المسلم، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٥٠٢- محمد بن سعيد بن رسلان: فضل العربيَّة ووجوب تعلمها على المسلمين، القاهرة: دار العلوم الإسلاميَّة، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩م، والمدينة المنورة: دار البخاري (د. ت).

٥٠٣- محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة (دراسات منهجية علميَّة لسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وما تنطوي عليه من عظات ومبادئ وأحكام)، دمشق: دار الفكر، ط٧، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م.

٥٠٤- محمد السفاريني الحنبلي: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرة المضيَّة في عقيدة الفرقة المرضيَّة، تعليقات: عبدالرحمن أبابطين، وسليمان بن سحمان، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٥٠٥- محمد سويس: اللغة العربيَّة في مواكبة الفكر العلمي، (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة)، انظر: إبراهيم عبدالله رفيدة: اللغة العربيَّة....

٥٠٦- محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن الكريم، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٥٠٧- محمد السيد الوكيل: تأملات في سيرة الرسول ﷺ، جدة: الدار السعودية... ط ٣، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٥٠٨- محمد شريف M.M. SHARIF: الفكر الإسلامي، منابعه وآثاره، ترجمة: أحمد شلبي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٦٦ م.

٥٠٩- محمد الصادق عرجون: الأمة الإسلاميَّة كما يريدها القرآن العظيم، الرياض: الدار السعودية، ط٢، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٥١٠- محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٥١١- محمد بن صالح العثيمين: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، الرياض: دار الوطن، ط١، ١٤١٢ هـ.

٥١٢- محمد بن صالح العلي: المفهوم الإسلامي للأمة في مواجهة القومية، الرياض: كلية الشريعة، رسالة ماجستير من قسم الثقافة، ١٤١٦ هـ - ١٤١٧ هـ.

٥١٣- محمد بن صامل العلياني السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، الرياض: دار طيبة، ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٥١٤- محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط ١٩٧٩ م.

٥١٥- محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٩٧٨ م.

٥١٦- محمد بن طولون الدمشقي: إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ﷺ، تحقيق: محمود الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧ هـ.

٥١٧- محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية (في العلاقات الاجتماعية والدولية) الكويت: دار القلم، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٥١٨- محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في الإسلام، تعريب عبدالصبور شاهين، ومراجعة

السيد محمد بدوي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

٥١٩- محمد عبد الله دراز: الدين، الكويت: دار القلم، ط٢، ١٣٩٠ هـ-١٩٧٠ م.

٥٢٠- محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم: الكويت: دار القلم، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م.

٥٢١- محمد عبد الله دراز: موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها، مجلة لواء الإسلام، عدد (١١) السنة (١١) رجب ١٣٧٧ هـ، القاهرة.

٥٢٢- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، الكويت: دار القلم، ط٢، ١٣٩٠ هـ-١٩٧٠ م.

٥٢٣- محمد عبد الله السمان: العقيدة وقضية الأعراف، قطر: مجلة الأمة، العدد (٣٠) جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ - مارس ١٩٨٢ م، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية.

٥٢٤- محمد عبد الله الشرقاوي: الاستشراق دراسات تحليلية تقويمية (في الفكر الإسلامي المعاصر)، بيروت، دار الفكر العربي، (د. ت).

٥٢٥- محمد عبد الله عفيفي: النظرية الخلقية عند ابن تيمية، الرياض: مركز الملك فيصل، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٥٢٦- محمد عبد الله مليباري: المستشرقون والدراسات الإسلاميَّة، الرياض: دار الرفاعي، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٥٢٧- محمد عبد الخالق عضيمة: المغني في تصريف الأفعال، القاهرة: دار الحديث (د. ت).

٥٢٨- محمد عبدالرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف (معجم لغوي مصطلحي)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٥٢٩- محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، الكويت: دار البحوث العلمية، ط١، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م.

٥٣٠- محمد بن عبدالوهاب: الرسالة التاسعة (نواقض الإسلام)، إعداد وتصنيف: عبدالعزيز بن زيد الرومي ومحمد بلتاجي، سيد حجاب، الرياض: جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلاميَّة، (مطبوعات أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب).

٥٣١- محمد بن عبدالوهاب: مجموعة التوحيد (الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة)،

الرياض: شركة العبيكان للطباعة والنشر، (د. ت).

٥٣٢- محمد بن عبدالوهاب: مسائل الجاهليَّة التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهليَّة، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، ط٤، ١٣٩٧ هـ.

٥٣٣- محمد عبده: تفسير سورة العصر، بيروت: دار الكتاب الجديد، ط٢، ١٩٧٦ م.

٥٣٤- محمد عبود: منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي، (مناهج المستشرقين في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة).

٥٣٥- محمد عزة دروزة: القرآن والمبشرون: (د. م): المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٩٢ هـ-١٩٧٢ م.

٥٣٦- محمد عقلة: الإسلام دعوة عالمية ونظام متكامل للحياة، مجلة المنهل، العدد (٤٥٢) رجب ١٤٠٧ هـ.

٥٣٧- محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، بيروت: دار القرآن الكريم، ط٤، ١٤٠٢ هـ-١٩٨١ م.

٥٣٨- محمد علي الهاشمي: شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة،(د. م): مطبوعات الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية رقم (٤٢)، (د. ت).

٥٣٩- محمد علي الهاشمي: القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلاميَّة (ضمن السلام والحضارة ودور الشباب المسلم)، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٥٤٠- محمد عمارة: معالم المنهج الإسلامي، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٥٤١- محمد عمر بن سالم بازمول: الحقيقة الشرعية في تفسير القرآن العظيم والسنة النبوية، الرياض: دار الهجرة، ط١، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥ م.

٥٤٢- محمد عودة سلامة أبو جرى: مفهوم الأمة بين الجاهليَّة والإسلام، مجلة التربية، الصادرة عن اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، العدد (١٠٩) يونيو، ١٩٩٤ م.

٥٤٣- محمد عوض الهزايمة: التيسير في فقه العبادات، الأردن: دار عمان، ط ١، ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م.

٥٤٤- محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة، مدرجة في مجموع بعنوان (مؤلفات الشيخ محمد الغزالي) بيروت: دار الشروق، ط٢، (د. ت).

٥٤٥- محمد الغزالي: ظلام من الغرب، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط٢، ١٩٦٥ م.

٥٤٦- محمد فتح الله الزيادي: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، بيروت: دار قتيبة، ط١، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

٥٤٧- محمد فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، تركيا: المكتبة الإسلامية، ١٩٨٢ م.

٥٤٨- محمد قبيسي: القرآن الكريم، الوثيقة الأولى في الإسلام، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٥٤٩- محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، بيروت: دار الشروق، ط١، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٥٥٠- محمد قطب: واقعنا المعاصر، جدة: مؤسسة المدينة، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٥٥١- محمد كرد علي: أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربيّة، دمشق: مجلة المجمع العلمي العربي.

٥٥٢- محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربيّة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف...، ط٢، ١٩٥٠ م، وط٢، ١٩٦٨ م.

٥٥٣- محمد كمال جعفر: الإنسان والأديان، قطر: دار الثقافة، ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٥ م.

٥٥٤- محمد كمال عبدالعزيز: الوجيز في نظرية القانون، القاهرة: مكتبة وهبه ١٩٦٢ م.

٥٥٥- محمد لقمان السلفي: السنة (حجيتها ومكانتها في الإسلام والرد على منكريها) المدينة المنورة: دار الإيمان ط١، ١٤٠٩ هـ.

٥٥٦- محمد ماهر حمادة: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي (لأحمد سمايلوفتش) مجلة عالم الكتب، العدد (١) رجب ١٤٠٤ هـ - إبريل ١٩٨٤ م، (عدد خاص عن

الاستشراق)، الرياض.

٥٥٧- محمد المبارك: الأمة والعوائل المكونة لها، بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٣٩٥ هـ.

٥٥٨- محمد المبارك: بين الثقافتين الغربية والإسلامية، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م.

٥٥٩- محمد المبارك: دراسات أدبية لنصوص من القرآن، بيروت: دار الفكر، ط٤، ١٣٩٢ هـ-١٩٧٢ م.

٥٦٠- محمد المبارك: المجتمع الإسلامي، بيروت: دار الفكر، ط٤، ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩ م.

٥٦١- محمد المبارك: نحو إنسانية سعيدة، بيروت: دار الفكرية، (د. ت).

٥٦٢- محمد المبارك: نظام الإسلام (العقيدة والعبادة)، دمشق: دار الفكر، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

٥٦٣- محمد محسن البرازي: حول الفقه الإسلامي والفقه الروماني، مجلة الرسالة، العدد (١٠٨)، بتاريخ ٢٩ يوليو ١٩٣٥ م، القاهرة.

٥٦٤- محمد أبو زهو: الحديث والمحدثون (أو عناية الأُمَّة الإسلاميَّة بالسنة النبوية) بيروت، دار الكتاب العربي ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٥٦٥- محمد بن محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم، بيروت: دار الجيل، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٥٦٦- محمد بن محمد الأمين الأنصاري: منهج الدعوة الإسلاميَّة في البناء الاجتماعي على ضوء ما جاء في سورة الحجرات، الرياض: مكتبة الأنصار، ط١، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٥٦٧- محمد محمد الدهان: قوى الشر المتحالفة (الاستشراق، التبشير، الاستعمار) (د. م): (د. ن)، ط٢، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م، المنصورة (مصر): دار الوفاء، ط٢، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

٥٦٨- محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م.

٥٦٩- محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م.

٥٧٠- محمد محمود الصواف: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٧٩ م.

٥٧١- محمد محيي الدين عبدالحميد: عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام، لبنان: دار الجيل، ط٥، ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩ م.

٥٧٢- محمد محيي الدين عبدالحميد: منحة الجليل، بتحقيق شرح ابن عقيل بهامش شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ط٢، (د. م): (د. ن)، (د. ت).

٥٧٣- محمد مختار باشا: كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية، دراسة وتحقيق وتكملة، محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، ط ١، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٥٧٤- محمد مصطفى الأعظمي: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، الرياض: شركة الطباعة العربيَّة السعودية، ط٢، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٥٧٥- محمد مصطفى الأعظمي: كتاب النبي ﷺ، دمشق: المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٥٧٦- محمد مصطفى بن الحاج: عالمية اللغة العربيَّة، (من قضايا اللغة العربيَّة المعاصرة) انظر: إبراهيم عبدالله رفيدة: اللغة العربيَّة....

٥٧٧- محمد معروف الدواليبي: الحقوق الرومية وأثرها في التشريع الإسلامي، (هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي ؟).

٥٧٨- محمد مهدي شرف الدين: بين الجاهليَّة والإسلام، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٧ هـ.

٥٧٩- محمد بن يوسف الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤ هـ-١٩٩٣ م.

٥٨٠- محمد يوسف الكاندهلوي: حياة الصحابة، دمشق: دار القلم، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٥٨١- محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، الكويت: مكتبة الفلاح، ط٤، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م.

٥٨٢- محمد يوسف موسى: التشريع الإسلامي وأثره في الفقه الغربي، (د. م): دار القلم، ١٩٦٠ م.

٥٨٣- محمود حسين أبو الفتوح: معجم ألفاظ الحديث النبوي الشريف في صحيح البخاري، بيروت: مكتبة لبنان ط١، ١٩٩٣ م.

٥٨٤- محمود حمدي زقزوق: الإسلام في الفكر الاستشراقي للمستشرق الألماني جوستاف بفانموللر، أساسه مقال في مجلة حوليَّة كلية الشريعة والدراسات الإسلاميَّة بجامعة قطر، العدد (٢) لعام ١٤٠٢ هـ، وأدرجه في كتابه: الإسلام في تصورات الغرب، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٥٨٥- محمود حمدي زقزوق: الإسلام في الفكر الغربي (عرض ومناقشة)، الكويت: دار القلم، ط٢، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

٥٨٦- محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخليفة الفكرية، قطر، كتاب الأمة رقم (٥): ط١، ١٤٠٤ هـ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر.

٥٨٧- محمود حمدي زقزوق: الإسلام في تصورات الغرب، مصر: دار التوفيق النموذجية، الأزهر، ط١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ومصر: مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٥٨٨- محمود حمدي زقزوق: سيرة الرسول ﷺ في تصورات الغربيين لجوستاف بفانموللر، البحرين: مكتبة ابن تيمية ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٥٨٩- محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام، بيروت: دار الشروق، ط٧، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.

٥٩٠- محمود شيت خطاب: جعفر بن أبي طالب، مجلة البحوث الإسلاميَّة، العدد (٧)، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء.

٥٩١- محمود محمد بابللي: معاني الأُخُوَّة في الإسلام ومقاصدها، سلسلة دعوة الحق، العدد (٣٨)، السنة الرابعة جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م، مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي.

٥٩٢- محمود محمد شاكر: أباطيل وأسمار، القاهرة: مطبعة المدني، ط٢، ١٩٧٢ م.

٥٩٣- محمود محمد شاكر: الأمة، مجلة الفيصل، العدد (٦٨)، (مجلة ثقافية شهرية تصدر عن دار الفيصل، الرياض).

٥٩٤- محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، جدة: مطبعة المدني، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٥٩٥- محمود محمد الاستانبولي: نساء حول الرسول والرد على مفتريات المستشرقين، جدة: مكتبة السوادي، ط٤ ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م.

٥٩٦- محيي الدين حسن القضماني: مصطلحات إسلامية، بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.

٥٩٧- مذكرة حكومة المملكة العربيّة السعودية حول شريعة حقوق الإنسان في الإسلام وتطبيقاتها في المملكة، الرياض: وزارة الإعلام، ط٣، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٦ م، (وقائع الندوات الثلاث التي نظمتها وزارة العدل في المملكة في الفترة من ٧ صفر ١٣٩٢ هـ - ٢٢ مارس ١٩٧٢ م).

٥٩٨- مراد هوفمان: الإسلام هو البديل، مجلة النور، العدد (١٠٦) ربيع الأول ١٤١٤ هـ، الكويت: بيت التموين الكويتي.

٥٩٩- مرزوق بن صنيتان بن تنباك: الفصحى ونظرية الفكري العامي، الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

٦٠٠- مرعى مدكور: الإعلام الإسلامي وخطر التدفق الإعلامي الدولي، القاهرة: دار الصحوة، ط١، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨ م.

٦٠١- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: التنبيه والإشراف، بيروت: دار صادر، (مصور) عن طبعة ليدن بمطبعة برلين ١٨٩٣ م.

٦٠٢- مسفر بن سعيد بن دماس الغامدي: رحمة الله، أسبابها وآثارها، الرياض: مجلة البحوث الإسلاميّة، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء.

٦٠٣- مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي؛ (ت ٤٢١ هـ): تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، بيروت: دار مكتبة الحياة، ط٢، (د. ت).

٦٠٤- مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري؛ (٢٠٦ - ٢٦١ هـ): صحيح مسلم، تحقيق: محمد

فؤاد عبدالباقي، استانبول؛ تركيا: المكتبة الإسلاميَّة،... (د. ت).

٦٠٥- مصطفى إبراهيم الزلمي: فلسفة الشريعة، بغداد: دار الرسالة للطباعة، ١٩٧٩ م.

٦٠٦- مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، بيروت: المكتبة الإسلامي، ط٣، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٦٠٧- مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٦٠٨- مصطفى الشكعة: مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلاميَّة في الأندلس، (مناهج المستشرقين في الدراسات العربيَّة الإسلاميَّة) مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٦٠٩- مصطفى عمر حلبي: الخليفة الثقافية لاتجاهات المستشرقون في دراسة شخصية الرسول ﷺ، مجلة المنهل العدد السنوي عن الاستشراق والمستشرقين، ١٤٠٩ هـ.

٦١٠- مصطفى كمال وصفي: مدخل النظم الإسلاميَّة، القاهرة: عالم الكتب، (د. ت).

٦١١- مقداد يالجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط١، ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٣ م.

٦١٢- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ): إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة: لجنة التأليف،... ١٩٤١ م.

٦١٣- ملك غلام مرتضى: دائرة المعارف الإسلاميَّة بين الجهل والتضليل، ترجمة: محمد كمال علي السيد، باكستان: محمد زيد ملك لاهور، (د. ت).

٦١٤- المملكة العربيَّة السعودية: النظام الأساسي للحكم: المجلة العربيَّة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، (ملحق يضم أنظمة الحكم، مجلس الوزراء،...)، الرياض.

٦١٥- مناع القطان: التشريع والفقه في الإسلام (تاريخًا ومنهجًا) بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٦١٦- مناع القطان: الشريعة الإسلاميَّة (شمولها، عالميتها، ووجوب تطبيقها)، الرياض:

الدار السعودية للنشر، ط٢، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٦١٧- مناع القطان: العقيدة والمجتمع، الرياض، محاضرات البرنامج العام لقسم الثقافة الإسلاميَّة الرياض: كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، ١٤٠٠ هـ - ١٤٠١ هـ.

٦١٨- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، الرياض: مكتبة المعارف، ط٢، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٦١٩- مناع القطان: معوقات تطبيق الشريعة الإسلاميَّة، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٤١١ هـ-١٩٩١ م.

٦٢٠- مناع القطان: وجوب تطبيق الشريعة الإسلاميَّة والشبهات التي تثار حول تطبيقها، (ضمن مجموعة أبحاث قدمت لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة، ١٣٩٦ هـ في الرياض)، ونشرته: ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٦٢١- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد مكرم بن منظور الإفريقي المصري ٦٣٠ - ٧١١ هـ): مختارات الأغاني، بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٨٣ هـ-١٩٦٤ م.

٦٢٢- مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (دراسة تحليلية)، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة، ط١، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٦٢٣- موريس بوكاي: ما أصل الإنسان (إجابات العلم والكتب المقدسة)، ترجمة ونشره: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط ١٢.

٦٢٤- موريس بوكاي: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، القاهرة: الفتح للإعلام العربي، (د. ت).

٦٢٥- مؤلف مجهول: جواهر البيان في تناسب سور القرآن، بيروت: عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٦٢٦- مونتغمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة: حسين أحمد أمين، مصر، مكتبة مدبولي، ط١، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م، وبترجمة: جابر أبي جابر: أثر الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة على أوروبا، دمشق (سوريا: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي)، ١٩٨١ م.

٦٢٧- ميشال حجا: الدراسات العربيَّة والإسلامية في أوروبا، بيروت: معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٢ م.

٦٢٨- نادية شريف العمري: أضواء على الثقافة الإسلاميَّة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٦٢٩- ناصر بن عبد الله التركي: مفهوم الجماعة في الإسلام، الرياض: كلية الشريعة، رسالة دكتوراه، ١٤١٣ هـ.

٦٣٠- ناصر بن عبدالكريم العقل: دراسات تحليلية قدم بها كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)، (د. م): (د. ن)، ط١، ١٤٠٤ هـ.

٦٣١- ناصر بن عبدالكريم العقل: من تشبه بقوم فهو منهم، (الرسالة رقم ٦ من رسائل ودراسات في منهج أهل السنة)، الرياض: دار الوطن (د. ت).

٦٣٢- ناصيف نصار: مفهوم الأُمَّة بين الدين والتاريخ، بيروت: دار أمواج، ط٤، ١٩٩٢ م.

٦٣٣- ناصيف اليازجي: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، بيروت: (د. ن)، ط١، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٦٣٤- نالينو: نظرات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الرومي؛ ضمن (هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي).

٦٣٥- نايف بن ثنيان بن محمد آل سعود: المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، مع دراسة تطبيقية على دول الخليج العربي (دول مجلس التعاون)، (د. م): (د. ن)، ط١، ١٤١٤ هـ.

٦٣٦- نايف معروف: خصائص العربيَّة وطرائق تدريسها، بيروت: دار النفائس، ط٢، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٦٣٧- نبيل السملوطي: بناء المجتمع الإسلامي ونظمه (دراسة في علم الاجتماع الإسلامي) جدة: دار الشروق، ط٢، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

٦٣٨- نجيب العقيقي: المستشرقون، القاهرة: دار المعارف، ط٤، ١٩٨٠ م.

٦٣٩- الندوة العالمية للشباب المسلم: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة، الرياض: الندوة العالمية للشباب المسلم، ط٢، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م.

٦٤٠- ابن النديم: الفهرست، بيروت: دار المعرفة، (د. ت).

٦٤١- نذير حمدان: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، جدة: دار المنارة، ط٢، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٦٤٢- نذير حمدان: اللغة العربيَّة (بحوث في الغزو الفكري: المجالات - والمواقف)، جدة: دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة، ط ١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٦٤٣- نذير حمدان: مستشرقون (سياسيون، جامعيون، مجمعيون)، الطائف: مكتبة الصديق، ط١، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

٦٤٤- النسائي، القاضي الحافظ أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر ابن دينار الخرساني النسائي؛ (ت ٣٠٣ هـ): سنن النسائي، تحقيق: مكتب التراث الإسلامي، لبنان: دار المعرفة، ط٢، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٦٤٥- نشأة ظبيان: العالم المتفوق (منهج سلوكي متكامل، انتفت فيه الأثرة وتجلت كرامة الإنسان)، الرياض: دار العلوم، ط١، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٦٤٦- نظام الدين عبدالحميد: مفهوم الفقه الإسلامي (تطوره، وأصالته، ومصادره العقليَّة والنقليَّة)، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٦٤٧- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبدالله، (ت ٤٣٠ هـ): حلية الأولياء، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٦٧ م.

٦٤٨- أبو نعيم الأصبهاني، (ت ٤٣٠ هـ): دلائل النبوة، تحقيق: محمد رواس قلعجي، وعبدالبر عباس، بيروت: دار النفائس، ط٢، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.

٦٤٩- أبو نواس: ديوان أبي نواس، بيروت: دار صادر، (د. ت).

٦٥٠- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ): تهذيب الأسماء واللغات، بيروت: دار الكتب العلميَّة، (د. ت).

٦٥١- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري (٦٧٧ - ٧٣٣ هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف...، ١٣٧٤ هـ-١٩٥٥ م.

٦٥٢- هنري كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلاميَّة، ترجمة: نصير مروة وغيره، بيروت: منشورات عويدات، ط٢، ١٩٨٣ م.

٦٥٣- هوتسما، وفنسك، وكب وغيرهم (لفيف من المستشرقين): دائرة المعارف الإسلاميَّة،

(النسخة العربيَّة): ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبدالحميد يونس، القاهرة: دار الشعب، ط ٢، (د. ت).

٦٥٤- الواحدي: أسباب النزول، بيروت: عالم الكتب، (د. ط)، (د. ت).

٦٥٥- الواقدي، محمد بن عمر بن واقد، (ت ٢٠٧ هـ): كتاب المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، بيروت: عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٦٥٦- يحيى السيد النجار: دور الثقافة الإسلاميَّة، مجلة الأزهر، عدد محرم ١٤٠٥ هـ، يونية ١٩٩٤ م.

٦٥٧- أبو يعلى الموصلي: مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، بيروت: دار الثقافة العربيَّة، ط٢ ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.

٦٥٨- يوسف شاخت: الشريعة الإسلاميَّة (ضمن كتاب تراث الإسلام) ترجمة: حسين مؤنس واحسان صدقي العَمَد، مراجعة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، (د. م): (د. ن)، ط٢، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

٦٥٩- يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥ م.

٦٦٠- يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م.

٦٦١- يوسف القرضاوي: فقه الزكاة (دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة)، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢٤، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

٦٦٢- يوسف القرضاوي: مدخل لدراسة الشريعة الإسلاميَّة، القاهرة: مكتبة وهبة، (د. ت).

٦٦٣- يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربيَّة (من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأمويَّة): ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة وحسين مؤنس، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٥٨ م، وله ترجمة أخرى باسم الدولة العربيَّة وسقوطها ترجمة: يوسف العش، دمشق: الجامعة السورية، ١٩٥٦ م.

* * *

٩ - فهرس الموضوعات



تم بحمد الله


مطابع الجامعة